الهلال

يناير - فبراير ١٩٤٤



القصص

الهلال

الجزء الأول ـ السنة ٥٢

يناير وفبراير ١٩٤٤ ـ ٦ صفر ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :
دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt
(January - February 1944)

القصص

عدد خاص

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً في مصر والسودان و ٧٥ قرشاً في الخارج أو عنها ٣٫٧٥ دولار ١٥/٥ جنيه انجليزي

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50 — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3.75.

القصص

هذا هو الاسم الذى اخترناه لهذا العدد لنفتتح به السنة الثانية والخمسين . وقد شئنا أن يكون خاصاً بالقصة لننتقل بها قراءنا من حوادث الحياة العادية ، وشؤون الصراع الحربى الدائم الذى طال أمده حتى ضاقت به النفوس ، إلى جو آخر تستريح فيه أعصابهم ، ويتغذى خيالهم ، ويهدى إليهم طائفة من اللذة والمتعة

على أننا — كخطة الهلال — لم نبتعد عن الظروف الحاضرة ، وما يدور فيها من حوادث ، بل أردنا أن نصل الحاضر بالماضى ، ونمزج بين الماضى والحاضر ، فنقدم لقرائنا مجموعة مختارة من القصص الحديث والقصص القديم . وقد توخينا أن تكون متنوعة بقدر ما سمح به المقام ، ففيها القصة العربية ، والقصة الرومانية ، والقصة المصرية ، والقصة الروسية ، والقصة الحربية ، وقد ازدان هذا العدد بطائفة من الصور والرسوم المتقنة ، فكان تحفة العام الجديد

وإليك ما يحويه هذا العدد الممتاز

سقوط روما .... تحرير الهلال

احسان لله .... محمود تيمور

عبيد الله الحر .... فريد أبو حديد

الجلف .... ترجمة زكي طليمات

ضريبة الحياة .... ابنة الشاطئ

الجبهة السوداء .... تحرير الهلال

لوجاء هتلر .... تلخيص عبد الحميد عبد الغني

الامبراطورة تيودورة .... نقولا الحداد

سُقوط رُوما

الصفحات الاولى من تاريخ الصراع بين الالمان والايطاليين

آذنت الشمس بالاشراق على الاكمة الراية وسط السهل الفسيح ، حين وقفت الى جانبيها كتيبتان من الفرسان ، على رأس كل منهما قائد فى زى أجناده ، وفى طليعتها جماعة منها تحمل شعارها : فأما شعار احداهما فتمثال نسر صيغ من البرونز ، وأما شعار الاخرى فصورة مشوهة لرأس حيوان يشبه الثور . .



واقتيدت الأميرة بالأصفاد وسط جمع من شبان روما وأبنائها مصفدين بالأغلال ، إلى حيث زج بهم فى معسكرات التيوتون

وقفت الكتيبتان متقابلتين عند سفح الاكمة التي أشرف عليها رجل محايد لا ينتمي الى أي منهما ، ونادى الرجل في كل من الجماعتين نداء بلغتها ، فتقدم قائداها ومع كل منهما عشرة من رجاله الاشداء ، حتى اذا التقيا تبادلا التحية وفي صوت أحدهما رنة من اللباقة والدماثة ، وفي صوت الآخر طنين من الخشونة والجفاف

من الرجلان ؟ انهما قيصر زعيم الرومان ، وأريوفستوس زعيم التيوتون

ومتى كان ذلك ؟ قبل الميلاد بثمان وخمسين سنة

فهل عرف الرجلان يومئذ أن الخصومة القائمة بينهما هي الصفحة الاولى من سجل حافل بالخصومة والصراع والحروب مدى ألفين من السنين ؟ . . ومن يدري فقد لا تكتب الصفحة الاخيرة من هذا السجل أبدا ، ما بقيت على الارض شعوب متنافرة ، وما بقي في يد الانسان سلاح قتال ، وما بقي أمر الناس الى قوم يرون أمجادهم لا تقام الا من الاجداث والاشلاء ؟

وهل عرف الرجلان يومئذ أن الحديث الذي سيدور بينهما فوق تلك الاكمة القائمة في أرض فرنسا ، هو نفس الحديث الذي سيدور بين أخلافهما أجيالا في اثر أجيال ؟ هل عرف أريوفستوس أن بعد ألفين من السنين سيقوم رجل من قومه فيعيد على سمع العالم ما قال في ذلك اليوم السحيق عن تفوق جنسه على سائر الاجناس وحقه في حكم العالم جميعا حكم السادة للعبيد ، وعن اغرائه خصمه بأن يشاطره وزر العدوان على الشعوب الضعيفة واقتسامها بينهما غدرا وتآمرا ، وعن بثه في صفوف عدوه من الدعاة والعيون من يوهنون قوته ، ويفلون عزمه ، ويضللون سعيه ، أملا في وعود خادعة ، أو رهبة من قوى غشوم ؟

سجل قيصر ما جرى بينه وبين خصمه أريوفستوس من الحديث في ذلك اليوم ، فاقرأ ما جرى :

قال قيصر : « يا أريوفستوس ، ان قبائلك الهائجة على حدود امبراطوريتا أثارت ضروبا من الفتنة ، وأشاعت ألوانا من الفزع بين الرومان ، ومع هذا قابلنا هذه السيئات بالعرف والحسنى دهرا طويلا ، لم نشأ أن نلقى قبائلك بادىء الأمر بالعنف والقسوة ، بل سالمناها وهادناها وصبرنا على أذاها كثيرا . ثم حاولنا أن نستميلها ونستميلك الينا بتلك الهبات السخية التي أغدقتها عليك روما ، اذ اعترفت بك ملكا ، ومنحتك شرفا قلما منحته ، وهو اعتبارك صديقا للشعب الروماني . ولكن هذا كله لم يجد نفعا ، فهجرت موطنك وزحفت الى أرضنا ، نزلت أرض الغال وهي جزء من بلادنا ، وأسأت الامر في قبائل « الايدوى » وهي حليفتنا منذ عهد بعيد . فرجائي اليك يا أريوفستوس أن تبرح أرضنا بكتائبك الى شرق نهر الرين ، وأن تعيد الى قبائل « الايدوى » ما أخذته من أبنائها وبناتها من الاسرى والرهائن »



وهبت بلاسيديا جارية في معسكر التيوتون ، تطوف بدنان الخمر على جنودهم السكارى
المعربدين الذين ليس لهم من الدين أو الخلق ما يردعهم عن المنكر أو يحجزهم عن الفاحشة

فأجابه أريوفستوس فى صوت أجش له دوى وطنين ، وفى عبارة خشنة فيها اثارة واستفزاز ، وبكلام أعده من قبل تبريرا لعمله ، واغراء لخصمه ان كان لينا ضعيفا ، وتهديدا له ان كان صلبا عنيدا . قال :

« اننى لم أعبر الرين ولم أهبط أرض الغال من تلقاء نفسى . ان سكان الغال هم الذين استنجدوا بى لاخلصهم مما تنزلون بهم من العسف والأذى ، فاستمعت لندائهم واستجبت لرجائهم ، وتركت وطنى وقومى وجئتهم منقذا ومخلصا . أليس من حقى أن أنقذهم وأخلصهم ، فان لى خطة فى حكم الشعوب أشرف من خطتكم ، فيجب على أن اتخذها فى حكم ما حولى من الشعوب المستضعفة على أمرها ؟

« وليس فى وسع قبائل الغال أن تنكر انها هى التى دعتنى اليها بمحض ارادتها . أما ان قامت اليوم تناوئنى وتقاومنى ، فلا بد أن يكون ذلك باثارتكم وتحريضكم اياها

« وانى أرى شرفا عظيما فى صداقتى للشعب الرومانى . ولكن اذا اقتضتنى هذه الصداقة تضحية حقوقى ومطالبى وأمانى ، فانى أرفضها أشد الرفض ، وأنكرها كل الانكار

« ومع هذا فانى أعرض عليك عرضا : اتركنى أفتح هذه البلاد وأسودها حرا طليقا ، أعنك بجنودى وسلاحى على الظفر فى كل حرب تزمع اقامتها ، وعلى غلبة كل شعب تنوى اخضاعه . أما ان رفضت عرضى هذا السخى الكريم ، فانى أعدك عدوا يحق لى ويجب على حربه وكفاحه

« وبعد ، فتذكر يا قيصر أننى حين أقضى عليك فى الحرب بالهزيمة ، سيقوم فى روما جمع من أقوى رجالها بأسا وأعظمهم شأنا ، فيولوننى تأييدهم ومؤازرتهم . اننى أعلم هذا علم اليقين ، أقضى به الى من بعثوا بهم الى من الرسل والعيون ، ليعرضوا صداقتهم اذا هزمتك وقضيت عليك . ولكنى أوثر صداقتك على صداقتهم ، فاقبل عرضى هذا وعد بجندك ودعنى وقبائل الغال

« هذا قولى اليك يا قيصر ، ولك ان تختار . . »

ولما هم قيصر بأن يرد على كلام أريوفستوس جاءه من جنوده من ينبئه بأن سهام العدو وأحجاره أخذت تتساقط على معسكرهم ايذانا بأن رحى الحرب قد دارت . فلوى قيصر عنان جواده ، وعاد الى رجاله يقودهم الى القتال ، بل الى الدفاع . ودارت المعركة يومين عاد بعدهما أريوفستوس يقترح الاجتماع مع قيصر مرة أخرى ، منذرا بأن هذا هو اليوم الأخير من عهد السلام ، فاما أن يستجيب خصمه لرغبته ويذعن لارادته ، واما الحرب التى لا تبقى ولا تذر . . وقد رد قيصر على هذا بأن أوفد الى خصمه اثنين من ضباطه الشبان يبحثان معه الامر ، فلم يكن من أريوفستوس الا أن ألقى فى أيديهما الحديد ، وعدهما عيونا جاءوا يسترقون الاخبار

أرأيت الى « توهرر » ما قبل الميلاد : يغزو قوما آمنين فى ديارهم بحجة أن من حقه ومن واجبه أن يحكمهم بطريقة أشرف من التى يحكمون بها ، ويغرى خصمه بأن يدع له هؤلاء القوم ضحية سهلة مقابل أن يعينه على اخضاع غيرهم من الاقوام المغلوبة على أمرها . ثم ينذر خصمه بأن له فى قومه « كويسلنج » يعرض عليه صداقته ومؤازرته ان هو قهر قومه وفتح وطنه وقضى على زعيمه . ثم يدير رحى القتال ويوقد نار الحرب وهو ما زال يتحدث الى خصمه حديث المهادنة ويعرض عليه شروط السلام !

ودارت المعركة بين الرجلين . وهزم أريوفستوس هزيمة منكرة ، فقدر بلوتارك عدد من قتل من التيوتون بثمانين ألف رجل . ولم ينج أريوفستوس الا بعد أن وقعت زوجتاه وابنته أسيرات فى أيدى أعدائه . وعبر الرين مشرقا فى قارب الى حيث انتهى أمره الى غير رجعة ، ولا يعرف التاريخ كيف ختم الزعيم التيوتونى أيامه الأخيرة بعد أن ظل عشرين سنة ذائع الصيت فى أرجاء العالم ، يبث فيها الفتنة ، ويشيع الخوف ، ويقيم المعارك ، ويغير على الآمنين ، ويلقى الوعود ليخلفها ، ويقدم العهود لينقضها .

حدث هذا منذ ألفين من السنين . أفرأيت شيئا تغير طوال هذه العصور سوى الأسماء؟

□

لم تكن هذه الموقعة التى ظفر فيها قيصر وانهزم أريوفستوس أول معركة ولا آخر معركة بين الرومان والتيوتون . فقبل ذلك بخمسين سنة ، فى سنة ١١٣ ق . م . روعت ايطاليا بأنباء رهيبة تركتها نهبا بين الظنون والمخاوف . فان الرومان الذين عاشوا جنوب جبال الألب دهورا طويلة ، آمنين مستقرين ، منصرفين الى حضارتهم يقيمون دعائمها بالتشريع والتنظيم ، والى امبراطوريتهم يوسعون جوانبها بالفتح والاستعمار ، أخذوا الآن يرون هذه الجبال الشاهقة لا ترد عنهم عادية التيوتون الذين تجمعوا وراءها فى جيش لجب رهيب ، وأخذوا يتأهبون لتسلق سفوحها ثم الانحدار من قممها الى حيث يقعون على سكان السهل وقوع الجوارح على فرائسها . وكانت الأنباء مروعة مخيفة ، فقد وصفت هؤلاء الأقوام بأنهم شبه عراة من اللباس ، وبأن شعورهم بيضاء كشعور العجائز ، وبأن عددهم يبلغ مئات ومئات من الالوف ، وبأنهم لا يأتون ليحاربوا ثم يعودوا الى بلادهم ، بل يأتون ومعهم نساؤهم وأطفالهم ودوابهم وأمتعتهم . وكانت الانباء مروعة مخيفة حين علم الناس أن لهؤلاء القوم من أسلحة القتال ومن فنون الحرب ما لا عهد ولا قبل لهم به ، من سيوف مرهفة طويلة ، ومن دروع تغطى قامة الرجل كلها ، ومن أنهم يربطون جنودهم بعضا ببعض بحبال غليظة ، فتجعل منهم صفوفا متراصة لا ثغرة فيها ، ولا قبل لجندى بأن يتخلف عن مكانه فيها . على أن أروع ما نقلته هذه الانباء هو أن نساء هؤلاء القوم يسرن وراء الرجال ، يصحن صيحات مدوية منكرة تثير نخوتهم وتستفز حميتهم

وتدفع بهم الى الوغى فى حماسة وسعار . أما من يقع أسيرا فى أيدى هؤلاء الجنود فيدفع به الى أولئك النساء ليغمدن فيه المدى والخناجر ثم ليقطعن جسمه شلوا شلوا ، ثم ليأخذن جمجمته فيقرأن فى عظامها صفحة المستقبل ويتنبأن عن الغيب المجهول !

هذه هى قبائل التيوتون والكمبرى التى جاءت من شمال ألمانيا وشرقها ، مجتاحة الآفاق التى تترامى بين أنهار الفستولا والاودر والآلب ، متجهة الى ما وراء الآلب ، الى روما قلب العالم ومدينة الذخائر

ولكن ماريوس ، عم قيصر ، لاقى هذه القبائل وهزمها ، وردها مدحورة الى ما وراء الجبال . فهل انتهى أمرها ؟ كلا ، بل أعادت الكرة بعد خمسين سنة ، بل ظلت تمدها جيلا اثر جيل ، حتى وقعت روما فى يدها

لماذا ترك هؤلاء القوم موطنهم وجاءوا يغزون أوطان الناس ؟ أضاقت بهم أرضهم فزحفوا الى الجنوب يلتمسون « مجالا حيويا » يرتعون فى فضائه الفسيح ؟ كلا ، ان آفاق موطنهم لم تضق بهم ذرعا ، ولكنهم أرادوا موطنا أخصب أرضا ، وأوفر خيرا ، وأرضى عيشا ، هم الذين ضاقوا بوطنهم ، ببرده القارس ، بنباته الضئيل ، بماشيته العجفاء ، بخمره المرة المذاق . وقد سمعوا فى أقاصيصهم أن الى الجنوب من تلك الجبال التى تتعالى الى السماء مغطاة بالادغال معممة بالثلوج هائمة بالذئاب والضوارى ، بلادا تشرق عليها الشمس أبدا ، فتزكو فيها الاشجار ، وتطيب الثمار ، وتسمن الانعام ، وتحلو خمرة الكروم . لا ، ليس هذا فحسب ، بل فيها تستريح الابدان من عناء الطبيعة الجاهدة ، فالطعام غذى شهى ، والشراب سائغ روى ، والارض بهما تسخو وتجود

لماذا يستأثر قوم دونهم بهذه الارض وبهذه الشمس وبهذه الخيرات؟ فليأخذوا لانفسهم هذا كله ، وليأخذوه بالسلاح ، وليعدوا أنفسهم ليكونوا قوم حرب وجلاد ، وليجعلوا ايطاليا غايتهم المرتجاة ، وروما هدفهم المنشود

وهكذا غدت قبائل التيوتون ولا هم لها ولا عمل الا الحرب ، اتخذوها عملا يمارسونه ، وغرضا يتقنونه ، ومجدا يباهون به سائر الاقوام . وتركوا فلاحة الارض ورعى الانعام لنسائهم ، أما رجالهم فلا يليق بهم الا حمل السلاح . انهم يقاتلون عاما ويستريحون عاما ، ولكنهم فى عام السلم لا يسمرون الا فى حلقات المبارزة يخضبونها بالدماء . انهم يزدرون كل من لا يلبس شكة الجندى ، ولا يقدرون الا من شحذت السيوف والرماح وجهه ورأسه . وانهم لا يتغنون الا بأغانى الحرب ، ولا ينشدون الا أناشيد الفروسية ، فالحرب مهنتهم ، يتساوى فى ذلك شعراؤهم وقصاصوهم ومغنوهم ورجالهم جميعا . والصورة التى تتراءى لهم فى خيالهم هى صورة الفرسان الهائمين على جيادهم فى الفيافى والادغال ، ممتشقين السيوف مفوقين السهام ، وهم يهزجون بأناشيد



ولما البطل سنجيرك جواده فى حفلات عرش جوته ، سارت
لاستقباله أمام الجواد فى جمع من الأسرى والرهائن مكبلين بالأصفاد

الصراع والقتال . فهم على الجملة قوم خلقوا للحرب : حرب الهجوم لا حرب الدفاع، الحرب التى يثيرها المعتدى الباغى ، لا الحرب التى تفرض على الوادع والمهيض

وتنقضى سنون وقرون وتاريخ أوربا ليس الا سلسلة من المعارك المتصلة بين القوتين : الرومان والتيوتون . وتكون الغلبة لهؤلاء حينا وتكون لاولئك أغلب الاحيان . على أن الطريف فى هذه المعارك أنها صور مصغرة للحرب القائمة فى يومنا هذا . فتجد فى سيرة التيوتون فى ذلك التاريخ السحيق ما تجده اليوم فى سيرة خلفائهم الالمان . فالدافع الذى سير الالمان غربا الى فرنسا وشرقا الى روسيا ، لم يكن ضيق ألمانيا بهم ، بل كان ضيقهم هم بألمانيا . فأخذوا يلتمسون أرضا ، أو « مجالا حيويا » على حد تعبيرهم الحديث يعيشون فيه عيشة أرغد وأرخى . وهذا الذى يأتيه الالمان اليوم من أوزار وآثام فى الشعوب التى تقع تحت أيديهم قد أتى أجدادهم وأسلافهم مثله فى الشعب الرومانى حين ظفروا به ودخلوا عاصمته روما . وكذلك تلك الكارثة التى نزلت بالشعب الالمانى فى أواخر الحرب الماضية ، والتى توشك أن تحل به فى هذه الايام — كارثة تحطم الروح المعنوى ، وتمرد الشعب على قادته ، وشيوع الفرقة فى صفوفه وما تزال الحرب دائرة — هذه الكارثة ذاتها كانت تحل بالتيوتون فى أيامهم الغابرة ، فتضيع عليهم ثمرة النصر وقد أوشكوا ان يجنوها،

وتوردهم مورد الهزيمة وكانوا يبدون أنهم عنه بعيدون

فهذه المعركة التى دارت فى غابة توتوبرج فى السنة التاسعة بعد الميلاد تظهر جانبا من الروح الالمانى . فقد أراد الامبراطور الرومانى أوغسطوس أن يحذو حذو قيصر فى تدعيم أركان الامبراطورية ويحصن حدودها . وكان همه منصرفا الى حدودها الشمالية حيث تهيم تلك القبائل التيوتونية متربصة بها الدوائر . فأخذ يسور تلك الحدود الممتدة من بحيرة جنيف الى البحر الاسود ليرد عادية التيوتون ، ويؤمن الرومان شرهم الوبيل . ولكنه أخطأ من ناحية أخرى ، فاتخذ فى قصره عددا من شبان التيوتون وامرائهم جنودا وحراسا ، وأغدق عليهم من عطائه ما حسب أنه يكفل صدقهم واخلاصهم . وكان منهم شاب يدعى هرمان ، أو أرمنيوس فى لغة الرومان ، فجعل هذا الشاب يسترق أخبار الجيش الرومانى ، ويتعرف الى خططه وأساليبه ، وأسلحته وعتاده ، ليوقع به حين تحين له الفرصة . وكان يضمر الغدر والخيانة ويتظاهر بالصدق والولاء ، فلما زحف الجيش الى الشمال ليخمد فتنة قائمة ، غرر هرمان بقائد الجيش ووجهه الى غابة توتوبرج حيث أعد له كمينا من رجاله التيوتون ، فظهروا للجيش الرومانى على حين غرة تحت جنح الظلام ، وأعملوا فيه سيوفهم وخناجرهم فأفنوا رجاله على بكرة أبيهم

لم تكن هذه معركة ، بل كانت مذبحة ، ولم يكن هرمان جنديا شريفا ، بل خائنا غادرا . ومع ذلك فما زال الالمان يعدون هرمان بطلا من ابطال تاريخهم ، يلتمسون فى سيرته المثل والقدوة ، ويلقونها على أولادهم وتلاميذهم فخرا يذكر ودرسا يحتذى

ولقى هرمان جزاءه ، وكان الجزاء من جنس العمل ، خسة وخيانة ، فان ابن عمه سيجستوس أراد أن يتقرب الى الرومان بأن يثأر لهم من هرمان . ولم يكن له من سبيل على هرمان ، غير أنه كان متزوجا من أخته . فماذا فعل ؟ قدم للرومان زوجته هذه انتقاما من أخيها هرمان . وكان الرومان حينذاك فى طور من أطوار الانحلال الخلقى ، فأقروه على فعلته وكافأوه . وبينما كان سيجستوس فى حفل من حفلات الرومان جالسا بين أشرافهم يعبث ويلهو ، كانت زوجته هذه تسير أمامه وأمام الجمع الحاشد ، مكبلة بالاغلال وقد تعلق بصدرها ابنها من سيجستوس ، وكانت وضعته وهى فى غيابة السجن !

هذه قصة من قصص الخيانة المزدوجة التى تكررت فى تاريخ القوم مرارا . فكثيرا ما انتصروا فى الحرب بما أوتوا من أوزار الغدر ، وكثيرا ما ضيعوا ما كسبوا بأوزار الخيانة

ظلت هذه القبائل التيوتونية الهائمة فى شمال الامبراطورية الرومانية تتربص بها الدوائر ، وتترقب اليوم الذى تعبر فيه جبال الألب الى روما . فلما أخذ ظهر العملاق

الروماني يتقوس وينحنى تحت اعباء الشيخوخة الفانية ، أخذت أسراب البيوتون تتجمع وتتأهب لتثب وثبتها على روما العجوز

وكان امبراطور روما حينذاك ، هونوريوس ، غلاما غرا لاهيا . كان لا يدرك مدى هذه الاخطار الرهيبة التى تحف بالامبراطورية من كل جانب ، وتزحف اليها من كل طريق . وكان لا يدرك أنه يحيا وسط أتون من الدسائس والمكائد والمؤامرات يوشك أن تتقد ناره ويفور سعيره بين عشية وضحاها . وكان لا يدرك أن هؤلاء البيوتون وان لم يأخذوا بنصيب من الحضارة والسياسة أبرع الناس فى بث العيون ونشر الدعاية



واقامة الفتن وبلبلة الافكار . وكان الى هـذا كله لا يدرك أن روما ، وقد أوهنها الترف المسرف والثراء الباهظ ، قد آن عليها أن تسلم الامر لاقوام اتخذوا الحرب مهنتهم ، والخشونة شعارهم ، والغلبة هدفهم ، وحكم الشعوب المستضعفة غايتهم القصوى . ومع هذا كله فان ذلك الشاب السادر اللاهي كان يتولى أمر امبراطورية تضم ايطاليا وفرنسا واسبانيا وأفريقيا ومصر وألبانيا واليونان

وهكذا آن للتيوتون أن يحققوا أملهم الذى جاهدوا وحاربوا له طويلا . آن لهم أن يضعوا أيديهم على روما وما فيها من كنوز تجمعت لها على مر الاجيال من تلك الاقاليم الغنية التى بسطت عليها سلطانها دهرا طويلا . فأجمعوا أمرهم على أن يزحفوا الى روما من أيسر الطرق المؤدية اليها . ولم يكد ينتهى القرن الرابع حتى هبطت جموعهم من مواطنها فى ألمانيا زاحفة الى سهول البلقان ووهادها . وعبر هؤلاء « البرابرة البيض » نهر الطونة فى جموع حاشدة تحت امرة قائدهم « ألرك » وهو قائد قوى المراس ، بارع القيادة ، مسرف القسوة . وزحفت هذه الجموع وعاثت فى تلك الآفاق ، تسبقها روايات عن قوتها الضخمة وقسوتها المنكرة ، فلا يملك الناس من أمرهم الا أن يفروا من قراهم وبيوتهم ، هائمين على وجوههم على غير قصد معروف ، تاركين لاولئك الجنود ديارهم يحرقونها ، وماشيتهم يذبحونها ، وأمتعتهم يحملون منها ما يريدون

وكان أول اقليم ذل تحت أقدام هؤلاء البرابرة اقليم اليونان ، حيث نزلوا به سهلا لا يلقون فيه جيشا يصدهم أو عدوا يناوئهم . فماذا فعلوا فيه ؟ يقول المؤرخ « جيبون » فى هذا : « لقد ذبحوا الرجال والشبان الذين هم فى سن تمكنهم من حمل السلاح وخوض القتال . وسبوا النساء والفتيات الجميلات ، وغنموا ما فى القرى من ماشية ومتاع ، ثم تركوا بيوتها نهبا للنار »

كانوا أرجالا من الجراد ، تهبط على الارض الغنية المزدهرة قليلا ، فلا تدعها الا قفرا يبابا . ولم يكونوا يحجمون عن العسف والفساد ولو خرج لهم الناس عن كل ما يملكون من متاع ومال . وقد مر بمدينة أثينا غداة أن تركها التيوتون أحد المؤرخين ، فكتب فى وصفها : « انها تشبه الفراء التى تكسو ماشية نهش كل ما فيها من لحم ، ودق كل ما فيها من عظم ، وسفح كل ما فيها من دم »

وأخذ ألرك طريقه الى « روما » وهو ينشر الرعب ويخلف الدمار أينما حل وأينما سار ، حتى هبط شمال ايطاليا سنة ٤٠٢ ، وتقدم فى سهول فينيسيا حتى وقف على أبواب ميلان ، حيث كان يقيم الامبراطور الشاب هونوريوس . ولم يكن ثمة ما يعنى الامبراطور الا أن ينجو بنفسه فلاذ بالفرار الى سويسرا ، حيث أقام فى احدى قلاعها . ولكن ميلان لم تعدم رجلا من أبنائها ينهض للدفاع عنها ، وهو القائد سيليتشو الذى قاوم التيوتون

طويلا ودحرهم في معارك شتى . ولكن خصومه من بني قومه تآمروا به وتألبوا عليه ، حتى أوقعوه في حبائل ألرك ، فأزهقت روحه وهو لائذ بكنيسة اعتصم بها ومن بقي معه من جنوده . وكان قتل هذا القائد الحربي آخر عقبة في طريق ألرك الى روما ، فتقدم اليها في جيش بلغ زهاء خمسمائة ألف نسمة

وكانت أخت الامبراطور ، الاميرة بلاسيديا ، أثبت من أخيها جنانا ، وأحفل منه قلبا ، فلم تلذ بالفرار كما لاذ ، بل بقيت في روما مع قومها تنتظر مصيرها المحتوم . وكانت المدينة مسورة بالاسوار المنيعة محصنة بالقلاع الشاهقة ، وقام جنودها على منافذها ومشارفها متأهبين للقاء الغزاة

ولم تكن أقدام التيوتون قد وطأت من قبل أرض روما الا أقدام من وقع منهم في المعارك السابقة أسيرا . أما اليوم فهاهم على أبوابها يزمعون اقتحامها غزاة وأسيادا . ولم يكن لهم من قصد اذ يدخلونها الا أن ينهبوا ما فيها من كنوز وأموال ، وأن يسلبوا أهلها ما يملكون من متاع ، والا أن يشبعوا نهمهم ويرووا غلتهم من نسائها وفتياتها .. فهذا كل ما كانت تتسع له العقلية التيوتونية : أما الشرائع الرومانية ، أما الاخلاق المسيحية ، أما الفنون والآداب والفلسفات ، فكل ذلك لا يعنيهم كثيرا أو قليلا ، وانما هم جياع ظماء يريدون طعاما وخمرا ، انهم في عسر وضيق ويريدون ذهبا وفضة ، انما هم جياع ظماء يريدون أبدانا يعتصرونها شهوة ومتاعا ، بل تنكيلا وتعذيبا

وكان ألرك يعلم أن روما لم تتأهب للصمود طويلا ، فضرب عليها الحصار وحال دون وصول الطعام الى أهلها . وأقام وسط نهر التبر سدا فأغلق في وجه المدينة هذا الباب الذي يصلها بما حولها . وأقام الى جوار المدينة معسكرات جنوده ، وانتظر استسلامها بعد قليل . واشتد الامر بسكان روما ، فثقلت عليهم وطأة الجوع والضيق ، وتفشى فيها الوباء وكثر بينهم الموتى ، وشاع فيهم اليأس والقنوط ، ولم يكن بد من التسليم والاذعان . فاجتمع مجلس الشيوخ في المدينة ، وقرر ايفاد اثنين من رجاله الى ألرك يفاوضانه في شروط الهدنة

وقدم الرسولان الى معسكر ألرك ، وأرادا أن يتظاهرا بأن في وسع المدينة أن تصمد وتقاوم طويلا ، ليخففا من غلوائه فيما يفرضه من الشروط . قالا له ان حصون المدينة ضخمة منيعة ، وأسوارها شاهقة سميكة ، فلا سبيل الى اقتحامها . فأجابهما في سخرية قاسية : « كلما كانت كومة الهشيم كبيرة سرت فيها النار سريعا » . ثم أملى عليهما شروطه وهي أن يسلم اليه كل ما في المدينة من الذهب والفضة والمال والجواهر ، وكل ما فيها من أثاث وصور وتماثيل ، وأن يطلق سراح كل من وقع في يدها أسيرا من أبناء القبائل التي تسكن وراء نهر الطونة ، وطلب الى هذا كله مبلغا ضخما من المال تدفعه له في كل عام

ولم يصدق الرسولان أذنيهما فيما سمعنا ، فسألاه في صمت وخشوع : « وماذا يبقى لنا بعد هذا ؟ » . فقال : « حسبكم حياتكم أتركها لكم »

ولم يكن بد من الاذعان لهذه الشروط ، ولكن كان ثمة شرط أقسى من ذلك كله . فقد أبى ألرك أن يرفع الحصار عن المدينة الا بعد ان يضع يده على نفر من أبناء الاشراف وبناتهم ، يتخذهم رهائن ريثما تنفذ الشروط التي أملاها . وكان في مقدمة هذه الرهائن أخت الامبراطور الاميرة بلاسيديا . وهي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ، بارعة الحسن فاتنة الجمال . ورضخ أهل روما وأذعنوا ، فاقتيدت الاميرة وسط جمع من شبان روما وفتياتها ، مصفدين بالاغلال ، الى حيث زج بهم في معسكرات التيوتون

ودخل ألرك المدينة الخالدة ، فكان أول تيوتوني يضع قدمه فيها غازيا . على أنه كان على شيء من الشهامة والثقافة ، فتعلم من الرومان بعض أخلاقهم وعاداتهم ، تعلم منهم الاستحمام بالماء الساخن ، وتعلم منهم حلق اللحية بالموسى . وكذلك كسر حدة أتباعه المتبربرين الذين أرادوا ان يعملوا أيديهم في كنوز المدينة، وخناجرهم في رجالها ونسائها، وأحسن معاملة الاميرة بلاسيديا ، دون أن يطلق سراحها

ولما رفع الحصار عن المدينة وأبيح ارسال الطعام الى أهلها الجوعى ، دخلتها آلاف من العربات محملة بالطعام ثم خرجت منها محملة بما في المدينة من روائع الآثار ونفائس الكنوز . بل ان كنوزها الاثرية المصوغة من الذهب صهرت وأذيبت لتوزع بين هؤلاء الجنود المتبربرين أجورا ورواتب لهم

ولما نال ألرك ما أراد ، وما كان يريد سوى كنوز روما وأموالها ، اقترح على الامبراطور هونوريوس عقد معاهدة تحالف . وكان الامبراطور يبتغي السلامة ويؤثر العافية بأي ثمن كان ، وكان لا يعنيه من أمر الدولة شيء لا يتصل بأهوائه ولذاته . حتى قيل ان أحد رجاله دخل عليه ذات يوم فزعا وقال : ان الجرمان استولوا على روما . فانتابت الامبراطور نوبة من الحزن العميق ، وقال وهو ينشج بالبكاء : لقد كانت سليمة منذ ساعات ! فلما دهش الرجل من هذا الكلام أوضح ما يريد بكلمة روما . فلم يلبث أن سرى عن الامبراطور ، اذ علم أن التي وقعت في قبضة الجرمان هي روما عاصمة الامبراطورية ، وليست دجاجته المحبوبة التي كان يسميها « روما » !

ولما تم لالرك اخضاع ايطاليا شرع في غزو صقلية لينتقل منها الى أفريقيا ومصر . ولكنه أصيب بحمى شديدة قضت عليه بعد أيام ، فدفن في قبر فسيح يتسع له ولمجموعة كبيرة من الكنوز والاسلحة وضعت حول جثته طبقا لعقائده الوثنية . وبعد أن دفن الميت ذبح كل من اشترك في حفر القبر ورؤيته ، حتى لا يعرف أحد من الاحياء موضع القبر ، فتبقى كنوزه بنأى عن يد اللصوص أبد الآبدين



ميدان القديس بطرس فى روما حين اجتاحت المدينة أسراب التيوتون

وخلف ألرك زوج ابنته القائد أتولفوس ، فتولى زعامة القبائل التيوتونية ، كما تولى مهمة استئناف فتح اقاليم الامبراطورية الرومانية . وكانت الاميرة بلاسيديا لا تزال ترسف فى أصفاد الاسر ، ففرض عليها أتولفوس الزواج ، بعد أن بثها حبه وهواه . ولم يحدث من قبل أن تزوجت أميرة رومانية من رجل متبربر ، ولكن بلاسيديا احست ان أتولفوس يخلص لها الحب ، ورجت أن يفيد قومها من وراء زواجها خيرا ، فيحسن زوجها معاملتهم ويخفف من غلواء قومه فى علاقتهم بالرومان والواقع أن الاميرة أحست انها تحب هذا القائد ، فرضيت بالزواج ، ووافق أخوها الامبراطور ، خشية ورهبة . وتم الزواج فى حفل باذخ عظيم ، وأجلسها زوجها يومئذ على عرش أعلى من عرشه اظهارا لحبه وتقديره . وأهداها ليلة عرسها خمسين من أجمل وأروع شبان القبيلة وفتيانها، وفى يد كل منهم صرتان ، احداهما ملأى بقطع الذهب ، والاخرى بقطع من الاحجار الكريمة النادرة . ولم تكن هذه الهدية على أى حال الا جزءا يسيرا مما ابتزه المتبربرون من ذخائر المدينة الخالدة

وعاشت بلاسيديا مع زوجها بضع سنين حافلة بالحب موشاة بالنعيم . وكان له من

زوجه السابقة خمسة أولاد ، ولكن هذا لم يمنعه من البكاء طويلا حين مات ولده من بلاسيديا بعد ولادته بساعات . ونسيت بلاسيديا فى حياتها الجديدة الهانئة ما قاسته من قبل من ذل الاسر وهوان الرق . ولكن القدر كان يخبىء لها أمرا . فذهبت مع زوجها فى رحلة الى اسبانيا . وكان قد قتل أحد أشرافها ، فنقم عليه تابع هذا الشريف ، وتربص به ذات يوم اذ كان فى حظيرة خيوله ، وطعنه فى ظهره بخنجر أرداه قتيلا

وخلفه سنجيرك ، وكان يكره بلاسيديا أشد الكره ، ويتهمها بأنها كانت تعطف زوجها على الرومان ، وكانت تبغضه فى دينه الوثنى وتحبب اليه المسيحية . فصب عليها جام غضبه وسوط عذابه . ولكنه أبقى على حياتها لا رفقا بها وشفقة عليها ، بل ليلعب بها لعبة ، الهر والفأر ، لعبة ظاهرها المداعبة ومن باطنها الارعاب المميت . وأية لذة يطمع فيها هذا المتبربر الهمجى أكثر من أن يعبث ويلهو كيف شاء بأجمل فتيات روما ، وابنة امبراطورها تيودوسيوس ، وأخت امبراطورها هونوريوس ، وزوجة زعيمه السابق أتولفوس ؟ وهكذا غدت بلاسيديا جارية فى معسكر القوط ، تطوف بدنان الخمر على جنودهم السكارى المعربدين الذين ليس لهم من الدين أو الخلق ما يردعهم عن المنكر أو يخجلهم من الفاحشة . فاذا امتطى سنجيرك جواده فى حفلات عرض جنوده ، سارت بلاسيديا أمام الجواد فى جمع من الأسرى والرهائن مكبلين بالأصفاد

ولكن هذه المأساة لم تطل طويلا ، اذ قتل سنجيرك بعد اسبوع من قيامه على عرش القوط ، وخلفه « واليا » الذى أعتقها من الاسر مقابل ستمائة ألف وزن من القمح قدمتها روما افتداء لاميرتها الجميلة . وتزوجت بلاسيديا من أحد قواد روما ، ولكن الموت عاجله بعد ان ترك منها ولدين . وآوت بلاسيديا الى حياة الوحدة والعزلة تتأمل فيها تلك الاطوار الغريبة التى تقلبت فيها ، وتعجب مما كتبه القدر عليها من شتى الصروف والخطوب

وقيل يومئذ ان أخاها الامبراطور الغر المفتون أحبها حبا مريبا ، وذاعت اشاعات وأقاويل عن صلته المنكرة بأخته ، ولم تجد الاميرة منجاة من هذا العذاب الذى عانته طول حياتها الا أن تهجر روما وتلوذ بامبراطور بيزنطة حيث أمضت ما بقى من عمرها وسط عالم من الذكريات الأليمة



احسان لله

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

أدى « أبو المعاطى » فريضة الفجر فى المسجد ، على مألوف عادته فى تأدية الفرائض حاضرة ، ثم غادر بلدته « كوم الزهر » القائمة فى بقعة مشرفة على النيل شمال القاهرة . فما كاد يخرج من البلدة ، ويمضى فى الطريق العام ، حيث الدواب تروح وتجيء ، والسيارات العامة تنهب الارض — حتى كان أول شعاع من أشعة الشمس يحيى الكون تحية الصباح . وكان النسيم رطبا مشبعا بأنداء الفجر ، والحياة تبدأ انتعاشها البهيج ، والضوء فى بواكيره يختلج على صفحة النيل ، فتناجيه العصافير وهى تبرح أعشاشها تلتمس الرزق ناشطة . .

بيد أن ذلك الجمال الرائق الذى يبعث فى النفس الراحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه « أبى المعاطى » فقد وضح على سيماه طابع الهم والكآبة ، فهو يسير لا تعنيه سقسقة العصافير ، ولا مشى الدواب ، ولا جرجرة العربات . وانما يفكر فى شأنه وشأن المهمة التى كلفه أبوه أن يقضيها له فى القاهرة : عليه أن يقابل كاتب المحامى ، وأن يدفع اليه بعض الاوراق التى تخص قضية الارض المتنازع عليها بينه وبين أقاربه . كلفه ذلك أبوه ، وضن عليه بركوبة يمتطيها ليصل بها الى العاصمة ، فليس له الا أن يقطع المرحلة سعيا على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمة راجلا كما ذهب . وما كان ليعنى بهذا الامر لو أن حياته العامة هنيئة رغدة ، وأن له جوانب من معيشته تمنحه السرور والغبطة
استمر « أبو المعاطى » فى سيره ، وكلما فكر فى شيء تداعت أمامه مناظر حياته التاعسة

منذ نعومة أظفاره . انه شاب يافع يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، حالفه سوء الطالع منذ شهد الضوء فى هذه الحياة ، فقد قضت أمه نحبها وهى تلده ، وفى اليوم التالى شبت حريق فى الدار كادت تأتى على كل ما فيها ، وكان العام الذى قضى فيه طفولته الاولى عام جدب عانت الاسرة فيه أسباب العسرة والضيق . فتشاءم الاب والاهل ، بل سائر من فى القرية، بهذا الوليد الذى اقترنت بمقدمه عوامل البؤس والاسى . ونشأ الغلام تحت سيطرة امرأة أبيه ، تغرى أباه بايغاضه ، والتقزز منه ، والتشدد معه . ولم يكن بالفتى الوسيم المشرق الطلعة ، الذلق اللسان ، يستجلب بشاشته القلوب ، ويسترعى بحلاوة لفظه الاسماع . وانما كان صموتا منطويا على نفسه ، بائن القماءة ، دميم الخلقة ، فظل موضع امتهان أبيه وامرأته يكلفانه أعمال الدار ، فيؤديها صاغرا لا ينبس . واذا جال فى القرية لم ير الا منفردا ليس له من صاحب ولا خدين . فان صادفه أحد العابثين فحاول مناوشته بسخرية لاذعة أو سباب جارح، تصامم عنه ، وأولاه اهمالا وعدم اكتراث، وهو يجيش فى وجدانه شعور الترفع والازدراء !

ولما بلغ مبلغ الفتوة انتهى اليه عبء الحقل كله ، فنهض به صابرا حولا ، لا يلقى من ذويه على موفور جهده جزاء ولا شكورا . وما كان له الا يذعن ويستسلم لما أريد عليه ، وكيف يستطيع أن يرفع بصره الى أبيه متحديا اياه ، وهو يراه على الرغم من علو سنه جبار العزمة ، مهيب الكلمة ، وهل ينسى مرة أنه عمل على أن يدخر مبلغا من النقود فى مدى من الزمن مديد ، يبتغى أن يشترى به بعض ما تطمح اليه نفسه فى الاسواق . فنمى الى أبيه هذا الصنيع ، فاستدعاه اليه ، وطلب منه على الفور أن يخرج له ما عنده من المال، فهم الغلام أن يثور ، وأن يأبى الاستجابة لهذا الامر ، فهوى أبوه على صدغه بكف جبارة أخمدت الثورة فى مستهلها . وسرعان ما امتدت يد الغلام الى أبيه ، لا ليذود عن نفسه ، بل ليعطى أباه ما جمع من المال والآمال . . وترك الغلام والده مطأطىء الرأس ، يجر قدميه ، وقد تحيرت فى مآقيه الدموع . وفزع الى المسجد ، حيث أوى الى ركن فيه ، فأسلم رأسه الى ركبتيه ، واندفع ينشج ويذرف العبرات . وأنبهته سعلة عريضة ، فمال ببصره يتفقد من قدم المسجد ، فرأى الامام فى طريقه الى المحراب ، يتعثر فى خطواته المهدمة . فنهض اليه يقبل يمناه ، وكان يلقى أبدا فى رحابه أمنا ورفقا لا يأنسهما من سائر الناس ، فسأله الامام : ما خطبه ؟ فأخذ يسرد له ما وقع من أبيه ، فربت الامام ظهره ، وطيب خاطره ، قائلا :

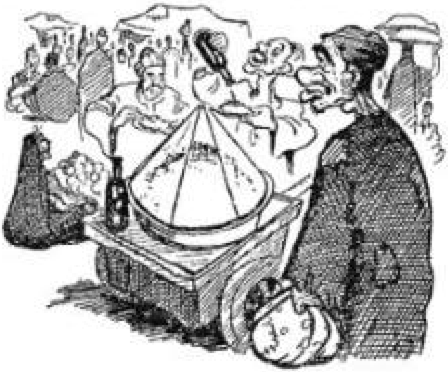
ــ أباك ! أباك !.. أنت ومالك لابيك .. كن طيعا صبورا تغنم ثواب الله ..

ثم تحسس جيبه ، ومد يده الى « أبى المعاطى » وهو يقول :

ــ قد تجد يا بنى فى هذا المبلغ على ضآلته بعض مايعوضك مما فقدت.. وليكن قرضا..

فرد يد الشيخ فى أدب وتمنع ، وشكر له جميله ، وانصرف من المسجد أهدأ بالا ..

جد « أبو المعاطى » فى طريقه ، تتوارد هذه الذكريات على خاطره ، وبدأ يشعر بأشعة



الشمس تلفح وجهه ، والعرق يتصبب من جبينه . وصادف فى سيره قرية قام فيها سوق الاسبوع ، فجاز بها ينظر ما يعرض فيها من ألوان السلع ، واختلب نظره فوق كل شيء منظر الطعام ، فقد رصت بعض الصواني عليها أشتات المأكول من أرز مطرز بأخلاط شهية جذابة ، ومشويات يفوح قتارها فيغمر الانف بأزكى الرائحة . فرجعت به الذاكرة الى أيام صباه الباكرة ، حينما شهد وليمة أعدها العمدة احتفالا بزواج حفيده ، فذاق مثل هذه الالوان ، وما فتىء منذ ذلك اليوم يجد طيبها فى فمه .. وأبطأت خطاه فى جوانب السوق ، اذ كان يمتع البصر بهذه المرائى التى فتنت لبه ، ويستنشق عبير تلك المطاعم التى تحلب لها ريقه . ثم انساق بقدميه ليبتعد عن هذه الناحية ، ولم يلبث أن أحس بجوعه ، فتلمس جيبه ليستخرج اللفيفة التى أعدتها له امرأة أبيه تحوى كسرا من الخبز اليابس ، وقطعة من الجبن القريش . وهم بأن يسكت جوعته بقضمة ، ولكنه تذكر أن هذا زاده كله فى رحلته الطويلة ، فعليه أن يحسن تدبيره حتى لا ينفد قبل انتهاء مهمته وأوبته

واسترعى نظره ضريح شاخص على الطريق ، لاحد أولياء الله . فمد الخطا اليه ، وما ان داناه حتى أمسك بشباكه ، وقرأ له الفاتحة ، ثم أخذ يتضرع ويبتهل ، ويمسح وجهه بيديه مرات .. وكان بجوار الضريح سائل مكفوف البصر يتلو بعض آى الذكر الحكيم ، واذا برجل ممتط ركوبة مطهمة ، تدل سماته على اليسار والنعمة ، فأخرج كيسه المنسوج ، وأخذ منه قطعة من النقود دسها فى يد القارىء ، ولم ينتبه الى أن قطعة أخرى سقطت من الكيس ، ولكن « أبا المعاطى » لمحها على الارض فأسرع اليها ، وأخذ يقلبها بين أنامله فترة ، وكان القارىء قد عاد يرفع صوته بآى الذكر الحكيم ، فألفى « أبو المعاطى » نفسه يرفع عينه الى الضريح هنيهة ، ثم عدا فى طريق الرجل المحسن الماضى على مطيته ، فصاح به حتى استوقفه ، وناوله قطعة النقود التى سقطت منه ..

واستأنف « أبو المعاطى » سيره يغادر السوق ، وقد اشتدت وطأة الشمس عليه ، وأحس بالهم ينمو فى نفسه ، والمتاعب تتجمع على كتفيه ، وعاودته ذكرى قطعة النقود التى ردها الى صاحبها ، وتراءت لعينه صوانى الرز والشواء ، فتضاربت بين جوانحه مشاعر الأسف

والحيرة والقلق.. وانتحى ناحية على الجسر، ووجد أن لا بد من أن يخرج زاده من جيبه، وأن يتناول منه مضغة ترد عنه السغب. وبينما هو جالس يأكل، سمع هرير كلب على مقربة منه، فحول اليه بصره، فوجده يرقبه عن كثب فى خوف وحذر. وجعل الكلب يرسل اليه نظرات توسل واستجداء، وهو يلوك لسانه بين فكيه، فحدجه «أبو المعاطى» بنظرة نكراء، وما عتم أن تناول حجرا قذفه به، فانطلق الكلب يعوى فى ذلة المقهور، وأقبل «أبو المعاطى» على طعامه يغمغم بالسباب!

ثم نهض يتابع سيره، وقد بدأت الطريق تتشعب، فانطلق يسأل هذا وذاك: أين السبيل الى القاهرة؟

ودخل المدينة دخول الحائر الوجل، وقد بدأ صخب الحياة يكتنفه، فطفق يستدل على مقر كاتب المحامى فى حى «السيدة زينب».. وشارف المسجد بعد جهد ومشقة، وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ، فأراد أن يريح جسمه بجلسة، وأن يصلى ركعتين بجانب المقام. وبعد أن أدى فى المسجد الصلاة، تعلق بأستار الضريح ينفض نفسه فى مناجاة وضراعة. ثم عدل الى الباب، فرأى أناسا متفرقين يجلسون، فاختار مكانا ظليلا رطبا جلس فيه، وقد اعتزم أن يذهب الى كاتب المحامى بعد أن يستوفى قسطه من الراحة والتفرج. واستند الى الجدار، فغفا غفوة لم يدر مداها، وعند ما استفاق من نعسته وجد الحركة تشغل المسجد، والارجل تكثر غادية رائحة. وبينما هو فى جلسته، مسترسل فى تفكيره، اذ أحس شخصا يقترب منه، وشيئا يلقى فى حجره، فرفع جفنيه، وتطلع الى ذلك الشىء، فاذا به قطعة مغرية من النقود، فأمسك بها يقلبها، وهو ينظر الى الذى ألقاها، فهم أن يعيدها اليه، ويخبره بأنه ليس بشحاذ، ولم يكد يفعل حتى كان الرجل قد غاب فى زحمة السابلة، فجعل يتفقده برهة دون أن يجده. ولمحت فى فكره على الاثر مناظر الصوانى عليها الرز المطرز والشويات الشهية. أليس هذا رزقا ساقه الله اليه؟ أو ليس هو بركة «السيدة زينب» وساحتها الكريمة؟ وتلفت يمنة ويسرة، فلم يجد أحدا يعيره التفاتة، فأسرع بقطعة النقود يحفظها فى جيبه، ورغب فى القيام، ولكن هاجسا هجس فى خاطره أن استرح قليلا، ففى الوقت مندوحة، وليس مقر كاتب المحامى ببعيد. وفيما كان يسبح فى أخيلة شتى، وجد امرءا فى منصرفه من المسجد، أنيق البزة، وجيه الطلعة، تحف به شمائل الطيبة. فتصدى له سائل كسيح يظلع على عكازته، ومد له يمنه مستعطفا، فمنحه الوجيه بقطعة من النقود ألهجت لسانه بالشكر والدعاء. فأحس «أبو المعاطى» على التو يده تمتد، وكفه تنبسط. فوقع بصر الوجيه عليه، فأخرج قطعة من النقود، وألقى بها اليه، فاختلج قلبه، وأسبل أهدابه متناوما. وبعد هنيهة اختفى شبح ذلك الوجيه، فجعل «أبو المعاطى» يضم قطعة النقود الى أختها الاولى، ثم انسرح يفكر: ماذا يأكل؟ وأى الالوان يختار؟ وتباينت تصوراته فى شهوات الغذاء!

ووجد نفسه يطيل الجلوس، فهتف به هاتف: ألم يحن الوقت لان يهب الى كاتب

المحامي لينجز المهمة التي قدم من أجلها ؟ ولكن يده كانت على حالها مبسوطة الكف ، وعينيه كانتا مطبقتي الاجفان . وسمع اثنين يتحدثان على مقربة منه ، فيقولان : حقا انه لسائل جدير بالاحسان !.. وهبطت على يده في الحال قطعة النقود ، فخطرت ببال «أبي المعاطي» صورة القارىء القاعد بجوار الضريح ، وهو في جلسة الذلة والمهانة ، فتحركت في قلبه أشياء من الانفة والعزة ، وتهيأ ليفارق مكانه ، فاذا امرأة عجوز تتوكأ على عصا تدنو منه ، وتضع في يده على استحياء وصمت قطعة من النقود لها قيمتها ، وتهمس في أذنه ملحة أن يسأل لها الله شفاء ابنتها التي أضنتها العلة ، فلم يتحرك في مجلسه ، ولم يفتح عينيه لها ، واجتهد أن يقلص من قسمات وجهه ، تعبيرا عن معنى الابتهال الى الله ، وهو يهمهم بكلمات مضطربة لم يستبن منها حرف . وعادت العجوز أدراجها ، وهي تقول :

ـ الدعوة من خدام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين السماء حجاب !..

وامتدت جلسة « أبي المعاطي » ، وعمر جيبه بقطع النقود ، فما كاد الظلام يرخي سدوله ، حتى فترت الحركة ، وانقطع سيل الزوار ، فنهض يلم شعثه ، ويستقبل الطريق يتحسس النقود ويعدها مرة بعد مرة . وقد أدار في ذهنه أن هذا المبلغ من المال يعدل كسب أيام معدودات في الريف ، عاملا فيها على أديم الحقل في وقدة القيظ ، مقاسيا ضروب المشقة والكد ، وها هو ذا قد يسره الله له وهو في جلسته الهادئة الوادعة . أوليس هذا برهان رضا أسبغه الله عليه ؟ أوليست هذه رحمة ربانية تستوجب مزيدا من الحمد والشكران ؟ ورفع بصره الى السماء ، مبتهلا الى ولي النعم أن يديم عليه منته ، ثم مسح وجهه بيديه كلتيهما ..

وانساب يتصفح الحوانيت متشمما يبحث عن طعام ، ومثل أمام وجهة الزجاج على باب أحد المطاعم ، وقد فتنته من ورائها مناظر الشواء تطاير رائحته شهية مغرية . فأعاد راحته الى جيبه يتلمس النقود ، واشتبكت في رأسه أسراب الاماني : لم لا تكون هذه الصرة نواة ثروة يشتري بها ثوبا أنيقا يجمله ، وقلنسوة تزهو على جبينه ؟ ألا يمسك رمقه ببقايا الزاد في اللفيفة التي أعدت له ويحتفظ بما جمع ؟ وهنا ازدحمت على خياشيمه روائح الشواء فما هو الا أن اندفع نحو المطعم ، وملأ بطنه بما لذ وطاب حتى اكتفى ، ثم خرج يتجشأ نشوان ، وسار بخطوات أثقلتها التخمة ، وقد أحس الرغبة الملحة في أن ينام ..

وما كاد ينعطف في أحد الازقة المجاورة ، حتى ألفى زاوية مهجورة بجوار خربة قد تمدد فيها أحد الصبية المشردين ، فانتحى مكانا غير بعيد منه ، فمهده لرقاده ، متوسدا ذراعه . ولم ينس قبل أن يسلم للكرى مقلتيه أن يخرج نقوده ويعدها ، فرأى أن لم يبق منها الا فلول ، فقد مضى الاكثر الاغلب فيما حشا به بطنه من ألوان العشاء . فلبث يتأمل البقية الباقية ، ثم أحكم ربطها ، ووضعها في قرارة جيبه ، وهام في أحلامه ، معتزما

أن يقضى مهمته مع كاتب المحامى من غده ، ويبرح القاهرة الى بلدته ، مكتفيا بما راح له من عطية الله !..

ولما أهلت تباشير الصباح ، انبعث من مرقده ، فكان أول ما سنح لخاطره أن يتحسس ربطة نقوده ، فاطمأن الى سلامتها ، وبنى عزمه على أن يكون فى يومه قنوعا . فعرج على لفيفة الزاد التى جلبها من البلدة معه ، ففك وثاقها ، وبسط رقعتها أمامه ، وجعل يرنو اليها برهة . ومر برأس الزقاق بائع جوال ، يحمل صينية فطير ، وهو يصيح متغنيا بما ضمت من حلو لذيذ . فمد « أبو المعاطى » يده الى زاده ليتناول أول لقمة يتبلغ بها ، فاذا يده ترتد الى قرارة جيبه ، وتستخرج ربطة النقود . وسرعان ما استوقف بائع الفطير ، فابتاع منه واحدة ، والتهمها على الاثر . وما كاد البائع يضع الصينية فوق رأسه ، ويستأنف سيره منشدا مقطوعته فى الاشادة بالفطير الحلو اللذيذ ، حتى وثب اليه « أبو المعاطى » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. وألقى نظرة على ربطة النقود ، وقد حوت مما حوت : ما له وللنقود يتحسر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فطوره ، يحمد الله ومنه ، وهو قاصد مقر كاتب المحامى يقضى مهمته فى لحظات ، ثم يئوب الى بلده راضيا ..

وسار مجدا يدفع بمنكبيه الهواء ، فما ان قطع الزقاق ، ومال الى الطريق العام ، ووجد نفسه فى متجه المسجد ، حتى شعر بخطاه تتئد : أيليق أن يقرع أبواب البيوت فى ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب الى كاتب المحامى قبل أن يؤدى فريضة الصبح ؟ الى المصلى اذن ... ومضى الى المسجد حتى بلغ بابه ، فوقف يتأمل رواده بين ذهاب وأوبة . واسترعى انتباهه أنه وجد حواشى الباب وقد عشش فى كل ناحية منها سائل مستقر فى وكره ، كأنه مقامه الموروث .. وثنى طرفه الى الركن الذى كان يستريح فيه أمس حين قدومه القاهرة ، فرآه خاليا .. ها هى ذى الشمس قد سطع شعاعها منذ برهة ، ولم يعد لوقت الصلاة متسع ، فسواء عليه أن يصلى الصبح الآن أو بعد فترة . لا جناح عليه اذن فى أن يستمتع وقتا بنسيم الصباح البهيج فى ذلك الركن الظليل . فأفضى اليه ، واحتله فى طمأنينة وسكون . ومرت فترة لم يتحرك فى جلسته ، وقد أسبل جفنيه الا قليلا ، وتظاهر بالنعاس ، فسرت الى أذنه همسات مبهمة ، فألقى اليها سمعه وباله ، وأدار حوله النظر خلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهامسون فى شأنه ، ويتغامزون به ، فأغضى ، ولم يبد لهم أنه فطن لشىء ..

وشرع رواد المسجد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت قطع النقود تتهافت على يد « أبى المعاطى » ، فكان يلتقطها ويدسها فى جيبه عجولا .. ولاحظ أن من يمر به من المتصدقين يقف برهة يتفرس فيه ، ويتألم لما يبدو على وجهه من علائم البؤس والمسكنة . فأدرك أنه قد أوتى ملامح معبرة تستدر الاشفاق . وما كاد يفطن الى ذلك حتى ازدادت تلك الملامح وضاحة ، وصحبتها أنات وترنيمات تجتذب الانظار ..

وطالت الجلسة ، وتوافر المدد ، ورف على ذاكرة « أبى المعاطى » شأنه مع كاتب

المحامى ، ووعده أباه أن يعود الى البلدة فى يومه ، فاهتز فى جلسته ضجرا .. ليس بالامر المنكر أن يبقى بالقاهرة يوما على أن يعود لا محالة غدا ، أليس له بعد أن أمضى فى العمل المتواصل دهرا طويلا يكد ويجهد نفسه لمصلحة أبيه أن ينال حظا من المتعة يوما ؟ لقد اعتصر دمه فى سبيل منفعة الاسرة والقيام على مرافقها ، أفما آن له أن يستجم قليلا بعد طول الكد وفرط العناء ؟ وفوق ذلك لن تكون النقود التى جمعها من حقه وحده ، بل انه سيشرك فيها أباه . وهل يبلغ به الجحود أن ينسى نصيب أبيه مهما يكن من أمره معه ؟ أخلد « أبو المعاطى » الى هذه الفكرة ، واستقر فى جلسته ، يستنشق النسيم العليل فى الركن الظليل !..

وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطى » فى مكانه بجوار المسجد تهبط عليه الحسنات ، فما هو الا أن يأخذها حسنة بعد حسنة ، ويودعها قرارة جيبه ، وهو هائم ينتقل بين التصورات والامانى .. وظل كذلك لا يستطيع براحا ، وحين أحس بالجوع فى بعض النهار ، تبلغ بشىء مما يطوف به باعة السوق . وما كان له أن يبارح مكانه والناس بين مقبل على المسجد ومنصرف عنه .. فلما آذنت الشمس بالمغيب ، أبصر بالسائلين المرابطين حول المسجد ينفرط عقدهم سائلا فى اثر سائل ، هذا يجر عكازته ليتحامل عليها ويظلع ، وذاك يحمل غرارته على كتفه ، وذلك يستدعى غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطى » يتمطى وهو يروض على السير أوصاله التى خدرها طول القعود ..

وتغلغل فى الطريق ، واخترق بعض الدروب ، فوافق سائلا ممن كانوا معه بباب المسجد يميط اللفائف التى شد بها يده الى عنقه ، وينزع الضمادة التى أدارها على عينيه ، ثم ينتقل مستقيم العود ، صحيح الجسد ، يشق حجاب الظلام بعينين تلتمعان .. ونفذ « أبو المعاطى » من الدرب الى الشارع ، وانتهت به قدماه الى مطعم ممتاز ، فملأ بطنه بما اشتهى ، وقضى ليله حيث قضى البارحة يهنأ بأعذب الاحلام ..

وفى رونق الصبح ، راع جماعة السائلين حيال باب المسجد أن « أبا المعاطى » قد شد يسراه بلفائف الى عنقه ، وتوكأ على عكازة غليظة ، وهو يدرج فى جهد واعياء .. ثم انتهى الى مكانه المختار ، فاحتله كسابق يومه ، وما كاد يستقر فى مجلسه ، حتى تعالى الحسيس حواليه ، وتراحت الهمهمة ، فتلفت فى خلسة ، فأبصر برفاقه يسددون اليه النظر وهم يتغامزون . ولم يطل به المقام حتى أخذت عينه قادما من السائلين لم يره من قبل ، وهو شيخ منتفخ الجثة ، مترهل الاكتاف ، ذو لحية شمطاء ، يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويرتدى جبة تكاثرت فيها الرقاع مختلفة الالوان ، وتتدلى على صدره مسبحة طويلة ذات حبات غلاظ . وجعل الشيخ يتهادى نحو « أبى المعاطى » فكلما دنا منه لمحت على وجهه سيماء الدهشة والحنق . وما ان حاذاه حتى أخذ يصوب فيه النظر ويصعده ، واشتدت همهمة الرفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشيخ يحيونه تحية احترام وتلطف ، وسمع « أبو المعاطى » ذلك الشيخ يسأله : ـ ما أتى بك هنا ؟

فأجابه : ـ أنت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة ..
ـ هذا مكانى .. فكيف ساغ لك أن تقتحمه ؟
ـ الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس ..
ـ قلت لك هذا مكانى ، فعليك أن تتنحى عنه !
فنظر اليه « أبو المعاطى » نظرة متفرس ، وقال فى شىء من الازدراء :
ـ ومن أنت حتى تطلب الى أن أتنحى لك عن مكان أجلس فيه ؟
ـ قلت لك هذا مكانى ، وقد اتخذته لى مثابة منذ خمسة أعوام ، اذ ورثته عن عمى ، فكيف ساغ لك أن تنتهز فرصة تغيبى لتحتله دونى . وكان عليك قبل أن تنضم الى الرفاق أن تستأذننى ..
ـ أوحسبتنى مستجديا مثلكم ؟ انما أطلب الراحة والتبرك بمجاورة الضريح المطهر ..
ـ خل عنك هذا الهراء .. لم يسبق لاحد أن يأخذ فى هذه الساحة مكانا الا اذا أجزته وعينت له مجلسه لا يعدوه ..
فلم يبد « أبو المعاطى » حراكا ، بل لبث يقلب فيه البصر ، فشعر بقدم الشيخ تركله ، وهو يقول : ـ قلت لك تنح ، والا فالعاقبة وبال عليك !
وفى هذه اللحظة برز من المسجد رجل ، فرمى بقطعة من النقود فى حجر «أبى المعاطى» ومضى لطيته ، فما كان من الشيخ الا أن انقض على القطعة انقضاض الصقر ، ولم يشعر « أبو المعاطى » الا وهو يثب على الشيخ ، ويشد على يده ، وينتزع قطعة النقود . وفى لمح البرق ألفى نفسه مشتبكا معه فى عراك عنيف ، واستمر الصدام وقتا وهما يتواثبان ويتغالبان ، والرفاق حلقة حولهما يتفرجون . وما زال « أبو المعاطى » يستشعر يقظة السطوة تسرى فى أعضائه ، ونار الحمية تتلظى فى قلبه ، وقد استحال كله أعصابا نافرة ثائرة ، حتى وجد نفسه قد أخذ بخناق الشيخ وهو جاثم على صدره ، يكيل له الضربات بجميع يده . فتخاذل الشيخ ، وندت عنه صيحات الاستغاثة والاستنجاد . فنظر « أبو المعاطى » وهو آخذ برقبة الشيخ الى الرفاق حوله بعين متنمرة ، ووجه ينم عن الافتراس والحدة . فتصاغر الرفاق ، وتداخلتهم الخشية ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن ينتصر للشيخ العميد . فلمح « أبو المعاطى » فى هيئتهم معنى التهيب له ، والرهبة منه ، فارتد الى فريسته يقلب فيها النظر ، فاطمأن الى أن الشيخ لم يعد بقادر على أن ينازله ، فتركه ملقى على الارض ، وعاد الى مكانه ، وجلس فيه جلسة التأمر والتفخم . وهو يسوى من ثيابه ، ويمسح التراب عن وجهه . وبعد قليل نهض الشيخ كسير الخاطر ، مستكين النفس ، وانتبذ ناحية قصية يأمن فيها جانب ذلك الشيطان العنيد .. وتنفس « أبو المعاطى » تنفس الارتياح ، وتلمس هراوته ، فقرع بها الارض فى نشوة ، وقد برقت على فمه ابتسامة خبيثة ، وأخذ يرمق جمع الرفاق بعين ملؤها السيطرة والاستطالة . وتفرق الجمع فى سكون ، كل يسعى الى ركنه المختار ..

وعجب « أبو المعاطى » من نفسه : كيف استطاع أن يذل هذا الطاغية ، وأن يقهر ذلك البنيان الشامخ ، وأن يجعل رأسه فى مواطىء الاقدام ؟ ولكنه تذكر أطراف حوادث وقعت له فى الحقل ، فمرة كبح جماح ثور أفلت من محراثه ، ومرة أدار ساقية ثقيلة بقوة عضديه .. واتسعت ابتسامته ، حتى أضاءت جوانب محياه ، ولم يطل به المقام حتى أحس قدمين تدبان عن كثب منه ، فطأطأ رأسه ، وقلص قسمات وجهه كالضارع المتألم ، وتمتم بألفاظ حيية . فسقطت قطعة النقود فى كفه ، فأودعها من توه جيبه ، واستأنف تمتمته آمنا ..

وفى غداة اليوم التالى ، هب « أبو المعاطى » من نومه مبكرا ، وعجل الى مكانه من المسجد ، فما ان أشرف عليه من بعيد حتى لاحت له العمامة الخضراء تحتل موضعه المكين، فاندفع مهرولا وقد شد على هراوته ، واذ قارب المكان وجد شيخ أمس متمكنا فى جلسته ، تحيط به شرذمة من أتباعه ، فاتجه « أبو المعاطى » اليه صامتا ، وما شعر الا أن امتدت يده فى قساوة وغلظة تأخذ بتلابيب الشيخ ، وتقصيه عن مكانه . ولكنه لم يكد يفعل ، حتى رأى الاتباع يتألبون عليه ، ويقسمونه ضربا وجيعا ، ولكما شديدا . فأحس ثقل الوطأة عليه ، وتوقع الهزيمة توشك أن تحل به ، ولمت فى مخيلته حسنات النقود وهى تنهمر على حجره ، وتمثلت لخياشيمه روائح الشواء يطعمه نهبا ، فاذا الهراوة تستيقظ فى يده غضبى . وفى خطفة البرق راح يخبط بها فى الجمع خبط عشواء ، مشمرا فى متابعة الضرب ذات اليمين وذات الشمال . فما هو الا أن تقوض الجمع عنه ، وولوا فرارا منه ، غير مصيخين الى نداء الشيخ واستغاثته . وتقدم قزم من الاتباع الذين لم يكن لهم فى المعركة نصيب ، فتقرب من « أبى المعاطى » وتشبث بثيابه ، وهو يصيح :

ـ فليحمك الله .. ليس للامر الا أنت !..

وهنا تعالت صيحات تؤيد قول القزم ، وأبصر الصائحين يتدانون منه ، ويتلطفون به ، وينفضون الغبار عن جلبابه . فعاد « أبو المعاطى » يتخطر فى خطوات وئيدة الى مكانه المعهود ، واقتعده مزهوا منتفخ الصدر .. فأما ذو العمامة الخضراء ، فقد كان يرتد الى الناحية القصية التى لاذ بها أمس ، وارتمى فيها متكورا ينكمش بعضه فى بعض !..

وفى اليوم التالى ، تجلى « أبو المعاطى » قبالة المسجد ، وهو يضع على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدى الجبة المتكاثرة الرقاع ، المختلفة الالوان . وعلى صدره المسبحة ذات الحبات المائة الغلاظ . وقد التف حوله الاتباع يحيونه تحية التودد والاكبار .. ثم جعل يتهادى فى مشيته ، حتى وصل الى مقعده الظليل ، فاطمأن فيه ..

وطاف برأس « الشيخ أبى المعاطى » طيف والده ، وهو يسائله عما فعل ، وعما ادخر من النقود ، فشعر بالهراوة تتحرك بين أنامله ، فدق بها الارض بضع دقات ، وقد كشر عن أنيابه ، وانبعث من حلقه قهقهة شيطانية ساخرة ..

محمود تيمور

من قصص التاريخ الاسلامى

عبيد الله بن الحر

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

تعالج هذه القصة فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى ، وبطلها عبيد الله بن الحر الجعفى فارس مشهور من فرسان العرب فى صدر الاسلام

كانت الكوفة مثل البصرة ، تضطرم وتفور ، لا يكاد يمر فيهما يوم بغير هبة من جانب ، بين حى من الأحياء وحى آخر من جيرانهم . قد انفرط العقد فى كل مكان ، وعادت صيحات القبائل الى ما كان عليه عهدها ، اذ الناس فوضى فى جاهليتهم ، من عز فيهم بز ، ومن غلب استلب . مات يزيد بن معاوية ، وتحركت الأطماع فى دولته من كل جانب ، وصاحت القبائل العراقية صيحات العصبية ، هذه بكر بن وائل ، وهذه تميم ، وهذه الأزد ، كل منها يدعو لنفسه ، ويلتمس الحلفاء من القبائل التى كانت لها صديقة فى الجاهلية

وآثر ابن الحر أن يعتزل فى بيته فى هذه الفتن الجارفة ، عبيد الله بن الحر الجعفى ، الذى قضى عمره فى النضال مدى أربعين عاما — آثر أن يقيم فى بيته تباعدا عن تلك الفتنة العمياء . وما له وهذا النضال الجديد الذى أثاره طلاب الملك من كل جانب ، لقد شهد فى حياته صنوفا من العواصف منذ مقتل عثمان بن عفان ، وشارك فى كل المعامع التى ثارت بين الأحزاب ، ولكنه خرج من ذلك العراك الطويل بمرارة الخيبة ، بعد أن تكشفت له حقائق الناس مرة بعد مرة ، فعرف ما فى الحياة من نفاق وخداع ومن كذب ودناءة . كان قلبه

الفتى منذ أربعين عاما يتلوء بالدعوة الى الحق ، ولا يبالى أن تسفك دماؤه فى نصرته ، ولا يرضى فى جهاده الا بأن يكون فى صدر الاخطار . ولكنه بعد هذه السنين الطويلة ، لم ير الا أن النضال كان دائما بين جموع من الناس تتدافع وتتنازع ، لا تبغى من وراء ذلك الا سلطان الحياة الدنيا . لم ير فى كل ما مر به الا نضالا على الحكم ، ونزاعا دمويا على السيادة . كان يسمع فى كل موطن من مواطن القتال صيحات الحق والعدل تتجاوب من كل جانب ، حتى اذا ما انجلى قتام الحرب وعاد السلام ، لم ير الا طمعا فى الاموال والزخارف ومفاتن الحياة . فما الذى يدفعه بعد ذلك كله الى خوض نضال جديد ، أو اقتحام فتنة جديدة ؟ ألم يشهد أيام القادسية وجلولاء ونهاوند اذ هو شاب فى جيوش الجهاد ؟

لقد مضى من المجاهدين من مضواء ولم يبق من بعدهم الا من يحرصون ومن يتنازعون على الغنائم . لم ير ابن الحر فى الكوفة ولا فى البصرة ولا فى الشام أو مصر سوى قبائل يثور بعضها ببعض ، تتنازع على اصطياد الرياسة والخلافة . فما أحراه أن يلزم داره ويباعد ما بينه وبين هذه الفتن المضطرمة

كان ابن الحر يريد أن يذوق شيئا من السلام الى جوار امرأته الحبيبة أم توبة ابنة عمه سلمى الجعفية ، التى تزوج منها وقد نيف على الستين ، وكانت فتاة فى بضع العشرين ، تملأ بيته بهاء كلما خطرت فيه بقوامها اللدن النحيل ، وتشيع فيه السلام كلما نظرت اليه عاطفة بعينيها السوداوين الواسعتين ، وتنسيه ضيق الحياة وضجيجها كلما حدثته حديثها العذب بصوتها الرخيم ، وتغمره اعجابا وحبا كلما ناجته فى أمر من الامور . فقد كانت أم توبة كلها روحا وذكاء وطهرا . كان لا يحس اذا جالسها بما يفرق بينهما من عدد السنين ، فان قلبه عاد معها فتيا ينبض ويخفق كما كان فى العشرين ، وكانت هى فى عقلها وحكمتها ونقاء نفسها لا تتضاءل عن مثل عقله وحكمته ونقاء نفسه فى موضعه من الستين

لم تستدرجه الانباء التى كانت تترامى اليه وهو معتكف فى داره ، ولم تغره الفتن المتعاقبة على أن يعود الى معامع النضال القاسية ، فسمع أن البصرة تضطرب ، وأن أميرها ابن زياد هرب لائذا بالشام . ثم سمع ان الشام تنازعها الاهواء بين صبية بنى أمية من ولد يزيد بن معاوية وبين مروان بن الحكم شيخ قريش ، وسمع أن عبد الله بن الزبير يدعو الى نفسه ، ويبعث البعوث الى الامصار يستميل أهلها وشيوخها ، وينازع بنى أمية ملكهم كما كان ينازعهم فى عهد يزيد وأبيه معاوية . ولكنه سمع هذه الانباء عفوا ممن كان يزوره فى داره من أصحابه ، ومن أولئك الفتيان الذين كانوا لا يفتأون يلتفون حوله فى مجالسه ، وينظرون الى شيخوخته الباسلة الهادئة فى اعجاب يشبه التقديس

ولكنه كان لا يهتز الى شىء من تلك الانباء ، وبقى على عزلته بعد أن ذاق ما ذاق من مرارة الاخفاق ، وبعد أن تكشفت له الحقائق الجاهمة الشوهاء. فانه لم ير فى زعماء الامصار الا طلاب أسلاب

وماله وكل هذا النضال التافه الذى لا ينطوى على جهاد فى الحق ؟ أليس الاولى به أن يقضى ما بقى من حياته فى أمن ودعة فى جوار ابنة عمه الحبيبة ؟ أليس من حقه أن يذوق السلام فى شيخوخته بعد أن قضى العمر فى خوض المعارك الدامية ؟

كان ابن الحر يحس فى قلبه قشعريرة تشبه مس الحمى كلما تذكر الدماء التى أسالها فى حروبه . كان يبطش ويفتك لا يقف فى سبيله شىء ، ويحس أعظم السعادة كلما رأى الدماء تسيل على شفار سيفه المقوس الباتر . أما تركه تلك الدماء حينا وادعا حتى يخرج من الدنيا نظيفا من دماء أخرى ؟

كان يتمنى لو استطاع أن يبعد عن تلك الفتن الثائرة ، ولكنه مع ذلك كان لا يملك نفسه من الهزة التى تعتريها كلما سمع أنباء الاضطراب ، اذ كانت نفسه تنازعه برغمه الى ضجة الميدان ، وان كانت قد ركنت الى السلام فى البيت التى تزينه أم توبه

ولكن مهما يكن من ابن الحر فى تقلب أهوائه بين الدعة والاضطراب ، فان الاحداث ما كانت لتدعه فى عزلته ، فقد كانت عيون أهل الكوفة تتطلع اليه كلما جد جديد من الكوارث

كانت ليلة من ليالى الصيف بعد بستة وستين عاما من الهجرة ، وكانت ليلة حارة من الليالى التى لا تكاد الانفاس فيها تنطلق ، والغبار الثائر فى الهواء ينعقد مع الابخرة فى ضباب كثيف لا يكاد المرء يتبين فيه من دونه على خطوات . وأحس ابن الحر ضيقا زعزعه فصعد الى سقف داره بالكوفة لكى يقضى الليلة تحت السماء مطلا على الصحراء ، لعل نسمة من صوب الشمال تزيح الضبابة الجاثمة ، فيستطيع أن يتنفس ملء صدره ، كما اعتاد أن يملأ صدره اذ كان يضرب فى فياف اليمن قبل أن ينزل ذلك المصر . وكان كلما زاد به الضيق وضنت النسمات بهباتها ، تذكر الامنية التى كانت تتردد عليه بين حين وحين ، أن يعود بابنة عمه الى بعض وديان اليمن فيقيم فيه معها بعيدين عن تلك العاصمة المضطربة ـ تلك الامنية التى كانت تدفعه حينا فيهم بانفاذها ويكاد يلبى فيها هواه ، ثم لا يلبث أن يقعد وتفتر همته اذ تمسكه فى الكوفة أموال اعتقدها وضيعة من الارض فى الريف تملأ خزائنه بما تخرجه أرض العراق من خيرات

ثم طرق باب الدار واستأذن عليه قوم من أصحابه . فشعر بقبضة زادت أنفاسه ألما . فماذا يبغى الناس منه وقد اعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم ؟ ولم لا يضطربون وحدهم ما شاءوا ويقتتلون على الحياة اذا أرادوا بعيدين عنه ، ويخلون بينه وبين عزلته التى اختارها ؟ لم يبق له من أرب فى نضالهم بعد أن باخت حماسته . وأصبح لا يعتقد فى صدق ولا فى عدل . انما هو جهاد الاطماع فى سبيل الغلبة ، وليس له من حرص على شىء من ذلك الجهاد السخيف

ولكن أصدقاءه جاءوا يستأذنون عليه ، وقد علم أنهم ممن لا يستطيع أن يتنكر لهم أو يردهم بالخيبة عن بابه . فهم من فتيانه الذين يجتمعون حوله ويتطلعون اليه . طالما عاهدهم

وعاهدوه وحالفهم وحالفوه على نصرة الحق اذا هدده الطغيان . وما كان يستطيع أن يتنكر لهم ، ولا أن يذيقهم مرارة الخيبة التي ذاق من قبل أمثالها

قام من مجلسه فاترا ولبس عباءة من الديباج الاصفر وخفا من جلد لين أحمر ولف على رأسه عمامة من ثوب يمنى ، ثم مس بعض الطيب ومسح به لحيته وكانت لا تزال سوداء تناثرت فيها شعرات بيضاء كأنها ندف من القطن علقت بها عفوا . ثم نزل متثاقلا حتى بلغ رحبة الدار ، وكان فيها مجلس للاضياف ، فوثب الفتيان منه وقوفا يرحبون به في حرارة

كانوا جماعة لا تضمهم رابطة من عصبية ، بل جمع بينهم الحنق الذى يملأ قلوب الشباب مما يؤول اليه الامر الفاسد . رأوا كل يوم واثبا من ناحية يطلب الامر اذا وجد من حوله جماعة ينصرونه ، ولم يجدوا في حيرتهم من يلجأون اليه غير صاحبهم الشيخ الباسل الذى طالما ذاكروه الحق ، وناظروه في واجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ودار الحديث بين الجمع ، فلمح ابن الحر من قولهم ما جاءوا من أجله ، فجعل يردهم في رفق ، ويرجعهم عن نفسه في تجمل . وطالت بينهم المناظرة فعجب الفتيان كيف تقلب ابن الحر وتغير ، وكيف يقنع أن يقيم في عقر داره وقد اشتعلت الفتنة ، وهو الرجل الذى بنى مجده في معترك النضال. أيكون قد أثقله الغنى وداخله الجبن حرصا على الحياة؟ وتجرأ شاب منهم فقال له :

ـ أيجمل بك الاحتجاب يا أبا الاشرس وهذه الحال كما ترى ؟

فقال ابن الحر باسما : لقد أصبحت يا بن أخى لا أرى . .

فقال الشاب وقد أحس في جوابه شيئا من الاستخفاف : ما عهدناك الا ذا بصر وبصيرة يا شيخ جعفى . .

فأطرق الشيخ لحظة وملك نفسه ثم قال :

ـ لقد علمت حسن رأيك يا جرير بن كريب ، ولكنى آثرت أن أعكف على صلاتى.

فقال جرير في شىء من اللجاجة : ولقد عهدناك مصليا لم تمنعك الصلاة عن نصرة الحق

فلم يملك ابن الحر أن تبسم وقال في دفعة : الحق ؟ أين الحق يا ولدى ؟

فتحرك القوم قلقين ، وقال أحدهم في صوت أجش :

ـ أأنكرت الحق يا أبا الاشرس وقد طالما نصرته ؟

فعاد ابن الحر الى الاطراق ، وانعقدت على وجهه عبسة وقال بعد قليل :

ـ وكيف أنكر الحق وقد قضيت العمر أنصره ؟ الا انى قد رأيت الناس قد صار أمرهم الى فتنة عمياء . أما سمعتم عبد الله ابن عمر صاحب الرسول يقول : « انها فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ؟ » ألا ترى ذلك يا أخا الازد ؟

فقال الرجل معبسا : انها كلمة قالها ابن عمر ليدارى بها ضعفه ، وما أنت وابن عمر ؟

فتحرك ابن الحر في شىء من الالم وقال :

ـ مهلا يا عمرو بن جندب ألم يكف هذا العالم من قد وثبوا به ؟ ألا يكفيك أن ترى في الشام مروان ، وفي البصرة ابن الزبير ، وفي فارس ابن الازرق ، وفي خراسان ابن حازم ؟ أتريد أن نثب نحن كذلك على الكوفة فنزيد في الفتنة عصبة أخرى ؟ وما الذى جد في أمرنا حتى تتحدث عن هذا الامر ؟ لقد أسلمت الكوفة أمرها الى ابن الزبير ، وما نحن والبصرة الا جناحا هذا العراق . ان في البصرة لقوما لا يقلون عنا عددا وليسوا دوننا شرفا ، قد أسلموا أمرهم الى ابن الزبير طائعين بعد أن ذاقوا مرارة الفتنة فيما بينهم . ألا تعرفون ما ذاقت البصرة من الويل اذ وثبت بكر بتميم ووثبت تميم بالازد ؟ ألا تذكرون ما حل بالبصرة من دمار وخراب ؟ أتحبون أن ينزل بهذا المصر ما نزل بأخيه من قبل ؟ هذا هو الاحنف بن قيس سيد تميم بالبصرة ، وهذا بكر بن وائل مع مالك بن مسمع ، وهذه الازد مع ابن عمرو ، قد اتفقوا جميعا على أن ينجوا من الفرقة وبايعوا لابن الزبير . أتريدون أن تبعثوا الحرب جذعة في الكوفة ؟

وكان ابن الحر يريد أن يستمر في حجته ، لولا أن قاطعه أحد الفتيان صائحا :

ـ لقد صدقت يا بن الحر ـ الك لست ترى شيئا

فخجل الشيخ وعبس عبسة مظلمة ، والتفت الى الفتى غاضبا وقال :

ـ ألمثلى يقال هذا يا مجشر ؟ أما والله لولا علمى بما عندك من المودة لاجبتك جوابا لا ترضاه

فقال المجشر معتذرا : لم أقصد يا أبا الاشرس كل ما هم بنفسك . ولا أقصد الا أن أقول لك انه قد جد في الامر جديد لا تعرفه . وقد كنا نحسبك قد سمعت بما كان

فسكن ابن الحر وقال هادئا : وما ذاك الذى استجد يا مجشر ؟

فقال الشاب في حنق : خرج ابن أبى عبيد ـ المختار بن أبى عبيد الثقفى وهو من قد عرفت ـ وثار أتباعه اليوم فقتلوا الشرط ، وهرب الامير ابن مطيع عامل ابن الزبير

فوجم ابن الحر ، ونظر الى القوم فاتحا عينيه كأنه لا يصدق ما يسمع ، ثم قال في شيء من العنف : أو قد تجرأ الرجل ؟

فاستمر المجشر قائلا : تجرأ منذ نصره ابراهيم بن الاشتر وحى همدان

فقال ابن الحر في دفعه : ابن الاشتر ؟

وتحرك القوم في قلق ، ونظروا الى الشيخ ينتظرون تتمة قوله ، وبعد حين قال :

ـ أما انها لغمرة .. كنت أعلم أن هذا الرجل لا بد موقد نارا في يوم من الايام ، ولكنى ما كنت أحسب ابن الاشتر يطيعه ..

فصاح جرير : لقد عرف ابن ابى عبيد كيف يشتريه .

فهز ابن الحر رأسه وقال في بطء : نعم انما هى صفقات بيع وشراء .. لقد كنت أعرف أن مثل ابن أبى عبيد لا يفوته أن ينتهز الفرص . ولا أظنه الا قد خرج مناديا بدم الحسين

فصاح الجمع قائلا : هي صيحتهم : يا لثارات الحسين !

فقال ابن الحر في حنق : بريء الحسين منهم ! ان مثله من يفعل هذا . أشهد لقد سمعت الصادق يحكي عنه أنه ما كان يبغض في الناس أكثر من بغضه عليا وولد علي

فقال المجشر بصوته الاجش : وهذا هو اليوم يزعم أنه مرسل من قبل محمد بن علي ليثأر لاخيه ، ويطالب بحق بيت النبي

فقال ابن الحر وكأنه في حلم : ما أكثر ما يتستر الناس بالحق ليبلغوا الباطل . لقد طالما كان الحق مطية للباطل

وأخذ كل من الفتيان يصف ما علم من حال المدينة وما صارت اليه أمورها ، ثم صاح المجشر متحمسا :

ــ فنحن اليوم بين أمرين لا غنى لنا عن الاختيار بينهما : نقيم في يد المختار الثقفي ، أو نخرج فننجو بقلوبنا وديننا

وشمل الجمع سكون مدة لحظات طويلة كانوا فيها ينتظرون جواب ابن الحر . كانوا ينظرون اليه ويرقبون حركات وجهه اذ هو مطرق واجم محمر الوجه . ويرهفون الاسماع لما ينطق به كأنما ينتظرون صوت القضاء . وكان ابن الحر في اطراقه يفكر وتتقاذفه الخواطر وتتجاذبه الميول . أيخرج عن عزلته التي ركن اليها ، وأمل أن يبعد فيها عن الفتن ليذوق السلام فيما بقي له من أيام ؟ أم يتبع فتيانه ويعود الى المعامع القاسية مرة أخرى غضبا من أن يتولى الامر من ليس له بأهل ؟ ومن يكون له الامر من بعد اذا هو لم يقع في يدي ابن أبي عبيد ؟ أيكون لابن الزبير الذي سمع ما سمع عن حرصه وفظاظته ؟ أم يكون لهذه الصبية من ولد يزيد بن معاوية ؟ أم لذلك الثعلب الشيخ مروان ابن الحكم ؟ أم يقع الامر لاحد هؤلاء الخوارج الذين ملأوا الارض صياحا ينادون بالحق وهم يفتكون ويعصفون بالحق ؟ لقد ذهب الذين كانوا أمناء على هذا الامر ، ولم يبق في الارض من بعدهم الا هؤلاء الذين يشترون ويبيعون . لا . لا . فما هو في شيء من أمرهم ، وليبق في عزلته فيفوز بما يستطيع أن يفوز به من الامن والدعة حتى يلحق بالذاهبين الابرار

ورفع ابن الحر رأسه في بطء وقال :

ــ أيها الشجعان ! لا أحسبكم تظنون بي الجبن عن خوض الحروب ، فلقد كنت كما تعلمون قرين الاخطار ، ولكني رأيت هذا الامر قد صار الى منازعة الاطماع بعد أن ذهب الاوائل بالحق الى القبور . فاذا أنا اليوم قاتلت ، فلن يكون قتالي الا في سبيل بعض من يريد شراء عرض من أعراض هذه الدنيا . ولن أبذل في سبيل هؤلاء نقطة من دماء المسلمين . لا لن أكون في مثل هذا أبدا

فعاد السكون لحظة أخرى طويلة ، وتردد الفتيان بم يجيبون ، وهم بين هيبة شيخهم

وحنقهم من تخذيله اياهم . ثم انفجروا غاضبين ، وجعل كل منهم يلقى اليه سهما من قوله ، وقام ابن الحر غاضبا مما جبهوه به ، وقال فى صوت متهدج : لقد بلغتم من عمكم فحسبكم !

فأحسوا عند ذلك الخجل مما قالوا وطأطأوا رؤوسهم ، وقاموا وهم يكتمون ما على ألسنتهم من ألفاظ الحنق ، ولكن المجشر التفت نحوه وهو منصرف وقال :

ــ أو تحسب يا أبا الاشرس أنك تقيم فى دارك آمنا ؟ والله لتعودن الينا اذا رأيت الطلب حثيثا فى آثارك . والله لن يتركك ابن أبى عبيد فى أمنك هذا . أقعد ما شئت فسوف يحتوشك الكلاب . ولئن عدت يوما الى ما ندعوك اليه الآن لتجدنا سراعا الى تلبية ندائك

ثم ذهبوا سراعا وهم صامتون ، وعاد ابن الحر الى مجلسه من ابنة عمه ، فأفضى اليها بما كان . وجعل يحدثها ويعيد عليها حجته التى رد بها الفتيان ، وكأنه أراد بذلك أن يسمع منها ما يقوى به نفسه ، اذ أخذ يشعر أنه قد خان الفتيان فيما عاهدهم من قبل عليه

ونظر الى سلمى ينتظر جوابها ويستوحى خاطرها ، فقالت وقد علمت ما يريد :

ــ أحسنت والله يا أبا الاشرس لو أن المختار يدعك وما أنت فيه . ولكن أكبر ظنى أن المجشر قد صدقك الوعيد . .

فأطرق ابن الحر حينا وكأنه زاجر بالطير قد تشاءم بالبارح ، وجعل يفكر فيما يكون ، ويكاد يرى حوادث المستقبل الجاهمة تمثل أمام عينيه . ولكنه كتم ما ثار فى نفسه من الهواجس ، ورفع رأسه وتكلف الابتسام ، وقال لامرأته فى قلة مبالاة :

ــ والله لو تعرضوا لى لما وجدونى كليلا . .

ثم انتقل معها بالحديث الى حيث كانا من قبل يتناجيان .

***

مر الصيف ومضى من بعده الشتاء ، وأقبل الربيع فى موكبه تهب فيه الريح رخاء ، وتسرح السحب البيضاء فى السماء الزرقاء ، يتخللها حاجب الشمس الوضاء والمرج فى حلته الخضراء ، والزهر يبسم للحياة الجديدة . وكان ابن الحر فى سبعمائة من فتيانه يقيمون بأرض السواد فيما يلى المدائن ، قد عسكروا هناك يستجمون بعد رحلة طويلة هبطوا فيها من الجبل لكى يأخذوا نصيبهم من أموال المسلمين قسرا

لقد صدق ما تنبأ به المجشر . ولم يستطع ابن الحر أن يقيم فى الكوفة آمنا فى عزلته . كان هناك فى مكانه الملحوظ لا يستطيع الا أن يكون موضع الأمل والخوف ، والا أن يكون مع قوم أو عليهم . كانت عزلته متهمة وكان زهده فى الامر مستنكرا . بعث اليه أشراف الكوفة أن يشاركهم فى الائتمار على المختار ، فلم يجب ورضى أن يتعرض لحقدهم غير آبه لشىء من سوء ظنهم . ولكن المختار ظن به الظنون ، اذ لم يره فى الوافدين عليه أو

الساترين فى مواكبه . فأوفد اليه الرسل يدعوه اليه ، فرد الرسل معتذرا ولم يذهب اليه، ثم ألح عليه المختار ولج هو فى الاباء حتى ساء ظنه به وأطاع وساوسه فيه . ثم أتاه الفتيان يوما يحملون اليه نبأ ما يدبره المختار للايقاع به ، فلم يكن له بد من الخروج معهم وقال لهم : « لقد بين الصبح لذى عينين » . ثم غادر الوطن معهم ، وخلف ابنة عمه وراءه ، وأمسك قلبه أن يخونه عند الوداع

وبقى فى فتيانه يجوسون خلال سواد العراق ، قانعا أن يأخذ من أموال الدولة نصيبه ونصيب أصحابه ، فكان يترصد للقوافل التى تحمل المال من الريف الى الكوفة ، فيأخذ منها ما يراه حقه وحق أصحابه ، ويكتب لصاحب القافلة براءة بما أصابه من المال ، ثم يعد الى الجبل ليقيم فيه بمن معه أحرارا بمنجاة من الفتن

وكان يوما عاصفا من أيام ذلك الربيع وقد مالت الشمس الى الغرب ، وصبغت الأفق بألوان الشفق ، واضطرب الهواء ، يخز الوجوه بقية من برد الشتاء ــ برد أصم يكاد من جفافه يشقق جلد الشفاه والأجفان

ونزل ابن الحر وفتيانه فى وهدة ملتفة الشجر عند المدائن، يكمنون فيها حتى لايبصرهم من يسير على الطريق الواضح . وأقاموا على مداخل الوهدة ربيئة تحرسهم من أرصاد العدو ، وجلسوا حول حفرة أوقدوا بها نارا وجعلوا يتذاكرون ما مر بهم من أحداث ذلك اليوم المليء . فقد بدأوه بغارة على ضياع قوم من همدان ، ثم ختموه بغارة على قافلة أخذوا من مالها نصيبهم ، وكتبوا بما أصابوه منها براءة لصاحب القافلة على ما اعتادوه . وكانت رحالهم وأحمالهم مبعثرة فى أطراف الوهدة تتخلل الشجر ، وتغطى الساحات الفسيحة التى بين الدحال الملتفة ، بعضها قائم وبعضها ملقى على جانبه فى غير نظام ، تنبىء كلها أنها ألقيت على عجل ، وأن أصحابها لا ينوون الاقامة هناك الا قليلا . وبقى الجمع فى سمره حتى غابت الشمس ، فهبوا جميعا للصلاة يؤمهم ابن الحر ، وهم من ورائه فى صفوف تضيق وتتسع بما ينفسح لها من الفضاء بين الشجر حتى اذا ما انتهوا من الصلاة ذهبوا الى رحالهم يلتمسون عشاء أو يستريحون ، وبقى ابن الحر مائلا على النار مفكرا ، ينظر الى لهيبها ويرى فيه صورا ينسج منها خياله قصة بعد قصة ويحمله على أجنحته الى الكوفة والى داره التى خلف فيها أم توبة من ورائه . وكان بين حين وحين ينظر نحو الغرب قلقا يحاول أن يرى ما بين الشجر فى ضوء القمر ، ثم يعود الى اطراقه ويميل على النار يتأمل ما تخيله له من الصور . وكان القمر قد توسط السماء وأوشك أن ينحدر الى الغرب ، عند ما لاح له شبح راكب يسرع بين الاشجار ، فقام نحوه فى لهفة حتى لقيه وقلبه يخفق قلقا الى ما يحمل من الانباء ، فنزل الراكب وسلم ، ثم سار الى جنبه صامتا كأنه يخشى أن يجهر بما يحمله . وبعد ريث قال فى صوت المواسى :

ــ لا يرعك ما حلت اليك يا ابا الاشرس . فشمر الى الحرب ولا تمهل

وكان هذا القول كافيا ليفهم ابن الحر كل ما يريد صاحبه أن يقوله ، وكان نفسه المرهفة قد أوحت اليه بكل ما كان . وقص الرجل عليه قصة قصيرة اذكت فى قلبه نارا تتأجج . فصاح بصوت ترددت أصداؤه فى الليل الساجى : يا غوثاه !

ثم ارتمى على جذع نخلة ووضع رأسه بين يديه . فتحركت الاغطية فجأة فى جوانب الرحال المنثورة بين الشجر ، وتهاوى الفتيان الى شيخهم يترنحون من أثر النعاس حتى التفوا به وجعلوا يتساءلون عما أصابه . فقص عليهم الرسول قصته :

ـ انتهب المختار ضياع ابن الحر وأحرق داره ، وساق امرأته سلمى النبيلة الى السجن

وانحدر القمر الى الغرب وطلع الفجر ، وكان ابن الحر وأتباعه سبعمائة فارس يمسحون بسنابك خيلهم عقود الندى الغزير المخيم على البساط الاخضر من عشب المرج عند مداخل الكوفة . ثم تسللوا من جبانة السبيع الى موضع السجن

كان الحراس قد هدأوا وغطوا رؤوسهم بالاكسية الصوفية الغليظة يستدفئون من البرد القارس ، ويصيبون من النوم اغفاءة فى السحر بعد أن تصرم الليل ، فأيقظتهم أصوات فتيان ابن الحر عند رؤوسهم يحطمون أبواب السجن ، وأفلت منهم من استطاع أن يهرب ، وما هى الا لحظات حتى كانت صيحات الفرسان تتردد فى سراديب السجن ، وانطلق ابن الحر يعدو فى تلافيف الحجرات والسيف مصلت فى يمينه وهو ينادى: «أم توبة! هذا ابن عمك أم توبة ! » فلما بلغ أقصى السجن سمع صوتا ضعيفا كأنه ينبعث من تحت أقدامه : « الى يا أبا الاشرس ! »

فاندفع كأنه الاسد الجريح نحو الباب المطاطىء الذى دونه فحطمه بدفعة من جسمه وطعن من رمحه ، ولم ينتظر حتى يجد آلة تعينه ، فاذا به يرى أمامه امرأته الحبيبة شبحا أصفر لا تكاد تقوى على الوقوف . فاحتملها بين يديه وعدا بها وهو صامت اللسان خافق القلب يمسك دموعه وهى تنازعه ، ويغالب اضطرابه ولا يكاد يغلبه ، حتى اذا بلغ رحبة السجن وجد أصحابه لا يزالون يضطربون ويحطمون ، فصاح بهم : « أطلقوا من تجدون فى حبس الطغاة . . »

ثم انتحى بابنة عمه ، فوضع عليها عباءته وفتح لها ذراعيه ، وقال لها : فداك دمى أيتها الحبيبة !

فاندفعت سلمى بين يديه باكية وهى تغمغم قائلة : نعم فتى الفتيان !

فقال ابن الحر وقد انطلق لسانه : اطلعى على أيتها الحبيبة كما تطلع الشمس المشرقة ، لقد بدا لى السجن كأنه السماء الصافية عند ما نظرت اليك فيه فانجلت ظلمته واتسعت حجراته التى تضيق على الدبى ، فاذا بها كأنها العالم كله . انت لى كل ما فى هذا العالم يا بنت الاكرمين . ويل هؤلاء الطغاة ما أغلظ قلوبهم اذ امتدت أيديهم اليك ، فيا بؤسا لهم وسأشفى منهم الغليل

فقالت أم توبة تهدىء من ثورته : لا عليك يابن العم فقد أشجى الله بك . .

فضمها الى صدره كما تضم الحمامة فرخها الى جناحها ، وقال وهو يهدر فى ثورته :

ـ لقد كنت أنا المحبوس المعذب بحبسك . وكنت أنا المظلوم بظلمك . ووالله لاثيرنها عليهم نارا لا تطفأ وزلازل لا تبقى ولا تذر . ولاوقعن بهم وقائع لا تبرح حتى تدك صرحهم الخاوى الذى لا قوام له الا على مثل هذا الجرم الشنيع

وفيما هو فى ذلك سمع حوافر خيل مقبلة ، فعلم أن عدوه قد نذر به وأرسل فى طلبه ، فأسرع الى فرسه وصاح فى فتيانه : هلموا الى الجبابرة الانذال . .

وسارع الفتيان اليه وركبوا من حوله وهو مردف حليلته من خلفه ، حتى خرجوا من السجن ، وكان صداما عنيفا

***

هدأ الليل وخيم الظلام فما تلوح فيه بارقة من النور ، وأغلق الناس أبوابهم عليهم ، ولم يبق الا العسس الذين يجوسون خلال الطرق على الخيل ، جردوا السيوف وأشرعوا الرماح ، يلتمسون من يكون قد حدث نفسه بوثبة أو اعتزم أن يهرب ناجيا من المدينة الصامتة . قد سكنت أنفاس الكوفة بعد أن كانت لا تستطيع الخمود وهدأت وهى التى لم يقو على كبح جماحها واذاعة الرعب فيها من قبل زياد ولا ابن زياد . كانت النجوم تلمع فوق الطرق الخالية الموحشة كما تلمع فوق المقابر المهجورة ، لا يبص شعاع من النور من باب مفتوح ، ولا يعلو صوت طفل فى دار حية ، كأن الموت قد نشر جناحيه على المصر كله ، وجعله خامد الانفاس

وكان حميد بن مسلم يسير متسللا بين البيوت المظلمة ، ويندس فى منعرجات الطرق وهو يتلفت ويترقب اذ هو متجه نحو جبانة السبيع ، يرجو أن يبلغها قبل أن يدركه الصباح حتى ينجو بنفسه من هؤلاء الشرط ـ شرط المختار بن أبى عبيد ـ الذين لا تفتر لهم حركة فى ليل ولا فى نهار ، يسيرون فى كل مكان لا يكاد يخلو منهم طرف من أطراف المدينة ، يذيعون الرعب بطلعة وجوههم الجاهمة . ما كان حميد بن مسلم ليأمل فى النجاة من الموت لو رآه أحد هؤلاء ، ولهذا كان يسير كأنه أفعى تنساب من جحر الى جحر ، ولا تزال تتمثل له صورة صاحبيه المسكينين عبد الله وعبد الرحمن ابنى صلخب ، يراهما أمامه كلما انعطف فى طريق . كانا يسيران معه يبغيان النجاة من الكوفة ، ولكن سوء الحظ عثر بهما فرآهما بعض هؤلاء الشرط ، فما أقبل الليل عليهما حتى كانا جثتين معفرتين تكشران عن الانياب على قارعة الطريق فى السوق . فكان يخيل الى حميد أنه يراهما وراءه يصرخان ويستنجدان به ، فيلتفت مذعورا الى ورائه ، ثم ينعطف فى أول درب يراه لعله يتخلص من الحاح هذه الصورة التى تتبعه أينما اتجه . وفيما كان حميد يسير فى ظلال البيوت وخياله يضطرب ، لاح له شبح فى آخر الدرب الذى دخله ، ورأى

الشبح يتجه نحوه فى حذر وتمهل . فوقف مضطربا وقلبه يخفق كأنه يريد أن ينخلع من صدره . ألا يكون هذا الشبح أحد هذا العسس الذى لا ينقطع دبيبه فى طرق المدينة ليلا ونهارا . فلزق بجدار بيت مهدم كان قريبا منه حتى يرى أين يتجه الشخص الذى بدا له . فرآه لا يزال يتجه نحوه كأنه يريده قصدا ، فوثب مسرعا حتى توارى وراء الجدار المتهدم ، وكتم أنفاسه المضطربة ، وجعل يدس بصره فى ثنايا اللبنات فى ذعر ، حتى اقترب الشخص منه ، فرآه رجلا يتسلل كاللص الهارب وهو يتلفت ويتحسس مواضع خطاه . فاطمأن بعض الاطمئنان ، ولكنه بقى حيث كان ، وكتم أنفاسه خشية أن يراه الرجل فيصبح صيحة فزع تنم عنهما جميعا . ثم رأى من خلال اللبنات أن الرجل ينظر الى الدار المهدمة كأنه يريد أن يدخل اليها . ثم رآه يسرع فيندس فى ثلمة منها ويتوارى وراء جدارها ، ثم رآه يتكمش ويندسس حتى صار قريبا منه ، ثم أسرع الرجل فى اضطرابه وتعثر حتى اصطدم به قبل أن يستطيع أن يبعد عنه . وما كاد الرجل يحس الصدمة حتى التفت مذعورا وصاح صيحة مكتومة ، وحاول الارتداد من حيث أتى فوقع ، ورفع يديه فزعا لا يدرى من يكون ذلك الشيطان الذى خرج له من بطن الخربة . فعلم حميد أنه لا بد أحد هؤلاء المساكين الذين ينسحبون فى كل ليلة من الكوفة يريدون النجاة بأكبادهم من عسف الطاغية ابن أبى عبيد ، فأشار اليه بيده أن يهدأ ، ثم اقترب منه وقال له هامسا:

ـ لا تخف فما أنا الا مثلك . .

فتمالك الرجل نفسه ، ثم قام وهو يعرج من أثر السقطة حتى اقترب منه ورفع عن وجهه اللثام الذى يغطيه ، وقال هامسا كذلك : وأنت من تكون ؟

فصاح حميد وقد عرفه : سراقة بن مرداس ؟

فرد سراقة فى مثل صيحته : حميد بن مسلم ؟ خفض صوتك فان العسس عند منعرج الطريق

وقبع الاثنان فى مكمنهما حينا ، ثم مال سراقة الى الارض فوضع عليها أذنه يتسمع وقع الاقدام والحوافر ، ثم قام الى صاحبه فقال :

ـ لقد بعدوا . أبعدهم الله ! أسرع قبل أن يقترب منا سواهم . انهم مثل الدبى لاندرى من أين يأتون

وسارا فى حذر يترقبان ، فخرجا من الخربة وما زالا يتلمسان أضيق المسالك وأبعدها عن الأحياء العامرة ، حتى بلغا جبانة السبيع وقد انتصف الليل وظهر القمر نصفا من الشرق وأرسل لمة من نوره المحمر ، فلاحت لهما شواهد القبور الممتدة الى مدى البصر ، قبور جيل من الذين مضوا من أهل الكوفة ولم يشهدوا المصارع التى روعت مصرهم ، وكانت أشلاء القتلى لا تزال مبعثرة فى الوهدات ، أشلاء من لم يدفنوا بعد من قتلى الموقعة الاخيرة بين المختار وبين أشراف الكوفة الذين ثاروا به . فأسرع الرجلان يخرجان من

منظر تلك الصحراء الموحشة التي شهدت مصارع عشيرتهما وبني عمومتهما في الثورة الخائبة

ولما بلغا الفضاء الأصفر الممتد وراء الجبانة أحسا شيئا من الامن ، وشغلهما التفكير في مصيرهما عن تذكر المأساة التي هزت الكوفة منذ أيام . واتجها في سبيلهما نحو الجنوب ينظران الى الافق البعيد الآمن من مثل ما هما فيه . فهناك من وراء ذلك الافق ريف البصرة حيث يقيم ابن الزبير في جيوشه الكثيفة يتربص الفرص بالجبار ، وهناك من ورائه ابن الحر في فتيانه لا يفتأ يجوب أرض السواد ، ولا يجرؤ المختار على قتاله ، وهو في كل يوم يهبط الى جانب من اقليمه فيشفي نفسه من هدم بيته وسجن امرأته . وهناك أشراف الكوفة الذين نجوا بأنفسهم بعد أن خابت ثورتهم ، وهربوا سراعا قبل أن يبطش بهم العدو المخيف ، قد أقاموا الى جانب ابن الزبير يتحرقون للانتقام ممن شردهم وقتل عشائرهم وأذلهم ، فحكم في مصرهم العبيد والموالي ، يذيعون فيه الرعب ويسيلون الدماء ــ دماء سادتهم الأقدمين الذين كانوا من قبل لا يتجرأون على أن يملأوا منهم الأبصار . ولما أوغل سراقة وحميد في الصحراء وعادت اليهما النفس ، قال حميد :

ــ وكيف نجوت من القوم يا سراقة ؟ انه لعجيب من أمرك أن تنجو من المختار برأسك وقد رأيتك منذ حين مقيدا يسعى به شرطة الله الى السجن . .

فضحك سراقة ضحكة حقد وقال بصوت أجش :

ــ ألا انها لشرطة الشيطان ! ما أنجاني منهم الا ايماني بنبيهم الخبيث

فقال حميد : وهل آمنت به ؟

قال سراقة : وشهدت له شهادة تنفعه عن حمقى همدان

فقال حميد ضاحكا : لقد كنت له وليا حميما . .

فقال سراقة : ما احتلت والله الا ابقاء على رأسي ودمي . لما أسرني الأشقياء قلت ان الاجل قد دنا ولا بد لي من الاحتيال اذا أردت الحياة وتمثلت دمائي سائلة ورأسي المقطوع ملقى في حجر امرأتي ، فزدت حرصا على الحياة وجرأة على الحيلة . فقلت أكذب كذبة تنجيني من الموت ، وصحت مبادرا : أتظنون أيها القوم انكم أسرتموني ؟ لا والله ما أسرني الا قوم على خيول بلقاء تطير بين السماء والارض . ما أسرني الا الملائكة الذين أرسلهم الله ليحاربوا للمختار . فصاح الحمقى ايمانا ، وضحك بعضهم وكادوا يفطنون الى الخدعة . فجعلت أحلف لهم واجتهد في اليمين ــ ولا أذكر أنني اجتهدت من قبل في يمين مثلها ــ حتى صدقوا وآمنوا . فلما بلغ الخبيث قولي سره ورآه ينفعه ، فأمر بي ، فأحضرت الى مجلسه

فقال حميد : لتكون شاهدا على صدقه

فقال سراقة : وذهب بي الشرط الى المسجد ، وكان المختار جالسا عند المنبر ومن حوله أصحابه وأمامهم الكرسي المقدس . .

فقال حميد ضاحكا : كرسي جعدة بن هبيرة ؟

فقال سراقة : الكرسي المزيت . كان الديباج يستره كأنه جانب من الكعبة . ومن حوله السدنة يحفظونه من المس ، والحمقى من همدان يبتلون عنده ويتعبدون ويقولون كرسي الامام . .

فقال حميد : قبح الله جهلهم . ما كان الامام علي يرضى بذلك لو كان ذلك كرسيه

فقال سراقة مستمرا : فجعل المختار يسألني ويحرضني على الكذب ، ولا أشك في أنه كان عالما بكذبي . فجعلت أعيد قولي على الملأ من أصحابه ، وأعدت يميني وبالغت في كذبي واخترعت الصور ، وجعلت أصف الملائكة الذين أسروني وملبسهم وأجنحتهم الفضية الشفافة . وكان وصفي جديرا بقصيدة مما يتقرب به الى الملوك

فقال حميد : ولعله أجازك على كذبتك ؟

فقال سراقة : والله لو رأيته وهو يهتز ويطرب كلما نطقت بكلمة ، لاعجبك ما ترى. حقا ان النفاق أحب قربان عند الطغاة . تقول لعله أجازني ؟ وهل كانت عندي جائزة أحب من رأسي ؟ ولكنك لم تخبرني ما الذي أخرجك أنت ؟

فقال حميد : أخرجتني الصيحة . ألا تعلم أنني كنت في جيش ابن زياد ؟

فقال سراقة : وخشيت أن تطالب بدم الحسين ؟

فقال حميد : كم من الدم يسفك باسمه وهو منه بريء . نعم أنها صيحتهم . يا لثارات الحسين !

ووقف حميد عن حديثه ، ونظر نحو الافق مليا ، ثم قال : ألا ترى هذا ؟

فنظر سراقة الى الافق ، وقال في جزع : انها خيل . . أما من مقبرة في هذا الفضاء تتوارى بها ؟

فقال حميد بعد أن حدق في الافق حينا :

ـ لا أظن شرطة الله تبلغ هذا الموضع . . أما سمعت أن ابن الحر هناك ؟ أنه لا يدع للمختار سلاما ، ولا يجرؤ الجبار على الخروج اليه . .

فقال سراقة : ومن أدراك أنه هناك ؟ . .

فقال حميد ولا يزال ناظرا الى الافق :

ـ أغلب ظني انها خيله . لقد كنت على موعد معهم . . أن أهرب لالقاهم هناك

فهدأ سراقة ، وسار مع صاحبه يتم له حديثه ويصف ما بقي من قصته . وكانت الشمس قد علت في السماء وأضاءت فضاء الصحراء ، وأعادت الى الرجلين ما ذهب الليل به من روعهما . فما زالا سائرين حتى انتهيا الى معسكر الفتيان

***

مضى على الكوفة عام في حكم المختار ، شهدت فيه المدينة مصارع أبنائها من الاشراف والابطال يفتك بهم الجبار واحدا بعد الآخر ، مستعينا بالعبيد الذين أطلقهم من رق

السادة ، وبالموالى الفرس الذين كانوا يتطلعون الى الحرية ، ويتحرقون للانتقام من أولئك الذين أذلوهم وأصغروا شأنهم فى بلادهم ، ثم ذهبت دولة المختار فجأة كأن لم تكن . كانت قائمة على الرمال ، فما هو الا أن صدمها ابن الزبير ومن معه من تميم وبكر والازد ، ومن انضم اليه من أشراف الكوفة ، حتى انهارت وتحطمت بين عشية وضحاها ، وكان ابن الحر وفتيانه فى طليعة الفرسان الذين دخلوا مصرهم وألحوا فى القتال على الطاغية حتى قتلوه ، واستسلم من معه من عبيد وموال ، وأصبح ابن الزبير سيد العراق بلا منازع

وطلع الربيع ليشهد ابن الحر مرة أخرى فى داره بالكوفة ، وقد أعاد بناءها وأرجع اليها رونقها ، ولكن الدار لم تكن على سابق عهدها ، اذ لم تكن فيها الزهرة البسامة التى كانت تزينها . لم تكن سلمى ابنة عمه هناك تملؤها حياة وبهجة وجمالا ، اذ أرسلها ابن الحر الى أهلها فى اليمن حتى لا تصل اليها أيدى الطغاة ، وتقذف بها فى السجن مرة أخرى . وماذا كان يتوقع ابن الحر من هؤلاء الذين أعانهم على بلوغ النصر وحيازة السلطان ؟ انه لم يجد المصعب خيرا من المختار ، ولم يكن ليحظى فى الدولة الجديدة بشىء فاته فى الدولة التى حطمها . وهل كان مثله ليجد الحظوة عند سلطان يطمع فى بسط يديه بكل ما شاء من عسف ؟ هل كان مثله ليتقرب الى أمير لا يحتمل أن يرى رجلا يرفع دونه رأسا أبيا أو يجهر برأى جرىء ؟

كان ابن الحر فى فناء داره واقفا ينظر الى فتيانه وهم يسرجون خيلهم ويلجمونها ويستعدون للركوب ، فما كانت الكوفة لمثله دارا ، كان اليوم من تلك الايام التى تبعث فيها الصحراء أنفاسها المحرقة فجأة فى أعقاب الشتاء ، فاذا بالحر اللافح يكاد يحرق الوجوه ، بعد أن كان الامس يلسعها ببرده القارس

ولجأ ابن الحر الى ظل شجرة ووقف ساهما وعلى وجهه المحمر وجوم وتعبيس ، كأن الشرر يتطاير من عينيه اللامعتين ، وكان حينا يعبث بلحيته السوداء التى لم يزدها الشيب بياضا بعد عام ملىء بالقتال المر والجهاد العنيف ، وحينا ينظر قلقا نحو أصحابه يستعجلهم للمسير . وكان قلبه يتقد ويضطرم بين أضلاعه ، كلما تذكر الحوادث التى تقلب فيها مدة هذا العام . كان عبد الله ابن الزبير فى الكوفة مثلما كان المختار ، أليس أخوه المصعب يطغى ويسفك الدماء ؟ ألم يقتل الالوف الذين استسلموا له فى القصر بعد أن هلك المختار ؟ أليس هو الذى قتل النساء والضعفاء ؟ ألم يقتل عمرة ابنة النعمان لانها لم تشهد على زوجها المختار بالكفر ، بل قالت فيه ما تقوله فى زوجها المرأة الوفية ؟ وما قتل النساء فى شؤون الرجال ؟ لقد صدق عمر بن أبى ربيعة اذ قال فيها :

ان من أعجب العجائب عندى قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول

كان قلب ابن الحر يغلى كالمرجل وهو واقف تحت الشجرة ينظر الى فرسانه ويستبطىء استعدادهم . وكان بين حين وحين ينطق بكلمة حانقة . فما الذى بعثه على أن يشارك فى اقامة هذه الدولة الجديدة ويعينها على الانتصار الذى انتهى الى تجديد العسف والبطش ؟ أما كان أولى به لو خرج مع فتيانه الى الارض الفسيحة وحدهم ، فيقيم معهم حيث تحلو لهم الاقامة بعيدين عن هذا العالم كله ، حتى تنقضى بقية أيامه ، ويدفنه أصحابه حيث يوافيه أجله فى بعض وديان الجبال التى شهدت اضطرابه ؟ كان يلوم نفسه أشد اللوم وهو يذكر ما آل اليه أمره مع المصعب ، فانه لم يجد عنده الا الحسد وسوء الظن ثم الظلم . نعم الظلم الفادح الذى كوفىء به على كل ما بذله مع فتيانه فى القتال الوعر . قذف به المصعب فى السجن، وهو الذى لولاه لم يجرؤ على أن يطأ أرض الكوفة، أيقذف به فى السجن المظلم الذى قذف المختار فيه ابنة عمه من قبل ؟ ان وسيلة الطغاة واحدة وان اختلفت الاسماء ، انها لذكرى أليمة كانت تطعن قلبه كلما عادت اليه ، وتوقد فيها النيران

وصاح عند ذلك بفتيانه يستعجلهم فى جفاء، ولكنهم كانوا لا يزالون يستعدون للرحيل. فعاد الى خواطره الحانقة وقد هجمت عليه وتزاحمت فى خياله . لقد كان أشد من السجن على نفسه أن المصعب لم يطلقه حتى بعث اليه يرجوه ويسأله العفو عما لم يرتكب من الاثم . سأله العفو لانه ضاق بالسجن، ولم تحتمله نفسه التى تعودت أن تجوب الآفاق. كان القتل نفسه أهون عليه من المقام فى ذلك السجن المظلم الضيق الذى لا يليق بالاحرار، كما لا يليق القفص الضيق مقاما للاسود . ولقد حاول أن يتدارك أمره بعد أن أفلت من يديه ، فبعث الى فتيانه وواعدهم أن يأتوا اليه ليخرجوه من السجن قسرا ، ولكن المصعب كان قد لبى رجاء شيوخ مذحج الذين بعثهم ابن الحر ، يتوسل بهم اليه ليطلقه ، فأصبح طليق المصعب وأسير كرمه . أيستطيع بعد ذلك أن يبقى فى الكوفة لكى يتذكر كل يوم أن المصعب من عليه ؟ ان فى ذلك اذلالا لكبريائه . أيستطيع أن يسير فى طرق الكوفة لكى تشير اليه الاصابع : هذا هو ابن الحر الذى انحنى وتحطم أنفه وذل ، فطلب العفو من ابن الزبير ؟ أيتحدث الناس عنه قائلين : انه يقيم فى الكوفة آمنا فى كنف الامير الكريم شاكرا له عفوه قانعا أن يفوز عنده بالسلام ؟

وطال على ابن الحر الانتظار وان كان لم ينتظر سوى سويعات . ولما ضاق صدره صاح فى حنق :

ــ ماذا دهاكم أيها الفتيان ؟ أين المجشر ؟ أين جرير بن كريب ؟ أين دلهم المرادى ؟ أين عمرو بن جندب ؟ ماذا يقعد بكم ؟ ويحكم !

فتصايح أصحابه من أركان الفناء يلبون نداءه ، وذهب فى قلقه يسير مسرعا يتنقل بين الفرسان يحرض هذا ويستعجل ذاك حتى بلغ فرسه ، فأخذ بعرفها ووثب فوق ظهرها عريا لا سرج عليها ، وصاح قائلا :

ـ من أراد التريث فليتخلف ورائي ..

ثم غمز الفرس فوثبت به كأنها ظبي جافل . ولما رأى أصحابه هذا ، تواثبوا سراعا حتى لحقوا به قبل أن يخرج من الدرب ، ولم يقف لحظة لينظر الى الوراء ، وماذا كان خلفه في تلك الدار ؟ لم تكن ابنة عمه هناك حتى يردد اليها البصر قبل الفراق

ولما خرج من الكوفة نظر أول مرة الى خلفه ، ولم يملك قلبه من خفقة ، ولم يملك صدره من نفس عميق . هذه الكوفة وطنه يتركها وراءه وما يحسب أنه اليها يعود . وقال عند ذلك كأنه يعزي نفسه ويقويها على الرحيل :

لا كـوفة أمي ، ولا بصرة أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل

ثم همز الفرس مرة أخرى فانبعث به طائرة ، وفتيانه من ورائه مثل سرب الطير اذا سارت في الاسراب الصقور

ولما بلغ بهم السير حافة الريف وانطلقوا في طريق المدائن ، أحس أن الضباب الذي كان يظلم صدره قد انجلى ، وتنفس نفسا عميقا آخر ، وعطف فرسه فأدار وجهها الى فتيانه الذين لحقوا به ، ورفع رمحه اليهم وصاح في مرح : الى الفضاء الفسيح لنعيش كراما!

فرفعوا جميعا رماحهم وصاحوا : أو نموت كراما !

ثم همزوا الخيول ، فانطلقت بهم نحو المدائن والجبال

محمد فريد أبو حديد



فكاهة ساخرة فى فصل واحد للكاتب الروسى الكبير انطوان تشيكوف

الجلف

نقلها الى العربية

الأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى

نماذج الادب الروسى فى المسرح العربى قليلة لا يتجاوز ما طالع الجمهور منها بوادى النيل عدد أصابع اليد الواحدة . وما أحسبنى مخطئا اذا قررت ان الفرق المصرية لم تقدم حتى اليوم غير ثلاث مسرحيات : اثنين منها (لتولستوى) وهما «البعث» و «أنا كارنينه» وواحدة (لدستويفسكى) وهى « الجريمة والعقاب » . وهذا قليل من كثير ، اذ أن الادب الروسى غنى بنفائسه الفنية

وهذه هى مسرحية « الجلف » من تأليف (أنطوان تشيكوف) ثالث ثلاثة بين أنبغ كتاب الروس ، يؤلفون بحق قسما ثلاثا وسط سلسلة الراسخات من القمم السامقات فى عالم التأليف المسرحى عامة

والمقام لا يتسع للكشف عن مفاتن هذه المسرحية من حيث السياقة ولطف الحوار ، ومن حيث معالجتها الخالد من الحقائق النفسية ، ويكفى أن نشير الى أن المؤلف وضع أصبعه على حقيقة سرمدية فينا ، وهى أن الحقد والحب ــ وهما عاطفتان قويتان ــ انما هما طرفا انفعال نفسى عنيف يعصف بالقلب ، فاذا هو يتأرجح بينهما بحركة لا شعورية ، وسرعان ما يحب المرء ما يكره ويعود فيكره ما يحب ! وثمة ظاهرة أخرى تطالع المتأمل هذه المسرحية ، وهى أن بطليها يصدران فى أقوالهما وفعالهما بغير ما يختلج فى أعماق نفسيهما ، فكأن لكل منهما شخصيتين متناقضتين فى آن واحد . وازدواج الشخصية فى الكائن الانسانى أمر قرره علم النفس فى أحدث مراحله ، بعد أن فات زمن على وفاة تشيكوف مؤلف هذه المسرحية ، اذ لا يخفى أن العلامة النفسى (سيجموند فرويد) لم يطلع علينا بنظرياته فى ازدواج الشخصية البشرية وفى العقل الباطن والظاهر الا منذ عهد قريب

واهتداء تشيكوف الى هذه الحقيقة النفسية قبل أن يرسم العلم لها النظريات ويضع لها المعالم والحدود ، أمر يقيم الحجة على صدق بصيرة هذا الكاتب ، وعمق تنقيبه فى حنايا النفس ، واقتناص الشارد المقنع فيها . وهذا فضل كبير يضفى على مؤلفاته طابع الادب الرفيع ، الخالد بصدق ما فيه ، الادب الذى يخاطب الانسانية بأسرها متجاوزا فروق العقيدة واللغة والديار

شخوص المسرحية :

هيلينا بوبوف . . . . أرملة وسيمة فى مقتبل العمر من ذوات الأملاك بالريف

جريجورى سميرنوف . . فى نضوج الرجولة ومن ذوى الأملاك بالريف

لوكا . . . . خادم مدام بوبوف ، فى مهبط العمر

[تجرى الحادثة فى قرية بأحد أقاليم روسيا]

(يرفع الستار عن حجرة جلوس بمنزل السيدة بوبوف - تبدو السيدة المذكورة وهى تنشج بالبكاء ، وقد أدارت عينيها بين صورة فوتوغرافية وبين الخادم لوكا)

لوكا - ليس هذا من العقل فى شىء يا سيدتى . قصارى عنك هذا انك تفنين نفسك هنا .. روحى عنك وترفقى بنفسك ، فالدنيا ما زالت على عهدها خيرة بسامة ، والحياة ما برحت غلابة بمباهجها . تأملى .. لقد انطلق الطباخ والخادمة يجمعان ثمار (الشليك). كل حى ينشد المتعة حتى القطة فانها تعرف كيف تلهو ، كيف تستمتع . انها تنساب فى الحديقة لاقتناص الطير . أما أنت فلا تغادرين منزلك وكأنك راهبة فى دير وقد زهدت فى كل لذة وصدفت عن كل بهجة . هذا هو الواقع بعينه لو تأملت حالك .. انك لم تفارقى المنزل طيلة هذا العام

مدام بوبوف - ولن أفارقه .. ولماذا أفعل وقد انقطع ما بينى وبين الناس . ان زوجى مسجى فى قبره ، فلأبقين بدورى مغيبة بين هذه الجدران . كلانا فاقد الحس

لوكا - ها قد رجعنا الى كلام البائس المحزون . مات زوجك نيقولا ميهيليتش وهذه ارادة الله . وقد بكيته أحر بكاء وفى هذا الكفاية . ليس فى وسعك أن تقضى بقية حياتك فى لبس الحداد وذرف الدموع . ماتت زوجتى فبكيتها لشهر ويزيد ، ثم انتهى الامر . ما هذا ؟ ان الامر لا يستحق أن نفنى رثتينا نشيجا وبكاء . (يتنهد) نسيت جيرانك حتى أنك لا تستقبلين من يفد منهم علينا . انا نعيش كالعناكب ، نهرب من كل ضوء يدخل علينا . أردينى أصبحت مائدة شهية للجرذان لطول عهدها بالحبس . هل أقفرت الدنيا من خيار الناس حتى تغلق علينا الابواب؟ لا .. ان الحى يفيض بالاعيان وبالصحبة الفاضلة . عسكرت فى (ريبلوفو) فرقة من الجند . ما أجمل الضباط وهم يتطاوسون فى لباسهم الانيق الموشى ! انهم بهجة العين الحزينة . يحيون حفلة راقصة فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتعزف موسيقاهم فى كل يوم . آه يا سيدتى العزيزة . انك ما زلت شابة مونقة كالزهرة فى أكمامها ، وليس لك الا أن تعيشى وتسعدى وتمرحى كما يحلو لك .

احذرى ، فان جمالك لن يدوم طيلة حياتك ، ولن تكونى كذلك بعد انقضاء عشرة أعوام ، وقد يحلو لك اذ ذاك أن تبهرى الضباط بمحاسنك ، ولكن الوقت يكون قد فات

مدام بوبوف ــ (فى عزم) أرجوك ألا تتحدث الى بمثل هذا أبدا .. أنت تعلم أن الحياة بعد موت زوجى اصبحت وليس لى فيها مذاق . قد يبدو لك أننى أعيش كسائر الخلق ، ولكن هذا وهم . أقسمت ألا أخلع ثياب الحداد عليه ما دمت حية . أفهمت ؟ فلعل روحه تدرك مبلغ حبى له . نعم ، أنت تعرف كل شىء . كان أحيانا يقسو على ، يخوننى ، ولكننى سأظل وفية حتى القبر ، لأريه كيف أحب وأخلص فى الحب

لوكا ــ خير لك من هذا الكلام أن تخرجى للنزهة فى الحديقة ، أو أن تأمرى بتطهيم أحد جواديك « طوبى » أو « جيانت » وشده الى العربة لتزورى جيرانك

مدام بوبوف ــ آه .. (تنتحب)

لوكا ــ سيدتى . سيدتى العزيزة ترفقى بنفسك وليكن الله فى عونك

مدام بوبوف ــ كان يحب « طوبى » ويؤثره على الجياد كلها ، وكان يسرجه فى العربة ليقودها بنفسه كلما ذهب الى زيارة بعض العائلات . ما كان أبهى منظر زوجى وهو منحن على اللجام بكل قوته . ألا تذكر ؟ توبى .. قدم له مزيدا من العلف اليوم

لوكا ــ حسن يا سيدتى

(يسمع دق جرس)

مدام بوبوف ــ من يكون القادم ؟ قل اننى لا أستقبل أحدا ..

لوكا ــ أمرك يا سيدتى (يخرج)

مدام بوبوف ــ (محدقة فى صورة فوتوغرافية لزوجها) سترى يا نيقولا الى أى مدى يبلغ حبى ويكون صفحى . لن يزول هذا الحب الا بزوال أنفاسى (تبتسم وسط دموعها) ولكن قل لى . ألا تشعر الآن بالخجل ؟ أنت ترى أننى ما برحت المرأة الوفية والزوجة المخلصة ، انقطعت عن العالم لأعيش بذكراك حتى يحتوينى القبر .. هذا فى حين أنك كنت ــ آه ألا تخجل الآن أيها الاحمق ــ كنت تخوننى وتؤذينى وتسومنى الاهمال

(يدخل لوكا مفزوعا)

لوكا ــ شخص يسأل عنك ويطلب مقابلتك ..

م . بوبوف ــ ألم تخبره بأننى منذ وفاة زوجى لا أقابل أحدا ؟

لوكا ــ أخبرته ، ولكنه أبى أن يصغى الى ، يقول انه جاء من أجل مسألة عاجلة ..

م . بوبوف ــ لن أقابل أحدا ..

لوكا ــ أفهمته هذا ، ولكنه .. زمجر وتوعدنى بالاقسام ودفعنى أمامه مقتحما الباب . هو الآن فى غرفة المائدة

م . بوبوف ــ (متضايقة) حسنا .. فليأت الى .. يا له من جلف ثقيل ..

(يخرج لوكا)

م. بوبوف ـ شدما أضجر وأشقى بهؤلاء الناس! ماذا يبتغون منى؟وعلام يقطعون على هدأة صفوى ؟ (تتنهد) لم يبق الا أن أنقطع فى دير بعيدة عنهم (مفكرة) نعم فى دير
(يدخل لوكا ومعه سميرنوف)

سميرنوف ـ (موجها الكلام الى الخادم لوكا وهو يجتاز عتبة الدار) يا لك من أحمق ولوع بالكلام والجلبة . أنت حمار (يرى مدام بوبوف فيتكلم فى أدب) سيدتى لى الشرف فى أن أقدم نفسى اليك .. أنا جريجورى ستيبانيتش سميرنوف من ذوى الاملاك ، وضابط متقاعد من فرقة المدفعية ، أجبرتنى الظروف على أن أزعجك بحضورى من أجل مسألة هامة لا تقبل التأجيل

م. بوبوف ـ (من غير أن تمد يدها اليه) ما عسى أن أفعله لك ؟

سميرنوف ـ زوجك المرحوم ـ الذى كان لى شرف معرفته ـ استدان منى مائتين وألف روبل بموجب صكين . ولما كنت مجبرا فى الغد على تسديد أقساط مالية الى البنك ، فأرجو أن تدفعى لى هذا المبلغ اليوم ..

م. بوبوف ـ . . . مائتين وألف روبل ! لاى غرض استدان زوجى منك هذا المبلغ الكبير ؟!

سميرنوف ـ انها ثمن قرطم اشتراه منى لاجل علف الخيل

م. بوبوف ـ (متنهدة وناظرة الى الخادم) لا تنس أن تذكرنى بأنك قدمت مزيدا من العلف « لطوبى » ـ (يخرج لوكا) ـ (الى سميرنوف) ما دام زوجى مدينا لك فلا بد لى من سداد دينه . ولكن أرجو المعذرة اذا لم أستطع أن أدفع اليوم ما عليه . سيعود وكيل أعمالى بعد غد ، وسآمره أن يدفع لك ما تستحق . وفوق هذا فانه لم يمض على وفاة زوجى حتى اليوم سوى سبعة شهور بالتمام، وأرانى على حالة نفسية لا تحبب الى التحدث فى شؤون المال

سميرنوف ـ وأنا يروق لى أن أطلق رصاصة على رأسى اذا لم أستطع الدفع فى الغد لانهم يبيعون أملاكى

م. بوبوف ـ ستأخذ مالك بعد غد

سميرنوف ـ أريد مالى اليوم لا بعد غد

م. بوبوف ـ معذرة فأنا لا أستطيع الدفع اليوم

سميرنوف ـ وأنا لا أستطيع الانتظار الى بعد غد

م. بوبوف ـ وماذا أفعل ما دام المبلغ المطلوب ليس فى حوزتى

سميرنوف ـ اذن أنت عاجزة عن الدفع ؟

م. بوبوف ـ نعم عاجزة عن الدفع

سميرنوف ـ حسن . هذه هى كلمتك الاخيرة ؟

م. بوبوف ـ نعم ..

سميرنوف ــ الاخيرة ؟ أى لا سبيل الآن الى الدفع مطلقا
م. بوبوف ــ مطلقا
سميرنوف ــ لك وافر الشكر . وسأذكر لك هذا الجميل . (يهز كتفيه) أعجب كيف أحتمل كل هـذا ساكنا .. مررت عند مجئى بالصراف فسألنى : « لماذا أراك حانقا يا جريجورى سميرنوف ؟ » خبرونى بالله كيف لا أحنق ولا أحزن وأنا فى أشد الحاجة الى المال . غادرت منزلى قبل طلوع فجر الامس وطفت على كل من يدين لى بمال . ولكن واحدا منهم لم يدفع لى دينه . وهأنا ذا بعد طوافى أعود منهوكا كالكلب المتعب . اضطررت الى أن أبيت ليلتى فى فندق حقير وصاحبنى فى حجرتى برميل من براميل (الفودكا) وأخيرا حضرت الى هنا بعد أن قطعت خمسين ميلا من منزلى ، وبى أمل أن أحصل على مالى ، ولكنى لم أحصل الا على اعتذارات وتمحلات . أتساءل كيف ما برحت مالكا روعى ؟
م. بوبوف ــ أعتقد أنى أوضحت جليا أنه متى عاد وكيل أعمالى من المدينة دفعت لك المبلغ المطلوب ..
سميرنوف ــ جئت لمقابلتك أنت لا لمقابلة وكيل أعمالك . الى الشيطان وكيلك هذا ــ عفوا على هذه اللهجة ــ مالى وله ؟
م. بوبوف ــ عفوا يا سيدى ، فأنا لم أعتد سماع هذه اللهجة النابية ، ولهذا لن أستمع الى ما تقول .. (تخرج مسرعة)
سميرنوف ــ ما العمل ؟ انها على حال نفسية عجيبة .. فى حين أنه قد انقضت سبعة شهور على وفاة زوجها .. مالى ولهذا ؟ لا أدفع ؟ أسألك ألبس على أن أدفع ؟ توفى زوجك ، وما زلت على حالة نفسية عجيبة ، وقد سافر وكيل أعمالك الى جهة ما ، الى جهنم ، ولكن خبرونى ماذا أفعل ؟ أأهرب من الدائنين راكبا متن الريح أم ماذا ؟ أنطح برأسى عرض الحائط ؟ طرقت باب « جروسديوف » فأخبرت أنه خرج . وقصدت «ايروسفتش» فاذا هو مختف لا أثر له وكدت أقذف «بكورزين» من النافذة بعد شجار عنيف ، « مازوتوف » صريع المرض ، وهذه السيدة على حالة نفسية .. امتنع كل هؤلاء الملاعين عن سداد ما عليهم .. والسبب فى هذا أنى أخذت باللين فى مطالبتهم ، انى غر متخاذل فى المطالبة ، وبى رقة قلوب عجائز النساء ، ولكن صبرا . سأريكم ما فى وسعى عمله ، لن أدعهم مرة أخرى يجعلون منى أبلها ، لعنة الله عليهم . سأبقى هنا حتى تدفع . شد ما أحس الثورة فى أعصابى . أعضاء جسمى تنتفض من الغضب . أرانى أتنفس فى صعوبة .. أواه .. اننى حقا مريض .. (يصيح مناديا) ايه .. من هنا ؟
لوكا ــ (داخلا) ماذا تريد ؟
سميرنوف ــ على بشىء من الجعة أو بقدح ماء (يخرج لوكا) نعم يا له من منطق !! حاجتى الى المال دونها كل حاجة ، حتى لم يبق أمامى الا أن أشد عنقى الى حبل ، وهى

مع هذا لا تريد أن تدفع ، ولماذا ـ وأرجوك المعذرة ـ لانها لايروق لها أن تعالج شؤون المال . حقا انه لمنطق نسائى أصيل . من أجل هذا لم أحب ، ولا يروق لى أن أبادل امرأة حديثا ، وخير لى أن أجلس فوق برميل ملؤه البارود من أن أجلس الى حديث امرأة . ماذا دهانى ؟ أحس قشعريرة فى كل جسمى ، شد ما أسلمتنى هذه المخلوقة الانثى الى الانفعال ، حقا انه يكفى أن أرى مخلوقة شاعرية كهذه على بعد حتى تصلب ساقاى غضبا ، يلوح لى اننى أصيح : النجدة . .

لوكا ـ (يدخل لوكا ويقدم له قدح ماء) سيدتى متوعكة ولن تقابل أحدا . .

سميرنوف ـ أغرب عن وجهى . . (يخرج لوكا) انها متوعكة ولن تقابل أحدا . . . حسن جدا . . لا تكلفى نفسك مشقة المجىء . . سأبقى هنا حتى تدفعى لى نقودى . اذا مرضت أسبوعا فسأمكث هنا اسبوعا ، واذا لزمت الفراش عاما فسأبقى هنا عاما . سأسترد نقودى . لن يؤثر فى لباس الحداد الذى ترتدينه ، ولن تهزنى غمازات خديك يا حسناء . كلنا يعرف ما هذه الغمازات ؟ (يصيح من النافذة) سميون سرح الجياد فلن أسافر الآن ، قل لهم فى الاصطبل أن يقدموا للخيل علفا . أيها الاحمق لقد خلفت الجواد الايسر تتعثر قدمه باللجام . (مفرطا فى التعبير بقسمات وجهه) هذا حسن .·. على غاية ما يرام . وسأريك يا سيدتى اذا كان كل شىء سيجرى على غاية ما يرام (يترك النافذة) حر شديد ، وافلاس على أحسن ما يكون ، لم أمتع بالنوم ليلة البارحة ، ولن أمتع اليوم بغير سماع تحيب هذه الانثى ! رأسى يؤلمنى . . أأتناول شيئا من الفودكا ؟ (ينادى) الى

لوكا ـ (داخلا) ماذا تريد ؟

سميرنوف ـ أحضر لى قدحا من الفودكا . (يخرج لوكا) أوه (متفحصا هندامه) فى الحق اننى ممشوق القوام . ولكننى أغبر ، ملوث الحذاء بالوحل ، ووجهى لم يغسل ، وشعرى لم يمشط وسترتى ما زال يعلق بها التبن ! لا غرابة فى أن تحسبنى السيدة من قطاع الطريق . (يتثاءب) ليس من اللياقة أن أمثل فى غرفة الجلوس وأنا على هذه الحال . ولكن لا حرج على . . لست ضيفا ، وانما أنا دائن يطالب بما له ، ولم توجد بعد ملابس رسمية يرتديها الدائنون

(يدخل لوكا)

لوكا ـ (مناولا اياه قدح الفودكا) تساق فى حريتك الى مدى بعيد يا سيدى . .

سميرنوف ـ (غاضبا) ماذا تقول ؟! . .

لوكا ـ لا شىء . . أردت فقط . .

سميرنوف ـ من تخاطب ؟ اخرس

لوكا ـ (مديرا وجهه) انه لطاعون .·. لقد دفعت به الينا ريح خبيثة (يخرج)

سميرنوف ـ آه . . شد ما أنا غاضب محنق ! لى رغبة فى أن أحيل العالم كله بارودا متفجرا . أحس أن بى مرضا . . . (يصيح) هيا . . تعالوا . .

(تدخل مدام بوبوف مطرقة بنظراتها الى الارض)

م. بوبوف ــ سيدى ، فى وحدتى هذه مضى زمن طويل لم آلف فيه سماع أصوات الآدميين ، فلا أقدر ، والحالة هذه ، على احتمال الصخب والصراخ . لهذا أبتهل اليك الا تعكر على السكون الذى يحيطنى . .

سميرنوف ــ ادفعى لى الدين ، أرحل . .

م. بوبوف ــ صارحتك بلغة أهل هذا البلد بأن ليس فى حوزتى الآن نقود . انتظر الى ما بعد غد . .

سميرنوف ــ وأنا بدورى صارحتك وبلغة أهل هذا البلد أيضا ، بأننى أريد نقودى اليوم وليس بعد غد . فاذا لم تدفعى لى اليوم فليس أمامى غير أن أشنق نفسى فى الغد

م. بوبوف ــ ولكن ما العمل وليس فى حوزتى ما تريد ؟ موقفك غاية فى الغرابة !

سميرنوف ــ اذن فأنت لا تريدين أن تدفعى فى الحال . . لا تريدين ؟

م. بوبوف ــ لا أستطيع أن أدفع !

سميرنوف ــ اذن لن أبرح مكانى حتى أحصل على نقودى (يجلس) ستدفعين لى بعد غد ؟ حسن جدا . . لن أفارق هذا المكان حتى مجيء ذلك اليوم (قافزا من مكانه) أسائلك أما على أن أدفع ديونى فى الغد ؟ أم تحسبين أننى ماجن هازل ؟

م. بوبوف ــ سيدى . اخفض من صوتك . لست فى اصطبل . .

سميرنوف ــ لم أسائلك فى شؤون الاصطبلات ، أسائلك أما على أن أدفع ديونى فى الغد أم لا ؟

بوبوف ــ يبدو لى أنك جاهل بما يجب أن تكون عليه فى محادثة السيدات . .

سميرنوف ــ الحق ما تقولين ، وأصارح به . . .

م. بوبوف ــ لا شك فى هذا . فأنت فظ ليس لك حظ من النشأة الطيبة ، لن يعامل الرجال المهذبون ، هم لا يعاملون ، السيدات هذه المعاملة . .

سميرنوف ــ آه . . أمرك عجيب ! كيف تريدين اذن أن أخاطبك ؟ أباللغة الفرنسية وبأساليب أصحابها ؟ (غاضبا ومتكلما فى حزلقة) . . اليك اذن : « مدام أرجوك أن تستمعى الى . شد ما أنا سعيد لانك لا تريدين أن تدفعى ما عليك ، أستميحك المعذرة لاننى أزعجتك ! ما أشرق هذا النهار وما أبدع الجو اليوم ؟ شد ما يلائمك لبس الحداد ويبرز مفاتنك (ينحنى) »

م. بوبوف ــ كلامك جاف ثقيل ، وليس فيه شيء من الحذق والفكاهة . .

سميرنوف ــ (مقلدا اياها) كلامك جاف ثقيل وليس فيه شيء من الحذق والفكاهة . أنت جاهل بما يجب أن تكون عليه فى محادثة السيدات ! اسمعى يا سيدتى ، رأيت من النساء أكثر مما رأيت أنت من العصافير . تبارزت من أجل سواد عيونهن ثلاث مرات . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وهجرتنى تسع نساء فقط . أجل . مر بى زمن كنت فيه

حدثنا أبلها ، فكنت فى هواى العاطفة المشبوبة واللسان المعسول والادب الجم وما تفرضه اعتبارات له من امتحانات وتمسحات . أحببت وتعذبت فى حبى . سهرت الليالى الطوال أناجى طيف الحبيب وأشرئب بتأوهاتى صعدا نحو القمر . عصفت بقلبى نشوة اللقاء ومرارة الفراق .. كنت صاحب حب جامح وجنون وحيرة حتى أننى كنت أثرثر من غير وعى فى حقوق المرأة ، وأضعت نصف ثروتى من أجل هذا التوله والهيام . أما الآن فلا .. لا سبيل الى اقتناصى مهما نصبت لى الحبائل والفخاخ . حسبى ما لاقيت . العيون النجل ، العيون التى تفيض رغبة وجوى ، الشفاه القرمزية ، طابع الحسن وغمازات الجمال ، ضوء القمر ، الهمسات والتمتمات المتصاعدة من أعماق القلب ، الانفاس المتعثرة خفرا فى انطلاقها .. كل هذه عرفتها وخبرتها ولم تعد تؤثر فى أو تنال منى ، ولا أدفع من أجل متعتها مليما واحدا يا سيدتى . واستثنى شخصك بالطبع من هذا الحكم الذى سأصدره ، فأقول ان النساء — صغارا كن أو كبارا — كلهن تصنع . وتأنق ، وثرثرة ، وكيد ، كلهن كاذبات الى أبعد ما فى أغوارهن ، تافهات حقيرات بلا شفقة ولا رحمة ، لهن منطق متمرد يبعث على الثورة ، وفى هذه الناحية (يضرب جبهته براحة يده) أقول — وأستميحك عذرا فى صراحتى ولا ضير عليك أن تستمعى الى فتى مقدور العصفور التافه أن يوحى بالشىء الكثير الى فيلسوف ناشىء — اذا وقع الرجل على احداهن خيل اليه أنه يطالع مخلوقا من نسج الخيال يترآى فى غلالة شفافة ، فكأنه أمام كائن سماوى أو ربة من الربات ، فيغشاه فيض من الفرح والذهول . ولكن ما أن يختلس النظرة الفاحصة الى أعماق هذا المخلوق حتى يتكشف له عن تمساح عادى . (يهوى بقبضته على ظهر الكرسى فيطقطق الكرسى وينكسر) وأمر من هذا وأدهى — وهو ما يسلم النفس الى بعيد من الثورة — أن يظن هذا التمساح أن العاطفة الرقيقة المواسية هى أحسن وأروع ما ينطوى عليها قلبه ، فهى خاصيته وامتيازه الذى لا ينازعه فيه منازع ! ولكن لتحل اللعنة على ، بل وأرضى أن أعلق مشدودا الى هذا المسمار ورأسى مدلى الى اسفل ، اذا أتيتنى بامرأة فى وسعها أن تهب حبها لاحد ، اللهم الا أن يكون كلبها المدلل الذى يفترش حجرها ؟ كل ما تستطيعه المرأة فى حبها انما هو الشكوى والبكاء . يقع الرجل فى حبائل غرامها ، فبينما هو يرخص الغالى ويتعذب ، فان حبها كله لا يجد مظهرا لابداء صدقه وحرارته سوى اللهفة على أن تعقبه مجرجرة أذيال ثيابها ، محاولة أن تمتن قبضتها على عنقه حتى لا يفلت منها . من سوء الطالع يا سيدتى أن تكونى امرأة .. وهكذا فأنت تعرفين خلائق المرأة بالتأمل فى طبيعتك . اخبرينى صادقة مخلصة ، هل فى حياتك وقعت على امرأة واحدة تمثل الاخلاص والصدق والوفاء وعدم التحول ؟ لا لم تقع عينك عليها . العجائز والدميمات هن وحدهن المخلصات الصادقات الوفيات . وانه لايسر أن يقع المرء على قط ذى قرنين أو غراب حالك السواد ، من أن يصادف امرأة وفية ترعى العهود

بوبوف — والآن اسمح لى أن أسألك من تراه فى زعمك أشد انطواء على الاخلاص

والوفاء فى الحب ، الرجل أم المرأة ؟ ما أظنه الرجل !

سميرنوف ـ انه الرجل

م. بوبوف ـ الرجل ! (تضحك فى خبث وسخرية) تقول ان الرجل صادق فى حبه ذو وفاء فى عهده ! هذا شيء جديد لم أكن أدريه وأعترف بذلك ، (بحرارة) أسألك ما وجه الحق الذى يجيز لك أن تقرر ما تقول؟ الرجال صادقون أوفياء! اذا صح الكلام فى هذا ، فانى أقول لك ان من بين كل الرجال الذين أعرفهم والذين عرفتهم فى حياتى ، كان زوجى المرحوم أفضلهم وأخيرهم .. تولعت به ، أحببته بكل كيانى حبا لا تقدر عليه الا المرأة الشابة المتوقدة روحا وذهنا . منحته شبابى ، حياتى ، سعادتى ، ثروتى ، كان لى الهواء الذى أتنشقه لأحيا ، الصنم الذى أعبده . هذا الرجل ـ خير الرجال وأفضلهم ـ كان يخوننى فى كل خطوة وبغير ذرة من حياء ! وجدت بعد وفاته ـ بالطبع ـ درجا من أدراج مكتبه مليئا برسائل الغرام . وفى أثناء حياته ـ ويا للذكرى المؤلمة ـ كان يهجرنى أسابيع متوالية . كان لا يتحرج عن مغازلة النساء أمام عينى ولا يبالى بخديعتى ، ولا يهمه أن يبدد مالى ويسخر من عواطفى .. ولكننى على الرغم من كل هذا كنت أحبه ، وكنت أمينة على عهده . وهاك ما هو أكثر من هذا ، اننى ما زلت مخلصة وفية لذكراه حتى بعد موته . دفنت نفسى الى الأبد بين جدران هذا المنزل ، ولن أخلع عليه لباس الحداد ما دمت حية

سميرنوف ـ (ضاحكا فى استخفاف وسخرية) لباس الحداد ؟ لست أدرى من تحسبيننى يا سيدتى، كأننى لا أعرف لماذا تتكرين فى ثياب الحداد هذه ، وتغلقين على نفسك الابواب؟ هذا ما تظننه ! يلوح لى أنك تحسبين أن ما تفعلينه لغز تحيطه الأسرار ويغلفه الخيال ! ربما يمر بقصرك فارس شاب أو شاعر فى مقتبل العمر ويتطلع الى نوافذه فيحدث نفسه قائلا : « هنا تعيش المرأة الوفية ذات الأسرار ، التى من حبها لزوجها غلقت على نفسها الأبواب بين هذه الجدران ! » أعرف كل هذه الحيل ..

م. بوبوف ـ (وقد احمر وجهها) ماذا تقول ؟ وكيف تجرؤ على مواجهتى بهذا الكلام !

سميرنوف ـ آه حقا دفنت نفسك حية كما تزعمين ، ولكنك لم تنس أن تجملى وجهك بالمساحيق ..

م. بوبوف ـ كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟!

سميرنوف ـ مهلا وأرجوك . لا تتحدى ولا تصيحى فى وجهى فما أنا بوكيل أعمالك . اسمحى لى أن أسمى الاشياء بأسمائها . لست امرأة ، وقد درجت على أن أصارح الناس بما أعتقد . لهذا لا تصيحى وأرجوك

م. بوبوف ـ أنا لا أصيح ، وانما أنت الذى تصرخ وتصخب . خلنى وحدى . أرجوك

سميرنوف ـ اعطنى نقودى لانصرف

م. بوبوف ـ لن أعطيك ..

سميرنوف ـ بل ستعطيني اياها

م. بوبوف ـ لن أعطيك مليما واحدا اغاظة فيك ، وعليك أن تتركني في سلام . .

سميرنوف ـ لا داعي لهذا الشجار ، فاني لم أسعد بعد بأن أكون خطيبك أو زوجك (يجلس) لا أحب هذا

م. بوبوف ـ (تلهث غضبا) ماذا تفعل . . أتجلس ؟

سميرنوف ـ جلست بالفعل

م. بوبوف ـ أتوسل اليك أن تخرج

سميرنوف ـ اعطنى نقودى (جانبا) ان الغضب يتملكنى ؟!

م. بوبوف ـ أنا لا أحتمل مخاطبة السفهاء ، فكن رحيما بى واخرج من هنا (سكوت) ألا تخرج ؟ ألا تريد ؟

سميرنوف ـ لا . .

م. بوبوف ـ لا ؟

سميرنوف ـ لا . .

م. بوبوف ـ حسن (تدق الجرس فيدخل لوكا) . لوكا . . ادفع بهذا السيد الى الخارج . .

لوكا ـ (مقتربا من سميرنوف) تفضل يا سيدى بالخروج . ما دام قد طلب اليك ذلك فلا فائدة من بقائك هنا

سميرنوف ـ (هاجا عليه) أمسك لسانك . الى من توجه هذا الكلام ؟ سأهشمك أيها الوقح . .

لوكا ـ (واضعا يده على قلبه) يا للقديسين ! (يرتمى على مقعد) آه . أحس بالمرض ، انى مريض ، لا أقوى على التنفس . .

م. بوبوف ـ أين الخادم داشا ؟ داشا ! (منادية) داشا ، بلاجيا ، داشا (تدق الجرس)

لوكا ـ خرجوا جميعا لجنى ثمار « الشليك » . لا يوجد أحد بالمنزل . انى مريض ، قليلا من الماء .

م. بوبوف ـ (الى سميرنوف) أرجو أن تخرج . .

سميرنوف ـ أرجو أن تكونى أكثر أدبا . .

م. بوبوف ـ (تضم قبضة يدها وتضرب الارض بقدمها) . أنت فظ ، جلف ثقيل ، أنت مشاغب دنىء ، أنت حيوان . .

سميرنوف ـ ماذا ، ماذا تقولين ؟

م. بوبوف ـ قلت انك جلف ، حيوان . .

سميرنوف ـ (مندفعا نحوها) اسمحى لى أن أسألك بأى حق تشتمينني . .

م. بوبوف ـ نعم أشتمك ، وأية غرابة فى شتائمى هذه ، أتحسبنى أخافك ؟

سميرنوف ـ وأنت أتظنين أن ما منى به جنسك من الضعف يبيح لك أن تتهالى على الناس بالشتائم من غير أن تلقى عقابا ؟ كذا ؟ انى أدعوك للمبارزة . .

لوكا ـ أدركني يا آلهي ، عونا أيها القديسون ؟! انى مريض ، قليلا من الماء . .

سميرنوف ـ الى بالغدارات . .

م. بوبوف ـ أتظن أيها الوقح أنك تخيفنى حينما تلوح بقبضة يدك الغليظة وتخور كالثور ؟

سميرنوف ـ أقول انى أدعوك للمبارزة . لا أسمح لاحد أن يهينني ، ولا يهمنى أن تكونى امرأة ، مخلوقة ضعيفة . .

م. بوبوف ـ (تغالبه لتطرحه على الارض) جلف . أنت جلف . جلف . .

سميرنوف ـ حان الوقت لان لا أعبأ بهذا التقليد المغرض الذى يقضى على الرجل وحده بأن يدفع ثمن الاهانة التى يكيلها لغيره . اذا كانت هناك مساواة فى الحقوق بين الرجل والمرأة فلتكن هذه المساواة فيما نحن بصدده . لعنة الله على الجميع . الى المبارزة

م. بوبوف ـ تريد المبارزة وبأى ثمن ؟

سميرنوف ـ أريدها فى الحال . .

م. بوبوف ـ فى الحال ! ليكن . بين مخلفات زوجى غدارات سأذهب لاحضارها فى التو والساعة (تهم مسرعة بالخروج ثم تلتفت اليه) أية لذة لى فى أن أودع رأسك الصلب قذيفة من رصاص غدارتى ! لتمحقك اللعنة (تخرج)

سميرنوف ـ سأطلق النار عليها كما أطلقه على فرخ من الطير . لست غلاما واهن القلب ، وما أنا بالجرو المتهالك عاطفة ، ولست ممن يأبهون لضعف النساء . .

لوكا ـ يا سيدى الكريم ، (راكعا على الارض) ترفق بى وارحم شيخوختى . تفضل بالخروج ، كدت تميتنى خوفا ، وتريد فوق هذا أيضا أن تقاتل سيدتى فى مبارزة ؟

سميرنوف ـ (من غير أن يعيره اهتماما) المبارزة ! هذه المبارزة هى عين المساواة بين الرجل والمرأة ، هى تحرير المرأة من قيودها ، انها مبدأ المساواة بين الجنسين . وسأطلق النار عليها باسم هذا المبدأ . ولكن يا لها من امرأة ! (يقلدها) لتمحقك اللعنة . سأودع رأسك الصلب قذيفة من رصاص غدارتى . . أجل يا لها من امرأة ! كانت تتكلم متحمسة وهى متوردة الخدين براقة العينين . . لم تتوان عن تلبية دعوتى الى المبارزة ! بشرفى لم تقع عينى على مثيلة لها فى حياتى !

لوكا ـ تفضل يا سيدى بالرحيل . سأدعو الله لك فى صلواتى . .

سميرنوف ـ ليست امرأة ، وانما هى كائن آخر يشبه المرأة . أحب هذا ! انها المرأة الحقة . ليس فيها شىء من خور العاطفة . انها تتوهج وتشتعل وتتفجر مثل البارود ، وتنطلق كالسهام النارية ! يؤسفنى أن أقتلها . .

لوكا ـ (باكيا) تفضل يا سيدى بالرحيل

سميرنوف ــ انها تروقني . حقا انني أودها ! وعلى الرغم من غمازات الحسن فى خديها فانني أحس بميل اليها ! حتى ديني فانني أتنازل عن المطالبة به . لم أعد حانقا عليها امرأة عجيبة !

(تدخل مدام بوبوف وبين يديها غدارات)

م. بوبوف ــ هاك الغدارات .. ولكن قبل أن تأخذ فى المبارزة أرجو أن تريني كيف أستعمل هذه الغدارات وأطلق النار عليك منها ، لم أدر قبل اليوم غدارة فى حياتي ..

لوكا ــ اللهم أكتب لنا السلامة وارحمنا . سأذهب لاستدعاء البستاني والحوذي . من أين حلت علينا هذه المصيبة ! (يخرج)

سميرنوف ــ (متفحصا الغدارات) ترين أمامك أصنافا من الغدارات ، ولكن ليس بينها ما جرى العرف باستعماله فى المبارزة .. توجد غدارات خاصة بهذا الغرض .. أحسنها ماركة (مورتيمار) ذات الكبسون . أما التي أمامك فكلها من ماركة (سميث وبسون) وتستعمل من غير الكبسون . انها لبديعة الصنع . يساوي الزوج منها تسعين روبل . والآن سأريك طريقة استعمالها . انظري يجب أولا أن ترفعي الغدارة هكذا . هكذا .. (جانبا) يا لهاتين العينين ! ما أجملهما ! انها لامرأة فتانة سلابة العقول ؟!

م. بوبوف ــ أرفعها هكذا ؟

سميرنوف ــ نعم .. هكذا .. ثم ترفعين الزناد .. ثم تصوبين هكذا .. لا . اطرحي رأسك الى الوراء قليلا . مدي ذراعك بكامل طوله .. نعم هكذا . بعد هذا اضغطي بهذا الأصبع على هذا الشيء الصغير .. هذا كل ما فى الامر . وأهم ما أنبهك اليه فيما نحن فيه الآن أن تكوني هادئة .. لا حدة ولا ارتباك .. وان تصوبي غدارتك فى غير عجلة .. اجتهدي ألا ترتعد يدك ..

م. بوبوف ــ حسن جدا . أرى أنه لا يليق بنا أن نتبارز فى احدى الغرف . لنخرج الى الحديقة ..

سميرنوف ــ هيا . غير انني أنبهك مقدما الى أنني سأطلق رصاص غدارتي فى الهواء

م. بوبوف ــ آه هذا لا يحتمل ! ولماذا تطلق رصاص غدارتك فى الهواء ؟

سميرنوف ــ من أجل .. من أجل .. هذا أمر يعنيني وحدي ..

م. بوبوف ــ أراك تجبن . الخوف فى نظراتك . أليس كذلك ؟ لا يا سيدي لاتحاول الانسحاب . تفضل واتبعني . لن أرضى حتى أودع رصاصة غدارتي فى رأسك ، هذا الرأس الذي أكرهه كل الكره . هل أنت خائف ؟

سميرنوف ــ الحق ما تقولين ..

م. بوبوف ــ تكذب . قل لي لماذا تحجم عن مبارزتي ؟

سميرنوف ــ لأني .. لأني .. أحبك ..

م. بوبوف ـ (تضحك ساخرة) هو يجبنى . يجرؤ على المجاهرة بذلك (مشيرة الى الباب) يمكنك أن تخرج

سميرنوف ـ (يضع فى صمت القدارة فوق الطاولة ، ويأخذ قبعة ويسير ، ولكنه يقف عند ما يقترب من الباب . يحدق كل منهما فى الآخر لحظة ، ثم يدنو اليها فى حيرة وتردد) أما زلت حانقة على ؟ أنا أيضا أتفجر حنقا ، ولكن كيف السبيل الى الخلاص من هذا ؟ السبيل ـ وهو ما يأتى ـ أن أكشف لك عما بنفسى فى وضوح واخلاص (رافعا صوته) ليس ذنبى أننى أحبك ! (يهوى بقبضة يده على ظهر كرسى فيطقطق وينكسر) يا للعنة ! كل أثاث بيتك سهل الانكسار . أحبك ، أتفهمين ؟ أكاد أهواك .

م. بوبوف ـ أخرج . أكرهك . .

سميرنوف ـ تبارك الخلاق . . يا لها من امرأة ! لم تكتحل عيناى بمرآى مثيلة لها من قبل . لقد ضعت ، قضى على ، وقعت كما يقع الفأر فى المصيدة !

م. بوبوف ـ اخرج والا أطلقت النار عليك . .

سميرنوف ـ تطلقين النار! ليس فى وسعك أن تتصورى مقدار غبطة من يموت على مرأى من هاتين العينين الجميلتين ، وأية لذة يلقاها صريع رصاصة من مسدس تطلقها هاته اليد الصغيرة المخملية الملمس . أوشك ولعلى بك أن يكون خبالا . فكرى ثم اعتزمى فى الحال . اذا خرجت منها فلن نلتقى أبدا . هيا قررى أمرا . أنا رجل سرى ، كريم العنصر ، دخلى كل عام عشرة آلاف روبل . أجيد الرماية الى حد أن أصيب الهدف برصاصة أطلقها على فلس قذف به فى الهواء . أملك الكثير من جياد الخيل . . أترضين بى زوجا ؟

م. بوبوف ـ (غاضبة وقد لوحت بمسدسها فى الهواء) طلبت المبارزة ! اذن فهيا اليها

سميرنوف ـ بى خبال . لم أعد أستطيع أن أفهم (مناديا) من هناك ! على بقدح ماء . .

م. بوبوف ـ (صارخة) ما زلت أتحداك للمبارزة !

سميرنوف ـ بى خبال ! أتخبط فى هواك كالحدث الساذج ، بل كالاحمق المجنون . (يقبض على يديها فتصرخ متألمة) أهواك ! (يقع على ركبتيه) أهواك هوى لم أدره من قبل . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وهجرتنى تسع نساء ، ولكن لم أهم باحداهن هيامى بك . أكاد أبكى من فرط ما بى . فقدت كل صلابة فى نفسى . لم يعد بى جلد على المقاومة . هاأنا ذا أرتمى على ركبتى الى الارض كالمخبول . أعرض عليك حبى عرضا وأناشدك أن تقبلينى زوجا لك ! انها لمعرة . انها لفضيحة ! انقضت خمس سنوات من غير أن يقبض قلبى بهوى ، وعاهدت أن لن أكون للحب أبدا ، وهأنا ذا أجدنى سليب اللب ، أتهالك جوى . أتقبلين الزواج بى . . نعم أم لا ؟ ألا ترضين ؟ حسن جدا ، فأنت لا ترضين ؟ (يهم واقفا ويسير مسرعا نحو الباب)

م. بوبوف ـ تمهل . .

سميرنوف ـ (يتمهل ثم يقف) ماذا ؟

م. بوبوف ـ لا شيء .. اذهب . ولكن تمهل . لا . اذهب . اذهب . أكرهك . آه لا ، لا تخرج . آه لو عرفت مقدار حنقي عليك (تلقى بالغدارة فوق الطاولة) يبست أصابعي من هول ما كنت معتزمة اتيانه (تخرج منديلها فى غضب) لماذا أنت واقف هنا ! اخرج . .

سميرنوف ـ الوداع . .

م. بوبوف ـ نعم . نعم . اخرج . (صارخة) الى أين أنت ذاهب ؟ تمهل . لا بل اخرج . شد ما أنا حانقة ! لا تقترب منى ! لا تقترب هكذا !

سميرنوف ـ (مقتربا منها) شد ما أنا حانق على نفسى ! أصبحت أتخبط فى حبى كما يفعل تلاميذ المدارس ، وكمت ، يا للعار (متحدثا فى عنف) أهواك عامدا كما لو كنت أجدنى مدفوعا الى هواك ! سأدفع ديونى فى الغد بعد بيع محصول القمح ، فقد بدأ موسم تكويم التبن ، وستكونين أنت فوق قمة أكوامه (يطوق خصرها بذراعه) لن أغفر لنفسى ما فعلت

م. بوبوف ـ اخرج . ارفع ذراعك من حول خصرى . أنا . . أكرهك . . أدعوك الى المبارزة (قبلة طويلة)

(يدخل لوكا وفى يده بلطة يتبعه البستانى حاملا جرافة ، والحوذى متسلحا بمذراة ، ورهط من العمال يحملون عصيا وقوائم خشبية)

لوكا ـ (وقد شاهدهما متعانقين) ما هذا ؟

(صمت)

م. بوبوف ـ (مخفضة من عينها) لوكا . . قل لهم فى الاصطبل ألا يعطوا اليوم الجواد (توبى) شيئا من العلف

« ستار »

زكى طليمات

ضريبة الحياة

قصة مصرية ترويها الآنسة ابنة الشاطىء

« ... عند ضمير الزمن ، أودع هذه الرسالة الفاجعة التى تروى مأساة جيل من الشهيدات ، ليؤديها الى بناتنا من بعدنا »

— ١ —

كان أول عهدى بها يوم نزحت الى المدينة أطلب العلم ، وكانت تشتغل بالتدريس فى المعهد الذى تقرر أن أعمل فيه ريثما أستكمل دراستى العالية ، وهو معهد فخم ، خصص لفتيات الطبقة الراقية التى تكره لبناتها أن يشغلن بدراسة تعد للاحتراف ..

جاءت الى غرفتى فى جمع من رفيقاتها يرحبن (بالزميلة الجديدة) فلما طالعتهن بثيابى الريفية ومظهرى القروى الساذج ، نظر بعضهن الى بعض فى سخرية مكبوتة ، ثم مضين عنى يتضاحكن ، وتخلفت (زينب) عنهن ، وقد بدا عليها أنها تتألم لما بدر منهن

ودنت منى تسألنى فى رفق ان كنت قد مررت بالعاصمة قبل اليوم ، فلم أجبها ، ونظرت الى الافق البعيد ألتمس وراءه قريتى الحبيبة التى شيعتنى فى حزن وأسى ، وقد أحسست شيئا من الانس والاطمئنان حين نأى بى ذهولى عن القصر الذى نزلت فيه ، فرجعت أخطر بين صواحبى القرويات ، وهن يرمقن الثياب التى أعدت لرحلتى فى كثير من الدهشة والاكبار ، ويحدقن مبهورات فى مشط (الالماس) الذى يتوج شعرى ، والاساور الذهبية التى تزين معصمى ، ويلمسن بأيديهن ، المعطف الوردى الذى حاكته لى (أمى) من المخمل الغالى

***

ولازمتنى (زينب) فى تلك الفترة الاولى ، وكنت أضجر بصحبتها أول الامر ، لانى

كرهت أن أعرى جراحى أمامها ، وأشفقت أن تشهد النضال المر الذى كابدته وأنا أطوى فى أعماق نفسى ، شخصيتى القروية المألوفة ، وأنزع عنى ثيابها ، ثم أرتدى الاقنعة التى تقدمها المدينة للنازحين اليها من أبناء الريف . .

ولامر ما ، احتملت (زينب) اعراضى فى كثير من الدعة والرضى ، على أنى ما لبثت أن ارتحت اليها وألفت صحبتها ، اذ حببها الى أنها رأتنى قبل أن أتنكر فى زيى المستحدث ، فعندها وحدها ، ألبس صورتى الاولى ، واليها وحدها أستطيع أن أتحدث عن (القروية العزيزة) التى طويتها كارهة ، وأخفيتها وراء القناع !

— ٢ —

ونشأت بيننا ألفة قوية ، وثقت الايام والليالى عراها ، لقد كانت (زينب) غريبة مثلى ، نشأت فى بلدة من اقليم البحيرة ، من أسرة كريمة متواضعة ، لم تبل الحياة العصرية ولم تتعرض لاضوائها ، وكان أبوها الشيخ ، يتردد على العاصمة فى شؤون تجارته ، فصحبته ذات يوم حين رأت أفواج الفتيات يخرجن من دورهن ، ويندفعن الى المدارس مفتونات. وكانت المدارس فى ذلك العهد ، تنادى هؤلاء الفتيات الغريرات نداء حافلا بالاغراء ، فاذا لبين النداء غلقت من ورائهن الابواب ، وأخذت تعهدا كتابيا على أولياء أمورهن ، يلزمهن باحتراف التدريس اجباريا لبضع سنوات ، فمن أبت منهن ذلك ، دفعت للحكومة بضع مئات من الجنيهات . .

وكانت (زينب) طفلة غريرة حين أعد لها هذا القيد ، فلم تحفل بأمره كثيرا ، على أنها أحست وطأته يوم أرادت أن تنحرف عن هذا الطريق الذى دفعت اليـه كرها ، وتعود الى بيتها . وكان الاحتراف على عهدها أمرا بغيضا تنكره كل أسرة كريمة قادرة على رعاية بناتها والانفاق عليهن . وانما تعلمت (زينب) استجابة لحركة التطور ، ورغبة فى أن يرتفع سعرها فى سوق الزواج ، وقد ارتفع بالفعل ، وتقدم لخطبتها مهندس شاب رحب به قومها ورأوه كفئا لها ، لكن الطريق سدت عليها ، وأجبرت على احتراف مهنة التعليم راضية أو كارهة ، وهكذا ضاعت فرصتها الاولى . .

***

لم تجزع (زينب) لما حدث ، اذ كانت لا تزال بعد فى مستهل شبابها وزهوة صباها ، وقد بدت حياة العمل لعينيها طريفة شائقة ، واستقر فى وهمها أنها أروع وأمتع من الحياة الزوجية التى تسكن اليها الأميات الجاهلات !

وكانت معذورة فى هذا الذى وهمت ، فقد جن جنون الناس من حولها بهذا البدع الجديد ، واستحدثت فى لغة الحياة على عهدها ألفاظ ضخمة مبهمة عن الاستعباد والثورة والحرية والمساواة ، ودوت فى أفق الوادى صيحات عاليات ، تحدث الفتاة العصرية عن

حقها فى حياة حديثة ، غير الحياة التى قنعت بها أمها وجدتها من قبل ، وصار هم المرأة الجديدة وفخرها ، أن تبرأ من شوائب ضعف الانثى ، (وتتشبه الرجال) !

وقد سمعت (زينب) ذلك كله ، وفتنت به ، واستجابت له ، فلم تضق بالقيد الرسمى الذى يحرم عليها الزواج ويجبرها على الاحتراف ، واستقبلت حياتها الجديدة راضية متهللة

— ٣ —

ودارت عجلة الايام ، وطوى الزمان فى جوفه عشرة أعوام ، أمضتها (زينب) فى حياة رتيبة مملة ، ترى كل عام وجوها جديدة ، ولكنها أبدا وجوه معلمات وتلميذات . وتنتقل كل عام الى مدرسة جديدة ، ولكنها أبدا حجرات الدراسة وعنابر النوم وقاعات الطعام ومكتب المعلمات ! تمضى يومها فى شرح الدروس، ومراقبة التلميذات فى فترات الاستراحة، حتى اذا حان المساء أوت الى فراشها كليلة متعبة ، وعلى شعرها ووجهها غبار أبيض من ذرات الطباشير المتناثرة ، وفى يديها آثار من المداد الاحمر ، وعلى ثيابها بقع المداد الأزرق ، وفوق كاهلها حمل ثقيل من كراسات التلميذات !

لقد ذهبت الايام الاولى بطرافة العمل ، ولذة الكفاح ، وخلفت لها السآمة والضجر والملال ، وأشاعت فى جوها ظلالا كثيفة من الكآبة والهمود والاعياء !

***

ولعلها كانت قادرة على احتمال مشقة العمل ، لو أعفيت من عنت الناظرات ، وكيد الزميلات . كان ضجرهن بالعمل ، مع اضطرارهن اليه وارتباطهن به ، يذهب برقة أنوثتهن ويفسد أعصابهن . وكلما تقدم بهن العمر ، وتضاءل أملهن فى الظفر بحقهن الفطرى فى الامومة ، زدن شراسة وخبالا ، ولم يكن لهن سبيل الى الانتقام من المجتمع الذى غرر بهن ، فكن يشتفين بالكيد لزميلاتهن ، يهدئن بذلك نار الحقد التى تأكل صدورهن ، كما أكلت الايام شبابهن

ولقد قاست (زينب) الهول من ذلك وأحست صدرها يضيق ويختنق ، لكنها لم تجد سبيلا الى الفرار . انها دفعت للحكومة الضريبة المقررة من سنوات شبابها ، فلا غرم عليها ان اعتزلت العمل ، ولكن العرف السائد كان يقضى عليها أن تبقى عاملة حتى تتزوج ، وهكذا حكم عليها أن تظل فى هذا الجو الخانق الى أن تسعفها (نجدة) من السماء ، فتسوق اليها الزوج الذى ينقذها ويمضى بها الى (البيت) !

وقد تشبثت زينب بأملها فى تلك النجدة، وغذته بما أبقت الحياة المتعبة من شبابها الهزيل، ولكن الامل أخذ يتضاءل رويدا رويدا ، كما أخذت شعلة الحياة فيها تخبو شيئا فشيئا ، وهى تحس ذلك ، وتدركه ، وتموت به موتا بطيئا . .

حتى افتقدت نفسها يوما ، فاذا بها قد أضاعتها . جف ماء الحياة فيها ، وذبلت نضرة شبابها ، وكل بصرها ، وعاجلتها شيخوخة مبكرة ، قبل أن تشرف على الثلاثين من عمرها!

كانت تحن بفطرتها الى البيت ، وتشتاق الى الامومة ، وتهفو الى حياة مستقرة كريمة فى ظل زوج كريم ، فلما رأت شبابها يوأد ، وحياتها تنهار ، ثارت ثائرتها وعبأت كل قواها لتحارب الموت فى نفسها ، لكن الداء كان قد تمكن منها ، فجن يأسها ، واندفعت فى نوبة من الحقد والمرارة ، تمقت الناس والدنيا ، ولا تحتمل رؤية تلميذاتها الصغيرات ، لانهن ينكأن فيها جراحا ضمدها اليأس ، ويهجن أشواقها الخامدة المكبوتة ، الى الامومة والبيت !

وكانت زينب تنكر من نفسها هذا الانهيار التعس ، وتقارن بين أمسها ويومها فيدركها الرعب والاشمئزاز . وشهدتها الليالى الطويلات محزونة مسهدة ، تبكى تلك الانثى الكريمة الهادئة التى تحتضر فيها !

وفى هذه الفترة من حياتها عرفتها .

ولمحت عليها ظلال الالم الدفين ، والامل الخابى ، وآثار المعركة القاسية ، وقد أنكرتها أول الامر ، وأوجست منها خيفة ، لكنها تشبثت بى فى الحاح غريب ، وما زالت بى حتى ألفتها ، ثم أحببتها

لقد رأت فى وجهىْ صورة ماضيها الذى ولى وراح ، فتعلقت بى تلتمس النجاة من حاضرها الشقى التعس .. وكان ظهورى فى أفقها منبها لفطرتها النائمة ، فقامت تحارب الشر الذى خالطها ، والشيطان الذى حل فيها ..

وجمعنا الجهاد المشترك !

كانت كلتانا تناضل من أجل فطرتها ، وكل الفرق بيننا أنها تحارب لتسترد ما أضاعت ، على حين أحارب لاحتفظ بما لم أضيع بعد !

وأعانت كل منا صاحبتها على الجهاد ..

فقد كان وجودى الى جانبها يستثير قواها ، ويثير شوقها الى ماضيها ، وكان وجودها الى جانبى ، يحذرنى من مصيرها ، ويزيدنى حرصا على سلامة فطرتى ..

وبذلت (زينب) نفسها للمعركة ، وأيدتها السماء فى جهادها الرائع ، فبرئت من الشر ، وانتزعت نفسها من ركب الشيطان ، وحملت حطام حياتها المنهارة فى صبر ووداعة وألم نبيل ، ثم استأنفت العمل ، ووجهها يشرق بنور الاستشهاد .

— ٤ —

ثم كانت المعجزة !

عاد ابن عم لها كان يدرس الطب فى الخارج ، وقد استهوته (زينب) فى رقتها وضعفها ووداعتها ، وفتنه ذلك النور الشاحب الحزين الذى يشع من وجهها فيخدر أعصابه ويغمره بالامن والسلام ، وكانت حياته فى أوربا قد زهدته فى الصخب والضجيج ، وشاقته الى السكون والاستقرار

وتطوع الملأ من حوله (لخدمته) وتبرعوا بالنصح له ، فأنكروا عليه أن يرضى بهذه (العانس) الفقيرة ، وأمامه زهرات الطبقة الراقية ، يقدمن اليه الصبا والغنى ، ويعدنه بالرقى السريع . لكن (أحمد) تشبث بفتاته وأبقى عليها ـ لم يكن يجهل أنها جاوزت فجر الشباب ، لكنه وجد فى ذلك ما يروى ظمأه الى (الام) ، وكانت أمه قد تركته صبيا بعد موت أبيه ، ومضت تستأنف حياة جديدة ، مع زوج جديد . .

وقد رعته أم (زينب) واحتضنته فى صباه ، وبذلت له الحنان محضا صافيا، لكنها عجزت أن ترضى طفولته المحرومة ، فلم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى هجر وطنه ، ونزح الى الغرب ، ينسى فى ضجيجه همومه وأحزانه

***

دخل الحب حياة (زينب) فبدلها خلقا جديدا : أودع عينيها التائهتين ، بريقا عجيبا يتألق بحيويتها الطارئة ، ومس شفتيها الذابلتين ، فرد اليهما النضرة والحياة ، ومسح على وجهها الشاحب ، فأعاد اليه النور والاشراق ، وتسلل الى روحها ، فأزاح عنها ركام الجمود والموت ، ثم بعث الامل يغزو قلبها ، ويطرد منه اليأس والظلام !

وراحت (زينب) تهيىء عشها والدنيا لا تسعها : دعت اليه أحلامها المشردة ، وأمانيها الخابيات ، وأنشأت تبنيه بأعصابها ودمها وقلبها ، حتى اذا أتمت بناءه ، نظرت اليه فتألقت فى عينيها دموع الفرح والغبطة ، ثم وقفت على بابه تنتظر ، وقد غفرت للزمن كل ما عانت من تشرد وضلال ، وما ذاقت من مرارة الحرمان !

— ٥ —

وفجأة ، ظهرت (أمه) فى الأفق . كانت مريضة تحتضر ، وقد بعثت الى ولدها لتملأ منه عينيها قبل أن يغلقهما الموت ، وتسمع كلمة المغفرة ، قبل أن تبرح الدنيا وتمضى الى وادي العدم !

فلبى (أحمد) نداءها ، وخف اليها مشوقا جازعا ، فلم تكد تراه حتى أجهشت بالبكاء ، ثم أوت الى صدره وهى تنتفض من فرط الحب والفرح والانفعال !

ولم تكن بحاجة الى أن تستغفر ، لقد غفر لها قبل أن تسأله المغفرة ، وكان شفيعها عنده الموت الماثل ، والامومة المحرومة . .

وكأنما أمسكها ولدها الى الحياة ، فبدأت تناضل لتبقى ، وهو الى جانبها يبذل لها من علمه وفنه وبره ، ما يعينها على النضال !

وجاءها يسعى ذات يوم ، مشرق الوجه متهلل الاسارير ، كانت قد اشتهت أن ترى عروسه لتباركها ، وها هى ذى الى جانبه ، فى جلوة عرسها ، تضحك للدنيا وتبتسم للحياة

وتريثا قليلا لدى الباب ، فلما أحست المريضة بهما دبت فى كيانها الذاوى قوة طارئة ، فتماسكت ، ونهضت من نومها ، وأشرق وجهها الشاحب بابتسامة عريضة هانئة . .



لكنها لم تكد ترى (زينب) وتسمع اسمها ، حتى انقبضت أساريرها بغتة ، ثم تهالكت فى فراشها وهى تردد فى استسلام يائس حزين :

ـ غفرانك يا بنى، انها أختك! أرضعتها من ثديى هذين أياما ثلاثة كاملة ، حين مات خالها . .

وذاب صوتها فى حشرجة الموت ثم غامت الدنيا، وأعولت الريح، وبكت السماء . .

وأصبح الصبح فاذا بأيدى الزمان قد مزقت الشمل ، وخنقت الامل ، وهدمت (العش) وبعثرت أنقاضه مع الريح.

لقد كان كل ما ذكرته الام المحتضرة صحيحا واقعا ، شهدت به أم (زينب) ، وأيدته الاسرة جميعا . .

حدثوا أن فاجعة ألمت بالبيت و (زينب) فى المهد ، غرق خالها وطفلاه فى اليم ، فى أصيل يوم من أيام العيد ، فعبث الحزن بأخته حتى أشفقوا على صغيرتها ، وبعثوا بها الى زوجة عمها ترضعها وترعاها ريثما تكشف الغمة ، وكانت هذه الزوجة حديثة عهد بالوضع ، فأعفاها ذلك من شهود المأتم الفاجع . .

وانجلت الغمرة ، وعادت الطفلة (زينب) الى أحضان أمها ، ولا يكاد أحد يعى ماحدث لها ، اللهم الا زوجة العم ، وقد مضت هذه الى بيت جديد وأسرة بعيدة ، ونسى الذى كان

ـ ٦ ـ

غادر أحمد اقليم البحيرة ، ومضى على عجل الى أقصى الصعيد ، كأنما يفر من لعنة تطارده ، وعادت (زينب) الى المدرسة ، والكراسات ، والتلميذات ، والزميلات . .

عادت هزيلة شاحبة ، كسيرة القلب بادية القنوط ، فاستقبلتها زميلاتها بابتسامات عابثة تقطر سخرية واشتفاء ، فوثبت الى جانبها أحبها من كيدهن المريض ، وسألتها أن تمضى معى الى غرفتها لتستريح

وقد أسلمت زينب نفسها ليدى ، وراحت معى تجر قدميها جرا ، حتى انتهت الى فراشها فارتمت عليه منهوكة تنشج نشيجا أليما خفت أن يمزقها ، ثم هدأت بعد حين هدوءا موجعا يشبه الموت . .

ولم يبق لها من علامات الحياة الا عينان تحدقان فى غير شيء ، وترسلان نظرات تائهة خرساء

وبدا عليها أن شيئا فيها قد مات ، فكانت تمضى ساعات طويلات جامدة صامتة كأنها جثة ، وعافت الطعام الا قليلا ، وأمسى نومها نوعا من الهمود المتعب المريض

***

وجدت فى حياتها بعد ذلك أحداث قاسيات : توفيت أخت لها شابة ، بحمى التيفود ، ولحق بها أبوها الشيخ بعد أشهر معدودات ، فظننت أن تلك اللطمة جديرة بأن تنبهها وتمسك عليها الحياة . .

كانت لا تفتأ تسائلنى كل يوم : « فيم العيش وقد انطفأت فى الحياة ؟! » فلم أكن أدرى بم أجيب ، حتى اذا غال القدر أختها وأباها ، عرفت كيف أجيب . كان على (زينب) أن تعيش من أجل أمها الثكلى ، واخوتها الصغار . .

وسعينا لها عند أولى الامر فى وزارة المعارف ، فنقلت الى بلدتها لتسكن الى من بقى من أهلها ، وتنهض بعبئها الجديد

وقد صحبتها الى هناك ، وبقيت معها يوما وبعض يوم ، ثم تركتها وفى وهمى أنها قادرة على احتمال محنتها الكافرة . .

وتنامت بيننا الديار ، وتراخى العهد ، وأمست (زينب) ذكرى حزينة شاحبة ، تلم بى من حين الى حين ، فأكتب اليها دون أن أنتظر لجوابى ردا . .

***

حتى روعت ذات صباح بنعى (زينب)

نعتها الى (الاهرام) وأنا فى طريقى الى القرية ، فى مشرق يوم عرفات ، فكانت مباغتة أليمة مزقت قلبى وغلبت صبرى

ولم أكن أعلم أنها أصيبت آخر العمر بشلل نصفى ، أمسكها الى الفراش شهرا كاملا ، ثم أدركتها رحمة الله ، فأبرأها الموت من جراح الحياة . .

***

وسأل السائلون : ألا تحزنين فى (زينب) ؟

قلت كلا ! فقد فات أوان العزاء ، انها ماتت من زمن بعيد ، وبقيت جثتها تتحرك فى عالمها المنهار ، حتى سكنت أخيرا وهيل عليها التراب . .

ابنة الشاطىء



الجبهة السوداء

قصة زعيم ألماني يقاوم هتلر

هذه قصة الوطني الالماني أوتو ستراسر الذي كان في يوم ما أحد المبرزين في ساحة الريخ الالماني الثالث ، والذي غدا اليوم شريدا في المنفى هائما بين شتى الاقطار . منذ سنوات وهو بمثابة سنان الرمح التي توجه بها الطعنات الى النظام الهتلري ، وقد يغدو عما قريب زعيم ألمانيا الجديدة ، ألمانيا الحرة التي ستقوم على أنقاض ألمانيا الهتلرية . على انه ان أخفق دون بلوغ هذا الهدف ، فستبقى سيرة حياته خالدة بين سير العظماء ، بما فيها من جرأة قلب وصدق فراسة وصدق وطنية ، تستحق اكبار الرجال ، كما تستحق تخليد التاريخ

بدأت حياة أوتو ستراسر كما بدأت حياة أغلب أبناء أوربا الذين ولدوا حول نهاية القرن الماضي ومستهل القرن الحالي . أي بدأت حياته العامة يوم دارت رحى الحرب الماضية في سنة ١٩١٤ . ولم يكن عمر ستراسر يومئذ يتجاوز سبعة عشر عاما ، ولكنه التحق منذ بداية الحرب في الفرقة الرابعة من المدفعية الالمانية . وقد اذكى فيه خوض غمار الحرب روح الوطنية الالمانية ، كما أثار فيه عاطفة الاعجاب ببسالة الجندي الالماني . ولكنه الى جانب هذا شاهد وعانى من مساوىء الاتوقراطية الألمانية والعجرفة العسكرية ما لا يزال يذكره اسوأ الذكرى . ولا شك أن حديثه عن تجاربه تلك في غضون الحرب الماضية تزيد من حيرة كل أجنبي عن ألمانيا في أمر هذا الشعب

كان ستراسر جنديا ملء قلبه ، ولكنه مع هذا كان يحس المقت العميق لضباط الجيش الالماني . فقد كان شابا مثقفا ، وهم أبعد الناس عن الثقافة وأشد الناس ازدراء لها . انهم

يرون فى الثقافة عدوا للروح العسكرى ، أو على الاصح لروح العدوان التى تسير جيشهم وتوجه خططهم . وكان فى كتيبته ، وعدد جنودها ثلاثمائة ، مائة وثمانون طالبا ، كانوا يعانون من عنت الضباط أكثر مما يعانى سائر الجنود . ويروى ستراسر فى صدد هذا القصة التالية :

« فى مساء أحد أيام السبت من شهر اكتوبر سنة ١٩١٤ ارتدينا أجمل ملابسنا تأهبا للسفر الى المدينة حيث نمضى يوم اجازة منحناه . واذا بأحد ضباط الصف يأمرنا أن نصطف ، ثم ينادى فينا : من منا يعرف الانجليزية أو الفرنسية ؟ فتقدم بعضنا وقد حسب أنه سيدعى لمهمة حربية تتطلب معرفة احدى اللغتين الاجنبيتين . وكنت أحد هؤلاء الذين تقدموا مستبشرين خيرا . واذا بهذا الضابط ينظر الينا شزرا ، ثم يقول : واذن فان على هؤلاء المثقفين الخائبين أن ينظفوا المعسكر هذه الليلة ، وعلى الباقين أن ينصرفوا الى اجازتهم .. هيا الى العمل أيها المثقفون ! »

ويقول ستراسر فى ختام هذه القصة : « منذ ذلك الحين وقلبى ينطوى على كره عميق للعسكرية التى تختلف كل الاختلاف عن الجندية » . نعم ، فالجندية هى حمل السلاح فى سبيل الدفاع عن رأى أو شرف أو وطن . أما العسكرية فهى حمل السلاح من باب الاحتراف والامتهان ، وحمله فى سبيل الهجوم والتعدى ، واعمال هذا السلاح فى الناس بلا تفرقة بين المذنب والبرىء !

وكانت حياة ستراسر فى الجندية حياة ممتازة . فحارب طوال سنى الحرب ، وجرح فى احدى معاركها جرحا خطيرا ، وكوفىء على ذلك بوسام الصليب الحديدى من الطبقة الاولى ورقى الى رتبة ضابط لانه طارد جماعة من الجند حتى تركوا مدفعهم فغنمه . وأحس فى فترة طويلة من الحرب زهو الجندى الذى يحارب فى جيش منتصر مظفر ، ولكن لما انقلب المد جزرا ، واستحال النصر هزيمة بدأ يقول : « لن أنسى ما حييت أول مرة رأيت فيها الجنود الامريكيين . كان ذلك فى يوم ٢٥ اغسطس سنة ١٩١٨ . وكانت كتيبتى تدافع عن معبر احدى القنوات فى فرنسا ، وكانت ترتد منذ أيام تحت ضغط عدو يتفوق علينا عددا وعدة وعتادا . ولم تكن بأيدينا الوسائل التى ننقل بها جرحانا ومرضانا ، فضلا عن أن نضمدهم ونداويهم . وكنت فى مركز أمامى حين رأيت الامريكيين ، فرأيتهم صفا واحدا من الجنود المتلئين صحة وابتهاجا ، ينشدون أناشيد فتية مرحة ، وهم فى ملابس قشيبة تزينها قبعات وأحذية انيقة . نعم كانوا يسيرون كما كنا نسير فى صيف سنة ١٩١٤ حين دخلنا معمعة القتال واثقين من انفسنا مطمئنين الى أن النصر من نصيبنا !

« ولاول مرة ، حين رأيتهم ، أحسست الخوف من أن نخسر الحرب . اذ ماذا يجدينا نفعا من تساقط قنابلنا على هذه الصفوف التى لا أول لها ولا آخر من جنود يملأهم الأمل واليقين والابتهاج ؟ ان هذا التيار الدافق من الجنود كان زاخرا مندفعا الى حد خليق بأن يغرقنا فى لجته ويطوينا فى غماره

« وما من جندى ألمانى مرت به هذه التجربة القاسية ، فرأى بعينه الفارق الكبير بين جنود جيشنا المتخاذل وقد أوهنهم الجوع والضنى فراحوا فى أسمالهم البالية يسيرون مترنحين ويتكلمون متذمرين ، وبين أولئك الشبان الامريكيين الذين يطعمون أوفى الطعام ويلبسون أبهى اللباس ، وقد توافر لهم من العدد والعتاد ومن الدربة والتمرين ما يملأ صدورهم يقينا بالنصر القريب ـ ما من جندى ألمانى شهد هذا بعينيه يمكنه أن يصدق تلك الدعوى الكاذبة الخرافية : دعوى هتلر بأن الجيش الالمانى طعن فى ظهره بخنجر اليهود»

***

وقفت رحى الحرب ورفعت راية السلام ، وجاءت على ألمانيا تلك المحنة القاسية : فأما رجالها فقد وجدوا الحياة من حولهم أطلالا وانقاضا ، دفن فيها من دفن من أبنائهم القتلى والجرحى والمرضى ، وضاع فيها ما ضاع مما ملكوا وادخروا طوال أيام الصبا والشباب . وأما شبانهم فقد سرحوا من الجيش الى حيث لا يجدون عملا يرتزقون منه فضلا عن أن يجدوا الحياة الآمنة الرتيبة

وكان أوتو ستراسر وسط هذه الفوضى الضاربة أطنابها يعانى مرضا عضالا سرى فى أطرافه منذ أيام الجندية . ولكنه بدأ يجاهد فى سبيل عيشه وفى سبيل مستقبله ، فراح يسعى جاهدا لينال درجة علمية من جامعة ميونيخ . وكان أكبر ما يهمه قوته اليومى ، فكان يدرس فى الجامعة من الصباح الباكر الى منتصف النهار، ثم يذهب الى دار الريشستاغ حيث وجد وظيفة بسيطة ، وظيفة كاتب مختزل ، بمرتب ضئيل ، فكان اذا انصرف من عمله هذا فى السادسة أو السابعة مساء ، تناول عشاءه على عجل ثم ذهب الى مدرسة يعلم فيها الشبان والعمال دروسا فى التاريخ الالمانى دون أن يتقاضى عليها أجرا . ويعود الى بيته بعد ذلك ليستأنف العمل فى دروس الجامعة الى ما بعد منتصف الليل . كل هذا وهو مريض يعانى شللا فى ساقيه ، حتى غدا لا يستطيع السير الا متوكئا على عكازتين

وكان مذهبه السياسى ، ولا يزال ، المذهب الاشتراكى . فقاده هذا المذهب الى حزب سياسى جديد قام وسط هذه الفوضى التى عمت الحياة الالمانية من جميع جنباتها ، وهو الحزب الوطنى الاشتراكى الذى أنشأه أدولف هتلر . وكان لاوتو أخ أكبر منه هو جريجور ستراسر ، وكان يؤمن ايمانا عميقا وثيقا فى وعود هتلر بأن يجعل من ألمانيا موطنا لشعب سعيد كريم ، ينال فيه كل ذى حق حقه ، ولا يضحى فيه بالضعاف قربانا للاقوياء المتهومين . فانضم جريجور الى هتلر وآزره بكل قواه وجوارحه

ومرت خمس سنوات منذ اليوم الذى انضم فيه أوتو ستراسر الى النازى الى اليوم الذى ألقى فيه على هتلر كلمة الوداع ، قائلا له فى وجهه : انك رجل مخادع ومحتال ، كاذب ومحتال . فقد تبين تغرير هتلر باتباعه ، وأيقن من انه خان الاشتراكية واتخذها ستارا لاهوائه ونزواته ، وأنه قد باع وعوده للناس باقامة النظام الاشتراكى لهذه الفئة التى

تسيطر على الصناعة وتمتلك المصارف وتضع أيديها على الاراضى والغابات، لفئة الرأسماليين مقابل ما أمدوه به من المال فى الخفاء

لقد أدرك أوتو ان سياسة هتلر ليست بالسياسة النظيفة الشريفة ، وان مذهب هتلر ليس بالمذهب الاشتراكى الصحيح ، فحاول ان يهدم الحزب النازى : حاول أن يبث فيه الالغام التى تنسفه وتقوضه . فأخذ يجمع حوله أعضاء الحزب الذين يؤمنون بالاشتراكية اكثر من ايمانهم بهتلر ، ويؤمنون بألمانيا اكثر من ايمانهم برجالها العسكريين والماليين ، وألف منهم « الجبهة السوداء » . وكان أنصاره هؤلاء يؤلفون جبهة وسط الحزب النازى ووسط الجيش الالمانى بل ووسط جماعة الجستابو ذاتها . وبذلك بدأ حربه على هتلر ، وهى حرب ما تزال دائرة الرحى متقدة النار . نعم انها لا تبدو للعيان لانها قائمة فى الخفاء، ولكن قد يأتى اليوم الذى تبدى فيه هذه الحرب على مشهد من العالم جميعا ، فى صورة ثورة داخلية تعصف بهتلر وبالنازى عصفا ذريعا . « فالجبهة السوداء » تقوم الآن فى قلب ألمانيا متأهبة للعمل الحاسم يوم يقصم ظهر القوة العسكرية التى تسند الهتلرية ، وكأنها النار المطمورة تحت الرماد : لا يبدو لهيبها ولكنها مع هذا جمرة محرقة

***

فى مساء ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ كان أوتو ستراسر ذاهبا الى محطة برلين ليأخذ منها القطار الى بيته فى احدى ضواحى المدينة ، فرأى سحابة كثيفة من الدخان واللهيب تخيم فوق المدينة . فسأل سائق السيارة عن الامر ، فقال له : « ان النازى أحرقوا الريشستاغ» وعندئذ تبين أوتو مدى الخطر الذى يحف به ، فقد بدأ حقا عهد جديد من الحكم الارهابى الذى لا يتحرج من اراقة الدماء وازهاق الارواح مهما تكن زكية وبريئة . وأدرك ان منزله فى برلين لا بد أن يكون فى هذه الساعة قد أحيط برجال الجستابو تأهبا للقبض عليه متلبسا بجريمة التآمر على الفوهرر والحزب ، فعدل عن الذهاب الى بيته وأخذ طريقه الى مكان آخر فى أحد انحاء ألمانيا النائية ، وكان قد أعده من قبل ليكون مقرا لحركته السرية ، كما أعد لها أماكن أخرى كثيرة ليتنقل بينها كلما وقعت عين الجستابو على أحدها

ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة متصلة الحلقات من أعمال الاختفاء والمطاردة . ولكن ستراسر كان أدهى عقلا وأمهر حيلة من الجستابو ، فمع أنهم طاردوه فى كل مكان ، وتعقبوه فى كل قرية ، الا انهم لم يظفروا به أبدا . وحدث بينه وبين الجستابو من صور المطاردة ما لا تشهد مثله الا على الشاشة البيضاء فى الروايات البوليسية . فثمة تراه فى سيارته منطلقا بها انطلاق الريح ومن ورائه سيارة الجستابو ، وهو يتعرج بها من طريق الى طريق ، ويعلو بها الاكمات ويهبط بها الوهاد ، حتى يختفى عن الابصار فى أجمة كثيفة أو وسط بناء مهجور . وثمة تراه مختفيا فى زى شاب انيق عاشق من هؤلاء الشبان الذين يجرون وراء الفتيات ويضربون لهم مواعيد اللقاء فى القرى النائية ، فاذا رآه

الجستابو لم يدر بخلدهم أن هذا الشاب الأنيق السادر هو عدو هتلر اللدود

ولو أن الجستابو أمسكوا به لكان مصيره على التحقيق مصير أخيه جريجور الذى أبى أن يهجر ألمانيا بعد ان انفصل من هتلر عقب قيامه على الحكم وتوليه زمام السلطة . وقد حسب جريجور أن لا بأس عليه ما دام قد هجر السياسة وانصرف الى العمل فى احدى المؤسسات الكيمياوية فى برلين . ومرت عليه أيام شعر فيها أن لا خطر عليه وأن هتلر أسقطه من ذاكرته ، فأكب على عمله الجديد مبتعدا عن السياسة وكل من ينتمى اليها .

وعرف أوتو فيما بعد ما حدث لأخيه جريجور . عرفه من رجل كان معتقلا حينذاك فى هذا المعسكر الذى اعتقل فيه أخوه . فعرف ان أخاه كان مستلقيا ذات يوم على اريكة خشبية فى المعسكر حين دخل عليه هيدريش ، وهو الذى يلى هملر فى صفوف الجستابو ، ومعه رجل ثان غير معروف ، ووقفا بباب الحجرة التى حبس فيها جريجور ، واستلا مسدسيهما وأطلقاهما عليه . فقفز المسكين الى ركن فى الغرفة وهو يصرخ ويعوى ، ولكن نار المسدسين لاحقته الى هذه الزاوية فسقط الى الارض وما زال ينبض بالحياة . فتقدم اليه هيدريش وقذفه برصاصة فى عنقه كانت هى القاضية . وهيدريش هذا هو الذى لقى مثل هذه الميتة بعد سنوات ، حين اغتيل فى بوهيميا بيد نفر من أبنائها المجاهدين

***

اعتصم أوتو ستراسر بمدينة فينا التى حسبها بمأمن من عملاء النازى ، واستأنف حربه التى يمكن أن نسميها « حرب الرجل المفرد » . وبدأ هناك يكتب ويطبع جريدة لفضح أعمال هتلر ومشاريعه ، ويهرب منها الى أرض الريخ آلافا وآلافا من الاعداد . وكان هذا العمل فى بدايته يسيرا ، فقد كان فى النمسا جمع كبير ممن يخشون ان تمتد يد هتلر الى بلادهم فيذهب باستقلالها ويقضى على حرية بنيها . ولهذا أعانوا ستراسر فى تحرير الجريدة وطبعها وتهريبها . وكان اسم هذه الجريدة « المذبح الاسود » . وكان ينشر الى جانب الجريدة رسائل صغيرة تطبع على ورق رقيق ، ويسهل طيها فى كرات صغيرة من الجلد الرقيق . وكان رجاله يبتلعون هذه الكرات ليهربوا ما بداخلها الى أرض ألمانيا ، وقد بلغ ما هربوه منها فى احدى المرات خمسين ألف رسالة . وكان النازى لا يرهبون شيئا مثل هذه الرسائل التى كان الشعب يتلقفها متلهفا عليها ، لما تضمنته من اسرار لا يعرفها الا رجل مثل أوتو ستراسر كان الى جانب هتلر عددا من السنين ، وكان مطلعا على خططه واسراره ، هذا الى أنه لم يكن من الممكن اتهامه بما يتهم به سواه من المناوئين ، فلا هو شيوعى ، ولا هو يهودى ، وانما هو نازى تاب وأناب حين تبين طريق العسف والخديعة التى يسير فيها حزبه وزعيمه

ولكن يد الجستابو امتدت عبر الحدود الى النمسا وبدأ ستراسر يحس أصابعها تقترب منه . وفى ذات ليلة اقتحم جماعة من النازى بيته فى برلين ليختطفوه . ولكنه كان فى

تلك الليلة فى تشيكوسلوفاكيا حيث راح يبحث فيها عن مكان يتخذه مقرا لحركته اذا وقعت النمسا فى يد هتلر . وعلم بما حدث عند عودته الى فينا ، فأيقن أن لا مأمن له فيها ، ولاسيما أن كثيرا من رجال البوليس النمساوى كانوا يمالئون النازى ويتغاضون عن جرائم رجاله ، ويقدمون ذلك دليلا على صداقتهم التى يرجون من ورائها الغنم والكسب يوم تقع بلادهم تحت أقدام النازى . فلم يجد هتلر بدا من أن يهجر فينا الى براغ التى اتخذها مقرا لحركة « الجبهة السوداء » ، ومركزا لقيادة الحرب التى سميناها « حرب الرجل المفرد »

وكانت براغ آمن من فينا ، فليس من أهلها من يحب النازى أو يرغب فى أن تذل له بلاده ، ولم يكن من السهل على عملاء النازى ان يقارفوا جرائمهم بين هؤلاء القوم الذين يمقتونهم . ولهذا راح ستراسر يصدر جرائده ورسالاته التى يحارب بها هتلر ، وراح أنصاره يهربون هذه الجرائد والرسائل الى المانيا ، محتالين تارة ، مغامرين تارة أخرى ، معرضين حياتهم لاشد الاهوال . فمن الحيل التى لجأ اليها ستراسر أن طبع أغلفة خطابات تشبه تلك التى تستعملها الجمعية الطبية الالمانية ، وأرسل فيها خمسين ألف نسخة من جرائده ورسائله ، وترك الاغلفة مفتوحة لكيلا تثير شبهة عمال البريد ، وأرسل هذه الآلاف من الرسائل الى شتى انحاء ألمانيا ، فحملها اليها البريد الالمانى دون أن يفطن أحد من رجاله الى أنه يحمل فى يديه أقوى الاسلحة التى يحارب بها هتلر ويناهض . واتبع هذه الوسيلة مرة أخرى مستعملا أغلفة خطابات كتلك التى يستعملها اتحاد المحامين الالمان

وفى سنة ١٩٣٤ بدأ ستراسر أهم مراحل حربه على هتلر . وهى مرحلة تشبه القصة البوليسية وتشتمل على جميع عناصرها . ففيها تجد الفندق الريفى المهجور ، وتجد الفتاة الشقراء الفاتنة ، وتجد المسدس وطلقات الرصاص ، وتجد مغامرات الهروب فى السيارة المنطلقة . هذه هى قصة محطة الاذاعة اللاسلكية التى انشأها ستراسر فى احدى الفيافى

لم يقم ستراسر بهذا العمل العجيب بمفرده ، بل كان يعاونه رجل جرىء مخلص هو رودلف فورمس ، وهو أحد مهرة المهندسين اللاسلكيين الالمان . وقد رفعته مهارته الى مرتبة كبيرة فى محطة الاذاعة الالمانية ، ولكنه لم يكن يخفى كراهيته للنازى ، فاضطر الى أن يلوذ بالفرار الى خارج ألمانيا لينجو بحياته مما تهددها من خطر الموت . وقد قابل ستراسر فى براغ واتفقا على اثارة « حرب لاسلكية » على هتلر . وكانت العقبة التى تعترضهما قلة المال ، ولكن عددا من أنصار هتلر فى ألمانيا أرسل اليهما ما يريدان ، فبدأ الرجلان فى اقامة المحطة . وكان يجب أن تقام فى مكان قريب من الحدود الالمانية حتى يسهل ايصال صوتها الى سمع الشعب الالمانى ، وأن يكون هذا المكان بمأمن من السلطات التشيكية ومن أعين الجستابو على السواء . ووجدوا هذا المكان على مسيرة اربعين ميلا من براغ فى فندق ريفى ناء سماه صاحبه « فندق ما وراء التلال » . وكان الوقت اذ ذاك خريفا والفندق خاليا من الناس اذ قلما يهبط هذه المنطقة زائر فى هذا الفصل الذى يسكن فيه الناس منصرفين عن الرحلات

ظلت هذه المحطة قائمة بأمر الدعوة التي كرس ستراسر نفسه لابلاغها ، حتى عرف النازي بعد جهد عنيف أين مقرها . وفي ١٦ يناير سنة ١٩٣٥ ذهب ستراسر الى ذلك الفندق ورأى فورمس آخر مرة في حياته . وكان معه بعضا من اسطوانات الجرامفون سجل عليها خطبا له لتذاع على الشعب الالماني . وكانت هذه الاسطوانات تذاع ثلاث مرات في كل يوم . وانبأه فورمس في ذلك اليوم أن قد هبط الفندق رجل ألماني وفتاة ، وانه يبدو أنهما حبيبين جاءا يمضيان وقتا جميلا بعيدا عن أعين الرقباء . وارتاب ستراسر في الامر وساورته الخيفة ، ولكن فورمس قال له : كلا ، بل هما من الاناقة والرقة بحيث لا أشك فيهما ولا اتوجس منهما شرا . على أن فورمس أخفى عن صاحبه أمرا ، فقد جاءته هذه الفتاة الشقراء الفاتنة ذات يوم وقالت : اني أحب أن نأخذ صورة لنا معا ، لتكون لي ذكرى لهذه الايام الجميلة ، التي أرجو ان نحياها مرة أخرى عند ما أعود الى هذا الفندق عما قريب ، بعد ان نقضي أمرا لنا في برلين . ولعل فورمس ارتاب في الامر ، ولكن جمال الفتاة كان أقوى عليه من ريبته، فأخذت لهما صورة وقد لف يده حول خصرها

وفي اليوم التالي غادرت الفتاة وصاحبها الفندق . الى أين ؟ الى برلين لتعرض الصورة على رجال الجستابو ليتأكدوا من أن هذا الرجل هو خصمهم فورمس

وبعد أيام قليلة عاد الرجل والفتاة الى الفندق . وآوى الرجل الى فراشه عند ما أقبل المساء اذ كان يشكو من صداع ألم به في اثناء رحلته . بينما بقيت الفتاة في حجرة فورمس يسامران بلعب الورق وشرب البيرة . فلما جن الليل اذ بباب غرفتهما يفتح واذا بالرجل ومعه آخر وفي يد كل منهما مسدس كبير . وانطلق الرصاص من المسدس فأصاب فورمس وأصاب الفتاة ، فأرداهما قتيلين . واستيقظ صاحب الفندق وخادمه وأسرعا الى حيث انطلق الرصاص . فقادهما أحد الرجلين الى غرفة وأوصد دونهما بابها . وسمعا وهما في محبسهما صوت سيارة تندفع مسرعة ، وقد غدا الفندق ساكنا صامتا لا صوت به ولا حراك . وكسرا باب الغرفة وذهبا الى حيث يقيم فورمس فوجداه جثة هامدة . أما السيارة فكانت تحمل الرجلين وتحمل جثة الفتاة

لماذا قتلت ؟ لعلها قتلت خطأ ، ولعل صاحبها كان يكرهها لأمر ما فانتهز الفرصة وأطلق عليها الرصاص . وعاد الرجل الى الجستابو ظافرا . وكوفىء على ذلك ــ كما علم ستراسر ــ بعشرة آلاف مارك . ورقي الى رتبة أعلى في هيئة الجستابو

أما محطة الاذاعة فنقلها بوليس براج الى أحد المتاحف حيث كانت ، الى ما قبل استيلاء هتلر على تشيكوسلوفاكيا ، من أهم معروضاته .. ألم تكن هذه المحطة الصغيرة بمثابة جيش عنيد يحارب هتلر ، فيقض مضجعه ويؤرق نومه ، ويعد الثورة التي تعصف به

هذه هي قصة أوتو ستراسر وقصة الجبهة السوداء التي أقامها حربا على هتلر . وهي ما تزال قائمة ، بل لعلها الآن أقوى وأضخم مما كانت في يوم من الايام

(خلاصة كتاب للصحفي الانجليزي دوجلاس ريد)

لو جاء هتلر

قصة ملخصة : بقلم الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

ألف هذه القصة كاتبان انجليزيان هما دوجلاس براون وكريستوفر سيربل . وذلك فى الوقت العصيب الذى مر ببريطانيا عقب سقوط فرنسا . فقد أشفقت حينذاك بعض القلوب وتوجست شرا ، وبدا فى الافق أن ثمة من لا يرى فى الثبات والعناد جدوى ، ومن يؤثر المهادنة والمصالحة ومقابلة النازى فى منتصف الطريق . فكتبت هذه القصة لترى البريطانيين والعالم أجمع ماذا يحل بهم فى حاضرهم ومستقبلهم ان تمكنت منهم يد هتلر القاسية . فقوبلت القصة من الصحافة الانجليزية بكل تحية واعجاب ، واقترحت صحيفة « نيوستيتسمان » على وزارة الدعاية ان توزع القصة على الناس مجانا . والواقع ان ما تنطوى عليه القصة من وقائع وأحداث لا يختلف فى جوهره عما يقع فى كل بلد أنشب فيه النازى أظافره بطريقته المعهودة من خداع واغراء ، ومن تهديد وانذار ، ومن جماعات يبثها لنشر الفوضى ، ومن مواثيق يبرمها لينقضها ، ثم ما يعانيه البلد فى ظله من ارهاب الجستابو ، ومن الاستغلال الاقتصادى ، ومن الافساد المعنوى

كانت الخطبة التى ألقاها فى مدينة همبورج فى شهر يناير أهم حادث فى تاريخ حياته ، فأقامته سيدا مطلق الكلمة نافذ الامر فى نصف الدنيا بأسرها . سمعت هذه الخطبة فى بيتى مذاعة على الاثير ، فأبرقت الى جريدتى قائلا : ان الشعب البريطانى يعرف كيف يرد على هذه الشنشنة التى عرفناها منه ، وتعودنا أن نسمع منها كل مرة عبارات الوعد والوعيد ، وأساليب الاغراء والانذار . ولكنى لم أكن مصيبا كل الاصابة فيما ذكرته فى برقيتى ، فمنذ سمحت الحكومة بنشر الخطاب كاملا فى الصحف ، وأنا أسمع أفرادا من القوم فى الأندية والملاعب والمكاتب والطرقات يتهامسون بمثل هذه الكلمات : « بينى وبينك ان فى كلامه بعض الحق حين يقول دعوا الماضى بشؤونه وتعالوا نتعاون منذ اليوم معا » —

« لست أدرى اذا كان سيصدق فى وعده بأن يعامل التشكيين والبولنديين معاملة طيبة اذا تركناه حرا فى أمرهم دون تدخل منا » ــ « نعم ، لا بد ان يكون فى العالم متسع لبريطانيا وألمانيا معا » ــ « انه لا يريد أن ينتزع منا شيئا ، حتى مستعمرات ألمانيا السابقة لا يطالب بها » ــ « لا شك فى انه عظيم ومخلص ، فقد تنبه الى ان الخطر الحقيقى هو الخطر الاحمر ، وان العدو الحقيقى هو البولشفية المتعطشة للدماء » ــ « انها حرب لا معنى لها ، وانى لا أطيق التفكير فى أمر أولئك الاطفال الذين يموتون جوعا فى ألمانيا » .

هكذا كان يجرى التهامس بين القوم ، وهكذا كانت الروح السارية فى الجماعة . لم تكن هذه الروح فيما أعتقد منبعثة من خوف ملأ قلبهم أو جبن ثلم عزمهم ، بل من عاطفة انسانية رقيقة أثارتها وأذكتها حالة الضيق والقلق التى سادت الافراد جميعا والطبقات جميعا فى خلال السنين الاخيرة . نعم ، ألم تركد سوق التجارة ، ألم تضق دائرة الصناعة ، فى ألمانيا وبريطانيا معا ؟ ألم يتعطل ملايين وملايين من العمال هنا وهناك سنين عددا ؟ ألم تتحطم الحياة العائلية الآمنة ، ألم يقاس الاطفال والنساء والشيوخ ، من جراء هذا الضيق الاقتصادى الشامل ؟ ثم ألم ترهق الاعصاب ارهاقا كاد يحطمها ويذهب بها طوال تلك السنين التى لم تهدأ فيها ثائرة الانذار والتهديد والارهاب ، والتى أريقت فيها الدماء فى كثير من الارجاء ، فى النمسا ، واسبانيا ، والحبشة ، ومنشوريا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولندة ؟ .. لماذا كل هذا ؟ لماذا يحدث هذا ، وهتلر لا يريد الا شيئا واحدا ، شيئا يريحنا ويريحهم ويريح العالم جميعا .. انه لا يريد الا « اطفاء النار » !

سمعت الحكومة هذا الهمس المتواتر ، ولكنها لم تعن به . لقد نزلت ساحة الحرب مرغمة كارهة ، لتفى بريطانيا بعهدها لحلفائها وأصدقائها ، ولتدفع عن نفسها وحريتها ما يتهددها من الاخطار ، وكانت فى ذلك معبرة عن ارادة الامة مستجيبة لرأيها القاطع . وما تحسب الحكومة ان الوضع قد تغير كثيرا أو قليلا ، فالعدو الذى يتهدد بريطانيا لم يضعف شيئا بل ازداد قوة وبأساء ، والخطر الذى يحف بها ما زال جاثما يتربص بها الدوائر ليثب عليها الوثبة القاضية . فلم يكن للحكومة بد من أن تدير أذنها عن هذا التهامس الذى بدأ يشيع فى القوم . ولكن ثمة جماعة أخرى كانت آذانها الى الارض تستمع كل همس مهما يكن خافتا ، فتحيله الى صوت ضخم عريض يظن سامعه أنه صوت الناس جميعا . تلك هى الجماعة التى كانت لا ترى فى الحرب الا ضرائب ثقيلة تبهظها ، وتشريعات حازمة تفوت عليها أغراضها ، ولا ترى فى السلم الا ميدانا فسيحا للاحتكار ، والمضاربة ، والتلاعب ، والتهرب من فريضة الضرائب . وفوق هذا وهذا فقد كانت ترى فى السلم طريقا الى تحطيم ذلك التحالف المعقود بين ألمانيا وروسيا ، وبذلك يقضى على ذلك الشبح الذى يؤرقهم بالليل ويغشيهم بالنهار ، شبح الشيوعية ! فلماذا لا تسعى هذه الجماعة الى تضخيم هذا الهمس الخافت واحالته الى صوت مدو أخاذ ، ولماذا لا تبث هذا الروح ، روح التخاذل والتهافت والاستسلام فى الناس جميعا ؟ لماذا لا تقوم بحملة منظمة من الرسائل

تبعث بها الى رجال الحكومة ، وأعضاء البرلمان ، وكتاب الصحافة ، وبحملة منظمة من الاقاويل والاشاعات تسوقها الى الاندية والمجتمعات ، بل الى دور العلم والجامعات ؟ بل لماذا لا تتآمر هذه الجماعة مع نظرائها في ألمانيا على عمل من أعمال الضغط الاقتصادي والمالي ، ولها من السيطرة على المصارف والبورصات ودوائر الاعمال ما يمكنها من هذا

على أني أترك لغيري من هم أوثق مني اتصالا بهذه الجماعة، وأكثر مني دراية بأساليبها ومؤامراتها ، ليصف الطرق التي اتخذتها في تحويل النار التي كانت مؤصدة في قلب كل بريطاني الى دخان يذروه الهواء ورماد تذهب به الريح . وشاعت هذه الروح في القوم ، وسرت منهم الى الصحف ، وانتقلت أخيرا الى دار البرلمان . أكانت هناك رشى من المال ، ومما هو أسوأ من المال ، وراء نفر من رجال الصحافة ونفر من أعضاء البرلمان ؟ لست أدري : ولكن عند ما عرض الامر على ممثلي الامة ، رأينا فيهم من يردد في قاعة البرلمان ذلك الذي كان يتهامس به الناس في الاندية والطرقات . رأينا فيهم من يقول : فلندع الماضي ولننظر الى المستقبل ، فلنحقن الدماء ولنصن الارواح ! بل سمعنا منهم من يقول : أكل هذه الحرب في سبيل دانزيج ، التي لا يدري ٩٩ ./. من الشعب البريطاني موضعها في الخريطة ! بل سمعنا من يقول : ان بريطانيا وألمانيا يجب ان تكونا يدا واحدة وقلبا واحدا ينشر السلم ويبث الحضارة في ربوع العالم جميعا ! وفي وسط هذا الضجيج الغريب وقف رئيس الوزارة ، يقول تلك الكلمة التي غدت شعاره : « لا نريد حربا أنانية ، ولا نريد سلما مخزيا »

وتريث هتلر اسبوعا بعد هذا الحديث العجيب الذي دار في قاعة البرلمان . ثم أذاع نداء استهله بهذه الكلمة : « هيا الى اقامة تعاون بريطاني ألماني في عالم ينادي بالسلام القائم على أسس العدالة » . ولست أذكر الآن ماذا كنت أشعر ، ولا ما كنت أقول ، خلال تلك الايام القليلة التي مضت بين اذاعة هذا النداء وبين يوم انعقاد مؤتمر «نورمبرج» لعقد الصلح بين ألمانيا وبريطانيا ، ولكنها على أي حال كانت أياما عصيبة على من كان يعلم عن بينة ويقين المصير الذي حل بهذا الشعب الذي عاش حرا سيدا أجيالا تلو أجيال ، فغدا منذ الساعة يسعى الى حيث ينتظره الغل الذي يصفده ، والضيق الذي يأزمه

وذهبت طائرا الى نورمبرج . ورأيت هناك ممثلينا الذين جاءوا يتعاونون مع عدوهم السابق في اقامة عالم أمن سعيد ينعم فيه الناس بالحرية والعدالة . ورأيت الى جانبهم جماعة من الناس قيل انهم يمثلون فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة وهولندة وبلجيكا واليونان ويوغوسلافيا ، وقد جاءوا ليمضوا الدستور الذي أنشأته ألمانيا لتطبيقه على تلك البلاد

وعدنا الى بريطانيا ، فكيف وجدنا أهلها ؟ وجدناهم يحمدون الله الذي لا يحمد على مكروه سواه . فقد زلزلت الارض زلزالها ومع ذلك بقي بيتهم قائما وسط الانقاض . ألم يزل بنك انجلترا مفتوح الابواب وحي « السيتي » مائجا بتجار الاموال ورجال الاعمال ؟ ثم ألم تزل ربوع انجلترا مخضرة بالزرع مزهرة بالثمر ، لم تخربها الجحافل

ولم تدمرها الطائرات ؟ ثم ألم يذع رئيس الوزارة ساعة عاد الى لندن رسالة يقول فيها : « فلننس الماضي ولننظر الى المستقبل . لقد أخذنا حربا أثانية وأقمنا سلما مشرفا . وسنوجه همنا الى اصلاح شؤوننا . سننشىء أعمالا تقضى على البطالة . وستعاون مع ألمانيا فى ترويج التجارة . وسنكون أسعد مما كنا ، وان لم نكن أغنى .. » نعم ، وها هو الرواج يعود الى مدينة لندن ، فها هى فنادقها وملاهيها ومسارحها عامرة بأفواج وأفواج من الضباط الالمان ؟ أما هذه المظاهرات التى يقوم بها جماعات من الشبان والعمال الشيوعيين ، أما هذه المناوشات التى وقعت فى أحياء اليهود فى المدن الكبرى ، أما ما نقلته الصحف عن اضطرابات فى أرجاء الهند ، فهذا أمر بسيط عبر عنه رئيس الوزارة بقوله : « انها فترة لا بد منها فى أثناء الانتقال من عهد الى عهد » ! فلا بأس ولا خوف

أما أنا فقد وجدت مجالا متسعا لموافاة جريدتى فى استراليا بكثير من الانباء . وكان أهمها بطبيعة الحال أنباء تسريح الجيش البريطانى . نعم ، فقد سرحوه ، أما الجيش الالمانى فظل مجندا بملايينه ، بل ظلت مصانع الأسلحة والذخيرة فى بريطانيا تعمل ليل نهار ، لتزيد فى عدته وعتاده ، بينما انصرفت حكومتنا الى ايجاد عمل لجنودنا المسرحين .

ومضت الايام بطيئة ثقيلة ، فلم أجد بأسا من ان اذهب وزوجتى وابنتاجوليا الى الريف نستريح قليلا . وذهبت الى ديفورد ونزلنا فى بيت أسرة عرفناها منذ سنين . وهناك فى الريف سمعت فلسفة جديدة : لماذا لا نعيش فى حقولنا نزرعها ونأكل منها ؟ ألا بد أن تكون لنا امبراطورية تكلفنا انشاء جيوش وأساطيل ؟ ان أهل ديمركة أسعد منا وأغنى مع أنهم لا يملكون أية مستعمرات !.. حقا انها فلسفة ، ولكنها للاسف فلسفة ناقصة مبتورة ، أحسب هؤلاء الناس أننا فقدنا امبراطوريتنا فحسب ، ألم يعلموا أننا فقدنا قبل كل شيء حريتنا ؟!

وأمضيت فى الريف أياما وددت لو تطول ، فقد كان الريف على أى حال أهون أمرا من لندن التى يسودها القلق فتهيج فيها الاعصاب . ولكنى صحوت ذات يوم على عنوان ضخم فى الديلى اكسبريس يقول : « تهديد آخر بالحرب ـ ألمانيا تحشد جيوشها ـ خطبة تهديد ألقاها الفوهرر » . وكانت الاخبار غامضة مضطربة ، ولكنها تستدعى رجوعى فورا الى لندن لاوافى جريدتى بهذه الانباء الجديدة المثيرة التى تقول ان الفرق الالمانية المحشودة على ساحل هولندة تقدر بعشرين فرقة ، وان هتلر خطب أمس فى اجتماع الحزب النازى فى مدينة برسلاو ، فقال : « ان مشكلة المستعمرات يجب أن تحل ـ أن تحل هنا وفورا . أما أولئك الذين يتكلمون عن المؤتمرات والمفاوضات فانهم لا يعرفون الشعب الالمانى ، هذا الشعب الذى لن يرجو ولن يتوسل مرة أخرى ، لكى يجلس الى مائدة خضراء فى سبيل حقه المهضوم ، وفى سبيل كرامته المهدرة ، وفى سبيل مطالبه التى أضاعوها زمنا طويلا . انه يطالب بحقه بصوت يدوى فى الآفاق دوى الرعد ، ويقصف فى العالم قصف المدفع الرهيب . ولن تستطيع تلك العصابة اليهودية الدولية أن تنكر

هذا الصوت أو تقف فى وجه ألمانيا » . وثمة فقرة أخرى فى الخطاب يقول فيها : « ان القوة الالمانية الجوية هى أمضى سلاح وأرهب سلاح وجد فى يد شعب فى أى عهد من عهود التاريخ . انهم يفاخرون بقوة دفاعهم ، ولكن قل لهم ان طائرات الرايخ تستطيع فى ساعة واحدة ان تغطى السماء بآلافها فتحيل أية عاصمة تعادينا الى أطلال وأنقاض . أنذرهم ، فقد أزفت ساعتهم ، وانها لساعة رهيبة ، ان لم يرجعوا عن غيهم ، ان لم يثوبوا الى رشدهم ، ويجيبوا ألمانيا الى مطالبها . . »

ونشرت التايمز الخطاب ملخصا وعلقت عليه بلغتها الرصينة الرزينة ، فقالت : لا شك أنه خطاب خطير ، ولكن الحكومة البريطانية معنية بحل جميع المسائل التى خلقتها الحرب ، بما فيها مسألة المستعمرات . وعهدى بالتايمز ان وراء كلامها ما وراءه !

وقلت لزوجى لا بد أن أعود فورا الى لندن . وجئت العاصمة ألتمس الاخبار . فمن أين آتى بها ؟ أما المصادر المطلعة فى القارة فقد حيل بيننا وبينها وقطعت المواصلات بين أوربا وبريطانيا . وأما وزارة الخارجية فلا تعلم شيئا عن تلك الاخبار « المبالغ فيها » ، وهى لا ترغب فى أن تصور هذه الحالة فى صورة « أزمة سياسية » . وانعقد مجلس الوزراء فى المساء ، ولكنا لم نعلم شيئا عما دار فيه ، وان كنا سمعنا انه كان على اتصال دائم ببرلين .وجاءت أخبار أخرى بأن طائرة ألمانية رؤيت على الساحل الجنوبى الشرقى . وسمع الصحفيون الخبر فى دهشة بالغة ، فلعل هذه بداية حرب جوية خاطفة تثيرها ألمانيا على لندن ! . . أما فيما عدا ذلك فالناس فى حدس وتخمين ، وقلق واضطراب ، لم يكن ثمة منجى منه الا بأن أعود الى بيتى فى منتصف الليل لانام ، ان طاوعنى النوم . .

وفى الصباح الباكر أبلغتنا وزارة الخارجية أن ممثلى جميع الصحف مدعوون الى اجتماع هام فى قاعة لوكارنو فى الساعة التاسعة صباحا، وانه لا يسمح لهم الا بتسجيل بلاغ حكومة صاحب الجلالة الملك بشأن المباحثات التى جرت بينها وبين الحكومة الالمانية

واجتمعنا فى القاعة ، وفى الساعة التاسعة فتح الباب ودخل . . من ؟ ريبنتروب يتبعه رئيس الوزارة فوزير الخارجية . وعرتنا الدهشة جميعا اذ رأينا ريبنتروب وسطنا . كيف أتى ، ومتى ، ولماذا ؟ وعرفنا ان الطائرة التى رؤيت مساء أمس هى التى أقلته الى هنا . .

ووقف رئيس الوزارة وتريث قليلا وهو يجيل نظراته الواهنة فى جوانب القاعة ثم قال :

« دعوتكم الى هنا أيها السادة لتشهدوا ميثاقا تاريخيا يدعم السلام . فانى أعلم انه راجت فى الساعات الاخيرة اشاعات عن قيام الحرب مرة أخرى ، وعن تهديدات وجهت الى حكومتنا من احدى الدول الكبرى . ولكن هذه الاشاعات جاءت من مصادر لا علم لها بمجرى الامور . وأقرر هنا أن كل هذه الاشاعات لا نصيب لها من الصحة ، فمنذ أمضينا وثيقة الصلح فى نورمبرج فى الخريف الماضى ، وعلاقتنا بالحكومة الالمانية علاقة قائمة على نشدان المصلحة العامة ، وعلى تحقيق التعاون بين الدولتين فى سبيل اقامة عالم ينعم بالسلام

« وانى أقرر كذلك انه لا خوف من قيام الحرب فى عصرنا هذا مرة أخرى . فانى

سأضع الآن امضائى على ميثاق جديد مع الحكومة الالمانية يربط بريطانيا العظمى بالرايخ الالمانى برباط وثيق من التعاون الذى لا تنفصم عراه أبدا »

وسكت رئيس الوزارة قليلا ، فقد كانت تدوى فوق رؤوسنا أسراب من الطائرات .. الطائرات الالمانية التى جاءت تحيى هذا اليوم التاريخى الخالد ، بأن تحوم ساعة امضاء الميثاق فوق مدينة لندن وسائر المدن الانجليزية الكبرى . ولما انقطع دويها عاد الرئيس فقال : « هذا هو الميثاق .. ميثاق الصداقة والتعاون مع الرايخ الألمانى . وهو الذى يدعم تلك المعاهدة الشريفة التى عقدناها فى نورمبرج ، وقد قام على أساس عادل معقول قدمه الهر هتلر بالاتفاق التام مع حكومة صاحب الجلالة الملك . وأعتقد ان هذا الميثاق سيقابل بالارتياح والتأييد فى بريطانيا وألمانيا على السواء »

وأعقبه وزير الخارجية ، والابتسامة الماكرة لا تفارقه ، فقال : « هيا الآن الى مكاتبكم . فليس ثمة مجال للاسئلة . والامر متروك للبرلمان لمناقشته . وسيذيع رئيس الوزارة الليلة خطابا الى الشعب البريطانى »

وانصرفنا ، وسرت مع صديق لى من الصحفيين الامريكيين ، أخذ يتكلم ويهدر ويهذى كأنه محموم ، فيقول : « هذه بداية النهاية » ، « هذه وثيقة النصر الهتلرى » . ثم عاد يقول : « ولكنى لا أصدق أن الشعب البريطانى يجرد من حريته ومن كرامته لمجرد اجتماع ثلاثة اشخاص فى قاعة من قاعات وزارة الخارجية ، لا أصدق هذا . ولا أصدق أن امريكا ترضى بهذا » . وضحكت ضحكا عاليا حين سمعته يتكلم عن امريكا . أين بريطانيا وأين أمريكا ؟ ان بين بريطانيا وألمانيا عشرين ميلا ، وبينها وبين أمريكا ثلاثة آلاف ميل ! وشاهدت فى أثناء سيرنا أن وجوه الناس عادت الى هدوئها ، الى جمودها ، مرة أخرى ، وقد فارقها ما ساورها فى الايام الاخيرة من القلق والحيرة . وذهبت الى بعض دور الصحف فرأيت كتاب المقالات منهمكين فى تدبيج موضوعات عن هذه « التجربة الجديدة فى ميدان السياسة الدولية » وعن « الفرص الجديدة المتاحة للشعب البريطانى فى عهد السلام » وعن « وسائل نشر المدنية الانجليزية عن طريق التعاون مع ألمانيا » ولم تكن اذاعة رئيس الوزارة فى المساء الا موضوعا انشائيا على هذا الغرار

وطلعت الصحف فى صباح اليوم التالى فكان فيها من الاخبار ما صرف الناس عما دبج فيها من المقالات . فقد احتفلت برلين أمس بامضاء الميثاق الجديد احتفالا عظيما ، وخطب هتلر خطابا ضافيا حيا فيه الشعب الالمانى ولم ينس أن يثنى على الروح الطيب الذى وجده فى الشعب البريطانى وفى حكومته الرشيدة . ووجد القراء الى جانب ذلك برقيات عن الفرق الالمانية التى أبحرت من همبورج صباح أمس قاصدة الى افريقيا لتتسلم المستعمرات الالمانية السابقة

وذهبت الى مكتب البرق ، ودفعت اليه بما تجمع لدى من الانباء ليرسلها الى صحيفتى ، فقال لى موظف المكتب فى أدب ولباقة : « آسف يا صديقى ، فقد ألحق بالمكتب موظف

لمراجعة البرقيات الصحفية قبل ارسالها ، وهو شاب ظريف وأظنه سييسر لك العمل »
اذن فهذا أول تغيير حقيقي في حياتنا ! وذهبت اليه فقال لي : « انى من وزارة الخارجية .
وكل عملي أن ألقى نظرة على هذه البرقيات قبل ارسالها . وذلك تطبيقا لنص في المعاهدة
التي عقدناها مع ألمانيا ، حتى لا تسيء الصحف الى حليفتنا قصدا أو عفوا » قلت متعجبا :
اذن فقد فرضت الرقابة ؟ قال : « كلا ، كلا ، لا شيء من هذا القبيل . بل ان وزارة
الخارجية تريد أن تمد الصحفيين بالاخبار الصحيحة ، وتصحيح ما قد يصل اليهم من أخبار
كاذبة . وقد ألحق بكل مكتب للرسائل البرقية موظف للقيام بهذا العمل ، كما ألحق بكل
جريدة موظف مثله » قلت له : « انى لا أريد ان أتعبك في مراجعة رسائلي ، وحسبي أن
أكتب لك اقرارا مسجلا بأنى أتحمل مسئولية كل ما أكتبه » . قال ، وقد بدا عليه شيء
من الضيق : « انك لا تجد من يرسل لك هذه البرقيات الا اذا كانت ممضاة من مندوب
وزارة الخارجية . هذا هو النظام الجديد » . ولم يكن ثمة بد من أن أقدم له برقياتي ،
ولم يكن ثمة بد من أن أتبين أنه قد ولى عهد حرية الصحافة في بريطانيا

وكان أهم حادث في ذلك اليوم اجتماع مجلس العموم . وكنا نرقب هذا الاجتماع
بصبر نافد لنرى ماذا يكون قراره . والرجل الانجليزي العادي يعلم أن هذا المجلس ،
على عيوبه الكثيرة ، هو ملاذه الاخير ، فان سلطته لا يمكن أن يتحداها وزير أو تقاومها
حكومة ، وقراره كفيل بأن ينقذ بريطانيا . وذهبت الى دار البرلمان

وبدأت الجلسة ، واعجبا ! انهم جاءوا يقررون مصير أمتهم ومصير امبراطوريتهم ،
لا بل مصير كل فرد منهم ومصير ابنه وحفيده ، ومع ذلك ها هم يبدأون الجلسة كالعادة
بأسئلة تافهة في أمور لا قيمة لها الآن . واذا بضجة في شرفة الزائرين . والتفت الناس
ليروا ماذا حدث . فرأوا سفير ألمانيا قادما وحوله ستة من الضباط الالمان وجماعة من ذوى
القمصان النازية . ودخل الشرفة فنهض من فيها من الوزراء المفوضين ، نهضوا في خشوع
واستكانة ارتسمت على وجوههم جميعا،حتى على وجه صديقيه وزير ايطاليا ووزير اليابان.
ولكنه لم يجلس بل رفع يده بالتحية النازية ، فرفعها من معه من الضباط والملحقين ، وهتفوا
جميعا « هيل هتلر ! » . ولما انتهت الضجة طلب رئيس المجلس استئناف الاسئلة وكأنه لم
يقع شيئا . ولكن عضوا من حزب العمال نهض غاضبا مزمجرا طالبا احتجاج المجلس على
هذا العمل وترضيته باخراج السفير الالماني .. لم يكد الرجل ينطق بهذا الكلام حتى
تعالت الاصوات من جوانب المجلس ومن شرفات الزائرين تطلب .. تطلب اخراج هذا
العضو الذي لا يعرف الادب ولا اللياقة .. وساد السكون ، وجاء دور المسألة الكبرى ..

وقام سير جون نيكر وزير الخارجية . حقا انه رجل ذكي وداهية ، ومتحدث وخطيب،
وحقا انه الرجل الذي يعرف كيف يخادع وينافق . لقد حاول أن يقنع الناس ، وكاد
أن يقنعهم .. فقد أخذ الوزير في لباقة وبلاغة يسرد ما وقع منذ مؤتمر نورمبرج حتى وقع
الميثاق الاخير .. وبدا أن أعضاء المجلس قد اقتنعوا ، وأن ثائرتهم قد هدأت .. واذا بصوت

مجلجل رنان ينبعث من أحد الجوانب قائلا :

« أريد أن أسأل : ألم يمض الميثاق الجديد تحت تأثير الأنباء القائلة بأن ألمانيا حشدت عشرين فرقة على ساحل هولندة لتغزو بها هذه الارض الخالدة ؟ ألم يمض الميثاق الجديد عقب خطبة ألقاها هتلر يقول فيها : ان آلاف الطائرات الالمانية على أهبة أن تحول أكبر مدن الارض فى ساعة واحدة أطلالا وأنقاضا ؟ »

ووقف المجلس على قدمين يستمع الى هذا الصوت العجيب الاخاذ . صوت الاسد البريطانى ، ونستون تشرشل ! وتعالت أصوات من هنا وهناك تصيح ، يا للخيانة ! يا للغدر، وتعالت أصوات أخرى بعضها من المجلس وأكثرها من شرفات الزائرين « أسكتوا المشاغبين ! » . ودامت الضجة طويلا ، وجلس تشرشل على مقعده وهو يزفر زفيرا غريبا، وراح رئيس المجلس يدق الجرس تارة ويضرب المنضدة أخرى ، حتى سكتت العاصفة . واستأنف وزير الخارجية كلامه . ولست أدرى أكان الوزير يريد أن يقنع أعضاء البرلمان فحسب ، أم كان يريد قبل هذا أن يثبت للسفير الالمانى مقدرته وكفايته ، وكيف انه الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه . . وراح يتحدث عن الوطنية الصادقة ، الوطنية التى لا تتمسك بأهداب الماضى الذى قضى فيه قضاء مبرما ، بل التى تفكر فى المستقبل وفق الظروف الجديدة . وانتهى الوزير من خطابه . وأحس أعضاء المجلس أنهم أمام الامر الواقع الذى لا يملكون فيه شيئا ، فانسحب من القاعة من انسحب ، وبقى فيها من بقى ، وانتهت الجلسة على عجل ، ووافق المجلس على الميثاق الجديد

ومضت على ذلك ثلاثة أيام ووزير الخارجية يظهر فى كل حفل وكل ناد مزهوا بانتصاره ، مستبشرا بمستقبله . ولكنه لم يحس بأن الارض تنفرج من تحت قدميه ، كما تنفرج من تحت أقدام قومه جميعا ، الا فى اليوم الرابع ، حين أقلعت عن الشاطىء البريطانى البارجة ريتون ، تحمل . . تحمل التاج البريطانى ! نعم ، ان قليلا من الشعب من كان يدرك مدى الدور الخطير الذى يؤديه ملك بريطانيا فى حياة الامة ، أما اليوم وقد نفى هذا الملك نفسه من وطنه ، فقد أحس كل رجل وكل امرأة ، بل كل صبى وكل طفل ، أن قلب بريطانيا نزع من بين جنبيها ، وأن سحابة سوداء قاتمة قد غطت أفق البلاد ، فغدا حاضرها مظلما ظلمة مستقبلها

ولم تكتب الصحف عن هذا الامر كثيرا ولا قليلا ، وكل ما نشرته نبأ رحيل الملك ، ونبأ تأليف مجلس وصاية من ثلاثة أعضاء ، أرسل اليهم هتلر برقية يهنئهم فيها ويرجو أن يكون عهدهم « مستهل صفحة جديدة مجيدة من العلاقات البريطانية الالمانية فى سجل التاريخ النوردى الخالد »

لقد كان هذا اليوم عصيبا على أبناء بريطانيا جميعا . وأحس كل منهم ، سواء من ولد فى انجلترا أو فى كندا أو فى استراليا ، طعنة الخنجر المغمود فى صدره . وخرجت يومها أهيم فى طرق لندن والضيق متحجر على قلبى . وكنت فى غمرة من الذهول ، فلم ألتفت

طول الطريق يمينا أو يسارا . ثم أفقت مما أنا فيه .. أفقت لأرى بعينى أسوأ مما يجيش بخاطرى . رأيت جماعة من ذوى القمصان السوداء ، تهرول فى الطريق مائجة صارخة ، وبأيديها عصى ، وسكاكين ، وبنادق !

وأحسست حين ذلك الخجل مرة أخرى . خجلت من أنى ، وأنا أحد كتاب الصحافة ، لم ألق إنتباها كبيرا الى تلك الحركة الفاشستية التى قامت فى انجلترا منذ سنوات، وحسبتها أول الامر نوعا من الهذر والهزل لا بأس به وسط حياة السياسة الجادة العابسة ، لم أدرك ولم يدرك غيرى ، حين كان تلافى الخطر ميسورا ، ان هذه الحركة العابثة ان هى الا سم بطىء يسرى فى الجسم رويدا رويدا حتى يغويه ويسقمه ثم يأتى عليه جميعا . ولكن جوبلز كان أذكى منا وأدهى ، ألقى هذا السم فى بلدنا كما ألقاه فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج وبلجيكا وفرنسا ، وهو يعلم أن سيأتى اليوم الذى يتغلب فيه هذا السم على الجسم الذى يبدو صحيحا معافى . وكان لنا من تقاليد الحرية والتسامح ما يحول دون قضائنا على هذه الحركة بضربة واحدة . فتركناها ، وكنا لا نتوجس منها شرا ولا نتوقع لها نجاحا . ولكن ها هى الايام تخطىء رأينا ، وها هى جموع القمصان السوداء تهرول فى الطرقات صائحة صاخبة ، وبأيديها أدوات الشجار والمناوشة .. فالى أين تسير به ؟ الى اجتماع عقدوه فى أحد الميادين الكبرى ليخطبهم زعيمهم « باتريك روسى » ولم أجد بأسا أن أذهب الى هذا الاجتماع ، فوجدت أفواجا حاشدة من جماعات القمصان السوداء ، تحتل كل منها جانبا من جوانب المكان ، ومعها لواؤها يبين المدينة التى تنتمى اليها . ورأيتهم فى جلبة صاخبة من الهتاف والصياح ، وفى وسط هذا جماعات منهم تدق الطبول وتعزف الموسيقى وتنشد الاناشيد . وجاء روسى يحف به جمع من أعوانه ، وكان يفرعهم جميعا بقامته العالية ، ويمتاز عنهم بوسامين ألمانيين من الذهب : المدالية الحربية ووسام نورمبرج . وكنت قد قابلته من قبل وتحدثت اليه مليا . نعم ، انه لم يتلق من العلم شيئا مذكورا ، وان تاريخه الماضى مجهول مغمور ، وان ثمة شبهة تحيط به منذ كان على صلة ببعض الهيئات الاجنبية التى تبث الدعايات وتحيك المكائد . ولكن كل هذا لا يمنعنى من أن أشهد بأنه رجل ذو نفوذ وتأثير الى حد يحجب عن الناس ما أحسبه فيه من خداع ونفاق ، ويجعل سامعه ورائيه يؤمنان بصدقه فيما يقول واخلاصه فى دعواه . ولما سمعته فى ذلك الاجتماع خطيبا كان صوته منطلقا يبلغ القلب دون جهد وعناء ، وكان كلاما دافقا زاخرا يثير الحس ويستفز الشعور . لقد راح يتحدث الى سامعيه ، وجلهم من الجنود المسرحين ، عما يلقونه فى حياتهم الجديدة من عنت وعناء ، فأبواب العمل مغلقة فى وجوههم ، وأسباب الحياة تتقطع بهم فى هذه الايام ، والحكومة لا تلقى اليهم بالا ولا تقدر ما أسلفوا من تضحيات كبرى ، ثم أخذ يصور هذه الحالة فى صورة جريمة شائنة منكرة ، مبعثها هذا الفساد الذى تعيش فيه بريطانيا ، والذى يدب فى جميع نواحى الحياة فيها: فى دور الحكومة ، وفى دوائر الاعمال ، بل فى الحياة الخاصة ذاتها . وصور هذه الحياة فى صورة ضخمة متشابكة العناصر متداخلة

الاموال ، من العجز الفاضح ، والرشوة الفاحشة ، والفساد المستشرى : ولكن ما مصدر هذا الفساد ؟ مصدره هذه الجماعة المجرمة التي تسيطر على كل شيء في البلد ، على الاداة الحكومية وعلى مرافق العمل وعلى سوق التجارة ، جماعة اليهود التي تملك بيدها زمام الصحافة والكتابة والفنون ، كما تملك زمام الأموال والاعمال والبورصة والمصارف .. واذن فلا خلاص لبريطانيا مما هي فيه من ذل وهوان ، ولا نجاة لشعبها مما يعانيه من أزمة وضيق ، ولا رجاء لها في مستقبل تنعم فيه بالرخاء والسلام ، الا ان حملت بيدها الحازمة سيفا مرهفا فانزلته على رقاب هؤلاء اليهود المجرمين .. وعند ما ارتفع بحرارة الناس الى هذا المستوى ، ختم خطابه بتلك الجملة التي لا أنساها : « قفوا على أقدامكم . وسيروا في أرجاء المدينة ، فأروا هؤلاء اليهود ، وأروا العالم بأسره ، انه ما زالت فينا دماء»

نعم ما زالت في بريطانيا دماء ، وستبقى فيها دماء .. فها هي الافواج الحاشدة من ذوى القمصان السوداء تنصرف من الاجتماع مولية وجهها شطر ذلك الحى الذى يقيم فيه عدد كبير من اليهود ، منذ أعملت فيهم النازية سيفها ، فلاذوا بالفرار الى بريطانيا ، حين كانت مثوى اللاجئين ومثابة الاحرار ، يلتمسون فيها الامن والسلام

ودارت المعركة في حى اليهود ، وكان رجال البوليس قلة لا تقوى على جموع المتظاهرين فدخلوا الدكاكين وحطموها ونهبوها ، وأخرجوا اليهود منها وضربوهم وآذوهم وتركوهم بين الحياة والموت ، وامتدت المعركة الى غير اليهود فحطموا كثيرا من السيارات العامة وضربوا ركابها ، ودخلوا بعض النوادى والمقاهى وحطموا أثاثها وزجاجها ، وأصيب عدد كبير من رجال البوليس ومن المتظاهرين اصابات شتى

ولكن المعركة لم تنته عند هذا الحد ، فقد كان بين المتظاهرين رجل ألمانى يدعى «مابر» فأصيب في أثناء المناوشة بضربة من جندى انجليزى ألقته على الارض ، والظاهر أن الجندى قال له : « ارجع الى بلدك أيها الالمانى القذر » . فلما انتهت المعركة عاد مسرعا الى دار السفارة الالمانية وأبلغها ما جرى .. وفي الصباح كان السفير الالمانى في دار وزارة الخارجية وكان يصحبه هذا الجمع من الضباط والملحقين الذين شهدتهم معه في دار البرلمان ، ولكنهم كانوا في هـذه المرة مدججين بالسلاح ، ألم تكن البلد في حال من الفوضى والاضطراب تبيح لهم حمل السلاح دفاعا عن أنفسهم ؟ .. وطلب السفير من الحكومة البريطانية اعتذارا كاملا عما وقع لذلك الرجل الالمانى الذى منحه هتلر بيده وسام الصليب الحديدى والذى يعد من رجال النازى المحترمين . كما طلب أن تتخذ الحكومة اجراءا سريعا لعقاب جميع الموظفين ورجال الشرطة الذين اشتركوا فيما وقع للرجل الالمانى

كانت هذه أول مرة يلمس فيها رئيس الوزارة ضروب العسف النازى في أحط مظاهره، ولكنه كان رجلا طيبا لينا يريد تهدئة الامر من أى طريق . فما انصرف السفير حتى استدعى وزير الداخلية وطلب اليه أن يحقق فيما جرى وينزل العقاب بمن أهان الرجل الالمانى . وكان هذا الوزير يكره جماعة القمصان السوداء منذ عهد بعيد ، وكانوا هم

بدورهم يتخذونه هدفا لحملاتهم فى صحيفتهم « بريطانيا الحرة » . وكانوا يتهمونه بأنه من أصل يهودى ، وبأن له صلة بالاوساط اليهودية ، وهى تهمة كانوا يقذفون بها كل من لا يجاريهم فى طريقهم . فأبى الوزير ان يستجيب لطلب رئيس الوزارة فلم يكن بد من اقالته

واجتمع البرلمان ، وكان فى اجازة منذ اليوم الذى صدق فيه على الميثاق ، وتكلم رئيس الوزارة فقال : «انه يقدر كفاية الوزير ونزاهته ، ولكنه يأسف لان الوزير يريد أن يحصر نظره فى دائرة ضيقة لا تتناول الظروف السياسية التى تحيط بنا ، ولا يريد أن يقدر أن من واجبنا أن نحرص على صداقة حليفتنا الكبرى ألمانيا . ولهذا رأيت اقالته ، وأسندت وزارة الداخلية الى سير جون نيكر ليقوم بأعبائها الى جانب أعباء وزارة الخارجية ، وهذا أمر استثنائى ألجأتنى اليه الظروف »

وهم الاعضاء بالكلام ، واذا بسير نيكر يقدم ورقة الى رئيس الوزارة ، فيقرؤها ، ثم يلتفت الى الاعضاء قائلا : لقد قامت اضطرابات كثيرة وعنيفة فى كثير من أرجاء البلاد ، واذن فلا داعى للمناقشة الآن فى مسألة لم تنته بعد، بل ما زال لها ذيول وتوابع، وسأطلب الى مجلس الوصاية وقف المجلس فترة ما حتى يستتب الامر ويستطيع المجلس أن يستأنف عمله فى جو هادىء مستقر . وكان هذا هو ختام الحياة البرلمانية فى انجلترا . .

وآويت الى بيتى ذلك المساء مبكرا وأخذت استمع الى الراديو الالمانى . واذا بالاذاعة الموسيقية توقف ، واذا بالمذيع يقول : « بلاغ رسمى هام موجه الى الشعب الالمانى . ان الحكومة البريطانية تواجه الآن صعابا جمة بسبب الفوضى التى تثيرها العصابات اليهودية فى كثير من أنحاء البلاد . وقد طلبت الحكومة الى الفوهرر المعونة ، طبقا للمادة السادسة من شروط معاهدة الصداقة والتحالف المعقودة بين ألمانيا وبريطانيا ، ولما كانت رسالة هتلر قائمة على اقامة السلام والنظام ، فقد قرر أن يرسل عددا محدودا من رجال البوليس الخاص الى بريطانيا ليعاونوا فى اعادة السلام الى تلك البلاد » . ثم أعاد المذيع القاء هذا البيان مرة أخرى ، فسمعته وأنا من فرط الدهشة أكاد أكذب أذنى

ولست أدرى عدد الالمانيين الذين هبطوا أرض بريطانيا فى ذلك اليوم ، ولكنى رأيت جماعة منهم فى كل ميدان ، وعلى رأس كل طريق ، وأمام كل دار من الدور العامة . .

ولم يكن عدد الالمان فى بريطانيا مقصورا على هؤلاء الجنود الذين نزلوها ، بل اتخذت السفارة الالمانية عمارة من أضخم عمائر لندن مقرا لها ، وملأتها بمئات من موظفيها . تدخل هذه السفارة فتجد قسما للشؤون الدبلوماسية ، وآخر للمسائل الاقتصادية ، وثالثا للصحافة والدعاية ، ورابعا لجوازات السفر ، وخامسا للملحق العسكرى وضباطه ، وسادسا للسكرتارية ، وأقساما أخرى كثيرة سميت بحروف وأرقام لا أدرى مدلولها . وفى كل من هذه الاقسام عشرات من الموظفين ، يتمتعون جميعا بالحصانة الدبلوماسية ، ان كان ثمة داع لان يتحصن الالمان فى بريطانيا بمثل هذا الستار . .

وكان رجال السفارة من خيرة الشباب النازى : أناقة زى ، ووسامة مظهر ، ولباقة حديث . شهدت ذلك فى الحفلات الباذخة التى كانت تقيمها السفارة كثيرا

وفى احدى الحفلات سألت أحد هؤلاء الموظفين ، وكنت لمست فيه روحا طيبا وعقلا مستنيرا وجانبا من التشابه الفكرى بينه وبين الرجل الاوربى الذى صقلته المدنية وانتفت منه روح الغابة ـ سألته ضاحكا : ماذا يفعل هذا الجيش اللجب من موظفى السفارة ؟ وكان الرجل أدرك ما أريد ، ولمح فى قولى شيئا من الريبة فى أمرهم ، فقال : لا تظن بنا سوءا ، وكل ما فى الامر أن الفوهرر قد يزور انجلترا عما قريب . .

يا للخبر الصحفى العجيب ! كيف جاءنى هكذا عن طريق الصدفة العارضة ، وفى زلة لسان يسيرة . ولا شك أننى فرحت كل الفرح حين سمعت هذا الخبر ، الذى ساكون أول صحفى يذيعه ، وستكون صحيفتى أسبق صحف العالم الى ذكره . ولكن فرحتى لم تدم طويلا ، فما لبثت أن تخيلت ذلك القلم الازرق الملعون ، قلم الرقيب الذى وضعته وزارة الخارجية فى مكتب البرق ، وتخيلته وقد مر على هذا الخبر فحذفه ، وكبته فى صدرى كبتا أليما ، اذ ليس آلم للصحفى أن يعرف خبرا مهما ولا يجد سبيلا الى اذاعته فى الناس

وجاء يوم زيارة هتلر . . ودعينا نحن الصحفيين فيمن دعوا من أهل بريطانيا لانتظار الفوهرر فى ميناء بليموث . . هذه هى البارجة الالمانية شارنهورست يرتفع عليها لواء الصليب المعقوف تقبل فى مياه المانش ، ومن حولها عدد من البوارج والمدمرات البريطانية التى سيرتها الامبرالية البريطانية لتحيى البارجة الالمانية وراكبها العظيم . وها هى مئات القوارب البخارية تغدو وتروح فى الميناء ، وقد ارتفعت فوق أكثرها راية الصليب المعقوف اذ كانت تقل جماعات من الضباط والموظفين الالمان الذين كثر عددهم فى لندن فى الايام الاخيرة . . وها هى جماعات من الالمان والبريطانيين على رصيف الميناء ، أرى منهم رئيس الوزارة مستر ايفانز ، ووزير الخارجية والداخلية سير نيكر ، وزعيم القمصان بارتك روسى ، وسواهم وسواهم ممن كنت أرى وجوههم فى حفلات السفارة الالمانية

ورست الباخرة فى الميناء ، وأطلقت مدافع الشاطىء تحية واجلالا . . ها هو هتلر كما رأيناه فى صوره . . ها هى خصلات شعره تهدل على جبهته ، ها هو شاربه الصغير ملصوق تحت أنفه ، ها هى نظراته المرسلة الساهمة ، ها هى حركاته القلقة العنيفة . . وهبط سلم البارجة الفسيح ، ومن ورائه الكتلة الضخمة البادنة التى تسمى جورنج ، والهيئة العنيفة المتصلبة التى تسمى ريبنتروب ، والمونوكل الذى يخفى عنا خبيئة ماكرة هى عين الدكتور شاخت ، والقامة القصيرة والساق العرجاء اللتان يتألف منهما جوبلز !

وتقدم رئيس الوزارة وصافح هتلر وقدم له باسم الحكومة البريطانية شكرها على هذه الزيارة الكريمة . وكان وزير الخارجية أكثر مهارة من رئيسه حين صافح هتلر ، فقد كانت انحناءته عجيبة حقا . . وركب هتلر والى جانبه رئيس الوزراء ، وركب أصحاب

هتلر والى جانب كل منهم وزير انجليزى .. وسار الموكب تحفه جماعات من راكبى الموتوسيكلات وسط صفين من الجنود الالمان المدججين بالسلاح .. الى أين هذا كله ؟ عند هذا ويقف القلم ألما وحسرة !.. الى قصر بكنجهام الذى أصر السفير الالمانى – كما علمت فيما بعد – أن يكون مقر الفوهرر فى أثناء زيارته ، وأن يكون علم الصليب المعقوف مرفوعا عليه مدة اقامته ..

لست أريد أن أصف تلك الايام التى أمضاها هتلر فى لندن . فانى لم أشهد شيئا من الحفلات التى أقيمت له هنا وهناك ، والتى كان أبهاها بطبيعة الحال الحفلة التى أقامها مجلس الوصاية على العرش . ولم أكن من الصحفيين الذين رافقوه فى زياراته . ولكنى ذهبت لسبب لا أدريه – لعلها غريزة الصحفى التى تنبه أحيانا على غير وعى منه أن ثمة خبرا هاما – الى الحفل الذى أقامته جماعة القمصان السوداء فى أحد الميادين . ذهبت الى هناك فى فوج الصحفيين ، فرأيت هذه الجماعات بقمصانها وشاراتها وأعلامها مصطفة وسط الميدان وفى جوانبه . ورأيت المنصات المعدة لكبار المدعوين ، وقد حفلت بجماعات من رجال « السيتى » وجماعات من سيدات المجتمع المحدثات . ورأيت المنصة العالية التى أعدت للضيف الكبير .. وكانت هناك موسيقات تصدح ، وجماعات تنشد الاناشيد ، وجماعات يتعالى هتافها . وفى وسط هؤلاء وهؤلاء كنت أرى وجوها كوجوه أولئك الموظفين الالمان الذين رأيتهم كثيرا فى مكاتب السفارة الالمانية . وظهر هتلر فى المنصة ، والى جانبه « كونت دى مرسيا » رئيس مجلس الوصاية على العرش . وساد صمت عميق وسكون شامل . كان الرجلان لا يتحركان ولا يتكلمان ، وكأنما كانا جالسين فى قفص الاتهام . وليس فى المنصة سواهما الا أربعة من الحراس النازيين مدججين بالسلاح . وبدأت جماعات القمصان السوداء تتحرك متجهة صوب المنصة .. لست أدرى ماذا وقع قبل أن تقع أبصارنا على شاب شاحب هزيل يجرى نحو المنصة مهرولا وفى يده مسدس يطلقه على هتلر ، فاذا به يهتز على مقعده ، ثم ينهض مترنحا ، ثم يسقط الى الارض ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك سوى أنى سمعت بضع طلقات من الرصاص تنطلق من أولئك الحراس الواقفين على المنصة ، فتردى ذلك الشاب الهزيل ، جثة هامدة محترقة بالنار

وقفت جماعات القمصان السوداء فى مكانها لا تتقدم ولا تتأخر . ووقف الناس على أقدامهم محتبسة أنفاسهم مشرئبة أعناقهم الى المنصة .. وكانت فترة من الذهول العجيب الذى ملك على الناس أبصارهم ومشاعرهم ، حتى غدوا لا يرون شيئا ولا يحسون شيئا . وخلت المنصة بضع دقائق ، ثم عادت فامتلأت بذلك البدن الضخم الفارع ، بجورنج ، الذى وقف أمام الميكرفون وقرأ بلغة انجليزية سقيمة ورقة فى يده ، فقال :

« لقد وقعت جريمة منكرة . لقد أريد اغتيال الفوهرر . ولا نعرف مدى الخطر الذى لحق بزعيمنا . ولكن كرامة الشعب الالمانى تقضى باتخاذ اجراء حازم يعادل الجريمة الشنعاء . ولا بد أن يثار الشعب الالمانى ، واعتقد ان الشعب البريطانى يقره على هذا ،

وقع هذا فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، وهو يوم لن ينسى فى تاريخ بريطانيا أبدا ، فهو اليوم الذى بدأ فيه عهد الارهاب .. هو اليوم الذى أذاع فيه الراديو الالمانى على ملأ العالم ، أن الجريمة المنكرة التى وقعت فى قلب لندن بيد أحد أفراد العصابة اليهودية المجرمة ، دليل قاطع على أن العناصر اليهودية تعبث فى الحياة البريطانية عبثا خطيرا لم تستطع الحكومة البريطانية أن تتلافى آثامه وأوزاره ، اما عجزا منها واما تآمرا مع اليهود، واذ كانت رسالة الفوهرر أن ينقذ العالم من براثن اليهودية ، فقد قررت الحكومة الالمانية فرض الحماية على بريطانيا ، واقامة « قوميسير » ألمانى عليها ، ريثما يصفو الجو من سحابه

وفى اليوم التالى أبلغ مندوبو الصحف بأنهم مدعوون الى قصر بكنجهام فى الساعة العاشرة صباحا لامر خطير ، واجتمعنا فى احدى الردهات واجمين جامدين . ودخل الدكتور شولتز مندوب وكالة الانباء الالمانية فى لندن ، وأعلن أنه تقرر تعيين « جواشيم فون ريبنتروب » قوميسيرا على بريطانيا طوال مدة الحماية التى فرضتها الحكومة الالمانية ريثما يستقر الامر ويستتب النظام ، وأنه سيتخذ قصر بكنجهام مقرا له. ودخل ريبنتروب يعقبه ثلاثة رجال لم أرهم من قبل ، وان كان يبدو عليهم أنهم ليسوا بالالمان

كان ريبنتروب يبدو فى هيئة ملوك العهود الغابرة حين كان لا يتوقع الناس أن يبتسم الملوك . ونظر الينا جميعا نظرة جادة عابسة لا تميز بين أحد وآخر ، بين من لا يعرفهم وبين من كان يمازحهم حين كان لا يزال سفيرا لبلاده لدى بلاط سانت جيمس ، وفى الوقت نفسه تاجرا ومهربا للخمور ! ووقف ريبنتروب وألقى علينا هذا البيان :

« فى سبيل الشعب البريطانى ، وفى سبيل الانسانية جمعاء ، قرر الفوهرر ــ الذى حفظته العناية الالهية من ذلك الاعتداء اليهودى الآثم ــ أن يقضى على العصابة اليهودية التى تعبث فى بريطانيا فسادا . وذلك يقتضى فرض الحماية الالمانية على بريطانيا ريثما يتم تطهيرها ، وستحكم بريطانيا فى خلال هذه الفترة التى أرجو ألا تطول ، بمقتضى مراسيم يصدرها قوميسير الرايخ . وقد تفضل الفوهرر فعهد الى بهذه المهمة الشاقة ، التى أرجو أن تقدر الصحافة صعابها ومهامها . فيجب أن تعلموا ان مستقبل هذه البلاد لا يقوم على أساس المناقشات والمجادلات السياسية العقيمة ، بل سيكون تعبيرا عن ارادة الفوهرر ونواياه الطيبة قبل الشعب البريطانى . وعلى ذلك فان ضروب الحدس والتخمين التى كانت تلجأ اليها الصحافة ، وعلى الاخص الصحافة الاجنبية ، قد انتهى أمرها . فعلى مندوبى الصحف هنا وفى الخارج ألا يستقوا أية معلومات الا من مصادرها المقررة

«ومنذ يوم ٩ يوليو ، يوم الجريمة النكراء على حياة الفوهرر ، تقرر نقل جميع السلطات فى هذا البلد وفيما يتبعه من الممتلكات والمستعمرات فيما وراء البحار ، الى القوميسير الالمانى

« وسيعاد تجنيد القوات البريطانية التى سبق تسريحها . ولكنها ستدمج مؤقتا فى قوات الرايخ المسلحة . وستوضع جميع المدارس والمعاهد والجامعات ، وجميع شركات السكك الحديدية ، وكذلك المصارف ، وغيرها من المنشآت العامة فى ملكية الدولة ، بستوى فى

ذلك ما كان منها ملكا للافراد أو للهيئات أو للمجالس المحلية . على أن هذا لا يمنع دون استدعاء بعض مديريها للاشراف عليها وفقا لما تقرره السلطة الحاكمة

« وستبقى المحاكم البريطانية قائمة للفصل فى القضايا المدنية فحسب . أما القضايا الجنائية وكذلك المشاكل التى تنشأ بين رعايا الدولة الالمانية ورعايا الدولة البريطانية ، فتنظر أمام محاكم خاصة تخضع للقانون العسكرى . وسيباح لرجال البوليس الخاص حق تفتيش المنازل والمكاتب . وسيكون من حق الحكومة مصادرة ما ترى من الاملاك والاموال طبقا للصالح العام . وستطبق هذه المصادرة مبدئيا على أملاك رجال الحكومة السابقة ، فقد ثبت أنهم استغلوا فرصة الحرب فى جمع أموال وأرباح فاحشة على حساب الشعب البريطانى

« وانى أرجو فى النهاية أن تكون هذه الاجراءات الحازمة مؤقتة بمدى قصير . وأرجو أن يأتى اليوم القريب الذى تتطهر فيه بريطانيا من اليهود ومن المشاغبين لتستأنف حياة التعاون مع الرايخ الالمانى ، فى سبيل نشر الحضارة النوردية »

وهم ريبنتروب بالانصراف ، ولكنه لمح من ورائه الرجال الثلاثة . فالتفت الينا ثانية وقال : « وقد تألف مجلس ثلاثى من هؤلاء السادة لمعاونتى فى هذه المهمة . ويسرنى أن أقدمهم لكم : مستر سميث ممثل أصحاب الاعمال ، ومستر تيزنر ممثل العمال ، ومستر نيوتون ممثل أصحاب المهن » . ثم انصرف ومن ورائه الرجال الثلاثة .. الثلاثة الذين صاروا يمثلون الشعب البريطانى الذى كان فى يوم ما سيدا رفيعا ، فلما سرت فيه روح الهزيمة ونزعة المصالحة ، لم يعد ثمة من يمثله سوى سميث ، وتيزنر ، ونيوتون !

فهل كان هناك ما يدعو صحفيا مثلى الى البقاء فى هذا البلد ؟ لقد جئتها لاوافى صحيفتى بالاخبار أستقيها من كل مصدر ، وأرويها بكل حرية ، وأعلق عليها بما يراه عقلى ويحسه ضميرى . أما الآن فقد تقرر ألا نذكر الا تلك الاخبار التى تمليها علينا «المصادر المقررة» أى تلك البلاغات الرسمية التى لا صلة لها بحقائق الامور ، ولا قيمة لها فى نظر الصحفى الصادق . ثم كيف السبيل الى الحياة فى هذا البلد الذى أخذ يعيش فى غمرة قاسية من حياة الارهاب ؟ وهل ثمة ما يعصمنى من معسكر الاعتقال الذى زج فيه من زج من قادة بريطانيا السابقين ، ومن كتابها ، وعلمائها ، وصحفييها ، وذوى الرأى فيها ؟ ألم يكن معسكر « جودالمنج » حيث يقيم فيه الآن فى غمرة من الألم والحسرة أولئك الابطال السابقون ، ونستون تشرشل ، وانطونى ايدن ، ودف كوبر ، انذارا رهيبا لكل من تسول له نفسه أن يتحدث بعد اليوم عن الحق أو عن الحرية أو عن الكرامة ؟

اذن فلا معدى لى من أعود الى بلدى ، الى استراليا ، لعلى أستنشق ريح الحرية مرة أخرى ، فى ظلال ذلك البلد الذى مد يده الشابة الفتية الى يد امريكا القوية والعظيمة ، وعاهدها على أن يجاهد معها فى سبيل الحرية والكرامة ، فاما ظفرا بها وعاشا عيشة الكرام ، واما ماتا فى سبيلها موت الشهداء الابرار

تلخيص : عبد الحميد عبد الغنى



الامبراطورة تيودورة

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

حادث تاريخي عجيب

طفلة صغيرة في بيظنطيوم عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن السادس ، قذف بها الفقر والقدر الى حمأة التمثيل الهزل والتهتك فالدعارة فالفحش الفظيع . وما زالت تتقلب في لجج حوادث الدهر ، الى أن ارتقت الى العرش ، وشاركت زوجها الامبراطور في الحكم ، الى أن أصبحت الحاكمة المطلقة ، وفي ابان ثورة « نيقيا » المشهورة ، أبت أن تهرب مع زوجها، بل بقيت في العرش حتى قمعت الثورة ..

فتنت الحكام والساسة والمفكرين بعقلها وحنكتها ودهائها وسياستها، وأخيرا في فضائلها ، كما فتنتهم بجمالها وسحر روحها الملائكية

هذه هي الامبراطورة تيودوره التي نقدم قصتها للقراء ..

- ١ -

كان الامبراطور جستينوس Justinus أحد اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية . وكان عرشه في مدينة بيظنطيوم التي تسمى الآن استمبول

قبل أن كان جستينوس امبراطورا ، كان قائد الحرس الامبراطوري للامبراطور انستاسيوس . وكان أميا وضعيف الارادة . فربى ابن أخيه جستنيان Justinian تربية حسنة ، ومنحه ثقافة عالية لكي يستعين به في الحكم ، لانه لم يرزق ولدا . وكانت زوجته يوفيميا Euphemia من عامة الناس . ولانها كانت عقيما ، لم تحمل لجستنيان كثيرا غيرة منه

في ذات يوم، قالت الامبراطورة يوفيميا لزوجها الامبراطور : اني قلقة بسبب تصرفات

جستنيان الذى ربيته وعلمته كثيرا ، تأهيلا له لمشاركتك فى الحكم ، وللعرش أخيرا .

فقال الامبراطور : ماذا بدا منه ؟

ـ أما بلغ اليك أنه يعشق الآن امرأة عامية . ونحن نود أن نحافظ على مجد العرش

فضحك الامبراطور وقال : أنسيت يا يوفيميا أنك فلاحة الاصل ، وأنا كنت جنديا ؟

ـ لم أنس . ولكننا نحن حفظنا للعرش مجده وللملك أبهته . .

ـ وأظن جستنيان مستطيع ذلك يا عزيزتى . ولكن هل ينوى هو أن يتزوجها ؟

ـ أعرف أنه اذا تمادى فى عشرتها أصبحت خليلة له ، وأخيرا تصبح حليلة . واذا ظهر بعدئذ أن فيها عيوبا لا يمكن سترها ، فكيف نقى العرش من الهوان ؟

ـ لا توجسى من شيء . ان جستنيان لا يخرج من طاعتى . سأبحث معه فى هذا الشأن

اجتمع الامبراطور جوستينوس بابن أخيه الأمير جستنيان ، وسأله باسما :

ـ من هذه الغزالة التى تصيدت قلبك يا عزيزى جستنيان ؟

ـ هى فتاة من الشعب يا عماه ، جميلة حيية تقية ، رأيتها خارجة من الكنيسة ، واكتشفت أنها حائكة فى بيتها ، تعيش بخوف الله من عمل يديها . .

فتململ الامبراطور وقال : أليس الافضل يا بنى أن تنتقى لك زوجة من الاشراف لكيلا تعرض سمعتك لمضغة أفواه الناس وسلطان العرش للابتذال ؟

فقال جستنيان : ان سلطان الحب يا سيدى أقوى من سلطان العرش . فاذا اجتمع السلطانان استقوى الثانى بالاول . وقد قدمت يا مولاى البرهان على هذا بزواجك . هل كانت مولاتى الامبراطورة من رتبة الاشراف ؟

فتبرم الامبراطور اذ أفحمه ابن أخيه وقال :

ـ أرجو يا ابنى ألا تتمادى بحب هذه الفتاة الوضيعة قبل أن تتحقق ماضى حياتها ، وتتأكد أنه خلو من العيوب التى تحول قانونا دون زواجك منها . على أى حال ، أود أن تقاوم عنفوان شهواتك ، وتصرف نظرك عن هذه الفتاة الوضيعة الى ابنة أحد الاشراف ، كرئيس الحكومة أو وزير العدل أو رئيس الشيوخ . سنعقد حفلة فى القصر ، وندعو لها أسرات رجال الدولة وأشرافها ، لعلك تجد بينها الضالة المنشودة . .

وبسط الامبراطور يده ، فتناولها جستنيان وقبلها باحترام ، ومضى متألم النفس والقلب . وقد عرف من أين جاءت الضربة المؤلمة . .

***

عقدت الحفلة الموعودة . وحضرتها الاسرات الشريفة ، وتجلى جمال الاوانس فيها ، وانطلقت السهام الصائبة من العيون الساحرة ، ولكن لم يكن بينها سهم من سهام كيوبيد . ففشل مسعى جستينوس ويوفيميا

بعد الحفلة قال جستنيان لعمه الامبراطور : آتأسف أن أقول لجلالتك يا عماه أن تلك

السهام التي أعددت لم يصب سهم منها فؤادي ، ولا اقتلع السهم الذي اختاره الله لقلبي . الفتاة تيودوره الحائكة هي منحة الله لي ، فأرجو ألا تحرمني هذه المنحة

وكانت الامبراطورة حاضرة فقالت : هل أنت واثق أنه ليس لهذه الفتاة ماض مشين ؟

ـ ليس لها ماض الا أنها فتاة وضيعة الاصل ، ولكن الضعة لا تعيب الشخص اذا كانت أخلاقه شريفة . فالفتاة لا عيب في شخصيتها . .

ـ أما كان أحرى بك أن تنتقي فتاة من هؤلاء الفتيات الشريفات اللواتي ظهرن في الحفلة كالاقمار ، ومزاياهن الحميدة ساطعة كضوء النهار ؟! . .

ـ لا أحسب تيودوره فتاتي دونهن شرفا . فهي وهن في دولة الاخلاق سواء . اذا قدمت لك وردتان ، أيمكنك أن تعرفي أيتهما من الحديقة الامبراطورية وأيتهما من الحقل البري ؟ . .

ـ أجل . يمكنني أن أشم في تلك رائحة زكية عطرة ، وفي الاخرى سماد الحقل . .

ـ بل بالعكس يا مولاتي . بتلك تنشقين رائحة سماد الحديقة . وبالاخرى تشمين نسيم الطبيعة النقي . ان وساخة السباخ في الحديقة . وفساد الحياة في قصور الاشراف . في بساطة حياة الغوغاء نقاوة النفس والجسد

فقالت الامبراطورة متبرمة : اذن يجب أن تشق الستر وترى ما دونه من صلاح أو فساد . مهلا سأريك غرورك وغش فتاتك لعلك ترعوى . .

ـ اني في سن النضوج يا سيدتي الامبراطورة . فلا أنخدع بغش فتاة

ـ واذا ظهر فيها ما يحرمه القانون الارستوقراطي . .

ـ أتخلى عن ارستوقراطيتي وأعود الى العامية التي منها نشأت ارستوقراطية الاشراف

فقال الامبراطور منفعلا : لا . لا . يا جستنيان انك غصن في الدوحة الامبراطورية ، فلا أدعك تنقطع منها بتاتا . ليس لي غيرك حافظا للعرش في حياتي وبعد وفاتي . .

فقالت الامبراطورة: اذن يجب يا سيدي أن تمنع الحب أن يهصر هذا الغصن من الدوحة

وبعد أن فكر الامبراطور قليلا قال : أظن أن خير الوسائل أن نلجأ أخيرا الى مجلس الدولة الاعلى ، وتستفتيه في الامر اذا أعضل علينا . أتركاني أفكر .

ـ ٢ ـ

ما انقضت أسابيع حتى أصبحت الحالة حرجة والعقدة معضلة . اشتد جستنيان تعلقا بتيودورة . وصار اذا خير بينها وبين العرش ، فضلها عليه ، ونبذ العرش ، والامبراطورة ما زالت مصرة على قطع الصلة بين العاشقين . والا فلا كبير ضرر في ترك العرش الى رحمة المقادير ، لانه يصعب جدا عليها أن ترتقي الى جنبها امرأة عامية ، وتحل محلها بعدها

والامبراطور في ابان ارتباكه أتته يوفيميا بخبر مفاجيء زاده حيرة وارتباكا ، وقالت :

ـ لقد اكتشفت يا سيدي العزيز أن فتاة جستنيان المسماة تيودوره ابتدأت حياتها منذ

الحداثة بالتمثيل فى الهيبودروم (ملعب الخيل والحيوانات المختلفة والهزليات) ومن ثم استرسلت فى الدعارة والفجور . وتنقلت بين الغرب والشرق فى هذه الحرفة الوسخة ولذلك يستحيل عليك أن توافق على علاقة جستنيان بها ، لان قانون الدولة يحظر أن ترتقى الى قمة الدولة ممثلة . فكيف ترتقى اليها عاهرة ؟! . .

فبغت الامبراطور بهذا الخبر ، وقال : هل أنت واثقة من صحة هذا القول ؟

ــ كل الثقة لانى أقمت بعض العسس يتسقطون أخبار ماضى هذه الفتاة سرا . فأبلغنى كل منهم أخبارا فظيعة عن سيرتها الدنسة . وكلفت أحدهم أن يؤلف من تقاريرهم تقريرا عاما شاملا . وسأقرأه عليك وترى . .

ــ ندعو جستنيان ونطلعه على التقرير فلا بد أن يرعوى . .

ــ لقد أصبح جستنيان مخمرا بحبه للفتاة ، والحب يعمى ويصم . والغرض مرض . فلا يصدق تهمة لملاكه الشيطانى . فمن العبث مباحثته بهذا الشأن . الافضل أن نعقد مجلس الدولة الاعلى للاطلاع على التقرير واصدار حكمه فى هذه المشكلة

ففكر الامبراطور هنيهة ثم قال : هنا أمر لا بد من اعتباره يا عزيزتى . هل عندك شهود وبينات وأدلة تؤيد التقرير ؟ ألا يمكن أن يحتج جستنيان بأن التهم ملفقة ؟

ــ لا بد أن يصدر التقرير مشفوعا بالبينات ، ومتى سمعنا الاحتجاج سعينا الى البينات . لذلك لا أود أن يطلع جستنيان على التقرير أولا ، بل أود أن يفاجأ به وهو فى حضرة المجلس ، فيكون وقعه عليه شديدا ، وحكم المجلس يفحمه ويقنعه

***

انعقد المجلس من نخبة رجال الدولة : الامبراطور والامبراطورة ، ورئيس الحكومة ورئيس الشيوخ ووزير العدل ووزير المال والمطران اكليمندوس الذى كان اسمه العلمانى اريوبندوس Aeriobindus وهو نائب البطرك . وحضر جستنيان المجلس أيضا

فقال الامبراطور : أيها السادة لدينا قضية ذات شأن ، تقتضى مصلحة الدولة والامة أن يكون حكمكم فيها حرا صادقا حكيما . ان ابن أخى الامير جستنيان الذى تعلمون عطفى عليه ومحبتى له وآمالى فيه ، أصبح يهوى فتاة عامية لا تليق أن تكون نسيبة للسيادة الامبراطورية ، أولا : لوضاعتها الاجتماعية . وثانيا : لسوء سيرتها السابقة . ولاقناع الامير بأن مقامه ومصلحته يقضيان عليه بالتخلى عنها ، نتلو عليكم تقريرا صادقا عن حياة تلك الفتاة لكى تحكموا فى الامر ، ولى الامل أن الامير جستنيان متى اطلع على هــذا التقرير ، ينبذ الفتاة من تلقاء نفسه من غير أن يكلفكم اصدار حكم

فقال الامير جستنيان : قد تمكن كتابة تقرير ضد كل شخص حتى ضد فخامة الوزير وقداسة البطرك . فالعبرة بالاثبات لا بتصنيف التقارير . .

فقال وزير العدل : حقا ما تقول يا سمو الامير . فلنسمع التقرير أولا ، فلعل التقرير

يؤيد نفسه بنفسه ، والا فتطلب الاثبات

فقال الامير : اذن . الفتاة الآن فى موقف اتهام خطير . فلا يجوز اتهامها والحكم عليها من غير تحقيق معها . هل حقق أحد معها ؟

فقالت الامبراطورة : لا تتنازل أن نكون فى موقف الخصومة مع فاجرة . نحن لا نحاكم الفتاة ولا نحكم عليها أى حكم . وانما نحن عليك نحكم ، ونوجب عليك بحق شرف الدولة وكرامتها ، وبحق مقام السيادة الامبراطورية أن تتركها بتاتا . .

فقال المطران اكليمندوس : اسمحى لى يا صاحبة الجلالة أن أقول بصراحة ان هذا المنطق القانونى غير سديد . هنا امرأة متهمة ، وشخص آخر غير متهم سيحكم عليه

فقالت الامبراطورة : نعم يحكم على شخص غير متهم بسبب صلته بامرأة متهمة . .

فقال المطران : لا بأس بهذا المنطق . ولكن الاتهام يقتضى أن يكون المتهم حاضرا ليسمع الشكوى ضده لعل له دفاعا عن نفسه . فاسمحوا لى أن أقترح استحضار الفتاة الى هنا لكى تسمع تهمتها . .

فقال وزير العدل : هذا حق أوافق عليه . .

فأدار الامبراطور نظره فى سائر الاعضاء كأنه يسألهم . فتصدت الامبراطورة وقالت :

ــ انى آنف أن تحضر الزانية للدفاع عن نفسها ، لاننا لا نقصد هنا أن نحاكمها .

فقال الامير جستنيان : عجبا تريدين يا مولاتى أن تحكمى علىّ بسبب تهم لا تسمحين بدفعها . فأين العدالة فى محاكمة كهذه ؟ ان دفاع الفتاة عن نفسها انما هو دفاع عنى اذا كان سيحكم علىّ بسبب علاقتى بها . واذن فحكمكم جائر لا يوافق عليه جلالة الامبراطور يجب أن تحضر الفتاة لكى تسمع الشكاوى ضدها ويسمح لها بالدفاع . .

فقال الامبراطور : هذا حق لا مراء فيه . يجب أن تحضر الفتاة ديئوتها . .

فأمن جميع الاعضاء على قول الامبراطور . وقال الامبراطور : هل يمكن احضارها حالا ؟

فقال الامير : هى الآن فى بهو الاستراحة الخارجى تنتظر ديئوتها . فنستدعيها

***

وكان الاعضاء يتهامسون عند ما دخل الحارس يقول : الفتاة يا صاحبى الجلالة

واسترعى أبصارهم شبح ملائكى أقبل من الباب وتقدم خطوتين وسجد واعتدل

وفى الحال تقدم المطران اليها وقال : انظرى فىّ يا فتاة

فالتفتت اليه . فحملق فيها ثم قال : أما كنت منذ سنتين فى انطاكية ؟

ــ نعم كنت هناك

ــ انظرى فىّ . هل تذكرين أنك رأيتنى هناك ؟

ــ لن أنسى يا سيدى الموقر . .

وعاد المطران الى موضعه وهو لا يزال مدهوشا

فقالت الامبراطورة : اذن توفقنا الى شاهد صادق شهادته مقدسة

***

تيودوره فتاة فى نحو الرابعة والعشرين من العمر . رقيقة البدن دون معدل الابدان النسوية . متناسبة الطول والعرض ، معتدلة القوام . فى ثوب كتانى أبيض بسيط أنيق . وفى محياها جمال الوداعة الانسانية المتناهية فى البهاء . وفى مقلتيها جاذبية محسوسة تهتز لها عواطف نظارها . ما ان امتثلت حتى قرعت نواقيس القلوب فى الصدور . وقال الامبراطور بصوت خافت سمعته الامبراطورة ومن كان الى جنبها : « معذور جستنيان »

وكان جستنيان قد وقف أيضا . ثم أشار الى تيودوره والى كرسى وراءها . ثم انحنى لدى الامبراطور وقال : أتأذن يا صاحب الجلالة ؟

وقبل أن يأذن جلالته لها بالجلوس قالت الامبراطورة بنزق :

ــ ماذا تقول يا أمير ! أتريد أن تجلس مع الاشراف زانية متهمة ؟ لا . لن تجلس . ألا تعلمين يا هذه فى حضرة من أنت ؟ اركعى . .

فركعت تيودوره صامتة مغضية البصر . ثم ناولت الامبراطورة رئيس الدولة قرطاسا عريضا وقالت : تفضل يا فخامة الرئيس اقرأ علينا هذا التقرير . .

ــ ٣ ــ

شرع الرئيس يقرأ والآذان مرهفة ، ولكن الابصار محدقة بالفتاة الجاثية المغضية بصرها وأشعة البهاء تسطع من وجهها الطافح بشاشة على الرغم من رهبة المقام . . قرأ :

« كان منذ نحو ٢٤ سنة شخص يدعى أكاكيوس يقطن فى هذه العاصمة بيظنطيوم فى مدة حكم الامبراطور اناستاسيوس . وكان موظفا بوظيفة رعاية الحيوانات التى تعرض ألعابها فى ملعب الهيبودروم . فلما مات ترك أرملة وثلاث بنات هن كومتيو وتيودوره وأناستاسيا . وكانت كبراهن أناستاسيا فى السابعة من العمر . وكان للام الارملة ــ وهى قبرصية المولد ــ عاشق رامت أن يخلف زوجها فى الوظيفة لكى يستطيع الانفاق على بناتها . ولكن مدير الملعب أبى عليها ذلك . فما كان منها الا أن عرضت بناتها الثلاث لدى الجمهور المجتمع فى الهيبودروم لكى تستعطفه على حالتها وتثيره ضد مدير الملعب عسى أن يرضخ لطلبها . فنجحت حيلتها . وكانت تيودوره هذه فى الخامسة من العمر

« ولما صارت أناستاسيا ناهدا ألقتها أمها فى المسرح لكى تلعب الالعاب الهزلية الصامتة (بنتوميم) ومعها أختها تيودوره التى كانت فى ثوب قصير وأردان قصيرة أيضا . وما لبثت أناستاسيا أن صارت مومسا بحكم وظيفتها . وبقيت تصطحب أختها تيودوره فى مواطن خلاعتها ودعارتها . ولما كان الرجال يزورون أناستاسيا فى مخدعها فيما وراء الملعب ، كانت تيودوره تبقى فى الرحبة يداعبها عبيد أولئك الاسياد »

وهنا أشارت الامبراطورة الى الوزير أن يتوقف عن القراءة ، ووجهت الخطاب الى

تيودوره : ماذا تقولين يا فتاة فى هذا البيان ؟ هل كان ما سمعته حقيقيا ؟

فأجابت تيودوره على الفور بلا تردد ولا رهبة : نعم هو حقيقى بلا مبالغة . .

فبهت جميع رجال المجلس . واضطرب جستنيان مدهوشا وهمس : هل أنت خائفة أن تنكرى التهم الملفقة يا تيودوره ؟

فقالت بصوت مسموع : كلا . التهم غير ملفقة . .

فازداد جستنيان اضطرابا واحتدم غضبا ولم يعد يدرى ماذا يفعل . أيلطم تيودوره على خديها أم يخرج من المجلس مخزيا . تجلد وصبر . وعاد الوزير يقرأ :

« ولما صارت تيودوره كاعبا شرعت تظهر فى الملعب ممثلة رسمية كأختها . وما لبثت أن صارت مومسا أيضا . ولكن دعارتها أنها تذهب حيث تطلب . كانت حاذقة ذكية مجونية هزلية تضحك وتعجب . ولكنها لم تكن تعزف على آلة موسيقية ولا كانت بارعة فى الرقص وانما كانت تشترك مع الممثلين الهزليين فى تمثيلهم . وكانت تحسن اللعب على صهوات الخيل . ولم تستنكف أن تجلد جلدا يقتضيه التمثيل ، وأن تقبل القبلات المقرقعة المسموعة »

وعند ذلك قاطعت الامبراطورة القراءة قائلة : وهذا البيان ؟ أصادق يا فتاة ؟ أم فيه افتراء عليك ؟

فأجابت تيودوره : فيه كل الصدق يا ذات الجلالة وليس فيه افتراء . .

وعاد الوزير يقرأ :

« ونالت تيودوره حظوة عظيمة عند الرجال الشهوانيين ، فكانوا يتهافتون اليها ، ويسعون وراءها متنازعين رضاها . فالابتسامة التى تفصح عن سطرين من الدر فى ثغرها والحركة الخليعة من بدنها العبل كانتا تثيران شبق الشبان . ولم يقع فى حبائل خلاعتها الفتيان فقط ، بل كانت خلاعتها تستهوى الكهول حتى الشيوخ والأحداث

« وكان القانون يوجب أن تمنطق حقويها بمنطقة لستر عورتها اذا لم يكن بد من أن تظهر على المسرح عارية . على أنها استنبطت طريقة تلذ للجمهور ، وهى أنها كانت تلصق على بدنها حبوب الحنطة ، وتعرضه للاوز لتنقرها عن بدنها بأساليب تعجب المشاهدين »

وقالت الامبراطورة : أحقيقى أنك كنت تفعلين هكذا ؟

— نعم . نعم . .

ثم استمر الوزير يقرأ :

« وأخيرا عشقها هيكيبولس الصورى (من صور) فاصطحبها الى بانتابولس فى ليبيا فى شمالى افريقيا حيث تعين حاكما . ويقال انها كانت تمثل له خلاعات يستحى من ذكرها هنا . فتضرب عنها صفحا . ثم تخاصما فطردها وهجرته الى الاسكندرية . وهناك كانت مضطرة ان تسترزق فى الشوارع » .

فقالت الامبراطورة : قد ملك نجسة دنسة . ألا تحاولين أن تبرئى نفسك من هذه التهم؟

فأجابت تيودوره : لا أكذب ولا أنكر الحقيقة يا مولاتى .

واستمر الوزير يقرأ :

« وكانت ابان ذهبت تعرف أنها تيودورة الفاحشة . وكان أفاضل الناس يتحاشونها مخافة أن تدنس سمعتهم بها كأنهم يتحاشون وباء . وكانت تنتقل من بلد الى بلد فى الشرق وهي تحمل معها سمعتها الدنسة . فكان الناس يهربون من طريقها، الى أن وصلت الى انطاكية . وهناك فى خلال عرض بضاعتها والترويج لها حاولت أن تستغوى قديسا من رجال الله فى الصحراء »

فصاحت الامبراطورة : ويحك يا فاجرة . ألى هذا الحد بلغت منك القحة

واستمر الوزير يقرأ :

« ولكنها لم تنجح فى اصطياد ذلك التقى الورع ، فعادت الى بيظنطيوم منهوكة من التمادى بفحشها » انتهى تاريخ ماضى الفتاة المسماة تيودوره الزانية »

وهنا قالت الامبراطورة : هل سمعت تاريخ حياتك أيتها الفتاة الساقطة ؟..

فقالت تيودوره بصوت عال واضح : نعم سمعت . ولكن ما سمعته ليس كل تاريخ حياتى الماضية يا سيدتى ..

ـ ماذا بعد هذا ؟ هل لفجورك بقية مكتومة . فافصحى عنها ما دمت لا تخجلين منها ..

ـ لقد سرك يا ذات الجلالة أنك وقفت الى شاهد عيان صادق وشهادته حق . فأرجو من جلالتك أن تأمريه بأن يسرد بقية التاريخ الذى لم يشمله هذا التقرير . أرجو من نيافتك يا سيدى المطران الموقر أن تقول الصدق الذى تصدقه جلالتها ، كيف رحلت أنا من انطاكية وعدت الى بيظنطيوم (١)

ـ ٤ ـ

لم يفه الامبراطور ورجال الدولة ببنت شفة فيما كانوا مصغين الى هذا التقرير المدهش، اذ كانوا ذاهلين لما فيه من فظاعة دعارة الفتاة ورجسها ومن جرأتها فى الموافقة على نص التقرير من غير اطراق ولا تهيب ، كأنها كانت تسمع تقريظا لسلوكها وثناء على تصرفها . وأما جستنيان فكان رأسه لا يزال بين كفيه ، ومرفقاه على ركبتيه كأنه كان يذوب خجلا . وأما الامبراطورة فكانت رافعة رأس الانتصار ، وهى تنظر الى جستنيان وفتاته باحتقار

ولكن لما طلبت تيودوره الى المطران اكليمندوس بشدة أن يتمم تاريخ حياتها بما يعلمه تغيرت الاوضاع وارتفعت الرؤوس ، واتجهت الانظار الى سيادة المطران . ماذا يمكن أن يقول المطران . وقد عرفوا منذ دخول الفتاة الى المجلس أنه عرفها يوم كانت فى انطاكية . وسدد جستنيان نظره الى المطران ماذا عسى أن يقول ..

(١) هذا التقرير الذى قرأه الوزير مأخوذ من كتاب « النساء الفاتنات » Fascinating women من فصل الامبراطورة تيودوره طبق الاصل وهو الفصل الاول من الكتاب . وقد أدخل عليه كلام الامبراطورة وتيودوره ادخالا يقتضى الفن الروائى

وقف سيادة المطران وقال :

ـ قبل أن أجيء الى بيظنطيوم بدعوة من غبطة سيدى البطريرك جراسيموس كنت فى انطاكية . وكان سيدى بطريرك انطاكية قد ألف لجنة اكليريكية للعمل فى تطهير الابرشية من الدعارة بواسطة الوعظ والارشاد وحث النفوس على التوبة واحياء الضمائر

واسترسل المطران يقول : فى ذلك الحين انتشرت رائحة نتنة من اشاعة راجت سريعا ، وهى أن فتاة بيظنطية وفدت الى انطاكية بأرخص بضاعة من الدعارة والفحشاء . هى هذه الفتاة . فاستدعاها غبطة البطريرك ، وهى تظن أنها ستجد صيدا سمينا فى داره . فأقبلت عليه فى دلال لم ير مثله فى حياته ، ولا كان يخطر له أن بضاعة الدعارة تعرض هذا العرض فى الدنيا . على أن غبطته استنجد بنعمة الله لطرد الشيطان من قلب هذه الشقية . واستغاث بالروح القدس حتى تغلب على فجور هذه الفتاة المتهتكة التى لم تكن تظن أن فى العالم شيئا يقال له عفة أو طهارة

« ولكن شيطان الدنس خزى ، وحل محله نعمة الروح القدس فى قلب هذه المرأة التائبة . فسلمها البطريرك الىّ لكى أستمر فى وعظها وارشادها وتعليمها التعاليم المسيحية . فواظبت على ذلك حتى تبينت أنها تائبة حقيقة وصدقا لا مكرا . وتغيرت تغيرا تاما كأنها ولدت ولادة جديدة . لم تعد تلك الفتاة الفاجرة . .

« بعد عدة أسابيع اختفت من انطاكية فجأة . فخفت أن تكون قد هجرت المدينة الى بلد آخر لكى تعود الى دعارتها السابقة . فبحثت عنها فى كل ناحية الى أن علمت أنها هاجرت الى الغرب فى سفينة مرت بالمرفأ مصادفة . بعد ذلك لم أعد أعرف عنها شيئا . والآن أول مرة أراها بعد ذلك العهد . . . »

فقالت الامبراطورة : هل وثقت يا سيادة المطران من توبتها ؟

ـ وثقت كل الوثوق لانى كنت أراها كل يوم . ولم أعد أرى منها زيغا عن الصواب والعفة والطهارة . ولكى تستطيع أن تعيش سلمتها الى امرأة تغزل الخيوط وتحوك الغزل عسى أن تتعلم منها هذه الصناعة وتستعين بها على التعيش . وكانت المرأة مرتاحة الى عشرتها والى تقواها والى عملها . .

ـ من يدرى ماذا كان سلوكها هنا بعد رجوعها ؟

فقالت تيودوره على الفور : يدريه القسيس راعى كنيستنا حيث أقطن الى جنب داره

فقالت الامبراطورة : ان توبة عامين ان كانت صادقة لا تطرح فى البحر جبال الآثام التى تجمعت فى خمسة عشر عاما . كل دم المسيح لا يستطيع أن يطهرها من أدناسها . .

فقالت الفتاة : ان دم يسوع يا ذات الجلالة يطهر الاكوان كلها ان كانت كلها جبال آثام وبحار أدناس . .

ـ لا يهمنا طهرت أو لم تطهرى . ان هذا التقرير الذى هو سجل آثامك ، وقد زكيته بصراحة وبلا مراوغة بل بكل تأكيد ـ هذا التقرير لا يمحى من سجلات الامبراطورية .

والقانون الامبراطورى لا يغتفره . ولا يجيز اتصال فتاة مثلك سجلت على نفسها دعارتها بأمير محبوب للامبراطور . فأنت فى عرف هذا القانون أثيمة وخطاياك غير مغفورة . تستحقين الرجم لو كان الرجم فى قانوننا عقوبة للزانية . .

فانتفض جستنيان ووقف قائلا بصوت جهورى شديد : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بنبل لا بحجر . .

فقالت الامبراطورة : ويك . لك أن تجعلها خليلة لك ، ولا يمكن أن تكون لك زوجة

فصاحت تيودوره : أتدفعيننى يا صاحبة الجلالة الى الزنا ثانية بعد أن تبت الى الله . لا أقبل أن أكون خليلة حتى ولا لملك . ان الله قد قبل توبتى فلن أخطىء بعد . أليس كذلك يا سيدى المطران ؟

فقال المطران : بلا شك . ان الله قبل توبتك وأعانك على تطهير نفسك يا بنيتى . .

ـ اذن . لا يهمنى أن تدينونى هنا الآن وأن تأبوا على توبتى . .

فقالت الامبراطورة ساخطة : توبتك لنفسك . واما للامبراطورية ليست شيئا . كنت عاهرة فاجرة . ولا تزالين فى عرف الدولة كذلك . فلا يمكن أن يقبل اقترابك الى القصر

حينئذ وقفت تيودوره وقالت بحدة وبصوت عال غير موقرة المجلس :

ـ لا . لم أفهم . ولا أفهم من أقامكم ديانين للناس على آثامهم الشخصية . الدينونة لله وحده . فلا أعبأ بحكمكم . اذا كان لكم حق بدينونتى فلماذا لم تدينونى أيام كنت أخطىء ؟ وبأى حق تدينوننى الآن وأنا تائبة . .

وفيما كانت تتكلم كانت الامبراطورة تصيح بها : اركعى يا دنسة . اسجدى لهيئة الدولة . .

فصاحت تيودوره : للرب الهى وحده أسجد واياه وحده أعبد . ان هيئتكم هذه الجائرة مفتئتة على قضاء الله . لانكم تحكمون بالظلم فيما يحكم الله بالرحمة والمغفرة ، هل أنتم أعدل من الله أو أعرف منه بطهارة القلوب . كفى يا جلالة الامبراطورة عتوا وتمردا على شريعة الله . تجرمين من غفر الله لها وأعانها على التوبة . أتريدين أن تخلعى الله عن كرسى قضائه وتجلسى مكانه ؟

فصاحت بها الامبراطورة من شدة الغضب : صمتا يا فاجرة . ما نقصك الا أن تؤنبينى . قلت لك اركعى ، فاركعى والا . .

فارتمت تيودوره الى ما بين ذراعى المطران وهو لا يزال واقفا يضطرب من هذا النقاش الحاد الذى كان الحق فيه فى جانب الضعيفة وصاحت باكية :

ـ بربك يا سيدى المطران الموقر . خذنى الى الدير حيث أقف لدى الديان العادل . .

فقالت الامبراطورة مقاطعة : صمتا يا حشرة نجسة . تريدين ان تجعلى الدير ماخورا

فقال الامبراطور متجهما : حلما وتؤدة يا جلالة الامبراطورة . أرجو أن تدعى فرصة

لسائر رجال الدولة أن يتكلموا . وللفتاة الحق فى الدفاع عن نفسها . فلا أراها تشذ عن الصواب الا اذا أحرجتها . .

وما زالت الفتاة مسندة رأسها الى صدر المطران وهى تقول :

ـ نعم يا سيدى يا لسان الله ، خذنى الى الدير ، واعقد محكمة من رجال الكنيسة لكى يحاكمونى . وانقذنى من هذه المحكمة التى تنقض حكم الله . الله سامحنى . وهذه المحكمة تصب على جام غضبها . .

وطفقت تدفع المطران لكى يخرج بها وهى تقول :

ـ الى الدير يا سيدى الى الدير ، حيث يحمينى مخلصى من هذه المحكمة التى تقتل بعدلها روح الرحمة . هناك اتمتع برحمة الله وبنعمته وبرضاه . هناك أبتعد عن مظالم هذا العالم وجور أنظمته . الى الدير . .

وتقدم اليها جستنيان وهو منفعل شديد الانفعال وصاح مشيرا الى صدره :

ـ هنا ديرك يا تيودوره . هنا تجدين نعمة الله التى غفرت لك . .

وأخذها بيده وجذبها وهى تقول : لا . لا . الى الدير . أكون فى حماية الكنيسة . .

عند ذلك قال المطران: أيسمح سيدى صاحب الجلالة وسيدتى صاحبة الجلالة ان أخرج من هذه الثورة النفسية ريثما تهدأ ؟ . .

فنظر الامبراطور الى رجال الدولة كأنه يستشيرهم . فقال رئيس الشيوخ :

ـ حقا ان هذا المجلس أضحى مثار غضب الانفس . فلا نستطيع النقاش فيه . فيحسن اذن أن يأذن جلالة الامبراطور بانصراف سيادة المطران واصطحاب الفتاة الى حيث تشاء

فقال جلالته : أود أن أعلم رأى نيافة المطران قبل أن يخرج . .

فقال المطران : ماذا أقول يا مولاى والجو قد أصبح عاصفا . وميزان التعقل اضطرب. أرى أن الحق فى جانب الضعيف، لهذه الهيئة الموقرة الاهلية التامة ان تضع الحق فى نصابه. ولمولاى أن يعتمد على حكمها العادل. تعالى يا فتاة الى الدير حيث تغمرك رحمة الله ومغفرته

وفيما هما خارجان وجستنيان معهما قال المطران همسا :

ـ أين عزة الملك ومجده وكرامته يصد هذه الامبراطورة عن هذا الابتذال فى الجدال

فقال جستنيان : أما هى فلاحة فى الاصل والشىء يعود الى أصله ؟

ـ ٥ ـ

وساد الصمت المجلس كالجو يسكن بعد انقضاء العاصفة . وأسندت الامبراطورة ظهرها الى كرسيها الفخم واهية القوى . والامبراطور ما زال فى وجومه الى أن قال :

ـ أظن أن المشكلة أهون مما ظننا . وأظن أن الفتاة نفسها قد حلتها بالذهاب الى الدير

فقالت الامبراطورة وهى تقشعر تأثرا : ألا ترى يا صاحب الجلالة أن الامير جستنيان سيخلق مشكلة ثانية . أما سمعته يقول للفتاة : « هنا ديرك » أى فى صدره . فليست هى

التى تثير شجونه الآن ، بل هو الذى يثير مطامعها . لذلك يجب اصدار حكم بفصلهما

فقال وزير العدل : حسب قانون الدولة الذى يمنع اقامة زيجة بين أمير من أهل البلاط وبين ممثلة ، أصبح الحكم معلوما وليس فيه لبس . فالاحرى أن يفصل بينهما

فقال رئيس الشيوخ : أجل الحكم معلوم ، ولكن ماذا تكون قيمته اذا أبى سمو الامير أن ينفصل عن الفتاة ؟

فقالت الامبراطورة : لا أفهم ما الذى فى هذه المرأة الساقطة يغرى الامير ؟

فقال رئيس الوزارة : هذا سؤال يصعب جدا الجواب عليه يا جلالة الامبراطورة ولكن يسهل جدا لو كنت أنت الامير نفسه ساعة من الزمن لانك حينئذ تنظرين بعين الرجل وتحسين بقلب الرجل . .

وكان رجال الدولة يتغامزون متبسمين ، فكادت الامبراطورة تنشق غيرة وغيظا من هذا التلميح

فقال وزير العدل : ماذا يمنع أن نعتبر الفتاة ماتت منذ عامين حين كانت فى انطاكية ، وأنها ولدت ولادة ثانية على يد بطرك انطاكية . .

فقالت الامبراطورة : هذا خيال شعرى ، والدولة لا تشاد على الخيالات الشعرية

وكان الامبراطور يسمع النقاش متململا فقال :

ــ الحكم أصبح فى مقام الصادر . فدعوا مسألة التنفيذ الآن الى أن أفكر فيها . .

- ٦ -

نعود الى جستنيان والمطران والفتاة . فقد ذهبوا توا الى دار المطرانية . والفتاة فى حماية المطران وقد اعتقدت أنها انتصرت فى هذه المحاكمة على الرغم من ايجاسها من الامبراطورة التى كانت تتعمد تجريحها وخذلها . وجستنيان كان يرى العكس : يرى أن القضية خاسرة ، لان مجلس الدولة يعتمد على نص الدستور الذى يحرم على أمير من البلاط أن يتصل بممثلة ، فكيف بالحرى بعاهرة شهدت على نفسها ؟ وأما المطران فكان يحوك فى ضميره سياسات مختلفة . .

قال جستنيان لتيودوره : أهكذا فضحت نفسك وخيبت الآمال فيك . لماذا لم تدعى أن هذا التقرير مزور لاغراض ضدك وليس عندهم اثبات له

فقالت : لا يا سيدى . ليس التقرير مزورا . والتائب لله لا يكذب على الله والناس . لقد كنت مزمعة أن أروى لك أيها الامير مثل هذا التقرير قبل أن تتمادى فى العشرة لكيلا أخدعك فيما قد علمت آثامى . .

ــ وعلمت توبتك وقبلتها . واذا كان الله قد غفر لك فالاحرى أن أغفر انا أيضا . .

ــ ولكن بينى وبينك قانون الدولة يا سيدى . .

ــ اذا كان قانون الكنيسة مخالفا لقانون الدولة ومناقضا له ، فلا أعبأ بقانون الدولة .

ـ أجل . ولكن جلالتى الامبراطورين لا ينقضان قانون الدولة الذى هو أساس عرشها
ـ انى مستعد أن أخرج من حكم هذا القانون . ها قد خلعت عنى ثوب الامارة . فأنا الآن واحد من رعايا الامبراطور جستينوس العاديين ، الذين لا يطبق عليهم ذلك القانون
فقالت تيودوره بشدة : لا . لا يا سيدى الامير . لا أريد أن تخسر امارتك لاجلى
ـ وأنا لا أريد أن أخسرك بتاتا . أنا ازاء خسارتين لا بد من احداهما ، فأختار أهونهما
فرمقته تيودوره بسحر عينين يصرع الفؤاد . وقالت :
لا يا عزيزى . لا تخسر عرشك ولا امتيازاته لاجل امرأة حقيرة خاطئة . أنصح لك أن تثوب الى رشدك وتعود الى العرش الذى ينتظرك قبل أن تصحو من سكرتك وتندم
من يصدق أن هذا الكلام صادر من قلب تيودوره . وهى منذ عرفت جستينيان صارت تحلم الاحلام البعيدة . ولكن هو الدلال يثير الغرام
فقال لها جستينيان : دعى يا حبيبتى عظتك كأنها كتابة على سطح الماء
ثم التفت جستينيان الى المطران اكليمندس وقال :
ـ ها نحن بين يديك يا سيدنا . قدمنا الى المذبح المقدس وارفع يديك فوق رأسينا بالبركة والاكليل . .
فابتسم المطران الوسيم الوجه وقال : صبرا يا عزيزى دع الامر لى الآن . فلى سياسة قد تجهلها وستعلمها بعدئذ . .
ـ وهل يمكن أن تساكنني تيودوره فى مدة المهلة . .
فوجفت تيودوره وقالت : لا تفسد توبتى يا سيدى . .
وقال المطران : دع تيودوره الآن تقيم فى الدير كما وعدت لكيلا تثلم توبتها ، ولكيلا يبقى للامبراطورة أقل سبب لافساد مسعاى . دع تيودوره فى رعايتى
ـ أتعنى أنك تقنع عمى الامبراطور بأن جستينيان الامير يقترن بفتاة عامية حقيرة
ـ سأقنعه بطريقة لا تعرفها . .
وقالت تيودوره : ان من استطاع أن يرفع الزانية الى السماء ، يمكنه أن يجعل الوضيعة رفيعة فى عينى الامبراطور
ففكر جستينيان هنيهة ثم قال بدموع : أستودعك يا حبة فؤادى فى الدير
وهنا قال المطران : سأرتب ترتيبا يسمح بأن تراها كل صباح
فهز جستينيان يد المطران . ثم خطف قبلة من وجنتها ومضى
ما استوعبت تيودوره كلام المطران حتى سبح فكرها فى جو من الآمال لا نهاية له
تنظر الى الماضى فترى الايام التى لم تر فيها من الشمس الا الشفق الأحمر ، فكان يتراءى لها رهيبا . ثم تنظر الى المستقبل فترى الشمس ساطعة حولها كيفما تلفتت
هل خطر لها فى الليل أو فى النهار حلم صيرورتها امبراطورة ؟ كلا البتة . ولكنها أصبحت الآن فى مدخل هذا الامل . أصبح القمر على قيد باع من يدها

- ٧ -

مضت أيام والامبراطور والامبراطورة يعلمان أن الفتاة تيودوره في الدير كما قالت وكما أبلغهما المطران . وأما الامبراطورة فلم تكن مطمئنة لان جواسيسها أبلغوها أن تيودوره تجتمع بالامير في دار المطرانية بعض الساعة من حين الى آخر . فغضت النظر عن هذا مكرهة

وأما الامير جستنيان فكان كل يوم يسأل المطران بقلق متى ينفذ وعده . فكان المطران يستمهله متحينا الفرصة المناسبة لمفاوضة الامبراطور لكي يضمن النجاح

وأما المطران فعلى الرغم من مقاومة الامبراطورة ووقوفها في المسألة موقف الخصم العنيد ، كان يعتقد أن المهمة ليست صعبة كما تتراءى لهما ، لانه شعر في الجلسة أن تيودوره حصلت على عطف الامبراطور القلبي

وأخيرا بعد أن ذاب العاشقان وجدا وجوى ، التمس المطران مقابلة الامبراطور . فسرعان ما استدعاه الامبراطور ، لانه كان يود أن يعرف أشياء عن غرام الامير والزانية التائبة من غير أن يطلب هذه المعرفة

سأل الامبراطور المطران باسما : كيف حال راهبتكم الجديدة يا صاحب النيافة ؟

فأجاب المطران : ليست تيودوره راهبة في الدير يا صاحب الجلالة . وانما هي جعلت الدير ملجأ لها لكي تبتعد عن تقولات الناس وافتراءاتهم.

– ولكن الامير جستنيان يجتمع بها في دارك . والى متى هذا اللقاء العقيم ؟

– حاولت أن أقيم العثرات بينهما عسى أن يزهد الامير فيها . فاذا هو يزداد ولها . حتى صار يتمنى أن ينال الفتاة ولو خسر العرش

فقال الامبراطور مجفلا : طبعا لا أسمح . ولكن هل بلغ وجد الامير الى حد أن يجازف بالعرش لاجلها

– كذا يقول أحيانا . ولذلك أرى يا صاحب الجلالة أن تحل العقدة . ولا سيما لان شخصية الفتاة تكاد تكون خلوا من العيوب . ناهيك عن جمالها الفاتن ولطف عشرتها . وأما سلوكها فسلوك التقوى

وكان الامبراطور يسمع هذا الوصف باسما كأنه كان يستلذ سمعه . فقال :

– ان ما تصفها به الآن يا نيافة الحبر توسمته فيها من موقفها في المجلس يوم تلاوة التقرير عنها عليها . واقتنعت بصدق توبتها من اعترافها بآثامها . لذلك لم تبق في نظرى منحطة . بل ارتفعت عن رتبة العامة . لذلك لا ألوم ابن أخي كثيرا على شغفه بها

فاستبشر المطران خيرا من حديث الامبراطور ، وقال متجرئا :

– اذن ليس عسيرا على جلالتك أن توافق على اقتران الامير بها . .

– القانون لا يوافق . .

– ألا يوافق القانون على زواج الامير من عامية . .

تنبه الامبراطور الى أن زوجته يوفيميا عامية فلاحة ، فقال :
ـ يوافق اللهم الا اذا كانت لم تمارس التمثيل والدعارة
ـ ولكن يا مولاى أنت مقتنع بتوبتها . ومعنى التوبة فى الكنيسة محو الذنوب لان الله غفر
فضحك الامبراطور وقال : هذا شرع الكنيسة لا شرع الدولة
ـ أتجعل يا مولاى شرع الدولة فوق شرع الكنيسة ؟ شرع الدولة وضعه البشر ، وشرع الكنيسة وضعه الله . ولجلالة الامبراطور الحق فى أن ينقح نصوص الدستور بحيث تطابق قانون الكنيسة ، ولا سيما فيما يخص البلاط
ـ صواب ما تقول . ولكنى أستنكف أن يقال انى أتلاعب بقانون الدولة لغرض شخصى
ـ خطر لى خاطر يمهد السبيل للتعديل يا مولاى . . ترفع جلالتك القناة من درك الضعة الى مرتبة الشرف ، كما رفعها الله من الجحيم الى النعيم . .
فقهقه الامبراطور وقال : حيلة لطيفة . سأفكر فيها . مهلا برهة . أود أن أرى الامير والفتاة غدا هنا قبل الظهر
ـ يغتبطان عظيم الاغتباط يا مولاى بالمثول بين يدى جلالتكم

- ٨ -

كان الامير جستنيان وتيودوره ينتظران سيادة المطران على مثل جمر الغضا . فلما رأيا بشره يسطع أمامه اغتبطا عظيم الاغتباط . فقال الامير :
ـ لا أظن هذه البشاشة تغشنا يا سيدنا
فقال المطران : استعدا للامتثال لدى جلالته
فقالت تيودوره وهى تكاد تطير فرحا : لتقبيل يد الرضى . أليس كذلك ؟
فقال الامير : يد الرضى السخية . أنا أعلم أن عمى متى رضى منح بلا حساب
فقال المطران : وهل تطمع أنت بلا حساب ؟ ماذا تنتظر من جلالته ؟
ـ أن يأذن بزواجنا . .
وكان المطران ينظر فى مقلتى تيودوره اللتين كادتا تنبثقان من محجريهما جزلا . وقال لها ضاحكا مداعبا : يا ترى هل تستطيعين يا جلالة الامبراطورة المستقبلة أن تتحملى أعباء العرش بعد عمر الامبراطور الطويل ؟
فقالت : ما يفوت سيدى الامير من المعونة أتلقاه من سيادتك يا مولاى الحبر الكريم . ألم تعدنى أنك تكون حامى تيودوره مدى الحياة ؟
ـ لا أظنك تحتاجين الى حمايتى لان جلالة الامبراطور توسم فيك الكفاءة
فكادت تيودوره تنفجر مرحا وحبورا من هذه البشائر التى لم تحلم بها . أكان ممكنا أن يخطر ببالها أن تكون العاهرة يوما ما امبراطورة مهما تابت وندمت واتقت

***

فى الصباح التالى كان الامير جستنيان فى دار المطران ينتظر تيودوره قادمة من الكنيسة كعادتها لكى يتهيآ للذهاب مع المطران الى البلاط قبل الظهر . وكان كلما مضت دقيقة حسبها الامير ساعة حتى مل عد الدقائق واحتدم شوقه . حتى قارب الظهر . وكاد يفوت الموعد . وتيودوره لم تظهر . فقلقا أى قلق ..

أين هى ؟ لماذا تأخرت ؟

تيودوره أشد شغفا منهما بالمثول لدى صاحب الجلالة مشرقة بعد أن مثلت لديه مزدراة. تيودوره التى لا ريب أن سفن أفكارها الراقصة طربا تمخر فى بحر من الآمال المرحة والامانى المقبلة التى لا حدود لها ، تيودوره التى كانت تتوقع التاج هابطا عليها من سماء النعمة الالهية بعد أن تهبط تحت زحم الغضب والنقمة فى بحر آثامها . أتيودوره هذه تتخلف عن ميعاد الامتثال بين يدى الامبراطور ؟

لا بد أن حادثا فظيعا أعاقها ..

ركب الامير جواده ومضى الى الدير يسأل عنها . فقيل له انها ذهبت الى القداس كالعادة ولما تعد . الكنيسة الى جانب دار المطرانية . سأل المطران خادم الكنيسة وخدم الدار ، فلم ينبىء أحد عنها بشىء .. وأخيرا ؟

ركبا المركبة وذهبا ثانية الى الدير ، فقيل لهما انها لم تعد البتة . بحثت الرئيسة والراهبات عنها فلم يقفن لها على أثر . جزع جستنيان لغيابها . ثارت فى نفسه الظنون المفزعة لفقدها . أى نكبة نكبت بها ؟ وأى شر أصابها

قال المطران : يجب أن نذهب توا الى القصر لئلا يغضب جلالته اذا استبطأنا . وثمة نعرض على جلالته أمر اختفائها

فأسرعا الى القصر . والتمسا المثول . فاستقبلهما جلالته من غير أن يبدو منه استغراب لعدم وجود تيودوره معهما . ولكن المطران ما تمهل فى أن شكا الامر لجلالته : اننا يا مولاى افتقدنا الفتاة تيودوره عبدتكم منذ الصباح ، وبحثنا عنها فى كل مكان ظنناها فيه ، فلم نجد لها أثرا ، ولا سمعنا عنها خبرا

فقال الامبراطور باسما : أنا أخبركما أين هى .. هى فى دار الشحنة (البوليس) مقبوض عليها بتهمة الدعارة واللصوصية ..

فسقط فى يد الامير جستنيان واسودت الدنيا فى عينيه . وجعلت لجات الشوق والهيام تلاطم فؤاده ، وقال : تهمة مفتراة يا مولاى ..

وقال المطران : عجبا يا مولانا . هذا سفر قديم وقد محوناه ..

– لا بل هو سفر جديد فى هذا الصباح

فاكفهر وجه المطران وقال : أظن فى الامر دسيسة يا صاحب الجلالة . هل روى المبلغ لجلالتكم تفاصيل التهمة ؟

ـ لا . بل قيل لى ان تيودوره التائبة عادت الى دعارتها وجرائمها . وهي تحت التحقيق فى دائرة الشحنة . .

فقال الامير : لا أظن أن جلالتكم تعتمدون كل الاعتماد على الشرطة فى تحقيق تهمة الفتاة . اذ لا يعقل أنها وهي تطفر فرحا فى انتظار شرف الامثال لدى جلالتكم تند عن الصواب لتطرح نفسها فى حمأة الشهوات

فضحك الامبراطور ثم قال : أجل . هذا لا يعقل . .

ـ اذا . ألا تتفضل جلالتكم باستقدامها مع هيئة التحقيق بين يديكم ؟ . .

ـ لقد صدر الامر بذلك قبل أن تدخلا الى هنا . .

***

. ما هي الا هنيهات حتى انبأ الحارس ان قائد الشرطه ونفرا من الناس معه ينتظرون خارجا أمر جلالته . فأمر بقائد الشرطة أن يدخل أولا . فدخل هـذا القائد وتلقاه الامبراطور بالسؤال :

ـ من اصطحبت ؟

ـ المتهمة المدعوة تيودوره . والرجل الذى اتهمها . والمرأة صاحبة البيت السرى

ـ أرسل الينا المتهمة وحدها أولا

خرج القائد ، ثم دخلت تيودوره وسجدت ، وبقيت جاثية . فتأملها الامبراطور باشا معجبا بحسن ملامحها ولطف تناسقها ، ثم قال : قفى يا فتاة . .

فوقفت ، فقال : اقعدى على الكرسى الذى وراءك . .

فقدم لها جستنيان الكرسى فقعدت بكل تحفظ واحترام وتوقير . وقال الامبراطور :

ـ أين كنت حين قبض الشرطى عليك ؟

ـ فى منزل لا أعرف عنه شيئا . .

ـ لماذا كنت هناك اذن ؟

ـ قابلتنى امرأة فى باب الكنيسة وسألتنى : « هل أنت تيودوره » فأجبت : « نعم » قالت : « ان أختك أناستاسيا تود أن تراك ولو دقيقتين » فقلت : « لا أعلم أن أختى هنا ولا أعرف أين هى » . فقالت : « جاءت أمس وسألت عنك وعلمت أنك فى الدير . فتود أن تراك بضع دقائق . فاتبعينى الى حيث هى » فتبعتها لكى أرى أختى لعلها فى حاجة ماسة الى ولعلى أستطيع أن أنفعها بشىء . تبعتها بكل سلامة نية واطمئنان مسافة غير طويلة الى أن دخلت بى الى منزل بسيط . وأجلستنى على مقعد . ثم قالت : « سأدعو أختك اليك . انتظرى هنا » . ودخلت فى باب آخر فى الغرفة وأقفلته . ومكثت وحدى أنتظر نحو عشر دقائق حتى كدت أرتاب فى أمر هذه المرأة . فناديتها . فلم تربى وجهها . وانما دخل من الباب الاول فجأة شرطى ومعه رجل غنى . وقال الشرطى : « أين هى ؟ »

فقلت ، وأنا أظن أنه يسأل عن ربة البيت : « دخلت الى هذه الغرفة » . فقال الرجل يشير الى : « بل هذه هي يا سيدى القائد . هي بعينها » . فقلت : « انى غريبة . أما صاحبة المنزل فقد دخلت الى هذه الغرفة » فأسر الرجل العتى قائلا : « بل هذه هي بعينها ، هي التي سرقت كيس نقودى . . » . فذعرت من هذه التهمة الباطلة وقلت : « انك غلطان يا هذا . أنا هنا منذ عشر دقائق فقط . أنظر فى جيدا » فقال : « نظرى لا يغشنى ، هي هي يا سيدى . هي نفس المرأة التي كنت معها . وهي . . » فصرخت به مذعورة : « ويحك يا منافق . لا أعرفك ولا تعرفنى ولا رأيتك قبل هذه الدقيقة ولم ترنى » فقال الشرطى : « هلمى معى يا هذه . والتحقيق يكشف الحقيقة فلا تخافى » فقلت : « سل يا سيدى صاحبة المنزل . أدعها الى هنا . هي التي دعتنى الى هنا لكى أقابل أختى » . وما كنت أدرى أن تلك المرأة شريكة فى المؤامرة . فقال الشرطى : « وأختك أيضا تقيم فى هذا الماخور » قلت : « صه . لا تتطاول بالكلام البذىء . ادع صاحبة المنزل حالا » قال : « سندعوها الى دار الشحنة . هلمى معنا الآن » قلت : « لن أذهب معكما لان عندى موعدا شريفا عظيم الشأن لا يمكن أن أتخلف عنه ولو بقطع عنقى » . قال : « هذا نفاق ينتحله كل من يدعى الى دار الشحنة . هلمى معى » . وحملانى وأخرجانى رغم أنفى وأودعانى فى مركبة وذهبا بى الى دار الشحنة . وهناك فتشتنى امرأة فلم تجد معى نقودا البتة . وما زلت أنتظر التحقيق . والى الآن لم يحقق أحد معى . .

وكان الامبراطور مصغيا جيدا لهذه القصة الشنيعة . وهو يتميز غيظا فقال :

ـ تعنين أنك لم تشاهدى أختك فى ذلك المنزل . .

ـ كلا يا صاحب الجلالة . أختى ليست فى بيظنطيوم ولا أدرى شيئا عن مصيرها . .

ثم استدعى الامبراطور الشرطى والرجل والمرأة الاخرى كلا بنوبته واستجوب كلا منهم حتى تبين دسيستهم جميعا وارسلهم الى حيث يجب أن يكفروا عن شرهم

***

بعد خروجهم وجه الامبراطور الخطاب الى تيودوره :

ـ انى واثق بصدق كل كلمة قلتها . ولم يبق عندى ريب بأن فى الامر مكيدة . بمن تظنين؟

فترددت تيودوره وقالت : ان بعض الظن اثم يا مولاى . فأتوسل الى جلالتك أن تعفينى من ارتكاب هذا الاثم

فابتسم الامبراطور كأنه قرأ أفكارها ثم قال :

ـ لسوف ينجلى كل سر وكل شر . بعد أيام سأستدعيك يا سيادة المطران

ففهم المطران أن المقابلة انتهت ، وتقدم الى الامبراطور وقبل يده . ثم حذا حذوه الامير وتيودوره . وخرجوا خروج الظافرين

- ٩ -

ذهبوا توا الى دار المطران حيث يعقدون مؤتمراتهم ..

سأل المطران تيودوره نفس سؤال الامبراطور: من تظنين انه نصب هذه المكيدة يا بنتي؟

فقالت : من خصمي في علاقتي مع الامير ؟ ومن أبلغ الحبر لجلالته ؟

فقال الامير : من غير الامبراطورة ؟ فهي التي شرعت تكيد مكايدها ضدي منذ علمت ان بيني وبين تيودوره حبا لم تذق هي مثله

فقال المطران : لقد أحسنت الاجابة على سؤال الامبراطور يا تيودوره . لانك لو لمحت الى الامبراطورة مهما كان التلميح بعيدا ، لخلقت مشكلة الله أعلم كيف يمكن حلها

فقالت : ألا تظنان أن الامبراطور اشتبه بالامبراطورة مختلقة هذه المكيدة الفظيعة ؟

فقال الامير : لا شك عندي بذلك ، ولا ريب أنه فهم من كلمتك « ان بعض الظن اثم » انك تشتبهين في الامبراطورة . ان عمي على قلة علمه ذكي يفهم الافكار قبل الكلام ويرى النجوم من وراء الغيوم

فقال المطران : أصبحنا الآن نود أن نعلم كيف نسجت هذه المكيدة وسأسعى بوسائلي السرية الى معرفة نتيجة التحقيق اذا أبى جلالته أن يعلن ..

قال الامير : ودعنا الامبراطور بوعد منه أنه سيستدعيك يا سيدنا الحبر . لماذا يا ترى ؟

ــ ماذا يريد مني غير أن يبلغني ارادته السنية بشأنكما ؟

ــ ماذا تكون ارادته السنية يا ترى ؟

فقالت تيودوره بدهاء : من يدري أن تكون ارادته السنية ، نفي تيودوره الى انطاكية لكيلا يبقى وجودها في بزنطيوم موضوعا للمكايد التي تزعج القصر ..

فقال الامير ضاحكا مازحا : لا بأس . نؤسس امبراطورية في انطاكية

فقال المطران مقهقها : ونحن ننقل انطاكية الى بزنطيوم . أليس كذلك يا امبراطورة انطاكية

فقالت تيودوره : بأية قوة تنقلها يا سيادة الحبر . أبقوة الايمان الذي ينقل الجبال

فقال : به وبقوة الحب أيضا الذي يطير فوق البحار والجبال

- ١٠ -

وبعد أسبوع لبى سيادة المطران دعوة الامبراطور حسب وعده . فلما عاد من المقابلة وجد تيودوره في داره تنتظر نتيجة المقابلة على أحر من الجمر . فلما رأته مقبلا ووجهه يطفح بشرا وحبورا أسرعت مرتمية على يده وهي تنضد عليها قبلات بعضها فوق بعض . فجذبها ودخل بها الى مكتبه حيث جلس وأجلسها الى جنبه وقال ممازحا مداعبا :

ــ مباركة أنت بين النساء أيتها الامبراطورة الجليلة

فانحنت مبتهجة القلب على يده تقبلها . فرفعها وقبل جبينها قبلة حارة وضمها الى

صدره . فرفعت نظرها اليه باسمة وقالت :
ــ لقد تبت عن هذا فى انطاكية أيها الحبر المقدس . فلماذا . .
فقال ولا تزال يدها فى يده :
ــ وفى انطاكية طالما تمنيته وتشوقته . ولكنى عصمت النفس عنه
فقالت وهى تبتسم متوردة : أجائز هذا يا مولاى ؟
فقال : أتنكرين علىّ تقبيل ايقونة العذراء ؟
ــ لماذا حاذرته فى انطاكية ؟
ــ لان لسانى كان يعظك بتجريمه . فكيف يجرأ قلبى على مناقضة لسانى ؟
ــ كيف يجرأ الآن ؟
ــ الآن اللسان صامت والكلام للقلب
ــ ماذا أصمت اللسان ؟
ــ لدى هذا الاقنوم السماوى يعلو صوت القلب على صوت اللسان
وضم رأسها الى صدره قائلا : ألا تسمعين ماذا يقول القلب ؟
ــ لا أسمع الا خفقا شديدا
ــ هذه لغة القلب ألا تفهمينها ؟
ــ كلا
ــ ويحى : اذن صرختى فى واد
ورفع يده عن رأسها ، فاعتدلت فى مجلسها ، ولكنها ما زالت باسمة وقالت :
ــ لا أفهم يا سيدى الحبر المحترم كيف يتناقض اللسان والقلب وهما فى جسد واحد وبقيادة عقل واحد ؟
ــ ولكنهما ليسا بقيادة غريزة واحدة
ــ ما هى غريزة اللسان وما هى غريزة القلب ؟
ــ غريزة اللسان اجتماعية نظمها الناس وغريزة القلب نظمها الله
ــ اذن . تعنى أن القلب يتكلم بلغة الله
ــ طبعا طبعا . فهمت لسان الله يا فيلسوفة . ولغة الله هى لغة الحب . والله محبة قال الرسول بولس . وبهذه اللغة يخاطب قلبك قلب سمو الأمير جستينيان
ــ اذن الحب غير محرم
ــ من قال انه محرم ؟ الدعارة هى المحرمة يا بنتى . والدعارة ليست حبا . هى فحش حيوانى بهمى . الحب الالهى حب روحانى . فهل كنت تشعرين بحب كهذا قبل أن عرفت الأمير جستينيان
ــ أبدا لم أشعر بشىء يقال له حب . الآن أشعر بحب روحانى للامير

***

ودخل الامير وهو يسمع الكلام الاخير . وربما كان المطران قد شعر بقدومه فساق الحديث الى موضوع حبهما دفعة لمظنة السوء من قبل الامير . وقال ردا لعبارة تيودوره الاخيرة : هنيئا لسمو الامير . .

فقال الامير : أراكما تتكلمان عن الحب

فقالت تيودوره : نعم . سيادة المطران يعلمني أن الحب الروحاني هو نعمة من الله كحبي لك

فقال الامير : أجل هكذا حبي لك روحاني سماوي ملائكي شعري . تولى عليه ما شئت وخطف من وجنتها قبلة حارة . فقال المطران ضاحكا ممازحا : ويحك . ما هذا حب روحاني . هذا التهام للثمرة الفجة . ألا تصبر الى أن تنضج الثمرة يا أمير

فقال الامير : لست ألتهم ثمرة بل أتنشق زهرة عطرة الى أن تنضج الثمرة . ولكن متى تنضج ياسيدنا. لقد ضاق ذرعنا اصطبارا. عسى أن تكون قد نضجت طبختك عند الامبراطور

ــ فى طريق النضوج ان شاء الله . لا يمكن أن ينقضي أمر كلمح البرق يا سمو الامير . ما دام فى كل أمر ارادات متعددة لا يمكن أن يتم عمل الا بتوافق هذه الارادات

فقال الامير متجهما : ارادات ؟ ارادات من يا سيدى ؟ الامر لجلالته وحده

ــ أنت متسرع ملحاح لجوج لانك عاشق وله شغوف. ولكن الامبراطور والامبراطورة ورجال الدولة ليسوا عشاقا فى هذه المسألة ، بل هم سواس . مدبرون . قضاة . حكام

فتضجر الامير وقال : لا أعلق سعادتى على حكمهم . لست أريد عرشا . بل أريد حبا

فانبرت تيودوره التى صار غرامها فى العرش أقوى من عشقها للامير وقالت :

ــ حلما وتؤدة يا عزيزى . ألا تصبر فيكون لك الحب والعرش جميعا . الى الآن لم يقل لنا سيادته فى أي مرحلة صار المشروع . مهلا وسمعا يا عزيزى

فقال المطران : لا يسمح جلالة الامبراطور بزواج الامير من امرأة عامية . .

فجفلت تيودوره اذ غشيت قلبها ظلماء الخيبة ، وقاطعت كلام المطران :

ــ ويلى ! لم تنفعنى توبتى شيئا فى هذا العالم . فالافضل أن أمضى الى حيث أجنى ثمرة توبتى . ولكن جلالة الامبراطور قبل توبتى فلماذا يرفضها الآن ؟!..

ــ جلالته قبلها كما قبلها الله . ولكن لو صرت قديسة لبقيت عامية ، أى لست من الاشراف

ــ سبحانك اللهم . جعلت من العامة أبرارا . ومن الاشراف أشرارا . لقد جعلت الابرار فى السماء فى رتبة واحدة . فلماذا تجعلهم على الارض متفاوتى الدرجات

وكان الامير يتميز غيظا وحنقا فقال : لم يجعلهم الله على الارض درجات ، بل هم جعلوا أنفسهم ، لانهم ليسوا أبرارا . أنا مثلك يا تيودوره أمضى الى حيث تنفع التوبة . تعالى نخرج من عالم الاشراف الاشرار الى عالم العامة الأبرار

فقال المطران : خفف عنك وهون عليك يا أمير . ليس النبل أو الشرف وقفا على كبراء الناس وخاصتهم . يمكن أن يرتفع العامة الى طبقة الخاصة فى النبل والشرف . ان معظم هؤلاء الكبراء كانوا فى الاصل من وضعاء العامة . فالارتقاء من تحت الى فوق سنة فى الطبيعة وفى سائر حركات الاكوان

فاشرأب عنق كل من الامير وتيودوره . وقال الامير :

ـ كيف يمكن هذا ويوفيميا زوجة عمى فى الطريق ؟

ـ لا تأثير لها على ارادة عمك الحازمة

ـ اذن . هل تستطيع أنت أن تقنع عمى بأن تيودوره تسلك مسلك النبيلة الشريفة

ـ لقد أقنعته وتقرر الامر

فقال الأمير بلهفة : ما الامر الذى تقرر يا سيدنا

ـ قرر عمك أن يرقى تيودوره الى طبقة الاعيان لكى يتسنى لك أن تتزوجها . فهى منذ الآن أصبحت نبيلة . وفى مثل هذا اليوم من الاسبوع الآتى تعقد حفلة حافلة عظيمة فى القصر لكى تقدم النبيلة عقيلة رئيس الشيوخ النبيلة « تيودوره انجاليكا » ـ أى الملاك كما سماها جلالته ـ للامراء والاشراف والأعيان . هل يعجبكما هذا

فبهت جستنيان وتيودوره وقالت هذه :

ـ لماذا لم تقل هذه البشارة من أول الامر يا سيدنا ولا تلوع قلبينا بتعلات الآمال ؟!

ـ دخلت الى الدار وأنا أحييك امبراطورة . أما كفت هذه التحية بشارة ! لقد تقررت الحفلة بعد سبعة أيام . وعلى تيودوره أن تزور عقيلة رئيس الشيوخ لكى تتلقن منها التعليمات ، فقد أبلغها جلالته هذا الامر . وهى تفهمك ماذا يجب أن تلبسى وبأى الحلى تتحلين . أهم حلية رسمية هى الاكليل الذهبى المرصع

عند ذلك ارتمت تيودوره على المطران وقبلته مرارا ثم على الامير أيضا

ـ ١١ ـ

أوصت تيودوره أبرع خياطة لكى تخيط لها ثوبا من الكتان الناصع البياض حسب زى ذلك الزمان للحفلات الامبراطورية . واشترى لها الامير جستنيان عقدا مرصعا وخاتما وشنفين . هى أثمن وأجمل ما فى المدينة . وأوصى الجوهرى الصائغ فيلبس ـ من أمهر الصياغ ـ أن يصنع لها اكليلا نفيسا من الذهب الخالص ، وأن يجعل جبهته طويلة عريضة مزخرفة مرصعة بالحجارة الكريمة . وساومه على الثمن ٢٥٠ مثقالا من الذهب ، والمثقال درهم ونصف درهم . واشترط عليه أن يسلمه اياه يوم الخميس وهو يوم الحفلة . ثم نقده نصف الثمن بايصال على أن يدفع له النصف الآخر عند استلام الاكليل

***

فى صباح الخميس كان الثوب والحلى وسائر لوازم التبرج موجودة عند تيودوره الا الاكليل . فذهب جستنيان الى الجوهرى فيلبس يطالبه بالاكليل . فعرض فيلبس عليه اكليلا بديعا يأخذ جماله بالالباب ، وقال له : انه ينقصه قليل من الاتقان الفنى وسأتمه عاجلا

فقال الامير : انى أحتاج اليه بعد الظهر حتما

فقال فيلبس : سيكون عندك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . اعطنى العنوان

فأعطاه الامير العنوان وقال : من يأتى به يأتى ايضا بايصال ببقية الثمن . وأنا أعطيه ايصالا باستلامى الاكليل

فقال فيلبس : سآخذه بنفسى يا سيدى الامير

***

وكانت تيودوره فى ذلك اليوم منهمكة باعداد نفسها . فعندها المزينة والمبرجة والمطيبة بالطيوب الخ

وكذلك كان الامير منشغلا بتهيئة نفسه للحفلة . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كان فى مركبته أمام المنزل الجميل الذى أسكن فيه تيودوره . فترجل ودخله ، فاستقبلته تيودوره فى تبرجها البديع على أجمل صورة . فضمها الى صدره وأمطر خديها بردا من القبلات وقال : من لا يقول انك شمس المشرق والمغرب جميعا

ـ امرأة عمك تقول انى ظلمتهما

ـ ستذوب غيرة الليلة وتغيب شمسها أيضا

ـ هى تعتقد أنها أجمل جيلات بيظنطيوم

ـ طبعا ، لان عمى يقول لها هكذا . « والقرد فى عين أمه غزال »

ـ كما تقول أنت عنى كذلك

ـ لست وحدى أقول انك شمس المشرق . سترين الليلة كيف تطوقك الاحداق . أنظرى نفسك فى المرآة

ـ لقد ملتنى المرآة اليوم ..

ـ مهلا الى أن يأتى الاكليل البديع . وثم انظرى فتزداد المرآة ابتهاجا بما ينعكس عنها من بهاء

ـ أخاف أن يتأخر الجوهرى ..

ـ وعدنى أنه سيأتى بالاكليل فى هذه الساعة

ـ تأخر . ونحن يجب أن نكون عند عقيلة رئيس الشيوخ قبل الحفلة بساعتين

ـ لا أدرى لماذا تأخر ذلك النغل ..

ونظر الامير فى المزولة المائية وقال : فات ميعاده نصف ساعة . أذهب اليه . ان جاء فى غيابى فليتنظر هنا

ــ انى موجسة من تأخره يا عزيزى ..
ــ أسحق جمجمته . لقد نقدته نصف الثمن مقدما

***

انطلق جستنيان على جواده الذى كان يحفظه فى اسطبل المنزل تحت الطلب . وفى دقائق معدودة وصل الى دكان فيلبس الجوهرى وبادره بالسؤال : ألم تزل هنا يا هذا ؟

فقال الجوهرى مظهرا الاستغراب : أجل

وزعق به الامير : أما قلت أنك تكون عندى والاكليل بيدك الساعة الثالثة بعد الظهر ؟

ــ بلى . لكن رسولك أتانى منذ نصف ساعة وبيده بقية الثمن وايصالا باستلام الاكليل فأخذه

فصاح صيحة أخرى : ويحك ! من رسولى هذا ؟ لم أرسل لك رسلا يا أحمق

ــ مولاى هذا ايصال منك باستلام الاكليل ، وهذا خطاب بأن أسلم الاكليل لناقله

فنظر جستنيان فى الايصال والخطاب وقال : قد منك حارا . هل كنت تعرف خطى من قبل حتى تصدق أن هذا الخطاب وهذا الايصال من خطى وبامضائى . هل تعرف من لعب هذه الحيلة على غباوتك يا بهيم ؟

ــ ان الذى جاءنى بالرسالة والايصال شخص نبيل جليل يا سيدى . لا يظن أحد أنه يحاول الخديعة بأمر كهذا

ــ هل تعرفه ؟

ــ لا ..

ــ اذن كيف تعرف أنه نبيل لا لص ..

ــ اذا رأيته أعرفه

ــ وهل تريد أن أستعرض أمامك جميع أهل المدينة لكى تدلنى عليه من بينهم يا نغل

وقبض جستنيان على عنقه قائلا : الاكليل حالا والا خلعت رأسك عن جثتك ..

فصرخ الجوهرى قائلا : رحمة يا سيدى . لماذا لا تعود الى المنزل فتجد الرجل هناك . لعله رام أن يخدمك خدمة

فارعوى جستنيان قليلا وقال : ربما كان الامر كما تقول أيها المغفل . ولكن من هذا الذى يعلم أن لى اكليلا هنا ويدفع الثمن عنى ويأخذه الى ؟ ان سخفك هذا سيحرقنى يا غبى . على أنى عائد . فان لم أجد الاكليل فى المنزل فتأكد أنى سأسحق رأسك

ومضى الامير على جواده كالبرق الخاطف . وما توارى حتى أقفل الجوهرى دكانه فزعا من غضب الامير

***

عاد جستنيان الى تيودوره . فلما رأت فى وجهه امارات الغضب فهمت أن الاكليل ليس معه . فسألها : هل جاء أحد بالاكليل ؟

ـ لا . كلا . البتة . .

ـ اذن أعود الى ذلك اللص لكى أسحق رأسه وأبقر بطنه . .

ـ كلا . مهلا . قل لى ماذا كان من أمره أولا . .

فروى لها حديث فيلبس بحروفه . فقالت :

ـ هى دسيسة لئيمة يا عزيزى . ليس عندنا متسع من الوقت لسحق الرؤوس الآن . يجب أن نفكر بوسيلة لتلافى هذا الموقف الحرج الآن

ـ خطر لى أن تستعير من احدى العقائل اكليلها ، ولكن ما من عقيلة تستغنى عن اكليلها الليلة ، لانهن كلهن يترقبن حفلة كهذه لكى يحضرنها . .

ـ لن أضع اكليلا على رأسى ليس ملكى

ـ رأيك اذن ؟

ـ ألا يمكن أن تجد عند جوهرى آخر اكليلا معدا للبيع ؟

ـ لا يصنع الصياغ هذه الاكاليل الا بطلب لانها ليست من الحلى التى يجوز لاية سيدة أن تستعملها . هى لمثل حالتك . هى للاميرات والنبيلات فقط

فتدفق الدم فى رأس كل منهما من شدة الغيظ . ثم قالت تيودوره : أذهب بلا اكليل

ـ ويحى ! ماذا يقول الجمع الذى ستظهرين فيه ؟

ـ نعلن أن مكيدة كيدت لنا فحرمتنى الاكليل . فيضطر جلاله الامبراطور أن يبحث عن سر المكيدة

ـ أظن، بل أرى أنه قبل ذلك يجب ان أذهب الى فيلبس فأسحق رأسه اذا لم يستحضر الاكليل حالا

وهم جستنيان أن يمتطى جواده ، واذا شخص اندفع من بين السابلة وأمسك بركابه قائلا : حضرتك سمو الامير جستنيان ؟

ـ نعم . ماذا ؟

ـ أرجو منك دقيقة فقط لامر يهمك .

ـ تفضل أدخل

واقتاده الامير الى رحبة المنزل . فقدم اليه الرجل علبة وفتحها فلمع منها اكليل أبدع من الاكليل الذى رآه صباحا عند فيلبس . فسرعان ما تلاشى غضبه وغمره الابتهاج وقال:

ـ ولكن هذا ليس الاكليل الذى اتفقنا عليه

فقال الرجل : هل فيه عيب يا سمو الامير ؟

ـ بالعكس هذا أبدع من ذاك . ماذا قال لك الجوهرى ؟

ـ لم يقل شيئا يا سيدى سوى أنه أوعز الى أن أطلب منك ايصالا باستلام الاكليل

ـ هل أعطاك ايصالا ببقية الثمن ؟
ـ كلا البتة . هو يقول ان الثمن وصله كاملا
ـ عجبا . عجبا . من أرسلك يا هذا ؟
ـ الجوهرى المشهور جرمانوس
ـ جرمانوس ! هل أنت واثق أنه أرسلك بهذا الاكليل لى لا لسواى ؟ لعلك غلطان . .
ـ ألست يا سيدى سمو الامير جستينيان ؟ وهذا المنزل منزلك ؟
ـ بل . ولكنى لم أقابل السيد جرمانوس الجوهرى قط . بل اتفقت مع فيلبس الصائغ المشهور . . .

فضحك الرجل وقال : متى كان فيلبس مشهورا . لعله اشتهر بأن كان تلميذا لجرمانوس
ـ من ساومه ودفع له الثمن ؟ هل تعرف ؟
ـ لا وانما رأيت عنده أمس رجلا جليلا يساومه . ولم أعلم ماذا كانت المساومة . ثم نقده كل الثمن توا
ـ يلوح لى انك تشتغل مع السيد جرمانوس . .
ـ نعم . معاونا له
ـ وهل صنعتم الاكليل اليوم فقط ؟
ـ أمس بعد الظهر صنعنا الهيكل . واليوم رصعه الأستاذ جرمانوس . .
ـ ألم يعد الى محلكم الرجل الذى أوصى عليه ؟ . .
ـ كلا . أعطى أمس عنوان سموكم للاستاذ جرمانوس ، ومضى ولم يعد
ـ هل اذا رأيته تعرفه ؟
ـ لا أظننى أضل عنه . .
ـ أشكر رسالتك . ماذ اتطلب منى الآن ؟
ـ ايصالا باستلام الاكليل . والسلام عليكم . .
فأعطاه ايصالا . فأخذه ومضى

وكانت تيودوره قد تناولت الاكليل ووضعته على رأسها ووقفت لدى المرآة تتأمل جمالها . فباغتها الامير من ورائها بأن أخذه عن رأسها قائلا : لا يستطيع هذا الاكليل أن يزيد هذا الجمال الملائكى جمالا . وانما هذا الاكليل أجمل جدا من اكليل فيلبس اللعين . ففى وسط جبهة هذا زمردة ليست فى وسط جبهة ذاك . وترصيع هذه الجبهة أجمل جدا . هل يمكن أن يكون فيلبس قد اشتراه من جرمانوس بدل الذى فقده لكى يتقى سحقى لجمجمته ؟

فضحكت تيودوره قائلة : هل فيلبس هذا ذو ثروة عظيمة حتى يفتدى عنقه بمبلغ من المال عظيم . انا الآن فى ليل حالك من الأسرار . هنا مكيدة من ناحية ، وترياقها من ناحية أخرى . سنبحث فى الامر بعدئذ

- ١٢ -

فى ذلك المساء كانت المشاعل المتوهجة تحيط بالقصر الامبراطورى ، والمصابيح الزيتية تأرجح فى أنحاء القصر . والشموع متقدة فى البهو تملأه ضياء وحرارة . والجوقة الموسيقية تصدح الالحان البيظنطية التى أخذت شهرة فى الشرق والغرب جميعا ، ولا تزال أم الموسيقات فى الشرق.

وكانت أزواج السيدات والسادة تتوافد الى ذلك البهو المعظم بأجمل ما كان فى ذلك الزمان من بدائع التبرج والتحلى . والبهو نفسه يفاخر تلك البدائع بما ازدان به من فاخر الرياش ونفيس الاوانى والادوات

قبل أن تغرب الشمس ، كان ذلك البهو العظيم الرحيب والافنية المحيطة به مكتظة بأمراء الامبراطورية وأميراتها ونبلائها ونبيلاتها وكبار الدولة وعقائلهم وبعض رجال الاكليروس

جمع يتماوج فى الرحاب كأنه لجج اليم وقد أثارتها رياح اللهو العواصف . وكانت الابصار تترامى على مدخل البهو ومخارجه تتبين القادمين ، والالسنة تتهامس عمن تكون النبيلة الجديدة ، وعن أصلها وفصلها . وما تداول المتهامسون الا أنها فتاة عامية حائكة كانت تتردد كثيرا الى الكنيسة ، وانها آية فى الجمال الجسمانى والروحانى . وقد عرفها الامير ولى العهد فى باب الكنيسة ، فوقعت فى قلبه موقع الروح المقدس فى النفس الصالحة . وندر من أشار الى ماضى سيرتها . لان دعارتها صارت نسيا منسيا

والامير جستينيان معروف عند معظم المدعوين بأنه رجل العلم والفضل والتقى ، فكانت الافكار تتجه اليه عسى أن يهتدى به الى النبيلة الجديدة . وكان كلما لاحت سيدة جميلة قال الواحد للآخر : أليست هذه اياها ؟

***

عند توارى الشمس وراء الافق ، صدحت الموسيقى باللحن الامبراطورى ايذانا بقدوم الامبراطورين . فدخلا من الباب الخلفى الذى يؤدى الى المنصة الرحيبة المشرفة على رحبة البهو العظيم ، يتبعه بعض أمراء الدولة وكبراؤها وعقائلهم وبعض الوصيفات . وأخذ الامبراطور مكانه فى وسط المنصة والى يساره الامبراطورة ، فوصيفتها الكبرى ، والى يمينه الامير جستينيان ابن أخيه ، والى جانبيهما البقية

ولما انتهت الموسيقى من العزف ، ساد سكوت مطلق انتظارا للخطوة التالية من برنامج الحفلة وهى خطوة « التقديم » وصارت العيون تريش السهام الى متوسط البهو انتظارا للحادث العظيم المنتظر

وفى هنيهة ابرزت سيدة جليلة تقود آنسة آية فى الجمال . فتهامس الجمع : ها هى تيودوره . ولكن ما لبثوا أن دهشهم نطق السيدة وهى عقيلة رئيس الحكومة :

« بأمر جلالة الامبراطور أقدم لكم أيها السادة والسيدات الآنسة ادينا Edith صوفيا نبيلة شرف هي ابنة اخت حضرة الوصيفة الكبرى النبيلة اغاتيا »

وضج الجمع بالهتاف للامبراطورين ، ثم للنبيلة الصغيرة ، بينما كانت السيدة والآنسة تحنيان انحناءات الاجلال والتعظيم للامبراطورين . وكان الجمهور كله مستغربا هذا التقديم غير المنتظر . هل غير الامير ولى العهد رأيه فعدل عن تيودوره الى ادينا ؟

وراحوا يتهامسون : « حقا انها جميلة . آية فى الجمال . ولكنها ليست تيودوره »

هذه مفاجأة لم تكن تيودوره تحسب حسابها ولا عقيلة رئيس الشيوخ كانت عالمة بها . ولا الامير جستنيان لاحت فى باله ، على الرغم من أن امرأة عمه الامبراطورة كانت تدله على ادينا عسى أن يحبها ، ولكن كانت كمن يدل السمكة على الشبكة

ما همد ضجيج الجمع وضوضاؤه حتى انبرت عقيلة رئيس الشيوخ تأخذ بيد تيودوره وصاحت بأعلى صوتها : « بأمر جلالة الامبراطور أقدم لكم أيها السادة والسيدات الآنسة تيودوره انجاليكا نبيلة شرف »

وانحنت الاثنتان انحناء الاحترام ، فدوى البهو بالتصفيق والهتاف للامبراطورين والسيدتين . وفى الحال قادت تيودوره عقيلة رئيس الشيوخ الى المنصة وصعدت معها ، وجثتا أمام كل من الامبراطورين . ثم تراجعتا ونزلتا عن المنصة الى ما بين الجمع . وعند ذلك عزفت الموسيقى اللحن البديع الخاص بالحفلات

وفى خلال ذلك لم تر ادينا صوفيا بدا من الصعود الى المنصة بغمزة من خالتها ، وانحنت لدى الامبراطورين ، وحذت عقيلة الرئيس حذوها

ولا ريب أن هذا الاقتداء المتأخر منهما بتيودوره ومقدمتها ظهر للجمهور باردا ، وانتقدوا همسا تقصير عقيلة رئيس الحكومة التى أغفلت هذا الادب الواجب ، وكانت فطنة تيودوره أسبق اليه

وكانوا يتطلعون الى تيودوره ليتبينوا جمالها . وهم يتهامسون بشأنه ، فتلك تقول : ليست فائقة الجمال ، وانما فى جمالها جاذبية غير اعتيادية . وذاك يقول : ربما كانت ادينا أجمل شكلا ولكن تيودوره أجذب للقلب

وفيما الموسيقى تعزف قدم السقاة للامبراطورين وغيرهما كؤوس الشراب . وعند ذلك وقف الامير جستنيان ورفع كأسه وأشار للموسيقى فسكتت ثم قال : « هذا نخب جلالة الامبراطور المعظم حامى حمى الامبراطورية ورافع منار مجدها . فليحيى جلالته » فهتف الجمهور مرددين الدعاء

وما لبثت تيودوره أن انبرت الى الوسط ورفعت يدها بكأسها . فسكت الجمع . فصاحت بملء صوتها : نخب جلالة الامبراطورة المعظمة المحبوبة .. فلتحى الامبراطورة فتلاها الجمهور بالهتاف . وتوالت بعد ذلك الانخاب من كل صوب وناحية

***

وفيما كان جستنيان يتمشى بين الجمهور يتبين الاصدقاء من الاعداء التقى بالنبيلة الجديدة ادينا صوفيا . فانحنى لها وحياها : أهنئك يا نبيلة ..

فقالت باسمة ملء ثغرها : شكرا يا سمو الامير ، لا أظنك فوجئت باعلان تقديمي نبيلة

فقال ضاحكا : كلا البتة . ليس هذا بالامر الجديد عندي . فأنت نبيلة قبل أن تقدمك عقيلة الرئيس

ـ ولطفك هذا ليس بالامر الجديد عندي يا سمو الامير . فلطالما جنيت منه ثمارا شهية . أراك تبينني من قمة رأسي الى قدمي . فماذا يستوقف نظرك ؟!..

ـ أجل أرى فيك كما كنت أرى كل يوم جمالا يستوقف كل نظر . ولكني لم أر الانظار تطوقه مثل اليوم ..

فقهقهت وقالت : لان اليوم يوم العيون المحدقة والانظار المتراشقة

ـ أجل . وليس للعيون ملتقى غير هذا الجمال الذي يجتذب الانظار ويلتهم الابصار

ـ قد . ماذا في رأسي يجتذب الانظار ؟.. أراك لا تكف نظرك عنه ..

ـ أرى عليه اكليلا يتألق . ولولا هذا الرأس الغالي لكان الاكليل معدنا صادئا . بالله أنى لك هذا الاكليل البديع

فأجفلت ادينا وقالت : لماذا تخصني بهذا السؤال ؟ لماذا لا تسأل عقيلة رئيس الشيوخ وعقيلة وزير العدل وغيرهما ممن لهن أكاليل كهذا ؟!..

ـ اخصك بالسؤال لاني ساومت على هذا الاكليل بعينه ودفعت نصف ثمنه ولما طالبت الصائغ به قال ان شخصا آخر دفع بقية الثمن وأخذه ..

ـ أذنبي هذا يا سمو الامير ؟ هذا اكليل أنا دفعت ثمنه وأخذته ..

ـ كم دفعت ؟

فقالت ضاحكة محتدة : تفضل يا أمير خذه ولا تحرجني بالاسئلة ..

وقدمت رأسها اليه لكي يأخذه حتى صار رأسها على صدره . واذ ذاك ظهرت تيودوره الى جنبهما . فوضع يده على الاكليل الذي على رأس تيودوره وقال : لقد استغنيت عنه بهذا . أيهما أجمل ؟

فقالت ادينا وهي تتيه وترمق تيودوره : الحكم لك يا سمو الامير أيهما أجمل ؟

فقالت تيودوره : وهل تجعل قيمة لهذه الاكاليل الترابية يا سمو الامير ..

فقال : لا . بل القيمة للرؤوس التي تحتها ..

فقالت ادينا : اذن كم هو ثمن الرأس الذي تحت هذا الاكليل الجميل (وأشارت الى رأس تيودوره)

فأجاب الامير توا : ثمنه قلب من أغلى القلوب .. فكم يا ترى ثمن هذا الرأس الذي تحت هذا الاكليل المقتصب (وأشار الى رأس ادينا)

فانتفضت ادينا غاضبة وقالت : اذا كنت تعتقد يا سمو الامير أن هذا الاكليل مغتصب اغتصابا فتفضل خذه

ونزعته عن رأسها وقدمته اليه . فرده الى رأسها قائلا : معاذ الله أن يوضع على غير هذا الرأس الثمين . وانما الامر الذى يحيرنى وبسببه دخلنا فى هذا النقاش هو أنى أنا الذى أوصيت الصائغ عليه ودفعت له نصف ثمنه ، وأراه الآن يملكه شخص آخر غيرى

فقالت تيودوره وقد فهمت سر الجدال : ليس لك أن تسأل النبيلة ادينا هذا السؤال ، لانها لم تملك الاكليل الا بعد أن دفعت ثمنه كاملا فهو ملكها الحلال . وما غريمك الا ذلك الصائغ الذى ساومته عليه وأخذ بعض ثمنه ثم سلمه لغيرك

فقال : بكل أسف الصائغ فر من أمام فأسى التى تكسر جمجمته

فقالت ادينا : اذا لم تظفر بجمجمة الصائغ أفتطلب جمجمتى بدلها . هاكها . أين فأسك

وقدمت اليه رأسها ضاحكة ، فتناول رأسها بين كفيه وقال : هذه جمجمة تضرب بفأس الورد .

وافترقت عنهما فقالت تيودوره : هل بقى عندك شك بأن يد جلالة الامبراطورة فى هذه الالعوبة

- ١٣ -

عند ذلك أخذ جستينيان يد تيودوره وصعد بها الى المنصة حيث انحنيا لدى الامبراطور والامبراطورة . ثم جلس جستينيان فى مجلسه الى جنب عمه ، وجلست تيودوره الى جنبه متأخرة قليلا الى الوراء

عند ذلك وقفت الامبراطورة واستأذنت الامبراطور بحجة أنها تشكو صداعا وخرجت تتبعها وصيفتها . وكان من الباقين على المنصة رئيس الحكومة والمطران اكليندوس

والتفت جلالته الى تيودوره وقال : لماذا تخلفت الى الوراء . تقدمى لكى نرى هذا المحيا الوضاء يا نبيلتنا العزيزة

فتقدمت الى جنب الامير تقول : أينما كنت يا مولاى أستمد النور من أشعة هذه الجلالة المنتشرة فى الآفاق

فتهلل وجه الامبراطور لهذا الجواب الشعرى وقال: عسى أن تكونى مغتبطة بهذه الحفلة

أى مجلس تترأسه جلالتكم يكون حفلة بهيجة تطفح فيها القلوب حبورا وتملأ العيون بهجة والنفوس سعادة

فتبسم الامبراطور ملء فمه وقال : عسى أن يكون سمو الامير جستينيان مسرورا أيضا

فالتفت الامير الى عمه وقال : وهل يستطيع جستينيان أن يخرج من دائرة نعم عمه التى تتدفق هناء وسعادة للنفوس

فقال الامبراطور : ولكني لا أراك مرحا كأن دودة هم تدب فى رأسك

فقال الامير مقهقها : الحقيقة أن سرورى يخالطه أثر خفيف من الامتعاض بسبب حادث حقير ولكنه يحير الالباب

فقال الامبراطور : عسى أن يكون الحادث عديم الاذى

ـ كلا البتة . بحماية مولاى الامبراطور لا أحسب حسابا لاذى . ساومت صائغا على اكليل ودفعت بعض الثمن وحان الميعاد ولم أستلم الاكليل . وبالبحث علمت أن يدا خفية اختلست الاكليل . فتأمل يا مولاى موقفنا الحرج ، ولم يبق أمامنا الا ساعة لحضور الحفلة

فقال الامبراطور مقهقها : لا بد من اعجوبة تخرجكم من هذا الموقف الحرج . .

فقال الامير وقد اشرأب عنقه نحو الامبراطور : أجل والاعجوبة حدثت

فحملق فيه الامبراطور وقال : أحقيقى ؟ كيف ذلك ؟ . .

ـ فاجأنا رسول يحمل علبة فيها اكليل أجمل وأثمن من الاكليل الذى ساومنا عليه . وكان هذا الرسول من قبل صائغ آخر غير الذى ساومته . وهو لا يعرف الشخص الذى أوصى عليه ودفع ثمنه كاملا . فأصبحت لا أدرى من اختلس ذاك ولا من أهدى هذا . فالاعجوبة حيرتنى أكثر من الخيبة

فقال الامبراطور ضاحكا : حقا ان تلك خيبة يأس وهذه أعجوبة فرج . ولعل سيادة المطران يستطيع أن يكتشف السرين

فقال المطران : لا خفى يا مولاى الا وسيعلن . سمو الامير يعرف الصائغ الذى ساومه فلا بد أن يعرف منه المختلس الذى سبب الخيبة . ومن الصائغ الذى صنعت الاعجوبة على يده يهتدى الى الذى فعل الاعجوبة

وقال الامير : والغريب أنى ظفرت بالمختلس فى هذه الحفلة

فحملق الامبراطور وقال : أحقيقى ؟ هل اللص فى الحفلة ؟

ـ أجل رأيت الاكليل نفسه على أحد رؤوسهن . .

ـ على رأس من رأيته ؟

ـ على رأس النبيلة اديتا صوفيا . .

ـ عجبا . لم أعلم بشيء من هذا . سأبحث المسألة . .

ـ أخاف يا مولاى أن أمورا أخرى تجرى فى القصر ولا تعرفها . يظهر أن الدنيا مملوءة دسائس ومكائد . .

ـ يسرنى يا عزيزى أن تعلم أنك كغيرك محاط دائما بمكايد ودسائس لكى تحذر الاعداء والاصدقاء . سترى يا بنى حولك محبين قد يحبونك كوالديك لانهم يبتغون نفعا من هذا الحب . فيصدقونك كل الصدق لكيلا تبقى لك شبهة فى اخلاصهم ، حتى اذا احتجب عنهم نفعك لهم انتهى حبهم ، وقد يتحول الى كره . وقد يتحولون الى خصوم

ثم نهض الامبراطور وانسحب فأصبحت الحفلة حرة من يشاء يبقى ومن يشاء يخرج

- ١٤ -

فى صباح اليوم التالى ذهب الامير جستنيان الى الجوهرى الصائغ فيلبس فوجد دكانه مقفلا . فقال فى نفسه : ان هذا اللص لا يزال هاربا من أمام غضبى . لا ريب انه خائف

ثم سأل عن دكان الجوهرى جرمانوس . فاذا هى فى نفس الحى وهو حى الصياغ . فاستقبله جرمانوس مرحبا فقال الأمير : هل أرسلت أمس اكليلا لمنزل الامير جستنيان ؟

ـ لا . .

ـ عجبا . اما صنعت اكليلا فاخرا وفى وسط جبهته زمردة جميلة فلمن ارسلته ؟

ـ لم أرسله لاحد . أوصى عليه شخص لا أعرفه ودفع الثمن . فصنعته وجاء واستلمه

ـ عجبا . اما قال لك ان الاكليل للامير جستنيان ؟

ـ لا

ـ غريب . أما أخذ منك ايصالا باستلام الثمن واعطاك ايصالا باستلام الاكليل ؟

ـ اعطانى وأخذ

ـ هل يمكن أن تتفضل وترينى الايصال لان الاكليل لى وأنا اعطيت ايصالا باستلامه . فاود أن أعرف اسم هذا الرجل الذى جاءنى بالاكليل وأخذ الايصال منى

ـ عفوا ومعذرة . مع الاحترام الكلى لحضرتك لا أعرف من أنت ؟

فقتح الامير حقيبة كانت معه واستخرج الاكليل وعرضه على الرجل ، وقال :

ـ أليس هذا هو الاكليل الذى صنعته ؟

ـ هو بعينه

ـ وأنا الامير جستنيان الذى قدم مجهول له هذا الاكليل

فانحنى جرمانوس انحناءة لائقة وقال : لقد تشرفت يا سمو الامير بهذه الزيارة الكريمة التى سيكون لها ذكرى عظيمة عندى . ها هو الايصال يا مولاى

وأخذ من بين أوراقه ورقة ودفعها الى الامير . فقرأها الامير ، وكان الامضاء «اريوبندس» فقال كأنه يكلم نفسه «أريوبندس» ؟ من هو هذا ؟ ـ ثم خطر له خاطر . فسأل الصائغ :

ـ هل كاتب هذا الايصال اكليريكى ؟

ـ كلا يا مولاى . هو شخص عامى . .

ـ هل تعرف المطران اكليمندوس ؟

ـ رأيته عدة مرات فى الكنيسة . ولكن كاتب هذا الايصال ليس اياه ولا يشبهه . .

ـ شكرا جزيلا يا سيد جرمانوس . هل يمكن أن أعرف كم أخذت ثمن هذا الاكليل ؟

ـ ثلاثمائة مثقال . .

***

عاد الامير الى تيودوره فاستقبلته بابتسامة تشرح الصدر وقالت

ـ عما قليل سيكون مفتاح الأسرار هنا

ـ مفتاح الاسرار ؟ من ؟

ـ فيما كنت خارجة من الكنيسة فى هذا الصباح حيث كنت اشكر الله على النعم التى أنعم بها على ، اعترضنى الشخص الذى جاءنا بالاكليل أمس . وقال باشا : « عسى أن يكون الاكليل قد استرعى انظار الجمهور فى حفلة أمس يا حضرة النبيلة » فقلت : « كان بديعا جدا . اشكره لك . يود سمو الامير أن يراك » فقال : « انى تحت أمره » . فقلت : « هل يمكن أن تأتى الينا فى هذا الصباح » . قال : « بعد قليل أكون هناك »

***

بعد قليل جاء الرجل فاستقبلاه فى حجرة الاستقبال ، وهو رجل متوسط القامة والعمر بشوش الوجه صبوحه أنيق الملبس لطيف الروح . قال الامير باسما : هل اسم حضرتك السيد اريوبندس ؟

فقال الرجل ضاحكا : كلا يا سيدى اسمى بولس ؟

فقال الامير ممازحا : اذن . كذب وتزوير ..

ـ كيف ذلك يا سمو الامير ؟

ـ أمس قلت انك مرسل من قبل الجوهرى جرمانوس الى لتسليمى هذا الاكليل (وكان الاكليل بين يدى الامير) والجوهرى جرمانوس قال انك أوصيته عليه ونقدته ثمنه . ثم استلمته منه بايصال فيه امضاء اريوبندس . والآن تنكر هذا الاسم . أفليس هنا تزوير امضاء ثم كذب فى بلاغ أمس ؟

فقال الرجل ضاحكا : ان القصد الصالح اقتضى الكذب والتزوير يا سمو الامير . أما كنت وحضرة النبيلة أمس فى موقف حرج جدا . ولا تدريان كيف يأتى الفرج ! فلو أتى الفرج من مصدر صريح أفلا يحتمل أن ترفضاه

ـ ربما ..

ـ اذن . الكذب والتزوير سوغا قبولكما الفرج ..

ـ أود أن أفهم ما الذى حثك على تدارك الموقف الحرج وليس بيننا وبينك صلة سابقة

وقالت تيودوره : وأهم من هذا كيف عرفت موقفنا الحرج قبل حينه حتى توصى على الاكليل قبل ثلاثين ساعة ؟

فقال الرجل ولا يزال يبسم : أرجو أن تعفيانى من الاجابة عن السؤالين لان فى فمى ماء . وأرجو ان تأذنالى بالانصراف ..

وهم بالخروج ، وفى الحال نزع الامير خاتما صغيرا كان فى اصبعه وقدمه اليه قائلا : أرجو أن تحفظ هذا تذكارا صغيرا منى للتشكر . وأرجو أن تأخذ هذا الكيس أمانة للسيد اريوبندس

ونهض الامير وأودع ثلاثماية وخمسين مثقالا فى كيس ، وسلمه للرجل

- ١٥ -

فى المساء جاء المطران اكليمندوس فوجد تيودوره وحدها فى الصرح الصغير الذى أسكنها فيه جستينيان . فرحبت به ، فقال : ما جئت الا لكى أهنئك بنجاح حفلة أمس . فقد كنت الكوكب الذى كانت الابصار ترصده من كل ناحية فبهرها ضياؤه

فقالت مبالغة فى الابتسام : لا يقل فضلك يا سيدى الحبر فى اشعاع ذلك الكوكب عن فضل جلالة الامبراطور . جلالته خلق الكوكب ، وسيادتك خلقت أشعته

فقال مقهقها : هذه مبالغة شعرية ، وأعذب الشعر أكذبه

ـ لست مبالغة . لولا رعايتك المتابعة يا سيدى لظهر الكوكب خاسفا فى الحفلة . ولا أدرى كيف نكافئك

فبش المطران قليلا وقال : لا مطمع لى بأكثر من رضاك . .

ـ هذا تحصل عليه على أى حال . ليت رضاى ينفعك . .

ـ ينفع نفسى وقلبى كثيرا يا عزيزتى . وكلما استطعت خدمة لك ازدادت نفسى بهجة وحبورا . ترى متى يمكننى أن أمنى النفس ببهجة خدمة لك ذات قيمة ؟

فقالت ومقلتاها تضطربان فى مقلتيهما اضطراب الزئبق فى كف الاشل : المهمة التالية يا سيدى هى مهمة الزواج . الى الآن لم نحصل على تصريح رسمى من جلالته . .

ـ هذا أمر لا يصعب على قضاؤه ، لا يمانع جلالته ولكنه يقف أمام القانون حائرا

فقالت مكفهرة : ألا يستطيع الامبراطور أن ينقح القانون ؟

ـ ان فعل يثر عليه الامبراطورة . والامبراطورة تثير مجلس الشيوخ

ـ أعتقد أن الامبراطور الذى أخذ التاج بسيفه ، يستطيع أن ينقح القانون بكلمته . أرجو أن تبحث معه فى هذا الشأن

ـ قد لا يتعذر على جلالته تنقيح القانون المدنى ولكنه لا يستطيع تنقيح القانون الكنسى الذى هو بحماية قداسة البابا

ـ نستغنى عن القانون الكنسى

ـ من يكللكما ؟

ـ سيادتك

ـ أنا ؟ يحرمنى البابا من الكنيسة . ومعنى ذلك مقاطعة الامم النصرانية كلها لى ، واقفال الكنائس فى وجهى

ففكرت تيودوره هنيهة ثم قالت : انك يا سيدى تعقد المسألة . اذا كنت تودنى مودة حقيقية تحلها . .

ـ لست أودك فقط ، بل . . آه لو تعلمين . .

وقبض على يدها وجعل يقبلها : آه لو تعلمين ماذا فى هذا الفؤاد من الود

ووقف المطران تفاديا للتمادى وتأهبا للخروج . فوقفت . فضمها الى صدره . وقبل

شعرها . ومضى . وما صار فى رحبة الدار حتى التقى بالأمير جستنيان عائدا . فتصافحا مصافحة الود . وقال الأمير : لا تذهب قبل أن نوفيك حقك من الشكر وان كنا لانستطيع ايفاءك حقك من الجزاء

وعاد المطران مع الأمير الى حجرة الجلوس . وقال المطران : ان كان ثمة شكر واجب فهو لجلالة الامبراطور الذى منح تيودوره رتبة الشرف حتى أصبحت نبيلة لائقة أن تكون عقيلة سمو الأمير

فقهقه الأمير وقال : لا أرى أنه قد تغير شىء فى تيودوره اليوم . ليس فيها اليوم شىء جديد لم يكن فيها قبل أمس . لا تزال كما هى . كانت لائقة لان تكون عقيلة جستينيان ولا تزال

فقال المطران : ولكن التقاليد تقول ان تيودوره كانت عامية وضيعة . فرفعها جلالته الى درجة الشرف ، فصارت النبيلة تيودوره انجاليكا

ـ كانت نبيلة من غير أن يرفعها . وكثير من هؤلاء النبلاء والنبيلات على الرغم من ترقية جلالته لهم لا يزالون غير نبلاء . وكثير من السيدات الوضيعات نبيلات من غير أن يرقيهن جلالته . فهذه الترقية ضحك على الذقون يا سيدنا . .

قالت تيودوره : لا بأس اذا كان الضحك على ذقون الجمع يؤدى بنا الى الغاية التى ننشدها . فلنضحك

ـ فلنضحك اذا كان الامبراطور يبلغنا الى أمنيتنا . فهل من عقبة أخرى ؟

ـ أجل عقبة القانون المدنى . وهذه يذللها جلالته ، اذ يمكنه أن ينقح القانون . تبقى عقبة القانون الكنسى . .

فقال الأمير : هذه عقبة لا نحسب حسابها فلا نتقيد بها . يجب أن نعقد قراننا عاجلا

ـ أما أنا فاحسب حسابها لئلا أعرض نفسى لحرمان البابا

فقالت تيودوره ضاحكة : لا يهمك حرمان البابا ، متى صرت أنا عقيلة الامير ، وصار الامير شريك الامبراطور فى الحكم . وثم . .

ـ ماذا تستطيعين أن تفعلى ؟

فقهقهت وقالت : أستطيع أن أجعلك بابا . .

فبغت المطران لهذه المفاجأة وقال : ان صولتك تقف عند هذا الحد يا عزيزتى

ونهض ومضى . وبعد خروجه وجدا كيس الثلاثمائة مثقال على المقعد حيث كان جالسا

- ١٦ -

ما مضت بضعة أسابيع حتى توفى الله الامبراطورة يوفيميا . وأصبح الامبراطور جستنوس بعد ذلك ضعيف الهمة . فضم اليه ابن أخيه جستنيان شريكا له فى الحكم

وما انقضت مدة طويلة حتى أصدر مرسوما بتنقيح القانون الخاص بزواج الأسرة

المالكة ، يسمح بزواج الامير جستنيان من تيودوره . وأوعز الى مجلس الشيوخ أن يوافق على هذا القانون ، فوافق

وما لبث أن عقد قران الامير على النبيلة تيودوره انجاليكا ببركة المطران اكليمندوس على الرغم من تحريم القانون الكنسي . ومنذ ذلك الحين صارت تيودوره تحضر مجلس الامبراطور السياسي الخاص . وكانت في بعض الاحيان تطرح في الحديث كلمة فيرتاح الامبراطور الى ملاحظتها

وبعد أن ماتت الامبراطورة يوفيميا صارت سيدات البلاط الوصيفات يعتزلن القصر من تلقاء أنفسهن الواحدة بعد الاخرى اباءة لنفوذ تيودوره عليهن

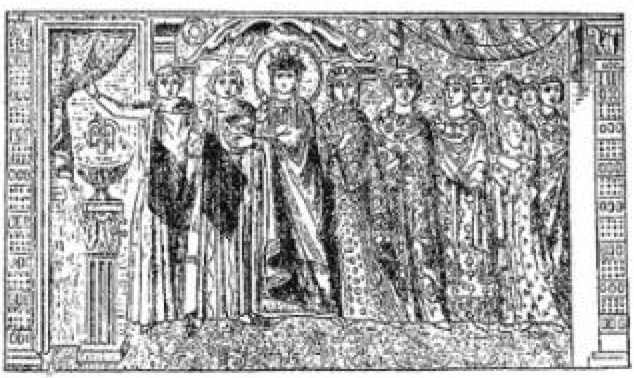
وبعد أربعة أشهر من زواج جستنيان وتيودوره ، توفي الامبراطور ، فتبوأ جستنيان العرش . وبطبيعة الحال كانت تيودوره الى جنبه في الحكم

***

لا بد من لمحة الى حياة تيودوره بعد التوبة

لما عادت تيودوره من انطاكية الى بيظنطيوم وشرعت تشتغل بنسج الكتان ، لم يكتشفها أحد من عشاقها السابقين ، لانها تغيرت في كل حال من أحوالها . تغيرت جسما وشكلا وعقلا وعفة ، لانها ودت أن ينسى ماضيها نسيانا تاما . ولعلها كانت تنوي أن تحظى بمحب يتزوجها لتعيش معه عيشة زوجية طاهرة سعيدة

وكان طالع نجمها أسعد طالع كسفت به شموس سائر الحسان . ففي ذلك الحين صادفها الامير جستنيان ووقع في هواها . فأدركت أنها ظفرت بقلب يساوي جميع قلوب الامبراطورية قيمة . فاذا استطاعت أن تحتفظ به ، كانت تعادل جميع نساء الامبراطورية



الامبراطورة تيودوره تحف بها وصيفاتها

فمن ذلك الحين جعلت نفسها الطامحة تمنيها بالملك والسلطان والقوة . ومنذ ذلك الحين ظهر ذكاؤها الممتاز وبرزت مواهبها المتفوقة ، اذ شرعت تقبض لا على قلب جستنيان فقط بل على عقله وعواطفه أيضا ، بيد حكيمة صالحة . فمن ناحية واحدة عرفت من أين تؤكل الكتف . ومن ناحية أخرى عرفت كيف توجه هذه العلاقة الحية الى المصلحة المزدوجة : مصلحة العاشق ومصلحة المعشوق جميعا

لما رأت أنها ملكت عنان جستنيان روحا وقلبا ، كادت ترى صولجان الملك في يدها ـ كل ذلك الدهاء القديم الذى كانت تستهوى به قلوب العشاق ، وجهته الى اجتذاب السلطة اليها . صارت مغرمة بالقوة والسؤدد والصولة وأبهة الملك . ولكى تظفر بجميع هذه الامور يجب أن تجعل جستنيان مسرورا راضيا

كذا جعلته . فتنته ، استعبدته حبا . جعلته يرتاح الى ذكائها وآرائها وسياستها

وضعت نصب عينيها أن تكون امبراطورة . فوجهت كل اهتمامها الى هذا الهدف . فصارت امبراطورة . .

من كان يصدق هذا ؟ هى كانت تصدق وتؤمل وتؤمن . والايمان أوصلها الى العرش

تيودوره التى كانت يهتف لها فى ملعب الهيبودروم كممثلة خليعة متهتكة ، كانت فى سنة ٥٢٣ م يحتفل بتتويجها ملكة فى كنيسة القديسة صوفيا . وبتكليلها على جستنيان ، ويهتف لها هتاف الفرح والسرور

كانت فى الرابعة والعشرين من العمر حينذاك ، أصغر من جستنيان بعشرين سنة

***

منذ صارت تيودوره امبراطورة ، شرعت تمارس الحكم فى دائرتها الصغيرة أولا . فكان أول أعمالها أنها جعلت تعطف على النساء الساقطات وتهتم بصيانتهن وانقاذهن من الفحش ومن الفاقة التى كانت تلجئهن الى ذلك . نظفت جميع شوارع بيظنطيوم من هؤلاء التاعسات . وأنشأت لهن ملجأ هنيئا فى الجانب الاسيوى من البوسفور حيث جمعت نحو ٥٠٠ امرأة

ومما يذكر من الحوادث بهذا الصدد ، أنه فى ذلك الحين وافت اليها اندروماكى زوجة الضابط فلابيانوس . وقالت : علمت يا مولاتى أنك طهرت المدينة من المومسات فنشكر لك هذه المحمدة . ولكن لم تزل هنا واحدة أهملتها جلالتك . .

فقالت تيودوره باهتمام : من هى ؟ أين هى ؟ . .

ـ اعذرينى يا مولاتى اذا قلت لك انها خليلة زوجى الضابط فلابيانوس . وقد أهملنى زوجى بسببها وازدرانى . وما أنا امرأة من العامة حتى يهون على الأمر . ان نسبى يتصل بالملك قسطنطين . والتحقيق يثبت لك الحقيقة يا مولاتى . .

ـ أرجو أن تعودى الى غدا فى مثل هذه الساعة . .

في اليوم التالي لبى الضابط فلابيانوس دعوة الامبراطورة وامتثل لديها ، واستقبلته بعبوسة وقالت : هل علمت أيها الضابط انني طهرت العاصمة من الومسات ، فلماذا تدنسها أنت باحتفاظك بخليلة من وراء زوجتك ؟ هل لك شكوى من زوجتك فنحاكمها ونعاقبها؟

ـ كلا يا مولاتي وانما ..

وهنا تردد ولم يعد يكمل الحديث فقالت : قابلتني زوجتك أمس ، فرأيتها امرأة فاضلة طاهرة عفيفة لا يمكن أن تكون سببا لزيغانك عنها وتعلقك بأخرى ، فضلا عن أنها شريفة المحتد ..

ـ نعم يا مولاتي

ـ اذن . أريد أن تحترمها وتخلص لها وتهجر خليلتك ، وتبلغها أنها اذا كانت ترافق رجلا بغير زواج قانوني ، فاني أرسلها الى ملجأ الومسات عبر البوسفور

ثم صفقت فدخلت من باب آخر اندروماكي زوجة الضابط . فقالت لها : ها هو زوجك فلابيانوس لا يريد بديلك حبيبة . تلاثما أمامي ..

فقبلها وقبلته . ثم قالت تيودوره : أود أيها الضابط فلابيانوس أن أسمع عنكما أخبار الامانة والاخلاص . فالجندي الذي يكون أمينا لزوجته يكون أمينا لامبراطورته وامبراطوره

ـ اني عبدكما الطائع الخاضع يا مولاتي . اني الجندي الذي يضحي بحياته لاجل امبراطوره وامبراطورته

ـ بارك الله فيك . أرجو ألا تنسى هذا الوعد أيها الضابط الشجاع

ـ هو أقدس عهد عندي يا مولاتي ..

واشتهرت بقساوتها على الرجال ، كأنها كانت تنتقم من هذا الجنس الذي كان يمتهنها في عهدها الاول . فاذا قرب منها رجل مجرم متضرعا مستعطفا مسترحما كانت تمعن في الانتقام منه

ولما استتب لها الامر ، صارت ذات حول وطول ، ولم تعد تسمح لاحد أن يتقدم اليها الا ساجدا على ركبتيه ومقبلا الارض بين يديها مهما كان مقامه عظيما

وكان الامبراطور جستنيان رجل علم وفن . يود التشغل بالسياسة والنقاش بعلم اللاهوت . وكان يحسن النقش والزخرفة . فما لبث أن رأى نفسه لا يحسن ادارة الحكم الا اذا كانت تيودوره الى جنبه . ولهذا كانت تحضر دائما مجلس الدولة ، ويكون لها فيه كلام وآراء سديدة ..

عجبا .. أين كانت هذه الموهبة مخبأة ؟

سبحان الله . يخرج من الصخرة ماء

وكان الامبراطور جستنيان يلتفت في سياسته الى الماضي بغية أن يعيد الامبراطورية الرومانية الى سابق مجدها واتساعها بعد أن تلاشى القسم الغربي منها أمام غزوات البربر الذين وفدوا من الشمال

أما تيودوره فكانت تنظر الى الشرق لكى توسع الامبراطورية على حسابه . ولهذا كانت تسترضى أهل اناطوليا وسوريا ومصر وما تطرف من الامبراطورية . ولذلك كانت تختلف أحيانا مع جستنيان ، ولكنه كان دائما ينقاد الى رأيها أخيرا

وكان هناك أشخاص يعرفون ان تيودوره تكرههم لانها كانت تشعر أنهم غير موالين لها . ومنهم جرمانوس ابن أخى الامبراطور . وسكرتير الدولة بريسكوس Briscus ويوحنا والى كبادوكيا . فكانت تحاذر من دسائسهم

وكان جميع رجال الدولة يتقدمون بمسائلهم اليها أولا ثم الى الامبراطور . ولكن القائد العظيم Belisarius بليسريوس قائد الجيش الاعلى كان يشذ عن هذه القاعدة فلا يتقدم لها ، بل يتقدم للامبراطور وحده مباشرة . فكانت تتغيظ منه . على أنها توفقت الى وسيلة لطيفة جعلته ينقاد لها . وهى أن زوجته انطونيا كانت سيئة السلوك على الرغم من أنه كان يحبها حبا شديدا ، وكادت تهجره الى أحد عشاقها . فوفقت تيودوره بينهما ، وكسبت صداقته

وكان بليسريوس هذا أمينا جدا لسيده الامبراطور ، ولكن الامبراطور كان يغار منه كلما عاد من حرب ظافرا . .

وكان الشخص الوحيد الذى يدخل اليها بلا استئذان هو تيوفورس من ميلين، اذ كان كاتب أسرارها ومعلم بنتها المجهولة الأب . وكانت تثق به كل الثقة

- ١٧ -

فى سنة ٥٣٦ م استوى البابا سلفريوس على الكرسى البابوى خلفا للبابا اغابيوس . وفيما كان منهمكا فى تنظيم أحوال منصبه الذى دفع ثمنا له للملك الجوتى تيودوس ، اذ كان الجوتيون الذى جاءوا من الشمال قد فتحوا رومه واستولوا على الامبراطورية الرومانية الغربية . حينئذ فوجىء بوفد اكليريكى من بيظنطية وهو لا يدرى مهمة هذا الوفد الذى كان مؤلفا من رئيسه الأسقف فيجيليوس وأربعة قسيسين

فاستقبلهم البابا بالاكرام اللائق ، واستمع لهم فى مكتبه الخاص ، فقدم له الاسقف الرسالة التالية التى زوده بها الامبراطوران جستنيان وتيودوره ، ففضها البابا وقرأها متجهما :

قداسة البابا سيلفريوس الكلى الطوبى

قد أوفدنا الى قداستك سيادة الاسقف فيجيليوس على رأس وفد من قبلنا . وقد أملينا على سيادته ما يجوز له أن يقوله

جستنيان وتيودوره

امبراطورا الشرق

ثم نظر البابا الى الاسقف والقسيسين متجهما وقال :
ـ الامبراطورة فى الامضاء أيضا ؟ ما شأنها ؟
ـ شأنها أنها عقيلة جلالة الامبراطور . وقد أشركها جلالته بالملك بموافقة مجلس الشيوخ
فقال البابا بنزق: ليست زوجته بل هى خليلته ، وكلاهما زان ، فكيف يشركها بالحكم؟
فقال الاسقف متئدا : بل تزوجها زواجا شرعيا يا سيدنا . .
ـ كيف يكون زواجهما شرعيا وقد حرمهما سلفى البابا اغابيوس وحرم المطران اكليمندوس الذى كللهما ؟
ـ ولكنهما لم يعبآ بهذا الحرم . .
ـ عجبا . والمطران اكليمندوس ؟ ألا يزال يمارس الطقوس الدينية ؟ وهل يدخل الكنيسة . وهل لا يزال الناس يخضعون لسلطته الدينية ؟ وماذا تريدون الآن من رأس الكنيسة (يعنى نفسه) ؟
ـ ان مهمتنا يا مولانا أن تصحب قداستك الى بيظنطيوم فى بارجة حربية جئنا بها خاصة اكراما لمقام قداستك المبجل
فانتفض البابا دهشة مقرونة بذعر وقال : أنا أصحبكم الى بيظنطيوم ؟ لماذا ؟
ـ لان جلالتى الامبراطورين يريدان ان يبحثا مع قداستك فى بعض مسائل جوهرية
فاشتد غيظ البابا وقال : بابا رومية لا يخرج منها بحال من الاحوال . يمكنكم أن تبسطوا المسائل لى وأنا أحكم فيها . ويمكن جلالته أن يرسل مع أى شخص المسائل التى يريدها وأنا أنظر فيها هنا . وأبدى له وجهة نظرى
ـ المسائل التى يريدان مباحثتك فيها خطيرة الشأن وتقتضى مشافهة قداستكم مباشرة
فهز البابا رأسه هزة رحوية وأكمد وجهه غيظا وقال : أظن جلالة الامبراطور يريد أن يبحث فى شرعية زواجه . فلكم أن تعودوا اليه وتبلغوه أن زواجه غير شرعى . قانون الكنيسة صريح . وهو أنه لا يجوز زواج الزانية لا للملوك ولا للعوام
فتململ الاسقف ثم قال : ليس لى أن أناقش قداستكم فى هذا الموضوع . يمكنكم أن تقنعوا جلالتى الامبراطورين بهذا الشأن شفهيا . وأما نحن فلسنا مفوضين أن ننقل رأى الحبر الاعظم فيه ، ونحن لا ندرى ان كان هذا هو غرض جلالتيهما من استدعائك
ـ أنتم أحرار . عودوا وأبلغوا جلالته كيف انتهت مهمتكم . .
ـ مهمتنا لم تنته يا سيدنا
ـ عجبا ! كيف تنتهى مهمتكم ؟
ـ بأن تتفضل بالذهاب معنا ونحن فى خدمتك . .
فحملق البابا فيه وقال : عجيب أن تصر على هذا الطلب ، وقد قلت لك ان بابا رومية لا يفارق رومية

ـ يفارقها يا سيدنا ..
ـ واذا كنت لا أمضى معكم فماذا يحدث ؟!..
ـ مولاى . لا أود أن أقول ماذا يمكن أن يحدث ..
ـ ألا تعلم أن رومية الآن فى مملكة الملك الجوتى تيودونس . وأن أخذى بالقوة من هنا لا يمكن الا بانتصار جلالة الامبراطور جستنيان على جلالة الملك تيودوس فى حرب شعواء لا أريدها البتة
ـ اذا كنت لا تريدها فيحسن أن تصحبنا
ـ تعنى أن جستنيان يحارب ..
ـ لا لزوم للحرب . يقضى الامر بلا حرب
فاستغرب البابا هذا القول وقال : كيف ينقضى وأنا لا أريد أن أرحل من هنا ؟
فاقترب الاسقف قليلا من البابا ، وقال بمثل الهمس : يسوءنى أن أقول لقداستكم ان اصراركم على الامتناع عن السفر الى بيظنطيوم يفضى الى مصير البابوية كما كان مصير الامبراطورية الضخمة
فوجف فؤاد البابا وقال : تعنى أنها انشطرت شطرين
ـ نعم وكذا يكون مصير البابوية . ينشطر الكرسى البابوى الى شطرين : الشطر الاكبر والاعظم يكون فى بيظنطيوم أو فى أورشليم . والشطر الاصغر يبقى فى رومية تحت رحمة الجوث وهم غير مسيحيين . وأخيرا يتلاشى ..
فاسودت الدنيا فى عينى البابا سيلفريوس وارتعدت فرائصه . وبقى بضع دقائق مطرقا لا يتكلم . ثم رفع نظره وظهر وجهه مكمدا كأنه خلاسى . وقال بصوت خافت : أصدقنى الخبر اليقين يا عزيزى الاسقف . هل هناك حديث بموضوع شطر الكنيسة . وهل المسيحيون فى الشرق على استعداد لقبول هذا الانشقاق الفظيع الذى يكون كارثة على النصرانية
ـ لا بد انك تعلم يا سيدى أن المسيحيين فى الشرق أصبحوا فرقا مختلفى العقائد
ـ نعم أعلم أن بعضهم يعتقدون بطبيعة المسيح الواحدة . وقسما منهم يعتقدون بطبيعتيه اللاهوتية والناسوتية . ونحن نبذل الجهد فى أن نرد أولئك الضالين الى حظيرة الطبيعتين
ـ أجل يا مولاى . وتتوسلون الى هذه الغاية بوسيلة « الحرم » أى حرمان الضالين من التمتع بنعم الكنيسة ، وجعل كل ما يفعلونه دينيا غير قانونى ، وفيما تنشرون أحكامكم بالحرم على الضالين يسمح لهم الامبراطوران بممارسة طقوسهم الدينية حسب عقائدهم ، فهم راضون عن الامبراطورية الشرقية
فهز الحبر الاعظم رأسه هزة رحوية وقال :
ـ وهل يوافق أساقفة الشرق ومطارنته على هذا ؟
ـ يسرون به جدا ، اذ يصبح الكرسى الرسولى فى وسطهم يلوذون به ويلجأون اليه ،

ولا سيما اذا كانت الامبراطورية تؤيده . وحينئذ يصبح كرسى رومية صفرا

فوقف البابا منفعلا شديد الانفعال ، وجعل يمشى فى البهو من غير انتباه لنفسه ، ثم قال :

ــ هل تظن أن ذهابى الى بيظنطيوم يتدارك هذه الكارثة ؟

ــ لا يصعب على قداستك أن تتفاهم مع الامبراطورين

فنفخ البابا وتأفف وقال محتدا ساخطا : ما فتئت تقول « الامبراطورين » وأنا لا أعرف الا امبراطورا واحدا . فأرجو ان تجعل الاثنين فى واحد

ــ لا يا مولاى . اذا كنت لا تعترف بالامبراطورة فلا تذهب الى بيظنطيوم . ودع المقادير تجرى فى أعنتها . الامبراطورة قبل الامبراطور

ــ ويحك . أهكذا أصبحت الزانية سلطانة

ــ لا جدوى من التفكير فى الامر المحتوم يا سيدنا . لا تظن أن ملك الجوث يحارب لاجل الكرسى البابوى . فاقبل نصحى واستعد للسفر غدا . فالبارجة مستوفية جميع الوسائل لراحتك

***

واتفق بعد بضعة أيام أن القائد بليسيريوس الذى كان يحارب الجوثيين من قبل الامبراطورية الشرقية توفق الى احتلال رومه فى ذلك الحين ، أى حين كان ذلك الوفد البيظنطى لا يزال فى رومه ينتظر ذهاب البابا معه . والبابا لا يزال يتردد ويمانع ويعارض

ولما دخل بليسيريوس الى رومه لم يسع البابا سيلفريوس الا أن يقبله ويستقبله . ولكنه صار خائفا أن يضغط عليه ويرغمه على السفر الى بيظنطيوم

على ان القائد لم يلزمه بالسفر تلبية لرغبة الوفد . ولكنه لما علم ان بينه وبين ملك الجوث مكاتبات سرية لمؤامرة ضده خلعه خلعا . فاضطر البابا حينئذ أن يسافر الى بيظنطيوم لكى يتظلم للامبراطور جستنيان الذى يحارب القائد باسمه وله . وكان خلعه فى سنة ٥٣٧ اذ لم يكد يتم السنة الاولى فى كرسيه البابوى

- ١٨ -

دخل تيوفوروس كاتب السر الى الامبراطورة صباحا ، وهو الوحيد الذى يدخل بلا استئذان ، وقال لها : ان المطران اكليمندوس واقف يلتمس الامتثال الآن بالحاح

ــ دعه يدخل

وكانت تيودوره لا تزال بجلباب الصباح ولم تتبرج ولا تطرت بعد . ودخل المطران اكليمندوس ، وتقدم وركع أمامها ، وتناول يدها وقبلها مرارا ، فأنهضته وأجلسته الى جنبها وقالت : ما رأيك بتوارد الخواطر ؟ لقد أصبحت اليوم وفى عزمى أن استدعيك لمقابلتى ، فاذا بك تأتى قبل أن أوفد اليك رسولى . .

ـ هذا غريب جدا يا مولاتي . لا بد من هاتف خفي بيننا يهتف في أذنينا أو في قلبينا

فتبسمت تيودوره ملء ثغرها وقالت : وجدت لك وظيفة عظيمة الشأن . الكرسي الرسولي في رومه . .

فاجفل وقال : هذا أمر يشبه المستحيل ، لانه يقلب الدنيا رأسا على عقب

ـ وهو ما أريد أن أفعله . أريد أن أقلب الدنيا رأسا على عقب

ـ وأيم الحق تستطيعين . فان الدنيا كلها أصبحت لديك قلوبا متعبدة لك . فاذا منحتيني كرسي البابا هبط ذلك الكرسي وصارت أعاليه أسافله

ـ يستطيع اكليمندوس الداهية أن يرفعه قويا الى قمة رومه

ـ دون هذا الأمر موانع عديدة : أولا أن جميع الاحبار راضون عن البابا سيلفريوس ، وثانيا انى محروم من الكنيسة منذ كان البابا اغابيوس رأسها كما تعلمين . .

فقاطعته قائلة : لهذا السبب أريد أن أجعلك حبرا أعظم لكيلا تبقى شرعية زواجي مطعونا فيها

ـ ولكن من يستطيع أن يخالف نظام الكنيسة وقانونها ؟

ـ من نظم ؟ ومن قنن ؟

ـ مجمع البطاركة والمطارنة الخلكيدوني

ـ في وسعنا أن نجعل مطارنة كثيرين من حزبنا يعقدون مجمعا بيظنطيا

ـ هذه مهمة شاقة جدا يا سيدتي ، تشطر الكنيسة شطرين

ـ لا نضطر الى هذه المهمة اذا كنت أنت حبرا أعظم

ـ والحبر (البابا) سيلفريوس ؟ ماذا يكون من أمره ؟

ـ سيكون هنا قريبا للبحث معه . فان لم يوافق على تنقيح القانون أصبحت أنت خلفه

فوجف اكليمندوس وقال : هذا مستحيل يا سيدتي . لا أقدر أن أفارق بيظنطيوم يوما واحدا ، لاني لا أعيش ساعة اذا لم أمتع نظري بهذا الوجه الذي يطفح بشرا

فضحكت تيودوره وقالت : ألا تتوب عن هذا الغزل ، وأنت مطران تعبد الله وتزهد باللذات الدنيوية

فقال مستعطفا مسترحما : أما فهمت بعد أني لديك لا أكون المطران اكليمندوس ، بل يعود الى اسمي العلماني اريوبندوس Aereobindus كما كنت قبل أن أنتظم في سلك الكهنوت . وأريد أن أعود الى عهد حبي وغرامي القديم

فتنبهت تيودوره وقالت مراوغة : من كان ذلك الحبيب القاسي ؟

ـ كان اياك يا قاتلة قلب بلا ذنب

فاجفلت تيودوره وقالت : أنا ؟ لا علم لي بذلك . .

ـ طبعا نسيت لان الزمان نساك وغير كل شيء في وقتك . فلم تعودي تعرفينني . أما

أما تعرفتك حالما ردك الله الى فى انطاكية . يوم عرفتك فى أول الصبا كنت أحد عشاقك الذين كثروا حين احتفظك هيكيبولس حاكم باتابولوس وأخذك الى ولايته فى شمال افريقيا . فما ذاق قلبى لذة هواك حتى استلبك ذاك الوغد من فؤادى . انقطع خيط رجائى . فلم أر بدا من معالجة داء شوقى القاتل الا بأن أتوب عن غرامى . وأى مكان أفضل للتوبة من الدير ؟ وقدر الله لى أن أنجح فى الرهبنة نجاحا سريعا حتى صرت أسقفا . ثم عاد الله فابتلانى بحبك يوم دفعك بطرك انطاكية الى يدى لكى أهذب نفسك وأطهر قلبك وأردك الى الكنيسة . وكنت حينئذ موغلا فى تقوى الله متورعا عن الهوى متعففا عن شهوات الجسد . فبينما كنت أقربك الى التقوى كنت أرانى متباعدا عن الزهد. وما صفا جوهرك وطهر عنصرك من أدناس الهوى حتى عاد فؤادى يتمرغ فى بركة الغرام . وفيما كان القلب يهم أن يحتويك كان الضمير يردعه . ولكن جذوة الحب طفقت تضطرم ، فبينما كان لهيبها يستعر فقدتك . افتقدتك فى انطاكية فما وجدتك . آه ندمت على وعظى اياك . أسفت لانى غيرت قلبك . لان ذلك التغيير الذى فعلته مواعظى فيك أبعدك عنى على الرغم من أنه قربك الى قلبى . ولكنى لما يئست من لقائى بك عدت ثانية الى توبتى ، وحمدت الله أنه أنقذنى من غرامى الثانى . وسرعان ما تبت عن هواك حتى وجدتك بين يدى هنا فى محكمة الدولة العليا . فعاد غرامى يتقد ثالثة بعد أن كاد يخبو. وهأنذا الآن أتقلب فى لظى من الشوق ، فابرده بنظرات من هذا الجمال الملائكى . فكيف أطيق الحياة فى رومه حيث أتين النور فلا أرى وجهك فيه ؟

وكانت تيودوره مصغية باسمة كأنها تستلذ حديث غرام لم تسمعه من رجل من قبل. فقالت : لا بأس . تشفى من هذا الغرام فى ذلك الكرسى الأعلى الذى تشرف فيه على الملائكة الاطهار

فنزق قائلا : بربك . لا أريد أن أشفى من غرامى . يلذ لى أن أشقى به . هل يضيرك هذا الغرام المشقى ؟

— بل يضيرك الغرام العقيم .

— انه أسر لنفسى من الشوق المحرق والحب المتهتك . فما أحصل عليه من أبتساماتك يكون غنيمة تتغذى نفسى الجائعة الى هواك . بربك لا تبعدينى عنك. انى الآن اريوبندوس العلمانى ، فلماذا لا تجعلين لى وظيفة فى القصر فأخدمك خدمات قد لا يستطيعها وزير من وزرائك

فمدت اليه يدها الرخصة النضيرة فتناولها وجعل يقبلها مثنى وثلاث ورباع ويمرغ خديه عليها الى أن جذبتها من بين يديه وقالت : أهذا الذى جاء بك الى فى هذا الصباح ؟

— أجل هذا ما يجىء بى اليك كل دقيقة لو كان المجىء يتاح لى . وانما لست كل صباح أوفق الى سبب لكى آتى وأضم هذه اليد الكريمة الى صدرى . .

— ماذا كان السبب اليوم ؟

ـ فازدرد اكليمندوس لعابه كأنه يتردد فى أن يقول أو لا يقول . ثم تجرأ وقال :

ـ أتأسف يا مولاتى أنى مضطر بحكم اخلاصى فى خدمتك أن أقول أمرا قد لا يسرك

فما هزها هذا الانذار البتة . وقالت : لا أتوقع أن أسمع دائما كل ما يسرنى من الناس

ـ هل بلغ الى علمك أن لجلالة الامبراطور خليلة الآن هى فى القصر الصغير بصفة كونها وصيفة فيه ؟

فتبسمت ملء ثغرها وقالت : كيف عرفت هذا ؟

ـ أتسأليننى أنا كيف عرفت هذا ؟ عرفته كما عرفت مكيدة الاكليل الذهبى المرصع قبل حفلة « التقديم »

ـ تعنى أن لك جواسيس فى القصر الصغير أيضا ، فتعرف كل ما يحدث فيه ؟

ـ أعرف كل ما يحدث فى بيظنطيوم وغيرها . ويمكن جلالتك أن تعتمدى على فى تسقط الاخبار التى تهمك

ـ ثم ماذا عرفت من شؤون هذه الخليلة ؟

ـ أما يكفى أن تعرفى أن الامبراطور ليس مخلصا كل الاخلاص ؟

ـ احتظاء الامبراطور خليلة لا يثلم اخلاصه يا عزيزى . هذه نزوة لا تلبث أن تنطفىء . وأما الحب الروحانى فهو باق لى . .

ـ عجبا . عجبا . لا أفهم كيف يكون ذلك ؟

ـ لا تعجب . انكم أيها الرجال تحت سلطان شهواتكم وتعجزون عن أن تعصوها . .

ـ أو ليس للشهوة سلطان على النساء

فقالت ضاحكة : تخشى أن تقول ان ماضى حياتى يؤيد ان للشهوة سلطانا على النساء

ـ معاذ الله أن ألمع الى ماضى حياتك . فقد محى من سفر الديتونة . وانما أشير الى الخمسمائة زانية اللواتى جمعتهن من أسواق بيظنطيوم وجعلتهن ضيفاتك فى ملجأ خاص عبر البوسفور . أما كان للشهوات سلطان عليهن ؟

فقالت متحمسة : كلا البتة . وانما كان سلطان شهوات الرجال يجرد جيوش الغواية على عفافهن . وهن غير محصنات لا بازواج لهن ولا بكفافهن من العيش

فقال : لا أعتقد ان الرجل يتهجم على امرأة اذا لم يأنس منها ميلا . .

ـ أجل بل هو المتهجم على كل حال . ولا يأنس ميلا الا من المرأة التى دفعها اليه أحد الاسباب التى ذكرتها . فلا تدافع يا عزيزى عن جنسكم . وما الامبراطور الا واحد منكم . فهو الآن يشبع شهوة الجسد الى حين ، ومتى ارتوت هذه الشهوة ، عادت شهوة الروح . .

ـ اذا كان هذا التعليل يريح نفسك يا سيدتى فلتهنك هذه الفلسفة السعيدة . وانما فى حب الامبراطور الشهوانى شىء آخر لا تستطيعين الرضى به

ـ تعنى أن تلك الخليلة تبتغى أن تجلس على عرش الامبراطورية ؟

ـ انك يا سيدتي تسمعين خطرات الافكار وتقرئين خلجات القلوب وتحسين موجات الآمال . فلا بدع ان تفهمي ما الذي ترمي الخليلة اليه

ـ هل رأيتها يا محترم ؟

ـ رأيتها . وعذرت جلالته في هواها . .

فقهقهت تيودوره وقالت : هل حادثتها ؟ وهل عرفت من هي ؟

ـ أنى لي هذا وهي في حوزة جلالته

ـ وانت تخشى أنها تصل الى العرش ؟

ـ لا . وانما هي تسعى اليه ، وقد تحدث شغبا في القصر بسعيها هذا

فضحكت تيودوره ملء فمها مقهقهة كعصفور مزقزق وقالت : اتبعني . .

ونهضت ودخلت في باب يتصل بمخدعها ، واكليمندوس يتبعها . ثم وقفت لدى ستار يحجب المخدع السري الآخر ، وأزاحت الستارة قليلا ، وهمست في أذنه : « أنظر » . وأشارت الى السرير . فنظر اكليمندوس . ثم ارتد ، وردت تيودوره الستارة . ورجعا الى الغرفة حيث كانا أولا . وقالت : ماذا رأيت ؟

ـ رأيت امرأة مضطجعة في السرير ووجها أبيض كوجه ميته . .

ـ هذه هي الخليلة ، ولكنها غير ميتة ، بل هي منهوكة من طول ليلها . ناقة . فهل تظن أن هذا الطراز من النساء يستهوى روح جستنيان ويشغله عن عرشه ؟ لا تخف على العرش أن تهزه هذه الحشرة . وأظن شهوته قد انطفأت بهذا التمثال البارد فنبذها

وكان المطران يسمع مبهوتا ثم قال : ما الذي جاء بها الى هنا ؟

ـ السكر والعربدة دفعاها من القصر الصغير ، فتلقيتها هنا تفاديا للثرثرة . هل عرفت اسمها ؟

ـ قيل ان اسمها صوفيا

ـ بل أسمها النبيلة ادينا صوفيا . هل نسيت حين اختلست الامبراطورة يوفيميا اكليل من عند الصائغ فيلبس لكي تضعه على رأسها وتحرج مركزي ؟ . . ولولا نجدتك لخاب قصدنا

فضحك المطران وقال : نجدتي ؟ ماذا كان شأني بها ؟

ـ يا الله . أتتجاهل . لقد عرفت دسيسة الامبراطورة وعرفت حيلتك في اكتشافها وسعيك في عمل الاكليل فلا أنسى خدمتك

ـ يا الله ! هذه التعسة كانت مزاحمتك في تلك الحفلة عادت مزاحمتك في هذا الحب . فكأنها تثأر منك

ـ لا . لم تقدم هي من تلقاء نفسها ، وانما رجلان وامرأة قوادون جاءوا بها الى جستنيان متاجرين بعرضها ولكي يلعبوا دورا فكاهيا بواسطتها . بعد ساعة من الزمان سيتولاهم الجلاد الدروبيكوس . وأما هذه المرأة المسكينة فيمكنك أن تتخذها لك أمة اذا أشفقت

أن أرسلها عبر البوسفور أو الى قعر البوسفور
ـ مولاتي اني أتشفع بهم جميعا . انهم جهلة لا يعلمون ماذا يفعلون ؟
ـ قد أعفو عن المرائين ، ولكن عن الرجلين لا أعفو ..

- ١٩ -

كان يوم صاخب بالمهام الجسام حين ورد الخبر الى الامبراطور ان القائد بلسيريوس احتل بجيشه رومه ، وأنه سيستمر في الفتح حتى يطرد الجوث وملكهم من الامبراطورية الغربية . وفي ذلك الحين دخل الى تيودوره كاتب أسرارها وأبلغها أن الوفد الذي عاد من رومه ومعه البابا سيلفريوس ينتظر قبول الامتثال

فقالت له : قل للاسقف فيجليوس أن يدخل مع البابا بالخضوع الرسمي المعروف

بعد هنيهة دخل فيجيليوس وهو يقود البابا بيده ، وكانت الامبراطورة جالسة على عرشها الأنيق الفاخر . ثم جثا أمام العرش وقبل الارض . ووقف ينتظر أمرا بالجلوس. والتفت الى البابا فاذا به يخرج من البهو ، فنظر الى الامبراطورة فاذا هي تقول له :
ـ اتبعه واقنعه ..

تبع فيجيليوس البابا . واستوقفه في الرحبة الخارجية وأمسك بساعده وقال : لماذا خرجت هكذا يا سيدي ؟

وكان البابا ينتفض من شدة الغيظ فقال : ما جئت لكي أقابل هذه الزانية . بل لكي أقابل الامبراطور ..

تهمس فيجيليوس : صه . صه . لا تدع أحدا يسمع ما تقول . لا يستطيع أحد أن يقابل جلالة الامبراطور من غير أن يقابل جلالة الامبراطورة أولا ..
ـ ويحك ! أالى هذا الدرك بلغ ذل الكهنوت في الامبراطورية الشرقية ؟
ـ بل هذا شرف الكهنوت يا سيدي . تسجد للقوة لانك تعتمد على القوة المادية في سلطتك الروحية . والا فيسقط كرسيك ويتحطم
ـ لقد أصبحت بلا كرسي من بعد ان خلعني بليسيريوس قائدكم . فلماذا أسجد ؟
ـ تسجد لكي تسترد كرسيك . فانصح لك يا مولاي أن تدخل وتسجد مرة واحدة فقط ، وبعدها يكفي الانحناء .

فقال البابا متذمرا : خذني الى مجلس الامبراطور ..
ـ لا طريق الى مجلسه غير هذا الباب. لا بد من رضاها أولا ..

فضجر سيلفريوس جدا وقال : لماذا لا يحضر الامبراطور معها فأقابلهما معا ؟
ـ فكرة حسنة . سأقترح هذا الاقتراح . امهلني .

فاذا بثيوفوروس خارج من البهو ومقبل عليهما . فقال : ان جلالة الامبراطور منتظر قداسة البابا

فأمسك فجيليوس بيد البابا سيلفريوس ودخلا . وتقدم البابا اذ رأى جلالة الامبراطور واقفا أمام عرشه الى جنب عرش الامبراطورة فانحنى لهما . فقالت الامبراطورة بصوت حازم : أما قيل لك كيف يدخلون فى البلاط الامبراطورى وكيف يمثلون ؟

فهبطت حرارة العنجهية ، وانحنى سيلفريوس انحناءة كاد يصل بها رأسه الى مستوى ركبتيه . وعند ذلك مد الامبراطور اليه يده ، فتقدم اليه سيلفريوس وصافحه ، وتقدم الى الامبراطورة وانحنى انحناءة منخفضة جدا . فبسطت تيودوره كفها الناعمة باسمة . فتناولها وقبلها قبلة ارتياح . وأشار الامبراطور له أن يجلس

ثم تكلم جستنيان : أتأسف يا سيادة البابا سيلفريوس أن قائد جيشنا بليسريوس اضطر أن يقيلك من كرسى البابوية لسبب منك كما فهمت من تقريره الاخير . .

ــ لقد فسر القائد يا صاحب الجلالة مكاتبة دارت بينى وبين ملك القوط بانها دسيسة ضده . والحقيقة أنى كتبت لذلك الملك أوصيه بأن يعامل المسيحيين الذين تحت حكمه بالحسنى

فقالت الامبراطورة : أجل فى الامر سوء تفاهم فلا يتعذر أيضاحه . هذه مسألة بسيطة تدبرها بسهولة . أو لا تعتقد يا قداسة البابا أن من الحكمة أن نجمع جميع نصارى الشرق والغرب فى حظيرة كنيسة واحدة ؟

ــ هذه أمنيتى العظمى

ــ اذن لماذا حرمت كنيسة رومه بعض الطوائف المسيحية فى الشرق . أليس الافضل أن يكون جميع النصارى على اختلاف عقائدهم فى حظيرة واحدة ، من أن يطرد بعضهم منها طردا لكى ينشئوا لانفسهم كنيسة مستقلة

ــ يجوز التساهل بكل شىء يا مولاتى الا فى العقائد الدينية

ــ من وضع هذه العقائد ؟

ــ المجمع الخلكيدونى المؤلف من كبار اللاهوتيين من المطارنة والاساقفة الذين استخلصوا هذه العقائد من الاناجيل ورسائل الرسل

ــ والذين خالفوا عقائد المجمع الخلكيدونى هم لاهوتيون أيضا ولهم آراء سديدة . فمخالفتهم لا تعتبر زندقة . .

وكان الامبراطور ساكتا يسمع الى أن قال : لذلك نقول يجب أن يعتبر الجميع مسيحيين ضمن دائرة الكنيسة . ولذلك أيضا يجب أن يلغى من كتاب قرارات المجمع الفصول الثلاثة المسماة « فصول الجدل » التى وردت فيها نقط الخلاف بين الطوائف المسيحية ولا سيما المختصة بالاحوال الشخصية

وهنا انتفض البابا سيلفريوس وقال والغضب باد على محياه : أظن أن جلالتكم استدعيتمونى لهذا الغرض

فقالت الامبراطورة : نعم (أولا) لالغاء هذه الفصول الثلاثة من كتاب المجمع

و (ثانيا) لالغاء الحروم — جمع حرم — التى نشرها سلفك البابا اغابيوس . و (ثالثا) تقرير أن عقد زواجنا شرعى . هذه مطالبنا بصراحة يا قداسة البابا

فاكمد وجه سيلفريوس غيظا . وقال : هذه المطالب من اختصاص المجمع . وسلطة المجمع فوق سلطتى . فاذا أصدرت قرارا جحده المجمع وخلعنى ، وحينئذ لا يذعن لى بطرك أو مطران أو أسقف أو قسيس بتاتا

فقال جستينيان : نمنع المجمع أن ينعقد . .

فتململ سيلفريوس وقال : تقدرون على أى شىء تشاءون ، ولكن هذا افتئات على الكنيسة وتدنيس لها لا أريده ولا أتجرأ عليه . .

فقالت تيودوره : هذا قرار الامبراطورية المحتوم . فاختر بين سلطة المجمع أو سلطة الامبراطورية . لديك شهر كامل تنظر فيه فى هذا الامر . .

ثم نادت كاتب سرها تيوفوروس وقالت له : أرشد قداسة البابا الى المنزل الخاص فى البلاط حيث يكون قداسته ضيفا مكرما

***

بعد خروج البابا سيلفريوس تفاوض الامبراطوران فقالت تيودوره : يظهر أن هذا البابا عنيد مغتر بسلطته الروحية . وقد فهمت من تقرير فجيليوس قبل أن يأتى به الى البلاط أنه كان مصرا على رفض المجىء . ولو لم يخلعه القائد بليسيريوس لما جاء الى هنا . فهو يريد أن تلغى حكم القائد وترده الى كرسيه . .

— أتريدين أن نهمله أو أن نحتفظ به هنا . .

— بل تؤذن له بالعودة الى رومه مزودا بتوصية بسيطة . ومتى وصل اليها وجد كرسيه قد ملأه خلفه فيجيليوس . لانى باحثته فى شروطنا فقبلها ، وتعهد أن يفعل ما لا يجرأ عليه سيلفريوس

***

لما عاد سيلفريوس الى رومه ، وجد فيجيلوس مستتبا فى الكرسى البابوى ولم يستطع أن يزحزحه منه . بل ان فيجيليوس نفاه الى بنداتاريا حيث قضى بقية حياته ذليلا حزينا

***

أما فيجيليوس فلم يستطع أن يبر بوعده للامبراطورين ، اذ وجد مقاومة من المطارنة وسائر الاكليروس . فاستدعته تيودوره . فأصدر منشورا حسب رغبتها فشجبه المجمع . فبقى فى بيظنطيوم شبه أسير (١)

(١) ان تحكم تيودوره بهذين البابوين حادث تاريخى . اقرأ عنه فى دائرة المعارف البريطانية تحت اسميهما واسم تيودوره

- ٢٠ -

ووافى المطران اكليمندوس أو اريوبندوس ملبيا دعوة تيودوره . ودخل الى حجرتها الخاصة فوجدها متكئة على مقعدها المستطيل غارقة فى مخمل من الدمقس وهى فى ثوب الصباح الارجوانى . وسجد أمامها ، وتقدم وتناول يدها التى بسطتها اليه وقبلها مرارا. فقالت باسمة : أما قلت لك أن تدخل الى حجرتى من غير سجود . أما استثنيتك من الممثلين ؟ . .

فقال : لست أسجد بل أعبد . وما السجود الا رمز العبادة . .

فقالت ووجها النحيف يطفح بشرا وبهاء : ماذا أبقى المطران للرب من رموز العبادة

— اكليمندوس المطران الاكليريكى يسجد فى الكنيسة السجود الواجب لله . وسجود أريوبندوس العلمانى فى هذا الهيكل أمام معبودته لا ينقص شيئا من عبادته لله . فما لله لله. وما لتيودوره لتيودوره . هناك كنيسة لله وهنا كنيسة الحب المقدس

وأشارت الى جانب المقعد ليجلس . وقالت :

— قلت لى مرارا ان لك فرقة جواسيس . فماذا يقول لك جواسيسك عن سعايات فيجيليوس هنا ؟

— مسكين فيجيليوس . لا يخشى شره . ولا أمنية له الا اطلاق سراحه

— كيف أطلق سراحه وقد علمت أنه يجتمع بالأمير جرمانوس ابن اخى جستنيان. أفلا يمكن أن تكون بينهما مؤامرات سرية لخلع الامبراطور واستواء جرمانوس على العرش

— وكذلك يفعل هونوريوس Honorius ابن اخى الامبراطور اناستاسيوس السابق

— لماذا لم تقل لى ذلك اذن ؟

— لا تقطف الثمرة قبل أن تنضج يا سيدتى . لا أزال أبحث عمن يشترك مع هذا وذاك فى مؤامرة . وقد اكتشفت الى الآن من شركاء جرمانوس الوزير بريسكوس Briskus ويوحنا والى كبادوكيه

— لا بد أن يكون ثمة آخرون أيضا . وقد نمى الى أن بعض الاساقفة والقساوسة أصحابك هم من جملة المتآمرين . .

— نعم لقد كنت مزمعا أن أقدم لك تقريرا ضافيا متى تمت استعلاماتى

فتغيظت تيودوره وقالت : لماذا يتآمر هؤلاء الكهنة ؟ هل ينقصهم شىء ؟

— هل تتوقعين منى اخلاصا ؟

— منك وحدك أتوقعه

— اذن . خذى منى الخبر اليقين . اعلمى أنهم تنقصهم حرية الكهنوت

— هم أحرار

— أأحرار هم وأنت تستعبدين رؤساء الكنيسة الواحد بعد الآخر . أولا سيلفريوس.

ثم فيجيليوس . فهل تنتظرين أن يكون الكهنة والاساقفة والمطارنة مخلصين ؟ واذا كان هؤلاء يأتون المؤتمرين فالشعب كله يأتيهم ..

فكظمت تيودوره اضطرابها وهى أقدر انسان على كتم الاضطراب الداخلى وقالت باسمة : أتريد أن تقول ان الشعب أيضا شريك فى المؤامرات

ـ اتماض الشعب يتمخض بالمؤامرات ، لان الشعب كله يقاسى ، وهو ينتظر من يقول له : « انك مظلوم أيها الشعب » ، والمتآمرون يوحون اليه هذا القول المثير

فلم تتمالك تيودوره غيظها وقالت متجهمة : كأنك تقول لى : ان الشعب على أهبة أن يثور

ـ لا أخفى عنك يا مولاتى . انى أخشى ثورة الشعب .. الشعب يتذمر من اضطهادك رؤساء دينه . يتذمر من ظلم حاكمه ..

ـ بماذا ظلمه حاكمه ؟

ـ بتقيل كاهله بالضرائب . وبفقد العدل فى قضائه

ـ أمن القضاء أيضا يشكو الشعب ؟

ـ نعم . كم من الرجال عوقبوا بقسوة ومن غير محاكمة . وكم منهم قضى عليهم لمجرد كرهك لهم بغير سبب قانونى ؟

فزفرت قائلة : كفى كفى يا مطران ..

ـ أما أذنت لى بأن أصدقك الخبر اليقين ؟ الخبر اليقين أقول . انى أحاذر أن أخدعك . الشعب الذى يتألم لا بد أن يقول : « آخ » ، والشعب الذى يقاسى هذه المظالم يكظم الى أن يهمس فى أذنه هامس « قم » ليقوم . فاذا كان صدقى يسوءك يا مولاتى فهو خير من أن يؤلمك سكوتى أو كتمانى أو كذبى ..

ـ تريد أن تقول أننا على أبواب ثورة ..

ـ اذا لم تتدارك الثورة فنحن على أبوابها

ـ وما الذى تراه الآن ؟

ـ أن تزيلى جميع أسباب العداء البادى من رجال الكهنوت ، ومن الشعب ، اذا كنت لا تشائين أن تقربينى اليك ..

ـ كلما رغبت أن أقربك الى أرى ظروفى تقضى بأن أقصيك عنى . فاشكر لك ياعزيزى المطران أخبارك الصادقة ، ونصائحك المخلصة ..

***

وما خرج المطران حتى دخل الامبراطور وجلس الى جنب تيودوره زوجته والهم باد على وجهه خلافا لتيودوره التى كانت تبتسم وتخفى ما فى نفسها من قلق . وقال :

ـ ماذا علمت من أخبار اكليمندوس ؟

ـ علمت مثل ما علمت من عيسى . جرمانوس ابن أخيك وهونوريوس ابن أخى اناستاسيوس الامبراطور السابق يدبر كل منهما مؤامرة لاغتصاب العرش لنفسه . وكل منهما يجمع لنفسه حزبا من الاكليروس وذوى النفوذ من الشعب . وأنجحهما هونوريوس ولعل بطرس وزير المال ممالىء له . هل علمت أنت شيئا جديدا ؟

فتنهد جستنيان غير كاظم غمه وقال : أرى نارا تحت الرماد ، بل أشعر بهزات عنيفة تهز العرش من جراء بركان يجيش لكى يهيج ويقذف حمم الثورة . لقد جرنا على الشعب ولم نبال بامتعاضه ، فوقعنا تحت خطر فوضاه

ـ لا فائدة الآن من معاتبة أنفسنا على الماضى . يجب أن نستدعى معظم الجيوش الى العاصمة لتهديد الثوار قبل أن يتورطوا بثورتهم .

ـ وهل ينتظرنا الثوار حتى نلم شعث الجيوش . وهل نحن نثق باخلاص الجيوش جميعا . فهمت أن يوحنا قائد كبادوكيا شرع يجاهر بتمرده

ـ يجب أن نرسل فى الحال رسلا بأوامر رسمية الى قائد كل حامية وجيش أن يأتى بقسم كبير من جيشه ، ويترك القسم الباقى للمحافظة على الامن فى ناحيته . لو كان بليساريوس قريبا منا لكنا نعتمد عليه كثيرا . .

ـ أصبحت أخشى من بليساريوس أكثر من غيره لان انتصاراته جعلته شامخا . ويظهر أن ملك الجوث يطمعه بعرش رومه تحت سيادته

ـ أما أنا فلى ثقة ببليساريوس أكثر من سائر القواد . وعلى الرغم من بعد المسافة بيننا وبينه يجب أن نوفد اليه أمرا نستقدمه به حالا سواء وثقنا أو لم نثق به . ونترك التوفيق للقدر . ونستطيع أن نعلل الجمهور بالآمال ما أمكننا . ويمكننا أن نستقدم قائد ادريانوبولس وقائد تراقيا بجيشيهما فهما أقرب الينا

ـ والحرس المحلى يكاد يفلت من يدنا لان بولس قائده قليل الاخلاص . أصبحت أوجس منه شرا

ـ أردت منذ عام أن أرسله الى بليساريوس معوانا له ، وأن أنصب مساعده تيموتاووس مكانه لانه لى ثقة بتيموتاووس أكثر منه ، فأبيت على ذلك ، أما الآن فصار هذا الابدال متعذرا لان بولس يفهم الغرض منه فيعجل بالتمرد

- ٢١ -

بعد مدة قصيرة حم القضاء . وقربت الساعة . وادلهم الجو . واضطرب الهواء بدوى الضوضاء . وأبرقت الاسنة وارعدت الهتافات ، واختلط القال بالقيل فى الاندية والمسارح والشوارع والازقة وفى الطرق الخارجة من بيظنطيوم والداخلة اليها . وماجت السابلة فيها دخولا وخروجا . وسمعت قرقعة الحوافر وصليل السيوف وتصفيق الرماح

القيامة تقوم . ذلك يوم الحشر الدنيوى . لم يفد أحد من القواد بجنده . لم يرجع

أحد من الرسل . أصبحت الانباء متضاربة والبلاغات متناقضة . صارت أقوال العسس للتضليل أكثر منها للهداية

جل ما كان يرد من بلاغات المخبرين على الامبراطورين أن مسرح الهيبودروم العظيم يكيل الجماهير كيلا . يملأه فوج ويفرغ منه فوج والخطباء يتعاقبون على المنصة . والشعب المتهيج يصفق تارة ويهتف أخرى للزعيم ارسابيوس ، ثم للعاهل الموعود هونوريوس ، وأحيانا للامير جرمانوس

أوعز الامبراطوران الى قائد الحرس الامبراطورى بولس أن يكون على قدم الهجوم اذا دعى . ولكن القائد بولس اختفى ، والحرس مشتت فرقا هنا وهناك انذارا بالتمرد . ما خفف كابوس اليأس قليلا عن صدر جستنيان الا دخول تيموتاووس نائب القائد بولس الى مجلس الامبراطورين ، ليقدم للعاهلين طاعته مع كوكبة من الحرس ، نصفها من الفرسان. والقسم الاكبر من الحرس اختفى مع بولس. فانشرح صدر تيودوره قليلا

قد يستطيع تيموتاووس تسويف الكارثة ما أمكن ريثما يوافى من عناية الله بليسيريوس ان تعطف ان يأتى . ولكن هيهات والشقة بعيدة . وقد تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن من رومه الى البوسفور . الامل بقواد ادريانوبولس وترافيا وسالونيكا ضعف تماما

كل هذا وتيودوره صامتة باسمة كأنها تستمد الوحى من روح الحكمة والقوة من يد القدر

انقضى يوم على ترادف البلاغات المخيبة للآمال

لم يظهر فى القصر من رجال الدولة الا رئيس الحكومة ووزير العدل ثم اختفيا . وتغيب وزير الحرب ووزير المال بدعوى المساعى لدى زعماء الثوار . لم يبق من البطانة الا النزر اليسير

فى اليوم التالى قرر الامبراطور الرحيل الى بعض الجزر ، وأمر بعض السفن أن تهيأ لهذا الغرض ، وجعلت الحاشية تجمع لوازم السفر وتنزلها الى بعض السفن

ورأى جستنيان أن يتوسل الى الشعب آخر توسل . فحمل الانجيل مفتوحا بين يديه، ومضى بين بعض حرسه الى الهيبودروم مستعطفا ، عسى أن يستحى الشعب منه ، فيسكن ثائره ، ويستمع لوعده بالاصلاح

ولكن جستنيان حمد الله أن مقابلة الشعب له اقتصرت على شتمه ولعنه ورشقه بالزبالة

***

عاد توا الى القصر يأمر بالرحيل. أما الامبراطورة فقالت له وللبطانة حوله قولا تسجل لها فى التاريخ كأعظم حكمة وأفصح شعر وأجمل بنت فكر :

« ان أولئك الذين حملوا التاج على رؤوسهم مرة يجب ألا يبقوا أحياء بعد فقده . أرجو ألا أرى بعينى ذلك اليوم

الذى لا أبجل فيه كمملكة . أهرب أيها القيصر اذا شئت .
معك المال . والسفن راسية فى المرفأ تأهبا للرحيل . والبحر
حر طليق لديك . وأما أنا فاحب القول المأثور القديم : ان
البرفير والارجوان لاجمل كفن للانسان »

صدر فى ١٨ يناير سنة ٥٣٢ مسيحية

مضى جستنيان على مضض وخوف . وبقيت تيودوره وبعض بطانتها معها فى القصر تلقى الزوبعة وحدها

***

قبل أن يقلع الاسطول من المرفأ ، طلب اكليمندوس الامتثال . فاستقبلته تيودوره وهى جالسة على عرشها . فجثا وقبل قدميها وقال : مولاتى . لا أريد البقاء حيا بعد هذه القيامة . امنحينى منصب الوزير الاول الآن ، لان وزيرك تهرب لكى يكسب رضى هونوروس . فان لم أقمع الثورة أهلك فيها قبل أن تهز العرش فى مكانه

فقالت باسمة : أصبح هذا الحلم فى خبر كان يا عزيزى . لم يعد أى منصب يجدى شيئا . الثورة التهبت ..

ـ أطفئها قبل ان تستعر ..

فقالت ضاحكة بهزء : لا يستطيع موقد النار أن يطفئها يا اكليمندوس

فارتعد اكليمندوس من هذا التصريح وقال : اذن تشكين بولائى

ـ لست أنا بل التاريخ يثبت هذا الشك

ـ اذن لا أمل فى اعتمادك على . على أنى أستطيع أن أسحب من الثورة المحرضين عليها اذا كان فى يدى المرسوم بالسلطة ..

ـ لا أعتمد على أحد غير نفسى يا هذا . فشكرا ..

فنهض اكليمندوس يائسا وخرج خائبا

***

سارت العقيدة ان تيودوره اختارت القضاء على حياتها اختيارا ، وقررت تكفين نفسها بالبرفير والارجوان ازدراء بالردى وحرصا على الكرامة والجبروت

وردت اليها الاخبار أن الشعب بدأ يزحف من الهيبودروم بموكب متى وصل أوله الى ميدان البلاط المقيم كانت أطرافه فى الشوارع وحول الهيبودروم

كان السعاة يعودون بأنباء الشؤم كل هنيهة وأخرى . أنبئت أن الموكب الرهيب صار فى ساحة كذا ، ثم فى شارع كذا الخ . وهى جالسة على عرشها . اعتقد نيوفوروس كاتب سرها أنها لا تريد أن تموت بين الغوغاء خارج القصر ، بل على عرشها وفى ابان جلالها

أملت على تيموثاووس قائد البقية الباقية من الحرس التعليمات التالية : ادخل بعض

أبطالك الى أروقة القصر . صف بقية المشاة وراء القصر . اجعل الفرسان حول جناحيه. هل تريد أنت وأبطالك أن تحيوا معى ؟

فحيا تيموتاووس التحية العسكرية وقال : وأن نموت قبلك ..

فقالت باسمة : بارك الله فيكم أيها البواسل ..

وكان تيموتاووس يكتسب شجاعة عظمى مما يراه من هدوئها وسكونها كأنها لا تحس بزلزال البركان المتفجر أمامها

قامت تيودوره وخرجت الى شرفة القصر الكبرى ورأت طلائع الهائجين من بعيد . ثم عادت الى عرشها واستدعت تيوفوروس وأمرته ألا يفارقها لكى ينقل تعليماتها

***

دخلت طلائع الموكب الى الساحة العظمى أمام القصر العظيم ، وطفقت الجماهير تتدفق اليه وتحتشد فيه . وزعماء الغوغاء يستغربون أن يروا فرسان الحرس الى جانبى القصر لا يتصدون لصد الحشد

ماذا يستطيع هذا الحرس الصغير أن يفعل لقاء هذا الجمع الغفير وهو مسلح بالسيوف والرماح والخناجر والعصى والحجارة . ما قوة العشرات على لقاء الالوف

اكتظت ساحة القصر بالجماهير ، ولا تزال الجماهير المزدحمة فى الشوارع ومفارق الطرق من ورائها تدفعها الى الساحة من كل ناحية . وكان على جانبى المدرج أمام الباب العظيم بعض الجنود وقوفا منكسى السلاح لا يبدون أقل دليل على الدفاع . كذا كانت تعليمات تيودوره

وصل الحشد الى قاعدة المدرج . وما وقف الزعيم ارسانيوس على أول درجة حتى رأى يدا من ورائه تضع فى يده ورقة مطوية . فنشرها وقرأ لنفسه :

« أيها الاسد الجدير بالزعامة . لا أعتقد أن نبل الاسد يسمح للذئاب والضباع والثعالب وبنات آوى والكلاب أن تنشب قبلك أنيابها بالنعجة . تستكف هذه النعجة أن يمزقها أحد غير الاسد ، وهو الوحيد الجدير بأن يفرق لحمها ودمها وعظامها على أتباعه . الاسد القوى الجبار لا يضطر الى الغدر . ولذلك أرجو منه أن يأمر هذا الجمع أن يسمع الكلمة الاخيرة من ملكته قبل أن يمزقها تيودوره »

تجهم ارسانيوس وتوقف فى الدرجة الثالثة ، وبسط ذراعيه مشيرا الى الجمع من ورائه أن يتوقف

عند ذلك بدت الامبراطورة فى الرحبة أمام الباب العالى فوق المدرج وهى فى ثوب أبيض أنيق ، ملاك بدا من القصر كما يبدو البدر من الافق

فلما رآها الجمع هاج وماج ، وكاد يندفع الى المدرج لولا أن ارسانيوس أدار وجهه الى الجمع وهو باسط يديه يشير بهما اليه أن يتريث ويسكن ويصمت

وتقدمت تيودوره خطوة خطوة بكل تمهل كأن البدر يسير في السماء رويدا . والحراس الواقفون على جانبي المدرج لا يتحركون كأنهم أصنام

بعد بضع دقائق صارت على رأس المدرج . وصار الشعب من وراء ارسانيوس صامتا تشرئب أعناقه لرؤية الملكة الجميلة . هل هي وجلة مذعورة ؟ لا . .

نزلت أول درجة وهي تبسط ذراعيها . فصمت الشعب صمتا تاما وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير . أو كأن سحرا سطا على حواسهم . وكان تيوفوروس وراءها . فتناولت منه قرطاسا ملفوفا . واستمرت تنزل كل هنيهة درجة والقرطاس في يمناها وارسانيوس لا يكف عن الاشارة للشعب من ورائه أن يهدأ . ولكن الشعب لم يهدأ بأمر زعيمه ، بل أصبح نزول الملكة في المدرج أقوى من أمر الزعيم

ما نزلت الى أول النصف الاسفل من المدرج حتى صعد ارسانيوس اليها وانحنى وتناول القرطاس من يدها ، وأدار وجهه الى الجمع ، ورفع يده يعني الصمت التام . ثم نشر القرطاس وقرأ بصوت جهوري :

« أيها الشعب البيظنطي الباسل

« ها هي ملكتكم بين أيديكم . أضعف رجل فيكم يمكنه أن يمزقها أشلاء . فاذا شئتم أن تسمعوا نصيحتها الاخيرة قبل أن تمزقوها تمزيقا فاسمعوا :

« تشكون من ثقل الضرائب ، فاعلموا أن الضرائب التي تجبى منكم لا تنفق عبثا ، ولا تبذر تبذيرا . تنفق في اصلاح شؤونكم وفي تحصين الامبراطورية للدفاع عن كيانها ضد الغزاة البربر الذين يبتغون فتح مملكتكم واستعبادكم كما فعلوا في ايطاليا وروما

« تشكون من تعرض الدولة للعقائد الدينية . وليس للدولة غرض من هذا التعرض الا ضم جميع النصارى ضمن حظيرة الكنيسة لكي تكون أقوى وأوسع انتشارا

« فاذا كان لكم آراء في هذه الامور ، فألفوا لجنة من زعمائكم لتجتمع مع لجنة الدولة للبحث في هذه الامور وتقرير ما يتفق عليه عقلاء الامة

« فاذا أبيتم اقتراحي هذا فاقضوا ما تريدون أن تقضوا . فليس أحد من جنودي يقاومكم »

ولما انتهى ارسانيوس من التلاوة ، ضج الجمع ضجيجا مختلطا بين التهليل والغضب فرفع ارسانيوس يديه وقال : تنظر في هذا الاقتراح اليوم ، وغدا نقضي قضاءنا .

عند ذلك نزل تيوفوروس وقال للامبراطورة :

ــ ان القائد فلابيانوس نائب قائد جيش ادريانوبولس قدم بجيشه

فأجابت بصوت عال ليسمعه ارسانيوس : ارسل رسولا اليه حالا يأمر مني ان يقف جيشه قبل أبواب المدينة . قل له ان يحاذر الهجوم بغير أمري .

عند ذلك أشار ارسانيوس للجمع أن ينصرف الى الغد . وجعلت تيودوره تتقهقر على المدرج رويدا حتى غابت في باب القصر غياب الشمس وراء الافق

- ٢٢ -

اجتمع زعماء الثورة ، وتباحثوا فى اقتراح الامبراطورة . فلم يوافقوا عليه ، لان أنصار هونوريوس كانوا يحرضون على خلع الامبراطورين والمناداة بهونوريوس امبراطورا

وكان ارفضاض الجمع فى ذلك اليوم مهلة لتيودوره . فلما مثل القائد فلابيانوس بين يديها بشت له وشكرت ولاءه فقال : ان من يكون أمينا لزوجته يكون أمينا لمليكته . أما قلت هكذا يا ذات الجلالة يوم صالحتنى مع زوجتى اندروماكى ؟

– لم أنس عهدك حينذاك . ولم أشك أنك تبر به . ولكن أين القائد مرتينيوس ؟

– الحمد لله انه مريض يا مولاتى بحمى قاتلة . ولولا مرضه لكان أخون الخونة . اكتشفت أثناء مرضه بصفة كونى نائبه تعليمات سرية وردت اليه من حزب هونوريوس ، أن يعصى أمرك بالحضور الى العاصمة . ولولا اطلاعى على هذه التعليمات ، لما علمت أنه تلقى أوامر من جلالتك بالقدوم العاجل لانه كتمها عنى . وبحثت عنها فوجدتها . وما ترددت فى أن سقت جيشى الى هنا ، وفى قيادتى أربعة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان . فماذا تأمرين ؟

– أكرر شكرى لولائك . وأرجو أن توزع جنودك حسب فنك الحربى حول القصر، وفى المدينة لتهدئة الثورة بقدر ما يستطاع ، وأن تتجنب الاحتكاك بالجمهور ، لحقن الدماء ما أمكن ، لانى لا أعتقد أن جيشك يستطيع قمع الثورة . فلعل الصبر والمحاسنة أفيد لنا فى تلافيها أو مماطلتها الى أن يأتى الله أمرا كان مفعولا

***

فى اليوم التالى عاد الشعب يتجمع ويستأنف الثورات ، وتصرف فلابيانوس بكل حكمة فى الدفاع عن القصر . وفى اليومين التاليين لم يقحم الجمهور تهيبا لسلاح الجنود . ولكن فى اليوم الرابع حدثت مناوشة قتل فيها عدد من الجمهور وقليل من الجنود . وفى اليوم الخامس اندحر جيش فلابيانوس أمام الثوار ، فأحاط بالقصر يحمى ظهوره بجدرانه . وبصد الثوار . وصعد بعضه الى القصر لصد الهاجمين

اشتد ضغط الثوار حتى شرع بعضهم يتغلبون على الجنود الذين يحمون المدرج المريض . أطلت تيودوره من الباب العالى ووقفت على الرحبة عند رأس المدرج ، فاشتد هياج الشعب. فطفقت تحييه بيديها. ولكن الوحوش الضارية متى هاجت لا تردعا محاسنة

فعادت تيودوره الى البهو الكبير وجلست على عرشها. وقاربت الشمس المغيب ، فجاءها القائد فلابيانوس وقال : انى راسم خطة لانقاذك من هؤلاء الضوارى . فى أول الليل يخف زحام هذا الحشد ، فتمتطين جوادا وتحرسك ثلة من الفرسان الى المرفأ حيث ترسو سفينة للفرار بك

فقالت تيودوره باسمة : شكرا . أبعد أن ذهب عدد من جيشك ضحية فى سبيل الدفاع

عنى ، تطلب الى أن أهرب ؟ لو هربت قبل نشوب الثورة لتفاديت سفك الدماء . أما الآن فيجب أن أموت مع جنودى الابطال . أريد أن أموت على هذا العرش

فى تلك الليلة أدخل فلاباتوس قسما من جنوده الى القصر ، اندمجوا مع حرس تيموتاووس القليلين . وكانت اندروماكى زوجة فلاباتوس فى حجرة الامبراطورة لخدمتها . وبذلت اندروماكى جهدها فى اقناع تيودوره أن تهرب فى غلس الليل . ولكن بلا جدوى . لان تيودوره صممت على الموت فى العرش اذا كان لا بد منه

فى الصباح التالى اشتد زحام الثوار حول القصر ، حتى كاد جيش فلاباتوس يبيد بعد أن قتل كثيرا من الثوار . وقبل الضحى دحرت زمرة من الثوار الجنود ، وقحمت الى داخل القصر . فانذر تيوفوروس الامبراطورة بأن الخطر بلغ أشده ، وأبلغها أن الجنود يحرسون الطريق الى الحجرة الخلفية السفلى لكى تختبىء فيها . وأنهم يدعون للثوار أن الامبراطورة خرجت من القصر من مساء أمس

فنهضت تيودوره . وبدل أن تخرج من الباب الخلفى لكى تتسلل منه الى الطبقة السفلى ، قحمت الى باب البهو الرسمى ، واستقبلت الثوار الذين يناحرهم الحرس لكى يرتدوا ، وظهرت أمامهم فى تبرجها الانيق . وقالت بلهجة لطيفة : أمليكتكم تطلبون ؟ ها هى تيودوره مليكتكم . فافعلوا بها ما تريدون . دعوهم أيها الحراس ولا تمنعوهم لانى لاجلهم أريد أن أعيش أو بأيديهم أريد أن أموت

ولا تدرى ماذا كانت القوة التى صدت أولئك الثوار وردتهم عن الدخول الى بهو العرش . ولكن كان الضغط من الخارج يشتد حتى لم يعد مناص من الاندفاع الى البهو الاكبر . عند ذلك هجم فلاباتوس على الامبراطورة وحملها بين ذراعيه ودخل بها الى البهو . ثم خرج بها من الباب الخلفى وأنزلها الى الحجرة السفلى وقال : غد أجلنا ساعات أو دقائق لعل النصر يأتى من غامض علم الله . لقد جمعت عددا من الجنود لكى يحموا الطريق الى البوسفور حيث هناك سفينة محروسة تنتظرك .

فابتسمت وقالت : أشكر اهتمامك عظيم الشكر . اذا كان النصر يأتى من غامض علم الله فيأتى ونحن فى قلب هذا القصر . هنا أحيا أو أموت .

عند ذلك دخل تيموتاووس قائد الحرس ، وقال : ان الثوار اخترقوا خط الحراس الذى يحمى الطريق الى البوسفور . يا أيها القائد فلاباتوس . فالافضل أن تختبىء جلالتها فى مكان خفى فى القصر . أين تيوفوروس يدلنا على مكان أمين

فقالت تيودوره : أفضل محل لى هو العرش . هناك أستقبل طالبى دمى . دعونى أصعد

عند ذلك شعروا أن المعارك أصبحت فى نفس حجرات القصر . يكاد الثوار يتم لهم احتلال القصر كله . .

فقال فلاباتوس : لا تخرجى من هنا يا مولاتى ، فنحن علينا الآن أن نشرف على الدفاع عن القصر ما استطعنا . .

بقيت تيودوره وحدها وهى تسمع صليل السيوف وتصفيق الرماح . وبعد حين خفت الصليل . قل التصفيق . هبط الضوضاء والجلبة . خرجت من الحجرة السفلى لكى تستكشف الحال . لم تر أحدا . صعدت الى البهو فرأت بعض الجنود ، فسألت : أين الثوار ؟

فقال جندى : لا تدرى ما الذى روعهم حتى ارتدوا . .

وما حز فى نفسها فى هذه الثورة الا ما رأت من القتلى والجرحى فى القصر . وخرجت الى الرحبة التى فوق الدرج فاذا الحشد يموج كالبحر المتلاطم وقد التحم فيه عدد كبير من الجنود والفرسان بعد أن هلك نصف جيش فلابيانوس . .

من أين جاءت هذه الجنود ؟

وقفت تتبين الحالة . واذا فارس يصعد بجواده على الدرج . واذا هى فى دهشتها ترى بليساريوس القائد العظيم يترجل عن جواده عند رأس الدرج . .

فقابلته بابتسامة كأنها أشعة الشمس فى الربيع وكأنها لم تكن فى قلق ولا فى جذع . مدت يدها الى بليساريوس فقبلها وقال : لعلك كنت فى يأس يا مولاتى ؟

ـ لا بل كنت مؤمنة بالعناية الالهية . وها هى العناية جاءتنى فى الدقيقة التى كاد اليأس فيها يحاول أن يدخل على . شكرا يا عزيزى بليساريوس . .

فقال : الثوار يخرجون الى خارج المدينة لأن جيشى دخلها بعد أن فتك بهم فتكا ذريعا . منذ فجر اليوم ستكون المعارك خارج المدينة . لا أدرى متى تنتهى . ولكنى أدرى أمرا واحدا على كل حال .

ـ ماذا ؟ . .

ـ النصر لك . .

فانقضت تيودوره على بليساريوس وضمته وقبلته ، وقالت : لبس هذا النصر عن يدك بالخبر الجديد عندى على الرغم من جرى الرياح بما لم تشته سفنك

ـ اطمئنى فى قصرك ، سأقيم عليه حراسا داخله وخارجه يكونون آخر من يقتل من كتائبى العديدة . .

ثم قبل يدها ومضى

بعد عدة أيام انتهت المعارك فى المدينة وضواحيها وفى جميع البلاد المحيطة بها . وخمدت الثورة . ثم انطفأت نارها . ثم لجأ كل من الناس الى بيته ، واستأنف عمله

وقد ورد فى دائرة المعارف البريطانية فى المجلد العاشر فى نصف العمود الاول من الصفحة العاشرة : « ان الامة خسرت فى هذه الثورة المسماة ثورة (نيقا Neka) ثلاثين ألف نفس » . ولكن تيودوره التى كانت هدف الثورة لم تقتل ولم تخلع ، وبقيت على عرشها

وهنا نترك للقراء التساؤل : هل كانت تيودوره واثقة من قمع الثورة ، أم أنها أبت

أن تعيش بعد خسارة العرش كما قالت فى بلاغها التاريخى للامبراطور والبطانة
وان كان الامر الاول فعلام كانت تعتمد فى قمعها وقد علمت أن قوادها ورجال الدولة قد تخلوا عنها حتى بليساريوس قنط من نجدته ؟

***

استتب الامر ، وعاد الامبراطور جستنيان الى عرشه مطمئنا ، وانتظم الحكم ، وتعين الحكام الجدد

قبض على كل من ثبت أن له ضلعا فى التحريض على الثورة . وفر كثير من المحرضين فرار اللصوص ، ومنهم هونوريوس المطالب بالعرش

حوكم المتهمون ، وكان من جلتهم ارسانيوس الزعيم والمطران اكليمندوس . حاكمتهم محكمة مؤلفة من بعض رجال الدولة فى بعض حجرات القصر الكبرى . ولم تطل محاكمتهم أكثر من بعض يوم . وحكمت المحكمة عليهم جميعا بالاعدام . .

وفيما كان رئيس المحكمة ينطق بالحكم ، ظهرت تيودوره من الباب اليسرى من الوراء . فلما سمع المتهمون الحكم ورأوا الامبراطورة خروا سجدا رهبة ووجلا .

فتقدمت تيودوره الى جنب رئيس المحكمة وقالت بصوت عال فصيح :

« العدالة استوفت حقها . ولكن للامبراطورة حق الرحمة والعفو
يا رب اغفر لهؤلاء المجرمين لانهم لم يعلموا ماذا كانوا يفعلون »

***

على أثر ذلك استدعت اكليمندوس الى حجرتها وقالت له وهو ساجد لديها : « لطالما علمتنى أن تقوى الله تفضى الى سعادة السماء . وأن العشق يؤدى الى التهلكة . وأنا الآن فى توبتى أعلمك أن العشق الشهوانى يثير النفوس الحيوانية ، وان تقوى الله ترفع النفس الى سماء النعيم . أبقيت على حياتك جزاء لك على خدماتك ، ولكى تبقى لك فرصة للتوبة وتقوى الله ، ولكى يكون لك النعيم أخيرا خير جزاء . فاعتكف بعد الآن فى ديرك يا سيدى المطران ، وتب الى الله . .

« قل لهونوريوس ان الصيد فى جبل طوروس أهنأ له من الجلوس على عرش بيفلنطيوم

« وقل لسائر المجرمين الذين عفونا عنهم ان عكوفهم على آلات صناعاتهم خير لهم من أن يكونوا آلات شر فى أيدى الاشرار »

وخرجت تيودوره من باب ، وخرج اكليمندوس من باب آخر ، وهو لا يصدق أنه باق فى قيد الحياة

توفيت تيودوره سنة ٥٤٧ مسيحية

نقولا الحداد

الهلال

الجزء الثانى ـ السنة ٥٢

مارس وابريل ١٩٤٤ ـ ربيع الثانى ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(March - April 1944)

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً فى مصر والسودان

٧٠ « فى الخارج أو عنها ٣٫٧٥ دولار

٥/١٥ جنيه انجليزى

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50. — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3,75.



الأمومة

حضرة صاحبة الجلالة الملكة تحنو على صاحبة السمو الملكي الأميرة فادية (تصوير اليان القاهرة)

الرأى العام فى مصر

نظمت الجامعة الأمريكية سلسلة محاضرات عن الرأى العام فى مصر ألقاها نخبة من كبار العلماء والأدباء فى قاعة يورت التذكارية . وهذه خلاصة محاضرتين ألقاها الدكتور محمود عزمى المستشار الملكى بوزارة المالية، والاستاذ أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام. وأولاها عن الرأى العام السياسى ، والثانية عن الرأى العام الحر

رأيان
للدكتور محمود عزمى
والأستاذ
أنطون بك الجميل

كيف نكون رأيا عاما سياسيا

بقلم الدكتور محمود عزمى

« الرأى العام » تعبير من تلك التعابير المطاطة التى لا يسهل تعيين حدودها تعيينا علميا عاما يصح تطبيقه تطبيقا شاملا . شأنه فى ذلك شأن كثرة التعبيرات المنعوتة بالعامة : كالنظام العام والصالح العام والآداب العامة ، يبعد مداها ويصغر ، وتتسع دائرتها وتضيق ، بحسب النظريات التى يلجأ اليها معالجها ، وبحسب الميول التى تكون متفشية فى الجماعة التى يعنيها أمرها . فيتراوح بين حسن الظن به وسوئه ، وبين تقديسه واحتقاره ، وبين خصه بالسلطان واغفاله تمام الاغفال . يعتبره البعض المسير لكل حركة والواضع لسنن التقاليد ، ويراه البعض الآخر قطيعا أبله يساق سوق الأغنام . ثم تتخلل هاتين النظريتين نظرات عدة تتوسطهما ، وتقرب من احداهما أو تبعد

والحق أن هذا الموقف من « الرأى العام » موقف طبيعى . ذلك أن الرأى العام لا يتكون فى بلد من البلاد من فئة واحدة متجانسة تتقارب مداركها ، فينتظر أن تتقارب أحكامها وتتقارب اتجاهاتها . بل انه يتكون من فئات عدة تتباعد واحدتها والاخرى ، فتتباعد أحكامهما وتتباعد اتجاهاتهما ، ويصح انطباق حسن الظن والتقديس والخص بالسلطان على بعضها ، بينما تطبق اعتبارات سوء الظن والاحتقار والاغفال على بعضها الآخر . وهذا التعدد فى الفئات التى يتكون منها الرأى العام هو الذى ينتج التضارب بين الزوايا التى ينظر منها اليه ، ويجعل النظريات خلالها كلها صحيحة ، مهما يكن ما بينها من تناقض ظاهر

* * *

أما مصر ــ وتخومها مقررة ــ فهى « الدولة النيلية المطلة على البحر المتوسط والبحر

الاحمر ، المتوسطة (بلاد العربية) وواسطة عقد ما يصطلح على تسمية الشرق والغرب، وهذا الموقع الجغرافى الفذ يجعلها متصلة اتصالا طبيعيا بقلب افريقية وبساحل المحيط الهندى — واليه امتدت بالفعل حدودها اكثر من عهد خلال التاريخ القديم والتاريخ الحديث — ويجعل كيانها الاجتماعى متفاعلا مع كيان البلاد الواقعة على حوض البحرين الشقيقين — بحر الروم وبحر القلزم — ويجعل أجنحتها منتشرة فوق بلاد المشرق وبلاد المغرب — وهى أعرقهن وأعرق بلاد العالم جميعا حضارة فحضرت وشهدت جميع انواع التفاعلات التى تناوبت الوجود البشرى — كما يجعلها ملتقى القارات كلها ، أفريقية وآسيا وأوربا والاقيانوسية والامريكتين أيضا

وهذا الموقع الجغرافى الفذ الذى يربطها بكل تلك الانواع من الروابط ، يوسع حتما من أفق سياستها ، ويكثر من تفرعاتها ، فلا يحصرها فى النوع الداخلى الذى يعالج الشؤون القومية فحسب ، ولا يضيف الى هذا النوع نوعا آخر واحدا هو النوع الدولى الذى يعنى بالاتجاهات العالمية مجملة غير مفصلة ، بل انه ليدعوها الى أن تشغل الى جانب سياستها الداخلية والاتجاهات العالمية المجملة بالسياسة العالمية المفصلة ، وبما بينها وبين السياسة الداخلية من سياسة قارية وسياسة عربية وسياسة اسلامية وسياسات خلقية كذلك

وعندنا أن الرأى العام السياسى هو ما تعرب عنه الجماعة من اتجاه فى فهم مسائلها السياسية ، ومن وجهة تريد أن تولى هذه المسائل شطرها . كذلك هو مجموع من يدركون من أفراد الجماعة مسائلها السياسية ، فيعربون عن اتجاههم فى فهمها ، وعن الطريق التى يرغبون أن تسلكها . والواقع أن بين الاعتبارين تفاعلا محتوما ، فليس يمكن تصور اتجاه فهم وتولية وجهة بغير اشخاص يفهمون ويولون . ومهما يكن من أمر ، فللرأى العام السياسى خاصيتان : خاصية فهم الشؤون السياسية ، وخاصية توجيه هذه الشؤون

ولما كانت للبيئة المصرية تفرعات سياسية عدة ، وجب أن يكون الرأى العام السياسى المصرى من سعة الاطلاع وسلامة الهضم بحيث يستوعب فهمها جميعها ، ويجب أن يكون من القابلية والقوة بحيث يشمل اقدامه فى سبيل التوجيه أنواع تلك التفرعات جميعا ، أو من باب الاحتياط ينبغى أن تتعدد فى مصر انواع الرأى العام السياسى بحيث يختار كل نوع منها من التفرعات السياسية المتعددة كذلك فيحمل البعض أعباء السياسة الداخلية ، ويحمل البعض أعباء السياسة العالمية ، على أن تلحق بالسياسة الداخلية السياسة القادمة ، وان تلحق بالسياسة العالمية سياسة الاحلاف ، أو توزع على الاثنين الاولين . وأحسب الوضع الصحيح للرأى العام السياسى المصرى ، انما هو وضع دوائر متداخلة ذات مركز واحد أقربها الى المركز دائرة السياسة الداخلية ، تتلوها دائرة السياسة القارية ، فدائرة سياسة الاحلاف ، ثم دائرة السياسة العالمية

وعلى أن يكون مفروضا على وجه العموم أن يكون فهم الافراد وتوجيههم مشتملين سياسة محيطهم وسياسات المحيطات الداخلة فيه كذلك . ونحن اذ نقول « يكون مفروضا

على وجه العموم ، تترك باب الاجتهاد مفتوحا أمام اصحاب المحيطات الصغيرة فى سبيل المحيط الاكبر

ذلك أن من شأن مسائل السياسة الداخلية أن تمس المصريين جميعهم على اختلاف مستوياتهم ، والسياسة الداخلية تشمل جميع مظاهر العيش والحياة . وتمس المصريين بلا ريب أن يكتنفهم الأمن والطمأنينة ، وأن يشملهم العدل والمساواة فى جميع تصرفاتهم ، وأن تهيأ لهم فرص الحياة دون تمييز بين فريق وفريق ، فيستطيع كل منهم أن يضمن قوته ومسكنه وملبسه ونظافته وصحته وتعلمه وعمله وراحته وتسليته ، كما يضمن تأدية قسطه من الواجبات العامة نحو وطنه ونحو البشرية ، وأن يضمن توافر ذلك كله بقدر تحس معه كرامته الانسانية أنها لا تقرب منازل الحيوان ، بل تعلوها بدرجات ودرجات ودرجات . وكل هذا يعنى به ولا ريب الفلاح فى كوخه ، والصانع فى حرفته ، والعامل الاجير فى الحقل أو المصنع ، والمستخدم فى المتجر ، والطالب فى جامعته ، والموظف فى منصبه ، والمحامى فى مكتبه ، والطبيب فى عيادته ، والكاتب فى تأليفه ، والفنان فى اخراجه، والصحفى فى تحريره ، والمثقف فى نشاطه ، والمفكر فى تأمله . كما يعنى به المالك فى ضيعته ، وصاحب العمل فى مصنعه ، والممول فى مصرفه ، والتاجر فى حانوته . وكما يعنى به أيضا المحروم فى ضائقته ، والسائل فى مهانته

أما السياسات الاخرى . القارية والاخلاقية والعالمية ، فمن طبيعتها الا يعنى بمسائلها الا الاقلون . ومن أجل ذلك كان محتوما أن تتعدد الآراء العامة السياسية المصرية بتعدد انواع السياسات التى تكتنف موقع مصر الفذ ، وان تختلف كثافة كل منها على النحو الذى قدمناه ، اجتهادا فى شكل الدوائر المتداخلة ، متقاربة مساحات ما يفصل بين محيطاتها

* * *

ذلك كله عن الرأى العام فى كينونته ، أما فى صيرورته فينقسم أفراده الى ثلاثة أقسام . مؤثرين ومتفاعلين ومسوقين . فالمؤثرون هم أصحاب الفكرة يريدون بذرها أو الحركة يريدون قيامها أو المصلحة يريدون تحقيقها . يوحون ويوجهون ويحضون ويبذلون بحماسة ويحاجون أو يستعملون من يحض لهم ويحاج ، ويودون أن يهيئوا لهم الارض كى تصلح للبذر والجو كى يسهل التحقيق . والارض والجو انما هما القسمان الآخران، قسم المتفاعلين وقسم المسوقين . والمتفاعلون هم من يتفهمون الفكرة والحركة والمصلحة ، ويناقشونها وينقدونها ، ولا يريدون تنفيذها أو تأييدها أو الرضا عنها والغض الا بالاقتناع فيبذلون من الجهود ما يتفاعل مع جهود المؤثرين ، وما قد ينتج شيئا من التعديل والتحرير والتبديل ، بل ما قد ينتج بعض الاحايين الترك والعدول . وأما المسوقون فهم أولئك الذين لا تقوى ملكاتهم أو لا تقوى أخلاقهم على التحليل والمقاومة، فيؤيدون أو ينزوون، فيستفيد المؤثرون من ضعفهم ولا يضارون

تلك هى مصر وذلك هو الرأى العام السياسى فى كينونته وفى صيرورته ، وهما الركنان النظريان من أركان البحث ، ونصل الآن الى الركن التطبيقى الثالث ، ركن كيفية تكوين رأى عام سياسى مصرى

ويستدعى عرضنا لهذا الركن أن نتساءل اول الامر أى تكوين هو المقصود ؟ هل التكوين بمعنى التعهد ، أو هو التكوين بمعنى الخلق من جديد ؟ وبعبارة أخرى هل هناك رأى عام سياسى مصرى نريد تنظيمه ، أو أنه ليس فى مصر رأى عام سياسى ونريد رسم خطط خلقه واعداده ؟

يلوح لاول وهلة أن فى تضمن عنوان البحث رأيا عاما سياسيا مصريا فى صيغة « النكرة » ايذانا بأن هذا الرأى العام غير موجود ، وأن المطلوب خلقه ومحاولة وضع أسسه . والحق أن الاخذ الاول للموضوع يميل الى هذه الناحية من الاتجاه . وقد بينا أن كل رأى عام سياسى انما يستند الى اعتبارين اصليين : اعتبار الفهم ، واعتبار التوجيه . فالفهم على العموم يستدعى معرفة ، والتوجيه تمييز أو قدرة . والمعرفة والتمييز يستدعيان تعلما ، ويستلزمان أقل ما يستلزمان تحررا من الامية ، والامية فاشية فى المصريين

وهنا أود أن أستدرك شيئا قد يكون محلا لسوء تفاهم لا أريده . وذلك هو أنه يجب التفريق بين الوطنية والسياسة . فالوطنية احساس طبيعى يشعر به كل انسان له وطن ، فى حين أن السياسة ادراك لمعان واتجاهات مادية تستدعى وعيا لا يتوافر عند كل الناس . ومعنى هذا أن المصريين كلهم وطنيون ، وأن الرأى العام الوطنى فى مصر قائم فى أى وقت ، وهو مكون من جميع المصريين ، متعلمين وجاهلين ، مدركين بعقولهم وغير مدركين ، منعمين ومحرومين ، مقيمين فى المدن أو هائمين فى الريف . ولكن الرأى العام السياسى لا يمكن أن يشمل الجميع ، أو على الاقل ان جميع انواع الرأى العام السياسى المصرى لا يمكن أن يتألف كل واحد منها من المصريين اجمعين

والواقع أنه يجب التمييز بين ميادين الرأى العام السياسى المصرى ، وأن نعالج رأى عام كل ميدان على حدة من حيث العناصر التى تكونه ، ومن حيث الوسائل التى تتخذ لتدعيمه وتهيئته . ونستطيع أن نحدد تلك الميادين بنوع النشاط الذى يتجلى فيها ، ودرجة اتصاله بالاعتبار السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى . ولا شك عندى أن الاعتبار الاجتماعى أقرب هذه الاعتبارات كلها الى السواد ، مع عدم بعده عن غير السواد من الناس . واذن فيصح القول بأن الرأى العام الاجتماعى فى دائرة السياسة الداخلية هو أوسع رأى عام سياسى مصرى ، يضم كل قادر من المصريين كافة على التمييز فى الشؤون الحيوية الاولية ، شؤون الحاجات ووسائل الوجود ومظاهر المساواة

أما السياسة القارية والسياسة الاحلافية فيعنى بها بطبيعة الحال رأى عام أقل عددا من الرأى العام المتصل بالسياسة الداخلية ، اذ تدور حول مسائل تبعد بعض البعد عن الشؤون التى تعنى بها الكافة المصرية عن قرب ، وان مستها ومست مصالحها المباشرة كشؤون النيل

ومياهه التى تجىء من بحيرة تانا مثلا ، أو كطريق المواصلات بين القاهرة و « كيناون » أو توحيد النقد بين مصر وسائر بلاد العربية ، والغاء جوازات السفر بالنسبة لتنقل فى أرجائهن جميعا . وان مسها بطبيعة الحال أمر تعديل المعاهدة المصرية البريطانية ، لأنها متصلة باستقلال البلاد ، والاستقلال من اختصاص الوطنية التى قررنا من قبل عمومها وشمولها غير المحدودين

واذا كان الرأى العام السياسى المصرى تضيق دائرته فيما يتعلق بالسياسة القارية والسياسة الاحلافية عن دائرة السياسة الداخلية ، فان دائرة الرأى العام السياسى المصرى الخاص بالسياسة العالمية تضيق بدورها عن دائرة هاتين السياستين ، لان العناية بالشؤون الدولية تنحصر فى حد محدود من المفكرين والصحفيين ورجال الدولة والمقدمين بين رجال الاحزاب والحركات السياسية ، فيجب أن تكون مفكرا حقا حتى تحس بأن ميدان اهتمامك بالشؤون العامة لا يحده حد ، وكلما زادت استنارتك واتسع أفقك التهذيبى قوى فيك الاحساس بأنك ابن العالم كله ، كما أنك ابن بلدك ، وأنك مواطن فى الدنيا ، كما انك متجنس بجنسيتك

* * *

ذلك هو تقسيمنا للرأى العام السياسى المصرى أو لرأى عام سياسى مصرى اذا نحن شئنا أن نأخذ باتجاه عدم وجوده ، أو عدم تغليبه على الأقل . وبقى العرض لوسائل التكوين والتنظيم والتعهد . ولاحكام تحديد هذه الوسائل ـ ولو على سبيل الاجمال والعموم ـ يجب أن نستذكر فى دقة طبيعة الرأى العام فى صيرورته . وقد قلنا انها مفاعلة بين مؤثرين ومتأثرين ، قصد بذر فكرة أو قيام حركة أو تحقيق مصلحة تستدعى ادراكا واستيعابا وهمة . واذن فالوسائل اللازمة لتعهد هذه الطبيعة يجب أن تتصل باعتبار المفاعلة الدائرة حول الافكار والحركات والمصالح ، والدائرة عادة قصد الخروج بالجماعة الى خطيرة جديدة تعمر بما يجرى اعتقاد الزمان بأنه الخير وأنه التقدم

واذا تقرر هذا، فانه ينتج حتما أن تكون الفكرة السائدة اختيار تلك الوسائل وتوجيهها، انما هى فكرة تقديم المعلومات لكل نوع من أنواع الرأى العام السياسى المصرى وتمرينه على استيعابها ، والوصول به الى تقديرها ، والحكم لها أو عليها . ويقع هذا العبء فى نظرى على المثقفين أول ما يقع ، ثم على الصحافة والاحزاب فالحكومة . واذا كانت مهمة كل فريق من هؤلاء تختلف باختلاف الطبائع والاختصاص ، فان هناك مبدأ عاما يجب أن يسود نشاطاتها جميعا ، وهو مبدأ حرية الرأى ، ولن تستطيع الوقوف على الاتجاه الجديد والتقديم الحق ، الا اذا مكنت صاحب هذا الاتجاه والتقديم من حرية الادلاء وحرية المناقشة . وحرية الرأى مكفولة فى الدستور المصرى ، ولكنها غير بالغة بعد عرف الناس لا فى عمومهم بل فى خصوصهم أيضا . وحرية الرأى تستدعى افتراض حسن النية فى صاحب الرأى . وعرفنا يجرى على أن تتساءل دائما اذا ما أدلى واحد برأى : « لحساب

من يتقدم صاحبنا بهذا الرأى ، ولا تزال تردد حكمة مأثورة تقول : « سوء الظن من حسن الفطن »

وحرية الرأى تستدعى افساح المجال لتعرف كل اتجاه . ونحن لا نزال نخشى اتجاهات معينة ، بل واتجاهات غير معينة ، وتحرم العرض لها بالسابق ، بدل أن نترك الراغبين فى تقديمها يقومون بتقديمها على مسئوليتهم وبتعريض أنفسهم للجزاء اذا رأى القضاء

ذلك هو المبدأ العام الذى ينبغى أن يسود وسائل تكوين الرأى العام السياسى المصرى جميعا

أما الوسائل ذاتها ، فهى من ناحية المثقفين اخراج الآراء وبذرها عن طريق التأليف والنشر فى الصحف وبالكتب والمحاضرات والخطب ، ومن ناحية الصحافة بجلب المعلومات وتقديمها لقرائها تقديما يسوده الاتجاه القومى والمصلحة العامة ، لا فيما يتعلق بالشؤون الداخلية وحدها ، بل بالشؤون العالمية ، ولا فى الميدان السياسى الضيق وحده ، بل فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية جميعا

كيف نكوّن رأياً عاماً حراً

بقلم الاستاذ انطون بك الجميل

لما طلب الى أن أضع بحثا فى هذا الموضوع ، خيل الى لاول وهلة أن المطلوب بحث من تلك البحوث التى تدور حول ما نسميه « مشكلات ما بعد الحرب » مما يعرض علينا منذ أشهر فى لجان خاصة حكومية وغير حكومية لدرسه وتخمين محتملاته : كيف يتم تثبيت النقد مثلا ؟ أو كيف تنظم مصادر الانتاج ؟ أو كيف تستغل ثروتنا القومية أو كيف نقاوم التعطل ؟ .. وما الى ذلك من المسائل التى تتناول القريب أو البعيد من الزمن المستقبل ، ولا أمل فى الافادة من درسها فى الحال

خيل الى بادىء ذى بدء أن السؤال المطروح على لاجيب عنه ، هو من نوع تلك الاسئلة التى نبحثها اليوم نظريا ، ولا يجىء تطبيقها عمليا الا فى الغد

وفى الواقع هل من سبيل الى تكوين رأى عام حر ، ابان الحرب ، فى مصر أو فى غير مصر ، والحرب بطبيعتها وبضروراتها تقضى بقيام الاحكام العرفية ، ومن ثم بالحد ، الى مدى بعيد ، من كل حرية فى الرأى ، وفى القول ، وفى الكتابة ، بل فى المأكل والملبس والانتقال ، وفى سائر مرافق الحياة

على أن هناك فارقا ، وهو الفرق بين المسائل المادية من مالية واقتصادية ، والمسائل المعنوية من فكرية وادبية . فان بحث الاولى يطرأ على نتائجه كثير من التعديل والتبديل من جراء ما هو عرضة له من تعديل العوامل وتبديل الاوضاع ، فى حين ان بحث الثانية يكاد يكون ثابتا فى نتائجه لثبات الحقائق الاولية الكبرى التى تقوم عليها وتستند اليها

وعلى هذا الاساس فلنعالج بحث المسألة المطروحة علينا الآن

وقد يكون فى تحليل الرأى العام وتصوير شتى مظاهره ما يمهد لنا السبيل الى تكوين حرية الرأى

ما الرأى العام على وجه التعميم ، وما الرأى العام الحر على وجه التخصيص ؟

لا أقف طويلا عند تحديد الرأى العام فان هناك صورا كثيرة لتحديده وتعريفه، ولكنى أقف عند أبسطها وأعمها ، فأقول: ان الرأى العام هو ما يعتقده ويحسه ويقول به الجمهور، أو ما يسمونه بسواد الناس ، أى معظمهم ، أو ان شئت تعبيرا عصريا : رجل الشارع

أما الرأى العام الحر فلا بد قبل تعريفه من تصحيح خطأ شاع فى استعمال كلمة «حر» بلغتنا العربية فنحن نعبر بهـا عن كلمتى libéral و libre الفرنسيتين و liberal و free الانجليزيتين . مع أن الكلمتين فى كلتا اللغتين ليستا من المترادفات التى تؤدى معنى واحدا، بل ان كلا منهما تنطوى فى مدلولها على فرق ظاهر : فالاولى libre أو free معناها على وجه التدقيق « حر » اطلاقا ، أى غير مقيد من الغير . فى حين أن الاخرى liberal معناها نزوع الى التسامح أو الى حرية الآخرين أى غير مقيد للغير . وقد أكون حرا غير مقيد أى libre أو free ولا أكون libéral أى غير مقيد لحرية الغير . ولعل كلمة سمح أو سماح — من السماحة — أدل على معنى هذه الكلمة وأقرب الى مدلولها

ولا بد لنا من أن نأخذ فى سياق كلامنا عن الرأى العام الحر بالمعنيين معا ، اذ لا شك فى أن كليهما مقصود عند ما نعت الرأى العام بالحر

فالرأى العام الحر اذن هو الرأى الطليق الذى لا تقيد الاعراب عنه القيود المعروفة ، كما أنه من جهة أخرى الرأى الذى يقبل سائر الآراء فلا يقيدها ولا يحول دون الاعراب عنها . فهو اذ يطلب الحرية لنفسه لا يأباها على غيره ، بل يريد الحرية للجميع

وهل يكون الرأى العام غير حر ؟ لا شك فى ذلك . لان الرأى العام وجد منذ أخذ الناس يعيشون جماعات ، وهو قائم فى كل جماعة . فهو موجود فى الاسرة وفى القبيلة وفى الامة ، بل ان سهولة المواصلات وتقريب المسافات بين الشعوب بالطائرة والتلغراف والراديو كثيرا ما توجد فى الازمنة الحديثة رأيا عاما عالميا . وليس بصحيح ما يقال من أن البلاد المتأخرة غير المتحضرة ليس فيها من رأى عام . فمثل هذه البلاد قد تسود الآراء فيها الخرافات والاوهام . ولكن هل الاوهام سوى مظهر من مظاهر الرأى العام الذى لا يقوم على أساس من التبصر والتمييز وصحة الاحكام

وليس من شيء أعم وأشمل من الاوهام ، بل ليس من شيء أرسخ منها في العقول . وقد يحتاج المصلحون الى أجيال وقرون لتتغلب عليها . فهناك اذن رأي عام فاسد أو غير صحيح ، ولكنه على كل حال رأي عام ، أي اعتقاد يميل اليه ويقول به جمهور الناس . فالرأي العام اذن موجود دائما في كل جماعة من الناس . ولكنه قد يكون ضالا يهيم على وجهه اذا سيطرت عليه الاوهام والخرافات ، وقد يكون مبهما يتلمس اتجاهاته ابان الازمات السياسية والاجتماعية الكبرى . وقد يكون مقيدا غير حر اذا تسلطت عليه القوة ورسمت له وجهة معينة

وقد يبدو من الغريب أن نقول ان الرأي العام في الغالب هو رأي عام غير حر ، حتى في البلاد الراقية المتمدينة . ذلك انه منذ وجد رأي عام قام أفراد أقوياء بأجسامهم أو بعقولهم ونفوذهم يحاولون تقييده أو توجيهه بشتى سبل التأثير والدعوة ـ حسب رغباتهم وميولهم وأهوائهم

فالرغبة في السيطرة على الآراء العامة أوجدت الرأي العام المقيد غير الحر . فكان الطغيان والاستبداد ، وكان الظلم والاستعباد ، وكان القتل السياسي . كما أن الجهل جعل الرأي العام غير سمح ، أي مقيدا للغير ، فكان التعصب ، وكانت الثورات الاهلية والحروب الدينية ، وكان الارهاب والاضطهاد والقتل بالجملة . ومما لا شك فيه أن تقييد الرأي العام أو انحرافه عن الطريق السوي قد أنتج أضرارا تفوق أضرار الاوبئة والزلازل

واستبداد الجماعة يؤثر في حرية الرأي العام وفي سماحته بقدر تأثير استبداد الفرد ، بل ان علماء الاجتماع يؤثرون استبداد الفرد على استبداد الجماعة . ألم يقل أحد كتاب الفرنجة مداعبا : « ان الاوتوقراطية هي حق الفرد في ظلم المجموع ، وأن الديمقراطية هي حق المجموع في ظلم الفرد » . والى هذا الظلم الواقع من المجموع أشار شاعرنا المرحوم حافظ ابراهيم يوم قال في سقوط السلطان عبد الحميد وقيام العصبة التي ولت الأمر بعده ، فطغت واستبدت وزجت تركيا في الحرب العالمية الماضية :

كان « عبد الحميد » بالامس فردا فغدا اليوم ألف « عبد الحميد »

ومتى ابتليت الجماعات بالطغيان على حريتها سادها الارهاب ، وأصبحت من الخوف تقول غير ما تعتقد ، وتظهر غير ما تبطن ، فتبدو راضية وهي تضمر السخط .. وقد أبدع الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري في وصف هذه الحالة حيث قال :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا من الخوف حال المجمعين على الحمد

ولعل فيما روي عن مبايعة يزيد بن معاوية أروع مثل على الرأي يظهر حرا طليقا من غير قيد ، ثم يؤخذ بالارهاب فيتحول الى رأي مقيد غير حر

وحكاية ذلك أن معاوية لما أراد أن يلي ابنه يزيد الخلافة بعده كتب الى عماله أن يوفدوا اليه الوفود . ثم قال للضحاك : « عند ما تجتمع الوفود اني متكلم ، فاذا سكت فكن أنت

الذى يدعو الى بيعة يزيد ويحض عليها » (وهكذا نرى كيف كانت ترسم خطط الدعاية للتأثير فى الرأى العام . .) ولما جلس معاوية للناس تكلم ، فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال الضحاك : « يا أمير المؤمنين انه لا بد للناس من وال بعدك ، فذلك أحقن للدماء ، وأصلح للدهماء ، وآمن للسبيل ، وخير فى العاقبة . والايام عوج ، كل يوم فى شأن . ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن هديه ، وهو من أفضلنا علما وحلما وأبعدنا رأيا ، فخوله عهدك ، واجعله لنا علما بعدك ، ومفزعا نلجأ اليه ونسكن الى ظله »

وتكلم غيره بنحو ذلك

ثم قال معاوية للاحنف : « ما تقول يا أبا بحر ؟ » فقال : « نخافكم ان صدقنا ، ونخاف الله ان كذبنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه . فان كنت تعلمه لله تعالى ، ولهذه الامة رضى ، فلا تشاور فيه . وان كنت تعلم منه غير ذلك فأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا »

ومن هنا ترون كيف بدت حرية الرأى من جانب الاحنف ، ولكنها حرية كادت تفسد ما كان مدبرا . .

توقف يزيد بن المقنع العذرى وقال : « هذا أمير المؤمنين (وأشار الى معاوية) فان هلك فهذا (وأشار الى يزيد) ومن أبى فهذا (وأخذ بقائم سيفه) » فقال معاوية : اجلس فأنت سيد الخطباء ! » وأذعن من حضر من الوفود

وهكذا ترون كيف يؤخذ الرأى العام بالارهاب فيبدى الاذعان والرضى ، وان أضمر التمرد والسخط . وهذا أيضا وصفه فيلسوف المعرة اذ قال :

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا « صدقنا » فقلنا « نعم »

والناس مختلفون فى تقدير الرأى العام وصحة أحكامه . ولعل الفلاسفة والمفكرين أكثر الناس ازدراء للرأى العام . ذلك لانهم يعرفون سهولة التأثير فيه وسهولة تضليله ، وتحويله عن رأى عام حر نزيه الى رأى عام مخدوع فى حكمه أو مغلوب على أمره . فهذا أحد حكماء الاغريق قام يوما يخطب فى الجماهير فصفقوا له ، فالتفت الى من كان حوله قائلا : « وهل قلت سخافة حتى يصفقوا ؟ »

وكان الشاعر اللاتينى هوراسيوس يسمى الجماهير التى تمثل الرأى العام « القطيع المسوق »

وكان الفيلسوف الفرنسى فولتير يسمى هذه الجماهير : السائمة ترعى

ولكن مهما يكن من أمر هذه المداعبات أو الفكاهات ، فان للرأى العام قوة عظيمة لا تنكر ، وهو اذا ما صحت عقيدته وتركت له حريته اندفع كالسيل الجارف يعبث بالعقبات ويتخطاها ، فلا يقف بوجهه عائق . فيكون حينئذ مرهف الحس صادق الحكم ، ولذلك

قالوا : « ألسنة الخلق أقلام الحق » وهذا قول لم يقض به مجرد السجع ، ولكنه يعبر عن حقيقة . وقد قال القدماء قبل ذلك « صوت الشعب من صوت الله »

وأيا كان رأى هؤلاء وهؤلاء ، فان الجميع ، وبخاصة رجال السياسة ، يعلقون قيمة كبيرة على الرأى العام فى توجيه الحوادث وتسيير سياسة الناس ، وان كان البعض لا يريد أن يتخذ منه مقياسا صحيحا لقيم الاشياء ومقادير الرجال

وعلى كل فان مصلحة الشعوب الحقيقية فى كفالة حرية الرأى العام وعدم محاولة تقييده والضغط عليه ، لذلك قالت المسيحية بتحرير الناس ، ودعا الاسلام الى المجادلة بالتى هى أحسن

قد أكون أطلت فى تحليل الرأى العام الحر ، والرأى العام المقيد ، ووصف مظاهرهما وأثرهما . ولكن هذا ، على ما أعتقد ، يدخل فى صميم الموضوع الذى يتناوله بحثنا . لان فى هذا الوصف وذلك التحليل ما يساعدنا على تعرف العوامل ، وتلمس الوسائل التى توصلنا الى تكوين رأى عام حر يأبى أن يغرر به كما يأبى أن يغرر بالغير ، ويأبى أن تفرض عليه القيود ، كما يأبى أن يفرضها على الغير

وما الرأى العام كما هو معروف سوى مجموع آراء فردية متوائمة تتضام وتتماسك ، فتؤلف كتلة تسير فى اتجاه واحد فى الشؤون السياسية أو القومية أو الاجتماعية . فاذا شئنا أن نكون رأيا عاما حرا كان علينا بداهة أن توجد آراء فردية حرة

والرأى الحر فى الفرد يبتدىء تكوينه فى البيت بين أفراد الاسرة ، ثم فى المدرسة بين الاتراب والمعلمين ، وينبغى فى هاتين البيئتين أن يفسح المجال للولد ليبدى ما يعن له من الآراء والاحكام على ما يرى ويسمع . فاذا حاد عن جادة الصواب فى رأيه أو حكمه على ما حوله من الحوادث والاشياء ، عملنا على اعادته الى الطريق القويم بالتؤدة واللين أما أخذه بالعنف والشدة فليس مما يصوب له رأيا أو يقوم له حكما ، بل ان ذلك يحمله على المخاتلة والمخادعة ، فيألف أن يقول غير ما يرى ، وأن يجاهر بغير ما يعتقد ، فينشأ ويشب وله رأيان : الرأى الذى يبديه رهبة أو رغبة ، والرأى الذى يخفيه خوفا أو طمعا . ثم انه متى كبر وآلت السلطة اليه فى أسرته أو بيئته ، صار بدوره متعصبا لرأيه يريد أن يفرضه على الغير دون أن يقبل فيه مناقشة أو مراجعة . وهيهات أن يكون لمثل من ينشأ هذه التنشئة أن يكون له رأى حر ، وهيهات لامة يربى أطفالها هذه التربية أن يتكون فيها رأى عام حر

ولعل من أكثر التمرينات فائدة للتلاميذ من هذا القبيل تلك المباحثات والمناظرات العامة التى تعقد فى المدارس ويترك فيها لكل فريق أن يبدى رأيه ، مؤيدا أو معارضا ، فى مسألة معينة مدليا فى تأييده أو معارضته بما لديه من الادلة والبراهين المستقاة من غريزته أو ميوله أو من منطقه

هذه هى المرحلة الاولى أو الوسيلة الاولى فى تكوين الرأى العام الحر عن طريق تربية الرأى الفردى الحر

أما الوسيلة الثانية لادراك هذا الهدف فهى الصحافة . ولا شك فى أن الصحف ـ بفضل اتساع انتشارها واقبال جميع طوائف الناس على مطالعتها واستقاء المعلومات منها ـ قد أصبحت العامل الاول والابلغ أثرا فى تكوين الرأى العام وتوجيه ميوله وتحديد اتجاهاته . فينبغى اذن أن تكون الصحف حرة النزعة ، نزيهة المرمى ، تعمل فى جد واخلاص على تحرى الحوادث وتقصى وجهها الصحيح ، ثم تحرص بعد ذلك على بسطها للقراء من غير ما تحيز ولا مسايرة للاغراض والاهواء . واذا كان الصحفى فى العالم الحديث يسير فى طليعة قادة الرأى العام ، وجب أن يعد نفسه صاحب رسالة يؤديها فى الخلاص ونزاهة مهما يكلفه الامر من مشقة وعناء وتضحية . وهو ان فعل يؤدى لبلده أجل الخدمات ، فينير الاذهان ويقوم الآراء ويهذب الاخلاق

لهذا كانت حرية الصحافة أساس الرأى العام الحر ، بل شرطا لوجود جميع الحريات ، كما أن تقييد الصحافة هو مبدأ تقييد الحريات وموجد الرأى العام المقيد والمقيد والمستعبد والمستعبد

وما يقال عن الصحفيين على وجه التخصيص يقال عن حملة الاقلام ورجال المنابر على وجه التعميم ، فكثيرا ما يستطيعون بقلمهم أو بلسانهم أن يرفعوا رأيا وأن يسفهوا رأيا ، فينقاد لهم الناس وتسير وراءهم الجماهير

واذا كانت التربية البيتية والمدرسية من مكونات الرأى الفردى الحر ، واذا كانت الصحافة الحرة من مكونات الرأى العام الحر ، فلان هذه وتلك ترعيان الاخلاق التى تغذى الحرية وتتغذى منها . وفى مقدمة هذه الاخلاق سماحة الحكام وشجاعة المحكومين . وهذه السماحة فى الحكام تفرض فيهم فضائل كثيرة تمكنهم من أن يكونوا سماحيح أحرارا . وهذه الشجاعة فى المحكومين تفرض كذلك فيهم فضائل كثيرة تمكنهم من أن يكونوا شجعانا أحرارا . والتاريخ فى عصوره الذهبية حافل بالمثل العليا من هؤلاء وهؤلاء . فاذا استطاع عمر بن الخطاب أن يقف فى ملأ من الناس ويقول : « من رأى فى اعوجاجا فليقومه » ، فلانه كان الخليفة العادل الذى لم تغيره الامرة ، ولا حابى أحدا فى الحق فلم يطمع الشريف فى حيفه ولم ييأس الضعيف من عدله ، واذا استطاع أن يجيبه من أجاب : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فلان القائل كان فارسا مغوارا وسيفا من سيوف الاسلام

وهذه السماحة فى عمر ساعدت على تكوين الرأى الحر فى عهده .. وجه اليه أحد الناس طعنا . فقيل له : « اتق الله انه أمير المؤمنين » فقال عمر : « دعه فلا خير فيهم ان لم يقولوها فينا ، ولا خير فينا ان لم نقبلها منهم » فهل ادعى من هذا القول الى حرية الرأى بلا قيد

أما حرية الرأى التى يلوح من خلالها شبح القيد فيما قاله معاوية فى مثل هذا الموقف : دخل عليه اعرابى وأغلظ له القول . فحلم عنه ، ومعاوية مشهور بالحلم والاناة ، فقال أحد الجالسين : « أتحلم عن هذا ؟ » فقال : « أنا لا أحول بين الناس وألسنتهم . ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا »

والامثلة كثيرة على اتساق حرية الرأى من سماحة الحكام وشجاعة المحكومين . ولكنى اكتفى بمثل أخير لما فيه من طرافة : جلس لويس الرابع عشر وهو من أعظم ملوك فرنسا يلعب الشطرنج مع أحد أشراف المملكة وحولهما لفيف من رجال البلاط ينظرون . وقام خلاف بين اللاعبين على الدست : أهو للملك أم لملاعبه ؟ ودخل اذ ذاك المرشال دى لوكسمبور ، وكان من أبسل القواد وأشهرهم ، فقال الملك : « سنحكم المرشال بيننا » فقال المارشال من فوره : « الدست له عليك يا مولاى » فقال الملك : « ومن أنباك بذلك قبل أن ترى موقفنا فى اللعب ؟ » فأجاب المارشال مشيرا الى الحاضرين : « صمت هؤلاء السادة . فلو كنت يا صاحب الجلالة على بعض الحق ما ظلوا صامتين . . » فضحك الملك وضحك الجميع

أما اذا خرج الحكام عن حلمهم وسماحتهم ، واذا جبن المحكومون فتخلوا عن شجاعتهم فحينئذ يذهب الناس الى التشبه بالضفدع فيقولون قولها . وماذا قالت الضفدع ؟

قالت الضفدع قولا فسرته الحكماء
فى فمى ماء وهل ينـ ـطق من فى فيه ماء

لا شك فى أن الاخلاق من أعظم مكونات الرأى العام الحر ، ولكن لا بد للاخلاق من حصن يحميها ويصون معها حرية الفكر واستقلال الرأى . وهذا الحصن يجب أن يجده الناس فى القوانين والشرائع ، والدستور عادة فى مقدمتها . لذلك يجاهد الناس فى سبيل الحكم الدستورى ، لان فيه وحده ما يكفل حرية الفرد وحرية الجماعة ، ومن ثم حرية الرأى العام

ونحن بحمد الله قد قام دستورنا على قواعد حرة ومبادىء سمحة : فنص فى مادته الاولى أن مصر دولة حرة وتلت هذه المادة عشرون مادة تؤكد هذه الحرية وتفصلها تفصيلا ، فتعلن أن المصريين لدى القانون سواء ، وأن الحرية الشخصية مكفولة ، وأنه لا يجوز القبض على أى انسان ولا حبسه الا وفق أحكام القانون ، وأن لا عقوبة الا بناء على قانون ، وأنه لا يجوز أن يحظر على مصرى الاقامة فى جهة ما ، وأن للمنازل وللملكية حرمة ، وأن مصادرة الاموال العامة محظورة ، وأنه لا يجوز افشاء أسرار الخطابات والتلغرافات والتليفونات ، وأن حرية الاعتقاد مطلقة ، وحرية القيام بشعائر الاديان محمية ، وأن حرية الرأى مكفولة ، ولكل انسان أن يعرب عن فكره بالقول أو الكتابة أو التصوير فى حدود القانون ، وأن الصحافة حرة ، وأنه لا يسوغ تقييد حرية أحد فى استعماله أية لغة أراد فى المعاملات الخاصة ، وأن التعليم حر ، وأن للمصريين حق

الاجتماع ، وحق تكوين الجمعيات ، كما لهم أن يخاطبوا السلطات العامة بما يعرض لهم من الشؤون . .

وجاءت المادة الثالثة والعشرون تتوج جميع هذه الحريات فقالت «جميع السلطات مصدرها الامة »

وأنى للامة أن تكون كذلك اذا لم تضمن لها جميع هذه الحريات ؟

لذلك اذا شئنا أن ينهض فى مصر رأى عام حر — مع تكوين آراء فردية حرة — وجب علينا أن تتمسك دائما بقواعد الدستور ، وتعمل حكومة وأمة — باحكامه

ولا بد قبل الختام من تحفظ يضع الأمور فى نصابها بعد كل ما قدمنا عن الحرية يقولون ان الصراحة ليست أن تقول كل ما تعتقد ، بل أن تعتقد كل ما تقول . وكذلك حرية الرأى ليست أن تقول كل ما تريد ، بل ألا تقول الا ما تريد

حاولت أن أبسط الوسائل التى تساعدنا على تكوين رأى عام حر . وقد تكون هناك وسائل أخرى غابت عنى فى تحضير هذا البحث ، وقد أعددته كما تعد فى لجاننا بحوث مشكلات ما بعد الحرب ، فاننا ندرسها اليوم نظريا لنطبقها فى الغد عمليا . وما بحثنا فى تكوين الرأى العام الحر الا من هذا القبيل ، فان الحرب كما قدمنا تقضى ضروراتها بالحد الى مدى بعيد من جميع الحريات . ولعل الحرب منتهية عما قريب ، فتعود أحوالنا العامة والخاصة الى أوضاعها الطبيعية

لويد جورج السادس !

كان لويد جورج ، رئيس وزارة بريطانيا الاسبق ، يتنزه فى أرجاء الريف فى سيارته ذات مساء ، فنفد ما فى السيارة من « البنزين » وتعذرت عليه العودة الى لندن . فرأى أن يبحث عن مكان يبيت فيه ليلته هذه ، فوجد مبنى كبيرا حسبه قصر أحد الكبراء ، فذهب اليه وضرب جرس الباب ، فخرج اليه أحد الخدم يسأله ما يريد

قال لويد جورج : أريد أن أبيت هنا الليلة لان « بنزين » سيارتى نفد

قال الخادم : أين تبيت ؟ ليس هذا بفندق ولا بيت ، بل مستشفى مجاذيب

قال لويد جورج : ولكن ، انى أريد أن أبيت كيفما كان . . واحب ان أعرفك بنفسى ، فأنا لويد جورج رئيس الوزارة السابق

فقال الخادم ضاحكا : اذن تفضل . فان لدينا خمسة يدعى كل منهم أنه لويد جورج . فلتكن أنت لويد جورج السادس !

إن الحروب رغم ويلاتها ، تحمل على نارها وبارودها وألغامها وقنابلها ، برداً وسلاماً ، وتقفز بالانسانية أحقاباً وأجيالا إلى الأمام

أبالحروب تنعم الانسانية ؟

بقلم الدكتور أمير بقطر

أجل بالحروب تنعم كما أنها بالحروب تشقى . أليست هذه سنة الطبيعة ؟ ألا يسير القبح والجمال ، والعسر واليسر ، والعنف واللين ، والقسوة والرحمة ، والسماجة والظرف ، والاعتلال والصحة ، والعبوس والطلاقة — ألا تسير هذه فى العالم الذى نعيش فيه جنبا الى جنب ؟ ألم يرد في التوراة أن من الاكل خرج أكل ومن الجافى خرجت حلاوة ؟ أجل ومن الموت تنبعث الحياة ، ومن الفناء يولد الخلود ، وعلى أنقاض الهدم يشاد البناء

منذ فجر التاريخ تركب الانسانية متن التقدم على أسنة الرماح ، وتسمو الى ذرى المجد على شفرات السيوف . ألم تؤد الحروب بين الولايات اليونانية فى التاريخ القديم الى ارتفاع صوت « يوريبدس » فى كتابه « نساء تروجان » احتجاجا على قتل النساء والاطفال واسترقاقهم بلا رحمة ؟ ألم يدافع « فرجيل » اثر الحروب والثورات فى الدولة الرومانية ، دفاع الأبطال عن حقوق الشعوب ؟

وفى العصور الوسطى ، ألم تنلك حروبها روح النخوة والانسانية فى رجال الكنيسة ، فقاموا ينادون بالمحبة والاخاء بين الامم والشعوب ؟ وفى حرب الثلاثين سنة ألم ينادِ « جرتيوس » مؤسس القانون الدولى بالتحكيم وتنظيم الحرب على مبادىء الرحمة ، بعد أن شاهد الانسانية عارية من كل صفاتها ؟

وفى العصور الحديثة ، وضعت « فلورنس نايتنجيل » ملاك الرحمة الاول نواة التمريض فى أرض خصبة عقب حرب القرم ، فظهرت حركة الصليب الاحمر . وفى نهاية الحرب العالمية الاولى قامت عصبة الامم ، وقرر أفرادها مبادىء انسانية فى شتى النواحى لم يعمل بها كلها ، ولكنها على كل حال جاءت بفوائد لا تنكر

كانت انجلترا فى عهد دزرائيلى عالمين : عالم الفقير ، وعالم الغنى . وكانت جميع المنشآت الاجتماعية على هذا الاساس . فالتعليم مثلا كان نوعين ، وكان أحدهما عقيما مجدبا ، ينتهى مبكرا ، ولا يؤدى الى شىء ، ولا يفتح مجال الفرص واسعا ، ولا ينتهى بالناشىء الفقير الى باب من أبواب الرقى . وكان النوع الثانى تعليما مشرفا لابناء الطبقات

العليا وذوى المهن الشريفة وكبار الموظفين وحكام المستعمرات . وكانت الحالة أشد سوءا قبل حروب نابوليون ، فلما أن وضعت هذه الحروب أوزارها أخذت انجلترا تنهض من سباتها ، فأيقنت أن ابقاء جيش من الفقراء الجهلاء بين فئة قليلة من الموسرين المثقفين ، معناه وضع كومة من البارود قابلة للانفجار . وفضلا عن ذلك فقد أيقن أولو الشأن أن الكفاية فى العمل والصناعة تتطلب قسطا من التعليم والعناية بالصحة فاخترعوا القراءة والكتابة والحساب ، وتوجت هذه الحركة بجعل التعليم الزاميا سنة ١٨٧٠

وقد ألقت الحرب العالمية الاولى ضوءا جديدا على المسائل الاجتماعية ، من صحية وثقافية واقتصادية ، وزاد هذا الضوء شدة وبريقا فى الحرب العالمية الحاضرة . فقد تنبهت الاذهان الى أن الحروب الحديثة تتطلب رجالا أصحاء بدنا وعقلا ، مطمئنى البال اقتصاديا ، وأن صناعة الحروب سواء أكانت فى معمعة القتال ، أم فى أعماق المناجم ، أم فى عجيج المصانع ، تتطلب جانبا غير ضئيل من الثقافة العامة ، فضلا عن حذق الفنون والصناعات والمهن . وقد وجد بالاختبار كذلك أن الحروب الحديثة لا تقوم لها قائمة ، ما لم يسندها رأى عام مستنير ، يكون بمثابة الحافز والقوة الدافعة ، فتنبهت الامم الى فتح أبواب العلم واسعة لكل ناشىء قادر ، والاكثار من المعاهد التكميلية ، الثقافية والصناعية والفنية منها للكبار ، حتى تتمشى معلوماتهم مع الخطى السريعة التى يعدو بها القرن العشرون . فهذه انجلترا تعلن أنها فى حاجة بعد الحرب الى سبعين ألف معلم فوق ما لديها الآن ، وأنها رغم ما ترصده على التعليم فى ميزانيتها العامة وهو ١٢٣ مليون جنيه سنويا تقريبا ، تطالب الآن برفع هذا المبلغ الى ١٩٠ مليونا . وكانت قبل الحرب العالمية الاولى تمنع الجنس اللطيف من دخول كليات الطب فيها ، فضلا عن أن جامعة اكسفورد الشهيرة لم تفتح أبوابها للبنات قبل سنة ١٩٢٥ ، وقد جاءت تلك الحرب فقضت على هذه الآراء الرجعية التى لا تتفق ومبادىء الانسانية . وقد جاءت الحرب الحاضرة فمحت كل قيد تقاق أساسه جنس الطالب ، ذكرا أم أنثى . وما يقال عن انجلترا يقال عن سواها من البلدان . فهذه مصر يقول وزير المعارف فيها ان رفع ميزانية التعليم السنوية من ٦ ملايين الى سبعين مليونا هو ما كان يجب عمله فيما لو أردنا مجاراة انجلترا

هذا من حيث التعليم، أما عن سائر المشروعات الانسانية من صحية واقتصادية، فحسبى أن أشير الى مشروع بفردج وأمثاله فى امريكا وغيرها من البلدان ، وما تشمله هذه المشاريع من المسائل التى ستقفز بالانسانية ألف سنة الى الامام ، فتضمن للمريض ، والمسن ، واليتيم ، والارمل ، والفقير ، والجاهل ، والمقعد ، ما يحتاجه من علاج ودواء ومعاش ومأوى وثقافة وطعام وكرامة وعزة وراحة بال . وحسبى أن أشير الى تلك الاكواخ الحقيرة التى يسكنها فقراء العمال والصناع فى انجلترا ، والتى صحت العزيمة على استعاضتها باربعة ملايين منزل حديث مجهز بجميع الوسائل من ضوء وهواء ودفء وماء

جار ساخن وبارد وكهرباء ، وكل ما استطاع العلم الحديث استنباطه من رفاهية وبساطة وذوق سليم وفن بأقل نفقة ممكنة ، وبكل ما يستطاع بلوغه من وسائل الصحة والراحة والجمال مجتمعة . وقد اتفقت جمعيات البناء والتعاون وحدها فى انجلترا واسكتلندا على بناء نصف مليون بيت بعد الحرب تنفق عليها من خزائنها متى مليون جنيه

ولست أريد أن أتعرض لميادين العلم والاختراع والاكتشاف ، فان هذا تضيق به صفحات « الهلال » . وحسب القارىء أن يلقى نظرة سريعة الى حافز الحرب الحاضرة وما أذكاه من نار الغيرة فى نفوس العلماء ، فاستطاعوا بفضل المواد « السلفانية » أن يقضوا على أشد الجراثيم خطرا ، وأكثر الامراض استعصاء ، وتمكنوا من تعميم مادة «البنيسلين» السحرية بين الجنود ، وكادوا يجعلونها سلعة سهلة التناول ومتاعا مشاعا للجميع بعد الحرب ، وبذلك أنقذوا من براثن الموت الملايين من النفوس . ولعل قراء « الهلال » يذكرون أن المشوهين من الجنود الذين يفقدون سواعدهم وسيقانهم ، يستطيعون الآن بفضل الجراحة ، وطب العظام ، وصناعة الاعضاء الصناعية ، أن يستعيضوا عنها بما يمكنهم من تأدية أعمالهم اليومية بمهارة لم يسبق لها مثيل ، حتى أن بعضهم استطاع أن يدرب على استعمال الآلة الكاتبة رغم أن ذراعه من المطاط . وهل يصدق أحد ما ترويه صحف اميركا عن قطع دابر السيلان بعد علاج أيام ، واستئصال داء الزهرى فى يوم واحد ، واستبدال قرنية العين للاعمى بقرنية مبصر ميت ؟ ولعل أشد عجبا من هذا كله ما يراه رجال الاصلاح الاجتماعى من وجوب تعميم هذه الوسائل الانسانية بعد الحرب ، وجعلها فى متناول الفقير والغنى على السواء ، بل أكثر من ذلك تجنيد رجال الطب جميعهم لخدمة الجمهور بغير أجر ، على أن تتولى الحكومة دفع مرتبات تتفق ومنزلتهم الاجتماعية

ولم تقف هذه النزعات الانسانية عند حد الاختراع والاستكشاف وتوفير الوسائل الطبية والصحية والتعليمية ، ولكنها تجاوزت ذلك كله واخترقت ميدان السياسة . فهذا « ولفرد روبرتس » من ممثلى حزب العمال فى مجلس العموم البريطانى يقف اليوم فى جلسة حربية صاخبة من جلسات البرلمان ويجاهر بقوله ان مشروع « بفردج » لا يشفى غليلا طالما كان مستقبل بريطانيا موقوفا على مجلس عمومها ، وطالما كان هذا المجلس لا يمثل بريطانيا تمثيلا صادقا ، وذلك للاسباب الآتية : (١) ان متوسط أعمار أعضائه فى خلال الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الاولى والحاضرة فوق الخمسين سنة (٢) ان أكثر من نصف الاعضاء تلقوا علومهم فى مدارس الاشراف الشهيرة المعروفة باسم المدارس العامة مثل « ايتون » و « هرو » و « رجبى » و « ونشستر » (٣) ان ثلث الاعضاء الذين يمثلون حزب المحافظين من خريجى « ايتون » و « هرو » (٤) ان العضو لا يقل دخله عن ٥ آلاف جنيه فى العام . ومعنى هذا أن الشاب ، والفقير الذى لا يستطيع أن يتحمل نفقات الانتخاب ، لا يستطيعان دخول المجلس ، وعلى هذا يطالب بتعديل دستوره تعديلا يفسح

المجال لذوى الكفايات بغض النظر عن كل اعتبار آخر ، ويدخل العناصر التى تمثل الامة تمثيلا صحيحا

* * *

لم يبق علينا الا تحليل هذه الظاهرة ، وأعنى بها ان الحروب رغم ويلاتها ، تحمل على نارها وبارودها ، وألغامها وقنابلها ، بردا وسلاما ، وتقفز بالانسانية أحقابا وأجيالا الى الامام . الحروب كالثورات والمجاعات والاوبئة وسائر الكوارث التى تصيب الناس ، وحدانا وجماعات ، تشحذ القرائح ، وترهف الوجدان ، وتلين القلوب القاسية ، وتذكى فى العقول والافهام شعلة الذكاء ، كما تبعث فى النفوس الرحمة الانسانية ، والعناية بطبقات الامة المغلوبة على أمرها ، ونسيان الماديات فترة من الزمن وان قصرت ، والتأمل فى الروحيات ، وخشية المجهول ، وازدراء الحياة الدنيا ، والتفكير فى الآخرة . وهذا كما قلنا يتمشى وما يناقضه من الصفات ، كالوحشية ، والقسوة ، والعنف ، والظلم ، والاستبداد ، التى تبدو فى ناحية من نواحى الحرب ، على محاذاة الناحية الاخرى التى توازيها مكانا وزمانا ، وتصطدم واياها مبدأ وصفة

ان الرأى العام الذى يمهد لجميع هذه النزعات الانسانية طريقها ، ويخلق لها الجو المناسب ، يرى أمام عينيه بنيه وبناته وأصدقاءه وأحبابه وجيرانه ، يقتلون تقتيلا ، ويمثل بهم أشنع تمثيل ، فى ميادين القتال ، ومصانع الذخيرة ، والمدن الآمنة المطمئنة البعيدة عن ساحات الوغى . يرى هذا فيوقن أن الحياة حلم زائل ، وأن هذه الجثث المهشمة ، الراقدة تحت الانقاض فى المدن ، وهذه الاجسام المكدسة المشوهة ، الهاجعة فى وادى القتال ، ما هى الا نذير الفناء وعلامة الهلاك بالجملة ، ونهاية الحياة والبشرية . هذه الخواطر تجول فى نفوس العظماء والكبراء والموسرين والمترفين المستهترين ، فيزهدون فى الدنيا ومالها وزهوها وبهائها ، ثم سرعان ما تحن جوارحهم ، وتلين أفئدتهم ، فيفكرون فيما كانوا عنه لاهين ، ويذكرون ما كانوا ناسين أو متناسين ، فيسوقون الى الفقير والجائع والمريض والجاهل ، جيلا بعد جيل ، ويتعهدونه بالمشاريع النافعة ، ويأملون ، ولو الى حين ، أن تنتقل هذه الانسانية المعذبة من براثن الشقاء الى أعطاف النعيم

من هذا نرى أن الحافز للعلماء والمخترعين والمكتشفين ابان الحرب شدة الحاجة ووضوح الهدف ، واتساع الفرصة ، وضمان الجزاء . ولا يكاد يقف فى طريق العالم عقبة ، أو يحول بينه وبين النجاح حائل ، طالما كان الدافع motivation أو الحافز قويا ، وطالما كان الباعث incentive مباشرا ، والخطر محدقا ، والموت ماثلا ، والجزاء مؤكدا سريعا . هذا من ناحية

ومن الناحية الاخرى ان الحافز لاولئك الغلاظ القلوب ، الانانيين ، المستكبرين ، الذين يبن طرفة عين وانتباهتها ، يصبحون من « محبى الانسانية » — هذا الحافز ما هو فى الحقيقة الا ضرب من الاعلاء sublimation ، هو تضميد لجراحهم الثاخنة ، وشفاء

لقلوبهم الكسيرة ، وتكفيهم عن ماضيهم الحافل بالانانية والاثرة ، وتخفيفا لآلامهم . ومثل ذلك مثل الشاعر الذى يموت له حبيب ، فينظم أجود ما أوحت به القريحة من القريض ، ومثل المصور الذى يرسم اللوحات الرائعة ، والمثال الذى يخرج القطع الفنية الفريدة فى بابها ، اثر كارثة ، أو فجيعة ، أو حزن لا طاقة له على تحمله ، فيستحيل ضغطه الى قوة جبارة كالبخار ، يسخرها فى ناحية من نواحى الفن . وقد تتجه هذه القوة أحيانا الى ناحية هستيرية أو شبه هستيرية . فقد جاء أخيرا من لندن أن قاعة « ونجمور » فى العاصمة يتزاحم الناس عليهـا بالمناكب ، وقاعة ونجمور هـذه ، تعقد فيها جلسات « لاستحضار » الارواح ، وقد زرناها فى سنة ١٩٣٩ مرات عديدة ، فكنا لا نرى بين الوافدين اليها سوى فئة قليلة من الناس أكثرها من العوانس والشيوخ . ومن أغرب ما سمعنا أخيرا أن عدد المشتغلين بالارواح فى انجلترا بلغ المليون ، وأن هذا العدد ينقص ويزيد تبعا لعدد الغارات وشدة القنابل وضعفها . وليس هذا من الغرابة فى شىء ، فالناس مهما سمت ثقافتهم ، كالغرقى يتعلقون بأوهى الاشياء ، عند حلول الكارثة

أمير بقطر

أسرع الادباء فى الانتاج

كان الاديب الفرنسى الكبير الكسندر دوماس أسرع الادباء فى الانتاج . ويبلغ عدد ما تركه من الآثار الادبية ٢٧٧ مجلدا . وقد مرت عليه فترة من الوقت كان ينتج فيها فى السنة الواحدة قرابة أربعين مجلدا

وكان السر فى هذه السرعة والوفرة فى الانتاج ، انه كان يستعين بعدد من الادباء والمتأدبين ، يشاركونه فى تأليف بعض قصصه ومسرحياته . وكان أهم هؤلاء المعاونين أديبا شابا اسمه أوجستس ماكيه ، وقد عاونه فى تأليف أشهر قصصه الفرسان الثلاثة ، والكونت دى مونت كريستو

وتاريخ دوماس حافل بمغامرات الحب والهوى . وكانت أكثر هذه المغامرات مع بنات المسرح الفرنسى من ممثلات وراقصات ومغنيات . وقد أقام قلعة فى احـدى ضواحى باريس ، سماها قلعة مونت كارلو ، واتخذها مرسحا لغرامياته

وكان دوماس سخيا جوادا على أصدقائه وزملائه . فوضع فى ردهة قصره هذا آنية كبيرة مملوءة بالنقود الذهبية ، ليأخذ منها أصدقاؤه الفقراء والمأزومون دون أن يسألوه ، ليحفظ عليهم ماء الحياء أن يريقه ذل السؤال

وقد ربح دوماس من قصصه ومسرحياته ربحا ضخما ، ولكن الجود يفقر كما قال شاعرنا القديم ، ولهذا مات فقيرا معدما . .

برنامج مصر السياسي بعد الحرب

بقلم الأستاذ محمد رفعت بك

مراقب التعليم الثانوى بوزارة المعارف

أشارت بعض الانباء البرقية العامة منذ زمن قريب الى ما قد ينتظر مصر بعد الحرب من مكانة عالية تجعلها فى مصاف الدول العظمى ، ويحق لنا ما دمنا نرشح أنفسنا أو يرشحنا غيرنا لتبوأ هذه المرتبة السامية أن نقف على كنه الدول العظمى والأسس التى تقوم عليها سياستنا الدولية بعد الحرب

النفوذ السياسى

ليست هناك قوانين تصدر أو قرارات تتخذ بشأن الدول التى يصح أن نطلق عليها الدول العظمى . فجميع الدول المستقلة متساوية القيمة من الوجهة القانونية . انما يكون التمييز بينها من حيث النفوذ السياسى فقط . فالدولة العظمى هى التى تستطيع أن تغلب ارادتها وتجعل لكلامها وزنا أكثر من الدول الاخرى . ولا يستدعى ذلك أن تكون الدولة أكثر ثقافة أو أوفر ثروة أو أرقى معيشة من غيرها بل المسألة كلها تنحصر فى القوة فقط ، ولكنها القوة التى ارتقت بتطبيق العلم والنظام فأصبحت تمتاز على القوة العددية أو القوة الهمجية . وهناك عامل آخر ظهرت أهميته فى السنين الاخيرة هو الرأى العام والمسئولية الادبية التى تستند اليها الدولة فى تطبيق قوتها . فكل قوة حربية مهما بلغت درجتها من المتانة والكفاية لا تستند الى قوة أدبية موازنة من جانب الرأى العام لا يكون لها الاثر الفعال فى تغليب ارادة الدولة

فطنت الدول الى ذلك فى الحرب العظمى الاولى فتألفت وزارات الدعاية ــ وكانت وزارة الدعاية فى انجلترا برياسة لورد نورثكليف من أهم العوامل التى ساعدت على كسب الحرب الاولى ــ وفطن الى ذلك موسولينى فى أثناء الازمة الاثيوبية سنة ١٩٣٥ــ١٩٣٦ فلم يحفل بقوات بريطانيا التى كانت تناوئه لانه كان يعلم تمام العلم أن من وراء القوات البريطانية فى البحر وفى الجو وفى البر ارادة الشعب الانجليزى الكامنة التى كانت تتوق الى السلام العام وتمقت الحرب فتحدى بريطانيا ومن ورائها عصبة الامم وكسب موسولينى المعركة

وقد كانت الدول العظمى بعد مؤتمر فينا خمسا : انجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا . وانضمت اليها ايطاليا عقب دخولها حرب القرم الى جانب الحلفاء سنة ١٨٥٦ وفى سنة ١٨٧١ أصبحت بروسيا ألمانيا عقب انتصارها على فرنسا ، وأصبحت اليابان دولة

كبرى عقب محالفتها مع انجلترا سنة ١٩٠٢ وانتصارها على الروسيا سنة ١٩٠٥ وأصبحت الولايات المتحدة دولة عظمى بعد انتهاء الحرب الاهلية بها وانتصارها على اسبانيا سنة ١٨٩٨ فى الحرب الاسبانية الامريكية

مصر والنفوذ السياسى

ويلاحظ فى ارتقاء الدول الاخيرة الى مصاف الدول العظمى تفوق قواتها حربيا وبحريا، فهل أعدت مصر من القوة ما يجعل لارادتها وزنا تشعر به الدول فى أثناء مفاوضاتها اذا اشتركت فى هيئاتها واجتماعاتها ؟

قد يكون لنا نفوذ ثقافى واقتصادى يذكر ولكن عهد الاستقلال لم يطل بنا زمنا يكفى لتجهيز أنفسنا فى الجو والبحر والبر ، ولا مناص لنا اذا كنا حقيقة نتطلع من ثنايا تاريخنا القديم الى المكانة السامية التى تنتظرنا ، لا مناص لنا من أن نعد أنفسنا لذلك ، ولنبدأ بالقوتين البحرية والجوية ، فهما الدعامتان القويتان اللتان تستند اليهما الامة فى الحرب وفى السلم ، فى شؤون التجارة والمواصلات ، ألا أن البحر والجو هما مهد البطولة والتفوق ولا سبيل الى عظمة الامم فى المستقبل القريب أو البعيد الا عن طريقهما . لقد فطن محمد على الكبير الى أهمية القوة البحرية فى نهضة البلاد فأولاها اهتماما يساوى ان لم يفق اهتمامه بالجيش حتى أصبحت مصر فى عهده الدولة الثالثة فى البحر الابيض المتوسط ، بعد بريطانيا وفرنسا

واذا كانت ايطاليا تدعى الى وقت قريب أن البحر المتوسط بحرها ، وعليه كان الطليان يطلقون فى كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم « بحرنا » وكانوا يستندون فى دعواهم هذه الى أن سواحل ايطاليا من كل جهاتها يغمرها البحر وأن الرومان القدماء قد سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدة قرون . فان لمصر فى البحر الابيض والبحر الاحمر تاريخا مجيدا ، قديما وحديثا ، قديما حين كانت مصر ترسل أساطيلها فى عهد الملكة حتشبسوت تمخر عباب البحر الى بلاد « بنت » وهى بلاد الصومال الحديثة ، وحديثا حين كانت مصر تسيطر بأسطولها على سواحل لبنان وجنوبى آسيا الصغرى وفلسطين وكريت وبلاد العرب والسودان وحين احتلت جنودها فى عهد الخديو اسماعيل مصوع وزيلع وبربرة ، وحين وصلت منارات مصر على ساحل البحر الاحمر والمحيط الهندى الى جنوبى مصب نهر جوبا عند خط الاستواء

فاذا ما لجت الدعوى بايطاليا فزعمت انها واقعة وسط الطريق فى البحر المتوسط وانها تسيطر من الوجهة الحربية على قسميه الشرقى والغربى ، فان لنا أن نعتبر البحر الاحمر امتدادا للبحر المتوسط وحينئذ تكون مصر لا ايطاليا هى القابضة على أوسط مكان فى البحر وواقعة فى أدق وأهم النقط الحربية الاستراتيجية منه . وليس أدل على أهمية موقعها من وجودها فى مفترق الطرق بين القارات الثلاث . وأهم من كل ذلك انه يكفى

أن تكون مصر هي المالكة لقناة السويس التي هي الشريان الحيوى للبحرين ومصدر النشاط السياسي والتجارى فيهما لتقول بملء فيها ان البحر الابيض المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها

ولقد أظهرت الحرب الحالية بدرجة لا تدع مجالا للشك مدى الخطر الذى استهدفت له مصر من ناحية البحر عند ما وقف الالمان عند العلمين فى يونيه سنة ١٩٤٢ فلم يكن مصدر الخطر حينذاك الهجوم البرى ولكن الخطر كل الخطر أن الالمان كانوا يعتزمون السيطرة على ساحل مصر الشمالى وقطع مواصلاتها بالخارج ثم عزل مصر ومن بها من جيوش الحلفاء ، الى أن ينطبق فكا الكماشة الالمانية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى

من ذلك يتبين أن تاريخنا الماضى والحديث وأن موقعنا الجغرافى والحربى يحتم على مصر أن تولى وجهها فى سياستها الدولية بعد الحرب نحو البحر الابيض المتوسط وأن تستعيد فيه مكانتها ان لم تكن الاولى فلتكن فى الصف الاول بين دوله

سياسة مصر نحو قناة السويس

وأولى مسائلنا الخارجية التى تستدعى اهتمامنا بعد الحرب ، مسألة قناة السويس . وقد كانت القناة من الاهداف الكبرى التى اتجهت اليها الخطط الحربية فى الحرب العظمى الاولى والحالية . كانت القواعد الدولية التى تحكم قناة السويس مستمدة من اتفاق القسطنطينية سنة ١٨٨٨ بين الدول التى يهمها أمر القناة ، وهى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولنده وايطاليا واسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا . ومقتضى هذه المعاهدة أن تبقى القناة مفتوحة فى السلم والحرب لجميع السفن التجارية والحربية . وأن يحظر حصرها بحريا كما يحظر تحصين سواحل القناة أو القيام بأعمال حربية فيها أو على مسافة ثلاثة أميال من سواحلها ، وألا تبقى السفن الحربية التى تمر بها أكثر من أربع وعشرين ساعة .

وقد نفذت هذه الشروط بدقة فى أثناء السلم وفى أثناء الحرب ، وخاصة فى الحرب التى تنشب بين دول صغيرة أو بين دولة صغيرة واحدى الدول الكبرى . أما حين تنشب الحرب بين الدول الكبرى كما حصل فى الحرب العظمى الاولى وفى الحرب الحالية ، فان انجلترا بحكم مركزها فى مصر وتفوقها فى البحر ، كانت تسيطر على القناة وتتحكم فى حركة الملاحة بها . ففى الحرب الامريكية الاسبانية سنة ١٨٩٨ مرت السفن الاسبانية داخل القناة للدفاع عن جزر الفلبين ، وفى سنة ١٩٠٥ مر الاسطول الروسى لمحاربة اليابان

ولما قامت الحرب الايطالية الاثيوبية مرت السفن الايطالية الحربية والتجارية دون أى اعتراض . غير أن الجو كان مشبعا حينذاك بامكان اغلاقه فى وجه ايطاليا ، ولو أعلنت مصر أو العصبة اغلاق القناة فى وجه السفن الايطالية التى كانت تحمل الجند والمؤن والطيارات ، لفسدت خطط ايطاليا ، وباءت بالفشل الذريع

لذلك اشتد قلق ايطاليا بعد استيلائها على الحبشة ، وزاد خوفها وسخطها عند ما تمت معاهدة المحالفة والصداقة بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، فقد نص فى هذه المعاهدة على أن لانجلترا أن تساعد مصر فى حماية القناة ، وصرح لها مؤقتا بوجود حامية عددها ١٠٫٠٠٠ جندى و٤٠٠ طيار بمنطقة القناة لهذا الغرض . وبما أن معاهدة سنة ١٨٨٨ تقضى بأن لا يكون لاحدى الدول امتياز خاص بها لا يتمتع به غيرها ، فقد عدت ايطاليا معاهدة ١٩٣٦ فيما يخص القناة خرقا للاتفاق الدولى الذى وافقت عليه بريطانيا

هذا سبب تبرم ايطاليا التى أخذت تطالب قبيل الحرب الحاضرة بضرورة اعادة النظر فى شأن القناة ، حتى يصبح أمر الدفاع عنها حقا دوليا تشترك فيه ايطاليا ، كما يشترك مندوبوها فى مجلس ادارتها . ولكن فات ايطاليا ومن على رأيها من الدول ، أن القناة ممر صناعى لا طبيعى كجبل طارق أو الدردنيل ، محفور فى أرض مصر بأمر من حكومة مصر ، وهو ملك لمصر بغض النظر عن الشركة التى تديره ، وهذه الشركة نفسها سينتهى عقد امتيازها فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ ، وحينئذ تصبح الشركة مصرية ، وما على مصر الا أن تتفق مع الشركة على ثمن ما يتخلف من الآلات والمؤسسات . وأن هناك قنوات صناعية فى العالم غير قناة السويس وهى مملوكة لاصحابها ، ولم يقل أحد بضرورة جعلها دولية ، فهناك قناة « بناما » بين المحيط الاطلسى والباسفيكى فى يد الولايات المتحدة باتفاق بينها وبين بناما ، وقناة « كيل » بين بحر البلطيق وبحر الشمال تابعة لالمانيا ، يضاف الى ذلك أن مصر دولة مستقلة لها مطلق الحرية فى اختيار حلفائها والتعاقد معهم على ما ترى فيه مصلحتها

وعلى ذلك يجب أن تقوم سياستنا نحو القناة على الاسس الآتية :

أولا — التمسك بحرية الملاحة فى القناة ، وبالحيدة التامة فى الحرب وفى السلم

ثانيا — أن تكون مصر وحدها المسئولة فى النهاية عن الدفاع عن القناة

ثالثا — أن نهيء أنفسنا من الآن للاضطلاع بشؤون القناة ، فنعمل على تكوين أسطولنا التجارى والحربى . ونشترط على الشركة أن يحل المصريون بدل أعضاء مجلس ادارة الشركة الذين تخلو أماكنهم بالوفاة أو بالتقاعد ، وأن يعين المصريون فى الوظائف الادارية والفنية الكبرى التى تخلو بالشركة، حتى يستطيع المصريون ان يضطلعوا بالاعمال تدريجيا الى أن ينفردوا بالعمل ، وبذلك تتكون النواة التى تنشأ حولها مصلحة خاصة بالقناة على نظام مصلحة السكة الحديدية . وهذا نظام يشبه ما اتفقت عليه مصر مع الدول بشأن الغاء المحاكم المختلطة بمقتضى معاهدة منترو سنة ١٩٣٧

رابعا — يجب أن نحذر الوقوع فى فخ الدولية فلا نستمع الى ما يقوله البعض من أن منافذ البحار يجب أن تكون منفعة دولية عامة ، تحرسها هيئة دولية ، فانه اذا كان هذا المبدأ مفهوما فيما يخص المنافذ الطبيعية مثل جبل طارق وباب المندب والدردنيل ، فمن

غير المعقول أن يطلب الى دولة أن تنزل عن شبر من أرضها ومائها دون رضائها ، وحتى فى المنافذ الطبيعية نشاهد الآن أن تركيا لم تستطع صبرا قبل الحرب الحالية على التمسك بحيدة بوغازاتها ، فأخذت تحصنها وتسلحها وتتحكم فيها

سياسة مصر فى أفريقيا

تأتى بعد ذلك شؤوننا فى أفريقية ويجب أن ندرك من الآن أن الحرب الحالية قد جعلت من أفريقية ميدانا هاما للتنافس الحربى والسياسى بين الدول . وسيكون لها بعد الحرب شأن ممتاز فى الميزان الدولى . وأرى أن تقوم سياستنا فيها على الأسس الآتية :

أولا — كانت الصحراء الكبرى الغربية تعتبر من الحدود التى لا تقهر والتى لايستطيع العدو اختراقها ، ولكن اختراع السيارات والطائرات فى أواخر القرن التاسع عشر قد أخضع الصحراء لجبروت العلم والآلات ولم تعد لها حصانتها الحربية الماضية . وحين كانت العلاقات بين بريطانيا وايطاليا ودية لم تكن مصر ولا بريطانيا لتهتم احداهما بحدودنا الغربية . لذلك اتفقت مصر وايطاليا فى سنة ١٩٢٥ بوساطة بريطانيا على تعديل هذه الحدود بيننا وبين ليبيا وجعل خط طول ٢٥ شرقى جرينتش حدا فاصلا وبذلك دخلت واحة جغبوب فى حدود ليبيا

وقد أظهرت الحرب الحالية كيف استطاع العدو أن يتخذ من هذه الواحة قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على حدودنا . فعلينا أن نعيد النظر فى حدودنا الصحراوية على ضوء التطورات الحديثة لحرب الصحراء وألا نهمل حدودنا الغربية وجيراننا من الغرب كما أهملناهم فى الماضى

ثانيا — لما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها فى أفريقية عقب ترك السودان سنة ١٨٨٥ نشأت نظرية خاطئة كانت تقول بأن السودان وقد تخلت عنه مصر صار نهبا لمن سبق ، وبات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها ممتلكاتها مؤقتا لم تتخل عن أى حق فيها ، وأن هذه الحقوق قد كسبتها اما بحق الفتح واما عن طريق الوراثة من تركيا وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ على أن يحكم الخديو جميع ملحقات مصر فى افريقية بحق الوراثة فى ذريته للاكبر فالاكبر من أبنائه ، فاذا كانت بعض الدول قد انتهزت هذه الفرصة وأشبعت اطماعها بضم أجزاء من أملاكنا الى مستعمراتها فان من الحتم علينا ان نعمل من الآن على استرداد حقوقنا من أول هيئة دولية تعقد بعد الحرب

ومن عجب أن نذكر أن بريطانيا قد ساعدت فى الماضى بعض أعدائها اليوم على التهام جزء من أراضينا وفى مقدمة هذه الدول ايطاليا التى أخذت مصوع سنة ١٨٨٥ وكونت منها مستعمرة « ارتريه »

ثالثا — ان حقنا فى ماء النيل مسألة طبيعية حيوية تتوقف عليها حياتنا وثروة بلادنا . واذا كنا قد اتفقنا مع حليفتنا انجلترا على سياسة مائية معينة تتبع فى السودان ، ونضمن بها

نصيبنا من الماء بعد انتهاء خزان جبل الاولياء فلا يزال أمامنا الاتفاق مع اثيوبيا بشأن بحيرة تسانا ، ويتعين علينا أن ننتهز أول فرصة دولية لتسجيل حقنا كاملا فى مياه النيل وروافده

الوحدة العربية

وأخيرا أمامنا موضوع « الوحدة العربية »

وقد كان الطريق الى تأليف هذه الوحدة ممهدا ذلولا منذ الحرب العالمية الاولى ولكن السياسة الاوربية التى تلت الحرب قد خيبت الآمال التى عقدها العرب على بريطانيا فبدلا من الوحدة نبتت دويلات متجزئة متفرقة ومشاكل معقدة أنتجت عدة ثورات كادت تودى بمركز بريطانيا فى شرق البحر الابيض المتوسط

ومسألة الوحدة العربية مسألة عاطفية قومية قبل أن تكون مسألة سياسية . والمعروف عن الخلق البريطانى انه خلق عملى يتخبط ويتعثر اذا واجهته حركة عاطفية وطنية . فلا عجب اذا رأينا الانجليز يخطئون فى سياستهم نحو العرب كما قديما أخطأوا فى أمريكا وفى الهند وفى ايرلنده وفى مصر وكما انتهى الامر فى تلك البلاد بأن فهمت انجلترا حقيقة الموقف واذعنت له كذلك يظهر ان الامر سينتهى ببريطانيا وحلفائها أخيرا فتعترف بحق الشعوب التى تتكلم اللغة العربية سواء فى شرق البحر الابيض المتوسط أم فى جنوبه

وأهم ما أفادته انجلترا وفرنسا من المسألة العربية حصولهما على البترول من العراق وتوصيل الانابيب من الموصل الى حيفا فى فلسطين لتغذية السفن البريطانية، والى طرابلس لتغذية السفن الفرنسية وكانت فرنسا تستورد من هذا البترول ٤٠ ٪ من مجموع ما تحتاجه منه ، وها هى الولايات المتحدة بامريكا تحاول تدعيم نفوذها السياسى بتوصيل أنابيب البترول من الخليج الفارسى الى البحر الابيض المتوسط

وقد استقل الملك عبد العزيز بن سعود فى بلاد العرب واستقر له الامر فى المملكة السعودية بانتصاره على قوات الملك حسين ، واعلان نفسه ملكا على الحجاز سنة ١٩٢٩ . وانتهت وصاية انجلترا على العراق بعقد معاهدة بينهما سنة ١٩٣٢ ، وعقدت مصر المستقلة مع بريطانيا معاهدتها سنة ١٩٣٦ ، واضطرت فرنسا الى قبول استقلال سوريا ولبنان أخيرا . ولم يبق الا فلسطين وفيها تواجه انجلترا مشكلة من أعقد المشكلات فانه كما يهم انجلترا ارضاء العالم الاسلامى بانصاف العرب فى فلسطين كذلك يهمها الى جانب ذلك ألا تغضب ملوك المال من اليهود فى أوربا وفى أمريكا

ولا ننسى الشعوب التى تسكن جنوبى البحر الابيض المتوسط وتخضع لسلطان الدول الاوربية مثل مراكش والجزائر وتونس وليبيا فهى شعوب تختلف عن سكان المستعمرات الاوربية الاخرى فى افريقية ، شعوب راقية لها قوانين وأديان الهية ولغة وأدبيات وكان لها فى الماضى تاريخ مجيد ومدنية اقتبست منها المدنية الحديثة نورا وعرفانا ،

ولها آثار تعتز بها وتحفزها الى العمل على استرداد مجدها الغابر . لذلك كان عمل الحاكم الاجنبي في اخضاع هذه الشعوب عملا محفوفا بأشد الاخطار فمن اضطرابات الى قلاقل وثورات وحروب تقهر فيها الشعوب المحكومة آنا ، فتسكن فترة من الزمن تستجم في أثنائها لتقوم ثانية تستأنف جهادها في سبيل الاستقلال

وجميع هذه الشعوب قد تأثرت بالروح الوطنية التي سادت الشعوب العربية والاسلامية بعد الحرب العظمى الاولى ، فهم أيضا يتوقون الى الاستقلال واقتفاء أثر المصريين وتتبع خطواتهم في نهضتهم

هذه خلاصة وجيزة لموقف الشعوب التي تتكلم العربية ، فعلى أي أسس تقوم الرابطة بيننا وبينهم بعد الحرب ؟

هناك روابط من أنواع مختلفة الاولى رابطة الوحدة أو الاتحاد التام ومعناه ارتباط الشعوب تحت تاج واحد وتكوين شخصية دولية واحدة مثل انجلترا واسكتلندا ، والحجاز ونجد ، في الوقت الحاضر ، والنمسا والمجر ، والسويد والنرويج في الوقت الماضي

وهناك رابطة الاتحاد التمثيلي أي الاتحاد الذي يجمع أمارات أو ممالك عدة ترسل مندوبيها أو ممثليها في « دياط » أو مجمع واحد يمثل الجميع ويضع قراراته لينفذها جميع الاعضاء . ويلاحظ انه في مثل هذا الاتحاد لا يسرى سلطان المجمع على الشعوب أو الاهالي وانما تكون قراراته ملزمة للامراء أو الملوك

وقد كانت أمارات المانيا يتظلمها اتحاد تمثيلي قبل توحيدها بزعامة بروسيا سنة ١٨٧١ . وكذلك كانت أمارات الرين في عهد نابليون ، وكانت كذلك الولايات المتحدة قبل دستورها الحالي ،وقد فشلت هذه الاتحادات فشلا تاما ويعرف هذا النظام بالنظام الكنفدرالي Confederation

وهناك رابطة الولايات المتحدة أو النظام الفدرالي federal وبه ترتبط الولايات أو الاقسام معا فتشترك في حكومة مركزية أو سلطة تنفيذية واحدة لها قوة دفاع واحدة وسياسة خارجية وتجارية واحدة ويترك لكل ولاية قسط وفير من الاستقلال تتمتع به في شؤونها المحلية

ومن رأيي أن جميع هذه الروابط لا تصلح للوحدة العربية . فهم لا يرضيهم أن يجتمعوا تحت تاج واحد ، أو أن تكون لهم حكومة تنفيذية واحدة تتكلم باسمهم لدى الدول . ونظام الاتحاد التمثيلي قد دل التاريخ على سخفه وقلة صلاحه ما دامت الهيئة التي تمثل الاتحاد لا تملك قوة تنفيذية يخضع لها أعضاء الاتحاد . أما النظام الفدرالي أو نظام الولايات المتحدة فهو أصلح هذه النظم وأوفقها من الوجهة العملية . ولكنه نظام لا يوافق الروح الوطنية القوية التي تميز الشعوب الحديثة العهد باستقلالها لا سيما اذا كانت هذه الشعوب تختلف في مستواها المدني والاقتصادي

اذن فكيف السبيل الى الوحدة ؟ انى أرى الوحدة قائمة لا ريب فيها في الشؤون الثقافية ،

وأعتقد أن الوحدة الاقتصادية يمكن تعزيزها وتحقيقها على مدى الايام . أما فى السياسة فالسبيل الى الوحدة يأتى عن طريق الميثاق العربى Arab Covenant الذى يجمع بين الشعوب العربية والقريبة منها مثل اثيوبيا وذلك على نسق ميثاق عصبة الامم ، ولضمان تنفيذ شروط الميثاق واستمرار العمل به ، تؤلف لجنة دائمة تتولى مراقبته وادارته وتتعهد أعضاءه بالارشاد والتوجيه

الخلط بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية

وختاما أرى لزاما أن أنبه الى الخطر الذى يتهددنا من جراء الخلط بين السياسة الداخلية والمسائل الخارجية . لقد جر علينا هذا الخلط فى الماضى متاعب وعثرات ونكوصا على الاعقاب وأدى ذلك كله الى ارجاء دستورنا وتأخير استقلالنا زمنا طويلا . لقد كانت مسألة استقلالنا بعد الحرب الكبرى الاولى مسألة دولية بيننا وبين بريطانيا أولا ثم بيننا وبين دول الامتيازات ثانيا . فلم تمض سنة أو سنتان على ثورتنا سنة ١٩١٩ حتى تحول الموضوع الى مسألة داخلية . وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن نبرهن على أننا خليقون بحكم أنفسنا فوضع الدستور وجاء البرلمان واقتضى منطق الحوادث اجراء الانتخابات وتكوين الاحزاب وتولى الحكم ، وبذلك انقسمنا شيعا وأحزابا وسرت فى البلاد روح العداء والقطيعة بين الافراد والاسرات ورجال الحكم ونتج عن ذلك كله أننا شغلنا عن هدفنا الاول وهو الوصول الى الاستقلال الحقيقى وبقينا سبعة عشر عاما نتجاذب أطراف الحكم ونتراشق بالتهم حتى انبلجت أمامنا الحقيقة سافرة فى النهاية فحزمنا أمرنا وظفرنا باستقلالنا الحقيقى سنة ١٩٣٦

وأخشى ما أخشاه بعد الحرب أن تحول مسائلنا الخارجية الى مسائل داخلية أخرى يكون محورها هذه المرة « هل نحن قادرون على الدفاع عن أنفسنا » بدلا من « هل نحن قادرون على حكم أنفسنا » وقد ينبنى على هذا الاختبار ظهور خلافات جديدة تنشب بين أسلحة الدفاع المختلفة والسلطات السياسية فتشغل بها وتبقى مسائلنا الدولية الحيوية معلقة ردحا من الزمن . فعلى قادة الرأى فى هذه البلاد أن يأخذوا حذرهم وأن يكونوا مؤمنين بحق الوطن فلا يلدغوا من جحر مرتين وأن يعملوا متفقين على برنامج دفاعى دولى واحد يرتبط به الجميع ويعملوا يدا واحدة على تحقيقه ، سواء أكانوا داخل الحكم أم خارجه ، ولهم بعد ذلك أن يختلفوا ويتساجلوا ويتناقشوا ما شاءوا فى مسائل السياسة الداخلية والاقتصادية والاجتماعية ، وليكن مبدؤنا بعد الحرب كما كان مبدؤنا قبل الاستقلال وبعده « مصريون قبل كل شىء »

محمد رفعت

طبيعة الحسد

بقلم الأستاذ على أدهم

الحسد داء كامن فى كل قلب ، متغلغل فى كل نفس ، يكاد يشل الجهود ، ويعطل المواهب ، ويشوه فى الحياة كل جمال ، ويسمم ينابيع المتع والمسرات ، ويملأ نفوس الناس مرارة وألما ، ويبعدهم عن الشعور بالسعادة والغبطة والرضى والقناعة ، وهو يلوح لنا فى كل لحظة من لحظات حياتنا ويكل خطوة من خطوات سيرنا بمرآة صقيلة لا نبصر فيها سوى أثرتنا النهمة السائغة الطامعة فى كل شىء ، والتى لا تريد أن نسمع خبرا عن غيرها أو ترى صورة غير صورة ذاتها ، وكثير من متاعب الحياة وآلامها وهمومها مصدرها الحسد ، وهو من الخطايا السبع التى حاولت الأديان مقاومتها والتغلب عليها ، وقد جعلت المسيحية حب الانسان لجاره أسمى الاوامر وأساس الفضائل ، وحاولت أكثر المذاهب الاخلاقية مقاومة الحسد عن طريق التزهيد فى الدنيا ، والاغراء بالقناعة ، لا لانها تحض الانسان على التقاعد وتزين له الخمول وانما لانها تحاول القضاء على هذا الداء الوبيل ، داء الحسد ، واستنقاذ الانسانية من أوهاقه الموهنة ، وآلامه المضنية

ومما يثير الأسف أننا لا نعرف أنفسنا سوى معرفة يسيرة ، وكل منا يخال نفسه — فى أغلب الاوقات واكثر الحالات — مثلا أعلى للفضيلة ونموذجا منقطع النظير للكمال المطلق ، ولكن عيوننا الفاحصة النافذة لا ترى فى الغير سوى العيوب والنقائص والاخطاء ومواطن الضعف ، ونحن لا نستطيع مواجهة عيوبنا ، وعلاج ما فى نفوسنا من سقم والتواء الا اذا أدركنا هذه الحقيقة المرة الخطيرة ، وهى أن أكثر الناس يتشابهون فى العيوب والعلل النفسية ، وفى كل نفس تلتقى دوافع الخير ودوافع الشر . وادراك هذه الحقيقة هو بدء المعرفة الشاملة والفهم العميق الذى يميز تفكير الرجل الحكيم المجرب من تفكير المغرورين بأنفسهم المفتونين بفضائلهم الموهومة . واذا استطاع الانسان الوصول الى هذه المرتبة ، أمكنه أن يلقى نظرة حزينة على هذا الدور الضخم الذى يلعبه الحسد فى حياة الفرد النفسية وفى حياة الانسانية جميعا

الاثرة من طبيعة الحسد

والاثرة من طبيعة الانسان ، وكل منا يود ان يملك كل شىء وأن يكون قطب الوجود وأن يجىء كل شىء حسب هواه ، وينزل على أمره ، وكل ما يملكه الغير يثير الحسد ، ويحرك الطمع ، وهذا من المشاهد فى الحياة اليومية ، ولو أنك قسمت قطعة من الحلوى

الى قسمين متساويين ، وأعطيت كل قسم لشخص ما ، لاخذ كل من الشخصين اللذين وزعت عليهما الحلوى يعتقد أن نصيب الآخر أكبر من نصيبه ، ولا منجاة لهما من هذا الخداع الذى يفرضه عليهما الحسد ، ونحن لا ندرك الا متأخرين هذه الحقيقة الهامة ، وهى حقيقة أن مجرد امتلاكنا للشىء يزهدنا فيه ، ويحقره فى نظرنا ، ويجعلنا نطمع بعيوننا الى نيل غيره من الاشياء ، ونلمح ذلك فى حياة المحبين الذين يتحرقون شوقا الى رؤية من يحبونها وتظل صورتها فى نفوسهم ماثلة فى بهاء ساطع وروعة أخاذة لا ينال منها الزمن ولا تغيرها الحوادث ، ولكن متى أصبحت فى حوزتهم وملكتها يمينهم ، تأخذ المحاسن فى التناقص ، وتبطل أسباب الفتنة ، ولا يبقى من الصورة الخيالية السابقة سوى آثار وبقايا ، وهذا من أشد ما يثير الالم ، ويوقد اللوعة ، ونحن لا نقدر امتلاكنا للشىء الا اذا كان موضع الحسد ، ويروقنا أن نحسد ، وكان الواجب علينا أن نعرف مرارة الحسد وقسوته ، وما يثيره فى النفس من نيران ، ولكننا لا نحب أن نواجه هذه الحقيقة ونعرض عنها

ولا يزول الحسد الا اذا استهدف الانسان لنكبة من النكبات المروعة ، وبرغم ذلك ربما أثارت النكبة نفسها لونا من الحسد،كما حدث للوزير البائس الذى رثاه الشاعر أبوالحسن الانبارى بقصيدته التى مطلعها :

علو فى الحياة وفى الممات　　لحق تلك احدى المعجزات

فود بعض الامراء أن يكون هو المرثى بهذه القصيدة !

على أن الحسد قد يستحيل اشفاقا ومرثية ، ولكن هذا الضرب من الاشفاق ليس صادقا وانما هو نوع من الاستمتاع بآلام الغير ، والارتياح لان أسباب الحسد قد انتفت وبطلت ، وبعض تعبيراتنا فى هذا المقام تنم على هذا الشعور مثل قولنا « أصبح فلان فى حالة لا يغبط عليها » ، ومعظم عطف الناس فى النكبات التى تلم بالانسان مصدره أنهم يشعرون بأنه أصبح غير أهل للحسد ، وهذا الشعور يريحهم ويهدىء نيرانهم

ومن الناس من تخدعهم المظاهر ، فيظنون أن اسعاف الحظ واقباله يدنى الاصدقاء ويقرب الخصوم والاعداء ، ولكن الحقيقة أن أكثر أصدقاء الانسان والدنيا عليه مقبلة انما هم أعداء فى ثياب أصدقاء ، ومتى لاحت لهم الفرصة أصبحوا أعداء حقيقيين وكشفوا عن وجوههم ، وكلما عظم الانسان وسمت مكانته ، ازدادت عزلته وكثر حساده ، وانفض من حوله أصدقاؤه لاتفه الاعذار ، وقد تجرع أكثر العظماء مرارة هذه التجربة ، وكشفت لهم عن جوانب من النفس الانسانية غاية فى البشاعة والنكر ، وقد لقى المتنبى فى حياته العاصفة الامرين من الحسد والحساد ، وقد عبر عن يأسه من علاج الحسد فى قوله :

سوى وجع الحساد داو فانه　　اذا حل فى قلب فليس يحول
ولاتطمعن من حاسد فى مودة　　وان كنت تبديها له وتنيل

وكلما عظم نصيب انسان من السعادة والنجاح وشق طريقه فى الحياة ، انفض من حوله الاصدقاء ، لانهم لا يحتملون رؤية سعادته ومظاهر توفيقه ، والتمسوا لذلك مختلف الاسباب وتجنوا عليه ، واتهموه بأنه لا يحسن لقاءهم ولا يرد تحيتهم ، وأنه أصبح متكبرا ، وانه أصبح يتنكر لهم ، ويميل الى غيرهم من الاصدقاء الجدد ، والواقع أنهم لم يكونوا له أصدقاء ليستمتعوا بسعادته ويشاركوه فى سروره ، وهو لم يمنحهم الفرصة ليظهروا انهم أصدقاء عند الشدة

لكى نبطل الحسد

وهناك خطأ كبير كثيرا ما يؤثر فى تربية أبنائنا وتنشئهم ، فنحن نلوم الطفل ونوبخه ونشتد فى تعنيفه لانه شقى وغير مطيع ، فى حين أن الطفل الآخر الذى نعرفه مؤدب وهادىء ومبعث سرور لوالديه ، ونحن بهذا السلوك نوجه التفات الطفل الى الخارج ، فى حين أن التوجيه الصحيح كان يجب أن يتجه الى الداخل ، ويفضى ذلك بالطفل الى المبالغة فى تقدير قوة الغير والحرص على مقايسة نفسه بهم ، والبحث عندهم عما ينقصه من المواهب والصفات ، وعجزنا عن نيل السعادة من شأنه أن يجعلنا نعتقد أن جارنا سعيد، ومعرفتنا بعجزنا توحى الينا أن جارنا قوى وأنه يملك كل ما ينقصنا ، وهكذا بدلا من أن نلتمس القوة فى نفوسنا نبحث عنها فى الخارج ، ونفقد القناعة بالنفس والاكتفاء بها ، والتماس السرور والمتعة فى حياتنا الداخلية . ونعجز عن الاستفادة من مواهبنا لاعتقادنا أن ما نملكه زهيد القيمة ، ونفقد احترامنا لانفسنا لاننا نغالى بقيمة الغير ونحط من قيمة أنفسنا

ولكى نبطل الحسد ، يلزم أن نستشعر السرور فيما نملكه ، وقد سئل مرة الكاتب الامريكى العظيم امرسن : « لماذا لا تسافر لترى الدنيا وجمالها ؟ » فأجاب : « لماذا أبحث عن الجمال فى البلاد الاجنبية على حين أنى لم أستوف بعد الاستمتاع بصنوف الجمال الموفورة فى حديقة منزلى ، وفى مثل هذا الثرى الخصب » والنفس الوادعة المطمئنة تنمو أنبل الصفات الانسانية ، وهى حب الانسان لجاره . والحب الحقيقى لا يعرف الحسد ، وان لم يسره ما يملك الغير ، فهو على الاقل لا يثير حسده ولا يؤلم نفسه

والعالم فى العصر الحاضر خال من أسباب الحب والعطف ، حافل بدواعى النقمة والكراهة والحسد ، والحسد من أقوى بواعث الشقاء ، فهو من أسباب التبرم بالحياة السائد ، وعلينا أن ننشىء أولادنا على الحب الذى يسمو بشخصيتهم ، ويفجر فى نفوسهم ينابيع العطف الذى يوسع آفاق نفوسهم ، وحيث تتسلل أشعة الحب وتجيش النفوس بالعطف يختفى الحسد ، ولا مفر لمن يتعهد الاطفال من أن يراعى العدالة المطلقة ، ويلتزم فى معاملتهم النزاهة التامة لان أقل انحراف عن سنن العدل يحز فى نفوسهم ويثير حفيظتهم، وهم لا يستطيعون اخفاء ذلك لصراحتهم وبساطة نفوسهم

والحسد هو باعث الحركة الدمقراطية الاقوى ، وهو الذى أثار الحركة الدمقراطية عند اليونان ، وهو الذى بعثها فى العصور الحديثة ، وفى اعتقادى ان النظرية الدمقراطية هى خير نظريات الحكم واكثرها ملاءمة لطبيعة الانسان ، ولكن المذاهب السامية لا تتحرك تحركا ذاتيا ، ولا بد أن تحركها الاهواء البشرية والمصالح الانسانية ، وفى الحركات العظيمة تكون النظريات والافكار فى الواقع ستارا لما يختفى وراءها من الاهواء والميول والشهوات ، وقد كان أكبر محرك وراء الحركة الدمقراطية هو الحسد

وقد زادت الحسد قوة نظرية المساواة والمبادىء الاشتراكية ، وهى حالة لا يحمد عليها العصر الحاضر ، ولكنها شر لا بد من احتماله ، حتى تصل حالة الانسان الاجتماعية والسياسية الى مستوى أرفع ونظم أقوم ، وعدم المساواة ان لم تقم على التفوق فى بعض المزايا ، ستكون ظلما وتفضيلا يثير الحسد ويبعث النقمة ، ولا علاج لازالة الحسد سوى ازالة هذا اللون من ألوان الظلم والغبن ، والحسد فى هذا العصر يلعب دورا هاما ، فالفقير يحسد الغنى ، والامم الفقيرة المحدودة الاملاك تتطلع الى الامم الغنية الواسعة الرقعة ، والنساء يحسدن الرجال لما لهم من نفوذ وسيطرة . والحسد فى العصر الحاضر هو أقوى باعث وراء التماس العدالة فى المسائل الفردية والاحوال الاجتماعية والمشكلات الدولية ولكن العدالة التى تجىء من وراء الحسد هى العدالة التى تقلل من سعادة الغير ، والميول الشريرة فى الحياة الخاصة سيئة الاثر فى الحياة العامة ، والشىء الصالح قل أن ينبعث من الشىء البغيض المنفر . ومن سوء حظ الانسانية أن يكون باعثها على طلب العدالة والمساواة هذا الباعث الوضيع وهو الحسد ، ولو أمكن تهذيب الانسان بحيث تسمو بواعثه على التماس العدالة ، لكان ذلك خيرا للانسانية وأجدى على مستقبلها

والحضارة الحالية ينقصها ادخال السرور على نفس الانسان واشعاره السعادة والمتعة ، ومقاومة الحسد تقتضى علاج هذه الحالة ، وان لم يستدرك ذلك ستظل الحضارة تعانى ويلات الكراهة والبغضاء والحقد والحسد ، وسيكون الانسان حاقدا حسودا لانه غير قانع ، ولانه يشعر بأن أشياء كثيرة تنقصه ، وأن الحائل بينه وبين الظفر بهذه الاشياء هم اخوانه أو أعداؤه البشر ، فهو يصب عليهم حقده ، ويخصهم بحسده ونقمته . ومرحلة التطور الحالية هى آخر مرحلة انتهت اليها الانسانية ، وهى الآن تعمل على الخروج من مضايقها ، وتعالج مشكلاتها ليتيسر لها الانتقال الى مرحلة أخرى ، نرجو أن تكون خيرا من المرحلة الراهنة . فالحسد فى الحياة الحديثة هو صدى ما بها من اضطراب ونقص وظلم فادح وغبن شديد . وطريق الخلاص هو أن نعمل على توسيع قلوبنا والسمو بعقولنا ، وأن نتعلم كيف نفوق أنفسنا ونكبح غرائزنا الدنية حتى نصل الى الحرية ونصدع قيود الاثرة الضيقة ، ونعيش فى عالم تشرق فيه شمس الحب جلواء الطلعة ، لا تحجبها غيوم الحسد المتكاثفة وسحبه المتراكبة

على أدهم

المرأة في الفن المصري القديم

بقلم الأستاذ محرم كمال

المدير الادارى للمتحف المصرى

كان للمرأة نصيب كبير فى الفن المصرى القديم ، فان ما وصل الينا من تماثيل لهـا وصور تمثلها قد بلغ الكثير منها درجة تستحق الاعجاب والتقـدير . ونحن اذا بدأنا بدراسة طائفة من التماثيل ، فان أول تمثال يستثير اعجابنا الشديد فى الدولة القديمة كتحفة من تحف الفن الغالية هو تمثال الاميرة نفرت

تمثال نفرت

فهذا التمثال الذى وجده « ماريت » فى ميدوم عام ١٨٧٢ ، يرجع تاريخه الى أوائل الاسرة الرابعة ، وهو يمثل لنا رقى فن النحت فى عصر منفيس

كانت نفرت أميرة يجرى فى عروقها الدم الملكى ، ومن هنا نجد فى تمثالهـا مظاهر العظمة والمهابة التى وفق المثال الى اظهارها بمهارة فى تمثاله . والتمثال يمثل نفرت (ومعنى اسمها « الجميلة ») جالسة بطلعتها المهيبة وقوامها الجميل ، وهى ترتدى ثوبا محبوكا يلتصق بجسدها البض ، وينفتح من الامام عند الصدر . وتحت هذا الثوب الرقيق نرى الكتفين والنهدين يبرزان بل نرى الجسم كله فى بضاضته وقد مثل بأقصى أناقة ورشاقة . وفى الواقع فانه من الصعب أن نجد تمثالا آخر فى مصر قد بلغ فن النحت فيه ذروته ، من حيث دقة تمثيل العنق والنهدين وبضاضة الجسم وهى تتجلى جيدا من خلال هذا الثوب الرقيق الذى ترتديه نفرت . أما الوجه المستدير فيحف به شعر مستعار كثيف مقصوص يحيط به فوق الرأس شريط زخرف بزهيرات جميلة . وعلى الجبهة يرى الشعر الطبيعى وقد صفف بعناية فائقة فزادها جمالا ورشاقة . أما الرقبة فقد حليت بقلادة عريضة انحدرت فوق الصدر

ويكاد يكون الثوب الذى ترتديه نموذجا بديعا لثياب السهرة عند سيداتنا الحديثات ، فهو مفتوح من الامام عند الصدر ، ومثبت فوق الكتفين بشريطين أبيضين من النسيج نفسه ، وهو فى مجموعه مهلهل ضيق يكسو الجسم من الثديين الى القدمين ، ويبرز محاسن الجسم ومفاتنه فى ابداع جميل وتناسق خلاب

أما العينان ففيهما من السحر شىء كثير ، فلقد اكسبتا بريق الحياة بما رصعتا به من أحجار افاضت عليهما أكبر قسط من صدق التعبير . ونحن لا نعدو الحقيقة حين نقرر أن كل

هذه المميزات مجتمعة جعلت هذا التمثال أكثر التماثيل المصرية اظهارا للحياة ، خاصة اذا لاحظنا أن ألوانه قد احتفظت بزهائها ونضارتها بدرجة مدهشة

فلا شك فى أن الفنان قد بذل مجهودا عظيما فى تصوير هذه الاميرة الجميلة (نفرت) واعطائها الملامح الحقيقية ، مع جمال التصوير والنحت ، وروعة الالوان التى استعملها فى تغطية الحجر الجيرى الذى صنع منه التمثال

رأس الملكة نفرتيتى

أما هذا الرأس الجميل الذى يعتبره الكثيرون أبدع قطعة فنية خلفها لنا فن النحت فى العالم القديم كله ، فقد وجده العالم الالمانى (بورشارد) فى مصنع المثال (تحتمس) بتل العمارنة عام ١٩١٢ ، ونقله الى متحف برلين حيث هو محفوظ الآن . وهو مصنوع من الحجر الجيرى الملون

كانت الملكة نفرتيتى زوجة الملك اخناتون (أحد ملوك الاسرة الثامنة عشرة) جميلة حقا ، ويظهر أن جمالها قد أثار فى نفس تحتمس ــ أحد فنانى تل العمارنة ــ عواطف مختلفة من الحب والتقدير ، دعته لان يعلن هذا الاعجاب فى قطعة فنية جاءت بالغة الروعة والابداع . فهذا الرأس لم يصنع لغرض دينى كسائر التماثيل المصرية ، وانما صنعه فنان أوتى قلبا خفاقا وذوقا سليما ومهارة فائقة ، اما ليحلى به مصنعه الذى يشتغل فيه لكى يكون دليلا على قدرته وشهادة بفنه ، واما أن يكون قد صنعه ليزين به أحد أبهاء القصر الملكى .

وهذا الفارق على جانب عظيم من الاهمية، اذا علمنا أن جميع التماثيل المصرية كانت تصنع لغرض دينى ، وأن هذه أول قطعة فنية صنعت من أجل الفن لا الدين . ونحن نستدل على نظريتنا هذه بأن القطعة كاملة فى نفسها ، وأنها لم تكن يوما من الايام متصلة بتمثال فليس هناك أى أثر لهذا الاتصال ، بل على العكس ، فان جميع الدلائل تدل على أنها قطعة نصفية (بست Buste) يقف مثالو العصر الحديث أمامها حائرين

وهذا الرأس يصلح لان يكون موضوع دراسة فنية ممتعة ، وهو فى الوقت نفسه دليل على ما بلغه فن تل العمارنة من تقدم فى عصر اخناتون ، ويعطى فكرة رائعة لزائرى المتاحف عن الفن المصرى القديم على وجه العموم . وقد بذلت الحكومة المصرية جهودا كبيرة لاسترداد هذا الرأس واعادته الى مصر ، ولكن جماله ودقة صنعه كانت تدعو الحكومة الالمانية الى الاستمساك به

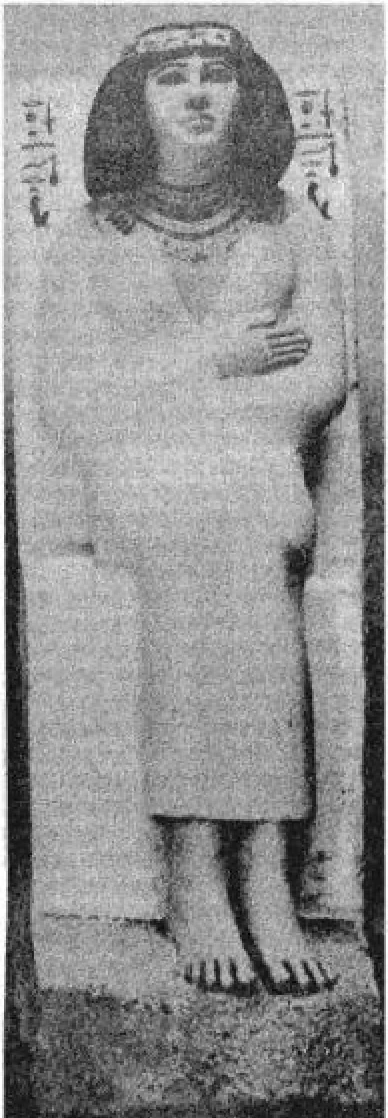
فن النقش والتصوير

فاذا نحن انتقلنا من فن النحت الى فن التصوير ، وجدنا أن الفنان المصرى قد احتفظ بطابعه التقليدى الذى رأيناه فى فن النحت من حيث التفوق واناقة العرض . فجمال



كليوباترة

كليوباترة كما وردت صورتها
في النقــوش المصرية



نفرت

تمثال الأميرة « نفرت » الذى يعــد
أكثر التماثيل المصرية إظهاراً للحياة ،
ويرجع تاريخه الى أوائل الأسرة الرابعة



أغنية الحب والغرام

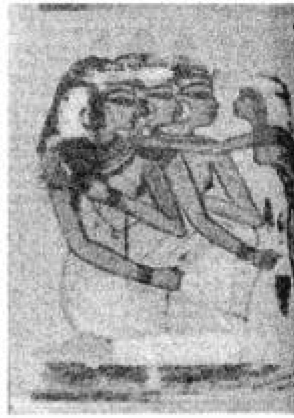
منظر رائع يمثل حفلة موسيقية يعزف فيها عواد أعمى على آلته ، ويغنى أغنية الحب والغرام ، بينما تجلس السيدات المدعوات على حصير يتحدثن ويستنشقن عبير الزهور ، ويتناولن الفواكه . وهناك خادم عارية تضع عقداً من الزهور حول عنق إحدى السيدات (والمنظر مأخوذ من مقبرة نخت بطيبة)

الخطوط التى يستعملها فى اظهار الشكل المراد رسمه ، وحسن اختيار الوضع Pose والتأنق فى استعمال الالوان ، كل أولئك صفات بارزة فى رسومه وصوره . وكل من درس شيئا عن الفن المصرى القديم يعلم كيف أن الفنان المصرى قد استعمل الالوان بمهارة عند ما أراد أن يظهر الجسم من خلال الثياب الهفهافة ، وكيف استطاع أن يفيض على هذه الثياب من ذوقه وفنه فأظهرها بالغة الزينة عظيمة الرواء ، مما جعل الثياب المصرية الخاصة بالنساء آية فى الاناقة وحسن الزى والهندام ، كما يتضح ذلك من صورة الملكة نفرتارى مع الالهة ايزيس . بل ان الفنان كان حاذقا فى فنه عند ما نراه فى رسوم مقابر طيبة وغيرها يعطى اللحم لونا داكنا حيث هو غير مغطى وأصفر فاقعا عند ما يكون مستورا ، وبذلك نرى أن المصور قد حاول أن يظهر الجلد الداكن وهو يضىء من خلال ثوبه الكتانى الشفاف

ولدينا من هذه الصور البديعة نماذج رائعة تدل على مهارة الفنان وعلى أخذه نماذجه من الحياة مباشرة . فالرسم الذى يمثل فتاة راقصة وهى تقوم بألعاب بهلوانية صورة جديرة بالاعجاب ، لما فيها من حركة تنبض بالحياة وجمال يستهوى الفؤاد

وفى مقبرة (نخت) بطيبة ، صور تعتبر تحفا من تحف الفن . فالصورة التى تمثل ثلاث فتيات موسيقيات هى تحفة بديعة أثارت وما تزال تثير اعجاب كل من رآها . نرى فيها الموسيقية الاولى وهى تلعب على أوتار جنك Harp ، والثانية العارية وهى ترقص





فتيات موسيقيات

منظر حفلة يرى فيها ثلاث فتيات موسيقيات ، تلعب الأولى على أوتار الجنك ، والثانية العارية ترقص وقد حملت رباباً ، والثالثة تنفخ فى مزمار مزدوج (والصورة منقولة من مقبرة نخت بطيبة)

وقد حملت ربابا ، والثالثة تنفخ فى مزمار مزدوج . وليس من شك فى أن الفنان قد أبرز فى صورته كل ما حبت الطبيعة به هاته الموسيقيات من جمال واعتدال قوام ، كما أنه قد أظهر الملابس الرقيقة الشفافة بشكل جذاب لطيف

أما الصورة الاخرى التى تمثل حفلة موسيقية اجتمعت فيها طائفة من السيدات المدعوات ، فهى صورة جميلة يزيدها جمالا أناقة السيدات وقد جلسن على حصير يتحدثن ويستنشقن عبير زهور اللوتس ويقدمن الفواكه بعضهن الى البعض الآخر ، بينما تقوم خادم عارية بوضع عقد من الزهور حول عنق احدى السيدات . وفى هذه الحفلة الموسيقية نرى السيدات وقد جلسن جميعا يصغين الى عواد أعمى يعزف على آلته مختلف الاناشيد وأغنية الحب والغرام

ونحن اذا لم يكن فى استطاعتنا أن نعيد الى ألحان موسيقاهم شجيها وترجيعها العذب ، فنحن على الأقل نستطيع أن نقرأ بعض النصوص التى تحتفظ لنا ببعض أغانيهم، فنستطيع بذلك أن نتصور مبلغ فخامة هذه الحفلات التى كانت تفيض بالأنس والحبور ، وتمتلىء بعشرات المدعوين والمدعوات

فها هو المحب يغنى بصوته الرقيق فيقول : « سأرقد على سريرى وقد اعترانى المرض وسيعودنى جيرانى ، ولكن اذا حضرت حبيبتى فستهزأ بأطبائى لانها تعرف سر مرضى . ما أجمل بيت حبيبتى تحيط به البساتين والبحيرات ، ها هو بابه أراه مفتوحا ، وها هى



نفرتيتى

رأس الملكة نفرتيتى ، وقد عثر عليه فى مصنع المثال « تحتمس » بتل العمارنة ، وهو محفوظ بالقسم المصرى بمتحف برلين ، ويعد أبدع قطعة فنية خلقها فن النحت فى العالم القديم كله

حبيبتى تخرج غاضبة . ليتنى كنت عبدا لها أقوم على حراسة الباب حتى أتلقى أوامرها وحتى أنعم برقيق صوتها حتى ولو كانت غاضبة . انه ليطيب لى أن أكون كالطفل أهتز أمامها من الخوف وأرتعد »

فتجيبه حبيبته : « ها أنا معك . هات قلبك يا حبيبى . انك اذا داعبت ساقى فلن أمنعك . واذا كنت فى حاجة الى الطعام فسوف أهبك زادا كثيرا ومتاعا وفيرا . واذا جئت الى ظمآنا الى الحب فسوف أرضعك أفاويق الغرام . ان حبك يمتزج بشغاف قلبى كما يمتزج النبيذ بالماء ، وكما تسرى العطور فى الدهان ، وكما يمتزج اللبن بالعسل ، لقد أتيت لترى حبيبتك كما يحوم الطائر حول أليفه »

فيجيبها الفتى :

« لكم تمتزج آلامى بالاناشيد

« ولكنك أنت يا جسد حبيبتى حقل ملىء بازاهير اللوتس

« ولأنت يا صدر حبيبتى الناهد لأحقاق ملئت بالروائح والطيوب

« ولأنت يا نهود حبيبتى لفاكهة (تثير اشجان الغرام)

« ولأنت يا محيا حبيبتى لحلو يفوح شذاه »

فهذا الخيال البديع الرائع الذى يتجلى فى أغانيهم كان يضفى دون شك على حفلاتهم جوا رائعا من العذوبة ، تعكسه لنا صورهم البديعة التى نراها على الجدران ، وهى الصور التى تلعب فيها المرأة دورا أساسيا كعنصر رئيسى فى الحياة

محرم كمال

أخطاء التاريخ المصرى الحديث

للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك

يقول الفيلسوف ابن خلدون فى مقدمته ان المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل كثيرا ما وقع لهم من المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ، دون أن يعرضوها على أصولها أو يقيسوها بأشباهها ، أو يحكموا النظر والبصيرة فى الاخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط . وهذا الذى ذكره ابن خلدون يصدق على كثير من الروايات والوقائع التى وردت فيما دونه المؤرخون والكتاب عن تاريخ مصر الحديث . ولا أقصد فى هذه العجالة أن أحصى أخطاء هذه الحقبة من التاريخ . بل أكتفى بسرد أمثلة منها . ولا أرمى من وراء ذلك الا الى وجوب الحذر والحيطة فى بحث وقائع التاريخ قديمها وحديثها ، وتحقيقها وتمحيصها قبل البت فى تدوينها

— ١ —

فمن الاخطاء الشائعة ، ما ذكره بعض المؤلفين من أنه حين كان الكونت ماتيو دلسبس (والد المسيو فردينان دلسبس فاتح قناة السويس) قنصلا لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ ، جاءته تعليمات من نابليون بونابارت بأن يختار أكثر قواد القوات العثمانية الموجودة فى مصر جدارة وأعلاهم أخلاقا ، ويخطر عنه الجنرال سباستيانى سفير فرنسا فى الاستانة ، ليحمل الباب العالى على تنصيبه واليا على مصر ، ليكون عونا للفرنسيين على المماليك والانجليز ، وأنه اختار محمد على الكبير ، وأوصى به الجنرال سباستيانى ، وأن سباستيانى عضد اختيار محمد على واليا على مصر لدى حكومة الاستانة ، وأن محمد على حفظ للكونت دلسبس جميله فى هذا المسعى

هذه الرواية ليس لها سند من المراجع المعتمدة ومن منطق الحوادث . حقا ان الكونت ماتيو دلسبس كان قنصلا لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ . ولكن لم يكن له دخل فى تطور الحوادث فى عهده . أما اختيار محمد على الكبير واليا على مصر ، فيرجع الى انتخاب زعماء الشعب له ، تخلصا من مظالم خورشد باشا الوالى السابق . فقد اجتمعوا بدار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ ﻫ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م) وأجمعوا رأيهم على عزل خورشد باشا وتعيين محمد على واليا بدله ، وبايعوه بالولاية فى ذلك اليوم المشهود . ولم يكن الباب العالى راضيا عن هذا التعيين ، ولكنه سلم به تحت ضغط الثورة التى قامت فى وجه خورشد باشا . وقد سعت حكومة الاستانة بعد ذلك الى

اقصاء محمد على عن ولاية مصر ، وأصدرت فرمانا فى سنة ١٨٠٦ بتولية موسى باشا فى مكانه وتقليد محمد على ولاية سلانيك . وجاء اسطول تركى الى مصر لتنفيذ هذا الفرمان ، ولكن زعماء الشعب تضامنوا مع محمد على وقاوموا ارادة الباب العالى . وانتهى النضال بتثبيته فى ولاية مصر ، وأخفقت بذلك محاولة عزل محمد على سنة ١٨٠٦ . فمرجع الامر كله فى اسناد ولاية مصر الى محمد على وتثبيته فيها الى اختيار زعماء الشعب له ، وتضامنهم واياه . ولا دخل للكونت ماتيو دلسبس ولا للجنرال سباستيانى فى ذلك كله اطلاقا

— ٢ —

زعم بعض المؤرخين والمؤلفين أن مصر لا تصلح لان تكون بلدا صناعيا . واستندوا فى دعواهم الى أن معظم مصانع الغزل والنسيج التى أنشأها محمد على قد أقفلت فى أواخر عهده ، وأقفل باقيها فى عهد عباس الاول . ولكن هذه الدعوى لا تثبت أمام الحقائق التاريخية . لان مصر قد اشتهرت بالازدهار الصناعى منذ أقدم العصور ، وراجت فيها النهضة الصناعية فى كل عهد اتجهت فيه العزائم الى بعثها ، سواء من الحكام أو من الشعب . أما اقفال المصانع فى أواخر عهد محمد على ، فيرجع الى أن النهضة الصناعية التى أنشأها كانت قائمة على أساس الاحتكار أى احتكار الحكومة اياها . فانعدمت فيها الادارة الحرة التى هى مناط ارتقاء المشروعات الصناعية والاقتصادية ، واضمحلت باضمحلال الاداة الحكومية المديرة لها . ولكن هذا الاخفاق كان عارضا طارئا لا يحجب الحقيقة التى برهنت عليها الحوادث التاريخية ، وهى توافر عوامل النهضة الصناعية فى مصر

— ٣ —

أنشىء مجلس شورى النواب فى مصر على عهد اسماعيل سنة ١٨٦٦ . وهو مجلس شبه نيابى ، اذ كان أعضاؤه ينتخبهم عمد البلاد ومشايخها فى المديريات ، وجماعة الاعيان فى العاصمة والاسكندرية ودمياط . ولكن لم تكن له سلطة قطعية فى أمر من الامور . وقد لاك كثير من المؤرخين الاوربيين رواية عن المعارضة فى هذا المجلس تناقلوها فى مؤلفاتهم ، دون بحث أو تحقيق . فزعموا أن شريف باشا — وكان اذ ذاك وزيرا للداخلية — أفهم أعضاء المجلس فى أول دور لانعقاده ، أن المجالس النيابية تنقسم دائما الى حزبين ، أحدهما يؤيد الحكومة والآخر يعارضها . وأنه يجدر بهم أن يؤلفوا من بينهم ذينك الحزبين . وأن أعضاء حزب الحكومة يجلسون فى مقاعد اليمين ، ونواب المعارضة يجلسون فى مقاعد اليسار . فاستنكر النواب أن يكون من بينهم من يعارض الحكومة ، وجلسوا جميعا فى مقاعد اليمين . فأفهمهم شريف باشا أنه لا بد أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار ، فلم يكن من الاعضاء الا أن تحولوا اليها جميعا

وظاهر على هذه الرواية مسحة الهزل والخيال . فهى ولا شك من مخترعات بعض

الكتاب الاوربيين الذين يطيب لهم أن يبتدعوا أمثال هذه الحكاية . وقد بحثنا كثيرا فلم نجد لها سندا من أقوال شاهد عيان . ولا جاء ذكرها ولو تلميحا فى مضابط المجلس . على أن الرواية فى ذاتها لا يسيغها المنطق . فان نظام المجلس وحدوده واختصاصه وملابساته، كل ذلك لا يدع مجالا لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة . فالأحزاب الموالية والمعارضة انما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة ، ولم يكن لمجلس شورى النواب هذا الحق أصلا ، بل لم تكن له سلطة قطعية فى أى أمر من الامور . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين وهو المسيو جلبون دنجلار Gellion Dangler حوادث مصر من سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٨٧٥ ، وله عن مشاهداته فيها « رسائل » تكلم فيها عن مجلس شورى النواب ، فلم يذكر هذه الحكاية ولا أشار اليها ولو كان لها ظل من الواقع لما فاته أن يذكرها . وهذا يقطع ببطلانها

— ٤ —

ان الاخطاء تتناول مسائل هامة أخرى من أهم القضايا التاريخية . فالاحتلال البريطانى لمصر ، وأسبابه ، وكيف وقع ، ومذبحة الاسكندرية التى وقعت فى يونيه سنة ١٨٨٢ وعدها كثير من الكتاب ذريعة للاحتلال ، وأسباب سلخ السودان عن مصر سنة ١٨٨٤ ، وتطور الحوادث فى السودان منذ نشوب الثورة المهدية الى استرجاع السودان سنة ١٨٩٨، كل هذه الوقائع رويت على غير حقيقتها فى كثير من المراجع الاوربية وبعض المراجع المصرية أيضا ، بحيث يحتاج تفنيدها والرد عليها الى عدة مجلدات . وقل مثل ذلك عن كثير من حوادث ثورة سنة ١٩١٩ وما تلاها ، وأسباب الانقسام الذى وقع سنة ١٩٢١ ، وما الى ذلك

وصفوة القول أن أخطاء التاريخ المصرى الحديث كثيرة متشعبة النواحى . على أن هذه الاخطاء لا تحجب الحقائق عمن يريد أن يتحرى الوصول اليها . فان الحوادث التاريخية تشبه القضايا بين الافراد . ففى كل قضية نزاع بين طرفيها ، ولكل طرف حججه وأسانيده . ومهمة القاضى الذى يفصل فى الخصومات أن يتعرف وجه الحق من دراسة حجج كل فريق ومستنداته ، والموازنة بينها . وكذلك يجب على كل من يبحث فى القضايا التاريخية أن يتحرى الحقائق ويستخلصها من ثنايا الروايات والمتناقضات ، ويكشف عما يكتنفها من الخطأ أو من الغموض والابهام

عبد الرحمن الرافعى

الاذاعة الأثيرية

معجزة العلم فى القرن العشرين

بقلم الشاعر الكبير الأستاذ احمد محرم

أجن العلم أم عقلا ؟ … فيالك حادثاً جللا
هى الأصوات ، لا عوجاً … ترى فيها ، ولا خللا
تؤدى القول صادقة … وتجرى صحة ذللا
سراعاً ، مالها مثل … اذا شئنا لها مثلا
الى الأسماع تأخذها … كأن لم تأخذ السبلا
سرت فى الأرض ، ماتركت … بها أمماً ولا دولا
فيا لك حيلة غلبت … دقائق سرها الحيلا
ويا لك بدعة بهرت … فكادت تورث الخبلا
ذهلت لها على أدبى … وأى الناس ما ذهلا ؟
أتى العصر العجيب بها … فراع الأعصر الأولا
تلقت بعضها دهشاً … وأحفل بعضها وجلا
تكاد تكون معجزة … ترينا (السادة الرسلا)
(رسول العلم) أبرزها … فآمن كل من جهلا
ومن سوى الأُلى ابتدعوا … (عماركونى) فما عدلا
إمام لا أرى لهمو … وان برعوا به قبلا
تعالى الله ألهمه … من الابداع ما فعلا
أعد الآية الكبرى … له ، وقضى لها أجلا
فلما حان موعدها … دعاه . فجاء ممتثلا
وأطلعها مباركة … يجاوز نفعها الأملا
يهز العالمين بها … ويطوى الأرض مرتجلا
ويقطع فى دقائقها … من الأيام ما اتصلا

يظل الدهر في فزع ... من الخطب الذي نزلا
يخاف بلوغ غايته ... ويخشى أن يكون خلا
تبيت الجن حاشدة ... تضج وتكثر الجدلا
يقول كبيرهم : أكذا ... يكون نصيبنا الفشلا ؟
أزال الانس دولتنا ... فأمسى نجمها أفلا
ولولا الضعف ما ملكوا ... علينا العلم والعملا
عجزنا بعد مقدرة ... وصرنا أمة همَلا
فوا خجلي . ويا أسفي ... اذا أنا لم أذب خجلا

ترامى الصوت . فاستمعوا ... من الانباء ما حملا
هي الاقطار هاتفة ... يطير حديثها عجلا
إذا اختلجت به شفة ... وان بعد الذي وصلا
كلام الله نسمعه ... فلا نبغي به بدلا
وتأتي بعده عبر ... تزيد يقين من عقلا
على يد واعظ يقظ ... ينبه كل من غفلا
يليه صاحب فكه ... يفيض حديثه جذلا
عدو الهم يقتله ... وكم من صاحب قتلا
وهذا طائر غرد ... يجيد اللهو والغزلا
يهيج كل ذي شجن ... اذا نسي الهوى وسلا
ويسقيه دماً سرباً ... من الجرح الذي اندملا
صحا من سكره . نغماً ... وألقى الكأس واعتزلا
تردد في جوانحه ... رنين رده غُلا
أعاد الوجد سيرته ... وهاج الشوق فاشتعلا

يظل الصوت مندفقاً ... كصوب المزن منهملا
سلوا عنه الأثير اذا ... على أمواجه انتقلا
أيدري كيف يحمله ... اذا ما خف أو ثقلا ؟
ويعرف أين موقعه ... اذا ما جد أو هزلا ؟

[البقية على صفحة ١٩٥]

قضية اللغة العربية

بقلم الأستاذ محمود تيمور

١ ـ موقفنا من اللغة ـ ٢ ـ شبه العربية باللاتينية ـ ٣ ـ مزية العربية على اللاتينية ـ ٤ ـ ماضي العربية وحاضرها ـ ٥ ـ عائق تطور العربية ٦ ـ وسائل النهوض بها ـ ٧ ـ تقارب لغتي الكتابة والكلام

١ ـ لغة الأمة عنوان ثقافتها وحضارتها ، ولذلك تعنى الأمم كافة بلغاتها ، وتعمل على ترقيتها . وكذلك الشأن في العالم العربي ، وبخاصة مصر . بيد أن الحال عندنا يختلف بعض الاختلاف عنه في سائر الأمم . فبينا ترى الهمم متجهة فيها الى اصلاح اللغة والنهوض بها ، اذا بنا نرى أنفسنا تتجه بهممنا اتجاها أبعد مدى ، فاننا حيال مشكلة يخوض في حديثها المفكرون ، فيتساءلون : هل تصلح لغتنا العربية أن تكون أداة لمسايرة الحضارة ؟ وهل تضطلع بما يطلب منها للتعبير عن مقتضيات العلم والفن والصناعة ؟ وهل يرجع التقصير اليها لا الينا ؟ وهل هي من اللغات الميتة التي يعفو أثرها كاللاتينية ؟ والذين يتساءلون هذه الأسئلة ينادون بوجوب اتخاذ لغة أخرى تحل محل العربية ، ويرشحون العامية لهذا المحل . اذ يعتقدون أن ما جرى على اللاتينية من القانون الطبيعي سيجرى على العربية حتما . ومن ثم يظهر لنا جليا أننا نختلفون في موضوع اللغة عن غيرنا : هم متوافقون على الاساس ، ماضون في التغيير والاصلاح . ونحن يعارض بعضنا بعضا في الاساس نفسه ، هل تصلح اللغة لتكون عنوان الثقافة والحضارة لنا ؟ وهل من الصالح أن نبقى عليها لا نستبدل بها سواها ؟

٢ ـ والذين يشبهون العربية باللاتينية يتلمسون وجه الشبه في ناحيتين : الاولى أنها ليست الا لغة كتابة ، والاخرى أنها لم تتطور مع الزمن التطور الكافي للحياة والنماء . والحق أن من أكبر مظاهر حيوية اللغة أن تكون لغة كلام ، وقد كانت العربية كذلك حقبة من الزمن ، فلما اتسعت رقعة المملكة ، وشملت ألوانا من الأمم الاعجمية ، وكثر المولدون في أقطارها ، نشأت في كل صقع لهجة عامية الى جانب الفصحى ، كالعراقية والشامية والمصرية والمغربية . وحقا من أكبر مظاهر حيوية اللغة أيضا ان تتغير وتتطور وفق مقتضيات العصور ، فلا تصبح لغة قرن مضى لغة قرن حاضر . وقد يبدو أن تطور

العربية لم يمض الى غاياته ، فتخلف وراء الزمن ، فما زالت لغة القرون الغابرة مسيطرة على العصر الحديث . فللناس عذرهم فيما يقولون من الموازنة بين العربية واللاتينية ، لان اللاتينية كانت لغة أصيلة للكتابة والكلام ، ثم تفرقت بعد الفتوحات الرومانية لهجات عامية صارت فيما بعد لغات مستقلة متطورة حية ، وبقيت اللاتينية لغة كتابة ، اذ تغلبت عليها مشتقاتها كالفرنسية والايطالية والاسبانية ، فضاق محيط استعمالها ، وظلت تتضاءل وتجمد وتفقد حيويتها ، وانتهى بها الامر الى العزلة بين الصحائف المطوية من الكتب القديمة

٣ ـ ولو تدبرنا الامر لظهر لنا أن العربية تتميز عن اللاتينية بعنصر جوهرى يدعها فى مأمن من أن يجرى عليها ما جرى على تلك . وذلك أن العربية لغة دين سماوى ذى خطر ، وبها كتبت أصول هذا الدين تشريعا وحكمة وثقافة . وعلى رأس هذه الاصول : القرآن ، معتمد المسلم ومرجعه فى شؤونه الدينية وعقيدته الروحية . وقد قدس نص القرآن كما أنزل بالعربية الفصحى ، فبقيت ملازمة له تكاد تقدس معه نصوصها . ولما كانت العقائد الدينية راسخة فى القلوب ، على الرغم مما يقال من أن تطور المدنية سيقضى على تأثير هذه العقائد ، فان العربية باقية بقاء الاسلام ، أى القرآن . ولما كانت لغة قريش المنزل بها القرآن بلغت حين نزوله أقصى مبلغ من قوة البيان وفصاحة التعبير ، وكان القرآن موضع التحدى للعرب أن يأتوا بسورة من مثله ، اعتبر ذلك الكتاب أسمى نمط للعربية الفصحى ، وأعلى نموذج للبيان المعجز ، فظل القبلة الخالدة فى استلهام أصح الاساليب لنظم الكلام . فما دام القرآن محفوظا ، والاسلام قائما ، وأمته العربية موفورة ، فلن يكتب لهذه اللغة الفناء .. وذلك فى الحق أعظم الاسباب التى صانت العربية عن الزوال فى الماضى والحاضر ، وسيكون السبب الذى يمدها بعوامل البقاء فى المستقبل . فأما اللاتينية فلم يتح لها أن تكون لغة كتاب سماوى مقدس له حرمته فى اللغة وله أثره فى صونها وحياطتها ، ومن ثم خضعت للناموس الطبيعى . وانما يحمى العربية من مثل هذا المصير انها كما أوضحنا لغة كتاب مقدس يدعم عقيدة دينية راسخة ، والعقيدة ناموس طبيعى آخر لا تستغنى عنه النفس البشرية بحال ، فبقاء العربية اذن نظام يجرى وفق سنة طبيعية بشرية صحيحة لا يعتريها التبديل

٤ ـ وأقرب ما يعترض به على القائلين بجمود العربية ، وينفى عنها شبهها باللغات الميتة ، أنها لبثت قرابة ألف وخمسمائة سنة تؤدى مهمتها على وجه مرض ، وها هى ذى تطاوع الرقى العلمى والادبى والعمرانى فى العصر الحديث ، فتراها لسان الدرس على اختلاف مراتبه ، والكتاب على تباين فنونه ، وأداة الخطابة فى منابر القضاء والمحافل على شتى أغراضها . وحسبنا الصحافة مصداقا لهذه الحقيقة ، فقد لانت العربية للصحف

والمجلات تعبر عن شؤون الحياة العامة والخاصة . ولا جرم أن بقاء الفصحى على هذا النحو يكاد يعد معجزة فى عالم اللغات ، ولكنها معجزة لها مسوغاتها الطبيعية التى لا افتعال فيها ولا قسر . فالآن يجمل بنا أن نساعد قوى هذه اللغة على أن تطور التطور الاوفى ، وأن نجعلها أكثر ليانا وطواعية لتواتى مقتضيات الحضارة العلمية والادبية والعمرانية اليوم وغدا ، فتكون أكثر صلاحية للتعبير ، وأشد عضدا لمواجهة الزمن القريب والبعيد. وفى سبيل هذا الهدف الاسمى يجب أن نعتبر اللغة كائنا حيا ينمو ويتطور ، لا كائنا أثريا قيمته فى ذاته وفى احتفاظه بحالته . فاذا نظرنا الى اللغة بهذا الاعتبار لم ندخر وسعا فى تغذيتها بالصالح المفيد ، وتخليصها من شوائب الجمود

٥ ـ فما هو العائق الذى يحول دون تطور اللغة ؟ وكيف السبيل الى رفع هذا العائق ؟ أكبر ما يعوق اللغة فيما يقولون انها لغة كتابة لا لغة كلام ، ولو كانت لغة كلام لعاشت فى السوق والبيت ، ولنمت من تلقاء نفسها ، ولاشتقت ألفاظها من طبيعتها دون اللجوء الى عوامل مصنوعة . وذلك شأن العامية فى أقطار الشرق ، فهى أكثر طلاقة ، لانها ترجمان الحياة الدارجة . ولكن تلك العامية لا ضابط لها ولا نظام ، فانها لهجية غير مهذبة ، وليس لها من أصول مستقرة قط ، ولا طاقة لها بالتعبير الراقى عن جلائل الاشياء فى ميادين الاجتماع . فأما لغة الكتابة ، أعنى الفصحى ، فقد انصقلت على ترادف الايام ، وأحكمت ضوابطها فى الالفاظ والاساليب ، لانها استعملت فى التعبير منذ أمد مديد . فهل يمكن أن تكون هذه الفصحى لغة كلام ليتم كمالها بالمعنى الواسع ؟ الواقع أننا حين نتأمل سائر اللغات الحية المعتبرة لغات كلام وكتابة معا ، لا نعدم الفروق فيها بين الكتابة والكلام . وربما كانت هذه الفروق هينة بالاضافة الى الفرق بين العربية وعاميتها . ولكن الفرق فى مثل الالمانية ظاهر . ومن المحتمل أن يتضاءل ما بين العربية والعامية من البون على مر السنين ، ولا سيما اذا اطرد رقى التعليم وشمول الثقافة . وقد يكون عن كثب منا يوم تتدانى فيه العربية والعامية باستمداد كل منهما من الاخرى

٦ ـ ولتحقيق هذا الهدف الجليل يجب أن نعين العربية على أن تبسط سلطانها ، وتستوفى حيويتها فى ميادين الحياة العامة . واننا لمجملون ما نراه لذلك فيما يلى :

أولا : تزويد اللغة . ثانيا : تبسيط اللغة . ثالثا : تيسير النحو . رابعا : تعميم الضبط

ولنتناول كل نقطة من هذه النقط ببعض الشرح :

أولا ـ تزويد اللغة : تغزونا المدنية العصرية بعلومها وفنونها وصناعاتها، وتفرض نفسها علينا فرضا بألفاظها الاجنبية التى تميزها،كالمخترعات وأجزائها ، وشتى الادوات والعقاقير، وصنوف المطاعم والمشارب وأوانيها ، وضروب الاثاث وما اليه ، ومظاهر الحياة الحضرية

من ألعاب ومجامع ونحوها. فهل ندخل هذه الالفاظ جميعا فى لغتنا بعد أن نخضعها لاصول التعريب ، فلفظ « الاوتوموبيل » مثلا نجعله « التمبيل » و « الترامواى » ننطقه «الترامه» و « السينماتوغراف » نقوله « السيما » ؟ ذلك رأى جماعة من أولى الرأى . وفينا من يرفض التعريب ، مؤثرا اللفظ العربى الذى يؤدى المعنى الأجنبى ، اما بالاشتقاق من المواد اللغوية للعربية ، واما باحياء الالفاظ التى تلمح الملابسة بينها وبين المعانى الجديدة ، كالسيارة «للاوتوموبيل» والقطار «للبابور» والجماز «للترامواى» والخيالة «للسينماتوغراف»

أما القائلون بالتعريب فيحتجون بأن الالفاظ الاجنبية موج زاخر ، وهيهات أن ترد اندفاعه مهما تبذل من جهد . على أن بعض هذه الالفاظ عالمى الذيوع ، وبخاصة ألفاظ العلوم والفنون . فمن العبث الانفراد بوضع ألفاظ جديدة ، خروجا على المتواضع عليه فى جميع اللغات

وأما الرافضون للتعريب فهم يخشون أن تصبح العربية مجرد قوالب وصيغ للالفاظ الاجنبية الهاجمة ، على حين أن فى ألفاظ العربية ما يؤدى كثيرا من معانى هذه الالفاظ الاجنبية عينها

وكما يحتدم الخلاف فى مسألة التعريب بين الباحثين ، يحتدم أيضا فى مسألة المولد فى العامية . فيرى فريق أنه لا يجوز لنا استضافة ما ولده عامة الناس وما أشاعوه على ألسنتهم من الكلمات ، وذلك كالبلاص والدوار والحلة والطرحة . ويرى فريق آخر أن نتقبل كل ما جرى على ألسنة العامة من هذه المولدات

والقول المفصل فيما يبدو لى أن نتوسط فى الامر ، وأن يكون موقفنا فى مسألة المعرب والمولد موقف مرونة وموازنة وتقدير لملابسات كل لفظ ومدى الحاجة اليه . فلنشتق ، ولنستضف من العامية ، ولنستحى القديم من الالفاظ ، ولنعرب الأجنبى ، متوخين فى كل ذلك الحكمة . وحرى بنا أن ندع ذلك للهيئة اللغوية المشرفة ، على أن تراعى سهولة الالفاظ ، وموسيقية الحروف ، وخفة الصيغة على السمع

ومن أمثلة الالفاظ الموفقة : السيارة « للاوتوموبيل » والدراجة « للبسيكليت » والمغنى « للفيلا » ــ وهذا من المشتق ــ والشطيرة « للساندويتش » والمشجب «للشماعة» والمعطف « للبالطو » ــ وهذا من القديم المستحيى ــ والكهربائية «للترامواى» والعجلة «للبسيكليت» والتسريحة لقطعة الاثاث الخاصة بالزينة ــ وهذا من العامى ــ والسينما ، والفلم، والديزل ــ وهذا من المعرب ــ فتلك الالفاظ مستساغة مقبولة . فأما أمثال القرطق « للسمارت » والارزيز « للتليفون » فمما لا ينتظر شيوعه وقبوله بحال . فخير لنا ألا تضيع الجهد والوقت والتجربة فيما لا غناء فيه ، ولا جدوى منه . ولنربأ بأنفسنا عما يجر علينا التهكم والسخرية . والذى يعوز اللغويين فى مشكلة الالفاظ الجديدة هو عرضها عرضا كافيا لاشاعتها . ولا ننسى أن ما ذاع من الالفاظ فى فجر نهضتنا الحديثة كان وليد حماسة الكتاب له واقبالهم عليه . وعلى الهيئة اللغوية المشرفة أن تتفنن فى عرض الالفاظ على

الجمهور بمختلف الوسائل ، وفى مقدمتها الصحف والمجلات . فبالتكرار يتسنى للجمهور أن يغربل ما يعرض عليه ، وأن يأخذ ما يوائم ذوقه ، فلا يلبث كثير من هذه الالفاظ الجديدة أن يشيع ويدخل فى صميم اللغة السارية .

ثانيا — تبسيط اللغة : انما يتم تبسيط اللغة بالاقتصار من الالفاظ الكتابية على المألوف المأنوس ، دون غوص على المهجور المجفو من الكلام ، الا ما تقتضيه ضرورة التعبير عن معنى دقيق أو حقيقة جديدة لا يعبر عنهـا بلفظ متعارف . على ألا نجانب السـهولة والاستساغة فيما نتخذ من هذه الالفاظ . ولندع وحشى الكلام فى بياننا ، فقد انصرم ذلك العهد الذى كانت البراعة فيه تقاس بالالغاز فى التعبير ، وتصيد الغريب الحوشى ، وأصبح البيان الحق يدور على استعمال اللفظة المعبرة الكاشفة فى موضعها الملائم بأسلوب وضاح لا تعقيد فيه . وكذلك تبسط اللغة بتحديد معانى الالفاظ تحديدا منطقيا ، فلا نسرف فى اصطناع الترادف الذى يجعل الالفاظ غير مفصلة على قدود المعانى . وقد استطاع كتاب العصر الحديث أن يمضوا فى هذا السبيل شوطا بعيدا ، فتحدد كثير من قيم الالفاظ ، وتعينت دلالاتها المعنوية ، وذلك من أثر التوسع الثقافى ورقى الذوق الادبى والأطلاع على حقائق العلم والاجتماع . وقد جال بخاطر بعض دعاة التبسيط اللغوى أن ينشئوا لغة مختزلة ذات ألفاظ محدودة لا تتجاوز بضع مئات مع تأديتها لجميع المعانى ، وذلك محاكاة للغة الانجليزية المسماة « البيسك » وفائدتها أن تساعد على انتشار اللغة والاقبال على تعلمها وسهولة استعمالها

والرأى عندى أن هذه اللغة لا يكتب لها النجاح ، لان المتعلم لها لا يستطيع أن يستعمل سوى ألفاظها ، ولا أن يفهم غيرها . فاذا قرأ فلا بد أن يقرأ المكتوب بهذه اللغة وحدها ، وبذلك لا تكون له صلة باللغة الاصلية ولا بما تنتجه عامة أدبائها وعلمائها . وثمة عيب آخر فى اللغة المختزلة وهو أن الالفاظ لقلتها تؤدى معانى كثيرة ، فيتذبذب اللفظ بين أشتات المعانى ، وذلك ما يناهضه مصلحو اللغات فى الامم . وفوق ذلك كله لا تصلح اللغة المختزلة للادب والشعر ، لانهما يتطلبان موسيقية لفظية ، ويقتضيان ايثار تعبير على تعبير . وكذلك بعض العلوم والفنون تستلزم دقة فى البيان لا تتيسر مع قلة الالفاظ وضغطها . ولهذا أعتقد أن تبسيط اللغة لا يكون بوضع لغة مختزلة ، الا أن يراد بهذه اللغة أن تعد خطوة أولية لتعلم اللغة الاصلية

ثالثا — تيسير النحو : كان النحو من المشكلات التى طالما فكر فى حلها الباحثون ، وذهبوا فى شأنها مذاهب بين التفريط والافراط . وفى معتقدى أنه لا سبيل لنا الى التخلى عن النحو ، لانه من مقومات اللغة وأصولها ، فاذا تخلينا عنه فقد هدمنا ركنا أساسيا تعود بعده اللغة فوضى تحتاج الى ضوابط تحل محله . وكل ما يمكن عمله هو تصفية القواعد الكثيرة وغربلتها ، فما كان منها جوهريا أبقيناه ، ولنتخذ من تسمح بعض النحاة الاقدمين

قدوة لنا فيما نعالج من تيسير القواعد الى الحد الممكن، وحذف ما لا يلائم التطور العصرى للغة . وأكاد أجزم بأن النحو سيظل أساس لغة الكتابة، حتى تتقارب لغتا الكتابة والكلام. ويومئذ يقتصر على قدر ضئيل من نحو العربية . على أن مشكلة النحو فى أول الامر وآخره لم تنشأ ولم تصبح عويصة الا نتيجة لمشكلة الضبط ، وهى مدار حديثنا فيما يلى :

رابعا ـ تعميم الضبط : اجتازت العربية مراحل متتابعة فى سبيل الرقى ، فكانت الكتابة أول الامر بلا نقط ، ولم يكن بالعسير على العرب أن يقرأوا غير المنقوط قراءة صحيحة بهداية السياق والفطنة وسرعة التمييز . فلما اتسع نطاق المملكة العربية ، وأقبل الاعاجم يتقنون اللغة ، وأخذت الامة بأطراف العلوم والفنون ، وكثر تداول الكتب ، مست الحاجة الى النقط ، ثم نشأ الضبط أو الشكل تخفيفا لعبء الفهم وتقييدا لقواعد النحو والصرف. بيد أن هذا الشكل لم يستعمل الا فيما خيف عليه التحريف ، كالنصوص الدينية ، وما يشكل فهمه من القطع الادبية واللغوية . وفى وسعنا أن نحكم بأن علامات الشكل لم تكن موفقة منذ نشوئها . واننا لواجدون دليل ذلك فيما كان يلجأ اليه العلماء القدامى من ضبط الالفاظ بتفسير الحركات لا بالعلامات ، اذ يقولون : بفتح الحاء المهملة ، وضم الجيم المعجمة ، وكسر التاء المثناة فوق ، وما الى ذلك ، توخيا لدقة الضبط ، وخشية تصحيف النساخ

وعندى أن الشكل فى عصرنا الراهن ضرورى كل الضرورة . وما هو فى الواقع الا حروف ناقصة من الكلمة العربية حقها أن تستوفى ، كما فى اللغات الاجنبية . فالحركات فى هذه اللغات حروف يطلق عليها الحروف المصوتة . فمثلا : لفظ « محمد » فى العربية أربعة حروف ، وفى اللغات الاجنبية ثمانية غير التنوين . وهذا النقص الحرفى فى الكلمة العربية يحضر فى خواطرنا أن لغتنا المكتوبة لغة اختزال . وبرهان ذلك أن الاختزال لم يجد عندنا جدواه فى اللغات الاجنبية . وذلك لان الصحفى العربى اذا أراد نقل خطبة مرتجلة تسنى له ذلك لا يدع منها حرفا . فأما الصحفى الانجليزى فانه يستحيل عليه نقل خطبة انجليزية تلقى اذا جهل الاختزال . والسر فى هذا أن كتابتنا العربية مختزلة من تلقاء نفسها ، واذا وفقنا الى ادخال الشكل فى بنية الحروف ، فستكون لدينا لغتان : اللغة المشكولة المكتملة ، واللغة المختزلة غير المشكولة . ولما كانت مهمتنا تيسير اللغة وتسهيلها ، فان من الواجب علينا أن نفكر فى مسألة ضبط الالفاظ تفكيرا جديا عمليا ، لان الالفاظ غير المضبوطة يختلف فى نطقها القراء ، ولانه يصدق علينا ما قيل من اننا نفهم أولا لكى نقرأ قراءة صحيحة ، على عكس المقصود بالكتابة ، وهو أن نقرأ أولا لكى نفهم الفهم الصحيح . فالضبط عامل ذو خطر فى نشر اللغة وتعميمها وتشجيع النطق بها والاستفادة التامة منها . على اننا لا ننكر ان تعميم الشكل فى الحروف مشكلة فنية من حيث التطبيق والتحقيق ، وقد درسها كثيرون ، واقترحت فى شأنها مقترحات مختلفة . وأغلب

هذه المقترحات يدور على تذليل عقبات الطباعة التى تعترض الجمع بين علامات الشكل والحروف ، حتى لا يرهق العامل ، ولا تثقل السطور

ولسنا هنا بصدد ايثار مقترح على مقترح ، ولكننا نشير الى أنه لا بد لنا من الابقاء على مألوف الكتابة العربية ، ونبذ التفكير فى العدول عن صورة الكلمة الاصلية ، حرصا على صلاتنا بماضينا الادبى والعلمى الزاخر بالتآليف مخطوطة ومطبوعة . واذا وصلت هيئة فنية الى حل هذه المشكلة باختيار علامات صالحة للتعميم ، فان من الهين أن يتحمل عامل الطباعة بعض الجهد والمشقة فى سبيل انقاذ اللغة وكسب الفوائد العظيمة التى تعود علينا من تعميم الضبط . فاننا اذا تمثل لنا أن قارئنا العربى سيقرأ دائما كتابة مضبوطة نحوا وصرفا فى كل ما تقع عليه عينه من كتاب أو صحيفة أو مجلة أو نشرة من أى نوع كان — ارتقبنا أن تصل به الحال الى أن يصبح النطق بالصواب سليقة له ومرانة . ولا يبعد علينا بعد فترة من الزمن أن نلمح بوارق العهد الذى كان العرب فيه يحسنون النطق الصحيح على غير علم بالقواعد أو تعلم لها . وما أعظم هذا كسبا !..

ويخيل الى أنه يجمل بنا ألا نضيع الوقت فى اختيار علامات للشكل تحل بها هذه المشكلة ، وانما نبدأ باستعمال الشكل فى حالته الراهنة ، فنعممه فى جميع الكتب التى تدارسها دور التعليم من المكاتب الصغيرة الى المعاهد العالية ، لا فرق فى ذلك بين كتاب جغرافى أو رياضى أو نحوى . وحين يبدأ التلميذ حياته العلمية على هذا النحو ، ويمضى فى ذلك أثناء تنقله فى درجات التعليم — لا يشب الا قارئا مطبوعا على الصحة والصواب . فتصبح هذه الخطوة أولى خطوات تعميم الشكل ، وضبط اللغة ، وتقريب نشرها بين أهليها . ولا سيما اذا تبع ذلك التوفيق فى ابتكار علامات يسهل على أيدى العمال استخدامها فى جمع الحروف ، كما يسهل على أقلام الكتاب استعمالها فيما تجرى به الاقلام

٧ — وحينما نجنى الثمرة الطيبة بتحقيق العوامل التى أسلفناها ، وهى : تزويد اللغة ، وتبسيطها ، وتيسير نحوها ، وتعميم الضبط فى كلماتها — نكون قد مهدنا للعربية وسائل النمو المطرد واستكمال السلطان التام . ولو أضفنا الى ذلك محو الامية وشمول الثقافة ورقى طبقات الشعب ، لالفينا لغة الحوار ترتقى وتزدهر ، وتصطبغ بصبغة فصيحة شيئا فشيئا

وسيقوم بين لغتى الكتابة والكلام تعاون وثيق وتبادل مستمر . فلغة الكلام تمد لغة الكتابة بألفاظ حية تسرى فى أساليبها دما جديدا ، ولغة الكتابة تدفع الى لغة الكلام عبارات شريفة وكلمات منتقاة لا غناء عن استعمالها فى محيط الحياة

ولقد بدأنا نلمس أثر هذا التعاون والتبادل فى أيامنا الراهنة ، ومن أمثلة ما دفعته لغة الكتابة الى لغة الحوار ، كلمات : الغارة ، والمخبأ ، والاضراب ، والنقابة ، والثقافة ، والقرض ، حتى لقد راض العامة ألسنتهم على استعمال القاف الغليظة لورودها فى كلمات

ضرورية الذيوع . فأما فيما يتعلق باستمداد لغة الكتابة من العامية ، فقد رأينا نفرا من كتابنا الأدباء يتخيرون من الألفاظ الدارجة ما لطف وقعه ودق تعبيره وصح تخريجه ، وربما كان هذا التعاون والتبادل وئيد الخطا ، ضئيل المظهر . ولكن مرد ذلك الى ما كان من تخلف الثقافة وانتشار الجهالة والبطء فى محاربة الامية . وعلى الرغم من ذلك يتجلى لنا بقليل من التأمل أن العامية خلال عشرات السنين الماضية تدانت الى الفصحى بما اصطنعت من الفاظها . وهيهات أن يقاس بعد العامية عن العربية منذ خمسين عاما ببعدهما الأقل مسافة الآن . وهذا يؤيد أن التعاون والتبادل بينهما سيكون فى قابل الايام أوثق عرى وأوفر جدوى ، لما ألمنا اليه من التوسع فى التثقيف والتعليم ، ولما ينتظر من المضى فى تجديد العربية وعلاج مشكلاتها على أى نحو يكون

وكلما ازداد التعاون والتبادل بين لغتى الكتابة والكلام تضاءلت بينهما الفوارق ، ودنت كل منهما الى الاخرى . ومتى كملت للعربية هذه المطالب كان لها أن تطمئن الى حياة مديدة موصولة تجارى الزمن ، وتتطور معه ، وتتجدد به . فكما كانت لغة الماضى ، وكما بقيت لغة الحاضر ، ستظل لغة المستقبل !

محمود تيمور

الاذاعة الاثيرية

[بقية المنشور على صفحة ١٨٧]

أمين ما رأى أحد ... به عما ابتغى حولا
فأما حين تأمنــه ... على السر المصون ، فلا

يد للعلم أزلتهـــا ... فنادى الجيل جيهلا (١)
وراح الشرق مبتهجاً ... وبات الغــرب محتفلا
توالى فيض أنعمــه ... فكم أسدى ، وكم بذلا
شق وكفى ، فكيف به ... اذا ما تم واكتملا ؟
له فى الغيب ملحمــة ... أراها تنشد البطــلا
قرين النصر ما غلبت ... كتائبــه ، ولا خذلا
له عنــد الفتوح وفى ... مجال الكر ما سألا
مواهب ربنا اطردت ... تبـــارك ربنـــا وعلا

احمد محرم

---

(١) كلمة استحثاث

مشكلة اجتماعية

الحب في أمريكا

يظهر أن أمريكا هي البلد الوحيد الذي غدا فيه الحب مشكلة قومية . فما يجد المرء في سواها ما يجد فيها من اهتمام القوم بالعلائق بين الرجال والنساء . وما يلقى المرء في غيرها ما يلقى فيها من هم الناس وقلقهم ، لان هذه العلائق لا تؤدى دائما الى السعادة الكاملة

ان الفكرة السائدة في امريكا عن الحب كالفكرة السائدة عن الديموقراطية : يراهما الناس من الوجهة النظرية أمرا كاملا لا يعوزه نقص ، خالصا لا تعيبه شائبة ، صافيا كالماء المكثف من قطرات البخار .. فاذا خرجوا بهما من نطاق النظريات الى مراد التطبيق العملي وجدوا فيهما انقاصا وشوائب ، ووجدوهما في حاجة الى كثير من التصفية والتنقية، وكثير من التحوير والاصلاح

وهذا هو وجه الخطأ في فهم الحب وفهم الديموقراطية . فما يصح أن ينظر اليهما نظرة مثالية تتغاضى فيها عن الواقع من الامور . وما يصح ان تتجاهل ان نجاحهما يقتضى اجراء سلسلة طويلة من أعمال التوفيق بين رغائب القلب وضرورات المنطق . وما يصح أن تتناسى انهما يتحولان الى حطام ورماد اذا أردنا ان نخضعهما لنظام دقيق وتفكير محكم ، لا مجال فيهما لشيء من التساهل والتيسير . اذ الواقع أن سر نجاح الديموقراطية ، وسر نجاح الحب ، في أن تترك من حولهما « هامشا » لبعض الاخطاء الانسانية التي لا محيص منها . ولكن هذا لا يرضى أمريكا ولا يقنعها ، فتلك بلد تعبد النظام وتقدس الدقة ، ولا تريد أن تترك أية ناحية في الحياة مهيأة لقبول الاخطاء

* * *

يدرك المرء أول ما يذهب الى امريكا مما يشاهده من أفلام السينما ان الحب في هذه البلاد لا بد أن يكون ظافرا ، موفقا . نعم انه قد يتحطم في بعض الأحيان بسبب ملابسات سيئة الطالع أو ظروف قاسية التقدير . وان هذا التحطم قد يؤدى الى ارغام الحبيبين على الفراق ، أو اكراه الزوجين على الطلاق .. ولكن ذاك الفراق أو هذا الطلاق لا بد أن يكون الى أمد معلوم ، فما يصح ان ينهزم الحب أو يخفق في أداء رسالته .. ولهذا سرعان ما يتصافى الحبيبان ، وسرعان ما يتلاقى الزوجان ، وسرعان ما يعود الحب ، كما يجب أن يكون دائما ظافرا ، وموفقا !

هذا هو الحب كما تفهمه امريكا ، وهذا هو سر المشكلة التي خلقتها امريكا

نعم ، يجب أن يسقط المرء من حسابه مدينة هوليوود ان أراد أن يفهم أمريكا على حقيقتها . ولكن اصرار مؤلفى الروايات ومخرجيها وممثليها وممثلاتها على أن يكون الحب دائما أبدا ظافرا وموفقا ، دليل جلى أن هذا هو الشعور القومى ، وهذه هى العقيدة الشائعة عن الحب : فهو دائما حب مشبوب العواطف متقد المشاعر ، وهو دائما حب خالص الجوهر كامل المظهر ، وهو دائما حب يرفع الاحبة الى السماء ويحلق بهم فوق الذرى ، فلا يمكن يوما ما أن تخمد ناره أو تنطفىء جذوته ، ولايمكن يوما ما أن يتعكر نبعه أو يذبل زهره ، ولا يمكن يوما أن يهبط بالاحبة الى الارض وما فيها من صخور

واذا كان فى حجرة الفندق الذى يهبط فيه هذا الزائر الاجنبى جهاز لاسلكى ، فانه بعد الاصغاء الى ما يذيعه من أغان ساعة واحدة لا بد أن يؤمن بأن أمريكا هى بلد الحب المثالى : الحب الذى لا ينتهى شبابه ولا تبلى جدته ، الحب الذى يزداد على الايام كمالا ونماء وتألقا .. فما من بلد آخر « يستهلك » من الاغانى والاناشيد الغرامية مثلما تستهلك أمريكا من هذا الحب الخيالى العجيب

يقولون ان فرنسا بلد الحب . ولكن استمع الى اذاعتها قليلا تجد أن أغانيها لا تتحدث عن الحب أكثر مما تتحدث عن أى أمر آخر . بل لعلها تتناول السياسة أكثر مما تتناول الهوى . ثم ان أغانيها الغرامية تنبئك بأن الفرنسيين أدركوا بذكائهم المنطقى أن الحب الخيالى « الرومانتيكى » لا وجود له فى هـذه الدنيا الا فى قصص الروائيين وقصائد الشعراء .. فأخذوا يغنون وينشدون الحب كما هو : الحب الذى يمتزج فيه سمو القلب بحكم العقل ، أى يمتزج فيه الصفاء والمكارة معا

* * *

ثم كان ظهور « فرويد » فزاد مشكلة الحب تعقدا . كان الحب قبل ذلك هو الامر الوحيد الذى يراه الامريكيون غير قابل للبحث والفحص والتحليل والتأويل ، فجاءت موجة « التحليل النفسى » فاستقبلها الامريكيون بكل ترحاب وحماسة ، وعدوها الحلقة المفقودة فى منهاج « النظام العلمى » الذى تقوم عليه الحياة الامريكية بجميع مشاهدها وكافة مناحيها .. لقد شرح لهم هذا العلم الجديد سر الاخفاق الذى يعتور الحب أحيانا ، وكان من قبل سرا محجبا مطويا لا يعرفون له كنها ولا يدركون له تأويلا ، وكانوا من قبل يعجبون كيف يخفق الحب وينهزم وهم يؤمنون بانه لا بد أن يكون على الدوام ظافرا وموفقا .. بين لهم هذا العلم أن « الناحية الجنسية » هى مبعث هذا الاخفاق أحيانا ، فعرفوا الداء وأسرعوا يلتمسون الدواء ..

وكان هذا الدواء فى تلك العيادات التى أنشأها مئات وآلاف من أطباء التحليل النفسى فى امريكا . وقال لهم هؤلاء الاطباء ان دواءهم فى أن يواجهوا الامر بجرأة وصراحة ، فعلى الزوجين أن يمضيا بضع ساعات يتناقشان فيها ، بكل بساطة وكل صراحة ، فيما

يعكر صفوهما وفيما يفسد عليهما نعيم الحب ..

انها فكرة جميلة .. وها هم الازواج الامريكيون يقبلون على الاخذ بها كل الاقبال . وها هو كل زوجين منهم يمضيان ساعات ، أو أياما وليالى ، يتناقشان ويتباحثان فيما يعكر الشبع الصافى . فهل حلت المشكلة ؟ ان الحقيقة مادة مفرقعة ، اذا لم تحسن تناولها ، انفجرت وحطمت ما حولها . وذلك ما كان ، فان هذا الدواء لم يزد الداء الا استفحالا ، وغدت هذه المناقشة الجريئة الصريحة مبعث الفرقة والشقاق بين الازواج فى أمريكا

أعرف سيدة أمريكية تقضى من حين الى حين ساعات طوالا تناقش زوجها وتجادله فى حبهما : كيف يجب أن يكون ؟ ما هى وجوه النقص التى يجب تلافيها فى هذا الحب ؟ ما هى أسباب الكمال التى يجب الاخذ بها تدعيما لهذا الحب ؟ وزوجها يستمع الى هذا الحديث ، متعبا ، معذبا ، ضيقا به ، ناقما عليها .. وهى لا تنفك تعرض أمامه قصة حبهما من أولها الى آخرها ، رافعة النقاب عن كل مستور فيها ، حاسرة اللثام عن كل خفى فى طواياها ، موقظة ، بل مزعجة ، كل هادىء مستقر من مشاعرها وعواطفها .. فماذا تكون النتيجة الا أن تزداد مشكلة حبهما تعقدا ، ويزداد حلها عسرا ، وتغدو الحياة بينهما قلقة مضطربة لا سبيل الى الابقاء عليها

ثم انظر الى تلك الكتب التى تمتلىء بها السوق الامريكية مشتملة على خير الطرق وأحسن الوسائل للحب والزواج . انها تصف للاحبة والازواج ما يجب أن يفعلوه ، وما يجب أن يتجنبوه ، ليكون حبهم شهيا وليكون زواجهم رضيا .. انها تشرح لهم الطرق والحيل التى يجب أن يتخذوها ليزداد حبهم قوة وتمكنا ، وليزداد زواجهم سعادة ونعيما . ولكن ما النتيجة ؟ ان عواطف الانسان ليست مادة يبحثها العلماء بمجاهرهم وأجهزتهم ، وليست أرضا يقلبها الخبراء بفؤوسهم ومحاريثهم . انها ما تزال ، وستبقى ، عصية على العلم متمردة على العلماء ، وسيبقى أمرها موكولا الى الظروف الخاصة ، وسيظل نجاحها موكولا الى غير قليل من حظ المرء فى الحياة

ان مشكلة الحب فى امريكا ترجع الى أنها تقوم من جانب على اسراف فى الغناء الغرامى ، وفى الروايات الخيالية ، ومن جانب آخر على مسائل التحليل النفسى الحديث . ولا سبيل الى التوفيق بين الامرين : لانه توفيق بين النقيضين ، بين الخيال والواقع ، وبين العاطفة والعلم . ولهذا كان الحب فى أمريكا مشكلة خطيرة تفسد على الاحبة منامهم ، وتفسد على الازواج حياتهم

ولا خلاص من هذه المشكلة الا اذا عدل الامريكيون عن أن ينظروا الى الحب كما تنظر اليه هوليوود من ناحية ، وأطباء التحليل النفسى من ناحية أخرى .. وأخذوا أنفسهم بالنظر اليه كما تنظر سائر الشعوب الاخرى على أنه عالم حافل بالكمال والنقص ، وبالخير والشر ، وبما يرسل الدمع غزيرا حينا وسخيا حينا آخر

(عن مقال لرامول دى سال فى صحيفة ذى اتلنتك مونثلى)

من القاهرة الى لندن بالقطار

بقلم محمود شاكر محمد باشا

المدير العام لمصلحة السكك الحديدية المصرية

لئن كانت الانسانية تدين أول ما تدين فيما انتهت اليه من تحضر واتساع عمران الى السفينة ، فهى التى بلغت شواطىء كانت مجهولة ، ووصلت أطراف العالم بعضها ببعض ، ويسرت التبادل التجارى الدولى ، ووسعت آفاق الثقافة الانسانية العامة . فقد جاء القطار من بعد فأكمل رسالة السفينة ، وأوفى بما لم تستطع أن توفيه منها . فهو أداة طيعة مرنة تستطيع أن تجوس خلال الارض ما تشاء ، وأن تبلغ من البلاد ما تريد . على خلاف ما تستطيعه السفينة التى يحد لها البحر طريقها فلا تحيد عنه ، ويعين لها من شواطىء البلاد أهداف محطها عليها واقلاعها منها

لذلك فلا عجب أن يعتبر اليوم الذى استطاع فيه القطار أن يؤدى رسالته ، يوم بعث جديد لحضارة المجتمع الانسانى ، تبدت فى صور نهضاته الصناعية ، ومعاملاته التجارية وصلاته السياسية والاجتماعية والثقافية . وحسبنا لنتبين صدق هذا القول أن نتخيل عالمنا اليوم وهو خال من السكك الحديدية . لا يطوى أرضه قطار ، ولا تجرى عليه السيارة التى خلقت من بعده . وأن ننتهى من ذلك التخيل الى تكوين فكرة عما عسى يكون مجتمعنا الانسانى عليه اذ ذاك

ومن أجل هذا اتجه التفكير الدولى الى أنه كلما اتسعت شبكة المواصلات الحديدية وأمكن أن تصل أقصى ما يمكن من بلاد العالم بعضها ببعض ، كان ذلك أدعى الى ازدهار المدنية الانسانية ، وتقريب وجهات النظر بين الامم

ولم يكن لمصر الناهضة ــ التى تلتقى عندها أطراف القارات الثلاث : أوربا وآسيا وافريقا ــ أن تقف من مثل هذا المشروع العالمى الكبير مكتوفة اليدين . وخاصة أن مصر كانت ثانى دولة فى العالم أنشأت لبلادها السكك الحديدية . بل لقد كانت متصلة به أوثق الصلة ، مستجيبة فى ذلك الى رغبة كريمة من رغبات المغفور له الملك فؤاد الاول . فقد وكل جلالته الى غير مرة أن أتصل بمن يهمهم الامر فى هذا المشروع العالمى ، وأن أبذل كل ما أملك من جهد ، لاستكمال تلك الحلقة الحديدية بوصل مصر بأوربا عن طريق القطار ، حتى تستطيع بلادنا العزيزة أن تجنى ما هو مضمون له من نفع محقق

غير أن المشروع كان دائما تعترض طريق تنفيذه عقبات ، منها ما هو سياسى ، ومنها ما هو اقتصادى ، مما كان ينهض حائلا دون تحقيقه

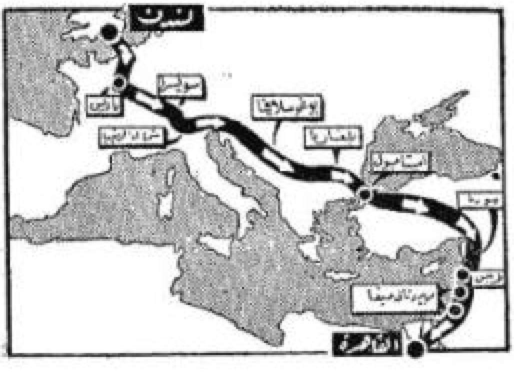
ولقد كان المسافر بالقطار الى أوربا قبل الحرب يعانى من المشاق ما يزهده فيه ، ويحجب

اليه ركوب البحر . فقد كان لزاما عليه بعد أن يصل الى القنطرة أن ينتقل من طريق الزوارق ــ بعد استيفاء الاجراءات الجمركية ــ الى ضفتها الاخرى ، حتى يتهيأ له بعد ساعات ركوب قطار فلسطين . ومن حيفا يقطع الطريق الى طرابلس الشام بالسيارة ، ومن طرابلس الشام يصل الى حدود تركيا بالقطار مرة أخرى ، ومن ثم ينتقل الى القطار التركى الذى يصل به ــ بعد ذلك الجهد المضنى ــ الى حيث يريد

ومن عجب أن يتاح لذلك المشروع الخطير الذى لم يكن فى الامكان تحقيقه فى وقت السلم ، أن يتحقق فى خلال هذه الحرب الضروس . والحرب ليست كلها شرا على أى حال . فقد اضطرت السلطات البريطانية ــ لمقتضيات عسكرية فنية بحتة ــ أن تنشىء قنطرة على قناة السويس ، وأن تنشىء كذلك خطا حديديا يصل ما بين حيفا وطرابلس الشام . وبذلك أكملت هذه السلطات ما يعوز تلك الحلقة الحديدية من وجوه نقص ، وأصبح الطريق الحديدى من مصر الى أوربا مهيأ

وحين تنتهى الحرب ويعود السلم من جديد الى العالم الجريح ، ستتحرك القطارات المفتخرة والسريعة من مصر الى لندن كل يوم عبر الاراضى التركية . وما ذلك بضرب من الخيال كما يبدو للقارىء لأول وهلة . ولكنه تحقيق لذلك المشروع الكبير الذى طال درسه من قبل كما ذكرت ، ومثلت مصر فى مؤتمراته ، وانضمت فعلا الى جامعة الدول المنتفعة بأمر استخدام قطار الشرق من طريق « سمبلون » . وهو القطار الذى يتحرك من لندن الى باريس ، فسويسرا ، فشمال ايطاليا ، فيوجوسلافيا ، فبلغاريا ، فاستنبول ، ومن استنبول ينتقل عبر الاناضول الى حدود سوريا ، ثم يصل بعد ذلك الى طرابلس الشام ، ومن هذه البلدة يستكمل المسافر طريقه بالسيارة الى بيروت ، ثم الى حيفا ، ومن حيفا آخر الامر الى القاهرة

ويجدر بى أن أذكر فى هذا الصدد أن القطار المصرى قد سجل فى هذه المؤتمرات



تبين هذه المرحلة طريق السفر بالقطار من القاهرة الى لندن ، والبلاد التى يمر عليها

وفى غيرها من المناسبات الدولية صفحة مشرقة لهذه البلاد حقا . فعلى حين أن كثيرا من قطارات الدول الاوربية لا تتجاوز فى سرعتها ال٤٠ أو ٥٠ كيلومترا فى الساعة ، اذا بقطارنا يقطع فى الساعة ٩٠ أو ١٠٠ كيلومتر ، كما أن لقطارنا عربات يتوافر لها من اسباب الراحة ما لا يتوافر لسواها فى تلك الدول

وأحسبنى فى غير حاجة لذكر ما يستمتع به المسافر من مصر الى أوربا بالقطار من مزايا اقتصادية وزمنية وصحية وثقافية . فهذا المسافر يستطيع أن يصل الى أى بلد من البلاد وهو مستقر فى قطاره ، وخاصة اذا كانت وجهته أواسط هذه القارة . فهو أولا لا يتكلف نفقات السفر بالبحر الباهظة ، وما يضاف اليها من نفقات التنقل ، هو وحقائبه من السفينة الى السيارة ، ثم من السيارة الى القطار ان استطاع أن يجد بها مكانا ، والا ظل فى فندقه حتى يؤذن له بالفرج . وهو ثانيا يستمتع بميزة زمنية لها شأنها ، اذ أنه يبلغ المدينة التى يريد فى نصف الوقت الذى يبلغها فيه تقريبا من طريق السفينة . وهو ثالثا يستطيع ان ألم به وهو بالقطار مرض يقتضى اجراء عملية جراحية معجلة أن يتداركه فى أول مدينة يقف عندها القطار . وهذا ما لا يتوافر فى السفينة ، فهى مهما بلغ نظام التمريض بها لا يبلغ فى ذلك المستشفى . وفضلا عن ذلك فان السفينة لا تطالع المسافر بها بغير منظر غطى واحد ، لا يتغير له جو ولا يضطرب فيه لون من حياة ، مما يبعث فى نفسه الضجر ، ويحمله على أن يسائل نفسه بين حين وآخر : أما لهذا البحر من آخر

أما القطار فمركب اجتماعى محبب الى النفس . لا تفتأ عين المطل من نوافذه تقع خلال الطريق على ألوان متباينة من الناس ، وأشكال مستغربة من الحياة ، وأقوام يختلفون بعضهم عن بعض ، فى لغاتهم ، وسبل تفكيرهم ، ونظم معاشهم . فالمسافر من القاهرة الى أوربا بالقطار انما هو فى الحق آخذ نفسه بأسباب رياضة جسمية وعقلية ونفسية

واليوم ، وأنا أتطلع الى المستقبل بعين الواثق المطمئن ، أرى فى أفق العالم الجديد مدى ما يمكن أن يكون للمواصلات جميعا من شأن وخطر ، وخاصة القطار والسفينة . فلسوف ينشأ بين هاتين المطيتين تعاون جدى وثيق يرمى الى خير العالم ، وازدهار مدنيته

سينشأ بين القطار والسفينة هذا التعاون المنظم الوثيق حتما . فحينا يحمل القطار الناس وكنوز الارض وخيراتها الى السفينة ، وحينا تحمل السفينة هذه النفائس الى القطار . فينطلق بها الى حيث يشاء ، لا يعوقه مرتفع من جبل أو منخفض من أرض

وسيبقى للقطار مع ذلك خصائصه ومزاياه مما لا تملك السفينة ولا الطائرة أن تشاركاه فى شىء منها . وحين تكشف حجب هذه الحرب عن وجه العالم ، ستنظر الانسانية الى القطار باعتباره احدى الوسائل الفعالة فى تضميد جراحه ، وتخفيف آلامه ، والمساهمة فى اعادة بناء عالم الغد ، ذلك العالم الذى نرجو أن تشيع فيه روح انسانية جديدة ، لا تؤمن الا برسالة الانشاء والتعمير والخير العام لاهل هذه الدنيا

محمود شاكر محمد

دراسة ونصيحة

كيف تعرف أنك تحب ؟

حقا انه شعور عجيب .. ولكن أأنت واثق أنه الحب ؟ فمن يدريك أنه ليس الا مجرد جاذبية جسمانية لا صلة لها بالعاطفة والشعور ؟ ومن يدريك أنه لا يعدو أن يكون سلوى أو عزاء عن حلم ولى وأمل خاب ؟.. كيف تعرف أن شعورك هذا هو الحب ؟

نعم ، ليست التفرقة بين ما هو حب وما هو ليس حبا بالامر اليسير . بل ان أعلم العلماء وأحكم الحكماء قد يخطئ، فيحسب أنه يحب بينا هو لا يحب ! وان أوضح أمارات الحب وأصدق دلائل الهوى قد تكون ستارا مسدلا على احساس ليس له بالحب أدنى اتصال !

واذن فعليك اذا خالجك هذا الشعور المبهم الغامض أن تتمهل فى الامر رويدا قبل أن تحكم على نفسك بأنها غدت أسيرة الحب والهوى .. تمهل قليلا حتى تختبر عواطفك وتمتحن أحاسيسك بشتى وسائل الاختبار والامتحان ، فان جازت الامتحان فالامر حب ولا مراء ، والا كفيت نفسك مؤونة الحب وما أثقل حملها وأفدح عبئها !

قد تقول : لقد أحببت من النظرة الاولى .. ولست أريد أن أجادلك فيما اذا كانت النظرة الاولى هذه تكفى أو لا تكفى لاحداث الحب وتوليد الغرام ، ولست أريد أن أجادلك فيما اذا كانت روايات الغرام القائمة على النظرة الاولى توافق أو تناقض الامر الواقع فى هذه الدنيا .. ولكن كل ما أطلبه اليك ألا يسوقك هذا الحب ، الذى ولد ودرج وشب وكبر فى لحظة خاطفة ونظرة عابرة ، الى الزواج دون تريث وأناة . فانه خير وأبقى لك ولمن تحب أن ترجىء الزواج بضعة شهور ، على أن تتزوجا اليوم لتديرا غدا رحى الطلاق

فمن الطبيعى أنكما اذا تمهلتما قبل الزواج قليلا انتهى الامر الى احدى نتيجتين : اما أن أحدكما أو كليكما يغير رأيه ويعدل عن الزواج ويكفى نفسه مشقة النزاع ومأساة الطلاق .. واما أن يقدم على الزواج مستمتعا بنعمة الحب والهوى ، وبلذة الظفر

ومن الحقائق الاولى التى يجب أن تعرفها وأن تذكرها عن الحب انه لا يبلى بمرور الايام ، بل يظل حافظا لجدته ثابتا على حاله دهرا طويلا . فاذا كنت تحب حقا ، فلا بأس ولا ضرر من التمهل قليلا ، فسيظل قلبك عامرا بعاطفته ، وسيظل احساسك مشبوبا بجذوته . وان لم يكن ما بك حب حمدت الله على أنك اكتشفت هذا قبل الزواج لا بعده !

اذن فلا تكن عجولا . ففى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة . وفى أثناء تريثك هذا

ادرس بطلة قصتك درسا دقيقا .. وأنت يا سيدتي خذي بنصيحتي هذه ولا تعجلي الامر ، وادرسي بطلك المحبوب في روية وأناة

وانس ، حين تدرس، البدر المتألق والهلال الساجي ، والزهر المونق والعطر الشذي . وحاول أن تعرف هذه التي تحبها كما هي في بيتها ، وقد خلعت عنها ثوبها الانيق الفاخر، ودلفت الى المطبخ تعد الطعام وتغسل أوانيه . وحاول أن تصحبها يوما كاملا ، وأنتما على انفراد ، لا أن تراها من حين الى حين وسط جماعة من الصحاب ، حين يكون كل منكما متكلفا ، متأنقا ، متصنعا ، في كل ما يصدر عنه من كلمة أو حركة أو اشارة

وتذكر أنك اذا تزوجتها ستقضي أكثر يومك بجوارها . وأنك ستراها حينئذ وقد تشعثت غدائر شعرها المشطة المصففة ، وقد تجرد وجهها مما يزينه من ألوان المساحيق، وقد استيقظت من نومها ذات صباح وعلى وجهها آثار أرق ، أو ضجر ، أو صداع ، لم تخفها بما تفتن فيه النساء من وسائل التجمل وأساليب الاغراء

وان كنت تحسب أنك تحبها لانها تتراءى لك في فتنة جمالها وسحر بهائها ، فلا تنس أنها لن تكون جميلة بهية هكذا حين يضطر طبيب الاسنان ان يخلع سنا من ذلك الدر المنضد وراء الشفاه الوردية .. ولا تنس أنك أنت الذي ستقضي حتما ليلة أو ليالي تضع على رأسها الكمادات الباردة أو الساخنة ، والليل هادىء داج ، لانها تشكو ألما أو تعاني مرضا ..

أراك تضيق بما أقول ، أليس كذلك ؟ اذن فأنت تحب حقا ، لانك اذا كنت تحبها حبا صادقا فانك لا ترى في قيامك بمهمة الممرض الى جوار فراشها المحبوب الا واجبا تؤديه بقلب يفيض حنانا وبيد ترتجف اخلاصا .. نعم ، اذا استطعت أن تراها وقد عصبت رأسها المصدوع ، واحمر أنفها المزكوم ، ودمعت عيناها وشحب وجهها وتقلصت بشرتها ، ومع ذلك ظللت تراها كما كنت تراها من قبل في فتنة جمالها وسحر بهائها .. فلا بد أن يكون هذا هو الحب بعينه وذاته !

واذا كنت يا سيدتي تظنين أنك تحبينه حقا لانه يتراءى لك ملاكا فتانا في ثيابه الانيقة وشعره المتألق ، فأرجوك أن تفكري في الامر طويلا . تريثي يا سيدتي الصغيرة ، تريثي رويدا . وتذكري أنك سترينه بعد ذلك وقد طال شعر لحيته ، وهو يطوف في غرف البيت ومرافقه ، في سراويله المهلهلة شتاء القصيرة صيفا ، أو هو واقف أمام المرآة يختال بعضلاته ويرقصها كما يفعل أولئك الرياضيون في الملاعب الجوالة .. وتذكري أنك سترينه بعد الزواج معنيا بياقته البيضاء المنشاة ، وبرباط عنقه الزاهي ، مثلما كان يعنى قبل الزواج بردائك وحفيفك وحذائك .. وسترينه بعد الزواج وهو يحدق في وجهك متمعنا متأملا ، وبينما أنت تحسبينه قد راح يستملي جمالك ويستلهم فتنتك ، اذ به يصيح فجاة : « أيها الخادم ، ماذا أعددت لنا اليوم من طعام العشاء ؟ » اذ الواقع أنه لم يكن يفكر في محياك المشرق وقوامك الاخاذ ، بل في معدته الجائعة وما تتطلبه من شهي الطعام

هكذا سيكون الامر بينكما بعد الزواج . وهكذا ستجدينه شخصا مملوءا بالأثرة والانانية ، وستجدين أن الزواج لم يصلح من أمره كثيرا ولا قليلا . وصدقيني ياسيدتي أنك ان كنت تريدين اصلاحه فاصلحيه قبل الزواج لا بعد الزواج .. نعم قبل الزواج حين يقبل كل نصيحة منك عن طيب خاطر ، حين يلبي كل رجاء تقدمينه وينفذ كل أمر تلقينه ، حين يسهل عليه أن يفعل كل شيء — حتى أن يغير من عاداته ويصلح من خلاله — في سبيل أن يظفر بقلبك ويفوز بيدك . أما ان تركت أمر الاصلاح الى ما بعد الظفر والفوز ، الى ما بعد الزواج ، فوفري على نفسك حينئذ مهمة الاصلاح ومشقاتها ومشاكلها

أما ان كنت يا سيدتي تجدين نفسك شاعرة بما فيه من نقائص وأخطاء ، وقادرة على التسامي عليها والاغضاء عنها ، فأنت اذن تحبينه حقا، فأقدمي على الزواج ولكن ما يكون. نعم ، ان كنت متنبهة الى عيوبه ومع هذا لا ترينه عيوبا ، ان كنت ترين بعينيك المفتوحتين نقائصه ومع ذلك لا تجدين فيه ما يعيبه ويشينه ، فليس لي أن ألقي اليك قولا أو أسدي اليك نصيحة ما ، فأنت تحبين ، والمحب لا يصغى الا لهاتف القلب دون سواه . .

ولكن ثمة كلمة أخيرة ألقيها اليك أيها العاشق ، واليك أيتها العاشقة ، تحذيرا وانذارا: اياك ، اياك ، ان تندفع الى حب جديد عقب أن تخفق في حب قديم . لا تقدم على الحب الجديد الا بعد أن يندمل جرح الحب القديم ، ثم بعد أن يصير نسيا منسيا

وكثيرا ما يقدم الناس على الزواج اثر اخفاقهم في الحب ، وكأنما يرون الزواج رأبا لصدع القلب ، وسلوى عن فجيعة الحب . ولكن ثق أن الجرح لا يندمل ، وأن الكسر لا ينجبر ، بأن تذهب الى المذبح وتقدم كيانك كله ضحية وقربانا

وحذار من أن تتزوج فتاة لترى فتاتك الاولى أنك في غنى عنها . وحذار من أن تتزوجي فتى لترى فتاك الاول أنك في غنى عنه . فما في هذا خير لك ولا لمن تتزوج. . بل عليك اذا أخفقت في الحب أن تتريث طويلا ، وطويلا جدا ، حتى تذبل زهور ذلك الحب وتصوح جنانه ، ثم تنبت أشجار جديدة تزهر بأزهار جديدة . لا تجعل الحب الجديد بديلا من الحب القديم ، ولا ثأرا منه وانتقاما ، بل اجعله حبا ، طبيعيا ، ينشأ دون تعسف واكراه .. فقد يصنع كل شيء الا الحب فلا سبيل الى صنعه ، انما يأتيك عفوا دون تعمل ودون انتظار

قالوا قديما : قدر لرجلك قبل الخطو موضعها ، وأنا أقول لك : قدر لقلبك قبل الحب من تهواه ، وقبل الزواج من يشاركك الحياة

(عن مقال بقلم لويس دنلاب من كتاب الدليل النفسي العام)

حجر الفلاسفة، ما هو ـ كيف نشأ ـ وأين بدأ ـ وما معناه ـ والى أين كان منتهاه ؟ هذا ما يجيب عنه هذا المقال

حجر الفلاسفة

بقلم الأستاذ ابراهيم بك كحيل

مراقب التعليم بوزارة المعارف

ان قدماء المصريين أتقنوا صناعة المعادن وصياغة الذهب والفضة فى حلى خالصة منهما، وانهم تمكنوا من عمل سبائك قلدوا بها الذهب وتوهجه والفضة ونصوعها ، وانهم كانوا أول الامر يحرصون كل الحرص على أسرار هذه الصنعة ، فلم ينتقل العلم بها من الفئة القليلة المختارة الى أفراد من الشعب ، الا أن هذا الحرص وهذه القدسية لا يمكن أن تدوما بعد أن دالت دولتهم ، وتغلبت عليها دولة الفرس ثم دولة الاغريق وأقحمت عليهم عبادة آلهة غير ما كانوا يقدسون . فلا بد أن يكون قد تسرب العلم بالصبغة من صميم الخاصة الى بعض العامة ، وليس من المستبعد أن يستغل ذلك فى ايهام طبقات من الشعب بأن الذهب المصنوع هو الاصيل ، وأن فى الامكان الحصول عليه مما هو دونه مرتبة وأقل ثمنا . ووجدت هذه الفكرة مرعى خصبا عند الناس ، فالانسان كان ولايزال يبحث عن الذهب ويطمع فى الحصول عليه من أى طريق ، فهو الجواز السهل الى السلطة والنفوذ والى الجاه والغنى والى متعة الحياة الحلال منها والحرام

ثم جاءت الفلسفة الاغريقية بتعاليمها عن أصل المادة ، وعن أنها مهما تنوعت مظاهرها واختلفت تراكيبها فبدايتها واحدة وعناصرها قليلة

الا يكون من الطبيعى اذن أن يتصور العقل البشرى امكان تحويل المادة التى تشبه الذهب الى ذهب ، والتى تضاهى الفضة الى فضة ؟

أليس من المعقول أن يسعى من تملكوا سر الصنعة الى استخلاص المادة البدائية من المعادن الرخيصة ، ثم اكسابها خواص الذهب والفضة ، فتتحول باجتهادهم الى ذهب وفضة ؟

ثم أليس من الجائز أن يتوهم أصحاب الكيمياء وهم من الفلاسفة ، وجود مادة سحرية تضاف الى الرخيص ، فيغلو ، والى الدنىء فيسمو ؟

هكذا نشأت فكرة حجر الفلاسفة فى مصر ، أوجدها فلاسفة الاغريق فى الاسكندرية، وضمنوها كتبهم ورسائلهم ، ونقلها عنهم العرب وزادوا فيها وجعلوها مدار بحوثهم

وكتمة آمالهم ، وألبسوا الصنعة المصرية ثوبا فلسفيا ، فعمدوا فى كتاباتهم الى الرموز والاحاجى رغبة منهم فى أن تظل الكيمياء بنأى عن جمهرة الشعب ، وأن لا يحظى بالحصول على الحجر وقوته وعلى الذهب وجبروته الا خاصة الخاصة من العلماء الذين انقطعوا للبحث والتنقيب وقربهم الملوك والامراء وذوو النفوذ والسلطان ، لا تكريما للعلم ولا حبا فى الفلسفة ، ولكن رغبة منهم فى الحصول على الذهب الذى يقوى نفوذهم ويمد فى سلطانهم

ولما كان البحث فى سبيل العثور على الحجر يستغرق وقتا طويلا ، فواضح أن من يسعى فى سبيل ذلك لا بد أن يدركه كبر السن وتقعده الشيخوخة عن التمتع بلذات الدنيا وخيراتها المادية ، ويركبه المرض ، ولذلك تطور البحث عن الحجر الذى تقوم به صناعة الذهب والفضة الى البحث معه عن اكسير الحياة وروح العالم ، وهما من معادن الحجر ، فالاكسير يداوى كل عجز أو هرم فى الجسم ، فيعود الشيخ شابا فى مأمن من الامراض . وأما روح العالم فهى روح كان معلمو هذا المذهب يزعمون أنه يحدث المسخ والتغيير فى الكائنات ، فالملائكة والجن والشياطين وسائر الارواح الهوائية والمائية والترابية والنارية تكون تحت أمره ، ومن يحصل على مصاحبة هذا الروح يكون معضدا بالقوى غير المنظورة ، ولا تعود الطبيعة تكتم عنه شيئا من أسرارها

من اشتهروا فى الحصول على الحجر

وتقدم البحث بناء على ذلك ، فأصبح فى ثلاث درجات متداخلة متماسكة ، لا تنفصل احداها عن الاخرى ، وأساسها الحجر ، لان الغنى لا ينفع بدون الصحة والشباب ، وكلاهما لا يجديان نفعا تاما بدون المقدرة على قهر الطبيعة وهتك ستر الغيب والعلم بما فيه وما قد يأتى به ، فيكون المراد بحجر الفلاسفة حسب هذا التطور الجديد هو السر الذى يجد به الانسان المال والصحة والمعرفة . ونجد الاشارة اليه فى كتابات العرب باسم الامام أو الرأس أو الاكسير التام

وممن اشتهر بالاجتهاد فى الحصول على الحجر من العرب ، وخلفوا رسائل وكتبا عدة فى هذا الباب ، خالد بن يزيد بن معاوية بن ابى سفيان ، وكان خطيبا شاعرا فصيحا حازما ذا رأى ، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء ، وكان جوادا . سئل مرة عن طلبه للصنعة فقال : « ما أطلب بذلك الا أن أغنى أصحابى واخوانى ، انى طمعت فى الخلافة فاختزلت دونى ، فلم أجد منها عوضا الا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، ولا أحوج أحدا عرفنى يوما أو عرفته ، الى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة ، فهو كما ترون يضع مركز الخلافة وما يضفيه على المتمتع به من نفوذ وسلطان وجاه وغنى وجبروت فى مرتبة واحدة ، مع تملكه لسر الصنعة ، ومن هذا يتبين لنا قوة

الاغراء التي كانت تدفع بالباحثين عن الحجر في مغامرات لا يقل الفوز بها في النهاية عن الفوز بسرير الملك

وقد ترك خالد جملة رسائل في الصنعة ، نذكر منها كتاب الحرارات وكتابي الصحيفة الكبير والصغير وكتابا ضمنه وصية الى ابنه في الصنعة

ولعل أوسع كيميائيي العرب شهرة وأبعدهم صيتا وأكثرهم انتاجا وأعمقهم أثرا في الصنعة ، هو « جابر بن حيان » أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي ، وهو عالم كيميائي فذ نابغة ، اشتغل بالكيمياء وأتقنها فنا وصناعة ، وكشف الكثير من صفات المعادن والاملاح والمركبات وخصائصها في الطب والعلاج ، وفحص الكثير من النباتات وثمارها فحص خبير مدقق . ويقولون انه أول من حصل على حامض الكبريتيك ، وهو أهم المواد الكيماوية اطلاقا حتى في عصرنا هذا ، بحيث قال أحدهم « يقاس تقدم الأمة الصناعي والاقتصادي بما تستهلكه من حامض الكبريتيك » (١) ويقال كذلك انه أول من حصل على الكونياك أو روح العنب ، وينسب الى جابر أكثر من مائتي رسالة وكتاب ، الا أن البعض منها تافه لا قيمة له . ويقول ابن النديم : « ان الرياسة في الصنعة انتهت اليه ، واختلف الناس في أمره فقالت الشيعة انه من كبارهم ، وزعموا أنه كان يتنقل في البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان على نفسه . وحدثني بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أنه كان ينزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب في الكوفة ، وقيل بل في غيره ، لانهم عثروا في أحد الازقة بعد وقته بقليل على هاون به مئتا رطل من الذهب ، وعثروا معه على موضع قد بني للحل والعقد

ومن كتبه كتاب الكمال وكتاب الواحد الكبير والواحد الصغير وكتاب الركن وكتاب البيان وكتاب الترتيب وكتاب النور وكتاب الخمائر وكتاب التكرير وكتاب الدر المكنون وكتاب الاملاح وكتاب الاحجار وكتاب الكامل وكتاب الجواهر وكتاب الاصباغ وغيرها

جماعة جابر

ولعل مما يلذ سماعه أن نعرف أن في لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية جماعة علمية يطلقون عليها اسم جابر ، وأحد أساطينها الاستاذ هومبارد

وممن اشتهر في الكيمياء في العرب كذلك محمد بن زكريا الرازي وموضعه من علم الفلسفة والطب معروف مشهور ، وكان يعتقد في حقيقة الحجر ، وألف في الصنعة كتبا كثيرة منها كتاب التدبير وكتاب الحجر وكتاب الاكسير وكتاب المحبة وكتاب سر الاسرار

واشتهر من العرب الذين أقاموا في مصر ذو النون المصري ، وهو ابو الفيض ذو النون

(١) فهو يدخل في صناعات الادوية والعقاقير والاصباغ والمفرقعات والاسمدة وفي بعض صناعات التعدين وفي تكرير البترول وفي عشرات من الصناعات الكبرى والصغرى

ابن ابراهيم ، وكان متصوفا وله أثر فى الصنعة ، ومن كتبه الركن الاكبر وكتاب الثقة والاخميمى واسمه عثمان بن سويد ابو حرى الاخميمى ، وكان مقدما فى صناعة الكيمياء ورأسا فيها ، ومن كتبه الكبريت الاحمر وكتاب الابانة وكتاب الحل والعقد وكتاب التصعيد والتقطير وكتاب الجحيم الاعظم

ان القارىء الباحث فى كتب العرب يخرج اذا ضرب صفحا عن حجر الفلاسفة وما كتب بشأنه وفى طرق الحصول عليه ، بطائفة من المعلومات الكيمياوية التى تشرح الكثير من العمليات المألوفة ، كالتقطير والتصعيد والتكليس والتعفين والاماهة والصهر والحل والعقد ، وهى وغيرها عدة الكيمياوى فى بحوثه وعملياته ، ويعثر على كثير مما يفيد فى معرفة خواص المعادن والفلزات والاملاح والاحجار ، فهم قد عملوا بجد واخلاص للوصول الى كنه المواد وتركيبها وخصائصها واستخدامها ، وهذا لعمرى هو أساس علم الكيمياء الحديث ، ولو أن أساس بحثهم كان للحصول على الحجر والاكسير ، ومع ذلك فالعلم الحديث قد تمكن لدرجة ما من تحقيق أحلام العرب ، ومن نحا نحوهم فى صنعتهم فى أوربا فى القرون الوسطى ، أقول لدرجة ما ، لان الحصول على الذهب من غير معادنه لا زال فى حيز المجهول ، ولكنه ليس الآن فى حيز المستحيل كما كنا نعتقد من أقل من ربع قرن

ابراهيم كحيل

سر الميزانية

وجد فردريك الاكبر ملك بروسيا ذات عام أن لا سبيل الى موازنة ميزانية الدولة، فقد زادت مصروفاتها على ايراداتها زيادة هائلة . فأقام حفلة دعا اليها نفرا من ذوى الرأى ليشاورهم فى الامر . وأوضح لهم المشكلة ، وسألهم كيف قل الايراد رغم كثرة الضرائب . وأخذ كل منهم يدلى برأيه ويسوق حجته دون أن يقتنع الملك بشىء مما يقولون

وأخيرا نهض أحد الرجال المسنين الجالسين فى آخر المائدة . وأخرج من آنية أمامه قطعة كبيرة من الثلج وأعطاها الى جاره ، وطلب أن يسلمها هذا الى جاره ، وهلم جرا ، حتى تصل الى الملك . ولما وصلته كانت القطعة الكبيرة قد صغرت فلم يبق منها الا حبة ضئيلة

وعندئذ جلس الرجل ، فقد كان الامر أوضح من أن يتطلب شرحا !

الحروب ثورة على الماضي

للسياسي المفكر الانجليزي ستافورد كريبس

ليست هذه أول حرب كبرى شهدها العالم ، لا ، وليست هي أول حرب ذات صيغة ثورية ، تهدم ما قبلها وتبني ما بعدها

الواقع أن جميع الحروب الكبرى حركات هدم وبناء ، تؤدي الى التقدم حينا ، والى التقهقر حينا ، في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية على السواء

وقد شهدنا في جميع هذه الحركات الثورية ــ أعني الحروب ــ التي قامت في الماضي ، سيولا دافقة من الرغبات الصادقة الملحة في تغيير الحياة القائمة حينذاك . وشهدنا كذلك ما حدث بعد أن أخمدت نيران تلك الحروب وانبسطت فوق العالم ألوية السلام

فدراسة هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الحروب الماضية قد تهدينا الى الطريق الذي يجب أن نتخذه في هذه الايام التي تشرف فيها الحرب الدائرة على نهايتها ، اذا أردنا أن نحيل ما يساورنا الآن من آمال ، وما يجيش بنا من مشاريع ، الى حقائق يعم خيرها الشعوب والجماهير في أرجاء العالم جميعها

دعونا اذن نقلب صحائف التاريخ لنتلقى درسا فيما يجب علينا أن نفعله الآن ، الآن قبل أن تضع الحرب أوزارها ، اذا أردنا أن نقيم سلما حقيقيا ، يكفل اطراد الرقي الانساني

ولكن لماذا يجب أن نعمل الآن، ولماذا لا نرجىء العمل الى أن نؤوب من ساحة القتال؟ ذلك أن اتحاد الشعب في ساعة الخطر حين يكون استغلال كل رجل وكل امرأة ضرورة من ضرورات النجاة من خطر العدو الرهيب ، لا يعني أن يستمر هذا الاتحاد قائما مثلما كان بعد أن تنجاب غمة الخطر وتعود الحياة آمنة هينة ، لا يعوزها اتحاد الشعب وتماسك الطبقات . فاذا لم نفكر في مستقبلنا ونحن وحدة مؤتلفة الاجزاء متراصة البنيان ، أضعنا الفرصة التي يكون التفكير فيها منتجا مثمرا ، اذ ما كاد يزول خطر الهزيمة وألم القتال ، حتى تنشب الخلافات القديمة بين طبقات الامة وطوائفها مرة أخرى

ان مؤلفا من أنبه المؤلفين الانجليز شبه الحرب بالعصا السحرية ، التي تلقف في جوفها الهائل كل ما تأفك الطبقات المتنازعة والطوائف المتنافرة ، من أسباب الفرقة ودواعي الخلاف ، حتى لتبدو الامة وهي مجتمعة في هذا الجوف الضخم الفسيح كتلة واحدة لا تشتتها الاغراض ولا تفرقها المصالح .. ولكن سحر هذه العصا لا يبقى أبدا ، بل هو مرهون بالنار المشبوبة ، فما بقيت متقدة مؤصدة بقي السحر نافذ المفعول ، فان خبت النار

وانطفأت جذوتها بطل السحر ، وغدت العصا قطعة من الخشب لا تصلح حتى لان نتوكأ عليها أو نهش بها !

عبرة الحرب الماضية

فى خلال الحرب الماضية غمر الزعماء والساسة والمفكرون الناس بفيض من مناهجهم ومشاريعهم ، مما أذكى أمل الناس فى وجوب تغيير الحياة القائمة تغييرا ينال جذوعها ويمتد الى جذورها .. ففى بداية الحرب ، فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ ، ألقى مستر لويد جورج هذه الكلمات :

« ستكسب الشعوب فى جميع البلاد من وراء هذا الصراع أكثر مما يبدو لها الآن . فمن الحق انهم سيتحررون من الخطر الاكبر الذى يتهدد حرياتهم ويعصف بها حينا بعد حين . ولكن ليس هذا كل ما فى الامر ، فان الحرب لن تنتهى بهزيمة ألمانيا فحسب ، فثمة ما هو أعظم شأنا ، وما هو أبقى أثرا ، أرى ضوءه يبزغ وسط غثير هذه المعركة الكبرى الدائرة .. ضوء وطنية أنبل وأسمى ، وأصدق وأغنى ، من تلك الوطنية البالية التى عرفناها . نعم انى أرى جميع الطبقات ، عاليها وسافلها ، غنيها وفقيرها ، ينتزع نفسه من أطمار الاثرة وأسمال الانانية ، ليرى أن مجد هذا الوطن لا يعتمد فحسب على النصر فى ساحة القتال ، بل يعتمد كذلك على انزال بنيه منازل لا تعانى الفقر والجوع ، ولا تعصف بها الحاجة والهوان . ان هذه الحرب ستضع فى رؤوس الناس جميعا ، كيفما كانت الطبقة التى نشأوا فيها أو انتموا اليها ، عيونا جديدة يرون بها الوطنية رؤية جديدة . وانى لارى ذلك الفيض الغامر من حياة الترف والبذخ والفساد وقد أخذ ينحسر عن وطننا هذا ، لتشهد بريطانيا الجديدة التى يأخذ فيها كل فرد نصيبه ، وتؤدى فيها كل طبقة واجبها » .

بهذه العبارة الشعرية الخلابة عبر لويد جورج عما كان يخالج الناس من الرغائب والآمال ، وما زالت الحرب فى بدايتها ، فلما اشتدت أخطارها وثقلت أعباؤها ، وازداد بذلك ما تتقاضاه الناس من مجهود ومن حرمان ، اتضحت وقويت تلك الامانى التى علقها الناس على الحرب التى حسبوها حدا فاصلا بين الماضى بسيئاته والمستقبل بمزاياه . وبلغ الامر أقصاه غداة وقوف الحرب واعلان الهدنة ، ففى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ ، صور رئيس وزرائنا لويد جورج ، أرض الميعاد ، بهذه الصورة البراقة الخلابة اذ خطب وقال :

« لقد تبين الوطن ما لم يتبينه من قبل . تبين مبلغ ما يدين به لاولئك المواطنين المتواضعين الذين يسكنون بيوته المنزوية فى أحياء المدن وأرجاء الريف . فلولا ملايين من أولئك الرجال الذين جاءوا من بيوتهم المنزوية ليضعوا رؤوسهم على مذبح هذا الوطن ، لكان من المحتمل أن تذهب الامبراطورية البريطانية أدراج الرياح .. فما هو واجبنا اذن ؟ واجبنا أن نجعل بريطانيا وطنا خليقا بأن يعيش فيه الأبطال ! وليس ثمة وقت نضيعه قبل

أن نؤدى واجبنا هذا ، وانى لاريد أن يقوم الآن هذا الوطن العظيم بفضل ما سرى فينا جميعا من الروح الجديد السامى »

ولكن الامر الذى نسيه رئيس الوزارة حينذاك هو أن الفرصة الملائمة لتحقيق هذا الامل ، لانشاء هذا الوطن ، كانت قد فاتت . فان روح التضحية تولد ساعة تقوم الحرب، وتموت ساعة تقف الحرب . فما تكاد تخمد النار وينجاب الخطر ، حتى تمتلىء الرؤوس والصدور مرة أخرى بأسباب الخلاف ودواعى الفرقة بين الطبقات ، فلا يبقى فيها مراد للتضحية الكبرى التى يقتضيها انشاء وطن خليق بأن يحيا فيه الابطال !

ويلسون ومثله الاعلى

وكذلك كان الرئيس ويلسون فى امريكا يعبر عن أمل الناس فى أن تبدأ الحرب عهدا جديدا من عهود التاريخ . ففى يناير سنة ١٩١٨ أعلن أن « عهد القهر وعهد التخمة قد ذهبا الى الابد » . نعم ، كان الناس يأملون أن تقضى الحرب على ما عاناه العالم فى ماضيه الطويل من عدوان الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة ، ومن غلبة الامم الكبيرة للامم الصغيرة ، ومن تلك التخمة التى تصيب بعض الامم، أو بعض الطبقات ، أو بعض الافراد، من جراء ما يصيب بعضها الآخر من ضعف وهزال

وفى تلك السنة ، خطب فى لندن فقال :

« انى أعتقد أن الناس قد بداوا يرون ، لا أقول العصر الذهبى ، بل العصر الذى يشرق ضوؤه وينبثق نوره يوما فى اثر يوم ، حتى تبلغ يوما ما ذلك المستوى الرفيع الذى نرى فيه تلك الامانى الحلوة التى ساورت قلب الانسانية دهرا طويلا »

وفى صباح اليوم الذى أعلنت فيه الهدنة ، لخص ويلسون رأى الناس وشعورهم فى تلك الجملة :

« ان كل شىء حاربت امريكا فى سبيله قد تحقق . فالواجب السعيد الذى علينا أن نؤديه الآن ، هو أن نضرب المثل الطيب ، ونسدى النصيحة الخالصة ، ونقدم المعونة المادية الواجبة ، لنساهم فى اقامة الديموقراطية العادلة فى أرجاء العالم جميعها »

لم تصدر هذه العبارات عن شىء من النفاق أو الخداع . كلا ، وانما هى تصور ذلك « المثل الاعلى » الذى تعلق بالخيال وتناسى الواقع ، الذى قام على أساس من الآمال والامانى ، ولم يقم حسابا للقوى الرجعية العنيفة التى اختفت برهة قصيرة حينما غشت نار الحرب ودخانها على أعين الناس . ولكن هذه القوى كانت ما تزال قوية نشيطة ، تتحين الفرص لترفع عقيرتها مرة أخرى ، فبينما ويلسون سابح فى آماله سارح مع أمانيه، كان « لودج » عضو الشيوخ الامريكى يقول : « اننا لا نريد أن نستنفد قوى هذا الشعب المادية والمعنوية ، بالمغامرة به فى بحر متلاطم الامواج أبدا ، غدار الطباع أبدا ، بحر هذه المنازعات الخطيرة والتافهة التى لا تفرغ منها الدنيا يوما ما » .

رجعة الى حروب نابليون

لنعد الى صحائف التاريخ الماضى ، ولنذكر ما حدث فى أعقاب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، لنتبين أن الحرب قد تكون خطوة الى الامام، وقد تكون رجعة الى الوراء، ولنأخذ منها عبرة لنا فى تلك الايام التى نحسب فيها أن الحرب لا بد أن تتمخض عن مستقبل زاد باهر مشرق الضياء ، ولو أغفلنا التفكير فى أمره ، وأهملنا السعى فى سبيله ، وقلنا حسبنا أن نكسب الحرب وننهيها ، فلا نلبث أن نجد من ورائها كل ما نريد ونتمنى !

لقد بثت الثورة الفرنسية فى قلب كل طبقة أتوقراطية حاكمة فى أوربا الخوف من أن تمتد اليها نار هذه الثورة فتذهب بها وتأتى عليها .. ثم قامت حروب نابليون وجاءت انتصاراته ، فكانت طريقا لنشر مبادىء الثورة الفرنسية فى أرجاء أوربا . فأجمع القاهرون والحاكمون أمرهم سنة ١٨١٥ ، حين حلت بنابليون هزيمة واترلو ، على ألا تكون بعد اليوم ثورة فرنسية أخرى ، وذلك بقتل كل بذرة من بذور التفكير الحر ، خشية أن تنمو هذه البذرة فتغدو ثورة كبرى

ومع أن الرأى العام فى تلك الايام كان لا يزال قليل النضوج ضئيل النفوذ ، الا أنه كان من اللازم خديعته بمعسول الكلم وبارع الايهام . وفى هذا يقول « فون جينتز » سكرتير مؤتمر فينا ، ان تلك العبارات الضخمة الخلابة التى هدر بها الساسة المؤتمرون هناك عن : « اعادة بناء النظام الاجتماعى » وعن « تجديد شباب النظام السياسى فى أوربا » وعن « السلام الدائم القائم على تقسيم السلطة بين الامم تقسيما عادلا » — هذه العبارات وأمثالها لم يكن القصد منها الا تهدئة الرأى العام وتملق جماهير الناس . أما الغرض الحقيقى الذى قام له مؤتمر فينا فهو توزيع الغنائم والاسلاب التى انتزعت من أيدى المغلوبين بين فريق الغالبين الظافرين »

وهكذا انتهت الثورة الفرنسية وانتهت حروب نابليون ، التى كان الناس يأملون فى أيامها أن يتقوض الماضى ويقوم على أنقاضه مستقبل شامخ البناء رفيع الذرى ، الى عهد من أقسى العهود عسفا وعنتا ، وشدة وضيقا .. حتى خيل الى الناس أن هذه الثورة لم تقم ، وأن تلك الحروب لم تنشب ، الا لتسلب الناس حريتهم ورخاءهم ، وتعود بهم الى الوراء حيث يعانون أكثر مما سبق لهم أن عانوا من الذل والضيق .. وفى هذا يقول « السجل السنوى البريطانى » عن سنة ١٨١٦ ، أى عقب سقوط نابليون بسنة واحدة : « ان هذه السنة الاولى من سنى اعادة السلام يمكن أن توصف فى هذا البلد — انجلترا — بأنها سنة الشدة البالغة التى أحدثت من الدهشة قدر ما أثارت من خيبة الامل » . وفى هذا ايضا يقول أحد المؤرخين البارزين : « لقد أريق فيض غامر من الدماء . وجاشت فى الرؤوس كثير من الآراء . وظهر عقم النظام القديم فى صور شتى عديدة ، حتى لم يعد الى بقائه من سبيل . وثبت أن العهد الجديد يجب أن يقوم على دعائم من برنامج الثورة الفرنسية

التي قضت على عهد الاقطاع ، وقررت المساواة بين الناس أمام القانون ، وأشاعت في الناس فكرة القومية وأذكت حاسة الوطنية . ولكن ماذا تم من ذلك كله ؟ لقد سرت خمر النصر في رؤوس قادة بريطانيا ، فراحوا يتحدثون عن رغبتهم في التمتع بما كان ينتجه العهد القديم من نعم وخيرات ، وراحوا يتهيبون الأقدام على العهد الجديد وما يقتضيه من تغيير شامل في نظام الحياة المألوفة . وهكذا كان العهد الذي تلا النصر على نابليون عهداً عقيما مجدبا ، عانت فيه بريطانيا كثيراً من الشدة والضيق ، ولم تتقدم الى الامام أية خطوة فسيحة . واقتضى الأمر أن تقوم ثورة أخرى ، تلك هي ثورة سنة ١٨٣٠ ، التي استطاعت أن تهز دعائم تقاليدنا ومنشآتنا القديمة ، فتقوض ما بلى منها وتقيم مقامه تقاليد ومنشآت ملائمة للعهد الجديد ، وبذلك وحده أمكن احداث تغيير كبير في حياتنا القديمة المألوفة ، ولم يكن الفضل في هذا التغيير لتلك الثورة الجديدة وحدها ، بل يرجع جزء كبير منه الى الثورة الصناعية التي قامت اثر الكشف عن قوة البخار واستخدامها في الصناعة »

والخلاصة أن الآمال التي ساورت الناس منذ قامت الثورة الفرنسية وفي خلال الحروب النابليونية تبددت وأخفقت ساعة أن وقفت رحى الحرب وارتفع لواء السلام . ذلك ان الناس لم يفكروا في تحقيق تلك الآمال ونار الحرب مشبوبة ، وقلوب الناس ومشاعرهم مشبوبة معها ، بل قالوا : حسبنا أن نكسب الحرب وننهيها ، فلا تلبث أن تنجاب غمامتها عن سماء مشرقة الضياء !

* * *

أعود الآن الى الحرب الماضية والى السلم المضطرب الذي أعقبها . لقد وصفت فيما مضى ما خالج الناس ابانها من أمان وآمال ، وما جاشت به عقولهم حينذاك من مناهج ومشاريع . والآن أتحدث عن الفرصة التي أتيحت لهم لتحقيق هذا كله فأضاعوها وفوتوها . يقول مستر ونستون تشرشل عن اليوم الذي أعلنت فيه الهدنة :

« في هذا المساء من أماسي شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ كان الرجال الثلاثة الذين يقومون على رأس بريطانيا وأمريكا وفرنسا هم سادة هذه الدنيا . ولم يكن ثمة أمر حكيم ، أو حق ، أو لازم ، الا وفي وسعهم أن ينفذوه وهم يد واحدة ورأى واحد .. ولكن سرت بينهم روح الغيرة والخلاف ، وقامت فيهم نعرة التفكك والانقسام ، وعاودتهم طبيعة الثأر والانتقام القديمة .. وأهم من ذلك أن روح التعب والاجهاد سرت فيهم وتمكنت منهم وسيطرت عليهم جميعا »

وفي اليوم التالي ليوم اعلان الهدنة خطب مستر لويد جورج في مؤتمر حزب الاحرار قائلا : « ان السلم يجب أن يقوم على مبادىء الحق والانصاف التي لا تتأثر بروح الثأر ورغبة الانتقام وما اليها من نزوات طائشة عقيمة » فماذا كانت النتيجة ؟ أرسل اليه ثلاثمائة وسبعون عضوا من أعضاء البرلمان برقية طويلة يقولون فيها : « ان الناخبين الذين بعثوا

بنا الى دار البرلمان ينتظرون بفارغ الصبر أن يكون أول عمل يقوم به مندوبونا فى مؤتمر الصلح هو ذلك العمل الذى وعدتم به مرارا فى جميع خطبكم الانتخابية ، أى أن تعترف ألمانيا بدينها ، ثم البحث فى الطرق والوسائل التى نستوفى بها هذا الدين كاملا »

وعاد الناس يتحدثون عن حقهم فى الراحة والمتعة بعد ما عانوا من جهد ، وما قاسوا من حرمان . وكان « الهدوء » هو الشعار الذى اتخذه مستر بونار لو فكسب به انتخاب سنة ١٩٢٢ . وكذلك كان الامر فى امريكا ، بل لعله كان فيها أشد وأقسى . فان الرغبة فى الراحة والهدوء ، يضاف اليها التشكك فى نوايا أوربا ، وعامل الندم على النزول الى ساحة الخصام بين دول أوربا ، جعلت أمريكا أشد من بريطانيا نكوصا على عقبيها . وكان الرئيس هاردنج يتكلم فى أمريكا مثلما يتكلم بونار لو فى بريطانيا عن « حاجة أمريكا الى الراحة لا الى البطولة ، الى التعمير لا الى الثورة » . وها قد عرفنا ماذا أدت اليه نزعة الهدوء ، والراحة ، والتعمير هذه فى بحر عشرين سنة قصار !

ولكنا وان كنا قد أضعنا الفرصة التى أتيحت لتحقيق ما كان يساورنا من آمال فى ابان الحرب الماضية ، الا أننا لا ننسى أن الامر لم يكن خسارة مطلقة ليس فيها قسط من الارباح . اذ لا شك أن العالم تقدم تقدما لم يكن ممكنا لولا قيام الحرب الماضية . فالبها وحدها يرجع الفضل فى أن روسيا أنجبت شعبا جديدا عظيما . وفى أن الصين أنجبت هى الاخرى شعبا حرا مجيدا . وكذلك كان ثمة تقدم عظيم فى المسائل العلمية ، وفى الاصلاح الاجتماعى ، وشهدت بريطانيا على الاخص تقدما كبيرا فى التعليم ، وفى الصحة ، وفى رعاية المتعطلين ، وفى تحرير النساء ومنحهن حق التصويت والتمثيل . وكذلك قامت تجارب عديدة فى الادارة الدولية ، وحدث تطور محسوس فى شؤون المستعمرات وفى حياة الهند . ولكن كل هذا لا يمكن أن يكون عوضا عن الخسارة الفادحة التى خسرناها حين عجزنا عن أن نحقق الآمال الضخمة التى تراءت لنا فى أثناء فترة الحرب . اذ لم تمض بضعة شهور على يوم الهدنة حتى عاد القلق والضيق يسريان فى عروق الناس ، وعادت خصومة الطبقات تفرق الشعب أشياعا ، وكانت سياستنا الخارجية المتقلبة المتناقضة تعبيرا عما نعانيه فى حياتنا الداخلية من عوامل التشكك والتردد والاضطراب . وكانت النتيجة المحتومة لهذا كله أننا وجدنا أنفسنا وسط حرب أخرى أشد من الاولى نكرا ، فى وقت لم نتأهب فيه بما يجب من العدة والسلاح

ماذا تفعل أمريكا بعد الحرب

بقلم السياسي الأمريكي المشهور هاري هوبكنز

هاري هوبكنز هو أوثق أصدقاء الرئيس روزفلت صلة به ، لأنه يقيم معه في البيت الأبيض ، كفرد من أفراد العائلة . وهو لهذا أدرى الناس بمشروعات روزفلت واتجاهاته التي ستكون العامل الأول في يقرره مؤتمر الصلح القادم ، وفيما سيكون عليه أمر العالم في سنيه المقبلة . فلنقرأ مقال السياسي الأمريكي الكبير على أنه صورة تقريبية لما سيتمخض عنه المستقبل القريب من خطط وبرامج وسياسات

سنخرج نحن شعب امريكا من هذه الحرب أغنى وأقوى شعوب العالم طرا . هذه حقيقة لا سبيل الى تجاهلها أو الشك فيها

فعند ما يأمر القواد جنودهم أن « أوقفوا إطلاق النار » ، سنجد بلادنا ، دون سائر البلاد ، سليمة لم تخربها جحافل الجيوش ولم تدمرها أسراب الطائرات . وسنجد شعبنا ، دون غيره من الشعوب، قويا لم يوهنه الجوع ولم تثلمه الضائقة . وسنجد سلة الخبز في بيتنا حافلة بالخبز ، بينما سلات الآخرين تنتظر من يجود عليها بالرغفان !

وسنجد أننا نملك أعتى اسطول بحري، وأضخم اسطول تجاري، وأكبر اسطول جوى

ثم ان هذا الشعب الذي برع منذ عهد بعيد في فنون الصناعات ، وجاءت عليه الحرب فدفعت بعشرات الملايين من رجاله ونسائه وشبانه وفتياته الى مصانع الذخيرة والسلاح ، سيكون لديه بعد الحرب أضخم جيش عرفه التاريخ من مهرة العمال والصناع

كل هذه العوامل ستجعل طاقة أمريكا في الانتاج الصناعي ، وهي بمفردها أضخم من طاقات حلفاء أمريكا كلهم مجتمعين معا ، قادرة على أن تمون الاستهلاك المحلي بأسره تموينا كاملا ، ويتبقى من انتاجها بعد ذلك ما يساوي ستة مليارات (ألف مليون) من الدولارات يمكن لامريكا أن تصدرها الى الدول الاخرى في كل عام

وغدا سيجلس هذا الشعب الذي يفوق سائر الشعوب غنى وقوة الى مائدة الصلح التي تضم سائر حلفائه ، ليرسموا الصورة التي يتخذها العالم في أيامه القادمة . فما هي السياسة التي ستتخذها امريكا يوم تجلس الى مائدة الصلح هذه ؟ أتكون سياسة التاجر الذي يرى في كل أمر صفقة بيع وشراء تقدر بالدولار ؟ أم تكون سياسة الرجل الذي يعيش في طرف الغابة ، متوجسا الخوف من كل أجنبي وكل قادم ، متأهبا للانزواء وسط الاشجار اذا لمحت عينه بارقة الاخطار ؟ أم تكون سياسة الرجل الذي تجتمع في قلبه فضيلة الانسانية برذيلة النفاق ، فيريد أن يمنح ويجود بكل شيء كيما يقال عنه انه رجل طيب وجواد ؟

أعتقد أن أمريكا لن تتخذ أية سياسة من هذه السياسات ، فهى ليست فى حاجة الى أن تساوم ، ولا الى أن تتخوف ، ولا الى أن تنافق . نعم ، بل يجب علينا أن نذهب الى مؤتمر الصلح ، ونحن فى كامل قوتنا وموفور وقارنا ، فنأخذ أنفسنا بسياسة عادلة رقيقة ولكنها حازمة فاصلة ، ونجعل همنا الى أن نحقق لشعبنا أفضل وجوه الرخاء ، على ألا يؤدى هذا الى الانتقاص من رخاء غيرنا من الشعوب

علاقة أمريكا بروسيا

ولكن صديقا لى سألنى ذات يوم : « ولكن كيف السبيل الى التعاون مع روسيا ؟ انها على وشك أن تنشر الشيوعية فى أرجاء العالم جميعا . وان رجال واشنجتون يسيرون فى طريقهم هذا معصوبى الاعين لا يرون الخطر الهائل الذى يحيق بنا من جراء موقفنا من روسيا . انها سوف تستنزف دماءنا ، حتى اذا غدونا هيكلا من العظام النخرة ، ضربتنا الضربة التى تسحقنا وتذرونا مع الريح هباء . لو كنا نعقل أو ندرى لعملنا لحماية أنفسنا من روسيا ، بدلا من أن نبذل لها العون من دماء جنودنا وعرق عمالنا »

وردى على هذا السؤال الذى يساور كثيرا من الناس هو أن لروسيا فلسفة سياسية خاصة بها تختلف عما اتخذناه فيما مضى ، وعما نصر على أن نتخذه فى المستقبل . ولكن هذا الاختلاف بيننا فى المذهب السياسى لم يحل دون أن نتفق معا فى الغاية التى نسعى اليها . فروسيا تسعى ، كما تسعى امريكا ، الى الارتقاء بمستوى شعبها ، والى التعبير عن عبقريتها الخاصة ، والى المساهمة فى أمور هذا العالم الذى نعيش فيه . لقد جاهدت روسيا قبل الحرب جهادا شاقا عنيفا دام عددا من السنين المتواصلة فى سبيل اقامة حضارة صناعية حديثة على أنقاض نظام زراعى بدائى قديم ، كان الغرض منه تمكين الاقلية الغنية الحاكمة من الاستبداد بالاكثرية المعدمة المحكومة . أما اليوم فهى تحارب فى سبيل حياتها وبقائها. وغدا ، بعد ما تخلص من تلك الانياب التى أنشبت فيها قهرا وعدوانا ، ستعود روسيا فتستأنف جهدها فى اقامة الصناعة وتوسيع نطاقها ، وفى تحسين حياة شعبها والارتقاء بها. ونحن الآن نتعاون معا تعاونا عسكريا فى سبيل كسر الطغاة ، وانى على يقين من أن هذا التعاون يجب أن يستمر فى عهد السلم لمصلحتها ولمصلحتنا على السواء

نعم ، فمن الوجهة الاقتصادية المحضة ، دع جانبا الناحية الادبية التى تفضى على من تعاونوا وقت الشدة أن يظلوا على تعاونهم وقت الرخاء ، أقرر أن من مصلحة أمريكا أن تتعاون مع روسيا بعد أن تخمد نار الحرب تعاونا وثيقا وخلصا . فقد كنت أتحدث منذ عهد قريب مع بعض الروسيين الذين يقيمون فى امريكا . فقدرت مما سمعته منهم من أنباء ، أن روسيا ستحتاج فى أول سنة من سنى السلم القادمة الى أن تشترى من أمريكا ما قيمته ٧٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار ، من أجهزة كهربائية ، ومن آلات بخارية ، ومن سكك حديدية ، ومن محطات لتوليد القوى ، وغير ذلك من المعدات التى تستأنف بها تحقيق

سياستها الصناعية . وستظل فى حاجة الى أن تشترى مثل هذه الكمية الضخمة فى كل سنة من السنوات العشر التى تعقب الحرب . اذ الواقع ان روسيا ستواجه مهمة هائلة خطيرة ، فستعمل أولا على تعمير تلك المناطق الصناعية الفسيحة التى خربتها قطعان الالمان ، وستستأنف ثانيا أداء العمل الذى ثابرت عليه قبل الحرب بضع سنين ، أى اقامة الصناعات التى تمون الملايين العديدة التى تسكن أرجاء روسيا الفسيحة

ان أمام روسيا خمسين سنة من الجهاد فى سبيل تحقيق برنامجها الصناعى والاجتماعى ، أى فى سبيل اقامة الحياة الصناعية الكاملة ، ورفع حياة الشعب الى المستوى اللائق الكريم. وستضطر فى خلال نصف القرن هذا أن تشترى ، منا ، ومن بريطانيا كذلك ، ومن كل قطر يستطيع أن يصدر اليها ما تريد من آلات ومعدات

قلت هذا لصاحبى ، فعاد يصيح قائلا : اذن فأنتم تريدون ان تقيموا غولا عتيا رهيبا ، يحطمنا ويقضى علينا يوما ما !

فقلت له : انما تقوم الغيلان المخيفة فى بيئات الفقر والاضطهاد . تقوم بتحريض زعمائها تارة وتقوم باستفزاز من أفقروها واضطهدوها تارة أخرى . أما الشعوب الرخية ، السليمة ، الناهضة ، فانها ليست فى حاجة الى أن تعتدى على غيرها وتهاجمه . فنحن فى علاقتنا بروسيا مخيرين بين أمرين : أولهما أن نتعاون معها تعاونا يعود بالخير الوفير على حياتنا الاقتصادية ، وثانيهما : ان نقبع وراء الخطوط والتخوم ، متأهبين بجيش جرار ، وأسطول جبار ، وسلاح جوى رهيب .. فان آثرنا هذا تعبنا وتعبت روسيا معا ، وان آثرنا ذاك كان فيه الخير لنا ولروسيا على السواء

علاقة أمريكا ببريطانيا

والآن سوف يقول صديقى : هيا بنا ندخل ذلك الهيكل القديم الذى يسمونه « الامبراطورية البريطانية ! »

فهل ثمة داع الى هذا التخوف الذى أراه باديا على جانبى المحيط الاطلسى ؟ فثمة فى انجلترا من يقول : « كونوا على حذر .. وأرقبوا ذلك التاجر الأمريكى الذى يريد أن يبيعنا ويشترينا كيف شاء » . نعم ، انهم فى انجلترا يتخوفون منا كما نتخوف نحن منهم فى امريكا ، وهم على حق فى ارتيابهم وتوجسهم هذا ، فقد عانوا كثيرا من عنت بعض تجار المال ورجال الاعمال فى بلادنا فيما مضى

ولكن رغم كل ما قام بين الامتين من سوء ظن أو سوء تفاهم فى تلك السنين التى امتدت بين الحرب الكبرى الاولى والحرب الكبرى الثانية ، فان الامر لا يمكن أن يتعدى ما يحدث بين أمتين تتكلمان لسانا واحدا وتعيشان من ثقافة واحدة ، فقد ينشب بينهما خلاف على أمر ما ، ولكنه لن يؤدى بهما الى شجار أو قتال . وهل تنسى أنه قد مضى أكثر من مائة عام لم يقم فيها الاسطول الامريكى بمناورة بحرية واحدة فى المحيط الاطلنطى

يستدل منها على أننا نخشى بريطانيا أو على أننا نناصبها العداء ؟
ولكن صديقي المتشكك يسألني : « انهم لن يدعونا نملك تلك القواعد البحرية التي أجروها لنا في أثناء هذه الحرب » ! نعم انهم لن يدعونا نملكها ، وما يصح لنا أن نملكها ، فقد استأجرناها لمدى تسع وتسعين سنة ، والايجار والاستئجار شيء ، والبيع والشراء شيء آخر !

ولست أشك مطلقا في أننا سنصل الى تفاهم تام مع بريطانيا في أمر القواعد الجوية التي نريد اقامتها في شتى أرجاء العالم ، ذلك أن هذه القواعد ستكون مصدر خير لامريكا، ولبريطانيا ، وللعالم جميعا . فنحن ذاهبون بعد الحرب الى شق طرق البحار ، وطرق الأجواء ، بعروض التجارة الامريكية ، ولهذا ستكون هذه القواعد البحرية والجوية ذات أهمية بالغة ، لا نغفلها في مؤتمر الصلح ، ولا نعجز عن التفاهم مع غيرنا من الشعوب في شأنها ، ما دام خيرها سيعم الجميع بغير استثناء

يعود صديقي المتشكك فيقول : « ولكن بريطانيا ستبقى بعد ذلك كله امبراطورية . . وبذلك ينقلب الامر الى نزاع بين الدول الكبرى حول مناطق الاستعمار ، فكل يريد نصيبه منها » . نعم ان مستر تشرشل قال انه لم يتول الوزارة ليصفي الامبراطورية البريطانية . ولكن لنذكر أن أكثر هذه الامبراطورية ، أعني ممتلكاتها الحرة ، هي دول حرة بكل ما تتسع له كلمة الحرية من معان . وفي بعض أجزاء هذه الامبراطورية ، كما هو الشأن في الهند ، شوق ونهضة الى الحرية ، ويقظة ونشاط يشملان شعوب تلك البلاد . وهذه أمور تعرفها بريطانيا أكثر مما نعرفها نحن ، ويعنيها حلها أكثر مما يعنينا نحن . وبريطانيا مرتبطة مع امريكا بميثاق خالد عظيم ، هو ميثاق الاطلنطي الذي تعهدتا به على ألا يكون لهما أية أطماع اقليمية جديدة ، وعلى أن يهيآ لشعوب الارض أن تنال حقها من الحرية والارتقاء

مهمتنا بعد الحرب مباشرة

بعد أن تنطلق آخر رصاصة في هذه الحرب يبدأ جهادنا السلمي توا . وقد اتفقت الامم المتحدة على خطط هذا الجهاد في خلال السنوات التي تعقب الحرب مباشرة . فكل قطر يحرر من أقطار أوربا ، ترسل اليه فورا الاطعمة والملابس وسائر الضرورات ، التي تنقذ أبناءه الجوعى ، والمرضى ، مما عانوا في سني الحرب وعهد الاذلال . ولن تقوم امريكا وحدها بهذه المهمة ، بل ستعاونها في ذلك سائر الامم المتحدة ، وان كان العبء الملقى على عاتق امريكا هو بطبيعة الامر أثقل الاعباء

وعملية الانقاذ هذه ستستغرق ثلاثة أشهر عقب تحرير كل شعب ، أو عقب تحرير أوربا كلها اذا جاء انكسار هتلر مفاجئا ، وسيساهم في هذا الانقاذ كل شعب قدر ما يستطيع مثال ذلك ما حدث أخيرا في شمال افريقيا ، فقد دفعت « فرنسا الحرة » اثنى عشر مليونا

ونصف مليون دولار ، ثمنا لسلع وعروض شتى أرسلتها امريكا الى شمال افريقية بمقتضى قانون الاعارة والتأجير

ولا شك أن الحرب لن تنجاب عن أوربا الا بعد أن تتركها في حالة رهيبة مخيفة . ولهذا كان حتما علينا أن نبادر بانقاذها ، والا استحال أمرها الى كارثة اقتصادية تجر في أعقابها كوارث اجتماعية وسياسية لا قبل لنا فيما بعد بتلافيها . نعم ، فاننا اذا لم نعجل بهذا الانقاذ ، أفلت الزمام من أيدينا الى أيدى رجل مغامر على ظهر جواد كتلك الجياد التي يركبها قطاع الطرق ! فان كل شعب عضه الجوع وأزمه الضيق ، يسهل لأي رجل مغامر مخادع ان يسيطر عليه ويوجهه كيف شاء . فيجب ألا ننسى أن النازية لا تقاوم بالمدافع وحدها ، بل تقاوم بالطعام كذلك ، نرسله الى تلك الشعوب الجائعة المحرومة ، حتى لا نحملها مرة أخرى على ان تنساق وراء هتلر آخر ، قد يكون أشد من هتلر هذا بأسا ونكرا !

وبينما تقوم الامم المتحدة بعملية الانقاذ هذه ، تقوم في الوقت ذاته بعملية أخرى : تلك هي تجريد ألمانيا من سلاحها ، ومن قوتها التي تغريها باثارة حروب العدوان من حين الى حين . ولكن يجب ألا يعمينا هذا عما ينبغي للشعب الالماني أسوة بغيره من الشعوب التي أجهدتها الديكتاتورية وضيقت عليها الخناق ، أعنى يجب ألا ننسى أن هذا الشعب في حاجة الى كميات هائلة من الطعام واللباس يعوض عليه ما عاناه منذ عشر سنين أو تزيد . نعم ، انك لا تستطيع ان تسوى أمرا ما مع هتلر ، ولكن هتلر ستذهب ريحه ، ويبقى الشعب الالماني ، ويبقى له — بعد تجريده من سلاحه — ما لغيره من الشعوب من حقوق في عنق الامم المتحدة المنتصرة

ثم يجب علينا أن نحمل كل شعب أوربي ، بكل ما يسعنا من وسائل الارشاد والتوجيه، على أن يقرر مصيره بنفسه ، لا بواسطة نفر من تجار السياسة أو تجار المال ، يخدعونه بالكلام أو يضللونه بالوعود ، واننا لنعتقد اعتقادا جازما أن كل شعب لو ترك لنفسه لاختار الديموقراطية مذهبا ، ولما رضي بغيرها من نظم الحكم بديلا . وبذلك نتقى أن ينقلب أي شعب أوربي الى شعب نازي أو فاشستي يحكمه بسوط الاضطهاد ، أو بطريق الاغراء « كويزلنج » من أي نوع كان !

واجبنا في فترة التعمير

تأتي بعد ذلك المهمة الكبرى التي ستستمر سنين طويلة ، وأعنى مهمة التعمير والانشاء . فان رحى الحرب ستظل تطحن أوربا ، حتى اذا وقفت كان كل حقل فيها في حاجة الى اصلاحه وتجديده ، وكل مصنع في حاجة الى ترميمه وتعميره . ويجب على امريكا أن تحمل العبء الاكبر في هذه المهمة ، حتى ولو اضطررنا من جراء هذا الى أن نحرم أنفسنا بعض المتاع المألوف ، فنبقى سنين دون أن نشترى ما نحب من كماليات الحياة

ولكن الاقتصاديين سيسألون : وكيف تستطيع هذه الشعوب أن تشترى منا كل ما يلزمها من مؤن وعروض لتعمير ما تخرب من مرافقها ، ولانشاء ما تحتاج اليه من مصانع ومؤسسات ؟ والجواب عن هذا أن أكثر هذه الدول يملك من مرافق المواد الخام ما تستطيع أن تشترى بها الجزء الاكبر مما تريده من آلات وأدوات . وأبناء هذه الدول يعملون الآن فى استغلال هذه المرافق ولكن لمصلحة ألمانيا ، أما بعد الحرب فيستغلونها لمصلحتهم هم ، فيستهلكون من انتاجها ما يريدون ، ثم يصدرون الينا الباقى ويستوردون بدلا منه منتجات الصناعة الامريكية . ولكن هذا لن يكفى لشراء ما يلزمهم من سكك حديدية ، وآلات صناعية ، ومحطات لتوليد القوى ، وغير ذلك من اسباب الحياة الصناعية الكبرى . فما العمل ؟ يجب على أمريكا أن تقرضهم الباقى ، ولها بعد هذا أن تجعل هذا القرض بفائدة زهيدة بحيث لا تضيع أية فائدة على دافع الضرائب الامريكى

ولنذكر أننا سنخرج من هذه الحرب ورأس مالنا أضخم رأس مال يملكه شعب من شعوب الارض . ستكون لدينا مدخرات هائلة جدا ، فان رأس المال الذى ادخره الشعب الامريكى فى خلال السنوات الاربع الماضية (١٩٤٠-١٩٤٤) يقدر بمائة وعشرين ألف مليار من الدولارات ! فلو أطلقنا هذا المبلغ الهائل على سوق الاستهلاك ، ورحنا نشترى به كل ما حرمتنا الحرب من منتجات ومعدات وكماليات ، لعجز الانتاج الامريكى على ضخامته عن أن يكفى الاستهلاك المحلى وحده .. مع أن مهمتنا الكبرى هى أن نخصص جزءا كبيرا من انتاجنا للشعوب الاخرى ، لكى تعمر ما تخرب منها ، فتستطيع أن تستأنف حياتها وتغدو عميلا لنا يشترى من تجارنا ويستهلك من انتاجنا

قد يقول البعض انه ليس من الذوق أن أتحدث عما ستجنيه امريكا فى المستقبل من الارباح المادية ، ونحن فى وسط معمعة هائلة من النيران والدماء ، نزلنا ورؤوسنا على أكفنا دفاعا عن الحرية وتقريرا للديموقراطية ، لا سعيا وراء المغانم ولا التماسا لشىء من الاسلاب . ولكنى لم أذكر هذه الارباح الا لانى أؤمن ايمانا صادقا بأن هذه الخطة التى ستنتجها أمريكا بعد الحرب ، وان عادت على أمريكا بمغانم وأرباح ، الا أنها ستؤدى الى رفع مستوى شعوب العالم من الوجهة المادية الى درجة لم تشهدها من قبل

ان الرجال الذين يشرفون على الشعوب التى تحالفنا هم مثل رجالنا تماما ، يريدون أن يكون لواء الحرية عاليا رفافا ، وأن يكون بناء السلام راسخا وطيدا . ان صدورهم ملأى بما تمتلىء به صدورنا من آمال ومن مخاوف ، وانهم يريدون أن يروا العالم يسير كما يسير العمل الناجح : يفيد صاحبه كما يفيد الآخرين .. انهم مثلنا يريدون ما نريد : يريدون « الحريات الاربع » مهيأة للناس جميعا . انهم جوعى وظمأى لهذه الحريات ، ولكن الخوف يساورهم والتشاؤم يتخايل أمامهم ، فمن واجبنا ، ونحن أقوى الشعوب وأغناها ، أن نتقدم الصفوف ونثبت ان أمريكا تريد أن تتعاون مع الجميع فى سبيل انشاء عالم أفضل من عالمنا وأسعد وأرخى

هذه الحصبة الملعونة

بقلم الدكتور مصطفى الديوانى

الأخصائى فى أمراض الاطفال بكلية الطب

فى مثل هذا الوسم من كل عام تكثر الاصابة بالحصبة بين الاطفال . وفى هذا المقال يتحدث الدكتور مصطفى الديوانى عن هذا المرض وأعراضه وطرق الوقاية منه

كان الطبيب العربى ابن سينا أول من أطلق اسم الحصبة على هذا المرض الذى أصبح على مر الايام أشهر من أن تعمم ميزاته وأعراضه التى لا يجهلها أحد . كان ذلك فى أواخر القرن العاشر عند ما ابتدع ابن سينا هذا الاسم الجذاب ، وأطلقه على مرض كان كثير الانتشار بين الاطفال ، وكان يصحبه عطس وزكام وحمرة فى العينين وطفح داكن يبدأ فى الرأس والوجه ، ثم سرعان ما ينتشر فى بقية أجزاء الجسم . وكان القوم فى تلك الايام الغابرة يخلطون بينه وبين مرض الجدرى ، ويعتبرونهما مرضا واحدا ، فكان مقال ابن سينا حاسما فاصلا . ولا زال كتاب الغرب يعزون اليه كل الفضل فى اكتشاف هذا المرض ، وان نبوغ الفطرة الذى ينبت بين مضارب الخيام ليعد مفخرة للعروبة التى لو لم تذرها عوامل شتى لاصبح لها شأن أى شأن

وأكثر ما تصيب الحصبة الأطفال الصغار . ويبدو أن الاطفال حديثى الولادة نادرا ما يمرضون بها لمناعة اكتسبوها عن طريق أمهاتهم . ولو ظهر المرض على الام بعد الولادة بأيام ، فانه يظهر على الطفل أيضا ، وكأن العدوى أصابتهما فى نفس الوقت فى الايام الأخيرة من الحمل فيولد الطفل والمرض فى طريق الظهور . واذا فرض وأصيبت الام وحدها ، فيجب ألا يدفعنا ذلك الى فطام الطفل وابعاده عن أمه ، لان أمامه فرصتين لا ثالثة لهما . فهو اما أنه يتمتع بمناعة كمعظم الاطفال فى الشهور الثلاث الاولى من عمرهم ، واما أن يكون قد أصيب بالعدوى قبل تشخيص مرض الام على حقيقته . اذ من المعلوم أن العدوى أشد ما تكون قبل ظهور الطفح ، أى فى الدور الذى لا يشك فيه أهل المريض بوجود المرض . فيسمح لغيره بالاختلاط به . وهذا هو السر فى انتشار العدوى فى المدارس والملاجىء . فأعراض المرض تبدأ بعطس وزكام وسعال جاف قد لا تعيرها الام أهمية كبيرة فى بادىء الامر ، فترسل طفلها الى المدرسة كالمعتاد ، ظنا منها أن ما به ليس سوى برد بسيط لا يستدعى بقاءه فى المنزل ، فيختلط المجرم البرىء بأقرانه ،

يسعل ويعطس في وجوههم ، ناقلا اليهم العدوى في بساطة وحسن نية . وما يحدث في المدرسة يحدث بين أفراد الأسرة الواحدة . فمتى بدأت الحصبة في أحد أفراد المنزل امتدت نارها الى بقية الاطفال الذين خالطوا أخاهم في أيام الرشح الاولى قبل ظهور الطفح

وتنتقل العدوى بالرذاذ المتطاير من المريض أثناء الحديث أو السعال أو الضحك ، وهي أشد ما تكون قبل ظهور الطفح ، وتظهر الاعراض بعد حوالى الأسبوعين من تاريخ التعرض للعدوى . وهي تبدأ بعطس وزكام وسعال جاف واحمرار في العينين وخشونة في الصوت ، وارتفاع في الحرارة يبدأ بسيطا في أول الامر ثم لا يلبث أن يصل الى ما بين ٣٩ و٤٠ درجة . ويظهر الطفح في اليوم الرابع ، وفي معظم الحالات يسبق ظهور الطفح نزول كاذب في الحرارة يولد في أهل المريض أملا كاذبا بزوال الازمة ، ولكن سرعان ما يطرق الباب زائر غير منتظر ترتفع معه الحرارة ثانية ، وهو الطفح الاحمر الداكن الذي هو من أهم مميزات الحصبة . وتنزل الحرارة الى مستواها الطبيعي في اليوم السابع ، ولا يحول دون نزولها الا حدوث مضاعفات عدة كالتهاب الاذن والتهاب الرئة

وما دفعني الى التحدث عن الحصبة الا ما أشاهده في معظم العائلات من الاستهتار بمرضها ، حتى لقد تعمد الام الى خلط الاطفال الاصحاء بالطفل المريض لتقوم بتمريضهم دفعة واحدة ، بل قد تخطر الام جاراتها بأنها على استعداد لان تسدى اليهن معروف السماح لاطفالهن بزيارة طفلها المريض حتى يأخذوا دورهم وينتهوا من هذه المضايقة العابرة التي يسمونها الحصبة . وهذا تفكير خاطىء فاضح أنصح بتجنبه ، لان عاقبة الاصابة بهذا المرض تكون أسلم كلما كبر الطفل ، ففي تأجيلها سنة عن أخرى مصلحة له ، ولا يخفى أن للحصبة مضاعفات قد تودى بحياة الطفل ، وأهمها المضاعفات الصدرية . ومعلوم أن الالتهاب الرئوي يحدث في ١٠ ./. من الحالات ، وعواقبه وخيمة في الاطفال الذين يقل عمرهم عن السنتين . ومن مضاعفاتها أيضا نزلات معوية حادة مصحوبة باسهال شديد يسبب للطفل ضعفا واضحا ، ويستلزم من الطبيب مجهودا كبيرا ليصل بمريضه الى بر السلامة . وهناك علاوة على ذلك مضاعفات عصبية نتيجة تأثر المخ بميكروب الحصبة ، وهذه تحدث في حوالى ١ ./. من الحالات ، وتظهر أعراضها بين اليوم الرابع والسادس من ابتداء المرض ، فتنتاب المريض تشنجات تعقبها غيبوبة يفيق منها الطفل بعد أيام ، وقد ضعفت قواه العقلية أو فقد القدرة على استعمال احدى اليدين أو الرجلين أو كليهما . وفي حالات كثيرة يصاب الطفل بالحصبة والدفتريا في آن واحد فعلينا ألا نهمل فحص الزور يوميا حتى لا تضيع على الطفل فرصة شفاء سريع ونقاهة كاملة

ولقد جرت العادة في حالات الحصبة أن تقفل نوافذ الغرفة وتغطى مصابيحها بأقمشة حمراء ويلبس الطفل ملابس حمراء ، اعتقادا بأن هذا يؤثر على سير المرض ، والواقع

عكس هذا تماما . فان دخول الشمس والهواء الى غرفة المريض يزيد من مقاومته للمرض، واذا كانت عينا الطفل تتأذيان من الضوء - وهو الاصل فى سبب تغطية المصابيح بقماش أحمر - فيمكن وضع نظارة سوداء على العينين أو تحويل موضع الطفل بحيث يتجه وجهه بعيدا عن الضوء

ويعتقد كثير من الامهات فى فائدة اعطاء المصاب بالحصبة عسلا أسود ، ظنا منهن أنه يساعد على ظهور الطفح . وانى أنصح بشدة بتجنب هذا ، لانه قد يعرض الطفل للاصابة بإسهال شديد أو دوسنطاريا تكون وطأتها على المريض أشد من الحصبة نفسها

وهناك سؤال قد يخطر على بال الكثيرين ، هو : هل من سبيل الى الوقاية من الحصبة ؟ وللاجابة عن هذا السؤال أقول انه من الحقائق الواقعة أن لغالبية الاطفال حديثى الولادة مناعة ضد الحصبة ، وهذا ما حدا بالبعض الى الاعتقاد بأن المشيمة (أى الخلاص) تحوى أجساما مضادة ، فاستخلص منها مصل خاص لم يفلح بكل أسف فى أداء الغرض المطلوب منه ، فبطل استعماله ولم يعمر طويلا . ويفضل عليه دم الناقهين - أى الذين فى دور النقاهة من مرض الحصبة - أو الاشخاص البالغين الذين أصيبوا بالمرض فى أحد أدوار حياتهم . وقد ثبت أنه اذا حقن الطفل المخالط للمريض بدم ناقه أو بالغ فى خلال الخمسة الايام الاولى بعد التعرض للعدوى ، أمكن وقف المرض . أما بعد ذلك فقد يساعد على التخفيف من حدة المرض . وليس لمستحضرات « السلفاناميد » أى تأثير على سير المرض ، ولو أنها قد تنجح فى منع حدوث المضاعفات

وتكسب الحصبة المريض مناعة دائمة فى أغلب الحالات ، ولو أن الطفل قد يصاب بها مرة ثانية وثالثة ، وهذا نادر الحدوث

فليكن درعنا الواقى من هذا المرض الخداع ، أن نسىء الظن به دائما ، ونتوقع منه أسوأ الفروض حتى يثبت العكس

مصطفى الديوانى

مائة رجل يقيمون خيمة ، وامرأة واحدة تقيم بيتاً

« مثل صينى »

روسيا خمسة أمثال أوروبا

أهم الحقائق وأبرزها فى موضوع نمو سكان العالم ، هو ازدياد عدد الشعوب البيضاء من مائة وخمسة وخمسين مليون فرد فى سنة ١٧٧٠ الى سبعمائة وثلاثين مليون نسمة فى يومنا هذا . ولا ترجع هذه الزيادة الضخمة الى الارتفاع فى نسبة المواليد بل الى الهبوط فى نسبة الوفيات . ففى سنة ١٧٧٠ كان متوسط عمر الانسان ثلاثين سنة ، أما اليوم فقد صار هذا المتوسط حوالى ستين سنة !

وقبل أن تهبط نسبة الوفيات الى ما هى عليه الآن ، كان عدد الجنس الابيض واقفا لا يزيد ، اذ كانت المواليد تسد الفراغ الذى تحدثه الوفيات فحسب . ولكن منذ تلك السنة أخذت نسبة المواليد تكبر نسبة الوفيات فى هذا الجنس فى كل سنة ، فأخذ ينمو نموا مطردا حتى أصبح اليوم خمسة أمثال ما كان عليه حينذاك

ولم تأت هذه الزيادة على قياس واحد فى جميع الشعوب البيضاء ، وأوضح الامثلة على تفاوت هذه الشعوب فى وتيرة تكاثر سكانها ما حدث فى انجلترا وفرنسا . ففى سنة ١٧٧٠ كان عدد الانجليز فى بقاع الارض كلها ثمانية ملايين نسمة ، واليوم يبلغ عددهم ثمانين مليون نسمة . أما الفرنسيون فزادوا فى تلك الفترة من خمسة وعشرين مليون فرد الى خمسين مليون فرد ، فبينما صار الانجليز المعاصرون عشرة أمثال أجدادهم أولئك ، لم يستطع الفرنسيون الا أن يكونوا ضعف أجدادهم الذين سبقوهم بقرن وثلاثة أرباع قرن!

ومن المقرر أن بطء نمو سكان فرنسا راجع الى ميل المرأة الفرنسية ، بل الرجل الفرنسى ، الى تحديد النسل ، اما ايثارا للصحة والعافية ، واما حذر الضيق والاملاق . وليس هذا الامر بدعة جديدة فى فرنسا ، ففى سنة ١٧٧٨ كتب أحد الكتاب الفرنسيين، واسمه موهو ، رسالة ينذر فيها الشعب بأسوأ العاقبة اذا ظلت زوجاته آخذات بخطة تحديد نسلهن . ولكن الناس لم يأبهوا لانذاره ، وتفشى الامر بين جميع الطبقات ، فلما كان القرن التاسع عشر كان تحديد النسل شيئا مقررا فى أغلب الاسر الفرنسية ، غنيها وفقيرها على السواء

وكان هذا أمرا انفردت به الاسرة الفرنسية دون سائر الاسر الاوربية جميعها ، ففى العقد السابع من القرن الماضى كان عدد من تنجبهم الزوجة فى أقطار أوربا الشرقية ، فى المتوسط ، سبعة أو ثمانية أطفال ، وفى أقطار أوربا الغربية والشمالية والجنوبية خمسة أطفال ، أما فى فرنسا فكان هذا المتوسط أقل من اربعة اطفال

وقد حدث في خلال نصف القرن الماضي أن هبطت نسبة المواليد هبوطا ملحوظا في أكثر الأقاليم التي تسكنها الشعوب البيضاء

فمتوسط عدد من تنجبهم المرأة المتزوجة في روسيا السوفياتية خمسة أو ستة أطفال ، وفي بولندا وبلغاريا وغيرهما من أقطار أوربا الشرقية والجنوبية بين ثلاثة وأربعة أطفال . وهبط هذا المتوسط من خمسة أطفال الى طفلين اثنين في أكثر أقطار أوربا الغربية والشمالية . وكذلك كان الامر في أمريكا واستراليا ونيوزيلنده ، مع أن المفروض أن تعظم نسبة المواليد في تلك الأقطار البكر الخصبة التي ينال فيها الانسان نصيبا موفورا من خيرات الطبيعة

وهكذا نجد أن جميع الاقطار التي يستوطنها الجنس الابيض ، باستثناء روسيا السوفياتية ، تعاني نقصا في نسبة مواليدها وبطئا في نمو سكانها . وقد بدأ هذا النقص في بعض الاقطار عقب الحرب الكبرى الماضية ، ولكنه كان نقصا كبيرا جدا الى درجة ان ما أصاب فرنسا في سبعين سنة أصاب هذه الاقطار في عشر سنين . فقد مضى على فرنسا سبعون سنة في ممارسة تحديد نسلها حتى نقص الى ثلثي ما كان قبلا ، وكذلك نقص هذا القدر في السويد وسويسرة بعد أربعين سنة ، وفي انجلترا ودنمركة بعد ثلاثين سنة ، ولكن بلغاريا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا عانت هذا النقص الخطير في أثناء فترة وجيزة لا تتجاوز عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة

والآن نتساءل : ما تأثير هذا النقص في مستقبل الشعوب التي تفشى فيها ؟

وللاجابة عن هذا السؤال يجب أن نقدر أولا « صافي نسبة الزيادة » . وتقدير هذا الصافي يأتي بتقدير نسبة عدد من يولد من أمهات المستقبل الى عدد أمهات الحاضر . فاذا كانت هذه النسبة أكثر من « واحد » كان عدد السكان في تزايد ، واذا كانت أقل من « واحد » كان العدد في تناقص ، واذا ظلت هذه النسبة على الدوام أقل من « واحد » كان مصير السكان الى الفناء

ومنذ مائتي سنة كان « صافي نسبة الزيادة » في أوربا « واحدا » على وجه التقريب . فلما نقصت نسبة الوفيات نتيجة التقدم العلمي والطبي ، ارتفعت هذه النسبة وصارت أكثر من « واحد » ، وبلغت منذ أربعين سنة « واحدا ونصف واحد » في أكثر أقطار أوربا الغربية والشمالية ، كما بلغت « اثنين » في بعض أقطار أوربا الشرقية مثل بلغاريا وأوكرانيا . ولكنها ظلت « واحدا » في فرنسا رغم تناقص وفياتها ، وذلك لنقص نسبة المواليد فيها كما ذكرنا

أما اليوم فان هذه النسبة أقل من « واحد » في جميع أقطار أوربا الشمالية والغربية باستثناء هولندة وايرلندة . وكذلك الامر في أكثر بلاد أوربا الوسطى ، مثل تشيكوسلوفاكيا والنمسا وهنغاريا وفنلندة . أما الاقطار التي ترتفع فيها هذه النسبة عن « واحد » فهي البرتغال ، ودول البلقان ، وروسيا السوفياتية

وعلى الجملة فان هذه النسبة فى سائر أقطار أوربا تبلغ ثمانية أعشار « الواحد » أما فى روسيا السوفياتية فتزيد عن « الواحد » بثلاثة أعشار . فماذا تكون النتيجة ؟ لقد كان سكان أوربا الغربية والشمالية منذ أربعين سنة مائة وخمسين مليون نسمة ، أما اليوم فهم مائة وخمسة وتسعون مليونا من الانفس . وهذه الزيادة أقل من الزيادة الطبيعية التى يجب أن تكون نسبتها أكثر من « الواحد » كما فصلنا . وعلى ذلك فهى تعتبر فى الواقع تناقصا لا تزايدا ، فلو استمر الامر هكذا لرجع عددهم فى نهاية هذا القرن الى ما كان عليه فى بدايته أى الى مائة وخمسين مليون نسمة . أما سكان روسيا فكان عددهم فى سنة ١٩٠٠ مائة مليون وعشرة ملايين من الانفس ، وهم اليوم مائة وخمسة وسبعون مليون نسمة ، فلو ظلت نسبة تزايدهم على أساس ما ذكرنا ، لبلغ عددهم فى سنة ٢٠٠٠ ستمائة وخمسين مليونا من الانفس !

واذن فسيشهد كثير منا اليوم الذى يغدو فيه عدد سكان روسيا السوفياتية أكثر من أربعة أمثال سكان أوربا بأسرها .. وهو يوم قريب جدا ، اذ ليس بيننا وبينه أكثر من نصف قرن من السنين !

(عن مقال للدكتور ر . ر . كوزنسكى فى صحيفة ناشونال ريفيو بنيوزيلندة)

نابليون فى المعركة

كان نابليون نائما فى أثناء احدى معاركه الدائرة ، فدخل عليه أحد قواده وهز فراشه هزا وهو يهمس قائلا : « استيقظ يا سيدى » .. ففتح نابليون عينيه وسأله ما خطبه ، فقال القائد : « ان العدو قام بهجوم مفاجىء على جبهتنا اليسرى » . فقال نابليون : « على الجبهة اليسرى ؟ » قال القائد : « نعم » . قال نابليون : « اذن فافتح ذلك الصندوق الموضوع الى يمينك ، تجد فيه خطة مفصلة عما نفعله اذا هوجمت جبهتنا اليسرى . اتبعوا هذه الخطة تردوا العدو على أعقابه . والآن دعنى أستأنف نومى » .

وأدار وجهه الى الحائط ، وراح يغط فى النوم مرة أخرى ، بينما دارت المعركة وفق الخطة التى رسمها ، فلم يلبث جنوده أن ظهروا على العدو وردوه مدحورا !

السلم الحقيقي

للمفكر الاجتماعي الانجليزي « سير وليم بيفردج »

يأبى شعب بريطانيا أن يعتبر النصر في الحرب الدائرة غايته القصوى التي يسعى ويهدف اليها ، بل يراه مجرد وسيلة تؤدي به الى الغرض المرجو والهدف المنشود

وهو اذ يفكر تفكيرا صادقا وعميقا ومستنيرا ، فيما يجب أن يكون عليه أمر بريطانيا بعد أن تنحسر عنها غمرات هذه الحرب ، انما يريد أن يتبين على وجه التحقيق تلك الغاية التي يبذل ويضحي لها من دمه وعرقه ودموعه ، فمن الخطأ أن يفسر هذا الاهتمام بالمستقبل بأنه ضن على الحاضر بما يقتضيه من البذل والعناء

وقد يخيل الى زعماء الشعب الذي يصلى نار الحرب المؤصدة أن النصر هو الغاية الاخيرة التي ليس من ورائها أية غاية أخرى . ذلك أنهم يعالجون يوما تلو يوم تلك المشاكل المعقدة الملحة التي تتمخض عنها أحداث القتال ، وذلك أنهم يحسون احساسا مباشرا تلك الاثقال الباهظة التي تلقيها على عواتقهم مقاومة العدو اللدود . فتفكيرهم ، وشعورهم ، لهذا كله ، منصرفان الى الحرب لا الى ما بعد الحرب . فعند ما يصلون في نهاية الامر الى حيث يستطيعون أن يفرضوا شرطهم ويملوا ارادتهم على العدو المقهور ، يحسبون أنهم أدوا عملهم وأنجزوا مهمتهم وبلغوا من الشوط منتهاه .. مع أن واقع الامر أن النصر ليس الا بداية الشوط ، وأن الحرب ليست الا تقدمة لما بعدها

ومن المحتمل أن تكون شعوب البلاد الديكتاتورية غير عابئة بما تتمخض عنه الحرب من نتائج وعواقب .. ذلك أنها شعوب دربت منذ نعومة أظفارها على أن تكون أداة طيعة في أيدي رجال تساورهم أحلام الثأر والانتقام المجنونة ، وعاشت سنين وسنين مجندة محاربة قبل أن تدور رحى الحرب فعلا . فهي لهذا ولذلك لا تفكر الا في الحرب وحدها ، أما ما تأتي به الحرب فلا يعنيها كثيرا . وهي لهذا ولذلك ترى النصر في الحرب ، بل ترى مجرد النجاة من الحرب ، غاية قصوى لا ترجو بعدها غاية أخرى

أما شعوب الديموقراطية فلها شأن غير هذا . فهم لا يرون فرض الشرط واملاء الارادة على غيرهم من الشعوب ، مبررا كافيا لتضحية أرواحهم في أتون الحرب ، ولا عذرا كافيا لازهاق أرواح غيرهم من الاقوام . نعم انهم ليحاربون حتى يلقوا الموت ، وأنهم ليحاربون جميعا رجالا ونساء وشيبا وأطفالا ، دفاعا عن بيوتهم التي يريد العدو انتهاك حرماتها . وانهم ليغضبون غضبة عاصفة عاتية لما يقترف خارج بلادهم من آثام الاضطهاد والعدوان على الاقوام المستضعفة والاقليات المغلوبة على أمرها . ولكن هذه الدوافع — دوافع

الغضب أو الخوف أو الكراهية ـ لا تكفى شعوب الديموقراطية حافزا للتضحية بأرواحها وللفتك بأعدائها فى كل نحو من أنحاء الارض حتى تقضى على قوة للبربرية الهائلة فيها ، وانما يحفزها الى هذا الجهاد وهذا الفداء أن ترى ما وراء الحرب من أغراض سامية نبيلة ، وأن تبين أن هذه الحرب لم تقم الا لينحسر غمامها عن عالم تعيش وتعمل فيه جماهير الناس من مختلف الشعوب فى أمن وسلام يشملهم هم وأولادهم وأحفادهم جميعا

ان أعظم آثار الحرب أنها تجعل جماهير الناس أهم شأنا مما تكون فى عهد السلم . ذلك أن الحرب تجعل من كل رجل ومن كل امرأة فى المجتمع ضرورة لا غنى عنها . وبهذا يستطيع الرجال والنساء جميعا ان يستمتعوا فى أوقات الحرب بمتعة العمل وأن يتجنبوا نقمة البطالة . ويحدث هذا كله فى وقت الحرب دون وقت السلم ، لان الناس جميعا ، قادة كانوا أو عامة ، يحسون أن الحرب تقتضى تعبئة جميع القوى وتركيز جميع الجهود ، أما السلم فقل من يحس فيه وجوب تضامن شتى الطبقات ومختلف القوات

ولكن الواقع أن حاجات الحرب ، وان تكن أكثر الحاحا من حاجات السلم ، الا انها ليست أعظم منها شأنا . فالسلم الحقيقى هو الذى يكفل للمجتمع بمختلف طبقاته وأفراده حياة موفورة من العمل والراحة ، من العمل الذى يدر رزقا طيبا ، ومن الراحة التى تهيىء متعة صالحة . وهذه وذلك يستلزمان مجهودا كبيرا فى نشر التعليم ، واصلاح النظام الاقتصادى ، واذاعة روح التضامن الاجتماعى

ولكى تنتقل من الحرب ومقتضياتها الى السلم ومقتضياته انتقالا سهلا ناعما ، يجب أن نتأهب لذلك منذ الآن ، أى يجب أن يجرى التمهيد للسلم القادم فى هذه الساعة التى تدور فيها الحرب القائمة . وليست ثمة عقبة سياسية تحول دون هذا : دون أن نفكر اليوم فيما يجب أن يكون عليه أمرنا غدا . وهذا ما تريده شعوب الديموقراطية من قادتها وزعمائها ، فالديموقراطية الصحيحة لا تريد التسويف والمماطلة والارتجال ، بل تصر على التفكير المستقيم ، المستنير ، المتسم ببعد النظر ورجاحة العقل

وكلما عرفنا هذه الحقيقة وقدرناها قدرها ، كانت وحدة الشعب فى الحرب أوثق عروة وأصلب عودا ، وكانت قدرة الشعب على الحرب أوضح مظهرا وأشد غلابا . ولا شك فى أن اهتمام زعماء الديموقراطية المحاربة بتحقيق النصر ، واهتمامهم فى الوقت ذاته بالوسائل التى تؤدى الى هذا النصر ، لا يعد توزيعا لجهودهم وتضييعا لقواهم . كلا ! بل ان من مهمتهم أن يعرفوا الوسائل المؤدية بشعوبهم الى التحمس فى سبيل الحرب ، والبذل فى سبيل النصر ، ثم يأخذوا أنفسهم بهذه الوسائل منذ الساعة

ان النصر على عدو رهيب لدود كهذا العدو الذى نحاربه الآن ، لا يمكن أن يتحقق الا اذا كانت الحرب حرب الشعب بأسره : بجميع طبقاته وطوائفه . ولن تكون الحرب حرب الشعب الا اذا كان المقصود بها أن تسفر عن سلام من نوع جديد، هو سلام الشعب!

(ملخصة عن صحيفة الاوبزرفر الانجليزية)

أروع أثر اسلامي فى مصر

مدرسة السلطان حسن

بقلم الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الامين المساعد بدار الآثار العربية

فى هذا الوقت الذى قضت فيه ظروف الحرب باغلاق المتاحف ، لا تزال فى القاهرة متاحف تتجلى فيها عظمة الفن المصرى الاسلامى ليس الى اغلاقها من سبيل ، لانها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . هذه المتاحف أقامها ونسقها أجدادنا فى العصور الوسطى ، أسسوها لا لتضم التحف النادرة ، فلم تكن المتاحف بمعناها الحديث قد ولدت بعد ، ولكن لكى تكون مساجد للعبادة ومعاهد للتعليم ، ومن يدرى فلعلهم قصدوا كذلك أن يجعلوا منها متاحف للشعب يتذوق فيها جمال الفن ، ويرهف حسه بروعته ورونقه . والذى يحز فى النفس أن هذه المتاحف على الرغم من كونها لا تسأل زائرها أجرا لقاء استمتاعه بما فيها ، فان روادها قليلون ، والمسئول عن ذلك فكرة علقت بالاذهان ولا يزال يعتنقها الكثيرون : ذلك أن عظمة مصر الفنية وتراثها الاثرى الخالد انما ينحصر فى الاهرام وأبى الهول وما اليهما من آثار الفراعنة ، وهذا من غير شك خطأ مبين ، فلئن كانت مصر الفرعونية قد رفعت لواء الحضارة فى العصور القديمة ، فان مصر الاسلامية قد رفعت هذا اللواء كذلك فى العصور الوسطى ، ولئن كان لها تراث فنى قديم تفاخر به الامم ، فان لها كذلك تراثا فنيا لا يقل عن ذلك القديم عظمة وجلالا يجدر بنا أن نعتز به ، وأن نذكره كلما دفعنا للتفاخر دافع ، فلقد سمت به مصر حقبة طويلة من الزمن ، وهو الى ذلك ، قريب الى نفوسنا ، متصل بأرواحنا ، ممتزج بعقائدنا وتقاليدنا ، لا نزال نعيش فى جوه ونستروح عبيره . وهذه المساجد والمدارس الاثرية المنثورة فى أنحاء القاهرة خير دليل ملموس على روعة هذا الفن وسموه ، ولعل مدرسة السلطان حسن [1] أروع مثال يبين لنا صدق هذا القول ، فهى من أعظم الآثار الاسلامية فى العالم وأروعها فى مصر ، ولم يعد المقريزى جانب الحق عند ما قال انه « لا يعرف فى بلاد

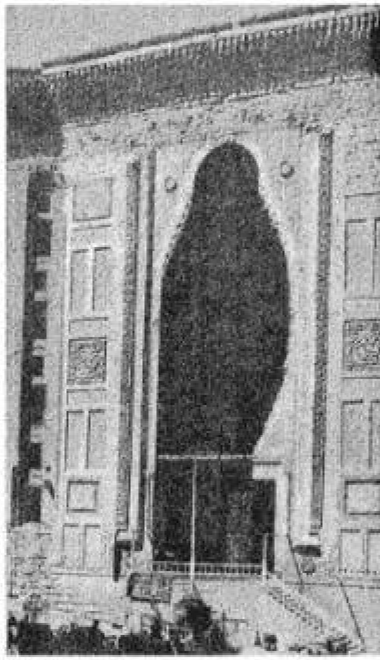
(١) تقع هذه المدرسة فى نهاية شارع محمد على على اليمين فى مواجهة القلعة

الاسلام معبدا من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها ، وحسن هندامها ، وضخامة شكلها » . ولم يتفرد المقريزى بهذا القول ، بل لقد ردده معه كثيرون من الرحالة والمؤرخين الشرقيين منهم والغربيين

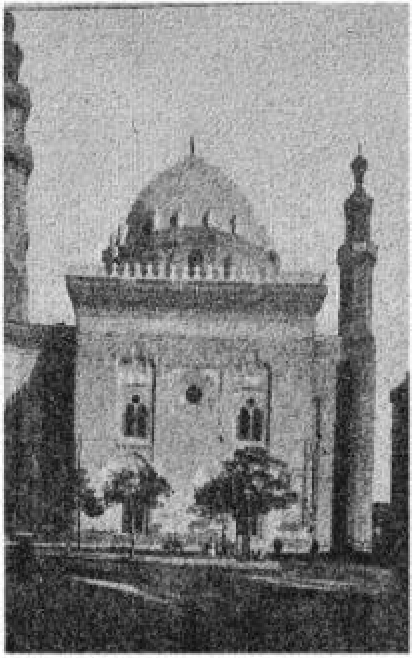
والواقع أن عظمة الفن الاسلامى وجلاله تتجلى لنا فى كل ناحية فى هذه المدرسة العظيمة . فواجهتها البحرية تلخص لنا جميع خصائص هذا الفن : فيها الخط الكوفى ، وفيها الخط النسخى، وفيها الزخرفة العربية Arabesque وفيها الزخرفة النباتية الاسلامية، وفيها العمد المندمجة ، وفيها ذلك النوع من الزخرف الذى اصطلح علماء الآثار على تسميته بالمقرنصات والذى يبدو لنا كأنه خلايا النحل أو عش النمل أو الرواسب الكلسية المخروطة الشكل التى تتدلى من أسقف الكهوف . ولا يتسع المجال هنا لكى نفصل القول فى أصل المقرنصات ويكفينا أن نقول ان المسلمين قد ورثوها عن الامم السابقة عليهم على هيئة كوة ساذجة بسيطة ، وما كاد يتهذب ذوقهم ، وترتقى ملكتهم الفنية حتى أقبلوا على هذه الكوة البسيطة يتفننون فى تنسيقها وتزيينها ويبالغون فى تقسيمها ، حتى بدت قطعا من الفن الجميل ، كلما تأملت فيها غمرتك بلذة محببة الى النفس ، وزادتك يقينا بجمال الفن الاسلامى وسموه . وقد شاء لهم خصبهم الفنى أن يتجاوزوا فى استعمالها الحدود التى وقفت عندها الامم السابقة عليهم ، فلم يكتفوا باستعمالها فى جوانب القباب ، بل رصعوا بها عقود الابواب ، وجملوا بها الزوايا ، وحلوا الواجهات كما تشاهد ذلك فى هذه المدرسة التى نتحدث عنها

ولا يقل داخل المدرسة روعة عن خارجها ، فلا نكاد نخطو خطوة فى جوفها حتى نرى فوقنا قبة عالية رشيقة التكوين ، منمقة الجوانب ، موزونة الابعاد ، قد أضفت عليها المقرنصات ثوبا من الجمال قشيبا . ونشاهد أمامنا لوحا من الرخام قد نقشت به زخرفة عربية يقصر دونها كل وصف ، يعلوه نافذة من الجص والزجاج المختلف الالوان يخلب اللب ، ويأسر بجماله القلب . فاذا اتجهنا الى اليسار لا نلبث أن نجد أنفسنا فى فناء مكشوف تتوسطه نافورة عليها قبة من الخشب المزخرف ، ويحيط به من جوانبه الاربعة ايوانات أربعة تطل على الفناء بعقود هى من أفخم العقود وأعظمها ارتفاعا ، ولا غرو فقد بعث منشىء هذه المدرسة فى « طلب جميع المهندسين من أقطار الارض وأمرهم بعمارة مدرسة تكون ليس عمر أعلى منها على وجه الارض ، وسألهم أى الاماكن أعلى عمارة فى الدنيا ، فقيل له ايوان كسرى أنوشروان ، فأمر ان يقاس ويحرر وتعمر المدرسة أعلى منه بعشر أذرع ، فعمرت وعمر بها اربع منارات ، وقيل ثلاث ، ثم هدم بعض المنارات واستمرت الآن على اثنتين ، وايوان كسرى كان واحدا وهذه اربعة ايوانات وهى عجيبة من عجائب الدنيا »

ولقد رصعت أرضية الفناء بفسيفساء من الرخام المختلف الالوان تتجلى فيها رسوم



الواجهة البحرية لمدرسة السلطان
حسن ويبدو فيها المدخل

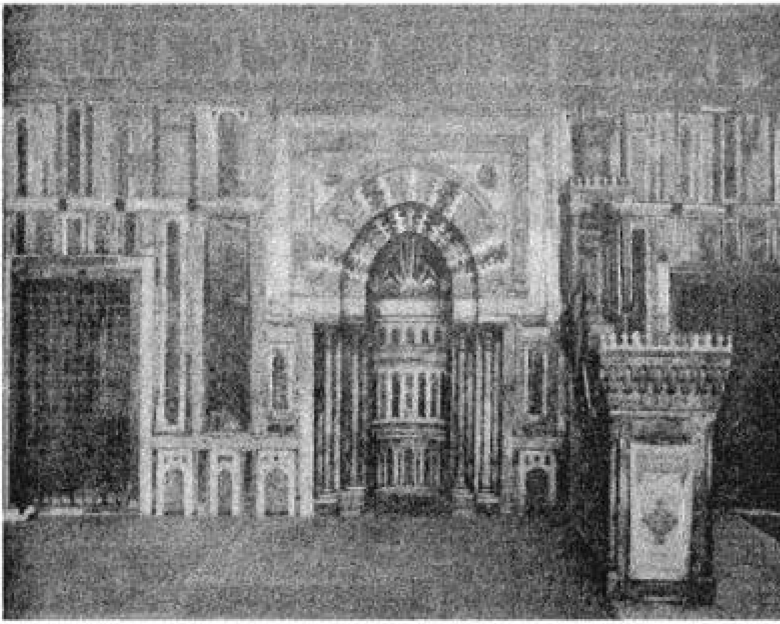


قبة مدرسة السلطان حسن والمئذنتان من الخارج
(تصوير لجنة حفظ الآثار)

غاية فى الجمال ، كانت فى الغالب مبعث الوحى لنساج الطنافس فى القاهرة فى العصور الوسطى (١)

أما الزوايا الاربع لهذا الفناء ففيها مساكن بعضها فوق بعض ، شيدت ليقطنها الاساتذة والطلبة الذين كانوا يعلمون ويتعلمون فى هذه المدرسة بكلياتها الاربع : الكلية الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية . ولقد جاء ظهور المدارس فى الاسلام متأخرا نوعا ما ، لان مجالس العلم كانت تعقد فى المساجد، وظلت كذلك حتى اذا ما اتسعت دائرة العلوم وتغيرت طرق التعليم ، أحس الناس أن المناظرة والجدل قد يخرجان بالطلاب والاساتذة أحيانا عن حد الاحترام الواجب للمساجد ، فرأوا أن يختصوا التدريس بمكان خاص ، فظهرت المدارس الاسلامية لاول مرة فى مدينة نيسابور عام ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) على حد قول

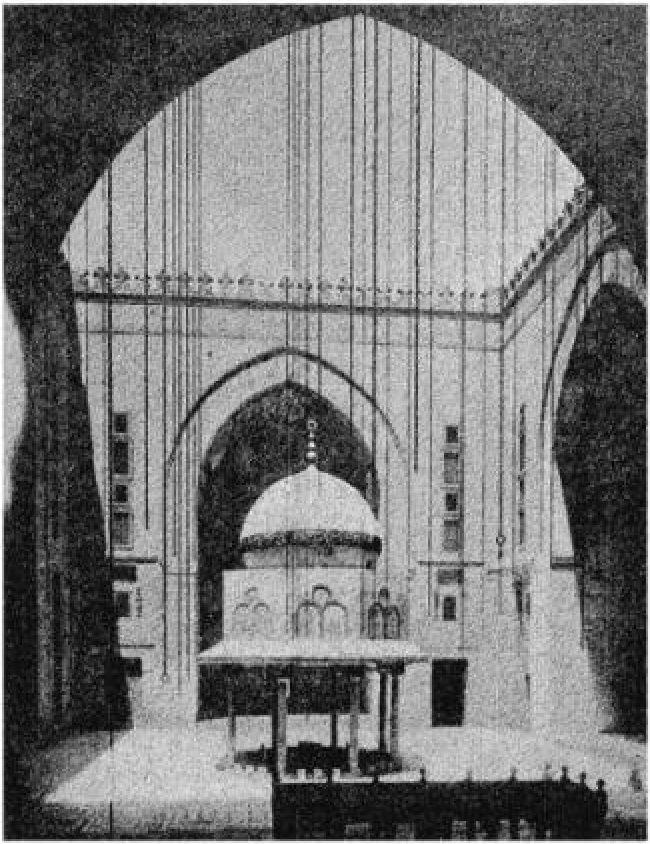
(١) راجع البحث الخاص بطنافس القاهرة فى العصور الوسطى فى عدد الهلال الذى ظهر فى فبراير سنة ١٩٤٣



جانب من الايوان القبلى يبدو فيه المنبر الرخامى والمحراب
(تصوير لجنة حفظ الآثار)

المقريزى ، ومن هناك انتشرت فى العالم الاسلامى ، وقد ارتقت على يد الوزير السلجوقى العظيم (نظام الملك) الذى انحرف بها الى ناحية السياسة ، وأحسن استخدامها فى الدعاية للمذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى الذى انتشر على عهده . وقد أدخل نظام المدارس فى مصر صلاح الدين الايوبى الذى سقطت على يديه الدولة الفاطمية

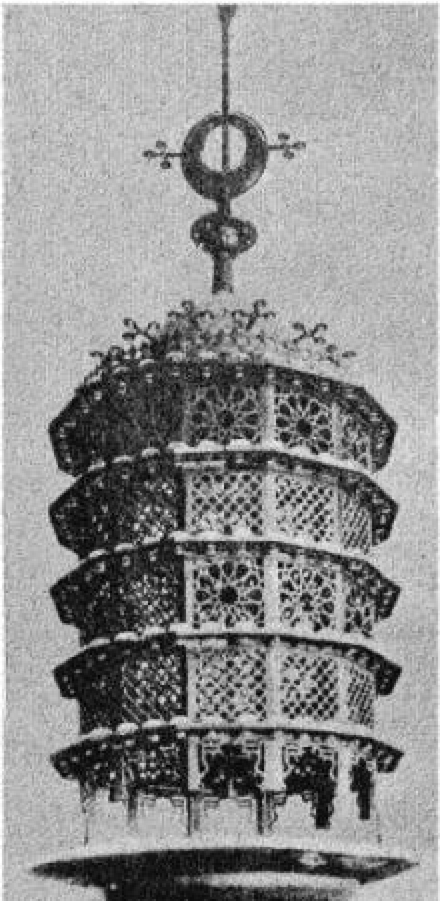
والايوان القبلى هو أكبر الايوانات جميعا وأفخمها ، يزدان بآيات من القرآن الكريم كتبت فى الجص بخط كوفى جميل فوق شريط من الزخرفة العربية منعدم النظير ، وتتدلى من السقف سلاسل طويلة كانت فيما مضى تحمل القناديل الزجاجية المزخرفة بالمينا، التى تنطق بمهارة الصناع وعبقرية الفنانين ، وقد نقل ما وصل الينا منها الى دار الآثار العربية . ونشاهد فيه المنبر الرخامى الجميل الذى يجاوره من اليمين باب من الخشب المصفح بالنحاس المنزل بالذهب يدهش العقول بزخارفه الهندسية والنباتية ، ويجاور المنبر من اليسار محراب أبدع الفنان فى زخرفته ، والى يسار المحراب باب آخر كان فى أيامه الاولى شبيها بالباب السابق ، ولكن عبثت به يد الزمن فضاعت كسوته النحاسية . ويفضى هذا الباب الى حجرة مربعة زينت جدرانها برخام مختلف الالوان وزخارف غاية فى الاتقان ، ويتوجها طراز من الكتابة النسخية يتضمن تاريخ الفراغ من البناء ، وتغطى



فناء مدرسة السلطان حسن وتبدو فيه مساكن الطلبة والأساتذة وعقد الايوان البحرى وسلاسل القناديل
(تصوير لجنة حفظ الآثار)

الغرفة قبة شاهقة فى جوانبها مقرنصات تسترعى النظر بجمالها الفائق ، والى اليسار ترى كرسيا لوضع المصحف الشريف عليه مصنوع من الخشب المطعم بالعاج والابنوس يعتبر آية من آيات النجارة العربيـة الدقيقة ، وهو أقدم كرسى من نوعه فى مصر ، ويتوسط هذه الغرفة قبر أعد لكى يكون المثوى الاخير للسلطان الذى أسس هذه المدرسة العظيمة ، والذى أبت عليه همته أن يعدل عن إتمامها عند ما تبين له جسامة النفقات اللازمة لها خشية أن يقال ان سلطان مصر غير قادر على اتمام بناء شرع فى اقامته

ترى من هو السلطان حسن الذى خلع اسمه على هذا الاثر الرائع ؟ لو ذهبنا الى كتب التاريخ نسألها الاجابة عن هذا السؤال ، لاعطتنا عن عصر المماليك الذى عاش فيه هذا

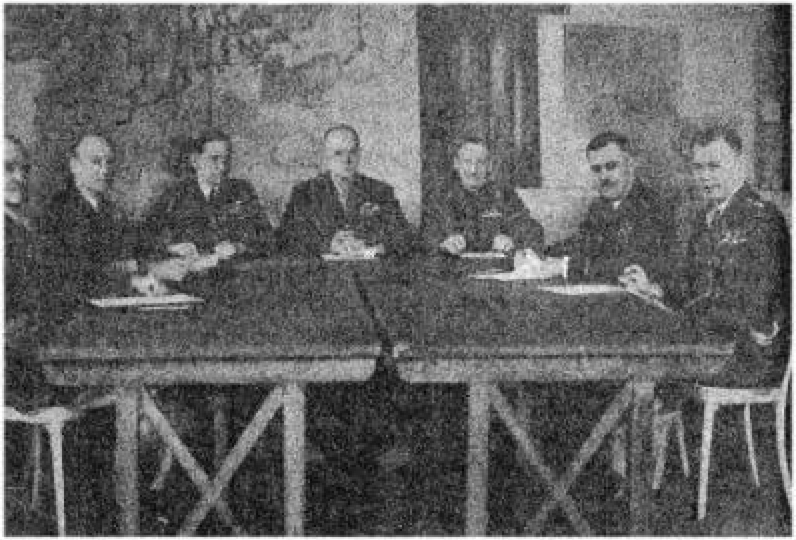


ثريا من النحاس المخرم مزينة بأشكال هندسية مختلفة معلق فى أسفلها صينية منقوش عليها جامات باسم السلطان حسن

السلطان صورة تبعث الحزن فى الفؤاد قوامها الظلم والفوضى، وحشوها المثالب والمآخذ، وسداها ولحمتها المطامع الشخصية وفساد الخلق. ولوجدنا أنها خصت السلطان حسن ـ سابع أبناء الناصر محمد بن قلاون ـ بسطور قليلة نخرج منها بأن هذا السلطان الذى بلغ مجموع مدة حكمه أحد عشر عاما تقريبا قد ولى الحكم بمؤامرة وعزل عنه بمؤامرة وعاد اليه بمؤامرة، ثم أقصى عنه بمؤامرة، وانتهت حياته على صورة لسنا الى الآن منها متأكدين، ولا ندرى أين جثمانه الذى أعد له هذا القبر العظيم. وفى الحق ان الانسان تتملكه الدهشة عندما يقرأ تاريخ هؤلاء السلاطين من المماليك، ثم يعود فيشاهد آثارهم الرائعة

هذه المدرسة التى بدأت عمارتها فى سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) وانتهى العمل منها بعد وفاة مؤسسها السلطان حسن بسنتين أى فى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) هى فى الواقع متحف للفن الاسلامى، نرى فيه أمثلة رائعة لفنون العمارة والصناعة والزخرفة الاسلامية كما تتجلى فى الحجر والجص، والرخام والخشب، والعاج والزجاج، والأبنوس والنحاس

محمد عبد العزيز مرزوق



فى مبنى خاص بلندن ، يجتمع هؤلاء القواد لوضع الخطط الخاصة بغزو أوربا وفتح الجبهة الثانية ، من اليسار : الجنرال برادلى ، الأميرال سير برترام رامسى ، مارشال الجو سير آرثر تيدر ، الجنرال إيزنهاور ، الجنرال مونتجومرى ، الجنرال مالورى ، الجنرال بيدل سميث

لندن : مركز قيادة الجبهة الثانية

يقوم فى إحدى ضواحى لندن مبنى لا يتميز فى ظاهره عما حوله من المبانى إلا بهذين الجنديين الواقفين ببابه شاكى السلاح ، وأحدهما فى لباس الجنود الانجليز وثانيهما فى لباس الجنود الأمريكيين . . أما فى داخله فتوضع الخطط لأكبر معركة شهدها تاريخ البشر كما يتنبأ ويقرر مستر تشرشل . تلك هى معركة « الجبهة الثانية » التى ستنزل اليها قريباً القوات البريطانية والأمريكية فى أرض أوربا



يعد الآن العتاد الحربى للجبهة الثانية من دبابات ومدافع وسيارات وغيرها ، فى الجزيرة البريطانية تهيباً للغزو . وترى ألوف الدبابات فى مكان ما فى انجلترا ، معدة للعمل ...



في القطار الخاص الذي وضعته الحكومة البريطانية تحت إمرة الجنرال مونتجومري ، نراه يطالع بعض الأوراق في مكتبه ، حيث يستطيع الاتصال بجنوده بالتليفون

وفي هذا الحي البسيط يجتمع نفر من أعظم قواد العصر الحديث . منهم بطل تونس ايزنهاور ، وبطل العلمين مونتجومري ، ومارشال الجو تيدر

ولا شك أن جانباً كبيراً من هذه المعركة العظمى واقع على عاتق هذا الجندي البريطاني الفذ ، برنارد مونتجومري ، الذي أثبت في هذه الأيام أنه ليس قائداً عظيماً فحسب ، بل بطلا شعبياً ذائع الصيت كذلك ، وفي هذا يقول بعض كتاب انجلترا إن مونتجومري غدا اليوم الرجل الثاني في بريطانيا بعد زعيمها الأول تشرشل. فقد أدرك هذا الرجل أن « العنصر المحارب » في الجيش يتوقف على مدى الثقة المتبادلة بين جنود الجيش وقائده الأعلى ، فراح يبث هذه الثقة في جنود بريطانيا وأبنائها جميعاً ، وراح يوثق الصلة بينه وبين أولئك الذين سيأتمرون بأمره غداً في أرض أوربا وفي وجه عدوهم اللدود

ولهذا وضعت الحكومة البريطانية قطاراً خاصاً يقوده مونتجومري ، ليتجول به بين معسكرات الجنود وثكناتهم في أرجاء بريطانيا ، حيث يتحدث اليهم عن المعركة القادمة وما تقتضيه من دم الجندي ، وعرق العامل ، وتفاني القائد ، وبذل الناس جميعاً . فهو يستقل هذا القطار الذي يضم ما يتعلق بالمعركة من الخرائط والرسوم ، وعدداً من المكاتب وأجهزة اللاسلكي صباح كل يوم متجهاً به إلى ناحية من نواحي انجلترا ، حيث يجتمع بجنوده فيخطبهم ويحدثهم ويبث فيهم روحه وجرأته ، بل حيث يخطب في تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات وعمال المصانع وزراع الحقول ، وكل أولئك لابد من مساهمتهم جميعاً لتخرج بريطانيا من هذه الحرب ظافرة بحريتها ، مهيئة هذا العالم كله لأن يكون مكاناً آمناً للديموقراطية الصحيحة

ساعة مع ستالين

للصحفى الامريكى رالف انجرسول

> « يبدو جوزيف ستالين لمن يراه أول مرة كما يبدو فى صوره تماماً : وجهاً جامداً لا تستدل منه على شىء مما يجيش به تفكيره وقد أمضيت شهراً فى روسيا ، وهذا الوجه يطالعنى أينما كنت ، بارزاً فى كل مكان دون أن أستطيع أن أتبين به شيئاً مما ينطوى عليه عقل هذا الرجل من أسرار . وهو أكبر سناً مما يبدو فى صوره حتى لقد ارتسمت فى وجهه خطوط الشيخوخة وتجاعيدها وبشرته أسمر مما يظن من لم يره ، ولكنها سمرة تكسبه جاذبية خاصة وقد كان شعر شاربه ورأسه حالك السواد فى أيام شبابه ، أما الآن فقد وخطه الشيب الأبيض ، إذ يبلغ الآن الثالثة والستين »

أمضيت فى موسكو ثلاثة أسابيع ، وقبل أن أغادرها بيوم جاءنى من الكرملين ما ينبئنى أن أذهب لمقابلة جوزيف ستالين

والكرملين أضخم بناء وأفسح أرضا مما تدل عليه رسومه . وهو ليس بمبنى واحد ، بل هو قطعة من الارض مسورة بأسوار تعلو علو طابقين من البناء ، وتقوم عليها تسعة عشر من الابراج . وتشق هذه الارض شوارع متسعة ، وتتوسطها ميادين فسيحة ، تفصل بين مبان شتى مؤلفة من ثلاث وأربع طبقات ، ومن عدد من الكنائس العتيقة ذات المآذن والقباب الشامخة

ويقوم ضريح لينين خارج هذه الاسوار الى الشمال من المدينة ، وفى مواجهة الميدان الأحمر حيث يخطب ستالين ويعرض الجيش الاحمر فى أعياد السوفييت . وينفتح باب الكرملين تحت قوس كبير يعلو هذه الاسوار . ويقوم بالباب خمسة أو ستة من الحراس. فلما بلغتهم السيارة التى أركبها هرول اليها أحد الضباط وفتح بابها . وأرى أن أذكر هنا أن الروس لا يعترفون بأن فى جيشهم فئة اسمها فئة الضباط ، بل يقولون ان هذا من شأن جيوش البلاد الرأسمالية ، أما الجيش الروسى ففيه بدلا من الضباط « مشرفون »

وركب الضابط ، أو المشرف ، سيارة ، تبعتها سيارتنا فى سرعة مسرفة ، الى أن وقفنا أمام مبنى يرتفع عن الارض بضع درجات ، مكسوة بسجادة حمراء ، وعلى رأسها مشرف آخر أسرع للقائنا

وكان من وراء الباب الى اليمين مصعد صغير ، دلفت اليه ومعى هذا المشرف ، فارتقى بنا الى الطابق الثانى . وهناك شاهدت ما سبق أن شاهده ووصفه لى كثير ممن قابلوا ستالين ، أعنى ذلك الممر الضيق المرهوب الذى يرتفع سقفه ارتفاعا شاهقا غريبا

وتحدث المشرف الى نفر من زملائه قليلا ، ثم دفع بى الى غرفة الانتظار . ولم أكد

أجلس حتى جاءنى موظف ضئيل الجسم ، وقال لى بالانجليزية : « ستقابل الرفيق ستالين بعد بضع دقائق . وسأقوم بمهمة الترجمة » وبعد هنيهة دخل على مشرف بادن الجسم فارع القوام ، فنهض الموظف المترجم وفتح بابا فسيحا وأشار الى أن أتقدم

يؤدى هذا الباب الى غرفة مستطيلة جدا ، فى الجانب الايسر منها منضدة سوداء لا يزيد طولها عن ثلاث أقدام ، والى جانبها صف من المقاعد البسيطة ، وفى الجانب الايمن مكتب بسيط لا تعلوه كتب ولا أوراق . أما جدران الغرفة فعارية من كل شيء ، ولست أذكر أنى لمحت عليها سوى صورة لينين ، ومجموعة من صور عن الاعمال الحربية فى روسيا

وكان يجلس الى طرف المنضدة السوداء المنزوية فى الجانب الايسر من الغرفة الرجل الذى جئت لاقابله . كان يجلس الى طرف المنضدة لا الى وسطها ، وكان يجلس ساكنا لا يقرأ ولا يكتب شيئا . وتقدم الموظف المترجم وأنا من ورائه مسرعين حتى بلغنا المنضدة ، فرأيت ستالين وقد وقف ونحن متجهان اليه . وتصافحنا . وقدم المترجم مقعدا جلست عليه ووجهى الى وجه ستالين ، والمائدة بيننا وقد توسطها الموظف المترجم

وكان أمام ستالين بضع قصاصات من الورق الرقيق ، لعلها لا تزيد على سبع قصاصات أو ثمان . ولم يكن ثمة شيء آخر سوى منفضة للسجائر ملأى بأعقابها ، وسوى صندوق من السجائر ممتلىء الى منتصفه . وكان ستالين يدخن سيجارة فى اثر سيجارة ، ويستنفد من كل منها ما فيها من طباق ، والسجائر الروسية ثلثاها من الورق وثلثها الاعلى من الطباق

وقد لقيت ستالين فى ظرف من تلك الظروف التى لا يسمح فيها الساسة المسئولون بأن ينقل كلامهم نقلا كاملا ، بل يسمحون فحسب بأن يشار الى الموضوع الذى يدور عليه حديثهم والاتجاه الذى يشيرون به . وقد حرص ستالين على أن يذكرنى بذلك

لقد كان حديث ستالين ، كما نقله الى المترجم ، حديثا جميلا حقا . ولست أدرى هل حديثه بالروسية الى زملائه ورجاله هكذا أم لا ، فكثيرا ما تكون مهمة المترجم أن يزخرف الحديث ويزوره بالتجميل ، ولكن حديثه على أى حال يمتاز بالايجاز ، والوضوح ، والكلام فى صلب الموضوع ، دون مداورة أو احتيال

وكنت قد وعدت من هيأوا لى هذه المقابلة الا اسرف فى السؤال وأطيل فى الحديث . فان وراء الرجل حربا كبرى يديرها بنفسه . فلما مضى علينا فى الحديث خمس عشرة دقيقة قلت للمترجم أن يقول لستالين انى وعدت بأن أكون حريصا على وقته وانى لا أريد أن أخلف وعدى . فتبسم ستالين ، وكانت هذه أول مرة يبتسم فيها . وكان تأثير هذه الابتسامة عجيبا حقا . فقد تغيرت ملامح وجهه كل التغير ، واستحالت تلك السمات الجامدة ، الهامدة ، المتصلبة ، الى سمات حية حارة ، معبرة كل التعبير . واستفاضت الابتسامة فى انحاء وجهه حتى غدت ضحكة عريضة وهو يقول : « اننى لست مشغولا كما تتصور . فدعنا نمض فى حديثنا » . ومضينا فى الحديث بعد ذلك ساعة كاملة

وتكلمنا عن الحرب ، وطفنا فى حديثنا بجميع جبهاتها ، وتناولنا به شتى مشاكلها

وأحسست فى أثناء الحديث احساسا غريبا ، فانى لا أعرف من اللغة الروسية سوى كلمات قلائل . ولكنى شعرت أن كثيرا من فقرات الحديث الطويلة لا تحتاج الى مترجم ينقلها الى الانجليزية . لقد خيل الى أنى أفهم مدلول ألفاظه رغم أنى لا أعرف معناها . ولم يكن هذا صحيحا بطبيعة الحال ، ولكنى أحسست هذا ، لانى رأيت ستالين حين يتحدث فى أمر يهمه أو يلذ له ، لا يتكلم بلسانه فحسب ، بل يعبر كذلك بسمات وجهه تعبيرا أبلغ من الكلام . والحق أنى لم أشهد فى حياتى وجها معبرا كوجه ستالين . وهو يستطيع أن يقول « نعم » أو « لا » دون أن ينطق لسانه باللفظتين ، بل بما يرتسم على وجهه من تبسم أو تجهم . ذلك ان هذا الرجل لا يفصل بين شعوره وكلامه ، بين ما يجيش فى صدره وما ينطق به لسانه

وكثيرا ما تتساءل عند ما تقابل رجلا مهما عن السر فى نجاحه، اذ لا تتبين لك بالوضوح الوسيلة التى أثر بها فى أنداده فبزهم جميعا ، وفى اتباعه فانقادوا له مسلمين . ولكنك لست فى حاجة الى هذا التساؤل عن ستالين . فانه لا يبدو أعلى من أى رجل فى الاتحاد السوفيتى بمقدار رأسه وكتفيه فحسب ، لا ، بل بقامة رجل فارع القوام . وأى رجل يفوقه ذكاء وبصيرة ، وعلما وثقافة ، وحزما وارادة ؟

وقد كان حديثه مثيرا كل الاثارة ، لقد نفذت الى أعماق قلبى اجاباته المستقيمة المباشرة عن كل ما ألقيت اليه من أسئلة ، ودقته الكاملة الوافية فى التعبير عن كل ما يختلج فى ذهنه وقلبه من آراء ومشاعر ، وعما يتألق فى حديثه من صادق الادراك وخالص العقيدة

وكان طوال حديثه يرسم بالقلم الرصاص خطوطا ودوائر على ما أمامه من قصاصات الورق ، فلما انتهى الحديث كانت هذه القصاصات قد اسودت بما خط عليها من خطوط ورسوم . وقد تناول احداها ورسم لى رسما بيانيا عن الحرب الدائرة . وكان سريعا فى رسمه مشيرا بالحروف الروسية الى القوات المتحاربة بالحروف الاولى من أسمائها . (الراء عن روسيا ، والجيم عن ألمانيا ، والالف عن أمريكا وهكذا)

وأظن أن أحدا دخل الغرفة فى نهاية الحديث وان كنت لم أتنبه اليه . فقد كنت مستغرقا فى الاصغاء الى ستالين وفى تأمل سمات وجهه المعبرة ، فلم أدر وجهى فى أية ناحية من نواحي الغرفة . ولكنى أظن أن ثمة من دخل الغرفة ، فقد سكت ستالين برهة قصيرة ، ثم نهض ايذانا بالانصراف . ونهضنا فتقدم الى مصافحا . ولما هممت بالتراجع رأيت بابا يصل هذه الغرفة بغرفة أخرى تتوسطها « كرة أرضية » كبيرة

وسار بى ستالين الى الباب ، فرأيت قواما أميل الى القصر والهزال منه الى الطول والبدانة ، ورأيت كتفين منحنيين وكأنهما كتفا رجل أمضى سنى حياته منكفئا على مكتب . وتقدمنا الى الباب فعاد يتحدث حديثا دام بضع دقائق أخرى . ثم سلم مودعا بعد أن طلب الى أن أقرىء السفير الامريكى سلامه ، وبعد أن رجا لى رحلة طيبة موفقة

(عن مجلة ورلد دايجست)

حديث الاشجار

بقلم الأستاذ رشوان احمد صادق

لقد كان لارزة لبنان المهداة من القطر الشقيق الى حضرة صاحب الجلالة الملك شأن عظيم فى المجتمع المصرى ، فقد ظلت حديث الاندية المصرية والمجتمعات الوطنية ردحا من الزمن غير قصير . وتهامس القوم وتساءل الناس عن الحكمة فى نقل شجيرة من قطر الى آخر ، مع أن مصر غنية باشجارها وحدائقها المنسقة أبدع تنسيق ، وحديث الاشجار لذيذ لطيف ولكنه ليس بجديد

فقد كان سكان ساحل دلماسيا فى جنوب أوربا يعتقدون أن بعض اشجار الخوخ والبلوط وغيرهما موهوبة للاشباح ، وأن كل من قطع احداها سقط صريعا وان أفلت عاش عليلا منغصا ، وان داخل أحد الحطابين الشك فى أن الشجرة التى قطعها قد تكون احدى هذه الاشجار ، فعليه أن يقطع رأس دجاجة حية على حطام الشجرة المقطوعة بنفس الفاس الذى استخدمه فى قطع الشجرة ، وهو يعتقد أن مثل ذلك العمل يحميه من سوء الطالع

كذلك بعض الاشجار التى تغطى ثمارها وبرة حريرية فهى موضع احترام الاهالى فى غرب افريقية من منطقة السنغال حتى النيجر لانهم يظنونها مأوى روح من الارواح . كما أن بعض السلاف يسمون شيطان الغابة باسم هتتن Huntin ولذا يحيطون الاشجار التى يسكنها بزعف النخل ، وكانوا يقدمون له التضحيات من الدجاج والبشر الذين يوسق قيادهم فى جذع الشجرة . والشجرة التى ترى على هذا النمط لا يجوز قطعها . فاذا أقدم حطاب على قطع احداها حتى ولو كانت من الاشجار التى لم يباركها هتتن هذا ، فعليه أن يطهر نفسه مما قد ينسب اليه من تدنيس الاشياء المقدسة ، وذلك بتقديم التضحيات من دجاج وزيت نخيل ، والتوقف عن تقديم هذه التضحية يعتبر جرما عظيما لا عقاب له الا الموت

وكثيرا ما احترم المصريون القدماء أشجار الجميز التى تنمو على انفراد فى نقط مبعثرة على حافة الاراضى الزراعية ، لبقائها نضرة رغم نموها فى أراض قحلة مجدبة . وكانوا يظنون أن الروح الذى يمد هذه الاشجار الجميلة بالحياة ، كامن فى مكان خفى عن الانظار، وأنه أحيانا يظهر رأسه ، وأحيانا جسمه بأجمعه من داخل الجذع، ولكنه سرعان ما يختبىء ثانية . وكانوا يقدمون لهذه الاشجار الكروم والخيار والخضروات والماء الذى يضعونه فى أوان فخارية ، مثل الاباريق ، فيرتوى منها المارة وقت الايلولة ، ويحيون تلك الجرعة بصلاة قصيرة

كما أن سكان الكنغو فى أواسط افريقية يضعون جرات ملأى بالخمر المستخرج من منقوع لب شجر النخيل عند جذع شجر مخصوص ، ويصرحون بانهم يقصدون بهذا العمل مساعدة الشجرة على الارتواء اذا اشتد بها العطش

وفى قرية تركية فى شمال سورية كانت توجد شجرة بلوط قديمة جدا ، كان يقدسها الاهالى ويطلقون لها البخور ، ويقدمون لها العطايا والقرابين كما لو كانت مكانا محرما

وفى باتاغونيا بين ريو نجرو وريو كلورادو توجد شجرة قديمة قائمة على انفراد ، ساقها معقد خاو . وهى موضع احترام الهنود ، فيجعلونها كمسكن روح ، ويعلقون بها العطايا من أحزمة وبطاطين وعباءات وطنية اعتاد هنود امريكا الجنوبية ارتداءها ولذا تظهر تلك الشجرة من بعيد كأنها دكان للملابس القديمة حيث تتدلى تلك الاردية الرثة المعرضة للتقلبات الجوية . وبجوارها هياكل عظمية للاحصنة التى قدمت لها قربانا . ولعل ربط الخيط فى بوابة المتولى بالقاهرة لرفع الكروب يفيد هذا المعنى

كما أن جماعة الكايانز سكان أواسط برنيو يعتقدون أن بعض الاشجار التى تنتج مادة سامة تنتسب الى الارواح . وهذا السم يستخدمونه فى تسميم حرابهم ، ويسمون الروح الذى يتحكم فى تلك الاشجار تاسم Tasom وهو روح عنيد من الصعب ارضاؤه

وفى جزائر لويس توجد أشجار ضخمة يقيم الاهالى تحتها أعيادهم ، ويعتقدون انها مسكن للارواح التى يخصصون جزءا من الاحتفال لها ، كما ان أغصانها الحاوية ملأى بعظام الخنازير والانسان

وبين مرتفعات الكنجرا فى البنجاب يضحون بفتاة فى كل عام لشجرة أرز ، وقد قطعت منذ زمن غير بعيد

ولا يزال بعض الالمان يطوقون شجر الفاكهة بحبال من القش ، يوضع عليها السجق المجهز للاحتفال فى ليلة عيد الميلاد . ويعتقدون ان تلك العملية تجعل الاشجار تحمل بالثمار . ويقول الشخص الذى يقوم بربط الحبل المذكور « أيتها الشجرة الصغيرة : انى أقدم اليك هدية ، فعليك ان تردى الى مثلها » . ويعتقد هؤلاء القوم ان الاشجار اذا استلمت هدايا فلا بد أنها تمنح هدايا أيضا بالتالى . وتؤدى تلك العملية فى أى وقت ما بين ليلة عيد الميلاد والليلة الثانية عشرة من السنة الجديدة

وقد استنتج من يقدسون الاشجار أنه ما دامت الحياة تدب فى الشجرة اذن فهى تحس وتشعر ، ولذا تراعى الشفقة عند قطعها كي لا تتألم ، ويزعمون أن شجرة البلوط عند قطعها تحدث صوتا خاصا بمثابة الصياح والتأوه ، وأن ذلك الصوت قد يسمع على بعد ميل

كما أن جماعة الاجيواى قلما يقطعون الاشجار النضرة ، معتقدين أن قطعها يسبب لها آلاما . ويصرح رجال الطب عندهم انهم سمعوا عويل تلك الاشجار وهى تحت الفأس

ولا يزال يعتقد بعض الفلاحين المتقدمين فى السن فى بعض جهات النمسا أن الغابات تدب الحياة فى أشجارها ، كما انه لا يصح فصل أليافها دون عذر وجيه ، وانهم سمعوا من

آبائهم أن ما تشعر به الشجرة عند قطعها لا يقل عما يعانيه الانسان من ألم عند جرحه ، ولذا يحرصون على طلب العفو من الشجرة عند قطعها ويسألونها المغفرة

وفى جزائر لوزن بالفلبين يشترك الاهالى فى تعلم الاغانى عند قطع الاشجار ، ومن أقوالهم فى ذلك : « لا تكن صعبا يا صديقى اننا نقطع ما قد أمرنا به » ويرون فى ذلك الخلاص من كراهية الروح الذى يسكن الشجرة التى قطعت والذى يخشون زيارته التى يعقبها المرض

كذلك جماعة التاجالوج فى جزائر الفلبين عند ما يقطعون زهرة كانوا يستأذنون روح الزهرة الذى يسمونه نونو ، كما يستسمحونه عند قطع أية شجرة مبررين عملهم أمامه بقولهم ان الكاهن هو الذى أمرهم بذلك

وفى شمال هضبة الحبشة يخاف الاهالى قطع شجرة خضراء مثمرة كى لا يعرضوا أنفسهم الى لعنة الله الابدية ، تلك اللعنة التى تسمع فى صوت الشجرة عند ما تخر صريعة على الارض . واذا وجد من لديه الشجاعة الكافية لقطع شجرة ، فانه يخاطبها بقوله : « جعلت لعنتك كامنة فى ثناياك ، والا فانه يدعى بأن فيلا او وحيد قرن اصطدم بها فاسقطها

وبين جماعة الهس فى توجولاند فى غرب افريقية اذا أراد رجل ان يجهز نبيذا من النخل ، فانه يستأجر الحطابين لقطع الاشجار التى يتطلبها . وهؤلاء يذهبون بدورهم الى الغابة حيث يقيمون أكلة على الارض ، ويخاطبون الغابة بقولهم : « هذا غذاؤك . ان الرجل العجوز قائم فى منزله وقد ارسلنا لقطع الاشجار . نحن لازلنا صغارا لا نعلم شيئا . لقد ارسلنا الرجل العجوز القائم فى المنزل » . وهكذا يحاولون ارضاء الروح الذى يملك الغابة خشية أن يفتك بهم

وفى اقليم الكارو فى مستعمرة الكاب اذا أراد أحد الاهالى قطع شجرة فانه يعتذر لها ، واذا مر بمكانها تخيلها تبكى ، عند ذلك يسرع الى مواساتها برش دماء دجاجة على ما تبقى من جذعها

وفى أواسط افريقية تعتقد جماعة الباسوجا انه اذا قطعت شجرة فان الروح الذى يسكنها يصبح غاضبا ، وربما تسبب فى موت رئيسهم وأسرته . ولكى يتحاشوا الوقوع فى مثل هذه الكارثة ، فانهم يستشيرون رجل الطب قبل الشروع فى قطع أية شجرة . فان كان الطبيب ماهرا وصرح بذلك ، فان الرجل يهب الشجرة فى أول الامر دجاجة تعقبها عنزة ، وبمجرد أن يضرب أول فأس فى الشجرة فانه يضع فمه فى مكان الكسر ويمتص بعض العصير الذى بداخلها ، وبهذه الطريقة يمكنه أن ينشىء أخوة بينه وبين الشجرة ، وبمجرد انتهاء تلك العملية يقدم على قطع الشجرة ولا حرج عليه

ومن الطقوس التى كان الهنود القدماء يزاولونها عند شروعهم فى قطع شجرة ما . أن الحطاب يضع بعض الحشيش الاخضر على الجزء من الشجرة الذى ستقع عليه أول ضربة من الفأس قائلا : « أيها النبات ادرأ عنها الخطر » ثم يخاطب الفأس قائلا : « أيها

الفأس لا تلحق بها أذى » فاذا ما انتهى من قطع الشجرة سكب على جذعها زبدا سائلا ويقول : « ابتى من هنا . يا سيد الغابة ؟ ابتى بثات الأغصان . هل لنا أن تنمى آلاف الغصون » ثم يدهن الجذع المقطوع ، ويلف حبلا من الحشيش حوله

وكان يظن أن بعض الاشجار تدمى اذا قطعت ، كما أن بعض الهنود كانوا لا يجرأون على قطع بعض النباتات عندهم لانها يخرج منها عصير احمر اللون يعتبرونه دما

وحتى سنة ١٨٥٩ كانت توجد شجرة من نوع الغابات الصنوبرية فى تودرز فى اقليم التيرول ، وكان الاهالى يعتقدون انها اذا قطعت سال منها الدم ، بل وأكثر من ذلك انهم كانوا يظنون أن الحطاب الذى يجرأ ان يغرس أية آلة حديدية فى هذه الشجرة ، فان تلك الآلة لا بد أن ترد الى جسمه فتدخل فيه بالقدر الذى انغرست به فى ألياف الشجرة ، وقد بلغ تقديسهم لهذه الشجرة أنه لا يجرأ أحد ان يجمع الاخشاب والوقود على مقربة منها ، كما أن النزاع والعراك بجوارها جرم يعاقب عليه طبيعيا . وكثيرا ما تقف الخصومات والمشاجرات اثر تخيل ذلك الهمس الذى يوحى الى المتخاصمين ألفاظا فحواها « لا تفعلوا ذلك ان الشجرة المقدسة هنا »

ويقال ان جنود يوليوس قيصر الذين أمرهم بقطع أحراش البلوط المقدسة فى مرسيليا يذكرون ان الفؤوس كانت ترتد اليهم ، فيجرحون أنفسهم

وفى اليابان يذهب رجلان الى احدى الحدائق ، فيصعد أحدهما على شجرة ويبقى الثانى بجوار جذعها ومعه الفأس ، ويسأل هذا الاخير الشجرة عما اذا كانت ستعطى محصولا جيدا فى العام المقبل ، مهددا بقطعها ان لم تحقق رغبته ، عند ذلك يسرع الرجل الذى صعد الشجرة بالرد نيابة عن الشجرة انها ستثمر كثيرا . كذلك الحال فى جزر الهند الشرقية

ويقال ان بعض سكان جنوب أوربا من السلاف والبلغار يقومون بعمل يشبه ذلك ليلة عيد الميلاد ، وفى أوكريا احدى قرى صقلية تقام مثل تلك العملية غالبا يوم السبت

وقد سمعت بمثل تلك الفكرة فى المجتمع المصرى ، فاذا لم ينتج الحمام تظاهر صاحبه برغبته فى بيعه أو ذبحه معتقدا انه لا محالة ينتج بعد ذلك

كذلك تقام فى ارمينية حفلة تشبه هذه فى أيام الجمعة التى تعتبر من الايام السعيدة فى نظرهم . وفى ابروزى فى شرق ايطاليا تقام تلك الحفلة قبل شروق الشمس فى صباح يوم سان جن (منتصف الصيف) حيث يهدد المالك أشجاره البطيئة الثمار ، فيدور حول كل ثلاث مرات مكررا تهديده ووعيده اياها ، ثم يضرب ساقها برأس فأس

وفى جزائر لسبوس فى اليونان عند ما تتوقف شجرة برتقال أو ليمون عن الانتاج ، يضع صاحبها أحيانا مرآة أمام الشجرة ، ويرفع فأسا فى يده ، ويقف خلف الشجرة ، ثم ينظر الى الصورة المنعكسة فى المرآة متظاهرا بأنه سيلقى الفأس عليها قائلا بأعلى صوته وكله حماسة : « اثمرى والا قطعتك »

وفى استونيا اذا نما الكرنب نموا غير طبيعى ، يذهب المزارع الى الحديقة قبل طلوع الشمس مرتديا قميصه حاملا معه السكين المعد لقطع الحشائش ، ويلمس بها النبات المذكور ، متظاهرا انه سيقطعه ، ويعتقد أن النبات يعود الى نموه الطبيعى عقب تلك العملية

وفى الملايو اذا تدلى عنقود من ثمار النخل قد تسقط بعض وحداته على الارض ، فاذا ما وطىء أحد الاهالى احداها صاح بأعلى صوته مقلدا صوت الخنزير البرى كيما ينجو قدمه من الكدم والفناء

وجماعة الجاليلارى فى الملايو شديدو الحرص على هذا العمل . اذ انهم لاحظوا ان الخنازير البرية مغرمة بهذا الثمار ، لدرجة أنها اذا ما لمحت تلك الثمرة على الارض أسرعت الى التهامها ، ولما كانت أقدامها خالية من الكدم قوية ، فقد استنتجوا من ذلك أن تقليد المرء لصوت الخنزير البرى قد يغرر بالشجرة ويحملها على الاعتقاد بأن صاحب الصوت هو خنزير برى وليس بشرا ، وعند ذلك ينجو قدم ذلك الشخص الذى وطىء الثمرة من الكدم ، كما هو الحال مع الخنزير البرى الذى تعتبره الشجرة صديقا لها فلا تلحق به أى ضرر اذا ما وطئت أقدامه ثمارها

وفى جزيرة جاوه نوع من النبات حريف الطعم لا يأكله الانسان ، فاذا اشتاقت اليه احدى النساء الحبليات ، فمن الواجب على الشخص الذى يذهب لجلبه أن يصيح بأعلى صوته مقلدا الخنزير البرى الذى يتخذ هذا النبات طعاما له ، حتى يحمل النبات على الظن بأن من يقطعه خنزير وليس بانسان ، عند ذلك يخفف النبات من حدة طعمه . وبها نبات آخر تأكله النسانيس فاذا ما اكله طفل عليه أن يقلد صوت النسناس

ومن نباتاتها ما يتخذ الاهالى من مسحوق قشره سما قاتلا للحيوانات المفترسة مثل النمر والخنزير البرى ، ويعتقدون أن هذا النبات لا يضر الانسان . وعلى المرء الذى سيقوم بجمع هذا النبات أن يتبع قواعد خاصة حتى لا يفقد هذا النبات خاصية السم للحيوانات المذكورة دون الانسان بمجرد لمسه . فعليه ألا يقترب من هذا النبات الا وهو عارى الجسد زاحفا على يديه ورجليه ليوهم النبات أنه حيوان كاسر وليس بشرا . ولكى يقوى ذلك الوهم عند النبات عليه أن يعض ساق النبات كما يفعل الحيوان الكاسر . ومع ذلك رغم كل هذه الاحتياطات فانهم لشدة اعتقادهم فى حيوية ذلك المسحوق بعد تجهيزه ، عليهم ألا يقربوا منه جثة ، وألا تمر جثة محمولة أمام المنزل الذى يوضع فيه المسحوق ، اذ لو رأى المسحوق الجثة أو شعر بمرورها ، أعلن أنه أدى وظيفته وعند ذلك يفقد مفعوله كمادة سامة مهلكة

رشوان احمد صادق

B.A. فى الجغرافيا والتاريخ والاجتماع

قصـــة بوذا

الأمير الذي صار حكيما

مضى على قيام الدين البوذى أربعة وعشرون قرنا ، وبلغ اليوم عدد معتقيه خمسمائة مليون نسمة ، وغدا الآن الدين السائد فى أواسط آسيا وفى كثير من أرجاء الصين ، والهند ، واليابان ، وهضبة التبت ، وجنوب سيبريا

فما قصة بوذا الذى أنشأ هذا الدين ؟

ان قصة مولده ، وحياته ، ومماته ، نسيج من الحقيقة والخيال ، فتحف بها استار من الخرافات والاساطير ، تنتثر فى ثناياها بعض الوقائع والحقائق

ولكنه على أى حال كان شخصا من شخوص هذا العالم ، وقد ولد فيه قبل الميلاد بخمسمائة وستين سنة . وكان اسمه « جواتاما سيدهاتا » ومعناه باللغة الهندية « الرجل الناجح » . وكان أبوه أميرا عظيما من سلالة قوم أشداء محاربين ، وكانت أمه الاميرة الجميلة « مهامايا »

وقد رأى أبوه فى المنام قبل ولادته ببضع سنين رؤيا أقضت مضجعه وبلبلت فكره ، اذ رأى منجما عجوزا ينبئه بأن ابنه لن يكون أميرا عظيما ولن يكون حاكما على أملاك أبيه الفسيحة . ولكنه سيلقى فى حياته بعض آيات وعظات تحمله على أن يلفظ متاع الدنيا وينكر زخرفها ، فيغدو بعد ذلك معلما عظيما وملكا على العالمين جميعا

وسأل أبوه ذلك المنجم عن تلك الآيات التى سيلقاها ابنه ، فقال المنجم : « ان ابنك سيرى فى أربع مناسبات مختلفة رجلا سقيم البدن كثيف البصر ، ثم رجلا مسنا معدما يهيم فى الطرق ضالا شريدا ، ثم ميتا محمولا على الاكتاف ، ثم راهبا منصرفا عن متع الدنيا الى التقوى والزهادة . أما متى يرى ذلك وكيف فلست أدرى من أمره شيئا »

ونهض الامير من نومه فزعا خائفا اذ كان لا يريد لابنه الا أن يخلفه فى الامارة والسيادة على أولئك القوم الذين أخضعهم وسادهم هو وأسلافه منذ أجيال طوال .. فماذا يفعل ؟ لقد أمر رجاله ان يقصوا عن قصره كل رجل مريض ، أو كفيف ، أو مسن سقيم . وكذلك أمر بأن ينفى من بلده كل من فيها من الرهبان ، وبأن توقع عقوبة الموت على من يرى منهم على مقربة من القصر

وأقام الحراس على تخوم ملكه جميعا ، شماليها وجنوبيها ، وشرقيها وغربيها ، لينفذوا ما أمر به ، فلا يدخل ملكه أحد من المرضى أو ذوى العاهات أو أحد من المسنين أو الرهبان . وجعل كل من فى قصره من الخدم والحشم من الشباب الممتاز بقوة الجسم

البقية ...

ووسامة المظهر وحسن البزة ، حتى لا تقع عين الامير منذ مولده الا على هذه المناظر البهية الانيقة

وولد الامير الطفل ، وأمضى طفولته وصباه فى ريق النعيم ورغد الحياة . وتدرب على ألعاب الفروسية من امتطاء الجياد وامتشاق السيوف . وتلقن دروسا فى صناعة الملك وما تقتضيه من مراسيم وتقاليد . وذلك ليكون يوما ما خير خلف لخير سلف فى الامارة والسيادة

وكان كل ما يحيط بالامير يشع منه الجمال والشباب والفتوة ، فشب دون أن يدرى شيئا عما فى هذه الدنيا من مرض وسقم ، ومن عجز وشيخوخة ، ومن موت وفناء .. ومع هذا كان الامير قلقا جزعا . وكان يتأوه دون أن يدرى لتأوهه سببا ولا داعيا

وتزوج الامير فى ربيع شبابه من أميرة ولدت يوم مولده ، فأنجب ابنا أغدقا عليه حبهما صرفا عميقا

وكان كلما خرج الامير فى نزهة أو رحلة تقدمته الرسل والحراس ليبعدوا من طريقه كل مريض أو كفيف أو مسن سقيم ، حتى لا تتراءى له تلك البينات التى قال المنجم انها ستكون بداية حياة ينصرف فيها عن الحكم والامارة الى الورع والزهادة

ولكن كل هذا الاحتياط والتحايل ما كان ليخفى الحق الذى لا بد أن يظهر يوما ما ، وما كان ليبقى الامير فى جهله وغفلته الى الابد . فعند ما بلغ سن التاسعة والعشرين خرج ذات صباح مشرقا بهيجا يبتغى الصيد والطراد ، فوقعت عينه على مظهر عجيب لم تشهده عينه ولم يدر بخلده يوما ما .. لقد رأى رجلا مريضا أعمى ، أوهنه المرض وأسقمه الألم وأحنت ظهره الايام ! فاستولت عليه الدهشة البالغة وأخذ يسائل رفاقه وحاشيته عن هذا المشهد العجيب : عن هذا العمى الذى يحجب عن الانسان ما فى الحياة من بهجة وجمال ، وعن هذا الألم الذى يحل بالمرء فيحيل كل ما فى الدنيا من نعيم وسعادة الى بؤس وشقاوة

ولم يكد الامير يمضى شوطا آخر فى أنحاء الغابة التى جاءها للصيد والقنص ، حتى رأى رجلا مسنا مهدما محطما ، قوست السنون ظهره وأوهنت عظامه ، وهو يضرب فى الطريق ضالا مشردا .. فتقدم اليه الامير يسأله ، فعرف منه لاول مرة فى حياته أن شباب المرء لا يبقى الى الابد ، بل هو رهن سنين قلائل من الفتوة والجمال ، تعقبها سنون من العجز والشيخوخة لا تلبث أن تسلمه الى الموت والفناء

لقد أيقظت هذه المشاهد عقلا ذكيا مرهفا كان راقدا فى الامير طيلة هذه السنين ! لقد ألقته فى عالم جديد من الآلام والاحزان ما كان يدور بخلده أبدا حين كان يحيا فى عالمه القديم الموشى بالسعادة والنعيم ! واذن فقد فكر فى أن ينجو بنفسه مما هى فيه من أوهام وأباطيل ، وفى أن ينفذ الى تلك الدنيا التى حجبوها عنه وأخفوها عهدا طويلا .. ولكنه لم يكد يتقدم فى هذه الدنيا بضع خطوات حتى عرف أن ثمة شيئا اسمه الموت . فقد سار فى غسق الليل الداجى وسط هذه الغابة يتأمل ما فيها من عبر وآيات ، فرأى

تابوتا يشتمل على جدث انسان لا حراك به ، ورأى قوما يحملون هذا الجدث ويلقون به في حفرة في الارض ويهيلون عليه التراب ! لقد كان هذا المشهد سرا عجيبا حقا ، فأمضى الامير أياما وليالي وهو يتأمل فيما رأى ، ويسأل الناس عن مآل هذه الحياة . ولكنه لم يهتد الى ما يطفيء غلة عقله الظامىء الى معرفة هذا المجهول حتى كانت الآية الرابعة التي أنبأ بها المنجم ، فلقي لاول مرة رجلا تقيا زاهدا مترهبا ، فعرف منه أن وراء هذه الحياة حياة أخرى : حياة قوامها الحق الخالد الذي لا سبيل الى ادراكه وبلوغه الا بالورع والتقوى

وعندئذ صاح الامير صيحة من أعماق قلب انبثق فيه النور قائلا : « ان هذه الحياة التي نحياها لا بد أن تنتهي يوما آخر . وان كل ما فيها من المتاع والثراء والرغائب لا يجدي نفعا ولا يغني شيئا . فعلي أن أسعى الى المعرفة وأبلغها . وعلي أن أبحث عن الحكمة وآخذ بها »

وبينما كان القمر السافر البهيج يغمر قصر الملك في موجة فضية من أضوائه المتألقة ، وعند ما كانت حدائق القصر ترسل نفحات من عطرها الذكي وأنغاما من غنائها الشجي كان الامير حانيا على فراش زوجه وولده وهما في نومهما ليلقي اليهما كلمة الوداع الاخيرة .. ومنذ تلك الساعة لم ترهما عيناه ، فقد ترك القصر الى غير رجعة ، ليمارس حياة التطهر والتدين والزهد في متاع الدنيا

وآوى الامير الى جذع شجرة من أشجار التين ، ومعه خمسة من أصحابه التائقين الى الحكمة الزاهدين في الدنيا .. وفي هذا المكان النائي السحيق أمضى ست سنوات طوال يمارس طقوس الدين ويأخذ بأسباب التقى ، محرما على نفسه كل ما في الدنيا من متع ولذائذ ، فارضا على نفسه شتى ضروب الحرمان ، فلا يصيب من الطعام والشراب الا ما يحفظ رمقه ، ولا يضع على جسده من اللباس الا أسمالا تقيه حر الصيف وبرد الشتاء

وكانت أميرة الشر « مارا » تحاول طوال هذه السنين أن تغريه وتفتنه بكل ما تملكه من وسائل الخداع والاغراء ، وأسباب العنف والقوة . ولكنه امتنع عليها جميعا واعتصم منه بزهده وتقاه

وكانت تصيبه من أميرة الشر هذه أكداس من الصخور والسهام ، فلا تلبث اذا مست جسده أن تتحول الى زهور وورود

وأوهنه الجوع والضنى ، فذوى شبابه وذبل جماله ، ولكنه ظل راسخ العزم صلب العود ، مقيما الى جوار شجرة التين يقتات من ثمارها ، ويقول قولته المشهورة : « لن أبرح هذه الارض حتى أدرك الحكمة العليا المطلقة »

وجاءت ليلة من الليالي العصيبة فكانت السماء تضيء ببروقها الخاطفة ثم تدوي برعودها القاصفة . وكانت الرياح العاصفة تهب على الجبال فتحمل رمالها وأحجارها أو تذروها في الوديان هباء . وكانت الامطار تهطل سيولا جارفة تغمر الارض وتكاد تذهب بأهلها غرقى .. في تلك الليلة العصيبة العاتية انحسرت عن عين الامير غشاوة الدنيا وباطلها ،

واستق أمامه ضوء الحق المنشود ، فأدرك ما أراد : أدرك الحكمة العليا ، وغدا اسمه «بوذا» أى « الانسان الحكيم »

وظل بوذا سبعة أسابيع أخرى الى جذع شجرة التين ، يستجم مما عاناه طوال سنوات التعبد والتأمل والاستغراق ، وأخذت احدى النساء تأتيه بطعام من الارز واللبن يغذى به جسمه الذاوى ، ليقوى على أداء المهمة التى أعد نفسه لها

وأمضى بوذا بعد ذلك خمسة وأربعين عاما وهو يطوف فى أرجاء الهند وما جاورها من الاقطار ، ليعلم الناس دينه وينشر بينهم شريعته . ودخل الناس فى هذا الدين أفواجا ، فلما مات فى سن الثمانين ترك وراءه بضعة ملايين من معتنقى البوذية وأشياعها

وها قد مضى أربعة وعشرون قرنا على قيام هذا الدين ، وما زال يؤمن به خمسمائة مليون من الأفراد . وفلسفة هذا الدين تنحصر فى أن الشهوات هى مبعث الآلام ومصدر الشرور ، وأن لا خلاص من الألم والشر الا بكبت الشهوات وقهرها ، وباكتساب حالة عقلية هادئة معتدلة ، وأن السبيل الى هذا هو أخذ النفس بالورع والزهد والتقوى

وفى البوذية مشابه شتى للمسيحية . فهى تأمر بالاحسان ، والرحمة ، والمحبة . وهى تفتح طريق الخلاص لمن ينحدر من أصلاب الاشراف ومن ينبت فى تربة العامة على السواء ، فلا تفرقة فيها بين شريف ووضيع الا بالعقيدة الصادقة والعمل الصالح

ولكنهما يختلفان فى غير هذا . فالبوذية لا تعرف « المخلص » الذى ضحى بدنه تكفيرا عن ذنوب البشر وحلا لما قارفوا من الآثام . بل هى ترى أن كل فرد مكلف «بتخليص» نفسه بنفسه ، بما يفرضه على نفسه من فروض التقشف والحرمان ، وبما يأخذ به من أسباب الورع والزهادة

(عن النيل م. حنا فى كتابها « يوم الاحد فى بيتى »)

العادات : عضلات العقل

عاداتنا هى عضلات عقولنا . وكما نستطيع أن نبنى عضلات أجسامنا بالصبر والمران ، كذلك نستطيع أن نبنى عضلات عقولنا اذا صبرنا على تدريبها وأحسنا استخدامها

فإذا رحنا لا نقرأ الا الكتب والصحف التافهة الضحلة ، ولا نرى الا « الافلام » والمسرحيات الرخيصة المبتذلة ، ولا تلوك ألسنتنا الا بلغو الكلام وسخيف الحديث ، صارت عضلاتنا العقلية رخوة لينة لا تقدر على هضم النماذج الرفيعة من الادب العالى ، ولا على البحث الجاد فى المسائل والمشاكل المهمة الخطيرة ، ولا على أن نتخذ من عقولنا مرافئ تبحر منها السفائن الضخمة فى بحار العالم الكبرى ثم تعود اليها محملة بالذخائر والنفائس

فماذا أنت صانع بعضلاتك العقلية بعد هذا ؟

الدراسات العربية في الولايات المتحدة

للأستاذ جورج رنتز
المستشرق الامريكي

يرجع اتصال الامريكيين بالعرب الى فجر عهد الجمهورية فى الولايات المتحدة الامريكية . فقد ظهر آنئذ عدد غير قليل من الامريكيين المهتمين باللغة العربية وبحوثها ودراستها . كان هنالك جنود عظام وقواد ممتازون عملوا فى الجيش المصرى الذى غزا أريتريا فى عصر الخديو اسماعيل الزاهر جاء فى مقدمتهم الجنرال شاليه لونج باشا . وكان هنالك أيضا فريق من رجال التربية والتعليم أمثال دانيال بليس مؤسس الجامعة الامريكية فى بيروت وتشارلز وطسن مؤسس الجامعة الامريكية فى القاهرة ، ونذكر أيضا من رجال الدين والتبشير كورنليوس فان دايك الذى اشترك مع الشيخ نصيف اليازجى والمعلم بطرس البستانى فى ترجمة التوراة الى اللغة العربية ، وما زالت تلك الترجمة ذائعة الانتشار حتى يومنا هذا . ومن رجال البر والاحسان وخدام الانسانية نذكر شارلز كرين صديق الامام يحيى والملك عبد العزيز آل سعود . ومن كبار المهندسين كارل تويتشل الذى عمل فى استغلال المنجم العظيم فى منطقة مهد الذهب الكائنة بين مكة والمدينة المنورة . وهو الذى رأس البعثة الزراعية التى قامت فى العام الماضى الى المملكة العربية السعودية

ومن العوامل التى شجعت البحوث العربية فى القارة الامريكية وجود فريق كبير من الجاليات العربية بين ظهرانينا . فالواقع أن العرب المقيمين فى الولايات المتحدة أكبر عددا من أولئك القاطنين فى أى بلد من البلاد الاوربية . لقد وجد العرب دائما صدرا رحبا فى العالم الجديد ، ومن دواعى السرور أن نرى صحفا يومية تصدر بالعربية فى أمريكا مثل السمير والهدى والبيان ولقد أنجبت الجالية العربية الامريكية شعراء وكتابا ممتازين كفانا منهم ذكرا جبران خليل جبران وهو غنى عن البيان

ولقد تضاعف اهتمامنا بالشؤون العربية عند ما حللنا محل الأسبان فى جزر الفلبين فالمورو من سكان الجزر الجنوبية مسلمو العقيدة . وفى خلال السنوات الاربعين الاخيرة أتيح لنا تحضير مواهب هؤلاء القوم العقلية والاخلاقية ، فضلا عن نشاطهم واخلاصهم للعالم الامريكى وهنالك عدد لا بأس به من المورو يحجون سنويا الى مكة المكرمة وبعضهم يعرف اللغة العربية الى حد ما ويلم بحروفها وكتابتها

وفى مقابل هذه العوامل المشجعة ظهرت عوامل أخرى عطلت تقدم الدراسات العربية فى أمريكا . فالواقع أن المسافة الشاسعة التى تفصل العالم الجديد من البلاد العربية

لم تترك لنا فرصة الاتصال بالشعوب العربية وتوثيق علاقات التعارف بيننا وبينهم ، الامر الذى كان من شأنه أن يدفعنا على درس اللغة العربية . وهنالك عامل ثان لا يقل شأنا عن الاول ، الا وهو عدم وجود تلك التقاليد القديمة التى جعلت للغة العربية وبحوثها شأنا عظيما فى القارة الاوروبية عامة وانجلترا خاصة . أما العامل الثالث والاخير فهو افتقار أمريكا الى جامعة وطنية تشجع تعليم العربية وغيرها من اللغات الشرقية

ومع ذلك فقد كان للغة العربيـة بعض الحظ فى الولايات المتحـدة خلال السنوات الاخيرة . فالاحداث التى نزلت بالعالم جعلتنا ندرك أنه صغير جدا ، وأن من واجب الولايات المتحدة العمل على توثيق صلات التعاون مع سائر الشعوب . ولما كانت العربية فى مقدمة اللغات الكبرى العالمية بحكم أنها اللغة المستعملة ابتداء من شاطىء الاطلنطى فى أفريقيا الى جزر المحيط الهادى،فقد أصبح لزاما على كثيرين من الامريكيين أن يتحدثوا باللغتين العربية الفصحى والدارجة على السواء

وقد شرعنا فى حركة بطيئة متئدة ترمى الى تشييد تقاليد قوية للدراسات العربية فى أمريكا . وها قد أصبح لنا عدد من العلماء المتخصصين فى الدراسات العربية فى عشر أو أكثر من جامعاتنا وهم يضارعون زملاءهم من مستشرقى أوروبا الممتازين . وسأورد هنا نبذة عن تاريخ حياة اثنين منهم على سبيل المثل . وهنالك غيرهما كثيرون وان كانوا أقل منهما شأنا

لقد عمل الاستاذ فيليب حتى بنشاط وعزم وحماسة كان من شأنها أن جعلت جامعة برنستون مركزا هاما للدراسات العربية فى الولايات المتحدة الامريكية.ولد هذا الاستاذ فى قرية شملان من ربوع لبنان وهاجر الى أمريكا لثلاثين سـنة خلت . وعند ما أقيم معرض نيويورك العالمى سجل اسمه فى لوحة الشرف الكبرى التى شملت عددا كبيرا من رعايا أمريكا الاجانب مولدا ، والذين أدوا خدمات قيمة لديموقراطيتنا الحية والسائرة فى سبيل النمو والتقدم

وكان الاستاذ حتى فى طليعة من أدخلوا دراسة اللغة العربيـة الدارجة فى الولايات المتحدة . ومنذ نشوب الحرب الحالية واشتراك أمريكا فيها خصص هذا الاستاذ الجليل الجزء الاكبر من وقته لتعليم الضباط المخصصين للخدمة فى الشرق الادنى وأفريقيا الشمالية اللغة العربية الدارجة ولهجاتها المختلفة

والى الجانب الآخر من الولايات المتحدة أى الجانب المقابل لبرنستون يعمل الاستاذ وليم بوبر فى جامعة كاليفورنيا . لقد استهل بوبر دراسة اللغات السامية فى نيويورك منذ ٥٠ عاما ، ثم انتقل منها الى برلين وباريس وتتلمذ فى برلين على الاستاذ نولدكه . وهو أعظم مستشرقى القرن التاسع عشر قاطبة ، ثم جاب أنحاء مصر وفلسطين وسوريا والعراق مدة سنتين وهو لا يزال يافعا ، وأمضى الجزء الاكبر من وقته فى صحبة البدو الرحالين فى الصحراء السورية وفى حوران . وبعد عودته الى أمريكا تخصص بوبر

أولا فى الدراسات العربية ونشر كتبا عن النبى شعيب وشعره ، ثم اتجه الى مطالعة الكتب العربية فشغف بجمالها وبتراكيبها الجذابة لما بينها وبين اللغة العبرية من اخاء ، وأخيرا تفرغ بكلياته وجزئياته الى الدراسات العربية

اتجه اهتمام الاستاذ بوبر الى عصر المماليك فى التاريخ المصرى ، وهو عصر استمر ٣٠٠ سنة وما زالت دراسته فى حاجة الى كثير من التعمق والتمحيص . أضف الى ذلك أن هذا العصر امتاز بتقدم عظيم فى فنون العمارة وغيرها من فروع الثقافة والعلم . وعند ما بدأ بوبر فى بحوثه لم يكن هنالك أسانيد معروفة الا المقريزى ، لذلك رأى هذا العالم الجليل أن يميط اللثام عن كتاب آخرين لا يقلون عن المقريزى شأنا أمثال أبو المحاسن بن تغرى بردى (عبارة تغرى بردى التركية تعنى الله أعطى) الذى عاصر السلطان برقوق والذى تعلم فن كتابة التاريخ عن المقريزى نفسه وكاد أن يصل الى مقدرة أستاذه وخبرته . قضى الاستاذ بوبر أعواما طويلة من حياته فى مراجعة مخطوطات ابن تغرى بردى ومقارنتها بعضها ببعض وتصحيحها وأخيرا أخرج منها المؤلفين العظيمين : « النجوم الزاهرة » و « حوادث الدهور » . وقد اعترفت الحكومة المصرية بقيمة نصيب ابن تغرى بردى فى كشف الحقائق التاريخية فأخذت على عاتقها نشر الاجزاء الباقية من مؤلفاته . وفى خلال الاربعين عاما التى خصصها الاستاذ بوبر لهذه المهمة العظيمة جمع تراثا كبيرا من المعلومات عن جميع مظاهر الحياة فى عصر المماليك

ويعد بوبر من أقدر أساتذة اللغة العربية . فهو متعمق فى تركيب الكلمات العربية واشتقاقاتها وله صفات عظيمة فى تلقين معلوماته الى تلاميذه

هنالك من الدلائل ما يحملنا على الاعتقاد بأننا سنتغلب على العقبة الثالثة التى حالت دون تقدم الدراسات العربية فى أمريكا ، ألا وهو عدم وجود معاهد وطنية لتدريسها . لقد فكر المجلس الامريكى للجمعيات العلمية ــ وهى هيئة كبرى تقوم بتنسيق نشاط الجمعيات الثقافية فى الولايات المتحدة ــ فى وضع دعائم مدرسة وطنية لتعليم اللغات والحضارات الشرقية الحديثة

وفى سنة ١٩٣٥ نظم المجلس الامريكى دراسات صيفية للغة العربية والبحوث الاسلامية فى جامعة برنستون تحت اشراف الاستاذ حتى . وقد أخذ الطلاب يتوافدون من كل حدب وصوب ليتلقوا العلم ويقيموا معا فى جو جامعى لمدة ستة أسابيع . وقد تولى التدريس عدد من كبار المستشرقين الامريكيين من طريق المحاضرة واتصلوا بالطلاب اتصالا علميا وثيقا . هكذا نجحت الدراسات الصيفية نجاحا باهرا ، خاصة فى ايجاد روح الصداقة والزمالة ، وفى توجيه جهود الشبان والسيدات المهتمين بالدراسات العربية وبغيرها من أمور الشرق الادنى، واستؤنف تنظيم تلك الدراسات فى سنة ١٩٣٨ وفى سنة ١٩٤١ ، وبديهى أن التجربة التى اكتسبها الاساتذة والطلاب سواء بسواء سيكون لها أحسن أثر عند ما يشرع فى انشاء مدرسة وطنية للدراسات العربية



قصة مصرية

الباب الذهبى

بقلم الأستاذ ابراهيم المصرى

تزوج عبد المقصود افندى الموظف بوزارة المالية « درجة سادسة » من ابنة عمه الست جميلة ، وقضى معها نحو عشر سنوات دون أن يعقب منها خلفا . فلما توفيت حزن عليها حزنا شديدا ، وطابت له حياة العزوبة ، وعقد العزم على أن يظل وفيا لامرأته أطول مدة ممكنة كى تحل بركتها عليه ، فيما لو شاءت الاقدار وتزوج مرة ثانية . .

واستقدم أخته العانس الحاجة نفيسه من بيت شقيقه عبد العظيم أفندى حيث كانت تعيش فى صحبة امرأته وأولاده ، والتمس اليها أن ترعى شؤون بيته ، وتحل فى داره سيدة آمرة ناهية

وهكذا ظل عبد المقصود أفندى عازبا أربع سنوات حتى جاوز الخامسة والاربعين ، وأرهقته حياة العزلة ، فأشفق على نفسه ، وعز عليه شبابه ، وبدأ يفكر فى المرأة من جديد

وكان عبد المقصود أفندى رجلا متوسط القامة ، غائر العينين ، متكرش البطن ، قصير الذراعين ، يرتدى الردنجوت على الدوام ، ويمشى مشية متباطئة ثقيلة ، ويهز رأسه أمام الاشخاص والاشياء كأنه ما يزال يتفرج على العالم ، وسبحته فى يده ، وجريدة الاهرام تحت ابطه ، والسيجارة التى لفها بنفسه ترافص بين شفتيه ، ونظارته مثبتة فوق أنفه الكبير يتطلع بها الى الناس كأنه يراهم لاول مرة

وكان طيب القلب ، ساذج النفس ، محبا للسكينة ، وديعا ، مسالما ، لا يضمر شرا لانسان ، ولا يغتاب أحدا ، ولا يلحق الاذى بأحد

بيد أنه كان يحب الضحك ، ويميل الى « الفرفشة » ويستمرىء النكت الطريفة ، ويبرع فى تصيدها ، ويؤثر أن ينتقم من عدوه بنكتة لاذعة على أن يصيبه فى شخصه أو ماله أو سمعته

ومع ذلك فقد كان مغلق العقل ، بليد الذهن ، فيما عدا ابتكار النكت . كان خامد عاطفة الفضول ، يشوب أخلاقه نوع من الانانية الصافية ، يحب نفسه ، ويعيش مع نفسه، ويكتفى بنفسه فقط ، لا يتكلف النظر فى جوهر الاشياء ، ولا تسترعيه غرائبها ، ولا

يحفل منها بغير النظرة المبتهجة العابرة ، خشية أن ينغص حياته بيده ، ويخلق لنفسه المشاكل والاضطرابات ، ويجهد ذهنه بأفكار وشواغل لا تستحق أن يضحى العاقل من أجلها بصحته وراحته ومتاع هذه الدنيا . .

ولقد عرفت فيه المرحومة الست جميلة هذا الخلق ، فأقرته عليه مختارة ، وحرصت على راحته ، وتجنبت معارضته ، وأطاعته طاعة عمياء ، ولم ترغمه أبدا على اعتناق ما يكره من الاخلاق والعادات

والواقع أن حياتهما فى منزلهما الصغير فى حى السيدة ، كانت عذبة هادئة رقيقة

كانت حياة بلدية بسيطة ، تنقضى فى السمر البيتى اللطيف ، وتهيئة الاطعمة الشهية ، والتسلى بشرب المغات والقرفة شتاء ، وعصير البرتقال أو القمر الدين صيفاء وزيارة بعض الاقارب والجيران ، واعداد العدة للاعياد والمواسم ، ومجاملة الاصدقاء فى المآتم والافراح

أما الحياة العصرية المضطربة فلم تكن قد ألفتها الست جميلة ، ولم تكن لتصادف أى هوى من نفس عبد المقصود أفندى . فالمسرح مثلا كان يضطره الى التفكير ويضجره ، والسينما كانت « تزغلل » عينيه وتحرق أجفانه ، وصالات الرقص كانت تثير نخوته الشرقية وتلهب فى صدره عوامل الاستنكار والسخط

وأما ألذ ساعات حياته فتلك التى كان يقضيها فى مندرة بيته ، بين جمع من صفوة أصدقائه ، يلاعبهم الورق ، أو يطارحهم النكت ، أو يحدثهم عن مآثره فى الوزارة ، أو يستمع الى بعض أصحاب الاصوات الرخيمة منهم ، وهم يغنون البشارف التركية أو المواويل البلدية ، أو أدوار (سى عبده) المفضلة عنده المحببة اليه

وكان يخرج عصر كل يوم ، لابسا طاقيته البيضاء ، مرتديا جلابيته الحريرية ، منتعلا شبشبه ، ملقيا عباءته البنية على كتفه ، ويجلس فترة أمام صالون الاسطى حسنين الحلاق ، ثم يغادره الى القهوة البلدية ، ثم يترك القهوة ويتجه صوب حانوت المعلم أحمد الشربتلى، فيتخذ له مجلسا هناك على رأس الشارع ، ويظل ينقل أبصاره فى المارة ، فرحا بهم ، مغتبطا باختلاف أشكالهم ، مبتهجا بتنوع أزيائهم ، يتفرج عليهم دون أن يراهم ، مكتفيا باللذة العميقة التى يحدثها فى نفسه الفارق المحسوس بين سكونه وحركتهم ، بين حلمه ويقظتهم ، بين راحته وتعبهم ، بين غناه وفقرهم ، بين كسله الفاتر الثمين وبين ما قدر الله عليهم من وجوب الكدح المتواصل فى سبيل الرغيف . .

وكان يستسلم لهذه اللذة بجميع كيانه ، ويمضى فى ترشفها ساعات ، حتى اذا ما أقبل المساء ، هرع الى مندرة بيته ، والتقى فيها بصفوة أصدقائه ، وأقام فى جوها العائلى الحميم ، تلك السهرات التى كانت أشبه بحفلات يومية ، تملأه زهوا وخيلاء ، وتلقى فى روعه أنه سيد بل أمير بل ملك تحوطه حاشية وتتخطر فى بلاط

فالديوان كان يستغرقه صباحا ، والحياة عصرا ، والمندرة ليلا . وبين الديوان والحياة والمندرة ، كان يحظى بقرب امرأته ، ويستمتع بعذب حديثها ، ورقة شمائلها ، ودماثة

أخلاقها ، وحلاوة ذلك الانكسار النفسى الذى كان يخيم عليها كلما تحدثت عن الأطفال، وتحسرت على نفسها ، وذكرت فى لهجة بائسة مستغفرة ، خيبتها وعقمها

على أن عبد المقصود افندى لم يحقد على امرأته أبدا لانها كانت عاقرا ، ولم يحملها أبدا ذنب الطبيعة ، ولم يخطر على باله لحظة واحدة أن يطلقها أو يتزوج عليها ، ليعقب نسلا يحيى ذكراه ، ويرث البيت الذى يملكه فى حى السيدة ، والاربعين فدانا التى خلفها له والده فى المنوفية

كان قانعا بحظه ، راضيا بقسمته ، مكتفيا بنفسه وامرأته . ولكن الشىء الوحيد الذى كان يحز فى صدره ، هو أن الست جبلة كانت سمراء ، وكانت نحيفة ، وكانت قصيرة . وكان هو فى صميم نفسه يحب « البيض السمان » ، ويهوى البدن المربرب ، ويعشق القامة المديدة ، ويجن جنونا بالشعور الشقراء ..

تلك كانت نزعته الخفية ، ومع ذلك فقد كتمها عن نفسه ، وأحب ابنة عمه ، وأخلص لها الاخلاص كله ، وما زال يذكرها بالخير وان كان قد أصبح يحن الى المرأة ، ويصبو الى الانثى ، ويتطلع الى الزواج

بيد أن فكرة الزواج مرة ثانية كانت تخيفه ، وتصور الحياة مع امرأة جديدة كان يقلقه . والحق أن أفكاره وعواطفه وعاداته كانت قد اندمجت كل الاندماج فى شخص الست جبلة ، بحيث أصبح من المتعذر عليه أن يتمثل الحياة مع امرأة سواها

فلو غامر الآن وتزوج ، أتراه يفوز بمثل الست جبلة ؟.. أتراه يعود الى مثل حياته الهادئة الساكنة معها ؟..

وبعد ، فهل ستفهمه امرأته الجديدة وتطبعه ، وهل ستقدر فيه طيبته وكرم أخلاقه ، وهل ستحترم عاداته ، وهل ستعرف مثل الست جبلة كيف تطهى له الطعام « المسبك » وتصنع له أطايب الحلوى ، وتليف له ظهره عند دخوله الحمام ، وتغسل قدميه عند عودته مجهدا من الديوان أيام الصيف ؟..

هذا ما كان يقلقه . وهذا ما كان يجعله يقدم رجلا ويؤخر أخرى كلما لج به الشوق الى المرأة وساورته فكرة الزواج ..

ولبث على هذه الحال أياما طويلة ، يتروى ويتأمل ويطيل التفكير ..

وفى ذات ليلة من الليالى رأى حلما رائعا غريبا . رأى كأنه يمشى مع جمع من أصدقائه متخبطا فى نفق مظلم طويل ، ثم أحس كأن النفق يسلمه فجأة الى عالم من نور ، فالتفت حوله واذا باصدقائه يحيطون به وفى يد كل منهم باقة من الورد رشقت فى وسطها شمعة مضاءة ، فاضطرب وذعر وهم بالرجوع ، ولكنهم دفعوه الى الامام دفعا وهم يصيحون ويهللون . وعندئذ رأى عبد المقصود افندى وقد تولاه الاعجاب والدهش ، أنه يجتاز عتبة باب عظيم ، باب ذهبى كبير ، مفتوح المصراعين ، مجلل بالازهار ، وأنه يدخل رحبة فسيحة قد ازدحمت بالناس وغمر أرجاءها النور . فاختلجت أعضاؤه ، وصعد نفسا

مستطيلا ، واستيقظ وصيحات أصدقائه تكاد تصم أذنيه

ولم يكد يهب من فراشه حتى أسرع الى أخته الحاجة نفيسه وقص عليها حلمه . فاستمعت اليه باتباه شديد ، ثم رمقته بنظرة جانبية وهى تبتسم ، ثم هزت رأسها وقالت بلهجة العارف المتأكد :

ـ والنبى دى جوازه يا سى عبده والا ما اكنش أعرف حاجه .. دا انت انكتب لك عمر جديد وحتخش دنيا يا اخويه وتتمتع ..

فأطرق برأسه لحظة ، وفكر فى كلامها مليا ، وتملكه الاعجاب بذكائها . فآمن بحظه ، وتبددت وساوسه ، وأيقن أنه سيدخل الدنيا مرة ثانية ومن بابها الذهبى أيضا ..

ومنذ ذلك اليوم تناسى عبد المقصود أفندى الست جميلة ، وشرع يبحث عن زوجة أخرى ..

* * *

وانقضت أيام تبعتها أيام ، الى أن حدث ذات مساء وعبد المقصود افندى فى مكتب صديقه المحامى الأستاذ جلال يتحدث اليه فى شأن قضية جديدة أقامها على فريق من مستأجرى أرضه ، أن لمح لاول مرة سيدة باهرة الحسن تدخل المكتب وتطلب استشارة المحامى

وكانت السيدة فى نحو الخامسة والثلاثين ، متحفظة متباعدة أنيقة ، ترتدى ثوبا أزرق مرصعا بورود كبيرة بيضاء ، يكسوه معطف اسود حليت أطرافه بالفراء

وكانت ممتلئة البدن فى رخاوة ساحرة ، مديدة القامة فى عزة مهيبة ، ذات وجه أبيض مستدير ، وعينين سوداوين متوثبتين ، وصدر ناهد عريض ، وشعر أشقر تتماوج أضواؤه على رأسها الشامخ الجميل

راعته منها صورة خياله ممثلة فيها ..

أحس وهو يلهث ويرتجف أنها ضالته المنشودة ..

قارن بينها وبين الست جميلة ، فلم يستطع الا أن يسلم بأنها شىء آخر ، شىء رائع مهذب ، شىء ناعم مصقول ، تحفة عصرية بديعة الصنع نادرة المثال ..

وطفق يبحث ويتحرى مستعينا بالمحامى صديقه ، حتى علم أنها من أسرة كريمة ، وأن والدها كان موظفا كبيرا ، وأنها تدعى « عواطف » هانم ، وأنها أرملة مهندس مات فقيرا ، وأن أحد أشقائها طبيب معروف ، والآخر موظف ملحوظ المكانة ، والثالث من طلبة الجامعة ، وأنها ما جاءت مكتب المحامى الا لتقيم دعوى على شخص ينازعها ملكية جزء من قطعة أرض صغيرة خلفها لها زوجها

وفرح عبد المقصود افندى باسم « عواطف » وتفاءل به خيرا . وأخذته هزة كبرياء عند ما فكر فى أنه قد « يناسب » هذه الاسرة الكريمة ، وقد يتزوج هذه المرأة الفاتنة ، وقد يعيش مع هذه السيدة الانيقة العريقة التى لا وجه للشبه على الاطلاق بينها وبين

الست جميلة ، المرأة البلدية الجاهلة المتأخرة بنت عمه الأمي الشيخ مبروك تاجر الغلال . .

وتاقت نفسه الى التخلص من ماضيه ، وتجديد شبابه ، واقتحام هذا العالم المبهم البراق الذي لا عهد له به ، فتردد على مكتب المحامي ، وتمكن من رؤية عواطف مرات . وكان في كل مرة يزداد اعجابا بها ، وشوقا اليها ، ورغبة فيها ، وخوفا غامضا منها . .

ولما ضاق بأمله وصبره ذرعا ، تشجع وحزم أمره ، وكاشف صديقه المحامي برغبته ، ثم كلفه أن يتصل بأسرة السيدة ويطلب له يد الهانم

وظل ينتظر على أحر من الجمر نتيجة المسعى ، ويفكر في الشقاء الذي لا بد أن يحل به لو قوبل طلبه بالرفض . ولكن عواطف هانم كان قد طال أمد ترملها ، وكانت تعيش عالة على اخوتها ، وكان هو موظفا ميسور الحال ، فأجابوه الى طلبه ، وأشعروه لأول مرة بقيمته الاجتماعية ، فسر وازدهى ولم تسعه الدنيا .

وبعد أخذ ورد طويل ، اتفقوا على أن يكون المهر مئتي جنيه . فتقدم عبد المقصود افندي مقدم الصداق، ودخل بعروسه في حفلة شائقة أطربت فيها النساء «عالمة» مشهورة، وشنف أسماع الرجال مطرب كبير

وبدأت الحياة . .

بدأت الحياة ساكنة فاترة شبه ناعمة . ولكن سرعان ما تسربت اليها نزعة التسلط وروح الخوف

كانت عواطف هانم قد تزوجت لانه كان لا بد لها ان تتزوج ، فلم تشعر من نحو زوجها الكهل الساذج البسيط بأي عطف أو ميل

ولم يكد يمضي على قرانهما اسبوع حتى استغربت كيف تزوجته ، وتولتها الحسرة ، وانتابها ذهول محنق أليم

ومع ذلك فقد حاولت أن تحتمله ، حاولت أن تحبه ، حاولت أن ترضى به على علاته ولكن بلادته كانت تثقلها ، ودروشته كانت تثيرها ، وأخلاقه القديمة كانت تضجرها ، وعاداته البلدية كانت تخدش احساسها العصري ، وتشيع في نفسها ضربا من السخط المملوء بالاشمئزاز

كانت تكره ردنجوته الايدي ، وسبحته الكهرمانية ، والسيجارة التي يلفها بيده ، والنكت التي لا تصدر عنه الا لتزيده هزءا وتجعل منه في نظرها شبه مهرج أو مسخ

كانت تكره عقله واحساسه ومظهره . وكانت تجاهد كي لا تعاف قربه ودعابه وملمسه . ولما لم تجد أية سعادة معه ، ثارت لنفسها بالغطرسة والترفع ومحاولة التسلط المطلق عليه

أما عبد المقصود افندي فكان قد أصبح كتلة من الهلع والخوف . تملكه خوف شديد على نفسه ، وخوف أشد على راحته ، وخوف أعمق وأخطر على أخلاقه الثمينة وعاداته الغالية

كان يحس تبرم زوجته فيعجب ، ويشعر باستيائها فيذهل ، ويلمس حنقها فيبهت ،

ويتلقى ثورة غضبها فيرتعد فرقا ، ويحاور ويداور ، ويتجاوز ويصفح ، ثم يعتذر ويندم لتقر الطمأنينة فى نفسه والسلام فى البيت

وكاد يلعن الزواج ، ويلعن أخته ، ويلعن الباب الذهبى .. ولكنه برغم سخطه كان يحب عواطف .. كان يحب عواطف بكل ما تجمع فى دمه من رجولة مكبوتة ، وبكل ما استيقظ فى نفسه من تلهف الكهولة وتحرقها والتذاذها العبودية للمرأة والعبودية للحب

فتنته عواطف بمحاسنها . سحرته بأناقتها . غزته بدلالها الشامخ ، وكبرها البارد ، وهيبة قامتها ، وبياض بشرتها ، وشقرة شعرها . فنسى المرحومة الست جميلة ولم يعد يأسف عليها ، وبات يجد متعة جديدة عجيبة فى الطاعة والاستسلام والذل ..

وأحست عواطف منه هذا الخضوع ، فازدادت خيلاء وعجبا ، وعظمت ثقتها بنفسها ، واشتد ايمانها بسلطانها ، وعولت على ان تقتحم شخصية زوجها ، وتروضها ، وتبدلها ، وتصبها آخر الامر فى القالب الذى تهوى ..

وبدأت فأمرته بخلع الردنجوت ، والكف عن لف السجائر بيده ، فاعترض وتأبى ، فتمنعت عليه ، فهدر وزمجر ، ثم رضخ وأطاع

ولما استوثقت من ضعفه ، استجمعت قواها ، وحملت عليه حملة هائلة شعواء

رفضت بعزة واباء أن تليف له ظهره عند دخوله الحمام ، وأن تغسل قدميه عند عودته من الديوان . وكان يلبس الجلابية فى البيت ، فارغمته على ارتداء البيجاما . وكان يلبس الطربوش بلا خوصة ، فحرمت ذلك عليه أيضا . وكان يستعمل نظارة معدنية بيضاء ، فاضطرته ان يستبدل بها نظارة من الباغة الجميلة السوداء

وكانت جواربه تساقط وتبدو ثناياها من تحت بنطلونه الضيق القصير ، فأمرته بوضع حمالة للجوارب ، وتفصيل أثواب ذات بنطلونات فضفاضة على أحدث طراز

وكان ينتعل حذاء غليظا برقبة من القماش المطاط ، يدس فيه قدميه دسا ، فنهته عن استعماله ، وأجبرته على انتعال حذاء أنيق مكشوف

وكان عند ما يأكل تتهدل خيوط الملوخية على شاربيه ، وتظل «الدمعة» عالقة بشفتيه ، وتتملص قطع اللحم من بين أصابعه ، فعلمته كيف يستخدم الملعقة والشوكة والسكين ، وكيف يأكل فى هدوء وحذر ، وكيف يطبق فكيه على الطعام فلا يحدث صوتا كريها أثناء المضغ

وحرمت عليه فوق ذلك أن يتجشأ خلال الطعام ، وأن يشرب من القلة ، وأن يمص الماء مصا ، وأن يتمخط فى المناديل المحلاوى المخططة الكبيرة ، وأن يبصق على الارض أو من النافذة ، وأن يتلهى ، وهو جالس فى البيت ، باللعب بأصابع قدميه العاريتين ..

وراضته على حلاقة ذقنه كل صباح ، وتسريح شعره وتصفيفه ، وتنظيف أسنانه بالفرشاة والمعجون ، والاعتناء بعقد ربطة عنقه كى يبدو موفور الاناقة ، كامل الهندام

وكان عبد المقصود افندى يقاوم فى بعض الاحيان ويثور ، ولكن حبه لامرأته كان

يطوعه ، وميله الى كسب احترامها كان يخضعه ، وشدة اهتمامها به كانت ترضى كبرياءه وتلطف من احساسه بالاهانة والذل ..

على أنه عند ما خرج لاول مرة فى زيه الجديد ، كان خجلا من نفسه ، متبرما بحمله ، مستغربا أمره ، يحس كأنما هو قد تنكر وتشوه ، وكأن جميع الابصار تصوب اليه .

فكان يتنكب الشوارع العامة ، ويضرب فى الطرقات الضيقة ، ويتوارى ما استطاع عن أعين الناس

ولم يلبث أن استمرأ الوجاهة ، وألف الاناقة ، فانقلب ارتباكه الى ثبات ، وقلقه الى اتزان ، وحياؤه الى جرأة بل الى تحد . فكان يصعر خديه كبرا واعتزازا ، ويسخر من كل من يصادفه ، ويضحك من اضطرابه ، ويجد لذة عميقة غريبة فى الاندماج فى دوره الجديد واتقان تمثيله الى أبعد حد مستطاع

وانتقلت به عواطف هانم من منزلهما بحى السيدة الى عمارة فخمة جديدة بحى الذوات فى الزمالك

وشرع يخرج فى صحبتها الى المسرح والسينما ، ويغشى برفقتها المجتمع الراقى ، ويدخل معها صالونات صديقاتها ، ويتعرف الى أترابها الهوانم العصريات الجميلات الثريات

وبدأ يرتاد أماكن اللهو الممتازة ويتردد على المقاهى الكبيرة ، ويمرح فى شارع فؤاد وعماد الدين وسليمان باشا ، سعيدا بجو الاناقة والنظافة المحيط به ، منتشيا برؤية الجرسونات يتهافتون على خدمته ، ممتعا أبصاره بالتفرج على أسراب الغادات الاجنبيات ذوات الشعور الذهبية والبشرة الناصعة البياض

وكان فى اثناء تطوره الطويل ، يستيقظ شيئا فشيئا كطفل يستكشف العالم يوما بعد يوم

كان يتهيب كل جديد ، ثم لا يكاد يألفه ، حتى يستأنس به ، ويرحب بغيره ، ويهلل مخفيا نشوته العميقة وفرحه العظيم

كان خائفا ولكنه كان مع ذلك مطمئنا . كان مذهولا ولكنه كان مع ذلك سعيدا

وكما ساقه حبه الشديد لامرأته ، الى الطاعة والتسليم والاحتمال ، كذلك ولد فيه نفس الحب رغبة فى التحول ، وميلا الى التطور ، ونزوعا قويا مفاجئا الى النظر والمعرفة والادراك

وتحرك ذكاؤه وتنبه ، وخرج متثاقلا متباطئا من ظلمة كيانه الساذج الفطرى

وتحت وهج حبه ، استفاق على مر الايام عقله ، وبدأت تتفتح مغاليق ذهنه ، وأخذت تنجاب عنه تلك السحب الثقيلة ، سحب البلادة الخانقة التى كانت تباعد بينه وبين العالم

وبعد أن كان لا يهتم الا بنفسه فقط ، ولا يحفل الا بشخصه فقط ، بدأ ينظر الى سواه ، ويفطن لوجود غيره ، ويتأمل ويتفرس فى كل ما تقع عليه عيناه

وسحرته هذه العلاقة الجديدة التى قامت بينه وبين الدنيا . فاستحوذ عليه الفضول ، وملكه حب الاستطلاع ، فكان لا يقر له قرار حتى يحاول أن يستبطن كل شىء بنفسه ،

ويحاول أن يعالج كل مسألة بصبره ، ويحاول أن يتغلغل فى كل أمر وينفذ اليه حتى الصميم

ومن مخلوق لزج دهنى ثقيل ، استحال عبد المقصود افندى ، على مضى الزمن ، الى انسان متوثب ذكى خفيف

أشرق فكره ، وتطلق طبعه ، وتجددت نضارته ، وأخفت الأثواب العصرية كرشه ، وأضفت عليه حلة من أناقة وشباب وجمال

وذهب به الفضول الى أبعد مما كانت تقدر عواطف هانم .. ولانه كان يجهل كل شيء فقد تطلع فى نهم الى معرفة كل شيء .. أراد أن يفهم على وجه التحقيق ما هو هذا التمدن الذى فرضته عليه زوجته فرضا ، وما هو هذا المجتمع العصرى الذى كلفت به امرأته الى حد الجنون ، فطفق ينظر ويلاحظ ، ويبحث وينقب ، ويفكر ويقرأ ، ويقارن ويفاضل ، ويتأمل ويدرس ..

تأمل الحياة العصرية وكيف تجرى فى عالمه الجديد ، فى العمارات العظيمة الشاهقة ، فى الشوارع الساحرة الزاخرة ، فى الملاهى الفاتنة العامرة ، وقارن بينها وبين الحياة التى كان يعيشها بالامس فى حى السيدة . وكان بسيط القلب والروح فرأى الاشياء على حقيقتها ، وبدا له الفارق العظيم بين العالمين ..

أجل ، هناك ، هناك فى حى السيدة ، تنساب الحياة انسيابا ، وهنا يعيش الانسان فى شبه حمى ..

هناك تنقضى الحياة فى ضباب حلم دائم ، ناعمة فاترة بليدة ، لا تحفل بقانون الزمن . وهنا تعين الجهود ، وتحدد المواقيت ، وتقطع الازمنة ، ويحرص المرء على انتهاب كل دقيقة من عمره ، كما لو كان موقنا بأنه سيموت فى الغد

هناك يرقد العقل ، وتهجع الاعصاب ، ولا يعيش غير بعض الحواس . وهنا يجن العقل ، وتختبل الاعصاب ، وتضطرم الحواس ، وتدب النار فى الانسان برمته

هناك اغراء الراحة والحلم ، وهنا اغراء السعى والطمع

هناك اغراء الكسل وعدم الاكتراث ، وهنا اغراء الحركة والتمتع

هناك يقنع الانسان بأى شيء ، وهنا لا يمكنه أن يقنع أبدا بشيء ..

ومضى عبد المقصود أفندى يتأمل أيضا فيما يرى .. يتأمل حياة هذه الطبقة المترفة التى أصبح يغشى مجتمعاتها برفقة امرأته .. فرأى أشياء جديدة .. أشياء غريبة .. أشياء استهولته واستنكرها وهزت فؤاده من الاعماق

رأى الهوانم المتمدينات المصقولات الرائعات ، صديقات امرأته ، يعشن خاملات عاطلات ، قاسيات الافئدة ، غليظات الاكباد ، أنانيات متكبرات متغطرسات ، عرائس مجلوة لا قلب لها ولا حواس ، يخشعن أمام « المودة » ، ويقدسن الترف ، ويعبدن المال ، ويتهالكن على أطايب الطعام ، ويحتقرن الفقر ، ويخشين الامومة ، ويكرهن الفكر ،

وتنقضى حياتهن فى حفلات وولائم وزيارات يغتاب فيها بعضهن البعض وتمج أفواههن العذبة الجميلة السم الزعاف

ورأى الرجال أزواجهن ، أشباه رجال مسلوبى الارادة ، مخنثين طيعين ، تستبد بهم نفس الرذائل ، ويلذ لهم أن تحركهم نساؤهم كالدمى ، وتبتز أموالهم وتعتصرهم كالابقار

وتنبه عبد المقصود أفندى واستفاق. استفاق تماما. وأدرك أن بيجامته الحريرية الناعمة، وبدلته العصرية الانيقة ، وربطة عنقه المشوقة ، ونظارته الوجيهة السوداء ، وحذاءه اللامع المكشوف ، وحمالة جواربه المشدودة ، وجلسته المهيبة الى المائدة وهو يتناول الطعام بالشوكة والسكين ، كل ذلك قشور .. قشور جميلة ولطيفة ، قشور لا بد من توفرها . ولكن متى انتفى منها اللباب، متى فقدت هدوء النفس ، وراحة الضمير واعتدال الرغبات ، وسمو الخلق ، وروعة الفضيلة ، وشعلة الفكر والروح ، تصبح ألاعيب قردة وشعوذة مهرجين

وعند ما تحول ببصره الثاقب الى زوجته ، الى عواطف هانم ، الى المرأة التى أرادت أن تهذبه وتمدنه ، تبين له والأسى يملأ قلبه ، أنها تشبه صديقاتها الهوانم شبها مثيرا منكرا لم يفطن اليه من قبل ..

هى أيضا متغطرسة متكبرة قاسية لا تعرف الرحمة

هى أيضا واشية نمامة لا تصون للغير حرمة

هى أيضا مبذرة متلافة لا تقدر قيمة النعمة

هى أيضا خاملة تكره الفكر وحياته الرحبة

لم تهتم أبدا بأية مسألة خطيرة عامة ، ولم يرها يوما تقرأ فى كتاب . التبرج غايتها ، والتمتع قبلتها ، ومحاكاة الهوانم الثريات هدفها الاول والاخير

رأى فى امرأته كل هذا ، وأماط عن جوهر نفسها النقاب ، وانطلق خياله يمعن فيها طعنا وتجريحا بنفس السلاح الذى هدته اليه وسلمته اياه ..

ولكنه كان يطعن لانه كان يحب .. وكان يمعن فى الطعن ، لانه كان يخشى أن يحتقر ويكره ..

وبدل أن يفضى به الاستنكار والسخط الى تقلص حبه ، ضاعف امعانه فى الطعن والتجريح قوة هذا الحب ، وزادته المرارة والحسرة عنفا واضطراما

وكانت عواطف هانم قد أصبحت معجبة به ، فخورة بتحوله ، مباهية بانقلابه . بيد أنها كانت معجبة بمظهره الوجيه فقط ، ومعجبة بنفسها أكثر مما كانت معجبة به، وفخورة بما استطاعت أن تحققه فيه أكثر مما كانت فخورة بما استطاع هو أن يحققه لنفسه بنفسه

كانت مزهوة بسلطانها الذى بدل الرجل وغيره ، وصاغ حياته كلها من جديد . ولان لذة السلطان والنصر كانت قد تمكنت منها ، فقد طغى عليها شعور بالتفوق حال بينها وبين أن تفهم حقا زوجها ، وأن تحجب حقا به ، وأن تدع اعجابها يلطف من حدة

كبريائها ، ويتطور بها شيئا فشيئا وينتهي الى عطف وميل وحب ..

أجل . لقد أصبح عبد المقصود افندى كما شاءت امرأته ، وأكثر . ولكنها مع ذلك لم تحبه !.. لم يفز بقلبها وان كان قد فاز مظهره باعجابها . لم يظفر بعطفها الغالى وحبها المنشود ، لانها كانت دائما هى القوية ، ودائما هى المسيطرة. وكان دائما هو الخاضع، ودائما هو الضعيف ، برغم جهاده وتحوله وتجدده !..

واستحوذت عليه هذه الفكرة ، وأمضه احساس الهوان ، وكبر عليه أن يكافح ويناضل ، ويتطور ويرقى ، ليبقى آخر الامر مستضعفا جامدا فاشلا حيث هو . فثارت نفسه ، وثارت كرامته ، وأذكت فيه خيبة الامل وكبرياء العقل وعزة التجدد شعلة الحب والرجولة والعزم ، فأبى الا أن يتسلط بدوره ، ويفرض ارادته ، ويؤكد سلطانه ، ويحاول متوسلا بحبه وذكائه وحكمته وأدبه ، أن يبدل شخصية امرأته ، ويهذب أخلاقها ، ويلطف ميولها ، ويصقل غرائزها ، ويستكمل فيها نقص أترابها ، ليربح آخر الامر حبها ، ويبدع منها الزوجة الرشيدة الفاضلة الكاملة ، الخليقة بحبه ، الجديرة بالنهوض الى المستوى النفسى الرفيع الذى وصل اليه

* * *

ولبث يتحين الفرص وقد شاعت فى نفسه جرأة لا عهد له بها

وفى عصر يوم من الايام ، استفاق من نومه مذعورا على صوت جدل محتدم يشوبه صراخ ، فأنصت قليلا ، واذا به يسمع امرأته تنهر الخياطة وتوسعها زجرا وتأنيبا لانها جاءت تلح فى طلب أجرة تفصيل فساتين تأخرت عواطف هانم فى دفعها شهرا كاملا

وكان صوت الخياطة المتهدج يشف عن لوعة صادقة . وكانت تلتمس وتتوسل وهى تكاد تبكى ، وتقسم أنها فتاة مسكينة يتيمة الابوين تعول ثلاث أخوات احداهن مصابة بمرض عضال فى حاجة دائمة الى طبيب ودواء

وكانت عواطف هانم وقد أثار كبرياءها الحاح الفتاة ، تهم بطردها دون رحمة . فنهض عبد المقصود افندى من فراشه ، وأسرع فأخذ بضع أوراق مالية من حافظة نقوده ، وخرج الى البهو الكبير ، وهو مكفهر السحنة مقطب الجبين

ولم تكد تبصره الفتاة حتى لاذت به متوسلة . ولكنه لم ينظر اليها ولم يخاطبها ، بل دس فى يدها الاوراق المالية ودفعها فى رفق نحو الباب ، فامتقع وجه عواطف هانم ، وتمهلت قليلا حتى اختفت الفتاة ، ثم صاحت وقد انفجر غضبها :

ـ كيف تهيننى على هذه الصورة ؟.. أى دخل لك فى شؤونى ؟.. قلت انى لن أعطيها اليوم شيئا ، وكان يجب الا تأخذ اليوم شيئا ..

فرفع اليها عبد المقصود افندى بصره الصارم ، ثم تمالك نفسه وقال فى هدوء :

ـ أليس هذا حقها ؟..

فرمت عواطف هانم برأسها الى الوراء ، وأجابت وقد اهتزت جدائل شعرها اللامع :
ــ أنا لم أقل انى سآكل حقها ..
فابتسم عبد المقصود افندى وقال : اذن كان يجب أن تدفعى !
فضربت الارض بقدمها وقالت : كنت أريد أن أريها ..
فتفرس فيها مستغربا وقال : وماذا فعلت ؟ هل سرقت ؟ هل طلبت أكثر من حقها ؟ لقد اتفقنا أمامى على أجرة الفساتين، ولقد أعطيتك المبلغ ، ولعلك تذكرين، فأين ذهب؟
فارتبكت لحظة واحمر وجهها ، ثم هزت منكبيها غير مكترثة ، وأجابت وهى تنطرح على مقعد : رأيت زينب هانم حرم محمود بك تلبس فستانا من « الكريب جورجيت » الازرق ، فاعجبنى فابتعت بالمبلغ قطعة من نفس القماش ..
فجلس عبد المقصود افندى على مقعد تجاهها ، وتناول يدها بين يديه ، وقال معاتبا وهو يتأملها : وهل أنت يا عواطف فى مستوى زينب هانم ؟ ..
وتبدل صوته فجأة وأردف وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجد :
ــ على أنى لا أعتقد أن سيدة مثل زينب هانم تماطل فى دفع حقوق الناس
فقهقهت عواطف قهقهة مدوية وقالت :
ــ هى ؟.. وماذا تعرف أنت عنها ؟.. انها لا تماطل .. بالتأكيد .. لا تماطل أبدا فى دفع الحقوق ، ولكنها تأكلها أكلا .. ولو استطاعت لاكلت مال النبى .. لقد طردت السفرجى وأكلت عليه عشرة أيام لانه كسر لها طبقين . فهل أنا فعلت أبدا مثلها ؟..
فهز عبد المقصود افندى رأسه وقال : هو ذاك . يجب أن تكونى دائما أفضل منها ..
فصاحت معتدة بنفسها : ولكنى لا اسمح أبدا بأن ترفع مثل تلك الفتاة الصوت فى وجهى وتسجل على سوء النية فى حين أنى سأدفع ..
فقال عبد المقصود افندى بلهجة جافية : الفقير لا يستطيع ان ينتظر
فعاجلته بقولها : بل يجب أن ينتظر ، ويشكرنا أيضا نحن الاسياد ، لاننا نحسن اليه ونعطيه عملا ..
فقال مستنكرا وقد روعته قسوتها : ولكنك فى حاجة الى عمل الفقير . ولا يمكن أن تكونى متفضلة عليه حتى لو عاملته كانسان . كان يجب أن تدفعى وفى الموعد المحدد أيضا
وأردف بصوت قاطع : هذه هى الاصول !
فبهتت لهذه اللهجة التى لم تألفها ، وحملقت فى زوجها لحظة ، ثم وثبت من مقعدها ، وأرسلت ضحكة كبيرة رنانة ساخرة ، وقالت وهى تتخلع ويداها على خاصرتيها : أصول؟ أى أصول يا سى عبده ؟.. أنت تريد اليوم أن تعلمنى الاصول ؟.. أنت ؟..
ولم تمهله ، بل رشقته توا بالمثل العامى وهى تتمايل وتتثنى : « قال من امتى طلعت القصر قال من امبارح العصر .. »
ومضت تضحك فى غل ، وتضرب كفا على كف وتردد : يعلمنى الاصول؟.. هو ؟..

يعلمني الاصول ؟ .. والله طيب يا زمن ..

فثبت عبد المقصود افندى أمامها ، وأغضى عن سخرياتها ، وقال متعاليا متأبيا مترفعا مؤكدا سلطانه لاول مرة فى نبرة حاسمة آمرة :

ـ عواطف هانم ، أنا لا أحب أبدا ان أسمعك تتكلمين بمثل هذه اللهجة !

فحدقت اليه وفغرت فاها كبلهاء ، ثم لوحت بيديها ذاهلة متعجبة ، ثم ابتسمت وعادت تضحك ، ثم أربد وجهها ، وتقلصت تقاطيعه ، وقالت وهى تهدر : أهو درس تلقيه على؟

فأجاب : وما المانع ؟

فصرت على أسنانها وقالت مستكبرة وهى تصعد فيه بصرها فى حنق وازدراء :

ـ أظنك قد نسيت أنك مدين لى بكل شىء .. وأنى أنا .. أنا التى علمتك ونظفتك ومدنتك ، يا عبد المقصود افندى .. استغفر الله .. يا عبد المقصود بك ..

فأحنى رأسه أمامها فى احترام ، وقال فى رقة بالغة :

ـ وهل يمكن أن أنسى فضلك يا عواطف هانم ؟!

ودنا منها ، وانحنى عليها ، وأوشك أن يطوقها بذراعه ، وهمس فى أذنها متوددا متلطفا كمن يستعطف ويرجو :

ـ أنت أردت أن أكون رجلا متمدينا كريم الاخلاق، فكيف تلومينني اليوم لاستمساكى بمسائل تتعلق بصميم الاخلاق ؟

فدفعته عنها ، وصاحت فى رعونة ساذجة يشوبها دهاء عجيب :

ـ أخلاقى أشرف أخلاق ، وسلوكى أحسن سلوك ، ولا عيب فى على الاطلاق .. هل تستطيع أن تقول انى ارتكبت عملا شائنا ؟.. هل نظرت الى سواك ؟.. هل كنت متزوجا فاختطفتك من امرأتك ؟.. هكذا أنتم معشر الرجال ، لا أمان لكم .. لا أمان لكم بالمرة .. ولا سيما أنت .. لا سيما أنت .. أنت الذى كنت بالامس تعرف قدرى وتعتز بزواجك منى ، وتفخر أمام الناس بى ..

وتحشرج صوتها كأنها على وشك أن تبكى ، فانتهز عبد المقصود افندى هذه الفرصة، واندفع نحوها ، وطوقها بذراعه ، وضمها الى صدره فى عطف عميق . وقال متدفقا وهو يهدهدها ويصب فى أذنها أمل روحه ، وصفوة قلبه ، وعصارة فكره وجبه وخباله :

ـ أريد أن أفخر بك أكثر وأكثر يا عواطف .. يجب .. يجب أن تغيرى بعض أخلاقك .. من أجلى .. من أجل سعادتنا .. فى وسعك أن تجربى .. أن تحاولى . لا تغضبى منى . اسمعى . اسمعى .. كبرياؤك مثلا تسىء الى جمالك وتجردك من سحر أنوثتك .. تشبهك بمن هن أغنى منك يتعبك ويتعبنى ، ويجعلك تعتقدين على الدوام أنك تعسة فى زواجك .. اهتمامك الشديد بالزينة والمظاهر يجعلك تحتقرين العواطف وتتعلقين فقط بالماديات .. لا تنظرى الى هكذا .. لقد رأيت بعينك .. رأيت كيف أن الفستان الجديد الذى اشتريته ولم تكونى فى حاجة اليه قد خنق ضميرك وانتزع منك

عاطفة الواجب وقتل فى صدرك احساس الرحمة !.. لا. لا يا عواطف..أنت لم تشعرى بأى ألم من نحو تلك الفتاة المسكينة . ولقد بت لا تشعرين بآلام أى كان حتى أقرب الناس اليك .. فكيف لا أتعذب عند ما أراك على هذه الصورة ؟ كيف لا أتعذب عند ما أراك ملكا لاهواء ونزعات غريبة عنى ؟.. ولكن أين أنت ؟.. وهل أنا أصبحت أراك ؟ هل أنت لى ؟.. هل فى مقدورى الجلوس اليك والتمتع بقربك ولو ساعة واحدة ؟.. لقد أصبحت كأختك الصغيرة عطيات .. أصبحت مثلها تماما .. أشبه بنحلة مفتونة لا يمكن أن ترويها جميع الازهار .. دائما مشغولة .. دائما حائرة .. دائما منهمكة .. زيارات . ملاهى . سينما . تياترو . حفلات . ولائم . متى .. متى جلسنا الواحد منا الى الآخر كزوجين سعيدين ؟.. متى سهرنا معا فى بيتنا كالفين متحابين ؟.. متى كنت فرحة مبتهجة معى كما أراك فرحة مبتهجة فى سهراتنا عند الناس ؟.. الحقيقة يا عواطف أنك لا تحبين بيتك ولا زوجك .. أنت تحبين الدنيا .. دنيا المرح .. دنيا الحركة واللهو .. تريدين أن تشربيها .. أن تلتهميها .. أن تفنى فيها .. ومع ذلك يا حبيبتى فهذه الدنيا لا نهاية لها .. وهذا البحر لا حد له .. وأنت برغم هذا كله امرأة ذكية ونبيلة ومن عنصر طيب وفى وسعك أن تراجعى نفسك .. أن تفكرى .. أن تجربى .. أن تحاولى تبديل أخلاقك ولو بعض الشىء .. من أجلى .. لا ، بل من أجل راحتك أنت ومن أجل سعادتك !

وهفت باعصابه نشوة كلماته وعواطفه ، فهم بتقبيلها . ولكنه لم يكد يحاول ، حتى راغت منه ، وانفجر غيظها المكظوم فى قهقهة مجلجلة ، أخزاه ورعه ما تبين فيها من عبث صريح ، ومجون وقح ، وهزء ملؤه العجرفة والتحدى :

ـ يا روحى .. يا روحى .. ما كل هذه الفلسفة وهذا الشعر ؟.. أين كنت مخبئا كل هذا يا سى عبده ؟.. كمان .. الله يا سيدى .. كمان .. كمان

فجمد فى مكانه وظل شاخصا اليها وهى تقهقه وتترجرج فى عزة وملاحة رأسها الشامخ فوق بدنها المديد وتقول :

ـ لا يا حبيبى .. أنا لا استطيع أن أعيش كما كانت تعيش الست جميلة .. لا أستطيع أن أغير لا أخلاقى ولا حياتى .. ولقد غيرتك لتكون مثلى ، لا لاصبح مثلك ..

وكفت عن الضحك بغتة ثم قالت بعد فترة وهى تتفحصه : أواثق أنت أن حبك لى لن يزول اذا ما تغيرت ؟.

فهتف : هو حبى الذى يطلب اليك أن تتغيرى !

فقالت : ولكنك أحببتنى لانى أنا .. أنا عواطف .. فلو تغيرت فمن يضمن لى انك تثبت على هذا الحب ؟.. قد تزهد فى وتسأمنى .. لا .. ان شخصيتى الراهنة هى التى اجتذبتك ، ولن أكون حمقاء فأبدلها بعد أن لمست قوتها فيك !..

فحاول أن يصيح ، أن يصرخ ، أن يعترض ، ولكنها ردته باشارة كاسرة ، وقالت :

ـ لن أغير لا أخلاقي ولا حياتي !

ووقفت تجاهه منصوبة القامة ، مرفوعة الرأس ، ثابتة النظرة . وزايلتها جفلتها ، وشملتها مظاهر التحفظ القديم ، وسكب عليها الجد والعناد والهيبة سحرا مقلقا غريبا . فبدت في تلك اللحظة عظيمة وفاتنة . فاتنة بجلال مظهرها الصارم العنيد ، وفاتنة بقامتها المديدة ، وصدرها الناهد ، ورأسها الشامخ ، وكيانها الذي انسجم في امتلائه الرائع مع تلك العظمة وذلك الجلال

فتأملها عبد المقصود افندي ، واضطرب حبه في صدره ، وجاش واصطخب وعلا . ولكن هذا الحب نفسه قوى عزيمته ، وثبت جنانه ، وحمله على تياره ، ومده بنفس القوة ونفس العناد ونفس التحدي ، فخطا خطوة نحو امرأته وقال في صوت غائر أجش بائر النبرات :

ـ عواطف . سنبدأ منذ الغد حياة جديدة . سننتقل غدا صباحا الى بيتنا في حي السيدة

فحملقت فيه مذهولة ولم تصدق سمعها . ثم صرخت على الفور : لن أذهب !

فقال في هدوء : ستذهبين !

فأمسكت بذراعه ، وواجهت عينيه ، وقالت وهي ترتعد من فرعها الى قدمها :

ـ لو خرجت من هنا فلن أذهب الا الى بيت أخي !

فألقى عليها عبد المقصود افندي نظرة ، ثم هز كتفيه وقال : أنت وشأنك

واستدار وخرج من الغرفة

* * *

.. واجتازت الشارع سيارة نقل كبيرة محملة بالاحجار ، فارتجت النوافذ واهتزت جدران المنزل ، فأجفل عبد المقصود افندي وأفاق من سباته التأملي الطويل ، وأجال الطرف فيما يكتنفه ، فألفى البيت ساكنا موحشا كعهده به منذ أيام ، وألفى نفسه فريسة القلق والحيرة تنهشه الوحدة ويفرى قلبه عذاب الانتظار

وأحاطت به أفكاره وهواجسه ، فخيل اليه أن سكون البيت يزفر من حوله ، وأن فراغ الصمت يزخر ويموج ، وأن طنين الليل قد اشتد على غير عادة ، وأن الظلمة المنتشرة في جوانب الدار قد احلولكت فجأة وامتلأ جوفها بالخيالات والأشباح

وارتمى في جوف هذه الظلمة دون خوف ، وغيب نفسه فيها ، وراح يطوف غرف البيت ، مستطردا تأمله ، متحدثا الى أفكاره ، مخاطبا هواجسه ، يحاول أن يملأ البيت بشخصه ، وأن يروض عقله وأعصابه على احتمال الوحدة الغادرة فلا يستطيع

وبالرغم منه امتدت يده الى زر النجفة الكبيرة وضغطت ، فانبثق البيت كله يرفل في حلة من نور . فمد الرجل بصره الزائغ الى مخدع النوم ، واندفق الدم الى قلبه ولم يجسر على الدخول .

رأى الحجرة هادئة منظمة كما تركتها عواطف آخر مرة . ورأى الفراش نضرا

مرتبا كما نسقته يداها . ولمح صورة لها مثبتة فى الحائط ، وبعض أثوابها معلقا على المشجب ، ومرآتها الكبيرة تسطع فوق خوان زينتها ، وينصب عليها وهج النور انصبابا ، فيعكس أمامه طيفها ، ويلقى فى روعه أنها هنا .. جالسة هنا .. وانه يبصرها .. وانها على وشك أن تلتفت اليه ، وتبتسم له ، وتدعوه للخروج سويا !..

وأحس أن هبة حارة تأخذ بمخنقه ، وأن الدموع تكاد تطفر من عينيه ، فاطفأ النور ، وأسرع ففتح احدى النوافذ ، وأطل منها ، وتنفس ملء رئتيه

ولاح له عن بعد فى ضباب الليل المرصع بزهرات كبيرة من الاضواء المتألقة المتباعدة ، صالون الاسطى حسنين الحلاق حيث كان يتجمل ويتعطر ويلتقى بصفوة أهل الحى ، والقهوة البلدية حيث كان يقبع هادئا ويترشف الشاى أو الزنجبيل أو القرفة يطفو عليها البندق المحمص الشهى ، وحانوت المعلم احمد الشربتلى حيث كان يجلس على رأس الشارع يرقب المارة ويستمتع بلذة كسله الفاتر الثمين

وتجلى له عالمه الوادع الاصيل ، وغمره سكونه الحالم ، وهدوؤه الشارد ، ومرحه الساذج ، وبلادته المستعصية ، وعدم اكتراثه العميق ، فتأثر ولكنه لم يتحسر . أخذ ولكنه لم يعجب . ارتاح ولكنه لم يستقر .. لا . لم يشعر بأية رغبة فى العودة الى هذا العالم ، بل استبد به فقط شوق طارىء وحنين .. حنين الى زوجته الاولى ، الى الست جميلة ، الى المرأة التى تزوجها هنا ، وأحبته هنا ، وفهمته وقدرته وأطاعته وملأت البيت حوله راحة وبهجة ونعيما ..

ولم يكد يذكرها حتى اكتوى قلبه بالنار . النار الآكلة التى أضرمتها الاخرى . نار الحب ونار العقل ونار المذلة .. خمسة عشر يوما وهو ينتظرها .. لم تحفل به ، لم تأبه له ، لم تكترث لعذابه ، وخلفته وحيدا مشردا منبوذا ، يلعق همه ، ويمضغ ذله ، ويتغذى من الامل الطائش كما يتغذى المريض من وقدة الحمى

وأهاجته صور السعادة تبدعها نفس امرأة جاهلة ، فى حين كان الاخلق والاجدر أن يفيض بها عقل امرأة متعلمة

وأثاره وخبله أنه عجز عن تحقيق هذا الحلم ، واستحوذت عليه هذه الفكرة كما لم تستحوذ عليه قط ، وزادها طول انتظاره ونفاد صبره ولوعة رجولته تمكنا وتأثيرا ، فأحس أن لا قبل له باحتمال أكثر مما احتمل ، وأن العار بات يجلله ، والمذلة تبريه ، والاحتقار يكاد يقتله ، فأغلق النافذة فى عنف واعتزم .. اعتزم كعادته ان يثور .. أن يقطع .. أن ينتهى .. ولكنه تريث أيضا كعادته .. تريث وراح يفكر ويتخيل ويداعب نفس الأمل !..

وفجأة ، وعلى دهش منه ، تمثل له الباب .. الباب العظيم .. الباب الذهبى .. وقد أوصد فجأة فى وجهه واستحال الى شبه جدار هائل موئس عنيد ، أحس أنه لن يستطيع اختراقه مهما حاول ، فضاق صدره ، وشل فكره ، واحتوته ارادة طارئة عاتية ، فانطلق

الى حجرته وارتدى على عجل ثيابه ، وخرج

وكانت الساعة نحو الثامنة مساء ، والجو باردا ، والشتاء فى مستهله ، والمطر قد بدأ يتساقط رذاذا متقطعا مضجرا . فحث عبد المقصود افندى خطاه ، واجتاز المطقة الضيقة، ويمم وجهه شطر بيت المأذون ، وقد انتوى هذه المرة أن يتنفس ، أن يتخلص ، أن يطلقها ويستريح . .

بيد انه ما كاد يتوغل فى المطقة المظلمة ، حتى استشعر ما ستكون عليه حياته ، فهلع قلبه ، وتخاذلت ساقاه ، وثابت عليه دفعة واحدة وطأة الموت اليومى الذى سيقضى به على نفسه ، فتوقف لحظة وعاد يفكر .

وكما يحدث فى بعض الأحيان أن يذهب الانسان فجأة من أقصى القوة الى أقصى الضعف ، كى يذهب فى الواقع من أقصى الضعف الى أقصى القوة ، ومن أقصى البغض الى أقصى الحب ، ومن أقصى الذل الى أقصى الكبرياء ، فقد تراجع عبد المقصود افندى ، وغلبته طيبته ، وقهره الحب ، فاراد أن يكون متسامحا ، وأن يكون نبيلا ، وأن يكون متفضلا ، وأن يبرىء ذمته ويرضى ضميره ويذهب بنفسه الى امرأته ، ويمنحها فرصة أخرى ، ولو عد الناس هذا التصرف منه نزولا عن كرامته ورجولته

وملكته هذه الفكرة ، وأشعرته بضرب من التفوق ، فكر راجعا ، واستقل سيارة انطلقت به الى حى (جاردن سيتى) حيث كان يسكن الدكتور فهيم بك شقيق امرأته الاكبر

وتغلغلت السيارة فى شوارع ضيقة معتمة ، ثم مرقت منها مروق السهم ، ثم مرت متهادية فى الشوارع الكبيرة ، فى الشوارع المتلألئة الساحرة ، فى عالمه الجديد ، فى عالم الجمال الباهر ، والحركة المطردة ، والاناقة المروعة ، واللهو المجنون ، فزفر عبد المقصود افندى زفرة حرى ، واشتد به حنين أعمق وأشد ، وتمنى لو ارتدت اليه امرأته ، لو فهمته ، لو أدركت أنه هو نفسه يحب هذا العالم العصرى ، يحبه حبا طاغيا ، يحبه بقدر ما يكرهه ، وأنه لم يشأ أن يحرمها الحياة فيه ، الا ليعود بها يوما اليه ولكن محتفظا براحته ، ضنينا بحبه ، حريصا على شعلة قلبه وروحه وانسانيته

وعول أن يقول لها كل هذا ، أن يصارحها الآن به، أن يستعطفها ويستميلها ويترضاها ويرجع بها الليلة ، بل الساعة ، لو تعقلت ، الى الحى الذى ألفته والبيت الذى اعتادت أن تعيش فيه

وترجل من السيارة ، ولم يستخدم المصعد ، وارتقى الدرج مسرعا وهو يلهث

وما أن بلغ الطابق الثالث وأشرف على البيت ، حتى طرقت مسمعه أنغام موسيقية حادة ، وضحكات رنانة ، وجلبة وصخب وضوضاء . فاضطرب وبهت ثم تشجع وطرق الباب ، ففتح له الخادم مبتسما ، فاستفسر عن الامر ، فأنهى اليه انهم يحتفلون بعيد ميلاد السيدة الصغيرة عطيات هانم ، ثم أفسح له طرف (البارافان) قليلا ودعاه للدخول

فوجم عبد المقصود افندي وحز في صدره أنهم أهملوه ، وكبر عليه أن يدخل ، وعز عليه أن يرحل ، ولبث واقفا ينتظر كالدخيل المحروم

وعلى حين فجأة دوت في الجو نغمة جديدة أرسلها الحاكي ، واشتدت الجلبة والضوضاء فجاءت من عبد المقصود افندي التفاتة ، فأبصر في مثل لمح البرق ، أبصر من خصاص البارافان ، زوجته ، زوجته نفسها ، تلوح في الغرفة المواجهة ثم تبرز في ثوب السهرة المكشوف ، متألقة العينين ، مضطرمة الوجنتين ، محمومة البدن ، تضحك وتقهقه وهي في أحضان شاب وسيم ، يحملها بين ذراعيه نصف عارية ، ويدور بها في شبه اعصار ، ويلقى بها في حلبة الرقص بين تصفيق المعجبين وهتاف الهاتفين



ما أن رأى عبد المقصود افندي هذا المنظر ، ما أن لمس اندفاع امرأته المتأصل الوحشي في غمرة اللهو ، وتهالكها الجبار على التمتع ، وقدرتها على أن تهزأ بكل شيء ، وتنسى كل شيء ، وتبدو في مثل هذه السعادة الشاملة الغامرة وهو بعيد عنها يتألم ويجأر ، حتى أحس قلبه يتمزق وكيانه كله ينخلع وينسحق سحقا . فاستجمع قواه ، ولم يلق الى الخادم بكلمة ، بل استدار ، وهبط الدرج وثبا ، واستقل سيارة أخرى ، ثم قصد من فوره الى بيت المأذون ، وهناك أمام شاهدين من أهل الحي ، طلق امرأته ، طلق عواطف ، طلقها بعد ثلاثة أعوام من زواجه بها ، طلاقا باتا قاطعا لا رجوع فيه

ولما أتم كل شيء وخرج ، بكى . . بكى طويلا ، ولم يستطع أن يعود الى بيته في حي السيدة ولا الى بيته في حي الزمالك . لم يشأ أن يعود الى عالمه القديم ولا الى عالمه الجديد ، بل سلك طريقا آخر ، وانطلق يمشي كمن يبحث عن شيء آخر . .

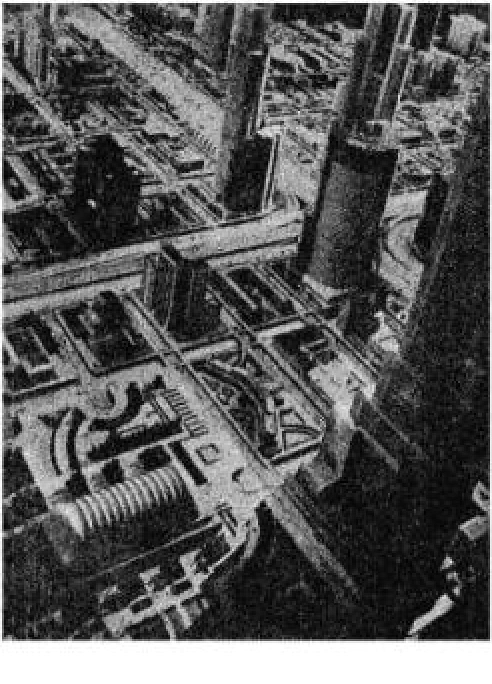
وظل هكذا طول الليل يمشي على غير هدى

ابراهيم المصري

صور من عالم المستقبل

أمريكا حديثة العهد بالفن الجميل ، إذ لا يتجاوز عمرها الفني مائة من السنين . ولكنها في هذه الفترة الوجيزة في تاريخ الأمم ، قد سبقت أمم العالم جميعها في بعض الفنون الجميلة : وعلى الأخص فن البناء وفن الرسم الصناعي

فأما فن البناء الأمريكي فحسبه شاهداً على عظمته تلك الشواهق التي تنطح السحاب ، وتلك المباني الباذخة التي تزيد طبقات كل منها على خمس عشرة والتي يقوم منها الآن في الولايات المتحدة عشرون ألفاً . وليس من شك في أن عمارة « امبير ستيت » التي تتألف من أكثر من مائة طبقة وترتفع عن الأرض ألفاً ومائتين وخمسين قدماً ، تعد طرزاً لعبقرية أمريكا في فن البناء ، التي لا تقنع بضخامة البناء وارتفاعه بل تجمع اليهما روعة فن الابداع في ترسيمه وزخرفته



أحياء من مدينة سنة ١٩٦٠ التي تضم نصف مليون من البيوت والعمائر ، وتشتمل على خمسين ألف سيارة منها عشرة آلاف تجري منطلقة في الطرق والميادين وتنتشر في جوانبها مليون شجرة يصلح بها الهواء ، والاتساع والضوء والهواء والراحة هي الأسس التي تقوم عليها أبنية هذه المدينة المعدة للسكنى أو للعمل وكذلك ستنظم حركة المرور فيها بحيث تقل فيها أخطار الطرق التي تعد من أهم مشاكل الحياة في المدن الكبرى



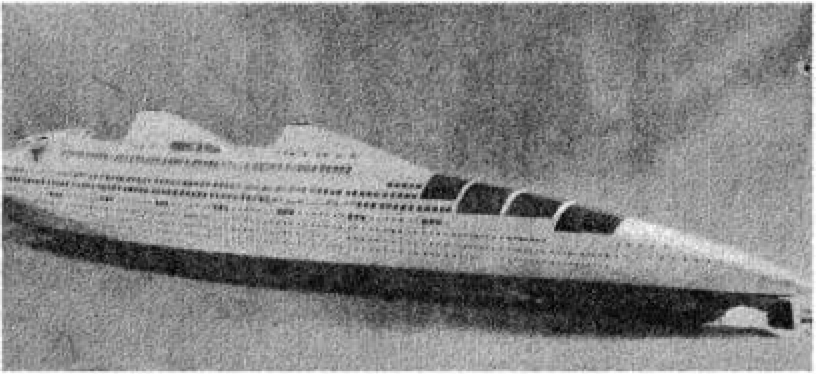
هكذا تكون عمائر السكنى ومكاتب الأعمال غداً يتصورها الفنان الأمريكى نورمان بل جيدس ، متباعدة بعضها عن بعض بحدائق ومتنزهات لتغمرها أشعة الشمس طول النهار ، وفى الوقت ذاته وطيئة السقوف الى حد ما لتتسع لأكبر عدد من السكان والعمال ، وستكون أسطحة هذه المبانى شرفات أنيقة تزينها الزروع والأزهار ، ويقضى عليها الناس أوقات فراغهم تحت أشعة الشمس نهاراً أو ضوء القمر ليلا . .

على أن البناء الأمريكى ليس منصرفاً الى هذه المبانى الضخمة يفتن فى تصميمها وإقامتها ، بل ينصرف قبل هذا الى إيجاد المسكن الطيب للأمريكى العادى ، وإقامة المصنع أو المكتب الصحى النظيف للعامل والموظف

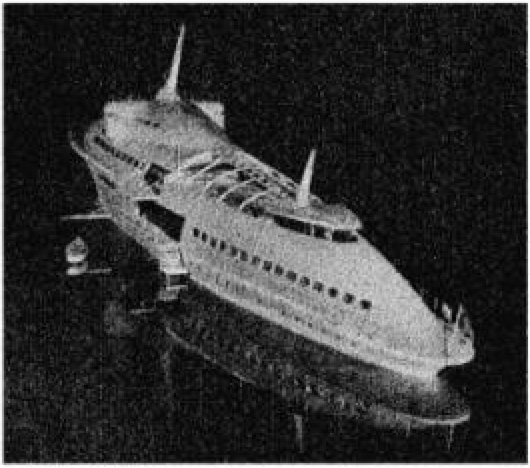
وأما فن الرسم الصناعى فقد أخذت منه أمريكا بأوفر نصيب ليكون وسيلتها الى تجميل تلك الحياة الصناعية ، التى إن خلت من الفن بدت قاتمة مظلمة لا تبعث فى النفس شيئاً من البهجة والجمال . وقد نبغ فى أمريكا عدد من أبنائها فى فن الرسم الصناعى الذى يتناول كل ما تنتجه الصناعة من ضخم قيم ومن تافه بسيط ، فهم يعنون بتجميل الأمشاط كما يعنون بتجميل البواخر الكبرى ، وهم يخلعون ثوباً من الرونق والرواء على آنية الزجاج ومنفضة السجائر كما يخلعون على القطار والسيارة . وهكذا تندمج الملكة الفنية فى الملكة الصناعية فينتج منهما إنتاج صناعى يجمع بين الفائدة والجمال ، ويزيل من الحياة الصناعية التى تحياها أمريكا ما يشوبها من قتام كأنه قتام الدخان المنبعث من مصانعها ومواقدها .

وقد وضع بعض الفنانين الأمريكيين تصميات لما سيكون عليه عالم المستقبل كما يتخيلونه

ولعلنا نرى أن هذه الصور ليست الا من بنات الخيال التى تنأى عن الواقع كثيراً ، والتى لن تخرج من حيز التصور والتخيل أبداً . ولكنه رأى غير صحيح ، فان ما نراه اليوم قائماً من مدائن ومبان وشوارع وميادين ، ومن بواخر وقطارات وسيارات ، ومن جرائد ومجلات وكتب وأفلام — أى من هذه الأشياء التى يتناولها



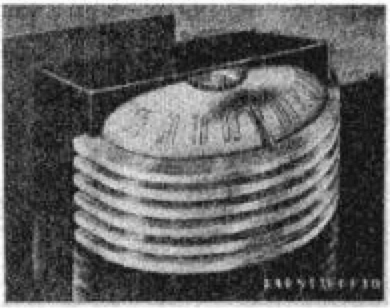
سفينة المحيط غداً .. تحمل ألفين من المسافرين ، وتسعمائة من البحارة . ويبلغ طولها ١٨٠٨ أقدام ، وحمولتها سبعون ألف طن وهي انسيابية الشكل حتى لا تقلل من سرعتها مقاومة الماء أو مقاومة الهواء . ويمكن إغلاق جميع منافذها ، حتى تصير كالبيت المغلق ، إذا اضطرب الجو . وفيها من وسائل تكييف الهواء ما يلزمه للتدفئة أو للتهوية . أما حين يكون الجو صحواً رائقاً فإنه يمكن فتح أكثر جوانبها وفي هذه السفينة كل ما في المدينة من ملاه ونواد وردهة للرقص وهكذا . وهي إلى هذا أسرع من أية سفينة حالية وأقل نفقة في إنشائها



سيجد الأغنياء في عالم المستقبل هذا مجالا فسيحاً للمتعة والبهجة كما يرى هذا الفنان الأمريكي الذي تصور لهم « يختاً » جميلا يقلهم عبر بحار العالم الكبرى، وهو يتسع لثمانية أفراد ومعهم ثلاثون بحاراً وخادمان وممرضة وسكرتيرة . وسرعته ثماني عشرة عقدة ، ويقطع رحلة طولها عشرة آلاف ميل ، وحمولته ألف وأربعمائة طن ، وهو يشتمل على غرفة للجلوس ، وأخرى للمائدة ، ومكتبة ، وأربع غرف للمدعوين من أصدقاء صاحب اليخت وصديقاته ، فضلا عما فيه من غرف النوم وغرف البحارة والخدم



سيكون مطار المدينة من أهم مرافقها ، حين يصبح الانتقال في أرجائها بالطائرات أمراً شائعاً . وهذه صورة مطار المدينة التي يزعم الفنان أنها ستقوم في سنة ١٩٦٠ ، وهو يبعد عن وسطها بتسعة أميال ، ويبلغ قطره ثلاثة أميال ، وهو معد لاستقبال وإيواء كل ما يلزم من الطائرات في خلال نصف القرن التالي . وسيشتمل المطار على جميع الوسائل التي تيسر راحة المسافرين من مكاتب ومطاعم وفنادق . وسيلحق به بحيرة تنزل فيها الطائرات البحرية ، وكذلك مطار المناطيد طول قطره ميل



غداً يكون جهاز التلفزيون ضرورة من ضرورات كل بيت جميل ، لينشر في أنحائه الموسيقى ، والغناء ، والثقافة ، ويحمل إلى الرجل والمرأة وأطفالها صورة ما يجرى في المسارح وما يقام من الحفلات وما يقع من الحوادث

فن البناء وفن الرسم الصناعي – لم تكن منذ ربع قرن تحسب إلا شيئاً من أنسجة الخيال ، فلم تلبث أن تجسمت حديداً وفولاذاً واسمنتاً وخشباً وزجاجاً وورقاً .

ولهذا فإن اليوم الذى تكون فيه بعض مدن العالم كهذه المدينة التي يتخيلها اليوم أحد الرسامين ، أو تصبح فيه بعض بواخر المحيط على هيئة تلك الباخرة التي نراها ، ويصبح في كل مدينة مطار فسيح تعلو وتهبط فيه عشرات الطائرات لتنقل الناس من حي لحي ومن شارع لشارع كما يصور بعض الفنانين – هذا اليوم لابد آت ، وآت عما قريب ، فإن هذا اللون من الفن الأمريكي ليس فناً خالصاً مطلقاً من القيود ، بل هو فن « تطبيق » قائم على أسس من البحث والتقدير ، لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الصناعية التي لا يمكن أن تقوم إلا على أساس من تقدير العلم وبحث العلماء .

وقد عرضت هذه الصور في معرض « الفن للملايين » الذى أقامته بالقاهرة جمعية محبي الفنون بمعاونة مكتب الأنباء الحربية الأمريكي

العِلمُ والعالَمُ

ذكرى ابي الكيمياء الحديثة

احتفل العالم العلمى بالعيد المئوى الثانى لميلاد أبي الكيمياء الحديثة العالم الفرنسى الكبير « انتوان لورانت لافوازيه »

وقد كانت الكيمياء فيما مضى أقرب الى الدجل منها الى العلم ، وكان أكثر المشتغلين بها من المحتالين الذين يتخذونها وسيلة للتغرير بالجهلة وسلبهم أموالهم . وكان همهم منصرفا الى استخراج المعدن النفيس ، الذهب ، من المعادن الرخيصة . اما الكيمياء الحديثة — التى يعد لافوازيه المنشىء الاول لها — فهى هذا العلم العظيم الذى يساهم فى حياتنا الحديثة بأوفر نصيب ، فلها المكان الاول فى علوم الطب ، والزراعة ، والصناعة ، والهندسة

ولافوازيــه هو أول من أثبت ان الهواء مزيج من غازين مختلفين : غاز الاوكسيجين وغاز النيتروجين . وبين أن الاول يساعد على الاحتراق وضرورى للتنفس ، والثانى يخمد اللهب والنار ويقضى على الحياة

وكذلك أثبت لافوازيه أن الماء مركب من غازين هما : الاوكسيجين والهيدروجين . وان حامض النيتريك يمكن انتاجه باتحـاد غازى الاوكسيجين والنتروجين

ولافوازيه أول من رتب جـدولا للعناصر الكيميائية الموجودة . وأول من عمل على اصلاح التسميات الكيميائية وتعميمها

والواقع ان مقام لافوازيه من علم الكيمياء يعادل مقام اسحق نيوتون من علم الطبيعة

على أن جهود لافوازيه لم تقتصر على الناحية الكيميائية فحسب ، بل تجاوزتها الى الافادة من العلم فى مسائل الحياة اليومية . فوضع رسالة فى اضاءة الشوارع استحق عليها مدالية ذهبية منحه اياها ملك فرنسا . ووضع خريطة جيولوجية للبلاد الفرنسية بعد أن أمضى مدة فى زيارة مناجمها ومحاجرها ومصانع الحديد فيها

ووضع تقارير علمية اجتماعية كثيرة منها تقرير عن السجون ، وآخر عن الصحة العامة وثالث عن الصناعة الحديثة . وكذلك ساهم فى اصلاح نظام الضرائب الفرنسية واقامتها على أساس من الرأفة بالناس والاقتصاد فى نفقة جبايتها

وطبق الطرق العلمية فى الزراعة وتربية الماشية ، وبدأ هذا التطبيق فى مزارعه الخاصة

ولما عين عضوا فى لجنة البحث فى البارود أدخل من الاصلاحات والتعديلات ما أدى الى زيادة كمية البارود المصنوع فى فرنسا وتجويد أنواعه ، مما جعل فرنسا فى ذلك الوقت مستعدة استعدادا حربيا عظيما ، وفى غنى عما كانت تستورده من الخارج من البارود

هذه بعض نواحى جهاد لافوازيه فى البحث العلمى وفى الخدمة العامة ، فمن حقه على العالم أن يحتفل بذكراه أطيب احتفال

سوس الغلال

شرح الاستاذ بريسكو فى محاضرة ألقاها « بجمعية الفنون الملكية البريطانية » بعض بحوث حديثة للكشف عن ماهية المساحيق المعدنية التى يمكن اتخاذها فى محاربة سوس الغلال

وهذا أمر على جانب كبير من الاهمية فى هذه الايام التى يختزن فيها الحلفاء كميات عظيمة من الغلال فى الولايات المتحدة واستراليا والهند لتوزيعها على البلاد التى أنهكتها المجاعة بعد ان تخمد نار الحرب الحالية . فان سلامة هذه الكميات وحمايتها من السوس تتوقف على ما تؤدى اليه هذه البحوث الجديدة

وقد حدث فى أثناء الحرب الماضية ان خزنت كميات كبيرة من الغلال فى استراليا ، فلم يلبث ان فتك بها السوس فتكا ذريعا . وهذا ما يريد العلماء أن يتفادوه فى هذه المرة حتى اذا انقشعت سحابة الحرب ، وجد الناس من الغذاء ما يعوض عليهم ما عانوه من نقص وضيق فى سنى هذه الحرب الطوال

والطريقة المتبعة الآن فى حفظ الغلال من السوس ، هى خلطها وقت خزنها بكميات صغيرة من مساحيق غير سامة مثل مسحوق السليكا . فاذا جاء وقت طحنها نظفت من المسحوق اللاصق بها . ولكن هذه الطريقة لم تنجح نجاحا تاما ، فضلا عما تقتضيه من مجهود كبير

وقد كشفت تجارب الاستاذ بريسكو على ان هذه المساحيق الكيميائية ليست مهمة فى ذاتها ، بل ان أهميتها هى فى تبخير الرطوبة التى يحتويها جسم السوسة . ذلك ان السوسة تعتمد فى بقائها حية على الاحتفاظ بما فى جوفها من الماء ، لانها تعيش دائما على ما تلتهمه من الطعام الجاف الخالى من الماء . فاذا أمكن تجفيف ما فى بطن السوسة من الرطوبة أمكن قتلها . والدليل على ذلك أن هذا السوس لا يعيش فى وسط يكثر فيه الغبار ، والمخازن الملوثة بالغبار يموت فيها السوس فى بحر بضعة أيام ، على نقيض المخازن الخالية من الغبار فان السوس يكثر فيها ويتوالد عدة شهور . وسبب ذلك ان دقيقات الغبار حادة الاطراف ، وهى باطرافها هذه تحدث خدوشا فى الغشاء الذى يكسو السوسة ، ثم تلتصق بها وتتراكم عليها . ويترتب على ذلك ان يجف ما فى بطن السوسة من الماء والرطوبة فلا تلبث ان تموت

وعلى هذا فقد وجه الاستاذ بريسكو بحثه الى اختراع مسحوق يقضى على ما فى بطن السوس من الماء . وقد نجح البحث فكشف عن مسحوق كيميائى يمكنه ان يحمى من السوس كمية من الغلال يبلغ وزنها وزن هذا المسحوق ألف مرة . وبهذا سيمكن تجنب ما حدث فى الحرب الماضية من ضياع كميات هائلة من الغلال هباء

فيلم فلكى

قال الاستاذ تشابمان رئيس الجمعية الفلكية بلندن فى محاضرة له عن الكشوف الحديثة فى الطبيعة الشمسية : انه من الممكن ، ومن الواجب ان تقدم علم الفلك لجماهير الناس فى طريقة شائقة جذابة ، تحمله على ان يستمتع برؤية مشاهد الكون العجيبة ، وان يستفيد من الاصغاء الى تفسير الشارح لها

ويكون هذا باستخدام أفلام سينمائية ملونة ، تتعاون على اخراجها الهيئات المختصة فى المراصد الفلكية . وبهذا يمكن ان تعرض على الشاشة البيضاء قصة فلكية عن دورة أو أكثر من دورات كلف « بقع » الشمس

ثم قال : ولا شك في ان اخراج فلم كهذا يعطي أفراد الشعب عامة ، وأطفاله وتلاميذه خاصة ، فكرة يتعرف منها الطريقة التي كشف بها غاليليو عن الدورة الشمسية ، وعن ظهور الكلف الشمسية واختفائها ، ثم يمكن النظارة كذلك من رؤية التغيير الذي يحدث في محور الشمس في أماكن مختلفة من سطح الارض وفي أوقات مختلفة طوال العام السنوي . وكذلك يمكنهم من ملاحظة مناطق الكلف الشمسية وهي تقرب من خط الاستواء ، فيكثر عددها ويقل طوال مدة أحد عشر عاما

ويمكن ان يعرض في هذا الفلم كسوف الشمس وخسوف القمر

ويتبع ذلك عرض ما تقوم به المراصد من اعمال في الوقت الحاضر ، وما قامت به من كشوف فلكية في الماضي

ويعتقد الاستاذ تشابلن ان اخراج فلم كهذا أمر لا بد منه ، وانه يجب على علماء الفلك ان يخرجوا من ابراجهم العاجية ويعرفوا انفسهم وبحوثهم لعامة الناس في جميع انحاء العالم

أثر الحرب في الزراعة البريطانية

ظلت بريطانيا أكثر من قرن (١٧٦٠ — ١٨٧٠) أرقى دولة من الوجهة الزراعية ، وان لم تكن أوفر الدول محصولا . وانما نقصد أن فلاحها كان أخبر الفلاحين بالزراعة ، و « فدانها » أسخى « الفدادين » بالانتاج

وفي هذا العصر الذهبي للزراعة البريطانية، اخترع بعض رجال بريطانيا طائفة من الادوات الزراعية التي يسرت للفلاح مهنته وزادت في انتاجه . فاخترعت محاريث جديدة بخارية تحرث الارض خيرا وأسرع مما كانت تحرث من قبل. واخترعت آلات للدراس ، واستعملت الانابيب المستديرة في تصريف مياه الاراضي ، فأمكن بذلك تجفيف ملايين الافدنة وزراعتها. وأنشئت معاهد كثيرة لاجراء البحوث والتجارب العلمية في فن الزراعة ، وقد كشف أحدها — وهو معهد روثامستيد — عن مادة السوبرفوسفات التي تزيد في خصوبة الارض زيادة كبيرة

وفي منتصف القرن التاسع عشر كان الزارع البريطاني يعد استاذا في مهنته . وكان زراع اسكوتلنده على الاخص أقدر الزراع وأمهرهم ، حتى صارت بلدهم مقصدا لكبار الزراع الاوربيين الذين يريدون زراعة أملاكهم على خير الوجوه. فكنت تجد في كل مزرعة اسكوتلندية فلاحا يدرس فن الزراعة لبارون ألماني ، أو لكونت دنمركي ، أو لابن أحد لوردات انجلترا ..

ولكن بعد سنة ١٨٦٠ بدأت الزراعة الانجليزية في التأخر التدريجي، بسبب ما تدفق على بريطانيا من غلال المستعمرات البكر الفسيحة ، وكذلك تدفقت اللحوم الثلجة ومنتجات الالبان من امريكا واستراليا وغيرهما من تلك المناطق الغنية الجديدة . فأدى هذا الى تدهور الزراعة البريطانية، حتى أفلس كثير من كبار الزارعين، وحتى اضطر صغارهم الى أن يهجروا الريف ويعتصموا بالمدن حيث يعملون في مصانعها الناهضة الكثيرة

وفي الربع الاول من هذا القرن ، صار اعتماد انجلترا في غلالها ولحومها على ما تستورده من البلاد الاجنبية وعلى الاخص من ممتلكاتها فيما وراء البحار. وظل الجزء القليل من عمالها المشتغلين بالزراعة مهتمين بأنواع معينة من الانتاج الزراعي ، أهمها الالبان والطيور والبيض والخضروات وأنواع محلية من اللحوم.

وكذلك بعض السلالات الممتازة من الخيل والماشية والاغنام وفصائل الخنازير . ثم جاءت سنة ١٩٢١ توجد الفلاح البريطاني نفسه وسط سوق عالية يزاحمه فيها المنافسون الاقوياء ، فكادت تقف حركة تصدير المنتجات الزراعية من بريطانيا وقوفا تاما ، فأصيبت الزراعة البريطانية بضربة ثانية كادت تقضي عليها قضاء تاما

ولم تلبث أن بارت أكثر الاراضي التي أصلحت على مر الزمن . وأهملت المصارف التي حفرت لتصرف المياه المستنقعات القديمة بعد أن جففت وزرعت دهرا طويلا . وبدأت تنفد كميات الفوسفات التي أودعت الارض فقلت خصوبتها الى حد بعيد جدا

فلما قامت الحرب الحاضرة ، صار من الواجب ان تعتمد بريطانيا على نفسها في قوتها ومؤونتها ، فليس من المستحيل أن تضرب ألمانيا عليها حصارا شديدا من غواصاتها الهائلة في أرجاء البحار . ولو فرضت استحالة هذا فان سفن بريطانيا وحلفائها مخصصة لنقل الجنود والعتاد ، قبل أن تخصص لنقل الغلال واللحوم

وعلى ذلك فقد طولب الفلاح البريطاني بأن يزيد من انتاجه الى أقصى درجة مستطاعة . وقد نجح في هذا نجاحا عظيما . فقد كانت الاراضي المزروعة في انجلترا واسكتلندة وشمال ايرلندة حتى عام ١٩٣٩ اثنى عشر مليون فدان ، فوصلت هذه المساحة في سنة ١٩٤٣ الى تسعة عشر مليون فدان . وضوعفت المساحات المزروعة من القمح والبنجر والبطاطس . وكذلك زادت الكميات التي تنتجها من اللحوم والالبان الى درجة كادت تغنيها عن كل ما كانت تستورده من الخارج

وقد يبدو هذا غريبا في وقت نقصت فيه الايدي العاملة في الزراعة نقصا كبيرا ، لتجنيد رجال بريطانيا وشبانها اما في ساحات الحرب واما في مصانع الذخيرة والسلاح . ولكن الفضل يرجع الى عاملين : الى المرأة الانجليزية التي خلفت زوجها وابنها في معاناة الزراعة ، والى التوسع في استخدام الآلات الميكانيكية حتى صارت بريطانيا اليوم أكبر مزرعة ميكانيكية في أوربا ، بدون استثناء روسيا ذاتها

شذرات

■ تدل بعض البحوث الطبية الحديثة على أن حالات الكآبة والتشاؤم والهبوط التي تنتاب بعض الناس ترجع الى نقص كمية الكلسيوم في اجسامهم . وانه اذا زادت كمية الكلسيوم في الجسم أضفت على المرء حالة من السعادة والمرح والتفاؤل والانبساط العاطفي

■ يبلغ عدد اللغات التي يتكلمها سكان القارة الافريقية وحدها تسعمائة لغة

■ تستخدم بعض قبائل أواسط أفريقيا الطبول في ارسال الاشارات بينها في حالات الحرب والغزو . وترسل هذه الاشارات بسرعة ألف قدم في الثانية الواحدة ، وبذلك يمكن أن تنقل مسافة عشرين ميلا في دقيقة ونصف دقيقة . فهم من هذه الناحية ليسوا أقل تأخرا من أولئك الذين يستعملون في حروبهم التليفون والتلغراف واللاسلكي

■ دلت بعض الاحصاءات الطبية على أن قرحة المعدة تصيب خمسة رجال مقابل كل امرأة تصاب بها

الحركة الفكرية

اصلاح التعليم فى بريطانيا

تشهد مصر فى هذه الايام بداية ثورة اصلاحية فى نظامها التعليمى ، يرجى ان تكون هى حجر الاساس فى بناء نظام جديد للمجتمع المصرى فى مختلف نواحيه

بسطت مبادىء هذه الثورة فى هذا التقرير النفيس الذى وضعه وزير المعارف عما يجب ان يكون عليه أمر التعليم فى مصر اذا هى أرادت ان تساير العالم فى تقدمه الفكرى وتطوره الاجتماعى .. وكذلك فصلت أصول هذه الثورة وأهدافها من قبل فى هذا الكتاب النفيس الذى وضعه الدكتور طه حسين بك عن « مستقبل الثقافة فى مصر » . فقد غدا ذلك التقرير وهذا الكتاب وما تضمناه من مبادىء اصلاحية عظيمة دستورا لسياسة التعليم فى مصر

والامر فى بريطانيا كالامر فى مصر من حيث الرغبة الشاملة بين رجال التفكير والتعليم ، ورجال الحكم والسياسة ، فى اصلاح النظام التعليمى اصلاحا شاملا يلائم الافكار الحرة التى أشاعتها هذه الحرب واسبابها ودواعيها ، ويوائم ذلك التطور الذى سيأخذ به العالم حتما غداة يوم الهدنة سعيا الى اشاعة الحرية واقامة العدالة بين الناس

وقد وضع وزير المعارف فى بريطانيا تقريرا فى اصلاح التعليم ، وعرض التقرير على البرلمان البريطانى ، وفازت الحكومة باقرار كل ما أرادته فى شأن اصلاح التعليم ، وعلقت أمر الثقة بها على موافقة البرلمان على منهاجها التعليمى كاملا، وهذا دليل قاطع على ان قادة بريطانيا يرون سياسة التعليم واصلاحه ، ليست أقل شأنا ولا أهون خطرا من سياسة الحرب وكسبها

ويجمل بنا ان نلخص المبادىء التى قام عليها هذا الاصلاح كما عرضها أحد كبار رجال التعليم الانجليز ، وهو سير فريد كلارك ، مدير معهد التعليم بجامعة لندن

وأول هذه المبادىء هو « ازالة الحواجز » أى تلك الحواجز الاجتماعية والاقتصادية التى تحول بين جزء كبير من الأمة وبين متابعة التعليم فى جميع مراحله . ففى الوقت الحاضر لا تزيد نسبة الصبيان والفتيات الذين يتلقون تعليما ثانويا فى بريطانيا عن ١٥ ٠/٠ من مجموعهم الكامل . ذلك أنه لا ينتقل من التعليم الاول الى التعليم الثانوى الا أحد طالبين : طالب يستطيع أهله ان يقوموا بنفقات المدرسة الثانوية وهى نفقات تكاد تبهظ عامة الناس ، واما طالب على جانب كبير من الجد والذكاء فيستطيع ان ينجح فى امتحان المسابقة الى دخول المدرسة الثانوية ، وهو امتحان يعجز الطالب المتوسط عن النجاح

أما الباقون ، أما ٨٥ ٠/٠ من صبيان انجلترا وفتياتها ، فيتركون التعليم بعد مرحلته الاولى التى يبقون بها عادة الى سن الرابعة عشرة

فماذا قررت الحكومة البريطانية لاصلاح هذا الحال ؟ قررت تقسيم مراحل التعليم على الوجه الآتى :

١ ــ مرحلة التعليم الابتدائى ، ويدخلها جميع أطفال بريطانيا ذكورا واناثا ، فى سن الخامسة ويتركونها فى سن الحادية عشرة . وتكون هذه المدارس عامة لابناء جميع الطبقات غنيها وفقيرها ، عاليها وسافلها

٢ ــ مرحلة التعليم الثانوى وتضم التلميذ والتلميذة فيما بين السنة الحادية عشرة والسنة السادسة عشرة . وسيكتفى عقب الحرب مباشرة

بجعل سن التخرج خمسة عشر عاما ، ثم تزاد بعد ذلك عاما آخر

وتشتمل هذه المرحلة على ثلاثة أنواع مختلفة من مناهج التعليم : (ا) منهج التعليم الجامعى ويتناوله أولئك الذين يريدون ان يتموا دراساتهم فى الجامعات والمعاهد الفنية العليا ليتخرجوا فيها أطباء ومهندسين ومحامين وكيميائيين وامثالهم من أصحاب المهن الخاصة . (ب) منهج التعليم الفنى ويتناوله أولئك الذين يريدون ان يتهنوا الصناعة أو التجارة ، وان يكون لهم فيها خبرة عملية كافية . « ج » منهج التعليم العام وهذا يقدم لطلابه خليطا من الثقافة العامة للذين لا يعدون انفسهم لعمل معين

على أن هذه المناهج ، او هذه المدارس ، الثلاثة ، ليست منفصلة بعضها عن بعض انفصالا تاما . بل هناك ممرات ودهاليز تتيح للطالب ان ينتقل فيها من مدرسة الى مدرسة ، اذا هو تبين ، أو تبين له مدرسوه ، انه اصلح لنوع آخر من التعليم غير النوع الذى اختاره . وستكون هذه الممرات والدهاليز مفتوحة الابواب على مصاريعها فيما بين السنة الحادية عشرة والسنة الثالثة عشرة ، وهى الفترة التى ستعتبر دور اختبار كفاية الطالب واستعداده الحقيقى

٣ ــ مرحلة التعليم الاضافى التى تعقب مرحلة التعليم الثانوى ، ومدتها سنتان ، وفيهما يستأنف الطالب تعليمه فى أثناء ممارسته عمله ، وذلك بأن يتيح المصنع أو المتجر أو المكتب الذى يعمل فيه يوما من كل اسبوع يذهب فيه الى المدرسة ، وهذا بخلاف يوم الاحد الذى يمنحه اجازة للراحة والاستجمام . ولا شك ان هذه مرحلة عظيمة الفائدة لانه يستطيع فى أثنائها ان يطبق ما يتعلمه على ما يعمله ، لانه يعانى التعليم ويمارس العمل فى وقت واحد ، على عكس ما يحدث الآن ، اذ لا يبدأ العمل الا بعد ان ينتهى انتهاء تاما من التعلم

أما مرحلة التعليم الجامعى فتسير فى طريقها المعهود ، على ان ييسر لابناء جميع الطبقات ان يظفروا بهذا التعليم ، ما دام استعدادهم العقلى يؤهلهم لها

وثمة نقطة أخرى هامة فى هــذا الاصلاح التعليمى ، هو فتح آفاق واسعة يستنفد فيها التلاميذ والطلاب نشاطهم وحيويتهم ووقت فراغهم بدل أن ينصرفوا الى تلك المتع اللاهية المؤذية التى كثيرا ما تثقل عقولهم واجسامهم ثقلا . ولهذا اقترح انشاء ما يسمى « بالخدمة القومية للشباب » ، وهى هيئات منبثة فى أرجاء البلاد لتوجيه الشباب الى نواحى الخدمة الاجتماعية التى يفيد منها الطالب دراسة مباشرة لشؤون وطنه ، كما يفيد منها تنمية لاحساسه القومى ، واذكاء لعاطفته الوطنية ، واستثمارا لنشاطه وقواه على خير الوجوه

كتب عن امريكا

لاحظ نقاد الصحف الادبيــة أن مكتبة الانجليزية ، أى اللغة الانجليزية ، حفلت منذ ثلاث سنوات أى منذ المعركة الجوية التى شنتها ألمانيا على بريطانيا ، بكثير من الكتب المؤلفة عن بريطانيا وحضارتها وسياستها وأسلوب الحياة فيها ، مكتوبة بأقلام كثيرين من كتاب امريكا وبريطانيا

ثم لاحظوا أن صدور هذه الكتب بدأ يقل جدا فى هذه الايام ، وانه أخذ يحل محل هذه الكتب المؤلفة عن بريطانيا كتب مؤلفة عن أمريكا ، وتاريخها وتكوينها الاجتماعى واتجاهها السياسى ونظام المعيشة فيها

وقد عنيت امريكا ، كتابا وصحافة وحكومة ، فى العهد الاخير بتمكين الشــعوب الاجنبية فى أرجاء العالم من معرفة شؤونها وتبين وجهاتها ، حتى صارت فى أكثر دور السفارات الامريكية فى الخارج مكتبة حافلة بالمؤلفات الخاصة بأمريكا ، وقاعة لمطالعة هذه المؤلفات ، لمن يريد أن يتزود بالعلم عن امريكا والامريكيين

وليس من اليسير ان نتحدث عن جميع ما صدر أخيرا في هذا الموضوع ، ولكنا نقتصر على أهمها وأطرفها فيما يلي :

(١) محيط تلتقط بيننا : هذا اسم الكتاب الذى وضعته السيدة ل. س. فلورنس عن امريكا. وقد ولدت هذه الكاتبة الانجليزية في امريكا وعاشت فيها سنين طويلة . فعنيت في كتابها ببيان وجوه المقارنة والمفارقة بين امريكا وأهلها وبين بريطانيا وأهلها . فهي تقول ان امريكا بلد فسيحة الارجاء ذات طبيعة موفورة الغنى ، هي بلد الكبر والضخامة . ولهذا كانت «الكمية» أهم ما يعنى به الامريكي ، وكان حديثه لهذا يدور دائما حول الضخامة والفخامة . أما بريطانيا فبلد صغير المساحة ، لا تزيد مساحته عن نصف مساحة ولاية كليفورنيا احدى ولايات امريكا الثماني والاربعين . ولهذا كان شعبا معنيا بالكيف لا بالكمية ، بل كان في غالب الامر مزدريا للضخامة مقللا من شأنها في الحياة

وتقول المؤلفة في كتابها ان سكان امريكا اليوم مائة وثلاثون مليون نسمة ، وكانوا منذ قرن ونصف قرن أربعة ملايين فحسب . فقد تدفقت عليها أمواج المهاجرين من شتى أرجاء الارض بالملايين في فترة وجيزة . ودخلها في السنوات العشر التي سبقت الحرب الماضية ثمانية ملايين من الانفس . فهل نعجب بعد ذلك من اختلاف اتجاهات الرأى العام فيها ، أم نعجب من أن رجلا مثل روزفلت يستطيع ان يوجد من هذا الشعب المؤلف من أبناء جميع شعوب الارض شعبا موحد القوى موحد الكلمة الى درجة ليست أقل من تلك التي بلغها الشعب البريطاني في ابان معركته ذاتها

ولكن المؤلفة تخطىء في بعض النقط ، فتزعم ان الانجليزى لا يحب الفكاهة الامريكية . وبيان الخطأ في هذا ان القارىء الانجليزى هو الذى أذاع في العالم شهرة الكاتب الامريكي الكبير مارك توين المشهور بفكاهته ومداعبته . وهذا دليل على ان الانجليزى يتذوق تماما الفكاهة الامريكية . والانجليزى يضحك من هارولد لويد ومن لوريل وهاردى وغيرهم من الممثلين الامريكيين كما يضحك الامريكي سواء بسواء

(٢) الولايات المتحدة الامريكية : وضع هذا المؤلف أكبر اخصائي في انجلترا في تاريخ امريكا وشؤونها العامة ، وهو الاستاذ بروجان ، وفيه يشرح حياة الشعب الامريكي شرحا مفصلا دقيقا في أثناء حديثه عن تاريخه ، وحكومته ، وصناعته ، وصحافته ، ونظامه الاجتماعي ، وأسلوبه التعليمي ، واتجاهه الديني ، ومناحي المرح في حياته

(٣) صورة حليف : مؤلف هذا الكتاب المؤلف الانجليزى جون لانجدون ديفيز ، الذى عاش في امريكا طويلا وطوف في أرجائها كثيرا ، وعلى الاخص في تلك الفترة العصيبة التي سبقت قيام روزفلت بالحكم ثم في السنوات الاولى من رئاسته . ولهذا كان جزء كبير من كتابه في عرض نظام « التعامل الجديد » الذى أقام به روزفلت ثورة اقتصادية واجتماعية كبرى . وكذلك تحدث في كتابه عن بعض الشخصيات الغريبة التي شهدتها امريكا في خلال السنوات الماضية مثل الاب كوجلين قسيس الراديو ، الذى كان يذيع اذاعاته الدينية والسياسية باللاسلكي ويهاجم روزفلت أقوى مهاجمة

(٤) جسر على الاطلنطى : أما هذا الكتاب فقد ألفته لجنة من ستة عشر رجلا من رجال الكتابة والسياسة في بريطانيا ، لبحث العلاقات المختلفة بين بريطانيا وامريكا . ويرأس هذه اللجنة سير فيليب جيبس وهو من مشاهير المؤلفين الانجليز ، ومن أعضائها ارتشيبولد سنكلير ، ولورد صموئيل ، ومستر لويد جورج . ومن أهم موضوعاته بحث في موضوع السياسة الامريكية بعد الحرب ، وهو بحث جرىء صريح ، يجب أن يقرأه من يرون ان السياسة الامريكية ستتصل ببلادهم في القريب العاجل

الكتب الجديدة

المذاهب الاجتماعية الحديثة

للاستاذ محمد عبد الله عنان

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في ١٨٨ صفحة

في موضوع المذاهب الاجتماعية الحديثة تتمثل كل مسائل الحاضر والمستقبل . فأما الحاضر فهو نضال المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخصيبة وهو يمت بأوثق صلة الى اضطرام الحرب الحاضرة ، ويجثم وراء الصراع العالمي الحاضر . وأما المستقبل فهو رهين بالنتائج التي سوف يتمخض عنها هذا الصراع من تغلب فريق على آخر ، وانتصار المبادئ والنظم التي يمثلها ، وانهيار المبادئ والنظم التي يمثلها الفريق المغلوب

وقد قدم الاستاذ عنان ، استاذ المذاهب الاجتماعية بمعهد الصحافة بكلية الآداب بالقاهرة شرحا شاملا دقيقا لهذه المذاهب ، استقاه من عشرات الكتب والاسفار التي قرأها ودرسها في هذا الموضوع ، ومما شاهده في أثناء رحلاته الكثيرة الى أوربا من أساليب تطبيق هذه المذاهب ، وكذلك مما جمعه عنها من مختلف المراجع والوثائق ، ومما سمعه من أبناء الشعوب التي تأخذ بهذه المذاهب أو تخضع لها من الآراء والتعليقات

وعني المؤلف بأن يدرس هذه المذاهب من الناحية العملية ، وان يتبسط في شرحها من الوجهة التطبيقية ، ليسهل على القارئ الذي يتتبع أحداث الحرب والسياسة ان يفهم في ضوئها أدوار النضال الحالي

ودقة الاستاذ عنان في كل ما يكتب من بحوث في التاريخ والسياسة أشهر من ان نتحدث عنها ، فهو من الكتاب القلائل الذين يعنون ويسرفون في التقصي والتحقيق في كل ما يصدر من كتب وكل ما ينشئ من بحوث

ابن العاص

للاستاذ عباس محمود العقاد

مطبعة دار احياء الكتب العربية في ١٥٠ صفحة

عمرو بن العاص ، هذا الصحابي الجليل ، والسياسي القدير ، والقائد المحنك ، هو البطل الذي صوره الاستاذ العقاد في كتابه الاخير الذي استهلت به لجنة دائرة المعارف الاسلامية السلسلة التي اعتزمت اصدارها عن « أعلام الاسلام » مكتوبة بقلم نخبة من « أعلام الكتاب »

والاستاذ العقاد في كتابه ، ليس مؤرخا فحسب يروي الوقائع ويسجل الاحداث ، بل هو « أديب » يصور بطله تصويرا يستمد خطوطه وألوانه وظلاله من أقوال هذا البطل وأعماله وسيرة حياته

« وما أحوج الامة الاسلامية — كما قالت اللجنة في تقدمة سلسلة « أعلام الاسلام » التي ترجو ان تظفر بها قريبا — الى القراءة المفيدة والقدوة الحميدة ، فهما الوسيلة الى انبعاث الشعور بكوامن نفسها وباتصال تاريخها وبما لها من أثر خالد في حضارة العالم وتراث الانسانية .. وهذه الكتب هي خير زاد يتزود به في هذا الطريق فقد جعلت العالم العربي في أطواره رقعة واحدة ، وأخذت تعرض تاريخه في سير رجالاته الاعلام في الحكم والسياسة والدين والفلسفة ، وفي العلم والادب والتاريخ عرضا يقرب دراسة التاريخ الى النفوس »

١ ـ بنت الشيطان

مطبعة المعارف فى ١٥٠ صفحة

٢ ـ ابو شوشة والموكب

مطبعة الترقى بدمشق فى ١٠٤ صفحات

للاستاذ محمود تيمور

يتناول الاستاذ محمود تيمور بقصصه الحياة المصرية الصميمة التى يحياها الناس فى أنحاء الريف وأحياء المدن دون أن ينسدل عليها ستار من التقليد الاعمى لمظاهر الحياة الاجنبية ، وهو يقيم قصصه على أساس الدراسة الدقيقة لعلم النفس الحديث وما كشف عنه من ألوان العواطف والمشاعر المختبئة فى حنايا النفس وأطوائها

ومن مزايا أدب الاستاذ تيمور انه فى عبارة عربية سهلة واضحة مشرقة ، لا تعمل فيها ولا اجهاد ، ولا تبذل فيها ولا ترخص ، فهو اذا كان يمثل الحياة المصرية فى قصصه فانه يمثل العقلية المصرية فى اسلوبه : ببساطته ووضوحه واتزانه

و « بنت الشيطان » هو عنوان القصة الاولى من القصص الثمان التى يشتمل عليها هـذا الكتاب . ويتقدمها مقال قيم فى « أثر القصة فى تربية الشعب »

ولم يقتصر قلم الاستاذ تيمور على فن القصة الصغيرة ، بل تعداها الى فن المسرحية فأخرج جملة مسرحيات لا تقل عن قصصه فى براعة العرض ، وصدق التصوير ، وسهولة التعبير

وفى مسرحياته ـ كما فى قصصه ـ يعالج الاستاذ تيمور الحياة المصرية » وتتجلى فيها ـ كما يقول الاستاذ زكى طليمات فى تقدمته لهذا الكتاب ـ مميزات الطبع المصرى اللطيف المستمد وهجه من حرارة الروح ولطف المزاج ، لا من اصطخاب العواطف وقوة الغرائز »

ولكنا نراه فى هاتين المسرحيتين « ابو شوشة والموكب » قد خرج بهما من اللون المحلى المحض الى لون « عالمى » رحب الآفاق ، فيما ترمز اليه المسرحية الاولى من فكرة الزمن والنزاع بين الحاضر والماضى ، وفيما تمثله المسرحية الثانية من اضطراب النفس وتقلقل العاطفة فى كل انسان

ما تيسر

للاستاذ خليل السكاكينى

المطبعة العصرية بالقدس فى ١٣٦ صفحة

يضم هذا الكتاب طائفة من المقالات والمحاضرات التى أنشأها وألقاها الاديب الكبير خليل السكاكينى

وللاستاذ السكاكينى تاريخ حافل فى الكتابة والخطابة ، وفى التربية والتعليم . وهو فى هذه الناحية وفى تلك على السواء رجل « حكيم » ينظر الى الحياة نظرة فلسفية خالصة ، لا يشوبها الزيف ولا يغشى عليها الطلاء . بل هو لا ينظر الى الحياة نظرة فلسفية فحسب ، بل « يحياها » حياة فلسفية صحيحة ، فيأنس الى رجل فى اسماله البالية وهيئته الزرية قبل ان يأنس الى رجل يخطف العين بما يحيطه من مظاهر الزخرف واسباب التزوير

وهذه النظرة الفلسفية وهذه الحياة الفلسفية واضحة فيما يضمه هذا الكتاب الشائق الثمين من فصول نشرها فى بعض الصحف ، ومن خطب ألقاها فى بعض المحافل .. وهو فى فلسفته هذه يجنح الى الدعابة والفكاهة التى تلمس فيها رجلا « لا يلقى دهره الا غير مكترث ولا يقيم لهذه الدنيا وزنا »

شكرى القوتلى

عدد صفحاته ١١٤ صفحة

السيد شكرى القوتلى ، رئيس الجمهورية السورية ، بطل من ابطال الجهاد القومى ، وزعيم من زعماء الكفاح فى سبيل الحرية ، وعلم من أعلام العروبة الساعية الى استعادة مجدها وتشييد مستقبلها

وانه لواجب على كل عربى أن يتدبر حياة هذا الزعيم ، ويتدارس سيرة جهاده ، ويتتبع أطوار كفاحه .. وهذا ما تضمنه هذا الكتاب القيّ يعرض تاريخ الزعيم الكبير ، وما حفل به من ضروب النضال وألوان الاعنات ومثل القوة والمضاء ، والاباء فى الحق والشدة على الباطل ، ورسوخ العقيدة وقوة الايمان

ولا شك ان قراءة هذه السيرة الطيبة تقدم للقارىء صورة مجملة عن الحركة السياسية فى سورية الحديثة ، وما يساور هذا الشعب الكريم من الآمال الشريفة

ابطال الاسلام

للاستاذ محمود نصير بك

مطبعة ومكتبة مصر فى ١٣٢ صفحة

يترجم هذا الكتاب ، الذى ألفه الاستاذ محمود نصير بك ، حياة نفر كريم من خلفاء المسلمين وابطال الاسلام فى صدره الاول

فهو يشتمل على خمس وعشرين ترجمة ، منها تراجم الخلفاء الراشدين الاربعة ، ومنها تراجم سعد بن ابى وقاص ، وخالد بن الوليد ، وابى عبيدة بن الجراح ، والزبير بن العوام ، وموسى ابن نصير ، وحمزة ، والعباس ، والحسن ، والحسين ، وغيرهم من أولئك القادة الذين بنوا مجد الاسلام وشادوا الدولة الاسلامية

والمؤلف يركز ترجمته فى صحائف قليلة يضمنها تاريخ حياة المترجم له ، وبلاءه فى سبيل الاسلام ، وما قام به من فتوح وما بذل من جهود

وهو يعتمد فى تأريخه على كتب السيرة وكتب التاريخ العربية المعتمدة ، ويجتزىء منها بما يبرز شخصية ابطاله ويوضح معالم خصالها

والكتاب مزين بخرائط كثيرة للفتوحات الاسلامية ، وكذلك ببعض الصور التى تمثل مناظر من تاريخ المسلمين فى الاندلس

الدقيق

للدكتور أنيس أنسى بك

شركة فن الطباعة عدد صفحاته ٤٨ صفحة

أدت الحرب وما يتبعها من أزمات ومصاعب فى مسألة التموين ، الى تقرير خلط دقيق القمح بدقيق حبوب أخرى أكثر توافرا فى بلادنا ، وترتب على هذا ان واجه الكيميائيون بوزارات الصحة والتموين والتجارة والصناعة صعوبات جمة فى فحص الدقيق بأوصافه الجديدة التى قررتها الحكومة . فقام الدكتور أنيس أنسى بك مدير المعامل بوزارة الصحة ، باستنباط طريقة سهلة لفحص الدقيق . وهذه الطريقة هى موضوع هذه الرسالة العلمية التى تحدث فى فصلها الاول عن تاريخ الدقيق وصناعة الطحن منذ اقدم العصور ، وفى فصلها الثانى عن الحبوب المختلفة وما تتألف منه من العناصر والمواد الغذائية ، وفى فصلها الثالث عن الطريقة التى ابتكرها لمعرفة نسب خلط الدقيق

الملك الضليل : امرؤ القيس

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

مطبعة المعارف فى ٢٠٠ صفحة

« كان الفتى الراكب أجمل الفتيان ، وكانت فرسه العربية الكريمة أجود الجياد . كان الفتى فى ميعة الشباب ، خلعت عليه سن العشرين رونقها ، وهو يهتز للنسيم البليل ، فى صباح يوم صاف من أيام الشتاء ، فى واد ضيق من وديان نجد ببلاد العرب . وسار وراءه كلب طويل الجسم ، ضامر الحشا ، تظهر عليه الشراسة والضراوة ، وهو يتطلع بين حين وآخر نحو سيده ، كأنه ينتظر اشارته »

بهذه العبارة يبدأ الاستاذ الكبير ابو حديد كتابه الشائق النفيس عن امرىء القيس . ومنها يمكن ان تتبين الاسلوب البارع الذى اتخذه فى

ترجمة الشاعر العربى الخالد . وتقول الاسلوب البارع لاننا نظن ان امرأ القيس هو أول شاعر عربى يظفر بتأريخ حياته ، ونقد شعره ، فى اسلوب قصصى أخاذ . وهو أول شاعر عربى يظفر بمؤرخ قصصى مبدع ، ساق للناس قصته كما ساق اميل لودفيج قصة الشاعر الالمانى جوتيه ، وكما ساق اندريه موروا قصة الشاعر الانجليزى شيلى

والحق انه لو سيق لنا الادب العربى القديم فى هذا الاسلوب الذى اصطنعه الاستاذ ابو حديد فى عرض أدب امرىء القيس ، لغدا هذا الادب — وقد كاد يصبح نسيا منسيا — قريبا الى العقل حبيبا الى القلب، أثيرا عند عامة القراء وخاصتهم على السواء

والحق ان الاستاذ أبا حديد ، وله فى فن القصة قدح معلى ، وله فى فن الترجمة أثر مشهود ، وله فى الكتابة اسلوبه الجزل الرصين، حقيق بالتهنئة على هذا الكتاب النفيس ، وخليق بأن نطالبه بأن يكون كتابه هذا فاتحة كتب كثيرة من طرازه ، يترجم بها حياة بعض شعراء العربية الافذاذ

امرؤ القيس

للدكتور محمد صبرى

مطبعة دار الكتب المصرية فى ٩١٦ صفحة

هذا كتاب آخر عن امرىء القيس، هو الحلقة الاولى من « الشوامخ » ، عبارة عن دراسة أدبية تحليلية لماهل الشعر الاول ، فى ضوء جديد يكشف من ناحية عن الصلة التى تربط بينه وبين صحراء العرب وجاهليتها وشعرها ، ومن ناحية أخرى ، عن الصلة التى تربط بينه وبين شعراء الافرنج الذين ملأوا الدنيا تغريدا ، وحلقوا على كل أيكة وفنن ، وأصبح تطريبهم سلوة المحزون ، وعزاء الانسانية البائسة ، وراحة المتعب ونفثة الصدور

تناول المؤلف حياة امرىء القيس وشخصيته من شعره ، وأورد آراء المتقدمين فيه ، ثم أفرد فصلا وافيا للتمثيل والتصوير فى شعره ، كشف فيه عما يمتاز به من قوة الفطرة والطبع ، وقوة الملاحظة وجدة المعانى والتبريز فى صناعة البيان

والمؤلف يعود بهذا الكتاب الى بحوثه الادبية الخالصة التى كان قد تركها فترة الى التاريخ ، وهو يعد أنه سيواصل هذه السلسلة ، فيتبع هذه الحلقة بثانية عن أبى عبادة البحترى

ولا شك فى أن هذا مجهود عظيم ، يضيف الى المكتبة العربية ذخيرة نفيسة .

بلزاك

للاستاذ أحمد الصاوى محمد

مطبعة المعارف فى ١٨٩ صفحة

نشط الاستاذ الصاوى فى السنتين الماضيتين الى اصدار عدد كبير من الكتب ، تناول بعضها الاحداث والوقائع المثيرة فى هذه الحرب السياسية وما يتصل بها من أمور السياسة وخفاياها ، وتناول بعضها هذه القصة التى لايعرف أين مبدأها وأين منتهاها، قصة الحب، التى كتب فيها كل أديب وأنشد فيها كل شاعر وعزف بها كل موسيقى وجرت بها ريشة كل فنان ، فأخذ الصاوى يقطف فى كتبه من ثمار هذه العاطفة أشهاها ويعرض من صورها أروعها وأزهاها . وتناول بعضها حياة نفر من أولئك الذين كانت « حياتهم مدرسة » يتلقى فيها من الناس الحكمة الخالدة التى لايتلقونها فى المدارس ولا يطالعونها فى الاسفار . .

وكتابه بلزاك أحد هذه الكتب التى جعل عنوانها « الحياة مدرسة » . والحق ان حياة الروائى الفرنسى الخالد مدرسة كبرى : فيها ألوان من الجهاد المقرون بالايمان العميق والكفاح الممتزج بالارادة الحاسمة . وفيها صور من القلق الذى يملأ قلب الفنان حين يتأرجح ، بل حين يتذبذب بين فنه وحبه . وفيها مثل عليا يضربها بلزاك لاولئك الذين يريدون المجد

فيريهم ان دونه شوطا طويلا تملؤه الصعاب الكأداء والاتفال التى تقصم الظهور . وفى ثناياها وأطوائها ، منذ أن تفتح صفحتها الاولى الى أن تطوى صفحتها الاخيرة ، حب غامر دافق للمرأة . . نعم فقد أحب بلزاك المرأة اكثر مما أحب اى رجل فى العالم

اما اسلوب الاستاذ الصاوى فى ترجمة لبلزاك فهو هذا الاسلوب الذى عرفه قراؤه الكثيرون : أسلوبا شاعريا ، عاطفيا ، تسرى فيه حرارة الشعور ، ويوشيه جمال التعبير

الفكر العربى بين ماضيه وحاضره

للاستاذ سامى الكيالى

مطبعة المعارف فى ٩٦ صفحة

يقول الدكتور طه حسين بك فى تقدمة هذه الرسالة القيمة انه « اذا تحدث الناس عن الاستاذ سامى الكيالى فانما يتحدثون عن كاتب وقف جهده — أو وقف صفوة جهده — على الاستقصاء والاستقراء ومراقبة التيارات الفكرية فى الشرق العربى وتسجيل الاتجاهات التى تتجهها هذه التيارات . وهذه الفصول التى يسعدنى ان أقدمها الى القراء فى مصر ليست الا مظهرا من مظاهر هذه العناية الخاصة » .

والواقع ان الاستاذ الكيالى من اكثر الكتاب تتبعا ودراسة للحركة الادبية والفكرية فى انحاء الشرق العربى ، وقد جعل من مجلته القراء « الحديث » مجالا لعرض نواحى هذه الحركة ودقائقها والحديث عن أعلامها والمبرزين فيها حتى غدت ديوانا دقيقا للتفكير العربى منذ اعقاب الحرب الماضية الى الآن

واكثر الموضوعات التى تضمها هذه الرسالة يدور حول هذه التيارات الفكرية التى شهدها العالم العربى فى نهضته الحديثة ، فمنها بحث فى « الفكر العربى بين ماضيه وحاضره » عرض فيه للدور الجليل الذى أداه الفكر العربى فى الماضى ، وشرح فيه الوسائل لتجديد هذا الفكر وانهاضه ليلائم الحاضر الذى نحياه ، وليسمى مستهدفا المستقبل الذى نرجوه . ومنها بحث عنوانه « الشباب العربى والنزعات التجديدية » وثالث فى « كيف نعمل لاحياء ثقافتنا العربية القديمة » . هذا الى فصول أخرى منها فصل فى « ابن خلدون ورأيه فى العرب » ، وفصل فى « البلديات عند العرب »

تلاقى الاكفاء

للاستاذ على أدهم

مطبعة المعارف فى ١٥٢ صفحة

فصول هذا الكتاب لمحات تاريخية وصور جلية لبعض العلية النادرين من رجال الاقدار وافذاذ التاريخ ، الذين جازوا وادى العبرات — أى الحياة كما سماها القدماء — متغلبين على صعابها ، مستعلين على ضروراتها ، وتبوأوا فى التاريخ موضعا ملحوظا، واستأثروا منه بصفحات حافلات

وقد اتخذ الاستاذ على أدهم لهذه الفصول عنوانا ذا مغزى بعيد ، هو « تلاقى الاكفاء » ، ذلك انه أراد ان يجلو هذه الشخصيات الفذة بأن يتخير المواقف التى احتكوا فيها بشخصيات أخرى تماثلهم فى الاقتدار والفحولة ، وتساميهم فى الاناقة والسمو ، وتخالفهم فى طبيعة الملكات والمواهب ولون المزاج وطريقة فهم الحياة والنظر الى الكون

وقد قيل قديما ان الاشياء تتميز باضدادها ، فرأى الاستاذ على أدهم فى كتابه ان يجلو لنا شخصية نابليون ببسط علاقته برجل مثل تاليران وان يعرض جوانب هامة من شخصية لينين بدراسة صلاته بماكسيم جوركى ، وان يشرح لنا نفس فردريك وأخلاقه وأساليبه فى السياسة وأفانينه فى الدهاء ببيان موقفه من فولتير ، وان يفهمنا أبا جعفر المنصور فهما أدق وأوفى بالالماع بموقفه حيال ابى مسلم الخرسانى وبموقفه ازاء عمه عبد الله بن على بطل وقعة الزاب

والطريقة التي اتبعها الاستاذ أدهم في كتابة هذه الفصول طريقة لا يقدر عليها الا من تكن مثل تمكن المؤلف من دراسة علم النفس وعلم الاجتماع ، ليعرض الطرز النفسية المختلفة والانماط الاخلاقية المتباينة ، الى جانب ما له من ثقافة تاريخية قيمة وجولات أدبية موفقة ، تزينها جزالة في الاسلوب ورصانة في العبارة

البرلمان الأمثل

للاستاذ رشدي معلوف

مطبعة المكشوف بيروت في ١٠٠ صفحة

مشكلة الحكم قديمة ، حاول حلها فلاسفة ومصلحون ، فما وفق أحد منهم الى الحل الامثل عالجها افلاطون في « جمهوريته » والفارابي في « مدينته الفاضلة » وكارل ماركس في « رأس ماله » . ولكن علاجهم هذا لم يمنع أن عيوب الحكم التي انتقدوها ، ما تزال اليوم اياها بالامس ، مع بعض الفوارق في الاسباب والمسببات

وهذا الكتاب ما هو الا محاولة جديدة في سبيل علاج الحكم ، والبحث عن البرلمان الامثل ، في لبنان الشقيق الناهض . وبحوث الكتاب تدل على تفكير ناضج ، وروح وثابة ، ورغبة قوية في الاصلاح ..

النهران التوأمان

Twin Rivers

تأليف سيتون لويد

مطبعة جامعة اوكسفورد في ٢٣٠ صفحة

مؤلف هذا الكتاب عالم انجليزي من علماء الآثار ، وموظف في مصلحة الآثار العراقية منذ بضع سنين . وقد وجد ان ثمة حاجة الى كتاب شامل ووجيز في تاريخ العراق منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ، ولا سيما منذ صار العراق في سني هذه الحرب مهبطا لكثير من الجنود البريطانيين والامريكيين ، فقام بتأليف هذا السفر الذي يتناول تاريخ الاقليم العريق في عصوره المختلفة

وتاريخ العراق كتاريخ مصر ، اذا قرأته قرأت تاريخ اكثر الحضارات والشعوب القديمة . فأنت تقرأ في تاريخ العراق تاريخ البابليين والاشوريين ثم تاريخ الاغريق والفرس ثم تاريخ الدولة العربية الاسلامية ، ثم تاريخ المغيرين عليها من المغول والفرس والترك ، ثم جانبا كبيرا من تاريخ الدول المعاصرة ، ومن نهضة العراق الحديثة منذ الثورة العربية الكبرى

وقد ضمن المؤلف كتابه كثيرا من الاقوال التي اقتبسها من المؤرخين السابقين واستشهد بآرائهم واستند الى بحوثهم ، ثم اضاف اليها ما شاهده في اعمال الحفر في آثار العراق الكثيرة

خواطر ساذج

للاستاذ خليل تقي الدين

مطبعة دار المكشوف بيروت في ١٥٤ صفحة

الاستاذ تقي الدين من كتاب لبنان المجيدين والمجددين . وله في فن المقالة وفي فن القصة آثار شائقة نفيسة

ويتألف كتابه هذا من مجموعة من المقالات انشأها في اسلوب شعري أو في سياق قصص خليقين بالاعجاب والتقدير . فحين يتحدث عن وطنه لبنان يقول :

« من قمم جبالك الشامخة المكللة بالثلوج ، الى سهولك المتاوجة بسنابلها المثقلة السمراء . ومن قراك المعلقة بين الارض والسماء ، المتألقة عند الاصيل ، الى أوديتك الرهيبة البعيدة الاغوار ، ومن سفوحك المخضوضرة الضاحكة الى رمالك الحالمة المترامية على الشطآن .. تتجدد صور سحرك وجمالك ، يا وطني لبنان ! »

هذا نموذج من اسلوب المؤلف ، وفيه من صدق العاطفة ، ودقة الشعور ، وجمال التعبير أوفى نصيب

والكتاب حافل بكثير من المقالات الشائقة ، ونخص منها بالذكر مقاله الجميل في « ذكرى جبران »

بين الهلال وقرائه

كارل ماركس

(بشندي ــ السودان) حسن محمد بابكر البداني

ما هو مذهب كارل ماركس وما أهم أصوله؟ وما هي أهم المراجع العربية في هذا الموضوع ؟

(الهلال) كارل ماركس هو فيلسوف الاشتراكية الحديثة . وقد سبقه الى القول بالاشتراكية كثير من المفكرين والفلاسفة ، منهم افلاطون والفارابي وتوماس مور ، ولكن اشتراكية هؤلاء كانت اشتراكية خيالية قائمة على أسس الرحمة والانسانية ، أما ماركس فمؤسس مذهب الاشتراكية العالمية التي تعالج مشكلة رأس المال والنزاع بينه وبين العمل ، والتي تفسر تاريخ الانسانية وتطورها تفسيرا ماديا قائما على أساس نظرية تصارع الطبقات

وأهم أصل في الاشتراكية هو الغاء الملكية الفردية ، واحالة جميع الملكيات والمرافق الى ملكية عامة في حوزة الدولة . أما جزاء الفرد فلا يكون على قدر عمله وجهده بل على قدر حاجته ، وفي هذا يقول ماركس : « من كل على قدر كفايته ولكل على قدر حاجته »

وقد طبق هذا النظام في روسيا السوفياتية بعد تعديلات كثيرة ، تجعل الشيوعية مختلفة اختلافا بينا عن الاشتراكية. فقد سمحت روسيا ــ وعلى الاخص في عهد ستالين ــ ببعض الملكيات الفردية البسيطة ، وصارت الاجور فيها متفاوتة الى حد كبير ، وصار شعارها : « من كل على قدر كفايته ولكل على قدر مجهوده وانتاجه »

ولم يكتب في العربية كتاب مفصل في الاشتراكية الماركسية ، ولكن تفيدون كثيرا من قراءة كتاب « الحركة الاشتراكية » الذي ألفه رمزي مكدونالد وترجمه الاستاذ حسني العرابي . وفي كتاب «المذاهب الاجتماعية الحديثة» للاستاذ محمد عبد الله عنان فصول قيمة عن الاشتراكية والشيوعية . وقد نشرت دار الهلال كتابين وجيزين عن الاشتراكية احدهما للاستاذ نقولا حداد والثاني للاستاذ سلامة موسى

سيد درويش

(زحلة ــ لبنان) فؤاد ميخائيل شديد

ما هي مزايا موسيقى سيد درويش ، ولماذا يرجعون اليه الفضل في نهضتنا الموسيقية الحديثة؟

(الهلال) أبرز ميزة في موسيقى سيد درويش انها موسيقى « مصرية » تعبر عن الروح المصري تعبيرا صادقا قويا . فقد كان سابقوه من الموسيقيين يأخذون من الموسيقى التركية ويتأثرونها ، كما كان أدباؤنا يأخذون من الادب العربي القديم ويتأثرونه فيما ينشئون . فجاء سيد درويش وجعل فنه صدى للصوت المصري الذي نسمعه في أرجاء الريف وفي أحياء المدن خالصا من أي تأثير أجنبي . وهذه ميزته على أكثر الموسيقيين الذين جاءوا بعده . وجعلوا همهم الاقتباس من الموسيقى الغربية او تقليدها تقليدا أعمى في اغلب الاحيان

وثمة ميزة أخرى في موسيقاه ، هي قوتها ، بحيث تثير في النفس شعور الرجولة وروح الفتوة ، على نقيض أكثر موسيقانا التي تشيع فيها الليونة والرخاوة الى حد شائن معيب . ولهذا فان أناشيده هي ولا ريب أقوى ما في الموسيقى المصرية من أناشيد . وقد أنشأ كذلك تلك الاغاني التي يمكن ان تنشدها جماعات ، وهي نوع من الاغاني ما زال ينقص حياتنا الفنية ، اذ ليس لدينا سوى هذه الاغاني التي

لا يستطيع انشادها الا من كان عذب الصوت موسيقى الاذن

وسيد درويش الى هذا هو أول مجدد فى الموسيقى العربية، وحسبه تلحينه الرائع لاوبريت « شهرزاد » . ولا ننسى ان مرجع القوة فى موسيقى سيد درويش الى انه انشأها فى اثناء الثورة المصرية التى بثت فى كل قلب روح القوة وشعور الوطنية

فى علم الاجتماع

(الصويرة — سورية) حسين عبود طاهر

ما أهم الكتب العربية فى علم الاجتماع ، وعلى الاخص مايتناول موضوع الدولة والحكومة؟

(الهلال) للاستاذ نقولا حداد كتاب قيم فى علم الاجتماع يتناول نظرياته وأصوله ، ويتألف من جزئين

أما فى موضوع الدولة والحكومة ففى العربية كتابان قيمان أحدهما « علم الدولة » للاستاذ احمد وفيق وهو مؤلف من عدة اجزاء يبحث فيها نظرية الدولة بحثا قانونيا ، سياسيا ، تاريخيا . وثانيهما كتاب « القانون الدستورى » للاستاذين وحيد رأفت ووايت ابرهيم بكلية الحقوق ، وهو يبحث الموضوع من الوجهة القانونية بحثا مفصلا

موطن الانسان الأول

(سيدنى — استراليا) طنوس نقولا الكفر صلداوى

ما هو منشأ الانسان الاول ؟ وما السبب فى اختلاف ألوان البشر ؟

(الهلال) الرأى الغالب عند الباحثين فى علم الانسان « الانثربولوجيا » أن الانسان نشأ فى منطقة الشرق الاوسط ، أو فى منطقة آسيا الوسطى على الارجح ، ثم انتقل منها الى سائر الارجاء فى عصور ما قبل التاريخ

وهم لا يرون أن الانسان نشأ فى أماكن مختلفة فى جميع القارات ، بل يقولون انه انتقل من موطنه الاول الى كثير من الجهات ، ثم انقطعت صلة بعض المهاجرين بالعالم المتمدين قديما ، فلما جاءت الكشوف الجغرافية الحديثة أعادت صلتهم بسائر سكان الارض

أما اختلاف ألوان بشرة الاجناس البشرية فيرجع الى تأثير البيئة ليس الا . فالسودانى اسود لان شمس السودان تلفح وجهه طوال العام ، بينما السورى أبيض لان أشعة الشمس فى سورية هينة بسيطة . وان كان تأثير البيئة هذا لا يتعارض مع عامل الوراثة الذى يجعل ابن السودانى يشب ضاربا الى السواد وابن السورى ضاربا الى البياض

تاريخ الدين

(سيدنى — استراليا) ومنه

هل الدين ملازم للانسان منذ وجد على الارض ، أم قام منذ جاءت الرسل والانبياء ومعهم كتبهم المقدسة ؟

(الهلال) ان كنت تقصد بالدين اليهودية والمسيحية والاسلام وما اليها من الشرائع والمذاهب الدينية ذات الفرائض والانظمة الخاصة ، فلا شك انه لم يقم الا على أيدى رسل معينين بين أيديهم كتبهم المقدسة وأقوالهم الكريمة . أما ان كنت تقصد بالدين هذا الشعور الطبيعى بوجود قوة خالقة قاهرة فطرت هذا الكون وسيطرت عليه ، فهذا شعور صاحب الانسان منذ وجد على سطح الارض ، اذ الواقع ان عجز الانسان عن تفسير أكثر مظاهر هذه الحياة ، وعجزه عن توجيه أكثر الامور وفق ما يريد ، يحمله على أن يعتقد ويؤمن بأن ثمة قوة أكبر منه وأعظم هى التى تدبر وتوجه كل شئ كما تشاء . ولهذا قال فولتير : « لو لم يكن هناك اله لوجب علينا ان نخلق الها » . أى لا غنى للانسان عن الايمان بالقوة الكبرى التى أنشأت هذا الكون والتى تفرض عليه ارادتها العليا

فهرس الهلال

الجزء الثانى من المجلد الثانى والخمسين

صفحة		
١٤٧	الرأى العام فى مصر	رأيان للدكتور محمود عزمى والأستاذ انطون بك الجميل
١٦٠	أبالحروب تنعم الانسانية	بقلم الدكتور أمير بقطر
١٦٥	برنامج مصر السياسى بعد الحرب	بقلم الأستاذ محمد رفعت بك
١٧٣	طبيعة الحسد	« الاستاذ على أدهم
١٧٧	المرأة فى الفن المصرى القديم	« الاستاذ محرم كمال
١٨٣	أخطاء التاريخ المصرى الحديث	« الاستاذ عبدالرحمن الرافعى بك
١٨٦	الاذاعة الأثيرية (قصيدة)	« الاستاذ احمد محرم
١٨٨	قضية اللغة العربية	« الإستاذ محمود تيمور بك
١٩٦	الحب فى امريكا	
١٩٩	من القاهرة الى لندن بالقطار	« محمود شاكر محمد باشا
٢٠٢	كيف تعرف انك تحب ؟	
٢٠٥	حجر الفلاسفة	« الاستاذ ابراهيم بك كحيل
٢٠٩	الحروب ثورة على الماضى	للسياسى الانجليزى ستافورد كريبس
٢١٥	ماذا تفعل امريكا بعد الحرب	بقلم السياسى الامريكى هارى هوبكنز
٢٢١	هذه الحصبة الملعونة	« الدكتور مصطفى الديوانى
٢٢٤	فى سنة ٢٠٠٠ تصير روسيا خمسة أمثال أوربا	
٢٢٧	السلم الحقيقى	للمفكر الاجتماعى سير وليم بيفردج
٢٢٩	مدرسة السلطان حسن	بقلم الاستاذ محمد عبدالعزيز مرزوق
٢٣٠	لندن : مركز قيادة الجبهة الثانية	
٢٣٧	ساعة مع ستالين	للصحفى الامريكى رالف انجرسول
٢٤٠	حديث الأشجار	بقلم الاستاذ رشوان احمد صادق
٢٤٥	الامير الذى صار حكيما	
٢٤٩	الدراسات العربية فى الولايات المتحدة	للمستشرق الامريكى جورج رنتز
٢٥٢	الباب الذهبى (قصة مصرية)	بقلم الاستاذ ابراهيم المصرى
٢٦٩	صور من عالم المستقبل	
٢٧٣	(أبواب الهلال) العلم والعالم ـ الحركة الفكرية ـ الكتب الجديدة ـ بين الهلال وقرائه	

الهلال

مايو - يونيو ١٩٤٤

الهلال

صاحباها : اميل وشكرى زيدان

رئيس التحرير : اميل زيدان

الجزء الثالث ـ السنة ٥٢

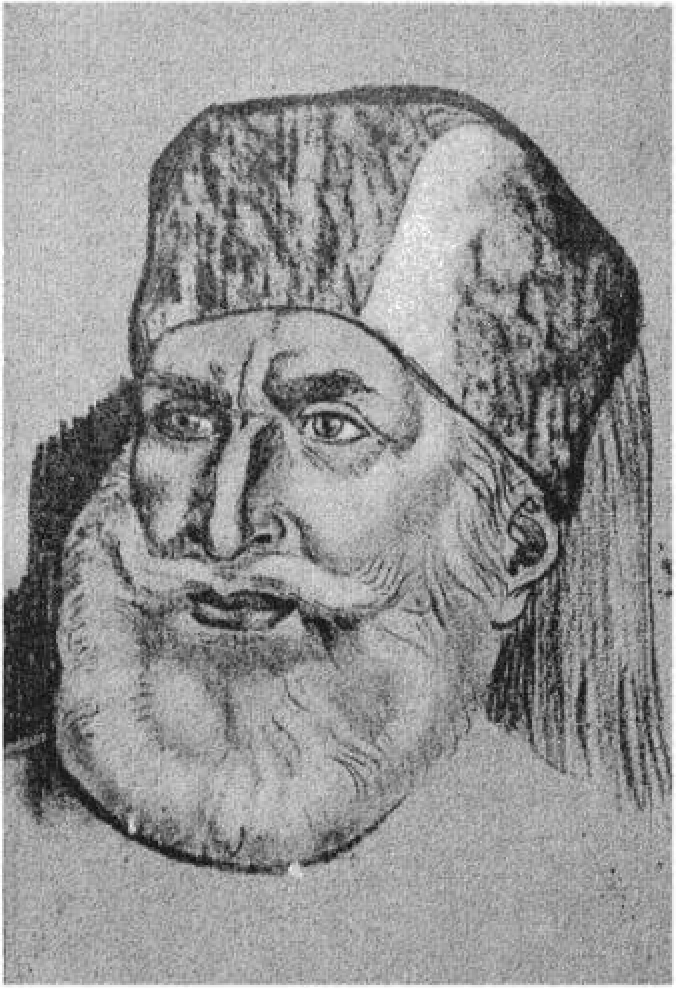
مايو ويونية ١٩٤٤ ـ جمادى الآخرة ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(March - June 1944)



محمد على الكبير

محمد على باشا الكبير بريشة الفنان محمد ناجى ، وهى مأخوذة من اللوحة التى يضعها للحادث التاريخى الخاص بمبايعة زعماء الشعب المصرى لمحمد على باشا فى سنة ١٨٠٥ ، وهذه اللوحة ستكون من محتويات متحف الحضارة الذى سيتم إنشاؤه قريباً

مصر والتحرر من الظلم والاستعباد

بقلم الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا

هذه محاضرة قيمة ألقاها حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا بقاعة يورت بالجامعة الامريكية بالقاهرة ، واختص بها الهلال وهي من سلسلة المحاضرات التي نظمتها الجامعة الأمريكية عن مصر والحريات الأربع التي أعلنها الرئيس روزفلت . وقد تناول سعادته منها موضوع مصر والتحرر من الظلم والاستعباد

الظلم والاستعباد ، اما أن يكون ظلم دولة لدولة أى خارجيا ، أو ظلم حكومة لفرد ، أو فرد لفرد أى داخليا ، ويبدو لى أن موضوع اليوم يتضمن الكثير من المواضيع الاخرى ، فمن البديهى أن التحرر من الظلم والاستعباد يتضمن حتما التحرر من الفقر والعوز ، كما يتضمن التمتع بحرية الرأى وحرية العقيدة ، فان لم يتوفر عنصر من تلك العناصر ، فلا يمكن لحر أن يتحدث عن شعب لا يتمتع باحدى تلك الحريات بأنه حر من الظلم والاستعباد ، الا اذا كان القائل عبدا بطبعه ، أو طاغية لا ينظر لشىء الا من ناحية مصلحته

ما هو الظلم والاستعباد ، وما هو العدل والحرية ؟ ألفاظ تلوكها الألسن باستمرار دون أن يكون لها مدلول بذاته ، أو معنى محدد بعينه فى نظر قائليها ، ذلك أن مدلولها يتغير بحسب الازمان وما يلازمها من التطورات الاجتماعية ، وبحسب الظروف بل والمناسبات ، فما يعد اليوم ظلما قد يكون فى اعتبار الناس وفى عهد من العهود عدلا

ففى العهود القديمة كان للوالد حق الحياة والموت على أولاده ، وكانوا ينظرون الى هذا باعتباره حقا طبيعيا لانه يتفق فى نظرهم مع الحقوق الطبيعية للأبوة . كما أن وأد البنات قبل الاسلام كان عملا مشروعا وعادلا باعتباره دفاعا عن أقدس حق فى نظر مبتدعيه من العرب هو العرض ، كذلك كان الرق نظاما عادلا باعتباره نتيجة طبيعية لحق الغزو والفتح ، بل من يدرى فربما كان الرق فى عرف تلك الازمان نظاما أملته الرأفة والرحمة الانسانية ، اذ الاصل كان قتل الاسير ، فلما رق الشعور الانسانى استعاض عن القتل بالرق حماية للارواح أن تزهق باطلا !

وما نقوله عن الظلم والعدل نقوله بعينه عن الاستبداد والحرية ، أو ان شئت فقل الطغيان والديمقراطية ، فان ما يعتبر فى عهد منتهى الحرية ، قد يعتبر فى عهد آخر استبدادا لا يطاق ، وليت هذا الخلاف كان مقصورا على العصور الحالية ، بل انه تجاوزها الى

عصور قريبة منا ، واليكم ما قاله الأستاذ عزيز بك خانكي في مؤلفه الفريد (نفحات تاريخية عن ولاية العهد) :

« توفى محمد الاول فتولى ابنه مراد الثاني السلطنة بحكم أرشديته وبحكم صغر أخويه الرضيعين ، وبحكم سبق سجن عمه مصطفى في جزيرة لينوس تحت حراسة ايمانويل الامبراطور اليوناني . ولما كبر أخواه الصغيران ، أعدم أحدهما شنقا وأعدم الثاني خنقا

« توفى مراد الثاني فتولى ابنه محمد الثاني (الذي فتح القسطنطينية في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣) وكان لمحمد أخ لأب رضيع من أم مسلمة هي أميرة ترانسلفانيا ، اسمها مارا ، أما هو فكانت أمه مسيحية (أميرة سينوب) فخوفا من أن الشعب يأتي في المستقبل ويفضل ابن المسلمة على ابن النصرانية ، أمر بقتل أخيه لأبيه الرضيع ، وللوصول الى قتله احتال على الام واستدعاها عنده في السراي ، وبينما هي ماثلة أمامه كان رسوله قد انسل داخل السراي وأخذ الرضيع وأغرقه في حوض الحمام . ثم لنفي الشبهة عنه أمر بقتل رسوله حتى لا يذيع له سرا

« وفي أثناء حكمه أصدر قانونا أباح فيه لكل سلطان أن يقتل اخوته ، ليمنع كل منافسة ولو محتملة له في الملك . وقال في ديباجته ان سلامة الدولة تقتضيه ، وان معظم الفقهاء أفتوه بأنه يحق لمن يتولى السلطنة من أولادي أو من أولاد أولادي أن يقتلوا اخوتهم لتطمئن قلوبهم على الملك ، وانه يوصي أولاده وأولاد أولاده بأن يعملوا باحكام هذا القانون »

ليس منا من لم ير في حياته كثيرا من التطورات السياسية والاجتماعية في هذا المعنى ، ومن الغريب في الطبع البشري أن الانسان كلما أدرك غاية من الغايات وظن أنه وصل الى المثل الاعلى الذي كان ينشده وحقق السعادة التي كان يبتغيها ، انكشف له الافق عن غاية أخرى أبعد مدى يسعى الى تحقيقها ، حتى اذا ما تحققت له لم يلبث أن يتسع أمامه الافق من جديد ، وهكذا لانجد حدا ثابتا لآمال البشرية ولا لمعنى الحرية ، ففي الولايات المتحدة وهي على ما نقرأ ونسمع بلغت أعلى درجات الحرية والرخاء ، ولكنها عند ما وصلت الى ما هي فيه بدأ الذهن يتفتق للتقدم الى الامام من جديد ، والآن نقرأ الشكوى المريرة من ظلم العمال والاستبداد بهم ، وقد نشرت مجلة « المجمع الاميركي للعلوم الاجتماعية والسياسية » مقالا لكاتب اقتصادي ينعى فيه حرية العمال في المدن التابعة للشركات ، ولعلي لا أجاوز الحقيقة كثيرا اذا قلت ان الاصل في انشاء تلك المدن كان لترغيب العمال في العمل بتوفير أسباب المعيشة السهلة لهم ، كما هو الحال في انشاء العزب عندنا ، أي أن الاصل كان لسد عوز العامل ومساعدته في عيشته ، واليكم ما قاله هذا الكاتب :

« تحوي احدى هذه المدن ما بين أحد عشر ألف أو اثنى عشر ألف نسمة ، وجميع الاملاك فيها ملك للشركة ، تدفع عنها جميع الضرائب ، ويسكن كل عمال المناجم في

منازل الشركة ، وجميع موظفي المدارس ومن يقومون بالتعليم فيها هم موظفون تابعون للشركة ، كما أن جميع شؤون المدينة يتولاها موظفو الشركة ، ويصدر مراقب الشركة جميع القواعد والانظمة الواجب اتباعها ، ويتولى أعمال البوليس موظفون تدفع أجورهم الشركة ، ويتبعون ارشاداتها ، لدرجة عظيمة ، وقد زيدت قوات البوليس عند ما حاول اتحاد المناجم تنظيم الاقليم في سنة ١٩٣٦ ، أضف الى ذلك أن الشركة تحتفظ في تلك المدينة بذخيرة لا تقتصر على المسدسات ، بل تحتوى بجانبها عددا من البنادق والقنابل والغازات ، ثم هي تمنع بشدة أية محاولة مشروعة لعقد اجتماعات سلمية ، كذلك كان المتحدثون في الاذاعة يهددون ، والمنازل تفتش بغير أمر قضائي لمصادرة الكتب الجائز تداولها قانونا ، بل كان يطرد من يوجد عنده شيء منها ، ولا يسمح للعمال باستضافة من يريدون ، بل ويضطهد من يشتبه في أن لهم ميولا نقابية اضطهادا مريعا لم يخل من القتل في بعض الاحيان

وكما يعني هذا الكاتب الاقتصادى عدم تمتع العمال بالحرية الكافية ، كذلك ارتفعت شكوى رجال التعليم مما يفرض عليهم من قيود جعلتهم يضجون بالشكوى ويعقدون المؤتمرات للدفاع عن حقوقهم باسم الحرية والديمقراطية ، بل باسم المصلحة الوطنية العليا، واليك ما قرره أحد المؤتمرات بعد مناقشات دامت أربعة أيام في هارفارد

يجب أن يكون مفهوما من معنى حرية العلم

أولا — أن يترك في تعيين المعلمين كل اعتبار ديني أو سياسي أو خلافهما من الاعتبارات غير التعليمية

ثانيا — يجب أن يكون للمعلم الحق في استعمال الطرق التي يراها أكثر انتاجا في التعليم ، بشرط أن يحافظ على مستوى الدرجات ، وأن يراعى مقدرة الطلاب على الاستيعاب

ثالثا — يجب أن يكون لكل معلم الحق في أن يعبر عن أى رأى يراه ، بشرط أن يكون واضحا تماما أنه يعبر عنه ، باعتباره رأيا من الآراء لا باعتباره حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل

وأخيرا يجب أن يكون للمعلم في سلوكه العام والخاص جميع الحريات المعترف بها في المجتمع ، وأننا لنؤمن بحرية العلم التي تسمح للتعليم بأن يكون له فرصة في أن يجعل الأمل في حياة الاميركيين ، لا مجرد وعد أو حلم فحسب ، بل حقيقة واقعية

واليك بعد ذلك ما كتبه استاذ التاريخ في جامعة كارولينا الشمالية ليبين مدى ما يجب أن يتمتع به المعلمون من الحرية قال : « لا تقتصر الحرية على الحق في التعبير عن الآراء التي تكون موضع اتفاق أو التي لا يكون ثمة اهتمام خاص بشأنها، ولكنها تتجاوز ذلك الى الحق في التعبير عن الآراء التي قد يراها البعض خطرة بل غير معقولة أو باطلة »

فالحرية تجعلنا نشارك جفرسون في عقيدته الاساسية القائلة لا خطر من الخطأ اذا ترك العقل حرا في محاربته له ، ثم يستطرد هذا الاستاذ الى أن يقول : « يعترض علينا الذين

لا يؤمنون بهذا الرأى بأن الاطفال لا يمكنهم أن يميزوا بين الحق والخطأ ، ولكن قل لى بربك متى يمكن لهؤلاء الاطفال أن يتعلموا اذا لم يمكنوا من ذلك أثناء تربيتهم ؟ نعم ان من الواجب مراعاة مستوى الطفل ، فلا يزج به فى أبحاث نظرية عن الاشتراكية أو الديمقراطية مثلا ، اذ أن تلك الابحاث فوق مستوى الاطفال صغيرى السن ، لكنا نعرف مع ذلك أن اتجاهات الاطفال حتى الصغار منهم تتكيف دائما تبعا للجو الذى ينشأون فيه، فهو اما حر يسمح لهم بسماع مختلف الآراء ، واما مقيد يضطر فيه الاساتذة الى تعليم أشياء لا يعتقدونها وسلوك لا يؤمنون به ، فيحرم الاطفال من سماع أكثر من رأى واحد لذلك نرى أن الحرية واجبة حتى فى درجات التعليم الاولى .

□

ولقد كان التحرر من الظلم والاستبداد باشكالهما المتعددة هو المحور الذى ابتنى عليه ميثاق الاطلنطى ، فلعلكم تعلمون أنه على أثر مقابلة الرئيس روزفلت والمستر تشرشل فى أغسطس سنة ١٩٤١ فى المحيط الاطلنطى لبحث مسألة توريد الذخائر من جميع وجوهها طبقا لما نص عليه فى قانون الاعارة والتأجير ، سواء للقوات التابعة للولايات المتحدة أو القوات التابعة للممالك المشتركة اشتراكا فعليا فى مقاومة الاعتداء . رأى هذان العاهلان على أثر تلك المقابلة أن من الواجب عليهما اعلان بعض المبادىء العامة فى سياسة بلاديهما لتنظيم عالم المستقبل ، فاتفقا فى ١٤ اغسطس على نشر تلك المبادىء فى ثمانية بنود ، أكتفى هنا بالاشارة الى بعضها مما يمس موضوعنا . . فأولا : ينص هذا الميثاق فى البند الثانى على ألا يحصل أى تغيير فى الاراضى الا اذا كان متفقا مع رغبة سكانها رغبة حرة — ثم ينص فى البند الثالث — على احترام حق كل شعب من الشعوب فى اختيار الحكومة التى تحكمه ، وعلى أن يعاد الى كل شعب حرم من حقوق سيادته وحق اختيار حكومته حقه فى ذلك — ثم نص فى البند الخامس — على وجوب العمل على أن يكون بين الدول تعاون تام فى المسائل الاقتصادية حتى تتاح الفرص لجميعها فى تحقيق مستوى أعلى للعمال وفى ترقية الحالة الاقتصادية والاجتماعية — وأخيرا تعهدت الدولتان الكبيرتان فى البند السادس بأن يضمنا لجميع الدول أن تعيش فى أمن داخل حدودها ، وأن يعملا على أن يتمتع جميع السكان فى جميع البلدان بحياة حرة من الخوف والعوز

تلك المبادىء أيها السادة هى التى أعلنها المؤتمرون ، وهى التى انضمت على أساسها عشرات الدول الى بريطانيا العظمى وأميركا — فأين نحن فى هذا العهد من ذلك العهد القديم الذى كان يقول فيه زهير فى معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

أو ذلك العهد الذى أشار فيه المتنبى بقوله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

لا شك أننا اذا ما وضعنا نصب أعيننا كلا من المقياسين نرى أننا خطونا الى الامام

خطوات واسعة ، بل نرى أن أساس سياسة العالم قد انتقل من طرف الى طرف ، وأننا صرنا فى عالم غير العالم ، ومدنية غير المدنية ، وخرجنا من عالم المادة الى عالم الروحانيات ، ومن دنيا الخطايا الى جنة الرحمة والنعيم . وأننا لنرجو اذا ما تحققت تلك المبادىء أن نرى مصر وقد ارتفع مستواها الادبى والاخلاقى والاجتماعى ، وازدهرت ماليتها وعم الرخاء جميع جوانبها ، فالتعاون التام الذى أشار اليه البند الخامس من الميثاق يستلزم معاونة مصر فى تحقيق جميع أمانيها الاقتصادية ، من غير أن تتأثر الدول التى سبقتنا فى هذا المضمار بمؤثرات سياسية ، فتتمكن مصر من توسيع صناعتها بالآت تمدها بها انجلترا وامريكا ، فمصانع النسيج والصباغة ومصانع الزجاج وورش اصلاح الطيارات وتشجيع الطيران المدنى ، كل ذلك يدخل فى ميدان التعاون الاقتصادى ، كما أن توريد الآلات الزراعية والمساعدة على حسن الانتاج بتوفير جميع حاجاته كالاسمدة ونحوها مما تحتاج اليه الزراعة يدخل فى نفس الميدان ، فهل لنا أن نأمل أن الحرب اذا ما انتهت أملنا فى أن تعاوننا الدولتان العظيمتان اللتان وضعتا ميثاق الاطلنطى على تحقيق تلك الغايات فى أقرب فرصة ؟

وهل لنا أن نؤمل أن التعاون الصناعى والزراعى يتبعه كذلك التعاون الثقافى ، فتمدنا تلك البلاد بما نحتاج اليه من الآلات فى معامل الابحاث الطبية والكيميائية وغيرها لخدمة الانسان والحيوان والاقتصاد ، بل انى لاذهب أكثر من ذلك فى تفسير هذا الميثاق ، اذ أن القول بعدم احداث تغييرات اقليمية الا اذا كانت متفقة مع ارادة الشعب الحرة ، يتضمن حتما منع مثل هذه التغييرات من طريق القوة ـ وهذا يستلزم حتما وجود قوة للدفاع فى كل دولة من الدول ـ وهل يتحقق ذلك بغير مساعدة الدول التى لا تتمتع بقوة حربية كافية مثل مصر على تنظيم جيشها بجميع أسلحته بما فيها الطيران والأسلحة الميكانيكية والمدفعية ، بل ومعاونتها فى انشاء مصانع للاسلحة والذخيرة ، اذ بدونها تكون البلاد عالة على غيرها محتاجة الى حمايته ، وهل فى استطاعة امريكا وانجلترا مهما صدقت ارادتهما وحسنت نواياهما أن يكونا حرسا لجميع العالم لمنع تعدى أية دولة على أخرى ؟! أليست الحرب الحاضرة أكبر دليل على أن التعاون ضرورى بين جميع الدول صغيرها وكبيرها ؟! واذا كانت انجلترا وامريكا وروسيا احتاجت الى معونة الدول المتحالفة لمحاربة دولتى المحور واليابان ، ومع ذلك فالحرب لا تزال مستمرة رغم انقضاء أكثر من اربعة أعوام ونصف عام عليها ، ولا يزال الناس يجهلون متى تنتهى ـ أفلا يدل ذلك جميعه على أن مساعدة الامم المتعاونة حتى يكون لكل منها جيش يلائمها من ألزم الاشياء لتحقيق تعاون عالمى ؟! وهل يشك انسان فى أن سويسرا وهى دولة ذات نظام ديمقراطى لم تحافظ على حريتها ولم تخدم السلم فى بلادها الا لانها دولة مستعدة استعدادا حربيا كاملا ؟! وهلا ينطبق ذلك القول نفسه وان اختلفت الظروف على تركيا واسبانيا والسويد ؟!

أليست كل هذه الامثلة دليلا قاطعا على ان التنظيم الحربى هو الذى حفظ على تلك

الدول شيئاً من حريتها ؟! . ومالى أذهب بعيداً ، فهل يظن انسان أن ألمانيا كانت تجرؤ على تلك الحرب لو كانت تعلم ان انجلترا مستعدة لها منذ البداية أو أن أميركا كانت متأهبة لاقتحامها ؟!

هذه كلها آمالنا فى المستقبل ، ولكن هل بلغ العالم من الرقى الانسانى ما يجعلنا نؤمل فى تحقيق ذلك ؟! لو سمعنا خطب الخطباء وقرأنا ما ينشر فى الصحف والمجلات لما شككنا لحظة فى تحقيق تلك المبادىء ، ولكنا اذا ما قلبنا الطرف قليلا وجدنا الحرب قائمة ، ورأينا حمى القتل والتدمير بغير رحمة ولا شفقة تسود فى كل مكان، ثم رأينا العلماء والقواد بل والفلاسفة والكتاب يتفننون فى سبل التدمير والتخريب وفى اختراع الوسائل للفتك والدمار ، مما يجعلنا نسائل أنفسنا هل يمكن للانسانية اذا ما انتهت هذه الحرب أن تنسى طبيعتها وتنقلب الى ضدها ؟! وهل نقول ما قاله الشاعر العربى :

ومكلف الايام ضد طباعها متطلبٌ فى الماء جذوة نار

أوليس هذا القول هو بعينه ما قاله العاهل الانجليزى العظيم المستر تشرشل فى احدى مقالاته التى نشرها قبل الحرب ، ثم جمعها فى كتابه « خطوة فخطوة » حيث قال : «يزعمون ان التجربة تعلم الرجال ، كلا فان الرجال يكررون دائما أخطاءهم »

ولو أننا تذكرنا الحرب الماضية وأهوالها ثم تذكرنا خطب الرئيس « ولسن » الرنانة وما قاله عن حق تقرير المصير ، وما نادى به من حق العامل تحت الشمس ، ثم رأينا ما انقشعت عنه تلك الحرب مما لا نزال نرى نتائجه الى اليوم ، ثم رأينا كيف قامت عصبة الامم ثم فشلت عن تحقيق الغاية التى أسست من أجلها لارتبنا كثيرا فى آمالنا . .

بل مالى أذهب بعيدا ، ألسنا نرى كيف أن النزاع بدأ يدب حول بولندا وكيف تولد الخلافات السياسية بين أفراد الشعب الواحد فى اليونان وفى يوغسلافيا وفى فرنسا

اذن يتبين لنا ان العقدة أصعب من أن يكون لها حل سريع أو حل نراه فى جيلنا الحاضر، اذ لا يزال أمام الانسانية صعوبات دونها أهوال شديدة . . وليست حرب الدول أصعبها ولا أعقدها حتى تصل الى غايتها

وحينما قلبنا الامر فى التكهن بما سيكون ، وجدنا وجوها من الرأى مختلفة ، فالحياة ليست مسألة بسيطة يسهل تحليلها والحكم عليها حكما مطردا ، فلكل مسألة وجوه واشكال متضاربة ، وما يكون عدلا بالنسبة لفريق قد يكون الظلم كل الظلم بالنسبة لفريق آخر ، وما تبرره مصلحة طائفة من الطوائف قد يكون قسوة ضد طائفة أخرى ، وما نعتبره عدلا اليوم قد نراه ظلما غدا . .

وانا لنرجو الا تكون الحقيقة مع المتشائمين ، وأن يكون أمل المتفائلين هو ما تتمخض عنه الحرب الحاضرة ، ومهما يكن رأينا فيما انتهت اليه الحرب الماضية ــ وانها لم تحقق كثيرا مما كانت تؤمله الشعوب الصغيرة مما وعدت به فى ابانها ــ فانها مع ذلك كانت خطوة الى الامام . ولا شك أن ما نراه اليوم فى مصر وفى العراق وفى سوريا ولبنان فيه

أكبر حجة على أن شجرة الحرية اذا ما غرست لا تلبث أن تزدهر وتنمو ومهما صادفها من عواصف أو اعترضها من أهوال ، فهى لا بد محطمة لكل ما يلقى فى سبيلها من أغلال الى أن تصل الى نموها الكامل ، وتؤتى ثمرها حلوا شهيا ، فنحن اذا لم نستطع أن ندرك كل غايتنا بمجرد انتهاء هذه الحرب ، فاننا واصلون حتما الى الكثير من آمالنا ، وما علينا الا أن نجتهد وأن نسعى وأن نعمل ونثابر فى العمل حتى يكون غدنا خيرا من أمسنا ، وأن نخطو بمواطنينا وبلادنا خطوة واسعة الى الامام ، لكى تتحقق لها العدالة والحرية فى حياة الفرد وحياة المجتمع ، فاذا ما ارتفعنا فى أفقنا فوق الاهواء الفردية وفوق الشهوات الضارة ، استطعنا أن نبنى لانفسنا وبلادنا مجدا ان لم يكن له بريق يأخذ بالابصار لاول وهلة ، فانه يكون دائم الاثر ثابت البنيان

قلم الحبر : من اختراع ملك شرقى

شاع فى العصر الحاضر قلم الحبر المعروف بالقلم الأمريكانى والمشهور انه من اختراع أمريكا . وقد وقفنا على نص فى كتاب «المجالس والمسايرات» للقاضى النعمان ابن محمد بن منصور عن اختراع هذا القلم ، وهذا النص هو قصة طريفة وقد جاء فيه:

« قال القاضى النعمان بن محمد رضى الله عنه : ذكر الامام المعز لدين الله القلم ، فوصف فضله، ورمز فيه بباطن العلم، ثم قال نريد أن نعمل قلما يكتب به بلا استمداد من دواة يكون مداده من داخله ، فمتى شاء الانسان كتب به ، فأمده ، وكتب بذلك ما شاء ومتى شاء تركه ، فارتفع المداد وكان القلم ناشفا منه ، يجعله الكاتب فى كمه أو حيث شاء ، فلا يؤثر فيه ، ولا يرشح شىء من المداد عنه ، ولا يكون ذلك الا عند ما يبتغى منه ويراد الكتابة به ، فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنا سبقنا اليها ، ودليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى فيها

« فقلت ويكون هذا يا مولانا عليك سلام الله ؟

« قال : يكون ان شاء الله ، فما مر بعد ذلك الا أيام قلائل حتى جاء الصانع الذى وصف له الصنعة به معمولا من ذهب ، فأودعه المداد ، وكتب به ، فكتب وزاد شيئا من المداد عن مقدار الحاجة ، فأمر باصلاح شىء فيه ، فأصلحه وجاء به ، فاذا هو قلم يقلب فى اليد ، ويميل الى كل ناحية ، فلا يبدو منه شىء من المداد ، فاذا أخذه الكاتب وكتب به ، كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به ، ثم اذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد ، فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أنى أرى مثلها ، وتبين فيه مثل حسن فى أنه لا يسمح بما عنده الا لمن طلب ذلك منه ، ولا يجود لغير مبتغ ، ولا يخرج منه ما يضر فيلطخ به من يمسكه أو ثوبه أو ما لصق به ، فهو نفع لا ضرر ، وجواد لمن سأل ، وممسك عمن لم يسأل »

لا شيء في الوجود أعز من أسرة صالحة تترس في نفوس
أفرادها العطف والتعاون وحب الوطن وحب الانسانية

أزمة الأسرة

بقلم الأستاذ احمد بك أمين

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

أما أن الأسرة فى أزمة شديدة وورطة مربكة فذلك مما لا شك فيه ، ولعلها فى تاريخها الطويل لم تمر بساعة حرجة كما تمر فى هذه الأيام . وهذه الأزمة يحسها الغرب أكثر مما يحسها الشرق ، وستأتى قريبا الساعة التى يحسها الشرق أيضا لانه سائر فى نفس الاتجاه الذى يسيره الغرب ، فستكون النتيجة واحدة والمشكلة واحدة

وقد اهتزت الأسرة هزة عنيفة على أثر الحرب الماضية ، فتشققت جدرانها ووهى بناؤها . فمشاركة المرأة للرجل فى بعض أعمال الحروب جعلتها تطالب بعد الحرب بحقوق كثيرة لم تكن تطالب بها ، وجعلت الرجال أطوع لاجابتها . وتعقيد الحياة الاقتصادية جعلت الشبان أميل الى تأخير الزواج وتكوين الأسرة خوفا مما تكلفهم الحياة الزوجية من مطالب لا يستطيعون القيام بها ، وتعميم التعليم بين الفتيان والفتيات أشعر المرأة بمساواة الرجل ، وجعلها ترفض رفضا باتا سلطة الآباء وسلطة الازواج عليهن ، وحلول الآلات الميكانيكية محل العضلات الجسمية أذهبت فخر الرجال بقوة عضلاتهم واحتمال أجسامهم ، وجعلت المرأة تشعر أنها تستطيع أن تصنع فى هذه الآلات ما يصنع الرجل ، فيكفى الآن ادارة زر كهربائى لتسير الآلات الضخمة التى تغنى غناء آلاف العضلات . ونظريات فرويد التى قررت أن أكثر أعمال الناس منبعها الغريزة الجنسية ، وبحوث علماء الحياة التى أبانت أن طبيعة المرأة كطبيعة الرجل فى استعدادها وكفايتها وقدرتها، وأن الفروق بينهما ليست فروقا طبيعية وانما هى فروق خلقتها النظم الاجتماعية، فالرجل تعلم قديما ولم تتعلم المرأة الا حديثا ، والرجل زاول الاعمال وجرب وتحمل المسئوليات الجسيمة ولم تشاركه المرأة فى ذلك ، فنتج عن هذا كله قصورها عنه ، وظهورها بمظهر الضعف وما هو بالطبيعى ، ثم الدعوة القوية الجريئة الى ضبط النسل ، وايمان الكثيرين بها فى أوربا وأمريكا ، وتنفيذها فعلا بمنع النسل أو تقليله ما أمكن، وتحرر المرأة بذلك من كثير من متاعب كبر الأسرة . وأخيرا جد المرأة والحاحها فى المطالبة بأن لها من الحقوق والواجبات ما للرجل ، ورفضها أن يكون فى القوانين الوضعية والعرفية فوارق بين الرجل والمرأة ، وانما يجب المساواة فى كل ذلك

كل هذا قلب نظام الاسرة رأسا على عقب ، وغير المثل الاعلى للأسرة كما كان يفهمه الناس فى القرون الوسطى بل وفى القرون الحديثة الى أيام الحرب الماضية ، ونالت المرأة كثيرا من حريتها ، ونادت بأن الرجل ليس أعلى منها شأنا ، ولا هى أعلى منه شأنا ، وانما هما متساويان ، ويجب أن تكون فضائله فضائلها وحريته حريتها ، وما يرتكب من جرائم يؤاخذ عليها كما تؤاخذ هى تماما لا فرق بينهما ، فاذا تنكب عن طريق العفاف أوخذ كما تؤاخذ ، ووزنت أعمالهما بميزان واحد

ولمسنا من هذا كله نتائج خطيرة ، منها عدم تقدير العفاف كما كان يقدر — وانصراف الكثيرين من الرجال والنساء عن الرغبة فى الزواج — واذا كان زواج فالمرأة لم تستطع الصبر على ما كانت تصبر عليه أمها وجدتها ، فهى لا تطيق أن تكون خادمة نظيفة تقضى نهارها فى المطبخ وترتيب البيت وحمل عبء الاولاد ، فتحررت من كثير من هذه الشؤون، وقللت من مسئوليتها فى البيت ، وامتنعت من النسل أو قللت ، فاذا نسلت فقلما تعنى بنسلها عنايتها السابقة ، وحرصت كل الحرص على أن يكون لها وقت فراغ طويل تقضيه فى السينما والتمثيل والجمعيات وما الى ذلك — ثم نشأ عن هذا الانحلال كثرة حوادث الطلاق والميل الى تسهيله ما أمكن ، وتبع ذلك بالضرورة ضياع الاولاد لعدم المربى الصالح بين أبوين يسود حياتهما الصفاء والوئام

وسيكون من وراء قلة الزواج وقلة النسل وكثرة الطلاق نتيجة مرعبة ، وهى قلة عدد الناس فى العالم ، وضعف تربية الاطفال فى الأسرة الصالحة ، ويزيد فى خطورتها أن هذا كله يجرى بين حملة لواء المدنية فى العالم — ثم كان الوازع الدينى قويا يمنع النفوس من تهورها واستهتارها فضعف هو أيضا ، ولم يبق حائل يحول دون نوازع الهوى والجرى وراء الشهوات

وحار الكتاب والمصلحون والفلاسفة فى شأن هذه الازمة كيف يعالجونها ويصلحون من شأنها ، وتشعبوا فى ذلك مذاهب من محافظين وأحرار وشكاك ، فالمحافظون يتمسكون بنظام الزواج والأسرة ، ويرون أن لا بقاء للجنس البشرى وبلوغه غايته الا بالمحافظة على هذا النظام ، واحاطته بما يكفل صلاحه ، والاتصال الجنسى من غير زواج كارثة على العالم وجريمة كبرى ، وشر على الامة حتى من الزواج التعيس

وبعض الاحرار يرون أن المسألة أعقد من نداءنا ببقاء حياة الأسرة كما هى، والقانون الثابت لا يمكن أن يبقى مع تغير الظروف ، فالمرأة الجديدة لم تعد المرأة القديمة، والظروف المحيطة بها تغيرت ، والوازع الدينى ضعف ، والحروب أفنت الرجال دون النساء . وفى انجلترا وحدها نحو مليونين من النساء أكثر من الرجال ، وسيزيد هذا العدد بهذه الحرب ، فلو أن كل رجل تزوج بزوجة بقى هذا العدد الكبير من النساء بغير زواج ، ومن الصعب ارغامهن على معيشة العزوبة ، فلا بد من اقتراح حلول لهذه المشاكل ، ولو خالفت التقاليد القديمة

وهناك شكاك حائرون يقولون ليس فى الامكان العودة الى نظام الأسرة القديم ، ثم ها نحن نرى خطورة الحاضر ، فمحاكم الطلاق تكثر من حل عقد الزواج ، وترك كل زوج على هواه والاولاد تضيع بفصم هذه العروة ، وهذه الحرية المطلقة للنساء لا ندرى كيف نصدها بعد أن تعلمن وأدركن حقوقهن، وأصبحن لا يطقن المعيشة الزوجية القديمة . فاذا نحن تساءلنا ما الحلول لهذه المشاكل ؟ عجزنا عن اقتراحها ، فلننتظر حتى يفعل الزمن فعله فى تطور الحالة

□

وبعد فان عيشة الأسرة طبيعية فى دم الانسان وغريزة من غرائزه ، وآية ذلك ما نشاهده فى الحيوانات الراقية من تكوين أسرة وتلوين العيش على مقتضاها ، ولهذا لم يستجب الناس لمن دعوا الى الاستغناء عنها كأفلاطون قديما وبرتراند رسل حديثا ، لان هذه الدعوة ضد طبيعتهم . ومهما كان فيها من عيوب ، ومهما تعرضت له من أزمات ، فواجب المصلحين يقضى بالتفكير فى وجوه اصلاحها وتفريج أزماتها ، لا المناداة بالغائها ، والا كنا كمن ينادى بالغاء أدوات النقل كلها من قطارات وسيارات لانها تقتل بعض الافراد وفيها كثير من العيوب

ان وظيفة الأسرة الحقة - وربما كانت الوحيدة - أن تكون مربى صالحا للاطفال وكل ما حولها من لذة جنسية وما الى ذلك ، فانما هو اغراء من الطبيعة لايجاد النسل ثم تنميته وتربيته ، ولا يوجد فى الدنيا نظام آخر يستطيع أن يقوم مقام الأسرة فى التربية ، وأن يعوض حنان الابوين الطبيعى ، والغلطة الكبرى التى يقع فيها أكثر الناس فهمهم أن المثل الاعلى للزواج لذة حادة دائمة لا يشوبها كدر ، فاذا فترت هذه اللذة أو حل محلها ألم ، عدوا الزواج شقيا والأسرة تعيسة . ومن أجل هذا يستسهلون الطلاق عند فقدان الحب بين الزوجين ، أو عند وجود سبب من أسباب المضايقة . ولو نظر الى الزواج على أنه واجبات بجانب الحقوق ، وتبعات بجانب اللذات ، وأن الحكم فى الطلاق وعدمه يجب أن يكون صالح الطفل لا صالح الزوجين ، لقل الطلاق وذهب كثير من أسباب الشقاء ، ولو نظر الى الطفل على أنه هو الغاية لا السعادة الجنسية والنعيم الدائم ، لرئى أن مايصيب النفس من آلام أحيانا بسبب الأسرة يقوى الروح ويخلق الرجولة أكثر مما يسببها الترف والراحة واللذة والسعادة

لقد اقترح - فيما اقترح - انشاء الدولة مربى للاطفال يشرف عليه الاطباء والمربيات، ولكن مهما كان هذا المربى نظيفا وصحيا ، فانه لن يقوم مقام الأسرة فى تكوين النفس والروح والخلق ، فالطفل بجانب ما يحتاجه من التغذية محتاج الى غذاء من الحب الابوى والتفاهم العائلى ، وليس يجد الطفل هذا فى أى مكان غير الأسرة

ثم ان المشكلة الكبرى التى تهدد الأسرة الآن حرية المرأة ، فقد قل اتصال المرأة الغربية بيتها ، وستتبعها فى ذلك المرأة الشرقية لا محالة، فتنظيم الحياة الاجتماعية الخارجية

واختراع الآلات العديدة لمختلف الشؤون ، جعلت مهام البيت قليلة على المرأة ، فالخبز يخبز خارج البيت ، وستحمل المطابخ العامة توريد الطعام للبيوت كما يورد الخبز واللبن ـ وقد بدىء بهذا فعلا ـ فأصبح وقت الفراغ عند المرأة كبيرا لا بد أن تصرفه فى سينما وتمثيل وجمعيات وما الى ذلك ، ثم ان كثيرات منهن اشتركن فى الاعمال وتوظفت وأصبحت تقضى خارج البيت ما يقضيه زوجها ولم يبق عليها من متاعب البيت الا الاولاد ، فمنعت النسل أو قللت منه ، ثم استأجرت من تربيه بدلها . وستزداد هذه المشكلة تعقيدا بعد هذه الحرب الحاضرة التى أخرجت المرأة من بيتها لتشترك فى الاعمال العامة بل وفى أعمال الحرب نفسها ، ومن العسير بعد أن تهجر المرأة بيتها زمنا طويلا أن تعود اليه وتستقر فيه كما كانت تستقر من قبل

لقد تعلمت المرأة وزاحمت الرجل فى الاسواق، ورغب أصحاب الاعمال فى استخدامهن لقبولهن أجورا أقل من أجور الرجل ، لان الرجل يقدر فى أجرته أنه رب أسرة لا بد له من أجر يكفيه ويكفيها ، والمرأة ليس فى تقديرها ذلك فتقبل الاجر القليل ، وكذلك الشأن فى الوظائف الحكومية وغير الحكومية ، واذا وظفت المرأة واكتسبت مالا بعملها شعرت أكثر من قبل بحريتها وعدم ارتباطها التام ببيتها وأسرتها ، وجرؤت على ما لم تجرؤ عليه أيام كانت فى كنف أبيها أو زوجها ينفق عليها ولا تكسب هى شيئا

ثم هذه الحرية لم تحصن بالمبادىء الروحية والاخلاقية التحصين الكافى ، بل هزىء بها وبدعوتها ، وأثر ذلك فى الرجال كما أثر فى النساء ، فنزول المرأة الى السوق أكثر عدد المتعطلين من الرجال ، وحريتها التامة أضعفت من علاقتها بالأسرة ، وكاد الامر ينتقل من أن المسألة « مشكلة المرأة » الى أن تكون « مشكلة الرجل »

هذه هى الازمة الكبرى والمشكلة العظمى ، ومحال أن تعود المرأة الى ما كانت عليه فى القرون الوسطى بعد أن نالت ما نالت وعرفت ما عرفت ، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن حريتها غير المحدودة بحدود لا يمكن أن تبقى على هذه الحال ، وانما هى أثر من فك القيود الماضية كلها دفعة واحدة ، شأنها فى ذلك شأن الحريات التى تأتى عقب الثورات ، فتبالغ فى الطرف الآخر كحركة البندول ثم تستقر فى نقطة الوسط

فى كل جمعية منظمة لا يمكن لاى فرد رجلا كان أو امرأة أن يتحرر من القيود حرية مطلقة ، وبعبارة أخرى ليس فى الامكان أن تستمتع الجماعة بحريتها الا اذا قيدت ـ الى حد ما ـ حرية أفرادها

وحرية المرأة ـ اذا بالغت فيها ـ كما نشاهد اليوم سيضر بالمرأة نفسها كما سيضر بالرجل وبالمجتمع ، لئن اعتمدت فى حريتها على عيشتها من غير زواج ، فما أيأسها بعد

أحمد أمين

(البقية على صفحة ٣٠٦)

امراض العظماء

وأثرها فى مجرى التاريخ

غير قليل من أعمال كل فرد واتجاهاته ما هو نتيجة مباشرة واستجابة طبيعية لما يصاب به من أمراض وما يلحق بدنه من ضروب النقص والانحراف

خذ نابليون مثلا . فلو لم يكن رجلا ضئيل البدن هزيل القوام ، لكان من المرجح الا يلجأ الى ابراز شخصيته بتلك الطريقة العنيفة التى اتبعها ، وألا يسعى الى أن يكون سيدا مسيطرا يفرض ارادته ويبسط سلطانه ، ليشعر نفسه بأن ما فوتته عليها الطبيعة من الضخامة والاناقة قد عوضه هو بما كسبه من مجد وما أحرزه من سلطان . ولو لم يصب فى آخر أيامه بسرطان فى المعدة ، لكان من المحتمل ألا يقعد به المرض عن الفرار من سانت هيلانة ، حيث يستأنف حملاته وحروبه التى ربما أدت به فى النهاية الى أن يغدو سيد أوربا الفرد وحاكمها المطلق

وكم يكون التاريخ صادقا صحيحا لو عرفنا أن كثيرا من المعارك الفاصلة والوقائع الحاسمة لم تخسرها الجيوش والشعوب ، لان خطأ وقع فى رسم الخطة أو نقصا حدث فى اعداد الجند ، بل لان القائد أصيب فى ابان المعركة بخراج فى العنق ، أو بثقل فى المعدة ، أو بصداع أرقه بضع ليال !

والواقع أن كثيرا ما تغير مجرى التاريخ ، لا لامر الا لان مرضا أصاب أحد الملوك أو الملكات أو نقصا لحق بالتكوين الجسمانى لاحد الزعماء أو القواد

فهذه الباصابات ملكة انجلترا حبتها الطبيعة بالذكاء المتألق والدهاء المحكم والسياسة المحنكة ، وجميع هذه المواهب والملكات كانت خليقة بأن تجعل منها أما لسلسلة طويلة من أقدر ملوك انجلترا وأدهاهم .. ولكن ماذا كان ؟ كان أن حرمتها الطبيعة القدرة على الحمل والنسل ، فحرمت العرش ملوكا أقوياء ، وأحلت عليه ملوكا كان لضعفهم وعجزهم أثر كبير فى تاريخ الشعب الانجليزى

والتاريخ حافل بأمثال لا عداد لها من هذا القبيل ، نجتزىء منها بثلاثة أمثال :

عذاب المرضى وظلم التاريخ

فى سنة ١٤٩٢ أعطى كريستوفر كولمبوس ثلاث سفن تمخر بها عباب البحر متجها الى الغرب ليحقق ذلك الحلم الخطير الذى ساوره وأرقه السنين الطوال . وبعد شهور رست السفن على الشاطىء الذى اجتمعت عليه أفواج الناس تحيى القادمين الغرباء . ولم يكن

وسط هذه الافواج الحاشدة امرأة واحدة ، فقد أبقى الرجال نساءهن فى البيوت والاكواخ غيرة عليهن من هؤلاء الاجانب ، أو خوفا عليهن من أذى هؤلاء الغزاة . ولكن رجال كولمبوس لم يلبثوا أن عرفوا الطريق الى هؤلاء النساء ، فكانت النتيجة المحزنة التى يعرفها ويقاسيها العالم الآن . نعم ، فان هؤلاء البحارة ـ كما قرر المؤرخون ـ أصيبوا جميعا بمرض الزهرى اثر اتصالهم بنساء تلك المناطق التى نزلوها

وفى سنة ١٤٩٣ عاد بعض أولئك البحارة الى اسبانيا ، وبقى بعضهم فى الارض الجديدة التى كشفوها . وفى العام ذاته ظهر مرض الزهرى فى اسبانيا لاول مرة فى تاريخها

وفى العام التالى ظهر هذا المرض الذى كان يسمى « بالفوضى الاسبانية » فى مدينة نابلى بايطاليا ، وذلك اثر قدوم حملة اسبانية الى هذه المدينة . وبعد ذلك بعامين عرفت باريس لاول مرة هذا المرض الفتاك . ثم انتشر المرض فى سائر أرجاء أوربا بعد أن تخلى عن اسمه الاسبانى وصار يعرف « بالمرض الفرنسى » . ولم يسم باسمه العلمى الحديث ـ السفلس ـ الا فى سنة ١٥٣٠ ، أما العلاج الناجع له فلم يوفق اليه الطب الا فى بداية القرن الحالى أى فى سنة ١٩٠٥

والآن نتساءل : هل أصيب كولمبوس بهذا المرض ؟

ان أعراض الامراض المختلفة كثيرا ما تتشابه حتى يصعب على المرء أن يتبين حقيقة المرض ويجزم بها . ولكن من الثابت فى تاريخ كولمبوس أنه قد بدت عليه أعراض ولحقت به أمراض ، تدل على أن جرثومة الزهرى سرت فى دمه . ففى أثناء رحلته الثانية الى أمريكا ، فى سنة ١٤٩٤ ، كانت تصيبه نوبات من الحمى تعاوده من حين الى حين . وربما كانت هذه الحمى هى حمى التيفوئيد ، ولكن الارجح أن تكون عرضا من أعراض مرض الزهرى فى مرحلته الثانية ، حين تشتد وطأته على المريض . وفى أثناء رحلته الثالثة ، فى سنة ١٤٩٨ ، أصيب بنوبة شديدة من داء النقرس تبعها دور شديد من الحمى . ولكن الاغلب أن ما أصيب به لم يكن داء النقرس ، لان كولمبوس كان رجلا زاهدا متقشفا ، وهذا الطراز من الناس لا يصاب بهذا الداء

والواقع أن أعراض الزهرى الحقيقية بدت على كولمبوس فى أثناء هذه الرحلة الثالثة . فقد بدأ يتخيل أن أصواتا غريبة ترن وتدوى فى أذنيه ، وبدأ يتوهم نفسه « سفير الله » الى الناس . وقد حملت هذه الحالة حاكم الجزر التى كشفها والتى ضمت الى تاج اسبانيا ، على أن يلقى به فى السجن ، ثم على اعادته الى اسبانيا مكبلا بالاصفاد

ومع أن كولمبوس غدا منذ ذلك الحين واهن الجسم معتل الصحة مضطرب العقل ، الا أنه قام برحلته الرابعة والاخيرة الى العالم الجديد فى سنة ١٥٠٢ . ولما عاد الى اسبانيا بعد ذلك بسنتين حمل من السفينة الى بيته سقيما معلولا . فقد اشتدت عليه وطأة المرض ، حتى انتفخت وتورمت ساقاه ، ثم لم يلبث الورم أن أصاب جسمه كله من الصدر الى أطراف قدميه . واضطربت نبضات القلب وازداد ضغط الدم ، ولحقت به جميع العلل التى

يأتى بها الزهرى فى أشد أدواره . ثم تصلبت أطرافه ، واضطرب تفكيره ، وخفتت دقات قلبه ، حتى أدركته المنية فى سنة ١٥٠٦

وهكذا لم يصب هذا الرجل من كشفه نصف الدنيا ، بل نصفه الغنى الخصيب ، الا هذا المرض الخبيث الذى أذاقه ألوانا شتى من العذاب .. وكأنما أرادت الاقدار أن تلاحق الرجل بالبلاء حتى بعد موته ، فلم يصب من عمله حتى مجرد المجد والشهرة ، بل سميت القارة التى كشفها باسم رجل آخر ، هو امريكو ، الذى لم يكن سوى تاجر لحوم سافر الى تلك البلاد لا بدافع البحث والعلم بل بداعى الاتجار والاثراء

تزاوج الأقارب خيرها وشرها

تحرم الشرائع الدينية والقوانين الحديثة والعرف المقرر زواج الاشخاص المرتبطين بعضا ببعض برباط وثيق من دم القربى ، كما هو الشأن بين الاخوة . والظاهر أن هذا التحريم جاء من الفكرة التى تقرر أن مثل هذا الزواج لا يأتى الا بأطفال ضعاف من الوجهة الجسمانية أو من الوجهة العقلية أو من الوجهتين معا

ولكن الواقع أن زواج الاخوة ، وزواج الاقارب بوجه الاجمال ، يؤدى الى ما يسمى « بتعزيز الصفات » . أى أن صفات الابوين اللذين تربطهما صلة القربى تأتى معززة مؤكدة بارزة فى أولادهما . وهذه هى الطريقة المتبعة فى انجاب السلالات الممتازة من المواشى ، اذ تمنع السلالة الطيبة من الاختلاط بغيرها ، ويقصر اختلاطها على أفرادها ، فيأتى نتاجها ممتازا بخير ما فى السلالة من الصفات

أما اذا كانت الأسرة مصابة بنواح من الضعف أو الشذوذ الجسمانى والعقلى ، فان زواج أفرادها بعضهم ببعض يؤدى الى تعزيز وتوكيد هذه النواحى الضعيفة أو الشاذة فى نسلها . وتزداد هذه النواحى بروزا ووضوحا كلما استمر التزاوج بين أفراد الأسرة جيلا بعد جيل . ومثل هذه الأسرة تتعرض غالبا لكوارث وفواجع أليمة نتيجة ما يظهر فى أبنائها من عوامل الانحراف والشذوذ

وهذا ما وقع فى الأسرة التى أنجبت كليوباترة ، أسرة البطالسة . وليس هذا مجال الحديث عن جمال كليوباترة الفاتن ، ولا عن رجاحة عقلها الكبير ، فهذه أمور تحدث عنها المؤرخون ، وتغنى بها الشعراء ، منذ أقدم العصور الى يومنا هذا . وانما يعنينا الحديث عن أثر تزاوج أفراد هذه الأسرة بعضا ببعض فى الفاجعة التى انتهت اليها حياة هذه الملكة ، التى جمعت من الجمال والذكاء ما لم تجمع أية ملكة أخرى من الملكات اللاتى كن أحسن منها حظا وأكثر توفيقا

فجداها الاولان ، بطليموس السابع وكليوباترة الثانية ، كانا من أب وأم واحدة . وأنجبا كليوباترة الثالثة التى تزوجت عمها بطليموس التاسع ، وكان عمها هذا شقيقا لابيها وأمها

وقصة الزواج فى هذه الأسرة عجيبة حقا . من ذلك أن ابنة بطليموس العاشر الكبرى ، واسمها بيرنيك الثالثة التى تولت العرش فترة من الزمن ، تزوجت أول الامر شقيق والدها ، ثم تزوجت ابن زوجها هذا من زوجته الاولى !

ولما قتلت هذه الملكة تولى العرش أخوها بطليموس الثالث عشر ، الذى تزوج من أخته كليوباترة الخامسة . وكانت كليوباترة التى خلد اسمها فى التاريخ ابنة هذين الزوجين الشقيقين

فأنت ترى أن كليوباترة هى نتيجة سلسلة متصلة من زواج الاخوة باخواتهم . فكان من الطبيعى أن تخرج وفيها جميع صفات البطالسة وملكاتهم معززة مؤكدة . ولكن هذه الصفات لم تكن كلها بالصفات الطيبة السامية ، بل كان منها ما هو شر وبلاء . فجمعت كليوباترة فى نفسها خير هذه الصفات وشرها : جمعت منها صفات الجمال والفتنة ، وصفات الذكاء والدهاء ، كما جمعت منها صفات التهور والاندفاع ، وصفات التبذل والاستهتار . وعلى الجملة كان لها من صفات أسرتها ما خلد اسمها فى التاريخ ، وما انتهى بها الى الموت بلدغة الثعبان !

مرضيه هعظم ثلاثة تيجانه

كان من المحتمل أن تتوج مارى ستيورات رأسها بتيجان اسكوتلنده وفرنسا وانجلترا، لو أن الجراح أجرى عملية جراحية تعد الآن من أبسط الجراحات فى رأس زوجها الاول فرنسيس الثانى ملك فرنسا . وكان فى وسع جراحه أن يجريها وأن ينجح فيها ، ولكنهم لم يصرحوا له بذلك ، فمات الملك ، وكان من نتائج موته أن ختمت حياة مارى ستيورات أقسى ختام ، ختمت تحت فأس الجلاد بعد أن عاشت فى السجن ثمانية عشر عاما

بدأ مرض زوجها فى اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر فى سنة ١٥٦٠ ، وكذلك مرضت مارى فى ذلك الوقت . ولم يكن مرضهما سوى انفلونزا الجأتهما الى الفراش . أما مارى فشفيت بعد يوم أو يومين ، أما زوجها فاشتد به المرض فظل اسبوعين محموما يشكو ويعانى

وانتقل المرض الى أذنيه كما تفعل الانفلونزا عند حدتها ، فأخذتا تصفران وتدويان ، ثم بدأ يسرى الصمم الى سمعه رويدا . ومع ذلك ذهب الى الكنيسة يؤدى الصلاة ، فوقع فى ساحتها متعبا مجهودا ، وهو يئن من ألم شديد فى رأسه وأذنيه . وحمل توا الى قصره ، ولم تلبث أن تورمت أذناه ، وانتقل التورم الى الاعصاب المؤدية الى المخ . وكان الصداع شديدا قاسيا ، والحمى مرتفعة عنيفة ، ونوبات القشعريرة والارتجاف تصيبه فى فترات متقاربة . واشتد به المرض سريعا ، فلم يلبث أن انطرح على فراشه فاقد النطق واستدعى لعلاجه امبرواز باريه ، وهو أقدر وأمهر الجراحين الفرنسيين حينذاك ، فأشار باجراء جراحة فى الجمجمة لامتصاص ما فيها من القيح والدم الفاسد . وكان رأيه

صحيحا كل الصحة ، وكانت هذه الجراحة هي الوسيلة الوحيدة لانقاذ المريض . ولكن أم الملك ، كاترين دى مديشى ، رفضت أن تصرح له باجراء هذه العملية جهلا منها وفرقا على ابنها

ووقف الجراح الى جانب فراش المريض ينظر الى وجهه نظرة رقيقة حازمة ، وأدواته جاهزة بين يديه تنتظر كلمة الموافقة فتنقل المريض من حالة الاحتضار الى حالة الشفاء . ووقفت أم المريض الى يمينه وزوجه الى يساره ، بينما المريض مسجى وهو باهت اللون مهضم الوجه ، يتقلب متألوها متوجعا

وقالت مارى للجراح : أقدم . ولكن أمه الملكة كاترين ، كانت عنيدة حازمة ، منعته من أن يمد يده الى ابنها . وكانت مارى فتاة صغيرة فى الثامنة عشرة من عمرها ، فلم تقو على معارضة كاترين . وانصرف الجراح كاسفا محزونا بعد أن فارق لويس الحياة

ولو أنه عاش لاستطاعت مارى حين تشب النزاع بينها وبين الياصابات ملكة انجلترا أن تقضى على غريمتها ، حين تعبىء عليها من الشمال قوات وطنها اسكوتلنده ، ومن الجنوب قوات وطن زوجها فرنسا . ولكن تلك الأنفلونزا حرمتها عرش فرنسا ، فسهل على خصيمتها أن تتغلب عليها ، وأن تظفر بها أسيرة ذليلة ، فألقت بها فى السجن أعواما طوالا ، ولم تشف غلتها منها الا بعد أن ألقتها تحت فأس الجلاد تجز رأسها

(عن كتاب « الممبودون والمرضى » للدكتور جيمس كميل)

أزمة الأسرة

(بقية المنشور على صفحة ٣٠١)

سنين قلائل حين تذهب نضرة شبابها سريعا ، وان بالغت فى مطالبها أعرض الرجل عن الزواج فقل عدد الأسر ، وان تحطمت الأسرة فويل للمجتمع

لا شىء فى الوجود أعز من أسرة صالحة تغرس فى نفوس أفرادها العطف والتعاون وحب الوطن وحب الانسانية ، ولا شىء فى الوجود يهيىء الانسان الى أن يبلغ سموه فى الكمال الا الأسرة ، ولا مربى صالحا يربى فيه الطفل كالأسرة ، فاذا أضاعت المرأة كل ذلك بحريتها ، فقد هدمت المجتمع من أساسه ، ولا يسمح المجتمع لها أن تلعب بالأسرة هذا اللعب ، فلا بد أن يتدخل ، ويوفق بين مطالبها فى الحرية المعقولة والمحافظة على الأسرة فى أسمى أشكالها ، وهذا هو عمل المصلحين فى المستقبل القريب

أحمد أمين

حياة العالم الروحية بعد الحرب ؟

بقلم مصطفى باشا عبد الرازق

وزير الأوقاف السابق

يراد بالحياة الروحية الحياة الدينية القائمة على اعتبار الروح الانسانى كائنا أشرف من الجسم ، مغايرا له فى جوهره ، باقيا بعد فنائه ، يحاسبه ربه ويوفيه جزاء عمله فى الدار الآخرة ، وهذه عقيدة لا تختلف فيها الأديان السماوية ، وتكاد تجمع عليها الأديان الأخر

وعلى هذا الوجه يكون معنى « حياة العالم الروحية بعد الحرب » مدى أثر الحرب فى اقبال الناس على الدين وتمسكهم بأهدابه

ولسنا نجد فى هذه الحرب على الخصوص معنى من المعانى الدينية ولا مظهرا من مظاهر التدين ولم يرو عن أحد من رجالات السياسة أو رجالات الحروب ما كان يروى فى الحرب العالمية الماضية من كلمات تنم عن نزعات دينية أو ترمى الى استثارة العواطف الملية فى الجماهير . ثم ان فى صفوف العراك المحتدم اليوم أهل ملل مختلفة ونحل ، وفيهم من ليس له دين

ما أظن أنه يكون لهذه الحرب الحاضرة أثر مباشر فى حياة العالم الدينية ، الا أن تزد الهزيمة من يهزمون الى التماس العزاء فى قوة روحية تسند ضعفهم المادى

أما من ينتشى بخمرة الانتصار ، فهيهات هيهات أن يترك الزهو والبطر فى صدره موضعا لما وراء الغلبة وأسبابها الظاهرة من قوة وبطش

وللحياة الروحية مفهوم آخر غير هذا المفهوم الدينى ، فيقصد بها الحياة الخلقية ، بصرف النظر عن التدين والالحاد ، وتلك حياة تراعى فى هذا الكون بصوره وأشكاله المادية معانى باطنة هى الروح والسر

ففى الاشياء والأعمال والنظم جمال وقبح وعدل وظلم

وما أثر الحرب العاصفة بالعالم فى الحياة الروحية بهذا المعنى الخلقى ؟

كانت الحروب فى العهود الانسانية الاولى لاغراض مادية ، فالقوى يعدو على الضعيف ليسلب أنعامه أو يحوز دونه المراعى والموارد أو ليسترقه ويسخره فى مآربه

ثم جاءت حروب دينية كانت بواعثها أمورا معنوية ، اذ يريد أهل هداية دينية أن تسود فى الناس دعوتهم ، ليسعد بها الناس فى دنياهم وآخرتهم

ولئن تسربت الى الحروب الدينية فى بعض أطوارها منازع دنيوية ، فقد ظل المظهر الاغلب لبواعث هذه الحروب دينيا غير دنيوى

وأتت بعد ذلك حروب الاستعمار ، وجل همها أن تستولى على موارد المستعمرات لتستغلها وتستعبد أهلها ، لكن الانسانية لم تعد فى حالة من السذاجة تستسيغ الجهر بالعدوان ، لاغراض مادية من جنس بواعث الحروب فى عصور الهمجية الاولى ، فكان المعتدون من المستعمرين يسرون حقائق نياتهم، ويخفون فى أنفسهم ما الله مبديه، ويسدلون فوق أغراضهم المادية ستارا خلابا من معانى التمدين والتحرير لامم لم تعرف المدنية والحرية اليها سبيلا

وهذه الحرب الحاضرة ما أغراضها ؟

أهى أغراض معنوية سامية يراد بها صلاح البشر ؟

أم هى أغراض استعمارية يغشيها رداء من الاغراض المعنوية المحببة الى النفوس استدراجا للجماهير ، وتحميسا لشعوب ليس من السهل أن تساق الى الهلاك سوقا لغير معنى من المعانى الشريفة ؟

سواء أكانت أغراض هذه الحرب معانى كريمة كما يقول المتحاربون ، أم كانت أغراضا استعمارية كما يتوجس منه خيفة بعض الناس ، فان هذه الحرب قد أثارت ضجة لا عهد للعالم بمثل صيحاتها ، تغالب أزيز الطائرات ودوى القنابل ، وتنادى بحق الفرد فى الغذاء والكساء والمسكن والعلاج ، وحقه فى العلم والحرية ، وتنادى بحق الجماعات فى السيادة والاستقلال واختيار نظام الحكم ، وتنادى بأن تتكافل الامم على توطيد دعائم الأمن والسلام والعدالة والرخاء والمساواة فى العالم

وسيبقى حتما لهذه الصيحات صدى فى أعماق الضمير الانسانى ، يتبعث يوم تضع الحرب أوزارها ، انبعاثا لا يقوى على صده أو خداعه بطش الطغاة ولا دهاء السياسيين

مصطفى عبد الرازق

كل رجل يستحق أن يسمى رجلا يضع واجبه قبل كل شيء فى العالم — بل قبل المرأة التى يحبها — فاذا أرادت أن تخليه من مسئوليته ليفرغ لها وحدها ، فانه قد يرضى بذلك برهة قصيرة ممتعضا متألما ، ثم يأتى عليه اليوم الذى يدع هذه المرأة الى امرأة أخرى تزيد شعوره بمسئوليته وتزيد اقدامه على أداء واجبه

« أندريه موروا »

هل يمكن إنشاء حكومة عالمية بعد الحرب ؟

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

« العالم لا يستغنى عن هيئة نافذة السلطان تتولى تدبير المسائل التى يقع فيها الاشتباك والتنازع بين الامم أو بين الحكومات القومية والمحلية . . . »

نسأل قبل أن نجيب : ما هى الحكومة المقصودة بهذا السؤال ؟

ان كان المقصود بها حكومة على مثال الحكومات القومية المحلية التى تنظر فى أمور رعاياها جملة وتفصيلا ، فقيام حكومة عالمية على هذا المثال غير معقول وغير ممكن وغير مطلوب ، وان عقلناه وطلبناه وأمكن تنفيذه فهو غير مفيد

لان المشاهد حتى فى الحكومات القومية المحلية أنها تتجه من المركزية الى نوع من اللامركزية ، يختلف باختلاف الأمم والأنظمة الحكومية

فالعواصم الكبرى تحول بعض الاعمال العامة الى العواصم الصغرى ، والمجالس النيابية التى تمثل الامة بأسرها تستعين بالمجالس النيابية الصغيرة التى تمثل الاقاليم فى حدود بعض الاعمال ، وهى المجالس البلدية والمجالس القروية وجماعات التعاون وما يقابل عندنا مجالس المديريات

وقد كانت الامبراطورية البريطانية دولة واسعة النطاق تنظر فى سياسة أمم كثيرة بعضها فى أوربا وبعضها فى أمريكا وآسيا وافريقيا وسائر انحاء المعمور ، فوجدت أن ادارة هذه البلدان كلها أمر لا يطاق ولا يقدر عليه الحاكمون ولا يصبر عليه المحكومون ، فبدأت بتحويل السلطان الى « رجل المكان » كما يسمونه فى اصطلاحهم The man on the spot

ثم شعرت بثقل العبء على رجل المكان ، فسلمت باستقلال كل أمة من الامم الحرة التى تدخل فى نطاقها ، ولا تزال تتوسع فى قبول مبدأ الاستقلال المحلى مرحلة بعد مرحلة وعاما بعد عام

فالحكومة العالمية التى تنظر فى شؤون العالم على مثال الحكومات القومية المحلية التى عرفناها وعرفها التاريخ فى الازمنة الماضية ليست فى الحسبان ، ولا يفكر فيها الآن أحد من أتباع المذاهب الاجتماعية على تعددها ، ومنها المفرط فى الاشتراكية والمفرط فى طلب الحرية الفردية

أما ان كان المقصود بالحكومة العالمية حكومة تنظر فى مسائل العالم المشتركة التى لا تقدر عليها حكومة واحدة ، فهذا مستطاع مطلوب ، ويبدو لنا أن الخطوات الاولى فى

طريق الوصول اليه تتبين فى حركات الامم الكبرى والصغرى من الآن

فالعالم لا يستغنى عن هيئة نافذة السلطان تتولى تدبير المسائل التى يقع فيها الاشتباك والتنازع بين الامم أو بين الحكومات القومية والمحلية

ومن هذه المسائل ، تنظيم العملة التى يجرى بها التعامل ، بعد اشتباك أمم الارض فى علاقات تجارية واقتصادية يتأثر كل منها بما يصيب الآخرين

ومن هذه المسائل ، حراسة المواصلات فى البر والبحر والهواء ، بعد أن أصبحت طرق المواصلات متشعبة فى أقطار الارض مبثوثة فى أقاليم كل دولة من كبار الدول أو صغارها ، ولا يلبث هذا التشعب أن يزداد ويتعدد بعد انقضاء حالة الحرب بزمن وجيز

ومن هذه المسائل ، توثيق الروابط بين الاجناس الصغيرة التي لا تدخل فى نظام واحد ، ولا يمكن أن يخلى بين كل جنس منها واطماعه ودعاويه وهى لا توافق مصالح الآخرين

وقصة أبى دلامة معروفة فى دواوين الادب والفكاهة ، وهى القصة التى طلب فيها كلب صيد ، ثم طلب لكلب الصيد كلابا يروضه ويعنى به ، ثم طلب للكلاب جارية تخدمه وتخدم أسرته الجديدة ، ثم طلب لكل هؤلاء بيتا يعيشون فيه ، ثم ضيعة تنفق على البيت ومن يأوى اليه

ففى دواوين السياسة العالمية تجرى هذه القصة على وتيرتها التى تناسبها بغير كبير خلاف

فتنظيم العملة العالمية مثلا لا يتأتى بغير تنظيم الانتاج الزراعى والصناعى فى كل قطر من الأقطار ، وتنظيم الانتاج لا يتأتى بغير تنظيم التصدير والتوريد ، وتنظيم هذين لايتأتى بغير تقرير العلاقات بين المنتجين والعمال وبين أصحاب الأموال والمستنفدين

وهذا التشابك أو هذا التعقيد فى المشكلات العالمية لا يصح أن يعتبر مانعا للتفاهم على نظام الحكومة العامة التى تعالجه وتشتغل بتسوية شؤونه . اذ الواقع أن هذا التشابك هو الذى أوجب التفكير « أولا » فى الاتفاقات العالمية ، وهو الذى يوجب التفكير « ثانيا » فى انشاء حكومة للعالم تمثل حكوماته جميعا فى علاج هذه الشؤون

وقبل أن تشتبك العلاقات بين أمم الارض على هذا المنوال ، لم تكن هناك دعوة الى الاتفاق ، ولا حاجة الى التفكير فى نوع من الحكم العالمى غير النوع الذى درجت عليه الامم فى عصور العزلة والشقاق

فليس الاشتباك مانعا للحكومة العالمية ، بل هو موجب لها وداع اليها ، وهو الذى ولد الفكرة من بدايتها ، ولا يزال يتابعها حتى يصل بها الى نتيجة يحسن الركون اليها

وعلى المبدأ الذى قدمناه فى صدر هذا المقال ، لا يراد بالحكومة العالمية أن تلغى حكومات الامم المستقلة أو تخلفها فى سياسة رعاياها ، وانما المراد بها أن تجمع المندوبين عن هذه الحكومات فى هيئة واحدة مسموعة الرأى فى كل قطر من الأقطار كبيرها وصغيرها

وستكون هذه الحكومة العالمية نافعة للامم الصغار من ناحية ، وضارة بها من ناحية أخرى :

ستكون نافعة لها لان الحراسة العالمية تخفف عنها معظم الاعباء التى تنهض بها للدفاع عن استقلالها

وستكون نافعة لها لانها ستغنيها عن ضحايا التطور الاجتماعى الذى وصلت اليه الامم المتقدمة بعد جهاد عنيف بين طبقاتها ، وعراك دام بينها وبين جاراتها ومنافساتها . فلا تحتاج الامم الصغار الى اعادة التجارب الدامية من بدايتها لبلوغ المرحلة التى بلغها المتقدمون فى سبيل العدالة الاجتماعية وتقريب مسافة الخلف بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة ، وان كنا لا ننتظر من توحيد النظم العالمية فى الانتاج والتصدير والتوريد أن يبطل فعل التطور الاجتماعى كل البطلان ، ويلغى دواعيه كل الالغاء ، فحسبه أنه يختصر طريقه ويخفف بعض أعبائه ، ويريح العالم من بعض ضحاياه

ولكن الحكومة العالمية ستكون ضارة بالامم الصغار من ناحية أخرى ، لاننا نغالى فى الأمل اذا رجونا أن يعم العدل بين الاقوياء والضعفاء على أثر قيام الحكومة العالمية فى تجاربها الاولى . فلا شك أن مصالح الاقوياء ستجور على مصالح الضعفاء الى زمن طويل، وأن الكلمة المسموعة فى حكومة العالم ستصدر من أقوى الفريقين الى أن يتيسر للضعفاء الاتفاق على تبديل هذه الحالة ، كما تيسر للافراد الفقراء أن يرفعوا صوتهم شيئا فشيئا فى الحكومات القومية الى جانب صوت الاغنياء

فالحكومة كما عرفناها منذ نشأتها فى التاريخ الى اليوم لم تمنع الظلم كل المنع ولم تبطل الفوارق كل الابطال ، ولكنها منعت شيئا ولا تزال هنالك أشياء فى انتظار المنع يحاولها الذين يرومونها ويقدرون على القليل منها بعد القليل ، حتى يبلغوا بها فى هذه الوجهة غاية المستطاع فى أعمال الانسان ، وأعمال الانسان لن تخلو كل الخلو من الظلم والتفرقة الى آخر الزمان

وكذلك الحكومة العالمية المرجوة لا يعقل أن تسوى بين الاقوياء والضعفاء دفعة واحدة، ولا أن تصل الى التسوية التامة بينهم فى يوم من الايام ، ولكنها تراد مع ذلك لضرورة هذه التجربة فى المرحلة الحاضرة من مراحل التاريخ ، ولا بد أن تراد وتتحقق كما أريدت الحكومة القومية وتحققت ، مع أنها لم تصنع أمس ولا تصنع اليوم ولن تصنع غدا كل ما يتعلق به الأمل والخيال من الانصاف والتنظيم

أما أساس التفاهم على أوضاع الحكومة العالمية ، فالغالب الراجح أنه أساس الانتخاب على نسبة تلاحظ فيها عدة السكان وقسطهم من الحضارة ونصيبهم من الثروة الصناعية والزراعية ، وقدرتهم على النهوض بتبعات الحراسة المشتركة وتأمين المواصلات وتقرير السلام

والغالب الراجح كذلك أن تكسب ثقة الامم الصغار فى هذه الهيئة بالنص على شرط

صريح يحظر التصل فى شؤونها الخاصة ، الا اذا أقرته أغلبية كبيرة لا يسهل على الاقوياء أن يحصلوا عليها فى كل مناسبة

وحسبنا اليوم أن نعلم أن قيام الحكومة العالمية ميسور ومطلوب ، وله بدايات يوشك أن تصير الى غاية قريبة المنال ، وأنه أمل كجميع الآمال الانسانية نسعى اليه لانه خير من الآمال السابقة ، لا لانه يعطينا كل شيء ويغنينا عن كل رجاء ، وكذلك يأمل الطفل ثم يأمل الصبي ثم يأمل الفتى ثم يأمل الكهل والشيخ ، ولا يقال لهم انهم مخطئون لانهم يودعون أملا بعد أمل ، ويشهدون على أنفسهم بقصور ما أملوه عن الغاية التى تطلعوا اليها ، ولا يزالون يتطلعون

عباس محمود العقاد

لا داعى للتشاؤم

عند ما شبت نار هذه الحرب ، وأخذت تأكل الخلائق وتعصف بالجموع ، استولى على الناس روح التشاؤم ، وحسبوا ان الحضارة قد آذنت بالزوال ، وأن الانسانية مشرفة على عهد من الفوضى والدمار ..

ولكن الحرب تقوم وتنتهي ، والحضارة كما هى باقية ثابتة ، بل سائرة فى طريقها قدما . ودليل ذلك أن روح التشاؤم هذه استولت على الناس مرارا خلال التاريخ الحديث ، فحسبوا أن الدنيا آيلة للفساد والخراب ، ومع ذلك ما زالت الدنيا بخير ، وما برحت الحضارة فى طريقها الى الاكتمال والازدهار

ففى سنة ١٧٨٣ قال وليم بت ، رئيس وزراء بريطانيا فى ابان حربها مع نابليون: « ما من شيء حولنا سوى الدمار ، وسوى اليأس »

وفى سنة ١٨٠٠ قال الاسقف ويلبفورس : « لا أستطيع أن أتزوج . فالمستقبل مظلم حالك ، قلق مضطرب »

وفى سنة ١٨٤٧ قالت الملكة ادليهد ، ملكة انجلترا : « ليست لى سوى رغبة واحدة . هى أن ألعب دور الملكة مارى انتوانيت التى لقيت حتفها على المقصلة ، ولكن فى جرأة وجسارة ، وذلك عند ما تقوم الثورة المقبلة »

وفى سنة ١٨٤٨ كتب اللورد شافتسبورى : « ما من شيء يستطيع أن ينقذ الامبراطورية البريطانية من التحطم والسقوط »

وفى سنة ١٨٤٩ كتب دزرائيل : « لا أمل لنا فى شيء : لا فى الصناعة ، ولا فى التجارة ، ولا فى الزراعة »

وفى سنة ١٨٥١ كتب قاهر نابليون ولنجتون : « أحمد الله على أنى سأموت قريبا . سأموت قبل أن أشهد منظر الخراب الذى تتجمع سحائبه من حولنا فى كل جانب »

التعاون السياسي بين الدول

ماضيه ومستقبله

بقلم الأستاذ محمد رفعت بك

ان ارتباط شعوب العالم المتمدين فى نظام سياسى واحد فكرة قديمة ، يمكن تتبع أصولها فى عصور التاريخ المختلفة

ففى العصور القديمة كانت غزوات كبار الفاتحين كالاسكندر وقيصر ، ترمى الى نشر النفوذ الاغريقى والرومانى على التوالى بين الشعوب المعروفة فى ذلك الوقت

وكان النظام الذى أقامته الدولة الرومانية وساد العالم عدة قرون فى ظلال السلم ، أعمق أثرا وأبقى على الزمن من أى نظام مضى أو جاء بعده الى الآن . فقد كان فى الدولة الرومانية أقوام يختلفون جنسا ولغة ودينا وعادة ، فكانت روما تغرس فيهم جميعا حضارتها ، وتنشر ثقافتها وتمد طرقها وتقيم جسورها وتطبق قانونها وتمنحهم جميعا حقوقا مثل حقوق أهل رومة نفسها . وكان من أثر هذه الطمأنينة بين الشعوب أن اصطلحوا للسلام صفة ينعتونه بها ، وصلة ينتسب اليها ، فأطلقوا عليه « سلام روما »

غير أن هذا الارتباط كان أساسه القوة ، وقد قام مستندا الى حراب الفيالق الرومانية التى كانت تحافظ على تخوم الدولة ، وتمنع عنها غارات أعدائها خارج الحدود . فلما ضعف السند ، وبدا للناس أثر انهزام الجيوش الرومانية على أيدى القبائل المتبربرة التى أغارت على أملاك الدولة فى أوربا ، انهار البناء من جميع أركانه ، وعم الاضطراب ، وانحلت الدولة العالمية التى كانت ملء اسماع الناس وأبصارهم ، الى أقطاع صغيرة وفرق مختلفة أهواؤها طرائق قددا

وهذا مصير كل نظام يقوم على مجرد القوة والجبروت ، مهما تباينت العصور واختلفت الاساليب

جاءت بعد ذلك فترة العصور المظلمة أو العصر الوسيط ، وهو عصر رغم ما ظهر فيه من انحلال فى جميع المرافق السياسية والاقتصادية والثقافية ، فانه قد أضاء بنور الاديان الالهيـة التى دعت الناس الى عبادة الله تعالى ، وأشـاعت بينهم روح الاخاء والمحبة والمساواة . وكان الرسل الكرام فى نشر دعوتهم يؤمرون بتعميم رسالاتهم واعلان الاخاء والمساواة والعدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم . جاء على لسان الرسول الامين :

« أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى »

وجاء في العهد القديم :

« واقطع لهم عهدا في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الارض واكسر القوس والسيف والحراب من الارض وأجعلهم يضطجعون آمنين »

وكانت الكنيسة المسيحية قد جذبت اليها أباطرة الرومان ، فعمد قسطنطين امبراطور الرومان مسيحيا سنة ٣٢٠ م ومنذ ذلك الوقت اتحدت المسيحية والامبراطورية ، فلما سقطت الامبراطورية قامت الكنيسة تؤدي للشعوب ما كانت روما تؤديه من رعاية وزعامة حتى ورثت الكنيسة عن الدولة الرومانية صفتها العامة ، فصارت تعرف «بالكاثوليكية» أي الجامعة ، وأصبح لبابا روما سلطان روحي أخذ ينمو ويقوى بدخول القبائل المتبربرة في الدين المسيحي حتى شمل جميع ملوك أوربا وأمرائها ، وصار البابا هو الهيئة العليا التي يحتكم اليها جميع الملوك والأمراء في مشاكلهم وخلافاتهم ، حتى الامبراطور نفسه لما أعيد تنشئة الدولة الرومانية المقدسة في عهد شرلمان آخر القرن الثامن وصارت له السلطة الزمنية أو السياسية ، كان يدين بتاجه الى البابا ، ومن عصاه منهم فان البابا لم يكن غفورا ولا رحيما

وقد كان لاشتراك الامم في العقيدة المسيحية وسير الناس في جميع أصقاع أوربا على نهج مسيحي واحد ، أثر ظهر في ارتباطهم معا في أثناء الحروب الصليبية رغم الحواجز الطبيعية والمسافات الشاسعة التي كانت تفصلهم بعضهم عن بعض . وفي الحق يعتبر ارتباط الشعوب الاوربية في أثناء الفترة التي سيطرت فيها الكنيسة والبابوية ، أقرب النظم الى فكرة التعاون الدولية الحديثة

غير أن البابوية ما لبثت أن انغمست في الماديات ، وانحرفت عن طريق التقوى والصلاح فقامت حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر بزعامة لوثر ، فانقسمت الكنيسة ودب الخلاف بين المسيحيين ، وانفرط عقد ذلك الارتباط السياسي والروحي الذي ساد في العصور الوسطى فترة من الزمن . وكانت الروح الوطنية والقومية قد أخذت تشتد وتسمو ، فظهرت المدن والثغور ، وتكونت امارات ودويلات ، ثم تألفت من هذه الامارات ممالك أخذت تعتز كل منها باستقلالها وتفخر باتساع رقعتها حتى وقعت في حروب ظلت مستمرة ، الى أن قامت الثورة الفرنسية وجاء القرن التاسع عشر والعشرون

أول مظهر للتعاون السياسي

وأول مظهر من مظاهر التعاون السياسي في القرن التاسع عشر محاولة نابليون بونابرت تجديد عهد الاسكندر وقيصر ، وتأليف نظام أوربي عام تخضع له شعوب أوربا وترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بقوة السيف أو بأواصر القرابة والنسب ، وقد مهد لغرضه هذا

بزواجه من ابنة امبراطور النمسا « ماري لويس » وباعلان أخوته ملوكا على دول أوربا المختلفة . غير أن بقاء انجلترا بمعزل عن النظام الاوربي الذي أقامه نابليون في القارة ، واستمرارها على مناوأته ، وخروج روسيا عليه بعد اتحادها معه ، وظهور روح القومية بين الشعوب التي أخضعها نابليون بالقوة ، كل ذلك أدى الى تألب الدول ضده واندحاره في النهاية

فلما انعقد مؤتمر فينا في سنة ١٨١٥ لوضع قرارات الصلح ، شعرت الدول أن لا بد لها من نظام يصونها من خطر ظهور نابليون آخر ، ويعصمها من ويل الثورات والحروب في الداخل والخارج ، فكان نظام المؤتمر أو الاتحاد الاوربي Concert of Europe وهو النظام الدولي السياسي الذي خدم أوربا طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى سنة ١٩١٤ حين قامت الحرب الكبرى الاولى

ويعتبر المؤتمر الاوربي أول محاولة جدية في سبيل تنفيذ فكرة التعاون بين الدول في الازمنة الحديثة . وكانت الفكرة من تصنيف قيصر الروسيا اسكندر الاول ، وكان رجلا تستهويه النظريات والمشروعات الانسانية العامة ذا مسحة دينية ، فحاط المؤتمر ومشروع الاتحاد الاوربي بهالة من الاخاء والمحبة والعاطفة المسيحية ، مما دعا الى تسمية هذا الاتحاد بالمحالفة المقدسة

وقد أرادت الدول من المؤتمر تأدية غرضين ، الاول مستمد من السياسة التقليدية الماضية التي كانت ترمي الى حفظ التوازن الدولي ، وذلك بصيانة التسويات الاقليمية التي وافق عليها المؤتمر في فينا ضد الاخطار التي كانت تتهددها ، ولا سيما من جانب فرنسا . والغرض الثاني يعتبر فتحا جديدا في تاريخ التعاون بين الدول ، اذ اتفقت الدول فيما بينها على أن يجتمع مندوبون عنها في أماكن يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التي تكفل استقرار السلام وسعادة الشعوب . ويجب أن تقرر هنا أن المقصود بسعادة الشعوب تأمينها ضد الثورات التي قد تقوم ضد الملوك ، كما قامت الثورة الفرنسية من قبل

أما مشاورة الدول بعضها بعضا واجتماعها معا على قدم المساواة لمنع الحرب واستقرار السلم ، فكان غرضا نبيلا اندفعت نحوه الدول الكبرى لاول مرة في تاريخها الحديث ، وفي سبيل تحقيق هذا الغرض لم تختلف الدول اذ ذاك . وأما قمع الثورات بالتدخل في الشؤون الداخلية الصرفة للامم ، وبخاصة الصغيرة منها ، فكان مثار خلاف عظيم انقسمت من أجله أوربا الى فريقين ، فكانت النمسا وبروسيا ومعها الروسيا في الغالب تمثل الروح الرجعية . أما انجلترا ومعها فرنسا أحيانا فكانت تأبى على المؤتمر تدخله في الشؤون الداخلية للامم ، ولذلك التزمت نحو المؤتمر سياسة خاصة ، فكانت أحيانا تعلن عزلتها عن المؤتمر وتكتفي بالاشتراك الاسمي ومجرد حضور الجلسات ، وأحيانا كان اشتراكها عمليا عند ما كان تدخلها يوافق مصلحتها . على أن المؤتمر أو « الكنسرت » ما لبث أن أصبح أداة استبدادية يستعملها مترنخ الوزير النمسوي الشهير ، الذي اقترن

اسمه وسياسة النصف الاول من القرن التاسع عشر فى قمع الثورات وارهاب الشعوب الصغيرة ، ومناهضة مبادىء الحرية والقومية فى أوربا عامة

تطور سياسى جديد

ثم حدث تطور سياسى جديد فى علاقات الامم ، وذلك على أثر قيام حرب القرم بين روسيا وتركيا فى منتصف القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٣ . وكانت الاختراعات مثل السكك الحديدية والسفن البخارية والتلغرافات واستخدام الفحم والحديد فى الصناعة ، قد انتشرت فى أنحاء العالم ، وأحدثت انقلابا عظيما ظهر أثره فى تقريب المسافات وتوثيق الروابط بين الامم ، وأصبح ما يصيب عضوا فى المجتمع تهتز له سائر الاعضاء

وفى هذه الحرب حدث أمر ذو بال ، اذ انحازت انجلترا وفرنسا وسردينيا أو ايطاليا الى جانب تركيا ، فانهزمت روسيا ، وعقدوا مؤتمرا للصلح فى باريس ١٨٥٦ ، وكان مؤتمرا خطيرا اتخذت فيه قرارات خطيرة لضمان السلام والتعاون بين الدول . وأول هذه القرارات قبول تركيا على قدم المساواة فى مجموعة الدول الاوربية المسيحية ، ولم تكن تركيا قد اشتركت أو دعيت الى الاشتراك فى مؤتمر فينا أو المؤتمرات التى تلت ، اللهم الا فى المؤتمرات الخاصة بشؤون تركيا وأملاكها

وهناك مادة أضافوها الى معاهدة الصلح ، فحواها ان تلجأ الدول المتعاقدة اذا استحكم بينها الخلاف الى دولة صديقة أو محايدة تقوم بالتحكيم بين المتخاصمين ، وأرادوا أن يجعلوا من هذه المادة قاعدة تسرى على سائر الدول ، فقالوا ان للدول التى لم تشترك فى معاهدة الصلح أن تعلن انضمامها الى هذا العهد . غير أن هذه المحاولة لم تجد ، اذ اعتبرت الدول ان هذه مجرد رغبة وأمنية . ثم ظهرت الروح العسكرية البروسية لاول مرة فى القرن الماضى ، وأخذت تشق طريقها بالدم والحديد نحو السيطرة والتفوق ، فحاربت النمسا وهزمتها سنة ١٨٦٦ ، ثم حاربت فرنسا وهزمتها ١٨٧٠ ، وفى سنة ١٨٧٦ قامت الحرب الروسية التركية من جديد ، ولم تفد فكرة التحكيم التى جاءت فى صلح باريس ، ولم تغن عن الحرب فتيلا

وهكذا تكسرت آمال أنصار التعاون والسلام أمام مطامع الدول وشدة حرصها على سيادتها وسمعتها ورغبتها فى اتساع رقعتها ، ولكن مقابل هذا الفشل السياسى فى القرن التاسع عشر خطت فكرة التعاون الدولى خطوات واسعة فى نواح أخرى . ومما يزيد فى أهمية هذه الخطوات أنها استطالت حتى شملت البلاد المتمدينة فى جميع أنحاء العالم ، ولم تعد مقصورة على أوربا كما كانت الحال أولا ، فانعقدت مؤتمرات دولية لعمل الترتيبات اللازمة لجعل شؤون البريد مصلحة دولية ، زيادة على كونها مصلحة وطنية ، فتكون اتحاد البريد فى سنة ١٨٧٤ وأخذت الدول تنضم تباعا اليه ، وأعلن مبدأ حرية التجارة لتوثيق الصلات بين الشعوب ، وفى هذا القرن ألغى الرقيق سنة ١٨٣٣ . وتكونت جمعية

الصليب الاحمر الدولية فى جنيف على أثر الانتهاء من حرب القرم ، وتتابعت المؤتمرات الدولية حتى نمت من لا شيء فى أول القرن الى ٢٩ مؤتمرا فى سنة ١٨٦٠ ، الى ٢٤٧ فى سنة ١٨٨٠ ، الى ٨٥١ فى سنة ١٩٠٠ ، الى ٢٣٤٩ فى سنة ١٩٢٠ ، ثم اطردت الزيادة الى أكثر من ذلك

محكمة لاهاى للتحكيم الدولى

على أن القرن التاسع عشر لم ينته من غير محاولة أخيرة فى سبيل التعاون الدولى ومنع الحرب ، ففى أغسطس سنة ١٨٩٨ دعا قيصر الروسيا نقولا الثانى الى عقد مؤتمر دولى لوضع حد للتسابق فى التسليح وتسوية الخلافات الدولية بطريق السلم . فانعقد المؤتمر فى لاهاى فى مايو سنة ١٨٩٩ ، واشتركت فيه ٢٦ دولة ، وانعقد المؤتمر للمرة الثانية فى لاهاى أيضا بدعوة من تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة اذ ذاك فى يونيه سنة ١٩٠٧ ، واشتركت فيه ٤٢ دولة أى معظم الدول المستقلة فى العالم كله لا فى أوربا وحدها . وقد نجح المؤتمر الى درجة ما فى تقرير خطة لتسوية الخلافات الدولية ، فقرر تأليف محكمة دولية دائمة للتحكيم فى لاهاى ، فترسل اليها كل دولة مشتركة عددا من القضاة المتازين لا يزيد عادة على أربعة ، وللجانبين المتنازعين أن يختار كل منهما قاضيين، والقضاة الاربعة يختارون قاضيا خامسا يكون بمثابة رئيس لهم لبحث الخلاف واصدار حكم فيه ، والى جانب التحكيم أشار المؤتمر بطريقة التوسط بين الدول المتنازعة وحض الدول أيا كانت على التدخل لمنع الحرب ، دون أن يعتبر توسطها تدخلا أو تطفلا أو عملا غير ودى نحو أحد المتخاصمين

ويعتبر اقرار مبدأ التحكيم الدولى وانشاء المحكمة الدائمة فى لاهاى من أهم الاعمال التى تمت قبل الحرب الكبرى الاولى لضمان السلام العام وتعزيز فكرة التعاون بين الدول

عصبة الأمم ولماذا فشلت

تبقى المرحلة الاخيرة التى تلت الحرب الكبرى الاولى :

على أثر قيام الحرب الكبرى وما قاسته الشعوب والحكومات من خطوبها وويلاتها تألفت فى كثير من البلاد جماعات مدفوعة بشعور واحد ، هو منع وقوع كارثة الحرب مرة أخرى . ولما رجحت كفة الحلفاء فى الحرب عقب دخول الولايات المتحدة أخذت حكومات الحلفاء تستعد للصلح . وفى يناير سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس « ولسن » دستور النقط الاربع عشرة التى اعتبرها بعضهم قواعد للسلم الجديد للعالم ، ومن هذه النقط حق تقرير المصير للشعوب والغاء المعاهدات السرية بين الدول واعلان حرية البحار وحرية التجارة وتخفيض التسليح ، وأخيرا النقطة الخاصة بتكوين جمعية للامم على أساس ميثاق يكون

الغرض منه أن تضمن الدول بعضها لبعض استقلالها السياسي وسلامة أراضيها بدون تمييز بين دولة وأخرى كبيرة أو صغيرة

وكان لدستور « ولسن » دوى عظيم بين شعوب العالم قاطبة ، ويعتبر من أهم التعاليم السياسية التى تأثر بها العالم بعد الحرب . ولما حل « ولسن » بأرض فرنسا ليحضر المؤتمر وكانت باريس تموج بطوائف من جميع شعوب العالم تنتظر ميلاد العهد الجديد فى قصر « فرساى » كانت الجموع تغضى ببصرها أمام الرئيس وتحنى له الجباه ، كما لو كان أحد الآلهة القدماء جاء عبر الاطلانطيق ليخلص العالم القديم مما خلفته الاجيال الماضية من خلافات وشرور وآثام

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن الآلهة الجديدة مصنوعة من الطين كباقى مخلوقات الله من بنى آدم ، وأن « ولسن » قد تردى فى مباءة السياسة الاوربية وانغمس فى أوحالها ، وأن المبادىء العالية والنقط الاربع عشرة قد انهد كيانها وتبخر معظمها ، مما دعا « كليمنسو » رئيس وزارة فرنسا ورئيس المؤتمر اذ ذاك أن يقول متهكما : « ان ولسن قد طغى وتكبر على الله ، فقد جاء بأربع عشرة نقطة ، والله جلت قدرته لم يأت الا بعشر فقط » !

وأخيرا وبعد مداولات ومناورات وبعد نضال ونزال ، خرج ولسن من المؤتمر يحمل مولوده الجديد « عصبة الامم » وما كاد الطفل يرى النور ويسمع العالم صراخه حتى أنكره أبوه وولى عنه مدبرا الى أمريكا ، تاركا طفله يتربى يتيما محروما مسلوب الارادة الا عن وحى من أوصيائه الحلفاء

ويمكن ارجاع فشل نظام العصبة الى ما يأتى :

أولا — أنهم بالغوا فى تمسك كل دولة بحق سيادتها الذاتية ، ولم يمسوا هذه السيادة بشىء ولو قليل فى سبيل الصالح العام . فمن أجل التمسك بحق السيادة تركوا للدول حق الانسحاب من العصبة . مع أن مصدر القوة للعصبة هو التماسك والاتفاق بين الجميع ، فأى عمل من شأنه عدم اشتراك الدول وخاصة الدول الكبرى كالولايات المتحدة لا بد أن يؤدى الى ضعف العصبة

ولقد تحسنت الحال نوعا بعد انضمام ألمانيا فى سنة ١٩٢٦ ، غير أن خروجها من العصبة عقب قيام الحكم الهتلرى سنة ١٩٣٣ قد أعاد الحال الى ما كانت عليه . ولم تصلح بدخول روسيا سنة ١٩٣٤ ، فقد انسحبت اليابان على أثر تحديها العصبة سنة ١٩٣٢ بسبب اشتراكها مع الصين ، وخرجت ايطاليا على أثر توقيع العقوبات الاقتصادية عليها سنة ١٩٣٥

ثانيا — كذلك كانت المبالغة فى المحافظة على مبدأ السيادة لكل دولة سببا فى اشتراط اجماع الآراء فى القرارات التى يصدرها مجلس العصبة أو الجمعية العمومية ، وهذا الشرط كان سببا فى شل قرارات العصبة وتعذر تنفيذها بمجرد مخالفة احدى الدول لها ،

كما حصل فى أثناء أزمة ايطاليا والحبشة ، فقد ظهر تحيز فرنسا لايطاليا حين كان «لافال» وزيرا للخارجية وتعذر الاجماع بين الدول

ثالثا ـ أما مبدأ نزع السلاح أو تحديده فان الحلفاء قد نجحوا فى نزع سلاح ألمانيا عقب انتهاء الحرب الكبرى ، ولكن المحاولات التى قامت بها العصبة فى سبيل تخفيض السلاح فى باقى الدول لم تجد ، اذ أخذت كل دولة تطالب بحاجة حدودها أو مركزها الحربى أو الطبيعى الى نوع معين من التسليح ، ومع أن الولايات المتحدة وروسيا قد انضمتا فى مؤتمر تحديد التسليح الذى انعقد فى جنيف سنة ١٩٣٢ برياسة المستر هندرسن الوزير الانجليزى رغم كونهما خارج العصبة ، فان المؤتمر قد أخفق أمام اصرار فرنسا على تأمين نفسها ضد ألمانيا ، واصرار ألمانيا وايطاليا على مساواتهما للجميع ، وانتهى الامر بانسحاب ألمانيا من المؤتمر والعصبة ، ولما وجدت نفسها الوحيدة بين الدول بدون تسليح، أعادت تسليح نفسها علانية وسرا بدرجة فاقت تسليحها الاول

رابعا ـ من أهم أسباب فشل العصبة عدم وجود قوة تنفيذية عليا تتولى تنفيذ قرارات العصبة فى حالة عصيان احدى الدول ، وقد ظهر ذلك جليا عند ما تحدت ايطاليا قرارات العصبة ، ولما كانت العقوبات التى نص عليها ميثاق العصبة فى المادة ١٦ ضد الدولة التى تهدد السلام ولا ترتدع هى عقوبات اقتصادية تقوم على الحصر البحرى ، لذلك نرى أن التأمين كله تقريبا كان لا بد أن يقع على كاهل انجلترا ، وهى الدولة البحرية التى تستطيع تنفيذ الحصر البحرى . وقد كانت انجلترا فى أول الامر معتمدة على الولايات المتحدة ، ولكن الشعب الامريكى ظل متمسكا بمبدأ العزلة عن أوربا والتحصن وراء مبدأ منرو ، وعدم الاشتراك مع دول أوربا فى ميثاق العصبة وتحمل تكاليف التأمين

فلما تطورت الحال فى الغرب ، وأخذت ايطاليا تسلح نفسها فى البحر الابيض المتوسط، واليابان تسلح نفسها فى المحيط الهادى ، أصبح من المتعذر على انجلترا تحمل المسئولية جميعها ، فتركت اليابان تحتل منشوريا سنة ١٩٣٢ ، وتهزأ بقرارات العصبة فى الشرق، وتعبث باستقلال الصين كما شاءت . ولما تحرشت ايطاليا بالحبشة وأخذت تعد العدة لها ، استغلت بطء الاجراءات فى العصبة وعدم وجود القوة التنفيذية العليا ، كما استغلت مخالفة فرنسا لقرار العصبة ، وأوغلت فى هجومها على الحبشة تحت سمع العصبة وبصرها ، ولم تستطع انجلترا تحمل مسئولية حرب أوربية ، لو أنها جازفت بها لتفادت وقوع الكارثة الحالية من غير شك

وكان خروج ايطاليا من العصبة وتحديها لقراراتها ونجاحها فى مشروعها ، الضربة التى أصابت العصبة فى الصميم، وشجعت ألمانيا على المضى فى برنامج التسلط الذى وضعته، فأعلنت التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ متحدية فى ذلك معاهدة فرسايل ، وفى سنة ١٩٣٦ احتلت جيوشها أرض الرين وأقامت فيه الحصون مخالفة بذلك عهد لوكارنو ١٩٢٥ ، وفى ١٩٣٨ ضمت النمسا ، وفى سبتمبر سنة ١٩٣٨ اعتدت على استقلال تشيكوسلوفاكيا

ولم تحرك العصبة ساكنا حتى اذا دنت ساعة الكارثة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ كانت أوربا تحترق والعصبة تغط فى النوم

التعاون السياسى بعد الحرب

تبقى كلمة ختامية عن نظام التعاون السياسى الذى نرى أن يسود بعد الحرب

يجب أن يقضى نهائيا على مبدأ العزلة اقتصادية كانت أم سياسية ، لأنه نظام عتيق لا يوافق التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى وصل اليه العالم بفضل المخترعات العلمية والصناعية الأخيرة ، وما ينتظر لها من تقدم مطرد

يجب أن تدرب الشعوب وتتدرج فى سياسة الوحدة العالمية . وليس معنى ذلك أننا نقول بامكان تأليف اتحاد عالمى الآن . انما لا بد أن تمرن الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة ، فمن أجل فكرة التسامح الدينى قامت الحروب بين الشعوب قرنين أو ثلاثة قرون ، وما زال أثر التعصب الدينى موجودا فى العالم الى الآن . ومن أجل الحرية والاستقلال والوحدات القومية قد كافحت الشعوب سنين طويلة ، ولا تزال هناك شعوب ترزح فى الاستعباد ولا تتمتع باستقلال أو وحدة قوية . وفكرة التعاون السياسى لا تزال فى طفولتها ، ولم تلق من الدول أو الشعوب ما يساعد على التدرج فى تحقيق الفكرة

فعلينا اذن أن نمضى فى تجربة نظام العصبة ، وقد عالجته الدول مدة عشرين عاما تبينت فيها مواضع الضعف والقوة ، على أن تألف العصبة لا من مندوبين عن الحكومات كما هى الحال الآن ، بل من مندوبين عن الشعوب . ومتى أعيد تكوين العصبة وتألف مجلسها من مندوبى الدول المنتخبين لا المعينين ، أصبحت قضية التعاون والسلام بين الامم فى يد الشعوب لا فى يد الحكومات ، وارادة الشعوب اذا اجتمعت كانت أقوى من حكومات العالم ولو كان بعضها لبعض ظهيرا

محمد رفعت

سأل أحد تلامذة سقراط أستاذه :

ــ هل أتزوج أم أبقى أعزب ؟

فأجابه سقراط : أيهما فعلت ندمت عليه !

هل الموت مؤلم ؟

أنت خائف من الموت ، أليس كذلك ؟ وانك لتعذر فى خوفك ، فقد سمعت كثيرا عن « آلام الموت » ، عن ذلك العذاب الذى يصحب حشرجة الروح فى الحلقوم ، حتى صار خاطر الموت ممتزجا فى فكرك وشعورك بخاطر الألم ، وصورة الدم ، وظلمة البصر ، وآلام الاطراف والجوارح جميعها . .

ويزيد من خوفك هذا علمك بأن الموت هو الامر الوحيد فى هذه الدنيا الذى لا بد منه ولا نجاة . فقد تنجو من كل هم وكل سوء ، من المرض ، من الألم ، من الفقر ، ولكن لا منجى لك من الموت . . ومع هذا فليس من اليسير على أكثرنا ، بل علينا جميعا ، أن نستقبل هذا الامر المحتوم دون اكتراث

ولكن هلا تهون عليك الامر قليلا ! هلا تستمع الى رأى العلم فى الموت لتتبين أن لا مبرر لخوفك هذا !

ان جميع الشواهد والدلائل العلمية تثبت أن الموت خال من كل ما تتخيله فيه من ألم وعذاب ، وأنه مجرد انتقال هين سهل من عالم الحس المؤقت الى عالم النوم المؤبد

هل قرأت كتاب العالم الفرنسى الكبير « الكسس كاريل » المسمى « الانسان : هذا المجهول » ؟ يقول كاريل ان الموت لا يقع دفعة واحدة وفى برهة واحدة ، بل يقع على دفعتين : أولاهما دفعة الموت العام وفيها يموت الجسم موتا اجماليا ، وثانيتهما دفعة الموت الجزئى وفيها تموت أعضاء الجسم عضوا فعضوا

أما الموت العام فيقع عند ما ينبض القلب نبضته الاخيرة . وفى هذه الحالة ينتهى الانسان من الحياة ويعد من الوجهة البيولوجية ميتا . ولكن تبقى بعض أعضاء الجسم حية الى أن تموت بعد ذلك ببرهة قد تقصر وقد تطول ، فالكلى مثلا قد تعيش بعد موت صاحبها أكثر من ساعة كاملة

ويقول الدكتور كاريل انه قد يمكن التغلب على الموت العام ، كما يحدث عادة فى حالة الغرقى ، اذ يمكن أن تعاد اليهم الحياة بعد انتشالهم من الماء وهم « موتى » . اما اذا وقع الموت الجزئى ، أى اذا ماتت أجزاء الجسم وأعضاؤه ، فلا سبيل الى استعادة الحياة أبدا

فماذا يحس الانسان الذى بدأ قلبه يتوقف عن النبض ايذانا بالموت ؟

ان أمامى مئات من القصاصات التى كتبها رجال ونساء مروا بالدفعة الاولى من دفعتى الموت ، ثم عادت لهم الحياة بعد ذلك بفترة تتراوح بين خمس دقائق وعشرين دقيقة . وهى فترة كافية لان يعرف فيها الانسان ما اذا كان الموت مؤلما موجعا ، أم هينا سهلا

ليس فى مئات الحالات هذه حالة واحدة أجد فيها أية اشارة الى الألم أو العذاب

فى ساعة الموت . فهذا أحدهم ، وقد « مات » مدة خمس دقائق ، يقول : « لقد زال من أمامى كل شىء فجأة . وكنت حينئذ ممتلىء النفس بطمأنينة عظيمة . ولهذا فانى لن أخاف الموت مرة أخرى »

وهذا آخر ، وقد وقف قلبه ونبضه برهة طويلة ، يكتب العبارة التالية : « ان الموت خلو من الألم خلو النوم تماما . أما الامر المتعب فيه حقا فهو ذلك الصراع النفسى الذى يسبقه ، ذلك الاحساس بدنوه واقترابه . ولم يحدث منى أن ارتجفت رجفة واحدة من خوف وفرق ، أو من جبن وهلع »

وعلى هذه الوتيرة تجرى مئات القصاصات التى كتبها أولئك الذين «ماتوا» ثم عاشوا . ومثلها ما كتبه أولئك الذين « ماتوا غرقا » ، ثم أنقذوا واستعادوا حياتهم . فهم وان كانوا قد أحسوا الخوف وعانوا ألمه ، الا أن ما أعقب ذلك لم يكن الا فترة من الهدوء والسلام استمتعوا بها قبل أن تزول عنهم الحياة . والواقع أنه متى انتهت تلك الفترة التى تتصارع فيها الاحاسيس والمشاعر ، لا تلبث ان تسود الانسان حالة من الهدوء والاستقرار تختفى بعدها الدنيا عن العين وعن الحس دون ألم وجهد ، بل دون شعور بما يجرى

وقد رأى سير جيمس جودهارت ، حين كان طبيبا مقيما فى أحد المستشفيات ، أن يقف الى جانب كل مريض محتضر ليرقب ما يفوه به من كلام وما يرتسم على وجهه من أمارات . فكانت النتيجة التى انتهى اليها هى : « انه ليس ثمة أى شىء مزعج أو مخيف فى الموت ذاته ، فان الحجاب الذى يفصل بين العالمين ليس الا سحابة رقيقة يمر الانسان من خلالها دون أن يشعر بها »

ومن المتفق عليه بوجه عام أن مرض السرطان من أشد الامراض ايلاما وتعذيبا ، وأن آلامه تزداد على المريض كلما دنت نهايته وأشرف عليه الموت . ولكن الدكتور شيلتون هورسلى الاخصائى الامريكى فى هذا المرض يقرر : انه من الواضح أن عملية الموت لا تقترن بأية علامة من علائم الاحساس بالألم أو التعب

والخلاصة أن الموت ذاته سهل هين مريح ، وأن ليس فيه ما يؤلم أو يزعج أو يخيف

فيجب علينا اذن أن نغير نظرتنا الى الموت ، فلا نرى فيه حالة من حالات الايلام ، والتعذيب ، بل نراه على حقيقته : مجرد رحلة هادئة هينة الى الحياة الاخرى

ولكن الموت الناجم من الحوادث ، كالموت فى ساحة القتال ، أو الموت حرقا ، أو الموت بالغاز السام ، لا بد أن يكون مؤلما الا اذا وقع دفعة واحدة ، أى حدث الموت العام والموت الجزئى فى وقت واحد . أما الموت العادى فهو باقرار من ماتوا ثم عاشوا ، وبشهادة من لازموا المحتضرين فى ساعاتهم الاخيرة ، خال مما يثير الألم ، خال مما يبعث الخوف

وهكذا يقتضينا العلم ، ويقتضينا الايمان ، أن نقبل على الموت ، على تلك المغامرة الكبرى التى لا بد من معاناتها ، دون أن نستشعر فى قلوبنا خوفا أو فزعا ، بل ونحن نستشعر نحوها اقداما واستبشارا

(بقلم دافيد ووكر فى صحيفة الديلى ميرور)

كيف تسن القوانين فى أمريكا

لكل واحد ولكل واحدة فى الولايات المتحدة الامريكية الحق فى أن يقدم للبرلمان الامريكى — الكونجرس — « مشروعا بقانون » ، على شرط أن يجد من أعضاء البرلمان من يتولى عرضه وتقديمه . ولكن عشرة فى المائة من هذه « المشروعات » ما يصير قانونا نافذا مطاعا

يقدم مشروع القانون عادة الى مجلس النواب — أحد المجلسين اللذين يتألف منهما الكونجرس — الذى يضم الآن ٤٣٥ نائبا ، ينتخبون كل عامين لتمثيل ولايات أمريكا ومدنها حسب عدد سكانها ، فولاية بأسرها مثل « نيفادا » يمثلها نائب واحد ، فى حين تمثل ولاية نيويورك التى تضم ثلاثة عشر مليونا ونصف مليون من الانفس خمسة وأربعون نائبا

ويجوز تقديم مشروع القانون الى المجلس الثانى ، مجلس الشيوخ ، الذى يتألف دائما من ستة وتسعين عضوا ، كل اثنين منهم يمثلان دائرة من دوائر أمريكا الثمانى والاربعين ، وتسقط عضوية ثلثهم مرة فى كل سنتين

ويرسل المشروع بعد ذلك الى مطبعة البرلمان فتطبع منه عددا كبيرا من النسخ ، ليتيسر لكل من يشاء من أعضاء البرلمان أن يدرسه أو يتصفحه . ولكن قد ترى اللجنة منذ البداية أن هذا المشروع غير ضرورى أو غير معقول ، فتحفظه وبذلك ينتهى أمر المشروع عند هذا . غير أن قرار الحفظ لا يكاد يصيب أى مشروع يمكن أن يجد أى تأييد — ولو يسير — من جانب البرلمان ، أو أى اهتمام



أهم ما يعنى به البرلمان الأمريكى ، وكل برلمان فى العالم ، هو الميزانية ، ليعرف الشعب أين تذهب الأموال التى تجبى منه . وترى رئيس اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ يدرس أرقام الميزانية التى تكبر أية ميزانية فى التاريخ



الرئيس روزفلت يوقع قرار اعلان الحرب



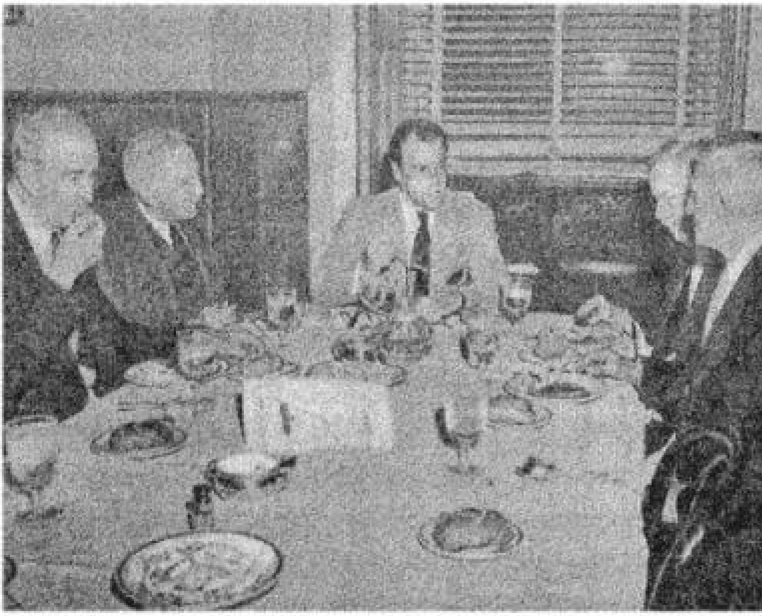
فى يوم ٦ يناير سنة ١٩٤٣ اجتمع البرلمان الأمريكى فى دورته الثامنة والسبعين ، وقام الأعضاء يقسمون يمين الاخلاص للوطن والدستور

ــ ولو ضئيل ــ من قبل الرأى العام . أما اذا وجدت اللجنة ان المشروع يحمل فائدة ما ، أو يحظى بتأييد ما ، فانه يسير فى طريقه ، وقد تنقحه وتعدله ، وقد تعيد كتابته وتحريره.

ويستطيع الجمهور أن يشارك اللجنة فى بحث المشروع ، بما يرسله الى أعضائها من رسائل التأييد أو الانكار ، وهذه الرسائل تصير جزءا من عمل اللجنة الذى يعرض فيما بعد على البرلمان ، وكذلك تستدعى اللجنة موظفى الحكومة المختصين بالامر الذى يتعلق به المشروع ، وتستأنس بما يدلون به من رأى ومشورة ، أو تطلب اليهم أن يقدموا تقريرا مفصلا فى الموضوع

ويناقش المجلس فى المشروع ، ويساهم فى المناقشة من يشاء من أعضاء حزب الاكثرية أو حزب الاقلية أو غيرهما من الاحزاب . والاكثرية الآن للحزب الديموقراطى والاقلية من الحزب الجمهورى . وقد تطول المناقشة أياما وقد تقصر فلا تتجاوز الدقائق . ولا يشترك فى المناقشة سوى أعضاء المجلس ، ولكن يجوز لهم أن يقرأوا بعض ما ورد لهم من الرسائل من جمهور الشعب . وكثيرا ما تسفر المناقشة عن تعديلات كثيرة فى المشروع فلا يخرج من المجلس الا مختلفا اختلافا بينا عن صورته الاولى . فاذا انتهت المناقشة بدأ الاعضاء فى التصويت موافقين أو رافضين ، ولكل حزب رجل من اعضاء المجلس يتولى فى هذه الحالة مراقبة وجود اعضاء الحزب فى اثناء عملية التصويت ، كى تكون النتيجة ملائمة لما تجرى عليه سياسة الحزب أو ترمى اليه أغراضه

فاذا وافقت الاغلبية على المشروع أقره المجلس وأحيل الى مجلس الشيوخ ، حيث يعاد بحثه

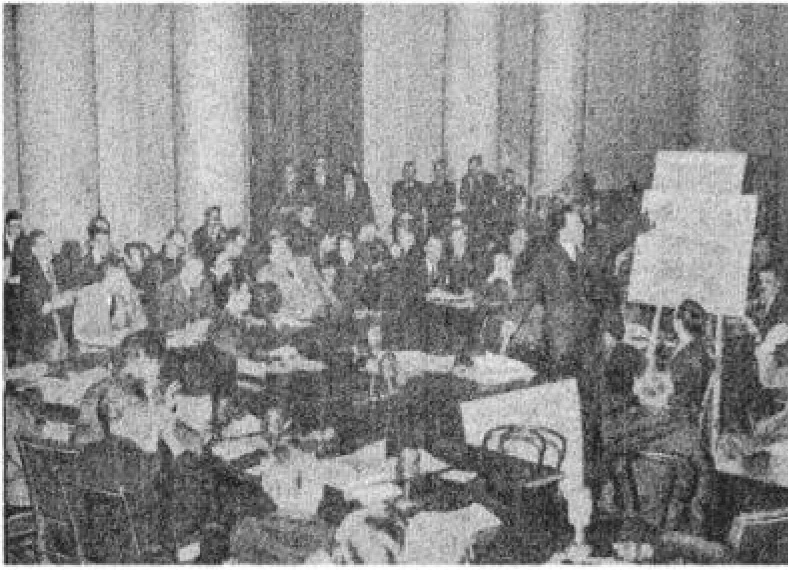


يستطيع كل أمريكي أن يقدم مشروع قانون للبرلمان الأمريكي ، وهذا أحد نواب البرلمان يتناول العشاء مع أربعة من ناخبيه في مطعم مجلس النواب ، وقد جاءوا ليناقشوه في بعض المسائل التي تهمهم وأخذ يبحث معهم بعض شؤون التشريع

والمناقشة فيه . ولكل شيخ أن يتحدث ويناقش كيف شاء دون تحديد المدة التي يقضيها في الادلاء برأيه . ولكن هذه الميزة قد تتخذ طريقا الى المناورات الحزبية ، فيتفق أعضاء حزب ما على أن يظلوا يناقشون في المشروع حتى تنفض الدورة البرلمانية ، دون أن يتركوا مجالا لخصومهم لابداء الرأى في أثناء هذه الدورة ، وبذلك « يقتلون » المشروع . على أن هذا قلما يحدث ، وكثيرا ما يتفق الاعضاء فيما بينهم على تحديد المدة التي يباح لكل عضو أن يقضيها في الادلاء برأيه

واذا رفض مجلس الشيوخ مشروع القانون ، أمكن لمجلس النواب أن يبحث الامر من جديد ، اما بصورته الاولى واما بصورة معدلة ، ولكن هذا قلما يحدث ، بل يؤدى رفض الشيوخ الى موت المشروع غالبا . واذا وافق مجلس الشيوخ على المشروع بعد ادخال تعديلات أو تغييرات ، ألفت لجنة مشتركة من أعضاء المجلسين لتقريب شقة الخلاف بينهما والاتفاق على حل وسط يرضيهما ، وبعد ذلك يقره المجلسان ، فيرفع الى رئيس الجمهورية للتوقيع عليه

وتوقيع الرئيس على المشروع يجعله قانونا نافذا مطاعا حالما يعلن الى الجمهور . ولكن يجب أن نذكر أن في أمريكا سلطة أكبر من سلطة البرلمان وسلطة الرئيس ، وتلك هي « المحكمة العليا » التي قد تقضي ببطلان القانون لانه لا يتفق ونص الدستور . وقد حدث هذا فعلا في بعض القوانين التي أصدرها الرئيس روزفلت في مشروعه المشهور « التعامل الجديد » . ولكن الذى يحدث في



إحدى لجان المجلس تدرس موضوع المطاط دراسة مفصلة دقيقة . وقد استدعت أحد موظفي الحكومة الخبيرين في شؤون المطاط ، فراح يقدم لهم البيانات والرسوم اللازمة ، ليكون قرارهم قائماً على أساس سليم

هذه الحالة هو أن تعاد صياغة القانون في نص يمكن أن يساير نص الدستور ، ويمكن أن ينال موافقة قضاة المحكمة العليا

أما اذا رفض الرئيس التوقيع على المشروع ، فانه يعيده الى البرلمان . فان أقره هذا بأغلبية لا تقل عن ثلثي أعضاء كل من المجلسين صار المشروع قانونا رغم عدم موافقة الرئيس . على أن هذا لا يحدث كثيرا ، بل يفضل « البيت الابيض » اعادة القانون الى البرلمان لعرضه على لجنة خاصة تنظر فيما يقترحه في شأنه من تعديل أو تحوير ، تفاديا للصدام بين البرلمان والرئيس . واذا أبقى الرئيس المشروع عشرة أيام دون توقيع ، صار نافذا

والخلاصة أن نظام التشريع في الولايات المتحدة الامريكية يتيح لكل فرد من أفراد الأمة أن يشارك في اصدار القوانين بما يقترحه من مشروعاتها . وكل ما يدور حول هذا المشروع من دراسة ومناقشة يدور علنا وعلى ملأ الشعب الذي يرقب الأمر بعين يقظة وذهن مستنير . ويصل الى المجلس في كل سنة آلاف الآلاف من البرقيات التي يبدي فيها مرسلوها — وأغلبهم من عامة الشعب وأوساطه — آراءهم فيما يعرض له المجلس من قوانين ومشاكل . ويعلم أعضاء المجلس أن هؤلاء الرجال والنساء هم الذين سيؤيدونهم أو سيخذلونهم في معارك الانتخاب القادمة ، ولهذا يلقون كل بالهم الى ما يحقق أغراضهم ويصون مصالحهم . وهكذا تحقق الديموقراطية في أمريكا أقصى ما تستطيع أن تحققه للشعب من مشاركة في أداة الحكم ومن محافظة على حقوقه ومصالحه

حرية القول

وأثرها فى مدنيتنا الحاضرة

بقلم عبد الحميد بدوى باشا

ألقى سعادة عبد الحميد بدوى باشا وزير المالية الاسبق محاضرة قيمة تناول فيها بحث واف حرية القول وفيما يلى خلاصة من هذه المحاضرة الضافية عن معنى هذه الحرية وما لهـا من أثر فى مدنيتنا الحاضرة

حرية القول ، وقد يطلق عليها على سبيل المجاز حرية الرأى أو الفكر ، لأن القول لا يعدو أن يكون اعلانا لرأى أو جهرا به ، ولان الرأى لا تكون له قيمة أو شأن الا بقدر ما يجهر به ويتبادل بين الناس ، هى أن الانسان يقول ما يشاء ويعلن ما يعرف أو يرى . والقول هنا يشمل اللفظ باللسان ، كما يشمل الكتابة والرسم والصور وغيرها من وجوه أداء الفكر والاحاسيس

أما حرية الرأى بالمعنى الحقيقى ، وهى ألا يكلف المرء رأيا أو عقيدة غير ما يرى ويعتقد ، فقد حدثكم عنها صديقى الدكتور ابراهيم بيومى مدكور بما لا مزيد عليه لمستزيد . وهى حرية لازمة أى أنها لا تعنى الا صاحب الرأى ، أما حرية القول فهى حرية متعدية تعنى حق القائل فى القول والمستمع فى الاستماع وحق الجدل والمناقشة

وكلا الحريتين جزءان من الحرية الشخصية بالمعنى العام ، ولكنهما يتميزان عن الحرية الشخصية بالمعنى الخاص ، وهى حرية الانسان فى شخصه أو بدنه ، وحريته فى الغدو والرواح ، وهى الحرية التى قامت من أجلها بعض الثورات لتقرير ضمانات تحد من سلطان أهل الحكم فيما يتعلق بالقبض على الناس أو حبسهم وينظم محاكمتهم

وحرية القول أو الرأى ليست هى الحرية السياسية ولا تختلط بها ، فالاولى تتعلق بالفرد أصلا وبالذات ، وانما تتعلق الثانية بالشعب فى جملته وتفيد حقه فى حكم نفسه . على أن بين الحريتين صلة ، فحرية القول هى التى أتت بالحرية السياسية ، وهى نظام الحكم المعروف بالديموقراطية ، وحرية القول من جانب آخر من مستلزمات الديموقراطية، فان النظم الحرة لا تعيش الا فى ظل حرية القول

والحرية بوجه عام معنى يصف صلات الناس فى المجتمع ، سواء كانت الصلات بين فرد وآخر أم بين الفرد والمجتمع . ولا يمكن أن تكون مطلقة . ولو أنها كانت كذلك

تترتب عليها فناء بني الانسان وفناء الحريات نفسها . لذلك لا تكون حرية الفرد حرية صحيحة ، الا اذا كانت بحيث تكفل حريات سائر الافراد وبقاء المجتمع الذى يتألف منهم

فالحرية يجب اذن أن تكون مقيدة ، والقيد شرط وجودها والتمتع بها . وتعيين مدلولها ومداها ، هو تعريف القيود التى تحدها ان كثيرة فالحرية ضيقة المجال ، أو قليلة فهى رحبة واسعة

وليس من العسير تصوير الحرية الشخصية وقيودها والنتائج التى تترتب على اطلاقها أو تقييدها ، وما يجب اتخاذه لحمايتها ، وللتوفيق بين حريات الافراد وبين تلك الحريات ومصلحة المجتمع . فان موقع الحرية الشخصية ومجالها هو عناصر الحياة المادية من حركة وسكون وغدو ورواح وسعى للرزق وما الى ذلك

أما حرية القول فتتصل بعناصر الحياة المعنوية . فالاديان والاخلاق والسياسة أو نظم الحكم والعلوم والآداب والفنون ، كل ذلك مما ابتنته حرية القول وأثمره طول استعمالها منذ وجد الانسان . وربما انست المقاصد ما اتخذ فى سبيلها من وسائل . فاذا أخفى أثر حرية القول فيما يعتنقه الانسان من دين أو يتخذه من خلق وقواعد سلوك ، أو فيما تدبر به صلاته بالافراد والمجتمع وتساس به أمورهم ، أو فيما يطالعه من آيات العلوم والآداب والفنون ، فلا تبغ تأويل ذلك الا فى أن حرية القول اختلطت بموضوعها ، فبرز الموضوع وهو المقصد ، وخفى أثر الحرية وهى الوسيلة

هذه المقابلة بين عناصر الحياة المادية والمعنوية تظهرك على دقة تصوير القيود التى يمكن أو ينبغى أن تحاط بها حرية القول . فاذا قدرت ما اتخذته الانسانية فى أول عهدها بالوجود من عقائد وقواعد معاملات وتدبير حكم ، تلك الصور الاولية وما وعته من مشاهدات كونية وما عالجته من صناعات ، وقارنت تلك الصور الاولية بما وصلت اليه فى أعلى ما بلغت من درجات المدنية ، عرفت ما قطعته الانسانية ، وعرفت كذلك ما أتت به حرية القول فعلا ، دون أن تعرف كل ما كان يمكن أن تأتى به لو كانت أكثر اطلاقا ، ودون أن تستطيع طبعا معرفة ما ستأتى به فى المستقبل

والحق أنه بالرغم من تقدم الانسانية فى كل المناحى تقدما يبهر الخيال وينحسر دونه البصر ، فان طريق حرية القول لم يكن ذلولا ، وكانت سيرتها نضالا مستمرا ومقاومة عنيفة . وهل يمكن الآن وبعد أجيال لا تعد من هذا النضال ، أن يقال ان هذه الحرية أصبحت حرية مقررة لا جدال فيها ، حرية بينة المعالم والحدود

يمتاز الانسان بأنه حيوان ناطق ، وهو أبدا فى حاجة الى أن يفكر ويحكم على الاشياء ، ويبادل غيره القول والرأى ، وقد كانت النظم الاولى ثمرة ذلك التفكير والحكم وتبادل الرأى ، ولكنها ظلت تتغير وتتبدل لان الانسان لا يستقر له رأى ولا يبقى على حال ، اذ هو لا يزال تقع له تجارب ومشاهدات جديدة . نعم كان ميدان هذه الحرية ضيقا بقدر ضيق مجال المجتمع الاول وبساطته ، فهو لا يتجاوز الاسرة أو القبيلة أو المدينة . ولكن

هل نكون مسرفين اذا قدرنا أن تاريخ تلك الحرية فى ذلك المجال لم يخل على ضيقه من مآس . وهل يصعب أن نتصور على مثال ما نعرف منذ التاريخ المكتوب أن من كان يعلن رأيا يخالف رأى الجماعة ، لم يكن يجد لنفسه سبيلا غير الهرب والتشريد

آثار حرية القول فى المدنية الحاضرة

ويحق لنا أن نقف قليلا لنتبين آثار حرية القول فى مدنيتنا . ولنتساءل أولا مم تتكون هذه المدنية ؟ لا أريد استظهار أى جزء أو ركن منها لاجعل له شأنا فوق شأن سائر الاجزاء ، أو لأجعل منه رمزا أو مقصدا لغيره ، ولا أرى بأسا من أن أعدد كل أركانها، فربما كان لحرية القول أثر فى بعضها دون الآخر . أليست المدنية تتألف من حياة مادية يأكل الناس فيها ويشربون ويأوون الى بيوت ، ويلتمسون أرزاقا ويباشرون أعمالا ، ومن دين ومن نظم حكم ومن حريات سياسية وشخصية ومن آداب وأخلاق ، ومن نظم اجتماعية ونظم اقتصادية ومن علوم ومن آداب وفنون . ولست أزعم أنى حصرت أركان المدنية ، ولعلى ذكرت أهمها . فأى ركن منها خلا من أثر حرية القول ؟ وهل كان أى منها لولا تلك الحرية يكون ما هو ؟ أترى أن الناس فى طعامهم وشرابهم ومسكنهم كما بدأ الانسان على الارض وهل كان هذا التغير الكبير الا نتيجة لمآخذه على القديم وآراء جديدة ، وها هو العلم وهو ثمرة أخرى من حرية القول ، يسعى الآن فى أن يجعل حياة الانسان أصح وأهنأ وأسعد مما كانت . وهل بقيت الاعمال والارزاق والنظم الاقتصادية على حالتها منذ خلق الانسان ، أم ترى أن المدنية تتجه لتحرير الانسان من العوز وتؤمنه على حد أدنى من مرافق الحياة . ولو قيل ذلك منذ قرن أو قرنين ، لكان أمرا ادا . وهل من العسير أن يدرك المرء كم يرجع من ذلك الى حرية القول

والاديان ونظم الحكم والاجتماع والحريات المختلفة والاخلاق ، أليست كلها ثمرة تلك الحرية ، لا الحرية تجرى فى رفق ويسر ورضى من الناس ولكن الحرية تقاتل وتخالد وتقاوم وتجاهد . وكلما استقرت المدنية فى ناحية من هذه النواحى على حال ، لم تزل حرية القول ترقب تلك الحال وتنفذ الى نقائصها وعيوبها ووجوه سدها واصلاحها والدفع بها قدما ، أو تغييرها اذا رئى أن شيئا آخر أفضل وأجدر بالاختيار . وها هو النظام البرلمانى الا يقال فيه أنه خير ما اهتدى اليه الانسان من نظم الحكم ؟ أترى حرية القول سكتت عن مداركة عيوبه وضبط مقوماته من أحزاب أو انتخابات ؟ والحريات نفسها الا تنقفها حرية القول وتنظر نافذة فيما اتخذ لها من أسباب الحماية والتوفيق بينها وبين نظم المجتمع والاخلاق ؟ الا تتغير بين جيل وآخر بفعل النقد والتطور ؟ وأداة حرية القول نفسها من صحافة واذاعة وسينما الا تسلط عليها تلك الحرية نفسها فتقوم اعوجاجها وتصلح فاسدها وتكشف ما تفعل المصالح بها فى بعض الاحيان ؟ وقد لا يظن الناس ان

العلوم والآداب والفنون الا أرض تلك الحرية تجول فيها كل مجال . ولكن كم لحرية القول فيها أيضا من قتال

وقد لا يخفى على أحد أن الانسانية مدينة فيما كسبته فى هذه الميادين جميعا لحرية الرأى ، ولكن الذى يخفى هو أن هذه المكاسب كثيرا لا تنال فى سهولة ويسر . نعم ليست حرية القول هى التى تخلق صور المدنية التى أشرنا اليها ، وانما هى غرائز الانسان وملكاته ، ولكن مدنية تعتمد على تلك الغرائز والملكات دون أن تكيفها وتقومها حرية القول ، مدنية تكون بلا شك جامدة اذا قدر لها البقاء

ذلك أن النفس أمارة بالسوء . والانسان لا يحكم العقل دائما فى خواطره وتصرفاته ، بل قد يثور عليه ويرضى حكم شهواته وغرائزه ، وهو أبدا بحاجة الى أن يبصر بطريق الخير : وأن يؤخذ بضبط الفكر والسلوك . ولكنه أبدا كاره لحرية الجدل والمناقشة . فانها تزعزع يقينه ، وتحدث له الشك من حيث لم يكن ، وتكلفه جهدا فكريا غير يسير ، وتضطره بعد ذلك أن يسلم خطأ ، وأن يقبل راضى النفس نقيض رأيه وعكس حكمه ، ذلك هو غالبا حال الفرد فيما هو من شؤونه . والجماعة فى جملتها لا تختلف عن ذلك كثيرا ، فانها اذا أتاها رأى جديد قابلته بالتنكر والانقباض ، لانه يخالف مألوفها ، ودافعته عن نفسها ، وربما قاومت صاحبه بكل ما أوتيت من قوة واضطهدته وسامته عنتا وعذابا شديدا . على أن الرأى الجديد اذا كان خيرا من القديم الذى جاء ينسخه لا يزال يجاهد الجماعة ويغالبها بقوة العقل والاقناع حتى ترضخ له وترضاه . فاذا رضيته ، أصبح ذلك الرأى قوة فى ذاته ، بل أصبحت قوة الجماعة من ورائه تحميه وتؤيده ، فاذا جاء رأى جديد آخر لقى ما لقيه الاول ، وهكذا دواليك

ليس اذن غريبا أن تكون حرية القول خيرا عميما كما وصفنا ، وأن تلقى مع ذلك ما لقيته فى الماضى من الاعنات والاضطهاد ، لا سيما وأن الآراء الجديدة فوق ما تعارض من عواطف الجماعة وشهواتهم ، قد تصادم مصالح قائمة ثابتة ، فلا يألو أصحاب تلك المصالح دفاعا عنها

ولكن أليس حسب الانسان تجارب الماضى العديدة ، ليقتنع بأنه خير له أن يفسح صدره للرأى الجديد وألا يتبرم به والا يدافعه أو يعمل على اخماده ، فانه اذا كان صوابا كان خليقا بأن ينتهى اليه ويستقر عنده ، واذا كان خطأ لم تقم له قائمة . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ، بل لقد يقاوم الرأى الجديد ويعمل على اخماده فيلجأ أصحابه الى الترويج له سرا ، وقد يعين التكتم على نشره أكثر من الدعوة له جهارا ، ولو قد أطلقت فيه المناقشة الحرة تكشف ما يقوم عليه من أوهام أو أخطاء

فاذا اعتبرنا بتلك التجارب ، فماذا يكون الواجب فى شأن هذه الحرية ؟ وما هى الخطة التى تكفل لنا اقرارها وتأييدها على خير وجه وأفضل صورة ؟

المرح جانبا طبعا الوقت الذى نعيش فيه الآن ، فان الدستور أجاز تعطيل أحكام الدستور أثناء قيام الاحكام العرفية ، وقد أعلنت هذه الاحكام تنفيذا لمعاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا . وهذه الاحكام تجيز للسلطة القائمة على اجرائها مراقبة الصحف قبل نشرها . وقد كثر الكلام فى أمر هذه الرقابة ، ولعل أصدق حكم على ما يجب أن تكون عليه هو ما أعلنه القائم عليها فى بريطانيا العظمى ، من أنها لم تستعمل فى تلك البلاد الا فيما يتصل بشؤون الحرب ، وظلت حرية الرأى والنقد فى كل ما عدا ذلك من الشؤون مكفولة

لعل أول واجب بعد زوال تلك الاحكام هو أن يرجع النظر فى القوانين ، ليذلل ما فيها من عقبات فى سبيل تلك الحرية . وربما كانت أكبر عقبة فيها هى تلك الاحكام المبهمة الناقصة التى تؤلف جرائم الرأى ، وقد أشرت الى طائفة كبيرة منها ، ولم أذكرها على سبيل الحصر . نقلت هذه الجرائم عن القوانين الفرنسية القديمة ، ورأى قانون الصحف الفرنسى الذى صدر فى سنة ١٨٨١ من الخير أن يلغيها . وبعض هذه الجرائم له أشباه ونظائر فى القانون الانجليزى ، ولكنها كما قلنا لا تطبق الا فى ظروف استثنائية. والواقع أن هذه الاحكام لم تعد تطبق كثيرا فى مصر . ولست أشير الى الوقت الحاضر والاحكام العرفية قائمة والرقابة تحول دون نشر شىء يمكن أن تكون منه جريمة . ولكنى أعنى الوقت الذى سبق الحرب . ذلك أن النظام البرلمانى مما يقوم عليه من عدم مؤاخذة أعضاء البرلمان بما يبدون من الافكار والآراء فى المجلسين، تعود على حرية القول خارجها. ولقد كانت مواد جرائم الرأى قديما تطبق على وجه لا يتفق كثيرا مع حرية الرأى ، ويعاقب بها على عبارات هينة ، وكان هذا التطبيق يساير بطبيعة الحال تطبيق قانون المطبوعات المصرى الصادر فى سنة ١٨٨١ وهو القانون الذى كان يبيح للحكومة وقف الجرائد وتعطيلها اداريا

وقد شهدت التجارب بأن قيود حرية القول تحرم أصحاب الرأى مخرجا ومتنفسا لا بد منه ، كما تحرم الناس علما بوقائع وآراء قد يفيدون منها كثيرا ، وتقيم مقام الحكم من يجوز ألا يكون أفضل من أصحاب الرأى أنفسهم ، أو أدنى الى الصواب ، وهى تضفى على القديم حماية بل قداسة لا تخلو من الغلو والسرف ، وتوصد دون الجديد منافذ القول . وفى الحق ليست العبرة فيها دائما ، بالحق والعدل فى ذاته ، بل بما يرضى أو لا يرضى أصحاب الحل والعقد . وربما كان أصح فيصل وأضبط ضابط فى أمر هذه الحرية هو الأمن والسلام ، فما يتهدده حقيقة لا ظنا وتقديرا يكون محرما ، وما لا يتهدده يكون مباحا ، وثمة نقطة تتحول فيها حرية القول الى ما يشبه حرية العمل ، وهى هذه السلطة التى لا يجوز أن تبلغها حرية القول

وقد تقدم القول فى الدعوة الى الشيوعية وموقف القانون المصرى منها ، ولا شأن لحديثنا اليوم فى الشيوعية فى روسيا ، فالشيوعية فى ذلك البلد ثورة قامت فى ظروف

استثنائية ونجحت . وليس هذا مجال البحث في أن هذه الثورة لم تكن لتنجح الا في ذلك البلد ، وأن ذلك النظام كان صالحا له ولم يكن يصلح الا له . وانما البحث في دعوة بالقول والكتابة تنشر في بلد آمن ، وتقوم على استعمال القوة في تغيير النظم الاساسية للمجتمع ، وعلى استعمال القوة كذلك في منع أي رأي يخالفها اذا هي نجحت واستتب لها الامر ، فانها من الناحية الاولى تحريض على ارتكاب الجرائم ، وهو أمر كان دائما معاقبا عليه . وهي من الناحية الاخرى ايذان بالحرب على حرية الرأي . وهذا ، لا مجرد ابداء الرأي ، هو ما أظن أن الشارع المصري قصد اليه بالعقاب على تلك الدعوة

ولا ريب من جهة أخرى في أن المدنية في صورتها الحاضرة جعلت للفرد في الحياة العامة شأنا وسيرة ، ولم يكونا له من قبل . فهناك نفر غير قليل تؤثر أعمالهم وتصرفاتهم في شؤون الآخرين ، ويحق لهؤلاء من أجل ذلك أن يتناولوهم بالنقد أو بسوء المقالة اذا دعا الحال ، ولكن لذلك النفر من جانب آخر ناحية من الحياة يجب أن تصان حرمتها من العبث ، وكرامة ينبغي أن توفر ، وقد تتعارض المصلحتان ، لذلك وضعت جريمة القذف ليرعى لكل منهما جانبه وتيسر له الحماية الواجبة . وأحال أن الحماية التي يبسطها القانون المصري لا تخلو من ثغرات كثيرة قد تكون بحاجة الى أن تسد . فقد لا يمكن القاذف من اثبات ما قذف به ، ولو أن في القذف واثباته مصلحة عامة . ويقصر الاثبات على حالة الموظف ومن أعطى حكمه من ذي نيابة عامة أو مكلف بخدمة عامة . ولا يمكن المقذوف فيه في غير هذه الحالة من مطالبة القاذف بالاثبات ليلزمه الحجة بالعجز . ويحظر نشر اجراءات قضايا القذف اطلاقا ، ولا يبدو أن هذا الحظر يعتبر في كل الاحوال حماية . ولعل نظرة في أحكام القذف توفر لحرية القول مجالا في شؤون المصلحة العامة لا يغض من حرمة الحياة الخاصة

على أن القيود التي تقدم لنا القول فيها وهي قيود القوانين ، ليست وحدها التي تحد حرية القول ، فان الرأي العام له في هذا الميدان شأن وأي شأن ، ولعله — وهو مرآة النظم العامة والعمد التي تقوم عليها — يستوحيه الشارع في وضع القيود القانونية ، ويستلهمه القاضي في تقديره حين يطبق تلك القيود . وللرأي العام قوة لا يستهان بها من الناحية الاجتماعية ، قد لا تكون أقل شأنا من قوة القانون . وهو بطبيعته محافظ كاره لحرية النقد . فكيف السبيل الى جعله أرفق بالنقد والناقدين ، وأرحب صدرا له وأكثر استعدادا لفهمه وتقبله . انما السبيل الى ذلك هو التربية والتعليم

أما التربية فبتلقين كل صغير وكبير أن يتسامح مع من يخالفونه في الرأي ، وأن يستمع لهم ، وأن ينظر في حججهم وهي خصلة يوصي بها الدين ويقرها العقل وتؤيدها المصلحة . ولعل ما سقناه من الشواهد والامثلة لا يدع مجالا للريب في شيء من ذلك

وأما التعليم فلانه كلما كثر زاد الانسان العقلي ، كان أقدر على فهم الاشياء والتمييز بينها وتقديرها والحكم عليها . فاذا كبر نصيب المرء منه ، كان أدنى الى الشك في الحقائق

المطلقة . وهذا الشك جدير بأن يبصره بجزء الحقيقة فى كل قول ورأى

ولا يسبقن الى ظنكم أن التربية والتعليم لا يجدهما الانسان الا فى البيت والمدرسة ، فقد استحدثت الاختراعات وسائل جديدة نشهدها ونحس آثارها كل يوم . ولا أريد أن أشير الا الى أهمها ، وهى الصحف والاذاعة والسينما

وقد أصبح اثنان من هذه الوسائل وهما الصحافة والسينما تجارة وصناعة فى ذاتهما ، ولهما ضرورات ربح وصلات مصالح قد تؤثر من حيث حرية الرأى فيما يأتيه كل منهما وما يدع ، وفيما يقوله أو يسكت عنه ، أو فيما يظهره وما يخفيه ، واثنان من هذه الوسائل وهما الاذاعة والسينما ، خاضعتان حتى فى البلاد الديموقراطية لرقابة الحكومة . وان دق عمل تلك الرقابة أو خفى

ولكن هذه الوسائل بما لكل منها من صورة ومذهب فى القول ، وبما بينها من تسابق وتنافس وتفاعل وتعارض ، لا تزال بالرغم من تلك الضرورات والصلات ومن قيود الرقابة كفيلة بنشر حرية القول واحيائها اذا هى سلمت من مرض الدعاية "propaganda"

والدعاية نوع من الدعوة هيأته هذه الوسائل الجديدة ، وتستخدم فيها كل وسائل التأثير التى يعرفها علم النفس ، وهى ترمى بالتكرار والايحاء الى خلق رأى عام من غرار واحد يرى بعين واحدة ويسمع باذن واحدة . وليست الدعاية على هذه الصورة أمرا جديدا ، ولكن ما للوسائل الجديدة من الانتشار والنفوذ وهبتها قوة لم تكن لها من قبل

وفى الدعاية الطيب والخبيث ، ولكنها جميعا تضعف الشخصية وتفتنها وتحول دون ابراز كل ما أودعه الله فى العقول والنفوس المتباينة من خصال وملكات ، ودون أن يحيا الناس حياة خاصة كاملة

وها نحن الآن نشهد عهدا فعلت فيه هذه الدعاية فعلها ، وغلبت فيه حرية القول على أمرها ، وتصلى حربا وقودها المدنية نفسها ، بعد أن عانت الانسانية فى بلوغها شدائد الاهوال ، وقطعت فى سبيلها ما لا يعد من الأجيال

ولكن حرية القول التى قاومت العذاب والاضطهاد، ودكت معاقل الاستبداد، وخرجت من كل ما منيت به من محن وأحيطت به من سلاسل وقيود ، ظافرة تفىء على العالم فى كل ناحية من حياة الانسان ظلا ممدودا ، هذه الحرية جديرة بأن تتغلب على هذه المحنة، وان تكن أشد ما لقيت ، وأن تضىء العالم من جديد بنورها وتمده بروحها

عبد الحميد بدوى

نمر السماء

قصة بطل من أبطال هذه الحرب

بعد أن قابل الطيار الامريكي « شينولت » الملقب بنمر السماء ونستون تشرشل فى أيام مؤتمرات القاهرة التى عقدت فى الشتاء الماضى ، قال تشرشل لاحد رجاله : « يا له من وجه ! يا له من وجه ! شكرا للآلهة على أن هذا الرجل من رجالنا لا من رجال أعدائنا »

والحق أنه ما من امرىء يرى وجه شينولت يستطيع أن ينساه مهما مرت السنون الطوال ، أو يستطيع أن يهمل الحديث عن روعته الاخاذة . فهو وجه نحيف مهضم ، قاس شديد ، عات مستبد . كأنه وجه من وجوه الطيور الجوارح التى تنقض من السماء على فرائسها فتنهش لحمها بمخالبها وأظافرها . فعيناه عينا الصقر بما فيهما من النهم والاتقاد

ان وجهه عجيب حقا . لو رأيته على المسرح أو السينما لقلت ان « الماكياج » أسرف وغالى فى ابراز حدته وصرامته . ولكن متى كانت يد الصانع أو الفنان أقدر من يد الطبيعة الخلاقة ، التى جعلت من سمات هذا الوجه علامة صريحة على ما يضطرم به قلب صاحبه من قوى ، وجهود ، وآمال ؟

ان هذه السمات لا ترتسم الا على وجه رجل ظل عشرين سنة يكافح ويناضل فى سبيل فكرته : فكرة جعل الطيران السلاح القاصم الحاسم فى الحروب . وقد لاقى الرجل فى خلال هذه السنين كثيرا من المعارضة والانكار ، فلم تقابل آراؤه ومشروعاته الا بالاغضاء أو الاستهزاء فى تلك الفترة التى سادت فيها الدول الديموقراطية نزعة المسالمة والمصالحة ، ثم اضطر فى سنة ١٩٣٧ الى أن يعتزل عمله فى السلاح الجوى الامريكى بدعوى أنه ضعيف السمع !

ولكن شينولت وخصومه كانوا يعلمون أنه لم يقص لضعف سمعه بل لشدة مراسه . فقد أراد أن يجعل القوة الجوية الامريكية قوة ضخمة عاتية تقى أمريكا شر الحرب التى كان يتوقعها ، فى وقت كان فيه ساسة الديموقراطية لا يريدون شيئا سوى اجتنابها بأى ثمن يدفعونه من حقوق شعوبهم وكراماتهم . ولكن الرجل وجد مجالا لبث رأيه وتحقيق فكرته ، حين استدعاه قائد الصين تشيانج كى تشك لتنظيم قوة الصين الجوية . فأمضى فى الصين سنين يجرب تجاربه المختلفة فى فن الطيران الحربى ، حتى غدا اليوم أحد المبرزين المعدودين فى فن « التكتيك الجوى » — أى من رسم الخرائط واعداد القوى للحملات الجوية التى تنزل الوبال والدمار بالاعداء . وأصبح اليوم بارزا فى ذهن كل

أمريكي آكثر من بروز أي طيار أو أي جندي امريكي في شتى مسارح الحرب التي تدوى فيها طائرات امريكا أو تخوض غمارها جيوشها

لقد استطاع شينولت في خلال الشهور القاسية التي مضت واقعة منه بيرل أن ينزل هو وسربه الصغير من الخسائر باليابانيين آكثر مما أنزل بهم سائر السلاح الجوى الامريكي بأسره . ففي مقابل خمس طائرات قديمة خسرها سربه أسقط من طائرات اليابان القاذفة والمحاربة ما يتراوح بين خمسمائة وستمائة طائرة ! بل ان هذا السرب حقق من النصر ما لم يحققه أي سرب جوى ، ولا أية كتيبة برية ، في أية بقعة من بقاع الحرب جميعها ، فقد كانت نسبة خسائر اليابانيين الى خسائره نسبة ١٤ الى ١ — هذا مع أن رجاله لم يوفقوا الى هذا النصر المؤزر بطائرات من النوع الحديث الممتاز ، بل بطائرات عتيقة وبطيئة

□

كان شينولت ضابطا في الجيش الامريكي في الحرب الماضية ، ولكنه أدرك حينذاك ما قد يكون للطائرة من أهمية خطيرة في الحرب القادمة . فبدأ يدرس هذه الفكرة ويتشوف الى محتملاتها الكثيرة . وانتقل بعد الحرب من الجيش البرى الى السلاح الجوى ليتيسر له أن يدرس الامر درسا دقيقا كاملا . ولكن الساسة والشعوب حينذاك كانت لاتفكر في الحرب القادمة ، بل في اطالة أمد السلم القائم . فكانت كل فكرة ترمى الى التوسع في الجيش أو الى ادخال اسلحة أو أنظمة حربية جديدة ، تقابل بالاغضاء والانكار . ولعل في القصة التالية ما يبين الروح التي سادت رجال السياسة اذ ذاك . فقد طلب الى الرئيس كوليدج أن يرصد اعتمادا لاستخدام بضع مئات من الطيارين يتولون تعليم الجنود فن الطيران . فنظر الى من تقدموا اليه بهذا الطلب نظرته الجافة الباردة ، وقال لهم في لهجته الحادة الصارمة :

— كم مطارا سيقوم فيه هؤلاء المعلمون بتدريب الجنود ؟

— ستة مطارات

— اذن فلنستخدم ستة طيارين فحسب . لكل مطار طيار . يركب طائرته ويحلق بها ، ويبقى الجنود في أرض المطار ، يشاهدون ما يحدث فوق رؤوسهم !

هذه كانت روح الساسة الديموقراطيين ، وهذه كانت نزعة الدول الديموقراطية حينذاك

وكان الطيران على الاخص موضع الشك ، بل موضع الاستهزاء ، من كثير من الرجال الحربيين ، فلا يرونه الا « ألعوبة » من الالاعيب التي لا تجدي نفعا في الساعة الحاسمة . ففي سنة **١٩٢٧** ذهب أحد قواد الجيش الامريكي يزور تلك الفرقة التي تولى شينولت تدريبها وقيادتها في ولاية تكساس ، فقامت الفرقة بعرض من نوع كان حينذاك جديدا ، اذ ارتفعت أربع طائرات وأخذت تحوم فوق المطار ، ثم لم يلبث أن سقط منها أربع مظلات ، في بعضها جنود وفي بعضها أكياس ، وأسرع الجنود الى الاكياس ففتحوها

ونزعوا منها بضع مدافع ، وتقدموا بها مسرعين الى حيث هجموا على احدى القلاع المقامة فى المطار فاحتلوها . فلما انتهت المناورة نظر القائد الى من حوله وقال :

ـ سخافة أخرى من سخافات الطيران !

ولكن لم تمض على ذلك بضعة اسابيع حتى زارت شينولت بعثة عسكرية أوفدتها موسكو ، وقام رجالها بتحية البعثة بمناورة أخرى من مناورات الهبوط بالمظلات . فتقدمت اليه البعثة ترجوه أن يعمل فى السلاح الجوى الروسى لمدة خمس سنوات ، بمرتب سنوى قدره عشرة آلاف دولار . ولكنه رفض . وأعادوا عليه العرض مرارا ملحين مرغبين ، ولكنه أصر على رفضه ، لانه أراد أن يكون فنه وجهده فى خدمة وطنه امريكا لا فى خدمة روسيا . وكان واثقا من أنه سيأتى اليوم الذى تدرك فيه امريكا ما أدركته روسيا منذ البداية ، وهو أن الطائرة ستكون السلاح الحاسم فى الحرب القادمة

وظل يعمل فى السلاح الامريكى معانيا ضيق نطاقه وعناد رؤسائه ، وقلة ما ينفق عليه من المال وما ينال من التشجيع . وكان يكتب المقالات وينشر الرسائل فى الدفاع عن قيمة « الطائرات المطاردة » فى وقت كان يؤمن فيه قواد الجيوش بأن هذه الطائرات لا قيمة لها الى جانب « قاذفات القنابل » . وقامت مناقشة كتابية بينه وبين القائد الجوى الايطالى « دوهيت » الذى كتب يقول : « اعطنا عددا كافيا من القاذفات الكبيرة السريعة ، وأمدها بعدد كاف من المدافع ، نستطع بها أن نحطم أية قوة دفاعية من طائرات المطاردة ، بل نستطع بها أن نقضى على الروح المعنوية فى أى شعب ونرغمه على التسليم عاجلا » . فكتب شينولت ثلاث مقالات قوية فى تفنيد هذا الرأى ، ولكنه لم يستطع أن يثبت صحة رأيه الا بعد ذلك بعشر سنوات حين قامت معركة بريطانيا ، فكانت طائراتها المطاردة درعا قويا لها أعجز قاذفات القنابل الالمانية عن تحطيمها وهزيمتها ، كما ثبتت صحة رأيه كذلك فى المعارك الجوية التى قادها ضد اليابان من قواعده فى الصين

ويقول الصينيون ان معرفة شينولت الذى لقبوه « بنمر السماء » بخريطة بلادهم الحربية لا تشابهها معرفة أى قائد من قوادهم أنفسهم . وعند ما ذهب الى الصين فى سنة ١٩٣٧ لم تكن ثمة خرائط حربية لهذه البلاد، فأخذ يضع لها الخرائط المفصلة الدقيقة من أقصاها الى أقصاها ، فلو سئل ، وهو فى أى بلد من بلاد الصين ، عن مكان تهبط فيه الطائرة على بعد ألف ميل ، لحدد ذلك المكان القصى وبين سهله ونجده ، بل لبين حالة الجو التى تسوده ومتجه الريح التى تهب عليه فى كل حين ، ولحدث حديث الخبير عن أخلاق أهله وأسلوب حياتهم . وقد صار اسم « شينولت » دائما على كل لسان فى الصين ، وصورته ماثلة فى كل ذهن هناك ، ومنحته الحكومة وسام « قائد شرف » فى الجيش الصينى ، وقد كتب فى هذا الوسام بخط نسائى جميل : « انه قد أدى المستحيل » موقعت هذه الكلمة بهذا الاسم « ماى لنج سون تشيانج » وهو اسم مدام تشيانج كى تشك

(عن صحيفة امريكان موركرى)

الفن الأمريكي في خدمة الجمهور

بقلم الدكتور أمير بقطر

يتوهم الكثيرون أن الفن مرادف للرسم والتصوير ونحت التماثيل . الفن لا ينحصر في القدرة على الرسم والتصوير والنحت وإنما يشمل الإعجاب ، فالإعجاب بالفن جزء لا يتجزأ من خلق الفن ، والاستمتاع بالجمال مساهمة في صنعه أو في نوع من هذه المساهمة

كل شيء في ولايات اميركا المتحدة للجمهور ، وليس الفن وحده للجمهور . ولعل هذه الحقيقة في مقدمة الفروق بين أميركا وأوربا ، وبالاولى بينها وبين سائر بلدان العالم. ومهما بلغت الديمقراطية في بلدان أوربا (وآسيا وأفريقا وأستراليا) ، فانها لا تزال للخاصة والطبقات المستنيرة قبل كل شيء ، اذا استثنينا روسيا . السياسة في اميركا شعبية ، يقتحمها الفقير والغني ، والرجل والمرأة ، والعالم والعامل على السواء ، في حين أنها في الواقع لا تزال وقفا على فئة ممتازة في سائر البلدان . يقولون ان أبواب المعاهد العلمية في أوربا مفتوحة على مصارعها لمن يشاء ، ولكن أهذا هو الواقع ؟ أليست المدارس الثانوية والكليات والجامعات هناك كماليات لا يصعد اليها سوى عدد محدود من أبناء الامة وبناتها ؟ أليست الفتيات في المعاهد الثانوية في أميركا يفقن الذكور عددا ، في حين أنهن في أوربا أقلية ضئيلة ؟ يبلغ مجموع طلبة المدارس الثانوية في ولايات اميركا المتحدة أكثر من ستة ملايين من الذكور والاناث . ألا يكاد هذا الجيش الجرار يزيد عدده عن مجموع طلبة جميع المدارس الثانوية في أوربا وآسيا وأفريقا وأستراليا ؟ والجامعات ؟ ألا يبلغ عدد طلابها في انجلترا وويلز نصف عدد أساتذة الجامعات في أميركا ؟ الفرق بين الفلسفتين واضح . في أميركا العلم لاكبر عدد مستطاع من أبناء الامة وبناتها . وفي أوربا العلم لاذكى طبقة وأكثرها ارستقراطية من أبناء الامة ، ولبعض بناتها . لذلك ترصد أميركا سنويا للتعليم العام نحو ألف مليون جنيه ، وللتعليم الجامعي نحو مائة مليون جنيه ، ولا تقتصر على تعليم البنين والبنات ، وانما تفتح أبواب هذه المعاهد للآباء والامهات

وما يقال عن التعليم ، يقال عن المتاحف العلمية والفنية ، والمستشفيات ، والصحف ، والمكتبات ، ودور العبادة ، ووسائل اللهو والرياضة والتسلية . ولعل هذا يحتاج الى شرح ، فالى القارىء بعض الامثلة . متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك — تلك المؤسسة الكبيرة ، الفنية بمجموعاتها العلمية النادرة — ليست وقفا على زائريها الذين يتجولون في أروقتها ، كما يتجول الاطفال في حديقة الحيوانات ، ولكنها معهد كبير تتخلله حجر للدراسة ، ومعلمون ، وخرائط ، وأشرطة سينمائية ، ويفد اليه طلاب من صغار وكبار ،

لتلقى دروس ، وسماع محاضرات مجانية ، تتعلق بهذا المتحف . ولا تقتصر الادارة على هذا ، ولكن رغبة منها فى جعل محتويات هذه المؤسسة فى متناول الجميع ، تعد الاشرطة السينمائية والفوانيس السحرية ، مصحوبة بنشرات وكتب موجزة ، شرحا لما بها ، وتعيرها للجماعات والمعاهد والافراد فى جميع أنحاء أميركا ، وتتكفل بنفقات النقل ذهابا وايابا . والمكتبات العامة لا يقتصر عملها على من يفد الى قاعاتها للمطالعة أو استعارة الكتب ، وانما رغم انتشارها فى كل حى تقريبا ، تبعث بمجموعات من الكتب الى القرى السحيقة ، وسكان الغابات الذين لا توجد فى أنحائهم مكتبات ، وتعيرهم هذه الكتب ، ثم تعود سياراتها فتستعيدها وتعيرهم سواها وهكذا . والصحف ؟ هذه جريدة نيويورك تيمس تظهر كل أحد فى مائة واربعين صفحة ، منها جزء مصور للاطفال ، يشغلهم عدة أيام ضحكا ولعبا ، وقصا لاشكال ، وحياكة لثياب .. وفيها جزء مصور بديع الالوان للكبار ، وفصل كبير يساهم فى تحريره أكبر الكتاب والعلماء لتقريظ الكتب التى ظهرت فى خلال الاسبوع فى أوربا وأميركا فى سائر اللغات ، وتلخيصها للقراء فى لغة بليغة وأسلوب سلس رائع ، وفيها جزء للمعمار يسجل أحدث ما جد من البنايات وصفا ورسما . وهكذا سائر الفصول فى السياسة والفنون الجميلة ، والمسرح ، والسينما ، والتعليم والتجارة والزراعة ، وبعبارة موجزة تجد فى الصحيفة الامة بأسرها ممثلة أبدع تمثيل

ولسنا نريد بهذا المقال أن نصف المتاحف الفنية ، أو نسرد للقراء أسماء أشهر رجال الفن هناك ، وانما نريد أن نبين كيف أن الفن هناك وقف على الجمهور ، أسوة بسائر الآراء والمظاهر والمؤسسات والاشياء ، وكيف أن الفن متغلغل فى الحياة العامة ، تغلغلا ، يكاد يحار المرء فى أمره ، فلا يدرى اذا كان هو فنا حقيقة ، أم علما ، أم صناعة

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان ليس ثمة فن أميركى لغير الجمهور . فأميركا بلاد فتية ، لا تزال فى سجل التاريخ صبية فى المهد ، فلم تنضج بعد للانتاج الفنى الخاص ، بمعناه الخاص ، كما تفهمه روما وفلورنس والبندقية ونابولى وباريس وفينا ودرسدن وبرلين وبروكسل والهاى واثينا وقرطبة وبغداد وطهران والقدس ودمشق والقاهرة . وليست أميركا عريقة فى التاريخ ، فلم تنجب بعد رفائيل ، أو ميخائيل انجلو ، أو ليوناردو دى فنشى ، أو تتيان ، ولم يظهر فيها بتهوفن ، أو باخ ، أو فاجنر

على أنها بالرغم من هذا كله ملجأ رجال الفن ، توفر لهم وسائل العيش ، وتغدق عليهم الاموال بسخاء لم يألفوه فى أوربا ، وتفتح لهم أبواب أميركا الموصدة فى وجوه الكثيرين من الوافدين اليها ، وتبتاع منتجاتهم بأثمان لا يحلمون بها ، وتقيم المعارض الفنية تشجيعا للنابغين منهم ، وتأوى المضطهدين منهم من بنى أوطانهم . فلا غرابة اذا رأينا ألوف الصور والتماثيل الكلاسيكية تعبر المحيط الاطلنطى وتستقر فى بلاد العم سام ، أو تنزل ضيوفا مكرمة فى بادىء الامر ، ثم لا تلبث ــ كأصحابها ــ أن تكتسب الجنسية الاميركية . وما يقال عن الصور والتماثيل يقال عن الموسيقى والغناء والتمثيل والاوبريت ،

فهناك نجد اليوم أمراء الكمان : ياشا حايفتز ، وميشا المان ، وكريزلر ، وأمير البيانو ، جوزيف هوفمان ، وشيخ رجال المايسترو قاطبة توسكانيني ، كما رأينا في الماضي كاروزو وكواكب الاوبرا من رجال ونساء يغادرون «سكالا دي ميلانو» وباريز، وفينا، وبودابست، وبرلين ، وينزحون الى حيث يعبر النظارة عن اعجابهم بألوف الدولارات ، لا بالتصفيق بالايدي ، والضرب بالاقدام

يقول قائل : اذن فالفن يصدر اليها من الخارج ، كما يصدر اليها الموز من جزائر الكناري ، والمطاط من الهند الشرقية ، والشاي من الصين والهند . أجل ، وهل في هذا من الغرابة في شيء ؟ ألم يصدر الى أميركا كل شيء حتى أهلها ؟ ما الذي يوجد في اميركا منها سوى أرضها ومنتجاتها وحفنة من الهنود الحمر لا يتجاوز عددهم أربعين ألفا ، قضي عليهم ألا يبرحوا المساحات الضيقة التي أعدت لهم والتي يطلق عليها اسم reservations

لقد نسي هذا القائل وأمثاله أن رجال العلم والصناعة والسينما — أي اشهر ما امتازت به أميركا في خلال الستين عاما الماضية — ان هؤلاء جميعا نزحوا من أوربا ، أو على الأقل آباؤهم ، أو على أقل الأقل أجدادهم . ألم ينزح شيخ فلاسفتهم وليم جيمس من بريطانيا وزميله جورج سنتانايا من اسبانيا ؟ ألم يكن وليم مكدوجل [1] من كبار علماء النفس انجليزيا ، وزميله ادلر [2] نمساويا؟ أو ليس زميله كوفكا [3] من جامعة جسين بألمانيا؟ الا يوجد رهط كبير من علماء ألمانيا اليوم هناك وعلى رأسهم اينشتين ويقال لهم أساتذة المنفى؟ وفي هوليوود الا توجد أكبر صناعة اميركية بعد صناعة التعليم ؟ ومن هم كواكبها ؟ شارلي تشبلن ، وماري بكفورد ، وليليان جيس ، ومادلين كارول ، وكاترين هبرن ، ودوروثي جيس ، وديانا دربان ، انجليزيات . جرتا جاربو سويدية ، ومارلين ديتريش ألمانية ، بولانيجري كانت بولاندية ، اونجريد دالميركية أو نروجية . هؤلاء أسماء على سبيل التمثيل لا الحصر ، فعددهم تضيق به صفحات الهلال من أوله الى آخره

ولكن هناك فرقا شاسعا بين العلم والصناعة من جهة ، والفن الاصيل من جهة أخرى . فقد فاقت أميركا في الصناعة أمها أوربا ، وفاقتها في كثير من العلوم أو كادت . أما في الفن فانها لا تزال عالة على أوربا ، اذا قصدنا به المعنى المعروف ، وهو الفن لطبقة خاصة ممتازة من أبناء الامة . والسبب في هذه الفجوة الواسعة بين التقدم العلمي الصناعي ، والتأخر الفني الخاص ، جلي للعيان . فالفن الخاص من ألوان الترف وضروب الكماليات ، ولذا فانها آخر ما يعنى به بنو الانسان . وهل يعنى الرجل بشراء الصور البيتية الغالية ، والتماثيل النادرة ، قبل بناء الدار ، وتوفير الطعام والكساء لساكنيها ؟ وهل يؤثر انفاق النزر اليسير من دخله في تعليم ابنه الموسيقى والرقص والغناء ، قبل القراءة والكتابة؟ ولكن

(١) كان استاذا في جامعة ديوك بأميركا (٢) قضى آخر أيامه في اميركا (٣) استاذ علم النفس في كلية سمث للبنات في أميركا

ليس هذا كل السبب فى تأخر أميركا فى الفن الخاص . أميركا أهلها عمليون فى أكثر الاشياء ، خياليون فى قليل من الاشياء . فالفن عندهم ككل شىء آخر شعبى قبل كل شىء ، خادم للعامة ، قبل أن يكون خادما للخاصة . وما يقال عن الفن يقال عن العلوم البحتة ، فهى فى أوربا أكثر تقدما منها فى أميركا ، اذ أن أميركا لا تعنى الا قليلا بالعلم لذاته ، اذ هو فى نظر أهلها وسيلة لا غاية . ولكن بالرغم من هذا كله هناك استثناءات . فالفلك مثلا ، وهو أقل العلوم فائدة من الناحية العلمية ، أكثر تقدما فى أميركا بمراحل منه فى أوربا ، والمعامل التى تشاد للبحث العلمى البحت ينفق عليها ملايين الجنيهات سنويا ، وهى أكثر استعدادا وأدق عدة فى أميركا منها فى أوربا . وفن المعمار فى أميركا بلغ من الرقى والتقدم ذروة لم تصلها أوربا فى أبهى عصورها . والذى حدا بها أن تقفز فى هذا النوع من الفن دونا عن سائر الانواع أسباب عملية وحاجات ماسة . فالرغبة فى توفير المساحات فى المدن المكتظة بالسكان كنيويورك ، دفعها الى ابتكار تلك البنايات الجبارة ـ ناطحات السحاب ـ اذ الجزء الاكبر من نيويورك مشاد على جزيرة «منهاتان» التى ابتاعها المهاجرون من الهنود الحمر ، سكان أميركا الاصليين ، بعشرين ريالا ، فى حين أن القدم المربع من الارض فيها يبلغ ثمنه اليوم نحو مائة جنيه مصرى . كما أن الرغبة فى تنفيذ السياسة التعليمية الى أقصى حد شعبى ممكن ، دفعت بهم الى ايجاد طبقة خاصة من مهندسى العمارة المدرسية ، وأخرى لبناء قاعات المحاضرات لاكبر عدد ممكن من الجمهور ، وقد تجلى فى هذه البنايات الفريدة تضامن رائع بين العلم والفن

وأكثر أهل الفن من الاوربيين لا يعجبون كثيرا بالفن الاميركى ، لانهم ألفوا الفن البحت ، وعهدهم به أن يكون خالصا نقيا ، لا يتأثر بالعلم أو المنطق أو الاداب العامة أو بأى شىء آخر . وقد سأل كاتب هذه السطور مصريا مثقفا زار اميركا وقضى فيها بضعة أسابيع ، عن رأيه فى تلك البلاد ، فقال : لم أعجب بجمالها كثيرا لانها « هندسة »

ومن أغرب ما شاهدناه فى أميركا من تطبيق المبادىء سالفة الذكر ، كنيسة فى الحى « البوهيمى » فى نيويورك ، وهو حى الممثلين والممثلات ، وأهل التصوير والنحت والرقص . تجلس فى هذه الكنيسة صباح الاحد فيخيل اليك أنك فى مسرح متنوعات varietes . فالأضواء تتلون وتتعدد وتتغير تبعا للموقف ، والغناء يقوم به كاهن « تنور » يزرى بأكبر المغنين فى الاوبرا ، أو فتاة « سوبرانو » من أشهر كواكبها ، والواعظ يلقى مقطوعات شعرية ونثرية بصوت تمثيلى وحركات توقيعية تأخذ بمجامع القلوب ، وتقوم فتيات جميلات حافيات الاقدام محلولات الشعور ، برقصات دينية كلاسيكية بديعة ، فى ثياب بيضاء طويلة ، على مسرح توافرت فيه كافة المعدات الفنية من أستار وأضواء ومناظر ، ويمهد اليهن بتمثيل صامت فريد فى بابه ، تبدو فيه الفضائل والرذائل عارية ، من ولاء وخيانة ، وعفة ونزاهة ، وحب وكراهية . ويخرج المصلون ، وكلهم من البوهميين (رجال الفن ونسائه) بعد ذلك الى الدار الملحقة بالكنيسة فيتناولون الشاى ويأكلون

الحلوى ويرقصون على نغمات الموسيقى ، شيوقا على القساوسة . والفلسفة وراء هذه « البدعة » عملية أو بتعبير أدق « براجماتيك » pragmatic وهى أن خير وسيلة لجذب أهل الفن الى أماكن العبادة هو التحدث اليهم بلغتهم

ومن مظاهر الفن في أمريكا أنه « بالجملة » فهذه مدينة روشستر موطن « كوداك » (صاحب آلات التصوير الشمسي المعروفة باسمه ، ومن كبار أصحاب الملايين) يستطيع أن يتعلم كل فرد فيها وفى ضواحيها الموسيقى مجانا ، اذ وقف « كوداك » فى حياته وبعد وفاته الأموال التى تكفل لكل طفل ورجل وامرأة أن يتلقى دروسا موسيقية ، ويؤم حفلات غنائية وموسيقية عامة ، ويعطى له فوق ذلك الآلة الموسيقية التى يحسنها أو يرغب فى العزف عليها ، كل ذلك بغير مقابل . ومن مظاهر الفن أن يصبح الزى شعبيا بعد ظهوره بأيام . فهذا طراز جميل من الاثاث المنزلى ابتدعته يد ماهرة وابتكره عقل جبار . ولكن أنى لغير المثرى أن يبتاعه ؟ مهلا ! ما هى الا أيام معدودات حتى تخرج الآلات منه مئات الالوف ، فينتفع منه أسر الطبقات المتوسطة وما دونها . وهذا فستان مبتكر ، أخرجته يد ممتازة فجاء زيه خلابا أخاذا ، ولكن أنى لسيدة غير مثرية أن تشتريه ؟ مهلا ! ما هى الا أيام معدودة حتى تخرج منه الآلات الساحرة مليون نسخة ، تغمر الحوانيت فيباع الفستان بريالين أو ثلاثة . وتغمض عينيك وتفتحهما فاذا بك ترى هذا الزى الأنيق يزين كل آنسة وسيدة يقع عليها بصرك فى طول البلاد وعرضها

ولعل هذا الفن بالجملة يتناسب ونهضة أمريكا الصناعية أولا ، واتساعها وترامى أطرافها ثانيا . أليس حوض المسيسبى وحده توازى مساحته مساحات انجلترا وويلز واسكوتلاندا وايرلندا واسبانيا والبرتغال وفرنسا والنمسا وألمانيا وايطاليا وتركيا كلها مجتمعة ؟

نختم هذا المقال بكلمة عامة عن الفن استقيناها من كتاب بديع يجدر بكل مثقف أن يقتنيه (١) : « يتوهم الكثيرون أن الفن مرادف للرسم والتصوير ونحت التماثيل . الفن لا ينحصر فى القدرة على الرسم والتصوير والنحت ، وانما يشمل الاعجاب . فالاعجاب بالفن جزء لا يتجزأ من خلق الفن ، والاستمتاع بالجمال مساهمة فى صنعه ، أو نوع من هذه المساهمة . وتفسير الفن ومظاهر الجمال لاصدقائنا ومحدثينا ما هو الا ناحية من هذه النواحى المتعددة التى نسميها فنا . كم سمعنا صديقا لنا يقول : « لست من أهل الفن ولا أحسن أن أرسم خطا مستقيما » قد يكون أحدهم ماهرا فى رسم خط مستقيم ، ولكنه لا يدرى فى الفن شيئا . وقد يجهل آخر ذلك ، ولكنه يعد من أهل الفن بأقصى ما تسمله الكلمة من معنى . فالمرأة التى تتخير الاثاث الملائم لبيتها ، أو البائعة التى تساعد المشترى فى انتقاء الزى الذى يتناسب وقوامه ومنظره ، لا تقل معرفة بأصول الفن من مثال أو مصور »

أمير بقطر

---

(١) « Art in Every Day Life » by Harriet and Vetta Goldstein, Macmillan, N.Y. 1941 (3rd edition).

قصـــــة توأمين

للاديب الامريكي الفكاهي « مارك توين »

س : هل هذا أخوك ؟

ج : نعم ، نعم ! لقد ذكرتني به الآن . نعم انه كان أخي .. وكان اسمه وليم ، وكنا نحن نسميه بل . مسكين أنت يا بل !

س : مسكين ! لماذا ؟ أهو قد مات ؟

ج : أظن ذلك . وأن كنا لا نجزم بذلك . فان في الامر سرا غريبا لم ندركه الى الآن

س : انه لأمر يدعو الى الأسف البالغ ، الى الحسرة الشديدة . لقد اختفى ولم تعرفوا مقره . أليس كذلك ؟

ج : نعم اختفى ، فقد دفناه

س : دفنتموه ! دفنتموه دون أن تعرفوا اذا كان قد مات أو لم يمت ؟!

ج : لا . لا ! لا شيء من هذا القبيل . لقد كان ميتا كل الموت !

س : اني اذن لا أفهم مما تقول شيئا . اذا كنتم قد دفنتموه ، وكنتم تعرفون أنه مات .

ج : لا . لا . كنا نظن أنه مات

س : الآن فهمت . تعني أنكم ظننتموه ميتا ، ثم ردت اليه الحياة !

ج : كلا ، لم ترد اليه الحياة . لم يحدث شيء من هذا بل مات وظل ميتا

س : اني لم أسمع في حياتي شيئا مثل هذا . شخص مات . ثم دفن . فأي سر يحيط بهذه المسألة الواضحة

ج : لا ، ما زال في الامر سر خطير . صدقني أننا لم نعرف بعد سر المسألة . فقد كنا توأمين . وقد اختلط أحدنا بالآخر وهم يغسلوننا في الحمام ، وما زلنا في بداية العمر . أذكر أن ذلك حدث بعد ولادتنا بأسبوعين اثنين . ثم حدث أن غرق أحدنا . ولكنا لا ندري من الذي غرق . فبعضهم يظن أن الذي غرق هو بل . وبعضهم يعتقد أنني الذي غرقت

س : حقا ، هذا سر عجيب . ولكن ما رأيك أنت في الامر ؟

ج : الله وحده يعلم سر الامر . وان هذه الحادثة المخيفة المؤلمة قد نشرت فوق حياتي كلها غمامة سوداء . ولكني أستطيع أن أفضي اليك بسر لم أطلع عليه أحدا من قبل . لقد كان لاحد الطفلين علامة خاصة به ، بقعة كبيرة في ظهر يده اليسرى . وكان ذلك الطفل هو أنا . والذين شهدوا الطفل بعد غرقه يقولون انهم رأوا في ظهر يده اليسرى هذه العلامة . وبذلك عرفت من منهما الذي غرق ، ومن منهما لا يزال حيا ..

بمناسبة ذكرى مولد الشاعر العبقري شكسبير

وليم شكسبير

مؤرخ صادق للقلب الانسانى

للأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية

شكسبير بما خلف وراءه من شعر ومسرحيات تراث انسانى عام ، إن عرفت انجلترا بعرف مولد صاحبه ونشأته ، فان العالم بأسره ينازعها ولا شك فخر ظهوره على الدنيا ، وذلك باعتبار أنه من أبناء هذه الأرض ، الأصل الذى خرجنا منه فروعا مختلفة السمات متباينة الاتجاهات لغات وعقائد وأجناسا

منذ ثمانين وثلاثمائة سنة ، فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ابريل ، تحت سقف بيت متواضع من بيوت قرية « ستراتفورد » التى يغسل أطرافها نهر الآفون بانجلترا ، ولد وليم شكسبير ، فنورت طاقة فى الذهن الانسانى وأشرق نور من أنوار الابتداع الفنى ، هذا وفصل الربيع فى مقتبل شبابه وزهور المروج تفتح براعمها لاستقبال الشمس ، فكأن الارادة العلوية شاءت أن يكون الربيع مولد من أكسب الادب عامة وأدب المسرح خاصة ، ربيعا لا ينقضى عمره

قال الكاتب الكبير توماس كارليل فى حديثه عن شكسبير : «لو خيرت انجلترا بين التخلى عن أقطار الهند أو مؤلفات شكسبير ، لو أكرهتها الاحداث على هذا التخير ، لما ترددت فى أن تستبقى آثار شكسبير ، وتتخلى عن الهند »

وما من مبالغة فى هذه القولة الصادقة . فلئن تأتى يوم ينكمش فيه العلم البريطانى الذى يخفق الآن على ممتلكات للتاج لا تغيب عنها الشمس فلا يخفق الا على بقعة صغيرة من أرض انجلترا ، فلئن يأتى يوم نرى فيه دنيا من دنى الأدب فى أى قطر من أقطار العالم المثقف ينفصل عن مرمى الظل الوارف الذى تلقيه هذه العبقرية الانسانية الفذة ، عبقرية وليم شكسبير

وقد تساءل ما سر عبقرية شكسبير ، وما سر خلودها على مر الايام ، وقد سبقه نبغاء فى صياغة الشعر وكتابة المسرحية ، وتبعه آخرون من طراز فخم خلفوا وراءهم تراثا خصبا فى عالم الأدب

السر غير مغيب عمن قرأ شكسبير أو شاهد مسرحياته .. ومن منا لم يقرأها واكشف عن وجه من وجوه هذا السر ، ارادة أن ييسر أمر استبطان أصله ومعرفة

مأتاه ، فأقول : منذ أن ابتدع الذهن البشرى ما نسميه الأدب وأصبح رواح النفس وشغل الخاطر ، والكائن البشرى مشوق الى أن يقرأ نفسه فيما يكتب ، وأن يتلمس ظله فى متمثلات خياله ، وأن يسمع أصداء قلبه تتجاوب بين سطور ما يخطه قلمه ، ليشبع نزعة الخلق والابتداع الكامنة فى طويته . وكلما كان المقروء والمتمثل فى نطاق الأدب ، وأيا كان لونه ، عريقا فى انسانيته ، صادق الكشف عن النفس ، مصورا نزعاتها وخلجاتها كما نحسها فى أعماقنا ، أصبح الانسان مشدودا الى هذا الأدب يجد فيه المتعة التى تتجدد ، والسحر الذى لا ينفد تأثيره

وأدب شكسبير من هذا الطراز الرفيع الصادق فى الكشف عن النفس ، ظاهرها وباطنها ، تتمثل فيه أحلامنا ثم يطيف بنا منه أحلام أخر ، ويتجاوب نبض قلوبنا مع أنباض قلوب عرائس شعره ، ويتفاعل المقروء الوارد مع المحسوس الصادر المدخر فى أعماقنا ، وكلاهما من أصل واحد ، فاذا بنا نعيش فى وقت واحد بأكثر من قلب ، ونرى بأكثر من عين .. وقد تبلغ المتعة الذهنيــة أوجها اذ نقرأ مسرحياته أو نشاهدها ، فتطالعنا شخوصها وقد نفث فيها كاتبها روحا من عنده ، فغدت مخلوقات بشرية نابضة بالحياة

▭

ان المجال لا يتسع لان أتناول شكسبير من ناحية شعره الخالص وأسلوبه الاصيل فى قصائده وأهازيجه وترانيمه .. حسبى أن يكون هذا الفصل لمسرحياته ، وذلك باعتبار أنها نهاية النهايات فى أدبه وفنه

وما هى المسرحية أو الرواية التمثيلية ؟ تتعدد التعاريف فى المظهر ولكنها تتفق فى المخبر .. المسرحية قطعة منتزعة من صميم الحياة مما هو مسموع ومشهود ، أو مما هو مرغوب تنزع النفس اليه وينسرح الخيال فيه ، هى مستراد أطياف الحياة ومنتقل ألوانها، بين جنباتها تتجاوب أصداء النفس وتتخاطب فيزداد الظاهر فيها وضوحا وينكشف المستور منها ، ويسفر المقنع والشارد فى ثنايا المادة ومجاهل العقل الباطن ، وتتعاون ملكات الخيال والعاطفة والذهن على نسجها ، كما هو الحال فى كل عمل أدبى أو فنى ، ثم ينطلق البيان اللغوى يرسم معالمها ويشىء كيانها . والكاتب فيها يجرى موضوعه وفاقا لصيغ شكلية وشرائط فنية من حيث النسج والتقسيم والسياقة والحبكة واحلال الحوار الذى يجرى على ألسنة أشخاص المسرحية محل السرد والحكى ، ثم من حيث تقويم هؤلاء الاشخاص تقويما انسانيا صادقا فيما يبدر منهم قولا أو حركة . فالمسرحية ، بحكم ما تقدم ، عمل أدبى ، له صيغته الشكلية وله صيغته المعنوية ــ وهى الجوهرة والصميم ــ والشكليات كما هو معلوم تأتى بعد المعنويات فى القيمة والأهمية ، كالأبدان من الأرواح ، والثياب من الاجسام .. فاذا اتفق جمال الأسلوب مع شرف المعنى وتماثل بهاء الصيغة الشكلية ببهاء الصيغة المعنوية ، وكان الكاتب مبتدعا لا متبعا ، فهنا التأليف المسرحى فى نسقه النابغى العالى . وقد تم لشكسبير كل هذا فى مسرحياته ، وكان فيها مبتدعا لا متبعا

ومواطن الابتداع فى مسرحياته من حيث القالب ونظام مشاهدها ، كثيرة متعددة

فقد حطم القيد الذى كان مقيدا به مؤلفو اليونان والرومان ومن تبعهم من معاصريه ، فى أن تجرى حوادث الرواية وتتابع مشاهدها فى نهار وفى مكان واحد ، خرج على هذه القاعدة التى ابتدعها الذهن الاغريقى ، وفرضت طابعها على الأدب المسرحى مدى ألف وسبعمائة عام ، ولم يتنبه المتبعون لهذه القاعدة الى ما للزمن ومر الايام من أثر نافذ فى تطور الناس والحوادث

كانت المسرحية فى ذلك النظام المقيد بوحدتى الزمان والمكان ، لا تسع غير تقديم عقدة الموضوع وجوهره ، وقد مهد لها بمشاهد قليلة تركزت فيها العناصر التى يتألف منها الجوهر ، ثم سرعان ما تبلغ الأزمة النفسية لدى أشخاص الرواية ذروتها ليقضى فيها بحل ونهاية. يجرى موضوع المسرحية على هذا النظام المقيد من غير أن يرسم له بالحوادث والفعال المراحل التى هيئت لقيامه وتدرجه ، ومن غير أن تصور الظروف التى لابست أشخاص الرواية حتى تجعلهم يصدرون من أقوالهم وفعالهم ما يصدرون ، ومن غير أن يجعل للزمن ، وهو مكيف الحوادث ، المجال الطبيعى المألوف الذى تنضج على كره عناصر المأساة أو الفكاهية .. كان المسرح والحالة هذه متنقل ألوان نقية غمرتها أشعة الشمس وهى تجرى لستقر لها فى حالة جوية واحدة

وبخروج شكسبير على هذه القاعدة ، أصبحت المسرحية على يديه فصولا متعددة ومشاهد متلاحقة غير مقيدة بزمان أو مكان ، تجرى وتتعاقب لابراز شخصيات الرواية من غير عنت أو افتعال ، تجرى وكأنها سيل من الحياة الدافقة تتلاحق أمواجه لتترامى على هدف معين مرقوم

كذلك نهج شكسبير نهجا جديدا فى الأسلوب اللغوى الذى يكتب به حوار الرواية ، فبعد أن كان مقصوراكتابته على الشعر الموزون المقفى ، أصبح على يديه ، تارة شعرا مرسلا (Blank Verse) وتارة أخرى شعرا ونثرا واضحا بينا . وبهذا تحررت المسرحية من قيد بيانى كان يحد من انطلاق الذهن وتحليق الخيال فى أوسع مجالاته

بهذا قلب شكسبير الأوضاع الشكلية للمسرحية ، فكان الأول فيما فعل ، وعنه أخذ كتاب القارة الأوربية فى القرن التاسع عشر

أما من حيث الجوهر والموضوع ، وتقويم الأشخاص تقويما نفسيا صادقا ، فقد دأب شكسبير على أن يعالج القيم الانسانية الدائمة والحقائق الثابتة ، ولم يكن يعنى بما يختلج به عصره من خواطر وسوانح مستمدة من مشكلات بيئته فى مختلف نواحيها الاجتماعية، الا بالقدر اللازم لستقيم الصبغة المحلية لحوادث الرواية ، لان هذه أشياء مهما بلغ خطرها فى زمنها ، فليست بالامور الثابتة ، لانها أعراض اجتماعية لا تقيم على حال . ومن المعلوم أن ما يشغل أذهان عصر من العصور من عاديات الحياة ومشكلات البيئة ، لا تأبه له أذهان العصر الذى يليه ، لان الذوق حول ، والنظرة الى الاشياء تتحور وتتبدل ، وشأنها شأن

الأزياء التى لا تلبث على صورة واحدة ، أما الثابت الخالد من الحقائق فى العمل الادبى ، فهو ما اتصل بالنفس البشرية ، وما امتدت أعراقه فى الفطرة الانسانية ، لان النفس خالدة والانسانية باقية على الزمن وعلى اختلاف المكان . والنفس والانسانية فى المسرحية يتمثلان فى أشخاصها من ناحية تقويمهم فى أصدق تقويم نفسى لكل منهم

فى مدى ثمانية وعشرين عاما ، استطاع هذا العبقرى شكسبير ، أن يجعل المسرحية الانجليزية تحيط بالحياة البشرية احاطة شاملة ، فمسرحياته بمآسيها وفكاهاتها ومهازلها هى سفر القلب الانسانى الذى لم يتغير ولن يتغير . ففى مآسيه المعروفة يوليوس قيصر وهاملت وعطيل ومكبث والملك لير وأنطونيو وكليوبترا وكريولناس وتيمون الاثينى وروميو وجولييت ، فى هذه المسرحيات صور شكسبير غرائز الكائن الانسانى ملجمة بلجام العقل ، ثم ، وهى جامحة محطمة اللجام .. أحاط بالآثام البشرية ، ورسم مسير القدر وهو يهدف الى غرضه ، صور مصارع الجريمة والخيانة ، الطمع والترف والكبرياء ، غليان الحسد وثورة الغيرة ، يقظة الحس ومحاسبة الضمير ، الجحود وقسوته ، الضعف ومحنته ، جلائل العظماء وتفاهات المعوزين ، الحب كأسا شهية والحب كأسا تورد موارد الهلكة

وتمثل هذه المسرحيات وغيرها من مؤلفاته فى كل زمان ومكان ، فاذا الدنيا ممثلة بحقائقها ، بكلياتها وجزئياتها ، فى صحوها وكدرها ، فى خيرها وشرها ، ثم يعاد تمثيلها وقد يعاود القارىء تلاوتها ، فاذا هو دائما أمام متعة لا تبلى جدتها ، وتفكير تمتد آفاقه على التأمل والنظر ، تترآى لنا فى ظلاله مواكب انسانية تتوالى أفواجها موفورة الاحساس بالحياة ، جياشة بصدق العاطفة ، بل ان العين لتقع على أشخاص بينها لا تنكرها لسابق معرفة بها فى الحياة الواقعية ، فكأن شكسبير ، فى كشفه الدقيق عن دخائل النفس فى مختلف النماذج البشرية ومنازعها ، يريد أن يحيطنا علما بالحياة ، بل هو يريد أن يعرفنا أنفسنا ، يعرفنا ماهية الفطرة الانسانية التى نعرفها ولا نستطيع تعريفا لها ، ونحسها ولا نقدر على شرح ماهيتها

ومرجع هذا كله لدى شكسبير أنه وهب النظرة الكاشفة التى تنفذ الى أعماق فى النفس لا تصل الى أغوارها نظرة أخرى ، ومرجع هذا أيضا القدرة على التحليل النفسى الصادق ، والمقدرة على الابتداع والخلق

وهكذا ابتدع شكسبير مذهبا فى كتابة المسرحية ، فرض طابعه على الزمن ، وتابعه فيه من جاء بعده من الكتاب والشعراء . هذه ناحية من نواحى عظمة شكسبير ولا أدل على اعتراف الناس بها من أن الأمم الراقية ، تذكر كل عيد من أعياد ميلاده بما يجب له من التكريم والتبجيل ، وها نحن أولاء نحيى ذكراه على قدر ما وسعتنا ظروف الزمن الذى نعيش فيه ،

زكى طليمات

اطعام أوروبا الجائعة

عند ما تقف رحى الحرب مع ألمانيا يكون خير جزء فى أوربا على شفا المجاعة ، وسيبقى أمدا طويلا عاجزا عن تفادى هذه المجاعة بانتاجه الذاتى

فعند ما بدأت هذه الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، كانت حقول أوربا أقل خصوبة وانتاجا منها فى سنة ١٩١٣ ، أى أن الحرب الماضية ظلت أكثر من ربع قرن ذات أثر سيء فيما تنتجه الارض من غلال وطعام ، وفيما تنتجه ماشيتها من ألبان ولحوم . وكذلك الامر فى سائر الحروب ، ففى سنة ١٨٨٦ لاحظ أحدهم أن الفلاحين الروسيين فى منطقة سمولنسك ما برحوا يعانون من جراء حملة نابليون التى وقعت فى سنة ١٨١٢ . فالانتاج الزراعى لا يعود الى سابق أمره عقب انتهاء الحروب ، بل بعد قيام السلم بسنين طوال

وآثار الحرب القائمة أعمق وأدهى من آثار أية حرب سابقة، فجميع أقطار أوربا تقريبا قد عانت من الاستغلال والاجاعة ما لم تعانه من قبل ، اما لانها كانت مسرحا من مسارح هذه الحرب المخربة ، واما نتيجة ما امتد اليها من أيدى غزاتها الالمان . فلا جرم أن يقدر أحد كبار علماء الزراعة الانجليز ، المعنيين الآن ببحث الوسائل والانظمة التى تكفل اطعام أوربا الجائعة ، بأن هذه القارة ستظل فى حاجة الى تموينها بالطعام مدة لا تقل عن ستة عشر عاما من تاريخ الهدنة القادمة

فما هى العدة التى اتخذت لدرء هذه المجاعة فى سنوات الشدة التى تتوقعها أوربا ؟

أما الخطوة الاولى فهى تموين كل قطر يتم تحريره من أيدى الالمان بكميات من الطعام جمعت وخزنت فعلا . ولكن هذا اجراء جزئى ومؤقت يراد به اسعاف الشعوب الاوربية التى أنهكها الحرمان واضناها الاستغلال عددا من السنين . أما ما هو أهم وأجدى من ذلك ، فهو امداد المزارعين فى كل بلد أوربى بالوسائل التى تمكنهم من انتاج أكبر وأجود كمية من الطعام

وهذا هو الامر الذى يعنى به الحلفاء الآن ، وقد أقاموا لهذا مؤسسة خاصة فى انجلترا لتتولى تحقيق هذا الغرض . ولم يذكر ولم يكتب شيء كثير عن هذه المؤسسة . ولكن من المحقق أن العمل الذى نيط بها عمل هائل لم يسبق له مثيل فى التاريخ

فبعد الحرب الماضية ترك أمر اطعام أوربا ، التى كانت على شفا المجاعة ، للجهود الفردية ، تبذلها كل أمة على قدر طاقتها ، ويبذلها كل مزارع حسب ما يتسع له زرعه . فكانت النتيجة ضئيلة وبطيئة بحيث لا يصح تكرار ما حدث مرة أخرى . ولهذا لن يكون

الاعتماد فى هذه المرة على الجهود الفردية ، بل على الجهود الاجماعية المنظمة المنسقة ، هذه الجهود التى يشترك فى وضعها واعدادها عدد كبير من علماء الحلفاء وخبرائهم الذين يتألف منهم « مكتب الحلفاء لمطالب ما بعد الحرب » . ويرأس هذا المكتب أحد كبار العلماء الانجليز ، هو سير فردريك ليث روس ، ويتألف من أقسام شتى يختص كل منها بناحية من نواحى التعمير والانشاء اللازمة لاوربا المخربة المهدمة . ويرأس القسم الخاص بالزراعة والطعام سير جون رسل الذى أمضى سنين طويلة مديرا لمحطة روثامستد ، وهى أقدم وأفضل المحطات الزراعية فى أوربا ، والتى كانت نموذجاً احتذته فلسطين وكذا واستراليا فى انشاء مزارعها الحديثة ، والتى تضم نخبة من العلماء والطلاب الموفدين من أرجاء العالم الزراعية

وستكون بداية أعمال هذه المؤسسة انشاء مكتب فى الشرق الاوسط لدراسة شؤون الانتاج الزراعى فى متسع من الارض أكبر مساحة من أوربا كلها ، اذ يشمل مناطق الشرق الاوسط وشمال افريقية جميعا . وسيكون من عمل هذا المكتب اسداء النصيحة وابداء المشورة لحكومات هذه المنطقة فى كل ما يؤدى الى زيادة انتاجها وتجويده

ودراسة هذا المكتب لا تقتصر على التربة والمناخ والموقع الجغرافى فحسب ، بل تتناول كذلك عادات الشعوب وامكانياتها الخاصة بها . فان لهذه العوامل أثرها فى مقدرة بعض الشعوب على انتاج أنواع من الغلال أو تربية أنواع من الحيوان دون أنواع أخرى . ويكفى أن نذكر هنا تحريم الدين الاسلامى أكل لحم الخنزير ، وأثر ذلك فى صرف الشعوب الاسلامية عن تربية هذا الحيوان الذى يعد من الوجهة التجارية حيوانا مربحا

ويجب أن نذكر أن الالمان أتقنوا طرق استغلال الاراضى التى احتلوها ، ولن يخلوها يوم يأتى تحريرها الا بعد أن يتركوها عاجزة عن النهوض من كبوتها بغير جهد جهيد . خذ مثلا ما يعملونه لاستنفاد ما فى أوربا من الثروة الحيوانية . فانهم يرسلون الى ألمانيا خير ما فى أوربا من ذكران الحيوان ، من الثيران والخراف وذكور الخنازير . وذلك لتجود سلالات الحيوان فى بلادهم بينما تسوء وتنحط فى سائر أوربا . وستكون هذه مشكلة من مشاكل تعمير أوربا ، فليس من السهل ان تستورد أوربا كل ما يلزمها من الحيوان الطيب لانشاء سلالات جيدة ، فالثور مثلا يزن طنا كاملا ، فهل استيراد ملايين الثيران من أمريكا أو من آسيا ، لو فرض توافرها ، بالامر اليسير ؟

فللتغلب على هذه الصعوبة يجب الاخذ بالطرق العلمية فى تلقيح اناث الحيوان تلقيحا صناعيا . وقد اتبعت هذه الطريقة فى روسيا فأدت الى نجاح كبير ، وأخذ بها كثير من أقطار أوربا ، وان ظلت جمهرة الزراع الانجليز تنكرها بدعوى أنها مناقضة لقوانين الطبيعة . ولكن ما تعانيه أوربا من نقص وضعف فى انتاجها الحيوانى ، بعد استيلاء ألمانيا على خير ما فى بلادها من ذكور الحيوان ، سيجعل هذا التلقيح الصناعى ضرورة لا محيص عنها

وهكذا تجد أن مؤسسة « مطالب ما بعد الحرب » تواجه مطلبين مهمين : أولهما تموين أوربا على عجل بما يلزمها من الطعام ومن الاسمدة والبذور ومن الآلات الزراعية، وذلك صدا لتيار المجاعة التي يتهددها بأنكى الاخطار . وثانيهما وضع سياسة طويلة الأمد تجرى عليها شؤون الزراعة والانتاج في أقطار أوربا كي تستعيد أرضها خصوبتها السابقة ويستعيد حيوانها قدرته على انتاجه الوفير

ولا شك في أن الجزء الاكبر من هذه المهمة واقع على عاتق أمريكا . وعند ما يقول تشرشل وروزفلت ان المستقبل يقتضى بقاء التعاون والتحالف بين بريطانيا وامريكا ، فانهما لا يعنيان ضرورة ذلك في ميدان السياسة فحسب ، بل في شتى الامور التي تؤدى الى قيام عالم آمن رخى ، وأول هذه الامور هو اطعام الشعوب الجائعة والباس الأمم العارية

وللامريكيين خبرة سابقة في اطعام أوربا عند ما تأزمها الشدائد ، كما أن لهم يدا كريمة في ترقية الزراعة الاوربية وتجويدها . وفي بلجيكا آلاف وآلاف من الناس يدينون بصحتهم ، بل بحياتهم ، للرئيس هربرت هوفر ، الذى أرسل اليهم عبر الاطلنطى ما أنقذهم من الجوع الذى هددهم بالهزال والوباء والفناء منذ بضع سنين . أما تقدم أوربا السريع في مضمار الزراعة العلمية ، وعلى الاخص في استخدام الآلات الزراعية الحديثة، فيرجع فضله الى ما استخدمته معاهدها ومصانعها ومزارعها من مئات المهندسين الامريكيين، الذين نشروا بين الاوربيين وسائل الانتاج الحديث ، ودربوهم على استخدام آلاته وأدواته ، وقد كان أغلب زراع أوربا الى عهد قريب ، ينكرونها ويعرضون عنها ، ويؤثرون أن يسيروا في عملهم وفق ما ورثوه عن أسلافهم الاقدمين ، وذلك أن البيئة الزراعية بيئة محافظة ، لا يسهل عليها ترك تقاليدها وتغيير أنظمتها ، الا بعد جهد ومصابرة

فأمريكا اذن هى أولى الأمم مسئولية عن اطعام أوربا الجائعة . ولها من انتاجها الزراعى والحيوانى الهائل ما يمكنها من مد يد المعونة العاجلة لشعوب أوربا حالما يرتفع عن عاتقها نير الالمان . ولها بعد ذلك من مصانعها الهائلة ما يمكنها من أن تمد مزارع أوربا بمختلف الآلات الزراعية التي ترقى بمستوى الزراعة الأوربية رقيا عاجلا . ولكن كل شعب زراعى من شعوب العالم مسئول عن المساهمة في هذا العمل على قدر طاقته ، حتى يستقر الامر وتعود أوربا قادرة على اطعام نفسها مما تنتجه أيدى أبنائها

(عن مقال لسير بيتش توماس الخبير الانجليزى في شؤون الزراعة بصحيفة بارد)

قصة نبيلة انجليزية سحرها الشرق بفنونه واسراره وجذبها اليه

من أقصى المعمورة فاتخذت لها شبه مملكة فى ذرى جبال لبنان ،

تحلم بأن تعيد عهد الزباء ملكة تدمر وتحيا فى عالم خيالى مثالى

ليدى هسترستانهوب

ملكة الصحراء وناسكة الجبل

بقلم الأستاذ محمد امين حسونة

كان القرن التاسع عشر عصر الفروسية والبطولة ، والشغف بالمغامرات فى سبيل الظفر بالمجد أو الحب ، كما كان عصر القلاقل والثورات الاقتصادية والفتن السياسية التى تمخضت عن الحروب النابليونية

فى ذلك الحين مل الناس حديث الحرب وبرموا بالسياسة ، وطغت عليهم موجة من التعاليم الصوفية ، وسرعان ما انبثقت فى الجو الفكرى حركة واسعة النطاق ترمى الى الهجرة الروحية ، وبخاصة الى الشرق ، مهد الانبياء والمرسلين ، والنفوذ الى أسراره

ملكة الصحراء

لم تكن روح المخاطرة والهيام بالشرق وحدها السبب فى تكييف مصير سيدة انجليزية نبيلة هى ليدى هستر ستانهوب التى قضت معظم حياتها متنقلة فى ربوع الشرق ، بل كان لشذوذ أطوارها وسعيها فى طلب المجد نصيب وافر فى ذلك

كانت تحلم بأن تغدو ملكة ... وهناك فى ربى لبنان وفوق ذرى جباله الشامخة وعلى مقربة من أغصان الزيتون وأشجار التوت وعرائش الكروم ألقت عصا التسيار ، معتصمة بمأوى لها فوق إكمة صعبة المسالك . كانت تنفق عن سعة وتبذير ، وتحيا حياة ملؤها الابهة والعظمة كأميرة من أميرات الاساطير ، يحوط بها أتباعها وحشمها ، ويفد عليها فى المساء سمارها من الدروز واللبنانيين والعرب ، فتقضى زلفا من الليل تقص عليهم ذكريات طلية عن أيام عزها ومجدها ، ودنياها العظيمة التى خلفتها فى ربوع وطنها — انجلترا — ودولتها العامرة التى لم تدم سوى أعوام قلائل

على أن حقيقة هذه السيدة ظلت غامضة ، محوطة بالشك والغرائب ، فمنهم من كان يقول انها عرافة ، تقرأ سطور الغيب وتستطلع النجوم وتلم بفنون السحر ، ومنهم من يذكر أنها ناسكة ، عافت نفسها تسرب الروح المادية الى الغرب ، فجاءت الى الشرق

تطلب الغذاء الروحى وتنشد الاحلام وتحيا فى عالم خيالى مثالى ، وهناك من بين المؤرخين من نعتها بأنها كانت امرأة مخبولة ، وأن بعقلها لوثة من الجنون ، وأنها جاءت الى الشرق على أثر حب فاشل

من هى ليدى ستانهوب؟

نشأت هستر لوسى ستانهوب فى بيت ارستقراطى عتيق ، اذ انحدرت من أصلاب دايموند بيت أحد حكام الهند ، وقد عرفت عنه صفات متنافرة منها القسوة والرحمة والجبروت والعدل والصلابة واللين الى جانب الشذوذ فى الطباع والتباين فى الاخلاق فأورث أبناءه وأحفاده صفاته الشاذة . وكان والدها شارل كونت ستانهوب من كبار العلماء فى عصره ، ولكن على غرابة وشذوذ فى الخلق والطبع ، وغلو فى المبادىء الديمقراطية الى حد أنه وهو من النبلاء كان يحرم قرينته من أسباب الرفاهية والهناء

وولدت هستر فى ١٢ مارس من عام ١٧٧٦ فى ذلك البيت الذى لم يقبل السعد عليه بوجهه ، وقد توفيت عنها أمها وهى فى الرابعة من عمرها ومضت لتعيش مع جدتها لامها — ليدى شاتهام — فى سومرست شيت . وكان خالها وليم بيت قد تولى دست الوزارة البريطانية ، وكان يعيش أعزب ، فدعاها لتقيم معه فى الدار رقم ١٠ بدوننج ستريت — مقر رياسة الوزارة — وهناك ابتسم لها وجه الدهر فعاشت سعيدة منعمة ، فى كنف خالها الذى قامت على رعايته محاطة بكل ما يبهر الابصار ويملأ أجواز الفضاء بهجة وضياء فى دنيا السياسة وعالم الادب والفنون الجميلة ، لذلك عنت لها الوجوه الكريمة فى المجامع الراقية وراح الناس يتقربون اليها زلفى . وكانت طويلة القامة ، فرعاء ، تكاد تشرف على سمارها من علياء قوامها ، ذات وجه فاتن ، وبشرة متألقة البياض ، وكانت لا تلبس من الحلل المطرزة والغلائل المرصعة الا أحلاها وأغلاها ، وكان لها من حسن السبك وبراعة المنطق وسرعة الخاطر والذكاء الحاد ما يخلب اللب ويقرع السمع ويأخذ بالالباب، وفى الاجمال ، كان لها من قدها الساحر وقوامها العادل وقريحتها المتوقدة ما يجعلها فى غنى عن أى شىء آخر ، فاذا أضفنا الى هذه الصفات المشتركة حب خالها لها حبا يكاد يقرب من العبادة ، وما كان له من مكانة مرموقة وشأن رفيع فى الامبراطورية كأعظم رجل يخطر على أديمها فى ذلك الوقت ، سهل علينا أن ندرك السر فى تودد الناس لها

على أن ليدى هستر كانت كما ذكرنا ، ذات أطوار غريبة وطباع متقلبة ورثتها عن آبائها ، فكانت لاذعة الحديث ، تقول ما تعتقده فى وجه أى انسان ، حتى أنه قل من نجا من عقرب لسانها ، وكانت معتدة بنفسها الى حد أنها رفضت جميع الذين تقدموا لطلب يدها للزواج ، وأعيا خالها التفكير فى تدبير زوج يليق لها ، والظاهر أنه لم يوفق الى بغيته ، بدليل أنه قال مرة : « ان ابنة اختى تترقب الزوج المنشود الذى له مثل حدة ذكائها وتوقد قريحتها ، واذن فلن تعثر على هذا الزوج مطلقا » . ولم تكن قد تزوجت بعد

الى سن الثلاثين ، فأجرت عليها الحكومة معاشا سنويا قدره ١٢٠٠ جنيه ، وهو أعظم معاش منح الى امرأة فى الامبراطورية

وفى هذا العام توفى وليم بيت ، فقد نزلت به علة أثناء حروب نابليون أوهنت جسمه وضعضعت كيانه ، ثم جاء نبأ انتصار الفرنسيين فى موقعة استرليتز ، فقضى عليه ذلك النبأ القضاء المبرم ، اذ دخل منزله ولا تكاد ساقاه تقويان على حمله ، ونظر الى مصورة أوربا معلقة على الحائط ثم قال لمن حوله بأمرهم بطيها ، ومستطردا : « لا حاجة للناس بها فى السنين العشر المقبلة » . ولم يكد يمر عليه عشرة أيام حتى قضى نحبه فى اليوم الحادى عشر تاركا وراءه ابنة اخته هستر وليس لديها من الثروة ما يجعلها فى عداد الاغنياء ، وليس فى خلقها ما يجعلها تعيش عيشة انزواء واستكانة بعد حياة البذخ والترف والابهة والعظمة ، فذهبت لتعيش فى مقاطعة ويلز ، وهناك فجعها الدهر أيضا بموت صديقها الحميم سير جون مور الذى كان من المحتمل أن يقترن بها لو لم تعاجله المنية وهو فى ديار الغربة

وكان قد خلف وليم بيت فى منصبه خصمه السياسى شارل فوكس ، أعظم خطباء انجلترا فى ذلك العهد ، فعرض على ليدى ستانهوب مبلغا من المال فرفضته فى اباء وشمم مؤثرة العوز على مساعدة الخصم ، وجمعت ما تبقى من ثروتها ومجوهراتها وقد طرأت على ذهنها فكرة السياحة الى الخارج ومغادرة وطنها

الى الشرق . . .

لم يكن هناك ما تأسف عليه ليدى ستانهوب فى انجلترا ، ولا ما يستهويها فى البقاء بين ربوع وطنها بعد أن توفى خالها وفقدت خطيبها وتنكر لها أصدقاؤها ، لذلك لما أقلعت بها الباخرة فى ميناء بورتسموث فى ١٠ فبراير عام ١٨١٠ كان فى عزمها ألا تعود الى وطنها مرة أخرى

كانت لا تزال فى ميعة العمر وريعان الصبا ، بالغة من العمر اربعة وثلاثين عاما ، وكان ما أصابها من البأساء والضراء من شأنه أن يجعل شخصية ذات كبرياء وخيلاء كشخصيتها ناقمة على الحياة وما فيها

وقد يممت فى بادىء الامر شطر جزيرة صقلية ، واستصحبت خدما وأتباعا كثيرين ، مما أعاد الى الاذهان صورة من عهود الاقطاع حين كان يخرج الامير للصيد والقنص فى حاشيه ضخمة وموكب حافل ، وكان فى جملة حاشيتها صديق يدعى ناسو سوتون عرفته حين كان يتردد على دار خالها فى داوننج ستريت ، وشقيقها جيمس ، وطبيبها الخاص مريون ، وسكرتيرها الخاص ميشيل كراوفورد بروس ، وبضعة أشخاص آخرين . فقضت نحو ثلاثة أعوام تجوب أنحاء البحر الابيض المتوسط وبرفقتها حاشيتها ، متنقلة بين جزره وسواحله ، غير آبهة بالحرب التى كانت مشتعلة بين انجلترا وفرنسا ، لان

فكرة الحرب يومئذ كانت أقرب الى قواعد المدنية مما هى عليه الآن ، وكان فى وسع الفرد الفرنسى العادى أن يجتمع بالفرد الانجليزى على قدم المودة ، برغم الحرب المشتعلة بين الدولتين ، وكان من ضيق الفطن أن يحاول سفير بريطانيا فى الاستانة الاعتراض على محاولة ليدى ستانهوب أن تتفق مع القائم بأعمال المفوضية الفرنسية بالاستانة على أن يسمح لها بزيارة فرنسا ، وقد كتب مريون طبيبها الخاص فى ذلك يقول : ان روح الحزبية يغالى فى تطبيقها هنا لدرجة لا تعرف فى أية محكمة أوربية ، حتى أن أفراد الشعوب المتحاربة يحرم عليهم تحريما باتا الاختلاط بعضهم بالبعض ، بيد أنه لا يعمل بهذا فى أوساط الرجال الدبلوماسيين فقط ، أما فيما عدا ذلك فقد كانت الجاليات المتعددة من التجار الاوربيين تجتمع للتزاور وعلى مائدة واحدة بطريقة ودية فى خلال مدة الحرب ، كما كان الشأن فى مدينة حلب

ومهما يكن ، فانه لما أخفقت فى مسعاها بالحصول على اذن يخول لها الحق فى زيارة جنوب فرنسا ، حولت وجهتها شطر وادى النيل هى ومن معها ، فابحرت من الاستانة بيد أن عاصفة عاتية هبت على المركب وهى فى خليج ماكرى ، على طريق كارامانى قبالة جزيرة رودس ، واصطدم المركب بصخر على مقربة من الشاطىء وكادت تغرق ، فانقذت باعجوبة وفقدت متاعها الا قليلا . وكان أول ما فكرت فيه أن ابتاعت ثوبا شرقيا فاخرا بمائتين وخمسين جنيها ارتدته خصيصا عند زيارتها الباشا التركى حاكم الجزيرة ، الذى أقام بدوره حفلة استعراض عسكرى تكريما لها بعد أن أهداها أحد كرائم الخيل المطهمة ، وقوبلت بحفاوة بالغة من سكان الجزيرة العثمانيين ، ومن ذلك الحين هجرت الزى الاوربى ولم تعد تلبس سوى اللباس الشرقى ، وكانت تبدو فيه كخاتون فاتنة من الخواتين اللواتى حكمن الشرق

ولما وصلت الى القاهرة ، ابتاعت ومستر بروس ملابس فاخرة ، وزارت محمد على فى قصر الجوهرة ، وخرجت اليه فى موكب حافل فوق صهوة جوادها ، ولقد دهش عند ما وجد نفسه أمام سيدة انجليزية من الطبقة الراقية ترتدى ملابس الرجال ، فقد كانت ليدى ستانهوب فى زى « باى » تونسى ، وراحت تتحدث اليه عن وجوب ربط مصر بالشرق بمواصلات سريعة عبر صحراء السويس ، ليتمكن المسافر الاوربى من الوصول الى الهند فى رحلة أقصر اذا ما اتخذ طريق رأس الرجاء الصالح

مقابلتها للشاعر بيرون

عند ما وصلت ليدى ستانهوب الى بيريه باليونان ، تقابلت مصادفة مع لورد بيرون الشاعر الانجليزى المعروف ، وكان فى طريقه الى ميسولونجى ، ليدافع عن قضية الحق والحرية . وليس من العجيب أن يجتمعا على رقعة من الارض فى بلاد الغربة ، ولكن الاعجب أن تستمر مقابلتهما فترة قصيرة لم ينشرح فى خلالها أحدهما لصاحبه ، ولم

يتبادلا عبارة واحدة من عبارات العطف والمودة ، مع وجود وجوه شبه كثيرة تربطهما معا

فكلاهما شريف المولد ، أرستقراطى النشأة ، لم ينعم بطفولة هانئة ولا بشباب سعيد

وكلاهما حبته الطبيعة عقلا نيرا وذكاء خارقا ، وأفرطت فيما حبته من الاحساس والشعور ، لذلك نشأ مغاليا فى كل شىء متطرفا فى أخلاقه وعاداته ، متمسكا بأخطائه

وكلاهما فشل فى مشروع حبه الاول واصطدمت مشاعره بصخور الحياة ، وآلمته تقاليد المجتمع العنيد المتعجرف فهجر وطنه ليتذوق أفاويق المجد والسعادة فى بلاد الغربة ، وينفق عن سعة وتبذير ، وحوله حاشية من الخدم والاتباع

فقد أفاد بيرون قضية البلد الذى حل به فائدة مزدوجة ، ونعنى بها اليونان ، فحمل معه معظم ثروته وكرس هذا المال لخدمة الحرية واستعادة استقلال اليونان

وكذلك ليدى ستانهوب فانها أنفقت ثروتها برمتها على الدروز لمساعدتهم على نيل استقلالهم ومقاومة الحكم المصرى

فى الاراضى المقدسة

غادرت ليدى ستانهوب وادى النيل فى مايو عام ١٨١٢ على مركب شراعى مصرى ميممة شطر يافا ، فزارت الاماكن المقدسة ، وتصدقت على الفقراء والمعوزين ، ومن ثم رحلت الى سوريا ، وهناك شعرت كأنها فى وطنها وبين ذوى عشيرتها ، وقد احتفى بها الامير بشير أمير الجبل ، وأحسن وفادتها فى قصره ببيت الدين ودعاها بابنته ، وكانت تركب الى دمشق سافرة الوجه ترتدى ملابس المسلمات ، غير حافلة بكلمات التحذير التى كانت تسمعها . ثم أقبلت على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها ، وأخذت تختلط بأفراد قبيلة بنى عنيزة واصطفت منهم بعض الاصدقاء كانوا لها خير عون ، وما عتمت أن صارت قبلة الانظار وموضع التكريم والاعتبار من الوالى والمشايخ وحام الاهالى حولها

وكانت أمنيتها أن تبلغ الى تدمر لتعيد هناك عهد الزباء ، وكان الطريق الى تدمر وعرا شاقا ، لم يطرقه أحد من مئات السنين ، فاستعانت بالقبائل والعشائر على تذليل هذه العقبات

ولعل اللحظة التى خرجت فيها لزيارة تلك المدينة التاريخية كانت أسعد لحظات حياتها فى الشرق ، فقد حمل زادها من طعام وماء وخيام ومتاع على أربعين جملا ، وخرج معها عشرات البدو يحرسونها وعلى رأسهم أكبر أنجال الامير بشير ، أما حاشيتها هى فكانت تتألف من خمسة وعشرين فارسا ، يحملون الرماح الطويلة المزينة أطرافها بريش النعام الجميل ، وقد استرسلت خصل شعرهم المفلفل على أكتافهم . ولما بدأ موكبها يتحرك من مدينة حماه خرجت الالوف المؤلفة من الناس واحتشدت على طول طريقها الى مسافة فراسخ ليكحلوا أعينهم بذلك المشهد الرائع ، وكان ازدحام الناس شديدا حتى أن فرقة الانكشارية التى بعثها الحاكم لتتقدم الموكب لقيت صعوبة فى افساح الطريق لها

ولم يكن الوصول الى تدمر فى ذلك العهد من الامور الهينة ، بيد أن ليدى ستانهوب وثقت بالبدو ثقة عمياء ، ووجدت أنها بعملها هذا اكتسبت مودة رجال أولى قوة وذوى بأس شديد وكانوا خير عون لها

ومضت القافلة أياما وأسابيع ، ولما هبط الليل وصعد القمر يتوسط القبة الزرقاء ، ترامت من بعيد جمهرة من الخرب فأشار الادلاء اليها هاتفين : تدمر ، تدمر . فقد كانت تلك الخرب الجبارة معجزة الصحراء ، هناك استولى عليها ذهول غريب واستسلمت الى أحلام عذبة مجهولة ، وكان الموكب قد وصل قبالة تلك الخرب فقضت الليل وهى شبه مذهولة ، أمام السحر المنبثق من أطوادها الساحقة وعمدها الرخامية وتماثيلها المطروحة على الارض ، وكنوزها الشعرية المطمورة ورسومها وأنقاضها ، فتضاءل أمام هذه التحف الفنية الخالدة التى لم يغير الزمن من لونها وبهائها الاعجاب بتماثيل ولوحات روفائيل وميشيل انجلو وغيرهما من فنانى المدنية الحاضرة

وكتبت ليدى ستانهوب الى أصدقائها فى انجلترا تصف هذه الزيارة فى رسائل تفيض شعرا وسحرا ، وتقول انها توجت فى تدمر ملكة على الصحراء

وفى عام ١٨١٤ ذهبت لتقيم فى دير « مار الياس » على التلال الواقعة فى ظهر مدينة صيدا ، ولم تغادره الا بعد ست سنوات او سبع عند ما ابتاعت قصر الجون وحدائقه الغناء فغدا لها مأوى ومستقرا فى ذلك الحين . وهناك فى ربى لبنان وفى ذلك القصر القائم بين بساتين مغروسة بالزهور والفواكه والكروم ، والمتناثر فى أركانها الجواسق المحلاة بالنقوش العربية والنافورات التى يتدفق منها الماء عذبا صافيا ، عاشت ليدى ستانهوب حياة ملكة شرقية حاكمة بأمرها ، وحولها طائفة من المترجمين الاوربيين والعرب والوصيفات والخدم والعبيد، وكان لها مخبرون يأتونها بالاخبار من كل فج عميق، وحسبنا أن نستشهد بما كان لها من دولة ونفوذ وسلطة واسعة أن الانصارية لما فتكوا بالرحالة الفرنسى بوتن على مقربة من اللاذقية ، كانت هى التى سعت الى احضار القتلة والمذنبين الى مقصلة العدالة ، وقد كتبت فى ذلك تقول : « لقد اضطررت الى استغلال مهارة هؤلاء المخبرين العرب فى الحصول على مآربى ، اذ لم يكن ثمة من يجرؤ على التجسس سواهم ، وقد أمر الباشا بارسال فرقة من الجند ، وأصدر أمره بمنحى ما أطلبه أنا ومن معى من العون مهما يكن . لذلك أمرت ترجمانى أن يستصحب معه بعض الفرسان متوجها الى بلاد الانصارية من ناحية أخرى ، لانها بلاد وعرة يصعب ارتيادها ، وانى أرجو الحصول على بعض تفصيلات عن الحادث ، لانى لم أتعود اليأس مطلقا »

وفى الوقت الذى لم يهتم فيه السفير الفرنسى فى الاستانة بأمر القتيل الا قليلا ، نجحت ليدى ستانهوب فى الحصول على خمسمائة رجل من الرجال الاشداء من قبل حاكم عكا وحاكم دمشق ، وبعد تفتيش دقيق أمكنها اكتشاف القتلة وتقديمهم للمحاكمة

بينها وبين الشاعر لامرتين

خلف لنا لامرتين فى مؤلفه الثمين « رحلة الى الشرق » صفحات برمتها عن ليدى ستانهوب ، وقدم الينا صورة فذة عن حياتها وأفكارها ومعتقداتها ، وكان الشاعر أثناء سياحته فى الشرق قد اتصل به نبأ هذه السيدة الغريبة الاطوار، وكان يسمع أنها لاتستقبل فى مقرها طبقة الرحالين الاوربيين لا سيما الانجليز منهم ، فكتب اليها رسالة رقيقة تفيض عذوبة ، يرجوها فيها أن تأذن له بمقابلتها ، وبعد لأى أجابته الى طلبه ، فشخص اليها فى رفقة نفر من الاتباع والادلاء، وقد حرص الشاعر على أن يدون الاحاديث التى دارت بينه وبينها بحذافيرها ، ولنتركه يصف هذه الزيارة :

« نهضت ليدى ستانهوب عن مقعدها الشرقى ، وتقدمت نحوى بقوامها المشوق ، ثم بسطت يدها وقالت :

ــ ها قد جئت من بعيد لتزور ناسكة فمرحبا بك . اننى قلما أستقبل الغرباء فى دارى، على أن رسائلك راقتنى ، فوددت أن أتعرف الى رجل يعبد الله ويحب الطبيعة ويرنو الى العزلة التى أهواها . فأهلا بك ، تفضل واطرح الكلفة ولنتكلم كصديقين

ــ انك تسرعين يا سيدتى فتمنحين شرف صداقتك لرجل تجهلين اسمه وحياته ، هل فى وسعك أن تعرفى من أنا وماذا أكون ؟

ــ صدقت . فلست أعرف على وجه التحقيق من أنت ، ولا أدرك الدور الذى قمت به فى الحياة التى عشتها بين البشر ، بيد أننى لا أجهل موقفك من الله ، فلا تحسبنى امرأة مجنونة ملتاثة العقل كما يخالنى الناس ، ان هناك علما ولد فى الشرق ، ولا يزال يسرى فى تضاعيف حياة كل مخلوق ، ولكنه مجهول فى الغرب ، وهذا العلم أملكه أنا بنفسى ، فأنا أستطلع الكواكب وأقرأ فى النجوم . وليس من شك فى أن البشر جميعا انما هم أبناء هذه الشهب السماوية التى أشرقت على ولادتنا ، تلك الشهب التى طبعت سطوتها السعيدة أو المختالة فى عيوننا وجباهنا وقسماتنا وخطوط أيدينا وشكل أقدامنا ، بل وفى حركاتنا وسكناتنا أيضا ، هل تروم أن أكشفك لعينى نفسك ، وهل تبغى أن أتنبأ لك عن حظك ؟

ــ كونى مطمئنة يا سيدتى ، فلست أنكر ما أجهل ولا أؤكد أن فى الطبيعة المنظورة وغير المنظورة ، فى الطبيعة التى يرتبط بها كل شىء ، مخلوقات من طبقات سفلى كالانسان لا تتحرك أو تقوم تحت تأثير مخلوقات أسمى مثل الملائكة أو الكواكب ، على أنى وأيم الحق لست فى حاجة اليها لاكتشف كنه نفسى القائمة على الفساد والضعف والشقاء ، أما ما يتعلق بأسرار مستقبلى ، فأرى أن تطلع الانسان فى الكشف عنها انما هو حط من كرامة الخالق الذى يحجبها لسبب خفى عنا ، واننى لا أتكل فى شأن المستقبل الا على الله وعلى الحرية والفضيلة

ـ ليس هناك ثمة فارق ، فاعتقد بمن تشاء ، واتكل على ما تعتقده ان صدقا وان كذبا .
أما أنا فأرى أنك ولدت تحت تأثير ثلاث نجوم سعيدة وقوية معا ، وأرى أن الله وحده هو الذى قادك الى هنا لينير بصيرتك ، فهو فى حاجة الى من على شاكلتك ، ينطوى على الطموح وعلى النية السليمة الخالصة ليستخدمه فى الاعمال الباهرة العجيبة التى سيقوم بها فى سبيل البشر ، هل أنت على اعتقاد من أن ملكوت المسيح قد أتى ؟

ـ ولدت وعمدت مسيحيا

ـ مسيحى ؟ وأنا أيضا مسيحية ، ولكن الذى تسميه المسيح ألم يقل : انى أخاطبكم بالآيات ، ولكن الذى سيجىء بعدى يخاطبكم بالروح والحقيقة

ـ اذن هو هذا الذى تنتظره ، هذا هو المسيح الذى لم يأت بعد والذى ستقع عليه أبصارنا

وفى نهاية الزيارة كشفت ليدى ستانهوب للشاعر عن صلة قرابة ونسب مع أمراء العرب ، ثم تنبأت له أنه سيصل الى قمة المجد فى السياسة والادب

موقفها من البطل ابراهيم باشا

كان لليدى ستانهوب فى موطنها الجديد سلطة تكاد تكون مطلقة ، وأصبح حكمها مطاعا وكلمتها نافذة فى جميع بقاع الشام ، وقد تجلت قوتها وسطوتها عند ما استولى البطل ابراهيم باشا على عكا (١٨٣٣) فقد آوت الى مقرها الكثيرين ممن فروا من المدينة أثناء الحصار ، وكانت أرضها هى البقعة الوحيدة التى لم يكن للفاتح أى سلطان عليها .

وكتب اليها ابراهيم باشا يرجوها أن تقف على الحياد ، ولكن الحياد لم يكن من شيمتها، بل كانت تؤمن بحكمة الانجيل : « من ليس معى فهو على » . فأضحت لذلك من أشد الناس عداوة للفتح المصرى فى بلاد الشام ، وكان لطعنها وخصومتها العنيفة المرة أثر بالغ لان اسمها وصفاتها كانا يزيدان أقوالها قوة على قوتها، ولانها لم تكن تعرف للتراخى معنى أو مبنى

وفى أثناء مقام ابراهيم فى بيروت ، رفع اليه اثنان من الاهالى شكوى جاء فيها :

« اننا أقرضنا السيدة ستانهوب من رعايا بريطانيا ومقيمة بجوار صيدا مبلغ خمسة آلاف وثلاثمائة ريال نقدا على أن ترد هذا المبلغ بموجب صكوك تحت يدنا فى خلال ثلاثة أشهر، وكل ذلك ثابت من ورقة بخطها وتوقيعها تحت يدنا ، ولكن مرت الآن تسع سنوات من غير أن ننال منها سوى الوعود الجوفاء . ولذا فنحن نركع بين يدى سموكم ونلتمس من عدالتكم فحص هذه المسألة والعمل على رد هذا المبلغ الينا . . الخ »

ويعلق القاضى الامريكى بير كرابتس فى كتابه «ابراهيم باشا» على هذا الحادث بقوله :

« لم يكن فى أخلاق محمد على ولا فى أخلاق ابراهيم باشا شىء من الضعة والصغار ، بل كانا من الصنف الذى يسميه الفرنسيون « السادة العظماء » لكن هذا العروض كان

من النوع الذى يلذ للمرابين أن يتقدموا به الى كل حكومة تلى الامر ، يرجون بها أن ينالوا الحظوة لديها »

نهاية بشعة

لم تستطع ليدى ستانهوب أن تفسد خطط البطل ابراهيم باشا ، ولم يمكنها أن تثير وى بعض الشغب والاضطرابات اليسيرة التى قام بها الدروز . وكان اسرافها فى النفقات وما جبلت عليه من التبذير سببا فى أنها أضحت فقيرة ، فصارت أقرب الى الاملاق والعوز بعد أن كانت تحلم بملك الزباء والجاه العريض ، ولما لم تستطع أن تفى بديونها ذات الربا الفاحش ، أوقع أحد المرابين الحجز على كل ما تملكه دون أن يقوى قنصل انجلترا فى بيروت على الأخذ بناصرها ، فاستعانت باللورد بلمر ستون رئيس الحكومة ، وكتبت الى الملكة فيكتوريا كتابا شديد اللهجة أنكرت فيه جنسيتها الانجليزية

وكان مزاجها العصبى وطبيعتها الحادة قد نفرا أتباعها منها ، وحملا أوفاهم عهدا لها على أن يهجرها ، فقد كان يعوزها ترويض النفس ولين العريكة وسهولة الجانب وغيرها من الصفات التى تؤلف قلوب الساسة . أضف الى هذا أن المرض كان قد حل بها وناء بحمله جسمها ، فلم تجد ثمن الدواء ، وكثيرا ما خلت دارها من المؤونة والزاد

وفى الاسبوع الاخير من يونيه عام ١٨٣٨ قضت « نبية الجون » وناسكة الجبل نحبها ، وحيدة منقطعة ، ليس الى جانبها طبيب يعالجها أو صديق يبكى عليها ، واتصل نبأ نعيها بالقنصل البريطانى فى بيروت ، فأقبل هو وجماعته الى مأواها فى الجبل ، وكان الليل قد أرخى سدوله ساعة وصولهم ، وخيم السكون الرهيب فوق مسكنها ، ولم يكن هناك من يستقبلهم ، فتقدم القنصل وأضاء المصباح المدلى من سقف الدهليز الخارجى ، ثم سار يتبعه بقية رفاقه الى حيث كانت طريحة الفراش ، جثة هامدة لا حراك بها ، ثم أدار البصر فى الغرفة ، فألفها خالية من كل متاع أو زينة ، اذ كانت الايدى قد امتدت حتى الى ملابسها ، ولم يبق سوى جلال الموت الذى يعلوها

وكان عمر ليدى ستانهوب وقت أن قضت نحبها ٦٣ عاما ذاقت فى فترة قصيرة منها حلاوة العيش ، وقضت معظمها فى حلم من العظمة والمجد ومعترك من الاوهام والهواجس ولجة من الشقاء والعوز . وظل ضريحها ومسكنها مهجورا ، الى أن عنى به منذ سنوات قلائل الاب كليمنصوص بردويل أحد كهنة دير المخلص ، فرتبه وجعل منه مقاما أثريا

وهكذا كانت نهاية تلك الشخصية الفذة التى توافرت لها جميع عناصر العظمة ، لولا أنها أخطأت الهدف لاعتدادها بنفسها ، بيد أن ذكرى ليدى هستر لوسى ستانهوب ستظل ماثلة حية فى أذهان الجوابين الذين يرحلون الى الشرق ، لما اتصفت به من الشجاعة والاقدام فى كافة مراحل حياتها

محمد امين حسونة

كيف تساهم الموسيقى العربية
فى الموسيقى العالمية

بقلم الدكتور يوسف فايل

الموسيقى العربية جمالها وحضارتها . وهى فى أزهى عصورها ببغداد والأندلس قد استفادت من موسيقى الأمم الأخرى . ويحاولون فى هذه الأيام احياءها بالاستفادة من التجديدات الفنية فى الموسيقى العالمية وصاحب هذه المحاولة هو الكاتب الفاضل الذى يعالج الفكرة فى مقاله هذا ، الذى نطرحه للبحث

ربما تبادر الى ذهن بعض حضرات القراء أول وهلة : « وما شأن الفن المحلى بالثقافة العالمية ! » وهو اعتراض لا يلبث أن يتخاذل فى ضوء أساليب المعرفة الحديثة . اذ قد خلصنا بحمد الله الى تسجيل أنه كلما ارتقت مدارك البشر اشتدت لديهم الرغبة الصادقة فى التعاون الثقافى وتبادل المعرفة فيما بينهم . ولا أدل على ذلك من اكثار الدول المتحضرة من اقامة المؤتمرات الدولية لبحث مختلف شؤون العلوم والفنون . وان صح أن لكل عصر من العصور التاريخية طابعا يمتاز به عن غيره ، فان عصرنا الذى نعيش فيه يمتاز ولا ريب بطابع « التعاون الدولى » ، الى حد دعا كبير فلاسفة الانجليز فى العصر الحاضر وبلغ الى تسمية الكرة الارضية : « بقريتنا الكبرى » ايماء منه الى شدة الترابط بين أجزائها المختلفة والقومية ولا شك رابطة محمودة ، ولكنها قمينة بذلك الحمد فقط ، طالما لم يتعارض نشاطها مع المنفعة البشرية العامة

ويخيل الى أن صحة تغليب المنفعة البشرية العامة على المنفعة المحلية المحدودة ، راجع الى أن القوة البارئة فى الكون قضت بما يصح أن يطلق عليه : « تقسيم العمل الدولى » بأن خصت كل أمة أو مجموعة من الأمم بمزايا واستعدادات ــ سواء فيها المادية أو الذهنية ــ لا تتوفر للأمم الأخرى وهكذا .. بقصد استكمال المنفعة عن طريق تبادل هذه المزايا بين الأمم كافة تمهيدا لترابط عالمى شامل ، ونبذا لكل استئثار بالخير مصداقا لقول شاعرنا العربى أبى العلاء المعرى :

ولو أنى حبيت الخلد فردا ‌ ‌ ‌ لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هبطت على ولا بأرضى ‌ ‌ ‌ سحائب ليس تنتظم البلادا

ومن هنا يتضح أن النزوع الطبيعى السليم يرمى الى الترابط والتعاون ، وليس الى العزلة والخروج على الاجماع الصحيح فى أى شأن من شؤون الحياة البشرية فى مراتبها العليا ، وبخاصة فى العلوم والفنون

وتحضرني بهذه المناسبة الملاحظات الفنية القيمة التى سبق أن أدلى بها مندوب جامعة فينا فى مؤتمر الموسيقى الشرقية الذى عقد فى مصر فى عام ١٩٣٢ فى التقرير الفنى الذى وضعه بمناسبة اشتراكه فى ذلك المؤتمر حيث جاء به :

« ان لكل فن من الفنون البشرية كيانا واحدا لا يتعدد بتعدد الامكنة ، وعلى ذلك فان الفوارق بين مظاهر الفن الواحد فى الامكنة المختلفة لا تتناول أصول ذلك الفن ، وانما تتناول فقط طابعه المحلى . وبهذا فان الفرق بين الموسيقى العالمية ـ أو الغربية مجازا ـ والموسيقى الشرقية ليس فرقا جوهريا يتناول الاصول ، ولكنه فرق تدريجى لا غير ، يرجع الى تفاوت المستوى فى دراسة ذلك الفن

اذ ليست الموسيقى « الشرقية » فنا قائما بذاته ـ كما يريد أن يصورها بعض أنصارها المتطرفين ـ ولكنها درجة بدائية من الموسيقى العالمية مرت بها جميع الدول المتحضرة الاخرى أثناء تطورها الاول

فالموسيقى بمعناها العام اذن ليست فنا محليا يتعدد بتعدد المناطق والاوطان ، ولكنها فن عالمى موحد ينتظم جميع دول العالم المتحضر ، شأنه فى ذلك شأن جميع الفنون العالمية الاخرى كالهندسة والتصوير وما اليهما . فهو فن لا وطن له يشمل ثروة ذهنية طائلة اشترك فى تكوينها عباقرة الفنيين من مختلف الاجناس البشرية على التعميم

وقد أثبتت التجربة العملية أنه برغم وحدة دراسة أصول ذلك الفن ، فانه لا خوف مطلقا من ضياع الطابع المحلى القومى . اذ أنه برغم وجود هذه الوحدة فى تدريس الاصول فى اسبانيا ، روسيا ، المجر ، ايطاليا مثلا ـ فان لكل دولة من هذه الدول طابعا موسيقيا خاصا بها ـ تستطيع الاذن الموسيقية دون كبير عناء تمييزه من بين الالوان الموسيقية الاخرى

ومع ذلك فأين هى هذه الموسيقى المصرية الحقة التى نخشى ضياعها ؟ اذ يعلم كل مشتغل بالموسيقى « المصرية » ، أن جميع أوضاعها ومصطلحاتها ومسمياتها أجنبية محضة ودخيلة على مصر والمصريين . فالبشرف والبياتى والدوكاه والسيكاه والحجازكار والنهاوند وما الى ذلك من المصطلحات والمسميات الموسيقية فى مصر أجنبى روحا ودما عن مصر والمصريين . فهو اما من أصل فارسى أو تركى أو غير ذلك من المصادر التى لا تمت الى المصرية الصميمة بصلة ما

وحيث قد سلمنا مبدأ قبول الفن الموسيقى من مصادر أجنبية لا تعتبر اليوم بحق نبراسا فى ذلك المضمار من جهة ـ وبعد أن انتفى الخوف من ضياع الطابع المحلى القومى بالشواهد التى أوضحناها من جهة أخرى ـ فلا معنى اذن لاقامة العقبات فى سبيل قبول فن عالمى جليل ، تواضع العالم المتحضر على شرف الانتماء اليه

فنحن اذن بين أحد أمرين : اما أن نصر على الاحتفاظ بزهو مركزنا الحالى فى حدود الموسيقى المصرية المزعومة ونظل نتخبط بذلك فى دركنا الفنى ، واما أن يكون لنا من

الشجاعة الادبية قسط وافر يمكننا من مواجهة الحقيقة السافرة ، ويحملنا على الانتماء الى جامعة الموسيقى العالمية كأمة صريحة تريد أن تكون لها مكانتها الحقة بين الأمم المتحضرة

ولا حاجة بى الى التنويه بأن تركيا مثلا ـ التى تدين الموسيقى « المصرية » الحالية لموسيقاها بكيانها الى حد كبير ـ قد قطعت شوطا بعيدا فى مضمار تدريس الموسيقى فى معاهدها على أسس الموسيقى العالمية ، وكذا اليابان وغيرها من الدول العريقة فى الحضارة

وبذا فقد أجمعت دول العالم المتحضر غربية كانت أو شرقية، على اعتبار الموسيقى العالمية فنا موحدا تربط أصوله بينها جميعا دون تفرقة أو تمييز

ومما يلفت النظر فى تاريخنا الحديث أن اهتمام أولى الامر بتقدير الموسيقى العالمية فى مصر ، كان أشد فى منتصف القرن التاسع عشر منه الآن

فقد بلغ من اهتمام المصلح الكبير الخديو اسماعيل بهذه الناحية أن عهد الى كبير من نوابغ الموسيقى فى عصره « فيردى » بتلحين أوبرا جديدة يفتتح بها دار الاوبرا المصرية. وما كادت تظهر هذه الاوبرا وهى « عايدة » ، حتى تهافتت جميع دور الاوبرا فى العالم أجمع على عرضها فى دورها ، واستهوت جميع أنصار فن الموسيقى العالمية بجمال موسيقاها، فأى رابطة دولية جليلة اذن هى هذه الموسيقى العالمية !

وكان انشاء دار الأوبرا المصرية استجابة لرغبة ملحة فى نفس الخديو اسماعيل ، أراد بها مجاراة الحضارة العالمية فى كل ما هو صالح ومفيد ، على اعتبار أن الموسيقى فى مراتبها العليا عنوان من عناوين الحضارة البشرية على التعميم ، لا ينفرد بها شعب دون آخر

ولكن دار الاوبرا المصرية انفردت بعد ذلك بمكانة شاذة فريدة الوضع والتكوين بين دور الاوبرا فى العالم أجمع

اذ بينما نجد دار الاوبرا المصرية كاملة الاستعداد المسرحى ينفق عليها من خزينة الدولة آلاف من الجنيهات فى كل عام ، نجد فى نفس الوقت أنه ليس هناك عازفون ولا مغنون مصريون يستطيعون أداء المهمة الفنية التى أنشئت هذه الدار من أجلها . فتضطر الحكومة المصرية ازاء هذه الحال الغريبة الى استحضار فرق موسيقية أجنبية لتقدم بعض مسرحيات غنائية فى كل عام ، وتغدق عليها من المكافآت الجزيلة ما يتسع جزء منه فقط لاعداد فريق كبير من ذوى الاستعداد الموسيقى من المصريين ، لدراسة فن الموسيقى على أصوله الدولية فى معهد يعد لذلك ، تمكينا للمصريين من الاضطلاع بالمهمة التى يتطلب الفنانون الاجانب لادائها ، وتوفر على خزينة الدولة بذلك مبالغ لا يستهان بها . وذلك فضلا عن الاحتفاظ بالعزة القومية التى تقضى على كل ذى كرامة أن يقوم بمهامه بنفسه ، لا أن يستعين على أدائها ـ بشكل مستمر ـ بغير أهل البلاد ، ويسجل على نفسه وصمة الخروج على جامعة الحضارة العالمية بدل شرف الانتماء اليها بمجهوداته الشخصية

ولا يعوق تحقيق هذه الغاية خلو السلم الموسيقى الدولى من « ربع المقام » ، اذ لا ضير فى اضافة ذلك « الربع » الى السلم الموسيقى الدولى استدراكا لبعض النغمات الشرقية

التى لا تتم بغير هذه الاضافة . وقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة أنها « اضافة » ميسورة التحقيق . ويستطاع بذلك الحصول على موسيقى مصرية الطابع دولية التأليف ، يستمع اليها فى كل مكان من أنحاء العالم المتحضر بنفس الرغبة والاقبال التى يستمع بها الفرنسى مثلا للموسيقى المجرية والانجليزى للموسيقى الاسبانية وهكذا ..

هذا الى جانب اشراك المصريين أنفسهم على التدريج فى الاستمتاع الروحى بمنتجات عباقرة الموسيقى العالميين، اذ يكاد يكون من الظلم الفادح أن يحرم المصريون المتعة النفسية بهذه الثروة الفنية الرائعة ، بدعوى أن آذانهم تعاف الاستماع اليها !

ويتحقق لمصر بذلك أن تساهم ايجابا وسلبا فى الموسيقى العالمية : فايجابا عن طريق انشاء موسيقى مصرية الطابع دولية التأليف يستسيغها أنصار فن الموسيقى فى جميع بلاد العالم المتحضر ، وتكون خير دعاية لمصر فى هذه الاوساط الفنية العليا ، فضلا عن انخراط مصر بذلك فى سلك جامعة الحضارة العالمية من الناحية الفنية أيضا

وأما المساهمة السلبية فتكون عن طريق اتاحة الفرصة الحسنة للمصريين ، للاستمتاع الروحى بالثروة الموسيقية العالمية ، وما يرتبط بذلك من مزايا معنوية جليلة لمصر والمصريين ، والله ولى التوفيق

دكتور يوسف فايل

عظماء يؤمنون بالخرافات

■ كان نابليون يقشعر كلما رأى هرة سوداء ويعتقد انه نذير بسوء الطالع

■ كان جان جاك روسو يتصور أن شبحا يسير دائما الى جواره ، وكثيرا ما كان يتحدث وهو سائر بمفرده متوهما أن هذا الشبح يستمع الى ما يقول

■ كان الشاعر الانجليزى وليم بليك يزعم أنه شقيق سقراط ، وأنه رأى المسيح وتحدث معه فى كثير من الشؤون

■ كان الكاتب الانجليزى الكبير « الدكتور جونسون » يلمس كل ما يمر به من أبواب وأعمدة فى اثناء سيره بلندن ، وكان اذا نسى بابا أو عمودا عاد اليه ولمسه بيده ، خشية أن يلحقه من جراء ذلك حظ سيء

■ ظل سيسيل رودس يلبس بذلته القديمة عهدا طويلا لانه كان يتشاءم من اتخاذ الملابس الجديدة

قائد الصين وزعيمها

للكاتب الصحفي المشهور « جون جنتر »

قائد الصين وزعيمها ، تشيانج كى تشك ، عقدة نفسية محيرة : فهو أكثر الناس أخذا بالشدة القاسية والصرامة الرادعة ، وهو من أكثر الناس صفحا عن عدوه وغفرانا لغريمه! وهو الذى وحد الصين وجعل من شعبها يدا واحدة تضرب عدوها ضربة واحدة ، وهو مع ذلك قد أمضى عشر سنوات يخوض غمار حروب أهلية هلك فيها آلاف وآلاف من أبناء وطنه ! وهو زعيم شعبى من الطراز الاول ، من طراز ستالين وهتلر ، ولكنه فى الوقت ذاته سياسى من الطراز الاخير ، فكثيرا ما يضل طريقه السوى وكثيرا ما يخطىء هدفه المنشود !

▭

ضئيل الجسم قصير القوام ، ولكن عينيه تضفيان عليه قوة عاتية مرهوبة . هما عينان حالكتا السواد ، غائرتا العمق ، شديدتا النفاذ ، لا تستقران أبدا فى أى نحو من الأنحاء. وتلقاه أول ما تلقاه ، فيبدو لك منه وجه جاف لا ينبىء عن شىء من الحيوية والذكاء ، وتسمع منه حديثا جافا لا تلمس فيه شيئا من الزكانة والبراعة ، حتى اذا أبرقت عيناه وأومضتا ، أحسست بهذا الوجه يفيض ذكاء وتألقا ، ورأيت هذا الحديث يحفل قوة وعمقا

وهو رجل متقشف ومتصوف . فلا يشرب خمرا ، ولا يدخن ، بل انه لا يشرب القهوة والشاى

وهو منظم فى حياته ، يستيقظ فى كل يوم مبكرا ، عند ما يبزغ الفجر دائما . وينكب على عمله مجدا جاهدا طول النهار وطرفا من الليل . ويدون قبل انصرافه الى مخدعه حوادث يومه فى مذكرته

وهو سعيد فى حياته العائلية . وزوجه شريكه الحبيب الى قلبه وعقله معا . وهو من الزعماء القلائل الذين لا تستطيع أن تفكر فيهم دون أن تفكر فى زوجاتهم كذلك . وهذه ناحية من نواحى التشابه بينه وبين روزفلت الذى تقوم زوجه الى جانبه مقام المشارك فى أعماله ومناهجه ومشروعاته

وللقائد الصينى صديق آخر يلازمه دائما . هو الصحفى الاسترالى و . هـ . دونالد ، الذى اتخذه منذ سنين مستشاره غير الرسمى

وليس لتشيانج من هواية سوى القراءة . وأكثر ما يقرأه من الادب الصينى القديم

الحافل بالحكمة العميقة . وهو يكاد يستوعب كونفوشيوس عن ظهر قلب . وأحب فقرة من كلامه اليه تلك التى يقول فيها :

« كى يحكم المرء وطنه يجب أن يحكم أولا أسرته
« وكى يحكم المرء أسرته يجب أن يحكم المرء أولا بدنه » بالرياضة الخلقية
« وكى يحكم المرء بدنه يجب أن يحكم المرء أولا عقله » بالتهذيب والتدريب
« وكى يحكم المرء عقله يجب أن يكون المرء مخلصا صادقا فى اغراضه ونواياه » وسبيل المرء الى هذا كله أن يستزيد من المعرفة والحكمة كل ما يستطيع »

□

ولد تشيانج كى تشك فى قرية من قرى الصين فى سنة ١٨٨٧ ، وفى سن العشرين التحق بالكلية الحربية فى طوكيو عاصمة اليابان ، ثم خدم بعد ذلك فى الجيش اليابانى عدة سنين

وفى أرض اليابان ذاتها بدأ حياته الوطنية الحافلة بأروع ألوان الجهاد والكفاح ضد اليابان . وكان ذلك فى سنة ١٩٠٩ حين قابل الزعيم الصينى الأكبر « صن يات صن » الذى أبعدته الحكومة الملكية عن بلاده فآوى الى اليابان . وتعاهد الرجلان على الكفاح فى سبيل حرية شعبهما الذى تكاتفت عليه قوى الرجعية من الداخل وقوى الاستعمار من الخارج . فلما قامت الثورة الكبرى فى سنة ١٩١١ كان تشيانج دعامة من الدعائم التى يرتكز عليها زعيم الثورة صن يات صن . وظل فى غمرة الحياة السياسية حتى سنة ١٩١٧ ثم تبين أن النجاح فى السياسة يتطلب ثروة موفورة ، لتأليف الاعوان وبث الدعايات ، فقرر أن يهجر السياسة ريثما يجمع ما يلزمه من المال ، ودخل سوق المضاربات المالية فى شنغهاى

ثم عاد الى السياسة والحرب ثانية فى سنة ١٩٢١ ، فعينه صن يات صن رئيسا للجنة المركزية للحزب الوطنى الذى كان محور الحياة السياسية فى الجمهورية الصينية الناشئة

ولما مات صن يات صن فى سنة ١٩٢٥ خلفه تشيانج كى تشك فى رئاسة الجمهورية ، كما غدا القائد العام للجيش الصينى الوطنى . وقد قام منذ ذلك بعدة حملات حربية على العناصر الثائرة الناشزة فى الصين ، كى يوحد هذا الشعب الذى مزقته الأهواء والمطامع ، فاستطاع أن يحقق غرضه وأن يجعل من الصينيين أمة متحدة الكلمة قوية الارادة

□

والصفة البارزة فى تشيانج كى تشك ، الصفة التى تكشف عن شخصيته العجيبة وتبين عن أخلاقه الخاصة ، هى صفة العناد والاصرار . فهذا الرجل الرقيق الحاشية الدمث الاخلاق ، من أشد الناس استمساكا بكلمته واصرارا على رأيه وتشبثا بما يريد . فهو ليس « سياسيا » يتحايل تحقيقا لغرضه ويراوغ فى سعيه الى غايته . بل يسلك الطريق

السوى مهما تعاظمه فيه الصعاب ، ويضرب الضربة المباشرة وهى الضربة التى قد تقصم ظهر العدو وقد تودى بقبضة الضارب

وهو ينكر سياسة الثأر والانتقام . فانه لما ظهر على خصومه من قواد الصين وزعمائها أبى أن يبسط اليهم يده بالانتقام رغم ما نشب بينه وبينهم من حروب طويلة ومعارك دامية ، واكتفى بأن نفاهم من الصين الى حيث ، يستعيدون صحتهم ، ودفع لهم مرتبات تكفل لهم الحياة الرضية الطيبة . وقد استطاع بهذه الخلال الجميلة أن يجعل من كثير من أعدائه الألداء ، أولياء أوفياء ، يقفون الى جانبه موقف الصديق الصادق والتابع الامين

ومن أبرز مزاياه جميل صبره وطويل أناته ، الى حد يحمل الناس على أن يظنوا به الضعف والاستكانة . فلقد ظل خمس سنوات صابرا على عدوان اليابان صبرا يخيل الى المرء أنه آثر الخضوع على المقاومة . فنزل من أرض الصين لغريمتها اليابان عن منشوريا ، وعن جيهول ، ورأى منغوليا الداخلية تضيع اقليما فى اثر اقليم ، دون أن يبدى مقاومة ما ، بل دون أن يقول كلمة فى استنكار عدوان اليابان ، بل كان ينزل العقاب بالصينيين الذين يهمون بمقاومة اليابانيين أو التنديد بها ! وقد أدت هذه السياسة الى أن هجره كثير من رجاله وضباطه ، وقامت فى الصين حروب أهلية طويلة ، بين تشيانج كى تشك الذى آثر السكوت عن عدوان اليابان ، وبين الجماعات الوطنية المتطرفة التى رأت أن تكافح اليابان منذ البداية . ومع ذلك ظل تشيانج صابرا ساكتا ، حتى كانت سنة ١٩٣٧ فنزل الى معمعة القتال بكل قواه يكافح اليابان ويردها عما اغتصبته من أرض الصين . وعرف حينذاك أنه كان منذ سنة ١٩٣٠ يتأهب لهذه الحرب ، فى الوقت الذى كان يبدو فيه لمن لا يدرى أنه يبيع الصين لليابان . ولكن الواقع أنه كان يعتقد أن أية مقاومة صينية حينذاك مقضى عليها بالاخفاق والهزيمة ، وأن واجب الصين ان تصبر ريثما تتأهب وتعتد من ناحية ، وريثما يتنبه الرأى العام العالمى لعدوان اليابان من ناحية أخرى ، وحينذاك تنزل الصين الى ساحة الحرب وبجانبها قوات الدول الاخرى التى تقدر على صد اليابان

□

ويبلغ مرتب الجنراليزمو ، وهو لقب تشيانج كى تشك العسكرى ، ألف دولار فى الشهر . والظاهر أن ثروته الخاصة ليست كبيرة وان كان قد جمع مالا جما اثناء اشتغاله بالتجارة فى مدينة شنغهاى

أما الأسرة التى صاهرها ، أسرة سونج ، فهى من أغنى الأسرات الصينية ، بل هى من أشهر مراكز القوة والسلطة فى العالم . فانها تضم ، فضلا عن بناتها الثلاث المشهورات ، نفرا من أقوى رجال الصين ، منهم الدكتور كنج رئيس وزارة الصين ، ومنهم ت. ف. سونج أقدر الماليين فى تلك البلاد

أما البنات الثلاث فكبراهن هى زوجة الدكتور كنج ، وتليها أرملة الزعيم الكبير صن

يات صن ، والثالثة ، ماى لنج ، زوجة تشيانج كى تشك

وقد نشأ ثلاثتهن نشأة دينية طاهرة ، فتلقين دراستهن الاولى فى مدارس الراهبات التى انشأتها جماعات المبشرين فى الصين ، ثم اكملن تعليمهن فى الولايات المتحدة . وقد اتصلن منذ نشأتهن بالحركة الوطنية الكبرى ، اذ كان والدهن صديقا حميما لزعيم الحركة صن يات صن

ومدام تشيانج أصغرهن سنا ولكنها أكبرهن عقلا وأذكاهن ذهنا . وهى الشخصية الثانية فى الصين من حيث شهرتها وصيتها . ومن حيث قوتها ونفوذها . ومع أن زوجها رجل شديد الاعتداد بنفسه والاعتماد على رأيه ، الا أنها تقوم منه مقام الناصح المشير ، ثم انه شريك لا غنى له عنه ، لمعرفتها الوثيقة بالهيئات الاجنبية فى الصين وبالرأى العام الاجنبى . ثم هى تقوم بمهمة الترجمة لزوجها الذى لا يعرف من اللغات الاجنبية سوى اللغة اليابانية

وهى تعرف فى الصين بلقب « السيدة » فحسب . ولعلهم يذكرون لقبها دون اسمها تجلة واكبارا . وهى على جانب كبير من الوسامة ، وعلى قسط عظيم من الاناقة . وحديثها عذب رقيق ، صقلته الثقافة الواسعة والدراسة المتشعبة . أما اخلاصها الجرىء الشجاع لوطنها ولزوجها فوق كل حديث ، فانه فى سبيلهما لا يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار . وهى تشبه فى هذا الوجه مسز روزفلت ، فكلتاهما خصصتا جهدهما ووقتهما لوطنيهما ورجليهما

فكثيرا ما كانت مدام تشيانج كى تشك ترى فى المكان الذى تنزل به غارة جوية من غارات الطائرات اليابانية ، وهى فى ملابس بيتها ، اذ تخف اليه سراعا لتعاون فى انقاذ الجرحى واخراج المطمورين . وقد كان لها أثر كبير فى اقامة مئات من قرى المهاجرين فى أرجاء ريف الصين ليأوى اليها أبناء المناطق التى وقعت فى قبضة اليابان . كما كان لها فضل مشهود فى نشر التعليم فى الصين ، وقد ابتكرت لغة صينية مبسطة يسهل على الصغار والأميين تعلمها على نقيض اللغة القديمة المؤلفة من مئات الاحرف ، المعقدة بقواعدها ونحوها المتيق . وهى التى أنشأت فى الصين « حركة الحياة الجديدة » التى تنتظم مئات الالوف من أبناء الصين وبناتها ، بقصد رفع مستوى الحياة الاجتماعية فى الشعب الصينى

وقد تزوج تشيانج من ماى لنج قبل أن يعتنق المسيحية ، فعارض أهلها فى هذا الزواج فترة طويلة لاختلاف دينه عن دينهم . ولما طلبوا اليه أن يتنصر رفض ، لانه لا يليق بالرجل أن يغير دينه لمجرد الظفر بزوجة يؤثرها . ولكنه وعد بأن يدرس المسيحية ، بعد أن يتم الزواج ، فان اقتنع بصحتها أقبل على اعتناقها . وأعجبوا بهذا الخلق القويم ، وقبلوا مصاهرته ، وكان ذلك فى اليوم الاول من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٧ ، وقد أعلن فى ذلك اليوم : « ان الثورة تدخل اليوم فى مرحلة جديدة ، مرحلة موفقة مظفرة ، لانى

منذ هذه الساعة أحمل أعباءها الثقال وأتولى مسئوليتها الجسيمة ، بقلب ملء بالبهجة والسلام » . ثم لم يلبث ان اعتنق المسيحية

□

لقد مضى على تشيانج كى تشك أكثر من ثلاثين سنة وهو فى حرب متصلة الحلقات دائرة الرحى فى سبيل الصين : وقد شن بعضها على أعداء الصين الداخليين الذين أرادوا أن يبقوا عليها مفككة الاوصال ، وشن بعضها على أعداء الصين الخارجيين الذين أرادوا أن يجعلوها مستعمرة يستبدون بأمرها ويستأثرون بخيرها

ووطنيته « دين » له طقوس ومراسيم . من ذلك أنه فى صباح يوم الاثنين من كل اسبوع يجتمع فى دار الحكومة — أينما تكون هذه الدار التى تنتقل من اقليم الى اقليم كلما وضعت اليابان يدها على جزء من الصين — زهاء ستمائة فرد من كبار رجال الحكومة. ثم تعزف الموسيقى نشيدا عسكريا يصغون اليه فى انتباه واهتمام . وبعد ذلك ينحنون ثلاث مرات أمام صورة كبيرة لزعيم الحركة الوطنية صن يات صن . ثم يقف تشيانج كى تشك فيتلو عليهم وصية الزعيم ، ويتلوها جملة جملة وهم يرددونها من ورائه معا . فكأنها صلاة يتعبدون بها كما يتعبد الناس بتلاوة آيات الكتب المقدسة . ثم يقف صامتا ثلاث دقائق ، وكأنها فترة التأمل والخشوع . وبعدها يلقى على الجمع محاضرة يشرح فيها الحركة الوطنية وفلسفتها وأغراضها ، ويحث فيها رجاله على المثابرة على البذل والتضحية . ويظل الجميع طوال هذا الحفل وقوفا صامتين خاشعين ، فهم فى محراب الوطنية التى يحفل بها اليوم قلب كل صينى وكل صينية

(من كتاب جون جنتر « فى داخل آسيا »)

وقف معاوية بن مروان على باب طحان ، فرأى حمارا يدور بالرحى ، وفى عنقه جلجل ، فقال للطحان : لم جعلت الجلجل فى عنق الحمار ؟

قال : ربما ادركتنى سآمة أو نعاس ، فاذا لم اسمع صوت الجلجل علمت أن الحمار واقف ، فصحت به فانبعث للمشى

فقال معاوية : أفرأيت ان وقف وحرك رأسه بالجلجل وصنع هكذا وهكذا . وأخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة

فقال الطحان : ومن لى بحمار يكون عقله مثل عقل الامير ؟

حليفة الذباب والصيف : حمى التيفود

للدكتور مصطفى الديواني

الاخصائى فى أمراض الأطفال بكلية الطب

يرجع بنا تاريخ الطب القهقرى الى أيام « ابقراط » فيقول الرواة انه وصف فى مذكراته مرضا تنطبق أعراضه على الحمى التيفودية ، لانه ذكر بين علاماته الحرارة المرتفعة المستمرة والاسهال والطفح الجلدى الوردى المحجب وألم البطن وفقد الوزن والشهية ونزف الانف والهذيان عند اشتداد الحمى . وعاصرت جرثومة هذا المرض أبناء آدم على مر الاجيال تضايق هذا وتعصف بحياة ذاك . ولم يعن أحد رغم ذلك باقتفاء أثرها ، بل اعتبرها الجميع من فصيلة التيفوس حتى عام ١٨٢٩ ، اذ أطلق عليها الطبيب الفرنسى « لويز » اسم التيفود لاول مرة ، ولكنه لم يحاول أن يفرق بينها وبين حمى التيفوس من الوجهة المرضية . والفضل فى التمييز بين المرضين يرجع الى « جرهارد » فى فيلادلفيا عام ١٨٣٦ ، ثم « ستيوارت » بجلاسجو عام ١٨٤٠ ، وأخيرا الى « سير وليم جنر » الطبيب الانجليزى الشهير الذى كشف لقاح الجدرى ، فقد أجرى هذا الاخير بحوثا فى الفترة ما بين عامى ١٨٤٩ ، ١٨٥١ ، وأثبت أن المرضين لا يمتان لبعضهما بأية صلة ، فكانت كلمته هى الفاصلة . وكان « ايبرث » أول من كشف جرثومة المرض فى عام ١٨٨٠ . وفى عام ١٨٩٦ وصف « فيدال » طريقته الخاصة لتشخيص المرض ، وهى المعروفة باسمه حتى الآن ، ولو أن طبيبين من فينا وهما « جروبر ودرهام » وصفاها قبله بثلاثة أشهر ، ولكن شاء التاريخ أن يلمع اسم ويخبو آخران

وهكذا شغلت هذه الحمى أذهان الباحثين حتى توصلوا الى اكتشاف جرثومتها وطريق العدوى بها . فعرفنا بفضلهم أنها تظهر فى براز المريض وأحيانا بوله ، وأن تلوث الاطعمة بها من أهم عوامل انتشار المرض . والمعلوم أن جرثومة المرض تنتقل بوساطة اللبن ومركباته ، والجيلاتى بأنواعها ، والخضروات النيئة كالتى تستعمل فى تحضير السلاطة مثل الخيار والجرجير والخس والطماطم ، والحيوانات الصدفية مثل أم الخلول والجنبرى والجندوفلى . وقد تأتى العدوى أيضا عن طريق حامل الجراثيم ، وهو الذى توجد الجرثومة بجسمه دون أن تظهر عليه علامات المرض . وأشد حاملى الجراثيم خطرا هم الخباز والطاهى وبائع اللبن . ويجب أن تشك فى وجود حامل الجرثومة بين أصحاب هذه المهن فى الاوبئة التى يصاب فيها أفراد عديدون فى شقة واحدة أو عمارة واحدة أو شارع واحد

وقد تصيب حمى التيفود الطفل فى جميع مراحل حياته . فقد يولد وهو مصاب بها اذا مرضت الأم فى الايام الاخيرة من الحمل ، ولو أن الغالب فى مثل هذه الحالات أن يولد الجنين ميتا

وفى السنتين الاولين من العمر تظهر هذه الحمى فى صورة قد تضلل الطبيب المعالج وأهل المريض سواء بسواء . فهى تأتى أحيانا على شكل دوسنطاريا حادة أو نزلة معوية مصحوبة باسهال شديد وحرارة مرتفعة قد تتأرجح اثناء النهار ، ويكون ارتفاعها فى بداية المرض فجائيا ، بعكس الحال فى البالغين حيث يتدرج ارتفاع الحرارة خلال بضعة الايام الاولى حتى يصل الى مستواه العالى . وتكون مدة المرض عادة أقصر منها فى الكبار ، اذ أنها قلما تزيد على الاسبوعين . وبالنسبة لظاهرة الاسهال قد تتعرض حياة الطفل لخطر أكبر نتيجة فقد سوائل الجسم وأملاحه فى البراز المتكرر الذى اذا لم يتدارك يصاب الجسم بظاهرة الجفاف ، وهى أقصى ما يخشاه الطبيب

أما بين سن الثانية والعاشرة فعاقبة الاصابة بحمى التيفود أكثر أمانا منها فى أية سن أخرى ، ولا تزيد الوفيات عن ٢-٤ ./. طالما تمتع الطفل بعناية كافية فى التمريض والعلاج . ولا يختلف المرض فى سيره عنه فى الكبار ، فترتفع الحرارة تدريجيا الى أن تصل فى بضعة أيام الى أربعين درجة أو أكثر ، ثم تنزل بالتدريج الى المستوى الطبيعى فى نهاية الاسبوع الثالث . وقد تطول المدة الى خمسة أو ستة أسابيع ، وقد تقصر الى اسبوعين ، وفى حالات نادرة الى أسبوع واحد . وليست هناك علاقة ثابتة بين اصابة الامعاء وعدد مرات التبرز ، فقد يكون البراز عاديا فى لونه وعدد مراته ، أو قد يكون الامساك شديدا فى بعض الحالات ، والاسهال غالبا فى حالات أخرى . وان حدوث الاسهال مع انتفاخ البطن يقلق بال الطبيب ، لانه يعرض الطفل الى حدوث مضاعفات موضعية خطيرة . وكثيرا ما يكون الانتفاخ ناتجا عن الاكثار من تعاطى المواد النشوية والسكرية ، فاذا أقللنا منها هبط بروز البطن تدريجيا . وقد جرت عادة الكثيرين أن يضعوا مكمدة من زيت التربنتينا على بطن الطفل لتساعد على خروج الغازات ، وأود لو تجنبوا هذا لان جلد الطفل الرقيق لا يتحمل ما تحدثه التربنتينا من تهيج موضعى شديد . والافضل من هذا احضار قطعة من القطن المعقم ورشها بالكحول النقى ، ثم وضعها على البطن بحيث تغطيها تماما

وتحدث النكسات فى ١٠ ./. من الحالات ، ويكون سببها اما مغادرة الفراش قبل الميعاد القانونى (وهو اسبوعان بعد زوال الحرارة والاعراض) أو حدوث صدمة نفسية أو هياج عصبى شديد ، أو الاندفاع فى تناول المأكولات قبل الاوان

وحمى التيفود شديدة العدوى ، لذا يجب عزل المريض حتى يتم شفاؤه ، وحتى يثبت الفحص البكتريولوجى للبراز والبول ثلاث مرات متوالية بينها على الاقل يومان — عدم وجود جرثومة المرض فى افرازات الطفل . وفى أثناء المرض يجب تطهير البول والبراز ،

فيضاف الى محتويات القصرية حامض فنيك أو ليزول ، وتترك وهى مغطاة لمدة نصف ساعة قبل تفريغ محتوياتها فى المرحاض . كما يجب أن تخصص للمريض أدوات للاكل والشرب لا يستعملها غيره

ويا حبذا لو أبطلت عادة تقديم المرطبات والقهوة للزائرين فى منزل به اصابة بحمى التيفود . وكثيرا ما وجدت نفسى محرجا عند ما أذهب لاعود مريضا بهذه الحمى ، فاسمع بأذنى الخادمة التى تقوم بخدمة الطفل والسهر عليه وتمريضه تؤمر بتحضير كوبة عصير الليمون التقليدية أو فنجان القهوة العتيد ، فتندفع من غرفة المريض الملوثة الى غرفة المطبخ ملبية طائعة . واضطر انا غالبا أن ألجأ الى قليل من الصراحة فى الرفض فى سبيل السلامة الشخصية . فيا حبذا لو تناسى أهل المريض غريزة اكرام الضيف فى مثل هذه الظروف .

أما الذباب — وهو الحليف الاكبر لحمى التيفود — فتجب مكافحته بشتى الوسائل ومنع دخوله غرفة المريض بوضع شباك على النوافذ ، واستعمال السوائل المضادة للذباب مثل « الفليت » وغيره

وقد حلقت غمامة من الشك حول مفعول الطعم الواقى « الفاكسين » فى وقاية الاطفال من حمى التيفود . ولكنى أعبر عن خلاصة آراء أوثق المصادر العلمية عند ما أؤكد أهميته كواق ، ويجب اللجوء اليه كلما تعرض الطفل للعدوى ، ويحسن أن تحقن الاطفال به فى بداية الصيف من كل عام . ويمكن استعماله ابتداء من السنة الثانية من عمر الطفل . فيبدأ بحقن ١/١٠ أو ١/٥ أو ١/٤ سم ٣ حسب سن الطفل ، ويزاد المقدار الى الضعف فى الحقنة الثانية أى بعد اسبوع . وفى الغالب لا يشعر الطفل الا بوعكة خفيفة نتيجة حقنه بالطعم ، وهى لا تقارن بالتفاعل الشديد الذى يحدث فى الكبار

والشىء الاخيرة الذى أريد أن أحدث القراء عنه ، هو نظام التغذية فى حمى التيفود . فاذا كان الطفل رضيعا فان أحسن غذاء له هو لبن أمه أو الالبان المجففة المنزوعة قشدتها أو اللبن الخض « الباير » ، أما الطفل الكبير فيعطى أثناء الدور سوائل بكثرة ، وعصير الفاكهة (ويحسن عدم الاكثار منه حتى لا يسبب اسهالا غير مرغوب فيه) وحساء الخضروات المصفى جيدا ، وماء الفول النابت والموز والبالوظة والتفاح المطبوخ والجيلاتين (الالماظية) والخبز الجاف (البقسماط) . وبعد نزول الحرارة يزاد الغذاء تدريجيا ، فيعطى الطفل الخضروات المسلوقة والمهلبية والطيور المسلوقة . ولا يسمح له بالغذاء الاعتيادى قبل انقضاء اسبوعين على نزول الحرارة الى المستوى الطبيعى

وقبل أن أختتم قصة التيفود أذكركم بأشياء أربعة يجب أن تأخذوا حذركم منها ، وهى : الذباب، وافرازات المريض، وأصابع المريض ومن يقومون بتمريضه، والخضروات النيئة . .

مصطفى الديواني

المرأة في الفن المصري الحديث

بقلم الاستاذ أحمد راسم بك

لم ينتشر فن التصوير فى مصر الا من عهد قريب ، ذلك بأن بعض المتشددين فى الدين الاسلامى الذى هو دين الدولة ، كانوا يحرمون تصوير الاشخاص ويعدونه خروجا على الشريعة السمحاء

حتى اذا أنشئت المدرسة العليا للفنون الجميلة، وأبيح فيها تدريس فن الرسم والتصوير بصفة رسمية ، بل والفنون الجميلة جميعا ، تذوق الجمهور هذا الفن الجميل واتجهت ميوله اليه

غير أن تصوير النساء ، حتى الى ذلك العهد ، كان يتجنب وينأى عنه، وبخاصة تصوير النساء العرايا ، ولذلك لم تعرض لهن صور فيما أقيم من المعارض

لكن سنة التطور الزمنى والفنى جعلت الفنانين يسايرون العصر ، ويتمشون مع سنة الارتقاء ، فاتجهوا الى تصوير النساء عامة والعاريات منهن خاصة غير متحرجين فى ذلك ، لان الاغضاء عنه نقص لاتكمل دراسة الفنون الجميلة بدونه ، وهذا ما يقتضيه العلم والتعليم

وسنقصر هذا البحث على فريق من الفنانين الذين استباحوا لانفسهم تصوير النساء والعاريات منهن تمشيا مع سنة الارتقاء الفنى ، على اعتبار ان هذا التصوير نوع من الجمال النموذجى Nu académique

على أن المصورين الذين تصدوا لهذا النوع من التصوير قليلون نذكر منهم — على سبيل المثال لا الحصر — الأستاذ صباغ والمصورة آمى نمر والمثال مختار والمصور هليرت والأستاذ محمود بك سعيد

المصور هليبرت

أحد الفنانين البارعين الذين تخصصوا فى تصوير النساء وهو صاحب أكاديمية التصوير. قضى فى مصر عشرين عاما ، وبرع فى تصوير المرأة العارية تصويرا خلابا يستهوى الالباب

لهذا المصور تحف من الصور Portrait وله كذلك مجموعة من الصور الرمزية ، منها ما يمثل خليطا من النساء عائدات من المقبرة يسحبن ورائهن الحزن والاسى ، فلا يشك الرائى لهن فى أنهن عائدات بعد أن ودعن حبيبا ، أو فارقن قريبا ، ولا يحس من جو الصورة الا عبوسا يرف عليه جلال الموت . واننا لنرى فى صور أخرى لهذا المصور المجيد دراسات لنساء عوار تتجلى فيها صبوة النفس للشهوات ، وعلى الرغم من رقة

ألوانها فانها تحرك فى النفوس تلك العاطفة ، وفى بعض الظلال حرارة يعجز الانسان أن يجد لها سببا ، وتجد على اهابها هذه الالوان ، أشبه ما تكون بألوان الثمار ترتفع من داخلها حتى تشمل اهابها ، وقد تحس لها نغما يصل الينا كأنه عبير النسيم ، وكأن أشعة النور تحتاط بها ، فتملؤها حياة تفعم القلب هيبة والعين روعة من حسنها وقوتها وتأثيرها

هذه الصور فى غير حاجة الى شرح أو بيان ، وما فائدة ايضاح سر الجاذبية أو القوة التى تجذبنا أليها ؟ عند ما يحلل الناقد صورة من الصور ، يذكر متانة الرسم وجمال الالوان وتوازن الهيكل والظلال ، وهو يشبه فى ذلك من يحلل أسباب الغرام ، ولكن أنى للانسان أن يدرك السبب الذى يوقعه فى حب امرأة بعينها تكون محاطة بنساء أبرع منها جمالا وأبهى حسنا ؟ هذا السر الموجود فى المرأة المعشوقة والذى أوحى حبها دون غيرها فى الفؤاد ، هو بعينه السر الذى يملأ صور الاستاذ هليرت

ونخرج من هذا الى أن صور الاستاذ هليرت تحرك فى مشاهديها عاطفة خفية هى الجمال الرهيب الذى يهز المشاعر هزا ويطغى على سلطانها . ان أهم شرط فى الجمال أن يهز المشاعر وأن يثير دقات القلوب ، فالاهرام مثلا تملأ نفوسنا هيبة وروعة وجلالا ، ولكنها لا تبعث السرور اليها ولا تنزلها منزلة الحيرة والاضطراب ، اذن فالصورة التى تدخل السرور على النفوس والبهجة على القلوب والحيرة على المشاعر هى ، فى الحق ، التحفة الغالية التى ينطق القلب ببيان تفاصيلها وربما عجز اللسان

آمى غر

لها مجموعة خالدة من صور الزنجيات

روعة تجد فى نفسك معناها ولا تجد على لسانك مبناها ، هذه هى آمى غر ، فانها علاوة على دقتها فى اتباع قواعد الرسم ، تخلق فى صورها روحا عميقا يتجلى فيه توازن وانسجام قل أن تجدهما فى منتجات المصورين العصريين

ظلت ألوان هذه الفنانة محافظة على وقارها ، واستطاعت بمجموعة ألوانها المحدودة أن تعطينا صور أولئك الزنجيات اللائى تفيض الشهوة فى عيونهن ، وأن تصور بشرتهن وقد فاح منها طيب غريب يزكو فتنتشقه الارواح ، وتتنسمه النفوس ، لدرجة أننا نقف أمام هذه الرقة متأثرين بوقار جمالها ، كما نجد على أجفانهن هذا اللون القاتم الذى لا يوجد له مثيل الا فى أكمام بعض الأزهار . تخترق نظرات أولئك الزنجيات مادة الهواء فى هدوء أشبه شىء بهدوء طائر ينساب فى الهواء ، وكأن الرسامة قد انتقت بعض اللآلىء السوداء الراقدة فى بطون البحار لتصبغ بها وجوه نماذجها السوداوات ، على أن العاطفة التى تحتدم داخل أجسامهن تحيل هذه الاجسام لامعة متموجة ، وتسجل تحت الجفون ألحانا هوائية منسجمة

يسهل على كل واحد أن يشاهد فى متحف الفن الحديث بالقاهرة مجموعة من ابداع ريشتها يستجلى فيها الناظرون أضواء النهار لامعة متبلورة ، ويحسون الحنان الحيوانى الذى يعم تقاطيع وجه جاريتها السوداء الذى تمثل بشرته تلك الفترة من الزمن التى تسبق سدول الليل . فكأنما مسح خداها بعصارة الليل المطرية ، فلمعتا كنبات توت الوحش

وترى أيضا لوحة تلك المرأة التى تسبح فى بحر أحلامها من مسكن منعزل حيث جلت الرسامة فى تصويرها عما يجيش بصدرها من حرارة الشعور ، فهناك عيناها وشفتاها وما يلابسهما من الجو الرطب ، كل ذلك يعبر عن رقة هذا الوجه الحزين

فى ذلك الفضاء المحدود المقفر وبين تلك الاشعة المتضاربة المختلطة ، يحدث انسجام تتجلى فيه عذوبة حزينة حول وجه تلك المرأة الشاحب ، وهذه العذوبة التى تفوق الذكاء تحوم حول شفتيها وذلك النبل الذى يسطع على جبينها ويرفع حاجبيها نحو السماء ، قصر دونه كل جمال . وخلف هذه الفتاة بساط من أوراق الاشجار يخيل لرائيها أنها تئن

ولما كانت المصورة قد كشفت عن سر الاجسام التى تذوب فى الظلام المتحرك ، فانها تمكنت من أن تهز أوتار القلوب بفنها الدقيق المفضل

صباغ

يحب صباغ الحياة على نسق كل شرقى أصيل ، ويجد فى حبها لما تحويه من متاع وجمال واغراء ، ويظهر أثر ذلك فى أغلب صوره التى تموج بالحركة وتتضوأ بالنور ، وفيما يستشف من لوحات الغوانى اللائى تختلط الاشعة بعقيق دهون الحار

يحب الحياة كفنان دقيق ويحبها كشرقى عريق ، يحب البحر ويحب السماء ويحبهما معا لشعوره بحاجته الى امتاع جسمه بمياه البحر ، والى اشباع نفسه بزرقة السماء ، يحب الزهر ويحب الثمار ويحبهما معا لاحساسه بالحاجة الى استنشاق أريج الزهر والى استيعاب طعم الثمار . ولما كان صباغ يحب النساء أيضا ، فقد سجل جمالهن على لوحاته تسجيلا رائعا ، وان لم يكن دائما جمالا نموذجيا

واذا دققنا النظر الى صوره ، نجد الثياب تشمل الاجسام محبوكة غير فضفاضة ، وكذلك لا يظهر فى أى عضو من أعضاء الجسم اعوجاج فى طول أو قصر

ثم هو لا يقتصر على هذه الدقة الكاملة ، بل يفتن فى معالجته لرسم النساء ، أى يتصرف تصرفا مقرونا بالرقة والشهوة والغرام . فآنا يداعب أنامل العذارى بألوان وضاءة تشع كبارق الأمل المريح ، وآنا يخضر وسط غادة تخضيرا ناعما نحيلا ، وآنا يكسو شفتيها بلون المرجان ويغطى أجفانها بكحل يستمد سواده من ظلمة الليل ، الى غير ذلك من الصور الفاتنة التى يتلىء بها جو الصورة بالاغراء

يعرف صباغ كيف يحدد الاجسام بألوانه الشفافة فى نعومة ورقة ، كأنه الحبيب يمر بيده على جسم حبيبته ، اذ يكاد يكون أبرع من سجل الوجوه الخمرية التى ذهبتها قبلات

الشمس على الشاطىء ، وأحسن من مثل الاجسام الشهوية وهي ترنو الى أمواج البحر في استغراب ودهشة ، فيقف الرائي أمامها مأخوذا مشدوها ، فلا يستطيع أن يبدى رأيا ازاء تلك الاجسام التي تكاد تتحدث اليه فتثير مكامن حسه

صور صباغ مجموعة من الصور النسائية كانت غاية في الدقة والاتقان من ناحية التوازن البنائي . وقد يلوح لنا أنه بدأ بتصويرها عارية ثم كساها بعد ذلك رداءها لما بها من أنوثة جذابة تتخللها نشوة الغرام . فيحس الرائي حرارتها كما يحس وجود تلك الخطوط المتجنية التي تربط أعضاء الجسم بعضها ببعض تحت الثياب

فكم من شفاه ندية أجاد تصويرها ، وكم من أذرع رخصة تكاثها هي أذرع الحور العين ، وكم من أجفان تهز العواطف وتمس الجانب الخفى من شعورنا ، وكم من وجوه رف عليها الجمال الملائكي ، وكم من صدور ناجية خلبت الالباب وبهرت الابصار ، وكم من قوام ممشوق وعيون ساحرة صوبت الينا سهامها فأصابت منا مواطن الضعف

مختار

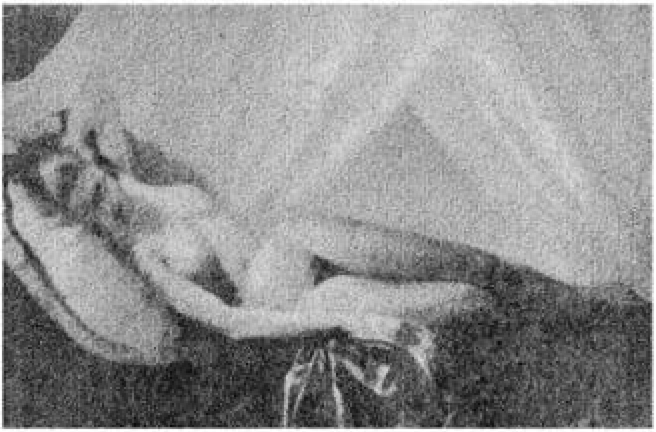
رأينا مختار ينحت الرخام والاحجار التي كانت ترتعش تحت أنامله ليخرج جميع الصور التي خطرت بأحلام طفولته ، بطريقة جملته يعود رغم ارادته الى طرائق العهد الفرعوني ، ولكننا نجد في تماثيل هذه الغادات تلك الرقة الخاصة بالاقوياء

فما أسمى تماثيل هذه النساء الاعرابيات وأشرحها للخاطر وأمتعها للنظر ، انها تحاكي الحقيقة تمشي فوق أرض الصعيد ، وأنك تلحظ في هذه التماثيل أنها جميعا قد فاضت بهذا الروح المصرى الساذج الذى جعل أجساد هذه العذارى تترنم بأناشيد الحنو وتوقع ألحان الرغبات التي لا تخمد لها عزمة

ان مختار المرح أفرغ على هذه التماثيل جميعا كل حرارة الشعلة الملعونة ، وانما أفرغها عليها في بساطة وفى غير تكلف ، ومع ذلك فانه قد سد الطريق أمام السفاسف حتى لا تغمر روح الجمال فيه . ولقد حق ان يسلك اذ كان مصريا صميما لا يبيح أن يشب الظلام فنه أقل شائبة . ركز الحياة والعواطف في هذه التماثيل النسائية التي ستحمل على عواتقها كل من تأمل فيها بحنو واشفاق لتحمله « قلب الرخام المنبعثة منه الصخب المقدس خلال معركة الاشارات الجامدة »

محمود سعيد

لقد أبدع محمود سعيد في تصوير تلك القسوة التي تزين عيون بعض العذارى حين يضطرم جسمهن بشهوات غامرة ، وكل يذكر صورة تلك المرأة التي كانت في جمالها أشبه ما تكون بغزال شارد ، تذكر ملامحها والسخرية تبدو على شفتيها والأشجار من



العارية

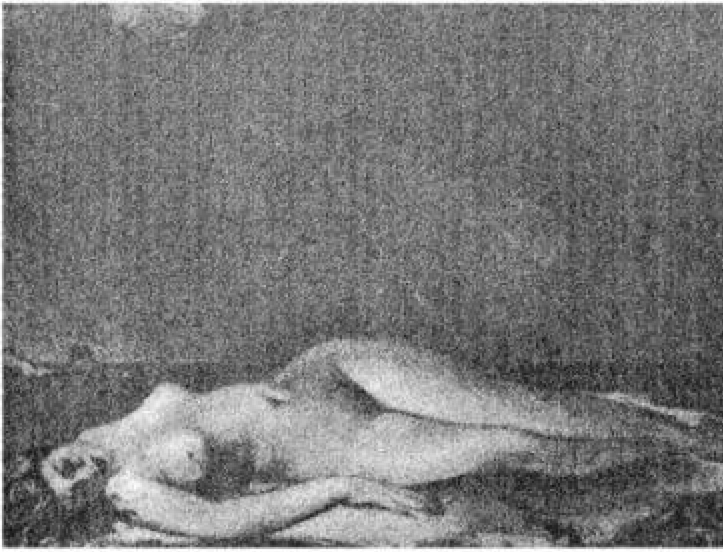
للمصور هلبرت



العودة

من المقبرة

للمصور هلبرت



مولد إلهة الجمال ... للمصور صباغ

حولها تبكى والسماء فى صفائها ينحدر منها لعاب الشمس كنقط الطل المترقرقة فوق الازهار فى الصباح

نحب أيضا فن سعيد لاشتماله على روح شهوانى خفى ، فنرى فى معظم لوحاته ذلك الشيء الذى لا يمكن وصفه والذى يضغط على القلب ، فيجعلنا نذكر لذاذات الحياة ، ويبعث نغمات ترحف ببطء على الروح كأنها قبلة قاتلة

أنظر الى صورة تلك الغادة التى تسدد الينا سهام اللحظ ولا ترى صعوبة فى جرح قلوبنا بتلك النظرات المعطرة بالقسوة والدهاء ، انظر الى لحظها الساحر فى حنانه المدل بسواد انسانه ، انظر الى لعابها الناعم المزدى برونق الزهر ، انظر الى يديها والى ذلك الخاتم الذى لا يزيد بنانها جمالا ، انظر الى أظافرها الوردية كأكمام الورد فى الصباح ، انظر الى كل ذلك ، ونبئنى اذا كان فى مقدور مصور أن يبرز مثل هذه الصورة لو لم يكن قلبه مفعما بالعاطفة الجامحة ، ولو لم يعبد تلك الغادة التى تهجم نظراتها على روحه بغرام ينسى آلام الحياة

كما أنى أذكر صورة تلك الزنجية وما يحوطها من شهوة واغراء ، أذكرها وهى تنظر الينا وسآمتها تئن كأريج زهرة تذبل ببطء فى هواء حجرة يسبح فيها صمت الوحشة ، فنرى أنها تشعر أن حياتها تذهب هباء كتلاشى الأمواج على الشاطىء ، هذا الشاطىء الذى يذهب اليه المصور ليغسل ذكرى عهود غابرة

كما أنى أذكر صورة تلك الخادم (هاجر) وهى جالسة على الارض ، فتحس أنها



الوردة البيضاء ... للمصور صباغ



ذات العيون العسلية

للفنان محمود سعيد

كلما فكرت فى حياتها التعسة سقطت الحسرة فى قلبها وتنفست البرحاء على نضرة مضت وغض اهاب جف وتشقق

فلا تمتاز صورة فنية على غيرها الا بما يدخله الفنان عليها من تحوير فنى يدل على اسلوبه الخاص وهو ما يسميه بعض النقاد « بالتشويه الضرورى »

ومن طريف ما قرأت فى هذا الصدد ، ما كتبه الأستاذ رمسيس يونان فى بحث أفرده عن فن محمود سعيد حيث قال :

« ومحمود سعيد فنان مختار يدرك تماما قيمة التشويه ، فلا يخلو رسم من رسوماته منه ، ولكنى لا أظن أنه قد تجرأ مرة على التشويه مثلما تجرأ فى هذا الرسم الذى هو موضوع اهتمامنا « المرأة ذات الخصلات الذهبية »

« ولكن ليس الامر كذلك فى الرسم الذى بين أيدينا ، فليس أول ما يلفت النظر براعة التصميم بل هو غرابة الموضوع . ان المتأمل ليشعر أن هذه المرأة التى صورها لنا



المرأة ذات الخصلات الذهبية

للفنان محمود سعيد



عروس النيل

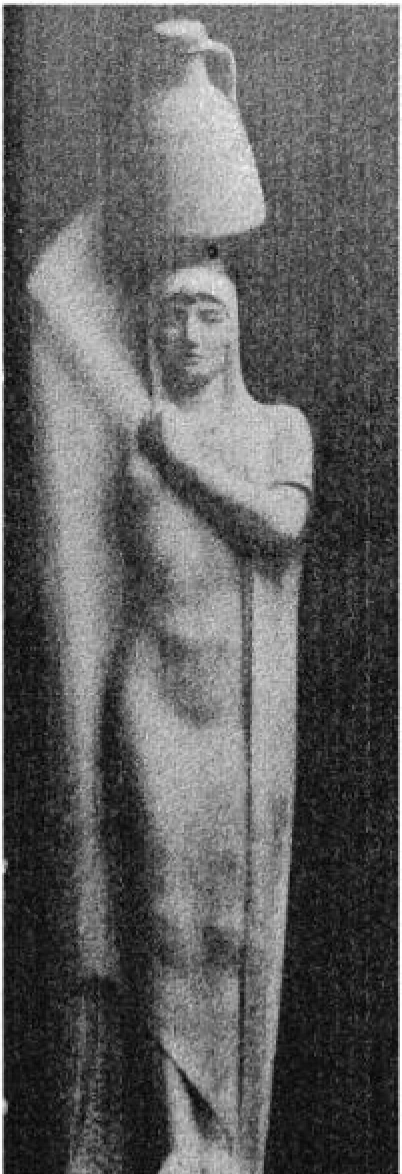
للمثال مختار

محمود سعيد ليست امرأة طبيعية من بنات البشر ، بل هي شيطانة اتخذت قالبا ذا مظهر انسانى ، انها ليست مخلوقة معينة من عالم الاحياء ، بل فكرة مبهمة ومعنى خفى رائع تجسم فى هذا الكيان المادى ليعبر عن نفسه ، انها تشبه تلك التهاويل الرمزية المقلقة التى يصوغها لنا العقل الباطن ولا تتصل بها الا فى عالم الرؤى والاساطير والاحلام

« وفى هذا ما يدعونى الى أن أفترض أن رغبات ومعانى مبهمة خفية تمثلها هذه الشيطانة كانت هائمة فى عقل الفنان الباطن من زمن بعيد ، وكانت هى التى ترسم الابتسامة على شفتيه وتبعث عينيه على التحديق ، ولكن ذهن الفنان لم يكن قادرا على تخيلها وعقد الصلات بينها وفرض النظام عليها ـ وان كانت قد اتخذت لنفسها سبيلا الى الظهور الجزئى فى بعض الرسومات السابقة ـ حتى استطاع أن يخضعها الى هذا كله حين صاغها فى هذه الصورة المشوهة الغريبة

« اما تمسك الفنان بوجه هذه المرأة ، وتكراره فى رسوماته التى أخرجها بعد ذلك ، فيرجع ذلك ـ فيما أعتقد ـ الى نزعة نفسية نحو زيادة سلطته على هذه الشيطانة الماردة ، فكان فى قدرته على تكرار رسمها المرة بعد المرة ما يوازى عنده المقدرة على السيطرة على ما يعادلها فى نفسه من شهوات وميول »

أحمد راسم





العودة من السوق
للمثال مختار

حاملة الجرة
للمثال مختار

قصة القهوة

الشراب الذى أزعج رجال الدين ورجال الحكم

شجرة البن نبات افريقى الأصل . ولكنها زرعت أول ما زرعت فى أرض اليمن . وأول ما كتب عنها ما جاء فى مخطوط عربى كتب فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وكانت حينئذ تزرع على الجانب الشرقى من البحر الاحمر ، مما يدعو الى الظن أنها جاءت على أيدى الرحالة والتجار الاحباش قبل ذلك بقرن أو قرنين من السنين

وثمة قصة قديمة كانت تروى عن أحد رعاة الماعز بجوار دير من أديرة سورية ، اذ رأى ماعزه ونعاجه تأبى أن تقيل فى هجير الصيف القائظ ، وتظل تعدو وتقفز وتتناطح فى خفة ونشاط ، اذا هى طعمت من ورق أو ثمر احدى الاشجار القريبة النابتة عند صومعة الرهبان .. فلما علم أحد رجال الطرق الصوفية بذلك ، أخذ يعطى رجاله من هذه الاوراق والثمار ليجنبهم النوم ، ويبث فيهم النشاط ، فى أثناء سهراتهم وحفلاتهم الدينية

أما القهوة ، هذا الشراب الأسود اللون المر المذاق ، فقد بدأ اتخاذها شرابا اجتماعيا يتناوله الناس فى بيوتهم وأنديتهم وولائمهم ، فى بلاد العرب . ولكنه كان مقصورا أول الامر على سراة القوم ورجال الدين ، ثم تفشى منهم الى عامة الناس . فلما كان منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت « المقاهى » قائمة فى جميع الحواضر العربية الكبرى . ثم نقلتها قوافل التجارة فى بلاد العرب كما نقلتها أفواج الحجيج الى مكة الى سائر أرجاء العالم الاسلامى

ولكن انتشار « المقاهى » أزعج فريقين من الناس : فريق رجال الدين ، وفريق رجال الحكم . فقد صارت هذه المقاهى مراكز يتجمع فيها الناس يسمرون اما فى لغو الحديث واما فى بحث الشؤون العامة . ثم أخذ يؤم هذه المقاهى جماعات التجار ، والملاحين ، والمحاربين ، والموظفين وغيرهم من ذوى الكلمة والمكانة فى المجتمع ، تاركين المساجد خاوية الا من الفقهاء والعامة ، مما أثار غضب رجال الدين ، متحدثين فى أمور الحكم والسياسة مما أقلق بال الحكام والساسة ، ورأوها بؤرا تدبر فيها الفتن والمكائد

وهكذا أفتى الفقهاء بتحريم تناول القهوة ، اذ وجدوا فيها ما ينافى روح الدين وأوامر القرآن ، فانها وان لم تكن خمرا تسكر العقل الا أنها على أية حال مضيعة للمال والوقت فيما لا يجدى . فأغلقت المقاهى فى مكة فى سنة ١٥١١ ، وحطمت فى القاهرة فى سنة ١٥٣٤ . ثم قام من علماء الازهر من أفتى بجواز شربها

ووجدت القهوة طريقها الى أوربا عن طريق الاستانة ، فسرت منها الى ايطاليا فى القرن السابع عشر . ويقال انها رؤيت لاول مرة فى مدينة البندقية فى سنة ١٦٢٤ ، ثم رؤيت فى العام التالى فى مدينة روما

وكان انتشار المقاهى فى أوربا أسرع منه فى آسيا . فما هى الا أعوام قلائل حتى امتلأت بها شوارع المدن الاوربية وميادينها ، وصارت مكانا يتجمع فيه الخاملون والعاطلون ، والصحاب والزملاء ، يلعبون النرد والورق ، أو يتكلمون فى جد الامور وهزلها ، أو يدبرون فيها الفتن ويبثون الدسائس

وقد قال أحدهم ان باريس وفيها الآن ألف وثمانمائة مقهى يمكن أن تعتبر مقهى واحداً كبيراً ! وقال آخر : انك فى باريس تجد بين المقهى والمقهى ، مقهى !

وانتشرت عدوى المقاهى من القارة الى انجلترا ، حتى قدر عددها فى مدينة لندن فى سنة ١٦٧٥ بثلاثة آلاف . وقد وضع أحد المؤلفين الانجليز ، واسمه ادوارد فوربس روبنسون ، كتابا موضوعه « تاريخ المقاهى الاولى فى انجلترا » فذكر أنه فى ذلك الوقت لم تكن ثمة فئة من أصحاب الحرف والاعمال ، أو جماعة من الجماعات الدينية والسياسية ، الا ولها بضع مقاه تتخذها مقرا ومركزا لها . وقد تحولت بعض هذه المقاهى العامة الى أندية خاصة بأعضائها

ولم تفش عادة شرب القهوة فى ألمانيا الا بعد أن غمرت أكثر أقطار أوربا ، ولكنها لم تلبث أن تمكنت من الشعب الى درجة حملت فردريك الاكبر على أن يقول متذمرا : « ان الزيادة المطردة فى استهلاك القهوة غدت أمرا لا يطاق . فما من أحد من عامة الناس وفقرائهم الا وينفق جزءا كبيرا من أجره فى اجابة هذه العادة المرذولة . ولو أمكننا أن نقاوم هذا التيار الجارف لاعدنا الناس الى تناول البيرة ، مما يعود بالربح الموفور الى منتجيها وتجارها وكلهم ألمان ، على النقيض من القهوة التى نستوردها من غير بلادنا »

ونفذت القهوة الى روسيا عن طريق تركيا من ناحية والنمسا من ناحية أخرى . ولكنها كانت غالية الثمن عزيزة المنال ، فلم تفش بين عامة الناس تفشيها بينهم فى سائر أوربا

ووصلت القهوة فى القرن الثامن عشر الى البلاد الاسكندناوية ، حيث غدت اليوم من ضرورات بيوتها الى حد لم تبلغه هولندة ذاتها التى تضم مستعمراتها بعض مناطق انتاج البن

* * *

أما نبات البن فان الصنف اليمنى منه يبدأ فى الازهار فى سنته الثالثة ، ثم ينتج محصوله الاول فى السنة التالية ، أما أكبر كمية منه فتنتج عادة فى السنتين السابعة والثامنة ، وبعد ذلك يبدأ انتاجه فى التناقص . وتتفاوت أعمار أشجار البن تفاوتا كبيرا ، فمنها ما يعيش عشر سنوات ، ومنها ما يعيش عشرين أو ثلاثين سنة ، ومنها ما يصل به العمر الى خمسين سنة ، وقد يعمر بعضها أحيانا قرنا كاملا .. ولكن الاغلب فى مزارع البن فى بلاد

اليمن ، أن تثمر الشجرة فى سنتها الخامسة ، وأن تجتث بعد زراعتها بعشرين سنة . وفى مزارع امريكا لا تجتث المزرعة كلها دفعة واحدة ، بل يعمد الزراع الى استبدال ما يشيخ من أشجارها باشجار فتية ، بمعدل عشر المزرعة فى كل عام

وتحتاج شجرة البن الى ظل يقيها وهج الشمس اللافحة . ولهذا تزرع الى جوارها بعض النباتات التى تسبقها فى النمو كنبات القمح ، ولكن الاغلب أن تزرع حولها أشجار الموز ذات الظلال الوارفة

وخير الاماكن الصالحة لزراعة شجرة البن سفوح الجبال ، وكلما كان السفح مرتفعا بقدر ثلاثة أو أربعة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر كان أصلح أرضا وأجود محصولا

ولكن جودة المحصول لا تتوقف فقط على نوع التربة التى أنتجته ولا على حالة الطقس التى أحاطت به ، بل ترجع كذلك الى طريقة جنيه وطريقة تجفيفه . وخير طريقة لجنيه هى أن تقطف الايدى ما نضج من ثمره فصار لونه أسود أو أرجوانيا ، وتدع ما لم يتم نضجه وما زال لونه ضاربا الى الخضرة والصفرة . وثمر الشجرة لا ينضج كله فى وقت واحد ، بل فى فترات متعددة ، ولهذا كان أجود أنواع البن ما لم يختلط الناضج منه بغير الناضج ، فان قليلا من هذا كفيل بأن يفسد مذاق كمية كبيرة من البن الناضج . ولهذا سيبقى البن من المحاصيل التى يؤثر جنيها بالايدى لا بالآلات ، فان هذه لا تفرق بين الناضج والنيىء ولا بين الاسود والاخضر من حباته . أما طريقة تجفيفه فهى تعريضه للهواء والشمس ، ولكن حيث لا تشرق الشمس اللافحة يلجأ الناس فى تجفيفه الى الافران والمواقد ، وهذه تنال كثيرا من مذاقه ومن رائحته

وقد كان انتاج العالم من البن فى سنة ١٩٠٠ عشرة ملايين من الاكياس . ثم أخذ يتزايد تزايدا مطردا حتى كان فى ١٩٣١–٣٢ أكثر من سبعة وثلاثين مليون كيس ، وفى ١٩٣٣–٣٤ قرابة أربعين مليون كيس . وقد اتسعت مساحات الارض التى تزرع بنا حتى غدا الانتاج أكثر مما تتسع له طاقة الاستهلاك ، فاضطرت بعض البلاد التى تنتجه ، والبرازيل بوجه خاص ، الى أن تقذف ببعض محصولها الى البحر ، لترفع سعره الى حيث يغطى نفقة انتاجه ويعود ببعض الربح على زارعه

* * *

والمادة المؤثرة فى القهوة هى مادة « الكافيين » التى كشف عنها الكيميائى « رونج » فى سنة ١٨٢٠ . ولا توجد هذه المادة فى ثمر شجرة البن وحده ، بل فى جميع أجزائها وعلى الاخص فى أوراقها

ولهذه المادة تأثير عضوى مشهود ، فاذا أخذت جرعات قليلة من القهوة أدى ما فيها من « الكافيين » الى احداث شعور بالنشاط البدنى ، والى زيادة طاقة التفكير العقلى والى التفريج عن العضلات ما تحسه من الجهد والتعب ، والى تنشيط ضربات القلب والى زيادة

ما تفرزه الكلى والصفراء من العصارة اللازمة لعملية الهضم . ولا يعقب هذا التنبيه الذى تحدثه القهوة ذلك الهبوط الذى يعقب تناول سائر المواد المنبهة ، ولعل هذا ما يفسر سر انتشار القهوة فى جميع أرجاء العالم أكثر من انتشار أى شراب آخر ، رغم أنها تعد الى حد ما حديثة العهد

على أن هناك أنواعا من شجرة البن خالية من الكافيين ، وقد وجدت بعض هذه الانواع فى جزر المحيط الهادى ومنها جزيرة مدغشقر التى تنبت فيها شجرة بن غريبة : تشتمل على كمية تافهة من الكافيين وكمية أكبر منها من احدى المواد السامة

وتختلف نسبة الكافيين فى البن من نصف فى المائة الى ثلاثة فى المائة من وزنه . وأكبر كمية منه فى البن الذى تنتجه كولومبيا وأقل كمية منه فى بن المكسيك . أما بن البرازيل فوسط بين هذا وذاك . والبن اليمنى ـ وهو نوع يزرع فى كثير من أرجاء العالم ولكنه يسمى بذلك نسبة الى اليمن موطنه الاصلى ـ يشتمل على نسبة كبيرة من الكافيين

ويوجد الكافيين فى شجرة الشاى كما يوجد فى شجرة البن . وأكثر ما فى السوق منه للاغراض الطبية مستخرج من تراب الشاى ، اذ أن هذا أوفر من الوجهة الاقتصادية من استخراجه من شجرة البن . وقد وجد أن ما يحتويه فنجان القهوة من الكافيين مثل ما يحتويه فنجان الشاى منه ، أى مقدار حبة ونصف حبة من الكافيين

وخير طريقة لصنع القهوة أن يقلى البن قبل صنعها مباشرة على الفحم أو الحطب مما تصدر عنه نار هادئة بطيئة . أما ترك البن مقليا عدة أيام ، فيؤدى الى فساد نكهته لامتزاج بعض مواده بما فى الهواء من الاوكسيجين

وقد أدى انتشار شرب القهوة بين جميع الطبقات فى سائر أقطار أوربا ، وبقاء أسعارها مرتفعة مع هذا ، الى محاولة الفقراء من جانب والتجار من جانب آخر ، ايجاد « مادة بديلة » أرخص منه ثمنا . بل ان الحكومة الالمانية أمرت بعض علمائها الكيميائيين أن يسعوا الى ايجاد هذه المادة التى قد تكفى الناس بعض ما يستهلكونه من البن الذى يستوردونه من وراء البحار . وقد جربت كل مادة يمكن تجفيفها وقليها وطحنها ، ولكن لم ينته الامر الى نتيجة مرضية . على أن أحسن ما يمكن أن يحل محل البن هو نوع من النبات يشبه البرسيم ، يؤخذ منه جذره المجفف فيقلى ويطحن ويغلى . ويقال ان أول من عرف ذلك أهل مدينة بتافيا فى هولنده سنة ١٧٩٠ ، وقد زرعت مساحات واسعة من أوربا بهذا النبات فى أثناء الحروب النابليونية ، وفى أثناء الحصار البريطانى على سواحل أوربا ، ليكون عوضا عن البن الذى تعذر استيراده حينذاك

(عن صحيفة ورلد سايز)

مهما تكن عظائم الانسان، فأين هي من عظائم الله في خليقته ؟..
إن الانسان مهما ارتفع ببرجه أو بنائه ، فلا يستطيع أن يطاول
أحقر جبل من جبال الله ..هذا هو ما يبسطه الاستاذ كاتب المقال

عالم العظائم

بقلم الاستاذ نقولا الحداد

منذ صار الانسان انسانا تاما متميزا عن الحيوانات العليا ، وشرع يتحضر وصار يعرف شيئا عن أحوال الارض ، جعل يرفع رأسه الى السماء لكي يعلم ما فيها . وكان كلما تيقظ لشيء من قوات الطبيعة كالبرق والرعد والظلام والبرد والحر الخ .. كان يزداد طموحا الى معرفة هذه القوات السماوية . وكان يتوهم أن قبة السماء هذه لا تعلو عنه كثيرا ، حتى أنه اذا بنى بناء عاليا يستطيع أن يصل الى السماء ويقبض بيده تلك الهنات المضيئة — جعل يظن ذلك لما برع قليلا بفن البناء . وأعظم بناء بناه الانسان في ذلك الدور الاول من انسانيته بغية استطلاع أحوال السماء ، كان برج بابل الذى ذكرت اسطورته في العدد ١—٩ من الاصحاح ١١ من سفر التكوين في التوراة (١)

والغريب في أمر أولئك القوم أنهم ما سلموا من الطوفان الذى عاقبهم الرب به لاستفحال شرورهم حتى قاموا يبنون هذا البرج تطاولا الى مقام ربهم

والظاهر من نص الاسطورة هذه أن ربهم كان في ذلك الزمان ساذجا على قدر عقولهم السخيفة . أعنى أنهم لم يكونوا يفهمون الرب كما نفهم نحن الله الآن ، بل كانوا يفهمونه شخصا عظيما شبيها بالانسان وأنه يسكن قبة السماء . وكذلك كانوا يرون قبة السماء لا تعلو عنهم أكثر من عشرين أو ثلاثين الى خمسين أو ستين مترا على الاكثر ، كما يراها الطفل الآن وكما يراها الانسان الهمجي الوحشي . ولا يخفى أن الانسان لا يرى الاشياء الا كما يعتقدها

فكانوا ببناء برجهم يطمحون أن يصلوا الى السماء لكي يكتشفوا أسرارها ويروا الرب في مسكنه فيها . وخاف ربهم أنهم يغزون السماء وقد يطردونه منها فنزل الى الارض وبلبل ألسنتهم قبل أن يتموا بناء البرج

(١) لعلها وردت في أساطير بابل وأشور أيضا لان بعض أساطير التوراة وشرائعها مأخوذة من أساطير تينك الامتين

والراجح جدا أن الطوفان وحادث برج بابل حدثا قبل آدم الميثولوجي منذ ٦ آلاف سنة بزمن طويل

لا تستغربوا هذا القول لان في التوراة نصا يدل على وجود أناس قبل آدم . ففي سفر التكوين الاصحاح ٤ والعدد ١٦ و١٧ نص على أن قايين قتل أخاه هابل وهما ابنا آدم الوحيدين حينئذ . ففر قايين من وجه غضب الله الى أرض نود شرقي عدن وهناك تزوج من احدى بنات تلك الارض

وليس بين هذين النصين وأسطورة خلق آدم في أول سفر التكوين تناقض اذا جرينا في تفسير خلق الخليقة على نظرية أهل العلم الحديث وهي أن الايام المذكورة في تكوين الخليقة انما هي أحقاب لا أيام ، ولا سنين . وبناء على هذه النظرية ان الله قضى عدة آلاف من السنين في خلق آدم ، فمنذ انتصب الانسان الأول على قدميه وصار يستعمل يديه ويمسك العصا والحجر كان كل آدم يتلو آدم وكل واحد أرقى من الآخر الى أن جاء آدم التوراة الذي صار انسانا يعرف الخير والشر ويستحي من عريه ويخيط مئزرا من ورق التين لكي يستر به عورته . وجعل يتحضر ويبني مدينة ويؤسس مدنية

والراجح أن حادثي الطوفان وبرج بابل حدثا في العصر الجليدي الاخير حتى اضطر أهل تلك البلاد أن يرحلوا الى الجنوب طالبين المناطق الدافئة . فرحلوا من أرض شنعار وانتشرت مواليدهم في جزيرة العرب . ثم عبروا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة ثم الى أعالي السودان . ثم انحدروا مع مجري النيل الى أن بلغوا الى واديه واستعمروه وأسسوا دول الفراعنة

ولا بد أن ترحل تلك السلائل استغرق آلافا من السنين قبل ظهور الملك مينا أول ملك تاريخي في مصر ، منذ ثمانية آلاف سنة . ولا يخفى أنه في هذه المدة الطويلة ارتقى عندهم فن المعمار كما ارتقت فنونهم الاخرى ، وصاروا يبنون بالحجارة بدل اللبن . فثبتت أبنيتهم في وجه عوامل الطبيعة

□

بنى البابليون برجا بحسب أسطورة التوراة لكي يصنعوا لهم اسما ، ولكي يصعدوا به الى السماء مسكن ربهم . ويمثل هذا القصد بنى الفراعنة أهرامهم لكي تخلد أسماءهم ، وربما كانوا يطمحون أن يقربوا الى السماء ولا بد أنهم رصدوها من قمم اهرامهم

أعظم اهرام مصر هرم خوفو أول الثلاثة في الجيزة ، بني في الدولة الرابعة منذ ٤٧٠٠ سنة قبل المسيح ، أي قبل آدم الميثولوجي بسبعماية سنة . طول كل جانب من قاعدته نحو ٢٤٠ مترا من كل ناحية ، وارتفاعه السمتي نحو ١٦٠ مترا ، وانحداره نحو ٢٤٠ مترا ، أما الهرمان المجاوران له فأصغر قليلا

ومما هو أدل على مقدرة المصريين القدماء في هندسة البناء والنحت هي الانصاب العظيمة الشاهقة التي تسمى مسلات (والاعاجم الافرنج سموها Obelisk) لانها تشبه

المسلة شكلا . وهى أعمدة مربعة الشكل منحوتة من حجر الجرانيت . وأعظمها يبلغ ارتفاعها ١٠٥ أقدام (نحو ٣٣ مترا) وعرضها نحو ٩ أقدام – هى قطعة واحدة – وارتفاع قاعدتها نحو ١٣ مترا . ومما كتب عليها أنها صنعت فى ثمانية أشهر . وقد نصبت فى هليوبولس القديمة فى القرن الخامس عشر قبل المسيح . وقد نقلها الملك قسطنطين الكبير الى الاسكندرية . ثم نقلها ابنه سنتينوس الى ملعب مكسيموس فى رومه . ثم وضعت أمام كنيسة القديس يوحنا اللاتران

ومعظم المسلات المصرية نهبت منذ عهد الرومان الى هذا العصر . ففى رومه منها ١٢ مسلة ، ومنها فى باريس ولندن ونيويورك

واذا تقدمنا الى ما حول العصر المسيحى نرى أن الرومانيين فى ابان عز الامبراطورية الرومانية بنوا أبنية عظيمة فى سوريا ، وأعظمها هيكل بعلبك . وأظن معظمكم أو كلكم تعرفونه – لا أقصد بعظمته الاعمدة الباذخة التى فيه ، وان كانت من أعاجيب الزمن لان فى الاطلال المصرية ما يضارعها ضخامة ويمتاز عليها بأن المسلة قطعة واحدة ، ولكن الاعمدة البعلبكية مؤلفة من ثلاث قطع لكل عمود . وارتفاع العمود نحو ٢٨ مترا

على أن ما يمتاز به هذا الهيكل هو الحجارة الثلاثة التى فى جداره الغربى ، أحدها مبنى فوق الاثنين وطول الواحد نحو ١٨ مترا ، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار ، وربما كان سمكه هكذا . كيف أمكن نقل أى حجر من هذه الحجارة الثلاثة أو زحزحتها من مقالعها ونقلها ووضعها فى جدار الهيكل . ان ذلك معجزة من معجزات الانسان

هذه عظمة أخرى من عظائم الانسان تحير الالباب

تقدم الى عصرنا الحالى فنرى بناء عظيما كأسلافه المسلات والاهرام ، وهو مثلها لا فائدة منه سوى انه حفظ اسما لبانيه جوستاف ايفل . هو برج ايفل المشهور فى باريس هو مبنى من القطع الحديدية الضخمة المتشابكة كالتى نراها فى جسر قصر النيل وغيرها يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠٠ متر كارتفاع أحد اهرام الجيزة مرتين تقريبا ، وارتفاع قاعدته الى الشرفة الاولى نحو ارتفاع ثلثه يصعد اليه بمصعد وبدرج ذى ١٩٢٧ درجة

ناطحات السحاب وجسر بروكلن

ننتقل الى القرن العشرين الحالى فنرى أعمالا مفيدة أعظم جدا من جميع العظائم التى تقدم وصفها من الاهرام والابراج والمسلات . وكلكم سمعتم بناطحات السحاب ولا بد أن بعضكم شاهدوها . وهى قائمة فى القسم الجنوبى من نيويورك لدى البحر

وآخر بناية بنيت بعد الحرب الكبرى وهى أعلاها وأضخمها وقد سميت أمبير ستات Empire State . وهى مائة طبقة على الارض ، وطبقتان تحت الارض (أى بدرونان) وقد بنيت من هياكل حديدية متشابكة بعضها ببعض أفقيا وسمتيا ، وملئت خلايا هياكلها بالآجر وطليت بالاسمنت فظهرت كأنها مبنية بالحجر . وارتفاعها نحو ٣٩١ مترا أى

أنها كعلو برج ايفل مرة وثلث مرة وكعلو هرم خوفو مرتين وثلثين .وهي تطاول الاهرام الثلاثة معا لو وضعت الواحد فوق الآخر

وجميع المساكن التي فيها أو معظمها للاعمال والمكاتب والادارات ونحو ذلك . تأوي نحو ٢٥ ألف نسمة بكل راحة . وعند الضرورة تسع ٨٠ ألف نسمة ـ يأوي اليها جميع سكان مصر الجديدة من غير زحام

وهناك ما هو أعظم وأدهش من جميع ما تقدم وصفه حتى ناطحات السحاب . وهو أعجوبة الفن الهندسي الحديدي . ونعني به الجسور (الكباري) ، المنبطحة فوق البوغاز الطويل بين نيويورك وبروكلن المسمى النهر الشرقي . وأعظمها هو الجسر الاول والاقدم الممتد من أول نيويورك الى بروكلن

هذا الجسر الضخم العظيم العجيب منبطح فوق النهر (أو البوغاز المذكور) وليس تحته في الماء أعمدة ولا ركائز بتاتا بل هو ملقى على ركيزتين عظيمتين على البرين من هنا وهناك . تراه معلقا في الهواء تمر من تحته أعظم البوارج وأضخم السفن من غير أن تمس بطنه

كل ركيزة من ركيزتيه تملأ قاعدة فندق الكونتننتال في القاهرة وتعلو فوقها نحو ستين مترا تقريبا . وهي مبنية من القطع الحديدية الضخمة المشتبكة بعضها ببعض . والجسر منبطح بين خصري هاتين الركيزتين ، أي وسطيهما . والارتفاع الباقي منهما تشتبك فيه الحبال والاسلاك الحديدية المرتبطة بظهر الجسر لكي تحمله (الحبال هي اسطوانات حديدية متداخلة قطر الواحدة نصف متر)

تصور هذا الجسر منبطحا فوق النيل بين هاتين الركيزتين من روض الفرج الى امبابه على طول خمسماية متر . ويمتد بعدهما في البر من كل ناحية نحو ٢٥٠ مترا

كم تظنون عرض هذا الجسر ؟ ٢٥ مترا

يجب أن يكون عريضا لسببين : أولا لكيلا يترنح تحت الاثقال التي تمر عليه . وثانيا لتعدد الطرق عليه . فبين الاسلاك والحبال الحديدية التي تعلق به في أعالي الركيزتين أولا زوجان من الخطوط الحديدية العريضة لمرور القطارات عليه ذهابا وايابا وكل قطار ست عربات كعربات الاكسبرس عندنا . وفي الصباح والمساء يكون عليه ٣ أو ٤ قطارات في وقت واحد لانها تنقل نحو نصف مليون نسمة بين المدينتين ذهابا ثم ايابا كل يوم .

ثم يلي الزوجين الحديديين زوجان آخران لمرور الترام . ثم يليهما شارعان عريضان لمرور السيارات والمركبات الخ ثم رصيفان للمشاة كأرصفة شوارع القاهرة العريضة ، كل هذه على ظهر هذا الجسر وهو لا يئن تحت هذه الاثقال . فما أعجب قدرة المهندس

هذه بعض عظائم الانسان المادية ولا سيما البنائية . وقد ضربت صفحا عن انفاق السكك الحديدية التي تمر تحت الشوارع وتحت النهر وتحت البحر وتحت نهر الهدسن . والسكك الحديدية التي تجري على صقالات فوق الشوارع . والسفن العظيمة التي هي

فنادق ضخمة عائمة على اللجج . وكذلك أعرضت عن عجائب الانسان الاخرى كالطيران والراديو والسينما والنور الكهربائي الخ

ولكن أين عظائم الانسان من عظائم الله فى خليقته . فاليك العجب العجاب

عظائم الله

مهما ارتفع الانسان ببرجه أو بنائه فلا يستطيع أن يطاول أحقر جبل من جبال الله. أعلى جبال أوربا جبال البيرانيس ٣ آلاف متر فوق البحر . أعلى من جبال الالب نحو ٦٠٠ متر . ولكن أعلى من هذه وتلك ومن كل جبل جبال هملايا فى تيبت . وأعلى قمة فيها قمة جبل أفرست . ارتفاعها نحو ٩٠٠٠ متر (تسعة كيلومترات) عن مستوى سطح البحر . فهى أعلى من جبل الشيخ وجبل صنين (فى لبنان) الواحد فوق الآخر مرتين

وعلى الرغم من هذا الارتفاع الهائل ليست هذه الجبال الشامخة بالنسبة الى سطح الارض الذى محيطه نحو ٢٥ ألف ميل تقريبا بأكثر من حبوب رمل على سطح بطيخة. يعنى لو أمسك الله الكرة الارضية بكفه لما أحس بخشونة فيها أكثر مما نحس نحن بخشونة برتقالة

والقمر الذى هو ابن الارض وقد اشتق منها ليس أقل خشونة من الارض . وهو أقرب الاجرام الى الارض ، والطفل لا يخطىء كثيرا حين يبتدىء أن يعى ويمد يده لكى يمسك القمر . لا يبعد القمر عنا أكثر من ربع مليون ميل وبالتحقيق ٢٣٩,٠٠٠ ميل . وقطر الارض ٧٩٥٠ ميلا وقطر القمر ٢١٦٠ ميلا فالى كم قمر يمكننا ان نقسم الارض ؟ ٤٩ قمرا . فليحسب الحاسبون

وفى حين أن الشمس والقمر يظهران لنا فى مستوى واحد فى قبة السماء فهى أبعد منه عنا نحو ٤٠٠ مرة أى نحو ٩٣ مليون ميل

كان بين فلاسفة اليونان الفيلسوف الطبيعى أرخيدس وهو عالم طبيعى ، وأظنه أول من اكتشف الثقل النوعى . وأول من اكتشف قانون المخل والقبان. فكان يقول أعطونى مخلا طويلا كفاية فأقلب الارض . فحبذا أن يأتينا ارخيدس الآن بمخله ويقلب لنا الكرة الارضية . فبعشر قلبات تصطدم الارض بالقمر

بعشر قلبات تصل الارض الى القمر . بكم قلبة تصل الى الشمس ؟ الشمس تبعد عنا ٤٠٠ مرة كبعد القمر . اذن بأربعة آلاف قلبة تصل الارض الى الشمس

ولكن الويل لها ثم الويل اذا دنت من الشمس . بلحظات تنصهر ، ثم تتحول الى غاز يتبدد على سطح الشمس . ان أصلب معادن الارض تنصهر على حرارة ١٥٠٠ درجة من مقياس سنتغراد على الاكثر وأضف لها ألف درجة أخرى فتتحول الى غاز . ولكن سطح الشمس يشع حرارة ٣ أضعاف هذه الدرجة بل أكثر . يعنى نحو ٥ آلاف درجة سنتغراد

وأما الحرارة فى مركز الشمس فنحو ٤٠ مليون درجة

أهذا هو الجحيم ؟ يصهر الاجسام ويطيرها غازا . فماذا يفعل بالارواح ؟

قطر الشمس نحو ٨٠٠ ألف ميل تقريبا أى نحو ماية مرة كقطر الارض . فكم أرضا تستطيع أن تنحت من الشمس . اذا عملت الحساب بناء على رقمى قطرى الشمس والارض تجد أن الشمس تقطع الى مليون و٣٠٠ ألف أرض . ولكى يسهل عليكم تصور نسبة الارض الى الشمس ، أقول اذا وضعنا الارض فى قلب الشمس على اعتبار ان الشمس كرة فارغة ، وبقى القمر يدور حولها كعادته ، يبقى بعيدا عن سقف الشمس بقدر بعده عن مركزها — فتأمل ما أعظم الشمس

مع ذلك لا تعد الشمس عظيمة بين النجوم بل هى دون المعدل الاوسط فى الكبر . فهنالك نجوم عديدة أكبر منها . ومنها النجم بتلجس وقد سماه العرب منكب الجوزاء . وهو أضخم من الشمس ٢٥ مليون مرة . واذا وضع مكان الشمس ملأ الدائرة التى تدور فيها الارض حول الشمس بل يزيد عليها ، وزميله المسمى اوميكرون قيطس يسع ٣٠ مليون شمس كشمسنا

الأبعاد

نترك الاحجام العظيمة الآن وننتقل الى الابعاد الشاسعة التى لا تقاس بملايين أو سلسلة ملايين الاميال والكيلومترات . نقيس أحيانا المسافة بالوقت فنقول ان الاسكندرية تبعد عن مصر ثلاث ساعات بالاكسبرس . ولا نقول انها تبعد نحو ٢٠٠ كيلومتر . فكم هو حرى بالفلكيين أن يقيسوا أبعادهم السحيقة بسرعة النور فى الثانية وهى ٣٠٠ ألف كيلومتر . فيقولون ان الشمس تبعد عنا ٨ دقائق أى ان نورها يقضى ٨ دقائق أو ٤٨٠ ثانية لكى يصل الينا . فالمتر الفلكى هو سرعة النور فى ثانية

وبهذا المقياس الفلكى النورانى يبعد منكب الجوزاء عنا نحو مايتى سنة نور . وهناك نجوم وسدم تبعد عنا ألوف وملايين السنين

أقرب النجوم الينا يبعد عنا نحو ٤ سنين وربما تقريبا وهو النجم المسمى بروكسيما قنطوروس . فعلى هذا البعد حول الشمس فراغ مطلق ، وجميع النجوم التى نراها تتباعد بعضها عن بعض بمثل هذه المسافة تقريبا . اذن كم يكون هذا العالم عظيما ضخما فى هذا العالم الذى نراه أى فى قبة السماء ، لا نرى بالعين المجردة أكثر من ٨ آلاف نجم . ولكن المراصد الفلكية أحصت نحو ١٠٠ ألف مليون نجم ، فعلى اعتبار أن بين النجم الواحد والآخر ٤ سنين نور كم يكون اتساع عالمنا هذا

هذه النجوم متجمعة فى الفضاء بشكل قرص مستدير منفوخ كالرغيف سمكه نحو ثلث قطره ، وحدود هذا القرص هو دائرة غيمية الشكل . ونحن نرى نصفها فى الليل كقوس من الشمال الى الجنوب ، ونسميها درب التبان ، ويسماها الاجانب الطريق اللبنى .

واذا رصدناها بالمرقب وجدناها جماعات من النجوم ، لا تحصى متراصة بعضها على بعض، على الرغم من أن المسافات بينها حول ٤ سنين نور واننا لبعدها السحيق نراها متراكمة هكذا . وجميع هذه النجوم القريبة والبعيدة فى هذه الدائرة (درب التبان) سماها العرب المجرة والاجانب الغربيون سموها Galaxy

فاذا كانت هذه المائة ألف مليون نجمة متباعدة بعضها عن بعض بمسافة ٤ سنين نور ، فكم يكون اتساع هذه المجرة ؟

بحساب الفلكيين يقضى النور نحو ٣٠٠ ألف سنة لكى يقطعها من جنب الى جنب

لجميع هذه النجوم طبيعة كطبيعة أرضنا وشمسنا ، أى أنها تحتوى على نفس العناصر الكيمية ومنها حرارة وتشع وكهرطيسية وذرات وذريرات وكهارب وفوتونات الخ

وفى بعض الاجرام عناصر ليس مثلها فى أرضنا أو أننا لم نهتد الى مثلها فى أرضنا . كالهيليوم عرفه العلماء فى الشمس قبل أن يكتشفوه فى الارض . ويقول بعضهم ان فى بعض الأجرام عنصرا ثقيلا جدا يزن السنتيمتر المكعب منه طنا . فما قولك اذا صنعنا منه زهرا لطاولة اللعب (النرد) ؟ خذ أرم . .

يمكن أن يكون هذا العنصر موجودا فى أعماق أرضنا ، الله أعلم

جميع هذه النجوم ومجموعات النجوم تسير مواكب متساوقة حول مركز المجرة بسرعات متفاوتة وفقا لناموس الجاذبية . وشمسنا تسير على بعد ثلث المسافة بين المركز والمحيط بسرعة ٢٠٠ ميل فى الثانية أى كسرعة الاكسبرس ١٠ آلاف مرة ، وهى حاملة أولادها السيارات على منكبيها وتتم دورتها فى ٣٠٠ مليون سنة . والاجرام التى فى المحيط تتمها فى ٥٠٠ مليون سنة

العالم الاكبر

نترك مجرتنا هذه ونحن على متن ملاك يسير بنا بسرعة النور فماذا نرى ؟

لا نرى شيئا . ظلام دامس . بعد آلاف من السنين نصطدم بمجرة أخرى كمجرتنا هذه . ونرى فيها ما نراه فى مجرتنا أجراما أو شموسا وكوكبات شموس وأنوارا تشع وحرارة وهى تنبىء كما تنبىء هنا عن عناصر كعناصر مجرتنا

ولنعبر هذه المجرة الى فضاء فارغ ومنه الى مجرة ثالثة . وهكذا دواليك الى أن نعد مليونى مجرة . يا للعظمة التى تحار بها الالباب

جميع هذه المجرات سابحة فى فضاء غير متناه . مجرتنا أكبرها ويسميها الفلكيون «قارة» فى أوقيانوس اللانهاية ويسمون المجرات الاخرى جزرا . هذه المجرات متجمعة فى الفضاء الاعظم تجمعا كرويا على شكل بيضة Oval ولكنها بيضة فارغة . وجميع هذه المجرات تسبح فى قشرة البيضة الكونية بمواكب عظيمة فى اتجاه واحد حول المركز . كأنها تحتفل مدى السرمد بقدرة الله وعظمته على حد قول النبى داود الشاعر القديم

بمزمور ١٩ « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه »
كم سعة هذا العالم الاكبر يا ترى ؟
بحسب تقدير علماء هذا العصر يقضي النور خمسماية ألف مليون سنة لكي يتم دورة واحدة حوله

الفضاء اللامتناهي

فلنخرج من هذا العالم الاكبر . الى أين ؟
الى الفراغ المطلق . الى اللانهاية . الى العدم
قد تقول : ماذا يمنع أن يكون وراء هذا العالم الاكبر عوالم أخرى
ليس ما يمنع أن يكون وراء هذا العالم الاكبر عوالم أخرى ، ولكن اذا كانت ثمة عوالم أخرى فاذا كانت من طبيعة عالمنا أي هي مادة ذات أجرام وأشعة وحرارة وعناصر الخ فلا بد أن تحس بها مراصدنا مهما كانت بعيدة . وان كانت تختلف طبيعتها عن طبيعة عوالمنا هذه ، ولا نحس بها وليس عندنا وسائل للشعور بها ، فاذن ليس لها وجود . وكل فرض تفرضه وليس عندك دليل على صحته فهو لغو لا قيمة له .
هذا هو العالم الاكبر . ومجرتنا هي العالم الكبير ونظامنا الشمسي هو العالم الصغير ، وارضنا هي العالم الاصغر . فأي عالم نحن اذن
ماذا نقول عن هذا الجسم الحيواني ؟ أي عالم هو ؟ هو مجموعة خليات لا يحصى عددها والخليات مجموعات من الجواهر الفردة وهذه مجموعات من الكهارب . وهذه مجموعات من الفوتونات . كل هذه الذرات والذريرات لا تحصى كما أحصيت النجوم
فالانسان بين عالمين . عالم العظائم الذي وصفناه وعالم الصغائر الذي لا يتسع الوقت لوصفه فنضرب عنه صفحا

الله المحيط بالكون

رأينا فيما تقدم أن الانسان منذ شرع يتحضر صار يطمح الى السماء لكي يتعرف أسرارها ويتصل بالله . ولذلك كان يبني الابراج والاعالي في أيام سخافته لكي يتصل بها . ولما رأى أنه لا يستطيع ان يصل الى السماء صار يصعد الى الاعالي لكي يرقب حركات الاجرام ببصره . وبصره قصير . فلما عجز عن الصعود الى السماء استنزل السماء اليه بمرصده وآلات رصده المتنوعة العجيبة حتى بلغ حدود العالم الاكبر كما رأيت
ولما كان يحاول أن يصعد الى السماء بواسطة برج أو هرم أو جبل كان تصوره لربه قاصرا كقصوره عن بلوغ السماء بواسطة برج . فكان يتصور ربه شبه انسان أضخم وأقدر من الانسان وساكنا في السماء . وبقي تصوره كذلك حتى لعهد موسى كليم الله . فكان موسى يصعد الى جبل سينا ، لكي يخاطب ربه ، وربه يلقي عليه وصاياه

حتى أنه كتبها له على لوحين حجريين مرتين لكي يلقيها على شعبه الخاص

وكان أنه كلما تقدم الانسان فى العلم والمعرفة ، وتوغل فى استقصاء الكون رأى أن الله أعظم مما كان يتصوره وأنه أكثر تنزها عن المادة ، وما زال يتوغل فى العلم ويتوغل فى تنزيه الله عن طبيعة البشر الى أن وصل علمه الى أقصى حدود الكون ، فلم يعد يجد شيئا بعد هذه الحدود سوى الله القوة المسيطرة على هذا العالم الاكبر

فالعلم اذن صحح عقيدة الانسان بالله برفعه من مقامه المادى القديم الوضيع ، الى مقامه القدير الاعلى الذى يحيط بالعالم الاكبر ويسيطر عليه ويديره

لم يبق من وجه للشك أو الخلاف فى عظمة الله وقدرته ، وانما بقى ان الانسان لا يعلم ما هو الله الا أنه القوة القصوى المسيطرة والمدبرة . وكفى

واذا شاء الانسان أن يعلم مزيدا عن طبيعة الله عاد خائبا واستحال عليه أن يعرف أكثر مما عرف . فما أعظم الله وما أعجب أعماله . واذن ما أضعف هذا الانسان أمام الله وما أحقره فى هذا الكون

هذه قيمة الانسان المادية . ولكن الانسان ليس مادة فقط . ليس خليات وجواهر فردة وذرات الخ فقط بل هو عقل أيضا . والعقل الذى استطاع أن يفهم هذا الكون وقد شمله وأحاط بحدوده لهو أعظم من العالم الاكبر . فقد صح فيه اذن قول الشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

نقولا الحداد

رأى لدوندورف فى الحيوان

كان الجنرال لدوندورف من غلاة « الآرية » التى تزعم أن أخلص وأرقى الاجناس البشرية هو الجنس الآرى ، فهو وحده الذى أسس حضارات العالم وهو وحده الذى أنجب ابطال التاريخ

والجنرال فى هذا الصدد كلمة تدعو الى الضحك من تفكيره ، اذ يزعم أن الحيوان ذاته منه ما هو آرى يمتاز بالقسوة والجسارة ، ومنه ما هو غير آرى يتصف بالخمود والاستكانة ، فيقول :

« الأرنب ليس حيوانا ألمانيا بكل تأكيد ، وذلك لانه جبان رعديد . وقد نشأ فى موطن بعيد من ألمانيا ثم هاجر اليها حيث يعيش فيها ضيفا تتغاضى عن عيوبه ومساوئه

« أما الأسد فتبدى فيه الخصال الالمانية الصميمة ، خصال الجرأة والسطوة والسيادة . وهو الآن يعيش فى افريقيا مهاجرا من موطنه الحقيقى : ألمانيا »

منذ عشرين سنة كان استاذ الجامعة لا يجرؤ أن يتكلم من شهر «العسل» ولكن لن تمضي سنوات قلائل حتى لا تكون ثمة جامعة محترمة لا تدرس «فن الزواج»

الجامعات تدرس علم الزواج

« منهاج الزواج » هو أكثر مناهج التعليم انتشارا وتوسعا فى هذه الايام . فمن بين كليات أمريكا وجامعاتها وعددها ٦٧٢ واحدة ، أكثر من مائتين تدرس منهاج الزواج هذا . وهو منهاج كامل شامل ، وواضح صريح ، فيتناول كل ما يتعلق بالحياة الزوجية من مشاكل وأمور ، متدرجا من ميزانية البيت وطريقة موازنتها ، الى تفاصيل المسألة الجنسية من الوجهتين العضوية والنفسية

وقد وضعت مناهج هذه الدراسة وفق ما أثبتت التجارب أن طلابها وطالباتها فى حاجة اليه كى تسعد وتستقيم حياتهم الزوجية . فان فتيان هذا الجيل الجديد وفتياته يعتقدون أنه كلما كانوا أخبر وأدرى بأمر العلاقات الجنسية ، كانوا أقدر على تجنب سقطاتها وتفادى عواقبها . وقد ضاقوا ذرعا بذلك الاسلوب الضيق الذى فرضه عليهم آباؤهم وأمهاتهم فى هذا الموضوع الخطير ، أسلوب الهمسات والاشاعات والاقاويل والظنون ، وأحسوا الحاجة الى أن يعرفوا هذا السر المحجوب معرفة علمية تمتاز بصدقها وأمانتها ، كما تمتاز بصراحتها واخلاصها

ولقيت هذه المناهج فى بداية أمرها مقاومة واستنكارا من رجال الجيل القديم وسيداته ، اذ يريدون أن يشبوا أولادهم وبناتهم وفق تلك المقاييس الاخلاقية القديمة التى شبوا هم عليها منذ ربع أو ثلث قرن من الزمان ، حين كان الكتاب الاخلاقيون يقولون : ان البنت المهذبة هي تلك التى لا تقبل شابا الا ذلك الذى تتزوجه ، وبعد أن يتم الزواج فعلا . وقد نسى أكثرهم أو تناسى أن أخلاقهم ونوازعهم فى سن الشباب هى ذاتها أخلاق ونوازع أولادهم وبناتهم فى أيامنا ، وأن كل ما حدث هو أن السنين المتوالية كبحت الجماح ، وقلمت الاظافر ، فحسبوا اتزان الرجولة ووقار الشيخوخة صفة لازمتهم منذ الصبا وصاحبتهم فى عهد الشباب . وأى أم لا تفرق وترتجف ، ولا تثور وتهيج ، اذا تجرأت ابنتها وسألتها : « قولى لى يا أمى ! ألم تلعبى مع بعض الاولاد قبل أن يخطبك أبى ؟ » رغم أنها تذكر تماما عددا من هؤلاء « الاولاد » الذين أمضت معهم بعض ساعات «اللعب» فى أيام الصبا وبداية الشباب !

واذ كان من المتعذر على أكثر الشبان والفتيات أن يتحدثوا الى آبائهم وأمهاتهم فى هذا الامر فى حرية وصراحة ، فقد أتاحت لهم هذه الجامعات والكليات التى تدرس لهم

« منهاج الزواج » أن يتحدثوا الى مدرسيهم ومدرساتهم كيف شاءوا ، فيقلبون الموضوع على جميع وجوهه ، ويطلقون لانفسهم العنان فى بحثه وتحليله

وقد جمعت من هؤلاء المدرسين والمدرسات ، ومن أوراق الامتحان التى اطلعت فيها على اجابات نفر كبير من التلاميذ والتلميذات ، النتائج التالية :

أولا ـ ان أبناء هذه الايام وبناتها أكثر أهلية من آبائهم وأمهاتهم للحياة الزوجية السعيدة ، لانهم يقدمون عليها وهم خبيرون بأسرارها ، قادرون على مشاكلها ، متنبهين الى ما يفسدها فيتجنبونه ، والى ما يسعدها فيأخذون به

ثانيا ـ ان فى أيامنا هذه من « اللعب » بين الشبان والفتيات أكثر مما كان فيما مضى . ولكن ليس ثمة من يستطيع أن يجزم بأن الفساد الخلقى بمعناه الحقيقى غدا اليوم أكثر تفشيا مما كان فى أيام الآباء والأجداد . ومن المحتمل أن فتيات اليوم لا يتحرزن فى الكلام عن علاقتهن بأصدقائهن كما كانت تفعل أمهاتهن ، بل لعلهن يرين فى هذه العلاقات وسيلة من وسائل الفخر والتباهى ، وطريقا من طرق الشهرة والسمعة

ثالثا ـ ان أطباء الصحة الاجتماعية لا يريدون أن يقولوا ان هذا « اللعب » خلو من الضار ومن الاخطار . ولكنهم مع هذا يقررون أن لا سبيل الى القضاء عليه والتخلص منه ، فهو ضرورة من ضرورات سن المراهقة

رابعا ـ ان أكثر هؤلاء الفتيات اللاتى يتلقين دروسا فى الزواج قد وجدن أنفسهن ، مرة أو مرات ، فى مركز يحتم عليهن أن يكبحن جماح شبابهن ، وأن يقفن فى علاقتهن عند « الحد المعقول » . وكذلك كان الامر عند كثير من الشبان . وهذه ميزة كبرى لهذه الدروس التى تقيم أمام الفتى والفتاة من الحقائق ما يكفل صدهما عن طريق الغواية

هذه بعض الحقائق التى يكون من الحماقة تجاهلها . ويجب أن نذكر أن احاطة هذا الموضوع بالتكتم وتغطيته بالاسرار لا يجدى نفعا : لا فى المحافظة على الاخلاق الفاضلة ، ولا فى تحقيق السعادة الزوجية . بل يعتقد مدرسو هذا المنهاج أن التعليم الرشيد الامين هو الطريق الى اقامة هذه الفضائل والى تيسير هذه السعادة

أما الآباء الذين يعتقدون أنه لعب بالنار أن تعرف ابنتك أن من الفتيات الجميلات من لا تحجم عن الاستمتاع بقبلات الشبان ، فان الرد الموجز عليهم هو أن ابنتك ستعلم هذا ، ولكن لا عن طريقك ، ولا عن طريق فتاة مهذبة ، بل عن طريق الغواية والفساد

واقتبس من ورقة امتحان احدى الفتيات هذه الاجابة التى كتبتها فى صورة رسالة موجهة الى احدى صديقاتها ، فجاء فيها :

« تخيرى الرجل برأسك كما تخيرينه بقلبك . وكونى حذرة حريصة ـ ولا أقول كونى شرسة ناشزة ـ فى علاقاتك بأصحابك . نعم ان هناك بعض « اللعب » . أعرف ذلك تماما ، ولكن لا تجعلى هذا « اللعب » رائدك وهاديك فى اختيار شريكك فى الحياة . واذا كان كل ما تجنينه من « س » هو قبلاته الحارة ، فاعرضى عنه واختارى « ص »

زوجا لك وان كانت قبلاته أقل حرارة وأناقة

« ولا تربطى نفسك بشاب واحد منذ البداية . اختبريهم جميعا على قدم المساواة ، وتبينى حسناتهم ومساوئهم ، واعرفى من منهم العنيد ومن المتسامح ، ومن الغيور ومن الكريم ، ومن الذى يؤثر أمه على الجميع ، ومن الذى يرى فى الزوجة شريكه الحقيقى . وأدرسى تفكيرهم ، وانظرى الى سلوكهم . وبعد ذلك يأتى دور الخطبة ، فتنصرفى عن الجميع الى ذلك الواحد المختار

« واجعلى نفسك جذابة ، ولكن دون اسراف ومغالاة . ولا تجذبى الناس بالحاسة الجنسية وحدها ، بل برأيك وتفكيرك وكلامك . فالرجل يجد ما يشبع الحاسة الجنسية فى كل مكان ، ولكن قلما يجدها فى ذلك الرفيق الانيس الحساس الذى تسميه «الزوجة»

« واختزنى بعض نفسك الى ما بعد الخطبة وما بعد الزواج . لا تبذلى كل شىء الآن ، بل استبقى جزءا كبيرا ينفعك فى المستقبل الطويل »

هذه فقرات من هذه الرسالة القيمة . وقد قال لى مدرسها : « فى وسع والد هذه الفتاة وأمها ، اذا استيقظا فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فوجدا أنها لم تعد بعد من دار السينما ، أن يناما ثانية آمنين مطمئنين ، فمثلها لا يمكن أن يزل ويغوى »

ولكن أبويها قد يسهران الليل طوله مؤرقين مسهدين لو أنهما قرآ ورقة الامتحان كلها ، فعرفا أن ابنتهما تعلم كل شىء عن الحياة الجنسية : عن أحسن اسلوب لقضاء شهر العسل ، عن وسائل منع الحمل ، عن ضرورة التوافق الجنسى بين الزوج وزوجه ، الى غير ذلك من الامور التى كانا يزعمان أن ابنتهما تجهلها جهلا مطبقا . ولكن مدرسها علق على هذا كله بقوله : « حقا انها اجابة جريئة قد تصدم الجيل القديم . ولكنى واثق أن هذه الفتاة ستكون سعيدة فى زواجها . لانه زواج قائم على العلم لا على الجهل »

ودليل على قيمة هذه الدروس وفضلها أستمده من أقوال بعض التلاميذ والتلميذات الذين لم يتزوجوا الا بعد أن درسوا « الزواج » دراسة علمية كاملة ، فهذه زوجة تقول : « ان زوجى لم يكن يعرف أى شىء . وانى واثقة أن حياتنا الزوجية كانت آيلة للتحطم لولا أننى أرشدته الى الكتب التى يجب أن يقرأها فى موضـــوع الزواج ، فقرأها ، واستطاع أن يفهم الامر على حقيقته » . وهذه زوجة أخرى أنقذت من شقاوة الحياة الزوجية ، لانها أصرت على اختبار الرجل الذى تقدم لزواجها اختبارا علميا ، فعرفت أنه مصاب بأحد الامراض الاجتماعية . وهذه ثالثة عرفت أنها لن تحمل ، فأجرت عملية جراحية قبل الزواج أبرأتها من العقم ، فحملت وأنجبت

منذ عشرين سنة كان استاذ الجامعة لا يجرؤ أن يتكلم عن « شهر العسل » الا اذا كان فى غنى عن وظيفته ، ولكن لن تمضى سنوات قلائل حتى لا تكون ثمة جامعة محترمة لا تدرس فيما تدرس منهاجا مفصلا ، صريحا فى « فن الزواج »

(عن مقال لجيروم بيتى فى الامريكان مجازين)

هؤلاء الأمريكيون

هؤلاء الامريكيون شعب عجيب : فانهم لا يعرفون كيف يستريحون ! فهم يملكون أكثر مما يملك غيرهم من شعوب الدنيا من أوقات الفراغ وفترات الاجازة ، ومن وسائل الراحة وأسباب الاستجمام . ولكنك تراهم دائما وأبدا يدعون قاراتهم الفسيحة ، شرقين مغربين ، مشمئلين مجنبين ، كأنهم رحالة أو سائحون ، يريدون أن يملأوا عيونهم الخاطفة من مساعدها . وتراهم يغدون زرافات وأفواجا الى كل نحو من الأنحاء ، الى الصحارى الجرداء ، الى الجبال الشاهقة ، الى الغابات المتأشبة ، وكأنما قد ضرب عليهم الجرى والسعى فى أرجاء الدنيا المترامية . انهم لا يقرون فى بيوتهم الا قليلا ، وانهم ليملأون الفنادق فى كل مكان ، لانهم قوم لا يعرفون كيف يستقرون ويستريحون ، ويؤثرون دائما أن يضربوا فى الارض دائبين جاهدين . وتمر بهم هذه المشاهد والمناظر مرا خاطفا ، فيعرفونها ولكنهم لا يستبطنونها ، يعرفون صورها وأوضاعها ، ولكن لا يدركون كنهها وأسرارها . فماذا يجديهم هذا الجرى الذى لا يقف ، وهذا السعى الذى لا ينقطع ، سوى أن يجنبهم الراحة وهم أخلق الناس بها ، وسوى أن يفرض عليهم التعب وهم أقدر الناس على اجتنابه . ولكن هذا شأنهم دائما ، فهم لم يتعلموا بعد كيف يستريحون !

هؤلاء الامريكيون شعب عجيب : فانهم لا يعرفون كيف يقرأون !

فهم يملكون من المدارس أكثر ، وأفضل ، مما تملك شعوب أوربا بأسرها . وهم يطبعون من الكتب فى العام الواحد أكثر مما يطبع الفرنسيون فى عشرة أعوام . ولكنهم مع ذلك لا يعرفون كيف يقرأون . وأنهم يشترون آلافا وآلافا من القصص ، وينفقون فى ذلك آلافا وآلافا من الدولارات ، ولكنهم مع ذلك لا يقرأون منها سوى الصفحات الاولى ، ثم يطوونها ، ويضعونها فى مكتباتهم الانيقة زينة وزخرفا . ولم يعرف الامريكيون بعد ذلك الرجل الذى يجلس الى مكتبه ، ولا قصد له سوى أن يقرأ كتابا من أوله الى آخره ، والذى يقضى ساعة وراء ساعة حتى يطوى صفحته الأخيرة . انهم لم يعرفوه بعد ، ذلك أنهم لم يتعلموا كيف يقرأون !

هؤلاء الامريكيون شعب عجيب : فانهم لا يعرفون كيف يلعبون !

فانهم يندفعون الى العمل حالما يفتحون عيونهم ويهبون من فراشهم فى بكرة الصباح . وهم يمضون ليلهم يأكلون ويشربون حتى يتخموا ، ويرقصون ويضحكون حتى يتعبوا ،

ولكنهم مع ذلك لا يعرفون كيف يلعبون . وهم لا ينفرون من اللعب ، بل يحبونه ويمتدحونه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمارسوه . فلعبة كرة القدم تنقلب عندهم الى معركة يتنازل فيها الاعداء، ويتلاقى فى ساحتها الاخصام . ورياضة التجديف عندهم ليست الا عملا آليا ، يتحكم فيه « الموتور » ويسيطر عليه البخار أو البترول

وهم فى هذا العجز عن فن الرياضة سواء ، لا يختلف فيه الاطفال عن الرجال ولا الشبان عن الشيوخ . فأطفالهم لا يعرفون كيف يلعبون ، فاخترعوا لهم تلك اللعب الآلية ورجالهم لا يعرفون كيف يلعبون ، فاخترعوا لهم ملاعب يروضون فيها عضلاتهم بالآلات

انهم لا يستطيعون أن يجروا ، فاستقلوا السيارات وحسبوها تغنى عن رياضة العدو . وانهم لا يستطيعون أن يضحكوا ، فذهبوا الى الملاهى الهزلية حيث يتفرجون على الممثلين وهم يضحكون، وحسبوا ذلك يغنيهم عن الضحكة الطليقة المنبعثة من شغاف قلوبهم هم . . انهم شعب عجيب ، لا يعرف كيف يضحك !

□

هؤلاء الامريكيون شعب عجيب : انهم لا يعرفون كيف يسخطون !

فالعالم كله يكتب عنهم مقالات من هذا القبيل ، ساخرا منهم هازئا بهم ضاحكا عليهم ، ومع ذلك فانهم لا يسخطون

يقول الناس عنهم ، فى كتبهم وصحفهم ومحاضراتهم وأنديتهم ، انهم شعب خلو من الفن ومن الأدب ، شعب بلا روح ولا عاطفة ، ومع ذلك يقرأ الامريكيون ويسمعون هذا كله دون أن يلفظوا كلمة ساخطة أو عبارة مغيظة !

ويصيح الاخلاقيون متهمين الامريكيين بافساد الاخلاق بقصصهم السينمائية ومجلاتهم المصورة . ويصيح علماء الاجرام متهمين الامريكيين بأنهم يعلمون الناس فنون الجريمة وأساليب الاجرام . ويقول علماء الاجتماع جازمين مؤكدين أن الشعب الامريكى آيل الى الزوال سائر الى الانقراض ، لشدة ما شاع فيه من روح التحلل ونزعة الترف . . ومع ذلك كله لا يتحرك الامريكيون بايماءة استنكار ، أو عبارة استهجان

يصدر فى كل شهر عشرات من الكتب تحللهم ، وتنقدهم ، وتتجنى عليهم ، ومع ذلك لا يقرأونها ، واذا قرأوها حسبت أنهم يقرأون كلاما عن شعب آخر ، فلا ترتسم على وجوههم أمارة تذمر ولا تنبس شفتهم بكلمة امتعاض

يقول عنهم اليابانيون : انهم أمكر الناس وأخبثهم . ويقول عنهم الانجليز : انهم أغبى الشعوب وأضيقهم أفقا . ويقول عنهم الاسكوتلنديون : انهم يقبضون أيديهم حرصا وبخلا وتقتيرا . ويقول عنهم الايطاليون : ان ألسنتهم لا تنطق الا كذبا ومينا وبهتانا . ويقول الفرنسيون : انهم شعب منحل الاخلاق فاسد الاوضاع . . نعم يرميهم كل شعب بما عرف عنه هو من الرذائل والسيئات ، ومع ذلك لا يسخط الامريكيون ولا يتذمرون . . أليسوا هم أعجب شعوب الارض جميعا ؟!

(عن مقال بقلم ستيفن ليكوك)

عقرب الساعة

من روائع القصص العالمي

ادجار بو

نقلها الى العربية خليل تقي الدين

عن الترجمة الفرنسية لبودلير

ادجار آلان بو أحد كبار الشعراء والأدباء الأمريكيين في النصف الأول من القرن الماضي (١٨٠٩ ــ ١٨٤٩) . امتاز بقصصه ذات الخيال الصوفي العجيب ، التي تمتزج فيه فلسفة الشرق وذكاء الغرب . ولم تظفر اللغة العربية بترجمة كثير من كتبه ، فلعل في هذه القصة التي نقدمها للقراء ما يحفز بعض الأدباء على نقل آثار هذا الأديب العظيم

كان ذلك الاحتضار الطويل قد حطمني وهد قواي حتى الموت . وعند ما حلوا وثاقي وأذنوا لي بالجلوس شعرت أن حواسي جميعا قد تخلت عني . وكان الحكم علي ، الحكم الهائل بالاعـدام ، آخر عبارة واضحة طرقت سمعي . وأما ما تلاها من أصوات قضاة التعذيب ، فقد بدا لي كأنه غريق في طنين حلم غامض . وكانت هذه الجلبة تحمل الى نفسي فكرة الدوران ، ولعل ذلك كان ناتجا عن أنني كنت أشركها في مخيلتي بعجلة من عجلات الطاحون . على أن ذلك لم يدم الا هنيهة قصيرة ، اذ أنني فجأة عدت لا أسمع شيئا . ومع ذلك فقد ظللت أرى الاشياء ولكنني شد ما كنت أراها ضاربة في الافراط ! كانت شفاه القضاة ، بيزاتهم السوداء ، تبدو لي بيضاء ، أشد بياضا من الصفحة التي أخط عليها هذه السطور ، رقيقة ، مفرطة في الرقة كأنما أرهفتها القسوة البادية على قسمات وجوه أصحابها ، وعزيمتهم التي لا تتزعزع ، وشدة ازدرائهم بالألم البشري . وكنت أرى حكم القدر ، أو ما يمثل في نظري القدر ، يسيل من تلك الشفاه . كنت أرى تلك الشفاه تتقلص بعبارة الموت ، وأراها تصور مقاطع اسمي ، فارتجف اذ لا أسمع شيئا على الرغم مما أرى من أشياء . ورأيت ، في لحظات مليئة بقشعريرة الخوف ، تماوج طيات الستائر السوداء التي كانت تغطي جدران القاعة . ثم وقع نظري على المشاعل السبعة الموضوعة على المنضدة . فأما في بادىء الامر فقد خيل الى أن هذه المشاعل تمثل المحبة والاحسان وبدت لي كأنها ملائكة ممشوقة بيضاء ستعمل على انقاذي . غير أنني شعرت فجأة بتقزز مميت يغمر جوانب نفسي ، وأحسست رعشة تسري في كل عرق من عروقي كأنني لمست سلكا من الكهرباء . وحالت الاشكال الملائكية الى أشباح لا معنى لها ، برؤوس من لهب ، فأيقنت أن لا أمل يرجى منها . ثم تسللت الى خاطري ، كنغمة موسيقية ، فكرة الراحة اللذيذة التي تنتظرنا في القبر ، شعرت بها تنساب ناعمة خفية .

ويدا لى أننى قضيت وقتا طويلا قبل أن أدرك كنهها وأقدرها حق قدرها . غير أننى ما كدت أطمئن الى هذه الفكرة وأتلذذ بها ، حتى أمحت من عينى وجوه القضاة ، كأنما تلاشت بضرب من السحر ، وغابت المشاعل الكبيرة فى طى العدم ، وانطفأت شعلتها انطفاء تاما وشمل الظلام كل شىء . واذ ذاك غاضت جميع الأحاسيس فى نهر الموت وانقلب الكون كله ليلا وصمتا وسكونا . .

كنت مغمى على ، ولكننى لم أكن فاقد الوعى تماما . ولست أحاول الآن أن أحدد أو أصف ما بقى لى من شعورى ، فحسبى أن أقول اننى لم أفقد كل شىء . اننا فى أعمق سبات ، لا بل فى الهذيان ، لا بل فى حالة الاغماء ، لا بل فى الموت ، حتى وفى القبر لانفقد كل شىء . ولو كان الامر على نقيض ذلك لما كان الخلود نصيب الانسان . اننا اذ نستيقظ من سبات عميق نمزق حجبا عنكبية (١) لحلم من الاحلام ، وما هى الا هنيهة حتى ننسى أننا كنا نحلم . وأما عودة المرء من الاغماء الى الحياة فهى على درجتين ، الاولى شعوره بوجوده الروحى أو العقلى ، والثانية شعوره بوجوده المادى ، وأكبر ظنى أننا اذا بلغنا الدرجة الثانية واستطعنا أن نستعيد أحاسيس الدرجة الاولى وقفنا فيها على جميع ذكريات الهوة القائمة ما وراء العالم . ولكن ، ما هى هذه الهوة ، وكيف نميز على الاقل أخيلتها من أخيلة القبر ؟ أما اذا لم تلب أحاسيس الحالة التى دعوتها بالدرجة الاولى نداء الارادة أفلا تعود هذه الاحاسيس من تلقاء نفسها بعد برهة فيأخذنا العجب ، ولا ندرى كيف انبثقت ومن أين ؟ ان أولئك الذين لم يغم عليهم قط لم يتح لهم أن يكتشفوا فى السعير اللاهب قصورا عجيبة ووجوها ليست غريبة عنهم ويشاهدوا رؤى كئيبة سابحة فى الفضاء ، لا يقوى على رؤيتها العاديون من الناس ، ويطيلوا التأمل فى عبق زهرة مجهولة ، وتحار عقولهم فى سر نغمة من الانغام لم تستوقفهم من قبل

فى تلك الفترة الزاخرة بجهودى المتكررة العنيفة ، ومثابرتى على استعادة أثر من آثار حالة العدم التى غرقت فيها نفسى ، مرت بى لحظات كنت أحلم فيها أننى قد نجحت ، لحظات جد قصيرة استطعت فيها أن أمحو من نفسى ذكريات كان عقلى الواعى يقول لى أنها تعود الى عهد انعدام كل شعور فى نفسى . أما خيالات تلك الذكريات فقد أرتنى على شكل غير جلى ، وجوها كبيرة تحملنى وتهبط بى الى مكان سفلى ، ثم الى أسفل فأسفل ، حتى انتابنى دوار مخيف من شدة تفكيرى بذلك الهبوط الذى لا نهاية له . وكذلك أعادت الى أخيلة الذكريات هولا شعرت به فى قلبى ، من جراء هدوء هذا القلب هدوءا غير طبيعى . وعقب ذلك شعورى بسكون مفاجىء شمل جميع الكائنات من حولى ، كأنما أولئك الذين حملونى ، فى موكب من الاشباح ، قد جازوا بى فى انحدارهم حدود اللانهاية ، فوقفوا أخيرا ضجرين ، وقد غلبتهم على أمرهم تلك المهمة التى اضطلعوا

(١) نسبة الى العنكبوت ، فهل يقر المترجم عليها علماء اللغة ؟

بأعبائها على غير جدوى ، ثم أحست نفسى عفونة ورطوبة ، ثم حال ذلك كله الى جنون، جنون ذاكرة تململ فى الخوف والهول

وفجأة يعاود نفسى الصوت والحركة ، حركة القلب الصاخبة وصوت دقاته فى أذنى ، ويتلو ذلك فترة يتلاشى فيها كل شيء ، ثم من جديد ، الصوت ، والحركة ، واللمس ، تنفذ الى كيانى احساسا مدويا ، ثم أشعر بوجودى ، ولكن مجردا عن كل تفكير ، وبغتة يغمرنى التفكير ويستولى على رعب وقشعريرة ، فأبذل جهدا هائلا لادرك حقيقة حالتى، ولا يلبث أن يعقب ذلك رغبتى فى العودة الى الحالة التى كنت فيها ، حالة انعدام الشعور فى . ثم تبعث نفسى بعثا مفاجئا ، فأحاول حركة أفوز بها ، واذا بى أذكر بوضوح جميع ما جرى لى ، من المحاكمة ، الى الستائر السوداء ، الى الحكم الذى صدر على ، الى ضعفى واغمائى . وأما ما تلا ذلك فلا أذكر منه شيئا . غير أننى لم أستطع أن أستعيد هذه الذكريات المبهمة لما يحدث لى الا بعد مدة ، وبفضل مثابرتى على ذلك ، مثابرة عنيدة

لم اكن قد فتحت عينى بعد ، وكنت أشعر أننى ملقى على ظهرى ، طليق من كل قيد، فمددت يدى فوقعت ثقيلة على شيء رطب قاس ، فتركتها هنيهة تستريح ، ريثما أفكر : أين أنا ، والام انتهى أمرى . وكنت أتحرق شوقا للاستعانة بعينى ، ولكننى لم أكن أجرؤ على ذلك خشية النظرة الاولى التى ألقيها على الاشياء المحيطة بى . ولم تكن خشيتى هذه ناشئة عن خوفى من وقوع نظرى على أشياء مرعبة ، بل كان يردعنى خوفى من ألا أرى شيئا . بعد ساعة طويلة فتحت عينى بعنف وبى من الروع ما بى . واذا بمخاوفى تتحقق ، اذ كان يغمرنى سواد ليل مدلهم ، وخيل الى ان شدة الظلام تضغط على صدرى وتخنق أنفاسى ، فبذلت جهدا عنيفا لاتنفس ، وكان الجو ثقيلا لا يطاق . وبقيت كما كنت منطرحا على الارض ، ورحت أروض عقلى على التفكير فتذكرت أساليب محاكم التفتيش فى التعذيب ، وأخذت فى الاستنتاج للتوصل الى معرفة مركزى بالضبط ، لقد صدر الحكم على ، وأحسب أنه مضى على صدوره وقت طويل . غير انه لم يدر فى خلدى قط أننى قضيت نحبى ، اذ أن ذلك يتناقض تناقضا تاما ووجودى الحقيقى الذى لا شك فيه . ولكن ، أين أنا ؟ وفى أية حالة ؟ كنت اعرف أن المحكوم عليهم بالموت يموتون على منصة الاعدام ، فى حفلة رائعة تحرص على اقامتها محاكم التفتيش . وأذكر أنه نفذ بأحدهم حكم الموت ليلة محاكمتى فى حفلة روعيت فيها جميع الطقوس المعتادة . ترى : أأكون قد أعدت الى الزندان لانتظر الحفلة المقبلة التى لا يمكن أن تقام الا بعد بضعة أشهر ؟ على أننى أدركت حالا فساد رأيى هذا ، لان لفيف المحكومين الذين تتألف منهم كتلة الضحايا القادمة قد سيقوا فورا الى التعذيب . وفضلا عن ذلك فان الزندان الذى زججت فيه فى بادىء الامر كانت أرضه مبلطة كجميع حجرات المحكومين فى سجون طليطلة وكان النور ينفذ اليه شيئا ما

وفجأة مرت بخاطرى فكرة هائلة قذفت بدمى كالسيل الجارف نحو قلبى فانمحى فى

مدى لحظات كل شعور ، وعند ما عاودنى وعيى هببت هبة واحدة ، واقفا على قدمى وأنا أرتجف من رأسى الى أخمصى . ثم مددت يدى كالمجنون ورحت ألوح بهما فيما حولى وفوق رأسى وأنا لا أشعر بشىء . وكنت مع ذلك أخاف أن أخطو خطوة واحدة ، مخافة أن ارتطم بجدران قبرى . وكان العرق يتصبب منى ويتجمع قطرات كبيرة باردة على جبينى . وأصبح احتضارى فى تلك الحالة من الشك أمرا لا يطاق . وأخذت أمشى متمهلا حذرا مستعينا بيدى الممدودتين ، جاحظ العينين ، مؤملا أن أكتشف خيطا من النور ولو ضئيلا . وخطوت على تلك الحالة بضع خطوات . ولكن كل شىء من حولى كان مظلما ، فارغا . وعاد تنفسى حرا فأيقنت أن ما أعد لى من عذاب لم يبلغ حد الكمال بين صنوف العذاب التى تعدها محاكم التفتيش لضحاياها

ثم انتى لما استأنفت تقدمى فى كثير من الحيطة والحذر ، عصفت فى رأسى ألوف الشائعات التى كانت تتناقلها الافواه عن فظائع طليطلة . فقد كانت تروى عن حجرات التعذيب هذه قصص عجيبة لم أكن أصدقها من قبل ، وكنت أعدها ضربا من الخرافات. وكانت هذه القصص من الغرابة والهول بحيث لم يكن أحد يقوى على ترديدها الا بصوت منخفض. ترى أقضى على بالموت جوعا فى هذا السرداب الذى تغمره الظلمات ؟ أم أعدت لى نهاية أشد هولا من تلك ؟ لم يكن يخامرنى الشك فى أن الامر سيؤول بى الى الموت، الى ميتة اختير نوع عذابها ، فان معرفتى بأخلاق قضاتى جعلتنى على مثل اليقين من ذلك. غير أن طريقة موتى ، والساعة التى حددت له ، كانتا كل ما يشغلنى ويعذبنى

وأخيرا اصطدمت يداى الممدودتان بشىء صلب . كان جدارا خيل الى أنه مبنى بالحجارة ، وكان أملس ، باردا ، رطبا . فتتبعته عن كثب ، وأنا أمشى فى كثير من الحذر، وفى أذنى دوى بعض القصص القديمة . ولكن تتبعى الجدار لم يمكننى من معرفة مساحة الزندان فقد كان فى وسعى أن أتم دورتى حوله وأعود الى نقطة الابتداء دون أن أعرف شيئا . ذلك أن الجدار كان واحدا فى جميع أجزائه . فبحثت عن المدية التى كانت فى جيبى عند ما ساقونى الى المحكمة فلم أجدها ، اذ أننى ألبست بدلا من الثياب التى كنت أرتديها ثوبا من القماش الخشن . كان فى نيتى أن أدخل نصل المدية فى شق من شقوق البناء ، فتكون لى علامة أعرف بها نقطة شروعى فى الدوران حول الجدار. وعدت ففكرت ان الوصول الى هذه النتيجة سهل للغاية ، ولكن اضطراب أفكارى أوحى الى أن ذلك مستحيل . فمزقت طرف ثوبى وأخذت منه قطعة وضعتها على الارض . وتركتها مستطيلة تشكل مع الجدار زاوية قائمة ، وفكرت فى أننى اذا سرت حول زندانى فلا بد لى من لقيا الخرقة على الارض وبذلك تكون دورتى قد تمت . كانت أرض الزندان رطبة لزجة ، فسرت بضع خطوات وأنا أترنح ، ثم لم ألبث أن هويت واقعا على الارض ولم أقو على النهوض لفرط اعيائى ، وأدركنى النوم وأنا على تلك الحالة

فلما استيقظت ومددت ذراعى وجدت الى جانبى رغيفا من الخبز وابريقا للماء .

وكنت قد بلغت من العياء حدا لم أفكر معه فى أمر وصول الخبز والماء الى ، فأكلت وشربت بنهم كثير . وبعد قليل عاودت طواف بالزنزانة . فبلغت الخرقة بعد طول الجهد والعناء . وكنت عند ما وقعت على أرض الزنزانة قد عددت اثنين وخمسين خطوة . فلما بلغت الخرقة كنت قد عددت ثماني وأربعين خطوة من جديد . فكان مجموع الرحلة مائة خطوة . فاذا حسبنا أن كل خطوتين تؤلفان يردا كان قطر الزنزانة خمسين يردا . ولاحظت فى أثناء سيرى أن يدى وقعت على كثير من الزوايا فى الجدار ، فاستحال على أن أعرف شكل بناء قبرى ، وكنت أميل الى الاعتقاد أنه قبر لا حبس

لم أكن أعلق على ذلك البحث الذى قمت به كبير أمل ، وانما كان يدفعنى الى الاستمرار عليه نوع من الفضول ، فعقدت النية على ترك الجدار وقطع أرض الزنزانة من الوسط . فكنت أنقل الخطو فى كثير من التأنى والحذر ، لان أرض الزنزانة على الرغم من بنائه بمادة صلبة كانت لزجة غدارة . على أننى تشجعت بعد ان سرت بضع خطوات ورحت أمشى بثبات متعمدا السير على خط مستقيم ، فقطعت على تلك الحالة نحوا من عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة ، واذا بطرف ثوبى الممزق يعترض خطوى فتتعثر به قدمى ولا ألبث أن أهوى ساقطا على وجهى سقطة عنيفة

لم أتمكن مع سقطتى تلك من الالتفات حالا الى أمر غريب لفت نظرى بعد لحظات ، وأنا لا أزال منبطحا على الارض ، وهو أن ذقنى كانت تلامس الارض بينما لم تكن شفتاى وأعلى رأسى تستند الى شيء ، على الرغم من ان هذا الجزء من رأسى كان أشد انخفاضا من ذقنى . وشعرت فى الوقت نفسه أن جبينى كان يغمره بخار لزج ، وأن رائحة خاصة كرائحة نبات الفطر كانت تتصاعد الى أنفى . فمددت يدى وعرتنى رجفة حين عرفت أننى سقطت على حافة بئر مستديرة لم يكن فى وسعى بعد أن أقيس مداها . فأخذت أجوس الحافة فوقعت على قطعة صغيرة من تراب وحجر استطعت أن أنتزعها من مكانها ، وتركتها تسقط فى قعر البئر ، واصخت السمع متابعا بأذنى صوت سقوطها ، فسمعتها تصطدم بجدران الهوة ، وبعد حين غطست فى الماء غطسة مروعة تلتها اصداء صاخبة . وفى اللحظة نفسها سمعت ضجة فوق رأسى ، كأنما فتح باب ثم لم يلبث أن أقفل ، واخترق حجب الظلام فجأة خيط ضئيل من النور لم يلبث أن عاد فانطفأ

عند ذلك عرفت النهاية التى أعدت لى . ولكننى حمدت الله على تلك السقطة التى انقذتنى ، اذ ان خطوة واحدة كانت كافية لارسالى الى العالم الثانى . كان الموت الذى حاذيته عن كثب وخلصت منه يتسم بذلك الطابع الذى كنت أحسبه ضربا من الخرافات فى قصص محاكم التفتيش

لم يكن لضحايا تلك المحاكم الغاشمة مهرب من الموت ، فاما موت يرافقه تعذيب جسدى مروع ، أو موت يرافقه أشنع صنوف العذاب النفسى . ويظهر أن هذه الميتة الثانية هى التى أعدت لى . كانت أعصابى قد ارهقها عذاب طويل الى حد أن صوتى كان يبعث

الرعشة فى جسدى ، وأصبحت شخصا معدا لذلك العذاب الذى ينتظرنى اعدادا كاملا ممتازا

عدت على أعقابى متجها شطر الحائط ، وأنا أرتجف من رأسى الى أخمصى ، مؤثرا الموت فى مكانى على مجابهة هول البئر ، وكانت مخيلتى فى ظلمات سجنى تضاعف هذا الهول . ولو أننى كنت فى حالة نفسية غير تلك ، لكانت لى الجرأة الكافية لتعجيل نهايتى فورا ، بأقدامى من تلقاء نفسى على الارتماء فى تلك الهوة الفاغرة فاها أمامى . لكننى الآن أجبن الجبناء ، فضلا عن أننى لم أكن قادرا على نسيان ما قرأته عن تلك البئر من أن من يلقى فيها لايموت من فوره ، بل ينتظره فيها موت بطىء أعدته عبقرية اصحابها الجهنمية اعدادا متقنا تاما . وأعانتى اضطراب فكرى على البقاء يقظا مدة طويلة ، غير أن النعاس لم يلبث أن سرى الى جفونى فنمت ، ولما انتبهت وجدت الى جانبى رغيفا وابريقا كما فى المرة الاولى . وكان العطش قد أخذ منى كل مأخذ فأفرغت الماء فى جوفى دفعة واحدة . وأحسب أن الماء كان مشوبا بمادة منومة اذ أننى ما كدت أشربه حتى عاودنى نعاس لم أقو على مقاومته طويلا فرحت فى سبات عميق . وعند ما أفقت كانت الاشياء من حولى منظورة تراها عيناى . ذلك لان شعاعا كبريتيا غريبا لم اكتشف مصدره فى بادىء الامر أتاح لى أن أرى مساحة سجنى وشكله

كذلك رأيت أننى غاليت كثيرا فى تقدير مساحة سجنى ، اذ ان جدرانه لم تكن تزيد على خمسة وعشرين يردا ، كما أخطأت فى تخيل شكله ، اذ أن تلمس طريقى فى الظلمة جعلنى أجد له كثيرا من الزوايا ، فاستنتجت من ذلك أن سجنى لم يكن مبنيا على طراز هندسى مضبوط ، بل كان التشويش ميزة بنائه . وكان السبب فى استنتاجى هذا اضطراب عقلى ، لان الظلمة الحالكة تؤثر تأثيرا كبيرا فى من ينتبه من سبات عميق أو من يصحو من اغماء . كان سجنى مربع الشكل ، وما حسبته فى بادىء الامر بناء حجريا كان من الحديد أو من مادة صلبة تشبه الحديد . وكان السجن يتألف من قطع حديدية هائلة متصلة بعضها ببعض . ونقط اتصالها تؤلف تلك الزوايا والفرجات . وكان سقف ذلك البناء الحديدى مليئا برسوم قبيحة تمثل رموزا بشعة أوحتها الى الرهبان خرافاتهم عن الموت والقبور ، من وجوه أبالسة بدت على قسمات سحنهم امارات التهديد والوعيد ، ذوى أجساد عظيمة كالهياكل ، الى صور أخرى مخيفة ملأت الجدران قذارة وهولا . فاما خطوط تلك الرسوم فقد كانت واضحة جلية ، ولكن ألوانها كانت باهتة كأنها نصلت بفعل الرطوبة . وعدت أتفحص أرض السجن فرأيتها من الحجر ، وقد فغرت فاها فى وسطها تلك البئر التى كدت أهوى الى قاعها

رأيت ذلك كله فى شىء من الجهد والعناء لان وضعى كان قد تغير فى أثناء نومى تغيرا غريبا . أصبحت الآن ملقى على ظهرى ، بطول قامتى ، على شبه لوحة خشبية منخفضة . وكنت موثقا الى تلك الخشبة بحبل طويل يشدنى شدا ويلتف حول جسدى كله مقيدا

جميع أعضائي ، ما خلا رأسي وذراعي اليسرى . وكان على أن أبذل جهد الجبابرة لأمد يدي الطليقة الى الطعام الموضوع في اناء ترابي الى جانبي . وما راعني الا اختفاء الابريق وقد كنت أحس عطشا قاتلا فأيقنت ان جلاديي قد تعمدوا ، في الخطة الجهنمية التي رسموها لقتلي ، تعذيبي بالعطش ، لان الطعام الذي تركوه لي كان يتألف من قطعة من اللحم دس فيها الملح بمقدار كبير

ورفعت عيني متفحصا سقف السجن فرأيته يعلو عني نحوا من ثلاثين أو أربعين قدما وهو في بنائه وشكله يشبه الجدران المحيطة بي . ورأيت في أحد ألواح السقف صورة غريبة استرعت انتباهي ، هي صورة الزمان كما يمثلونه عادة ، مع شيء من الاختلاف ، ذلك أن الشخص الذي يمثل الزمان كان ممسكا بدلا من المنجل بشيء خيل الى حالا انه عقرب ساعة ضخم ، كالعقارب التي تشاهد في الساعات الاثرية الكبيرة ، غير ان تلك الآلة كانت تشتمل على شيء استوقفني طويلا . اذ بينما كنت اتفحصها وعيناي عالقتين في السقف ، خيل الى انها تتحرك ، وكانت مثبتة فوقي تماما . وبعد لحظة تأكد لي ذلك . وكانت حركتها قصيرة ، وجد بطيئة . فرحت أراقبها مدى دقائق ، وبي شيء من الحذر وكثير من الحيرة . على أنني لم ألبث أن صرفت نظري عنها الى غيرها من الاشياء وقد أتعبتني حركتها الغريبة المملة

واسترعى انتباهي صوت خافت ، فالتفت فرأيت بضعة جرذان هائلة الحجم تقطع أرض السجن ، وكانت قد صعدت من البئر . وبينما كنت أعرضها كانت تسير في قافلة طويلة وقد اجتذبتها رائحة اللحم ، فكان على أن أبذل جهدا كبيرا لابعادها عنه

ولم يكن في وسعي أن أقيس الوقت بالضبط ولكنني أحسب انه بعد نصف ساعة أو ساعة رفعت نظري ثانية الى ما فوقي فراعني ما رأيت وحيرني . رأيت أن عقرب الساعة قد قطع مسافة تقرب من يرد واحد أو تزيد . وأكثر ما زاد في اضطرابي أن سيره كان نزولا نحوي . ولحظت والرعب أخذ مني كل مأخذ أن طرف العقرب السفلي كان عبارة عن هلال لامع من الفولاذ ، وان مسافة ما بين طرفيه قدم واحدة ، وكان قرناه متجهين الى على ، وحده الاسفل مشحوذا كحد الموسى . وكان ذلك الهلال يبدو كالموسى كبير السماكة والثقل ، ينتهي نصله المرهف بشكل عريض متين ، كما كان مثبتا الى قطعة من نحاس وله ، وهو يقطع الفضاء في حركته الدائمة ، صفير مخيف

لم يبق عندي شك بعد ذلك في النهاية التي أعدتها لي عبقرية قضاة التفتيش الجهنمية . وأحسب ان عمال التفتيش قد دروا باكتشاف البئر ، وكانت أهوال تلك البئر مهيأة لزنديق مثلي مغال في زندقته ، والبئر رمز الجحيم ، يعتبرها الناس جميعا مستقر كل عقاب ، فخلصت منها صدفة ، ولكنني كنت أعرف أن من أساليب محاكم التفتيش في ازهاق أرواح ضحاياها نصب الاشراك والاحابيل وجعلها حلقات في سلسلة التعذيب . فلما أنقذتني المصادفة من القفز الى البئر قفزة لا رجعة بعدها ، لم يبق في نية جلاديي دفعي

اليها قسرا ، بل هيأوا لى ميتة أخرى أعذب من تلك . أجل ، أعذب من تلك . لقد كدت ابتسم فى احتضارى اذ وجدتنى انعت بالعذوبة تلك النهاية التى تنتظرنى

وما يجديني أن أروى ساعات الهول القاتلة التى قطعتها وأنا أعد اهتزازات الفولاذ الراجفة ؟ كانت تلك الآلة الفولاذية التى أعدت لاعدامى تسير نزولا أصبعا أصبعا وخطا خطا فى حركة مستمرة لم يكن فى وسعى أن أقيس مداها الا فى فترات كانت تبدو لى طويلة كالدهور . كان الفولاذ ينزل دائما وأبدا ، وهو دائما وأبدا يقترب منى . ومرت أيام ، قد تكون عديدة ، قبل أن داناني الفولاذ الى حد ان الهواء الذى كان يبعثه اهتزازه أصبح يلفح وجهى . وكانت تملأ أنفى رائحة الفولاذ المشحوذ . فضرعت الى السماء حتى اتعبتها بتضرعى ان يهوى الفولاذ على بسرعة فينتهى كل شيء . وأصابنى مس من الجنون فحاولت النهوض لعلنى أقوى على ملاقاة ذلك السيف المصلت فوق عنقى . وفجأة شملنى هدوء عجيب وبقيت ملقى على ظهرى ابتسم لذلك الموت البراق كما يبتسم الطفل لمرأى دمية ثمينة

ومرت بى من جديد فترة جد قصيرة امحى فيها كل شعور بى . أقول جد قصيرة ، اذ أننى عند ما استعدت وعيى لم يكن العقرب قد قطع مسافة تذكر . ولكن من يدرى ؟ فربما كان الوقت الذى قضيته مغمى على طويلا . لاننى كنت أعرف أن هنالك أبالسة يحصون على دقائق الغيبوبة . فلما انتبهت أحسست تراخيا فى جسدي وفتورا يصعب تصويرهما ، كمن يصحو من سكون طويل . وكان جسدى ، حتى فى وسط تلك الاهوال يطالبنى بالغذاء فعانيت الامرين حتى مددت ذراعى اليسرى مسافة ما سمح وثاقى ، فوقعت يدى على بقايا طعام أبقت عليها الجرذان . وبينما أنا أحمل الى فمى شيئا منها اخترقت خاطرى فكرة شوهاء من غبطة وأمل . ولكن ! أمن الممكن أن يسرى الى نفسى شيء من الأمل ؟ قلت انها فكرة شوهاء . والمرء مثل هذه الفكر التى لا تبلغ ابدا حد الكمال . وشعرت انها تحمل الى شيئا من غبطة وأمل . ولكننى شعرت فى الوقت نفسه انها فكرة ولدت ميتة ومن العبث أن أبعث فيها الحياة والكمال أو أحاول التعلق بها فان عذابى الطويل كان قد قضى على قواى العقلية فأصبحت ابله معتوها

كنت ملقى على ظهرى ، وكانت اهتزازات العقرب تتجه من يسارى الى يمينى . ورأيت أن الهلال الفولاذى كان مركزا بحيث يخترق جسدى ويحز صدرى فى موضع القلب . وكان لا بد له من تمزيق ثوبى ، وتكرار هذا العمل مرارا حتى يصل الى جسمى . وكنت أرى أن أولى المراحل التى سيشرع الفولاذ يقطعها كانت تمزيق ثوبى ، وذلك على الرغم من صغيره فى انحداره ومن المسافة الهائلة التى قطعها منذ أيام والتى لا تقل عن ثلاثين قدما ، وكان يستطيع معها أن ينشر هذه الجدران الفولاذية نشرا . استوقفتنى هذه الفكرة طويلة فلم أقدر على تجاوزها كانما وقوفى عندها كان من شأنه ان يعيننى على وقف العقرب على الثياب . ورحت أتخيل الصوت الذى سيرسله الفولاذ وهو يخترق

ثوبى ، والاحساس الذى يبعثه فى الاعصاب ملامسته القماش ، وأطلت التأمل فى ذلك كله حتى ضرست اسنانى

والعقرب دائم الانحدار ، أبدى النزول ، ينزلق نحوى انزلاقا وأنا واجد لذة راعشة فى المقارنة بين سرعته فى الانحدار وسرعته فى الاهتزاز من اليسار الى اليمين ، ومن اليمين الى اليسار . كان العقرب يبتعد هاربا منى ، ثم يقترب حتى بدانينى كأنما يعصف فى جوانبه روح شيطان ! وها هو يتجه صوب قلبى ، فى انسياب النمر ، وأنا اقهقه أو أوالى الصراخ تبعا لاستيلاء هذه أو تلك من الفكرتين على

وهو دائم الانحدار ، لا شئ يمنعه من ذلك ، ولا مفر منه ، لقد ضاق نفسى ، وصرت اضطرب لكل اهتزازة منه وانكمش على نفسى لعلى أصبح أصغر مما أنا . وكانت عيناى ترافقانه فى انزلاقه الصاعد النازل وبى يأس مجنون حتى اذا أهوى على اطبقت عيناى راجفتين . هذا ، مع ان الموت فرج لى ، وأى فرج ! غير أننى كنت ارتجف من الرعب وأنا افكر انه يكفى أن تنزل تلك الآلة قيراطا واحدا لتهوى على صدرى تلك الشفرة المشحوذة البراقة . كان الأمل هو الذى يبعث الرعشة فى أعصابى ويجعل جسدى كله يتقلص وينكمش على ذاته . أجل هو الأمل ! الأمل الذى يملأ الانسان حتى على أعواد المقصلة ، ويهمس فى اذن المحكوم عليهم بالاعدام ، حتى فى غياهب سجون محاكم التفتيش

ورأيت أنه لم يبق لبلوغ الفولاذ ثوبى الا عشر اهتزازات أو اثنتا عشرة اهتزازة ، ورافق هذه الفكرة فى نفسى شعور بالهدوء الذى يبعثه اليأس . وللمرة الاولى منذ ساعات بل منذ أيام ، رحت أفكر . فخطر لى أن الوثاق الذى يقيدنى كان مؤلفا من قطعة واحدة ، وأننى موثق برباط متصل ، فاذا قطع الهلال الفولاذى وثاقى فى موضع ما انحل الوثاق بحيث أتمكن من اطلاق ذراعى اليسرى ، وفك الرباط من حول جسدى كله . ولكن ما أشد هول الفولاذ ومجاورته اذ ذاك ! ان أدنى حركة أقوم بها فى تلك اللحظة تودى بى الى موت محتم . ثم ، هل يعقل أن يكون جلادى قد غفلوا عن امكان قيامى بهذه المحاولة . وهل يقيد الوثاق صدرى فى المكان المعد لتلقى الفولاذ ؟ اذ ذاك فكرت فى انهيار آخر أمل ضئيل بقى لى ورفعت رأسى قليلا لأرى صدرى فرأيت ، ويا لهول ما رأيت ! رأيت ان الوثاق كان يلف جسدى كله ، مقيدا جميع أعضائى ، ما خلا الطريق المعدة للهلال الفولاذى ؟

وما كدت ألقى رأسى حتى عادت فلمعت فى خاطرى فكرة شبيهة بالفكرة الاولى التى ساورتنى حين حملت الى شفتى المحترقتين بقايا الطعام . ولكنها كانت هذه المرة فكرة تامة ، على الرغم من ضعفها وهزالها

كانت الجرذان تجاورنى وكنت أشعر منذ ساعات بقربها منى . جرذان صاخبة ، جريئة ، نهمة تجيل بى عيونها الحمراء كأنها تنتظر فرصة موائية لتفترسنى . فسألت :

أى طعام ربضت عليه هذه الجرذان فى غياهب هذا الزندان ؟

كانت الجرذان قد أتت على الطعام كله ، الا بقايا قليلة منه ، على الرغم من أننى حاولت مرارا أن أمنعها عن ذلك ، اذ أن يدى لفرط ما قطعت المسافة تكرارا بين الصحن وفمى، أصبحت لا تخيفها . وكثيرا ما كانت الجرذان تنشب أسنانها الحادة فى أناملى . فرحت أمسح حبل وثاقى ببقايا اللحم ، متمهلا فى عملى ، وتعمدت ألا أدع مكانا واحدا منه دون أن أضمخه بشىء من ذلك اللحم ، ثم سحبت يدى ومكثت جامدا لا حراك بى

فأما فى بادىء الامر فقد خشيت الجرذان أمرا ما ، فظلت خائفة حذرة لا تفقه معنى لهذا الجمود يعقب الحركة وأولتنى ظهورها منصرفة عنى ، وراح بعضها يتطلع الى البئر . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، وتحقق ما توقعته من شره الجرذان . فلما طال بى الجمود تقدم من بين الجرذان أشجعها وتسلق اللوحة الخشبية التى كنت مشدودا اليها ، وراح يستروح رائحة الوثاق . وبدا لى أنها اشارة للهجوم العام . فخرجت من البئر فرق جديدة وتعلقت بالاخشاب ، ثم تسلقتها ووثبت على بالمئات ، ولم تكن حركة العقرب لتزعجها البتة ، اذ كانت الجرذان تتحاماها وتعمل قضما فى الحبل المضمخ باللحم ، وكانت تدب على دبيب النمل ، وتتجمع على جسدى ، وتتزاحم على عنقى ، وشفاهها الباردة تبحث عن شفتى ، وكاد يخنقنى حملها الثقيل وتقززت نفسى على شكل لا يعرف العالم له اسما . وكنت أحس فى صدرى رغبة فى التقيؤ . غير أننى تجالدت وشعرت أنه لن تمضى دقيقة حتى ينتهى عمل الجرذان ، لاننى بدأت أحس الحبل يتراخى ، وأشعر أن الجرذان قد قطعته فى أكثر من موضع واحد . غير أنى بذلت جهدا فوق طاقة البشر لاحتفظ بجمودى ، فلم تخب آمالى ولم يذهب عذابى سدى ، اذ أننى لم ألبث ان رأيتنى حرا طليقا من كل قيد ، وقد حال الوثاق الى قطع ممزقة . غير أن العقرب أصبح يلامسنى، وقد اخترق ثوبى وقطع القميص الذى يلابس جسمى . واذا أكمل العقرب رحلتين أحسست ألما حادا يسرى فى أعضائى جميعا . ولكن ساعة الخلاص دنت ، فما هو أن رفعت يدى حتى لاذ منقذى بالفرار . أما أنا فقمت بحركات فى منتهى التأنى والهدوء منكمشا على نفسى ما أمكن ، ساحبا جسدى من تحت العقرب ، حتى خلصت من شفرة السيف المصلت فوقى ومن وثاقى معا وأصبحت حرا ولو الى حين !

أصبحت حرا ونجوت من مخالب محاكم التفتيش ، ولكننى ما كدت أنجو من ذلك العذاب الهائل ، وأخطو فى سجنى بضع خطوات حتى وقفت الآلة الجهنمية عن الحركة، ورأيتها تنجذب الى السقف فتخترقه بقوة غير منظورة ، فملأنى هذا الدرس الذى ألقى على رعبا ويأسا وأيقنت أن جميع حركاتى وسكناتى كانت تحت المراقبة الدقيقة . أصبحت حرا ! بل اننى ما نجوت من الموت على شكل من اشكال الاحتضار ، الا لأدفع الى الموت على شكل آخر . عند ذلك رحت أجيل فى الجدران الحديدية المحيقة بى نظرات معذب معتوه ، واذا بشىء غريب جديد لا سبيل الى الشك فيه يحدث فى الزندان . فمرت بى

لحظات ملأتها أوهاما وافتراضات ، وأنا أرتجف ، وللمرة الاولى منذ وجودى فى ذلك المكان الرهيب وقفت على مصدر النور الكبريتى الذى كان ينير السجن . كان ذلك النور يتسلل من شق صغير ، على طول أساس الجدران ، فأيقنت ان الجدران كانت منفصلة عن الارض تمام الانفصال ، وعبثا حاولت أن أرى شيئا من خلال الشق

وفيما كنت انهض يائسا ، اتضح لى سر الغرفة وتفكك أجزائها ، كما اتضح لى سر التبدل الذى حصل فيها منذ حين . وكنت قد لاحظت أن خطوط الصور المرسومة على الجدران كانت واضحة ولكن ألوانها كانت باهتة غامضة . اما الآن ، فقد أخذت هذه الالوان تتألق تألقا غريبا يخلع على تلك الرسوم أشكالا تهد أعصاب أى انسان لم تهبه الطبيعة أعصابا متينة كأعصابى . وكانت عيون الابالسة الفاتكين ترصدنى من ألف مكان وتلمع لمعانا مخيفا بلهيب من نار حاولت عبثا أن أنسبها الى اختراع المخيلة

كلا ! لن تكون تلك النار من اختراع الخيال ! اذ كان يكفى أن أتنفس حتى تملأ خياشيمى رائحة الحديد المحمى وامتلأ جو السجن برائحة قتالة . وشعرت أن بريق العيون التى كانت ترقب احتضارى يتضاعف شيئا فشيئا ، كما كانت تلك الرسوم الدموية المخيفة تزداد صبغتها احمرارا . كنت الهث وأكاد لا أقوى على التنفس ، ولم يبق عندى ريب فيما أعده لى جلادىّ . الويل لهم ! لقد تحجرت قلوبهم وخلت من كل رحمة تبا لهم من أبالسة جحيم !

تراجعت عن الجدران الفولاذية المحماة ، صوب الوسط ، وراودتنى ، أمام الموت احتراقا ، فكرة الرطوبة التى تحتويها البئر ، فشعرت بها بلسما لجراحى ، وهرولت الى حافة البئر القاتلة ، وأرسلت نظرى فى قعرها ، وكان لهيب السقف يضىء زواياها . الا أن عقلى لم يسلم ، مدى لحظات ، بما كانت ترى عيناى . غير أننى أخيرا فهمت ، وأدركت على الرغم منى ، ما دبر لى . رباه ! من يهبنى لسانا لاتكلم ، لاصرخ ؟ لقد رضيت جميع صنوف العذاب ، الا هذا !

صرخت ، وتراجعت عن فوهة البئر ، ودفنت وجهى فى يدى وأجهشت بالبكاء والنحيب

وكان الحر يتزايد باستمرار . ورفعت نظرى ثانية وأنا انتفض كمن أصيب بالحمى ، فرأيت ان قد حدث فى الزندان تبدل جديد ، ولم يخامرنى شك فى أن شكل الحجرة قد طرأ عليه تبديل . ولم أستطع فى بادىء الامر أن أدرك مدى ذلك التغير ، غير أنهم لم يتركونى طويلا أتخبط فى غياهب الشك ، اذ ان انتقام محاكم التفتيش أخذ الآن يسير معجلا بعد أن أزعجت أربابها السعادة التى نعمت بها مرتين ، ولم يبق من مجال للمزاح مع ملك التعذيب. كانت الحجرة أول ما كانت ، مربعة الشكل ، فاذا بزاويتين من زواياها الاربع تنفرجان وزاويتين تضيقان . واذا الغرفة آخذه بالاستطالة وجدرانها تقترب منى وتضيق على الخناق ، وأنا أتمنى معها لو تطبق على تلك الجدران الحمراء كثوب يحمل فى طياته السلام الدائم

رحماكم ! أدركونى بالموت ، وانجدونى به ! اقتلونى كما تشاءون ، الا اختناقا فى هذه البئر

يا لى من مجنون ! ألم أفهم أن البئر لا مناص منها ، وأنها وحدها السبب فى الحديد المحمى الذى يحصرنى ؟ هل كان فى قدرتى أن أقاوم لهيبه ؟ واذا افترضنا أننى قدرت على ذلك ، فكيف أقاوم ضغط الحديد ؟

وها هى الحجرة تزداد طولا وجدرانها تتدانى مسرعة بحيث لا تدع لى مجالا للتفكير . أما نقطتها الوسطى فقد كانت فوهة البئر . وها أنا أحاول أن أتراجع فتصدنى الجدران النارية ، المتقاربة أبدا بعضها من بعض ، وها هو جسمى قد أصيب بحروق ورضوض ، ولم يبق فى الغرفة مكان يسعه ، بل لم يبق فيها موطىء لقدمى ! أصبحت لا أناضل ، ولا أكافح ، ولكن احتضارى ارتفع فى صرخة طويلة هائلة بعثها اليأس ، وشعرت أننى اترنح على فوهة البئر فحولت أنظارى ....

وفجأة طرقت أذنى أصوات بشرية ، ثم عصفت أبواق ، ثم هدير جبار كأنه صادر عن ألف صاعقة ، واذا بجدران النار تتباعد فجأة متراجعة بعضها عن بعض ، ويد ممدودة تمسك بى ، وأنا أهوى متلاشيا فى الهوة الفاغرة فاها . كانت تلك اليد يد الجنرال لاسال ، وكان الجيش الفرنسى قد احتل طليطلة فى تلك الساعة وأمست محاكم التفتيش فى قبضة أعدائها

خليل تقى الدين

من نوادر المتنبئين

أخذ رجل ادعى النبوة أيام المهدى ، فأدخل عليه ، فقال له : أنت نبى ؟ قال : نعم . قال : والى من بعثت ؟ قال : أوتركتمونى أذهب الى أحد ؟ ساعة بعثت وضعتمونى فى الحبس . فضحك منه المهدى وخلى سبيله

وتنبأ آخر فى زمن المأمون ، فقال له المأمون : أريد منك بطيخا فى هذه الساعة . قال : امهلنى ثلاثة أيام . قال : ما أريده الا الساعة . قال : ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين ، اذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ، ما يخرجه الا فى ثلاثة شهور ، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام ؟!

فضحك منه المأمون وعفا عنه

تاريخ بيت يكتب فيه التاريخ

البيت الأبيض

لم يسم « البيت الابيض » الا منذ عهد قريب ، فى عهد رئاسة تيودور روزفلت الذى أحال لونه من أغبر قاتم الى أبيض ناصع . أما حين وضع حجره الأساسى منذ مائة وخمسين سنة فكان يسمى « قصر الرئيس » ثم أطلق عليه لقب فخم فسمى « مقر السلطة التنفيذية »

وقد أقيمت مسابقة دولية لبناء هذا البيت ، فاز فيها المهندس الايرلندى جيمس هوبان من بين تسعة عشر مهندسا اشتركوا فى المسابقة . واختار له هذا المهندس اللون الاغبر القاتم ، ولكنه كان لونا كئيبا مقبضا لا يلائم الروح الامريكى المرح المنطلق ، فجاءوا بمائتى جالون من الزيت الأبيض وبخمسة وعشرين نقاشا ، فأحالوه الى بيت ناصع البياض .

وكان أول من أقام فيه الرئيس جون آدمز ، ولم يكن فيه حين دخله فى سنة ١٨٠٠ سوى ست حجرات اتخذ منها مسكنه ومكتبه . ورفضت زوجته أن تقيم معه فى هذا المسكن الضيق ، فبعد أن أقيمت حفلة الاستقبال الاولى التى كان لا بد لها من حضورها، استقلت عربتها الى بيت أمها فى «ماساشوستس» الى أن انتهت مدة رئاسة زوجها فلحق بها!

وأقام فى البيت الابيض واحد وثلاثون رئيسا ، أضاف كل منهم الى المبنى شيئا جديدا. فالرئيس واشنجتون هو الذى اختار موقعه وفى عهده بدأ تشييده . وفى عهد الرئيس آدمز بنى سلمه ووضع فيه جهاز التليفون . وعنى الرئيس جيفرسون بما حول البيت فغرست الحدائق والاشجار . ولم تكن امريكا حينذاك قد بلغت ما بلغته اليوم من البذخ والاسراف ، فأقيم لموظفى الرئاسة فى عهد جيفرسون بضع غرف من الخشب الى جوار البيت . ولكى يكون هناك تناسق فى مظهر البيت ، أقيمت فى الجانب الآخر منه حظائر للماشية . واشترى الرئيس عددا من الابقار ظلت تمون سكان هذا البيت باللبن والزبد والجبن حتى سنة ١٨٦٦ !

وأحدث الرئيس مونرو تغييرا كبيرا فى داخل البيت ، اذ جاء اليه من بيته الخاص بأثاث ثمين باعه للحكومة بتسعة آلاف دولار

ولما انتخب فان بورن رئيسا أبى أن ينتقل الى البيت الابيض حتى تدهن جدرانه ، وتغطى أرضه ، ويغير ما فيه من آنية « الصينى » والزجاج . وقد كلف هذا خزانة الدولة ستين ألف دولار . ولكن هذا الاسراف غير رأى الناس فيه ، وخاصة لما علموا

أنه اشترى فيما اشترى طاقما من الملاعق الذهبية !

ولما مات الرئيس تايلور أثر اصابته بالحمى ، تولى الرئاسة ـ بحكم الدستور الامريكى ـ وكيل الرئيس فيلمور ، فأتم المدة الباقية من سنى الرئاسة الاربع . ولكنه أدخل فى البيت الابيض خلال هذه المدة الوجيزة تغييرا كثيرا ، اذ اقترحت زوجه انشاء مكتبة فيه اختارت لها غرفة فى الطابق الثانى . ولكن أين المال ؟ أقامت حفلة موسيقية عائلية لاعضاء الكونجرس ، وأخذت هى وابنتها فى أثناء الحفلة يتحدثون الى أضيافها عن قيمة الكتب والمكاتب فى تجميل البيوت وتحبيبها الى ساكنيها . فلما انعقد الكونجرس وطلب اليه اعتماد المال اللازم لانشاء مكتبة فى دار الرئاسة أقر الطلب ، فأنشئت مكتبة صغيرة حافلة بكتب التاريخ والسياسة الى جانب مجموعة من قصص الادباء ودواوين الشعراء

ولكن لنكولن ، عضو المؤتمر ، عارض فى اضاعة المال فى مثل هذا الترف . بينما الجنود يسيرون حفاة ويلتحفون العراء .. والواقع أن لنكولن كان أكثر من نزلوا هذا البيت اقتصادا ، فان كل ما جاء به اليه فى أثناء رئاسته « سرير » طوله سبع أقدام لان السرير القديم كان أقصر من أن يتسع لقامته المديدة

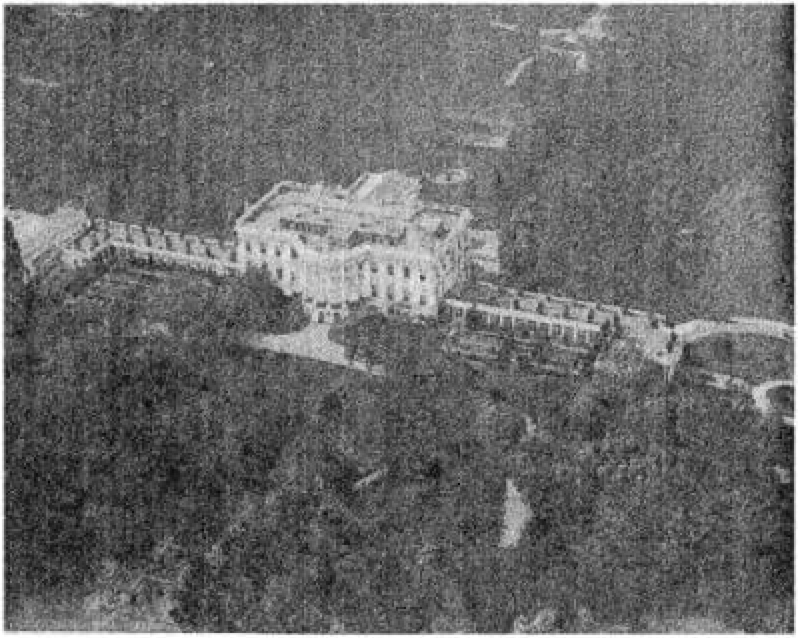
وخلف لنكولن الرئيس جرانت ، فكان على النقيض من سلفه ، اذ كان ينفق فى بعض الحفلات ألفا وخمسمائة دولار ، وهو مبلغ ضخم حينذاك ، ولما أراد الامير الانجليزى « ارثر أوف كونوت » أن يزور دار الرئاسة ، أمر بتغيير جميع أثاثها بأثاث جديد من طراز عهد الملكة فكتوريا

وأضافت زوجة الرئيس هايز طاقما من أدوات المائدة يتألف من ألف قطعة ، اشترتها بخمسة وعشرين ألف دولار ، اقتصدتها من نفقات الولائم والحفلات . وكانت كل قطعة من هذه القطع الالف مزينة بصورة نبات أو حيوان مما فى أرجاء الولايات المتحدة

ولما انتخب آرثر رئيسا أبى أن ينتقل الى دار الرئاسة حتى يجدد أكثر ما فيها من الأثاث والرياش ، فخرجت منه أربع وعشرون عربة محملة بما بيع فى المزاد . وأدخل هاريسون الاجهزة الكهربائية فى البيت . أما جاكسون فقد بنى فيه جناحا كاملا ، فغدا البيت بعد ذلك مستديرا كل الاستدارة

ثم جاء تيودور روزفلت ، وكان شديد الكلف بالمظاهر ، وهو الذى قيل فيه اذا كان فى عرس أراد أن يكون العريس واذا كان فى مأتم ود لو كان الجثة ! فاستقطع من الجزء المخصص للسكن بضع غرف أضافها الى الغرف المخصصة للولائم والحفلات ، فقد كان يدعو اليها جما غفيرا حتى قيل ان أبواب البيت كانت تضيق بهم عند انصرافهم ، فكان بعضهم يقفز من النوافذ .. وفى عهده اعتمد الكونجرس نصف مليون دولار لتوسيع البيت ، وتجديد أثاثه ، ودهانه باللون الابيض

ولما دخلت امريكا الحرب الماضية فى سنة ١٩١٧ ، أمر الرئيس ويلسون أخذا بسياسة الاقتصاد ببيع ما فى حظيرة البيت من الاغنام ، فبيعت عشرون نعجة وتبرع الرئيس بثمنها



منظر عام للبيت الأبيض التقط من الجو

لجمعية الصليب الاحمر . وكذلك اقفر البيت من الحفلات حتى جاء الرئيس هاردنج فى بداية عهد السلم ، فكانت فترة من المرح والبهجة حفل فيها البيت بولائم العشاء والحفلات الساهرة

واتسع البيت فى عهد الرئيس كوليدج ، فصارت فيه سبع غرف للنوم ، وغرف كثيرة لخدم البيت ، تشغل أكثر الطابق الثالث الذى بنى حينذاك

وحول الرئيس هوفر غرفة المكتبة البيضاوية الى صالة سينما ، اذ رأى الا يحرم بيت رئيس أمريكا من النعمة الاولى التى ابتكرتها أمريكا

والآن ، فى عهد الرئاسة الثالثة من رئاسات روزفلت ، لا يشهد البيت الابيض شيئا من الولائم والحفلات . بل لم يعد على أبوابه هذا العدد الجم من الجنود والحراس ، فثمة فى ميادين القتال ما هو أولى بهم . ولهذا لم يبق مفتوحا من أبوابه سوى باب واحد عليه نفر من الحجاب يتفرسون فى كل رائح وغاد

ولكن العمل فى البيت الابيض تضخم وتفرع ، فاقتضى الامر انشاء جناح جديد فى الجانب الشرقى منه ليتسع لهيئة السكرتارية التى يبلغ عدد موظفيها الآن أكثر من مائتى موظف

(عن صحيفة ورلد دايجست)

البنسلين : آخر معجزات الطب

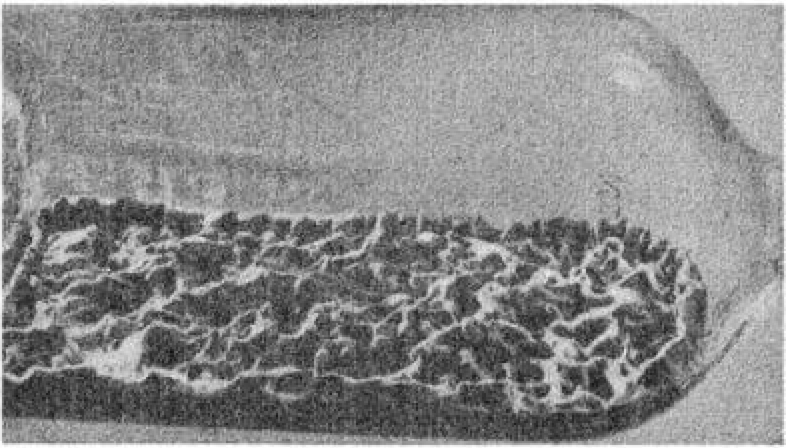
فى وسط هذه الحرب العظمى التى تودى فى كل يوم بآلاف من القتلى وتترك فى كل يوم آلافا من الجرحى ، توفق الانسانية الى دواء ينقذ من الموت آلافا كان مقضيا عليهم بالفناء ، ويريح من الألم آلافا يئنون من الجراح الدامية ويعانون من الأدواء العصية

هذا الدواء هو « البنسلين » الذى كثر عنه حديث العلماء وكلام الناس فى الشهور الماضية . وكأنما أراد « العلم » ان يعطى بيد ما سلبه بيد أخرى ؛ فآلات الدمار التى ابتكرها ومواد الفتك التى صنعها ، قد وضع مقابلا لها هذا الدواء الذى لم يبتكر من قبل مثيلا له فى اثره الناجع وقوته الفعالة . بل ان مادة « السلفانيلاميد » ومشتقاتها — وقد كانت منذ قليل أنجع دواء عرفه الطب الحديث ، لم تعد تذكر شيئا الى جانب « البنسلين » الذى يتخذه الاطباء فى علاج أنواع من الامراض والجروح كانت عصية عليهم منذ عهد قريب

وتؤخذ مادة البنسلين من « العفن » ، ذلك النبات الطفيلى الذى يتكون على الخبز أو الجبن أو البرتقال الفاسد أو ما يشبه ذلك . وقد كشف عن هذه المادة العجيبة العالم الانجليزى الدكتور الكسندر فلمنج فى سنة ١٩٢٩ . وكان كشفه عنها بطريق الصدفة كما هو الشأن فى أكثر الكشوف العلمية الكبرى . فقد كان يربى بعض الجراثيم على قطعة من الزجاج تركها فى الهواء الطلق . فسقطت فى وسط الزجاجة قطعة من « العفن » حملها الهواء . وجاء يفحص جراثيمه



قطعة من العفن الذى تستخرج منه مادة البنسلين ، أخذت صورتها من خلال عدسة المجهر . ولكن من المتعذر استخراج كميات كبيرة من هـذا العفن الطبيعى ، ولهذا تتجه الجهود الى تربية العفن فى المعامل بأيدى العلماء والاخصائيين



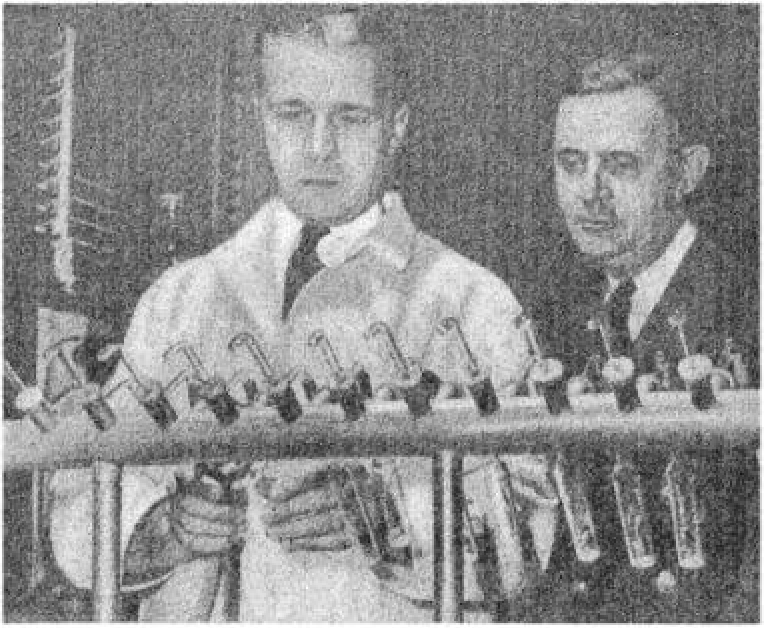
وهذه إحدى الزجاجات التي يربى فيها العفن بالمعامل الكيمياوية ، ليمكن تحضير كميات كبيرة من بنسلين تكفي حاجة جنود أمريكا وبريطانيا المنتشرين في أرجاء العالم ، مرضيين للجراح الخطيرة والكثير من الأمراض



تقوم الآن في أمريكا وبريطانيا عشرات المعامل المختصة بإخراج البنسلين . وهذه صورة جانب من أحد معامل أمريكا ، حيث تقوم إحدى العاملات بصب العصارة المتعفنة التي يؤخذ منها البنسلين



أصيب هذا الطفل البالغ من العمر سنتين بحالة خطيرة من التسمم الدموي ، فعولج بالبنسلين فشفي من هذا المرض الذي كان يستعصي علاجه على الأطباء في مثل هذه السن الباكرة



أثبت البنسلين أنه الدواء الناجع لكثير من الأمراض السرية ، فأثره في شفاء السيلان ناجع الى أقصى حد ، وكذلك يرجى أن يكون هكذا في علاج مرض الزهري . وهذا رئيس قسم الأمراض السرية في وزارة الصحة الأمريكية يشرف على تعبئة الأنابيب بمادة البنسلين لتتخذ في مقاومة هذه الأمراض

بالمجهر ، فوجد ان ما حول قطعة العفن قد صار أبيض صافيا ، دلالة على أن ما فيها من الجراثيم قد ماتت . فاستنتج من ذلك أن هذه المادة فيها ما يقتل الجراثيم بطريقة أسرع وأقوى من أية مادة أخرى كشف عنها الطب . وأجريت تجارب كثيرة أدت الى الكشف عن هذه المادة التي يحتويها العفن ، وسميت باسم « البنسلين » نسبة الى الاسم العلمي لمادة العفن التي استخرجت منها

وقد أثبت البنسلين أنه الدواء الناجع للجروح والقروح المتعفنة الخطيرة ، فلما قامت الحرب ، صارت الحاجة ماسة الى مقادير كبيرة من البنسلين تعالج بها جروح الجنود المنبثين في أرجاء الارض . فاتجه بحث العلماء الى انتاج البنسلين في المعامل بالطرق الكيماوية ، فنجحوا في ذلك وأنشأوا في بريطانيا وامريكا عشرات من المعامل التي تمون ميادين القتال بما يلزم جنودها من هذا الدواء الشافي من الجروح الخطيرة التي كانت تعصف في الحروب الماضية بآلاف الارواح ، اذ يقضي على ٩٠ ٪ من الجراثيم التي تسمم الجروح

وقد ذاع اسم البنسلين في أرجاء العالم منذ شهور عند ما نقلت كمية منه بالطائرة الى افريقيا ليعالج به مستر ونستون تشرشل من مرض الالتهاب الرئوي الذي أصابه عقب مؤتمر القاهرة . وغدا ، بعد ما تنتهي الحرب ، يصبح هذا الدواء في متناول جماهير الناس في مختلف بقاع الارض لتعالج به الامراض التي أثبت قدرته عليها وأهمها حالات الغنغرينة، والالتهاب الرئوي، والسيلان، والزهري ، وقد يتسع نطاق فائدته فتشمل امراضا أخرى ما زال الطب يتعثر في علاجها ومنها مرض التدرن الرئوي ومرض السرطان وكذلك بعض الحميات الخطيرة

العلم والعالم

مصر تساهم فى تعمير أعظم متحف طبي

متحف الكلية الملكية للجراحين فى بريطانيا هو أعظم المتاحف الطبية ومن أقدمها عهداً، فانه يحتوى على ١٤٠٫٠٠٠ نموذج جمعت على مر الأيام منذ انشائه فى سنة ١٧٨٤

أنشأ هذا المتحف الجراح الانجليزى جون هنتر (١٧٢٨ — ١٧٩٣) • ثم تولت أمره كلية الجراحين بعد أن دفعت فى شرائه واحداً وعشرين ألف جنيه ، وأخذت منذ ذلك الحين تمونه بأندر الموميات التى تلقى دراستها ضوءاً لا على الطب والجراحة وحدهما ، بل على علوم شتى منها التاريخ ، وعلم الاجناس

فهو يشتمل على أقدم مومياء فى العالم ، وهى مومياء أمير مصرى مات فى سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد • وبه مجموعة من رؤوس الجنس الماؤرى الذى كان يسكن استراليا قبل كشفها وكلها مزخرفة برسوم الوشم • وكذلك ست جماجم من سكان امريكا الاصليين المعروفين بهنود الامازون الحمر

ويضم المتحف الهيكل العظمى للعملاق الايرلندى شارل بيرن الذى يبلغ طول قامته سبع أقدام وسبع بوصات ونصف بوصة • والى جانبه هيكل قزم من أبناء صقلية يدعى كارولين اوراشامى ويبلغ طوله تسع عشرة بوصة !

ومن محتويات المتحف هياكل بعض المشهورين فى التاريخ ، منها هيكل الملكة برنجاريا زوجة ريتشارد قلب الاسد الذى أبلى بلاء عظيماً فى الحروب الصليبية

ولكن الحرب لم تشأ أن تعفى هذا المتحف العلمى العظيم من نقمتها ، فأصابته بعض القنابل الضخمة فى اثناء معركة بريطانيا ، فهدمت اجزاء من مبناه وحطمت كثيراً من هياكله ونماذجه ، وقد وجهت صحيفة « التيمس » الانجليزية نداء الى الهيئات الطبية فى العالم أن تساهم فى تعمير هذا المتحف وامداده بما يزيد عن حاجتها من الوميات

وقد رأت كلية الطب بالقاهرة — وهى تعد من خير كليات الطب فى العالم — أن تساهم فى هذا العمل العلمى الجديد ، فأعلن الدكتور على ابرهيم باشا أن مصر يجب عليها كما يشرفها أن تشارك فى تمكين هذا المتحف من استئناف أداء رسالته العلمية • ولكن تنفيذ هذه المشاركة لن يتم الا بعد ان تتيسر سبل المواصلات الى انجلترا ، والى أن يتهيأ للمتحف البريطانى من الاوعية والادوات العلمية ما يمكنه من حفظ ما يرسل اليه من هياكل وموميات

تجربة فى التنويم المغناطيسى

روت احدى الصحف العلمية فى امريكا أن رجلا أراد أن يلتحق بوظيفة « ساعى بريد » ، يحمل الرسائل من دار البريد ويوزعها على سكان أحد الاحياء • وكان مطلوباً ممن يريد هذه الوظيفة أن يكون عارفاً اسماء ما فى الحى من الشوارع والطرقات والميادين • وحاول ذلك الرجل أن يحفظ هذه الاسماء وموقع كل منها فلم تسعفه ذاكرته • فذهب الى أحد المنومين المغنطيسيين فنومه ، وأخذ يقرأ عليه اسماء هذه الشوارع والدروب ومواقعها واتجاهاتها • وكان عددها قرابة الالفين • وذهب الرجل الى الامتحان الذى عقدته دار البريد ، وسئل عن شوارع الحى وفروعها واحداً واحداً، فلم يخطىء فى أى منها ، وظفر بالوظيفة

جهاز لتيسير التعليم

هذا هو جهاز « السينكرفون » الذى اخترعه أخيرا ن. ساندور عضو جمعية المهندسين الميكانيكيين بلندن. وقد وصفته « النشرة العلمية الشهرية » التى يصدرها المجلس البريطاني فيما يلى :

« يجمع هذا الجهاز بين جهازين : أحدهما سمعى ، أى مختص بالاذن ، والآخر بصرى ، أى مختص بالعين . أما الجهاز البصرى فيتكون من اطار زجاجى تظهر عليه صور مضاءة يتبع بعضها بعضا . والجهاز السمعى هو عبارة عن حاكى (فونغراف) يمكن بواسطته شرح كل صورة وقت عرضها فى الاطار الزجاجى

« وفى السينكرفون من المزايا ما يفضل به السينما ، وبخاصة فى التدريس . وذلك لان الصور المعروضة يمكن رؤيتها فى رابعة النهار ، ولانه من الممكن ايضا بقاء كل صورة فى الاطار لبضع ثوان . ففى القاء الدرس الاول يمكن للمعلم إبطال الحاكى . ثم شرح الصور بكلمات وملاحظات من عنده . وابقاء كل صورة فى الاطار لاى مدة يختارها . ثم يمكنه بعد ذلك ادارة الحاكى . واعادة الدروس

« وقد استخدم أولو الامر من الحربيين ببريطانيا السينكرفون فى تعليم الجنود شتى الامور الخاصة بالحرب ، فاستخدم مثلا فى تعليم الملاحة النجمية أى الملاحة وعلاقتها بمواقع النجوم . وكذلك فى الاستدلال على انواع الطائرات وهى محلقة فى السماء . ثم فى تعليمهم كل ما هو خاص بالمدافع ، ثم بيان وشرح الاجزاء التى تتركب منها . وكذلك ايضاح كل ما له علاقة بالاجهزة الحربية الاخرى . وقد استخدم السينكرفون أيضا فى ارشاد المبتدئين من عمال الذخيرة الى اسلم الطرق لادارة الماكينات والاجهزة الخاصة بهذه الصناعة ، ومن الطرق التى يمكن باتباعها جعل الانتاج اكثر ما يكون

« ومن النواحى الاخرى التى أمكن فيها استخدام السينكرفون تعليم الزراع الطرق التى يمكن بها التعرف على الحشرات الزراعية ، وارشادهم الى الطرق التى يمكن باستخدامها ابادة تلك الحشرات . ويمكن فى هذه الحالة وضع الجهاز فى عربة متنقلة لارشاد المزارعين اما فى مزارعهم أو فى حقولهم . وقد اثبتت التجارب ان وقوع الصور الثابتة غير المتحركة فى آن واحد مع الشرح الشفهى ترسخ رسوخا تاما فى الذاكرة فلا تنسى على مر الايام . ويمكن القول بأن هذه الطريقة يمكن استخدامها فى أى غرض مهما كان نوعه ولتدريس أى علم كان »

الحروب تزيد المواليد

بلغ عدد المواليد فى الولايات المتحدة الامريكية فى سنة ١٩٤٣ رقما قياسيا قدره ٣٬٢٠٠٬٠٠٠

وهذا الرقم يزيد قرابة مليون مولود عن عدد المواليد فى سنة ١٩٣٣

ولا شك أن مرجع ذلك الى أن نسبة المواليد تطرد زيادة ونقصانا مع حالة الرخاء ومستوى المعيشة ، فمنذ عشر سنوات كانت امريكا ترزح تحت أزمة اقتصادية خطيرة فكان طبيعيا أن ينقص عدد مواليدها ، أما اليوم فقد أحدثت الحرب حالة رخاء مشهود ، بقضائها على البطالة ورفعها أجور العمال ، فكانت النتيجة زيادة نسبة المواليد فيها الى مستوى لم تبلغه من قبل

ولكن قد يكون هناك عامل طبيعى آخر ، وهو رغبة الطبيعة فى أن تعوض من يموت فى عهد الحرب ، اما بأسلحة القتال واما بالاوبئة التى تنتشر ابانها ، بالاكثار من المواليد . وعمل الطبيعة فى هذا الشأن غير منكور ، ومنه صرفها الناس عن فكرة الانتحار حتى لتكاد تنعدم حوادثها فى اثناء الحروب ، وكذلك ترغيبها الناس فى الزواج والنسل فى سنوات الحرب ، وكل ذلك لتعوض على البشرية من تفقدهم فى ميادين القتال أو بفتك الاوبئة

الطب الأحمر

ونعني به الطب في روسيا التي أثبت تفوقه على مثيله في سائر الاقطار ، كما اثبت الجيش الاحمر غلبته على أعتى الجيوش وأخطرها

فقد بلغ عدد الجرحى من الجنود الروسيين منذ قامت الحرب بين ألمانيا وروسيا قرابة ثلاثة ملايين جندى . فكان هذا العدد الضخم أكبر مشكلة واجهها الطب الحربى في اية حرب شهدها التاريخ . ولكن الاحصاءات الروسية تقرر ان ٧٠ ٠/٠ من هؤلاء الجرحى قد عادوا سالمين أصحاء أما الى الحرب في ميدان القتال ، واما الى العمل في مرافق الانتاج الحربى

وتؤكد هذه الاحصاءات انه لم يمت من جنود روسيا الجرحى سوى ٢/١ ١ ٠/٠ من مجموعهم . وهذا رقم قياسى لا مثيل له لا في هذه الحرب ولا في أية حرب سابقة ، بل ان هـذا العمل الجليل ليفوق ما قام به الامريكيون الذين انقذوا خمسة وتسعين شخصا من كل مائة شخص جرحوا في معركة ميناء بيرل

ولا شك أن هذه مفخرة من مفاخر روسيا السوفياتية ، ففى سنة ١٩١٤ لم يكن عـدد الاطباء في روسيا يجاوز أربعة وعشرين ألف طبيب ، فكان الجيش الروسى في الحرب الماضية أقل من جميع جيوش الدول الكبرى من الوجهة الطبية . أما وقد أخذت روسيا السوفياتية في بناء قوة حربية هائلة تنفيذا لخطتها في الدفاع عن وطنها ومبدئها ، فقد أقامت لهذه القوة خدمة طبية متوافرة الكفاية . فزادت عدد كليات الطب من ١٣ كلية في سنة ١٩١٤ الى ٧٢ كلية في سنة ١٩٣٩ . وكذلك صار فيها أكثر من مائة وستين ألف طبيب أى سبعة اضعاف من كانوا فيها في سنة ١٩١٤ ، هذا وقد اشترت روسيا من امريكا في اثناء هذه الحرب أدوية ثمنها أربعة ملايين من الدولارات

ويرجع الفضل في انقاذ الجزء الاكبر من الجنود الجرحى الى سرعة نقلهم الى المستشفيات . فقد كانوا يتركون فيما مضى في ساحة القتال الى أن يقبل الليل وينتشر الظلام ، فيحملون على العربات أو الى القطارات . وبذلك كانت تنقضى ساعات طويلة بين اصابة الجندى وبين نقله الى المستشفى ، يفسد في اثنائهـا الجرح فتصعب معالجته . أما الآن فقد خصص الجيش الروسى عـددا كبيرا من المرضات يسميهن الجنود « صديقات الخط الاول من خطوط النار » يسرن مع الجنود صفا صفا ، فاذا سقط أحدهم أسرعن بحمله ونقله . . ولا يتم النقل بالعربات أو السيارات ، بل هناك طائرات خاصـة لنقل الجرحى ، أعدت فيها الارائك الخاصـة بهم ، وتنقل الواحدة منها عشرات الجنود

وتقوم هؤلاء الممرضات بالاسعافات الاولى التى تلزم للجرحى . ومن هذه الاسعافات عملية نقل الدم . وقد كشف أحد علماء روسيا عن نوع من الدم سماه « النوع العام » الذى يصح أن يحقن به أى شخص بغض النظر عن الفصيلة التى ينتمى اليها دمه . فتحمل كل ممرضة كمية من هذا الدم قدرها مائتا جرام ، تحقن منهـا الجندى الجريح اذا كان في حاجة اليها ، قبل أن يصل الى المستشفى

وتكافأ هؤلاء الممرضات بالاوسمة على مايبدينه من الجرأة والصبر في نقل الجنود الجرحى . ولكن يشترط أن تنقل الجندى ومعه سلاحه ، فالتى تنقل ثمانين جنديا وبنادقهم تمنح وسام لينين ، ومن تنقل أربعين جنديا وأسلحتهم تمنح وسام اللواء الاحمر . وقد ظفر كثير منهن بهذه الاوسمة التى تزين صدور الابطال من الرجال والنساء

ذاكرة عجيبة

في سنة ١٦٥٦ زارت الملكة كريستينا ملكة السويد مدينة ليون بفرنسا ، لانها سمعت ان في هذه المدينة رجلا وهب ذاكرة عجيبة لا يمر بها شيء الا استوعبته وذكرته . وذلك الرجل هو الابيمنستريير المعلم بكلية الجزويت في المدينة . وأرادت الملكة اختباره ، فكتبت ثلاثمائة كلمة مختلفة ، جمعتها من هنا ومن هناك ، دون أن يكون بينها أية صلة أو ارتباط . وقالت له : سأقرأ عليك هذه الكلمات وعليك أن تعيدها مرتبة كما تلوتها . فلما قرأتها تبسم قليلا ، وأعاد تلاوة الكلمات الثلاثمائة كما قرئت عليه ، دون أن ينسى كلمة منها ، بل دون أن يقدم أو يؤخر كلمة عن موضعها !

السرطان أفتك من الحرب

مات بداء السرطان ١٦٣٫٤٠٠ من أهل الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٩٤٢ ، في حين أن عدد من قتل من جنود هذه البلاد المنتشرين في أرجاء الارض وبحارها وأجوائها ، منذ بداية الحرب حتى آخر سنة ١٩٤٣ لم يجاوز ٢٩٫١٠٤ أفراد

وقد انفقت الحكومة الامريكية في الحرب في خلال هذه الفترة ١٣٨٫٦٠٢ مليونا من الدولارات ، أي بمعدل ٤٫٧٥٠٫٠٠٠ دولار مقابل كل قتيل من جنودها ، أما ما انفقته طوال سنة ١٩٤٢ في مكافحة السرطان ، بالبحث في منشأ هذا الداء الوبيل ، فكان مليون دولار ، أي بمعدل أربعة دولارات وثلاثة أرباع الدولار مقابل كل وفاة تحدث بمرض السرطان

وهذا دليل على أن الانسانية ما زالت مقصرة في مكافحة عدوها الحقيقي : وهو جراثيم الامراض الفتاكة التي تودي من أرواح البشر بأضعاف أضعاف ما تودي به أعتى الجيوش وأضخم الاساطيل

غرائب عن النيازك

■ يقدر العلماء أن عدد النيازك التي تنفصل من كواكبها بخمسة عشر مليون نيزك في كل أربع وعشرين ساعة . ولكن أكثر هذه النيازك يحترق وهو على بعد شاسع من الارض فلا يصل الى سطحها بل يتبدد في الفضاء . على أنه في بعض الحالات الشاذة يبلغ النيزك سطح الارض ويرتطم بها ، ولكن هذا نادر الحدوث الى درجة ان منطقة فسيحة مثل ولاية كنساس في امريكا قد لا يقتل منها بسبب سقوط نيزك الا واحد في كل أربعة عشر ألف سنة !

■ من أعظم النيازك التي سقطت على الارض ذلك الذي سقط في سيبريا الشمالية في سنة ١٩٠٨ ، فأحدث حريقا هائلا في غاباتها أتلف رقعة منها مساحتها مائة ميل مربع . وقد أحدث هذا النيزك أمواجا هوائية أحستها المراصد الفلكية في أقطار شاسعة منها انجلترا

■ هذا النيزك الذي سقط في سيبريا قد صار ربا تعبده بعض القبائل القيمة هناك ، اذ تزعم أنه اله هبط من السماء ليوقد نارة في الشجرة والعصاة !

■ يعود الفضل في اخماد احدى الثورات الى نيزك سقط في سنة ١٩٠٦ في بقعة من بقاع أمريكا الوسطى . فقد قامت احدى الجماعات هناك بثورة كبيرة ، ولكن نيزكا سقط فصعق زعيم الثورة اذ كان جالسا في خيمته ، فتفرق اشياعه وخبت نار الفتنة !

الحركة الفكرية

قائع رسائل الملكة فكتوريا

صفحة من تاريخ بريطانيا

ظل خمسا وعشرين سنة يدخل كل صباح على الملكة فيكتوريا ، بوجهه الهادئ الكئيب ، ولحيته التي ابيضت أخيرا من الشيب ، وبذلته العسكرية السوداء المزينة بالاوسمة الكثيرة ، فيقدم لها البريد الوارد اليها ثم يتلقى منها ردودها على هذا البريد

هذا هو سير هنري بونسونبي الذي كان أوثق رجال عهده صلة بالملكة العظيمة ، فكان فيما كتبه عنها من مذكرات وما سجل فيها من الوقائع والاحاديث والآراء ، أوضح صفحة كتبت عن الملكة التي كان عرشها أقوى عرش في أوربا لا يستثنى من ذلك عرش أباطرة ألمانيا ولا عرش قياصرة روسيا

وقد جمع ابن بونسونبي رسائله ومذكراته في كتاب حافل صدر حديثا ، نرى فيه أن مهمة سكرتير الملكة مهمة شاقة مرهقة ، فقد كانت فيكتوريا تكره رئيس وزرائها « جلادستون » وتضيق به ضيقا شديدا ، ولكن لم يكن ثمة سبيل للخلاص منه وهو مؤيد بأغلبية كبيرة من الشعب البريطاني ، كما أن كفايته السياسية لم تكن موضع جدال وقد تبدت في كثير من المواقف التي دعم فيها نفوذ بريطانيا . فكانت مهمة بونسونبي طوال عشرين سنة أن يضيق من شقة الخلاف بين فيكتوريا وجلادستون . كان عليه أن يترجم للملكة أفكار الحكومة ، ويترجم للحكومة أفكار الملكة ، على صورة تمكن من تسيير الامور بينهما في خير سبيل . وقد كانت أفكار فيكتوريا تناقض أفكار جلادستون ، فهي تكره الآراء المتحررة التي بدأت تدخل ميدان السياسة ، كنظام الحكم الذاتي في ايرلندة ، وكالتوسع في حقوق البرلمان ، وكاصلاح نظام مجلس اللوردات ، بينما كان جلادستون مشبعا بالآراء الجديدة آخذا بمذاهب الاصلاح ، فكان الاحتكاك والتصادم بينهما مهمة تقلق بونسونبي وتتطلب منه مجهودا شاقا

وكانت فيكتوريا الى هذا عنيدة الرأي شديدة المراس ، وكثيرا ما كانت تقول — كما يقول بونسونبي — عن الابيض الناصع انه اسود قاتم ، فكان على بونسونبي أن يوافقها على رأيها مع بعض التحفظ ، ثم يتدرج معها قليلا حتى يقنعها بأنه ليس أبيض ولا اسود ، بل هو رمادي فقط !

وكانت تصيح وتصرخ أحيانا حين يأتيها طلب معين من جلادستون ، فتقول لبونسونبي : « اكتب الى هذا العجوز وقل له انه مجنون ، وأبله ، ودجال ، وسخيف » . فيكتب له بونسونبي هذا ، ولكن في صورة تجعل جلادستون يبتسم ضاحكا بدلا من أن يزمجر غاضبا

وظل بونسونبي قائما بهذا العمل الشاق الدقيق ، حتى مات في سنة ١٨٩٥ ، ولا شك أن هذا الكتاب خليق بالقراءة ، أولا لانه يصور ملكة انجلترا العظيمة صورة حقيقية واضحة ، وثانيا لانه يصور ذلك العمل الشاق الذي يتعرض له رجال القصور الملكية ولا سيما حين يكون الامر بين صاحب القصر ورجل الحكومة عدلا للتعارض والشقاق

ايليا اهرنبورج يصف الحرب الروسية

اذا عد تيموشنكو القائد العسكرى للجيش الاحمر المظفر ، فان ايليا اهرنبورج يعد قائده الروحى

وكما أنتجت حملة نابليون على روسيا أثرا أدبيا فذا خالدا هو قصة تولستوى « الحرب والسلم » ، فكذلك أنتجت حملة هتلر عليها أثرا أدبيا عظيما هو قصة اهرنبورج «روسيا فى الحرب»

انتهى اهرنبورج من كتابة قصته هذه فى يوليو سنة ١٩٤٢ حين بلغ الجيش الالمانى أقصى شوطه فى أرض روسيا ، وحين وقف الاتحاد السوفياتى مستهدفا للخطر النازى المبيت . ففى أثناء تلك الايام الغريقة فى الدماء ، المطمورة فى الاحداث ، كان اهرنبورج يكتب عن ذلك الروح العنيد الغلاب الذى يضطرم فى قلب كل روسى والذى لن تستطيع قوة السلاح أن تطهر عليه أو تطفىء جذوته . وكان يكتب عن أولئك الزعماء النازيين الذين يقودون الشعب الالمانى، عن رضى أو عن اكراه ، الى أكبر مجزرة فى التاريخ ، كتابة فيها السخرية الحاقدة المريرة

فيقول عن هتلر : « هذا الذى كان يعيش فى كوخ تحت الارض يسكن الآن قصرا فوق ذروة جبل منفرد . هذا الذى سفح دماء ملايين من البشر ، تبالى بفزع اذا رأى حملا يذبح . هذا الذى قضى عشر سنوات وسط دخان حانات البيرة القذرة ، لا تحتمل أعصاب كبريائه وعطرسته أن يرى رجلا يدخن سيجارة فى حضرته »

ويتحدث عن جورنج الذى اتخذ شعاره هذه الجملة : « عش ، ولا تدع غيرك يعيش » . وعن جوبلز « هذا القرد الدميم البغيض . فونغراف يحكى صوت سيده »

ويعرض فى كتابه كثيرا من الرسائل التى عثر عليها مع الاسرى الالمان ، وكلها تنبىء أن الجنود الالمان كانوا يعتقدون أن الحملة الروسية ليست الا نزهة قصيرة ، أو على الاكثر حربا خاطفة ، ينهار بعدها الاتحاد السوفياتى كما انهارت من قبل دول أوربا . ثم يعلق على ذلك قائلا : « عند ما يخدع الطفل ، تشعر بأنه يجب عليك أن ترفس الرجل الذى خدعه . ولكن الالمان ليسوا أطفالا ، انهم رجال بالغون أشداء يقبضون بأيديهم على البنادق والمدافع . فلماذا خدعوا اذن ؟ لانهم يريدون أن يخدعوا ، لانهم يرتجفون من مواجهة الحقيقة . . وكيف يمكن للمرء أن يتفاهم مع هؤلاء القوم ؟ بالبنادق وحدها ! وكيف يمكن أن تنكر عليهم أكاذيبهم؟ بالقنابل وحدها !

ويورد من هذه الرسائل ما يكشف عن الروح الالمانى ما يسدل عليه من ستار المدنية الزائف، فهذا جندى ألمانى يصف رفاقه فيقول : «عند ما بدأت القنابل تهوى وتدوى سقطت الاقنعة التى تغطى وجوههم ، وتألقت فى عيونهم نار الغيظ المكبوت منذ أجيال ودهور . . ودخلوا المدينة المدمرة فى هدوء ، فلم يشعروا نحوها شعور الرحمة والعطف ، بل أحسوا الرغبة الملحة فى أن يقضوا ويجهزوا عليها . وكانت أصابعى تفر من يدى ، تتحسس زناد البندقية لتطلق رصاصها على الجماهير »

ويعقب اهرنبورج على ذلك قائلا : « ان الالمانى وحش ، وحش يلبس نظارة ويحمل فى جيبه قلم حبر،وحش يسكن الارض التى أخترعت صناعة طباعة الكتب والصحف »

هذه هى الروح السارية فى هذا الكتاب ، وهى روح غاضبة حاقدة ، ولكن هل يمكن للاديب الذى رأى عدوان الجحافل الالمانية على مدائن روسيا وقراها ، وما أنزلته بها من دمار وعذاب ، الا أن يقطر قلبه الغضب والحقد والمرارة ؟ على أن هذا لا يقلل من قيمة أدب اهرنبورج الذى يعد فى الطليعة من كبار الادباء السوفييت ، وقد فاز كتابه « سقوط باريس » بجائزة ستالين وقدرها مائة ألف روبل

لازكى وعالمه الجديد

الاستاذ هارولد لازكي ، استاذ العلوم السياسية بجامعة لندن،من أكبر وأشهر المفكرين المعاصرين ، ومؤلفاته فى المسائل السياسية من أهم وأروج ما يكتب فى هذا الموضوع ، هذا الى أنه يعد من أقدر المحاضرين المعاصرين وأبرعهم فى الادلاء بحجته واسكات خصمه بالرأى الناضج تارة وبالسخرية اللاذعة تارة أخرى

وهو يعد الرأس المفكر لجماعة اليسار فى حزب العمال البريطانى ، اذا جاز أن نقول ان فى هذا الحزب جماعة مقابلة نسميها جماعة اليمين . والواقع أن هذا الحزب ، وان كان يدين فى مجموعه بالآراء الاشتراكية العامة ، الا أنه ينقسم فى هـذا فريقين : فريق يريد اشتراكية معتدلة يسيرة ، تبقى على نظام الطبقات مع تقريب ما بينها من الفروق والمسافات،وفريق يريد اشتراكية صريحة حازمة ، تنشئ المجتمع اللاطبقى ، أى المجتمع الذى يتألف من طبقة واحدة يتكافأ أفرادها فى الحقوق والواجبات

وهذا الفريق الاخير هو الفريق الذى يمثله لازكى ، والذى كتب كتابه الاخير : « تأملات فى ثورة عصرنا » تعبيرا عن رأيه واعرابا عن سياسته . وهو الى هذا نقد لآراء الفريق الآخر الذى يمثله مستر كليم أتلى الذى يريد أن يسلك طريقا وسطا كذلك الطريق الذى سلكه من قبل رمزى مكدونالد ، فلم ينته الى أية نتيجة مرضية بل الى الفلاس فى السياسة الخارجية وفى الاصلاح الداخلى على السواء

يقول لازكى فى كتابه : « من الخطأ أن نقسم الوقت الحاضر ثلاثة أقسام هى:(١)الحوادث التى أدت الى الحرب (٢) الحرب ذاتها (٣)فترة ما بعد الحرب وما سيكون فيها من تنظيم وانشاء. هذا خطأ ، والصحيح أن الحرب ليست الا جزءا من ثورة مستمرة تتجاوز آثارها المعركة الدائرة، بل تتجاوز هذا الصراع الطويل القائم بين الدول التى نسميها بالديموقراطية وتلك التى ننعتها بالفاشستية . ان هذه الثورة هى كفاح الديموقراطية ونضالها فى أن تمثل مصالح جميع الشعوب فى جميع أقطار الارض ، لا أن تمثل المصالح التجارية ومصالح الطبقات الممتازة التى تكافح هى الاخرى كفاحها المستميت فى سبيل ابقاء الديموقراطية الراهنة على حالها ، أى ديموقراطية زائفة يتخذها الاقوياء والممتازون أداة لتحقيق مآربهم وتضليل المستضعفين من الشعوب والطبقات بسرابها

فالحرب جزء لا ينفصل عن هـذه الثورة ، أولا ، لانها ستؤدى فى المحيط الدولى الى القضاء على الامم الفاشستية التى تتوهم لنفسها حقوقا وامتيازات على غيرها من الامم تخول لها حق السيطرة والسيادة على الشعوب الضعيفة والمغلوبة . وثانيا ، لانها ستؤدى فى المحيط الداخل الى اقامة ديموقراطية أساسها تحقيق فكرة المساواة وتكافؤ الفرص بين الافراد ، وأساسها كذلك اقامة حياة اقتصادية تحقق فيها مصالح الكثرة لا مصالح القلة ، مصالح الشعب فى مجموعه لا مصالح أولئك الذين يحكمونه من وراء خزائن الذهب

وقد بلغت الحرب درجة لايمكن عندها المصالحة والاخذ بالحلول الوسطى . وكما ينطبق هـذا الرأى فى ميدان السياسة الخارجيـة ، فكذلك ينطبق فى ميدان المسائل الداخلية . فكما أنه لا سبيل لبريطانيا وامريكا الى حل وسط مع ألمانيا واليابان ، فكذلك لا سبيل الى حل وسط بين طبقات الشعب الغالبـة والطبقات الغنيـة الممتازة . لا بد من انتصار أحد الفريقين انتصارا حاسما . والفريق السياسى الذى يعبر عنه لازكى بكتابه هو الذى يريد ويسعى الى أن تنتصر الجبهة الشعبية على جبهة أصحاب الاعمال والاموال، لانه لايؤمن بامكان التوفيق والمصالحة بين الجبهتين الخصيمتين

واجب الرجل الأبيض

« الآن ، وبريطانيا في حرب وشدة ، فانها تتقدم الينا تطلب العون والمساعدة ، وغدا عند ما تلف الحرب وتزول عنها الشدة ، فاننا نعود كما كنا من قبل ، قوما منسيين مهضومين »

بهذه العبارة يبدأ كتاب « واجب الرجل الأبيض » الذي وضعه فتاة وشاب من الجنس الزنجي ، فتاة اسمها نانسي كونراد ، وشاب اسمه جورج بدمور ، ليشرحا فيه قضية الشعوب الملونة باللون الاسود ، ويطالبا فيه تحرير هذه الشعوب مرة أخرى ، فكما حررت فيما مضى من تجارة الرق فلتحرر اليوم من قبضة الاستعمار

ويقول المؤلفان انه لما أعلن « ميثاق الاطلنطى » رأت فيه الشعوب الملونة وسائر الشعوب المستعمرة في افريقيا وآسيا ، اعلانا بحريتها من اسار الاستعمار ، وانضم أبناؤها الى صفوف الجنود المحالفة بقلوبهم وعزائمهم .. ولكن لما قام مستر ونستون تشرشل وأعلن « انه فيما يختص بميثاق الاطلنطى ، كان رأينا ، أول الامر ، أن تستعيد دول أوربا الرازحة الآن تحت النير النازى سيادتها وحكومتها الذاتية وحياتها القومية .. وعلى ذلك فان هذه مسألة منفصلة عن مسألة التطور التقدمى لمؤسسات الحكم الذاتى في المناطق وبين الشعوب التي تدين بالولاء للتاج البريطانى » — لما أعلن ذلك خرست ألسنة الشعوب الملونة من هول الصدمة الأليمة التي لقيتها ، وأفاقت من فرحتها السابقة على مستقبل قاتم مظلم

فما تطلبه الشعوب الملونة وسائر الشعوب المغلوبة على أمرها ، هو ألا يقتصر ميثاق الاطلنطى على دول أوربا ، بل يشمل بعدالته جميع شعوب الارض ، فان الحرية كل لا يتجزأ كما قال زعماء روسيا السوفياتية ، وانكارها أو العدوان عليها في أى قطر من الاقطار ، يجرىء المعتدين على انكارها في الاقطار الاخرى . والحرب التي تندلع اليوم نارها في أرجاء الارض جميعا ، بدأت من يوم أن اعتدت اليابان على الصين ، فتجاهلت الدول الديموقراطية الامر وحسبت نفسها بمنجى من هذا الخطر الواقع في أقصى الارض ، ولكن لم يلبث أن امتدت أيدى الخطر من هنا وهنا حتى كادت تأخذ بخناق العالم جميعه

الوضوح في الأدب

كان الروائى الفرنسى الكبير جوستاف فلوبير ، مؤلف قصة مدام بوفارى ، يقرأ ما يكتبه على طاهيه ، فاذا عجزت عن تفهم بعض عباراتها أو تراكيبها ، أعاد النظر فيها وأخذ في تغييرها وتبسيطها حتى تغدو واضحة مبسطة لا يعسر فهمها على أقل الناس حظا من الثقافة والذوق الأدبى

وكان فلوبير يظل قلقا ضيقا حتى يجد الكلمة التي تؤدى المعنى الذى يريده أداء دقيقا وواضحا ، وكان يمضى أياما تلو أيام ، وهو يقلب الكتب والمعاجم ، ويستقطر ذاكرته ، بحثا وراء لفظة واحدة تؤدى معنى يجول في خاطره التأدية الكاملة المبسطة . وكان من عادته اذا عثر على الكلمة التي ينشدها أن يقفز من مكتبه الى شرفة بيته ، ويصيح بالكلمة بأعلى صوته ، وكأنما قد كشف عن كنز ثمين كان مطمورا ، أو التقى حلية نفيسة كانت ضائعة !

الكتب الجديدة

الممهدات لتاريخ الجيش المصرى

للدكتور اسعد رستم
والبكباشى عبد الرحمن زكى

نشره المتحف الحربى . عدد صفحاته ١٢٨ صفحة

مؤلفا هذا الكتاب من الباحثين المحققين فى تاريخ مصر الحديث ، وقد وضعا فيه عددا كبيرا من الرسائل التاريخية النفيسة

فالدكتور أسعد رستم ، أحد أساتذة التاريخ فى جامعة بيروت الاميركية ، أمضى فترة طويلة فى قراءة مجاميع من الوثائق والاسانيد الخاصة بعهد محمد على الكبير وخلفائه ، وحققها ومحصها واستخرج منها بحوثا علميـة عظيمة الشأن . والاستاذ عبد الرحمن زكى ، مدير المتحف الحربى ومجلة الجيش ، يعد مؤرخ الجيش المصرى بما وضعه فيه من رسائل جمة أبانت أمجاده ومفاخره

وهذه الرسالة الثمينة تؤرخ « الآلاى الشاة الثامن » من الجيش المصرى فى عهد محمد على . فقد عثر المؤلفان فى أثناء اقامتهما فى قصر عابدين للبحث والتنقيب ، على تقرير مفصل رفعه بعض ضباط الجيش الى القائد العام يبينون فيه أحوال هذا الآلاى فى مستهل عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) فرأيا نشره ليكون تمهيدا لتاريخ الجيش المصرى المظفر ، بعد أن قدما البحث بعرض وثائق أخرى تظهر غاية محمد على من تأليف هذا الجيش الكبير وما أراد أن يبثه فى صدور أفراده من أغراض وأهداف معنوية

ودراسة هذا الآلاى تقدم لنا فكرة شاملة عن نظام الجيش حينذاك ، وهو نظام يدعو الى الفخر حقا ، حين تعرف ماذا كان يأكل الجنود وأين كانوا يقيمون ، وماذا كانوا يلبسون ، ونظـام تعليمهم وتدريبهم ، وروحهم المعنوية السامية التى قادته الى معارك خرج منها ظافرا

وقد ذيل الكتاب بعدد كبير من وثائق مختارة عن نظام الجيش المصرى أخذت من وثائق قصر عابدين

حياة الطفل

للدكتور مصطفى الديوانى

مكتبة النهضة المصرية . عدد صفحاته ٣٦١ صفحة

طالع قراء « الهلال » بعض مقالات الدكتور الديوانى ، فوجدوا فيها علم الطبيب وفنه يقدمهما قلم الاديب وأسلوبه

وهذه هى الميزة البارزة فى كتابه النفيس « حياة الطفل » الذى عرض فيه هذا الموضوع الطبى الخطير فى عبارة سلسة واضحة ، تلذ قراءتها ويسهل فهمها ، مما يجعله قريبا الى كل أم ولو كانت على قسط يسير من التعليم

والمؤلف اخصائى كبير فى طب الاطفال وهو استاذ أمراض الاطفال المساعد بكلية الطب بالقاهرة . ولذلك فقد تناول موضوع حياة الطفل من جميع نواحيه ، فتحدث عن الحمل والعناية بالحامل ، وعن الولادة ونظافة الطفل ، وعن ملابس الطفل ونومه ، وتغذيته وفطامه ، وطعامه ونموه وحواسه ، وعن التسنين والعناية بالاسنان . ثم تناول ناحية تربيته من الوجهتين الطبية والنفسية ، فتكلم عن مشاكل الطفل الصغير وعاداته السيئة ، وعيوبه فى النطق والكلام ، وتدرج به الى المدرسة وكيف يقبل عليها راغبا نشيطا . وتكلم بعد ذلك عن أمراض الاطفال وحمياتهم ، وطرق الوقاية منها وتمريضهم واسعافهم وغير ذلك كثير

والخلاصة أن هذا الكتاب ضرورة لا غنى عنها لكل أم تريد تنشئة ابنها تنشئة صالحة من الوجهة الطبية والوجهة النفسية ، وستجد كل سيدة متعة فى قراءته لانه يقدم لها خلاصة العلم فى طرق مبسطة موضحة

ذات مساء

للاستاذ صلاح ذهنى

مكتبة الآداب بالجماميز · فى ٢١٨ صفحة

الاستاذ صلاح ذهنى من أدبائنا الشبان النابهين الذين عالجوا فن القصة ، فجاءوا فيه بآثار طيبة محمودة لها جمهور كبير من القراء والمعجبين

ويضم هذا الكتاب ثلاث عشرة قصة صغيرة تطالع فى كل منها ما يمتاز به أدب الاستاذ ذهنى من الصفات · فعبارتها سهلة بسيطة لا تعمل فيها ولا تبذل ، وهذه فيما نرى خير عبارة تساق فيها القصص التى تعالج الحياة المصرية ، لانها أقرب الى العبارة التى تجرى بها ألسنة الطبقة الوسطى عندنا · وتجد فى بعض هذه القصص نواحى من الدراسة النفسية التى غلبت على فن القصة فى العصر الحديث منذ كشف علم النفس التجريبى عن كثير مما يضطرب فى النفس من عواطف ومشاعر توجه حياتنا وتقرر مصيرنا · وقصة « ذات مساء » من هذا الطراز ، فترى فيها كيف يتسلط العقل الملح الحاقد على شخص آخر فيرديه فى المصير الذى أراده له وتمناه · وترى فى قصة « الوتر الاخير » ذلك الروح الشعرى الرقيق الذى يصور مأساة فنان أراد أن يعيش لفنه لا للمال ، فطغت عليه الحياة القاسية فتركته صريعا

و « حبكة القصة » كما يقولون متوافرة فى قصص الاستاذ ذهنى ، وهى تدل على الذكاء والحيلة ، وهما من الصفات التى تؤلف حول الكاتب جمهورا كبيرا من القراء ، كما تجد فى قصة « عرفت بنط » التى تدور وقائعها حول شخص أخرج من جيبه بطاقة أحد أصحابه بدلا من بطاقته ، فتكون النتيجة أن تفلت من يده السيدة التى أراد أن يعرفها وتصبح من نصيب صاحبه

والخلاصة أن هذا الكتاب أثر جديد يضاف الى خير ما فى أدبنا المعاصر من آثار فن القصة القصيرة

الصحافة والطباعة

للاستاذ محمد حمدى

مكتبة الانجلو · فى ١٢٨ صفحة

هل الصحافة علم أم فن ؟ سؤال عرض كثيرا وبحث طويلا ، واختلفت الاجابات عنه اختلافا بينا · فمن قائل انها علم له قواعد واصول ، يمكن دراستها واستيعابها ، فيغدو المرء صحفيا ومن قائل انها فن ، لا يأخذ به الا من له استعداد خاص وملكة معينة ، ولا ينمو ويزدهر الا وفق ما تبتكره المواهب ويفتن فيه من أوتوها

ومع ذلك فلا جدال فى أنه اذا اجتمعت الملكة والدراسة أخرجتا الصحفى القدير الممتاز · ولهذا السبب أنشئت فى جميع الجامعات الكبرى معاهد لتدريس الصحافة · وحفلت المكتبات الغربية بمؤلفات كثيرة فى الصحافة : أخبارها ، ومقالاتها ، وصورها

وقد ظهرت عندنا كتب قليلة فى الصحافة ، ولكنها كلها تتناول تاريخ الصحافة · أما هذا الكتاب الذى وضعه الاستاذ محمد حمدى — وهو ممن عملوا طويلا فى الصحافتين اليومية والاسبوعية — فيتحدث عن الصحافة من الوجهة العملية

فتحدث عن علاقة الصحافة بالعلوم والفنون ، وعن نظام اصدار الجريدة ، وعن العاملين فى الجريدة من مدير ورئيس تحرير وسكرتير تحرير ومحررين ، وعمل كل منهم ومسئوليته ونواحى

التمحيص فى الصحافة ، ثم تحدث عن « صيد الأخبار » ، ثم عرض يوما فى حياة جريدة صباحية . وهو فى أثناء ذلك كله يستمد كلامه من التجربة الخاصة مما يجعل هذا الكتاب مرشدا عمليا يفيد منه كل من يريد العمل فى الصحافة

وقد أهدى المؤلف كتابه الى « الاستاذين الجليلين اميل زيدان بك وشكرى زيدان بك اللذين تخلد على دارهما نخبة من أفذاذ الصحافة المعاصرة » . وهذا شعور وفاء منه يقابل بالحمد والثناء

الزواج والأسرة فى الاتحاد السيوفيتى

ترجمة الاستاذ مصطفى كامل منيب

مطبعة الاعتماد فى ٤٨ صفحة

كان الحديث فى نظام الزواج والاسرة فى روسيا الشيوعية من أساليب الدعاية الرخيصة التى غمرت صحف العالم الرأسمالى ، حتى ظن كثيرون أن روسيا تعيش فى حال من الفوضى الخلقية والاباحية الجنسية المنكرة

ولكن هذا الكتاب الموجز يوضح الامر على حقيقته ، فترى كيف تقوم الأسرة الروسية على أسس قوية من التفاهم والتعاون بين الزوجين مما يجعلها نواة مجتمع قوى يقوم بدوره الكبير فى انشاء الحضارة . وترى كيف ارتقت المرأة الروسية — التى كانت مكبلة بأغلال من تقاليد البيئة الاقطاعية القديمة — الى مستوى رفيع تشارك فيه الرجل فى جميع مرافق الحياة من أعلاها الى أدناها . وترى فيه كيف حرص زعماء الشيوعية على أن ينشئوا جيلا من الشبان والفتيات بعيدا عن فوضى التحلل الجنسى ، متمسكا بأسباب القوة البدنية والخلقية والذهنية

فالكتاب دراسة علمية لموضوع الاسرة ، التى اذ تبينا وضعها الصحيح ، أمكننا أن نتبين حقيقة النظام الاجتماعى كله

٨ أيام فى الصعيد

للسيدة اسما حليم

منشورات دار الفجر . فى ٣٩ صفحة

قضية وباء الملاريا الذى تفشى فى أنحاء من صعيد مصر ، هى قضية النظام الاجتماعى الذى تعانيه الحياة المصرية

وقد رأت السيدة اسما حليم أن تقدم لنا صورا من هذا النظام الاجتماعى كما رأته باديا فى أشباح المرض والموت خلال ثمانية أيام أمضتها فى الصعيد ، فكانت هذه الصور — التى مرت بنا سريعة فى صحائف قلائل مثيرة للألم حافزة على التفكير

فهذه أرقام عن نسبة توزيع الثروة فى مديريتى قنا واسوان ، ترى فيها كيف يعيش الغنى المترف وسط آلاف وآلاف من الفقراء المعدمين ، وهذه بيانات عن شركات تحتكر الارض ، وتحتكر أهل الارض ، وتستطيع بذلك أن تجمع الارباح الضخمة من عرق المكدودين والمهزولين

ومؤلفة الكتاب على جانب كبير من الثقافة ، فقد تخرجت فى قسم الادب الانجليزى وفى معهد الصحافة بكلية الآداب ، ثم انصرفت الى التفكير الجدى الجرىء فى المسائل الاجتماعية . وان قارىء هذه الصفحات ليلمس جدها وجرأتها ، فتراها تهبط قسرا الى قبو مظلم حار مرطب يعمل فيه العمال ليل نهار ليقتاتوا ، وتراها تذهب الى قرى نائية مهجورة فترى أجداث المرضى وهم يزحفون الى الموت زحفا .

والواقع أننا فى حاجة الى جيل من الكتاب ومن الصحفيين من طراز مؤلفة هذا الكتاب ، يهبون أقلامهم وجهودهم للاصلاح الاجتماعى الجرىء ، الذى لامعدى عنه الا بأن نتلكأ ونراوغ حتى يقع ما هو أشد وأدهى

من النقد الفرنسى

للاستاذ محمد روحى فيصل

مكتبة البابيروس بدمشق · فى ١٥٢ صفحة

يشتمل هذا الكتاب على ستة فصول ملخصة عن ثلاثة من أعلام الادب الفرنسى · منها ثلاثة عن الشاعر الفرنسى الكبير بول فاليرى هى « فى الشعر » و « الحاجة الى الشعر » و « الرقص » وفصلان عن الدكتور قوستاف لانسون ، أولهما عن « العاطفة فى الادب » وثانيهما عن « البيان » وفصل عن الشاعر آبل بونار موضوعه « الحياة والشعر »

وقد لخص الاستاذ فيصل هذه الفصول التى تعد من أقيم وأمتع آثار الادب الفرنسى فى عبارة سهلة رقيقة ، فيها كثير من التخير والاناقة ، مما تلذ معه تذوق ما فيها من جميل المعانى وبارع التعبيرات

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

للاستاذ ساطع الحصرى

مطبعة الكشاف بيروت · فى ٢١٦ صفحة

ابن خلدون مفكر متعدد الجوانب متشعب النواحى · له فى التاريخ أسلوب وفلسفة ، وله فى الاجتماع فكرة ومذهب ، وله فى تناول أمور الامم والجماعات آراء خاصة تسلكه مع الصفوة من علماء التاريخ وعلماء الاجتماع · وقد رأى الاستاذ ساطع الحصرى أن يعرض فى كتابه « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » الذى أصدر منه جزأين انحاء من هذه الآراء التى تحفل بها المقدمة الخالدة · وبين أيدينا الجزء الثانى من هذا الكتاب، وفيه يتناول بعض المسائل والمشاكل التى عرض لها ابن خلدون ، ويبحثها بحثا مقارنا مع ما قاله غير ابن خلدون من مفكرى السياسة وعلماء الاجتماع وأصحاب المذاهب الفلسفية

فمن هذه المسائل « الدولة وتطوراتها » وقد بحث فى هذا الفصل ماهية الدولة ، وعمرها ، وأطوارها ، واتساع نطاقها · ومن بحوث الكتاب بحث فى الحروب واسبابها ودواعيها ، وخططها وأساليبها ، وعواقبها ونتائجها · وبحث فى التربية والتعليم ، وما تقومان عليه من أصول وقواعد ، وما لهما من أثر فى تنشئة الافراد وتكوين الجماعات · وبحوث فى « النفس الانسانية » و « التفكير والايمان » و « التشبيهات المادية »

وخاتمة الكتاب فى نقد كتاب الدكتور طه حسين بك فى « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية »

وطريقة الاستاذ الحصرى فى البحث هى عرض الامر كما يراه أصحاب المذاهب المختلفة، وإيضاح وجهة النظر الذى يلقيه كل منهم ، ثم بسط رأى ابن خلدون كما نص عليه فى مقدمته ، ثم مقارنة هذا الرأى بتلك الآراء ، وبيان ما سبق اليه ابن خلدون من نواحى التفكير الانسانى وتقدير ما فى أكثر آرائه من دقة ووفاء وما فى بعضها من خطأ وانحراف ، شأن كل رائد من رواد الفكر ، وكل طليعة من طلائع العلم

مؤلفات عن ابن خلدون

(اسيوط ــ مصر) حسان ابرهيم

ما هي المؤلفات العربية التي وضعت عن ابن خلدون ؟

(الهلال) وضع في اللغة العربية ثلاثة كتب قيمة عن ابن خلدون . أولها كتاب الدكتور طه حسين بك عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» وهو الاطروحة التي قدمها باللغة الفرنسية في سنة ١٩١٨ الى جامعة باريس ونال بها درجة الدكتوراه . وقد ترجمها الى العربية الاستاذ محمد عبد الله عنان في سنة ١٩٢٦ . وفيه شرح مفصل لآراء ابن خلدون في الاجتماع والتاريخ . وللاستاذ عنان كتاب عن ابن خلدون نشره في سنة ١٩٣٣ بعنوان : « ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري » وفيه شرح مفصل محقق في حياته وسيره ، كما ترجم فيه كثيرا مما كتبه المستشرقون والكتاب الغربيون عن مؤرخنا وفيلسوفنا الاجتماعي . ومن أثمن الكتب التي ظهرت في هذا كتاب الاستاذ ساطع الحصري وعنوانه : « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » ، وفيه شرح مقارن بين ابن خلدون وغيره من الفلاسفة والمفكرين في كثير من مسائل السياسة والاجتماع ، مثل الدولة وتطوراتها ، الحروب ، النفس الانسانية ، التربية والتعليم ، التفكير والايمان

الاجهاض في روسيا

(القاهرة ــ مصر) طبيب

هل يبيح القانون الروسي اجهاض الحوامل ؟

(الهلال) في كتاب « الزواج والاسرة في الاتحاد السوفياتي » الذي أشرنا اليه في باب « الكتب الجديدة » تفصيل هذه المسألة التي كانت من أسلحة الدعاية ضد روسيا ، فجاء فيه :

« حدث بعد سنوات الحرب الأهلية والتدخل الاجنبي المسلح ــ وقد كانت الأحوال الاقتصادية وقتها لا تزال تعاني ما يشبه الافلاس ، وكانت بعض التقاليد والمعتقدات البالية من مخلفات عهد ما قبل الثورة لا تزال سائدة ــ حدث في هذه الايام أن وجدت النساء أنفسهن أعجز ما يكن عن القيام في وقت واحد بواجباتهن كمواطنات وبواجباتهن كأمهات . وفي هذا المعنى ، ومع مراعاة هذه الظروف ، صدر القرار المؤرخ في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ باسم الحكومة السوفيتية وبتوقيعي قوميسير الشعب للشؤون الصحية وقوميسارية الشعب للعدل ، ناصا على ما يأتي : « ما دام أن بعض الموروثات الاخلاقية من مخلفات العهد القديم ، وأيضا بعض الصعوبات الناجمة عن دقة الوضع الحاضر ، لا يزالان موجودين في الوطن السوفيتي فمن حق النساء اذن القيام بعملية الاجهاض ما دام أن المقصود منه هو مصلحتهن » ومن هنا ندرك أن حق الاجهاض لم يكن قد شرع الا باجراء مؤقت لا مندوحة عن اتباعه . ولعل أقوى دليل على ذلك أنه ما أن تغيرت الظروف التي كانت السبب الاول في تشريع هذه المسألة حتى دخلت مشكلة الاجهاض في دور الاختفاء ، ثم أمحى كل أثر لها في كافة أرجاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية »

وقد صدر في ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٦ القرار الخاص بتحريم الاجهاض تحريما باتا ، وعلى مساعدة الدولة للامهات الحوامل ، وعلى التوسع الكبير في انشاء شبكة من دور الامومة والمستشفيات ورياض الاطفال

الدكتور زكي مبارك

(مسقط — عمان) فيصل علي

ما هي أهم مؤلفات الدكتور زكي مبارك ، وما عنوانه ؟

(الهلال) وضع الدكتور زكي مبارك عددا من المؤلفات الثمينة في نقد الادب العربي القديم والحديث ، وبحث الفلسفة الاسلامية ، الى جانب عدد من الآثار الانشائية الممتعة . ومن أهم مؤلفاته العلمية « النثر الفني في القرن الرابع الهجري » و « التصوف الاسلامي » و « رسالة عن الامام الغزالي » . ومن آثاره الادبية « ليلى المريضة بالعراق » و « الموازنة بين الشعراء » وكتاب عن « باريس » وغير ذلك من الكتب التي تضم مجموعات من مقالاته ورسائله

ويقوم الدكتور زكي مبارك — الى جانب ما يقوم به من الانتاج العلمي والادبي — بوظيفة التفتيش في وزارة المعارف بالقاهرة ، ويمكنكم الاتصال به بهذا العنوان

الدراسة بالمراسلات

(مسقط — عمان) ومنه

ما أشهر المدارس في مصر التي تمكن لي تعلم الآداب واللغات الاجنبية ، والانتساب للجامعات الاجنبية بطريق المراسلة

(الهلال) يقوم المعهد البريطاني بالقاهرة — وهو أحد مؤسسات المجلس البريطاني الذي أنشأ عددا كبيرا من المعاهد في أنحاء العالم — بهذه المهمة ، وهو لا يدرس الآداب واللغات الاجنبية ، بل يدرس فروعا كثيرة من الثقافة ، مثل الاقتصاد ، والتجارة ، والصحافة، والتاريخ السياسي ، والعلوم المختلفة

ولكن لا يمكنكم الالتحاق به الا اذا كنتم على قسط من الالمام باللغة الانجليزية ، يوازي ما يعرفه الطالب الذي أتم تعليمه الابتدائي والثانوي

الجسم الانساني الكامل

(الاسكندرية — مصر) قارىء

ما هو طول ووزن وكذلك أبعاد الجسم الانساني الكامل ؟

(الهلال) من آثار الاغريق الخالدة تمثال اسمه « حامل الحربة » وهو يمثل الجسم الانساني الكامل في نظر الاغريق الذين لم يبلغ الجمال والصحة في حضارة قديمة أو حديثة مبلغهما عندهم . وهذه أطوال هذا التمثال بالسنتيمتر :

طول القوام : ١٧٥ ، محيط العنق : ٤٠٫٣٥ محيط الصدر : ١١٤٫٧٥ ، محيط الخصر : ٨٣٫٢٥ ، محيط الكفل : ٩٠٫٠٥ ، محيط الفخذ : ٥٦٫١٥ ، محيط الطلخل : ٢٣

أما وزنه فقدره ١٧٩ رطلا انجليزيا

ومقاييس هذا التمثال تقابل — مع شيء من الاختلاف اليسير — مقاييس أجسام الابطال الرياضيين المشهورين باستقامة البدن واتساق أجزائه . وهكذا ظل تمثال « حامل الحربة » نموذجا لجمال الجسم الانساني الى يومنا هذا

صناعة البارود

(دمشق — سورية) حسن عبوه

ما هي المواد التي يصنع منها بارود المدافع ؟

(الهلال) تصنع قنبلة المدفع أو رصاصة البندقية من سبيكة من الحديد والنحاس ، تحتوي في داخلها على المادة المفرقعة التي نسميها البارود وهذه المادة اما أن تكون صلبة أو سائلة ، ومهمتها أن تتحول الى مادة غازية ، عند ما تطرق القنبلة أو تشتعل . ولما كانت المادة الغازية في حاجة الى حيز كبير ، أكبر من الحيز الذي كانت تشغله عند ما كانت صلبة أو سائلة، فانها تضغط ضغطا شديدا على جوانب القنبلة أو الرصاصة ، فتؤدي الى انفجارها وتمزيقها وتطايرها قطعا وشظايا صغيرة ، تندفع الى مسافات بعيدة وتصيب ما تقابله بضرر كبير

والبارود عبارة عن مخلوط أسود يتركب من نترات البوتاسيوم ، والكبريت ، والكربون ، بنسب تختلف باختلاف المصانع التى تنتج الذخائر . ولكن هذه النسبة فى العادة هى ٧٥ من النترات ، و١٢٫٥ من الكبريت ، و١٢٫٥ من الكربون . وهذا المخلوط يشتعل دفعة واحدة اذا طرقت القبلة أو مسها فتيل مشتعل

الحياة والسعادة

(قضاء الصويرة — العراق) عبد الرضا الحاج حيدان الجبورى

ما غاية الحياة ؟ وما السعادة ؟

(الهلال) النظرة الدينية فى هذا الموضوع أن الحياة سبيل يؤدى الى حياة أخرى ، فان كانت سيرة المرء فى هذه الحياة الفانية سيرة خيرة طيبة ، يكبت فيها المرء نزعات السوء ، ويؤدى فيها ما يسعه من أعمال الخير ، أدى به هذا السبيل الى جانب السعادة والنعيم فى الحياة الاخرى . وان كانت سيرته فى الحياة الراهنة سيرة شريرة منكرة ، يطلق فيها العنان لنزواته ويبسط فيها يده بالاذى ، أدى به السبيل الى جانب الشقاء والعذاب فى الحياة الثانية . أى ان الحياة بموجب هذه النظرية وسيلة لا غاية

والنظرية العلمية فى الموضوع أن الحياة القائمة غاية فى ذاتها ، وليست مجرد معبر وسبيل الى حياة أخرى . والغاية هنا هى السعادة ، وهذا ما يتطرق بنا الى سؤالك الثانى : ما هى السعادة ؟ والسعادة فى رأى بعض الناس اللذة والمتعة التى يتخيلها المرء وفق تفكيره ، أو حسب شعوره . فيراها فى المال الموفور ، أو الجاه العريض ، أو الصحة السابغة ، أو أداء الواجب ، أو راحة الضمير ، أو الاسرة السعيدة ، وغير ذلك من نواحى الحياة الكثيرة . فليس فى الامكان قصر السعادة على متعة معينة ، بل ان كل فرد يرى سعادته من زاوية معينة ، حسب نشأته ، وثقافته ، بل حسب جهازه العصبى

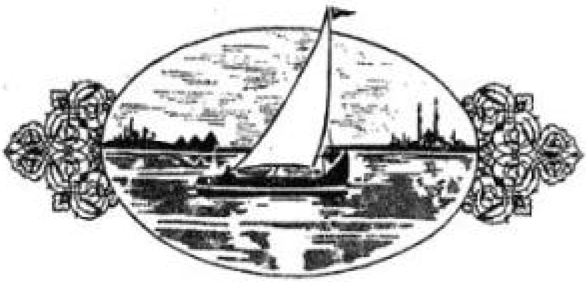
على أن النظرة الدينية والنظرة العلمية فى موضوع الحياة لا تتعارضان ، ففى وسع المرء أن يكون سعيدا فى حياته الاولى ويسعى مع ذلك الى السعادة فى الحياة الاخرى ، وذلك اذا رأى أن يجعل سعادته فى الحياة قائمة على التمسك بالفضيلة ، واسداء الخير ، وتجنب الايذاء ، والتسامى بنفسه وبمن حوله من الناس على قدر ما تواتيه قواه

فهرس الهلال

الجزء الثالث من المجلد الثاني والخمسين

صفحة		
٢٩١	مصر والتحرر من الظلم والاستعباد	بقلم الدكتور محمد بهي الدين بركات باشا
٢٩٨	أزمة الأسرة	» الاستاذ احمد بك أمين
٣٠٢	أمراض العظماء	
٣٠٧	حياة العالم الروحية بعد الحرب	بقلم سعادة مصطفى باشا عبد الرازق
٣٠٩	هل يمكن انشاء حكومة عالمية بعد الحرب ؟	» الاستاذ عباس محمود العقاد
٣١٣	التعاون السياسي بين الدول	» الاستاذ محمد رفعت بك
٣٢١	هل الموت مؤلم ؟	
٣٢٣	كيف تسن القوانين في أمريكا	
٣٢٧	حرية القول وأثرها في مدنيتنا الحاضرة	بقلم عبد الحميد بدوى باشا
٣٣٤	نمر السماء : قصة بطل من أبطال هذه الحرب .	
٣٣٧	الفن الامريكي في خدمة الجمهور	بقلم الدكتور أمير بقطر
٣٤٢	قصة توأمين	للاديب الامريكي مارك توين
٣٤٣	وليم شكسبير	للاستاذ زكي طليمات
٣٤٧	اطعام أوربا الجائعة	
٣٥٠	ليدى هستر ستانهوب	بقلم الاستاذ محمد أمين حسونة
٣٥٩	كيف تساهم الموسيقى العربية في الموسيقى العالمية	» الدكتور يوسف شايل
٣٦٣	قائد الصين وزعيمها	للكاتب الصحفي جون جنتر
٣٦٨	حليفة الذباب والصيف : حمى التيفود	للدكتور مصطفى الديواني
٣٧١	المرأة : في الفن المصري الحديث	بقلم الاستاذ احمد راسم بك
٣٨١	قصة القهوة	
٣٨٥	عالم العظائم	بقلم الاستاذ نقولا الحداد
٣٩٤	الجامعات تدرس علم الزواج	
٣٩٧	هؤلاء الامريكيون	
٣٩٩	عقرب الساعة	نقلها الى العربية الاستاذ خليل تقي الدين
٤١١	البيت الابيض	
٤١٣	البنسلين : آخر معجزات الطب	
٤١٧	(أبواب الهلال) العلم والعالم ـ الحركة الفكرية ـ الكتب الجديدة ـ بين الهلال وقرائه	

الهلال



يوليه - اغسطس ١٩٤٤

الهلال

صاحباها : اميل وشكري زيدان

رئيس التحرير : اميل زيدان

الجزء الرابع ــ السنة ٥٢

يولية وأغسطس ١٩٤٤ ــ شعبان ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ــ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(March - August 1944)

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً في مصر والسودان

٧٥ « في الخارج أو عنها ٣٫٧٥ دولار

١٥/٥ جنيه انجليزي

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50. — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3,75.



بسمة الحياة

صاحبتا السمو الملكي الأميرتان فريال وفوزية
في ابتسامة طبيعية للحياة (تصوير البان)

لا شيء يضيع ملكات الشخص ومزاياه كتشاؤمه فى الحياة
ولا شيء يبعث الأمل ويقرب من النجاح كالابتسام للحياة

ابتسم للحياة

بقلم الأستاذ احمد أمين

حدث أن الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان كانا صديقين وفيين منذ صباهما ، ألف بينهما قرب الجوار فى البلدة ، وتساكنهما وتلازمهما أيام المجاورة فى الازهر ، ثم تعاونهما بعد فى معترك الحياة ، وان الشيخ عبد الكريم سلمان كان أذكى من الشيخ محمد عبده وأوفر استعدادا ، ولكن كان الشيخ محمد عبده متفائلا وكان الشيخ عبد الكريم متشائما . كان الشيخ محمد عبده يرى أن الناس خيرون بطبعهم ، وانما أفسدتهم الظروف ، فاذا أصلحت صلحوا . وان المصريين كغيرهم من الناس ، اذا ساءت بعض أخلاقهم وبعض تصرفاتهم ، فلهم العذر ، لما جنى عليهم أولو الامر فيهم ، فاذا دعوا الى الاصلاح ومهدت لهم السبل ورسمت لهم الطرق وربوا تربية صالحة ، لبوا الدعوة واستقام أمرهم ، وفسح لهم طريق المجد والشرف . وعلى هذا الاساس بنى كل حياته وكل أعماله . وكان الشيخ عبد الكريم متشائما يرى أن الناس فى مصر فسدوا فسادا لا يرجى معه صلاح ، والمصلح يحرق نفسه ثم لا يأتى بنتيجة ، فخير أن يكتفى المصلح بنفسه ، وليدع الناس وشأنهم حتى يأكلهم القدر

أما الاول فأصبح — لتفاؤله — الشيخ محمد عبده المصلح العظيم الذى ترك فى أمته الاثر الكبير ، وأما الثانى فلم يعرفه الا خاصته ، ولم يستفد من ذكائه الا أقرب الناس اليه ، وكان شمعة مضيئة فى غرفة خالية

القدرة على الضحك

لا شيء يضيع ملكات الشخص ومزاياه كتشاؤمه فى الحياة ، ولا شيء يبعث الأمل ويقرب من النجاح وينمى الملكات ، ويبعث على العمل النافع لصاحبه وللناس ، كالابتسام للحياة . والطبيعة أدرى بذلك ، فقد منحتنا القدرة على الضحك ، والقدرة على الفرح والاعجاب بالنوادر اللطيفة والروح الفكهة ، كما منحتنا الرغبة فى الغذاء والقدرة على الهضم ونحوهما من وسائل الحياة ، علما منها بأن العيش لا يصلح الا بها ، والسعادة لا تتم بدونها ، فأتى الانسان من جهله يكبت هذه الموهبة ويلونها باللون الاسود ، فوقع فى الهم والشقاء ،

لان الطبيعة لا تمنح السعادة الا لمن احترم قوانينها وسار على سنتها

ان الطبيعة علمت أن الدنيا لا تخلو من متاعب ، وان الانسان سيلاقى فى حياته بعض الشدائد ، فسلحته بروح المرح وروح الفكاهة ، وجعلت ذلك دواء لدائه وبلسما لشفائه ، فاذا هو فقده لاى سبب من الاسباب ، فقد فقد علاج مرضه وعاش فى بؤسه ، فان أنت رأيت فتى أو فتاة أو شابا أو شابة عابس الوجه مقطب الجبين ، يحمل الهموم ويتبرم بالحياة ، فاعلم أن هناك مجرما من رب أسرة أو مشرف على التعليم قد سلبه أحسن ما فى طبيعته وأجمل ما فى ملكاته

ليس المتبسمون للحياة أسعد حالا لانفسهم فقط ، بل هم كذلك أقدر على العمل ، وأكثر احتمالا للمسئولية ، وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب ، والاتيان بعظائم الامور التى تنفعهم وتنفع الناس

لو خيرت بين مال كثير أو منصب خطير ، وبين نفس راضية باسمة ، لاخترت الثانية . فما المال مع العبوس ؟ وما المنصب مع انقباض النفس ؟ وما كل ما فى الحياة اذا كان صاحبه ضيقا حرجا كأنه عائد من جنازة حبيب ؟ وما جمال الزوجة اذا عبست وقلبت بيتها جحيما ؟ لخير منها ألف مرة زوجة لم تبلغ مبلغها فى الجمال وجعلت بيتها جنة

ولا قيمة للبسمة الظاهرة الا اذا كانت منبعثة عن نفس باسمة وتفكير باسم . وكل شىء فى الطبيعة جميل باسم منسجم ، وانما يأتى العبوس مما يعترى طبيعة الانسان من شذوذ ، فالزهر باسم والغابات باسمة ، والبحار والانهار والسماء والنجوم والطيور كلها باسمة . وكان الانسان بطبعه باسما ، لولا ما يعرض له من طمع وشر وأنانية تجعله عابسا . فكان بذلك نشازا فى نغمات الطبيعة المنسجمة . ومن أجل هذا لا يرى الجمال من عبست نفسه ، ولا يرى الحقيقة من تدنس قلبه . فكل انسان يرى الدنيا من خلال عمله وفكره وبواعثه ، فاذا كان العمل طيبا والفكر نظيفا والبواعث طاهرة كان منظاره الذى يرى به الدنيا نقيا ، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت ، والا تغبش منظاره واسود زجاجه ، فرأى كل شىء أسود مغبشا

هناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شىء شقاء ، ونفوس تستطيع ان تخلق من كل شىء سعادة ، هناك المرأة فى البيت لا تقع عينها الا على الخطأ ، فاليوم أسود لان طبقا كسر ولان نوعا من الطعام زاد الطاهى فى ملحه ، أو لانها عثرت على قطعة من الورق فى الحجرة فتهيج وتسب ويتعدى السباب الى كل من فى البيت ، واذا هو شعلة من نار ، وهناك رجل ينغص على نفسه وعلى من حوله من كلمة يسمعها أو يؤولها تأويلا سيئا ، أو من عمل تافه حدث له أو حدث منه ، أو من ربح خسره أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث ، أو نحو ذلك ، فاذا الدنيا كلها سوداء فى نظره ، ثم هو يسودها على من حوله . هؤلاء عندهم قدرة المبالغة فى الشر ، فيجعلون من الحبة قبة ومن البذرة شجرة ، وليس عندهم قدرة على الخير ، فلا يفرحون بما أوتوا ولو كثيرا ، ولا ينعمون بما نالوا ولو عظيما

الحياة فن

الحياة فن ، وفن يتعلم ، ولخير للانسان أن يجد فى وضع الأزهار والرياحين والحب فى حياته ، من أن يجد فى تكديس المال فى جيبه أو فى مصرفه ، ما الحياة اذا وجهت كل المجهود فيها لجمع المال ، ولم يوجه أى جهد لترقية جانب الجمال والرحمة والحب فيها ؟

أكثر الناس لا يفتحون أعينهم لمباهج الحياة ، وانما يفتحونها للدرهم والدينار ، يمرون على الحديقة الغناء والأزهار الجميلة والماء المتدفق والطيور المغردة ، فلا يأبهون لها ، وانما يأبهون لدينار يأتى ودينار يخرج . قد كان الدينار وسيلة للعيشة السعيدة ، فقلبوا الوضع وباعوا العيشة السعيدة من أجل الدينار ، وقد ركبت فينا العيون لتنظر الجمال ، فعودناها ألا تنظر الا الى الدينار

حارب اليأس

ليس يعبس النفس والوجه كاليأس ، فان أردت الابتسام فحارب اليأس . ان الفرصة سانحة لك وللناس ، والنجاح مفتوح بابه لك وللناس ، فعود عقلك تفتح الأمل وتوقع الخير فى المستقبل . اذا اعتقدت أنك مخلوق للصغير من الامور ، لم تبلغ فى الحياة الا الصغير . واذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الامور شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز ، وتنفذ منها الى الساحة الفسيحة والغرض الاسمى . ومصداق ذلك فى الحياة المادية ، فمن دخل مسابقة مائة متر شعر بالتعب اذا هو قطعها ، ومن دخل مسابقة أربعمائة متر لم يشعر بالتعب من المائة والمائتين ، فالنفس تعطيك من الهمة بقدر ما تحدد من الغرض . حدد غرضك ، وليكن ساميا صعب المنال ، ولكن لا عليك فى ذلك ما دمت كل يوم تخطو اليه خطوا جديدا ، انما يصد النفس ويعبسها ويجعلها فى سجن مظلم اليأس وفقدان الأمل والعيشة السيئة برؤية الشرور ، والبحث عن معايب الناس والتشدق بالحديث عن سيئات العالم لا غير

وليس يوفق الانسان فى شىء كما يوفق الى مرب ينمى ملكاته الطبيعية ، ويعادل بينها ويوسع أفقه ، ويعوده السماحة وسعة الصدر ، ويعلمه أن خير غرض يسعى اليه أن يكون مصدر خير للناس بقدر ما يستطيع ، وأن تكون نفسه شمسا مشعة للضوء والحب والخير ، وأن يكون قلبه مملوءا عطفا وبرا وانسانية وحبا لايصال الخير لكل من اتصل به

النفس الباسمة ترى الصعاب فيلذها التغلب عليها ، تنظرها فتبسم ، وتعالجها فتبسم ، وتتغلب عليها فتبسم ، والنفس العابسة لا ترى صعابا فتخلقها ، واذا رأتها أكبرتها واستصغرت همتها بجانبها ، فهربت منها وقبعت فى جحرها تسب الدهر والزمان والمكان ، وتعللت بلو واذا وان ، وما الدهر الذى يلعنه الا مزاجه وتربيته ، انه يود النجاح فى

الحياة ولا يريد أن يدفع ثمنه ، انه يرى فى كل طريق أسدا رابضا ، انه ينتظر حتى تمطر السماء ذهبا أو تنشق الارض عن كنز

ان الصعاب فى الحياة أمور نسبية ، فكل شىء صعب جدا عند النفس الصغيرة جدا ، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة . وبينما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب ، اذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقما بالفرار منها ، وانما الصعاب كالكلب العقور اذا رآك خفت منه ، وجريت منه نبحك وعدا وراءك ، واذا رآك تهزأ به ولا تعيره اهتماما وتبرق له عينك ، أفسح الطريق لك ، وانكمش فى جلده منك

ثم لا شىء أقتل للنفس من شعورها بضعتها وصغر شأنها وقلة قيمتها ، وأنها لا يمكن أن يصدر عنها عمل عظيم ، ولا ينتظر منها خير كبير . هذا الشعور بالضعة يفقد الانسان الثقة بنفسه والايمان بقوتها ، فاذا أقدم على عمل ارتاب فى مقدرته وفى امكان نجاحه ، وعالجه بفتور ففشل فيه . الثقة بالنفس فضيلة كبرى عليها عماد النجاح فى الحياة ، وشتان بينها وبين الغرور الذى يعد رذيلة ، والفرق بينهما أن الغرور اعتماد النفس على الخيال وعلى الكبر الزائف ، والثقة بالنفس اعتمادها على مقدرتها على تحمل المسئولية ، وعلى تقوية ملكاتها وتحسين استعدادها . ورجال الاديان مسئولون ــ الى حد كبير ــ عن نشر الافكار فى تحقير النفس وذلتها ، وخساستها وشرورها ومعاصيها ، حتى ليبالغ بعضهم فينغص على الناس حياتهم ، ويفقدهم كل أمل فى النجاح

وبعد فالشرق فى حاجة كبرى الى كميات كبيرة من الابتسامات الصادقة الدالة على النفوس الراضية الآملة الطامحة

سر العبوس

سر أنى شئت فى الشوارع واغش المنتديات والمجتمعات ، وتفرس فى الوجوه ، فقلما ترى الا وجوها مستطيلة مقطبة الجبين ، ورؤوسا أثقلها الهم فخفضها ، وعيونا ساهمة قد فقدت بريق السرور ولمعان الحيوية

استثن الضحكات العالية فى مجالى اللهو وأماكن النادر ، فهل ترى الا العبوس وما يشبه العبوس ، واستبعد البسمات المزيفة المتصنعة فى المقابلات والمجاملات ، وانفذ منها الى أعماق النفوس ، فهل ترى الا انقباضا وانكماشا

فما السر فى هذا كله ؟

سره فى تعاقب الظلم على الشعوب من زمن قديم حتى سلبها حريتها ، وهل تبسم النفس الا للحرية ، وهل تنقبض الا من الاستبداد ؟!

وسره فى الفقر الشامل لاكثر أفراد الشعب ، فهم يحملون الهم المضنى ، كيف يأكلون ويعيشون ، وكيف يسدون حاجات أسرتهم ومن تعلق فى رقبتهم ، والمنافذ ضيقة فى وجوههم ، وأكثر الثروة قد ضاعت من أيديهم

وسره فى ضعف التربية التى لا تفتح النفس للحياة ، وتكتفى بالعلم الجاف

وسره فى النظم الاقتصادية التى لا تقدم على الاعمال ، ولا تفتح أبواب الرزق للشبان، ولا تستغل ما يفى من ثروات البلاد

وسره فى أننا الى الآن لم نتعلم فن الحياة ، ولم تسمع به فى برامج الدراسة ، ولم نره لا فى بيوتنا ولا مدارسنا ولا عند خطبائنا وكتابنا

وسره أننا لم نستشعر الثقة بالنفس ، فلا الفرد يثق بنفسه ، ولا المواطن يثق بمواطنه، ولا رجال الادارة والاعمال يثقون بمواطنيهم ، ولا الناس تثق بأولى الامر فيهم

وسره أخيرا أنا حرمنا العزة القومية طويلا ، وكم تبعث العزة القومية من بسمات !

ابسم

فلنتغلب على هذه الصعوبات جميعا ، ولنبسم للحياة ولو تكلفا ، ينقلب التكلف بعد حين تطبعا

ابسم للطفل فى مهده ، وللصانع فى عمله ، وابسم لاولادك وأنت تربيهم ، وابسم للتاجر وأنت تعامله ، وابسم للصعوبة تعترضك، وابسم اذا نجحت ، وابسم اذا فشلت . . واش البسمات يمينا وشمالا على طول الطريق ، فانك لن تعود للسير فيه

احمد أمين

كلمات جامعة لجورج وشنطون

ـ كل عمل تأتيه فى اجتماع ما ، يجب أن تشتم منه رائحة احترامك للحضور

ـ لا تنم بينما غيرك يتكلم ، ولا تجلس وغيرك واقف ، ولا تتكلم فى مقام يستدعى الصمت ، ولا تمش وغيرك واقف

ـ لا تبذل نصحك عفوك ، واذا سئلت أن تشير فاختصر

ـ لا تتعهد بعمل ما لا طاقة لك به ، ولكن اصرف كل همك للقيام بوعدك

جزيرة ليس فيها سياسيون

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

جزيرة ليس فيها سياسيون .. كيف تكون ؟ هل تعيش سعيدة لا خلاف فيها ولا نزاع ولا حرب ولا قتال ؟ — هذا ما وجهناه إلى الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

يسألني « الهلال » عن هذه الجزيرة التي ليس فيها سياسيون كيف تكون ؟ وجواب هذا السؤال قد يملأ عشرة مجلدات ، كما قد يلخص في بضع كلمات . وليس التلخيص هنا بأقل « حقيقة » من الاسهاب

قد يملأ الجواب عشرة مجلدات ولا ينتهي الى نتيجة حاسمة ، لانه يتناول مسألة الملكية وحقوقها بين الافراد والحكومات ، ويتناول مسألة الاجور وطريقة تقديرها والاتفاق عليها، ويتناول مسألة السلطان ومصدره من المشيئة الالهية أو المشيئة الانسانية ، ويتناول مسألة الايمان بمشيئة الله ، ومن يفسر هذه المشيئة من الكهان أو العلماء أو الرؤساء

والناس يقولون في كل مسألة من هذه المسائل مئات الأقوال ، ولا ينتهون في مسألة واحدة منها الى رأي واحد متفق عليه

لكننا قد نوجز ولا نخطيء الحقيقة كلها في الايجاز ، فندع هذه المسائل جميعا يختلف عليها المختلفون ، ونقرر حقيقة واحدة لا يقع عليها خلاف كهذا الخلاف ، وهي ان الجزيرة التي ليس فيها سياسيون هي الجزيرة التي ليس فيها حرمان من مطالب المعيشة

هنا — أي في الجزيرة التي لا حرمان فيها — لا حاجة الى حقوق الملكية ولا حقوق الاجرة ولا الى تقسيم العمل ولا الى الفصل بين هذه الاقسام وهذه الحقوق وهذه الاجور

أي لا حاجة اذن الى سياسيين ، ومن الميسور اذن أن نتخيل الجزيرة التي ليس فيها سياسيون

فهي جزيرة تكثر فيها الغابات والمروج والانهار ، ويأكل فيها من يشاء ما يشاء من الثمرات واللحوم ، ويسكن فيها من يشاء حيث يشاء من الاودية والنجود ، ولا توجد فيها سيادة ولا حاجة الى سيادة ، وان وجد فيها الاقوياء والضعفاء

نعم هناك شيء غير الطعام والمسكن واللباس يتنازع عليه الناس وهو الانثى الانسانية حيثما رزقت نصيبا من التفاوت في جمال الوجوه والاجسام

ولكن الرجل الذي يريد أن يسطو في هذا الميدان ليستأثر بالمرأة التي يهواها ، لن يفعل ذلك الا بسلطان من المجتمع أو سلطان من المال، وكلاهما غير موجود في تلك الجزيرة

وليس من مصلحة الجميع أن يتدعوه لينعم به فرد واحد من حين الى حين كلما ظهر هذا الفرد الواحد بغير حساب

ولا شك أن الجزيرة التي تبطل فيها الحيازة بالقوة في طلب المتاع المجرد من الحياة ، تبطل فيها الحيازة بالقوة من باب أولى حينما تعلق الأمر بالاحياء ، كما يحدث في علاقات الرجال والنساء ، وليس للعاشق الوامق في هذه الحالة الا ان يلجأ الى وسائل الاقناع والاستهواء على قدر حظه من الحيلة أو الجمال . وهي وسائل فردية لا موجب فيها لقيام الحكومات والنظم السياسية ، فضلا عما قدمناه من بطلان الحيازة عامة وما يتبع بطلانها من تنظيم الزواج على أوضاع تناسب تلك الاحوال

ومتى أصبح في وسع كل انسان من سكان الجزيرة أن يحصل على مراده ، لم تكن هناك حاجة الى منع العدوان وظهور السياسيين لتدبير قواعد الانصاف بين المعتدين والمعتدى عليهم . ويؤكد هذا الرأي أن المباحث العلمية الجديدة في أطوار الانسان الاول تنفي أن العدوان ضرورة « بيولوجية » يضطر اليها الآدميون بدوافع في تركيب طباعهم ، وان توافرت لهم مطالب المعيشة وامتلأت أيديهم بخيرات الطبيعة . فان العلماء الذين راقبوا الانسان الاول أو درسوا تاريخه من مستخرجات الاحافير ، يقررون أن الشكاسة لم تكن خليقة ملازمة لانسان الكهوف والمغاور ، ولم تكن له أسلحة للحرب والفتك غير الاسلحة التي يدفع بها الوحوش أو يلتمس بها الصيد ، ويرى هؤلاء العلماء أن الهمجية أسلم من الحضارة في خليقة العدوان التي تنمو مع المجتمعات الكبيرة ، ولا تسيطر على الانسان في نشأته الاولى

* * *

وهكذا تعيش الجزيرة السعيدة بعيدة من السياسيين لانها بعيدة من الحرمان ، وليس ذلك لان السياسيين يحبطون في مساعيهم اذا ظهروا فيها ، بل لانهم لا يظهرون ولا يوجد في جزيرتهم ما يغريهم بالظهور

وما هو الا أن يتراءى شيء من الحرمان في ناحية من نواحي تلك الجزيرة حتى يتراءى بازائه شيء من السياسة على مقداره

لان الحرمان يدفع سكان الجزيرة الى التسابق على حيازة المرافق التي يستمتع بها أناس دون آخرين

ويومئذ توجد حقوق الملكية ، ويوجد التسخير والتأجير والاستغلال ، بل توجد جميع الاسباب التي تدعو الى وجود السياسيين ، وخلاصتها الطمع والتنازع والحاجة الى كف العدوان أو تنظيمه لاطالة النفع منه جهد المستطاع

فالحرمان هو رائد السياسة في تاريخ الانسان الاول ، أو هو علة الحاجة الى نشوء السياسيين ومن يؤدون وظيفتهم بكل عنوان من العناوين ، وقد يكون منها عنوان الكهانة وعنوان السحر وعنوان الاصلاح

ولا يفهم من كون الحاجة علة لنشوء السياسيين فى الجزيرة المفروضة أنهم يكفون الجزيرة حاجتها ويحملون مؤونتها ، فان العلة شيء والعلاج شيء آخر . ومنذ الساعة الاولى فى تاريخ العلل والادوية كان المرض موجبا للبحث عن الطبيب ، ولم يكن مجرد البحث عنه كافيا لاتقان الطب وضمان الشفاء

كذلك الحرمان والسياسة !

يكون الحرمان علة لظهور السياسة فيظهر السياسيون ويعملون مخلصين وغير مخلصين ، ولكنهم لا يزيلون الحرمان ولا يهتدون الى علاجه الصحيح الا بعد اجتهاد وتجربة ومعاودة للاجتهاد والتجربة عدة مرات ، وقد ينتقل الناس على مدى الايام من علاج حرمان الجزيرة الى علاج السياسة نفسها وانشاء الفن الخاص — بل الفنون الخاصة — بتطبيبها وتقسيم أمراضها وتنويع أدويتها . وهذا الذى حدث ويحدث الى الساعة فى الجزيرة الانسانية برمتها ، ونعنى بها الكرة الارضية التى نسكنها ولا نستطيع أن نتحول عنها

ففى هذه الجزيرة — أى هذه الكرة الارضية — عشرات الالوف من السياسيين

وهؤلاء هم أطباء الحرمان

وفى هذه الجزيرة ألوف من أصحاب المذاهب السياسية والاجتماعية ودعاتها التابعين لاصحابها

وهؤلاء هم أطباء الاطباء !..

وكل طبيب من هؤلاء الاطباء يشيد بطبه دون غيره ، ويتهم الاطباء الآخرين بالشعوذة والجربزة وسوء العلم وسوء الضمير

ومن هؤلاء أصحاب « مستوصف » الاشتراكية ومستوصف الشيوعية ومستوصف النقابية ومستوصف الفوضية ، وغيرهم ممن تتفرق بينهم الاسماء والعناوين حتى يصبح « لحم » أحدهم سم الآخرين ، كما يقولون فى أمثال الاوربيين

هؤلاء قفزوا بالجزيرة الانسانية من وراء الزمن الى عالم لا استغلال فيه ، فلما أرادوا أن يفسروا لنا كيف يزول الاستغلال ، وقفوا بينهم وقفة يطول عندها الانتظار ، ويكتب للاستغلال معها عمر الأبد لو كان عمره معلقا على نتيجة ذلك الانتظار

ما العمل فى الاجور مثلا اذا بطل الاستغلال ؟ هل يبقى لها محل فى عالم العمل أو هى لاحقة بالاستغلال تزول بزواله ؟

أما الذين قالوا انها تزول فقد اختصروا الطريق ، ولكنهم لم يصلوا الى شيء

وأما الذين قالوا انها تبقى ، فاستمع اليهم تسمع عجبا يروقك كأنه أعجب الفكاهات ، لولا أنه جد أليم

يقولون : لا لزوم للمال لانه أداة الاستغلال . انما يتداول الناس « صكوك الايجار » ويحمل كل منهم أوراقا مالية من هذه الصكوك . فاذا اشتغلت فى مصنع قومى ثمانى

ساعات ، فمعك ورقة بهذه الساعات الثمان ، تشترى منها كبريتا بساعة ومنديلا بساعتين وخضرا وفاكهة ولحوما بثلاث ساعات ، ولا يفيدك أن تحتفظ بقيتها فى يديك !

ويطل هنا سائل لا بد أن يزج برأسه فى هذا المجال فيقول : وهل يتساوى عمل ساعة يقضيها العالم فى كشف الحقائق الطبية والرياضية والطبيعية ، وعمل ساعة يقضيها الفاعل فى حفر التراب ونقل الاحجار ؟

فيجيب قوم : نعم ، ويجيب آخرون : لا يتساوى هذا وذاك

فأما الذين أجابوا نعم ، فقد اختصروا الطريق ولكنهم لم يصلوا الى شىء !.. وأما الذين أجابوا « كلا » فالخلاف بينهم أعجب خلاف

فمنهم من يقول ان ساعة العالم تقدر بساعات من عمل العامل بيديه ، ومنهم من يقول بل تقدر ساعة العامل بيديه فى الصناعات الكريهة — كصناعة المجارى مثلا — بعدة ساعات من أعمال العلماء والاطباء والمخترعين !!

وكيف يتفقون ؟ وكيف يكون تقدير الفروق اذا اتفقوا على المبادىء ؟ وكيف يكون الانصاف فى التنفيذ اذا تقررت المبادىء وتقررت الفروق ؟

تلك بعض ألغاز الجزيرة التى يظهر فيها الحرمان ، فيظهر فيها أطباء الحرمان ، فيظهر فيها أطباء الاطباء ، فيظهر فيها الصيادلة بشتى العقاقير من وراء أولئك وهؤلاء

ويخيل الينا فى كثير من الاحيان أن المائدة حافلة بالطعام ، ولكن أماكن الضيوف هى التى يقع عليها الخلاف . فهذا تقابله الفاكهة وهو محتاج الى الخبز ، وهذا يقابله الخبز وهو محتاج الى التوابل ، وهذا يقابله الدجاج وهو يستفيد من السمك ، أو يقابله السمك وهو يستفيد من الدجاج

وعلى أية حال هنالك حقيقة موجزة تجمع كل ما يخاض فيه من هذه التفصيلات ، وهى أن « الجزيرة » لا يظهر فيها السياسيون وأطباء السياسيين الا ساعة يظهر الحرمان ، سواء كان هذا الحرمان لقلة الطعام على المائدة أو لكثرة الطعام مع اختلاف المكان

عباس محمود العقاد

الحرب بعد خمس سنوات

بقلم الأستاذ سامي الجريديني

أما عقبى الوغى بعد أن ابتلى العالم كله به ، فقد وضح وصارت الاشارة اليه تحصيل حاصل فالنصر مضمون للامم المتحدة، وكتبت الهزيمة على الطغاة الذين اتخذوا من شعوبهم والشعوب التي قهروها مطية لمطامع قومية ، ليس هذا العصر بأهل لها

وعندنا أن هذه الحرب قد وضعت حداً فاصلا نهائياً لكل أيام الحروب الماضية التي كانت تقوم على أمرين : أحدهما مطمح شخصي موروث عن الانظمة الاقطاعية القديمة وما تبعها من نظم اقتصادية جعلت لخدمة الفرد مضحية بمنافع الكثرة . وثانيهما المطامع القومية التي نشأت عن المطمح الفردي

وقد كانت هذه شراً ووبالا على العالم ، لأنه اذا كان ضرر الفرد مما يسهل اتقاؤه فان الضرر الآتي بلباس القومية وسحنة الوطنية لعظيم جرف العالم منذ قرنين وأكثر ، ولا تزال آثاره ظاهرة . وليست النازية أو الفاشية الا مظهراً من مظاهر الروح القومية المتعصبة التي تأبى أن تسمح للقوميات الأخرى بالبقاء الا في درجات واطئة ، وتبقى هي مستعلية

خلاصة تاريخية

عند ما شهرت انجلترا الحرب على المانيا في سبتمبر سنة ١٩٣٩ قال رئيس وزارتها يومئذ : إننا أخذنا أهبتنا لنحارب خمس سنين ان دعت الحال

فأجاب هتلر : « أما المانيا فقد تأهبت للحرب سبع سنين »

فهل يصدق الحدس الانجليزي أو تتم نبوءة زعيم الحالمين ؟

ولسنا الآن في مقام التكهن بنهاية الحرب ، وإنما نحن نؤرخ حوادثها ، فها قد مر عليها خمس سنين إلا قليلا . فاذا بالمقدمات شيء وبالنتائج شيء آخر

فصار يحق للمتكهنين أن يقولوا انها صارت على أبواب النهاية

ويجوز أن يقال إجمالا ان الظفر كان معقوداً بألوية الالمانيين في السنين الثلاث الاولى من الحرب . فقد عبأ المحور ـ المانيا واليابان وايطاليا ـ قوته بعد أن كان قد تأهب واستغل تردد أعدائه وضعفهم ، فظن الفرصة مواتية لاحتلال أوربا ثم السيادة على العالم أجمع

ولم يكن يخامر رجال المحور شك فى قدرتهم على اخضاع أوربا كلها فى بضعة أيام ـ أوربا الغربية أولا ، ثم روسيا

أما انجلترا فسكانوا واثقين من استسلامها بعد أن تملكوا ناصية أوربا الغربية ، فان أبت فغزوها وضربها من الجو وحصرها وتجويعها بالغواصات الى أن تخر صاغرة على أقدام الطغاة

ولقد كان نصر المانيا فى تلك السنوات كتاباً موقوتاً ، فقد كانت جيوشها لا تهم بعدو حتى يخضع وكانت القوة الآلية من مركبات وطائرات تلقى الرعب فى الشعوب ، المحاربين منهم وغير المحاربين

حتى قال القائلون أن قد تم الامر لالمانيا . وأخذ المحايدون يتأهبون لتلقى الامر من الاسياد الجدد

***

وليس المقام مقام سرد تفصيلى للحوادث ولكنه مقام اظهار موقف الحرب من العالم الآن وكيف انقلبت الآية

فسواء أكان الفضل للبريطانيين الذين كسروا القوة الجوية الالمانية فى معركة بريطانيا، أو كان للروس الذين عادوا بعد غلبهم يهاجمون ويفتتحون المعاقل الالمانية ويردون جيوشها عن الاراضى الروسية ، أو كان للاميركيين الذين أمدوا الانجليز والروس بالسلاح وبالذخيرة وبالطائرات وبالمدمرات ، وقالوا لهم اصبروا وصابروا فاننا منجدوكم عما قليل

سواء لهذا السبب أو ذاك ، أو لكل هذه الاسباب متجمعة فان النتيجة واحدة

فعدة الالمانيين لفتح العالم وسيادته كانت قائمة على اخضاع أوربا الغربية استناداً الى قوة جوية هائلة تؤيد جيوشاً اتخذت الدبابات والسيارات المصفحة آلة قتالها ، ثم الى قوة بحرية تحت الماء تضرب مواصلات انجلترا فتجوعها ، وتمنع المدد الأميركى من الوصول

فخضعت أوربا الغربية على مضض، أخضعها السلاح المرهف فى وجهها ولكنها أبت أن تتعاون مع المانيا الظافرة

وأما الجو الذى ظن جورنج أنه سيكون عبداً له ، فقد نقل ولاءه الى الانجليز أميركيين ، وأما الغواصات فباءت بفشل ذريع ، وتم تأهب أميركا ، واذا بجيوش الحلفاء تغزو أفريقيا وتطهرها من المحوريين واذا بها تغزو ايطاليا وفرنسا . فليس هناك بقية أمل لألمانيا بالنصر . ليس لتخلى ايطاليا عنها ، ولكن لافتقارها عما قليل الى كل ما يجعل الحرب مستطاعة . انها افتقرت اليوم الى الزيوت وغداً الى الحديد ، وبعد غد الى الامل الذى كان يشحذ همة الشعب الالمانى ويدفعه الى التضحية

***

فاذا سلمنا بأن الحرب بعد خمس سنين قد جعلت النصر مضموناً لأعداء ألمانيا ، فهل كان هذا كل ما جاءت به الحرب

إننا نعتقد أن هذه الحرب كانت نتيجة محتمة للحرب العالمية الأولى ، ومتممة للانهيار الاجتماعي التي بدأ في ١٩١٤ ، والذي كان يجب أن يكون ليزول نظام عرفه العالم وخبره منذ أواسط القرن الثامن عشر حتى آخر التاسع عشر

إن هذه الحرب والتي قبلها كانتا أداة انقلاب اجتماعي رأينا بداءته ولم نر استقراره بعد . فاذا علمنا أن القوة المتجمعة في أميركا وروسيا والامبراطورية البريطانية كانت صاحبة اليد الطولى في القضاء على الطغيان ، صح لنا أن نتلمس السبيل الى ما سيكون عليه عالم بعد الحرب ، على ضوء ما تعمل به ولأجله هذه الأمم المنتصرة

فانه لولا اجتماع هذه القوى الثلاثة تؤيدها الصين في الشرق الاقصى باشغالها جانباً لا يستهان به من القوة اليابانية ، لما كان هناك من شك في انتصار ألمانيا

وإنك لترى حتى الساعة بعض الناس في شرق أوربا وفي آسيا وفي أميركا الجنوبية لا يسلمون بانكسارها ، ولعل تمنى الشيء يحل عند هؤلاء الناس محل الشيء نفسه

القوة المتحدة الغالبة

فالقوة التي أودت أو تكاد تودي بالنازية والفاشية وبالنظم التي تمثلهما ، هي قوة متحدة ذات ثلاث عواصم (واشنطون وموسكو ولندن)

على أن الاتحاد في زمن الحرب سهل ، لأنه خاضع لنظام عسكري ، لا يستطيع معه الفرد أو الجماعة أن يخرجا على الغرض الحربي ، ولكنه إذا وضعت الحرب أوزارها وجاء زمن السلام ، بدأت المصاعب ، إذ تطلق الحرية من مكامنها ، وإذ ينفجر ما كانت ضغطته الحرب وكبتته

هذه العواصم الثلاث تمثل أمماً مختلفة ومبادىء سياسية واقتصادية متباينة

فالاقتصاد والسياسة في روسيا قائمان على ارشاد الدولة التي تتولى الشؤون كلها

أما في الولايات المتحدة الأميركية فالفرد دعامة المجتمع ، ويأبى هذا أن يخضع لسيطرة الدولة ، ذلك أنه رأى توفيقه السياسي ونجاحه الاقتصادي فيما مضى رهناً بهذه الحرية

ولعل الامبراطورية البريطانية قد جمعت اليوم المبدأين معاً الى حد غير محدد بعد

وليس لنا أن ندخل الآن في تفاصيل نوضح فيها أغراض كل من هذه الأمبراطوريات الثلاث ومراميها الاجتماعية ، ولكننا نزعم أن القوم — وقد خبروا الانقسام وسوء الظن — قد يجعلون سياستهم قائمة على حسن الجوار ، وتفهم الواحد عقلية الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلا

أولى نتائج هذه الحرب

فقد كانت أولى نتائج تحالف هذه الأمم إظهار الكرامة الانسانية على أشرف مظاهرها

فقد برهنت البشرية مرة أخرى أنها تأبى الخضوع لسيطرة الفرد أو الجماعة المستبدة ، وهى شر من الفرد

إن الذى جعل البريطاني يأتى من أقصى الأرض ليبذل نفسه ونفيسه فى محاربة المحور ، والذى حول الأميركيين من قوم فى عزلة عن العالم وفى اكتفاء مادى عظيم الى شعب يضحى بحريته وبماله وبروحه فى مقاومة المحور ، والذى جعل الشعب الروسى الذى لم يستطع فى ماضيه الطويل أن يصمد للقوة الألمانية ، أن يصبر ويضحى ويبذل فى سبيل مكافحة المحور ـ إن هذا العامل هو فى نظرنا أبعد مرمى من مصلحة مادية قريبة النوال ، إنه دفاع عن الكرامة الانسانية نفسها التى أبت أن تستعبد لعنصر بعد أن مضى عليها قرون تجاهد فى سبيل الخلاص من شتى العبوديات

فان الأزمات العظمى قليلة فى التاريخ ، ولكنها عندما تجىء تكون محكا تظهر فيها معادن الشعوب التى تضع الكرامة الانسانية فوق كل اعتبار

وان هذه الحرب وقد عمت العالم وكاد الألمانيون أن يستأثروا به ، لا تخرج عن أنها أكبر نضال قام حتى الساعة فى سبيل تمرد الانسانية على الاستعباد ، ونزوعها الى تحرير نفسها من قيود سياسية واقتصادية آثرت القلة على الكثرة

ثانى نتائج هذه الحرب

اذا كانت الكرامة الانسانية قد استفاقت فى هذه الحرب من سبات القرون الماضية فلا شك أنها ستوجه حكوماتها توجيهاً يختلف عن الماضى

فالذين قامت هذه الحرب على أكتافهم ورأوا الملايين تنفق فى سبيل التخريب ، سيطلبون أن تنفق أمثال هذه الملايين أو أقل منها فى سبيل التعمير

والتعمير لن يكون اذا لم يكن العيش مضموناً لأهله ، فقد كانت البطالة وعدم توفر العمل للعامل كذلك الفقر وعدم تمكن نفر كثير من كفاف العيش ، ناهيك بالخوف من المرض ومن الشيخوخة ـ لقد كانت كل هذه من الأمراض المعيبة التى علق مكروبها فى الشعوب ، ولكنها لن تعود بعد هذه الحرب . ذلك أن الحكومات القائمة فى العواصم الثلاث قد قطعت لشعوبها على أنفسها عهداً ، بأن تضمن للعامل عملا ، وأنه لن يعود سائلا بعد اليوم ولا مفر من تنفيذ هذا

وأنت ترى أن العمل الكثير يستدعى الانتاج الكثير ، والانتاج الكثير يتطلب أسواقاً للاخذ والعطاء

وأنت ترى أن المزاحمة على الأسواق كانت ويلا على العالم فيما مضى وأن الناس قد فهموا بعد

لأى أن التضامن خير من التنافر ، وأن التسامح مجلبة للرواج المادى ، فلذلك ترانا نظن أن توجه القوة الثلاثية التي أشرنا اليها سيكون توجيهاً قائماً على الافادة من اختبار الحرب الحالية ، ومن الايام الماضية بحيث يرون أن الاختلاف على الحدود ، يعيد أسباب الحروب سيرتها الاولى

وان يكون توجه هذه القوة فى هذا السبيل حباً بالمبادىء الاخلاقية ، فانه اذا كانت القوة فى أمثال الأيدى التى أبرمت اتفاق مونيخ ، ونصرت فرنكو على الجمهورية الاسبانية ، ووقعت هدنة يونيو ١٩٤٠ ، فلن يرجى للبشرية خير

إنها أياد تسعى لمنفعة طبقة دون طبقات ، فى سبيل استعلاء فئة على فئات فى ظل السلامة المادية ، ذاهلين عن سلامة الروح والضمير

لا . لن تكون القوة فى مثل هذه الأيدى ، ولن تكون فى سبيل ما يذرون به الرماد على العيون ويدعونه أخلاقا عالية . ان القوة ستكون فى أيدى الشعوب الذين تعلموا وارتفع مستوى العيش عندهم ، وأدركوا أن القيادة فى أيديهم ، وأنهم اذا سلموها فانهم يسلمونها لمن يعلمون أنه خادم أمانيهم ، هذا هو الرجاء الوحيد الذى يجعل السلام فى حيز الامكان

ثالث نتائج هذه الحرب

اذا صح ما قدمناه أو صح بعضه ، فان السياسة فى الاجتماع والاقتصاد ستنصرف عن مبدأ القومية الى ميدان أعم وأوسع ، وهو الميدان العالمي . وأول قوم سيتوجه هذه الوجهة بعد الحرب سيكون الأوربيين . فقد آن لهم أن يدركوا أن القتال المتواصل على جبل هنا ونهر هناك ، وحد فاصل فى هذه الناحية ، وأرض ذات ماض فى تلك ، كل هذا كان سببا فى الحالة التي وصلت اليها أوربا الآن فتقطعت أوصالها وأضاعت زمام الأمور العالمية من أيديها

ان فيما كانت عليه أوربا أيام الامبراطورية الرومانية ، وما جرته عليها سياسة القوميات من حروب ابتدأت ولما تنته، لما يفتح عيونها الى حقيقةيظهر فيها الاتحاد الاوربى بشكل اتحاد أجزاء الامبراطورية البريطانية أو بشكل الاتحاد السويسرى ، عاملا شريفاً فى سبيل الحضارة

فاذا كانوا يعيبون على البلقان أنه كان «كالسلطة» متشعب الاميال والاجناس واللغات والمذاهب فان أوربا نفسها لم تكن خيراً منه

فان لم ترتفع عن هذه السياسة ، واذا لم ينظر قادتها العتيدون نظرة أرفع وأوسع مدى فى سياستها ، فقل على مستقبلها السلام

هذا اجمال مشى به الخاطر ، ولا يتسع المجال الآن لبحث مسائل تتعلق بكل دولة من الدول العظمى على حدتها ، كما أن الرأى العام بعد الحرب قد يتخذ تياراً لم نشاهد كل خطوط سيره بعد ، والامور مرهونة بأوقاتها

سامى الجريديني

لماذا نبكي ونضحك

بقلم الدكتور أمير بقطر

ان الانفعال لغة كالكلام نعبر به عن
وجدان ، كما نعبر بالكلام عن رأى أو رغبة

فى كل لحظة من لحظات الحياة – فى اليقظة غالبا وفى النوم وأثناء الاحلام أحيانا – يحس الانسان اما بارتياح أو بعدم ارتياح . وتنشأ هذه الحساسية عن وقوف صاحبها على شئ ، أو ما نسميه عادة المعرفة . والمعرفة تأتى الينا عن طريق الحواس ، من الخارج أحيانا ومن الداخل أحيانا . فكل ما نسمع من الاصوات والاحاديث والاغانى ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، وكل ما نرى من المناظر ، وما نشتم من الروائح ، وما نذوق من المآكل والمشارب ، وما نلمس من الاجسام ، وما نحس به من الرطوبة والبرودة . وبعض ما نحس به من الألم . . كل هذه معارف تأتى الينا من الخارج . وكل ما نحس به من الآلام العضوية ، والجوع ، والعطش ، والرغبة الجنسية وأمثالها ، معارف تأتى الينا من الداخل . وكلها يطلق عليها اسم مدركات حسية لانها معارف مصدرها الحواس . وهى (أى الحواس) تبلغ اليوم اربع عشرة ، لا خمسا كما كان يظن . وقد تأتى الينا المعارف عن طريق الخيالات التى تمر على الذهن فى شكل صور وأشباح . وما هذه حقيقة الا صدى أو صورة منعكسة للمدركات الحسية ، أى لمعارف سابقة جاءت الينا عن طريق الحواس . وهناك معارف أكثر تعقدا من هذه التى تجئ الينا عن طريق الحواس ، وهى ما نسميه المدركات العقلية . فجهاز المجهر (المكرسكوب) عند الرجل الجاهل ما هو الا قطعة من النحاس ، تتخلل أجزاءها مرآة وقطع من الزجاج ، أى أنها تكاد تكون المعرفة فيها ادراكا حسيا وحسب ، فى حين أنها فى نظر الرجل المتعلم آلة ثمينة ، تحمل دقائقها مجموعة من اختباراته السابقة ، وتحمل الى ذاكرته عجائب الطب وغرائب العلم ، و « باستير » وعالم الجراثيم وعلم البصريات وغير ذلك ، فضلا عن انها قطعة من النحاس تتخللها مرآة وقطع من البلور

نعود الى ما قلناه فى صدر البحث من أن الانسان يحس فى كل لحظة اما بارتياح أو بعدم ارتياح ، تبعا لنوع المعرفة (أو الادراك) التى شرحناها . والحساسية بالارتياح أو عدمه تتطلب شيئا من التفصيل . فأولا قد تبلغ فى أقصاها المرح والانبساط من ناحية،

والانقباض والوجوم ، بل الحزن الشديد من الناحية الاخرى . وثانيا قد تبلغ التوتر والشدة والعسر (فترة الانتظار) من ناحية ، والفرج من الناحية الاخرى . وثالثا قد تبلغ التهيج من ناحية والتخدر أو فقدان الحس من الناحية الاخرى . وبين الطرفين فى كل درجات ، منها ما تكون الى الارتياح أميل ، ومنها ما تكون الى عدم الارتياح أقرب ، ومنها ما تكاد تكون وسطا بينهما ، فيسمونها « محايدة » . ويرمز علماء النفس الى حالة الارتياح بالعلامة الرياضية + (زائد) والى حالة عدم الارتياح بالعلامة − (ناقص) . على أنه يحدث أحيانا أن تجتمع الحالتان فى شخص ما فى وقت واحد ، كأن يرى أحدنا عزيزا لديه خرج من سجن أو عاد بعد غيبة طويلة ، فتختلج جوارحه بالحزن والفرج فى وقت واحد ، ويرمزون الى هذه الحالة بعلامة (زائد وناقص معا)

وهذه الحساسية بالارتياح أو عدم الارتياح ما نسميه عادة وجدانا . غير أن الناس لا يكتفون فى الغالب بالوجدان ، أو يقفون عند حد الاحساس بالارتياح أو عدم الارتياح وانما يبدو عليهم فوق ذلك ما ينم على هذا الاحساس الداخلى ، أو بتعبير آخر ينفعلون ، أى أن الوجدان احساس داخلى ، فى حين أن الانفعال مظهر خارجى لهذا الاحساس الداخلى . فاذا رأيت صديقا لك ، لا تستطيع أن تدرك ما يحس به من ارتياح أو عدمه ما لم يبد ذلك على وجهه أو ملامحه ، أو ما يكشف عنه لونه أو صوته ، أو ما تدل عليه حركاته . والانفعال نشاط عضلى أو غددى أو كليهما . فاذا أحسست بالألم تقلصت عضلات وجهك ، واذا أحسست بالحزن أذرفت الدموع ، واذا أحسست بالغضب احمر وجهك وكشرت عن أنيابك ، وضممت قبضتيك بشدة ، واذا ما أدركك الخوف ، تصبب العرق من جبينك ، واضطربت أنفاسك ، وأسرع نبضك ، وارتفع ضغط الدم فى شرايينك ، واذا ما انتابتك نوبة حب اضطربت نبضات قلبك وقفز ضغط الدم ، وهكذا الحال اذا جلست الى منضدة تجيب عن أسئلة الامتحان ، أو اذا وقفت أمام القاضى متهما أو شاهد زور ، أو اذا قعدت على أريكة الطبيب للفحص . واذا ما أغضبك أحد فثارت ثائرتك تقلصت عضلاتك ، وانتصبت شعرات رأسك ، وكأنك تتأهب للقتال ، وان لم تقاتل فعلا

جميع هذه الانفعالات — الكز على الاسنان ، تورد الخدين ، انتفاخ الوجه ، وقوف الشعر ، ضم القبضتين ، سكب دموع الحزن ، تضرعات الحبيب ، تأوهات الحزين ، قهقهة المرح — كلها مظاهر لشتى الوجدانات . وأهم هذه الوجدانات الخوف وهو استجابة للخطر ، والغضب وهو استجابة لتدخل الغير فى حرية الفرد أو هدرا لكرامة ، والفرح وهو استجابة للفوز بكل أنواعه ، والمفاجأة وهى استجابة لما لا ينتظر ، والبكاء وهو استجابة للحزن ، والحب وهو استجابة لجاذبية جنسية أو ما فى حكمها ، ومتى سيطر العقل على صاحبه قلت هذه الانفعالات ، ولكن هيهات زوالها ، اذ أنها مظهر للوجدانات ، والوجدانات من طبيعة الانسان ، ومن مستلزمات كيانه . ومهما بلغ المرء من سمو

العقل والحكمة والثقافة ، فلا مناص من أن تخرج الحالة أو الموقف من يده أحيانا ، فيندفع اندفاعا وتتغلب العاطفة على العقل فينفعل

يسأل سائل : ما معنى هذه الحركات المضحكة ـ هذه الانفعالات الغريبة فى بابها ؟ تأمل فى الابتسام ، الضحك ، التجهم ، تقطيب الوجه ، التكشير ، مط الشفتين ، التهكم ، السخرية ، النحيب ، النشيج ، الصراخ ، الزعيق ؟ ما معنى هذه وعشرات أمثالها ؟ يخيل الينا لاول وهلة أنها عديمة المعنى ، غريبة الاطوار ، فما معنى مط الشفتين عند ما يكون الواحد منا متجهما عابسا ؟ وما معنى شد زاويتى الفم والكشف عن عدد كبير من أسنانه ، عند النظر الى الغير نظرة الاحتقار ؟ فى رأى دارون انها بقايا حركات بدنية ، كانت يوما ما ذات منفعة عملية فى حياة الفرد ، ضرورية لبقاء الجنس . فتحريك الرأس الى اليمين ثم الى الشمال دلالة على عدم الرضا أو الرفض أو الانكار ، ترجع الى مرحلة الرضاع ، عند ما يريد الطفل أن يعبر عن عدم رغبته فى الطعام ، واخراج الكلام من الانف عند الاشمئزاز والاستياء (أى تقليد الأخنف) مصدره ضرب من الدفاع عن النفس عند تجنب الروائح الكريهة ، وضم الشفاه عند العزم والتصميم ، أو للحنق وحدة التأثر ، يتمشى وتخشب الصدر وضم فتحة الحنجرة ، ومصدره التأهب للقيام بمجهود عضلى ، أو الاستعداد للوثوب ، وابداء النواجذ عند احتقار الغير والازدراء بأقوالهم أو أعمالهم ، ترجع الى ما قبل ظهور الانسان . فالقردة والكلاب وأمثالهما من الحيوانات ذات الانياب الحادة ، تجد فى هذه الحركة سبيلا لاظهار بأسها ، ووسيلة لارهاب العدو . والكثير من هذه الحركات يولد بها الانسان ، ولكن الكثير منها أيضا يكتسب من البيئة . فالمحامى بطبيعة مهنته يكثر من الانفعالات الصوتية والحركات البدنية ، والممثل بحكم صناعته يبالغ فى هذه الانفعالات حتى تصبح أحيانا جزءا منه . والامم اللاتينية (واكثر الامم الشرقية) معروفة بالمغالاة فيها ، ومن القصص المأثورة فى هذا الصدد أن فرنسيا كان محكوما عليه بالاعدام ، لم يبدأ فى شرح أقواله (مما أدى الى تبرئته فى نهاية الامر) الا عند وقوفه أمام الجلاد ، ولما أن سئل عن سبب سكوته الى ذلك الحين ، أجاب : وكيف كنت أستطيع الكلام وأنا مقيد اليدين مغلول القدمين ؟

ويستطيع من لابس الكثير من الامم والطوائف والعشائر أن يتعرف على جنسية الشخص أو عشيرته أو اقليمه بل أسرته أحيانا ، عن بعد ، اذا ما راقب حركاته ونبرات صوته . وسكان الامم الشمالية أقل الناس انفعالا واشارة وحركة ، ومع ذلك يمكن معرفة البلد أو الاقليم الذى ينتمى اليه أحدهم من مراقبة القليل مما يبدو عليه من الانفعالات

قلنا ان المرء كلما تمدين وتثقف وخرج من مراحل الطفولة ، تضاءلت انفعالاته ، وازدادت مقدرته على ضبطها . والناس يضحكون عادة من رجل عاقل بالغ متعلم ، اذا ما بكى أو احتد أو خاف أو أحب أو كره وأبدى هذه أو بعضها علانية ، وذلك لان الانفعال بغير ضابط من مظاهر الطفولة ورجوع الى الفطرة . ومعنى هذا أن الضغط

الاجتماعى؟ يدفع الرجل المتمدين الى الاحتفاظ بوجدانه لنفسه ــ حزنه وفرحه وكراهيته وحبه وخوفه وغضبه واشمئزازه واستحسانه . وكثيرا ما تدفع « الاتيكيت » أو «الدبلوماسية» الرجل الى الابتسام ، فى حين أن الطبيعة تريد الوجوم والتجهم ، والعكس» وفى جميع العصور البائدة منها ــ وعلى الاخص فى عصر المدنية ــ كان هناك سباق دائم بين اخفاء ما يتم على وجدان الشخص ، وبين الكشف عنه فى الغير.

وما التمثيل الا تصوير الوجدان بحذق الانفعالات الصناعية ، من اشارات ، وحركات، ومواقف ، وتعجبات ، وتعبيرات وجهية وصوتية . وهذه مكتسبة فى الغالب . ولكن الواقع أن أمهر الممثلين هو الذى لا يقف عند هذا الحد ــ حد تصوير الوجدان ــ وانما الذى يصوره ويحس به فى آن واحد ، أى يجتمع فيه الوجدان والانفعال معا . ومعنى هذا أن يكون طبيعيا ، لانه لا يعقل فى الحياة اليومية أن يكون الانسان منفعلاً بغير أن يحس بمصدر الانفعال ، اللهم الا اذا كان مرائيا ، أو مخادعا أو « دبلوماسيا » . ويختلف الممثلون فى الوسائل والحيل التى بها يتمكنون من اثارة الوجدان المرغوب فيه فى شتى المواقف التمثيلية . فالممثلة السينمائية « بولا نيجرى » مثلا كانت كلما دعاها موقف للبكاء والحزن ، استمعت الى اسطوانة فونوغرافية خاصة ، كانت سمعتها يوما ما فى طفولتها فى احدى غابات بولونيا ، موطنها الاصلى . ولعل هذا المثال يحدونا الى الاشارة الى نظرية سيكولوجية معروفة باسم صاحبيها « جيمس ــ لانج » (١) ومؤداها أن المرء ينفعل أولا ويحس بعد ذلك ، لا العكس . أى طبقا لهذه النظرية أننا نحس بالحزن لاننا نبكى ، ونخاف لاننا نهرب ، ونغضب لاننا نحتد ونشتم ، ونحس بالمرح لاننا نضحك ، لا العكس

ومهما قيل ضد هذه النظرية فانها تشمل الكثير من الحقيقة . فالممثل يتصنع الضحك فى بادىء الأمر ثم يتمادى فيه ، وسرعان ما يحس بالمرح ، فيصبح الضحك طبيعيا بعد ان كان صناعيا ، ويتصنع البكاء ويجهش ، وسرعان ما يحس بالحزن ، فيستحيل البكاء طبيعيا بعد أن كان صناعيا . واذا راقبنا عن كثب حلقة « ذكر » تبين لنا أن افرادها يبدأون بحركات بدنية تتمايل أبدانهم فيها يمنة ويسرة ، وتهتز أعطافهم ، وتزداد حركاتهم عنفا، وهم فى ذلك يتصنعون هذه الحركات ولا يحسون بمصدرها ، ولا بما يدعو اليها فى بادىء الامر ، ولكنهم بعد ذلك تأخذهم النشوة ، وتسرى فى أبدانهم وجدانات وأحاسيس ، فتتحول هذه الحركات التوقيعية انفعالات طبيعية بعد أن كانت صناعية . ولا يشك أحد منا أن كبت الانفعالات الجسمانية الخارجية تحمى سعير الوجدانات الداخلية ، ولكنه من المحقق كذلك أن المبالغة فى اظهار هذه الانفعالات تزيد نار الوجدانات اتقادا . فالنساء اللاتى يولولن ويكثرن من النحيب الصاخب والضوضاء والجلبة اذا مات لهن قريب أو بعيد ، انما فى الواقع يخلقن الحزن ، وقد لا يكون له داع أو وجود . كما أن المعزين

(١) جيمس العالم والفيلسوف الاميركى ولانج العالم السيكولوجى الدانيمركى

الذين يتجمهرون حول امرئ، فقد عزيزا لديه يحاولون منعه من البكاء وهو يودع ذلك العزيز الوداع الاخير عند حافة القبر ، انما يسيئون اليه ، اذ أن انكار البكاء عليه يزيد النار اشتعالا . وكل ما نريد أن نقول هنا في هذا الصدد أن المغالاة في البكاء تضاعف الاحساس بالحزن ، لا البكاء المعتدل ، وان المبالغة في البكاء وان كان مفتعلا ، يولد في النهاية الحزن

وقد يدل الانفعال الواحد على معان (وجدانات) كثيرة . مثال ذلك قد يدل موقف واحد على المفاجأة ، التعجب ، الاندهال ، الاعجاب ، الهلع ، الخوف ، الامل ، الحب النباهي ، ولا يمكن الجزم بالتمييز بينها . وقد يدل انفعال آخر على الاشياء ، الكراهية ، الاستهجان ، الازدراء ، التحدي ، الاستهزاء ، التهكم ، البكاء ، الجبن ، الاشمئزاز النفور ، حب السيطرة ، الاتهام ، الارتباك ، الألم المقلق . ولليدين قدرة عجيبة على اظهار الانفعالات ، كالحب ، والكراهية ، والتأهب للقتال ، وعدم المبالاة . اما الصوت فأشد تعبيرا من الوجه والملامح واليدين في ابداء الانفعالات . ويقول علماء النفس ان الصوت الذي يسمع عند ما يقول صاحبه « لا » يمكن الوقوف منه على شتى المعاني . وفي بعض اللغات تكتب الكلمة الواحدة بصورة واحدة ولكنها تؤدي عدة معان تبعا لنبرات الصوت العديدة التي يمكن نطقها بها . وتذكرني هذه النقطة بحكاية سمعتها من زميل لي قضى سنوات في بلاد الهند . قال الزميل ان سيدة انجليزية أرادت أن تخاطب جماعة من الهنود بلغتهم ، وكانت تعلمت هذه اللغة حديثا . فأشار عليها أصدقاؤها أن تقص عليهم حكاية سيدنا يونس ، عند ما قضى ثلاثة أيام في بطن الحوت . وما كادت تسرد عليهم القصة حتى أخذوا يهزأون بها وغادروا قاعة الاجتماع ساخطين ، فعادت السيدة الى أصدقائها باكية . ولما طلبوا اليها أن تعيد على مسامعهم القصة ، قالوا لا غرابة ، فقد نطقت كلمة (واحدة) بكيفية يفهم منها أن سيدنا يونس ابتلعته بطيخة

ويدل التنفس ، وارتفاع الصدر وانخفاضه على ما يحس به صاحبه ، ويستخدم القضاة في بعض محاكم اميركا جهازا خاصا لمعرفة ما اذا كان الشاهد صادقا أو كاذبا في أقواله ، مما يسجله هذا الجهاز من التقلبات في تنفس الشاهد وصعود صدره وهبوطه . والشاهد الكاذب ، في القضايا الهامة على الخصوص ، يرتفع ضغط الدم عنده بمقدار ٨٠ ٪. وليس هذا بغريب ، فان الدم يرتفع ضغطه عند التهيج ، سواء أكان سببه اختراع حكاية كاذبة ، أم الجلوس في حجرة الامتحان وعيادة الطبيب وكرسي الاعتراف ، أم مشاهدة مناظر سينمائية مروعة أو مثيرة للرغبات الجنسية ، أم قراءة رواية مستهترة ، أم الاصابة بهزة عنيفة ـ كهربائية أو نفسية أو أمثالهما مما يبعث في صاحبها الخوف أو الغضب أو الحزن

وتضيق صفحات هذا المقال اذا تناولنا بالشرح الدور الذي تمثله الغدد والجهاز العصبي المركزي والسمبثاوي في هذه الانفعالات على اختلاف أنواعها وتعدد أسبابها . فكلنا

يدرك أهمية الغدة الكلوية العليا وما تفرزه من هرمون « الادرنالين » الذى يقف بوساطته شعر الخائف والمحتد ، ويتصبب عرقه ، وتحمر وجنتاه ، وتتقلص عضلاته ، وتتضاعف قوته ، فيستطيع ان يواجه الخطر ويقاتل خصمه بشجاعة عجيبة لا عهد له بها فى حياته العادية . ولما كانت احدى هذه الانفعالات ، وهى تصبب العرق ، تغير الطبيعة الكهربية فى الجلد ، فقد اخترع العلماء جهازا غريبا يسجل وجدان الشخص بكيفية بديعة ، ويسمونه psychogalvanometer ومن التجارب المعروفة أن تعرض قطك الاليف لاشعة (اكس) بعد أن تطعمه جيدا ، ترى جدار المعدة وعضلاتها تتحرك بانتظام ، وتقوم بشبه رقصات توقيعية هضما للطعام . بعد ذلك تنادى كلبا فى غرفة مجاورة . وما يكاد يدخل الكلب حتى تقف معدة القط عن الحركة وقوفا تاما ولا تعود اليها الا بعد خروج الكلب بربع ساعة على الاقل . ويتضح من ذلك أنه من الخطأ الفاضح أن ينفعل الانسان ــ خوفا أو غضبا أو كراهية أو حبا أو غيرة أو اشمئزازا ــ قبيل الاكل ، أو أثناءه ، أو بعده

ومن أشد الانفعالات غرابة ما كانت على النقيض من الوجدان الذى تعبر عنه . مثال ذلك أن يضحك الحزين ، أو يبكى الفرح (دموع الفرح) . ويذكرنى هذا الاخير بواقعة حال لكاتب هذه السطور . كان ذلك فى بودابست ، وكان النقد فى أوربا متضخما متدهورا اثر الحرب العالمية الكبرى الاولى الى أبعد حد . كنت أتنزه فى حديقة عامة فى ضواحى المدينة ، فاقتربت منى حسناء ممشوقة القوام ، فلم أعبأ لها فى بادىء الامر ظنا منى أنها من الفتيات الساقطات اللائى يكثرن فى تلك المدينة ، ولكنها ألحت ، وقد لفتنى اليها نضارة وجهها ، وما ارتسم عليه من علائم الطهارة والبراءة ، ثم ما يشبه جواز سفر وقد حاولت أن تدسه فى يدى مفتوحا . لم أستطع قراءته فقد كان مكتوبا بالهنغارية ، ولكنى فهمت من ثلاث صور شمسية فيه ، أنه تذكرة تحقيق شخصية لاسرة ، هى احدى أفرادها ، وثانيها أمها العجوز وثالثها شقيقها المقعد ، وقد سمح لها بالتسول بسبب الكساد حتى تعول أسرتها . فاعطيتها ما قيمته شلن بالعملة الانجليزية وعشر شلنات بالعملة الهنغارية . وما دفعت النقود فى يدها حتى أخذت فى البكاء بصوت عال ، وخفت أن أكون قد ارتكبت خطأ فاحشا فاستعنت برجل البوليس ــ وقد كان على مقربة منى ــ وباشارات يدوية فهمت منه أنها دموع الفرح ، اذ أنها كانت لا تتوقع عشر معشار ما قدمت لها

ومغزى هذا المقال ان الانفعال لغة كالكلام ، نعبر به عن وجدان ، كما نعبر بالكلام عن رأى أو رغبة . فاذا ما بكينا ، فانا نعبر لانفسنا وللغير عن الحزن ، واذا ابتسمنا أو ضحكنا أو كشرنا عن أنيابنا أو وجمنا فانا نعبر عن الارتياح والفرح والغضب والاستياء ، ومهما قللت الحضارة والثقافة و « الاتيكيت » والدبلوماسية من شأنها ، فانها لا تزال تؤدى وظائف لا بد منها للبقاء على الجنس والمحافظة على النفس وبلوغ اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة والتوتر ، والهدوء بعد التهيج ، والارتياح بعد العناء

امير بقطر

مصر والتحرر من العوز والفقر

بقلم الدكتور حافظ عفيفي باشا

هذه محاضرة نفيسة ألقاها صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا بقاعة يورت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقد بين فيها سعادته كيف تتحرر مصر من العوز والفقر

ينشأ فقر الفرد من أسباب عدة : منها ما يرجع الى عيوب شخصية كالعجز ، والكسل ، والادمان على المسكرات ، ولعب الميسر . أو يرجع الى كوارث طارئة لم يكن فى الاستطاعة دفعها ، كاصابة بحادث بسبب عاهة تمنع صاحبها عن العمل ، أو غير ذلك مما لا أريد أن أتعرض له بتفصيل

وقد يفيد الاحسان فى تخفيف مثل هذه الحالات الفردية . والاحسان من أسمى الفضائل الانسانية ، ولكنه اذا أصاب غير مستحق كان مفسدة

ولذلك فمن الخير تنظيم الاحسان ، بحيث تبحث حالة الفقراء فى المدن والقرى ، لتتمكن الجمعيات الخيرية المختلفة من تعرف الاشخاص المستحقين للمعونة والاسعاف ، على أن تستبعد منهم طائفة الكسالى ، والمتشردين ، والسفهاء ، والمدمنين ، ومحترفى التسول ، وأمثالهم ، اذا لم ينفع فيهم الاصلاح والارشاد

وعلى ذلك فاحصاء الفقراء وتوجه المحسنين وأهل البر بالتبرع الى الجمعيات الخيرية بكل ما يستطيعون من مال وغذاء وكساء ، واناطة هذه الجمعيات بتقديم المعونة والمساعدة الى الفقراء ، هى الطريقة التى نؤيدها لتنظيم الاحسان ، وهى الاساس الذى يمكن أن يقوم عليه تخفيف ما يكابده المعوزون والبؤساء من ويلات وآلام

أما فقر الجماعات فهو الفقر الذى يصيب كثرة السكان فى بلد من البلاد نتيجة لقلة موارد الثروة فى ذلك البلد ، أو عدم استثمارها ، أو لضعف الصحة العامة ، أو لانتشار الجهل فيه . وهناك سبب آخر اختصت به البلاد الشرقية ، وهو عدم اشتغال المرأة فى المدن بعمل ما ، فأدى ذلك الى حرمان الامة من انتاج جزء كبير من أبنائها ، أصبح لا دخل له ولا ايراد . بعكس ما يشاهد فى البلاد الاخرى حيث يعمل القادرون من أهلها رجالا ونساء ، مما يترتب عليه وفرة الانتاج ، ومضاعفة دخل الاسر الفقيرة والمتوسطة

ولذلك فعلاج هذه الحالة يتطلب :

أولا ــ العمل على استثمار جميع موارد الثروة فى البلاد

ثانيا ـ العمل على تحسين الصحة العامة
ثالثا ـ العمل على نشر التعليم

فأما عن استثمار موارد الثروة الاهلية ، فهو موضوع متشعب النواحي . ولذلك أكتفي بالاشارة الى أهم عناصره وهي :

١ ـ زيادة الانتاج الزراعي ٢ ـ زيادة الانتاج الصناعي ٣ ـ استغلال الثروة المعدنية

١ ـ زيادة الانتاج الزراعي : اشتهرت مصر بأنها بلد زراعي حباها الله بجو معتدل ، وأرض خصبة ، وفلاح صبور دائب على العمل ، ومع أنه قد تمت فيها اصلاحات كبيرة في نصف القرن الماضي سواء في تحسين الري أو في تحسين أساليب الزراعة ، فان مجال الاصلاح لا يزال واسعا . ويجب أن يتجه برنامجنا في هذا الموضوع الى أهداف ثلاثة هي :

(ا) تحسين الانتاج الزراعي
(ب) تقليل نفقات الزراعة
(ج) زيادة مساحة الاراضي المنزرعة

فأما عن تحسين الانتاج الزراعي فيلاحظ أن أغلب الزراع لا يعنون بانتقاء البذور الصالحة ، فهم يستعملون في زراعة أراضيهم كل ما يجدونه في متناول أيديهم من البذور . وهي في أغلب الاحيان أنواع منحطة تختلط بعضها ببعض ، وتكثر فيها المواد الغريبة . ولذلك فهي تأتي دائما بمحصول قليل الغلة رخيص الثمن . وفي وسع وزارة الزراعة أن تصلح هذه الحالة بالاكثار من البذور الصالحة المنتقاة ، والعمل على اقناع الزراع باستعمالها . فان لم يفد الاقناع ، فيجب اجبارهم على ذلك ، أسوة بما فعلته في تحسين زراعة القطن

كذلك تجب العناية بمسألة الصرف . اذ لا تزال هناك مناطق كثيرة محرومة منه ، فضلا عن أنه في المناطق التي شق فيها بعض المصارف العامة لم يستفد منها الزراع لانهم أهملوا عمل المصارف الفرعية التي توصلها بتلك المصارف . كما أن الكثيرين منهم لا يعنون بتطهير المصارف التي تمر بأرضهم

ويحسن في هذه الحالة أن يكون عمل المصارف الفرعية وتطهيرها اجباريا متى تم انشاء المصرف العام . كما يجب أن يزيد اشراف رجال الري على المصارف العامة والخاصة ، ليتأكدوا من أن هذه المصارف في حالة يمكن معها أن تؤدي وظيفتها على الوجه الاكمل

ولا يفوتنا في هذا الباب أن هناك مجالا فسيحا لزيادة ايراد المزارعين بتشجيعهم على الاهتمام بتربية الحيوانات والدواجن والنحل ، فانها صناعات زراعية تدر أرباحا وفيرة ، اذا أحسن ارشاد المزارعين الى أحسن الوسائل لاستغلالها

فتربية الحيوانات تستلزم انتخاب أحسن السلالات ، ذكورا واناثا ، وتمكين الزراع من اقتنائها ، لانه لا فرق في النفقات اللازمة لتربية بقرة من سلالة منحطة وأخرى من سلالة راقية « كالشورت هورن » المصري مثلا . ولكن الفرق كبير بين ما تدره الأولى من

اللبن وهو لا يزيد عن ١٥٠٠ رطل فى السنة ، فى حين تدر الثانية من السلالة الراقية ما لا يقل عن ١٥٠٠٠ رطل

على أن مسألة النجاح فى تربية الحيوانات تستدعى البحث فى مسألة ايجاد علف اقتصادى يحل محل البرسيم فى غير موسمه ، اما بايجاد علف أخضر فى مدة الصيف ، أو بايجاد طريقة قليلة الكلفة لتجفيف البرسيم مع احتفاظه بجميع عناصره الغذائية . وتحتاج تربية الدواجن الى علاج حاسم لامراضها الوبائية المختلفة التى تصيبها من وقت لآخر ، فتميت أكثرها فى أيام قلائل

كذلك يجب أن تعنى الادارات المختصة فى وزارة الزراعة بايجاد السلالات الصالحة من الدواجن ، سواء لتحسين لحومها أو لتحسين البيض

كذلك يمكن التوسع فى انشاء محطات لتربية الاسماك وزيادة العناية بهذا الموضوع . فلدينا بحيرات واسعة قلت فى بعضها الاسماك لسبب غير واضح . ولدينا كثير من المجارى المائية يمكن استغلالها لهذا الغرض

وتشجع الآن وزارة التجارة والصناعة بعض الملاك على تربية الاسماك فى أحواض خاصة يمكن انشاؤها فى العزب والقرى . وقد أنشىء منها فعلا عدد قليل . والتجربة ناجحة للآن . ولذلك يحسن العمل على نشر دعوة يترتب عليها توفير غذاء صالح قليل الكلفة لعدد كبير من الفقراء

وانى أعتقد أن فى هذه الصناعات المرتبطة بالزراعة ، والتى يستطيع صغار الفلاحين أن يمارسوها ، والتى يمكن لنسائهم أن يتولين أمرها ، بابا جديدا واسعا لزيادة ايرادهم وتحسين حالتهم

أما تقليل نفقات الانتاج فهو هين فى الزراعات الكبيرة التى يمكنها استعمال الآلات الميكانيكية للرى والحرث والدرس والنقل ولعمليات كثيرة أخرى ، واستعمال هذه الآلات أقل كلفة وأسرع أثرا

فمن الثابت مثلا أن تكاليف درس القمح بالنورج تبلغ نحو خمسة أضعاف نفقات الدرس بالآلة . فضلا عن أنه يوفر وقتا طويلا فى اتمام هذه العملية . فالنورج يدرس نصف أردب فى اليوم بينما تدرس الآلة المتوسطة خمسة وعشرين أردبا

لكن استعمال الآلات الزراعية فى الزراعات الصغيرة ليس سهلا ولا ممكنا الا اذا تعاون أهل القرية الواحدة على شراء الآلات الزراعية اللازمة لهم جميعا . فاذا نجح قسم التعاون فى اقناع الزراع لانشاء الجماعات التعاونية لاستعمال الآلات الزراعية ، أدى للبلاد خدمة عظيمة فى ناحية تقليل نفقات الانتاج

ومن أهم وسائل تقليل نفقات الانتاج أيضا تسهيل النقل بالعربات والسيارات من القرية الى الاطيان الداخلة فى زمامها ، ومن القرية الى الطريق العام الذى يوصلها الى

الاسواق فى المدن القريبة . وللوصول الى ذلك يجب أن تقوم الحكومة بانشاء شبكة من الطرق الصالحة لهذا الغرض

ويمكن أن تتعاون الحكومة ومجالس المديريات والمجالس المحلية والبلدية والقروية فى هذا السبيل

أما زيادة مساحة الاراضى المنزرعة ، فتقضى بضرورة تنفيذ جميع مشروعات الرى التى يجب أن تنشأ على النيل وفروعه من منابعه الى مصبه ، فتحصل البلاد على أكبر كمية من المياه اللازمة لرى الاراضى التى لم تستصلح بعد ، والتى يمكن أن تصل مساحتها الى ما يقرب من مساحة الاراضى المزروعة الآن

فنحن نستطيع أن نضاعف ثروتنا الاهلية فى عشر سنوات أو أقل اذا ما اهتممنا بالامر، وصممنا على تنفيذه دون تباطؤ أو تردد

كذلك يجب الاسراع فى اصلاح الاراضى البور الشاسعة التى يمكن ريها الآن

٢ ــ زيادة الانتاج الصناعى : من المسلم به أنه لا يمكن رفع مستوى المعيشة فى بلد تعتمد على الزراعة وحدها ، نظرا لشدة المنافسة الدولية فى هذا المجال ، مما يقلل الى أدنى حد الربح الناتج منها ، وهو ما لا يمكن معه زيادة دخل المشتغلين بها زيادة محسوسة تسمح لهم باعطاء أجور عالية لعمالهم، بعكس الحال فى الصناعات ، فان مرونتها واستمرار استحداث أساليب جديدة عليها يجعلها فى أغلب الاحيان تعود بربح معقول على أصحابها، يسمح برفع أجور عمالهم

ولهذا فاننا اذا استعرضنا أمامنا مستوى المعيشة فى بلاد العالم ، نجده يرقى دائما مع نمو الصناعة . ففى أمريكا وانجلترا وألمانيا مثلا ، حيث بلغت الصناعة أعلى شأو ، نرى مستوى المعيشة فيها عاليا . فالعامل هناك يسكن منزلا صحيا تتوفر فيه أسباب الراحة ويتناول غذاء كاملا . ويجد فى أجره ما يكفيه لان يعيش هو ومن يعول عيشة راضية . بينما يهبط هذا المستوى بشكل واضح فى البلاد التى تعتمد على الزراعة وحدها . وهذا ما نراه فى جنوب شرقى أوربا وبخاصة فى بلاد البلقان

ولمعالجة هذه الحالة اتجهت أنظار أكثر البلاد الزراعية الى الناحية الصناعية لايجاد عمل لعدد كبير من سكانها ، يدر عليهم أجرا أكبر مما تدره الزراعة

واني حينما أدعو الى تشجيع انشاء الصناعة فى مصر لا أدعو الى قيام الصناعات الميكانيكية الثقيلة . ولا أدعو لانشاء مصانع للطائرات مثلا ، أو السيارات ، أو آلات الديزل الدقيقة . بل أدعو الى تشجيع الصناعات التى لها أمل فى الحياة فى بلادنا ، والتى يمكن أن تتوفر لها جميع أسباب النجاح

وفى مصر من المواد الاولية ما يمكن أن تقوم عليه بنجاح صناعات كثيرة ، وبخاصة

الصناعات الزراعية : كصناعة الغزل والنسج ، وصناعة حفظ المأكولات ، والفواكه ، والخضر ، واللحوم ، وصناعات كثيرة أخرى

كما أنه لا تنقص مصر الايدى العاملة التى ثبت أنها مستعدة لاتقان أية صناعة فى أقصر زمن ، متى أحسن تعليمها وارشادها

ولا تنقص مصر رؤوس الأموال اذا اتجه أصحاب الثروات فيها الى الاعمال الصناعية، وفكروا فى استثمار جزء من أموالهم فى الصناعة بدل استثمارها كلها فى الزراعة

على أنه وان توفرت العوامل الاساسية لقيام الصناعة فى مصر ، فلا بد من وضع برنامج مرسوم وسياسة واضحة تسير عليها الحكومات المتعاقبة ، لتثبيت أقدام الصناعة واستكمال نموها

والرجال المسئولون يعرفون تمام المعرفة ما ينبغى عمله فى هذا الصدد . ويعرفون تمام المعرفة ما ينبغى أن يكون عليه هذا البرنامج المنشود من القواعد والاسس ، وخاصة فيما يتصل بالتعريفة الجمركية ومسألة الضرائب مثلا

فاذا أضيفت الى الصناعات القائمة فى بلادنا الآن ، صناعات جديدة أخرى ، تستطيع أن تحيا وتزدهر ، فتح باب واسع لتشغيل عدد عظيم من أبناء البلاد ، فيرتفع مستوى المعيشة الحالى ، ويزول شبح الفقر الذى يخيم على كل مكان

فلنفسح الطريق أمام المموِّلين المصريين الذين يريدون استثمار أموالهم فى الصناعة ، بل لنفسح المجال أمام المموِّلين الاجانب الذين يريدون استثمار أموالهم فى بلادنا لهذا الغرض ما داموا يخضعون للقوانين المصرية وللضرائب المصرية ، لنوجد ميدانا رحبا لتشغيل أكبر عدد ممكن من الايدى العاملة فى مصر بأجور هى دائما أعلى مما تستطيع أن تحتمله الزراعة ، بل تصل فى أغلب الاحيان الى ثلاثة أمثالها

٣ ــ استغلال الثروة المعدنية : كان استغلال الثروة المعدنية الى ما قبل الحرب استغلالا محدودا لا يتناول الا أنواعا قليلة من المعادن الموجودة فى باطن الأرض المصرية

وقد نبهت الحرب القائمة الاذهان الى الاهتمام بالبحث عن كثير من المواد الاولية المعدنية التى كنا نستوردها من الخارج وانقطعت عنا بعد قيام هذه الحرب ، فأمكن اكتشاف كثير من المعادن القيمة ، واتضح امكان استغلالها على أسس تجارية مجزية

وهذه فرصة مناسبة لتضافر جميع الجهود الحكومية والاهلية على استغلال هذه المواد فى نطاق واسع ، يضمن للبلاد أن تحصل منها على حاجتها ، ويسمح لنا بتصدير ما يفيض عنها الى البلاد التى تحتاج الى هذه المواد

ولقد ثبت من بحوث كثيرة أن تراب الحديد الموجود بكميات كبيرة ، وفى مساحات واسعة بأسوان ، هو نوع جيد . ولذلك يتعين استغلال هذا المعدن النفيس بمجرد سماح الظروف

وانشاء هذه الصناعة مرتبط بتنفيذ مشروع توليد الكهرباء من مساقط المياه فى اسوان ،

لاستخدام هذه الكهرباء فيها وفى صناعة أخرى تحتاج اليها البلاد أشد الاحتياج ، وهى صناعة السماد الازوتى

وسيترتب على اقامة هذه الصناعات انقلاب فى حياة أهل اقليمى أسوان وقنا يحول حالة الفقر التى يعانونها الآن الى حالة يسر ورخاء

ثانياً ـ تحسين الصحة العامة

أما عن تحسين الصحة العامة فيتطلب برنامجا صحيا شاملا يرمى الى اصلاح المدن والقرى ، واعداد المساكن الصحية للعمال والقرويين ، وتوفير مياه الشرب الصالحة لجميع السكان ، واتخاذ التدابير اللازمة لاستئصال الامراض الطفيلية التى تنهك قوى كثرة المصريين ، والعمل على منع تفشى الامراض المعدية ومكافحتها ، وتيسير أسباب العلاج لجميع المرضى فى المدن والاقاليم

وكنت أود أن أتناول بالتفصيل كل الوسائل التى تساعد على تحسين الصحة العامة ، غير أن المجال لا يتسع لذلك ، فأكتفى بتوجيه النظر الى أن اصلاح القرية أمر لا بد منه ، ولا مفر لنا من النظر اليه بعين الجد ان عاجلا أو آجلا . ولدى الحكومة كثير من المشروعات التى وضعت بمعرفة الاخصائيين المصريين لتحسين القرية المصرية . فلتفصل فى الموضوع، ولتتخير مشروعا من هذه المشروعات لتنفيذه فى أقرب فرصة ملائمة

كذلك تستطيع الحكومة أن تصلح كثيرا من شؤون العزب ، اذا هى طبقت شروط القوانين واللوائح وأرغمت أصحابها على اتباعها وتنفيذها

وقد تساعد الظروف الحالية وارتفاع أثمان المحاصيل الزراعية على اجراء كهذا ، يترتب عليه تحسين مساكن عدد كبير من العمال الزراعيين يزيد عددهم على المليون ، يسكنون ١٤ ألف عزبة تقريبا

كذلك تستطيع الحكومة أن تنتهز فرصة رواج الصناعة فى مصر ، فتحمل أصحاب عدد كبير من المصانع على اسكان نسبة معينة من عدد العمال الذين يشتغلون فيها

كما تستطيع أن تحملهم على تقديم غذاء لهم ولو لوجبة واحدة بأثمان معقولة يساهم فيها أصحاب المصانع بنصيب ، كما يجب على أصحاب المصانع أن يتعهدوا صحة عمالهم بانشاء العيادات الصحية وتوفير الدواء اللازم لهم

ثالثاً ـ نشر التعليم

أما نشر التعليم فيجب أن يكون القصد منه تثقيف جميع الاطفال من الجنسين فى الطبقات العاملة تثقيفا عاما ، واعدادهم بعد ذلك لتعلم صناعة أو مهنة تعليما عمليا ، على نفقة الدولة، يسمح لهم بتولى عمل زراعى أو صناعى أو تجارى يكفل لهم أجرا مجزيا

هذا ، وأود أن أوجه النظر الى أنه يجب أن يتجه التشريع فى المستقبل الى اعفاء من لا تزيد ايراداتهم عن الثلاثين جنيها فى السنة من جميع الضرائب المباشرة . وأن تحول كثرة الضرائب المباشرة المفروضة الآن الى ضريبة دخل يعفى منها الفقراء ، وتكون معتدلة بالنسبة لمتوسطى الحال ، وترتفع بنسب متصاعدة على أصحاب الثروات الكبيرة

كذلك نجد مشروع ضريبة تصاعدية على التركات تتأثر فى آن واحد بقيمة التركة وبدرجة قرابة الوارثين من مورثهم

وحكمة تشريع كهذا ظاهرة . فهى تساعد تدريجا وبرفق ، على ازالة الفروق بين الطبقات . ولهذه التشريعات مثيل فى جميع البلاد الديمقراطية التى نحتذى بها فى أغلب تشريعاتنا

* * *

وانى لا أدعى أن ما عرضته من الآراء فى هذا الموضوع المتشعب ، يقضى القضاء المبرم على ما يقاسيه كثرة سكان هذه البلاد من فقر وعوز

ولكنى أعتقد ، مع هذا ، أنه اذا تضافرت الجهود على العمل بهمة وعزيمة لتحقيق ما فصلت ، فان ذلك كله يكفل ، الى حد كبير ، أن تتحرر بلادنا وكثرة مواطنينا ، تدريجا ، من هذا الفقر والعوز الذى خيم عليها دهرا طويلا

من أقوال ستالين

ـ اذا اقتنعت بانك على حق فيما تعمل ، فلا تهتم بما يقوله الناس عنك ، اعمل ما يمليه عليك ضميرك ووجدانك

ـ اذا عجز المرء عن التعبير عما يدور بخلده تعبيرا واضحا صحيحا ، كان عاجزا عن التفكير تفكيرا منطقيا سليما

ـ يفخر كثيرون بشجاعتهم ، ولكن الشجاعة اذا اقترنت بالجهل بالشؤون الحربية والفنون العسكرية لا تعنى شيئا

ماذا يصنعون بألمانيا بعد الحرب

اذا أتيح لمخططي أمريكا الرسميين – أي رجالها الذين يتولون رسم الخطط ووضع النظم التي تقوم عليها أمور العالم بعد الحرب – أن يشقوا طريقهم ويبلغوا أغراضهم، فستتاح للشعب الالماني فرصة أخرى يثبت فيها قدرته على أن يتحول من شعب معتد الى شعب مسالم يتعاون مع سائر الشعوب في عالم صحيح البنية وطيد البناء

ولكن لن تتاح للشعب الالماني هذه الفرصة التي يتعلم فيها كيف يغدو خيرا طيبا الا عن طريق مملوء بالصعاب والمشاق . فلا بد من أن تقوم عليه رقابة حازمة ، بضع سنين غير محدد عددها ، لتتولى هذه الرقابة تنفيذ سياسة شديدة حاسمة ولكنها رشيدة وعادلة

هذا هو الرأي الذي انتهى اليه رجال واشنجتون ، ولكن تفاصيل هذا الرأي ما زالت في دور التكوين والتأليف . فالآراء التي يتضمنها هذا المقال لا تعدو مجرد الفكرة العامة التي تقوم عليها سياسة امريكا تجاه ألمانيا المهزومة ، وهي فكرة قابلة مع هذا لكثير من التحوير والتنقيح وفق ما تمليه الظروف والاحداث

حكام أمريكيون لألمانيا

بعد أن يتم احتلال القوات المتحالفة أرض ألمانيا المستسلمة دون قيد ولا شرط ، ستكون الخطوة الاولى اقامة حكومة عسكرية يتولى أمرها قائد القوات المحتلة . وسيكون الغرض من هذه الحكومة : (أولا) تأمين هذه القوات المحتلة ووضعها في مركز عسكري ملائم . (وثانيا) المحافظة على القانون والنظام في الشعب الالماني

فحالما يتم احتلال ألمانيا احتلالا كاملا ، تقوم حكومة عسكرية ومدنية مؤلفة من رجال الحلفاء ، لتتولى الاشراف على الادارة الالمانية ، وعلى تجريد ألمانيا من جميع قواتها الجوية والبرية والبحرية ، وعلى تصفية صناعات ألمانيا العسكرية وتحويل حياتها الاقتصادية القائمة على أساس الحرب الى حياة قائمة لاغراض السلام

ومع أن المنتظر والمفروض أن تكون هذه الحكومة حكومة متحالفة تتألف من رجال الامم المتحدة ، الا أن الحكومة الامريكية قد أعدت عدتها لتتولى أمر هذه الحكومة وحدها اذا اقتضى الامر ، فقد دربت وما تزال تدرب عددا كبيرا من ضباط الجيش وخبرائها المدنيين الذين خبروا شؤون الحكم والادارة ، والذين يتكلمون الالمانية ويعرفون ألمانيا وشعبها ، ليقوموا غداة يوم التسليم بوظائف « ضباط الشؤون المدنية » . وقد دربت وزارة الحربية وحدها أكثر من ألف من رجالها ليساهموا في مهمة حكم ألمانيا المؤقت بعد الهزيمة

وقد أنشئت مدرسة خاصة لذلك فى شارلوت فيل بفرجينيا فى شهر مايو سنة ١٩٤٢، وهى مدرسة الحكومة العسكرية التابعة للجيش الامريكى ، وقد تخرجت فيها فرقتان تتألف كل منهما من مائة وخمسين ضابطا بعد أن أمضوا فى الدراسة أربعة شهور

ويتألف برنامج الدراسة فيها من المسائل اللازمة لحكم الشعب الالمانى ، وهى قوانينه وتقاليده ونفسيته وأوضاع بلاده الاقتصادية . وكذلك دراسة الوسائل الخاصة لحكم بعض مناطق ألمانيا المهمة ، كمراكز الصناعة والموانىء الكبرى

ويتلقى هؤلاء الامريكيون فى دراستهم هذه ، أن السبيل الى خير النتائج هو سبيل « السياسة العادلة ، الشريفة ، الانسانية » وأن « الاحتلال العسكرى المصحوب بالقسوة والظلم والاضطهاد ، لا بد أن يترك حقدا دائما فى قلوب الشعب الالمانى ولا بد أن يبذر بذور حرب أخرى »

وليست هذه هى المدرسة الامريكية الوحيدة التى تعد حكاما عسكريين لالمانيا المهزومة بل ثمة مدارس أخرى منها ما هو تابع لوزارة البحرية ، ومنها ما هو تابع للادارات الاقتصادية ، ليكون لدى أمريكا الخبراء اللازمون فى جميع مرافق الحكم والادارة

والمفروض أن يستمر هؤلاء الموظفون فى أعمالهم بعد أن تنتهى مهمة الحكومة العسكرية التى تقوم بين التسليم والهدنة ، وأن يساهموا فى أعمال الحكومة التى يزمع الحلفاء انشاءها لتولى أمر ألمانيا بعد ذلك

معاقبة مجرمى الحرب

ويرى منظمو أمريكا أن أول عمل تقوم به الحكومة العسكرية هو محاكمة ومعاقبة مجرمى الحرب على جناح السرعة

نعم يجب أن يتم هذا العمل على عجل حتى لا يتاح لوكلاء النازى فى المناطق التى قهرتها ألمانيا أن يطلقوا أيديهم فى أبناء تلك المناطق الناقمين على النازى سياستهم وعدوانهم، والمؤيدين للحلفاء . وقد قدر أحد رجال فرنسا المحاربة أنه اذا لم تتخذ التدابير العاجلة الحاسمة ، فان مليون نسمة من الفرنسيين يستهدفون للموت بأيدى رجال النازى وأعوانه . وهناك الاثر المعنوى الذى تتركه المحاكمة والمعاقبة العاجلة لمجرمى الحرب وهو اقناع الشعب الالمانى بأن زعماءه الذين يقودونه الى المذابح لا يفلتون من الجزاء الاوفى

وقد وضعت الآن النظم الخاصة بانشاء لجنة من الشعوب المتحدة لبحث جرائم الحرب وتقديرها . وسيدخل أعضاء هذه اللجنة فى « محكمة الشعوب المتحدة » التى ستتولى محاكمة كبار الموظفين الالمان ، ومنهم زعماء النازى المسئولون عن المذابح البربرية التى سلطت على رقاب اليهود فى أوربا . وسيكون كبار رجال النازى ، مثل هتلر وجورنج وجوبلز ، أول من يقدم للمحاكمة ، لانهم يحملون قبل سواهم وزر ما وقع من الجرائم

ومن المحتمل ألا يشهد هتلر هذه المحاكمة ، ويقضى على نفسه بيده منتحرا ، أما

اذا أسر أو آثر أن يسلم نفسه ، فسيقدم لمحكمة الشعوب المتحدة متهما بتهمة « القتل الاجماعى » ، وسيكون عقابه ــ اذا وجد متهما ــ هو القتل بالرصاص

ولن يفلت من العقاب القواد الالمان الذين سمحوا بارتكاب جرائم حربية فى الاقاليم التى احتلها النازى

وقد أعدت الحكومة الامريكية قائمة سوداء بأسماء رجال الجستابو، ورجال فرق الحرس الاسود ، وغيرهم من عملاء النازى المتهمين باقتراف الجرائم الحربية . وكذلك تعد حكومات الامم المتحدة الاخرى قوائمها السوداء

ولكن يجب أن يلاحظ أن كثيرا من كبار الموظفين الالمان لم ينضموا الى النازى الا مكرهين ، حرصا على وظائفهم ومصادر رزقهم ، وهؤلاء سيستبقون فى مراكزهم ليؤدوا وظائفهم تحت المراقبة الحازمة

مصير الجيوش الألمانية

وتقوم قوات الحلفاء المنتصرة بتسريح القوات الحربية الالمانية تسريحا عاجلا وكاملا . ولا يستثنى من هذا سوى الابقاء على الاسلحة الصغيرة الخفيفة التى يتخذها رجال الشرطة فى اقرار الامن العام . وكذلك يستبقى وحدات الطيران المدنى ويباح لها أن تدرب عددا قليلا من الطائرين . ويحدد عدد المطارات وتوضع تحت رقابة دقيقة من قبل الحلفاء . أما المطارات الالمانية الرئيسية فتحتلها قوات الحلفاء الجوية

ولما كانت الجيوش المسرحة بعد هزيمتها وانكسارها مستهدفة لانتشار روح الثورة ونزعة التمرد بين جنودها ، فقد قرر الحلفاء أن يستبقوا عددا كبيرا من الجنود الالمان فترة مؤقتة ، لتؤلف منهم فرق للعمل فى تعمير المناطق المخربة ، سواء فى بلادهم أو فى البلاد التى غزتها الجيوش الالمانية أو هدمتها طائرات الالمان

ويلحق بتسريح الجيوش عمل أهم أثرا وأخطر شأنا ، ذلك هو تحديد صناعات ألمانيا الحربية ــ التى بلغت حدا خطيرا من التضخم والاتقان ــ تحديدا شديدا يكاد يقرب من الالغاء . وهذا يقتضى تحويل جزء كبير من مصانعها وآلاتها وأجهزتها الى الاقطار المحررة تعويضا لها عما أتلفه النازى أو سلبه من قواها الصناعية . أما ما يتبقى فى ألمانيا من المصانع فسيحرم عليه تحريما قاطعا صنع الذخائر والمعدات الحربية بجميع أنواعها

ولن يسمح لالمانيا بأن تتسلح ثانية مدة طويلة يتيسر فيها ابراء هذا الشعب من روح الحرب ونزعة العدوان . ولن يخدع الحلفاء هذه المرة ، فسيراقبون الامر مراقبة دقيقة حتى لا يتاح لالمانيا أن تتسلح فى الخفاء كما حدث بعد الحرب الماضية . فلن يكون هناك جيش « صورى » لان مثل هذا الجيش ــ على ضآلته ــ هو الخميرة التى يتكون منها جيش لجب جبار . ولن تكون هناك مناورات صورية يحمل فيها الجنود بنادق كلعب الاطفال

ويركبون فيها دبابات من الخشب ، فقد عرفنا فيما مضى ما وراء هذه المناورات الخداعة من أسرار وأخطار

ومع أن رجال امريكا قد حزموا أمرهم على ألا تعود ألمانيا مرة أخرى الى القوة الحربية المسيطرة على أوربا ، الا أنهم مع هذا لا يرون حرمانها من المساهمة فى تكوين القوة البوليسية الدولية التى تتولى حفظ الامن واقرار السلام فى ربوع العالم . فعند ما يثبت الالمان — بعد عدد من السنين — انهم قد برئوا من روح الحرب والسيطرة والاعتداء ، وانهم قد نزلوا عن رأيهم فى جعل الروح العسكرية محور حياتهم القومية وسياستهم الخارجية فلن يكون ثمة بأس فى مشاطرتهم سائر الامم اقامة نظام « السلامة الاجماعية » الذى يكفل حفظ السلام فى العالم . ولكن هذا الامر أمل لا يتحقق للالمان الا بعد مضى جيل من الزمان ، يربى فيه الشعب الالمانى تربية سلمية تؤثر السلم على الحرب ، وتقدم حسن السياسة على عدوان الجيوش

الاصلاح لا الانتقام

كيف تكون الحياة الاقتصادية فى ألمانيا المهزومة ؟

يرى المنظمون الامريكيون أن تتخذ الوسائل التى تمنع ألمانيا من الاستهداف للثورة أو للفوضى من جراء ما يصيبها من الازمات والشدائد . ولكن يجب أن نذكر أنه سيكون للشعوب التى قهرها النازى وأذلها الاسبقية فى الحصول على ما ترسله أمريكا من مواد الغذاء ووسائل التعمير . أما بعد ذلك فان الحلفاء مجمعون أمرهم على أن يقوا ألمانيا شر المجاعات والامراض والفوضى الاقتصادية ، لان الاساس الذى يقوم عليه الامر كله هو اصلاح الفساد وتفادى الخطر وليس الثأر والانتقام

وهكذا سترسل دول الحلفاء الى ألمانيا عقب احتلالها وتسليمها المواد الطبية التى تقى شعبها شر الاوبئة والامراض . وسترسل اليها الادوات الزراعية والاسمدة لزيادة انتاجها الزراعى والحيوانى . وسيخصص هذا الانتاج للوفاء بحاجات الشعب الالمانى ، أما ما يفيض منه بعد ذلك فسيرسل الى الاقطار التى عانت شدة المجاعة فى سنى الاحتلال الالمانى والتى أجدبت الاداة الحربية النازية مزارعها عددا من السنين

وستخصص الكميات الاولى التى ترسلها امريكا من مواد الغذاء والمواد الطبية للاطفال لانا نريد أن يعرف الجيل الجديد فى ألمانيا من أين تأتى الحرب وأهوالها ، ومن أين يأتى السلم وخيراته !

تقسيم ألمانيا

على أن الشعب الالمانى يجب أن يدفع ثمن تأييده هتلر فى مغامرته الجنونية لحكم العالم واذلال شعوبه . وهذا الثمن — فى رأى المنظمين الامريكيين — هو منع ألمانيا من أن

تكون قوة حربية واقتصادية مرهوبة ، ولو أدى ذلك الى تقسيمها دولا أو مناطق منفصلة بعضا عن بعض

وليست روح الانتقام هي التي تملى هذا الرأى ، بل الرغبة الخالصة في ابراء ألمانيا من نزعتها العسكرية الآثمة . ولا شك في أن خير ما أنتجته ألمانيا ، ومن ذلك ما أنتجته في عالم الادب وعالم الموسيقى ، لم يكن في عهد وحدتها وقوميتها المسرفة ، بل حين كانت منقسمة الى ولايات مستقلة لكل منها نزعتها وطابعها . فلا بأس على ألمانيا من اعادتها الى ما كانت عليه من قبل ، ومنعها من أن تكون وحدة سياسية وصناعية تبث المخاوف وتثير الاخطار

وكذلك سيحرم على ألمانيا أن تنشىء تلك الاحزاب السياسية الهوجاء التي تقيم سياستها على أساس من القومية المتطرفة الضيقة . وستراقب هذه الحركات السياسية مراقبة دقيقة حتى لا تنشأ تحت الارض حيث تدبر مكائدها وتحيك دسائسها وتؤلف حولها الاعوان والانصار . وسيكون سلاح الحلفاء في تنفيذ هذا كله هو سلاح العقوبة الاقتصادية تنزلها بالشعب الالماني ، فان لم يجد نفعا لجأت الى القوة الحربية تقمع بها هذه الحركات وتؤدب بها زعماءها

ومما يراه المنظمون الامريكيون القيام بحملة تعليمية ترفع من أذهان الجيل الالماني الناشىء تلك الحلية السوداء التي استغلها بسمارك وغليوم وهتلر — أى تلك النزعة الغريبة الى السيطرة والسيادة عن طريق الحرب والعدوان

ويقترحون لذلك انشاء لجنة دولية للتعليم يشترك فيها بعض رجال ألمانيا المسئولين ، وتكون مهمتها وضع منهاج لتعليم شبان ألمانيا واطفالها تعليما جديدا ، يفهمون منه أن الحرب شر ما فكرت فيه الانسانية ، وأن التعاون بين الشعوب أجدى عليها جميعا من سيطرة بعضها على بعض

وتتخذ في هذه الحملة التعليمية جميع وسائل الدعاية ، ومنها الراديو والصحافة والهيئات الدينية

ولا يعتقد المنظمون الامريكيون في الرأى القائل بأنه لا سبيل الى اصلاح ألمانيا وجعلها أمة خيرة مسالمة . ولكنهم يرون أن المهمة الاولى في الاصلاح هي مهمة امريكا ، أما ان ترك الامر لشعوب أوربا ، فلن ينصرف هم هذه الشعوب التي أذلها النازى طويلا الا الى الثأر والانتقام — مما يؤدى الى مأساة الحرب مرة أخرى

(عن مقال بقلم كنجسبرى سمث في صحيفة امريكان موركرى)

— اذا لم يكن هناك مفر من الحرب ، وجب تكريس كل شيء لها ، وتحتم عقاب الذين يصمون آذانهم عن نداء الوطن عقابا شديدا صارما « لينين »





ونستون تشرشل　　　ارنست بيفن

رجال بريطانيا الثمانية

فى بريطانيا اليوم ثمانية رجال يحملون على عواتقهم من الاعباء ما لم يحمل مثلها ثمانية رجال فيما سبق من التاريخ

هم الذين يوجهون سياسة بريطانيا فى وقت تشغل فيها سياستها كل أمة من أمم العالم

وهم الذين يديرون حرب بريطانيا فى وقت انتشرت فيه جيوش بريطانيا وأساطيلها فى أكثر قارات الارض وبحارها وأجوائها

هؤلاء الرجال الثمانية يربضون وراء كل قرار سياسى تقرره بريطانيا وامبراطوريتها ، ووراء كل خطوة تخطوها ، جيوشها واساطيلها

فمن هم هؤلاء الرجال الثمانية الذين تتألف منهم « وزارة الحرب البريطانية » ، وما ماضيهم ، وما كفايتهم ، وماذا يؤدون من الاعمال وماذا يحملون من الاعباء ؟

ونستون تشرشل

أولهم جميعا هو هذه الشخصية الجبارة التى لا مثيل لها فى عصرنا الحديث ـ ونستون تشرشل

قال له الجنرال مونتجومرى : « لا آكل الا قليلا · ولا أدخن ولا أشرب بتاتا · وآوى الى فراشى فى الساعة العاشرة من كل ليلة ، فأنا سليم البنية موفور القوة مائة فى المائة » · فقال له تشرشل : « أما أنا فأسرف فى الأكل كما اشتهى · ولا تنطفىء سيجارتى منذ أصحو الى أن أنام الا نادرا · ولا أضطجع على فراشى قبل الثالثة من صباح كل يوم · وأكواب البراندى ضرورة من ضرورات حياتى · ومع ذلك فانى نابض النشاط مكتمل العافية مائتين فى المائة ! »

شخصية مسيطرة على الجميع : مسيطرة بروحها النفاذ وذهنها النقاد · مسيطرة على الشعب جميعا قدر سيطرتها على زملائه وأعوانه سواء بسواء · يدعوهم الى الاجتماع فى منتصف الليل أو ساعة الغداء فيلبون الدعوة مسرعين · ولكن مهما تعقد الامور ، وتشتد الخطوب ، ويسود وجه



كليمنت آتلي



جون اندرسون

الحياة ، فان المرح الدافق والفكاهة البارعة يطلقان منه ، فيخففان كثيرا من الاعباء الثقال .

قال أحد مترجميه : أنجبت بريطانيا كثيرا من العظماء والابطال . ولكن تشرشل يبزهم ويفوقهم جميعا . لستهم من أنقذنا من الازمات ، أو الهزائم ، أو الثورات . أما هذا فانقذنا من الموت المحقق . ألم تكن بريطانيا تسلم الروح يوم تولى أمرها وأوربا تذل وتهوى تحت أقدام هتلر ؟ فوقف صامدا ، جبارا ، يوقد النار الحامية ، ويبعث الروح المطمور ، ويرينا وسط ظلام الهزيمة قبس الانتصار

أرنست بفن

شخصية تشرشل سيدة مسيطرة .. ولكن الى جانبها شخصيات يحسب حسابها ، وأولهـا شخصية أرنست بفن ، هذا الرجل الذى بدأ حياته عاملا أجيرا فى الحقول ، فكان يعلم نفسه ويكونها فى احدى مدارس يوم الاحد !

وأثر هذه النشأة العصامية ملحوظ فى تفكيره واتجاهه ، كما هو ملحوظ فى حديثه واشارته

وقد صار بفن عدو الرأسمالية الاول فى بريطانيا ، وله الفضل الاول فى تعميم النظام الاشتراكى فى كثير من مرافق الحياة البريطانية ، منذ أن استولت حكومة تشرشل على كثير من مرافق الانتاج التى كانت تملكها الشركات أو الافراد فيما مضى

وبفن ، وزير العمل البريطانى ، مسئول عن عشرين مليون نسمة : عن عملهم وانتاجهم . وعن أجورهم وحياتهم ، وكذلك عن مستقبلهم بعد أن تقف رحى الحرب

وما زال الى اليوم يحيا حياة أقرب الى العامل منها الى الوزير . فوقت فراغه يقضيه فى أندية العمال . وبيته مسكن متواضع فى ضاحية من ضواحى لندن

ومستقبله أعظم من حاضره ، ويرجى أن يخلف تشرشل فى منصبه بعد الحرب ، فان بريطانيا تتجه الى « اليسار » اتجاها واضحا ، والغلبة غدا لساسة اليسار ومفكريه

كليمنت آتلى

هذا الوجه الشاحب الذى يتوسطه شارب داكن ، من فوقه رأس أصلع ومن تحته جسد ناحل ضئيل .. هو وجه آتلى نائب رئيس الوزارة ووزير الممتلكات المستقلة



انتونى ايدن



هربرت موريسون

وأنل رجل عسكرى ، خدم فى الحرب الماضية خدمة ممتازة ، وبلغ درجة « ماجور » . ولم يترك الجندية الى السياسة الا منذ سبع أو ثمانى سنوات ، وظل يسير فى السياسة سيرته فى الجندية : سيرة الحزم والصرامة واليقظة للخدع والفاجئات

ومع أنه جاب — فى فرق الدبابات — كثيرا من ميادين الحرب الماضية ، الا أنه الى ذلك من رجال الذهن والتفكير ، وكان مدرسا لعلم الاجتماع كما كان محاميا قديرا

وأنل رجل متعدد الجوانب : فهو الى كل هذا رياضى بارع فى رياضتى التنس والجولف . والرياضة عند الشعب الانجليزى ناحية من أهم النواحى التى تكون الرجل وتزكيه . ولكن كتاب السياسة لا يتوقعون أن يبلغ أنل رئاسة الحكومة البريطانية ، فهو رغم كفايته وتعدد نواحيها ، تنقصه صفة « الشعبية » ، وهى صفة لازمة لمن يرشح نفسه لهذا المنصب

جون أندرسون

وزير الخزانة البريطانية ، وكيف لا يكون أحد رجال بريطانيا الثمانية فى وقت تبلغ فيه الميزانية البريطانية حدا لم تبلغه فى أية فترة من فتراتها ، وتزداد فيه الضرائب المفروضة على الشعب البريطانى زيادة لم يعهدها يوما ما ؟

هو من أبناء اسكوتلنده التى عرف عن أهلها الحرص البالغ فى شؤون المال . وقد درس الاقتصاد فى جامعة ليبزج بألمانيا ، وجامعات ألمانيا حينذاك مركز من أهم مراكز علماء الاقتصاد . ثم خدم فى الجيش ونال بعض أوسمته الرفيعة . وانتقل الى الادارة فكان حاكما للبنغال

وأندرسون صورة صادقة من رجال الاعمال والاموال ، له رأس ضخم ، ومنكبان عريضان ، ووجه قوى حازم ، قلما يرتسم عليه الابتسام . ولكن هذه الصورة تنفعه كثيرا فى مناقشات البرلمان الذى يدخل اليه صارما متجهما ، ويلقى بياناته الى أعضائه فى عنف وقوة ، وكأنه يفرض عليه الامر فرضا فى وقت لا يتسع كثيرا لمجادلات البرلمان ومناوراته المألوفة فى عهود السلام

انتونى ايدن

على مقربة من مقعد وتستون تشرشل فى مجلس الحرب البريطانى يجلس رجل أغدقت عليه الطبيعة من فضلها خيرا عميما . .



أوليفر ليتلتون



ر . ج . كايسى

وجه وسيم شاب ، قامة فارعة متسقة ، رأس دقيق يكسوه شعر أسود مرسل ، شارب رقيق يتوسط هذه السمات المتطلقة ، وأناقة صارت حديث الناس فى كل مكان .. ولكن هذه الاناقة تشوبها ، وان شئت فقل يزينها ، رباط للعنق لم يحكم ربطه ، ولكن هذا الاهمال المتعمد هو الذى يجعل قلوب الغانيات فى العالم تهفو اعجابا بهذا الرجل الوهوب !

هو نموذج صحيح للارستوقراطية الانجليزية فى مظهره وسماته . وهو كذلك نموذج صادق للسياسة الانجليزية فى سيرته ومناهجه

تخرج فى أوكسفورد حيث درس اللغات الشرقية ، وهو يلم الماماً تاما باللغة العربية . وعمل فى الجيش وبلغ رتبة « كابتن » وظل محتفظا بها الى أن تولى وزارة الخارجية . لان الوزارة التى تقوم على السياسة وما تقتضيه من حيلة وكياسة ، لا يليق أن يلقب وزيرها بلقب عسكرى ..

وقد أثبت فى السياسة براعة عظيمة ، ولكن هذه البراعة لم تقم على إيثار الاستسلام للقوى الديكتاتورية التى لم تعرف من السياسة سوى ما سماه الكتاب « بالسياسة المسلحة » أى سياسة التهديد والوعيد بالجيوش والحروب . بل رأى منذ البداية أن تسلك الديموقراطية خطة المقاومة والهجوم ، فلما آثر تشمبرلن الهادنة على المقاومة تركه ، الى أن جاء تشرشل ليقل الحديد بالحديد ، فوقف الى جانبه يؤيده ويعاونه

وهو فى السابعة والاربعين . ومع ذلك فهو المرشح الاول ليخلف تشرشل فى منصبه يوم يعتزله لامر ما

هربرت موريسون

ابن رجل بسيط من رجال الشرطة هذا الرجل الذى يتولى منصب وزير الداخلية ووزير النقل أصح ما يقال فى كفايته السياسية والادارية أنه الرجل الذى يستطيع أن يضع الهرة وسط الحمام ، فلا الهرة تغتال الحمام ، ولا الحمام يفرق من الهرة !

تعلم فى مدرسة أولية ، ثم عمل بائعا جائلا فى الطرقات . فسمع ذات مرة خطيبا من أولئك الخطباء الذين يقفون فى بعض ميادين لندن ويخطبون الناس فى أى أمر من أمور السياسة والاجتماع

والدين . فأعجبه الخطيب وأعجبه فن الخطابة . فتعرف الى الرجل الذى يشعره بأن فى وسعه أن يكون سياسيا مبرزا

ثم انتقل من بائع جائل ، الى بائع فى دكان ، الى عامل تليفون ، الى موزع جرائد .. وبعد سنين طوال الى منصب الوزارة !

ما زال من أبناء الطبقة الدنيا فى مظهره . شعره مرسل لا يمسطه الا قليلا ، عبارات قوية جازمة يرسلها فى صوت أجش غليظ . عنيف فى مناقشاته ، يعرف كيف يسكت خصومه ومقاطعيه

ومسئولياته خطيرة فى حرب أعنف ما فيها تلك الغارات الجوية التى صبتها ألمانيا من طائراتها وأسلحتها السرية على الملايين من سكان بريطانيا . وليست مهمة وزير النقل بأقل خطورة من مهمة وزير الداخلية ، سواء فى المحافظة على أمن الجبهة الداخلية ، أو فى تموين الجبهة الحربية

يرى كتاب السياسة أنه يرجى لموريسون أن يتولى منصب الرئاسة بعد الحرب ، حين يكون الاصلاح الداخلى والادارة الداخلية أول ما يهم بريطانيا

اوليفر ليتلتون

ليتلتون على نقيض موريسون الى أقصى حدود المناقضة . فقد تلقى دراسته فى مدرسة الارستوقراطية الكبرى « إيتون » ، وأتمها فى جامعة كمبردج . وتزوج من ابنة دوق تعد فى الطبقة الاولى من سيدات بريطانيا . وخدم فى الجيش خدمة ممتازة وورد اسمه فى البلاغات الرسمية ثلاث مرات ونال بعض أوسمته العالية . ودخل ساحة الاعمال فكان دخله منها يتجاوز عشرين ألف جنيه فى السنة . وهو يحيا حياة أرستوقراطية ممتازة ، ويعد بطلا فى كثير من الالعاب الرياضية

ولكن ليتلتون تنقصه تلك الصفات التى تلزم أولئك الذين يريدون أن يتصدروا الصفوف ويتربعوا مقاعد الرئاسة والزعامة . وهى صفات موهوبة حينا ومكتسبة أحيانا ، وأهمها فن الخطابة ، والدعاية ، وميزة المرونة والكياسة . فهو من الرجال الذين يعملون وينتجون كثيرا فى الصفوف الخلفية ، دون أن يطمحوا الى تقدم الصفوف ومواجهة الجماهير

ومهمة وزير الانتاج فى الحرب ليست أقل خطورة من مهمة وزير الحربية أو وزير البحرية مثلا . فالحرب الحديثة حرب معدات وذخائر أكثر منها حرب شجاعة واقدام

ر . ج . كايسى

وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط أحد أعوان تشرشل المقربين والاوفياء

حياته سلسلة من النجاح . فقد حصل على اجازته الجامعية من كامبردج . وشهد الحرب الماضية فحارب فى غاليبولى وفى فرنسا ، ونال أوسمة عسكرية ممتازة . ثم ترك الجندية الى السياسة فعمل فى وزارة الخارجية فى أستراليا ، ثم ضابط اتصال بين الحكومتين الاسترالية والبريطانية ، ثم وزيرا مفوضا لاستراليا فى الولايات المتحدة الامريكية

وكشف مستر تشرشل عن كفايته السياسية فاختاره وزيرا للشرق الاوسط

وهو رجل موفور الذكاء ، جم النشاط ، موفق الخطى ، ولا يعرف الى أين ينتهى به التوفيق . ولكن عمله فى الشرق الاوسط ، الذى ظل طوال سنوات الحرب الثلاث الماضية ، المركز الاول لجهود بريطانيا الحربية ، اكسبه خبرة سياسية تؤهله لارفع المناصب وأخطرها

(عن مقال لصحيفة ورلد دايجست)

مصر في أمريكا

بقلم حسين بك عنان
وكيل وزارة الزراعة

كان حسين بك عنان أحد أعضاء المؤتمر الدولى للتغذية الذى عقد فى أميركا . وقد تفضل فكتب هذا المقال القيم عن مصر فى أميركا ، وهل يعرف الأميركان مصر وأورد فيه بعض المشاهدات والملاحظات الهامة

أميركا بلاد نزح اليها المهاجرون من مختلف أصقاع العالم ، لهذا فالغريب فيها نسيب لاهليها على حد قول الشاعر « ان الغريب للغريب نسيب » . ويتبين لك ذلك من ترحيب الاميركيين بالغرباء ، واكرامهم لهم وحبهم فى مساعدتهم الى حد قد لا تراه فى بلد آخر . فالمصرى اذا ما هبط بلدة من بلاد أميركا شعر توا بهذا الترحاب والاكرام

ولا يعرف عامة الاميركيين عن مصر الا أنها بلاد عريقة لها تاريخ مجيد ، ومن طبيعة القوم حب معرفة ما يجهلون ، لذلك فان حديث المصرى فى مجتمعاتهم عن هذا الماضى المجيد حديث شائق له حلاوته وطلاوته ، كما أنه يجلو لهم الحقيقة عن الحاضر الذى يكاد لا يعرفون عنه الا ما ينشره بعض الكتاب المغرضين عن (الحريم) والخرافات

والحرب وما بعد الحرب هما الشغل الشاغل للاميركيين اليوم على اختلاف طبقاتهم ، وقد كسبت واقعة العلمين شهرة خاصة ، لهذا فان السؤال الذى يغلب أن يوجه للمصرى فى أميركا يدور عادة حول حوادث هذه الواقعة وموقف المصريين ازاءها . ويتهافت رجال الصحف على الاتصال به لينقلوا عنه الاحاديث والبيانات عن مهمته ، وعن موقف مصر فى الحرب الحاضرة ، وعلة عدم اشتراكها فيها . وقد دعانى تكرار هذا السؤال الى تضمين احدى اذاعاتى اللاسلكية كلمة عن المساعدات التى أدتها مصر الى الأمم المتحدة فى هذه الحرب ، واقتبست فى حديثى ما قاله روزفلت عن الحرب بأنها كالكرسى لها أربع قوائم تستند عليها — القوات المحاربة وعمال الحرب وميدانها والاقوات وكل شخص يشتغل فى احدى هذه الوجهات يعد محاربا . وقد ساهمت مصر بنصيب وافر فى ثلاث من هذه الوجهات ، فقد أمدت الأمم المتحدة بما يقرب من نصف مليون عامل يرتبط عملهم بالحرب ، كما وضعت فى خدمتها طرق مواصلاتها وموانيها وما تيسر لها من المواد والاقوات

مصر فى امريكا

وبين الاميركيين من سبقت لهم زيارة مصر ، وغالبية هؤلاء يترنمون بذكرى بلادنا

ويلاقونك ملاقاة الأخ لاخيه ، وبين من قابلتهم الدكتور مكلانهن العميد السابق للجامعة الاميركية ، فوجدته يحن لمصر ويذكر أهلها بكل خير ، ويقول بأنه يعد نفسه نصف مصرى

ويتبين لك مما ذكرت أن مصر بوجه عام تكاد تكون مجهولة فى أميركا الا أنها تجد لحسن الحظ كل تقدير واحترام فى الأوساط العلمية الزراعية التى تعترف لمصر بأنها قطعت شوطا كبيرا فى مضمار التقدم الزراعى ، وخاصة البحوث المتعلقة بزراعة القطن . ويذكر أساتذة المعاهد الزراعية الكثيرين من المصريين الذين تلقوا العلم على أيديهم ، ويشيدون بما كانوا عليه من ذكاء ونشاط

الجالية السورية

والمصريون فى أميركا قلائل ، غير أن أعضاء الجالية السورية المنتشرة فى بلاد أميركا انتشارا عظيما يحنون الى مصر حنوا واضحا ، فاذا صادفت أحدهم لاقاك لقاء الاخ لاخيه ، ولهذه الجالية صحف عربية ، كما أنها تنشر الكتب بالعربية والانجليزية ، واذا ما ذكرت مصر فى كتبهم أو صحفهم كان ذلك مقرونا بالمديح والثناء . وللجالية السورية أيضا السيطرة الكبرى على الاذاعة اللاسلكية العربية ، وقد قدمت محطة الاذاعة بنيويورك احدى اذاعاتى منها بكلمة ، أرى أن أثبت شطرا منها لما تضمنته من اشادة بمكانة مصر بين أمم الشرق :

« وراء البحار الشاسعة والاراضى القاصية قطر ناهض عزيز يسير فى طليعة أقطار الشرق الادنى على معارج الثقافة الحديثة والرقى الفكرى والتقدم الصناعى والزراعى — وهو القطر المصرى الذى أجمع مراقبو نهضته الحديثة على أنه قلب الشرق الادنى النابض وحامل لواء نهضته ومثال همته الوثابة المتحفزة لاملاء عظائم جديدة على التاريخ »

الطيران

والاميركيون يعملون لما بعد الحرب كما يعملون لكسب الحرب ، وبين مشروعاتهم ما يمس مصر بوجه خاص ، فهم مقدمون على تنظيم النقل بالطائرات فى أوسع مدى . وستصبح مصر وسودانها بلا شك مركزا هاما فى سبيل اتصال أميركا بالبلاد المختلفة . كذلك تعمل أميركا على توسيع تجارتها ، ولدى الماليين أموال مكدسة سيعملون على استثمارها فى مختلف البلاد ، وقد اتصل البعض منهم بى للوقوف على القيود التى تفرضها الحكومة المصرية فى سبيل قيام الشركات الصناعية والتجارية فى بلادنا . ويبدو لى أن قيام المشروعات المالية بعد الحرب سيلاحظ فيه خير البلاد التى تنفذ فيها ، وتبادل النفع

ولا يسع من يزور معاهد أميركا العلمية الا الاعجاب بنشاطها ، فان البحث يجرى فى مجال عالمى ، فلوزارة الزراعة رجال جابوا أقطار العالم وجلبوا منها مجموعات كبيرة من

مختلف النباتات يجرون التجارب عليها ، وجمعوا بيانات مطولة عن الاحوال الزراعية فى مختلف البلاد والبحوث التى نشرت عنها للاسترشاد بها فى بحوثهم ، لهذا فان أميركا فى سبيل الزعامة للبحوث الزراعية ، وتعد محطة التجارب الزراعية « بروثامستد » بانجلترا أقدم وأعظم محطات التجارب الزراعية فى العالم ، غير أن محطة « بلتسفيل » التى أنشأتها وزارة الزراعة الاميركية سنة ١٩١٠ أخذت تنمو بسرعة حتى أصبحت تشغل مساحة ١٢٤٦١ فدانا ، ويعمل فيها ألف شخص ، وتبلغ نفقاتها السنوية نحو المليونين من الدولارات ، فهى فى سبيل التفوق على محطة روثامستد العتيدة وترى الاخصائيين فيها قد انصرف كل منهم الى بحث مسألة معينة ، وقد اجتمعت لديه كل البيانات ، ومهدت له كل السبل التى تؤدى الى حل هذه المسألة

وقد اتخذت الولايات المتحدة مركزا للمجلس الدولى للزراعة والاغذية ، الذى شكل عملا بتوصيات مؤتمر الزراعة والاغذية الذى عقد فى العام الماضى « بهوت سبرنجس » ، فأصبحت بذلك أميركا قطب الرحى للبحوث الزراعية العالمية

وقد انشأت اميركا حديثا (أواخر عام ١٩٣٩) أربعة معامل اقليمية ، مهمتها القيام بالبحوث التى تؤدى الى زيادة تصريف الحاصلات ، واعداد المستحضرات المختلفة منها ومن بقايا النباتات ، ويختص كل من هذه المعامل بدراسة المسائل التى ترتبط بالحاصلات الشائعة فى منطقته ، وهذه المعامل وصلت الى نتائج باهرة رغم حداثة عهدها ، فهى التى قامت بتحضير مادة البنسلين التى حازت شهرة طبية عظيمة ، وهى التى توصلت الى تحضير المطاط الصناعى من الزيوت النباتية ، كما استخرجت من قش القمح وأحطاب الذرة عدة مواد تأخذ مكان المعادن فى كثير من المصنوعات ، وأعدت من زغب بزرة القطن البارود الذى لا يخرج دخانا عند احتراقه ، ومن قشور الفول السودانى مادة الفلين وهناك عدة مخترعات لهذه المعامل الكثير منها يعد سريا لارتباطه بالصناعات الحربية . وقد جاء فى احد التقارير أن المخترعات التى أخرجتها هذه المعامل فى الاستعمالات الحربية للمنتجات الزراعية ، بلغت حتى اليوم المائة والخمسين

ويتبين لنا مما تقدم أن الولايات المتحدة قفزت فى السنوات الاخيرة قفزة عالية فى سبيل الرقى الزراعى ، ويجب أن تتخذ عدتنا للوقوف على اختباراتها وتتبع خطواتها ، لنقتبس منها ما يلائم أحوالنا المحلية . خاصة وأن بعض ولايات تلك البلاد تكثر وجوه الشبه بينها وبين مصر ، من حيث الجو والاحوال الزراعية

حسين عنان

التدين من صفات العظماء

قليل من الناس من يتبين ما للدين من أثر كبير في حياة عظماء الرجال ، وفي تكييف تفكيرهم وشعورهم ، وفي توجيه عملهم وسيرتهم

بل ان مترجمي هؤلاء العظماء ليغفلون عادة عن هذا الجانب الديني ، ولكثيرا ما تتسم أخلاق العظماء بالشذوذ أو القسوة أو الاستهتار أو الثورة تخفي عن الناس ما يعمر قلوبهم من نزعات التدين والايمان

ولكن نظرة عميقة في حياة عظماء العالم عامة تبين أن قلوبهم تفيض دائما بضياء الدين ونور الايمان ، وان كان منهم من يمارس الدين وفق طقوس خاصة به قد لا تتفق مع الطقوس التي جرى بها العرف ورسمتها التقاليد

وسنعرض فيما يلي ناحية التدين في نفر من عظماء العالم المعاصرين والسابقين ، مستدلين عليها بكلمات قالوها أو أعمال قاموا بها

تشيانج كي تشك : هذا رجل شديد التدين والايمان رغم أنه انتقل من دينه الصيني الى دين جديد هو المسيحية . فقد قال في خطاب أذاعه منذ سنوات في ذكرى ميلاد المسيح « ان الرجل لا يستطيع أن يعيش بلا عقيدة دينية » . ثم قال : « اني أؤكد انه اذا نقص المرء الايمان عجز عن أن يؤدي أي عمل ، كما أنه لا يستطيع أن يؤدي عملا ما اذا أباح للخرافات والنزعات أن تدخل في عقله وحياته »

وقد كان الجنرال يدين بالديانة الكونفوشية حتى لقي « ماي لنج سونج » ، تلك الفتاة الجميلة الثرية التي تعلمت وتثقفت في امريكا ، فترك ديانته الاولى ، وزوجتيه السابقتين ، واعتنق الدين الذي تدين به هذه الفتاة بعد ان تزوجها

أما زوجه فكتبت مقالا بدأته بهذه الجملة : « اني لست متدينة بحكم طبيعتي » . ولكن هذا الوصف لا يطابق الحقيقة في شيء ، فكل من لقي هذه السيدة يدرك مدى ما للدين من أثر في توجيه حياتها وأعمالها . فهي سيدة انسانية من الطراز الاول ، تحركها آلام البشر من بني وطنها ومن بني الانسان عامة . وقد غرست مبادىء المسيحية وأخلاقها لا في نفسها ولا في زوجها فحسب ، بل في آلاف وآلاف من أبناء الصين الذين تضمهم « حركة الحياة الجديدة » هذه الحركة التي أقامتها لخلق جيل جديد من أبناء الصين وبناته، يؤمن بحقه ويعتز بكرامته ويبذل نفسه دفاعا عنهما

هتلر وموسوليني : هل هتلر غير متدين ؟ كلا ! ولكن دينه ليس دينا من الاديان التي يؤمن بها الناس ، بل دينه كما يقول جون جنثر في كتابه « في داخل أوربا » هو ألمانيا !

هو لا يؤدى شيئا من طقوس المسيحية . وقد اضطهد الكنيسة ورجالها . ولكنه مع ذلك لا ينكر أثر المسيحية وفضلها على شعبه ، وان كان يرى النازية أعمق منها أثرا وأعم فضلا . فقد قال فى خطاب فى مؤتمر نورمبرج : « لقد نجحت المسيحية ردحا من الزمن فى توحيد القبائل التيوتونية . ثم جاءت حركة الاصلاح الدينى فحطمت هذه الوحدة وأعادتها قبائل مشتتة متفرقة . أما الآن فقد عادت ألمانيا موحدة وحدة كاملة كالبنيان المرصوص . ذلك أن الاشتراكية الوطنية نجحت حيث أخفقت المسيحية »

وكان من أكثر ما يؤلم هتلر أن يكون المسيح من بنى اسرائيل ، هذا الشعب الذى ينكر عليه كل فضل وكل كفاية . وقد أضحك هتلر العالم طويلا حين حاول مفكرو النازية وفلاسفتها أن يثبتوا أن المسيح من الجنس الآرى ، وان تعاليمه تتفق وتعاليم النازية

أما موسولينى فكان ملحدا فى بداية حياته عند ما كان ثوريا اشتراكيا ، فلما غدا رئيس حكومة صار متدينا . . ولم يكن تدينا رسميا صناعيا ، بل كان تدينا قلبيا صحيحا . فعند ما تزوجت ابنته ايدا من الكونت شيانو لم يهدها أبوها سوى مسبحة ! وكذلك سمى ابنته الصغرى اسما مسيحيا صميما فدعاها « آنا ماريا » ، وقصة صلحه مع الفاتيكان فى سنة ١٩٣٢ قصة سياسية ، ولكنها على أى حال لم تخل من نزعة دينية

ستالين : قال ستالين ذات مرة : « ان الحزب ــ الحزب الشيوعى ــ لا يستطيع أن يكون محايدا فى أمر الدين ، لان الدين شىء يضاد العلم ، والعلم هو الاساس الذى تقوم عليه الشيوعية »

ولكن هذا لا يعنى أن ستالين فى قرارة نفسه ملحد بالدين كل الالحاد . بل ان فيه لآثارا وندوبا من الدروس الدينية التى تلقاها فى بداية حياته حين كانت أمه تريد أن تجعل منه قسيسا . فلما كان فى محبسه فى عهد القيصرية كان يقرأ الانجيل ويتلوه طويلا

والاخبار الأخيرة الواردة من روسيا تدل على أن ثمة تسامحا كبيرا فى المسائل الدينية وأن كنائس روسيا ومعابدها بدأت تفتح أبوابها لأفواج المتدينين والمؤمنين. والظاهر أن لا سبيل الى القضاء على الروح الدينى فى روسيا ، فقد بدأت موجة التدين تغمر هذا الشعب الذى كان أشد شعوب أوربا تدينا وايمانا ، وقد حرضت محن الحرب الدائرة هذا الشعب على تقوية روحه المعنوى وبث الصبر فى جوانحه ، بالرجعة الى الدين شيئا ما

لنكولن : ولكن ما شأن أولئك الذين كتبوا التاريخ فيما مضى تجاه الدين ؟ خذ لنكولن مثلا . لقد كاد هذا الرجل أن يخفق فى انتخاب الرئاسة حين ذاعت الاشاعات وتواترت الاقاويل عن شكوكه فى الدين . وأجمع رجال الدين فى أرجاء أمريكا أمرهم على محاربة « العم ابراهام » لانه لا يعترف بالدين ولا يؤمن بالله . وكان لرجال الدين

حينذاك نفوذ كبير على جمهرة الشعب ، فكادوا يحولون أصوات الناخبين جميعا الى خصمه فى الانتخاب

فما كان من لنكولن الا أن جمع جمعا كبيرا من الناخبين ، ووقف فيهم يخطبهم قائلا : « انى أعلم أن هناك الها ، وان هذا الاله يكره الرق . أما خصمى فلا يعنيه بقى الرق أم ألغى ، فى حين أن الله تعالى يكره الرق ويأمر بالغائه . وأنا استمع كلمة الله وأكره الرق وأريد أن ألغيه . وسأوفق الى ما أريد بفضل رعاية الله وتأييده لى »

ثم نزع من جيبه الكتاب المقدس ، وأقسم به ليسعين الى الغاء الرق بكل جهوده وقواه . فكان لهذه الكلمة ولهذه الاشارة أثر فعال فى نفوس ناخبيه جميعا ، فحملوه فى موجة غامرة من التأييد الى كرسى الرئاسة

ولم يكن للنكولن مذهب دينى معين ، ولكنه كان مسيحيا فى أخلاقه وصفاته ، وكان يؤم الكنيسة أحيانا ، ويستشهد فى خطبه ورسائله بآيات من الانجيل

المارشال فوش : كان فوش قائد جيوش الحلفاء فى الحرب الماضية يؤم الكنيسة ويمثل أمام المذبح كلما اشتد به الأمر وضاقت عليه سبل النصر . وكثيرا ما كان يختفى عن الانظار ، والحرب فى عنفوانها والمعركة متقدة النيران ، ليخلو الى الله تعالى برهة من الوقت يتعبد ، ويبتهل ، ويتوسل . .

وقد سئل ذات مرة عن خلود النفس الانسانية فقال : « سعداء هؤلاء الذين ولدوا مؤمنين . وأنا واحد منهم ، فما يداخلنى الشك فى خلود النفس وحياتها بعد الممات »

وكان فوش يصلى الى الله قبل أن يقدم على معاركه الحربية ، مثله فى ذلك مثل نابليون الذى سارت الأقوال بشكوكه واستهتاره . وقد بلغت النزعة الدينية من نابليون مبلغها الاقصى فى سنيه الاخيرة التى أمضاها فى المنفى ، يفكر فى تلك القوة المسيطرة الغلابة التى يعجز عنها أى عقل وتقصر دونها أية عبقرية

وقد بدأ نابليون وصيته بهذه الكلمات : « انى أموت مؤمنا بالديانة المسيحية التى ولدت عليها منذ أكثر من أربعين سنة »

وكان نابليون ثائرا على الكنيسة عابثا برجالها . وقد قبض على البابا وزج به سجينا . ولكنه مع هذا كان — حتى فى أيام سطوته وعنفوانه — يحمل الكتاب المقدس ويتلوه كثيرا

شيكسبير : لم يكن متصوفا يزهد فى الدنيا وينصرف عن متاعها . ولم يكن مطلق الايمان لا يداخله الشك فى أمور الدين . بل كثيرا ما كان يرتاب فيما وراء الحياة : أهو موت دائم لا حس فيه ولا قيامة منه ، أم هو مجاز الى حياة أخرى فيها نعيم وفيها شقاء ؟ ومن أمثلة شكه ما قاله فى « هاملت » : « هذا الافق الذى لم يكتشفه أحد ولن يكتشفه أحد . هذا القطر الذى لا يعود من يسافر اليه أبدا »

وكان كثير الاستشهاد بآيات من الانجيل ، حتى لقد وضع أحد نقاده كتابا كاملا عنوانه : « الانجيل فى شيكسبير »

وعلى قدر ما كانت قصصه الاولى متحللة من الاخلاق والفضائل ، أخذت قصصه الاخيرة تتجه اتجاها دينيا خلقيا واضح السمات

ووصيته تشتمل على هذه الكلمات التى تدل على أن الايمان استولى عليه فى أخريات أيامه : « انى أسلم روحى لدى الله ، خالقى وبارئى ، آملا وواثقا ، ان هذه الروح ستحيا حياة خالدة فى ظل يسوع المسيح مخلصى ومنقذى ، بينما يبقى جسدى فى الارض التى خلق منها »

دارون : عند ما كان فى جنوب أمريكا يجمع المواد التى يبنى منها نظرية التطور ويؤلف منها كتابه أصل الانواع ، أثارت نفسه تلك القسوة البالغة التى يعامل بها الرقيق، فقرر أن يغادر تلك البلاد على الا يعود اليها مرة أخرى . وقد كتب فى « قصة حياته » أنه « لن يزور بعد الآن أى قطر يمارس الرق . فانى ما زلت الى هذا اليوم كلما سمعت صرخة من بعيد ، تذكرت أن ثمة عبدا بائسا يجلد بالسياط ويعذب بالحديد »

وقد اتهم داروين بالالحاد من جميع الهيئات الدينية ، وعد كتابه الاول «ارتقاء الانسان» كفرا بالدين ، وحرمت على المؤمنين قراءته . ولكن داروين لم يكن يرى فى نظريته أى خروج على الدين ، فلما قابله الشاعر تينسون وسأله : « هل نظريتك فى التطور تناقض المسيحية ؟ » أجابه دارون حازما : « كلا . . كلا . . ليس فيها أى شىء يخالف ديانتى المسيحية ! »

(عن صحيفة ماكت دايجست)

أمثال روسية

- عند ما يتكلم المال يصمت الصدق
- شعر المرأة طويل ولكن فكرها قصير
- المرأة عزيز على الرجل مرتين : عند ما يتزوجها وعند ما يدفنها
- المرأة تضحك عند ما تقدر ، وتبكى عند ما تريد
- الجندى الذى لا يأمل أن يصبح يوما ما جنرالا جندى خامل

الحب بين الشباب والكهولة

كنا ثمانية نسمر بذلك الحديث الهين المتشعب الذى يحلو فى ليالى الصيف الوادعة الرائقة . وانتقل بنا الحديث الى ذكر ذلك الشاب الحدث الذى تزوج فى الليلة الفائتة من سيدة لا يكاد عمره يجاوز نصف عمرها

وقال واحد منا : « هذا زواج أيام وأسابيع ، فما يمكن أن يقوم الحب ولا أن يستقيم الزواج بين الكهولة والشباب »

وقال آخر : « لا شك أن المال يربض وراء كل زواج من هذا القبيل . فما الذى يغرى شابا بامرأة متقدمة السن سوى مالها ؟ »

ولكن أحدنا ، وكان كهلا خبر الحيـاة طويلا ، قال : « لست أرى ما ترون يا رفاق .. فما أظن أن سهم كيوبيد حين ينطلق ينظر الى الاعمار .. انه ينظر الى الامزجة والاذواق وحدهما »

لقد صدق رأى هذا الرجل . فانا اذ نراجع أعظم ما فى التاريخ من قصص الحب الصادق ، العنيف ، نرى أن تقارب السن لم يكن عاملا هاما .. بل كثيرا ما نجد الحب يبلغ أقصاه بين اثنين يتفاوتان فى السن تفاوتا كبيرا

لعل قصة الحب المثالى وقصة الزواج المثالى فى تاريخ أدباء انجلترا هى قصة الشاعر روبرت براوننج وحبيبته الشاعرة اليزابث براوننج . فهل كانا متقاربين فى السن ؟

عند ما لقيها الشاعر أول مرة كانت فى التاسعة والثلاثين ، وكانت مريضة تشكو علة عصبية طالت عليها الايام . أما هو فكان فى الثالثة والثلاثين . ولكن هذا اللقاء الاول أوقد فيهما لهيب الحب ، فتزوجا فى العام التالى سرا ، وسافرا خفية الى ايطاليا

وثمة فى تاريخ الادباء قصص شتى من هذا القبيل ، منها قصة الاديبة الانجليزية المشهورة جورج اليوت ، التى لا تخلو قصة حبها وزواجها من غرابة تبلغ حد الانحراف

فقد كرست هذه الاديبة قلبها وذهنها أعواما تلو أعوام لرجل متزوج هو « جورج لويس » الذى كان لها من عطفه ورعايته ، ومن تأثيره وتوجيهه ، ما أثار ملكاتها الادبية وولد منها ما خلفت من آثار أدبية ثمينة . وكان لويس متزوجا ومع ذلك كانت اليوت لا ترضى أن تكون علاقته بها مجرد حب ، بل تراها علاقة زواج لا تنقصه سوى طقوس الزواج . وكانت تهديه مخطوطات كتبها مقدمة بهذه الكلمة « الى زوجى » !

ولما مات لويس صدمت اليوت صدمة أوهنت صحتها ، كما أضعفت من انتاجها الادبى

وقد ظلت عانسا حتى سن الواحدة والستين .. وعندئذ تزوجت !.. تزوجت شابا فى سن الثلاثين . ومع أن هذا الزواج لم يدم طويلا ، الا انه كان زواجا سعيدا هانئا ، لانه كما قالت : « زواج قام على اتفاق فى الذهن والمزاج »

ونذكر فى هذا القبيل قصة الاديبة الالمانية « راحيل ليفن » . تلك التى كان بيتها فى برلين مثل بيت اسبازيا فى اثينا . فهذه ألهمت سقراط وفدياس ، وتلك كانت ذات التأثير النافذ الساحر فى جوتيه وهينى وهاجل وغيرهم من أعلام الأدب والفكر الالمانى

كانت راحيل فى السابعة والثلاثين حين رأت كارل فرنهاجن الذى لم يجاوز الثالثة والعشرين . فماذا أحسا ؟ قال الشاب فيما بعد : « أحسست فى تلك اللحظة أن ثمة شيئا يرفعنى الى أسمى مستوى فى الحياة » . ولن يقول هذه الكلمة الا شخص اتقدت فى قلبه جذوة الحب المقدسة . .

وظلت هذه الجذوة متقدة ملتهبة عددا من السنين ، انتهت بالزواج حين كانت هى فى الثالثة والاربعين وهو فى التاسعة والعشرين . وكانت رعايتها وتشجيعها اياه مثار ملكاته الادبية الكامنة ، فأخرج كثيرا من الكتب الثمينة ، كما عمل فى السلك السياسى

ولم يزد الزواج حبهما الا قوة وصفاء ، ولما ماتت ، ظل وفيا لذكراها كل الوفاء ، فلم يتزوج مرة أخرى ، وطبع كثيرا من أوراقها ورسائلها

وليس الامر مقصورا على الادباء والاديبات ، بل تجد من رجال الحكم والسياسة من يهيمون حبا بنساء يكبرنهم سنا . فزوجة لينين تكبره بسنتين

واذا ذكرت فى حياة هتلر قصة حب ، فهى قصة حبه للسيدة الثرية بشتين . وقد يقال انه لم يعلق بها الا لتمده بالمال حين كانت حركته السياسية فى بداية أمرها مفتقرة الى المال ، ولكن الذين يعرفون دخيلة الامر يؤكدون أن الشاب هتلر كان يحس حبا عميقا لهذه السيدة التى عرفها وهى فى سن الستين

وفى تاريخ العرش الانجليزى قصة حب بين امرأة عجوز وشاب صغير . تلك هى قصة حب الملكة العظيمة اليصابات بالشاب الفتى اسكس ، الذى كان فى الثالثة والعشرين حين بادلته الملكة حبا بحب وهى فى السادسة والخمسين

ولا شك أن الشاب كان يحب الملكة حبا صادقا ، وكان يغار عليها من وزرائها ومستشاريها ، فأدت به هذه الغيرة الى مؤامرة سياسية أراد بها أن يبعد عن ملكته المحبوبة هؤلاء الرجال . ولكن الملكة ــ بعد حب دام اثنى عشرة سنة ــ لم تغفر له هذه المؤامرة ، وآثرت عرشها على قلبها ، وقضت على حبيبها بالموت

ولكن الامر لم يكن هينا عليها ، فلم تعش بعده سوى سنتين ، قضتهما محطمة الاعصاب

نعود الى عالم الادب فنجد الاديبة الفرنسية جورج صاند

كانت فى الثلاثين وكان الفريد دى موسيه فى الثالثة والعشرين، حين قال فيها : « متقدة شرسة كالجمر . وادعة حنون كاللبن . خصبة جواد كالارض . خطرة غدارة كالبحر »

وسافرا معا الى ايطاليا فى رحلتهما الغرامية المشهورة ، تلك الرحلة التى قال عنها الشاعر : « بدأت كرواية غرامية رائعة .. ثم انتهت كرواية لها ثلاثة أبطال » . وكان البطل الثالث هو هذا الطبيب الفتى الجميل « باجيلو » ، الذى هامت به الشاعرة غراما

وتقلبت بعد ذلك فى الحب بين رجل وآخر ، حتى لقيت الموسيقى شوبان ، وكان حينذاك يصغرها بست سنوات ، اذ كان فى الواحدة والعشرين من عمره . وكان قد ترك بلاده بولونيا محطم القلب كسير الفؤاد ، اثر صدمة حب عنيفة ، وجاء الى فرنسا يلتمس فيها الصحة والراحة والسلوى .. ولقيته جورج صاند ، فحملته معها الى جزر البليار ، حيث الشمس الصاحية تضفى عليه الصحة والعافية ، وحيث حبها النارى يسكب فى قلبه الراحة والسلوى . وظل الحبيبان معا ثمانى سنوات ، ثم افترقا

وتذهب الى التاريخ البعيد ، فنجد المرأة الخالدة « صافو » هذه السمراء الفاتنة الساحرة التى غزت قلوب الملوك وأذلت جباه الرجال . ولكن رجلا واحدا لم تقو عليه ، مع انه لم يكن ملكا ولا أميرا ، بل كان بحارا بسيطا . ذلك هو البحار الشاب « فاون » الذى هامت به حبا فى أخريات أيامها ، وكان حبها اياه آخر حب فى حياتها . وكان شابا فتيا جميلا مكتمل البدن ، ولكنه كان من أصل وضيع وعلى قسط ضئيل من التهذيب

ولا شك فى انه بادل صافو حبا بحب ، وعاشا معا فترة عيشة هانئة سعيدة . ولكن السن تقدمت بها كثيرا بعد أن ارتوى الشاب من كل ما أراد : من رحيق الحب ، ومن بعد الصيت ، اذ آثرته أجمل نساء عصرها على سائر الرجال . فلما شبع الشاب وارتوى ، ترك صافو ذات ليلة على حين غرة ، وأبحر فى قاربه تحت جنح الظلام الى صقلية . وطويت بذلك آخر صفحة فى كتاب صافو الحافل بأقاصيص الهوى

ونذكر قصة «ديانا دى بوتييه» فهى من أقوى الادلة على أن كيوبيد لا ينظر الى الاعمار

هزت هذه السيدة مهد هنرى الثانى ملك فرنسا . ولكنه لما كبر وصار ملكا كانت هى المسيطرة على قلبه وعقله ، رغم الفارق الكبير بينه وبينها فى السن ، ورغم أنه لم يتول العرش إلا بعد أن تزوج من كاترين دى مديشى بأربع عشرة سنة !

وقد بنى لها هنرى قلاعا كثيرة ، كان يمضى معها فيها ساعات الحب وليالى الهيام

ونذكر أخيرا « نينون دى لينكلوس » هذه السيدة المستهترة التى عاشت فى باريس فى القرن السابع عشر . كانت آية من آيات الصالونات الباريسية : جمالا ، وأناقة ، وذكاء وبراعة ، وقوة عاطفة ، ونفاذ تأثير . وظلت طول عمرها مطمع أنظار علية القوم ، من شبان ورجال ومسنين . وكانوا يطلقون عليها لقب « الهة الحب » . ولم تشبع من الحب ولم يشبع الناس من حبها ، حتى وهى تدب الى الشيخوخة الفانية

ففى سن السبعين أحبها وهام بها البارون فون بانير ، ولم يكن حينذاك الا شابا

وفى سن الثمانين أحبت حبها الاخير . وكان ذلك بينها وبين رجل فاضل مستقيم ، فأراد أن يعدل بها عن طريق الاستهتار والغواية الذى قطعت أشواطه كلها ، فانقادت له وعاشت الى التسعين عيشة التوبة والأيمان (عن مقال لآيت جولسون فى صحيفة باريه)

الدكتور ابراهيم

تأليف الكاتب السويسري

جون نيتل

تلخيص وتعليق الاستاذ

محمد امين حسونة

جون نيتل John Knittel من أنبه كتاب أوربا ذكرا ، وأجلهم أسلوبا ، وأصدقهم فنا في نقل صور البلاد التي يمكث فيها أو يمر بها ، والقيام بتحقيقات اجتماعية رائعة

وقد أقام بضعة أعوام في ضاحية « عين شمس » بالقاهرة ، في صومعة تسودها الاحلام وسكينة الخلد ، وتحوط بها اشجار السرو والازهار ، توفر في خلالها على وضع هذه الرواية التي نقلت الى معظم اللغات الحية ، فرسم على صفحاتها صورا ساذجة من أفكار الفلاح المصري ومعتقداته وسوء حالته المعيشية حتى صادفت الرواية هوى من نفس كل كاتب أوربي يمجد العدالة ويروم أن يرى الفلاح المصري والعامل المصري في مرتبة الانسان المتمدين

والحق ان جون نيتل أحب الارض المصرية حبا جما ، تلك الارض التي ولد فيها « الدكتور ابراهيم » وناضل وتألم من أجل سعادة مواطنيه والسعي الى تثقيفهم والدفاع عن حقوقهم . واتخذ المؤلف من هذا الحب سلاحا يدافع به عن التقاليد الرفيعة والميول الشريفة والكفاح المجيد في سبيل الحصول على «الخبز اليومي» وعذرا لنقد عيوبنا ونقائصنا الاجتماعية ـ هذا النقد وان كان لاذعا غير أن المؤلف يقف منه موقف الطبيب الذي يشخص الداء ويصف الدواء

والمؤلف يخاطب القارىء أحيانا من منبر الوعظ والارشاد ، ويكثر من النصيحة فيما يتعلق بالآداب والاخلاق والسياسة ، ولكن سرعان ما ينسى المؤلف صفة الواعظ وتبدأ شخصية الكاتب الفنان في الظهور ، فيأخذ عليك لبك ويهز مشاعرك ، فتتلو الكتاب الى آخره دون أن تلقيه جانبا ، فاذا فرغت منه تأكدت بأن المؤلف أصاب سدرة الصواب فيما رمى اليه

▭

كان ابراهيم جمال الدين الاسيوطي شابا يافعا ، أسمر البشرة ، متألق الذكاء ، تلوح على محياه دلائل الفطنة . وقد نشأ من أسرة فقيرة ، في احدى القرى النائية في الصعيد ، بعيدا عن صخب الحياة ، حيث لا تصل القطرات ولا السيارات ، وانما يصل الناس اليها على ظهور الدواب أو سعيا على الاقدام

كان رقيق العاطفة ، ملتهب الاحساس ، طموحا الى حد الاعتدال ، سلحته الطبيعة

بمواهب فذة وارادة حديدية صلبة ، وأعصاب تقوى على الدأب والكفاح فى عزم وطمأنينة وقناعة ، وكان قد أولع لفرط طموحه بأن يغدو طبيبا ، يشفى علل أبناء قومه التعساء ويأسو جراحهم ، وملأ الأمل نفسه وأترع خاطره ، فمضى يشق طريقه فى الحياة على هدى مثله الأعلى

وكان أبوه على شاكلته ، رجلا تقيا ورعا ، وكان على قدر حظه من مزاولة العبادة وضروب التقشف موفور الحظ من العلم ، اذ كان يشتغل فى العطارة ويتاجر فى الاعشاب والنباتات الطبية ، يعالج بها الفلاحين ويصف أدواءهم ، وقد أعجب أهل القرية بسداد رأيه ورسوخ قدمه فى الطب طبقا لما درسه فى تذكرة ابن داود وما تلقاه عن السلف ، فكانوا يحتكمون اليه فيما يعضل عليهم حله ويهرعون لشهود مجلسه

وكانت الأم امرأة صالحة ، تتخلل شعرها الكثيف الاسود خيوط بيضاء كأنها جداول من الفضة تجرى وسط صحراء قاحلة ، وكانت التقوى قد طهرت بدنها من مطامع الدنيا وغرورها ، وطمت الرحمة فى قلبها ، فلما مرض ابراهيم فى طفولته وعاده حلاق الصحة وجعل يعالجه بعقاقير ساءت معها حالة الطفل ، أبعدت الأم الهموم عن نفسها وطرحت هذه الادوية التافهة جانبا واقبلت تغذيه باللبن والعسل . كانت كلفة بالصمت ، تعمل فى تؤدة وهدوء ، وتسير بخطى وئيدة صماء ، وتتحدث الى طفلها المريض فى شبه همس ، فتهون عليه آلامه ، وتوقظ الامل فى نفسه بحرارة المؤمن وهو مقبل على تأدية الصلاة ، فجعلت تحوطه بعين عنايتها وتسهر عليه الليالى الطوال ، ولم تدخر وسعا فى سبيل حمايته ودفع غائلة الموت عنه حتى شفى المريض ونجا بأعجوبة

وعند ما شب الطفل أراد الوالد أن يشرف على تربية ولده ، فلقنه بنفسه مبادىء القراءة والكتابة وعلمه الحساب ودربه على أساليب البيع والشراء فى حانوته الضيق المتواضع ، وأفهمه أسرار تركيب العقاقير والاعشاب

وقد حدث فى ذات يوم أن مضى الصبى الى المدينة ومر مصادفة بدار المستشفى الحكومى فأبصر المرضى يترصدون بابه ، وهم يضربون ويهانون كأنهم كلاب القطيع ، فأشفق عليهم ، وغرس هذا المنظر فى ذهنه أول بذور الثورة الممزوجة بعواطف الرحمة والمحبة . وعاوده حلمه ، فود لو أن القدر يحققه فيصبح طبيبا يهب علمه وتجاربه فى سبيل مرضاه ، هؤلاء المعوزين الفهين هم فى حاجة الى الدواء والعلاج ، وبعد شهور قصد الى المذبح « السلخانة » فهاله منظر القسوة وهم يذبحون الماشية . غير أنه مارس أول دروسه فى التشريح فى جثة حمار نفق ، وقوى ذلك من عزيمته على أن يصير جراحا فى المستقبل

شب وترعرع ، وأشرق ذكاؤه وتجلت ألمعيته وانبثق فى نفسه نور المعرفة ، فسلك طريقه الى المدرسة وبذ أقرانه . وكان يرغب فى بادىء الأمر لو انه لا يرتدى سوى الجلباب و « الزعبوط » اذ أن الملابس الافرنجية فى زعمه تدمجنا فى الغربيين ، وبذلك تمحى قوميتنا ويسلب منا طابعنا الشرقى الخاص ، وكان يرى أن مصر لن تنال استقلالها

الا يوم أن تمزق هذا الرداء وتلقيه أرضا . وتجلت وطنيته حينما وفد مفتش التعليم الاوربي لزيارة المدرسة ، فقد دخل هذا المفتش المدرسة بزهوه وخيلائه ، واستقبل من هيئة التعليم ورجال الامن والشرطة استقبال الغزاة الفاتحين ، ثم وجه سؤالا الى التلاميذ طلب اليهم الاجابة عنه ، وهو : ماذا يمكن للطالب المصرى أن يعمل عقب تخرجه فى المدرسة ؟ فاتفقوا جميعا على أنهم يفضلون الالتحاق بوظائف الدولة ، ولكن ابراهيم شذ عنهم ولم يسلك مسلكهم ، فذكر فى صوت جهير انه يؤثر أن يغدو طبيبا ليعالج ويشفى أبناء مصر « الفقراء » . هنالك لطمه ناظر المدرسة على وجهه ، لانه تجرأ على أن يلفظ اسم « مصر » ويشيد بفقرها فى حضرة المفتش الاوربى !

ظل هذا الحادث عالقا بذهن ابراهيم . وكان داعيا لان يتبه من جديد نزعة السخط فى أطواء نفسه ، ويقوى فيها بذور التمرد ضد اضطهاد البشر وقسوتهم وظلمهم ، حتى أن الحظ لما حالفه والتحق بمدرسة الطب فيما بعد جعل شعاره « مصر للمصريين » ورائده القيام بتعليم كل فلاح فقير وتثقيفه ثقافة تليق به كعضو نافع فى الجمعية البشرية ، ونصب أمام عينيه ضرورة مكافحة الامية ، والقضاء على الامراض والعيوب التى يئن تحت أثقالها السواد الاعظم من الامة

وقد صارح رفاقه مرة بمبادئه هذه فقال :

ـ كم هى جميلة تلك الحياة ! انها صافية صفاء السماء اللازوردية ، انها شهية للفم ، ومتاع للعين ، ولذة للسان ! اليوم يشقى عشرة ملايين من اخوانكم ، انهم رجال مثلكم يصارعون الحياة ليحصلوا على البصل وخبز الشعير والفول والعدس ، وانتم تعلمون هذا علم اليقين . تعرفون أنه لا توجد قرية واحدة تنعم بمورد من الماء الصحى النقى . يا لعاركم أيها الاذلاء الذين تضعون الزبد على خبز الاجنبى وتأبون الخبز القفار على أترابكم فى الوطن . تركتم الاجانب يقتسمون بلدكم ، وجعلتم خيرنا قسمة ضيزى بينهم كأنه كعكة عيد الميلاد ، ينهبونه باسم التعليم ، والصحة العامة ، وتنظيم المالية . وجهلتم أن هذا البلد وحدة لا تتجزأ هى الشعب المصرى ، هذا الشعب مريض ، قد استبد به الداء وان علة مرضه هم رجاله . لقد قمت وأنا فى سن الثانية عشرة بتشريح جسد حيوان ثم أجريت المبضع اليوم فى جسد مصرى . ان العلة أيها الاخوان فى الرجال !

وخاطب مرة استاذه الاوربى بقوله :

ـ والآن أيها الاستاذ ، ان لدينا الاخصائيين من أبناء وطننا ، فى نفس أرضنا ، ولكن الاجنبى أحق ، هكذا تنص الامتيازات الاجنبية والمعاهدات . انى أشكر لك حمايتك والدليل على هذا ان عصابات الاشرار من الاجانب تخف الى بلادنا تلتمس المتعة والثروة فيها فى ظل الامتيازات الاجنبية . أليست الشمس وحدها هى التى تناديهم الى هذا البلد، بل ان الاجساد البشرية تهتف بهم كذلك . هذه الاجساد التى برأها الله على نحو رفيع،

انها العيون الحساسة ذات الحور والبريق ، انها الابتسامات البلهاء ، ان الشيخوخة تسعد هنا على حساب الشباب الأبدى

▭

أتم دراسته الثانوية ورغب أبوه أن يحقق له أمنية تمنحه نقودا وثيابا ويباركه قبل الرحيل الى القاهرة للالتحاق بأحد معاهدها العلمية العالية . وآثر ابراهيم أن يسافر بطريق النيل توفيرا للنفقات ، وفى المركب الشراعى الذى أقله أجرى أولى عملياته الجراحية وهى فتح خراج فى عنق أم « الريس حفنى » . ورأت الام أن ترد اليه الجميل فكشفت عن طالعه ، وتبين لها أن فى عنقه طوقا من الذهب فى وسطه زهرة ، وسيكسر هذا الطوق فى نقطة اتصاله بالزهرة ، ثم يمحى ولا تبقى سوى الزهرة فتعيش الى جانبه بقية عمره !

فى ذلك الحين كان وباء الكوليرا قد انتشر انتشارا مروعا فى مديرية أسيوط ، وكان الموت يحصد الناس حصدا فيقعون صرعى كالذباب . فخرجت باخرة الحجر الصحى « الكرنتينة » الى عرض النيل ، وأوقفت المركب التى بها ابراهيم واقتادتها الى الشاطىء ، وحجزت ركابها الذين وضعوا تحت الرقابة الصحية . وتعرف ابراهيم الى طبيب الاوبئة الدكتور جاد الله وعرض عليه خدمته ، فقبله مساعدا له ، وتوثقت عرى المودة بينهما ، وكان بالمستشفى المتنقل ممرضة تدعى مس هوارد ، رمت بنفسها فى ذلك الاتون المستعر على أثر حب فاشل وما لبثت أن ماتت بالكوليرا ، وأصيب ابراهيم بالوباء نفسه فعالجه الدكتور جاد الله حتى شفى ، ولكن الطبيب المسكين قضى نحبه بعد ذلك متأثرا بذات الداء

طهرت المنطقة من الكوليرا ، فزحف ابراهيم بهيكله الناحل المحطم وقد سرقت نقوده وانتهبت ثيابه . زحف الى جدار خرب وارتمى عليه وقد أعياه السير وهده التعب . هناك مرت به اتفاقا قروية حسناء تدعى عزيزة ، كانت بعينها « الزهرة » التى لمحتها أم حفنى فى طالعه

وفتح ابراهيم عينيه فأبصر فتاة جميلة ، مديدة الجسم ، عريضة الاكتاف ، ممشوقة القد ، ذات شعر أسود فاحم كالليل ، تسترسل ضفائرها الى ما فوق خصرها ، وكان لها وجه مستدير ، لونه حنطى ، أما عيناها فسوداوان تتراءى فيهما الأحلام الخفية وتنبعث منهما احساسات مجهولة غير أنها مقرونة بالعطف ، مشبعة بالرثاء . رآها وقد انحنت عليه فى رفق كأنها تمسح بيديها آلامه وأوجاعه ، وتحنو عليه حنو مرضعة على فطيمها فاستفاقت فيه بغتة عوامل مبهمة متضاربة ، وسائل نفسه عما اذا كان فى حلم أم فى يقظة

ومضت به الفتاة الى دار عمها وما لبث ان استرد قواه شيئا فشيئا ، وعاودته العافية والصحو ، ووصل الحب بين قلبيهما وصار ينمو الى الايام ولكن الاقدار عاكستهما ، فان

سيد القرية مدني باشا كان له ولد وحيد يدعى عباس ، هو شاب مدلل ، سافل ، فصار يطارد عزيزة ، وأوحى الى أبيه أن يطلبها من أهلها لتكون خادما في قصرهم بالقاهرة . فدب اليأس الى قلبي عزيزة وابراهيم وصمما على الهرب وفعلا فرا معا ، وبعد أن سارا شوطا بعيدا ، لحق بهما رجال مدني باشا فأوسعوهما ضربا مبرحا وانتزعوا الفتاة من بين ذراعي حبيبها

تكشفت لابراهيم وهو في القاهرة مئات العيوب والمثالب ، فرأى القذارة في مستشفى قصر العيني ، وضرب المرضى ، والاتجار في الادوية ، وسرقة وجبات الطعام المخصص للمرضى ، ومغازلة الاطباء للممرضات ، وتركيز الامر والنهي في يد « الباشتمرجي » الذي له وحده حق جباية الاتاوات والسيطرة على كل ما يتعلق بشؤون المرضى والزوار

لمح في الحي الذي يسكنه انحطاط مستوى السكان والجهل المتفشي بينهم ، وطالعته أشباح حزينة متعبة ساخطة ، تسكن في هياكل من عظم تكسوها طبقة رقيقة من الجلد ، قد أنهكها الجوع والحرمان . أما الاطفال فكانوا بين موزعين في الازقة ، ومشردين في الشوارع ، ومتسكعين هنا وهناك في ثياب مهلهلة وأطمار رثة ، يتسلقون مركبات الترام وينبشون صناديق القمامة ، ومنهم من يستر اجرامه وراء حرفة تافهة . فعول على افتتاح مدرسة الغرض منها تعليم هؤلاء الصبية مبادىء الثقافة وتلقينهم الاصول الصحيحة للتعليم مع بث روح القومية الحقة في نفوسهم حتى يتفهموا عبقرية الوطن على حقيقته . وبعد أن سار شوطا بعيدا في مدرسته أغلقتها السلطات المختصة واعترضت على طريقته في التعليم ، ثم قدمته الى المحاكمة بتهمة افتتاحه مدرسة بدون ترخيص من وزارة المعارف

في ذلك الحين كان ابراهيم بسبب فقره المدقع يسكن غرفة حقيرة في حي السيدة زينب مع صديق له يدعى « ابو بكر » . وكان صديقه هذا من أرومة تركية ، جم الحيوية ، مدمنا على اللهو ، مغرما بالنساء ، ولكنه فقير كابراهيم ، فصارا يتحايلان على العيش معا ، الى حد أنهما كانا يذاكران مادة « الجراحة الاكلينيكية » فوق قطعة بالية من الحصير

وفي ذات يوم استفاق ابراهيم من نومه على صوت صياح ، فاذا بالامير على صاحب الارض ، ومعه نخبة من أصدقائه الاوربيين ، وكانت بينهم سيدة انجليزية لدغها ثعبان في الطريق العام . فبادر ابراهيم الى نجدتها ، وبتوقد قريحته أنقذ حياتها ، ثم رفض بكل اباء أن يتناول أجرا على الرغم من حاجته وفقره المدقع . وما لبث الامير أن أعجب به ووعد بأن يمنحه جنيهين في كل اسبوع في مقابل أن يعالجه من مرض الكبد الذي يشكوه ، وبذلك تحسنت حالة الشاب المالية ، واستطاع أن يخرج برفقة ابي بكر الى المنتديات ، وأن يبتاع بعض الملابس

ولم يكن الليل قد محا آية النهار حين كان يتنزه مع صديقه على جسر قصر النيل ، فتبين في الغسق منظر النيل وبهره وميض الانوار تنعكس على صفحته فالتفت الى صاحبه يخاطبه بقوله :

ـ تأمل النيل كيف ينحدر فى صمت ، بطيئا ، كأنما تكلفه الحركة جهدا بالغا ، وكأنما يأبى الخضوع لناموس الجاذبية . لقد خلعت عليه أسطورة أوزوريس سحرها . عن واضحك . فان ايزيس لترسل بصرها مع تموجات الماء اللينة الرقيقة التى تحكى الانفاس . انها ترنو اليها وهى ترتفع لتغمر أرضنا ، وان اله الشمس ليرقب هذه الارض وهى تنشر بساطها الاخضر لتنمو وتزدهر . هلم .. هلم أطلق البصر فى نواحى التاريخ ، وقف رويدا أمام جلال الآلهة الذين استبدلنا بها آلهة أخرى أصغر منها . ارهف السمع فان التاريخ يردد على مسمعنا وقع حوافر خيل الخليفة عمر وهى تغزو أرض مصر . تجلجل فى حنايا الماضى حيث وقع أقدام الغزاة من جند نابليون ، يا للكبرياء المحطمة ، ان النيل ليبتسم سخرية منا ، انه ينفخ صدره العظيم فيفيض الألم ماء فى واديه ، كأنما قلبه يدفع دمه الساخط الى فيافى الصحراء .. وتلك هى الحياة !

▬

انقضت الايام والنجاح حليفه ، الى أن نال اجازة الطب بتفوق وجعل « طبيب امتياز » فى قصر العينى . وحدث أن كان يمر ذات ليلة بقسم الولادة ، فأدهشه أن يجد نفسه وجها لوجه أمام عزيزة ، والى جانبها طفل حديث الولادة هو ثمرة ترخصها فى الحب مع نجل الباشا

كان العذاب الخفى يطل من حدقتيها ويرن فى صوتها ، والهم مخيما فوق رأسها ، فاستفاقت فى نفسه بغتة عواطف الرحمة والاعزاز والحنو ، وتنبه احساس حبه فاستفظع هذه النهاية المرة لاليفة الصبا . وكصديق أراد أن يبدد ظلمتها ويوقظ جوهر نفسها ، ويشعرها أنه سيظل الى جانبها وأنها ليست واقفة بمعزل فى هذا العالم ، وكطبيب أقبل يصدر الاوامر ، ويهيىء لها الاسباب التى تكفل راحتها وتصون حرمتها

وبعد أيام اقتادها الى بيته حيث رضيت أن تعيش معه فى غرفته التى يسكنها هو وأبو بكر ، فأنزلها من قلبه منزلة الاخت ، وجعلت تشرف على شؤونه وتهيىء طعامه ، كان يحاول أن ينفخ فى نفسها روح الطموح التى أولع بها ، ويحرك فكرها الراقد ويفرغ عصارة جهده فى تعهدها والعناية بها ، بيد أن عواطفها كانت اكثر مما تحتمله الانثى : كان أبو بكر ينام فى قسم منفصل فى الغرفة ، أما عزيزة وابراهيم ففى مكان واحد ، فكانت تقوم الى ابراهيم فى الليل تستثير حبه ، وتسعى الى أن تنزل به من علياء حلمه لتدنيه الى الارض ، فكان يصدها ويقول لها : انه أخوها وحاميها . وكان لفرط تعلقه بالفضائل وتمسكه بمثله العليا يصارحها بأن غايته هى أن يوجهها نحو الخير ويهديها الى طريق الصواب ، وفعلا سعى لها لتعمل ممرضة فى « قصر العينى » بيد أنها لم تحسن القيام بعملها هناك

وكان أبو بكر فى أثناء ذلك يطارحها الهوى فى غفلة من صديقه ، وجعل يلاحقها ويضيق الخناق عليها ، ولم تستطع أن تقصيه ولا أن تصده عنها ، لان نداء البدن كان

أقوى من نداء القلب عندها ، ولانها لم تقو على المحافظة على جوهر حب ابراهيم الذى يتطلب منها عبادة حارة لتظل دائما عند مثله الاعلى منها

وما كاد ابراهيم يكتشف هذه الخيانة حتى رجف قلبه وعض بناز الندم وارتد بصره كليلا حسيرا ، أما جواب عزيزة وأبى بكر على سخطه فهو أن ابراهيم ليس برجل ، ثم فرا معا !

زالت الغشاوة عن عينيه ، وعرف أنه كان ينظر الى المرأة التى يهواها بعين شاعر ولبس بعين طبيب عاشق ، وأدرك كيف كان يكسوها برغم زيفها وتفاهة شأنها — من أعماق مثله الاعلى — بغلالة من الطهارة والتقديس ، وكيف كان يقضى الايام فى عبادة هذا الصنم الذى حجب بيديه زيفه وتفاهته ويودعها آماله وأحلامه ويتحدث اليها بلغة لا تفهمها ، وما زال هذا شأنه معها حتى وضع يده على قلبها الذى لم يخفق ، ومزق بأنامله الغلالة التى كساها بها ، فتكشفت بنفسها عن زيفها وتفاهتها ، هناك شعر بأنه كان عبد أوهامه وضحية خطئه ، فاسترد منها الغلالة التى خلعها عليها

▬

طلب الى رؤسائه أن يقصوه عن القاهرة فنقل الى مستشفى المنصورة ، وهناك هاله أن يرى كبير الاطباء يرتشى من العاهرات ليتستر على أمراضهن الخبيثة ، ووجد فضائح فى المستشفى يندى لها الجبين خجلا ، فكتب تقريرا حاويا هذه الفضائح ، ورفعه الى مدير قسم المستشفيات . ومرت أسابيع ، ثم قدم مفتش عام الصحة بنفسه ، وبعد أن حقق الشكوى على أسوأ ما يكون ، أمر بنقل الشاكى الى ادفو عقابا له على نقد أعمال رئيسه !

لم يحتمل الحياة فى هذا المستشفى الثانى ، الى أن كان ذات يوم رست فيه باخرة من بواخر السياح بادفو ، وخرج منها طبيب قصد الى مقر ابراهيم ليستعير منه « حقنة مورفين » يسكن بها آلام مريضة فى الباخرة . بيد أن ابراهيم زار المريضة بنفسه ، واتضح له ان التشخيص الذى وصف به المرض غير مطابق للواقع . وكانت المريضة انجليزية ثرية ، قدمت الى مصر للافادة من جوها الصحو وشمسها فى الشتاء ، فأفضى اليها ابراهيم برأيه فى المرض ، فوثقت به ، واطمأنت اليه . غير أن طبيبها الانجليزى استدعى اثنين من الاطباء الاوربيين من القاهرة ، فقدما على عجل ، ولما عرفا رأى ابراهيم ازدريا تشخيصه واحتقرا أفكاره . الا أن المريضة كانت قد وطدت ثقتها فى ابراهيم ، وطلبت اليه أن يتولى بنفسه علاجها وطردت الآخرين . وشفيت عقب عملية جراحية بسيطة أجراها ابراهيم ، وكافأته بمبلغ اربعمائة جنيه . ولما اتصل هذا النبأ بمفتش صحة المديرية صليب بك طلب لنفسه نصف هذا المبلغ بصفة رشوة حتى يكتب تقريرا طيبا فى صالح ابراهيم ، فرفض هذا العرض وسبه وقدم استقالته من خدمة الحكومة

سافر الى انجلترا حيث أتم برنامجا تكميليا فى الطب ومارس مهنته زهاء عشر سنوات ،

(البقية على صفحة ٤٩٢)

عدو الطفل الأكبر : اسهال الصيف

للدكتور مصطفى الديوانى
الاخصائى فى أمراض الأطفال بكلية الطب

انها والله أرقام تلفت النظر وتدعو الى الروية والتفكير . كنت وأنا استعرضها فى ذهنى أتخيل معركة طاحنة ترخص فيها الارواح كما لم ترخص من قبل أبدا . ولا عجب فأحد طرفيها طفل ساذج ينظر الى الدنيا فى براءة سمحة ، لا يبغى ضرا لاحد ، ولا يتوقع اعتداء من أحد .. والطرف الآخر عدو عاصف خاطف يتسلل فى سرية غامضة من عدو غافل أعزل ، فيذيقه ألوان العذاب ، وقد يلقى به الى تهلكة محققة يتقبلها المسكين فى شجاعة البرىء الساذج الذى تغدر به الدنيا أول مرة ، بعد أن لم يكن قد لقى منها من قبل غير حب الوالدين وحنان الزمان وعطفه

اذا تصورنا أن اسهال الصيف يقضى فى مصر على أكثر من ثلث الاطفال الرضع (أى الذين لم يبلغوا السنة الاولى من عمرهم) ، وأنه يسبب فى كل سنة وفاة نحو تسعين ألف طفل تتراوح أعمارهم ما بين الولادة والخمس سنوات . وان هذا الرقم هو فى الواقع نحو نصف وفيات الاطفال أو ربع الوفيات عامة كبارا وصغارا

اذا تصورنا كل هذا أدركنا كيف يعصف اسهال الصيف بأرواح الاطفال ، وعجبنا كيف يعجز الطب الوقائى والعلاجى الحديث عن صيانة أبرأ مخلوقات الله تعالى من مرض خبيث كهذا

ويختلف هذا المرض فى شدته . فهو أحيانا لا يتعدى وعكة طارئة ، تكثر فيها عدد مرات التبرز وترتفع الحرارة قليلا ويقل نشاط الطفل عن مستواه العادى وتنتفخ بطنه ، وقد يتقيأ بكثرة ، وتنتابه آلام بطنية تجعله يصرخ بشدة ، ثم لا تلبث العاصفة أن تهدأ ، وتزول الاعراض فى ساعات أو أيام . ولكن يحدث أحيانا فى الحالات التى تنتهى بسلام أن يتراخى الوالدان فى نظام غذاء الطفل ، فتنتكس حالته فجأة أشد بكثير مما كانت فى بادىء الامر ، وتنهار مقاومة المريض بسرعة ، فيقضى فى يوم أو بعض اليوم بعد كفاح مرير قصير يقاسى فيه هو ومن حوله آلاما جسمية ونفسية هائلة ، سيأتى وصفها فيما بعد

أما الحالات الشديدة فقد تبدو فى بادىء الامر بسيطة ثم تتطور فجأة ، أو قد تبدأ عاصفة كاسحة تنقض على الطفل فى ساعات أو أيام قلائل . وكثيرا ما سمعنا عن اطفال كانوا يلهون ويمرحون فى الصباح ، فاذا بهم فى المساء على حافة القبر يعانون السكرات نتيجة اسهال فجائى حاد . وأول ما يلاحظ فى مثل هذه الحالات قىء مستعص يعاود الطفل كلما تناول أى سائل أو غذاء . وتكثر عدد مرات التبرز ويتغير لون البراز

وروائحه . ولكن حذار من الاعتماد كلية على شكل البراز . فقد يحدث فى الحالات السيئة أن يتبرز الطفل مرتين أو ثلاثا ، وقد لا تدل رائحة البراز على وجود عفونة أو تخمر ، بينما ينحدر الطفل سريعا نحو الهاوية قبل أن يشخص الداء على حقيقته ، فيضيع الطفل نتيجة تردد لا مبرر له ، فان لهذا المرض علامات فى بقية أجزاء الجسم ان خفيت على الشخص العادى لا تخفى على الطبيب . والويل للطفل اذا هادن طبيبه المرض ولو ساعات . فان بقية الاعراض تأخذ فى الظهور سريعا ، فينقص وزنه بدرجة لا مثيل لها فى أى مرض آخر من أمراض الطفولة ، وتغور عيناه وتجف شفتاه وينكمش جلده وتزيد سرعة تنفسه ، ويطول به النزع ساعات أو أياما ترتفع فى أثنائها حرارته ارتفاعا كبيرا ، وتظهر على وجهه كل معانى الألم ، فيحدق بعينيه فيمن حوله مستجدا . وقد تنتابه تشنجات تنذر بخطر مبين يعقبها سبات عميق ينتهى عادة بالموت

ترى ما سر هذا العدو الأكبر الذى ينال من الطفل بمثل هذه السهولة ؟ نحن الاطباء نقر ونعترف أن اسهال الأطفال لا يزال لغزا غامضا لم نتوصل بعد الى استكشاف جرثومته واستئصال شأفتها . وهو من الامراض التى تنطبق عليها قاعدة (الوقاية خير من العلاج) ولا بأس من سرد بعض طرق الوقاية التى يفيد اتباعها فى تجنيب الطفل ويلات هو فى غنى عنها . فالمعروف أن الاسهال يكثر فى الاطفال الذين يتغذون تغذية صناعية ، فعلينا أن نشجع الام بقدر الامكان على ارضاع طفلها أو تحضر له مرضعا اذا استحال على الام الاستمرار فى ارضاعه ، وخاصة اذا كان الجو حارا لانه يحسن تجنب الالبان العادية فى فصل الصيف ، اذ يكثر تلوثها بالميكروبات . واذا لم يكن هناك مفر من الالتجاء الى لبن خارجى فتفضل ألبان العلب لخلوها من الميكروبات وسرعة هضمها . كما تجب العناية بغلى أدوات الرضاعة من زجاجات وحلمات . ويجب أن يرضع الطفل بانتظام كل ثلاث ساعات . ولمكافحة الذباب أهمية خاصة فى هذا المرض ، فيجب وضع الغذاء والادوات المستعملة فى تحضيره فى أماكن لا يصل اليها الذباب

ومن أهم طرق الوقاية تجنب فطام الطفل فى فصل الصيف مهما كان عمره ، والعناية بعلاج الاسهال مهما كان بسيطا ، فان الحالات البسيطة قد تصبح شديدة اذا أهمل علاجها . وبهذه المناسبة يجب أن أقف موقف الدفاع عن متهم طالما ألصقت به تهم كثيرة وخطيرة ، وأعنى به التسنين ، فكثيرا ما تأتى الامهات بأطفالهن وهم فى النزع ، معتقدات أن ما به ناتج عن بروز سن تصادف حدوثه قبيل أو أثناء اصابة الطفل بالمرض ، فتتراخى الام فى علاج طفلها اعتمادا على ان ما به عارض لا يلبث أن يزول . فاذا اشتدت حالته حملته الى الطبيب حين لا ينفع الدواء . فيجب أن أكرر هنا مشددا أن معظم الاطفال الاصحاء تظهر أسنانهم دون أن يصيبهم مرض ما ، ولا يصح أن تنسب الاعراض الشديدة الى مجرد التسنين ، بل يجب معالجتها كأمراض قائمة بذاتها لا علاقة لها بأسنان تصادف بروزها مع ظهور أعراض المرض

ويجدر بى أن أذكر أن الاسهال والحر ضدان لا يجتمعان . فكثيرا ما لاحظت أن الام تعمد الى الاكثار من ملابس الطفل الداخلية والخارجية ، ظنا منها أن فى زيادة تدفئته فائدة تعود عليه .. والواقع غير ذلك فان الرأى الحديث يميل الى تخفيف ملابس الطفل ووضعه فى أرطب غرفة بالمنزل ، بل وأكثر من ذلك الى تسليط مروحة كهربائية على لوح من الثلج فى غرفة المريض ، لان ذوبان الثلج وتشبع جو الغرفة بالرطوبة يقلل من فقدان الماء من جسم الطفل عن طريق جلده ، والطفل يفقد الماء الكثير فى برازه المتكرر، فاذا قللنا ما يفقده عن طريق العرق والتبخر من سطح الجسم ، وفر ذلك عليه متاعب جمة لان ظاهرة (الجفاف) التى تنتج عن الاسهال الشديد ، والتى يموت الطفل بسببها ، تقل كثيرا اذا وفرنا ما يفقده عن طريق جلده . ومن أحدث طرق العلاج وضع الطفل فى غرفة خاصة مجهزة بوسائل التكييف الهوائى الكهربائى ، فيتمتع بجو بارد فى أشهر الصيف الحارة ، وكم أنقذت هذه الغرف من أرواح . وقد أنشئت غرفة من هذا النوع بمستشفى فؤاد الاول للاطفال بالقاهرة ، ونجح العلاج بوساطتها فى شفاء حالات كثيرة كانت فى درجة اليأس

ولا بأس من ذكر بعض قواعد عامة لعلاج اسهال الصيف . فأول شىء يجب عمله هو أن نمنع الطفل من تناول أى غذاء ، سواء كان ذلك لبن أمه أو لبنا خارجيا ، ويعطى بدل ذلك منقوع الياسون أو الكراوية أو ماء الارز لمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة وأربع وعشرين ساعة ، وذلك الى أن يفحصه الطبيب . ويجب أن يكون ذلك فى أقرب فرصة ، لانه اذا لم يتمتع الطفل من أول الامر باشراف طبى دقيق ، قد تتطور الحالة الى الدور الاسوأ الذى سبق الاسهاب فى وصفه . وتتدرج بعد ذلك فى غذاء الطفل ، فاذا كان يرضع من ثدى والدته ، نسمح له أن يرضع لمدة ثلاث دقائق ، ونزاد المدة بمتوسط دقيقتين كل يوم حتى نصل به الى المدة القانونية ، وهى من خمس عشرة دقيقة الى عشرين . أما فى حالة الاطفال الذين يتغذون تغذية صناعية ، فاننا نبدأ بالالبان الزلالية ، ثم نتدرج الى الالبان المنزوع نصف قشدتها ، وأخيرا الى الالبان الكاملة القشدة . ويكفى هذا النظام الغذائى عادة فى حالات الاسهال البسيط غير المصحوب بأعراض تسمم عامة . ولا مانع من اعطاء الطفل مطهرا لطيفا مثل « اللاكتوزان » سواء السائل منه أو المجفف . واذا أصيب الطفل بمغص تدفأ بطنه بقربة ساخنة ويعطى قليلا من ماء النعناع أو الزهر . أما الحالات الشديدة فان الطبيب ينظر اليها كأنه مقدم على معركة ضد الموت بعينه ، وهى تتطلب منه مجهودا جبارا . ومن أهم الصعوبات التى تواجهه مشكلة التغذية ، فالطفل فى هذه الحالة يتقيأ كل ما يعطى له سواء لبن الثدى أو غيره . وقد يساعد على الاقلال من القىء عصر لبن الثدى فى زجاجة نظيفة ووضعها على الثلج حتى تبرد محتوياتها ، ثم يعطى الطفل بالملعقة مقادير صغيرة ، كملء ملعقة أو ملعقتين كل ساعة مثلا ، فاذا نجحنا فى تغذية الطفل ساعده ذلك على اجتياز المرحلة الخطرة . ويجب

فى مثل هذه الحالات الشديدة ان نعمل المستحيل للحصول على لبن آدمى أو لبن حمارة ، اذ المعلوم أن لبن الحمارة هو أقرب الالبان من حيث التركيب الى اللبن الآدمى . كما يجب فى نفس الوقت أن نحقن الطفل بالجلوكوز ومحلول الملح ، لتعوض عليه ما يفقده من السوائل والأملاح المعدنية فى القىء والبراز . ولمقاومة هبوط الدورة الدموية بحقن المريض بالكافور أو الكورامين

وقد ابتدعت أخيرا وسيلة لحقن السوائل فى الوريد بطريقة بطيئة ، فينساب السائل نقطة بعد نقطة بوساطة جهاز خاص ليلا ونهارا لبضعة أيام متتالية ، وذلك حتى تتحسن الحالة . وقد ساعدت هذه الطريقة على انقاذ حالات كثيرة . وهكذا يشمر الطب الحديث عن ساعده ، محاولا قهر هذا العدو الاكبر ، فعساه أن يفلح

مصطفى الديوانى

الدكتور ابراهيم

[بقية المنشور على صفحة ٤٨٨]

فى الريف الانجليزى . وكنتيجة لاسرافه فى العمل وعدم ملاءمة الجو لصحته أصيب بالدرن ، فاستصوب العودة الى مصر ، وفى طريقه الى وطنه هبط باريس ، وخطر له ذات مساء أن يروح عن نفسه فيرتاد أحد الملاهى ، وهناك شاهد عزيزة ، حبيبة الصبا وهى تعتلى المسرح ، تهز أردافها وترقص رقصة البطن !

كانت ذكرى عزيزة كالزهرة النضيرة التى توضع بين صفحات كتاب مجهول ثم يعثر عليها صاحبها مصادفة بعد حين ، فاذا بها مهشمة ، ذابلة ، ولكنها على كل حال لا تزال تحتفظ بأريجها القديم . ولمحته فى زاوية من زوايا المرقص فأتت اليه شاكية شاهقة بدموعها ، واقتادته الى ركن قصى وقالت له :

ــ لم أكن أود أن يقع نظرك على فى تلك البؤرة بين عشرات الغانيات !

وغفر لها ابراهيم بقلبه الطيب ما تقدم من ذنبها وما تأخر ، وطلب اليها أن تعود برفقته الى مصر ، فرفضت أن تستصحبه فى ثياب المستهترة الخليعة . وانه لفى ذات يوم يرقب مقدمها فى غرفته بالفندق وقد كاد اليأس يستولى عليه ، فجعل يروح ويغدو فى الغرفة كحيوان جريح داخل قفصه ويرصد الساعات ويتعجل الوقت ويخاطب أفكاره ويهذى كالمحموم ، واذا بالباب يطرق ، فوجم وتولته رعدة خفيفة ، ثم دلفت عزيزة وقد ارتدت ثياب الممرضات ، ثم تقدمت منه وعقدت ذراعيها حول عنقه فى صمت تتخلله التنهدات الحارة ، وراحت تستفسر عينيه عن سر حبه العميق وعما بقى منه . ولما أزفت ساعة الرحيل رضخت لارادته ، وعادت الى مصر برفقته ليموت بين ذراعيها فى أرض الوطن

محمد أمين حسونة

حديث صحفي

برنارد شو يتحدث عما بعد الحرب

ما من رجل له من الحق فى أن ينظر فى مستقبل العالم ويكشف عن صوره وأوضاعه أكثر مما لجورج برنارد شو . فقد دلت كتاباته السابقة أنه كان على حق فى كثير من تنبؤاته وتوقعاته ، مما يحملنى على أن أراه أصح المفكرين المعاصرين رأيا فيما ينتظر أن تتجه اليه الحضارة الانسانية

وقد كانت فرصة طيبة سنحت لى دون تدبير ، فظفرت فيها من الكاتب الاكبر بمقابلة باشة رقيقة وحديث طلق صريح . ولعله لم يأذن لى بهذه المقابلة ـ وهو الضنين على الصحفيين بمقابلاته وأحاديثه ـ الا لانى صحفى أجنبى وفدت الى انجلترا من المكسيك . وقد لقيته أول ما لقيته وهو يسير فى أحد شوارع لندن ، فى تلك الهيئة وتلك المشية التى تجعله متجه أنظار الناس جميعا ، فتقدمت اليه بما هو معهود فى الصحفى من الجرأة حين يرى أمام عينيه فرصة من أثمن فرص العمل الصحفى ، فقلت :

ـ مستر برنارد شو ، فيما أعتقد ؟

فنظر الى بعينيه الزرقاوين النافذتين ، وبدأ يبتسم ابتسامة هادئة فى بطء وأناة ، وقال : يظهر أنى كذلك !

وشعرت أنى كسبت الجولة الاولى فى معركة الحديث الصحفى ، وسرت الى جواره محاولا أن أحسن الكلام ما استطعت بتلك اللهجة الانجليزية التى أسيء نطقها . وقد اعتذرت له عن « انجليزيتى الرديئة » ، فابتسم وقال متعجبا :

ـ انجليزيتك الرديئة ! انها رديئة حقا .. ولكنها ـ على أية حال ـ خير وأصح من تلك التى يتكلمها بعض الانجليز المثقفين (1)

وقد شجعنى هذا على أن اسأله رأيه فى الحرب ، فقال :

ـ أتظن أن مشاكل عالم يخوض بحارا من الدماء وأجواء من النيران يمكن أن تبحث فى كلمات قليلة يهذر بها وسط الطريق ؟ هاك عنوانى . وتعال غدا لنتحدث معا ، ولعلى أستطيع أن أجيب عن كل سؤال من أسئلتك فى عشر كلمات أضمنها خلاصة رأيى

وكان مستر شو سمحا كريما ، فاستقبلنى فى صباح اليوم التالى ، وأخذ كل منا يتحدث

---

(1) يرى برنارد شو أن الانجليز لم يتعلموا حتى الآن طريقة نطق اللغة الانجليزية نطقا صحيحا ويقول فى مقدمة قصته «بيجماليون» انه ما من انجليزى يفتح فمه بكلمة انجليزية الا ويجد انجليزيا آخر يضحك ساخرا من نطقه ولهجته، لان الانجليز لم يتفقوا بعد على طريقة التكلم بلغتهم (الهلال)

بانجليزيته الخاصة به : أنا بانجليزيتى الرديئة ، وهو بانجليزيته الجزلة ، اللبقة ، البارعة

وتقابلنا ثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، وأجاب عن اسئلتى لا فى عشر كلمات ، بل فى مئات من الكلمات كتبها بنفسه فبدت لى كرموز من رموز اللغات الميتة البائدة التى لا يفهمها الا علماء الآثار . ولكنه قال لى : ان هذه هى طريقته فى الاختزال . ثم كتب هذه الكلمات بيديه على الآلة الكاتبة ، وصحح ما كتب ونقحه كثيرا

وبعد ذلك أخذنا نتحدث ، وأشهد أنى لم أفهم من الكلمات الالف التى نطقها أكثر من مائة وبعض مائة من الكلمات .. وبعد أن انتهينا من الحديث ، خضع فى صبر كصبر القديسين لعملية التصوير ، فالتقطت له بضع صور تمثله فى مكتبه ، وأمام آلته الكاتبة ، ومع سكرتيرته العانس ..

سألت مستر شو :

– هل ترى بعد أن تنتهى هذه الحرب أننا سنقول ان كل ما أريق فيها من الدماء الطامية ، وكل ما أدت اليه من الدمار المروع ، يوازى ما اسفرت عنه من نتائج وخيرات ؟

فقال الحكيم :

« الى أن تخرج الحرب نتائجها النهائية ، وتبين هذه النتائج فى وضوح وجلاء ، لن يستطيع أى انسان أن يقول ما اذا كانت هذه الحرب تستحق ما أريق فيها من دماء وما وقع من خراب . ولكن يجب أن نذكر دائما أن الحروب جميعا هى مضيعة وخسارة ، وهى قسوة ووحشية ، وهى تقويض وتدمير ، وهى افساد لكل خلق انسانى وتحطيم لكل فضيلة انسانية . وهى بعد ذلك ليست دائما من الامور المحتومة التى لا مفر منها ، بل فى وسع العقل الانسانى الراجح أن يتفاداها ويتجنبها

« ومع كل هذه السيئات والشرور فانا لا أنكر أن الحرب تؤدى الى تغييرات اجتماعية خطيرة لا سبيل اليها الا تحت ضغط الحرب القاهر العنيف . فالحرب الماضية قضت على أربع امبراطوريات كان المحتمل أن تعيش أربعة قرون أخرى ، لو أن السلم استمر طوال هذه القرون . أما هل كان القضاء على هذه الامبراطوريات يستحق ما سفح من دماء الملايين وما انتشر فى الآفاق من أشباح الخراب ، فهذا يتوقف على مدى نجاح الجمهوريات الجديدة التى خلفت تلك الامبراطوريات القديمة فى تحسين أمور شعوبها والارتقاء بها الى مستوى أطيب وأعلى من مستواها الماضى

« على انى ما زلت أرى أنه حتى ولو نجحت هذه الجمهوريات التى أوجدتها الحرب فى اصلاح أمر شعوبها ، فان احداث هذا الاصلاح بطريق السلم لا بطريق الحرب ، وبوسائل الحسنى لا وسائل العنف ، أقرب الى العقل والحكمة ، وأدنى الى الخير والفائدة »

سألت الحكيم بعد ذلك أيرى ما يراه بعض الناس ، من أن الصراع لن ينتهي الا وفى أعقابه ثورة اجتماعية كاملة تقلب الأوضاع القائمة وتنشيء عالما جديدا ؟

فأجابني : « ليس هذا أمرا محتوما . فاذا تبصرت الطبقات الحاكمة والممتازة في الأمر رويا ، وأفسحت الطريق للطبقات المحكومة المحرومة لتنال بعضا من الحقوق والامتيازات، ومنحتها تعويضا مقبولا عما تستمتع به من الامتيازات والسلطات ، فلن يكون ثمة اضطراب كبير يمكن أن تطلق عليه كلمة الثورة؛

« أما اذا أصرت تلك الطبقات الممتازة على أن تحتكر لنفسها كل حق وكل امتياز ، فان نظرية كارل ماركس في صراع الطبقات لا بد أن تدخل في حيز التنفيذ ، ولا بد من أن تقوم حروب أهلية كتلك الحرب التي قامت في أسبانيا منذ سنوات ، والتي لم تكن في جوهرها الا صراعا بين الطبقة الحاكمة الغنية والطبقة المحكومة المحرومة »

وكان السؤال الذي يتبع سؤالي السابق في الترتيب المنطقي هو : « هل تظن أن الشيوعية هي الباب الوحيد الذي تستطيع الانسانية أن تفتحه لتنفذ منه الى حقوقها ؟

فقال : « الشيوعية ذاتها ليست بابا واحدا . انها مائة باب »

وبدأ يتكلم في نغمة الرجل المؤمن ايمانا عميقا بما يقول : « وهذه الأبواب ليست موصدة كلها ولا مفتوحة كلها . فقد فتحنا كثيرا منها في بلادنا هذه ، فنحن نسير على نظام شيوعي في كثير من مرافق حياتنا الاقتصادية . فطرقنا ، وقناطرنا ، ونظام اضاءة الشوارع، وامداد المنازل بالمياه ، ونظام الشرطة ، والجيش والبحرية والطيران ـ كل هذه النواحي تقوم في بلادنا على أساس الشيوعية ـ أعني امتلاك الدولة لها واشرافها على أعمالها . ويمكن الانتقال بهذا النظام من مرفق الى مرفق دون أن نفرض الشيوعية عليها جميعا بضربة واحدة مفاجئة

« والشيوعية هي السياسة الرسمية للاتحاد السوفيتي ، ومع ذلك فان في روسيا اليوم ملكية خاصة ومنشآت شخصية أكثر مما كان فيها في عهد القيصرية ! فليست العبرة بالاسم الذي نطلقه على أنظمتنا ، بل بالروح التي تطبق بها هذه الأنظمة »

(خلاصة مقال للصحفي المكسيكي اوكتافيو لوفارو في صحبة بكتشر بوست)

■ بين المواطنين عادة ثلاث طبقات ، طبقة الأغنياء الذين يملكون الكثير ولكنهم يرغبون دواما في المزيد ، وطبقة الفقراء الذين لا يملكون شيئا ولذلك يأكل قلوبهم الحسد والبغض للأثرياء ، وبين هاتين الطبقتين فريق ثالث يحفظ التوازن ، تدين له الدول بسلامتها وصيانة الأمن فيها

يوريبيدس

في التشريع المالى الحديث

ضريبة الارباح التجارية والصناعية

بقلم الدكتور يوسف قابيل

يتلخص الهدف الرئيسي لكل تشريع مالى حديث فى العمل على زيادة موارد الدولة – فى حدود الميسور – تمشيا مع تطور مطالب الحضارة فيها الى جانب تبسيط اجراءات تحصيل أموال هذه الموارد

والموارد المالية فى الدولة المصرية متعددة متشعبة ، الا اننا سنقصر بحثنا اليوم على « ضريبة الارباح التجارية والصناعية » على اعتبار أنها أهم مورد للضريبة فى مصر ، بما لا يقاس فى شيء بالموارد الضرائبية الاخرى ، كضرائب المهن الحرة والقيم المنقولة وكسب العمل

يقضى التشريع المالى المعمول به فى مصر الآن بأن تجبى ضريبة الارباح التجارية والصناعية على أساس « صافى الربح » . وقد أثبتت التجربة العملية أن مراجعة حساب الربح الصافى لكافة الممولين فى مصر – مراجعة دقيقة – تتعذر وسائلها فى الوقت الحاضر . وانه ليس من الميسور أيضا العمل على توافر هذه الوسائل كاملة فى مستقبل قريب ، ما دامت هذه المراجعة وما يتصل بها من فروع متشعبة تستلزم توفر عدد من الموظفين الفنيين يبلغ أضعاف العدد المتيسر الآن ، الشيء الذى يصعب تداركه فى الوقت الراهن على الوجه الاكمل . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الوضع غير العادى ، أن اضطر موظفو مصلحة الضرائب الى تخفيف هذا العبء عن كاهلهم ، باللجوء إلى وسيلة « التقدير » الذى يغلب ما يكون مقرونا بغبن لاحد الطرفين : الممول أو مالية الدولة

وقد اتضح أيضا أن أكبر الصعوبات التى تعترض سرعة انجاز الاعمال وتوخى دقتها، تتركز فى مشقة استخلاص « صافى الربح » الذى يتطلب : مراجعة حساب الاستهلاكات بنسبها المتباينة ، والاحتياطى على مختلف أنواعه – ما يعترف به منه وما لا يعترف – ثم المصروفات العامة على اختلاف شعبها والتى كثيرا ما يلجأ الممولون الى اصطناع رفع مستواها وتضخيمها بغير حق ، محاولين بذلك الاقلال من قيمة « الربح الصافى » الذى تحسب الضريبة على أساسه ، أى أن الضريبة تأتى فى المرتبة الاخيرة بعد خصم جميع الاستقطاعات والمصروفات التى أشرنا اليها

والضريبة لا تخرج فى تكييفها القانونى اجمالا عن نظريات ثلاث :
١ ـ أنها تجبى مقابل تأمين الدولة لاموال الافراد وأرواحهم ـ أو
٢ ـ أنها تعتبر ثمنا لقيام الدولة بالخدمات التى تؤديها بصفة عامة للافراد وليس للتأمين فقط ـ أو
٣ ـ أنها تجبى لحاجة الدولة الضرورية اليها تمكينا لها من القيام بأعباء الدولة العامة ـ أى أن الضريبة ضرورة حتمية لحفظ كيان الدولة الاجتماعى

فسواء أخذنا بوجهة النظر الاولى « التأمين » أو الثانية « مقابل الخدمات العامة » أو الثالثة « ان الضريبة ضرورة حتمية لحفظ كيان الدولة الاجتماعى » نجد أن الضريبة لا تخرج عن كونها تقديم مال نقدى يلزم الافراد بأدائه لتغطية مصروفات الدولة التى تنفق فى الصالح العام ولا غنى للدولة عنها . ولا يجوز بذلك أن تفضل عليها أية نفقات أخرى للممولين ، ووجب أن توضع الضريبة بهذا فى المكان الاول عند الموازنة بينها وبين نفقات الممولين الأخرى

يأتى بعد ذلك أن ايراد الضرائب أصبح يكون الآن جزءا هاما من ميزانية الدولة ، وستزداد هذه الاهمية على التوالى تمشيا مع مبدأ كفاية النفس بالنفس « Autarkie » الذى تنشده معظم الدول فى سياستها الاقتصادية العليا فى العصر الحاضر ، والذى يتلخص فى الاستغناء قدر الطاقة عن استيراد المنتجات الاجنبية والاستعاضة عنها بالمنتجات المحلية ـ الشىء الذى سيكون من نتائجه الحتمية نقص ايراد الجمارك على التدريج ، وزيادة الاهتمام بايراد الضرائب فى الجانب الآخر ، مما يؤيد وجوب تفضيل الضريبة ـ على اعتبار أنها حجر الزاوية فى ميزانية الدولة ـ على كل نفقات أخرى للممولين كما أشرنا

وما دمنا فى صدد الميزانية ، نقول ان حساب « ضريبة الارباح التجارية والصناعية فى وضعه الراهن ـ أى على أساس « صافى الربح » لا يساعد مطلقا ـ عند وضع مشروع الميزانية ـ على دقة تحديد حصيلة ضريبة هذه الارباح حتى بما يقرب من حقيقتها ـ وذلك تبعا لتعرض « صافى الربح » لاشد الذبذبات صعودا وهبوطا تمشيا مع درجة نشاط ادارة المنشآت وبراعتها فى تدبير شؤونها المالية ، وتجنبها قدر الطاقة للمغامرات والمضاربات التى لا تبغى لمنشآت تقدر واجبها نحو الاقتصاد القومى حق قدره . اذ بينما نجد أن منشأة بعينها حققت ربحا صافيا قدره خمسة آلاف جنيه مثلا فى عام ١٩٤٠ ، نشاهد أن هذه المنشأة نفسها حققت خسارة قدرها ألف جنيه مثلا فى عام ١٩٤١ ـ أى بفارق قدره ستة آلاف جنيه بين عام وآخر . وهو تفاوت عنيف يدعو تكراره وتفشيه بين مختلف المنشآت الى زعزعة أركان ميزانية الدولة ، ويرجع معظم السبب فيه الى تهاون صاحب المنشأة فى حسن توجيه المصروفات العامة ، أو لنجاحه فى تضليل المصلحة فى اصطناع رفع مستوى هذه المصروفات وما فى حكمها من الاستقطاعات التى تخصم من مجمل الربح لاستخلاص صافيه ـ هذا من جهة

ومن جهة أخرى نجد أن فى قصر ضريبة الارباح التجارية على صافى الربح شبه معاقبة للممولين المجتهدين الشرفاء الذين يحققون أرباحا صافية حسنة ، تشاركهم فيها الدولة عن طريق فرض الضريبة عليهم – على حين نجد أن طائفة الممولين غير النشطين وغير المتحلين بأخلاق تجارية حسنة ، والذين لا يحققون أرباحا صافية تبعا لتقصيرهم فى ادارة أعمالهم على الوجه السليم .. يكافأون على ذلك بألا يؤدوا ضريبة الى الدولة التى يتمتعون بكل خدماتها العامة كل التمتع – وتكون النتيجة العملية لهذا الوضع الشاذ أن ينوء الممولون النشطون الشرفاء بعبء الضريبة وحدهم ، على حين يعفى المقصرون أو المضللون من أدائها ! وهو غبن واضح يتنافى مع مبدأ عدالة توزيع الضريبة الذى يتوخاه كل تشريع مالى حديث

ومن هنا تتضح الخسارة المالية والادبية التى تلحق مالية الدولة المصرية من جراء جباية ضريبة الارباح التجارية والصناعية فيها على أساس الربح الصافى للممول ، أى الفائض من مجمل ربحه بعد خصم جميع المصروفات التى لا تدانى فى القياس الصحيح حاجة الدولة لحفظ كيانها الاجتماعى ، وعلى الاخص وأنه لا بقاء لمنشأة من المنشآت بغير حماية الدولة لها

ازاء ذلك .. نعتقد أن الطريقة المثلى لتوقى هذه الاضرار ، هى وضع ضريبة الارباح التجارية والصناعية فى مكانتها الطبيعية الممتازة ، وتقديمها على كل ما عداها من الاستقطاعات والمصروفات ، وحسابها تبعا لذلك على أساس : « مجمل الربح » وليس على أساس صافيه للاسباب التى حاولنا ايضاحها – وتدخل الضريبة بذلك ضمن المصروفات التحميلية للمنشأة

هذا الى ما فى الاخذ بمقترح حساب الضريبة المذكورة على أساس « مجمل الربح » من تنظيم العمل المستعصى الذى يثقل كاهل مصلحة الضرائب تبعا لقلة عدد الموظفين الفنيين بالقياس الى كثرة العمل المسند اليهم . الشىء الذى ربما ترتب عليه ضياع جزء لا يستهان به من أموال الدولة ، بحكم مضى المدة القانونية على تحصيلها ، وسقوط حق الدولة فى ذلك التحصيل ، فضلا عن صعوبة توخى الدقة ازاء كثرة العمل

على حين أن عملية « مجمل الربح » سوف لا تحتاج الا الى مراجعة حساب رئيسى واحد ، هو « حساب المتاجرة » الذى يشمل فى جوهره أربعة أرقام رئيسية فقط هى :

١ – حساب بضاعة أول المدة ٢ – المشتريات
٣ – حساب بضاعة آخر المدة ٤ – المبيعات

هذا الى جانب مراجعة يسيرة لبعض أبواب الميزانية العمومية للتثبت من مدى صحة بضاعة آخر المدة وأولها فى السنوات المتعاقبة

وهاتان العمليتان هما من البساطة بحيث يستطيع موظف المصلحة الفنى أن يراجع بضعة حسابات منها فى وقت تستغرقه مراجعة حساب واحد موضوع على أساس صافى الربح . وذلك فضلا عن توفر الدقة التى يسهل توخيها عند تبسيط الاجراءات التى ترمى الى تحقيقها ، حتى تصل مصلحة الضرائب بذلك الى تحقيق غرضين هامين لا غنى

لها عنهما ، وهما :

١ ـ انجاز مراجعة جميع الحسابات فى أوقاتها بالدقة اللازمة

٢ ـ ضمان تحصيل أموال الضرائب كاملة دون غبن للدولة أو الممول

وبهذه المناسبة نشير الى أن الدول ذات التشريع المالى الحديث تتوخى دواما اختيار الموارد المالية العامة ذات الايراد الثابت قدر المستطاع ، تجنبا لكل ذبذبة يكون من شأنها زعزعة أركان ميزانيتها ، فلا تقتصر هذه الدول على اتخاذ ربح المنشأة وحده أساسا لتحديد الضريبة ، بل تتناول أيضا رأسمال المنشأة عند تحديد ذلك الأساس ، وذلك لاعتبارها ضريبة الارباح التجارية والصناعية : ضريبة عينية Real Tax لا يجوز أن تتأثر حصيلتها كثيرا بنشاط دافعها ، بل يجب أن تعتمد فى نفس الوقت على مورد ثابت هو « رأس المال » توخيا لثبات عناصر ميزانية الدولة قدر الطاقة كما أسلفنا . وذلك فضلا عن أن الضريبة على رأس المال هذه محفزة للنشاط الاقتصادى

ولا يعزب عن البال أن ضريبة رأس المال هذه التى تجبيها الدول الآنفة الذكر ، هى ذات « سعر » طفيف جدا يؤدى من رأس المال المتداول ، ولا يتجاوز اثنين فى الالف من قيمته . فأصبحت هذه الضريبة بذلك « مصروفا اضافيا » من مصروفات المنشأة، لا يمس رأسمالها الثابت ولا يثقل كاهل الممول

ومن هنا يتضح أن الاخذ بضريبة رأس المال الطفيفة هذه فى مصر ، سيساعد كثيرا على تحقيق تثبيت موارد ميزانية الدولة من جهة ، ثم على زيادة الايراد العام من جهة أخرى

وبمناسبة الكلام على زيادة الايراد العام ، نجد أن الدول الحديثة التشريع المالى التى أشرنا اليها ، قد فرضت أيضا ضريبة على « رقم المبيعات » Chiffre d'affaires حدد مداها فى كثير من هذه الدول بسعر ٢ ./. من مجموع المبيعات التى تحققها المنشآت التجارية والصناعية فيها ـ ومعلوم أنها ضريبة سهلة الجباية والمراجعة ، لا تكلف مصالح الضرائب أى مجهود اضافى يذكر ، وسرعان ما يألفها الجمهور ولا يتذمر منها

واذا راعينا أن دورة رأس المال عند تحقيق المبيعات فى جميع المنشآت المذكورة تتراوح بين دورتين وست دورات على الاقل فى السنة تبعا لطبيعة السلع المعروضة ، أى بمتوسط قدره أربع دورات رأسمالية فى السنة الواحدة ، لاتضحت لنا الفائدة المالية المثلى التى ستعود على مالية الدولة المصرية اذا أخذت هى الاخرى ـ أسوة بغيرها من الدول ـ بضريبة « رقم المبيعات » أيضا . وعلى الاخص وأن مصر أحوج ما تكون الآن الى مثل هذه الموارد الاضافية السهلة الاداء ، السهلة الجباية ، استعدادا لمواجهة أعباء الاصلاح الضخمة التى لا معدى عنها فى جميع مناحى الحياة المصرية العامة على أثر انتهاء الحرب العالمية وما يتلوها من سنين

يوسف قابيل

حقائق عن مرض الربو

لم يكتشف بعد دواء ناجع لمرض الربو الذى يعانيه ملايين الناس فى أنحاء العالم . غير أن البحوث العلمية الحديثة قد بددت كثيرا من الغموض الذى ظل يحيط بهذا المرض الوبيل . وقد أدت هذه البحوث الى جلاء الحقائق الثلاث الآتية :

أولا ـ ان مرض الربو هو من الامراض الوراثية والاكتسابية فى آن واحد

ثانيا ـ ان العامل الرئيسى فى حياة المريض بالربو هو والداه وما يتعهدانه به من طرق التربية

ثالثا ـ قد يمكن شفاء الطفل المصاب بالربو اذا لم يبلغ الثامنة من عمره بعد . أما بعد هذه السن فعلاجه عسير . أما المرضى الكبار الذين أزمن معهم المرض فليس لهم علاج قاطع

ويتوقف ازمان المرض مع الطفل أو شفاؤه منه على الطريقة التى تكون بها شخصيته، ومن ثم وجب على الآباء والامهات أن يرقبوا أطفالهم المرضى بالربو ، وألا يساعدوا عوامل الضعف النفسانى التى تزيد من ذلك المرض ثباتا وشدة

وقبل أن ندل الوالدين على الطريقة التى ينشئان عليها طفلهما المريض نذكر نبذة عن المرض ذاته

ان أهم أعراض الربو هو انقباض الشعبتين وانتفاخ الرئتين حتى اذا أحس المريض بدء النوبة شعر بصعوبة فى الشهيق (اخراج النفس) . وبذا يختلف الربو عن جميع الأمراض الصدرية الاخرى التى يشعر معها المريض بصعوبة فى الزفير (ادخال النفس) وتنشأ تلك الحالة عند مرضى الربو من خلل فى الشعبتين ، وكثيرا ما يكون هذا الخلل وراثيا ، بل لا يبعد أن يكون وراثيا فى جميع الاحوال ، وان خلا منه جيل أو جيلان فى الأسرة

وقد لحظ الاخصائيون الذين درسوا أعراض الربو عند عدد كبير من الاطفال أنه يجتمع دائما مع حساسية فائقة فى البشرة . وراع أحد كبار الاطباء فى مستشفى بلندن أن كثيرا من مرضى الربو الذين يجيئون اليه عولجوا مدة قبل ذلك من مرض الاكزيما الجلدى !

وهناك علامة أخرى قد تفيد الطبيب فى اكتشاف ربو كامن بالطفل ، وهى استهدافه للاصابة بالبرد أو بالنزلات الشعبية بسهولة

ولحظ أطباء آخرون أن الربو يجتمع عند الطفل عادة مع مزاج عصبى حساس ، فهو أسرع تأثرا من لداته الاطفال

ونهمنا هذه الظاهرة الأخيرة بنوع خاص لانها تدلنا على أثر العامل النفسانى فى تربية الطفل المريض بالربو . فأنت اذا أحدثت توترا عصبيا لدى طفل ذى استعداد للربو ، فانه لا يلبث أن تأتيه نوبة لهذا المرض

ولهذا السبب عينه ترى الطفل المصاب بالربو كثيرا ما تسوء حاله وتكثر نوبات المرض عنده اذا حال الطبيب بينه وبين ألوان من الطعام يحبها ، وأمره بالحمية وهو يعالجه ! ومتى رأى الطبيب والأهل ذلك منه ، فربما زادوا من التضيق عليه فى أكله أو لعبه ، فتزداد حالته سوءا بدل أن يشفى

واذا كان الاشخاص الشديدو الحساسية أقرب الى الربو من غيرهم ، فان البليدى الحس هم فى الواقع فى أمان من هذا المرض .. كذلك لا يصاب به عادة الاشخاص الناقصو العقل . بل هو مرض يكاد يختص به الافذاذ من ذوى الحساسية المرهفة ، وكان يصاب بالفعل أفراد من مشاهير التاريخ فى مختلف الامم والعصور ، وفى هذا شىء من العزاء للمصابين بذلك المرض

والآن نعود الى الطريقة التى يربى عليها الطفل المصاب بالربو :

ان أول شىء ينبغى أن يلقنه ذلك الطفل هو عدم الالتفات الى مرضه ، وعدم القلق من ناحيته ، بل يجب عليه أن ينظر اليه مثل نظرته الى الفواق (الزغطة) مثلا . وليس ذلك بالامر اليسير ، لان على الابوين اولا أن يعودا نفسيهما عدم ابداء القلق على ابنهما المريض بالربو ، وعدم الاهتمام الشديد بحالته ، حتى يأخذ عنهما ذلك

ويجب ألا يدلل ذلك الطفل ، أو يعامل معاملة خاصة ، حتى لا يشعر بأنه يختلف فى شىء عن بقية الاطفال . بل على العكس ينبغى أن يعود على أن يعد نفسه قوى البنية ، فيشترك فى الالعاب الرياضية المختلفة . ومما يساعد صحته : أن يتناول حماما باردا صباح كل يوم ، صيف شتاء . ولا يجدر بالطفل أن يلازم الفراش لاصابته بالربو . ويقول الثقات الذين درسوا هذا المرض ، وقدروا العوامل النفسية فيه : انه لا ينبغى استدعاء الطبيب عند تكرار نوبة الربو عند الطفل . واذا استدعى له الطبيب ، فلا ينبغى أن يعرف الطفل المريض سبب استدعائه له

والملحوظ أن الطفل المصاب بالربو يكون شديد التعلق بأمه ، وأنها من جانبها تكون شديدة الحدب عليه ، فهو يكثر من مطالبه ، وهى تسارع الى تلبيتها . وفى ذلك ضرر بالغ بذلك الطفل ، اذ أنه يساعد العوامل النفسانية الملائمة لتفاقم الربو ، فينشأ الطفل ، وعنده ربو مزمن ، وبه استعداد لأحداث نوبة ، كلما رفض له طلب

أجل ، ان العلاج الجسمانى بواسطة الطبيب أمر لازم للطفل . غير أن العلاج النفسانى ألزم منه ، وهذا لا يتأتى على الوجه الاكمل الا للوالدين

ان تدليل الام لطفلها ، يضعف كل أسباب القوة فيه ، فلا يستطيع بعدئذ أية مقاومة للمرض ونوباته . وخير علاج لمثل هذا الطفل ، هو ابعاده عن البيئة التى يجد فيها التدليل

والانتقال به الى بيئة أخرى — كمدرسة داخلية مثلا — يعامل فيها على قدم المساواة مع الاطفال الآخرين ، فلا يشعر بأنه يختلف عنهم فى شىء

ومن الامثلة على اجتماع العلاج النفسانى الى العلاج الجسمانى ، أن طفلا خجولا أصبح بادى الجرأة . وان طفلا آخر كان جبانا ، ولا يشترك فى ألعاب رفاقه بالناحية ، فلم يلبث أن أصبح زعيما لهم شديد العدوان . وفى الحالتين اختفت أعراض الربو تماما وهاتان حالتان من مئات الحالات المماثلة التى سجلها الاطباء

وفى بعض الحالات المتطرفة ، تطلب الامر الاستعانة باطباء اخصائيين فى الامراض العصبية والعقلية . ولكن تلك حالات شاذة ، خرج الامر فيها عن مقدور الاطباء المعالجين، وكانت العوامل النفسانية فيها هى الفعالة فى احداث الربو . أما فى السواد الاعظم من الحالات ، فان الطبيب المعالج يتولى أيضا وصف الطريقة النفسانية التى يتبعها الوالدان مع طفلهما المريض

وتدل بحوث الاخصائيين وتجاربهم على أن الربو يمكن أن يعالج ، ويشفى تماما ، لغاية سن الثامنة ، وربما أقل من هذه السن . اما بعد ذلك فمن النادر التغلب تماما على ذلك المرض ، اذ يكون الطفل قد اعتاده ، كما يعتاد الانسان مخدرا فيدمنه . وانما يمكن وقف الربو عند حده بعد تلك السن ، بالعلاج والرعاية ، وخير العلاج ما يقوم به المريض بنفسه لنفسه

وكثيرا ما تؤدى نوبات الربو عند الطفل الى خلل فى جهازه التنفسى ، وينشأ ذلك من عجز رئتيه عن أداء وظيفتهما كما ينبغى ، غير أن من اليسير علاج ذلك بتمارين التنفس. ومتى عادت الرئتان الى حالتهما الطبيعية أمكن الطفل أن يمارس الالعاب الرياضية المختلفة . أما اذا كان المريض قد تخطى السن التى يؤمل عندها شفاء أو تحسن ، فلا يجدر به أن يعيش فى يأس وألم ، فان كثيرا من الناس يستطيعون أن يواصلوا أعمالهم ، مع كونهم مصابين بالربو ، وذلك لانهم أمكنهم ضبطه . واذا كانت نوبات الاصابة به شديدة متكررة ، فيمكن المريض أن يحقن نفسه بمقادير قليلة من الادرينالين . ويمكن منع النوبة عند المريض بأن يحقن نفسه عند شعوره بدنوها ، ويمكن وقفها بعد خمس دقائق اذا حصلت بالحقن أيضا

أما النوبات المتوسطة ، فتعالج بالكافيين أو الافيدرين أو باقراص الثامين "Theamin"

على أن الثابت أن (للايحاء) أثرا كبيرا فى حالات الربو ، سواء كان ذاتيا أو خارجيا

ومتى خفت حالة الربو ، سواء بهذه الطريقة أو تلك ، ظن المريض انه شفى نهائيا . ويزعم بعض الاطباء انه شفى ثمانين فى المائة من حالات الربو . والواقع أن ذلك كله علاج وقتى وتخفيف الى حين . أما الشفاء الدائم الذى يزول معه المرض ، فلا يكون الا فى الطفولة ، وقبل سن الثامنة أو بشرط ان يجتمع العلاج النفسانى الى العلاج الجسمانى كما بينا فيما سلف

(عن صحيفة ورلد سايز)

.. كفاحي .. الياباني

غزو سطح الكرة الارضية

حين كان هتلر يكتب فصل فتوحاته الخيالية فى كتابه كفاحي ، ويلوح ببرنامج توسع ألمانيا فى أوربا وامتداد سلطانه إلى ما وراء البحار ، كان البارون طاناكا رئيس وزارة اليابان يقدم لسيده الامبراطور تقريراً يشرح فيه كيف يتسنى لليابان أن تغزو آسيا ثم أوربا ، ثم تمد يدها إلى أميركا ، ولتسيطر على سطح الكرة الأرضية كله

فهنا كفاحان يتنازعان سطح الكرة الأرضية . فهل كانا يعلمان أنهما سيصطدمان ؟ . .

رجلان فى زمان واحد ، زين لهما الوهم أن كلا منهما اله فوق البشر ، وأن عباد الله أراب كيفما تواثبت لا تخرج من تحت قضائه

بعد ذلك الزمان الذى كان كل منهما يدون أحلامه ، كان التروتسكيون (اتباع تروتسكى عدو ستالين) أمام قضاة العدل فى موسكو يعترفون بأنهم كانوا يساومون هتلر على سلخ أوكرانيا من روسيا السوفياتية فى الغرب الاسيوى ، ويساومون الحكومة اليابانية على قطع يد سيبيريا فى الشرق ، والسماح لها بابتلاع منشوريا ــ ساوموهما فى مقابل مساعدة ألمانيا واليابان على قلب حكومة ستالين السوفياتية ، واحلال دكتاتورية فاشية رأسمالية محلها . ففشلت المؤامرتان وطهرت حكومة السوفيات من طاعون الخيانات

كان هتلر يحلم بأنه يكون سيد الأرض الأعلى ينظم حكومة مجموعة الامم ويسن شريعتها . وغبى عنه أن حلم البارون طاناكا سيصطدم بحلمه ، فينفجران عن دخان قاتم فى الهواء . وكذلك لم يلح فى بال طاناكا أن حلمه سيتبدد فى بخار حلم أعرض من حلمه

* * *

تقرأ فيما يلى أحلام الزعيم اليابانى :

فى سنة ١٩٢٧ قدم البارون طاناكا مذكرة سرية لامبراطوره ، موضوعها « السياسة الايجابية فى منشوريا »

وبعد حين سرقت هذه المذكرة السرية ونشرت فى الصين وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية . ومضت الايام وحكومة اليابان لا تكلف خاطرها بأن تنكر صحة هذه المذكرة . وكيف تستطيع أن تنكرها ودسائسها فى منغوليا ومنشوريا مطابقة لها ، ولذلك صحت تسميتها « كفاحي » فى الشرق الأقصى

لم تكن تلك المذكرة من بنات أفكار طاناكا وحده ، بل هى زبدة مؤتمرات كبار رجال

الدولة اليابانية من عسكريين وملكيين بشأن منشوريا ومنغوليا . ولتداخل اليابان فى أمر منغوليا قصص غريبة فى السياسة الدولية تدهش المطالع ليس هنا محلها

واليك مقتطفات من المذكرة المذكورة بالحرف الواحد :

* * *

لا تستطيع اليابان أن تزيل العقبات فى شرق آسيا من أمام مصلحة الدفاع الذاتى الا « سياسة الدم والحديد » . ولكن فى انتهاج هذه السياسة تواجه الولايات المتحدة التى اتجهت نحونا بالسياسة الصينية . فاذا شئنا فى المستقبل أن نكسب السيطرة على الصين ، يجب أن نسحق الولايات المتحدة سحقا . أى يجب أن نتصرف تجاه الولايات المتحدة كما تصرفنا فى غضون الحرب الروسية اليابانية ، حين هاجمنا الاسطول الروسى على حين غرة من غير سابق انذار ولا اعلان حرب

ولكى نفتح الصين يجب أن نفتح منشوريا ومنغوليا أولا . ولكى نفتح العالم كله يجب أن نفتح الصين . فاذا فتحناها فجميع الممالك الاسيوية وممالك البحار الجنوبية ترهبنا وتخر ساجدة لنا مستسلمة لرحمتنا . وحينئذ يفهم العالم أن آسيا الشرقية هى لنا ، ولا يجرؤ أحد أن يعتدى على حقوقنا

تحاول انكلترا واميركا بما لهما من ثروة عظيمة أن تدمر نفوذنا فى الصين . فاذا علقنا كل آمالنا على توسيع تجارتنا فقط ، تسحقنا انكلترا وأميركا بقوة ثروتهما التى لا تقهر . وأخيرا لا نحصل على شىء . وهناك أيضا عامل آخر خطر جدا ، وهو أن الشعب الصينى لا بد أن يستيقظ يوما ما ، فيجب أن نحاذر من يوم تتحد فيه الصين

يجب أن نستعمل منشوريا ومنغوليا كقاعدة نتوغل منهما الى بقية الصين بحجة بسط تجارتنا ، حتى اذا تسلحنا بحقوق حماية مصالحنا قبضنا على جميع موارد البلاد . وبوضع يدنا على موارد الصين ، نستطيع أن نتقدم الى أواسط آسيا حتى نبلغ الى أوربا . على أن الخطوة الاولى التى يجب أن نخطوها هى أن نقبض على منشوريا فمنغوليا . هذا اذا كانت سلالة ياماتو (اليابانية) تريد أن تنتشر فى كل آسيا

من الوجهة التاريخية لا منشوريا ولا منغوليا كانتا صينيتين ولا كانتا فى حوزة الصين . ولكن من مظالم الاقدار أن حكومتنا فى حين اعلانها الحرب الماضية على روسيا ، اضطرت أن تصرح بأن الصين ذات سيادة مستقلة ، وأن تزكى هذا التصريح فى مؤتمر الصلح فى وشنطون . فيجب أن نبسط هذه المسألة بجلاء للعالم فى أول فرصة ، لكى يعلم أننا كنا مضطرين لهذا التصريح

يجب أن نتوغل فى منغوليا الداخلية والخارجية (١) لكى نصلح ذلك القطر . وما دام

(١) منغوليا الداخلية مستقلة الاستقلال التام وحكومة السوفيات تؤيدها وتعاونها فى ادارة حكومتها . ومنغوليا الخارجية الموية فى يد اليابان بحجة اصلاح شؤونها

أمراؤها يتولون الوظائف الادارية فيها ، فحقوق السلطة فى أيديهم . فاذا شئنا أن تدخل فى شؤون هذه البلاد يجب أن ننظر اليهم كحكام وأن نفاوضهم بشأن الحقوق والامتيازات . وبذلك تسنح الفرصة لامتداد نفوذنا القومى فيها

وما دامت منشوريا ومنغوليا فى أيدى الامراء الاهليين ، يجب فى المستقبل أن نعترف لهم بالحكم ونؤيدهم . وبناء على هذا الاعتبار جازفت ابنة فوكوشيما حاكم كونتنغ العام بحياتها فى الاقامة بين سكان طوسياتو المنغوليين الهمجيين ، حيث لعبت دور المستشار للامير المحلى كخليلة له ، فخدمت حكومة امبراطوريتنا . ومنذ صارت ابنة أخت مسوه الامير المنشورى زوجة الامير الحاكم ، أصبحت العلاقات بين الحكومة والامراء المنغوليين أشد وثوقا

جميع أمراء منغوليا الداخلية والخارجية يحترموننا ، ولا سيما منذ جعلنا نشجعهم بالحماية والعطايا الخصوصية . والآن فى طوسياتو نحو ١٩ موظفا يابانيا . وقد حصلنا على احتكار شراء الصوف واستخراج المعادن من هناك

وسنرسل سرا عددا أكبر من الضباط المتقاعدين المحالين على الاستيداع . فيجب أن يلبسوا الملابس الصينية لكى يلفتوا أنظار حكومة موكدن . ومتى تفرقوا هنا وهناك اشتغلوا بالزراعة وتربية المواشى وتجارة الصوف

ويمكننا أن نتصرف لدى الامراء الآخرين كما تصرفنا نحو أمير طوسياتو . فنبث ضباطنا فى كل مكان ، لكى نحوز السيطرة على الامراء بشتى الطرق

ومتى صار من شعبنا عدد كاف فى منغوليا ، يجب أن نشترى أراضى . وفى امكاننا ان نشتريها بعشر قيمتها الحقيقية . ومن ثم نزرع الارز لكى تزداد مواردنا الغذائية . وحيث لا تصلح الارض لاستغلال الارز يشتغل أناسنا بتربية المواشى والخيل . والخيل تكون ذات فائدة عظمى لنا من الوجهة العسكرية كما لا يخفى

وفى الاماكن الاخرى يمكننا أن نشتغل فى حفظ الاطعمة المقددة ونصدرها الى أوربا وأميركا . وكذلك يمكننا ان نربح من صناعة الفراء والجلد . وأخيرا تقع منغوليا فى قبضة يدنا نهائيا . ولما كانت مسألة حقوق السلطة غير واضحة هناك وحكومتا الصين وروسيا مشغولتان بمسائل أخرى فيمكننا أن نبسط نفوذنا من غير احداث اضطراب . ومع الوقت نحوز قدرا كبيرا من الاملاك وثمة لا يبقى معنى للسؤال عن منغوليا لليابان أو للمنغوليين. وحيث تؤازرنا قواتنا العسكرية تتحقق سياستنا الايجابية . ولكى تنفذ هذا البرنامج يجب ان نخصص مليون ين من المال السرى الذى فى وزارة الحربية و٤٠٠ ضابط يرسلون لذلك الغرض الى منغوليا . وهؤلاء الضباط بأثوابهم الصينية يشتغلون كمعلمين ويعيشون بين الاهالى حتى يحصلوا على ثقة الامراء المنغوليين ويحصلوا منهم على حقوق الاشتغال بتربية المواشى وبالتعدين . وهكذا نضع أساس مصالحنا القومية فى المائة سنة القادمة

لا أقل من مليون كورى (من أهالى كوريا التى اغتصبتها اليابان فى أوائل هذا القرن)

موجودون فى الولايات الشرقية من منشوريا . فهذا التوسع مفيد جدا لنا . وقد زاد نفوذنا من الوجهتين الاقتصادية والعسكرية . والكوريون سيكونون فى طليعة جيشنا فى اثناء استعمارنا الاراضى التى لم تستعمر بعد . ويمكننا أن نستخدم الكوريين المتجنسين بالجنسية الصينية فى شراء الارض لزراعة الارز . وهكذا نستخدمهم فى تدخلنا الاقتصادى . ومتى بلغ الكوريون الذين تجنسوا بالجنسية الصينية مليونين ونصف مليون ، أمكننا أن نحرضهم على الثورة المسلحة اذا اقتضى الامر ، ونؤيدهم ونشد أزرهم من وراء الستار ، فى حين أننا من ناحية أخرى نقمع الثورة . وحيث أنه ليس كل الكوريين فى منشوريا رعايا صينيين ، فالبلاد الاخرى لا تدرى من هم الذين سببوا هذه الفوضى : الصينيون أم اليابانيون والكوريون . وسنكون دائما قادرين على تضليل الرأى العام . فاذا حاول الصينيون أن يستخدموا الكوريين ضدنا ، كان لنا عذر فى شن حرب ضد الصين

فى هذه الحالة تكون روسيا السوفياتية العنصر الاشد خطرا علينا . فاذا استغاث الصينيون بالجيش الاحمر (الروسى) للتأثير على الكوريين ، فحينئذ تتغير وجهة نظر شعبنا ويهددنا خطر شديد . على أن الوزارة الحالية آخذة جميع الاحتياطات اللازمة لتلافى هذا الخطر

وفى منشوريا الجنوبية كثيرون من الصينيين يستحسنون خطتنا العسكرية والاقتصادية (وهنا تصف المذكرة هذه الخطط العسكرية والاقتصادية بالتفصيل ولا سيما مشروعات السكك الحديدية . ومنها يتضح جيدا موقف اليابان تجاه حكومة السوفيات) ثم تستمر المذكرة :

يجب أن تنشىء السكك الحديدية فى منشوريا الشمالية حيث لا توجد السكك الحديدية الدائرية اللازمة لتعبئة الجيوش ونقلها . فمنذ اليوم يجب أن نواظب على متابعة مقاصدنا العسكرية ، وأن نحيط بقلب منشوريا ومنغوليا بسكك حديدية دائرية ، لكى يتسنى لنا أن ندمر قوة الصين العسكرية وتقدمها السياسى والاقتصادى ، ولكى نصد توغل النفوذ الروسى . واذا كانت سكة حديد الشرق الصينية التى لروسيا السوفياتية تزعزع فى هذه المنطقة ، اذن فسياستنا فى القارة الاسيوية تتصدع بضربة قاضية ، وتدفعنا الى خلاف شديد مع روسيا فى المستقبل القريب

ان سكة حديد الصين الشرقية تكون لنا حالما تصير سكة حديد منشوريا لنا ، وثمة نقبض على منشوريا كما قبضنا على « دايرن »

يلوح لنا أن صليل سيوفنا مع السيوف الروسية فى حقول منغوليا فى سبيل الفوز بثروة منشوريا الشمالية ، انما هو قسم من برنامج تقدمنا القومى . يجب أن نطلب من الصين الحق بأن تنشىء سككنا الحديدية العسكرية . ومتى تمت هذه السكك استطعنا أن نملأ منشوريا الشمالية بقواتنا الحربية . وحينئذ تتدخل روسيا السوفياتية ، فيكون تدخلها حجة لنا فى اعلان الحرب عليها

(ثم ان المذكرة تعدد هذه السكك الحديدية بالتفصيل مع ذكر منافعها الاقتصادية والعسكرية . وأهمها خط يمتد من طنجلياو الى شنتس فى منغوليا الداخلية ، وحينئذ يستنى نقل الصوف منها)

والغنم المغولى يعطى صوفا ثلاثة أضعاف ما يعطيه الغنم اليابانى ، وهو أجود جدا من الصوف الاسترالى . ونحن نخفى هذه الحقيقة عن العالم كله ، لكيلا تنازعنا انكلترا أو أميركا الصوف المغولى

ولا بد من انشاء خط حديدى من تاونان الى صولون قرب حدود جمهورية الشعب المغولى ، لانه لا بد من شبوب الحرب بيننا وبين روسيا . فهذا الخط لا يخولنا أن نهدد روسيا من الامام فقط ، بل يحرم روسيا من امكان جلب امدادات حربية الى منغوليا الشمالية أيضا . وأمراء المقاطعات المحيطة به الموالون لنا ، يتسنى لهم أن يستعملوا هذا الخط ، فيزداد نفوذنا بينهم . فهذا الخط مع خط (تونغلينو ـ شنتس) يعنى أن يكون لنا خطان يؤديان الى منغوليا . ومتى تقدمت الصناعة تقدما تاما ، نستطيع أن نبسط نفوذنا على منغوليا الخارجية أيضا . فهذان الخطان والخطوط الاخرى تهيىء لنا قاعدة للوصول الى سيبيريا من ثلاث طرق . فنستطيع أن نرسل جنودنا الى منشوريا الشمالية ومنغوليا ، ومباشرة الى بحر اليابان الذى لا يدع فرصة للجنود الصينية أن تطرق الى منشوريا ولا تستطيع السفن الاميركية ولا الروسية أن تعبر المضايق الكورية . وفى أوقات السلم وبتحسين المرافىء ، تسقط مزايا فلاديفستك (المرفأ الروسى الذى يشرف على اليابان)

ومتى صارت هذه المواصلات العظيمة ووسائل النقل فى أيدينا ، فلا نعود نضطر أن نكتم مطامعنا فى منشوريا ومنغوليا التى تقرر الوجه الثالث من خطط امبراطوريتنا . وحينئذ يتسنى لامة ياماتو (اليابانية) ان تتقدم الى الامام لفتح العالم كله

والآن لا بد من أن نخطو الخطوات الثلاث ، وهى فتح منشوريا وفتح منغوليا وفتح الصين جميعا . فمتى تمت هذه الفتوحات ، أصبحت بقية آسيا (روسيا والهند وما جاورهما) وجميع جزر البحر الجنوبى تحت أقدامنا !

* * *

وفى نهاية المذكرة يشرح البارون طاناكا بالتفصيل كيفية الهجوم على روسيا السوفياتية . وهو يتوقع أن يحدث ذلك فى نفس الوقت الذى تحتل فيه اليابان منشوريا . فيجب أن تؤخذ فلاديفوستك والسكة الحديدية المخترقة سيبيريا ، لكى تنقل بها الجيوش اليابانية حول شمالى خربين . ومن هناك تقبض هذه القوة العسكرية على منغوليا ، فى حين أن جيوشا أخرى من كوريا تحتل منشوريا . انتهى

ذلك مجمل مذكرة طاناكا التى نشرت فى أميركا وانكلترا والصين . وعلى الرغم من

أن اليابان لم تنكرها ، بقى بعض الساسة لا يصدقون صدور هذه المطامع الخرافية من دولة .

* * *

وفى سنة ١٩٢٧ وضع رئيس وزارة اليابان خطة لغزو آسيا والباسفيك حتى أوربا أيضا . وكان من فحوى خطته أن كثيرا من الممالك تفتح أو تسلم لنا من تلقاء نفسها خوفا ورهبة كالهند الصينية الفرنساوية وكالتمسا ورومانيا . على أن ما يخيف اليابان هو اتحاد الصين الخطر

وأما طريقة الغزو فى رأى هذا الوزير الخطير فهى :

ان تضع قدمك أولا . ثم تجعل هذا الموطىء قاعدة للتوغل بحجج ودعاوى مختلفة . ادع مثلا أن بعض البلدان يجب أن تكون مستقلة لان لها حقا بالاستقلال . ثم خذ لك أصدقاء من أعيانها الرجعيين وارشهم وتملقهم . وقدم لهم نساء مسرفات من الاسرات الراقية ، وارسل ضباطا متقاعدين كمعلمين وتجار وزراع . واستغل مشاغبات الأقليات . فان لم تكن موجودة فاصطنعها . حرض الكوريين على المشاغبة ، ثم ارسل جنودا لقمع الثورة أو لرد الأمن الى نصابه

ولا ريب أن انكلترا أو اميركا رأتا من غير اطلاع على المذكرة كيف كانت الريح اليابانية تهب ـ نحو منشوريا . ولكنهما كانتا تعتقدان ان الريح تهب بعيدة عنهما

وروسيا السوفياتية عرفت جيدا أن الريح ستهب ولو عرضا على سراول انكلترا وأميركا حين تكون هابة فى وجهها هى . وفيما كانت روسيا تكرر الانذار للعالم ، كانت تقوى أسس بيتها وجدرانه ضد هذه الريح

وقد اتضح جيدا أن أصحاب السلطة فى اليابان كانوا يجدون فى هذه المذكرة لا يهزلون . اتضح ذلك حين شهرت اليابان الحرب الحالية ضد أميركا من غير سابق انذار . بل بالعكس كانت قواتها البحرية والبرية على أبواب الجزر الاميركية منذ نصف شهر قبل هجومها ، فى حين كان المفاوضون اليابانيون يوهمون الساسة الاميركيين أنهم يريدون اتفاقا وديا

ولو كان المجال متسعا لاتينا على الدسائس التى كان اليابانيون يستعملونها ضد الامم الأخرى

« ن . ع . »

الهرمونات الجنسية

للدكتور محمد زكى شافعى بك
مدير صحة بلدية الاسكندرية

تأخذ الهرمونات الجنسية الآن مكاناً هاماً فى العلاج ، ويتهافت البعض على استعمالها الى حد الافراط ، وفى هذا كل الخطر . . . وفى المقال التالى يتحدث الدكتور زكى شافعى بك عن الهرمونات الجنسية لتنوير الأذهان

لكل كائن حى سواء أكان مركبا من خلية واحدة كالميكروب أم من ملايين الخليات كالانسان ، نوعان من النشاط . الاول التناسل ، والثانى تحويل الغذاء الى مواد يسهل امتصاصها لتستغل فى النمو والتجديد وتوليد الطاقة ، الحرارة والعمل ، والتخلص من الفضلات الناتجة عن تحلل الخليات ، وعن العمليات الكيميائية التى تجرى فى الجسم لتوليد الطاقة . ويسيطر على هذين النوعين من النشاط فى الانسان ثلاث مجموعات من المركبات ، الخمائر والهرمونات والفيتامينات

فالخمائر أكثرها عددا كالبيسين الموجود فى العصير المعدى الذى يهضم اللحم والهرمونات كالانسولين ، وفعلها أعم من فعل الخمائر ، والفيتامينات كالتى توجد فى الليمون ، ومصدر الاولين خليات فى الجسم ، ومصدر الثانى المواد الغذائية . وكلها ضرورية لحفظ صحة الانسان ، وعدم وجودها أو نقصها يسبب خللا فى وظائف الجسم

وتفرز الهرمون غدد خاصة تعرف بالغدد الصماء ، لانها تصب مفرزاتها فى الدم مباشرة أى فى الاوردة ، بوساطة قنوات كالغدد الاخرى كغدة اللعاب مثلا

ولما كانت الهرمونات الجنسية تأخذ الآن مكانا هاما فى العلاج ، ويتهافت البعض على استعمالها ، رأيت أن أكتب هذا المقال تنويرا لاذهان القراء على صفحات « الهلال » وسآتى على كل جديد عن هذه الهرمونات بقدر المستطاع ، لان للافراط فى استعمالها خطره ، وهى مركبات تستعمل بكميات ضئيلة جدا ، وتأثيرها قد يكون كبيرا

يمكننا القول بأن جميع الهرمونات لها أثرها فى الجهاز التناسلى ، ولكن للهرمونات الجنسية أثرا أخص ، والمعروف منها الآن هرمون للخصية ، وهرمونان للمبيض

ينشأ فى الخصية بوساطة خليات منوية خاصة الحيوانات المنوية ، وتخرج مع المنى ، وهو مفرز خارجى كاللعاب . وللخصية مفرز داخلى يعرف بالتستسرون ، وهو مركب

دهني ، وتفرزه خليات غير الخليات المنوية في الخصية ، وتوجد مشتقاته في بول الذكر ، كما توجد في بول الانثى الحامل وغير الحامل ، ولكن متوسط ما يخرج في اليوم مع البول في كليهما ، بنسبة ثلاثة في الذكر الى اثنين في الانثى ، ويحضر في المعمل من مركب دهني يعرف بالكولسترول كالسقرون والبرندرين

والفعل الجوهري لهذا الهرمون ينصب على وظائف أعضاء التناسل المكملة للجهاز التناسلي، وهي القبل والحويصلات المنوية والبروستاتا ، وينبه نمو الشعر فيالوجه والابطين والصدر والعانة والساقين ، كما ينبه الغشاء المخاطي للانف لاداء وظيفته ، لانه يظهر أن هنالك علاقة بين هذا الغشاء والوظيفة الجنسية

وعند ما يبلغ الصبي ، تشاهد عليه مظاهر الرجولة فينزع الى الحدة والخشونة والاعتماد على النفس وحب السيطرة والميل للجنس الآخر ، بينما نرى هذه الصفات تتناقص كلما تقدم بنا السن ، كما يقل النشاط الجنسي أو يفقد ، وقد تعترى الرجل بسبب ذلك ملنخوليا ، وأهم أعراضها أن يعتقد المريض بها أنه فقد كل ماله ، وتنحط قواه العقلية والجسمانية مدارجة ، لانه يرى أن لذة الحياة ومباهجها قد انقضت . ومن المقال ان هرمون الخصية له دخل كبير في كل ذلك ، وانه بالحقن به تحسنت حالة هؤلاء المعنوية وشعروا بالقوة والهناءة والنشاط كما أنه يفيد في الورم المبيد للبروستاتة

وقد عملت تجارب عديدة أفاد فيها الحقن بهذا الهرمون الخليات المنوية ، وازدياد مفرزها ، وأفاد في احجام أعضاء التناسل المكملة وفي انماء الشعر ، بل في حفظ الاحجام الطبيعية لاعضاء أخرى كالقلب والكبد والكليتين . وقد شوهد في الذكور الذين يخصون قبل سن البلوغ أنهم عند ما يبلغون هذه السن يتزايد الدهن لديهم حول الثديين والعجز، كما أن شعر العانة والوجه لديهم يماثل ما عند الاناث ، ويحتفظون بصوت الصبية ، ويتلون جلدهم كثيرا بتأثير أشعة الشمس

ولكل أنثى مبيضان ينشأ فيهما البيضات داخل حويصلات فيدرجات من النشوء متفاوتة، ومتى نضجت الحويصلة وامتلأت بالسائل – وذلك في سن البلوغ – انفجرت وخرجت منها البيضة ، ويحصل ذلك كل أربعة أسابيع مرة ، ولا تنضج عادة الا حويصلة واحدة، ثم تطبق جدرانها على بعضها ، وتتحول البيضة الى جسم أصفر يستمر في النمو حتى الشهر الثالث من الحمل اذا لقحت البيضة ، والا تحول الى جسم أبيض

في الحويصلة هرمون يعرف بالاسترون وهو مركب دهني ، وكذلك في المبيض نفسه ، وتوجد مشتقاته في بول الانثى ، كما وجد في بول الذكر بنسبة متوسطها واحد للذكر الى ثلاثة في اليوم للانثى ، ووجد بكميات كبيرة في خصية ذكور الفصيلة الخيلية ، وفي مشيمة اناث الانسان ، وفي بعض النباتات . وفعله الجوهري في نمو الاعضاء التناسلية المكملة كالرحم وأبواق فالوب والمهبل ، وينبه التقلصات الرحمية ، ويعد بطانة الرحم لفعل هرمون مفرز الجسم الاصفر ، وهو مركب دهني أيضا ، وتخرج مشتقاته في بول

الحامل ، ولا يوجد فى بول الذكر ، وهو يعد بطانة الرحم لتعشش فيها البيضة الملقحة ، ويمنع تقلصات الرحم وان كان يظهر أن فعل هذين الهرمونين متضاد ، غير أنهما يعملان متعاونين ، فهرمون الجسم الاصفر لا يعمل الا اذا أعد الأسترون بطانة الرحم لفعله ، وهو يمنع الاجهاض والنزيف ، بينما الأسترون يسبب تضخم بطانة الرحم وتقلصاته ، فان تلقحت البيضة واستقرت فيه بفعل البروجستون (هرمون الجسم الاصفر) لم يظهر الطمث رغم استمرار افراز الأسترون لان البروجستون يحد من فعل الأسترون ، وان لم تلقح البيضة ظهر الحيض

وقد يكون للأسترون أثر فى صفات الانثى النفسية والخلقية كالشعور العاطفى والاستعداد للتأثر بالايحاء وسرعة التأثر والانقياد والتوجع والمرونة والحساسية

وكذا فى نمو غريزة الامومة ، وقد لوحظ أنه عند ما تبلغ الانثى سن اليأس أى عند ما تشعر بفقدها لأهم وظيفة لها فى الحياة وهى الدورة البيضية ، يحصل لها تغيرات عصبية كالقلق أو كسرعة التهيج أو الصداع أو ضعف الذاكرة أو التركيز والهبوط النفسانى أو كثرة البكاء أو اضطراب النوم أو الأرق أو التنميل أو النخس أو التعب أو الدوخان ، أو ملنخوليا تميز بالحزن والتشاؤم وتندب أيام صباها وجمالها ، كما قد تصاب بامساك مستعص ونوبات احتقان فى الوجه وخفقان فى القلب أو سرعة فى التنفس أو طنين فى الآذان ، وقد تصاب بالسمن أو برودة جنسية أو الآلام فى أجزاء متعددة من جسمها ، أو ارتفاع فى ضغط الدم ، أو حكة فى أعضاء التناسل الظاهرة وضمور ، أو آلام فيها ، أو التهاب . وقد شفيت بعض هذه الحالات أو تحسنت بالأسترون ، وهذا يؤيد أن للهرمونات الجنسية تأثيرا كبيرا على الحالة النفسية والعقلية للانسان ، كما أن بعضها شفى أو تحسن بهرمون الخصية . وأذكر هنا أن بعضهم ذكر أنه فى تجاربه على الحيوانات الثدية أصيبت بسرطان فى الثدى من استعمال الأسترون ، ولكن هذا لم يمنع من استعماله فى العلاج

الدكتور محمد زكى شافعى

هل يقع انهيار داخلي في ألمانيا

بقلم الصحفي الأمريكي ألبين جونسون

ألبين جونسون صحفي أمريكي اختص بالكتابة في الشؤون الخارجية . وقد ظل من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٦ يكتب لجريدة نيويورك ورلد ولصحف أوروبية مختلفة ثم لجريدة فاراينست وهو منذ سنة ١٩٤٢ يقيم في فنلندة ثم في السويد ، حيث يوافي الصحف والمجلات الأمريكية بمقالاته عن الحرب والأمم المتحاربة وقد كتب هذه المقالة الآتية وأرسلها الينا من استكهلم

ماذا يجري في ألمانيا ، خلف جدران الصلب والحديد ، ووراء دخان الدعاية الكثيف ؟ ان السويد المحايدة نفسها لاتدري جوابا دقيقا عن ذلك ، رغم ممثليها السياسيين والصحفيين في ألمانيا ، ورغم تيار المهاجرين القادمين اليها من تلك البلاد . على أن من حسن حظ كاتب هذه السطور أن له صلات عديدة تفيد المندوب الصحفي في عمله ، وقد اتصل بكثير من الرجال والنساء الحديثي القدوم من بلاد هتلر ، وهذا بالطبع بعد ما قرأ كل ما وقع في يده عنها . ولكنه يعلم علم اليقين أن أقوال الصحف والشهود يجب أن تصفى وتدرس ، وان ما يصدر فيها عن فكرة الدعاية يجب أن يبعد ، حتى يمكن الوقوف على الحقائق التي يطمأن اليها

فالمعلومات التالية اذن هي ثمرة تحقيق دقيق ، تؤازره حقائق معروفة ويؤيده استنتاج معقول

ان الحقيقة الاولى التي لا يعتورها شك : هي أن الشعب الالماني أصبح شعبا جائعا ، بائسا ، محروما ، قد أنهكه التعب وأضناه الالم . وقد فقد حماسته الاولى التي كان يبديها في حفلات حزب النازي ومهرجانات « الزعيم » ، ولعل آخر واحد من هذه هو الذي أقيم قبل اسبوعين من الغارة الكبيرة الاولى على برلين ، ففي ذلك المهرجان لم يبد على الاهلين غير الجمود ، رغم كثرة الهتافين الذين زج بهم في الاجتماع . وليس ثمة هتاف ضد انجلترا كما كان في الحرب العظمى الماضية ، اذ كنت تسمع الصيحة القائلة : «ليعاقب الله انجلترا » ، « God strafe England » تتردد في كل مكان . أجل ان جوبلز عقب تلك الغارة صار ينفث لهب البغض والانتقام . ولكن قليلا من أهالي برلين جاوبوه بهز قبضاتهم ولعن تشرشل وروزفلت ، وأكثرهم كانوا يجلسون في هدوء واستسلام وقد أسندوا رؤوسهم الى أيديهم

والواقع أن الشعب الالماني أصبح لا يبدي كبير اكتراث بمجرى الامور . ولعل ذلك

ناشىء من قضائه خمسة عشر عاما تحت ضغط النازى وتضييقهم ، وأحد عشر عاما فى حرمان من وسائل الراحة ومسرات الحياة ، وسبعة أعوام على الأقل تحت نظام توزيع لوازم المعيشة بالبطاقات ، وخمسة أعوام فى عهد حرب طاحنة ، قضى السنتين الاخيرتين منها فى حالة احتياج شديد . ولكن لا تنس مع كل هذا أن الالمان شعب مجبول على النظام والطاعة

ان كتلة الأمة الالمانية لا تفكر ، ولا تكاد تدرى من شؤون الحياة سوى أن تعمل حتى تموت ، دون أن تسأل نفسها عن السبب .. أما الزعماء والافراد الذين قد يستبيحون لانفسهم ترف التأمل ، فان مجرى تفكيرهم ــ كما يذكر بعض المقربين منهم ــ هو هكذا : « ربما لا نكسب الحرب . ولكن ما دمنا نحارب ، فأمامنا فرصة ألا نخسر الحرب . ان أعداءنا قد أنهكهم التعب مثلنا . والتسليم بلا قيد ولا شرط معناه الرق والعبودية ، مثل ما فرضناه نحن أنفسنا على بعض الامم المغلوبة .. اننا أمة موحدة . أما أعداؤنا فهم أمم عديدة ، تختلف أجناسا وأديانا وأغراضا .. فاذا ثبتنا ، فما يدرينا لعل أعداءنا يتنازعون ويتفرقون »

ان شعار الدعاية الالمانية هو : « سوف نكسب الحرب » . ومن الغلو أن يظن البعض فى خارج ألمانيا أن هذه الامة قد راضت نفسها على فكرة الهزيمة . حتى الذين فقدوا كل شىء يشعرون أنهم لن يكسبوا شيئا اذا انهزمت بلادهم ، وقد قصروا أملهم على الانتصار ، لان هتلر وعدهم بالمسكن والعمل فى « نظامه الجديد» . أما الذين لا يزالون يملكون شيئا ، فانهم يعتقدون أن الانكسار يجردهم من كل شىء ، وربما من حياتهم نفسها

واذا كان كثير من الالمان يعتقدون فيما بينهم وبين أنفسهم أن ألمانيا لا يمكن أن تكسب الحرب ، فان قليلا منهم لا يؤمنون بأن الحرب ستنتهى الى صلح قائم على (تسوية) ، أو أنها لن تفضى الى انتصار فريق وانكسار آخر . وهم على أى حال يذكرون كلمات هتلر الذى لا يفتأ ينذرهم « ان مستقبل الوطن لالف سنة قادمة يتوقف على نتيجة هذه الحرب» بل ان الحلفاء اذا حددوا كلمة « التسليم بلا شرط ولا قيد » بحيث تسمح للشعب الالمانى بحياة معقولة بعد سقوط حكم النازى ، فان قليلا من الالمان يصدقونهم ، لما ألقى فى روعهم من ضرورة تلقى وعود الحلفاء بالشك والارتياب

ان صبر الالمان على الآلام الجسمانية لم ينفد بعد . أجل ان نظام توزيع كل الاشياء بالبطاقات هو نظام قاس ، غير أن الطعام الذى يوزع يكفى لان يقيم الأود ، ومواد الاستهلاك الاخرى تفى بحفظ مستوى منحط للمعيشة ولكن يمكن تحمله . صحيح ان القوم جائعون ، بل جد جائعين فى بعض جهات ألمانيا ، وانهم يشكون ويضجرون ، ولكن شكواهم لم تصل فى أى مكان الى حد الاحتجاج ، بله الهياج

ويلبس الالمان ثيابا بادية القدم ، ولكن ذلك لا يلفت نظر أحد ولا يثير أى اهتمام . وانما يرتدى زعماء حزب النازى وحدهم ثيابا فاخرة جديدة ، والناس اذ يرون ذلك

يبررونه بأن الزعماء يجب أن يحتفظوا بالمظاهر ، ثم يقولون ان هتلر نفسه يرتدى من الثياب مثلما يلبسه أبسط جندى . أما النقص فى أشياء كفرش الاسنان وأدوات الزينة وصابون الحلاقة ، فانه بالطبع يجعل الحياة العادية لا تسر ولكنه لا يزال أمرا محتملا

والسلطات النازية بارعة فى الادلاء بالوعود واستغلال الظروف لها . واذا وعدت بتوزيع بعض المواد أو بزيادة ما يوزع منها ، وجاء الاهلون ينتظرون صفوفا ، فانهم يجدون تلك المواد حاضرة ولا يخدعون . وما أيسر أن ينسى الالمان متاعبهم وآلامهم حيال أمر تافه ! فمثلا لما وقعت أول غارة كبيرة على هامبورج ، سمحت السلطات بزيادة مائتى جرام من الشيكولاته على الحد المعين . وبعد الغارة الثانية منحت كل شخص بالغ نصف بنت « pint » من الكونياك . كذلك عقب كارثة برلين الجوية الاولى ، نال كل شخص بلا مأوى وعاء من معجون السمك وعلبة صغيرة من اللبن المركز ونصف رطل فاكهة وخمسين جراما من البن . وفضلا عن ذلك أعطى كل رجل ثلاثين سيجارة ، وكل امرأة خمس عشرة سيجارة . وفى جميع هذه الاحوال ، كان الناس يقفون صفا طويلا ، أحدهم وراء الآخر ، وينتظرون النهار بطوله (هدية الفوهرر) أو (الزعيم) ، مثلهم من الفرح كمثل الاطفال يوم عيد الميلاد !

أما فى الريف فقد انتشر نظام المقايضة بين الزراع . وليس هؤلاء من الغباء بحيث يخطرون السلطات كلما باضت دجاجة لهم أو صادوا أرنبا أو رموا غزالا .. وهم لا ينسون أقاربهم وأصدقاءهم الذين فى المدن . كذلك تراهم لا يأبون الاتجار ببعض منتجاتهم فى السوق السوداء . وهذه السوق قائمة على قدم وساق رغم كل شىء ، والاسعار فيها فادحة : فمثلا تجد السيجارة التى تساوى عادة ثلاثة أو اربعة فنش pfennings (جزء من مائة من المارك) تباع فى السوق السوداء بخمسين فنشا ، وزجاجة الكونياك تباع بمائتى مارك ، وهلم جرا

وقد أصبحت المقايضة ظاهرة عجيبة من الظواهر الاقتصادية فى ألمانيا فى السنة الاخيرة . وأدركت الحكومة ضرورة تيسير التبادل التجارى المباشر ، فهى تحاول أن تشرف على هذا النظام وتسيطر عليه . ولما كانت العملة تفقد قيمتها وشيكا ، فقد نشأت أداة جديدة للقيم وهى الفيتامين فتجد المواد الغذائية تقدر قيمتها بين الناس بما تحويه من الفيتامين ب ، والمواد الاخرى بما فيها الصابون والزبدة والكماليات تقدر بوحدات الفيتامين م . ويقدر الناس كل ذلك تقديرا ارتجاليا ويتعاملون على أساسه بدون استخدام العملة

وفيم يفكر الالمان فى هذا الوقت الحرج ؟ ان الذين عاشوا بينهم فى السنوات الاربع الاخيرة ، يقولون انهم لا يفكرون . واذا كان بعضهم يفكر فانه لا يبوح بفكره لغيره على أن من ينعم النظر فيهم يتبين بهم يأسا صامتا لا شك فيه

أما حزب النازى فمن الخطأ الزعم بأن هناك خلافا فى صفوفه ، وخاصة بين زعمائه الكبار مثل هتلر وجورنج وهيملر وجوبلز ولى وفون ريبنتروب . فاذا قال الالمان ان

ما حدث فى ايطاليا لا يمكن أن يحدث مثله فى ألمانيا ، فان هذا القول لا يصدر عن الفخر وحده . فهتلر لا يزال مفتاح صرح النازى ، والذين حوله يعتقدون أنه اذا سقط فانهم سيسقطون معه . وعلى الرغم من سنوات الشدة التى قاساها الشعب الألمانى ، فان هتلر لا يزال يحظى بولاء الملايين ، وخاصة من النساء والاطفال

وقد يبدو من التناقض أن يوجد فى أمة تمثل هذه الوحدة وراء زعمائها ، (جستابو) لا يفتأ يقبض على الكثيرين كل يوم بتهمة الدعوة الى الهزيمة أو النهب والسلب أو الخيانة . والواقع أن كثيرين قد أكدوا لى قلة عدد من يحكم عليهم بالاعدام فى ألمانيا ، غير أن الجستابو ووزارة الدعاية يجعلان من هذه القلة نذرا تقرع حولها الطبول ، ليرهبوا بها غيرهم . وكلما صدر حكم بالاعدام على أحد أعلنت صناعته أو مهنته ، سواء كان زارعا أو ممثلا أو جنديا أو قصابا الخ ، لكى يوقن الشعب أن الحكم النازى لا يحابى أحدا ولا يضطهد فئة دون فئة .. ومما يفخر به الجستابو أن الذين ارتكبوا اثم النهب والسلب فى خلال الغارات على برلين ، قد أعدموا بعد ثلاث ساعات من القبض عليهم

ومن ذلك ترى أن الارهاب النازى ليس مقصورا على البلدان التى احتلها الالمان ، بل يشمل ألمانيا نفسها أيضا ، ولو بغية التأثير فى النفوس لا لشىء آخر ..

ان الجيش والجستابو هما بمثابة العمود الفقرى من ألمانيا الحالية ، ولكن حزب النازى هو الرأس المدبر . ومن الوهم البحت أن تتوقع خلع الجيش لهتلر فى الظروف الحاضرة . أجل ان السيطرة البروسية لا تزال قائمة ، غير أنها قد أصبحت سيطرة بروسية نازية . ومن الخطأ كذلك أن يحسب البعض فى خارج ألمانيا : ان الالمان ينسبون الى هتلر ما أصاب ألمانيا من هزائم فى روسيا وشمال افريقيا ، أو أن أركان حرب الجيش الالمانى يلومونه فى ذلك . فالواقع أن أركان الحرب لم يخضعوا قط لايحاء من هتلر . بل يقولون ان شأنه فى ذلك ليس أكثر ولا أقل من شأن الزعماء المدنيين فى الدول المحاربة الاخرى . ويشعر قواد الجيش بأنهم مرتبطون بالنازى فى الحاضر والمستقبل ، لدرجة أكثر من ارتباطهم بالقيصر فى الحرب العظمى الماضية

وبالاجمال لا يزال حزب النازى سليما ، ولا يزال الشعب الالمانى ينتصر له ، وان يكن قد فقد حماسته . ولا يزال الجيش الالمانى يعتقد أنه لن يخسر الحرب ، حتى اذا لم يستطع أن يكسبها . وتدل الدلائل كلها على عدم توقع انهيار داخلى كالذى حدث فى سنة ١٩١٨

وعلى ذلك لا بد من أن تهزم ألمانيا فى ميادين القتال ، اذا أريد للحرب أن تنتهى ، وللطغيان النازى أن يزول

(عن مجلة امريكان ميركورى)

تمهيد طريق البرلمان
لنواب من الشبان والفقراء

للنائب الانجليزى « اونر بلفور »

وقفت أخطب جما من عمال مغازل القطن ومناسجه فى برنامجى اذا فزت بالنيابة عنهم ، ثم أخذوا يلقون على أسئلة شتى : عن مشروع بيفردج ، عن نظام معاشات العمال ، عن مشروعات ما بعد الحرب فى صدد البطالة والتعليم والمساكن ، وما الى ذلك من الامور التى تشغل أذهان العمال وتثير همهم وتفكيرهم

وبينما هم يسألوننى وأنا أجيبهم ، اذ برجل يهب من الصف الامامى ، وقد بدا عليه أنه من أولئك العمال المكدودين الذين وهنت قواهم وما زالوا فى منتصف العمر ، ووقف أمامى وقفة حازمة عنيفة ، وانطلقت من فمه الخشن الجاف هذه الكلمات :

« هيه ! لقد سمعنا هذا الكلام فى المرة السابقة . ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا شىء أبدا ! فما من فائدة فى أن تضعوا المشاريع وتفكروا فى المناهج ، ما دمتم لا تملكون وسيلة تنفيذها وتحقيقها . ان أول ما يجب أن تفكروا فيه هو اصلاح البرلمان . فماذا أنتم فاعلون فى شأنه ؟ ان بقى كما هو الآن ، فلن تتاح لنا الفرصة لتحقيق مطالبنا نحن طبقة العمال . فيجب أولا وقبل كل شىء أن تمكن أبناء هذه الطبقة ــ طبقة العمال الفقيرة ــ من أن تشق طريقها الى دار البرلمان »

ان هذه الكلمات التى قالها ذلك العامل هى نفس الكلمات التى يقولها العمال فى جميع الأنحاء . فما هى الاجابة التى نقدمها لهذا الرجل وللملايين التى تشبهه من العمال والعاملات ؟

هذه هى الاجابة :

يجب أن يكون البرلمان القادم برلمانا شابا ، نشيطا ، صريحا جريئا ، فان هذه الصفات هى التى تنقص البرلمان القائم ، والتى لا غنى عنها ان أردنا أن نجعل من نظامنا البرلمانى أداة فعالة لتنفيذ الديموقراطية بمعناها الصحيح

ان متوسط عمر عضو مجلس العموم الحالى ٥٨ سنة . وهى سن لا يتيسر فيها العمل النشيط الجرىء الا قليلا

وان ستين عضوا من كل مائة عضو فى المجلس هم من خريجى « المدارس العامة » ، هذه المدارس التى لا يقدر على نفقاتها العالية الا أبناء الطبقات الثرية والميسورة ، فأكثرية أعضاء البرلمان هم من أبناء هذه الطبقات التى تعد جزءا بسيطا من مجموع الامة التى تتكون

فى الواقع من طبقات العمال والزراع ومن فى مستواهم

فالاصلاح البرلمانى الواجب هو تمهيد طريق البرلمان للشبان والفقراء . ولا يكون هذا الا بتخفيض نفقات الانتخاب تخفيضا كبيرا

فان الانتخاب فى صورته الحالية يكلف المرشح فى العادة ما يتراوح بين سبعمائة وألف جنيه . وبعض هذا المبلغ يأتى من خزينة الحزب الذى ينتمى اليه المرشح ، اذا كان هذا المرشح من رجال الحزب البارزين . وقد يأتى بعض هذا المال من « الاشتراكات » التى يتقدم بها الذين يناصرون المرشح ليكون صوتا لهم فى البرلمان يبلغ مطالبهم ويدعو الى تحقيقها . ولكن أكثر هذا العبء المالى واقع على عاتق المرشح . فلا عجب أن يعجز كثير من الشبان الصالحين للنيابة عن ترشيح أنفسهم لانهم لا يملكون هذا المبلغ الكبير ، ولا عجب أن يبلغ كثير من الناس سن الكهولة والشيخوخة قبل أن يتهيأ لهم من الثروة ما يمكنهم من انفاق مئات الجنيهات فى معركة الانتخاب . وهذا فضلا عن مائة وخمسين جنيها يدفعها المرشح « تأمينا » وتظل جامدة الى أن ينتهى الانتخاب بالفوز أو الهزيمة

يجب اذن تخفيف نفقات الانتخاب عن كاهل المرشح . ورأيى أن تكون أكثر هذه النفقات من المصروفات العامة التى تدفعها خزانة الدولة . فان عملية الانتخاب جزء مهم من أجزاء الاداة الديموقراطية التى يجب أن تبذل الدولة من مالها فى سبيل تمكينها من أداء عملها على خير الوجوه

خذ مثلا مسألة « برنامج المرشح الانتخابى » الذى يريد المرشح أن يعلنه لناخبيه مبينا فيه سياسته وأهدافه ، ان طبع أربعين ألف نسخة من هذا البرنامج وما يلزمها من أغلفة الخطابات لتوزيعها على الناخبين يتكلف مائة وخمسين جنيها . فلماذا لا تتحمل الحكومة هذه النفقة ، ما دامت قد تحملت جزءا منها ، حين جعلت ارسال هذا البرنامج الى الناخبين مجانا . لقد رأت الحكومة أن عليها أن تشارك فى تحمل بعض نفقة المعركة الانتخابية ، فأباحت للمرشح أن يرسل لكل ناخب فى دائرته خطابا عن «برنامجه الانتخابى» وتكفلت هى بأجر ارسال هذا الخطاب . فلم لا تتكفل بالعمل كله ، وتتحمل كذلك نفقة طبع البرنامج وتوفر على المرشح بذلك مائة وخمسين جنيها على الأقل ؟

قد يعترض على ذلك بأن اعفاء المرشح من هذه النفقة يجعل منافسه اذا كان ذا مال قادرا على أن يستخدم هذا المال فى دعاية أوسع نطاقا وأكثر تأثيرا ، كوضع لوحات الاعلانات الكبرى فى الطرق والميادين ، وكاستخدام مكبرات الصوت وما الى ذلك . ولكن الاجراء الذى أشير به هو أن يخفض كذلك المبلغ الاقصى الذى يجوز للمرشح انفاقه فى الانتخاب . فالقانون القائم يبيح للمرشح أن ينفق فى الدعاية الانتخابية بمعدل ست بنسات (حوالى قرشين ونصف قرش) عن كل شخص فى دائرته الانتخابيه ، وحيث أن الدائرة تضم أربعين ألف شخص ، فانه يسمح له بأن ينفق الى ألف جنيه فى الدعاية لنفسه . وهذا مبلغ ضخم فيجب انقاصه الى الحد الذى لايعجز عنه فرد كفيء من عامة الناس

فوضع حد أقصى لما ينفقه المرشح فى الانتخاب فكرة عظيمة ، ولكن يجب أن نخطو بها خطوة أخرى ، وذلك بأن نجعل هذا الحد الأقصى قريبا من متناول كل من يأنس فى نفسه الكفاية للعمل البرلمانى

والآن وقد فاز المرشح فى الانتخاب ودلف الى دار البرلمان ، فماذا يحدث بعد ذلك ؟

يحدث غالبا أن تنقطع صلة النائب بدائرته الانتخابية ، فانه يغرق فى موجة صاخبة من عمله البرلمانى ومما تقتضيه حياته الجديدة من مشاغل . ويزداد بريده زيادة كبيرة ، كما تزداد مطالبه المالية الى حد بعيد . وبذلك تصبح الستمائة جنيه التى يتقاضاها فى العام ، والتى كان يحسبها تهيىء له حياة مادية مريحة ، عاجزة عن قضاء مصالحه الكثيرة . فانى أعرف عضوا فى البرلمان ينفق فى السنة مائة جنيه فى الرد على ما يرد اليه من الرسائل البريدية فحسب !

وسرعان ما يحس النائب الحاجة الى المال ، فيضطر أن يقصر فى بعض عمله البرلمانى ليفرغ الى عمل خاص يأتى منه بالمال الذى تتطلبه هذه الحياة ، وبذلك لا يؤدى واجبه نحو ناخبيه ونحو الأمة على الوجه الأمثل . كما أن عليه اذا كان فقيرا أن ينفق جزءا من جهده ووقته فى أعمال كتابية كثيرة ، مثل الرد على ما يجيئه من الرسائل . وكل هذا يعطل عمله الاول فى البرلمان

وانى أقترح علاجا لهذا ثلاثة أمور :

أولا — أن يرفع مرتب عضو البرلمان الى ألف جنيه ، وليس هذا بكثير على رجل يجب أن يقيم فى لندن وأن يكون له بيت أو ناد فى مركز دائرته الانتخابية ، وذلك فضلا عن نفقات كثيرة يقتضيها مركزه هذا

ثانيا — أن يضم المجلس هيئة سكرتارية يكون من حق كل نائب أن يكل اليها أعماله الكتابية الخاصة بعمله فى البرلمان . اذ لماذا يكون لاحد النواب سكرتير خاص يقوم عنه بكثير من الاعمال لانه يستطيع أن يدفع مرتب هذا السكرتير ، ويلقى على عاتق نائب آخر أن يقوم بأعمال كتابية تعطله عن عمله البرلمانى لانه فقير لا يستطيع أن يستخدم سكرتيرا خاصا ؟

ثالثا — يجب أن يكون من عمل هذه السكرتارية تنظيم اجتماعات دورية فى الدوائر الانتخابية ، يذهب اليها النواب ليطلعوا ناخبيهم على ما يقومون به من الاعمال فى دار البرلمان ، وليدلى اليهم الناخبون بمطالبهم وتوجيهاتهم

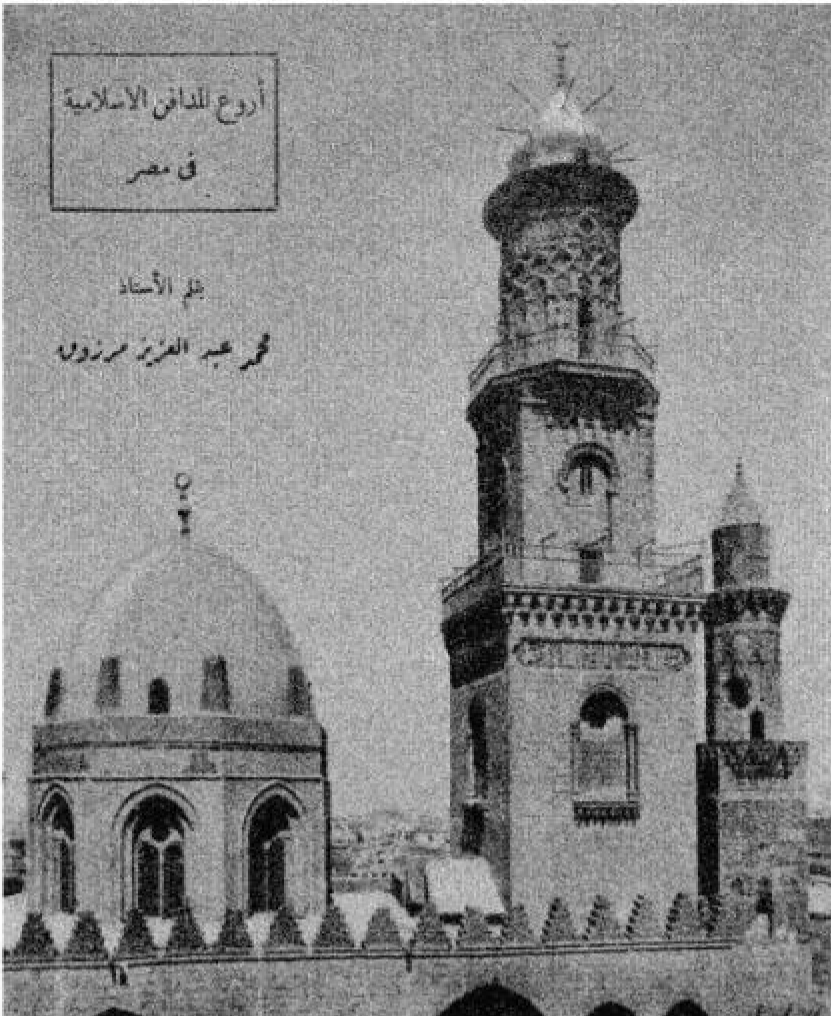
بهذه الوسائل التى أقترحها يمكن أن نجعل من أعضاء البرلمان ممثلين حقيقيين للأمة التى لا تتألف من الاغنياء والاوساط وحدهم ، بل يتكون أغلبها من العامة والفقراء . كما يمكن أن نجعل الرأى العام فى الدوائر الانتخابية على صلة وثيقة بالبرلمان وعلى علم تام بما يجرى فيه ، فتؤدى الأداة الديموقراطية عملها على الوجه الاكمل المنشود

(عن مقال للنائب الانجليزى أوبر بلفور فى صحيفة بكتشر بوست)

أروع المدافن الاسلامية
في مصر

بقلم الأستاذ

محمد عبد العزيز مرزوق



قبة السلطان قلاوون

لعل أخص ما تمتاز به مصر على غيرها من بلاد العالم الاسلامي أنها نجت من كثير من الكوارث التي نزلت بتلك البلاد ، فاحتفظت لنا بتلك السلسلة المتماسكة الحلقات من الآثار التي شيدها أجدادنا من المسلمين لاغراض شتى وفي عصور مختلفة . ولا شك في أن زيارة تلك الآثار والتأمل فيها ليست – كما يظن الكثيرون – جهدا ضائعا أو ترفا يمكن الاستغناء عنه ، فهي في الواقع وسيلة فعالة لتصفية الذوق ، وتثقيف العقل ، وصقل المواهب لا سيما اذا جمعت الى جمال زخرفها ودقة تكوينها نصوصا تاريخية تصور لنا الحياة في عصرها وتحدثنا عمن أمر ببنائها وساهم في تشييدها ، وهذه قبة السلطان قلاوون – أروع المدافن الاثرية الاسلامية في مصر [1] – ترهف الوجدان بجمالها الرائع ، وتملأ النفس بصنعتها المحكمة ، وتوسع أفق العقل بتلك الكتابات التاريخية المنقوشة على جدرانها في الداخل وفي الخارج . وهي احدى عمائر ثلاث شيدها هذا السلطان في صعيد واحد : بيمارستان لمعالجة المقراء عفى رسمه ولم يبق منه الا اسمه علما على مستشفى حديث لامراض العيون ، ومدرسة عبثت بها يد الزمن قليلا ، ثم هذه القبة التي أقامها لتكون مثواه الاخير وهي تعد بحق أروع ما أقامه من آثار

وهي غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تحمل عقوده المزخرفة على أربع أرجل بينها أعمدة أربعة من الجرانيت الاحمر تدل تيجانها وقواعدها على أنها من صنع البطالسة في العصور السابقة على المسيحية والاسلام ، نقلها المسلمون الى هذا البناء وأعادوا استعمالها من جديد بعد أن ذهبوا رؤوسها ، ويغطى هذا المثمن قبة شاهقة من أجمل ما شيده المسلمون من قباب ، يخترق رقبتها نوافذ عدة ويرقد تحتها جثمان السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد وحفيده اسماعيل ، ويحيط بالقبر حاجز من الخشب تفنن الصانع في خرطه وتشكيله . أما الجزء المحصور بين المربع والمثمن فسقفه مقسم الى قصع مموهة بالذهب والاصبغة الجميلة

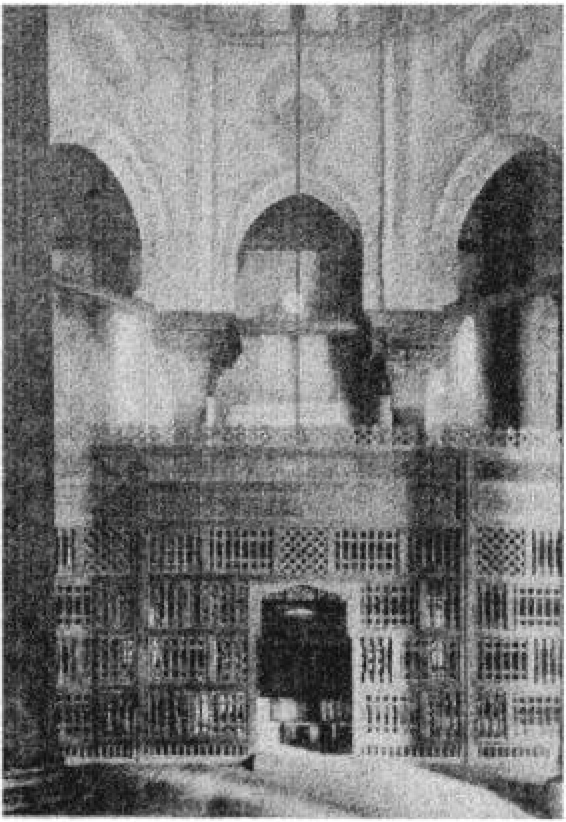
ويخترق جدران هذا المدفن العظيم ثلاثة صفوف مختلفة الرسم والحجم : نراها في الصف الاسفل مستطيلة الفتحة كان يجلس فيها القراء – على حد قول المقريزي – يتناوبون القراءة طول الليل والنهار . ونجد فتحاتها في الصف الاوسط متوجة بعقود مدببة . أما في الصف العلوى فيقسم كل نافذة عامود لطيف تعلوه دائرة مفرغة في الجدار . وتزدان نوافذ الصفين الاوسط والاعلى من الداخل بزجاج مختلف الالوان ينعكس منه الضوء فيكسب المكان بهاء وروعة . أما من الخارج فيملأ فتحات النوافذ جميعها مصبعات من البرنز ومن الجص تكون في تقاطعها زخارف يحار البصر في محاسنها . ويزين هذه الجدران من أسفل ألواح من الرخام يعلوها فسيفساء مصنوعة من الصدف ومن الرخام المختلف الالوان تشهد فيها زخارف عربية جميلة أو كلمة « محمد » مكتوبة بالخط الكوفي المربع رتبت في أوضاع متباينة جعلتها تبدو كأنها عنصر زخرفي لا كتابة مقروءة ، وفوق هذا نرى طرازا مذهبا من الكتابة النسخية غاية في الابداع

أما المحراب فقطعة من الفن الجميل ، يحف به من جانبيه أعمدة من الرخام رشيقة التكوين ، ويكسو تجويفه فسيفساء دقيقة من الصدف والرخام ، وتزينه صفوف من العمد الصغيرة ترتاح لرؤياها العين

وللتربة واجهة تتجلى فيها براعة الفنان المسلم وحذقه بأبهى صورة ، تخالها لدقتها قطعة نسيج تفنن الصانع في نسجها وتطريزها ، وهي تطل على قاعة جليلة كانت – كما يقول المقريزي – مفروشة بالرخام الملون وكان في وسطها فسقية يصل اليها الماء من فوارة بديعة الزى

---

(١) بشارع المعز لدين الله (بين القصرين سابقا) بجوار الصاغة

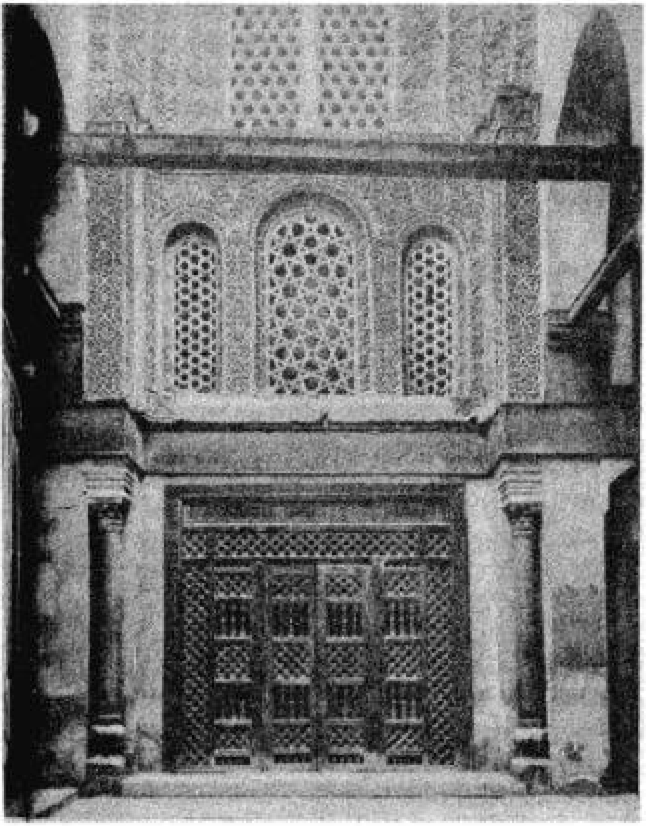


تمثل هذه الصورة قبة قلاوون من الداخل ، وهي غرفة مربعــــة الشكل يتوسطها مثمن تعتمد عقوده المزخرفة على أربع أرجل بينها أربعة أعمـــدة من الجرانيت الأحمر (تصوير إدارة حفظ الآثار العربيــة)

أما الواجهة المشرفة على الطريق العام فتكون مع القبة والمئذنة الذاهبة في الفضاء منظرا يبلغ فيه الفن مستوى رفيعا من الروعة والبهاء ، تتوجها شرفات غاية في الابداع ، ويزينها تجويفات قليلة الغور مختلفة السعة لها عقود مدببة ويفصلها عن بعضها البعض أكتاف محمولة على عمد رومانية ، ويجري على سطحها طراز من الكتابة النسخية الجميلة يتضمن تاريخ البناء (٦٨٣/٦٨٤ هـ — ١٢٨٤/١٢٨٥ م)

ولئن كنا جد حريصين على أن نتلقى عن هذا الاثر الرائع درسا صادقا في التاريخ فلنرفع البصر الى ذلك الطراز ، ولنصطنع الصبر قليلا لنقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذه القبة الشريفة والمدرسة المعظمة والبيمارستان المبارك تقربا الى الله سبحانه وتعالى سيدنا ومولانا السلطان الاعظم المنصور العالم العادل المؤيد المظفر المجاهد المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين سلطان الارض ذات الطول والعرض ملك البسيطة سلطان العراقين والمصرين ، ملك البرين والبحرين وارث الملك ملك ملوك العرب والعجم صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين أدام الله نصره وأعز أنصاره وأعلا مناره »

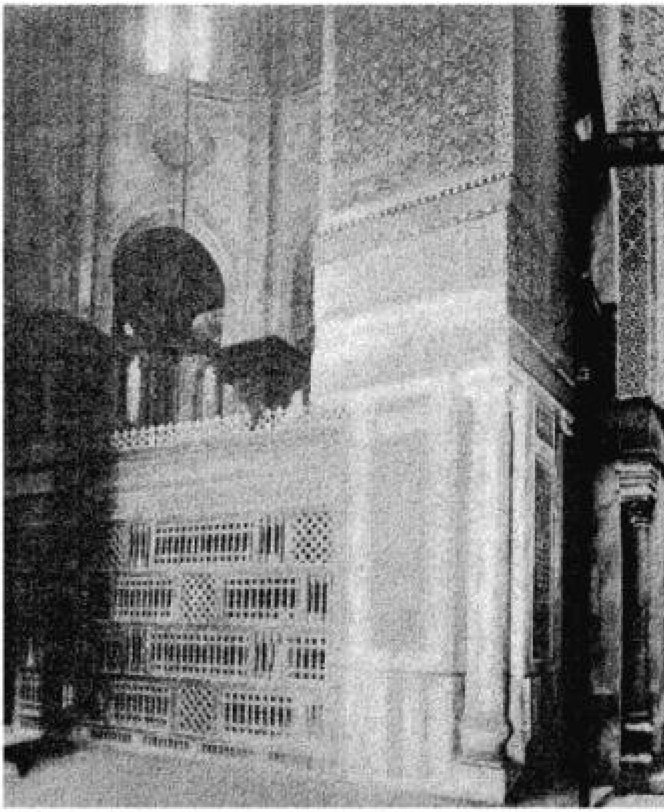
ففي هذه السطور القليلة ما يعطينا صورة واضحة المعالم لما وصلت اليه مصر في عهد قلاوون من



الواجهة الداخلية لقبة قلاوون ، وقد حليت بالزخارف العربية الجميلة (تصوير إدارة حفظ الآثار العربية)

العظمة والسؤدد اذ دان لها المصران أى الوجهان القبلى والبحرى ، وامتد نفوذها الى العراقين العربى والعجمى ، ودخل فى ظلها البحران الابيض والاحمر ، والبران أى بعض سواحل آسيا وأفريقيا ، وارتفع اسمها فى قبلتى مكة والقدس ، وعلت مكانتها فى الحرمين المكى والمدنى (١) بل فيها ما يلخص لنا نشأة قلاوون نفسه أحسن تلخيص ، فقد أضاف الى اسمه كلمة « الصالحى » وهو لفظ على صغره يكشف لنا عن أصل هذا السلطان فالصالحى تعنى الصالح نجم الدين أيوب أحد سلاطين الدولة الايوبية ، ونسبة قلاوون اليه معناها أنه كان من مماليكه ، والمماليك رقيق كان يحصل عليه بالاسر فى الحرب أو الشراء فى السلم ، وقد كان الخلفاء العباسيون أول من استن هذه السنة ، ونسج على منوالهم أمراء المسلمين وسلاطينهم فاستعانوا بهم فى الحرب وزينوا بهم قصورهم فى السلم ، فابن طولون قوى بهم جيشه ، والاخشيد اعتمد عليهم فى حروبه ، والفاطميون أكثروا من شرائهم ، والايوبيون بالغوا فى الاستكثار منهم لا سيما الصالح نجم الدين أيوب الذى كان عامة عسكره منهم كما يقول ابن اياس ، وقد كان قلاوون أحد مماليكه هؤلاء اشتراه بألف دينار

(١) Van Berchem : Materiaux pour un Corpus Inscriptiorum Arabicarum I p. 126, 127



المحراب قطعة من الفن الجميل ، يحف به من جانبيه أعمدة من الرخام، ويكسو تجويفه فسيفساء دقيقة من الصدف والرخام وترى جانباً منه (تصوير إدارة حفظ الآثار العربية)

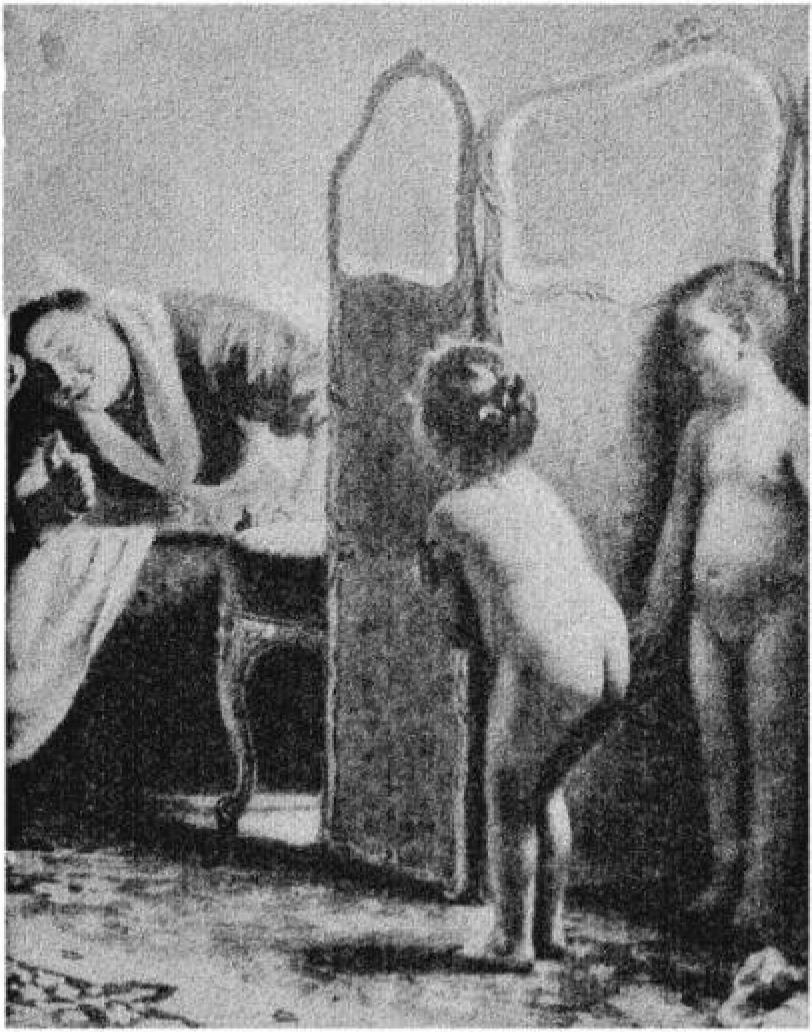
على أن في الظواهر المعمارية التي نشاهدها في هذا الأثر ما يزيدنا علما بالعصر الذي أنشىء فيه : فالتأثيرات السورية التي تتجلى في تصميم القبة — الذي يشبه تصميم قبة الصخرة في القدس — وفي الوزرات الرخامية وفي شكل النوافذ ، والتأثيرات الاندلسية والسلجوقية التي نراها في المئذنة وفي الواجهة الداخلية ، والتأثيرات القوطية التي تظهر في شكل بعض العقود ، جميعها تشعر بما كان لنا من صلات — في الحرب أو السلم — مع المغول والصليبيين والروم في آسيا ومع الفرنسيين والطليان والاسبان في أوربا

▭

وهكذا نرى أن هذا الأثر الرائع بما تضمنه من نصوص تاريخية ومن تأثيرات معمارية يعد بمثابة سجل مفتوح لتلك الفترة الذهبية من تاريخنا في العصور الوسطى يوم امتد نفوذنا الى الشمال والى الجنوب وخطبت ودنا دول الشرق والغرب

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد لدار الآثار العربية



في الحمام

لوحة فنية للفنان بول بيل

إن أفكار أفراد الأمم الأوربية والأميركية حتى الآسيوية متجهة الآن الى «الديمقراطية الدولية» وهذا يقضي بأن تكون جميع الأمم مشتركة في المجلس الأوربي الذي اقترحه تشرشل على قدم المساواة

تنظيم العالم المنتظر بعد الحرب

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

حقا انه لخليق بكل أمة أن تقلق على مصيرها بعد الحرب ، وأن تتشوف منذ الآن الى معرفة تنظيم العالم المنتظر ، لان هذه الحرب شملت جميع الامم : بعضها مباشرة ، وبعضها بالاتصال بالامم الاخرى المحاربة . ولا سيما لان انتشار المواصلات والمعاملات ربطها جميعا ربطا وثيقا ، بحيث أنه صار مستحيلا على أية أمة أن تنفرد في عزلة وتستقل عن مجموعة الامم

وما صدر من أقوال أساطين السياسة من تصريحات اجمالية عن التنظيم المنتظر ، أثار لغط الناس وثرثرتهم وأطلق ألسنتهم بالتكهن عنه . فتضاربت الاقوال والتكهنات على غير أساس أو هدى . على أننا اذا تدبرنا أقوال زعماء السياسة ، لمحنا ضوءا هاديا الى ما دبره هؤلاء الزعماء وما تباحثوا فيه في مؤتمراتهم المتوالية

عندنا ثلاثة بلاغات تفصح عما في نية الزعماء : اثنان رسميان والثالث شبه رسمي

فالبلاغ الاول الميثاق الاتلانتي الذي اتفق عليه المستر تشرشل والمستر روزفلت بعد دراسة دقيقة للاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتوقعة . وكل ذلك على ظهر سفينة حربية في عرض الاوقيانوس الاتلانتي في أغسطس سنة ١٩٤١

وأهم ما في هذا الميثاق المادة الثالثة التي تنص على احترام حق جميع الشعوب في اختيار الحكومات التي تدير شؤونها

والرابعة منح جميع الدول بلا استثناء حق الوصول الى اتفاقات تجارية متساوية

والسابعة منح جميع الناس حق التجارة الحرة عبر البحار

والثامنة نزع السلاح

وكان روزفلت قد نشر في ٥ يوليو سنة ١٩٤٠ بلاغ الحريات الاربع التي صارت مشهورة : وهي حرية القول ، وحرية العبادة ، والتحرر من البؤس ، والتحرر من خوف الحرب والخصومة

ومجمل هاتين الوثيقتين أن تتسع دائرة حرية الامم والافراد أكبر اتساع ممكن أي

أن تكون كل أمة مستقلة استقلالا متسعا الى حد ألا يمس استقلال الغير ، وبحيث لا يستغل فرد عمل فرد آخر ، ولا تستغل أمة نتاج أمة أخرى ـ وهكذا تكمل « حقوق الانسان »

ذلك منتهى ما يتوصل اليه من الوسائل لسلام الامم وهناءة الافراد

لا ريب أن هاتين الوثيقتين أرسخ أساس لبنيان العالم الجديد . ولكن أين الكفيل لنقل هذا الاساس عن ورق الوثيقتين الى حقل المجتمع حيث يشاد البناء

لا يخفى أن الميثاق الاتلانتى لم يوضع ويقرر الا بعد أن تفاوض تشرشل وروزفلت مليا فى قضية تنظيم العالم بعد الحرب . فجاء الميثاق زبدة تلك المفاوضات

وفى ٢١ مارس من عام ١٩٤٣ ألقى تشرشل خطبة فى اجتماع حافل تضمنت صفوة تلك المفاوضات ، وهى القرار الذى أقره هو وروزفلت . فكان هذه الخطبة بمقام تعهد بكفالة ذينك الزعيمين العظيمين لتنفيذ الوثيقتين الآنف تلخيصهما

ثم جاءت خطبة سمطس نائب تشرشل المؤقت فى ٢٥ نوفمبر من عام ١٩٤٣ مزكية لذلك القرار

زعزع البناء

ويظهر ، بكل أسف ، أن بين الوثيقتين من ناحية والخطبتين من ناحية أخرى تناقضا قد يجعل أساس البنيان غير وطيد ، وبالتالى يجعل البنيان نفسه مزعزعا . واليك مقتطفات مما جاء فى خطبة تشرشل مما يخص النظام العالمى :

« .. نأمل أن تشرع حالا الامم المتحدة وفى مقدمتها الدول الثلاث المنتصرة وهى بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا فى بحث مستقبل العالم ووضع القواعد التى تضمن عدم نشوب حروب أخرى ، وذلك بنزع سلاح الدول المعتدية وابقائها بدون سلاح ، ومحاكمة مجرمى الحرب وشركائهم وضمان اعادة الاراضى المجتاحة واعادة كنوز البلاد التى نهبت

« ويستطيع المرء أن يتصور تمثيل جميع الامم فى مجلس لاوربا ومجلس آخر لآسيا .. وتسوية مسائل أوربا ستكون مركزة على عاتق هذا المجلس الاوربى . وهو عبء هائل لان جميع الاسباب التى أفضت الى نشوب الحربين العالميتين موجودة فى أوربا

« ومن المحقق أنه يجب أن نجعل فكرة الحرية العالمية أساسا لعملنا الجديد ، وأن نجعل للاخلاق التى كانت روح عصبة الامم المكانة الاولى .. ويجب أن نجتهد ـ وانى أتكلم طبعا عن انفسنا ـ فى أن نجعل مجلس أوربا ، أو الهيئة التى تسمى بأى اسم آخر ، عصبة فعالة حقيقة ، ولديها جميع القوات التى تحتاجها ، داخلة فى نسيجها ، مع محكمة عليا لتسوية المنازعات ، وقوات مادية قومية ، أو دولية ، أو كليهما مستعدة لتنفيذ قراراتها ومنع تجديد الاعتداء والاستعداد للحرب فى المستقبل

« وفى وسع كل انسان أن يرى أنه متى أنشىء هذا المجلس ، يجب أن يكون شاملا لكل ما يتعلق باوربا ، وان جميع فروع الاسرة الاوربية الاساسية يجب أن تكون أعضاء فيه يوما ما (متى ؟) (وماذا يحدث لذلك العدد الكبير من الامم الصغيرة التى يجب ضمان حقوقها ومصالحها ؟)

« يجب على كل حال أن ندرس بصبر وأناة مع الامم العظمى ضرورة وجود جماعات من الدول أو الاتحادات الى جانب الدول العظمى ، لتعرب بواسطة مندوبيها المختارين عن جميع المسائل المشتركة بين الامم العظمى وتلك الدول الصغرى . ولى وطيد الامل فى أن نتمكن من ايجاد أكبر مقدار مشترك بالامكان فى الحياة المتماسكة فى أوربا دون أن نقضى على المميزات الفردية وتقاليد أجناسها التاريخية الكثيرة . وهذا كله على ما أعتقد سيكون مطابقا للمصالح الدائمة العالمية لبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا . ولا شك فى أن هذا لا يمكن أن يتم دون اتفاق ودى بين هذه الدول المشتركة ، وبعملها معا . وبذلك ـ وبذلك فقط ـ يمكن احياء مجد أوربا ثانيا » انتهى .. يعنى مصالح أوربا ومجدها أولا ، ومصالح غيرها أخيرا

أما خطبة سمطس فقد ضربت على النغمة نفسها وزادت عليها : (١) ان ثالوث الدول الثلاث يعتبر زعيم الامم (٢) ان هذه الزعامة المثلثة يجب أن تكون مسلحة دون سائر الامم (٣) ان خريطة أوربا قد امحت من الوجود فيجب أن ترسم لها خريطة جديدة طبقا لما ترسمه هذه الدول الثلاث .. ان كلام سمطس هذا يعد شبه رسمى ، اذ كان حينئذ نائب تشرشل فى رئاسته للحكومة الانكليزية

المفهوم من هاتين الخطبتين ، على تباعد المدة بينهما ، أنه سيكون فى أوربا طبقتان من الامم : طبقة عليا هى هذه الامم الثلاث ، وطبقة دنيا وهى الامم الاخرى التى سترسم على الخريطة الجديدة . وتلك سيدة هذه وهذه خاضعة لتلك ، وتلك مسلحة وهذه مجردة من السلاح ، وتلك تأمر وهذه تأتمر

فكيف يكون ميثاق الاتلانتى هنا ضامنا الحريات الاربع ؟ وكيف يكون هذا النظام مانحا حقوق الانسان للناس والامم جميعا ؟

والملاحظ جيدا أن تشرشل وروزفلت كانا يبلغان ستالين نتائج مفاوضاتهما على التوالى . والظاهر أنه بعد خطبة تشرشل التى نحن بصددها ، لم يكن ستالين موافقا على الخطط التى اختطاها وعلى تفاصيل تنفيذها ، بدليل أنه بعد خطبة تشرشل بنحو شهرين ، نشر فى بعض الجرائد نبأ برقى بعنوان « المشكلات السياسية » فهم منه أن ستالين مصر على تنفيذ البند الثالث من الميثاق الاتلانتى باوسع معنى ـ أى أنه يجب أن تترك لكل أمة الحرية المطلقة بأن تقرر مصيرها بنفسها . ولا يسمح بأن يقوم فيها رجل مثل كويسلنج يستقل بالسلطة ويحكم بأمره ويستبد، معتمدا على مساعدة دولة أجنبية من وراء الستار . ولعله يرمى بذلك الى ترك الشعوب تعتنق مذهبه السياسى الاقتصادى لانها أصبحت

مختمرة به . وكأنه يعارض فى أن يكون للمجلس الاوربى الذى يقترحه تشرشل سلطة واسعة

ولا ريب أن المؤتمر الثلاثى فى طهران وفق بين الزعماء الثلاثة على جميع مسائل ما بعد الحرب . ولكننا لم نعرف ماذا كان قرارهم بشأن قيادة الثالوث السياسى لسائر الامم

أعصبة أمم محالفة ثلاثية

اذا كان المراد من مشروع التنظيم الذى صرح به تشرشل ، أن يعتبر ذلك المجلس الاوربى عصبة أمم جديدة تحل محل عصبة الامم التى بادت ، فهو يمتاز عليها بامر ويعاب مثلها بامر آخر — يمتاز على العصبة بأنه يكون مسلحا تسليحا متضامنا — أو أن تبقى دوله الثلاث مسلحة — دون سائر الامم لتنفيذ قراراته وأحكامه وردع الدولة التى تعتدى أو تخل بالنظام الدولى

وأما عيب المشروع فقد يكون أضر من العصبة التى كانت عزلاء من السلاح . وهو ان هذه العصبة الجديدة لا تشمل جميع أمم العالم حتى ولا جميع أمم أوربا ، بل تقتصر على الدول الكبرى الثلاث . وقد تضاف اليها اضافة ثانوية الدول التى حاربت أو حوربت معها ، كبلجيكا وهولاندا وبولاندا وتشكوسلوفاكيا ونروج ويوجوسلافيا واليونان وربما فرنسا أيضا . ومع الزمان تقف الى جنبها بعض الدول الاخرى التى كانت محاربة مع المحور ، تقف فى الدرجة الثالثة لكى تعرب بواسطة مندوبيها عن آرائها ورغباتها فى المصالح المشتركة بينها . وأما الامم التى بقيت على الحياد فتجامل بقدر ما يستحق مقامها وحسن تضامنها مع العصبة

فهذا الاتحاد الأممى الذى ينشده المستر تشرشل وزملاؤه من كبار الساسة لن يكون عصبة الامم جماء ولا عصبة الامم الاوربية والاميركية ، بل يكون عصبة ثلاث أمم فقط ، تضم تحت جناحيها بعض الامم الصغيرة وتتحكم بالامم الاخرى . فهى من هذا القبيل لا تختلف عن العصبة السابقة الا بالسلاح . وفيه الخطر اذا لم تكن ذات ضمير طاهر. وقد كانت تلك العصبة المرحومة تشتمل على انكلترا وفرنسا والى جنبهما بعض الدول الصغرى المحتاجة الى الاعتصام بهما . وأحيانا كانت انكلترا وحدها تلعب دور العصبة كما حدث حين اعتدت ايطاليا على الحبشة ، فحكمت العصبة بمعاقبتها بالمقاطعة الاقتصادية. ولكن تنفيذ المقاطعة اقتصر على انكلترا وحدها . وأما فرنسا فبدلا من أن تقاطع ايطاليا أقرضتها عشرين مليون جنيه حينئذ . وهكذا فشلت العصبة وزالت هيبتها . لماذا ؟ لانها كانت عصبة بعض أمم لا عصبة الامم جماء

ما هذه العصبة الجديدة الا محالفة ثلاثية كبرى مسلحة ضد دول صغرى مشتتة عزلاء. اذن فالعوامل التى تسبب الحرب لم تنقض

على أننا لا نستطيع الآن أن نتكهن فيماذا يكون شأن الدول الاخرى ، التي لم تكن الى جانب الدول المتحدة في هذه الحرب ، ولا سيما التي كانت عدوة الحلفاء – ألمانيا والنمسا وايطاليا ورومانيا وهنغاريا وبلغاريا وفنلنده – وجل ما فهمناه من هذا القبيل أن جميع فروع الاسرة الاوربية يجب أن تكون مجلس العصبة يوما ما . متى ؟ لا ندرى ولا سيما لان المارشال سمطس قال انه لن يكون صلح . قال بنصه : « قد نرضى بهدنة شاملة نتفاهم عليها دون أن نصل الى أية مؤتمرات للصلح مطلقا »

فاذا لم يكن صلح ولو بعد سنين ، فكيف يمكن انضمام هذه الامم الى العصبة . واذا كانت هذه العصبة لا تضمن عدلا ، فكيف تضمن سلما ، أو بالعكس . اذا ضمنت السلم الى حين ، فلا تضمنه بالعدل ، بل بقوة سلاحها المطلقة . واذا كانت بعض الامم تسيطر على بعض الامم الاخرى ، فكيف تكون ديموقراطية الميثاق الاتلانتي قد فازت في هذه الحرب ؟ ألا تكون الدكتاتورية الدولية قد فازت ؟

الديموقراطية الدولية

ان أفكار أفراد الامم الاوربية والاميركية حتى الاسيوية الراقية متجهة بكل الاتجاه الآن الى « الديموقراطية الدولية » ، أعنى أن تكون العلائق الدولية قائمة على أساس الديموقراطية الصحيحة . وهذا الاتجاه يقضى بأن تكون جميع الامم مشتركة بالمجلس الاوربي الذى اقترحه تشرشل على قدم المساواة ، أي أن يكون لكل أمة كبيرة أو صغيرة عضو أو أعضاء فيه . فيكون هذا المجلس كبرلمان دولى أعلى . وله أن يعين الادارة السياسية العليا المسيطرة ، وأن يقرر تسليحها على حساب جميع الدول المشتركة فيه . وحينئذ يكون من حقه وفى طوقه أن يجرد جميع الدول من سلاحها بحجة أن لكل أمة ضلعا في قوته الحربية يكفل الدفاع عنها ، وتنفيذ القضاء بين الدول المختصمة ، وادارة الشؤون الاقتصادية الخ

فاذا قام النظام على هذه القاعدة الديموقراطية ، كان مطابقا للميثاق الاتلانتي الذى هو سند جميع الامم الآن ، ولا سيما الامم الصغرى ، والا فيكون محالفة ثلاثية مسلحة ضد الامم الاخرى العزلاء كما تقدم القول . ويبقى شأن هذه الامم تحت رحمة انكلترا واميركا وروسيا ومعلقا في ذمتهن . فاذا كانت الاحوال الحاضرة تكفل حسن ذمتهن الى حين ، فمن يكفله في المستقبل ؟

وحاصل القول ان مشروع المجلس الاوربي هو مشروع وقتي غير مضمون الخلود أو الدوام الى أجل بعيد ، لانه ليس ديموقراطيا بحتا . لا يكون راسخا وطيدا الا اذا كان جمهورية عليا لجميع الامم الجمهورية أو شبه الجمهورية أو الملكية . والمجلس يكون بمقام برلمان . وهذا البرلمان يعين الهيئات الادارية العليا – حكومة الحكومات

في رأى بعض المتفقهين في السياسة أن الديموقراطية جربت فحبطت ، ولذلك لا بد من

الاعتماد فى ادارة شؤون الامم على الزعامة الدولية . وما أدرانا ألا تتحول هذه الزعامة الدولية الى دكتاتورية دولية مستبدة

لم تحبط الديموقراطية فى بعض الامم لانها نظرية خاطئة ، بل حبطت لان الساسة أساءوا التصرف فيها . فالعيب ليس فيهـا بل فيهم . فاذا كانت ناجحة فى بعض الامم كانكلترا وأميركا وروسيا ، فماذا يمنع أن تنجح بين الدول ؟

لعل الديموقراطية الدولية لا تصلح الآن لبعض دول هذا الزمان لضعف أخلاق الساسة والافراد ، فلا بأس أن تكون القيادة فى يد زعامة دولية ، كالمجلس الاوربى الذى اقترحه تشرشل ، لانه يظهر أن بعض الافراد وبعض الهيئات وبعض الامم لا تحسن السلوك الا اذا كانت منقادة بقيادة زعماء . ولانه فى كثير من الاحوال يكون الحكم الملكى أصلح للجماعة من الحكم الجمهورى كما هو الحال فى انكلترا ومصر مثلا ، اما لان الشعب تعود الحكم الملكى حتى صار سجية فيه ، أو لانه لم يتشرب بعد فضيلة الديموقراطية

وانما يشترط أن تكون الزعامة صالحة الضمير ، والا فلا تؤتمن على مصالح الامم وعلى العدالة بينها

فصلاحية النظام المعد للمستقبل القريب تتوقف على أمانة الزعامة الثلاثية وحسن طويتها . والملجأ الاخير هو الله الملهم والعاصم والمكافىء

المجلس الأسيوى

نعود الآن الى اقتراح المستر تشرشل ، وهو أن يكون لامم آسيا مجلس آخر بازاء مجلس أوربا

لم يذكر المستر تشرشل عن هذا المجلس شيئا البتة لكى ينيرنا عنه كما انارنا عن مجلس أوربا . فان كان يعنى به أن يكون على مثال المجلس الاوربى ، فبين القارتين فروق اجتماعية وسياسية واقتصادية عديدة . ولذلك لا يمكن أن يتطابق المثالان على النمط الذى ألمع اليه المستر تشرشل ، أى نمط العصبة المميزة بين الدول الاوربية ــ العصبة التى تكون فيها الدول درجات

ما هى الدول الاسيوية الرئيسية ؟ ليس فى آسيا دولة مستقلة الا الصين واليابان . وهما متعاديتان . وان أريد أن تعتبر روسيا جغرافيا شطرين ، فهناك روسيا الآسيوية ــ سيبريا الكبرى ــ وما بقى فى آسيا فامم مستعمرة ، اللهم الا سيام اذا سلمت وعاد لها استقلالها . فهل تؤلف العصبة الاسيوية من الصين وروسيا الاسيوية وسيام ؟ وماذا يكون شأن سائر الامم المستعمرة كالهند والهند الصينية والملايا وشأن أمم الاوسيانيكا وشأن أمم أفريقيا جميعا ؟ هل تبقى توابع للدول المستعمرة لها ؟ أم تكون الى جانب العصبة الاسيوية كما تكون الامم الاوربية الصغرى الى جانب العصبة الاوربية على النحو الذى ذكر فى محله ؟

هذه مسائل عظيمة الشأن جدا . لانه على الرغم من بعد الشقة بين مجموعتى الامم فان المصالح بينهما أشد ارتباطا منها بين الامم الاوربية نفسها التى كانت تتازع آسيا وافريقيا. لان أوربا تكاد تكون سوق المواد الاولية (الخام) التى تصدر اليها من آسيا وأفريقيا والباسفيك . وهذه سوق المصنوعات الاوربية والاميركية. فلو انقطعت الصلة بين الجانبين هلك الجانبان معا . فاذن هذان الجانبان شقيقان مرتبطان شديد الارتباط ، فكيف يفصل بينهما سياسيا ؟

فاذا كانت المستعمرات ستبقى مستعمرات يستغلها مستعمروها ، وكل دولة تستغل مستعمراتها لنفسها دون غيرها ، فلا فائدة من هذه العصبة ، لان الطموح الى تنازع هذه المستعمرات يبقى سوسا ينخر عظام السلام . ولان الاستعمار كان علة هذه الحروب وما تحدثه من دمار . وسيبقى كذلك ما دام قائما

ولماذا يكون فى العالم مجلسان دوليان أو عصبتان للامم ؟ ألان الغرب غرب والشرق شرق ، وذاك يجب أن يكون سيد هذا الى الابد ؟ أم لان أوربا هى العالم كله ؟ أو أن العالم هو أوربا وحدها ؟

الى متى هذه العنجهية الاوربية ؟

يا ترى هل فهم الاوربيون ان هذه العنجهية قتلتهم ، وستقتل مدنيتهم أيضا ؟

نقولا الحداد

أغرب الساعات

■ فى مدينة مسينا بصقلية ساعة تشتمل على أسد وديك : أما الاسد ، وارتفاعه اثنتا عشرة قدما ، فيزأر زئيرا مدويا اذا جاء وقت الزوال. أما الديك ، وارتفاعه ست أقدام ، فيصيح عند شروق الشمس وعند غروبها

■ وفى مدينة بيرث باستراليا ساعة على هيئة تمثال القديس جورج ، وكلما مرت ساعة سل القديس سيفه وقطع به رأس الشيطان ، فتهوى عن جسده ثم تعود الى مكانها ، فيعود القديس بعد ساعة الى قطعها وهكذا

■ فى أحد مستشفيات مدينة ميونيخ ساعة خاصة بالمرضى المستلقين على ظهورهم ، فاذا ضغط أحدهم على « زر » خاص الى جواره ، ارتسم على سقف الغرفة ظل عقربى الساعة ، فعرف الوقت ، وهو نائم دون أن يدير عنقه أو يحرك رأسه

الطيران في أعالي الجو

بقلم الضابط الطيار جورج رينولدز

الحرب الجوية هي ظاهرة العصر الحاضر . وانى أكتب هذه السطور فى وقت تغير فيه الطائرات الانجليزية على برلين وهامبورج وغيرهما من مراكز الانتاج الكبرى فى بلاد المحور ، ولا شك فى أنها تكيل لها الضربات الموجعات ، وان للحرب الجوية عموما أثرا بارزا فى البلوغ الى الظفر من هذه الحرب

غير أننى أكتب هنا فى ناحية أخرى من الحرب الجوية ، قد لا تبدو باهرة لرجل الشارع ، ولكنها مع ذلك بالغة الاهمية ، وأعنى بها الطيران فى أعالى الجو

ان كون الانسان يحلق بطائرة على ارتفاع تسعة أميال ، بحيث لا تراه عين الانسان ، وفى أكثر الأحوال لا تسمعه الاذن كذلك ، قد لا يثير من الاهتمام ، مثل ما يثيره تحليق طائرة مغيرة تسقط قنابل تزن آلاف الاطنان ، ومع هذا ، فان جانبا كبيرا من الفضل فى تلك الغارات ، وامكان القيام بها ، يرجع الى الطيران فى أعالى الجو

ان التحليق فى أعالى الجو ، بغير مقصورة للضغط الجوى ، يخلق للانسان شعورا لا يحدثه غيره من ضروب الطيران : فهناك مثلا برد شديد ، يبلغ من شدته أن الزيت فى غليانه لا يلبث بضع دقائق حتى يتجمد . ويجهد الطيار نفسه كى يحتفظ بوعيه ، وهو يستهدف للموت اذا انقطع عنه مدد الاوكسيجين الذى يحمله على ارتفاع ٣٥٠٠٠ قدم . وهناك الاشعة السماوية cosmic . التى تؤثر فى العينين ، ونقص الاوكسيجين الذى يحدث اضطرابا فى البصر ، حتى لتختفى الطائرة المعادية الضخمة بغتة ، لتعود بعد لحظة ، وقبل أن يفيق الطيار من دهشته

ثم هناك شعور الطيار بأنه فى سماء أخرى ، تختلف عن السماء التى نراها من الارض بكونها سوداء كالقار ، وبكون الشمس تبدو عندها كجهاز ضخم للضوء الكشاف ، يتوسط بساطا من المخمل الاسود

وفى الطيران فى أعالى الجو ، يزول كل شعور بالسرعة وبالحركة ، بل ان الانسان ليرى انحناءات الارض ويميز الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، فى نطاق مئات من الاميال . وكان أشد ما بهرنى : ان أرى من طائرتى حدود بحر ايجيه ، وفيه جزيرتا كريت وقبرص أشبه بحجرين صغيرين فى بركة واسعة من الماء ، ثم أن أرى الى يمينى امتداد شاطىء افريقيا الشمالى الى ما بعد طبرق وبنى غازى ، والى يسارى فلسطين وسوريا والعراق ، ومعها البحر الميت كأنه قطعة من الورق الفضى على بساط أسمر . وعلى مسافة تبدو كامتداد اليد ، وهى فى الواقع على بعد مئات الاميال ، كنت أرى مصر

وقناة السويس ، والبحر الاحمر ممتدا الى المحيط الهندى ، وكأنها كلها رسوم فى خريطة بارزة . وكانت العواصف الرملية ، التى تعمر مئات الاميال المربعة من ميدان القتال ، تبدو وكأنها بعض الغبار الذى يراه القارىء فى الخرائط الحربية ببعض صحف لندن المصورة . ذلك منظر بالغ الفخامة والاثر ، يعيه الذهن الى الابد

وبديهى أن التحليق فى الجو ، على ارتفاع ينحط الضغط الجوى عنده الى عشرين لبرا (١٠ كيلومترات تقريبا) على البوصة المربعة ، هو أمر غير مريح ، اذ يشعر الطيار بثقل فى الساقين والذراعين يقاومه ، وينتفخ بطنه من انفجار الغازات فى أمعائه ، ويتخلل الالم مفاصله كلها حتى ليوشك على الاغماء

ولقد كان من حسن جدى انى طرت مرارا فى أعالى الجو ، وحزت بذلك تجربة ما كنت لارضى بها بديلا . ولقد عهد الى وزميلين لى أن ندمر طيارات الاستكشاف الالمانية من طراز يونكر ٨٦ التى كانت تحلق متحدية فوق معسكرات الحلفاء فى الشرق الاوسط، قبل هجومنا العظيم فى العلمين ، وتأهبا له ، أى فى وقت كان من المهم الحيوى حجب حركات جيوشنا وأسلحتها ومعداتها عن العدسات القوية المركبة فى تلك الطائرات الالمانية

وفى ذلك الحين ، لم تكن أية طائرة من طائراتنا فى الشرق الاوسط ، قد حلقت فى الجو أعلى من ٤٠٫٠٠٠ قدم ، بينما كانت الطائرات الالمانية السالفة الذكر تعلو ٥٠٠٠ قدم الى ١٠٫٠٠٠ قدم فوق ذلك الحد . وكانت أمامنا صعاب فنية شتى . وكان الالمان قد تأهبوا للطيران فى أعالى الجو وذللوا صعابه قبل عشر سنوات من قيام الحرب . غير أن رجالنا الفنيين جعلوا يعملون ليل نهار ، ويكافحون العقبات الفنية واحدة بعد أخرى ، فلم تمض أسابيع معدودة ، حتى أنجزوا فى هذا السبيل ما أنجزه الالمان فى عدة سنوات ، وذلك بفضل البراعة الفنية الفائقة ، والتعاون الوثيق ، فضلا عن روح التجديد والتحسين الكامن فى نفوسهم

ولقد حطمنا عددا من طائرات يونكر ٨٦ ، غير أن أول نصر موطد لنا فى أعالى الجو ، كان على ارتفاع ٤٩٫٠٠٠ قدم حيث طاردنا طائرة من ذلك الطراز الى البحر الابيض المتوسط ، حتى هوت فى البحر وهى شعلة نار . وكان ذلك أعلى ارتفاع وصلت اليه طائرة أثقل من الهواء فى الشرق الاوسط ، وكذا أقصى علو وصل اليه طيار دون أن يستعين بمقصورة للضغط الجوى أو بذلة لهذا الغرض

انى أعتقد أن الطيران فى أعالى الجو سوف يصبح أكثر شيوعا مع مضى الزمن ، غير أن ذلك لا يعنى أن الطيران على ارتفاع ٥٠٫٠٠٠ قدم مثلا سوف يصير أمرا عاديا يحدث كل يوم . بل أحسب أن طائرات الركاب سوف تروح وتغدو على ارتفاع يقل ١٠٫٠٠٠ أو ١٢٫٠٠٠ قدم عن ذلك الحد ، وفيها جميع وسائل الراحة التى يمكن علم الطيران الحديث أن يوفرها لراكبى متن الهواء

(عن صحيفة أوتسبان بافريقيا الجنوبية)

الاتحاد العربي : هل هو ممكن ؟

للدكتور فيليب حتي
الاستاذ بجامعة برنستن بامريكا

ترجمة الاستاذين
فرحات زيادة وابراهيم فريجي

من هم العرب ؟

فى زمان سابق لفجر الاسلام وقبل القرن السابع للمسيح ، كان يطلق اسم « العرب » على شعب واحد متجانس يسكن الجزيرة العربية والهامش الداخلى من الهلال الخصيب المجاور . فكانت التسمية يومذاك ذات صبغة جنسية (اتنولوجية) فقط . ولكن بعد أن انتشر الاسلام وعمت اللغة العربية وامتزج عرب الجزيرة بالشعوب الاخرى بداعى الفتوحات العديدة التى قاموا بها فى القرن الاول للهجرة ، اكتسبت هذه التسمية معنى آخر جديدا

وذلك المعنى هو المعنى اللغوى . ففى القرن التاسع للمسيح والقرون التى تلته أصبح العربى من تكلم العربية فى متسع من الارض يمتد من تركستان وفارس شرقا الى مراكش واسبانيا غربا — بقطع النظر عن أصله وجنسه . ففقدت التسمية عند ذاك المعنى الجنسى ، واكتسبت معنى آخر لغويا . وعند اضمحلال الخلافة فى بغداد وقرطبة والقاهرة ونشوء الحياة القومية فى فارس واسبانيا ، أخذ العالم العربى يتقلص الى أن بلغ حجمه الحاضر . واليوم يمكننا أن نطلق اسم « العرب » لا على سكان الجزيرة فقط ، بل على كل من تكلم العربية

واذا قبلنا هذا التعريف اللغوى — أى أن العرب هم الذين يتكلمون اللغة العربية ولا سيما اذا كانوا مسلمين بقطع النظر عن أصلهم الجنسى — فتكون البلدان العربية المهمة اليوم هى : مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب (ليبيا) ومصر والجزيرة العربية وفلسطين وشرق الاردن ولبنان وسورية والعراق — وهى كتلة متلاصقة تمتد من المحيط الاتلنتيكى غربا الى خليج فارس شرقا . ويبلغ عدد سكانها بأجمعهم اذا أهملنا الجماعات العربية فى السودان وشرقى أفريقيا — كما نحن فاعلون فى هذا المقال — خمسين مليونا .
أما بلدان شمالى افريقيا — خلا مصر — فتكون وحدة قائمة بنفسها . ذلك أن قربها من أوربا وبعدها عن مركز الاسلام وقلبه النابض فى غربى آسيا وضعف الحضارة الاسلامية والتقاليد العربية فيها بداعى ما تحتويه من الاجناس البربرية والشعوب الاوربية ، وكونها

أول البلدان العربية التى خضعت للنفوذ الاوربى ، كل ذلك أضعف الحياة القومية فيها وجعلها تنهج نهجا خاصا

• ويجب ألا ننسى أن العنصر البربرى فى مراكش يقدر بستين فى المائة ، وفى تونس بخمسين فى المائة من مجموع السكان . فالنسبة العددية للعنصر البربرى تتزايد من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب بوجه الاجمال . وفضلا عن ذلك فالنفوذ السياسى الخارجى أوقع بين البربر والعرب وأضعف كلا الفريقين

كانت الجزائر أول بلاد وقعت تحت السيادة الأوربية المسيحية وذلك عام ١٨٣٠ . وتبعتها تونس عام ١٨٨١ . أما ليبيا فخضعت لهذه السيادة سنة ١٩١١–١٢ . وعندئذ تمت سيطرة دول البحر المتوسط اللاتينية – فرنسا واسبانيا وايطاليا – على معظم تلك الشقة من الارض

أما الكتلة الاسيوية العربية فتختلف عن الكتلة الافريقية الشمالية فى أنها تغذت فى أثناء تاريخها الطويل من الدم السامى الذى كانت السلالة العربية آخر ممثل له . وفضلا عن ذلك فان تدخل الدول الأوربية المسيحية فى شؤون آسيا العربية جاء متأخرا عن تدخلها فى افريقيا حيث اتبعت الدول الثلاث المذكورة ، وخاصة فرنسا ، خطة من شأنها اقامة حواجز بينها وبين سائر العالم الاسلامى وابعادها عن مجارى تفكيره . وكذلك أقيمت صعوبات عدة حالت دون تقدم اللغة العربية فى تلك البقاع، ففى مراكش والجزائر وتونس أصبحت الفرنسية لغة السكان الثقافية دون العربية . وهذه العملية ، عملية القضاء على العروبة لا تزال مستمرة منذ أعوام ، ولا سيما فى الجزائر التى تعد جزءا من فرنسا . وعند ما احتل الجيش الأميركى شمالى أفريقيا كرر لافال القول بأن تلك البقاع ليست الا جزءا طبيعيا متمما لبلاد فرنسا

ومما يسهل السبل لهذا الادعاء كثرة عدد الاوربيين المقيمين فى هذه البلاد . ففى مراكش يقدر عددهم باربعماية وخمسين ألفا من مجموع سكانها الذين يبلغون سبعة ملايين ومائة ألف . وفى الجزائر التى يبلغ سكانها سبعة ملايين وثلاثماية ألف يقدر عدد الفرنسيين بعشر هذا العدد . أما فى تونس فتدل الاحصاءات الاخيرة على أن عدد الاوربيين يبلغ مائتين وثلاثة عشر ألفا من مجموع السكان المقدر بمليونين وستماية ألف . وفى ليبيا مائة وخمسة عشر ألفا من المجموع البالغ تسعماية ألف

كل هذا يؤكد أن الامصار العربية فى شمالى أفريقيا أخذت منذ مائة سنة تواجه مشاكل خاصة بها ، فاستحدثت أساليب تفكيرية وثقافية أبعدتها عن شقيقاتها فى الشرق ، وأنزلتها درجة أدنى من الوجهة القومية . فيصح أن نقول انه باستثناء بعض الثورات المحلية ، ومنها ثورة الريف التى قام بها عبد الكريم سنة ١٩٢٥ ، بأن الحركة القومية الشاملة كانت هنالك هاجعة ساكنة ، وأنها كانت منحصرة فى الفئة الخاصة من المفكرين وغير متأصلة فى نفوس العامة . فقلما نسمع بشخصيات وطنية متزعمة فى مراكش

والجزائر وتونس وليبيا ، كما نسمع عن شخصيات مثلها فى مصر وفلسطين والعراق . ولا علم لنا بمؤسسة أو منظمة عامة ترمى الى تقوية الروابط فى سبيل التعاون نحو الهدف الوطنى الشامل . ولا تجد تأثيرا فعليا بينا للحركات الفكرية والوطنية المنبعثة من غربى آسيا أو مصر الا فى بلاد تونس . ثم يتناقص هذا التأثير تدريجيا حتى يبلغ درجة الاضمحلال فى مراكش . ومما لا ريب فيه أن القوم أصبحوا فى كل تلك الأرجاء ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، فى حالة نفسية مقاومة للاستعمار الاوربى والنفوذ الغربى ، وهذا هو أكبر مشكل تواجهه الآن دول الاستعمار بعد أن كان تزاحمها على تلك البلدان مثار أعظم المشاكل بين بعضها بعضا

أما مصر فغير تابعة للكتلة الافريقية الشمالية ولا للكتلة الاسيوية الغربية ، بل هى همزة الوصل بين الفريقين . ورغم كونها جزءا من أفريقيا ، فهى منذ العصور القديمة تعد قسما من آسيا من الوجهتين التاريخية والثقافية . ولنا أن نقول على الاجمال ان شمال أفريقيا بأسره كان اتجاهه التاريخى نحو آسيا أكثر منه نحو أوربا أو افريقيا ، فقد سيطر الفينيقيون والقرطاجنيون والبيزنطيون والعرب والاتراك على معظم تلك الاصقاع فى مختلف العصور

الحركة القومية فى البلاد العربية

وقد أفاقت مصر من سبات العصور الوسطى عند ما غزاها نابوليون سنة ١٧٩٨ ، فكانت أول قطر عربى اسلامى أحكم العلاقات الحيوية مع الغرب . وأدخل نابليون الى مصر مطبعة عربية كان غنمها من كلية انتشار الايمان فى رومة وبواسطتها تأسست أول جريدة عربية فى وادى النيل [١] . وأنشأ أول هيئة تعد مجمعا علميا . وبذلك أسس نابليون عن غير قصد حركة فكرية فعالة كان لها من التأثير فى الثقافة العربية نصيب وافر ، وهو تأثير أهم من التأثير السياسى الذى تركه احتلال وادى النيل خمس سنوات . على أن سورية سبقت مصر بعد ذلك فى الميدان الفكرى . ولذلك أسباب اهمها علو النسبة العددية المسيحية فى البلاد الشامية ، والمسيحيون بحكم الطبع أكثر استعدادا لقبول المؤثرات الغربية . وليس فى شمالى أفريقيا أقلية مسيحية ، والاقلية البارزة هناك انما هى اليهودية . ومما لا شك فيه أن رجال الفكر السوريين - وأخصهم من المسيحيين اللبنانيين ومن متخرجى الجامعة الاميركية فى بيروت - هم الذين وضعوا فى العقد السابع من القرن الماضى أسس القومية العربية بشكليها الثقافى والسياسى

فالقومية العربية اذن قد استمدت وحيها الاول من النظريات الاميركية السياسية الحديثة ، بخلاف القومية التركية التى جاءت متأخرة عن القومية العربية والتى استمدت

(١) الراجح أنه لم تصدر جريدة عربية فى عهد الحملة الفرنسية ، وان فكرة اصدار هذه الجريدة التى اختير لها اسم التنبيه لم تخرج الى حيز التنفيذ « الهلال »

وحيها من مبادىء الثورة الفرنسية . وقد أدى فقر سورية المادي بازاء مصر ، ووقوعها تحت الحكم التركي المباشر ، وقد كان حكما مستبدا جائرا بالنسبة للحكم الخديوى فى مصر ، الى أن هاجر الى مصر كثير من هؤلاء السوريين المثقفين حيث وجدوا جوا اكثر ملاءمة لعملهم فى الربع الاخير من القرن الثالث . وقبل ذلك بعقود جاء احتلال ابراهيم باشا لسورية (١٨٣٢ ــ ١٨٤٠) فاتحة عهد باسم للبلاد الشامية . وكان والد ابرهيم ــ محمد على ــ يحلم بامبراطورية عربية مركزها القاهرة قبل أن كان العرب على شيء من الاستعداد لها . فحكم ابرهيم باشا فى سورية أيقظ أبناء الشام من سباتهم وفتح أبواب بلادهم للمؤثرات الغربية

كانت النهضة العربية التى قام بها السوريون فى مصر فى أول أمرها حركة فكرية محورها احياء اللغة العربية ودرس آدابها ، والبحث عن ماضى العرب المجيد وما أتحفوا به العالم من كنوز ومآثر

وما لبثت هذه الحركة الفكرية أن جرت وراءها حركة سياسية . فاستوحت من تاريخ العرب وماضيهم ما جعلها تتطلع الى مستقبل كريم والى توحيد وجهة نظرهم . ولم تلبث هذه النهضة الوطنية أن تطورت بدورها وتنوعت بمقتضى الموجبات المحلية فاتخذت الحركة القومية فى سورية شكل المقاومة للسيادة التركية وسياسة التتريك ، التى دان بها فيما بعد حزب تركيا الفتاة ، واستمدت قوة جديدة من دم الشهداء الذى سفكه جمال باشا فى الحرب العالمية الاولى . أما فى مصر فافترق الهدف القومى عن فكرة الجامعة العربية فى العقد الثامن الماضى عند ما جابه الاحتلال البريطاني . فان القومية المصرية بزعامة عرابى باشا (١٨٨١ ــ ٨٢) ثم بزعامة مصطفى كامل (١٩٠٥ ــ ٨) فسعد زغلول (١٩١٨ ــ ٢٧) استمدت الهامها من الوجهة الايجابية من مصادر فرنسية ، وتغذت قواها من الوجهة السلبية من مقاومة التدخل الاوربى فى شؤون البلاد ، فجاءت بمثابة رد فعل لعملية الاستعمار ، وبالتالى تزيت بزى محلى خاص بها ، لان مشكلتها المباشرة كانت توحيد الرأى العام المصرى وتوجيهه ضد الانكليز المحتلين . فاصبح شعارها : « مصر للمصريين »

وهكذا كانت مصر أول بلاد عربية تنبه فيها الوعى القومى ، فاصبحت قوميتها مثالا للقومية العربية فى الهلال العربى الخصيب . واتبعت سورية والعراق وفلسطين ذلك الانموذج . وكان للاكتشافات الاثرية فى أوائل هذا القرن تأثير فى وعى بعض المصريين القومى ، ولا سيما الاقباط منهم ، الذين نسبوا لانفسهم تراث الثقافة الفرعونية القديمة وبعثوا الشبح الفرعونى من مومياته . فجابهت القومية المصرية المؤسسة على التراث العربى الاسلامى ، محاولة جديدة ترمى الى تنشئتها على التراث السابق لعهد الاسلام ، والمتصل بثقافة عصور توت عنخ آمون ورعمسيس وتحتمس . وكان من مظاهر هذه المحاولة أن بعضهم تشوف الى احياء اللغة القبطية ، ولكن على غير جدوى . ومما لا ريب فيه أن تغلب العناصر اللاعربية ، حتى بين المسلمين من سكان مصر وفى طليعتها العنصر

الحامى القديم ، أدى الى ضعف فكرة الجامعة العربية فى تلك البلاد

كذلك كان للجزيرة العربية مشاكل خاصة بها ووضع فريد يميزها عن سائر البلدان العربية . ومميزات الجزيرة البارزة هى : أولا — أن حضارتها لم تزل حضارة العصور الوسطى لا العصور الحديثة ، وثانيا — أن وسائل المواصلات الداخلية بين أجزائها غير موفورة ، وثالثا — أن الاعتزال الجغرافى وعدم تعرض السكان للافكار الاوربية الحديثة بالغ فيها حده الاقصى

ولا يخفى أن الحافز للنهضة القومية انما هو وجه من وجوه عملية التجديد والأخذ بالعلمانية والاتجاه نحو الحضارة الغربية — وهذه كلها تعنى اقتباس أفكار ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية من المعين الاوربى الاميركى . وعملية التجديد هذه لا تقتصر على الشرق الادنى بل تتعداه الى آسيا بكليتها ، والى قسم كبير من أفريقيا . فهى حركة عالمية ، بل قل موجة شاملة مصدرها العالم الغربى وتيارها يتناول سائر أنحاء العالم . وما ذلك الحافز الذى استثار أفكار العرب والمسلمين فى العقد الثامن سوى أثر من آثار تلك الموجة العالمية الكبرى . على أن تلك الموجة لم تقو على اجتياح الجزيرة العربية حتى الآن ولم تترك فيها أثرا محسوسا . فمن هذه الوجهة تختلف الجزيرة العربية عن الهلال العربى وخصوصا قرنه الغربى المؤلف من فلسطين وسورية ولبنان . وكان استفحال أمر الوهابية المحافظة على القديم وعلو شأنها بعد الحرب العالمية الاولى أقصى درجات التحفظ الحديث فى الاسلام ، كما ان اقبال الاتراك الكماليين على الاخذ بأسباب الحضارة الغربية والتهافت على الانظمة العلمانية يمثل الطرف الآخر . فالوهابيون والأتراك اذن يمثلون حركتين اسلاميتين حديثتين هما على طرفى نقيض : فى الواحدة غلو نحو اليمين وفى الثانية تطرف نحو الشمال . فاذا صح أن نسمى الاتراك « برتستانت الاسلام » فالوهابيون هم « اورثوذكسوه » . ولا عبرة بالمحاولات التى أبداها ابن السعود فى التجديد ، فانها لم تمس قلب الشعب ولم تغيره

وشأن الزيديين فى اليمن شأن الأخوان فى نجد والحجاز باعتزالهم مجارى التفكير الحديث وعدم تأثرهم بتيار العلمانية وقلة اتجاههم نحو الغرب الاوربى . والامام يحيى يبز منافسه فى الشمال فى هذا المجال . فالمنافسة بين هذين العاملين — وهما أقوى شخصيتين فى الجزيرة العربية — والفتور بين الاخوان والزيود ، وانخفاض مستوى الثقافة فى الجزيرة وضيق أفق الحياة السياسية واقتصارها على ما هو محلى موضعى ، كل ذلك يقف حجر عثرة فى سبيل التقارب نحو الجامعة العربية والتفاهم مع الجيران من العرب

أما باقى الجزيرة العربية بما فيها المقاطعات المهادنة على الخليج الفارسى ، فبقيت لعقود من السنين خلت مبتورة عن سائر أعضاء الجزيرة وعن جسم العروبة . فاتجاهها السياسى هو نحو الهند والنفوذ فيها للانكليز

الهلال العربي الخصيب

يبقى لدينا كتلة واحدة في غربي آسيا هي الهلال العربي الخصيب أي سورية بالمعنى العام (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) والعراق . ليست فلسطين سوى الجزء الجنوبي من سورية وكانت كذلك طيلة حكم الرومان والاتراك . ولكن موقعها الجغرافي الخطر جعلها اسفينا فاصلا بين طريق الهند البرية وطريقها البحرية المختصرة ، فجنى عليها في أواخر الحرب الماضية فبترت عن الجسم السوري ووضعت تحت الانتداب الانكليزي . كذلك شرق الاردن ، فهو اسم بلا جسم في التاريخ ، وقد ورد اسمها في التوراة ، ولكنها لم تكن بلادا قائمة بنفسها قط . فشرق الاردن سلخته السياسة عن جسم فلسطين عام **١٩٢١** كما سلخت فلسطين عن جسم سورية ، وتولى أمره الامير عبد الله الذي تهدد الفرنسيين في العام الذي سبق حكمه بالانتقام منهم لهدمهم عرش أخيه فيصل في دمشق . وهذه الوحدة السياسية الحديثة شرقي فلسطين يمكن اعتبارها من نوع الحاجز (buffer) الذي يصد غارات البدو في الصحراء عن فلسطين الواقعة تحت الانتداب الانكليزي

أما الخط الفاصل بين منطقة الانتداب الانكليزي ومنطقة الانتداب الفرنسي ، فخط وهمي ليست له وضعية جغرافية طبيعية . فسورية الكبرى يفصلها عن الاناضول جبال طورس ، وعن مصر شبه جزيرة سينا ، وعن الجزيرة العربية صحراء النفود ، وعن العراق البادية السورية.

ولنأت الآن لمعالجة الحركة الانفصالية في فلسطين على ما تمثلها الصهيونية السياسية ، فهي من وجهة نظر العرب حركة أجنبية ترتكز على أسس واهية اصطناعية تدعمها أموال وأفكار خارجية ، ولا أمل لها بالنجاح أو الثبات فيما اذا نجحت . فاذا كانت الصهيونية السياسية ترمي الى اعطاء شعب بلا بلاد بلادا بلا شعب ، ففلسطين غير أهل لذلك ، وهي لا قبل لها بحل المشكلة اليهودية التي تعتبر مشكلة عالمية . ان قيام دولة يهودية في فلسطين يظهر بمظهر المحال لا في رأي العرب فحسب ، بل في رأي المجتمع الاسلامي عامة . والمسلمون الذين يقرب عددهم من المائتين والسبعين مليونا والذين يحتلون جزءا واسعا من أفريقيا وآسيا ، يؤلفون مجتمعا متفق الشعور ، ولو فرضنا جدلا أن برنامج الصهيونية السياسي تكلل بالنجاح وتحولت فلسطين الى دولة يهودية ، فمن يكفل بقاءها وهي دولة غريبة وسط بيئة عربية اسلامية معادية ؟ لذلك نرى اليوم عددا متزايدا من الصهيونيين ينحرفون عن الوجهة السياسية ويولون وجوههم الناحية الثقافية والروحية من الصهيونية ، ويبتغون التعاون مع العرب على هذا الاساس . ومن هؤلاء الصهيونيين ذوي النزعة العملية والافكار الحرة « ماغنس » رئيس الجامعة العبرية في القدس . فهو يقول ان ليس بين العرب من يسلم بامكان تأسيس دولة يهودية فلسطينية ،

وينادى بوجوب تأليف دولة فلسطينية بحتة يتمتع أبناؤها بحقوق مدنية ودينية متساوية وينضمون اذا شاءوا للاتحاد العربى

وبخلاف دعوى الصهيونيين بحق الانفصال والاستئثار بفلسطين نجد أن دعوى اللبنانيين بحقهم فى الانفصال ببلدهم وحفظ كيانها الخاص ، لها مبرر اجتماعى وأساس تاريخى . فقد تمتع لبنان بكيان اقطاعى شبه مستقل خلال القرون الاربعة من الحكم التركى . وبعد الحرب الاهلية فى سنة ١٨٦٠ اعترف الباب العالى والدول الخمس الكبرى باستقلاله الداخلى ، وضمنوا هذا الاستقلال ببروتوكول دولى . وعند ما غنم الاتراك فرصة الحرب العالمية الاولى وتطاولوا على الجبل وانتزعوا منه استقلاله فى سنة ١٩١٤ ، كان لبنان قد تمتع بنصف قرن من السلام والعمران ، مما جعله قبلة أنظار البلاد المجاورة وجعل الناس يقولون « طوبى لمن له مرقد عنزة فى لبنان » . ومما لا ريب فيه أن المهاجرين اللبنانيين فى الولايات المتحدة الذين بدأت هجرتهم فى العقد التاسع من القرن الماضى ، كانوا عاملا فعالا فى المحافظة على استقلال لبنان وكيانه . فهم رفعوا صوتهم عاليا فى جرائدهم ومراسلاتهم وأثناء زياراتهم لوطنهم القديم . ومع ذلك فان لبنان لايعارض فى الانضمام الى ائتلاف عربى ، بشرط الابقاء على استقلاله الداخلى ، كما يستنتج من مقالات عدة لكتاب مختلفين نشر بعضها فى « لسان الحال » عام ١٩٤١ . حتى أن بطريرك الموارنة وهو زعيم الطائفة التى تعد دعامة حركة الاستقلال اللبنانى التام ، لم يتردد فى السنين الاخيرة عن ابداء الرغبة فى التعاون مع الوطنيين السوريين

فلدينا اذن كتلة جغرافية وثقافية العرى متواصلة الاجزاء ، تمتد من شبه جزيرة سينا حتى رأس الخليج الفارسى . ولكن تداخل البادية السورية — التى يبلغ معظم عرضها ثمانمائة ميل — بين الجزئين المأهولين من هذه الكتلة ، يقف حاجزا فى سبيل المواصلات الطبيعية . غير أن هذين الجزأين متصلان فى الشمال . وسكان هذه البادية من القبائل الرحل التى يصعب ضبطها وربطها مع الحضر ، فهى تكون مشكلا هاما من مشاكل الائتلاف والاتحاد ، مع أنها ذات فائدة خاصة فى كونها مصدرا للتعويض عن التناقص فى عدد السكان فى المدن

فالعوامل الجغرافية فيما خلا البادية السورية تؤيد الاتحاد ، وكذلك العوامل التاريخية والنفسية ، وفى مقدمتها الشعور المشترك بتراث لغوى واحد وثقافة واحدة وبماض مجيد عام يرجع الى العصر الاموى والعصر العباسى لما كانت دمشق وبغداد مركزين لحضارة اسلامية زاهية زاهرة

موقف الاقليات الدينية

وعلاوة عن الفواصل الجغرافية التى تقسم السكان الى بدو وحضر ، فهنالك فواصل اجتماعية دينية تقسمهم الى مسلمين وغير مسلمين ، فمشكل الاقليات فى تأليف الاتحاد

هو مشكل هام . ومما لا ريب فيه أن الاقليات تشغل فى المجتمع الاسلامى مركزا غير مساو للاكثرية . على أن الهدف الذى يرمى اليه دعاة الاتحاد ليس تحويل الطوائف والشعوب الى طائفة أو شعب واحد ، بل ايجاد وسيلة تحملها جميعا على التعاون والتضامن برغم الاختلافات الجنسية والفوارق الدينية . ولا شك أن الرابطة الدينية عند المتقدمين فى السن من المسلمين والمسيحيين لم تزل للآن أقوى من الرابطة القومية . ولكن هذا القول لا يصدق على أبناء الجيل الحديث ، وخاصة المثقفين منهم ثقافة حديثة ، فترى اليوم شبانا وشابات من المسلمين والمسيحيين فى لبنان وسورية وفلسطين يعملون فى المهن الحرة كالتعليم والمحاماة والطب والكتابة والصحافة ، ويتعاونون على قيادة الامة . وحرى بالذكر فى هذه المناسبة أن أكبر دعاة الجامعة العربية بين المهاجرين المتكلمين بالعربية فى الولايات المتحدة كانوا مسيحيين ، أحدهما لبنانى وهو الريحانى ، والثانى فلسطينى وهو الدكتور شطاره . ومن اللبنانيين المسيحيين الذين ثقفوا بالثقافة الفرنسية وكانوا من أنصار الوحدة العربية خير الله خير الله ورباط وغيرهما

ولا بد لنا هنا من التمييز بين الجامعة الاسلامية والجامعة العربية رغم اتفاق الاثنين على عدة نقاط . ومما يزيد فى الالتباس بين الجامعتين تظاهر الجامعة الاسلامية بزى جامعة عربية . غير أن الجامعة الاسلامية تستمد الهامها ووحيها من معين القرون الوسطى . ولا ترحب بالافكار والمؤثرات الغربية الاوربية . أما الجامعة العربية فتحاول جعل اللغة لا الدين أساسا للتعاون ، وتعترف بحقوق غير المسلمين من الاقليات ومساواتهم المدنية . وأهم دعاة الجامعة العربية رجال ثقفوا بالثقافة الحديثة ، وجعلوا اتجاه أفكارهم نحو الامام ، وهم يريدون أن يقتبسوا من الغربيين ما يصلح ويليق ، ولكنهم لا يريدون أن يلزمهم الغربيون ذلك

العراق وسورية أولا

ان كان ثمة من اتحاد عربى فنواته العراق ـ سورية . والبداءة من هذين البلدين . وما نعنيه بالاتحاد انما هو حلف سياسى بين الدول العربية المستقلة ، يقابل الحلف البريطانى ، ويختلف عنه فى مسألة العرش . وتستلزم الخطط القومية فى اتحاد كهذا توحيد برامج التعليم وازالة الحواجز الجمركية وجوازات السفر ، وصك عملة مشتركة واقامة دائرة بريد عامة ، واتخاذ خطة متماثلة وسياسة متجانسة تجاه كل الشؤون الحربية والخارجية

قبل الحرب العالمية كانت العراق وسورية مؤلفة من ولايات عثمانية . فكان من المستطاع يومئذ اعتبار الولاية وحدة سياسية وربطها مع غيرها . أى ربط ولايات حلب والشام وبيروت وبغداد والبصرة والموصل وسنجق القدس الخ بعضها ببعض فى شكل من أشكال الاتحاد . أما اليوم فقد تغيرت الحاجة بتأثير الانتداب فى تلك الاماكن . فالانتداب ـ وان

يكن قد نشط عن غير قصد الشعور القومي ـ الا انه في الوقت نفسه قد ضيق عليه وحصره في مستوى محلي . فمقاومة الانتداب الانكليزي في العراق مثلا ولدت روحا عراقية موضعية . كذلك مقاومة الانتداب الإنكليزي وملحقه الصهيونية في فلسطين فانها أنشأت وطنية فلسطينية بحتة . وكذلك مقاومة الانتداب الفرنسي في سورية نشطت القومية السورية . وكل ذلك حدد القومية العربية في مناطق محلية خلافا لما كانت عليه تحت ادارة الاتراك في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الحاضر وألبسها صبغة اقليمية . وليس بالخفي أن فيصلا وأخاه عبد الله في اتفاقهما مع الانكليز تعهدا بقصر نفوذهما ضمن نطاق مملكتيهما فقط . فعند ما عرضت عليهما انكلترا عرشين ثابتين أحدهما في العراق والثاني في شرق الاردن تحت الرعاية الانكليزية ، عوضا عن الوحدة العربية التي كان يحلم بها والدهما ، لم يترددا في القبول . ولما نال العراق استقلاله عام ١٩٣٢ أخذت الحكومة العراقية تقلل من استخدام المعلمين السوريين واللبنانيين في مدارسها . وكذلك ضيقت الحكومة السورية على الاطباء والمحامين اللبنانيين أمر ممارسة مهنهم في دمشق . وكانت الحكومة اللبنانية تميل الى مقابلة تلك التدابير بما يماثلها

على أن الحرب الحاضرة قد جعلت القوم يشعرون بضرورة التعاون في النواحي الاقتصادية والثقافية بين هذه البلدان المتاخمة . لذلك تجرى اليوم بقيادة مصر مفاوضات مع ممثلي العراق ولبنان وسورية ، غايتها توحيد برامج التعليم والكتب المدرسية والمناهج بناء على الاعتقاد بأن عدم وجود خطة تعليمية موحدة هي من أهم الموانع للعمل الموحد . ومن المقرر أن المؤسسات العلمية الغربية من أوربة واميركة وان كانت هي العامل الاكبر في انشاء التفكير القومي في الشرق الادنى ، الا أنها أيضا كانت عامل تفريق في جسم القومية وبين أعضائها

جهود الساسة ومؤتمراتهم

فالمؤتمر العربي الثالث المنعقد في فلسطين في صيف سنة ١٩٢١ ، كان أول مؤتمر سلم ضمنا بانسلاخ فلسطين عن سورية . أما المؤتمران السابقان المنعقدان في القدس في أوائل سنة ١٩١٩ وفي فبراير سنة ١٩٢٠ فطالبا باتحاد فلسطين مع سورية . ومنذ عام ١٩٢١ قويت القومية الفلسطينية في فلسطين وازدادت حدة بازدياد مقاومتها للصهيونية . والحقيقة أن الحركة الصهيونية ، بسياستها الجريئة ، قد صلبت العقيدة القومية في كل البلدان العربية المجاورة . ولم يظهر العرب في العقود المتأخرة بمظهر جبهة متحدة تجاه أية قضية كما ظهروا تجاه هذه المعضلة . ففي مسألة الخلافة مثلا لا نرى اتفاقا في الآراء كما تبين من وقائع جلسات مؤتمري الخلافة المنعقدين في القاهرة ومكة سنة ١٩٢٦ . اما بشأن المعضلة الصهيونية فقد توالت الاحتجاجات وتدفقت الاموال لمكافحتها من جميع البلدان الاسلامية من الملايا في الشرق حتى مراكش في الغرب . وما دفن الملك حسين والزعيم

الهندى محمد على فى تربة الحرم الشريف فى القدس الا اعلانا لقدسية أرض فلسطين فى أعين المسلمين . وقد قام شوكت على الهندى ومفتى القدس بحركة ترمى الى تأسيس جامعة اسلامية فى تلك المدينة تنافس الجامعة العربية فيها . وفى جلسة الجمعية العمومية لعصبة الامم فى سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، انبرى ممثل مصر وممثل العراق للدفاع عن فلسطين العربية فى كفاحها ضد الصهيونية . وفى مجلة « الهلال » لعام ١٩٣٨ مقالات لكتاب كبار من مصر وسورية تناولوا فيها موضوع الاتحاد بين الشعوب العربية

واذا ألقينا نظرة على رسم الممثلين للبلدان العربية فى مؤتمر المائدة المستديرة المنعقد فى يناير سنة ١٩٣٩ فى لندن، نرى مجموعا فريدا من الزعماء المسلمين والمسيحيين بطرابيشهم وعمائمهم وكوفياتهم من مصر واليمن والحجاز والعراق وفلسطين

فبوجه الاجمال يظهر أن المواد الاولية لبناء اتحاد بين الدول العربية ـ ابتداء بالعراق وسورية ـ متيسرة جاهزة ولا ينقصها سوى البناء الماهر ، كفيصل مثلا ، وقد يظهر هذا قريبا

ان الانكليز يحبذون هذا الاتحاد ، وكذلك الفرنسيون الاحرار كما يظهر من تصريح انطونى ايدن فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤١ ومن موافقة الجنرال كاترو على هذا التصريح بعدئذ . فالتوجيهات الداخلية والخارجية والدلائل التاريخية كلها تشير بصراحة واضحة الى امكان شمل سورية والعراق فى اتحاد يكون نواة تلتف حولها مصر والجزيرة العربية فيما بعد . ومن المعلوم أن المدة التى كان فيها قرنا الهلال الخصيب ـ أى سورية والعراق ـ منفصلين تمام الانفصال ، كانت قصيرة بالنسبة للمدة التى كانا فيها متصلين . أما امكان ضم شمالى أفريقيا لهذا الاتحاد العربى ، فتتوقف على عوامل داخلية وخارجية يصعب حصرها الآن . غير أن الحقيقة الراهنة هى أن العراقى اليوم يرتاح الى التونسى ويستأنس به أكثر مما يستأنس بجاره الايرانى . وليس سبب هذا اللغة فحسب ، بل هنالك سبب آخر وهو أن طريقة التفكير والتصرف والنظر الى الامور فى العراق من جهة وفى تونس من الجهة الاخرى متقاربة بخلاف ما هى عليه فى ايران

وكان من أعمال المؤتمر العربى المنعقد فى القدس فى ديسمبر سنة ١٩٣١ والذى زاد عدد مندوبيه عن عددهم فى كل المؤتمرات السابقة أنه اتخذ ميثاقا ذا مبادىء ثلاثة : (١) ان البلدان العربية وحدة لا تتجزأ ولا تسلم الامة العربية أبدا بتجزئتها (٢) انه يجب على أبناء البلدان العربية أن يوحدوا جهودهم لنيل الاستقلال التام ولمضادة الحركات الاقليمية (٣) ان الاستعمار فى كل أشكاله معاد لآمال العرب ومطامحهم ويجب مكافحته بكل ما أوتوه من قوة . وقد اشترك فى هذا المؤتمر مندوبون من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وسورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية

وفى اغسطس سنة ١٩٣٣ عقدت عصبة العمل القومى اجتماعها فى قرنايل لبنان ، وأعلنت تعزيزها لمبدأ « وحدة البلدان العربية فى آسيا وافريقيا »

أما المؤتمر العربي الثاني المنعقد سنة ١٩٣٧ فى بلودان قرب دمشق برئاسة الوزير المصرى السابق علوبة باشا ، فقد حدد البلدان العربية لاول مرة بانها تمتد من جبال الاطلس فى الغرب حتى الخليج الفارسى فى الشرق ومن تركيا فى الشمال الى المحيط الهندى فى الجنوب . وقبل عام ١٩٠٠ لم ينعقد مؤتمر واحد يمكن اعتباره ممثلا للعالم العربى أو الاسلامى

وقد تأسس فى القاهرة سنة ١٩٤٢ الاتحاد العربى برئاسة فؤاد اباظه باشا ، وهو يستهدف اتحاد البلدان الآتية : مصر والسودان والجزيرة العربية والعراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن وشمالى أفريقيا وأية بلاد أخرى تتكلم العربية

وفى صيف ١٩٤٣ أصدر نورى باشا السعيد رئيس الوزارة العراقية تصريحا حض فيه الدول المتحدة على أن تعلن ما يلى :

١ ـ ان سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن يجب جمعها فى دولة واحدة

٢ ـ ان نوع الحكم فى هذه الدولة ملكيا كان أو جمهوريا ، موحدا أو اتحاديا ، يتوقف على رغبات الشعب نفسه

٣ ـ أن تؤسس عصبة عربية تنضم اليها سورية والعراق حالا . وفيما بعد تنضم اليها البلدان العربية الاخرى اذا أرادت

٤ ـ أن يكون لهذه العصبة مجلس دائم وأن يكون مسئولا عن الدفاع والمسائل الخارجية والعملة والمواصلات والجمارك ورعاية حقوق الاقليات

٥ ـ أن يكون ليهود فلسطين كيان يقرب من الحكم الذاتى . وأن يكون للموارنة فى لبنان وضع خاص اذا طلبوه كالوضع الذى كان لهم فى السنين الاخيرة من الامبراطورية العثمانية

وبعد هذا التصريح بقليل دعا مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية حكومات البلدان العربية المجاورة كى ترسل مندوبين للقاهرة حيث جرت محادثات معه ومع نورى باشا

•

ان اتحادا عربيا كهذا وان كان صغيرا ، يؤدى الى استقرار الحال فى الشرق الادنى ويسهل ضم تلك البلدان الى النظام العالمى الشامل الذى نرجو تحقيقه عند ما تنجلى غمامة هذه الحرب

فربط مجموعة من البلدان الصغيرة بالنظام العالمى الشامل أهون من ربط عدة من البلدان منفردة . وفى سبيل تحقيق هذا النظام ، لا بد لكل قومية من التخفيف من حدتها ولكل دولة من تحديد سيادتها

فيليب حتى

قصة صينية

وفاء النساء

بقلم مدام تشانج كى تشك

فى عهد سحيق من تاريخ الصين ولد الحكيم « لاوتسو » .. ولد وعلى رأسه هالة من الشعر الابيض الناصع كشعر الشيب المسنين . فسماه الناس « لاو تسو » ومعناها باللغة الصينية « الطفل العجوز »

وكان من تلاميذ هذا الحكيم عالم اسمه « تشوانج تشو » ، يرى فى المنام فى كل ليلة فراشة بيضاء . فذهب الى استاذه يسأله تأويل هذه الرؤيا التى يراها كلما آوى الى الفراش . فقال له الحكيم :

« هذه الفراشة هى صورتك السابقة . ماتت فحلت روحها فى جسمك هذا . نعم ، فقد كنت فيما مضى فراشة جميلة بيضاء ، تطوف هنا وهنا ترتشف رحيق الزهور . ثم حدث ذات يوم أن امتصت الفراشة « الوردة الصفراء » ، فغضبت عليها الآلهة ، وسلطت عليها طائرا التقطها بمنقاره وازدردها، وكان ذلك ساعة ولادتك فحلت روح الفراشة فيك»

فلما سمع « تشوانج تشو » هذه القصة ، أسف أسفا بالغا على خطيئته تلك التى ارتكبها حين كان فراشة بيضاء . ورأى أن يكفر عن سيئته بأن ينصرف عن كل ما فى الدنيا من لذة ومتاع ، ويكرس نفسه للدين والزهادة . ومضت السنون ولا هم له الا دراسة الدين ، وتأمل الكون ، وتطهير الروح من شوائب المادة . حتى بلغ المرتبة العليا من مراتب رجال الدين ، ذوى الكرامات والمعجزات . فكان يستطيع أن يخفى نفسه عن أعين الناس وهو جالس بين أيديهم يحدثهم ويحدثونه . وكان يستطيع أن يستقل بساط الهواء فيطير فى أجوائه كيف شاء . وكان يستطيع أن يغير صورته كلما أراد ، فهو حينا انسان يمشى على الارض ، وحينا طائر يهيم فى السماء ، وحينا سمكة تسبح تحت الماء ، بل كان يستطيع أن يكون موجودا فى عدة أماكن فى وقت واحد : مع زوجه فى البيت ، ومع استاذه فى المعبد ، ومع صحبه حيث يجتمعون !

على أن انصرافه الى الدين والتقوى لم يمنعه من الزواج . تزوج ثلاث نساء : ماتت الاولى ، وطلق الثانية ، وعاش مع الثالثة « تيان » عهدا طويلا عيشة موشاة بالحب والامن والجمال

وسمع أمير « تشو » بأمر هذا الرجل ، فرأى أن يوليه وزارته . وأرسل اليه وفدا يحمل الهدايا من الذهب والفضة والحرير والخزف الثمين ليدعوه لقبول هذا المنصب . . فرفض ، اذ كان زاهدا فى متاع الدنيا ومناصبها وألقابها ، واذ كان يعلم ما يجب على الوزير من خداع ونفاق ومخاتلة ، ليرضى الملك ، ويسوس الدولة ، ويترضى الرعية . ولم ير بدا من أن يهجر هو وزوجه المدينة ، فرارا من أذى الامير وقد عصى أمره ورفض رجاءه ، وأخذا يضربان معا فى الفيافى والقفار ، ويهيمان بين النجاد والوهاد

وبينما هو يضرب فى الارض اذ رأى عند سفح الجبل امرأة فى ملابسها الصفراء ، تلك الملابس التى تلبسها نساء الصين فى المآتم وعند الفواجع ، تبكى بكاء مرا الى جانب قبر بنى منذ أيام قليلة . وكان فى يدها مروحة كبيرة تهف بها على القبر فى جد واهتمام استوقفه هذا المشهد الغريب ، فتقدم الى المرأة يسألها ما خطبها ، فأجابته ، وهى تشهق بالبكاء :

ـ ان خادمتك المنكودة مات عنها زوجها منذ أيام . وفى هذا القبر يرقد جدثه العزيز وجثمانه الطاهر

فسألها : وما شأن هذه المروحة ؟

فقالت : عند ما كان زوجى على قيد الحياة ، تعاهدنا عهد الحب والاخلاص ، ان من مات منا ظل صاحبه مترملا بغير زواج الى أن يجف ملاط ـ مونة ـ قبره . وها قد مرت أيام وما زال الملاط رطبا ندياً ، وانى أخشى أن تمر أيام أخرى قبل أن يجف فجئت بهذه المروحة لتجففه سريعا ،

فتبسم العالم ضاحكا وقال : هونى عليك يا سيدتى . هاتى المروحة لاعينك على تجفيف قبر زوجك هذا

وأخذ المروحة ومر بها على القبر ثلاث مرات ، فاذا به جاف كأنما بنى منذ سنين طوال . فلما رأت المرأة ذلك أسرعت فخلعت ملابسها الصفراء وألقتها جانبا ، وارتدت ملابسها البيضاء المزركشة البهيجة وولت بظهرها الى القبر عائدة الى المدينة على عجل ، وهى تكاد تطير من الفرح . . ألم تف بما عاهدت زوجها عليه ، فأصبحت فى حل منذ الساعة فى أن تتزوج سواه ؟!

وعاد العالم الى بيته وهو يفكر فيما رأى ويعجب من أمر النساء . وسألته زوجه عما به فقص عليها قصة المرأة والقبر والمروحة . فقالت :

ـ يا للعجب ! ما سمعت بمثل هذا النبأ من قبل . نعم ، ان الدنيا فسيحة وأهلها لا يعدون ، ولكن ما أحسب أن منهم من يشبه هذه المرأة الجحود

فدمدم العالم ببضع كلمات أغضبت زوجه فصاحت به : لا تأخذ النساء جميعا بجريرة امرأة واحدة . فكم فى النساء من وفاء دونه وفاء الرجال

فقال : كلام . كلام فارغ ! هل ترضين أنت يا زوجتى العزيزة ، أن تعيشى بعد وفاتى

ثلاث سنوات مترملة وحيدة ؟ ما أظنك ترضين بذلك ، وما أحسبك تستطيعين

فقالت الزوجة : ان الجندى الوفى لا يخدم فى جيشين ولا يطيع قائدين . وكذلك الزوجة الوفية لا تتزوج من رجلين . هكذا قال القدماء وهو قول صحيح . فلو شاء حظى التعس أن أعيش بعدك ، لما رضيت مدى العمر أن أنظر الى رجل سواك ، دع عنك فكرة الزواج ، فهذه احدى المستحيلات !

فتمتم الرجل ثانية : لست أدرى !

فثارت ثائرة الزوجة وقالت : لا تحكم على النساء بأخلاق الرجال . فمن شيمكم أنتم يا معشر الازواج الجحود والغدر . ما أيسر على الرجل منكم أن يطلق زوجته لنزوة طائشة . وما أيسر عليه أن يقترن بزوجة ثانية يوم وفاة زوجته الاولى . أما نحن فلا نقابل غدركم الا بالوفاء ، ولا نجارى جحودكم الا بالاخلاص

فأخذ العالم يغير من لهجته ويترضى زوجته ، ويؤكد لها أنه لا يشك يوما فى وفائها واخلاصها ، وأنه لو خان جميع النساء رجالهن لبقيت هى على ما عهده فيها من صدق وولاء

□

لم تكد تمر بضعة أيام على هذا حتى ألم المرض بالعالم « تشيانج تشو » واشتدت عليه العلة يوما فى اثر يوم ، فاستدعى زوجه وقال لها :

ـ انى أحس رعشة الموت تسرى فى جسدى ، وما أحسب أن طب الطبيب يجدينى نفعا . لقد استوفيت حظى من هذه الحياة ، وسأغادرها الى الحياة الاخرى بعد قليل

فأكبت زوجه على وجهه باكية منتحبة ، تقبله وتحتضنه فى حب واخلاص ، والرجل يهون عليها أمر الموت ومشقة الفراق ، ويداعبها ــ وشبح الموت على قيد خطى منه ــ قائلا : انى واثق من أنك ستقيمين على حبك ووفائك ، وستذكرين زوجك أمدا طويلا . على الاقل حتى يجف قبره !

فقالت له : كلا . كلا . لقد عاهدتك عهدا لا أنكث به ما حييت . عاهدتك على أن أظل وفية لذكراك الى أن ألفظ نفسى الاخير . فما عرفت رجلا أنبل منك خلقا وأصفى قلبا وأطهر سريرة . أما ان ساورك ظل من الشك فيما أقول ، فدعنى أقتل نفسى أمام عينيك ، فان حياتى أهون على من ذلك الشك كثيرا . وثق يا زوجى العزيز أن اليوم الذى تموت فيه هو اليوم الذى يموت فيه قلبى . وان ظل جسدى حيا فبلا حس ولا شعور . نعم سيظل حيا ولا أمل له الا أن يقترن بك مرة أخرى ، عند ما تتلاقى الارواح فى صفاء

فقال الرجل وهو يلهث بأنفاسه الاخيرة : ان وفاءك يا زوجى فوق كل شك وكل ريبة . فدعينى الآن أغمض عينى ، وأرسل نفسى ، وأنا مطمئن القلب الى وفائك الابدى

وهكذا ودع تشوانج تشو هذه الحياة ، وغدا جدثا هامدا لا روح فيه . ووسط موجة غامرة من دموع زوجه ، دفن الرجل فى قبر أعده فى حجرة من حجرات بيته . ومضت

أيام وليال وزوجه لا تخلع ملابس الحزن الصفراء ، ولا ترقأ لها دمعة ، ولا تسكت لها زفرة ، ولا يقف لها أنين

وكان لهذا العالم تلميذ اسمه « ونج سن » لازم استاذه دهرا طويلا يتلقى عنه العلم ويأخذ منه الحكمة . حتى اذا أتم دراسته عاد الى قريته النائية ، وأخذ يزور استاذه من حين الى حين ليستزيد من علمه ويستكمل دراسته . وقد جاء هذا التلميذ .. ولكن يا للأسف !.. لقد وجد البيت خلوا من أستاذه الذى قضى نحبه منذ اسبوع . فراح التلميذ يبكى وينتحب وهو يطوف بالقبر الذى يضم جدث استاذه العظيم ، ويقول : « يا لسوء حظى ! لقد اجتزت الجبال وعبرت الوهاد لأجلس بين يدى استاذى ، وها أنذا ألقاه فى غيب هذا القبر السحيق ، فيا لقسوة القدر على ويا لجدب حياتى بعد هذا ! »

ثم أرسل خادمه الى زوجة استاذه يستأذنها فى أن يقابلها ليقدم لها تعزيته ، ويشاركها ما تجد من ألم ولوعة . فاعتذرت الزوجة من مقابلته بادىء الامر ، ولكن الخادم صور لها مبلغ ما فيه التلميذ من حزن وأسى على استاذه العظيم ، ورجاها أن تأذن له بالمقابلة لعله يجد فى لقياها ما يخفف عنه فراق استاذه . فاذنت له فى اللقاء ، وخرجت الى جناح الضيوف للقائه . وهناك وجدته جاثيا يتألم ويبكى ، وقد انهمرت الدموع من عينيه الموقدتين . وقدم لها التلميذ تعزيته فى زوجها ، وان كان حزن التلميذ على استاذه لا يقل عن فجيعة الزوجة فى رجلها

وقال التلميذ : لقد جاءتنى منذ قريب رسالة من استاذى يدعونى فيها لزيارته ، فتركت قريتى وخففت للقياه . ولكن القدر أبى الا أن يصدع قلبى صدعا لا يلتئم مدى العمر يا سيدتى . على أنى سأظل ، ما بقى فى نفس من أنفاس الحياة ، تلميذه الذى يتلقى عنه العلم ويأخذ منه الحكمة . فان جسمه وان برد وبلى ، فان روحه سيبقى الى الابد حيا ، يشع منه النور ، وتنبثق منه الحكمة . وهل تأذنين لى يا سيدتى فى أن أنظر فى الكتب التى كان استاذى يؤثرها بقراءته ودراسته ، هل تأذنين لى بأن أعيش فترة من حياتى وسط مكتبته ، وسط ذلك الجو الذى عاش فيه ومات فيه ، لعلى حين أستنشق هواءه أن أنفذ الى سر من أسرار الحكمة الابدية الخالدة ! هل أجرؤ يا سيدتى فأطلب اليك أن أمكث مائة يوم فى هذه المكتبة المقدسة ، أستوحى فيها روح أستاذى ؟

وهمت السيدة بأن تعتذر للشاب من رفض رجائه هذا ، لولا أنها رفعت عينيها ، وكانتا من قبل مرسلتين الى الارض مغرورقتين بالدموع ، فرأت أمامها شابا حسن السمت ، وسيم الطلعة ، فارع القوام . حقا ما أصبح محياه ، وما أنبل ملامحه ! لقد كانت ثمة مسحة من الاسى على سماته الساجية ، وثمة قطرات من الدمع فى عينيه الساهمتين ، مما أضفى على الشاب هالة من الوداعة الفاتنة ، ومن الهدوء الاخاذ .. والحق ان السيدة ألفت نفسها معجبة بهذا الشاب اعجابا لا تملك معه رفضا لما يريد . فأشارت اليه أن يتبعها

الى مكتبة أستاذه ، تستوانج تشو ، حيث أخذت تربه أسفارها ، وتطلعه على ما خطه أستاذه بيديه من الحكم والمواعظ

ومرت الايام على عجل ، وكل يوم منها يزيد فى اعجاب السيدة بالشاب الوفى « وتيج سن » . وكانت فى أول الأمر لا تنفك ليل نهار تبكى فجيعتها وتشكو بلواها ، أما الآن ، فقد أخذت تهون عن نفسها بعض ما تجد من عناء ، وراحت تسرى الهم ببسمة ترتسم على وجهها ، أو فكاهة ينطلق بها لسانها !

وقد رأت خادم الشاب ذات يوم ذاهبا الى حيث يقيم سيده ، فنادته ، وأخذت تجاذبه أطراف الحديث ، الى أن قالت له : « وكيف حال زوجة سيدك ؟ أحسبها على قسط كبير من الجمال ؟ »

فقال الخادم : ان سيدى ما زال أعزب لم يتزوج يا سيدتى ..

فقالت : آه . انى أعلم أن شابا وسيما متأنقا كسيدك هذا يصعب على النساء ارضاء .. ولكن تعال فحدثنى ، فلا سلوى لى عن الهم الا فى الحديث . خبرنى : أى طراز من الجمال يعجب سيدك ويستهويه ، فان لى كثيرا من القريبات الجميلات اللاتى لم يتزوجن بعد ، ولعلى أستطيع أن أهديه الى واحدة منهن ينعم معها بالحياة وما زالا فى ريق الصبا وبهجة الشباب

وكانت السيدة قد قدمت للخادم بعضا من شراب بث فيه الجرأة وأطلق منه اللسان ، فقال :

ـ لا تؤاخذينى يا سيدتى اذا كنت صريحا ، لا أخفى مما أعلم شيئا . لا تؤاخذينى اذا قلت ان سيدى كان يتحدث عنك منذ ليال قريبة ، ثم زفر زفرة وقال : ان جميع النساء دونك يا سيدتى ذكاء وجمالا !

واستخف السيدة هذا المديح والاطراء ، فلم تتحرج فى أن تجهر بما يساور نفسها من رغبة مكبوتة . وقالت للخادم : واذا كان هذا رأى سيدك فى ، فما الذى يمنعه من هذا الذى لا غنى عنه لشاب فى حداثة سنه وربيع حياته ؟

فقال الخادم : عفوا ومهلا يا سيدتى الجليلة . ولكنى لم أتم حديثى بعد . فان سيدى يتحدث عنك حديثا كله الاعجاب بل كله الحب ، فأشرت عليه بأن يعرض عليك فكرة الزواج ، فان تفضلت وقبلت عرف بين ذراعيك معنى السعادة والنعيم ، فما زاد على أن أنة عميقة أليمة وقال : كم أود هذا ، لولا ما بينى وبين زوجها من علاقة التلميذ بأستاذه بل من علاقة الابن بأبيه ، مما يجعل هذا الزواج خطيئة منكرة لا أجرؤ عليها ..

لم تدعه السيدة يتم هذا الكلام ، بل نهضت وهى تقول : قل لسيدك أن يكون أوسع من ذلك عقلا وأرحب صدرا . فان علاقة الأستاذ والتلميذ تنقطع متى مات أحدهما ، فليست الآن بينهما الا صلة من الذكرى لا تنكر هذا الزواج .. فمن أين جاءته هذه الفلسفة العجيبة ، وكيف رأى فى هذا الزواج خطيئة نكراء ؟!

كان كلام السيدة قويا عنيفا ، واضحا صريحا ، فلم يجد الخادم بدا من أن يعدها بأن يتحدث الى سيده فى هذا الامر ، وبأن يقنعه بأن لا وجه للخطيئة التى يتمثلها ولا يجرؤ على أن يأتيها

□

مضت أيام دون أن يعود الخادم بنبأ ، فلم تملك السيدة على هذا صبرا ، وأرسلت اليه تسأله عما جرى بينه وبين سيده من حديث الزواج . فقال الخادم وهو يهز رأسه آسفا :

ـ لم أوفق يا سيدتى !

ـ لماذا ؟ ماذا قال سيدك ؟ تكلم !

فأجاب الخادم متلعثما : أما عن ذكائك وجمالك يا سيدتى فان سيدى لا يرى بعدهما من ذكاء وجمال . أما عن علاقته باستاذه فتلك عقبة يستطيع أن يجتازها ويتحلل منها . ولكن تبقى بعد ذلك ثلاث صعوبات دون هذا الزواج . وهى صعاب ليس من اليسير اجتيازها ، ولهذا فقد أعرض يا سيدتى عن الزواج بعد أن كبت فى قلبه حبه وهواه

ـ أية عقبات تلك التى يتحدث عنها سيدك ؟

ـ العقبة الاولى يا سيدتى أن جدث زوجك السابق مدفون فى نفس البيت الذى تريدين أن يكون مثابة زواجك الجديد . وهذا أمر لا يحتمله سيدى ، فان مجرد تذكره استاذه السابق يثير كامن حزنه وألمه ، فكيف به اذا وجد فراش زواجه الى جانب جدث أستاذه ؟ والعقبة الثانية أن زوجك العالم الكبير « تشوانج تشو » كان رجلا فذا فى علمه وحكمته ، ذائع الاسم بعيد الصيت ، وليس سيدى بشىء مذكور الى جانبه ، وهو لهذا لا يرى نفسه أهلا لان يكون خليفته فى زوجته ، هذا الى أن حب سيدتى لزوجها السابق كان أشهر قصة يتحدث بها الناس فى بيوتهم وأنديتهم ، فكيف يكون الامر اذا هى رضيت أن تتزوج بعده بسواه ، ألا يثير هذا سخرية الناس واستهجانهم ؟ أما العقبة الثالثة فهى أن سيدى رجل فقير مكدود يجهد فى سبيل القوت ، ويضنى سعيا الى العلم ، فهو لا يستطيع أن يحمل نفقات الزواج والاسرة ، بل لعله لا يجد نفقات العرس ذاتها

كان رد السيدة على هذا الكلام ينطلق فى صوت قوى حازم اذ يقول : « قل لسيدك ان كل هذه الصعاب التى يتخيلها لا حساب لها فى نظرها . فاما عن جدث زوجى السابق فسآمر برفعه فورا من موضعه الى حيث يوضع فى مكان ناء وراء البيت . وأما عن علم زوجى السابق وشهرته فلاصارحك بأن الامر لم يكن الا من قبيل الخرافة والتدجيل . ولعلك تذكر أن الامير دعاه ليكون وزيرا ، فرفض ولاذ بالفرار ، لانه كان يعلم من نفسه ما لا يعلم الناس ، كان يعلم أنه ليس على حظ من العلم والحكمة يؤهله لمنصب الوزارة ، فآثر الفرار على أن تتكشف دخيلته للامير وللرعية . وأما عن حبى له فلا أرى أن الامر يتعدى مجرد الاشاعة الذائعة ، ألم نتشاجر شجارا عنيفا قبل موته باسبوع ، لانى سمعته يتحدث حديث الاعجاب بفتاة ترملت من زوجها ، فشممت فى حديثه رائحة

الحب الذى قد يؤدى به الى الزواج منها .. ومن يدرى ، فلعله لو عاش طويلا لاتخذها هى زوجه وأرسلنى أنا مطلقة ! وأما عن المال فقل لسيدك ان ما يكفى شخصا يكفى شخصين ، بل لعل الزوجة توفر على زوجها كثيرا مما ينفقه وهو أعزب . وحسبنا أننا من أسرتين متماثلتين فى المركز الاجتماعى . هذا وقد ادخرت عشرين قطعة من الفضة ، وأحسبها تكفى لاقامة حفلة عرس بهيجة ، والآن فاذهب أيها الرجل العجوز الى سيدك ، وقل له ألا يتحدث عن العقبات مرة أخرى ، فان جئت لى بانباء طيبة ، كافأتك على ذلك مكافأة جزيلة

لم يطل غياب الخادم كثيرا ، ثم عاد يحمل الى السيدة النبأ الطيب ويتقاضاها الجزاء الجزيل ، فان سيده قد أفعم سرورا اذ زالت تلك العقبات التى كانت تصده عن طريق الزواج . وطلب اليها أن تحدد يوم العرس ، فقالت : لا داعى للتأجيل ، فكل شىء معد ، ولتكن الليلة ليلة عرسنا

وتبدت السيدة فى تلك الليلة فى رداء أحمر قانىء ، تزركشه زخارف من الفضة اللامعة والذهب البراق . وكذلك أقبل زوجها الشاب فى أبهى حلة تزين سمته البهى وقوامه الفارع . وأقيمت الحفلة من غناء ورقص ، وأديرت على الحاضرين كؤوس الشراب . ثم انسحب العروسان الى غرفتهما .. ولكن لم يكد العريس يخلو الى عروسه حتى ألمت به نوبة من الاغماء ، فسقط الى الأرض مغشيا عليه . وذعرت العروس وصاحت بخادمه : أيها الرجل العجوز ، ماذا ألم بسيدك ، ماذا أفعل لانقاذه ؟

فضرب الخادم كفا بكف وهو يقول : وا أسفاه يا سيدتى ! ان هذه نوبة قلب تصيب سيدى من حين الى حين ، وقد جهد الاطباء فى علاجه فلم يوفقوا ، الا واحدا منهم وصف له دواء شافيا ، ولكنه عزيز المنال

– أى شىء عزيز المنال ؟ قل لى ما هو هذا الدواء آت به فورا !

– انه يا سيدتى مخ رجل قتل منذ قليل . ويغمس هذا المخ فى خمر معتقة ، ثم يزدرده ، فتنجاب عنه الغمة ويفيق من نوبته هذه . وكان من عادتى اذا ألم به هذا الصرع أن أخف الى أمير بلدنا ، فيأمر بقتل أحد المجرمين المسجونين ، فننتزع منه ذلك الدواء الشافى . ولكن أين نحن الآن وأين أميرنا ؟ وكيف السبيل الى هذا المخ الذى لا دواء سواه ؟ فلنسلم الامر للقدر ، ولننتظر موت سيدى فى سكون ورضى

وأخذ الخادم يبكى بكاء مرا ، بينما ذلك العريس المريض يزداد وهنا على وهن ، وصفرة على صفرة .. ولكن السيدة صاحت به : دع عنك هذا البكاء والعويل أيها الرجل العجوز ، وقل لى : هل لا بد أن يكون المخ منتزعا من رجل قتيل ، أم يصلح ذلك المنتزع من رجل ميت منذ قريب ؟

قال الخادم : على شرط ألا يكون قد مات منذ أكثر من سبعة أسابيع ، فان المخ يظل رطبا طريا طوال هذه المدة !

فتنفست السيدة الصعداء ، وقالت تؤنب الخادم : ولماذا لم تقل ذلك من أول الامر ؟ انّ حياة سيدك يا هذا فى مأمن من الخطر ، فان زوجى السابق تشوانج تسو لم يمت الا منذ ثلاثة أسابيع فحسب . فماذا تقول فى استخراج مخه ، ونقعه فى الخمر ، واطعام سيدك منه ؟

قال الخادم : ولكن هل ترضين بذلك يا سيدتى ؟

فأجابته : هل أرضى بذلك ؟ كيف لا أرضى ؟ لقد وهبته نفسى فهل أضن عليه بمخ من جدث هامد ؟ تعال معى أيها الرجل العجوز . .

وأسرعت السيدة فأتت بمعول كبير ، وذهبت الى حيث دفن زوجها السابق ، وفى يدها قنبلة تضىء الظلام . وهوت على القبر بمعولها عدة مرات ، حتى تصدع أحد جدرانه وظهر ما فى جوفه . . يا للهول ! لقد هوى المعول من يدها ، وسقطت القنبلة من يدها الاخرى ، ووقفت جامدة لا حراك بها ، اذ سمعت شهيقا ينبعث من القبر ، ثم اذ رأت زوجها « تشوانج تسو » ينهض من التابوت ، وهو يقول فى صوت حبيس مكبوت :

ــ هيا يا زوجتى ، ساعدينى على الخروج من هذا القبر المظلم الخانق . .

وكان الخوف قد جرد السيدة من كل عزم وارادة ، فانعقد لسانها كما احتبس نفسها ، وغدت أداة تأتمر بكل أمر يلقى اليها . فتقدمت الى ذلك الميت الحى وأخذت بيده ، وأنهضته من قبره ، وسارت به الى غرفتها

عجبا ! لقد اختفى ذلك الشاب الذى كانت تحتفل الليلة بزواجها منه ، والذى تركته منذ قليل يعانى بين الموت والحياة . واختفى كذلك خادمه العجوز ولم يبق فى الغرفة أثر لعرس وزفاف ، الا تلك الملابس القانية التى ترتديها

وعاد اليها صوابها ، فجمعت شجاعتها ، وقالت :

ــ زوجى ، سيدى ، ما أشد فرحتى برجوعك ولقائك فى هذه الدنيا . اننى لم أفكر فى شىء سواك منذ فارقتنى ، وان عينى ــ وقد أوشك البكاء أن يذهب بضوئهما ــ لتشهدان لى بذلك . ألم أعاهدك على الحب والوفاء ماحييت ؟ انى لم أترك قبرك ساعة من ليل أو نهار . اذ كنت أجد فى القرب من جدثك راحتى وسلواى . فلما عاودتك الحياة ، وسمعت صوتك من وراء القبر ، جئت بهذا المعول وهدمت به ذاك الجدار الذى كان يفصلك عنى ، فما أسعد حظى ، وما أهنأ حياتى ، اذ عدت الى يا زوجى العزيز . لا شك أن الآلهة قد رقت لى من فرط حزنى وغامر بكائى ، واستجابت لدعائى وتوسلى بالليل وبالنهار ، فأعادت الى أحب الناس الى وأعزهم على

فقال « تشوانج تسو » : شكرا لك يا زوجتى على هذا الوفاء. ولكن خبرينى ياعزيزتى: ما هذه الملابس القانية الزاهية التى ترتدينها ولما يمض على موتى عشرون يوما ؟

فأجابته : ألا تعرف يا زوجى العزيز أن المسافر فى رحلة شاقة طويلة ، يحب ، عند عودته سالما من متاعبها وأخطارها ، أن يرى أهله فرحين بأوبته ، مبتهجين بسلامته ،

تحتفلين به أجمل احتفال ؟ فاذا رأت زوجتك أن ترتدى خير ما عندها من اللباس ، احتفاء بك ، فان هذا ولا شك يزيد فى حبك اياها وعطفك عليها .. أم هل كنت تريد أن ألقاك عند عودتك الى الحياة ، فى نفس تلك الملابس القاتمة الداكنة التى ارتديتها يوم فارقت الحياة ؟ يوم موتك كان أسود الايام ، ويوم عودتك الى الحياة أبهى الايام !

قال الرجل : صدقت يا زوجتى فيما تقولين ، وما أشد تقدرى لحبك ووفائك وفرحك بعودتى . ولكن ثمة سؤالا آخر لعلى أجد عنه جوابا مطمئنا :

ـ لماذا رفعت تابوتى من القبر الذى أعددته وسط البيت ، وألقيت به فى تلك الحفرة النائية المهجورة ؟

لم تحر الزوجة عن هذا السؤال جوابا . فصمت الرجل برهة ثم قال لها : دعينا من هذا ، وحدثينى عن الحب والهوى والوفاء ، فحسب الرجل من زوجه أن تحبه ما كان الى جانبها ، فان غيبه الموت عنها فهى ملك نفسها . ولا تحسبينى غاضبا أو ناقما ، فان غضب الرجال لا يقوى على بسمة النساء ، ونقمة الازواج لا تصمد طويلا اذا حنت الزوجات بالكلمة الحلوة والعبارة الانيقة .. دعينا من هذا وتعالى معى تنظر مليا الى ذلك القمر المشرق فى السماء ، والى ذلك البحر الساجى يتألق فيه ضوء القمر الخلاب ، وتعالى ننس فى ذلك المساء الساحر الفاتن ما مضى وما هو آت الساعة من بهجة ومن نعيم

وبينما هما مستغرقان فى هذا الحلم الهانىء البهيج ، اذ بزوجها تشوانج تسو يحرك يديه فى الهواء حركة خفيفة عابرة ، فتنظر زوجته فتراه قد غاب واختفى .. وتنهض فزعة مذعورة ، فاذ بها ترى أمامها ذلك الشاب الذى كانت تريد أن تتزوجه والى جانبه خادمه العجوز .. وهمت بأن تصيح وقد طاف بها طائف من الذهول ، ولكن المشهد لم يمكث طويلا ، واذ بالشاب وخادمه يختفيان ، واذ بها ترى زوجها « تشوانج تسو » الى جوارها مرة أخرى !

اذن فذلك الشاب لم يكن سوى زوجها ، واذن فكل ما قالته عن الحب والوفاء خديعة لم تجز على الرجل الحكيم .. واذن فلا مناص من التكفير عن خطيئتها . فجرعت كأسا من السم قضى عليها . وحملها زوجها الى القبر جدثا لا تعاوده الحياة مرة أخرى . ثم أوقد فى البيت كله نارا فأكلته وخلفت حطامه رمادا . أما هو فعاد يهيم فى الجبال والوهاد، ويضرب بين المدائن والقرى ، يتأمل الكون ، ويدرس الانسان ، ويكشف عن ذات الصدور ، ويستبطن حنايا القلوب ، فيعلم أن للمرء ساعته التى هو فيها ، أما ما فات فقد فات ، وأما ما هو آت فآت ، ثم يعلم أن المرأة أمام الحب القاهر أضعف من الطفل أمام الاسد الكاسر ، فمن حقها على الرجل ألا يسرف عليها ويتجنى ، ويطلب اليها الحب والوفاء مدى الحياة وبعد الممات ، ثم يعلم بعد ذلك كله أنه كلما أسرفت المرأة فى الحديث عن حبها ووفائها كان للرجل ، بل كان عليه ، أن يداخله الشك وتواتيه الريبة فى أمرها

(عن امريكان مجازين)

١٥ مليون جنيه

يخسرها العالم بسبب الجراد

بقلم الدكتور أوفاروف

الدكتور ب . ب . أوفاروف من علماء الحشرات فى مركز أبحاث مكافحة الجراد فى انجلترا ويعد من أكبر الخبراء بشؤون الجراد فى العالم . وهو يدير أعمال مكافحة الجراد التى تقوم بها الحكومة البريطانية منذ سنة ١٩٢٩ والتى بلغت أكبر قدر محمود من النجاح فى مقاومة هذا الوباء

لكى تقدر مدى ما يكابده العالم من خسارة من جراء غارات الجراد والنطاط ، أذكر لك ما جمعه مركز مكافحة الجراد من احصاءات عن السنوات العشر ١٩٢٥ — ١٩٣٤ تشمل منها سنين اشتدت فيها غارات الجراد وأخرى خفت فيها أو امتنعت . ولم يكن يسيرا جمع احصاءات من هذا القبيل ، فان ٤٩ دولة فقط (من ٧٧ دولة وقطرا تعانى غارات الجراد) قد قدمت الاحصاءات المطلوبة . ومع ذلك فان النتائج كانت مروعة ، اذ اتضح ان محاصيل قيمتها ٨٣٫١٢٠٫٨٠٠ جنيه ذهبت طعمة للجراد فى تلك السنوات العشر . يضاف الى ذلك ما تكلفته تدابير المقاومة وجملته ١٣ مليون جنيه .. وعلى هذا الاساس ليس من الغلو أن نقول ان الجراد والنطاط يكلفان العالم ما لا يقل عن ١٥ مليون جنيه كل عام . ويجب أن يضم الى هذا الرقم مبلغ هائل يمثل قيمة العمل غير المأجور الذى يبذل فى كل مكان على نطاق واسع لمكافحة غارات الجراد

لقد واجه البشر مشكلة الجراد منذ أقدم العصور ، وورد ذكرها فى الانجيل كما ورد فى تاريخ قدماء المصريين والعبرانيين واليونانيين القدماء والصينيين والرومان

ويحسب البعض أن خطر الجراد مقصور على بلاد قليلة معينة . ولعل ذلك الوهم ناتج من ان وسط أوربا وشمالها الغربى أصبحا بمأمن منه ، وان تكن البلدان التى فى جنوب أوربا مثل البرتغال واسبانيا وايطاليا وشبه جزيرة البلقان وأوكرانيا والقوقاز كلها ، جد خبيرة بالجراد . وفى الجزء المعتدل المناخ من آسيا تزيد المنطقة الزراعية المستهدفة لخطر الجراد اتساعا عن ذلك . وهذه المنطقة تمتد من اراضى سيبريا الخصبة حيث يزرع القمح الى أواسط آسيا حيث ينتج القطن والفاكهة وغيرهما ، وهناك تشتد عادة غارات الجراد الأسيوى المهاجر والجراد المراكشى . والى الشرق من ذلك ، فى بلاد الصين ، كثيرا ما أحدث الجراد الشرقى المهاجر مجاعات ساحقة . وتمتد منطقة هذا الجراد الاخير الى جزر الفليبين وبورنيو وسليبس والهند الصينية وشبه جزيرة الملايا

أما فى الغرب فهناك منطقة واسعة يسيطر عليها جراد الصحراء ، وتمتد من الهند شرقا الى شاطىء افريقيا على المحيط الاطلسى غربا ، ومن آسيا الوسطى الروسية شمالا الى جنوبى خط الاستواء فى أفريقيا الشرقية . وتتعرض المناطق الحارة من افريقيا فضلا عن ذلك لغارات نوعين آخرين من الجراد ، وهما الجراد الافريقى المهاجر والجراد الاحمر . والاخير منهما يصل الى أفريقيا الجنوبية التى تعانى أيضا غارات الجراد الأسمر . كذلك استراليا تدفع من محاصيلها ضريبة فادحة للجراد والنطاط

فاذا اتجهنا غربا ألفينا الولايات المتحدة وكندا كلتيهما فى حرب قائمة ضد النطاط ، بينما يلتهم الجراد الامريكى بين حين وآخر مساحات زراعية شاسعة فى أمريكا الوسطى والجنوبية

وهكذا لا تجد قارة واحدة من القارات الخمس بمنجاة من غارات الجراد ، فهو يرتادها كلها ما عدا مناطق الغابات والصحراوات المتجمدة الشمالية والصحراوات الاستوائية والجبال . ويبلغ عدد الدول المستهدفة لخطر الجراد بشكل دائم أو موسمى ٧٧ دولة

واذا رجعنا الى ما ذكره الانجيل عن غارة الجراد على مصر ، رأينا بعد ذلك سلسلة من كوارث الخراب والمجاعة سببها الجراد فى مختلف العصور ومختلف الأقطار . فمثلا فى القيروان ونوميديا من أملاك الرومان هلك ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة فى سنة ١٢٥ قبل الميلاد من جراء غارة للجراد . ووقعت مجاعات هائلة فى الهند والصين وغيرهما . فاذا انتقلنا الى السنوات الحديثة رأينا الجراد فى سنة ١٩٣٠ قد أتلف فى مراكش محاصيل تبلغ قيمتها مليون جنيه . وفى نيجريا فى نفس السنة تطلب الامر استيراد ألف طن من الحبوب منعا للمجاعة . وفى تنجانيقا التهم الجراد بين ٧٥ و١٠٠ فى المائة من المحاصيل فى سنة ١٩٢٩ ، وفى كينيا فى نفس السنة أنفق مبلغ ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه لمعالجة المجاعة الناشئة من الجراد ولتفادى نتائج الجفاف فى وقت واحد

ان دورة الحياة للجراد والنطاط بسيطة للغاية ، فالأنثى تضع بيضها فى كيس بالارض يحتوى من ثلاثين الى مائة بيضة . وفى البلاد الباردة الشتاء يبقى البيض خامدا طول هذا الفصل ، حتى اذا جاء الربيع خرج الجراد أو النطاط الصغير من البيض الى سطح الارض . وفى البلاد الحارة يفقس البيض بعد اسبوعين أو ثلاثة اذا كان بالارض ماء مطر أو رطوبة . ويظهر الفرق بين النطاط والجراد فى المرحلة الاولى من حياة كل منهما : فالاول تعيش أفراده مستقلة بنفسها . أما الثانى (الجراد) فيعيش فى جماعات ، فضلا عن سرعة نموه . وقد دلت التجريات الحديثة على أن حركات الجراد تتوقف لدرجة كبيرة على حالة الجو ، وتكثر فى أوقات الحر ، بينما يغريها اشتداد الحرارة بالوقوف عن الحركة . ومن عجب أن الجراد فى هجرته لا يقصد عادة الى البحث عن الغذاء ، فكثيرا ما يبعده اشتداد الحر عن منطقة خصبة الى صحراء جرداء

ومتى كبر الجراد الصغير وصارت له أجنحة فانه يطير جماعات . وقد تتألف الجماعة

من الجراد من عدد هائل ، فمثلا أغارت جماعة منه على منطقة تتراوح بين ٣ أميال و ٦٠ ميلا فى أفريقيا الشرقية وقدر عدد أفرادها بما لا يقل عن بليون جرادة

ومن العسير هنا أن تورد الوسائل الرئيسية التي تتخذ لابادة الجراد . فمثلا كان أهالى الصين القدماء يتلفون بيض الجراد وهو قابع فى الارض ، ولا يزال البعض يوصى به ، وان يكن لا يجدى نفعا الا فى أحوال خاصة . وكان الرومان يضربون الجراد بأغصان الشجر ويطاردونه الى حفر يعدونها ، كما ذكر المؤرخ بلينى ، وفى الازمان الحديثة صارت تتخذ طرق أخرى مثل قذف الجراد باللهب ، أو بالغازات السامة ، أو بالامراض البكتريولوجية ، أو بالبخار ، أو الدخان ، أو بقذائف المدافع نفسها .. وفى المدة الاخيرة ، كثر استخدام النخالة المخلوطة بمحلول زرنيخ الصودا ونشرها فوق الارض ، وقد ثبت ان الجراد يؤثرها على النبات الاخضر . ويراعى أن تكون تلك المادة الكيماوية السامة فيها من القلة بحيث تكفى لقتل الجراد ولكن دون أن تكون خطرة على الماشية التى ترعى فى الارض . وعلى أى حال يحسن البعد عن كل مجازفة من هذا القبيل ، ولذا يقومون الآن بتجارب قوامها غبار سام تقذفه الطائرات على الجراد فيبيده

على أن العقبة الكأداء فى حل مشكلة الجراد هى أن غاراته ليست سنوية بل تحدث كل عدد من السنين ، وكلما وقعت غارة منها على بلد من البلدان لم تدخر وسعا فى المقاومة ، ولكن متى زال الخطر المباشر زال معه الخوف من الجراد واستقر فى النفوس أمل كاذب بأن لا تقع غارة أخرى فى قادم السنين

والعامل الثانى فى فشل مقاومة هذا الوباء هو انفراد كل دولة بالامر . فهناك مثلا جهود هائلة بذلت لمكافحة الجراد فى كل من الجزائر وافريقيا الجنوبية والارجنتين الخ ، ولكن النتائج كانت دائما وقتية ، ولم تؤد الجهود قط الى استئصال المشكلة من أساسها ، لسبب بسيط وهو انها لا تحل فى بلد دون آخر ، فالجراد الصحراوى الذى ينشأ فى الهند يهاجر عادة الى ايران وبلاد العرب . وذريته تذهب الى مصر وفلسطين وافريقيا الشرقية . فواضح من ذلك أن التدابير التى تتخذ فى بلد واحد من هذه البلدان قد تصلح لوقاية محاصيلها فى موسم معين ولكنها لا تكون ذات أثر فى حل المشكلة حلا عاما دائما

ولقد بدأ التعاون الدولى فى مكافحة الجراد فى سنة ١٩٢٨ ، اذ حصلت سلسلة غارات من الجراد فى جهات شتى فرأت الحكومة البريطانية ضرورة اتخاذ تدابير جوهرية لحل هذه المشكلة . وما لبثت أن أنشأت مجلسا خاصا للقيام بالبحوث الخاصة بالجراد ، وجمع المعلومات عن حركاته ونشأته . ثم عقد أول مؤتمر للجراد فى روما سنة ١٩٣٠ فعهد الى المجلس البريطانى السالف الذكر أن يكون هو المركز الدولى للبحوث الخاصة بالجراد. وفى خلال ثمانى سنوات كان هذا المركز قد جمع كل المعلومات الممكنة عن الجراد ووضع الخطط لمقاومته . ولما أريد عقد مؤتمر دولى آخر لبحث هذه الخطط وتقريرها اذا بالحرب تنشب وتضع حدا لهذه الجهود

(من صحيفة جمعية الفنون الملكية بلندن)

الأسلحة السرية لا تحقق نصراً

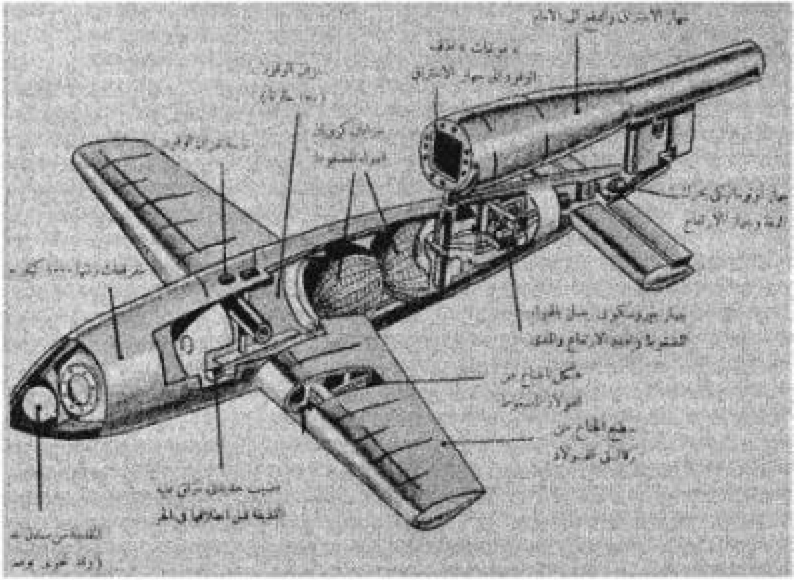
الاعتقاد السائد أن كتاب « كفاحي » هو إنجيل النازية ودستورها : بين أهدافها وغاياتها ، ورسم خططها ووسائلها ، وعين ما تريده ألمانيا النازية في ميادين السياسة والاجتماع

ولكن هذا الاعتقاد غير صحيح كل الصحة . ففي أحداث الحرب والسياسة في الأعوام الخمسة الماضية ما ينقضه

نعم ، حققت النازية كثيراً من فصول الكتاب فيما أنزلته باليهود من العسف والاضطهاد ، وفيما اتخذته من تطهير السلالة الآرية من وسائل ، وفيما اتبعته من طرق التنظيم والدعاية التي شرحها هتلر خير شرح ، وفيما سارت عليه في الفترة الأولى من الحرب من أساليب القتال والهجوم

ولكن هتلر نقض أموراً أخرى على جانب خطير من الأهمية ، مما قرره في « كفاحي » ، فقد قال في كتابه : « يجب أن تتفادى ألمانيا الحرب مع بريطانيا بأي ثمن كان ، لأنها حرب تقضي بالهزيمة على ألمانيا بعد أن يطول أمد الحرب سنين ، تتجمع فيها قوى بريطانيا وامبراطوريتها وحلفائها المتحدين » ولو وفق هتلر في سياسته إلى تنفيذ هذا الرأي ، لتغيرت صورة الحرب تغيراً مطلقاً

نسوق هذه الكلمة مقدمة للكلام عن هذا السلاح الحربي الجديد – سلاح القنابل الطائرة – الذي شرح



القنبلة الطائرة والأجزاء المختلفة التي تتألف منها



عندما وقفت شربورج فى قبضة الحلفاء، عثروا على عدة محطات ناقصة البناء، لاطلاق سلاح ألمانيا السرى (رقم ٢) وهو سلاح أبعد مدى من القنابل الطائرة يصل الى وسط انجلترا. وترى جانباً من إحدى هذه المحطات استعمله الأمريكيون كمركز أمامى للقيادة

هتلر يتخذه فى مكافحة بريطانيا منذ اقتحموا قلعته الأوربية. فقد قال هتلر فى كتابه إن الأسلحة السرية لا تنهى حرباً ولا تحقق نصراً وأن من أخطاء ألمانيا فى الحرب الماضية أنها زعمت أن ما ادخرته من أسلحتها السرية الى نهاية الحرب، كفيل بانتصارها على عدوها. وقال إن كل سلاح حربى يفتن فيه العلماء لابد أن يقابله ويقاومه سلاح آخر يفتن فيه علماء الأعداء.

ومع ذلك نرى هتلر يتبع ما عابه وخطأه فى كتابه، فيلجأ الى أسلحة سرية ابتكرها علماؤه، راجياً أن يكون فيها ما يوهن قوى أعدائه ويعيد اليه النصر الذى بدأ يولى عنه منذ عامين تقريباً. ونرجح أن رأيه السابق أصح من رأيه الآن..

***

وأخطر هذه الأسلحة سلاح «القنبلة الطائرة» التى سماها دعاة النازى «سلاح الانتقام رقم ١»، وهو عبارة عن طائرة بدون طيار، تنطلق فى الجو الى هدفها بتأثير لاسلكى، وتحمل الطائرة من طن الى طنين من المواد المتفجرة. وتبلغ سرعتها من ثلاثمائة ميل الى ثلاثمائة وخمسين ميلا فى الساعة. ويبلغ مدى انطلاقها قرابة مائة وخمسين ميلا

وتستطيع محطات اللاسلكى التى توجه هذه الطائرات أن تجعلها تنحرف يميناً أو يساراً، وأن تعلو أو تهبط من مستواها، وذلك تضليلا وفراراً من قنابل المدافع المقاومة للطائرات

ولكن أكبر عيب فى هذه الطائرات أنه لا يمكن توجيهها الى هدف صغير معين، بل الى مساحة واسعة بأسرها وهى لهذا قليلة الجدوى من الوجهة الحربية، لأنها قلما تصيب هدفاً عسكرياً إلا بمجرد الصدفة. وإنما يرجو هتلر منها أن تحطم الروح المعنوى فى الشعب البريطانى، بما تحدثه من خسائر جمة فادحة فى مدينة لندن وغيرها من مدن بريطانيا الجنوبية، نتيجة ضرباتها العشواء.

ولكن الشعب البريطانى الذى صمدت أعصابه السليمة المتينة لمحنة الحرب الجوية فى سنة ١٩٤٠، حين كان شبح الهزيمة شاخصاً فى كل ميدان، لا بد أن يثبت لهذه المحنة الجديدة فى وقت يبدو فيه قبس النصر فى ميادين الحرب فى غرب أوربا وشرقها على السواء.

ولعل أن تكون هذه القنبلة الطائرة بشيراً بدنو الحرب من نهايتها، كما كان مدفع «برتا» الرهيب بشيراً بانتهاء الحرب الماضية. فان هذا المدفع الذى كان الألمان يدكون به مدينة باريس وهو على مدى ستين ميلا منها، لم يجد نفعاً فى تحطيم المعنوية الفرنسية ولا فى إحياء المعنوية الألمانية، رغم ما كان له من أثر خطير. وما ينتظر أن تكون القنبلة الطائرة إلا من هذا القبيل — سلاح يدل رغم خطورته — على اليأس والقنوط ويبشر باشراف الحرب على نهايتها، نهاية تظهر فيها الديمقراطية على الديكتاتورية ظهوراً بيناً فاصلا..

المدارس الريفية فى أمريكا .

بدأت وزارة الشؤون الاجتماعية بتنفيذ مشروع تعميم المدارس الريفية فى قرى مصر ، وبهذه المناسبة رأينا أن ننشر الموضوع التالى عن المدارس الريفية فى أمريكا

تقع مسئولية التربية فى الولايات المتحدة على عاتق الهيئة المحلية فى البلدة ثم على حكومة الولاية . أما الحكومة المركزية « حكومة الاتحاد » فلا تتدخل تدخلا مباشراً فى شؤون التربية فى الولايات . ومن حق كل طفل فى أمريكا بغض النظر عن عقيدته أو جنسه أو لونه ، أن يتعلم فى المدرسة الأولية بالمجان ، فلذلك كان شعب الولايات المتحدة من أكثر الشعوب ثقافة فى العالم ، إذ يبلغ عدد الذين يجيدون القراءة والكتابة فيها ٩٦ ٪ من أهلها

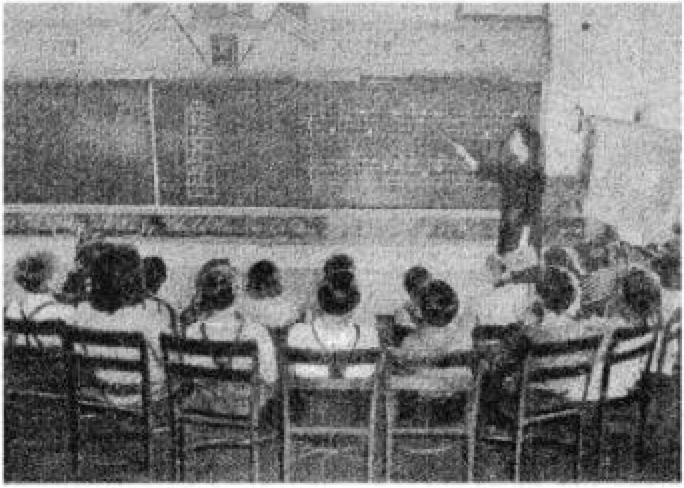
وتحتل المدارس الريفية فى نظام التعليم فى أمريكا مكانة كبيرة ممتازة ، إذ يبلغ عدد الذين يترددون عليها ٢١ مليوناً أنفق عليهم عام ١٩٤٠ أكثر من ٢٣٤٤ مليون دولار ، بينما لا يزيد عدد طلبة المدارس الأخرى عن ثمانية ملايين ونصف . ويتطلب هذا العدد الكبير إلى أكثر من ألف مدرسة إلى جانب ١٢٠ ألف مدرسة صغيرة ذات غرفة واحدة ، ويعمل فى هذه المدارس أكثر من نصف أساتذة أمريكا

ويتعلم الأطفال حتى فى مراحل الدراسة الأولى فضلا عن القراءة والكتابة والحساب الزراعة وتربية الماشية وإدارة الآلات ، وكل ما من شأنه إعداد التلميذ لمواجهة مشاكل الحياة الخاصة والعامة ، فى المنزل وفى المجتمع . وتعنى المدرسة الريفية بتنمية مواهب الطفل والاهتمام بصحته ، وبتعليمه أفضل السبل لتمضية أوقات الفراغ

ومنازل الريف فى أمريكا مبعثرة فى مساحات شاسعة ، لذلك خصصت الحكومة ٩٣ ألف سيارة لنقل الأطفال من منازلهم إلى المدرسة ، وهذا العدد يزيد على نصف عدد السيارات المعدة للنقل فى الولايات المتحدة ، وينفق عليها سنوياً ما يزيد على ٨٠ مليون دولار ، وفى الأماكن البعيدة يلجأ التلاميذ أحياناً إلى ركوب الخيل أو البغال للوصول إلى المدرسة



لكثير من المدارس حتى أصغرها مكتبة يستطيع أن يقرأ فيها الأطفال وأن يؤدوا واجباتهم ، وهم يشتركون عادة — بعد الفراغ من المدرسة — فى تنظيفها وفى تنظيف حجرات الدراسة



اذا ما وصل الأطفال الى المدرسة أقبلوا على دروسهم فى جد ونشاط ، والأطفال فى أمريكا مولعون بالموسيقى ، فلذلك يتدرب الكثيرون منهم على قراءة النوتة الموسيقية وعلى العزف على الآلات الموسيقية



مدرسة ريفية صغيرة ذات غرفة واحدة ، تقوم بادارتها والتدريس فيها مدرسة واحدة . ويفضل النساء عادة لفهمهن مشاكل الأطفال الصغار أكثر من الرجال

العِلمُ والعالَمُ

الجو سلاح حربى

من الآراء الحربية الطريفة أن لروسيا قائدين لا يهزمان أبدا ، هما القائدان يناير وفبراير !

وهم يعنون بهذا أن البرد القارس والجليد المتراكم فى أرجاء روسيا خلال هذين الشهرين كفيلان بهزيمة كل جيش يريد غزو روسيا ، كما هزم جيش نابليون وجيش هتلر هزائم منكرة

والواقع ـ كما قال برنارد هوبارد الاخصائى الامريكى فى شـؤون الطقس ـ أن « المدافع والدبابات والطـائرات ليست معدات الحرب الوحيدة . بل ان الجو يعد احد هذه المعدات الحربية التى لا غنى عنها فى تحقيق النصر أو الهزيمة »

وأحداث هذه الحرب ، سواء ما وقع فيها فى البر أو فى البحر أو فى الجو ، دليل قاطع على صحة هذا الرأى ، كما يبدو من الوقائع التى نذكرها :

■ كادت حملة الحلفاء على صقلية ان تنتهى بهزيمة قاصمة من جراء عاصفة عاتية هبت على البحر الابيض المتوسط فى اليوم المعين لغزو الجزيرة ، فقد تعالت الامواج كالجبال واشتدت ضرباتها للشطئان ، حتى غدا وصول السفن للبر مستحيلا ، وأصيب الجنود بدوار البحر مما لا يستطيعون معه أن يقاتلوا جنود العدو الذين يترصدونهم فى الجزيرة . وبدا للقيادة أن الجو ، لا العدو ، قد أفسد خطة الغزو وقضى على جنودها بالانكسار . ولكن الجو لم يلبث أن اعتدل ، فسكنت العواصف وهدأت الامواج ، وتمت القصة على ما نعرف من انتصار الحلفاء وسيطرتهم على الجزيرة

■ ولم تكن مأساة السلاح الجوى البريطانى فى الفترة الاولى من الحرب الا نتيجة ما ينقصه من معلومات جوية صحيحة . فقد حدث فى ليلة من ليالى شهر نوفمبر ان قامت مئات من قاذفات القنابل وحارساتها تريد أن تصب عذابها على المدائن الالمانية . فماذا كانت النتيجة ؟ فقدت ثلاث من كل خمس طائرات . ولم يعد مئتان وخمسون طيارا . وبلغت قيمة الطائرات المفقودة خمسة ملايين من الدولارات . ولم تكن لطائرات ألمانيا ولا لمدافعها دخل كبير فى هذه الهزيمة

■ ولم يكن الاتفاق الذى عقدته اليابان وروسيا بشأن مصائد الاسماك فى كمشتكا الا عملا حربيا واسع النطاق ، لان معرفة حالة الجو فى هـذه المنطقة تمكن اليابان من القيام بعمليات حربية كبيرة فى كثير من أرجاء الشرق الاقصى . ولولا هذا الاتفاق لما استطاعت اليابان أن تضرب « الميناء الهولندى » ضربة قاصمة لم تحل دونهـا الطائرات الامريكية التى تنقصها الخبرة بتقلبات الطقس فى هذه الارجاء

■ وجميع انتصارات ألمانيا الاولى لم تتحقق الا لان القيادة الالمانية أدخلت « عنصر الجو » فى حسابها . فبولندة غزيت فى شهر ينتشر فيه الجفاف فى بولندة ، فتيسر لدبابات النازى ان تجتاح هذه البلاد فى يسر وسهولة . وكذلك حطم النازى خط ماجينو عند كوفار ، بأن اختاروا لذلك يوما ستهطل فيه الامطار الغزيرة ، مما يمكنهم من اخفاء ما يعدونه من الوثوب على هذا الخط المنيع ، فى حين أن الفرنسيين كانوا يحسبون خط ماجينو حصنهم الحصين الذى يكفيهم مؤونة التفكير فى مسألة الجو وعواصفه وأمطاره وحملة النازى على النرويج وقعت فى اسبوع

عرف انه سيكون اسبوع الضباب الكثيف والمطر الغزير . فلما انجاب الضباب وانقطع المطر كانت الترويح فى قبضة الالمان

■ ولما وقعت موقعة ميناء بورلبقرد الكوتجرس بعدها بخمسة أيام اقتضاد نصف مليون دولار للتوسع فى « ادارة الطقس » التابعة للجيش الامريكى

ويجب أن نذكر أن أعظم معركتين فى تاريخ انجلترا ، معركة الارمادا فى سنة ١٥٨٨ التى سودت انجلترا ملكة على البحار، ومعركة واترلو فى سنة ١٨١٥ التى أوقعت نابليون فى أسر الانجليز ، كان الجو هو العامل الاول فى انتصار انجلترا على عدويها : فيليب الثانى ونابليون بونابرت

أيهما الجنس اللطيف ؟

أيهما الجنس اللطيف : الرجل أم المرأة ؟ الذكر أم الانثى ؟

يقول العلماء ان الرأى الشائع لا يقوم على أساس علمى . وتدل بحوثهم وأرقامهم على أن المرأة — أو الانثى بوجه عام — أقوى وأغلظ من الرجل — أو الذكر على الجملة — قوة بدنية وقوة عصبية ملحوظة

فمتوسط عمر المرأة يزيد عن متوسط عمر الرجل خمس سنوات . وقد يقال ان مرجع ذلك الى أن عمل المرأة أيسر من عمل الرجل وأبعد منه عن الخطر فى الجملة ، ولكن المرأة تتعرض دون الرجل لآلام الحمل والوضع وأخطارهما، فضلا عن أن حياتها الراكدة أو الهادئة تجعلها أكثر استهدافا من الرجل لمرض السكر وضغط الدم ، ومع ذلك فان عمرها أطول من عمر الرجل مما يدل على أن جسمها أقوى على الاحتمال من جسم الرجل

ومما يدل على أن نوع العمل لا دخل له فى طول العمر ، انه فى المرحلة الاولى من مراحل الحياة السبع، أى فى مرحلة الطفولة التى يتساوى فيها الطفل والطفلة من حيث مجهودهما الجسمانى تكون الطفلة أكثر من الطفل مناعة من الامراض تتزيد الوفيات فى الذكور عنها فى الاناث ، بل ان هذه الزيادة تكون أوضح فى الايام الاولى من الحياة ، مما يدل على أن الانثى الجنين أقوى وأصح من الذكر الجنين

وهذه الحقيقة أوضح وأبين فى عالم الحيوان، حيث صار الذكر فى كثير من أنواع الحيوان يشغل مركزا ثانويا الى جانب المركز الاول الذى تشغله الانثى . وكلنا نعرف ان ذكر النحلة مثلا لا عمل له الا تلقيح الانثى ، ومتى تمت عملية اللقاح اجتمعت عليه الاناث وقتلنه تخلصا من هذا المخلوق « الطفيلى » الذى لا يؤدى عملا نافعا للجماعة

وقد أراد دى موباسان فى احدى قصصه أن يسخر من الرجل العاطل ، فصور رجلا ريفيا يقضى وقته نائما أو غافيا أو لاعبا ، بينما زوجه تؤدى كل ما فى البيت وما فى الحقل من الاعمال. وأخيرا اقترحت عليه زوجته أن ينام على بيض الدجاج حتى يفقس وبذلك يؤدى عملا ما . . ولكن موباسان لم يجاوز الحقيقة فى قصته ، فبعض ذكور الحيوانات المائية لا عمل له بعد تلقيح الانثى الا أن يحمل بيضها على ظهره حتى يفقس هذا البيض ، بينما انثاه تعيث فى البحر سعيا وراء رزقها ورزقه ورزق صغارهما . .

ونعود الى مسألة الصحة والقوة ، فنجد أن نسبة الوفيات من الامراض المعدية فى الذكور من بنى الانسان تزيد عن نسبتها فى الاناث بمقدار ٤٦ ٪ .

وأكثر الامراض عدوى هو السل والالتهاب الرئوى . ومع أن نسبة الوفيات بهما ، قد قلت كثيرا فى العهد الاخير ، وخصوصا بعد استخدام عقاقير « السلفا » الا أن وفيات الذكور منهما أكثر من وفيات الاناث بمقدار ٥٠ ٪ .

ووفيات النساء من السرطان أكثر من وفيات الرجال . ولكن اذا استثنينا سرطان الثدى والجهاز التناسلى ، والمرأة بطبيعة الحال أكثر تعرضا له من الرجل ، فانا نجد أن الرجل يستهدف ضعف استهداف المرأة للوفاة من السرطان الذى يصيب اللسان أو الرئة أو المعدة أو الجلد أو سائر الاعضاء الداخلية

وتزيد وفيات الرجال بمقدار الثلث عن وفيات النساء الناتجة من أمراض القلب

وقد ذكرنا أن المرأة تتعرض لضغط الدم أكثر من تعرض الرجل . ومع ذلك فانها اكثر احتمالا له وأقل تعرضا للموت من جرائه

ومما يدل على أن أعصاب المرأة أصح وأقوى من أعصاب الرجل هو تفاوتهما فى نسبة الانتحار ففى احصاء الانتحار فى أمريكا فى سنة ١٩٣٩ وجد أن المنتحرين ثلاثة أمثال المنتحرات

بناء عشرين مليون منزل

الاغلبية الساحقة من الشعب الامريكى — ونعنى دائما بأمريكا الولايات المتحدة الامريكية — تنال قسطا كافيا من الغذاء واللباس . ولكن ثلث هذا الشعب ، أى حوالى أربعين مليون نسمة ، لا يسكنون مساكن صحية لائقة ، سواء من يقيم منهم فى المدن ومن يقيم فى الريف . والواقع أن جزءا كبيرا من الفلاحين الامريكيين يقيمون فى مساكن لا تصلح فى نظر الفلاح الحديث الراقى لايواء ماشيته !

ولهذا فقد أعدت أمريكا عدتها لتمكن أبناءها وبناتها من أن يسكنوا مساكن تتوافر فيها عوامل الصحة والراحة . وهذا يقتضيها انشاء عشرين مليون مسكن ، فى أثناء عشر سنوات

وسيكون هذا المشروع الخطير من أهم العوامل فى تفادى بطالة العمال بعد ان تنتهى الحرب وينتهى معها الانتاج الحربى الهائل الذى يستغرق كل ما فى أمريكا من أيدى العمال والعاملات . اذ أن هذه المنازل تحتاج الى عشرة ملايين من العمال يشتغلون طوال السنوات العشر التى يتم فيها انجاز المشروع

وستكون طريقة اقامة هذه البيوت مختلفة عن الطريقة القديمة . طريقة وضع حجر على حجر ، واقامة حائط بعد حائط ، وانشاء طبقة بعد طبقة . بل ستتبع طريق البناء جملة واحدة ، فنحن فى عصر الانتاج الكبير « الجملة » لا الانتاج الصغير « القطاعى »

وعلى ذلك ستقوم المصانع التى تنتج الحوائط الكاملة مصنوعة من أنواع الحديد المختلفة ، فلا يستغرق بناء البيت المؤلف من اربع او خمس غرف سوى ساعات قلائل تتراوح بين أربعين وخمس واربعين ساعة . أى أن خمسة أو ستة من العمال يستطيعون أن يقيموا هذا البيت فى يوم واحد !

أى أن الفترة اللازمة لاقامة بيت لن تزيد عن الفترة اللازمة لشراء سيارة . اذ يكفى أن يذهب الرجل الى شركة من شركات البناء ، ويختار من بين رسومها رسم البيت الذى يريده . ثم ينقدها جزءا من الثمن ، وفى اليوم التالى يستلم هذا البيت الذى تقيمه له الشركة فى بحر نهار واحد وبعد ذلك يدفع لها باقى الثمن مقسطا على أقساط زهيدة لا ترهق الاسرة الفقيرة أو المتوسطة عسرا . ذلك أن ثمن مثل هذا البيت سيتراوح بين الفين وثلاثة آلاف من الدولارات

وانشاء بيت كهذا بالطريقة الحالية يقتضى ضعف هذا المبلغ على الاقل ، فضلا عما يستغرقه من وقت طويل

ولن تكون أثمان الاثاث الجميل المريح مرهقة للمتوسطين والفقراء ، وبذلك سيكون فى بيت العامل والفلاح ثلاجة كهربائية ، وفرن كهربائى وما الى ذلك من المعدات التى لا يملكها الآن الا الاثرياء والموسرون

أخطاء شائعة فى تاريخ العلم

يفسد التعصب القومى كثيرا من تاريخ العلم والعلماء ، فينسب لبعض المخترعين والمكتشفين فضلا غيرهم أحق به وأولى

ومن أمثلة ذلك ما يلى :

■ فأديسون المخترع الامريكى لم يخترع المصباح الكهربائى رغم أن كثيرا من مؤرخى الكشوف العلمية يقولون ان أعظم ما تجلت عنه عبقرية أديسون هو هذا المصباح ، ورغم أن أمريكا أعلنت حدادها يوم وفاة أديسون بأن اطفئت مصابيحها الكهربائية بضع دقائق حزنا على الرجل الذى تزعم أنه اخترعها · والواقع ان العالم شهد المصباح الكهربائى فى سنة ١٨٦٠ ، أى قبل أديسون بتسع عشرة سنة ، وذلك على يد عالم انجليزى هو سير جوزيف سوان

■ اذا قلت نظرية التطور قفز الى ذهنك اسم العالم الانجليزى شارلز داروين · ولكن هذه النظرية قديمة جدا ، فقد قال بها بعض فلاسفة الاغريق ، وبعض فلاسفة المسلمين ، وبسطها العالم الفرنسى جان لامارك ، وشرحها وأوضحها جد داروين ، واسمه ارازمس داروين

■ فى سنة ١٩٣٤ منح ثلاثة من أطباء امريكا هم : هويبل ومينو ومورفى ، جائزة نوبل لكشفهم عن علاج ناجع لفقر الدم · ولكن هذا العلاج ذاته كشف قبل ذلك بعشرين سنة على يد طبيبين ايطاليين هما بيترو كستيلنو والفونسو جريرا

■ الشعوب التى تتكلم الانجليزية تتعصب للعالم الانجليزى جوزيف بريستلى وتنسب اليه أنه كشف عن عنصر الاوكسيجين · ولكن بريستلى لم يعلن هذا الكشف الا فى سنة ١٧٧٤ ، فى حين أن الكيميائى الفرنسى لافوازييه كشف هذا العنصر وسماه الاوكسيجين قبل ذلك بسنتين · والالمان لا يعترفون بذلك ويصرون على أن مكتشفه هو عالمهم كارل شيل !

■ ينسب المصل الواقى من الجدرى الى طبيب قروى انجليزى اسمه ادوارد جينر ، وفق اليه فى سنة ١٧٩٦ · ولكن من المحقق ان رجلا يونانيا مغمورا اسمه تيمونى عرف هذا المصل واتخذه فى الوقاية من الجدرى قبل ذلك بمائة سنة

■ نظرية الخلية ، أى أن الخلية هى الوحدة الاساسية التى تقوم عليها المادة الحية ، تنسب الى العالم الالمانى تيودور شوان · ولكن شوان لم يهتد الى هذا الرأى الا فى سنة ١٨٣٩ ، فى حين أن العالم الانجليزى روبرت بروك أعلن هذه النظرية ذاتها قبل ذلك بقرنين من الزمان

وهكذا يتعرض تاريخ العلم لكثير من الاخطاء لان الروح القومى ينفذ الى ميدان العلم ، فيجرد بعض العلماء من فضلهم لينسبه الى غيرهم ممن جاءوا بعدهم وتأثروا خطاهم

نجم جديد يبشر أخيراً !

الظاهر أن العلاقة بين علم الفلك وخرافة التنجيم ما تزال قائمة !

فمن أنباء امريكا العلمية أن نجما جديدا ظهر فى سماء افريقيا وأمريكا الجنوبية فى الاسبوع الذى هبط فيه ايزنهاور أرض أوربا غازيا ، وان هذا النجم ألمع ضياء من أى نجم ظهر فى السماء منذ سنة ١٩١٨ ، أى السنة التى انتهت فيها الحرب الماضية وقام فيها السلام

فهل يكون هذا النجم اللامع الجديد بشيرا بانتهاء الحرب الدائرة واقبال السلام المنشود ؟

وقد كشف هذا النجم الاستاذ داوسون بمرصد لابلاتا فى الارجنتين · وبعد كشفه بأسبوع واحد كان ترتيبه من حيث قوة ضوئه ولمعانه الثامن من بين سائر النجوم ، ويزداد لمعانه يوما بعد يوم

وضوؤه البراق دليل على أن انفجارا حدث فى شمس بعيدة منذ عدد من السنين ، وظل

الضوء المنبعث من هذا الانفجار يسير في الفضاء حتى بدا لاعين الناس على هذه الارض

ومع أن الضوء يسير بسرعة ست تريليونات من الاميال في السنة ، فان بعض النجوم لايصل ضوؤها الى أعيننا الا بعد انقضاء قرون من الازمنة !

ولا يعرف الى الآن مدى بعد النجم الجديد عن الارض ، وكذلك لا يعرف مستقبله ، فقد يزداد لمعانا عدة شهور أو عدة سنين ، وقد يخبو هذا الضوء سريعا ثم يختفي عن الابصار

وقد ذكرنا في النبذة السابقة كيف ان الشعوب تعمد ان تنسب الكشوف العلمية ادعاء وغرورا لرجالها ولو لم يكن لهم فضل في كشفها . وهذا ما حدث في شأن هذا النجم . فقد أذاع الراديو الياباني أن الذي كشف هذا النجم هو أحد منجميها « الهواة » — أي انه ليس من العلماء — وأن كشفه هذا يعد من الحوادث الكبرى في تاريخ علم الفلك ، وأن ما تدعيه أمريكا من أن عالمها الارجنتيني هو الذي كشفه محض افتراء

كلف الشمس وأثره الاقتصادي

من النظريات التي يعلل بها حدوث الازمات الاقتصادية ظهور كلف — بقع — الشمس

فقد لاحظ بعض العلماء أن هذه الازمات تعاقبت في خلال التاريخ الحديث مرة في كل عشر سنوات . وأن وقوع هذه الازمات يأتي دائما في الوقت الذي يشوب وجه الشمس بعض هذه البقع التي تقلل من أشعة الشمس وحرارتها . فاستنتجوا من ذلك أن ثمة علاقة بين ما يحدث في الشمس من كلف وما يحدث في الارض — وما هي الا كوكب بسيط يتأثر بالشمس — من أزمات

على أن هذه النظرية لا سند لها في رأي الاقتصاديين المحدثين الذين وجدوا للازمات أسبابا أخرى أوضح وأقوى

ولكن عالما أمريكيا اسمه رالف كنج ظهر أخيرا برأي يقول ان بقع الشمس لها تأثير مباشر في حياة الجماعات البدائية التي تعيش على قنص الحيوان ، وصيد السمك ، ورعي الماشية ، وكذلك التي تقتات من ثمار الغابات وحشائش الارض .. وأن هذا التأثير يتناول نسبة المواليد ونسبة الوفيات ، ونسبة الامراض ، ومستوى الصحة بين هذه الاقوام

فقد وجد هذا العالم أن هذه النسب تدور في دورات منتظمة ، بمعنى انها تزيد وتنقص في فترات متعاقبة متساوية ، ففي كل احدى عشرة سنة تهبط نسبة المواليد وتزيد نسبة الوفيات ، كما يهبط مستوى الصحة وتنتشر الامراض ، الى حد يهدد بانقراض هذه الجماعات

وتلتفت الاذهان في هذه الحالة — بطبيعة الحال — الى البحث عن الاوبئة التي تصيب هذه الجماعات ، على زعم انها هي المسئولة عما يحدث .. ولكن لو نظرنا الى الشمس لوجدنا أن هذه البقع التي تغطي وجهها هي المسئول الاول ، وذلك ان ما تنقصه من أشعة الشمس، وعلى الاخص أشعتها فوق البنفسجية ، تؤثر تأثيرا مباشرا في قدرة الحيوان على النسل ، وفي قدرة النبات على النمو ، مما يترتب عليه نقص كبير في المواد الغذائية التي يعيش عليها وحدها عدد كبير من البشر ، هم الاقوام البدائية التي لم تتعلم بعد طرق الانتاج الحيواني والزراعي على أسس صناعية علمية

وقد وجد في خلال المائتي سنة الاخيرة أن بقع الشمس تظهر في دورات متعاقبة منتظمة ، أي مرة في كل ١١ ١/٥ سنة . وانه في كل مرة تتعرض حياة الجماعات البدائية لخطر الانقراض . وهذا ما يدعو الى الظن — على الاقل — بأن نقص أشعة الشمس بسبب هذه البقع هو السبب فيما يصيب هذه الجماعات

الحركة الفكرية

لغة جديدة

الى جانب المئات من اللغات « الطبيعية » التى تتكلمها الشعوب أو القبائل أو العشائر البشرية، توجد قرابة ثلاثمائة لغة « صناعية » اخترعها علماء اللغات فى العصر الحديث ، توثيقا لعرى التفاهم والتعاون بين الامم التى فرقها اختلاف اللغات

وأشهر هذه اللغات هى « الاسبرانتو » التى كان يرجى لها يوما ما أن تصبح لغة عالمية تتخذها الحكومات ودوائر الاعمال فى جميع الاقطار ، حتى لقد قررت بعض حكومات أوربا الشمالية ــ السويد والنرويج ودنمرك ــ تدريس هذه اللغة اجباريا فى مدارسها الابتدائية ، وكذلك طبعت بها مئات من الكتب المؤلفة بها أو المترجمة اليها تدليلا على وفائها بما تتطلبه فروع الثقافة المختلفة

ومع أن الاسبرانتو ، وسائر تلك اللغات الصناعية ، لم تحقق الغاية المنشودة منها ، ومع أن العقلية القومية التى تسود شعوب العالم جميعا أبت التخلى عن اللغات القومية الى لغة عالمية واحدة ، فما زال من العلماء من يخترع لغات جديدة ، راجيا أن يكون فيها من المزايا مايحقق لها الذيوع والانتشار

وأحدث هذه اللغات « لغة الانترجلوسا » التى اخترعها أخيرا الاستاذ لانسلوت هوجبن بجامعة ابردين باسكوتلنده

ومجموع مفردات هذه اللغة ٧٥٠ كلمة ، فهى بذلك أقل عددا من «الانجليزية الاساسية» التى ابتكرها الاستاذ اوجدين ، وعدد كلماتها ٨٥٠ كلمة ، وقد تحدث عنها « الهلال » فى مقال عنوانه « تبسيط اللغة الانجليزية »

ولكن قيمة هذه اللغة لا تنحصر فى قلة عدد مفرداتها ، بل فى سهولة حفظ هذه المفردات لان أكثرها من الكلمات الشائعة على الالسن فى جميع اللغات

وكيف ذلك ؟ لقد وجد الاستاذ هوجبن ان أصول الكلمات العلمية مشتركة فى أكثر اللغات ككلمة «جيو» التى تبدأ بها مثلا كلمة «جيولوجيا» معناها العالم أو الدنيا ، وكلمة « لوجى » التى تنتهى بها كلمة « فسيولوجى » معناها العلم ، وكلمة « تل » التى تبدأ بها كلمة « تليفون » معناها بعد أو مسافة ، وكلمة « فون » التى تنتهى بها معناها « صوت » وهكذا .. وقد صارت هذه الكلمات عالمية ، تشترك فيها جميع اللغات تقريبا، ولهذا صار معناها معروفا للناس كافة

فرأى الاستاذ أن يتخذ من هذه الكلمات مادة للغته الجديدة على قدر الامكان . ولما كانت هذه الالفاظ شائعة على الالسن ، مفهومة المعانى ، فانه يتيسر حفظ مفردات اللغة كلها فى أيام قد لا تتجاوز أيام الاسبوعين

وقواعد اللغة مبسطة الى أقصى حد ، وهذا ما روعى فى جميع اللغات الصناعية ، ولكن اللغة الجديدة تمتاز عليها بالكلمات المركبة . فمثلا تشتمل اللغة على كلمة « خشن Sclero » ولكنها لا تشتمل على كلمة « ناعم » بل تكتفى بأن تضيف لفظة « النفى » الى كلمة خشن فتكون لدينا كلمة ناعم . ومثل آخر : كلمة «درامو» اذا أضفت اليها كلمة « مى » كانت الكلمة المركبة من اللفظتين معناها « ممثلة » وهكذا ..

وسواء نجحت هذه اللغة الجديدة أو كان مصيرها مصير أخواتها الصناعيات السابقات ،

لا أنها دليل على أن العلماء يرون فى « اللغة العالمية » خير وسيلة لتحقيق التعاون والتفاهم بين أمم العالم وتجنيبها أسباب النزاع والشقاق، وما تؤدى اليه من حروب وخطوب

أوربا الخفية

ما زالت مونت كارلو حافلة بروادها «الذين يمضون يومهم ولياليهم على موائدها الخضراء، يلعبون الميسر على أمل أن تتضاعف أموالهم التى لا يعرفون كيف ينفقونها فى الاستمتاع بالحياة الجميلة الناعمة . ولكنك لو راقبت بعض هؤلاء الرواد مراقبة دقيقة ، كما راقبهم عيون النازى لعرفت أنهم يختفون من نادى الميسر شطرا من اليوم فى مكان خفى عن الابصار .. لماذا ؟ لانهم فى هذا المكان يطبعون بعض الجرائد والنشرات السرية ، التى يندون فيها بسياسة ألمانيا وعسفها بالبلاد المحتلة ، ويبثون فى ذلك الشعب الفرنسى المقهور روح الأمل والعزم والنهوض ، ثم يرسلون هذه الصحف بوسائل من المكر والدهاء الى أرجاء فرنسا حيث يتلقفها الناس متلهفين

هذه واقعة من الوقائع الكثيرة التى يذكرها « كيرت ريس » فى كتابه « أوربا الخفية » الذى أبان فيه عن ذلك الروح القومى العنيف المضطرم فى قلوب الشعوب الاوربية التى ذلت أمام دبابات النازى وتحت طائراته ، ولكنها ظلت مع ذلك تحاول الافلات من قبضته وترقب اليوم الذى تستعيد فيه حريتها وتثأر فيه من المعادين عليها

فتلك الصحف السرية كانت تطبع فى مونت كارلو ، كانت تطبع فى مذبح المدينة ، وتهرب الى الناس بأن تلف فيها قطع اللحم التى يشترونها ، فاذا أراد أحدهم أن يعرف انباء الحرب على حقيقتها ذهب الى القصاب واشترى رطلا من اللحم ، فيخرج من دكانه ومعه الرطل ملفوفا فى جريدة سرية تطلعه عما تريد ألمانيا اخفاءه من الانباء

ومن تلك الحوادث ما يقع فى قرية كيرلى الفرنسية القائمة على التخوم الفاصلة بين فرنسا المحتلة وفرنسا غير المحتلة . فان القرية فى المنطقة التى يحكمها النازى ، أما مقبرة القرية ففى المنطقة التابعة لفيشى . فاستغل أهل القرية هذا فى تهريب كثير من اللاجئين السياسيين ، بأن يزعموا وفاتهم وينقلوهم فى النعوش الى المقبرة حيث يجدون شيئا من الحرية يمكنهم من أداء واجبهم السياسى ، أو الهروب من هذه المنطقة الى البلاد المحايدة أو المتحالفة

وهذا اللون من التأليف موفور الآن فيما يصدر باللغات الانجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات البلاد المقهورة ، ولكنا آثرنا هذا الكتاب بالذكر لان مؤلفه حرص على أن يستقى ما فيه من المصادر الموثوق بها ، ليقدم للقراء صورة لا مغالاة فيها ولا اسراف لما يقع فى أوربا ، دون ان يجعل للخيال الروائى مجالا ينطلق فى رحابه

ومن أهم ما ورد فى الكتاب أن السلطات النازية كانت لا تسمح لجرائد فينا بأن تنشر من اسماء المتوفين من ابناء النمسا فى الحرب الروسية الا أسماء اربعمائة جندى فى اليوم الواحد، وكان عدد هذه الجرائد واحدا وعشرين جريدة . فاذا علمنا أن الجيش النمسوى لا يؤلف من مجموع الجيش الالمانى سوى نصف فى المائة ، وأن هذا الجيش يموت منه فى اليوم الواحد أكثر من ثمانية آلاف نسمة، أدركنا مدى الخسائر الفادحة التى لحقت بالجيوش المحورية فى أرض روسيا

سياسة امريكا

يقال ان العقل الامريكى عقل مبتكر ولكنه ليس بالعقل الواقعى . وهذا على نقيض العقل الانجليزى ، الذى يمتاز بالصفة الواقعية وان كانت تنقصه موهبة الابتكار

فالعقل الامريكى مبتكر فى ميادين الصناعة، والتجارة ، والتربية ، بل وفى ميدان البحث

النظرى . وعلماء امريكا ومخترعوها ومفكروها فى الطليعة من زملائهم فى سائر أقطار العالم . ولكن « الجانب الواقعى » الذى يتجلى أكثر ما يتجلى فى ميدان السياسة ليس بارزا فى هذا العقل الامريكى بروزه فى العقل الانجليزى الذى قد ينقصه أى شيء الا « السياسة » والبراعة والدهاء فيها

والواقع أن السياسة الامريكية قبل هذه الحرب كانت من البساطة الى درجة لا تلائم ما لامريكا من قوة وتفوق فى ميادين المال والصناعة والتجارة . حتى لقد كان سفراء أمريكا ومفوضوها فى البلاد الاجنبية لا يكادون يبدون أى نشاط سياسى ، بل يقومون بدور الشاهد ، المراقب ، لما يدور على مرسح السياسة من أحداث ومناورات ، وكأن الامر لا يعنيهم كثيرا أو قليلا . فى حين أن السياسة البريطانية كانت تعنى بكل جليل وضئيل من شؤون السياسة فى جميع بلاد العالم ، وتحاول أن يكون لها من نفوذها العظيم ما يوجه سياسة كل بلد الوجهة التى تبتغيها

ولكن أمريكا منذ تبينت خطأها فى اعتزال سياسة العالم بعد الحرب الماضية ورفضها أن تساهم فى عصبة الامم وجهودها السياسية ، ومنذ دخلت هذه الحرب وصارت احدى الدول الاربع الكبرى التى تناهض المحور بأرواحها وأموالها وأيدى عمالها — منذ ذلك أخذت سياستها تحتل محلها الممتاز فى كثير من أقطار الارض ، وأخذ كتابها يشرحون هذه السياسة ويحللونها ، أو راحوا يوجهونها ويشيرون على رجالها

والكتب التى تصدر الآن عن « السياسة الامريكية » لا حصر لها ، ولكن من أهم هذه الكتب كتاب وضعه أحد رجال وزارة الخارجية الامريكية السابقين وهو « جوزف جونز » وعنوانه «سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة»

وهو يقترح فى كتابه أن تقوم هذه السياسة على أربع دعائم :

الدعامة الاولى — أن تستمر أمريكا بعد الحرب على تعاونها الوثيق مع حليفاتها الثلاث الكبرى : بريطانيا وروسيا والصين ، ليكون هذا الحلف العظيم محور القوة العالمية التى لا سبيل الى تحديها ومقاومتها

الدعامة الثانية — أن تعمل السياسة الامريكية لنشر الحرية فى أرجاء العالم ، وهذا يقتضيها أن تأبى على نفسها النزول الى حلبة الاستعمار السياسى ، كما يقتضيها أن تخفف من شوكة الدول الاستعمارية الكبرى ، وأن تقيم نظاما للتعاون بين الامم الكبيرة والصغيرة يحل محل الاستعمار ويقى العالم شروره وعواقبه

الدعامة الثالثة — أن تقيم أمريكا ادارة دولية قوية للاشراف على القوة الجوية ، الحربية والتجارية ، فى جميع الاقطار . وتضع هذه الادارة فى أيدى الدول المتحالفة قوة جوية خاصة تستطيع مقاومة أى تهديد أو اعتداء تقوم به أية دولة فى العالم ، وبذلك تكفل تحقيق الامن والسلام فى ربوع العالم

الدعامة الرابعة — أن تعمل السياسة الامريكية لرفع مستوى الحياة فى كل ركن من أركان الارض ، باذاعة التعليم ، والعناية بالصحة ، وتوفير الغذاء ، وغير ذلك من العناصر اللازمة لاقامة نظام ديموقراطى وتحقيق السلام الدائم ، ولا يكون ذلك الا بتوسع امريكا الاقتصادى فى شتى أرجاء العالم وأسواقه

ولكن نقاد هذا الكتاب — ونقاد ما يشاكله من الكتب — يقولون ان مفكرينا يغفلون دائما عن نقطة خطيرة جدا وهى : ما العمل اذا رفضت روسيا أن تبقى على تحالفها معها ، وآثرت أن تعمل فى ميدان السياسة بمفردها ؟

ومؤلف الكتاب يعترف بأن الكرملين لاينظر الى وزارة الخارجية الامريكية الحالية نظرة ارتياح ، ويعلم أن هذه الوزارة هى التى حالت

ـ وستحول ـ دون تسرب الشيوعية الى المناطق الاوربية التى تحررها جيوش الحلفاء ، ومع أن موسكو استقبلت مستر كوردل هل استقبالا حافلا ، الا أن هذا لا ينفى أنها تنظر الى سياسته الخارجية نظرة التوجس والاشفاق

ولكن مؤلف الكتاب يرد على هذه النقطة بأن روسيا مضطرة الى محالفة امريكا وبريطانيا اضطرارا ، فان بلادها المخربة المدمرة لا سبيل الى تعميرها الا بالآلات الامريكية والبريطانية التى ستظل روسيا عشر سنوات أو أكثر مفتقرة اليها ، ساعية للحصول عليها ، ولن يتيسر لها ذلك الا اذا أبقت على تحالفها وتعاونها مع لندن وواشنجتون

فن الحرب

للحرب أصول لا تتغير بتغير أحجام الجيوش ومعداتها . ولهذا فان معارك القواد القدامى ، الاسكندر وهانيبال وقيصر مثلا ، ما تزال تدرس لطلبة المدارس الحربية كما تدرس لهم معارك نابليون وابراهيم باشا وفردريك الاكبر ، وكما تدرس معارك هندنبورج وفوش وبيتان

وقد كتب بعض القواد والخبراء رسائل خالدة يشرحون فيها فن الحرب ويبينون قواعده وأصوله ، ورأى الماجور توماس فيليبس أن يجمع خمسا من هذه الرسائل الخالدة فى كتاب سماه : « أصول الاستراتيجية »

أول هذه الرسائل رسالة صينية سمها « فن الحرب » بقلم « سن تسو » ويقول المؤلف انها بدون شك أعظم عمل حربى فى أية لغة من اللغات . وتسو هذا جندى صينى عاش قبل الميلاد بخمسة قرون . ورسالته هذه ما تزال تؤثر فى العقلية العسكرية الصينية واليابانية على السواء

والرسالة الثانية ، وموضوعها « مؤسسات الرومان الحربية » ، كتبها عالم رومانى اسمه « فيجيتس » الذى لم يكن جنديا مارس الحرب وخاض غمارها . ومع ذلك فان ريتشارد قلب الاسد ، بطل النصارى فى الحروب الصليبية ، حمل هذه الرسالة معه الى الشرق، وطبق أصولها فيما خاضه من المعارك التى حالفه النصر فى كثير منها

والرسالة الثالثة كتبها موريس دى ساكس أحد الابناء غير الشرعيين لفردريك أوجستس ملك بولندة فى أواخر القرن السابع عشر . وقيمة هذه الرسالة فى انها تشرح نظام التجنيد الذى تسير عليه الجيوش الحديثة . ففيما مضى لم تكن هناك « جيوش دائمة » مهمتها الحرب والقتال ، بل كان الجيش « مؤقتا » يقوم ساعة الحرب ويحل وقت السلم ، فاذا دقت ساعة القتال حمل كل فرد سلاحه ونزل الى المعركة ، فاذا انتهت المعركة عاد كل فرد الى بيته وعمله . أى لم يكن هناك « الجندى المحترف » الذى تكفل له الدولة قوته ورزقه ، فى سبيل قيامه بالدفاع عنها كلما أمرته بذلك

أما الرسالتان الرابعة والخامسة فهما : تعليمات فردريك الاكبر ، وحكم نابليون بونابرت ويكفى أن نذكر ذلك لتعلم مدى خطرهما وقيمتهما فان صاحبيهما ان لم يكونا أعظم قواد التاريخ جميعا ، فهما أعظم قواد العصر الحديث على الاطلاق

ومما يدعو الى فخر الرجل الشرقى أن مؤلف الكتاب يقول ان الرسالة الصينية وحدها ترجح كل ما فى الكتاب من رسائل ، لان الجندى الذى يقول ان القائد الذى يكسب المعركة دون أن يخوض غمارها أعظم من القائد الذى لا يربح المعركة الا بعد أن يريق الدماء ويزهق الارواح ، لا بد أن يكون جنديا وفيلسوفا اجتمعا فى جسد واحد !

هيئة دولية للتعليم

يشهد العالم فى هذه الايام التى تشرف فيها الحرب على نهايتها ويبدأ ضوء السلم ينبثق شيئا فشيئا ، كثيرا من المؤتمرات الدولية التى تعنى

بتنظيم شؤون العالم بعد الحرب على أساس عالمي يحقق التعاون الوثيق بين الامم والشعوب ويجنبها مزالق الحرب وشرورها المستطيرة . فمن ذلك مؤتمرات التغذية ، والنقد ، والتعمير ، والتعليم

وعقد مؤتمر التعليم هذا في لندن منذ شهور وشهده ممثلو احدى عشرة دولة من الدول المتحالفة ، وكان أهم ما تقرر في هذا المؤتمر وضع نظام للتعليم ينفر الناس من الحرب ويحبب اليهم السلام

وقد أدرك كثيرون من المفكرين المعاصرين — وفي طليعتهم المفكر الانجليزي ويلز — أن الحرب والسلم يتقرران — لا في دور الحكم ولا على أيدي الساسة — بل في دور المدارس والجامعات . فاذا تلقى التلاميذ والطلاب دروسا تشيد بالحرب وتمجد أبطالها ، شبوا مشبعين بالروح العسكري الذي يدفعهم الى معامع القتال طيبة نفوسهم مطمئنة ضمائرهم . واذا هم تلقوا في صباهم وشبابهم أن الحرب اثر من آثار الغابات التي كان يهيم فيها اسلافنا الاقدمون ، وان السلم ضرورة من ضرورات الحياة الانسانية المتحضرة السامية ، شبوا على كراهة الحرب وانكارها ، وعلى حب السلم وتوطيد دعائمه

ورأى بعض هؤلاء المفكرين أن يؤلفوا كتبا مشربة بهذا الروح ، منها كتاب ويلز في تاريخ العالم ، الذي أراد أن يثبت فيه أن العالم كله وحدة متصلة الاجزاء ، يأخذ بعضها من بعض دون نظر الى تلك الفوارق الجنسية أو الدينية أو القومية المزعومة ، كما اثبت فيه أن كثيرا من أولئك الابطال الحربيين الذين نمجدهم ونسمو بهم لم يكونوا في واقع الامر الا ذوي لوثات عقلية وخلقية مزرية مشينة

وهذه الفكرة ذاتها هي التي أقرها مؤتمر التعليم وقرر أن يخرج بها الى حيز التنفيذ . فانتهى الى هذين الامرين :

أولا — يجب على الشعوب المتحدة أن تنشأ في بلاد المحور نظاما ديموقراطيا للتعليم ، يحل محل النظام المحوري القائم . والمقصود بالنظام المحوري هو هذا النظام الذي يلقي في اذهان التلاميذ والطلاب وفي مشاعرهم ان الانسانية مقسمة أجناسا متفاوتة في درجة رقيها وكفايتها ، وان أسمى هذه الاجناس هو الجنس الالماني النوردي ، الذي له بذلك حق السيادة والسيطرة على سائر الاجناس . والمقصود بالنظام الديموقراطي هو تفهيم النشء والشباب أن ليس هناك جنس راق وآخر منحط ، وأن لجميع الاجناس كفايات متوازية وحقوقا متساوية ، وان فكرة السيطرة هي فكرة بدائية همجية يجب أن تتخلص منها الانسانية في دور تطورها الحديث

ثانيا — انشاء مكتب دولي للتعليم يشرف بعين يقظى على نظام التعليم في بلاد المحور ، حتى اذا ما حدثت به نكسة الى الوراء ، أسرع هذا المكتب فأصلح ما فسد من الامر بتمكين الروح الديموقراطي من النفاذ الى عقول الصغار والشباب

ويجب أن نذكر حقيقتين : أولاهما أن أهم العناصر التي والت النازية في بدايتها ومكنت لها في مشاعر الشعب الالماني هو عنصر المدرسين الاوليين ، حتى أن ثلث أعضاء الحزب النازي هم من هؤلاء المدرسين . وثانيتهما ، كلمة ولنجتون الذي قهر نابليون فقد قال : « ان معركة واترلو لم تكسب في ساحة الحرب ، بل في ساحة كليتي ايتون وهارو »

وخلاصة هاتين الحقيقتين أن سياسة الدولة لها جذر عميق متأصل في أرض المدارس والمعاهد وأنه كما يكون تلاميذ الامة وطلابها يكون ساستها وزعماؤها . فاذا أريد اصلاح السياسة العالمية وتنقيتها من روح العدوان والحروب ، وجب أولا اصلاح نظام التعليم بحيث يغدو منددا بالحرب والعنف ، مبشرا بالأمن والسلام

الكتب الجديدة

تطور الصحافة المصرية

للدكتور ابراهيم عبده

مطبعة التوكل فى ٣٧٠ صفحة

توفر الدكتور ابراهيم عبده على دراسة الصحافة المصرية من الناحية التاريخية ، واخرج فيها رسائل قيمة فى « تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية » وفى « تاريخ الوقائع المصرية » ونال من الجامعة درجتى الماجستير والدكتوراه فى بحوث أصدرها عن تاريخ الصحافة المصرية من الحملة الفرنسية الى العصر الحديث

وكتابه الحديث يعالج النهضة الصحفية المصرية وتطورها وأثر ذلك فى نهضتنا الفكرية والاجتماعية

وقد قسم تاريخ الصحافة المصرية تقسيما علميا منطقيا ، فتحدث اولا عن الصحف الفرنسية التى نشأت فى مصر فى عهد حملة نابليون ، ثم عن الصحافة الرسمية التى أنشأها محمد على وكيف تطورت فى عهد خلفائه ، ثم عن الصحافة الشعبية التى نشأت فى عهد سعيد وازدهرت فى عهد اسماعيل ، وعرض بعد ذلك للصحافة فى خلال الثورة العرابية والدور السياسى الذى قامت به ، وانتقل الى الصحافة منذ الاحتلال الى الاتفاق الودى ، ثم من الاتفاق الودى الى الحرب الماضية وهذه هى الفترة الذهبية فى تاريخ الصحافة حيث قام فيها على يوسف ومصطفى كامل ولطفى السيد ، وعقد فصلا وجيزا عن الصحافة المصرية المعاصرة

وأفرد فصلين أحدهما للصحافة الافرنجية فى مصر وثانيهما للصحافة المصرية فى الخارج ، وهذا موضوع لم يطرقه المؤلف بكثير من البحث والتدقيق رغم أهميته فى حياتنا القومية والاجتماعية

وختم المؤلف كتابه بفصل قيم فى التشريع الخاص بالمطبوعات فى مصر ، وتطوره ووجوه النقد الموجهة اليه

والكتاب مذيل بمجموعة من الفهارس تضم أسماء ما صدر فى مصر من الصحف والمجلات منذ سنة ١٨٠٠

حديقة أبى العلاء

للاستاذ كامل كيلانى

مكتبة مصر ومطبعتها فى ١٤٤ صفحة

الاستاذ كامل كيلانى من أكثر أدبائنا تعمقا فى دراسة أبى العلاء المعرى ، وتبين وجوه عبقريته المتشعبة بين الفن والفلسفة

وقد أراد الاستاذ فى كتابه هذا أن يقرب أبا العلاء الى أذهان القراء وأذواقهم ، وعلى الاخص طبقة الناشئة والشبان منهم ، على أن يكون هذا الكتاب فاتحة لمكتبة للشباب — بعد أن كون للاطفال مكتبة منسقة حافلة — تجمع كثيرا من فنون الادب العربى فى عصوره القديمة والوسطى والحديثة

وبدأ الاستاذ مكتبته بأبى العلاء لانه « وحده مدرسة جامعة لاهم عناصر فنون الادب »

وقدم كتابه بالمامة عن أبى العلاء : مولده وطفولته وتربيته ، ثم تحدث عن أخلاقه وآرائه وأدبه المنظوم والمنثور

وعرض فى كتابه بعد ذلك نصوصا مختارة من الادب العلائى ، من ذلك بعض حكمه المدفونة فى بطون الاسفار ، اقرأ هذه الكلمات وقدر كيف يصح أن تبقى مجهولة منا لا نقرأها ولا نحفظها ولا نستشهد بها :

« الاعمار : تولد طوالا ثم تقصر
« والآمال : تولد قصارا ثم تطول

« قلب الجاهل كالزجاجة :
« تلقاه ـــ بما استودع ـــ نوما »

ثم عرض صورا فنية من أدب العلاء . منها مصرع الفنان أي الحمار الوحشي ، ومنها مصرع الاتان الوحشية ، ومنها سوانح وآراء شتى في الموت ، والروح ، وصفات الله تعالى ، والذنوب ، والكلمة الطيبة ، وغير ذلك مما تناوله فلسفة المعرى أو حكمته على الاصح

ويقدم الاستاذ النص الكامل لكل قطعة ، بعد أن يمهد له تمهيدا لبقا بارعا يقربه الى الذهن والى الذوق الحديث

سيد العزبة

بقلم « بنت الشاطىء »

مطبعة المعارف في ١٠٣ صفحات

أخرجت الكاتبة الادبية « بنت الشاطىء » هذه القصة الى : مصر المصلحة .. لعلها تحارب هذه الاوضاع اللئيمة التي جعلت من فتاة ريفية غريرة امرأة خاطئة !

ومن هذه الكلمة الصادرة من قلب كاتبة كرست نفسها للدفاع عن تلك الطبقة الشقية التي تكدح في أرض السادة المترفين ، تتبين ملخص هذه القصة القوية الجميلة التي صورت فيها « هؤلاء الريفيات اللاتي يسرحن على الارض كالسائمة ، قذرات خشنات ذابلات ، تقرأ على وجوههن الشاحبة سمة الفقر وترى على أجسادهن الهزيلة طابع الحرمان . يشقين بالنهار في خدمة البهم والارض ، ويأوين بالليل الى تلك الاكواخ التي تقوم الى جانب القصر ، مظلمة ضئيلة ، تحدث عن ضعة أهلها وذلهم وفقرهم »

والقصة ـــ الى هذا الاتجاه الاجتماعي الرشيد ـــ دراسة نفسية ممتعة للفتاة في سن الصبا والمراهقة ، حين تتفتح حواسها للحياة العاطفية ، الجسدية ، الدافقة الملتهبة

ولهذا يصح أن توضع قصة « سيد العزبة » في مصاف القصص الاولى التي تعالج حياتنا الاجتماعية وتدرس جانبا من النوازع النفسية الغامضة . في أسلوب « بنت الشاطىء » الذي عهد فيه القراء الجزالة والقوة مع التأنق والابداع

الاغوار ـــ ديوان شعر

للاستاذ احمد الصافي النجفي

دار المكشوف بيروت في ١٩٢ صفحة

أنا في الشعر كالغريب فجيل
في عكاظ ، أو بعد ذا العصر جيلي
الي أتى نوح الشعور بفلك
لينجي غرقى بحور الخليل !

هكذا قدم الاستاذ الصافي النجفي ديوانه الاغوار ، فلم يسرف فيما قال ، فهو في الشعر « كالغريب » ، لخياله صوفي عميق لا يكاد يشبه الخيال الحسي الظاهر الذي تعهده في الشعر العربي بوجه عام . وروحه روح ثائرة تريح عن نفسه كل يوم « ثوبا باليا » من عقائد الاحقاب ، لتتخلص مما يحفها من مظاهر خداعة تحجب العين عن الحقيقة الخالصة

وأسلوب الشاعر ـــ رغم ما يشوبه أحيانا من الغموض بحكم ما يتناوله شعره من أمور الروح وما وراء الطبيعة كما يقولون ، الا أنه شعر جزل العبارة ، رصين التركيب ، وتنبه الى ذلك سهولة وطلاوة

ولعل في قصيدته « الروح والفن » ما يبين عن روحه وأسلوبه اذ يقول :

ولو أن الاله لم يخلق الاجسام
لم يعرفوه في أي دين
تعرف الله أنفس زاكيات
أبصرت ربها بعين اليقين

عارف الله بالجسوم كمن يغدو
يحسب الاسنام جم الفنون
والذي يعرف الاله من النفس
رآه بالعلم لا بالظنون

أصحاب السعادة أوديباجة خطاب العرش

للقس ابراهيم سعيد

مطبعة النيل المسيحية فى ١٨٢ صفحة

القس ابراهيم سعيد واعظ قديم غيور له بحوث كثيرة قيمة ومؤلفات عديدة نفيسة فى تفسير الكتاب المقدس وقد كان أستاذا لهذه المادة فى مدرسة اللاهوت

وكتابه هذا دراسة تحليلية دقيقة للموعظة على الجبل ، وهى المقياس الادبى الذى به يقيس المسيحيون حياتهم الروحية وتصرفاتهم الادبية ، كما أن الوصايا العشر فى العهد القديم هى خلاصة القياس الادبى الذى يقيس اليهود بموجبه حياتهم

وقد قسم المؤلف الموعظة الى اربعة أقسام ، فتحدث أولا عن أبناء الانجيل فى ذواتهم وفى نسبتهم الى الناموس ، ثم انتقل الى الكلام عن نسبتهم الى تعاليم القديسين ثم الى نسبتهم الى الآخرين ، واختتم بحثه بالتحدث عن الابناء الحكماء والابناء الجهلاء

كنت فى .. لتوانيا ، بولندا ، فنلندا

تعريب أسعد حليم

منشورات دار الفجر ، فى ٥٤ صفحة

يقدم العرب فى أسلوب سلس كتيبا للكاتبة الامريكية الشهيرة أنا لويز سترونج ، تحدثت فيه عما شاهدته بنفسها فى دول البلطيق — لتوانيا واستوانيا ولاتفيا — من ترحيب الشعب للجيش الاحمر الروسى وبغضه وكراهيته للنازى وللموالين له . وقد أتاحت لها الظروف ان تصل اليها فى يوليو سنة ١٩٤٠ . وأن تقضى فيها شهرا كاملا . كما لخصت الكاتبة الظروف العصيبة التى مرت بها بولندا بعد انهيارها

ثم ذكرت كيف ان « موسكو » بعد أن أمنت الهجوم النازى عليها من طريق البلطيق ، اتجهت نحو فنلندا ووصفت باسهاب التطورات التى حدثت حتى طلب الفنلنديون الصلح

The Arab Heritage

للاستاذ نبيه فارس

مطبعة جامعة برنستون فى ٢٦٦ صفحة

ثمرة من ثمار المؤتمرات التى تعقدها جامعة برنستون للبحث فى الشؤون العربية والاسلامية ، وهو مجموعة محاضرات ألقتها نخبة من المستشرقين الاعلام فى صيف سنة ١٩٤١ ، تدور حول ثروة العرب العلمية وكنوزهم الفكرية ، ومدى ما ساهموا به فى النهضات الثقافية وخاصة نهضة بلاد الغرب

وقد بسط الاستاذ فيليب حتى للقارئ الغربى فى الفصل الاول مشاكل العالم الاسلامى ومطامعه ومطالبه ، وعالج الاستاذ دللافيدا فى الفصل الثانى موضوع العرب فى الجاهلية فوضح ما خفى من النقط التاريخية الغامضة ، وأعقبه الاستاذ جوليان بجامعة Yale فتحدث عن العلاقات والروابط القائمة بين الاسلام والمسيحية وبين الاسلام واليهود

ويجد القارئ بعد ذلك بحثا طريفا عن الشعر العربى وجماله وروعته ، ثم محاضرة قيمة عن النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية للحروب الصليبية ، ويلى ذلك بحث فلسفى عميق لما توحى به حياة الغزالى ومؤلفاته وكتاباته ، ثم يقدم الاستاذ هنرى سالاج صورة قلمية دقيقة رائعة للشرق كما كان يبدو فى نظر السائح الغربى فى القرن الرابع عشر ، ثم يتحدث الاستاذ ادوارد جورجى عما ابتكره العرب واستحدثوه فى ميدان العلم ، ويتلوه الاستاذ اتنجهاوسن من جامعة ميشيجان فيتحدث عن الفنون العربية والاسلامية

بين الهلال وقرائه

مرض نفسي

(القاهرة — مصر) قارىء

لي ابن في السادسة عشرة من عمره سليم البنية صحيح العقل . الا أنه يعتقد اعتقادا جازما أن العالم الذي يراه بعينيه مجرد حلم يتراءى له في المنام . أي انه يعتقد انه نائم وأن ما يراه وما يسمعه ليس الا من قبيل ما يراه وما يسمعه النائم ؟ فهل هذا مرض عصبي ، وهل يخشى منه على قواه العقلية ؟

(الهلال) ابنك في سن المراهقة . وفي هذه السن يتعرض بعض الاولاد والبنات لمرض نفسي هو مرض الفصام واسمه بالافرنجية Schizophrenia وقد ذكر الدكتور يوسف مراد استاذ علم النفس بكلية الآداب بالقاهرة في كتابه « شفاء النفس » ما يلي : « مرض الفصام الذي كثيرا ما تظهر أعراضه الاولى في سن المراهقة هو أسلوب من أساليب النكوص — وهي التي تتميز بالحد من النشاط الحركي واللفظي ورفض الناكص ان يساهم في الحياة الاجتماعية سواء في العائلة أو في المدرسة أو في البيئات الاجتماعية الاخرى .. والعرض الغالب في الفصام هو الشعور بأن كل شيء في العالم الخارجي قد فقد واقعيته وحقيقته . ويحيا الفصامي في عالم خيال وهمي محاولا قطع جميع صلاته بالعالم الخارجي الواقعي ، وذلك تخلصا من المشاكل المضلة التي تعترضه وفرارا من التبعة . وقد يتطور المرض ويتضاعف فيصاب المريض في قوة تمييزه وصدق ادراكاته، فيستسلم للتأويلات الفاسدة وللهذاء الصامت الاجتراري . وفي هذه الحالة قد ينتقل المريض من حالة النكوص الى اصطناع أساليب الاعتداء والهجوم واتهام الغير ... »

ونعتقد أنك لو طالعت الكتاب الذي اقتطفنا منه الفقرة السابقة فانك قد توفق الى علاج ابنك من هذا المرض النفسي . ولمؤلف الكتاب «عيادة» نفسية في كلية الآداب لبحث هذه الحالات وتشخيصها وعلاجها

البربر

(بغداد — العراق) ن . ح

يطلق مؤرخو العرب كلمة البربر على بعض سكان بلاد المغرب في شمال افريقيا . ولكن المصريين يطلقون هذه الكلمة على القوم الذين يعيشون في أدنى حدود مصر وأعلى حدود الشمال . فهل هناك صلة بين القومين أدت الى تسميتهما باسم واحد ؟

(الهلال) لا علاقة بين البربر الذين يسكنون بلاد المغرب والبربر الذين يسكنون بلاد النوبة . ولكن العرب أطلقوا كلمة البربر أو البرابرة على القومين لسبب واحد ، وهو أن القوم هنا وهناك يتكلمون في جلبة وصياح لغة غريبة عن العرب ، وقد جاء في القاموس : « بربر القوم أكثروا الكلام في غضب وصاحوا وجلبوا »

وقد أطلق العرب هذا الاسم على قوم في بلاد المغرب جفاة كالاعراب في رقة الدين وقلة العلم وهم سكان المغرب الاصليون . ثم أطلقوا هذا الاسم على أهل النوبة بعد ذلك بأزمان لغرابة لغتهم عن اللغة العربية

ومما تحسن الاشارة اليه أن القدماء في أوربا كانوا يسمون كل القبائل الغريبة عنهم « البرابرة » . وأصل هذه اللفظة في اليونانية

يشبه أصلها فى العربية ، فهى عندهم تدل على اللغط أو صوت الالثغ . ثم أطلقوه على كل من يتكلم لغة غير لغتهم

الحرب والاستعمار

(القاهرة — مصر) حسين عبد الرحمن

هل يرجى أن تقضى الحرب القائمة على الاستعمار ، فتتحرر جميع الشعوب وتتساوى فى حقوقها ؟

(الهلال) للكاتب الانجليزى المشهور الدوس هكسلى رأى فى الاستعمار لعله قريب من الصواب فهو يرى ان الاستعمار سيظل باقيا ما بقيت شعوب الارض متفاوتة فى حظوظها من القوة والحضارة

فما دامت هناك شعوب قوية وأخرى ضعيفة ، وشعوب غنية وأخرى فقيرة ، فسيظل الاستعمار موجودا ، وسيظل القوى والغنى يسيطر على الضعيف والفقير

ولكن من المؤكد أن الحرب القائمة تنبه الشعوب المستضعفة ، كما تنبه الطبقات المهضومة الى حقوقها التى لن تنام عن المطالبة بها حتى تظفر بها أو ببعضها

وكذلك تنبه هذه الحرب أذهان الساسة والمفكرين ، بل أذهان عامة الناس الذين يصدر منهم الرأى العام المسيطر على الزعماء والحكومات الى أن التطاحن على المستعمرات هو سبب هذه الحروب الرهيبة التى نكبت بها الانسانية فى العصر الحديث . ولهذا ينتظر ان تتفق دول العالم الكبرى على نظام يخفف من غلواء الاستعمار ان لم يرتضوا النزول عن نظام الاستعمار بتاتا

صورة المسيح

(القاهرة — مصر) منصور علوان

هل الصور التى نراها للمسيح عليه السلام تمثله حقيقة أم هى من وحى الخيال ؟ واذا كانت صورا خيالية فكيف اتفق جميع الرسامين على تصويره بملامح وسمات واحدة ؟

(الهلال) لم يصور المسيح فى حياته ولم ينحت له حينذاك تمثال . والحواريون الذين لازموه وكتبوا الاناجيل لم يذكروا شيئا عن صورته ، بل قصروا كلامهم على أعماله ومواعظه

أما أول صور رسمت له ففى القرن الرابع بعد الميلاد . وذلك بناء على أوصاف تناقلها الناس الى ذلك العهد ، وينسبون روايتها الى رجل اسمه بوبليوس لنتولوس من معاصرى المسيح . وكان من رجال الحكومة اليهودية فى عهد بيلاطس . وقد كتب عنه رسالة ذكر فيها أوصافه وأعماله . وجاء فيها : « وهو حسن القوام متناسب الاعضاء . وجهه يفيض لطفا ووقارا معا ، تدعانه يحبونه ويهابونه فى وقت واحد . شعره خمرى اللون عند اطرافه ، ذهبى عند منابته ، منبسط سهل لا جعد ولا صقيل الا تحت أذنيه، فانه اذا تجاوزهما تجعد وتلمع وانقسم فى وسطه كعادة سائر أهل الناصرة . وهو واسع الجبهة املسها . نقى بشرة الوجه . يزين طلعته ماء الشباب وملامح الذكاء والوداعة . جميل الانف والفم ، كث اللحية ، شعرها كشعر رأسه لونا وشكلا ، ولكنه ينقسم فيها الى خصل او شعب . ازرق العينين شديد لمعانهما . اذا وبخ وانتهر كان منظره رهيبا . واذا نصح أو علم كاد يسيل رقة ودعة . لم يره أحد ضاحكا ولكن كثيرين رأوه يبكى . وهو طويل القامة معتدل الذراعين جميل اليدين قليل الكلام . واذا تكلم فانما يتكلم برزانة وتأمل . جماله يفوق جمال البشر كافة »

لفظة جالية

(اسمرة — الحبشة) سعيد سالم باعقيل

ما هى اللفظة الانجليزية المقابلة للفظة جالية؟

(الهلال) هى كلمة Community

فهرس الهـــلال

الجزء الرابع من المجلد الثاني والخمسين

صفحة		
٤٣٥	الجسم للحياة	بقلم الاستاذ احمد أمين بك
٤٤٠	جزيرة ليس فيها سياسيون	« « عباس محمود العقاد
٤٤٤	الحرب بعد خمس سنوات	« « سامي الجريديني
٤٤٩	لماذا نبكي ونضحك	« الدكتور أمير بقطر
٤٥٥	مصر والتحرر من العوز والفقر	« « حافظ عفيفي باشا
٤٦٢	ماذا يصنعون بألمانيا بعد الحرب ؟	
٤٦٧	رجال بريطانيا الشمالية	
٤٧٢	مصر في أمريكا	بقلم حسين بك عنان
٤٧٥	التدين من صفات العظماء	
٤٧٩	الحب بين الشباب والكهولة	
٤٨٢	الدكتور ابراهيم (قصة ملخصة)	للاستاذ محمد أمين حسونة
٤٨٩	عدو الطفل الأكبر	للدكتور مصطفى الديواني
٤٩٣	برنارد شو يتحدث عما بعد الحرب	
٤٩٦	ضريبة الارباح التجارية والصناعية	بقلم الدكتور يوسف قايل
٥٠٠	حقائق عن مرض الربو	
٥٠٣	« كفاحي » الياباني	
٥٠٩	الهرمونات الجنسية	للدكتور محمد زكي شافعي بك
٥١٢	هل يقع انهيار داخلي في ألمانيا	بقلم الصحفي الامريكي ألين جونسون
٥١٦	تمهيد طريق البرلمان	للنائب الانجليزي « اوتر بلفور »
٥١٩	قبة السلطان قلاوون	بقلم الاستاذ عبد العزيز مرزوق
٥٢٥	تنظيم العالم المنتظر بعد الحرب	« « نقولا الحداد
٥٣٢	الطيران في أعالي الجو	« الضابط الطيار جورج رينولدز
٥٣٤	الاتحاد العربي : هل هو ممكن ؟	للدكتور فيليب حتي
٥٤٥	وفاء النساء : قصة صينية	بقلم مدام تشيانج كي تشك
٥٥٤	١٥ مليون جنيه	« الدكتور أوفاروف
٥٥٧	الاسلحة السرية لا تحقق نصرا	
٥٥٩	المدارس الريفية في أمريكا	
٥٦١	(أبواب الهلال) العلم والعالم ـ الحركة الفكرية ـ الكتب الجديدة ـ بين الهلال وقرائه	

الهلال

سبتمبر - اكتوبر ١٩٤٤

الهلال

صاحباها : اميل وشكرى زيدان

رئيس التحرير : اميل زيدان

الجزء الخامس ـ السنة ٥٢

سبتمبر واكتوبر ١٩٤٤ ـ ذو القعدة ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(September - October 1944)

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً فى مصر والسودان

٧٥ « فى الخارج أو عنها ٧٥ر٣ دولار

١٥/٥ جنيه انجليزى

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50. — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3,75.



يوم العروبة

عقدت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي جلستها التمهيدية في قصر أنطونيادس ، بقصد تحقيق التعاون بين البلاد العربية والعمل على ما فيه خيرها وبلوغ مآربها . وقد أسفرت عن تسجيل ما اتفقت وجهات النظر عليه ، واستيفاء ما يحتاج إلى استيفاء من الأمور ، والتمهيد لعقد المؤتمر العربي العام ، ونرى في الصورة رؤساء الوفود العربية يتوسطهم رفعة مصطفى النحاس باشا . وإلى يمينه دولة السيد الجابري فدولة جميل مردم بك والدكتور نجيب الأرمنازي والأستاذ صبري العسلي ودولة السيد الباجه جي ودولة نوري السعيد باشا ومعالي السيد أرشد العمري وسعادة السيد تحسين العسكري . وجلس إلى يسار رفعته نجيب الهلالي باشا وصبري أبو علم باشا والدكتور صلاح الدين بك ودولة توفيق أبو الهدى باشا والأستاذ سليمان سكر بك ودولة رياض الصلح بك وسليم تقلا بك والأستاذ موسى مبارك

الواجب الأكبر على شباب الغد هو أن يجعل ذلك الانطلاق نشاطاً متجهاً إلى مثل رفيع وغاية مرسومة ، ولا يتركه إباحة من إباحات الفوضى أو فرصة من فرص الشهوات واللذات

شباب الغد

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

برتراند رسل فيلسوف انجليزى من أكبر الباحثين فى المسائل الاجتماعية ، ومن أعلم المعاصرين بالرياضة ، ان لم يكن أعلمهم جميعا كما يراه معظم النقاد . له آراء فى السياسة والاخلاق كانت تحسب قبل عشرين سنة غاية فى التطرف ، وهى فى حسبان المتطرفين اليوم وسط فى الاعتدال ، وهو ينكر الحرب والاستعمار ، وينكر الالقاب الموروثة والحديثة . ولهذا نزل باختياره عن لقب اللوردية الذى استحقه بالوراثة من أسرته العريقة ، وحبس وحكم عليه بالغرامة فى الحرب الماضية ، لانه كان يبشر بالسلام ولا يقر سياسة القتال

وقد هجر بلاده وقضى أيام هذه الحرب فى البلاد الامريكية ، حيث عهد اليه فى تدريس الفلسفة بجامعة كليفورنيا، فثار عليه رجال الدين والمحافظون لآرائه الاجتماعية التى تغلو فى الحرية ، والتف به الطلبة والطالبات معجبين ومؤيدين ، واعتبروه رائدا من رواد المستقبل الذين تهوى اليهم أسماع الشباب ، وان كان الآن فى الثانية والسبعين

وجه الى شبان امريكا ، وهو يفارقهم كلمة وداع أجمل فيها رأيه عن واجب الشباب فى السنوات المقبلة ، وواجب المعلمين والاساتذة قبل ذلك ثم قال :

« . . . من الوجهة الفنية والصناعية تتغير الدنيا الحديثة أسرع من تغير أفكار الناس وعاداتهم . وقد كان ينتظر من كبار السن فى دنيا الامس المستقرة ـ بالقياس الى دنيانا المتوثبة ـ أن يكونوا أحكم وأعقل من الشبان ، ولم يكن ذلك خطأ فى جميع الأحوال . أما انتظار ذلك فى مجتمع اليوم فليس له مسوغ على ما يبدو . لان حكمة السياسة التقليدية ترجع كلها الى زمن لم يكن فيه للطيارة وجود ، وأمثال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر مضللة اذا هى طبقت على هذه الدنيا الحديثة ، وان التفطن لذلك لايسر على الشبان منه على الشيوخ ، وبخاصة أولئك الذين سيرجعون من الميادين ، وقد فرضت عليهم خبرة ومعرفة لا عهد بهما للساسة المتقدمين . وأرجو أن يتأدى

الشبان من ذلك الى خطة ناجحة فى وقاية الدنيا من التورط فى الحروب الكبرى ، وعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فى التعلم والشعور »

* * *

وفى كلام الفيلسوف على ما ترى موضعان للملاحظة ، ينبغى التنبه اليهما قبل التطرق الى جانب الصواب من ذلك الكلام

(أولا) ان الطيارة ليست هى المخترع الوحيد فى تاريخ بنى الانسان ، وان ما جرى من اختراع الطيارة فى العصر الحاضر ، قد جرت له نظائر كثيرة فى العصور الغابرة ، لا يقل أثرها عن آثار مخترعات اليوم ، فالطبعة والمدفع والبخار والكهرباء والتعقيم كلها مخترعات تغير بها الجيل الذى نشأت فيه ، وخرج بها الشبان الى عهد غير الذى سبقهم اليه الشيوخ ، ولم يمنع هذا أن تتصل الحكمة والدراية بين سابق العصور ولاحقها ، ولن يمنعه فيما يلى من الايام

« ثانيا » ان الفرق بين الشيوخ والشبان لا ينحصر فى نوع الصناعات والمصنوعات التى حضرها هؤلاء أو لم يحضرها هؤلاء ، ولكنه قبل كل شيء فرق فى المزاج وتناول الاشياء والنظر الى ظواهر الامور وبواطنها ، وكل من المزاجين متمم لصفات المزاج الآخر ، كما قضت بذلك حكمة الحياة ، وليست حكمة الحياة مقصورة على عمر من الاعمار أو على نظر من الانظار

ومن الحقائق التى أثبتتها الحرب الحاضرة قبل كل حقيقة جديرة بالاعتبار أن السياسات التى بنيت على مزاج الشباب وحده قد عصفت بالامم وأصابت الاوطان التى جرت عليها أضعاف ما أصابت أعداءها ، فاعتماد النازية على حماسة الناشئة وحدها قد جنى على ألمانيا الخراب وسيجنى عليها الهزيمة بعد السطوة والظهور ، واعتماد الفاشية على تلك الحماسة قد ضيع على ايطاليا ما كسبته وأوشك أن يضيعها هى أيضا قبل القاء السلاح

وتقرير هذه الحقيقة واجب جد الوجوب فى هذا المقام ، مخافة من التغرير بالمستقبل على النحو الذى شهدنا آثاره فى حركات النازية والفاشية وما اليهما . فلن يأتى زمن يقع العبء فيه كله على الشباب دون الشيوخ أو على الشيوخ دون الشبان ، ولا على طبقة دون طبقة أو جيل دون جيل ، وغاية ما هنالك أن بعض الازمنة أحوج الى نشاط الشباب وبعضها أحوج الى حنكة الشيوخ ، والسنوات المقبلة من أدوار التاريخ التى تزداد فيها الحاجة الى الشبان وتقل فيها الحاجة الى التجارب المهجورة من مخلفات العصور الماضية ، فهى مسألة المقدار الذى يشترك به كل مساهم فى بناء الدنيا الحديثة ، وليست مسألة الفصل بين العاملين والاستغناء عن هذا العمر أو ذاك

فالانسان لازم لحياة المجتمع فى أدوار العمر كافة ، وليست السنوات المقبلة بدعا فى هذه السنة التى اطردت من أول الزمان وتطرد لا محالة الى آخر الزمان

وسياسة الغد كله تتلخص فى جملة وجيزة ، وهى أنها سياسة محتاجة الى الكواهل الخفيفة ، لان الاعباء فيها ثقيلة عديدة

وهذا الشرط موفور للشبان الذين سينهضون غدا ببناء الدنيا الحديثة ، سواء فى ناحية الاخلاق أو ناحية الاجتماع أو ناحية التفكير

كواهل شبان الغد خفيفة لان الحوادث قد طرحت عنها أثقال الموروثات البالية ، والآراء الراكدة ، والمذاهب التى فنى لبابها النافع ، ولم يبق منها الا الضار المزعج من القشور

وقد كانت عوارض هذه الخفة الاولى انطلاقا مخيفا ، يحسبه بعض الناس دليلا على الاباحة والانحلال ، ولكنها عوارض لا بد منها بعد تحطيم القيود والحواجز ، واتساع المجال لمن يشاء ان ينطلق فيه على هواه . اذ أن تحطيم القيود والحواجز خطوة لا مناص منها بعد أن عجزت عن التقييد أو بعد أن أصبح تقييدها ضارا بالغ الضرر من بعض نواحيه

فهذه العوارض التى تحمل على الاباحة والانحلال ، هى فيما نرجو توديع للقيد المنحل ، وليست دليلا على انحلال المنطلقين منه

وهنا تبدأ المهمة الكبرى لشبان الغد العاملين :

فان تلك القيود التى تحطمت اليوم ، كانت فى نشأتها الاولى أمثلة عليا ترتفع اليها الابصار ، وتتعلق بها الهمم ، وتتحقق بها جلائل الاعمال

فواجب الشبان غدا أن يطرحوها قيودا بالية ويضعوا فى أماكنها أمثلة عليا جديدة ، لان الروح الانسانى لن يعيش طويلا بغير المثل الاعلى ، ولو كان مصيره بعد انتهاء دوره فى آخر الامر الى النبذ والتحطيم

وليست الامثلة العليا أوهاما الا بعد أن تبلى وتعجز عن تسيير الواقع وانجاز الاعمال

أما فى ابان نشأتها والايمان بها فهى أصدق من الاجسام الجوامد وأوضح من نور النهار ، لان تاريخ الانسان من ماضيه الى حاضره ان هو الا تاريخ أمثلته العليا ، وعقائده الروحية . ولم يخل عمل جليل قط فى التاريخ من وحى تلك العقائد وبواعث تلك الامثلة ، ولن يأتى يوم يقال فيه ان المثل الاعلى وهم باطل لانه ينقضى ويبلى بعد حين ، فان الرجاء عامل من عوامل الحياة الباقية ، وان كذبت آمال بعد آمال

فالواجب الاكبر على شباب الغد هو أن يجعل ذلك الانطلاق نشاطا متجها الى مثل رفيع وغاية مرسومة ، ولا يتركه اباحة من اباحات الفوضى أو فرصة من فرص الشهوات واللذات

واذا سئلت عن وجهة ذلك المثل الرفيع فالغالب على اعتقادى أنه وجهتان فى وجهة واحدة ، وهما « العالمية » و « التضامن بين الامم والطبقات والافراد »

فتحقيق المصلحة العالمية فى سياسة الامم ، والروح العالمية فى المعارف والفنون ،

والشعور العالمى فى تقدير الخير والشر والحق والباطل ، والحساب العالمى فى المعاملات وشؤون الاقتصاد كل أولئك منظور بعد حربين عالميتين فى مدى عمر واحد منذ ثلاثين سنة الى الآن

وينطوى فى هذه العالمية الشاملة مبدأ التضامن بين الامم والطبقات والافراد

فكل سياسة قامت على غلبة القوى وتسخير الضعيف فهى وبال يلحق بالاقوياء كما يلحق بالضعفاء

وكل مذهب اجتماعى يقوم على طبقة واحدة ، فهو مذهب مشلول يصيب النوع الانسانى فى جزء من بنيته التى تشمل جميع الاعضاء

وكل خلق يبطل به التعاون بين الافراد ، فهو عجز فى الشرائع وعجز فى الآداب وعجز فى تفكير الناس

وعلامة الفلاح أن يوفق الجيل الناشىء الى طريق العالمية وطريق التضامن بين الامم والطبقات والافراد

ومهمته أن ينطلق فى هذه الطريق بنخوة الشباب التى هى أفضل مزاياه ، ومهمة السن أن تحده فى انطلاقه بالحذر والحنكة وحسن المراجعة والتسديد

وعندنا أن قدرة السن على الحد من دوافع ذلك الانطلاق ، هى وحدها آية الصلاح وحجة الأناة ، فاذا اقتدر الشيوخ على أداء ذلك الواجب فهذه القدرة هى الدليل على أنه الواجب النافع المطلوب . أما اذا وهنوا دونه فهو دليل على انقضاء دورهم ، وان لم يكن دليلا قاطعا على اتجاه الامور بعد ذلك فى وجهة الصواب

جماع الخير لنوع الانسان أن تنجلى الدنيا الحديثة عن عالم يتضامن فيه كل عمر من الأعمار ، كما تتضامن فيه كل أمة من الامم وكل طبقة من الطبقات ، فيشترك فيه جميع بنيه ، وان تفاوت الجهد وتفاوتت حصة المجاهدين

عباس محمود العقاد

— ليس من يحب الحياة أكثر من الرجل الطاعن فى السن

— لا تفعل شيئا خفية ، لان الزمن يرى ويسمع ولا يكتم السر

— قوة الفكر أكثر فعلا وتأثيرا من قوة البدن

سوفكليس

هذا فصل من الكتاب الذى ألفه وأعده للطبع حضرة صاحب المعالى محمد حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ووزير العدل . وهو يتناول تاريخ الانسانية منذ أقدم العصور ، وقد جعله على شكل حديث بينه ، وبين أقدم أثر مصرى

أبو الهول : قال لى

بقلم محمد حافظ رمضان باشا

وزير العدل

جاءتنى دعوة من (دار الفنانين) لحضور حفلتهم الساهرة فى أول ابريل سنة ١٩٣٩ بسفح ابى الهول ، فخشيت أن تكون دعوتهم من دعابات ابريل ، ولكنى وطدت العزم على اجابة الدعوة لحضور الحفلة . وقلت فى نفسى اذا كانت الدعوة أكذوبة ولم أجد حفلة فانى واجد أبا الهول لا محالة . وكيف لا أجده وهو رابض فى مكانه منذ عهد عهيد ولم يعرف التاريخ له بداية ، تؤمه منذ أجيال بعيدة شعوب من أمم مختلفة ، يزوره أفراد منها فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، فيجدونه فى مكانه لا يخلف لهم وعدا ، يلتقبل الجميع من ألمان واسبان وانجليز وفرنسيس وأمريكان بابتسامته العذبة الساحرة ، وكأن لسان حاله يقول : «

« لأى داع جعلتم فى مصوراتكم الجغرافية بداية خطوط الطول جزيرة الحديد بألمانيا ومدينة مدريد بأسبانيا ، أو ضاحية جرينويتش بانكلترا ، أو مدينة باريس بفرنسا ، ولم تتخذوا مكانى لكم جميعا بداية لخطوط الطول وأنا المقيم قبل ان تقام المدائن والعواصم والرابض مكانى وقد عفت آثار طرواده وقرطاجنة »

وما وافت ساعة الاجتماع ، حتى كنت فى مكانى وسط الحاضرين ، أشهد معهم حفلة دار الفنانين . وفى نهاية الحفلة ، أطلقت السهوم النارية ، وحجب عنى دخانها الكثيف جمهور الحاضرين فى الحفلة . فسبحت فى تأملاتى ، وأخذتنى سنة من النوم رأيت فيها أبا الهول يقبل على ماشيا حتى صار أمامى ، فوقف تبدو منه ابتسامة حلوة عريضة ، كأنه يرحب بمقدمى ويأنس بوجودى . وقد أحسست فى نفسى بشجاعة لم أعهدها فى مقابلتى الاولى له وخاطبته قائلا : لقد حدثتنى عن تاريخ الانسانية فى مصر وبابل وفينيقيا مما أذكره ولا أنساه ، وانى لارجو منك الآن أن تحدثنى حديثا جديدا عن شعوب أخرى لعبت دورا مهما فى حضارة الانسان

فبدا عليه من الدهش ما لا عهد لى به ، وأشار الى شبح وراءه وقال لى : ألا تعرف من هذا الذى تراه خلفى ؟ فنظرت اليه مليا وقلت له : لعل تخيلته وما عرفته . فقال لى :

انه أبو التاريخ (هيرودوت) سله عما تريد فعنده الخبر اليقين

فتقدمت اليه بالتماسي من أبي الهول ، ولمحت ما بدا عليه من ارتياح وسرور ، وقد انبسطت أسارير وجهه وشرع يقول : ان حضارة الانسان سلسلة متصلة الحلقات من بدء الخليقة الى اليوم ، وهي تنتقل في موجات من قطر الى قطر ، وتزداد في كل مرة قوة وسرعة ، وتصطبغ بصبغة تؤهلها شيئا فشيئا لان تصبح حضارة عالمية كما ترون في وقتكم هذا

فقلت له : وأين ذهبت المدنيات الاولى ؟ وكيف عفت آثارها ؟ وما الذي طغى عليها ؟

وقد أجابني بقوله : عند ما آذنت شمس مدنيات مصر وبابل وفينيقيا بالافول أخذت شعوب هذه الممالك في أسباب التدهور والاضمحلال ، وظهر على مسرح تلك المدنيات القديمة جنس آخر من البشر هو العنصر الهندى الاوربى (وقد اطلق عليه هذا الاسم لانه أغار على أوربا والهند معا) وهو ابيض البشرة كالعنصر السامى ، ولكنه يتكلم بلغة أخرى هي أم اللغات الاوربية اذا استثنينا اللغة المجرية والفنلندية والصقلية

ويسمى هذا العنصر أيضا بالعنصر الآرى ، وكان يقطن بالقرب من بحر قزوين ثم انتشر شرقا وغربا ، واستقر بعضه في أعالى هضبات ايران ، ونزح بعضه الى سهول أوربا ووديانها ، ثم انحدر بعض المستقرين في هضبات ايران نحو شواطيء نهر السند (الهند الانكليزية) . وأسس من بقى منهم على تلك الهضبات مملكتي (ميديا وفارس) اللتين بقيتا الى عهد كسرى الذى سيطر على مملكة ميديا ، واتسع ملكه في عهد خلفائه حتى شمل كل آسيا الغربية ومصر التى فتحت في عهد قمبيز في سنة ٥٢٥ ق. م. ولم تقف غزوات الفرس عند هذا الحد ، بل اتجهت غربا نحو أوربا وهناك اصطدمت شعبة العنصر الآرى الاسيوية بشعبته الآرية الاوربية في الركن الجنوبى الشرقى من أوربا ، فوقعت بينهما (الفرس والاغريق) حروب عرفت في التاريخ بالحروب الميدية ، وقد انتهت بانتصار الاغريق الذين تناولوا شعلة المدنية من الشعوب الشرقية التى سبقتهم الى المدنية وورثوها بعد الى الامبراطورية الرومانية

فقلت له : وكيف تطورت المعتقدات الدينية عند الفرس ؟

فأجاب قائلا : كان الفرس قبل زرادشت مضطربى العقيدة ، لا يعبدون الها واحدا ، فكانوا يعبدون مظاهر الطبيعة ، ويرمزون لها بالنار المقدسة التى يشعلونها في معابدهم ، وظلوا على هذه الحال حتى ظهر رئيسهم ونبيهم زرادشت في القرن الثامن قبل الميلاد ، فأحدث لهم دينا جديدا جاء فيه انه لا يوجد في العالم الا آلهان : آله الخير وهو (اهورامزدا) ويرضيه العمل الصالح ، وآله الشر وهو (اهرمن) وقد تنازعا وكتب النصر النهائى لآله الخير (اهورامزدا) ، فكان جديرا بأن يعبد وحده وبذا تطورت معتقداتهم الدينية وارتقت

فقلت له : أليس لهؤلاء كتاب مقدس ؟

فأجاب بأن لهم كتابا مقدسا يعرف (بالافستا) ، وقد وضع فيما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، ولم يخل من القصص الخرافية المعروفة عند الاقدمين

فقلت لهيرودوت : قلت لى ان شعبتى العنصر الآرى اشتبكتا فى حروب انتهت بانتصار الاغريق وتناولهم شعلة المدنية ، التى كانت تحملها الشعوب الشرقية التى سبقتهم الى المدنية ، فهل الاغريق هم الذين تناولوا شعلة المدنية من الشرقيين مباشرة ؟

فأجابنى قائلا : لا أستطيع أن أقول ذلك ، لان الاغريق من الشعبة الآرية الاوربية التى لم تستقر فى شبه جزيرة اليونان الا بعد أن تغلبت على شعب آخر من الايجيين ، وهم من التجار والبحارة الذين استوطنوا جزر بحر ايجه وكريت ، وكانوا واسطة التعارف بين شعوب المدنيات الشرقية القديمة والشعوب الاوربية ، التى أخذت ترقى وهى على شواطىء البحر الابيض عن طريق تناولها لتلك المدنيات رويدا رويدا . فالايجيون هم الذين اتصلوا بالشرق أولا منذ أسسوا لهم امبراطورية بحرية عاصمتها (نوس) على الشاطىء الغربى من جزيرة كريت ، وهم الذين تناولوا شعلة المدنية من الشعوب الشرقية ، وظلوا يحملونها حتى غزتهم قبائل آرية همجية نزحت من شمال أوربا الى شبه جزيرة اليونان وجزر بحر ايجه ، واتصلت بهم (بالايجيين) وأخذت عنهم صناعة الاسلحة وبناء المراكب . ولما قوى شأنهم واشتد بأسهم ، حاربوا الايجيين وغزوا جزرهم ومدائنهم وطاردوهم وحلوا محلهم ، ولم تمض عشرة قرون حتى كانوا هم سادة اليونان وجزر بحر ايجه وسواحل آسيا الصغرى ، ثم هدموا آخر معقل للمدنية القديمة باستيلائهم على مدينة ترواده فى القرن العاشر قبل الميلاد وتناولهم شعلة المدنية ، التى كانت بيد الايجيين والتى أناروا بها طريق المدنية الاوربية . وهؤلاء هم آبائى الاغريق

فقلت له : وبماذا كانت تسمى هذه القبائل الآرية الهمجية ؟ ومن أى عنصر هى ؟ وهل يوجد دليل قاطع يثبت أنهم هم الذين غزوا الايجيين وحلوا محلهم ؟

فأجابنى بقوله : هـذه القبائل الآرية كانت تسمى قديمـا بقبائل الهيلين Hellenes وهى فرع من شجرة العنصر الآرى ، الذى كان يقطن فى الاصل بالقرب من بحر قزوين ولا شك فى أن هذه القبائل هى التى غزت الايجيين ، وطاردتهم ، فالالياذة والاوديسا المنسوبتان الى الشاعر (هومير) ، تحدثانا بأسلوبهما الخلاب عن فتح مدينة ترواده . واذا كانت أقاصيص الاغريق وأناشيدهم لم تتحدث عن احراق مدينة نوس عاصمة كريت ، فانها قد تحدثت عن الملك مينوس وقصره الفخم بجزيرة كريت ، وهو المعروف باللابيرنت ــ لما حواه من المداخل الكاذبة والمخارج الخادعة ــ مما لا يدع مجالا للشك فى أن قبائل الهيلين (القبائل اليونانية) هى التى حلت محل الايجيين ، وانتزعت من أيديهم شعلة المدنية التى سبق لهم تناولها من شعوب طيبة وبابل . ولقد كانت قبائل الهيلين همجية قبل أن تتصل بالايجيين ، وما كادت تتصل بهم حتى خلعت رداء الهمجية

وارتدت رداء المدنية ، وما كادت تحل محلهم فى حكم البلاد حتى أسست مدنية أخرى يتظلم تخالف المدنيات الاولى فى الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد . ولعل أعظم الاسباب فى هذا التباين أن شعوب النيل والفرات كانت خاضعة لملوك فى مصاف الآلهة، وكهنة كانوا وحدهم منبع العلم والحكمة ، اذ كان الفراعنة آلهة وأبناء آلهة ، وكان ملوك بابل وما بين النهرين رسل آلهة جبارة ، وكان الملوك والكهنة يسكنون قصورا مشيدة لا يعلم عامة الشعب عنها شيئا ، ولا يعرف الا الخضوع لاوامر ساكنيها . أما الهيليون فكانوا قبائل متعددة ، كالايوليين والايجيين والايونيين والدوريين ، وقد استوطنوا رغم تعددهم هذا بلادا جبلية وجزرا مبعثرة ، ولذا لم يكونوا شعبا واحدا يحكمه ملك يسكن قصرا بعيدا ولا يراه شعبه الا نادرا ، بل كانوا شعوبا كثيرة أسسوا ممالك صغيرة كانت فى الاصل قرى تدرجت الى مدائن، وكان سكان كل مملكة يجتمعون فى صورة (مجلس أسرة) ليديروا شؤونهم فيختارون قائد الجند اذا ما حاربوا، ويقضون خصوماتهم اذا شجر بينهم خلاف ، وهم جميعا متساوون فى الحقوق متعارفون

ولا ريب فى أن طبيعة مثل هذه الحياة تقضى بأن يكون عدد سكان هذه المدائن محدودا ولهذا قال أرسطو : « ان خير وطن هو ذلك الذى يصل فيه صوت الخطيب الى سمع آخر مواطن » . كما تقضى مثل هذه البيئات المحدودة العدد بأن يكون عمل كل فرد عرضة لنقد جميع أفراد عشيرته ، ولهذا نمت فى نفوس الافراد عادة الاتقان والاعتدال فى تلك الممالك الصغيرة . وعلى الرغم من أن هذه الممالك كانت منفصلة بعضها عن بعض مستقلة بذاتها مثل اسبارطه وكورنث وطيبة وساموس وميليت ، فقد كانت تربطها روابط أدبية ومادية وثيقة ، فالاناشيد والاقاصيص التى يتغنى بها ، وتتحدث عن مجد الآباء والاجداد ، كانت تتلى فى هذه المدن وترتل بين سكانها قبل أن يتعلم الهيليون الكتابة من الايجيين ويدونونها ، كانت الالعاب الاولمبية تجمع معظم سكان هذه الممالك فى صعيد واحد Olympus كل أربع سنوات ، وتفرض على المتحاربين منهم هدنة أثناء هذه الاجتماعات ، وقضت عليهم المعاملات التجارية بعقد المحالفات والمعاهدات بينهم

محمد حافظ رمضان

— يهب الله كل طائر رزقه ، ولكنه لا يلقيه له فى العش

ج . هولاند

معركة السلام

بقلم الأستاذ سامي الجريديني

ولعلها ستكون أبعد أثرا وأكثر أيادا من الحرب التي قاربت أن تضع أوزارها ذلك أن هدفها تنظيم العالم ما استطاع الاقطاب المتبرعون للامر الى ذلك سبيلا

ولن ندرك مغزى هذه المعركة — معركة السلام — الا اذا علمنا ان هذه الحرب القائمة الآن هي ثورة اجتماعية . وناهيك بالثورات من آلة تخريب وهدم ، الا اذا استطاع الزعماء أن يجعلوها تطورا وئيدا لا طفرة مستعجلة

هي ثورة ، ولكن على أي شيء؟

وهي ثورة ، بدأت في أعقاب الحرب العالمية الاولى ولم تزل . وليست مقصورة على روسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو انجلترا ، ولكنها عمت أوربا أو معظمها وستتناول أميركا بنصيب كبير . والارجح أنها لن تكون ثورة سلاح ، انما تمرد على القديم البالي وهدمه ، واحلال شيء غير مدرك وغير معروف تماما الآن محله

ولكي ندرك حقيقة هذه الثورة التي قامت وستظل قائمة حتى يتداركها الزعماء والشعوب بأنظمة فيها قوة الاستمرار ، يصح لنا أن نبحث وجهة نظر كل دولة من الدول العظمى التي تشترك في هذه الحرب

١ — ألمانيا

ليست النازية أو هتلر بالمسئولين عن اضرام هذه الحرب ، وانما تقع المسئولية على الشعب الجرماني نفسه ، على تعاليمه التي بثها فيه رجالهم الذين تولوا أمور ألمانيا منذ أكثر من مائة سنة ، سواء منهم العسكريين أم رجال الصناعة والمال أم رجال التعليم والفلاسفة

وهذه التعاليم نتيجة لتاريخ ألمانيا ، فهي لم تصل الى ما وصلت اليه الآن من ضم الجرمانية كلها تحت حكم واحد الا باتباع مبدأ الغزو والاعتداء على الجيران المسالمين

ثم ان زيادة عدد السكان في ألمانيا ، والتفوق الصناعي الذي تم لها بجهد أبنائها أوجدا نفسية جعلتهم يؤمنون بما قاله فلاسفتهم ورجال عسكريتهم بأن عنصرهم ممتاز وأن القوة هي خير الوسائل للحصول على ما يريدونه من التسلط على العالم

أضف الى ما تقدم رأي كتابهم — وعلى رأسهم سبنجلر — القائل بأن الغرب آخذ في الانحطاط ، وأن لا منجاة له الا بالتسلط الجرماني

هذه الحالة النفسية تؤيدها كبرياء لم تقبل معاهدة فرساي هيأت السبيل الى قيام هتلر

ونازيته . فلو لم يكن هذا الجاويش النمساوى لكان غيره بلا شك

فالحرب التى قام بها الالمانيون ثورة على النظام الاوربى . ثورة مسلحة لاكتساح أوربا واحلال العقلية الالمانية فى المبادىء وفى الماديات محل ما هى عليه أوربا . ثورة لقلب النظم الاقتصادية مهما كان لونها وجعل الاقتصاد الالمانى الصناعى سيدا تقوم أوربا على تغذيته بالزراعة وبالرجال . وثورة لقلب النظم الادبية وتثبيت الهمجية البروسية فى كرسى الاديان كلها

فأنت ترى اذن ان انكسار المانيا العسكرى المحتم لا يدنى السلام، الا اذا تمكن الغالبون من تربية النشء الالمانى تربية جديدة يقوم بها ألمانيون يؤمنون بالديموقراطية ، فهل يتم الامر ؟

هذا ما ستظهره لنا أيام السلام القادمة ، وهناك تتوقع المعارك التى تفصل فى سير الحضارة

٢ ــ روسيا

ان الثورة فى المانيا أداتها الحرب وغرضها التسلط ، وأما فى روسيا فعلى النقيض

عند ما قامت الامة الروسية على النظام القيصرى، قامت على أداة حكم سداه الاستبداد ولحمته الظلم والفقر

والاشتراكية الروسية التى غلت الحكومات السوفيانية تطبق فى أوضاعها وتهذب من طرقها ، قائمة على مبادىء اقتصادية سليمة ، ترمى الى اسعاد الشعب والى تعليمه بضمان القوت المادى والقوت العقلى . فالروس فى نظامهم يماشون سير العالم الى التقدم بترقية الجمهور ، ويصح ان يقال اجمالا ان نظامهم الاقتصادى يرمى الى الغاء الملكية الفردية فى المرافق العظمى التى تمس كيان الشعب واحلال الدولة محل الافراد فى التصرف بالاقدار الاقتصادية

ولا ينكرون المجهود الفردى بل يؤيدونه، وانما لا يطلقون العنان للرأسمالية الفردية، لتجعل من شركات أو أفراد أسيادا ومن عمال عقليين وبدويين عبيدا

ولقد كان فريق ــ وعلى رأسهم تروتسكى ــ يرمى الى ضمان المبادىء الاشتراكية السوفيتية ، وتأمين بقائها باحداث ثورة عالمية ، تبدأ فى كل دولة من دول الارض على حدة . على انهم لما رأوا فساد هذه النظرية واستحالة احداثها وجدوا أن خير الامور أن يبدأ الانسان باصلاح بيته وتنظيمه ويدع الجار وشأنه

وهذا ما فعله ستالين بزعامته التى جاءت بأطيب ما يشتهيه الزعماء

ولقد قرأنا كثيرا عن روسيا الجديدة لكتاب أمريكيين وبريطانيين فلم نر الا انصافا للروس وتقديرا لمبادئهم الاقتصادية والسياسية

فقد اضطهد الروس أى اضطهاد منذ ١٩١٧ حتى ١٩٤١ وظنت بهم الظنون ــ وكان

القائم على تسوىء سمعتهم وتشويه حقيقتهم قوما رجعيين استأثروا بالحكم فى بلدانهم ، وهذا طبيعى . فان الجالس على مقاعد وثيرة ، المتنعم بالمادة على اختلاف وجوهها لا يحلو له أن يغير فى نظام معيشته ، بل ينفر ويقارع أى خطر قد يهدد نعيمه ، هذه الحال النفسية سادت فى فرنسا حتى نكبتها ، وكادت تودى بانجلترا لولا أن جاء تشرشل تؤيده الاحزاب الاشتراكية

ويقولون ان الاميركيين على العموم مشربون بروح مناهضة النظام الروسى

وقد ظهر من مؤلفات من أشرنا اليهم من الكتاب ، أن السياسة الروسية كانت على حق ، عند ما كانت تدعو الى مقاومة الفاشية ، وكانت على حق عند ما لبت نداء الجمهورية الاسبانية على فرانكو

وكانت على حق عند ما دعت جمعية الامم الى الاخذ بمبدأ الضمان الاجتماعى

ولكن الدعاوة المضادة للاشتراكية كانت قد ملأت الادمغة فتحينها هتلر فرصة سانحة وأقام نفسه زعيما يمنع البلشفية عن اجتياح أوربا . حال أن لا بلشفية ولا خطر منها هناك

فمعركة السلام التى ستعقب هذه الحرب ستكون معركة على المبادىء الاشتراكية ، فهل يدين المتصرون بدين واحد أم يختلفون ؟

هذا ما ستظهره لنا الايام

٣ ـ أنجلترا

لعل الامبراطورية البريطانية المثال لدولة أو لشعب ، يؤثر التطور على الثورة . وهو ما يعبرون عنه فى لسانهم بقولهم evolution لا revolution

وتاريخهم شاهد على هذا

حتى أثناء هذه الحرب أخذوا بالتوفيق بين ما كانوا عليه وبين ما يريده الاشتراكيون منهم أن يكونوه

فتراهم يحاولون أن يجمعوا بين تدخل الدولة فى الشؤون الاقتصادية وبين اطلاق الحرية فيها للفرد

وان من قرأ ما وضعوه من تشريع للضمان الاجتماعى وتأمين العاطل والمريض والشيخ والارامل والطفل ير المحاولة واضحة ، محاولة الجمع بين ما يستطاع عمله بلا تقلقل وبين ما يرمى اليه المثاليون

على أن ظاهر الامور يدل على رجحان كفة الاشتراكية فى انجلترا ، فهى لا تقنع بما تقدم من الضمان الاجتماعى بل تطمع فى وضع مبدأ الملكية الفردية موضع الامتحان

فمعركة السلام اذن ستكون فى انجلترا نفسها ، بين اليمين وبين الشمال ، ثم تكون بين الامبراطورية البريطانية وبين حلفائها على أى نظام يتبع وأى مبدأ يؤيد

٤ ـ اميركا

وأما الولايات المتحدة الاميركية فكانت حتى الساعة الوحيدة التى لاتؤمن الا بالمجهود الفردى الذى لا حد لحريته ، ومنع الدولة من التدخل فى شؤون الافراد

على أن الرئيس روزفلت الذى يمثل حزبا يرمى الى الحد من سلطة الشركات والكتلات الاقتصادية المتسلطة ، سيكون عونا للمبادىء التى ترمى الى الترفيه عن العامة بتحميل الخاصة معظم العبء فى الضرائب

والولايات المتحدة التى ظهرت مقدرتها الصناعية وانتاجها المدهش ، والتى بدأت تضيق بمصانعها الاسواق الاميركية ماذا تصنع فى مؤتمر السلام

انها ستنادى بمبدأ الباب المفتوح ، وازالة الحواجز الجمركية ، واطلاق الحرية والاستقلال لجميع الشعوب كبيرها وصغيرها ، وستنادى بمبدأ رفع مستوى المعيشة لجميع الناس ، وهى مبادىء يطرب لها من يسمعها ويود تطبيقها ، ولكن كبيرا من كتابهم « فرانك سيموند » يقول : « أليس هناك شىء من الرياء فى ندائنا بمبدأ الباب المفتوح . ان حرية التجارة واطلاقها للجميع بلا قيد ولا شرط كلام حلو لذيذ ، وانما يصح لنا أن نتساءل نحن الاميركيين أليس معنى هذا تفضيلا لنا وايثارا على الغير

« فالحرية التجارية والباب المفتوح من ينتفع بهما ؟

« الامة التى هيأت لها الظروف أن تكون غنية بموادها الاولية وقوية بصناعتها

« ومن من الدول أغنى من اميركا واقوى !

« ان القول بهذا مثل القول بسباق عدو يشترك فيه الشاب والعجوز والسليم والاعرج

« فلننظر فى أن نكون منصفين »

هذا ما قاله كاتب منهم

واننا عند ما قصرنا بحثنا على الامور الاقتصادية ولم نشر الى الامور السياسية الجغرافية والحربية ، قصدنا ذلك لايماننا بأن المسائل الاقتصادية هى أساس لكل ما فى العالم من اختلاف ونزاع وحروب يأخذ بعضها برقاب بعض . فأنت ترى أن معركة السلام ستكون حامية ، وعندنا أن الحلفاء الذين يمثلون القوة التى ستتولى وضع قواعد الصلح والممثلة بعواصم ثلاث ـ لندن وواشنطن وموسكو ـ سيسير كل منهم فى أموره الاقتصادية حسبما يوحى اليه به شعبه ، اما توجها الى اليمين وهذا بعيد واما استقبالا لعهد أهل الشمال ، وهذا قريب باختيار الحل الوسط

واما التعديل الجغرافى فسيكون أوسع الميادين مجالا للاختلاف ـ الا اذا أقلع الناس عن التفكير الضيق ، وأخذوا بالدين الجديد الذى يرفع الانسانية عن هوة الحدود الى مستوى رفيع يهيئها الى وحدة عالمية

وليس هذا مما تراه البشرية فى القريب

سامى الجريدينى

لماذا نتعب؟

فى وسع المرء أن يذكر الكثير من الاسباب التى يحس من أجلها بالكلل والتعب ، فاذا كان عمله يسير على وتيرة واحدة ويجرى على نمط واحد ، أو اذا شعر بأن رؤساءه يرغمونه على العمل ويجبرونه على أدائه ، أو أن مكان عمله تعوزه الشرائط الصحية ووسائل الراحة ، أو أنه عجز عن التمشى مع غيره فى مكتبه ومحل عمله ، فان النتيجة الحتمية لذلك تكون الملل والتبرم ، فلا يستمتع بسلام أو براحة ، كما يساوره القلق على المستقبل ، وتتناهبه الافكار والآمال فى الحصول على وظيفة أخرى أو عمل آخر يشبع نوازع نفسه

ويمكن تركيز هذه البواعث ، التى تتجمع فى العقل الواعى ، فى سبب جوهرى واحد هو القلق . وثمة أسباب كثيرة أخرى تكمن فى العقل الباطن ، تجعل الانسان مكدودا متعبا ، فقد تكون رغبته الكامنة فى قرارة نفسه ألا يعمل بتاتا ، ولذلك فانه يريد أن يتعب حتى يجد عذرا للخيبة والاخفاق والانقطاع عن العمل . انه يلتمس ممن يحيطون به ، أن يرثوا لحاله وأن يشاطروه أتعابه وآلامه

وقد يكون التعب وسيلة للهروب من مأزق مكروه لا نحبه ، فبينما يواجه الرجل القوى الشدائد والمكاره فى جرأة ، ويصارعها فى ثقة وبسالة ، يسعى الضعيف عادة الى الابتعاد عنها والفرار منها وكثيرا ما يعمل على نسيانها فى غمرة الخمر والميسر أو المخدرات والمحرمات . ومن الناس من لا يقبل على نفسه برغم ضعفه ، أن يوصف بالضعف اذا ما عصفت به الحياة واشتدت به الازمات ، فيدفن متاعبه ومشاكله وآلامه حية فى عقله الباطن فتسبب له شرود الذهن وتصدع الاعصاب ، وقد يقول فى نفسه : ليس فى وسعى أن أكسب من الرزق ما يقيم أودى وما يكفل رعاية عائلتى . انهم يتوقعون دواما أكثر مما يمكننى اعطاءهم ، ولو أننى بذلت قصارى جهدى ، ولم أتمكن على الرغم من ذلك من الحصول على المال الذى نحتاج اليه ، وضح للكل عجزى وضعفى ، واننى لست كفؤا للنجاح أو أهلا له . فيفضى ذلك الى احتقار الناس لشخصى ، وانتقاصهم لكرامتى . وان أنجع وسيلة أتفادى بها هذا الوضع ، هى أن أتظاهر بالتعب ، حتى يرى الجميع أن عجزى عن مواصلة العمل والاستمرار فيه بجد ونشاط راجع الى التعب ، ولا يضيرنى أن أسلم بهذا ، فكل امرىء عرضة للتعب والاعياء ، ولكن الاعتراف بالعجز أمر يضير الرجل ويعيبه

ويعقب هذا التفكير نشاط الوجدان والعقل الباطن فى انتاج التعب المرغوب فيه . وكى يتخذ هذا التظاهر صورة الاقناع للغير ، فانه يقترح على نفسه الامتناع عن هواية

يحبها ويلذ بممارستها . فيكف عن لعب رياضة كان يهواها ، حتى يفهم الناس توا ، أن انقطاعه عن ممارسة هذه الرياضة ، دليل ناطق على تعبه الجم . هكذا يصور له الخيال ، وهكذا يعتقد ان تفكير الناس حوله يجرى على هذا المنوال . وفى البدء يشعر بتعب يسير ، فتبطؤ قدماه فى السير ، وتتمايل كتفاه ، وتثقل رأسه ، فيتجه كل تفكيره الى الجزء الخائر القوى . وسرعان ما يبدأ فى الاغراق فى التفكير فى هذا التعب ، حتى يتجسم ويصبح حقيقة راهنة ، بعد أن كان وهما وخيالا . فيتوقع دواما فى نهاية عمله اليومى ، رأسا ثقيلة وعينين غائرتين ، فيكون له ما يتوقعه ، ثم تتفاقم هذه الاعراض ، ويكثر ظهورها وتطول المدة التى تلزم للشخص للاستجمام والتماس الراحة واستئناف النشاط . وبعد قليل تنتشر هذه الاعراض فى أجزاء أخرى من جسمه ، ثم لا يلبث أن يلبى بدنه كله ، نداء رغبته ويحققها ، فيشعر ان عاجلا أو آجلا باعياء يصبح من العسير ازالته والتغلب عليه ، بعد أن يكون قد غزا الجسم كله وأنهكه . ونحسب عادة أن لدينا من الاسباب ما له من الوجاهة ، ما يبرر كل ما نأتيه من أعمال وتصرفات ، ولكننا حينما نحلل هذه الاسباب فى بوتقة العقل المجردة ، يتبين لنا أحيانا انها مجرد أعذار واهية واختلاقات ، فقد يكون الباعث لاتيانها ميلا أو شهوة لا أساس لهما

وقد تمكن الدكتور « هوارد ليدل » أستاذ علم النفس بجامعة كورنل أن يجرى تجربة فى عام ١٩٣٧ فى معمل الجامعة على خنزير اطلق عليه اسم «أشيلس» ، أفضت الى تصدع أعصابه . ولعلها المرة الاولى حتى ذلك الحين التى تتصدع فيها أعصاب خنزير ، وقد كان الباعث على اجراء هذه التجربة ، معرفة أفضل الطرق لمعالجة التصدع النفسانى فى الانسان . ترى كيف تم ذلك ! هل كان عن طريق اجهاده فى عمل ، أو حرمانه من طعام ، أو اثارة القلق فى نفسه . لقد استغرقت التجربة عاما كاملا ، واجه فيها «اشيلس» المشكلة تلو الاخرى . لقد كان الدكتور يقرب من الخنزير فى فترات متقاربة منتظمة ، تفاحة ليأكلها ، فاذا هم بالتهامها ، أبعدها عنه رويدا رويدا حتى يصبح من العسير عليه بلوغها . فتحطمت أعصاب « أشيلس » فى نهاية العام ، رغم العناية الفائقة بغذائه ورغم ما كان يتمتع به من راحة ودلال . ولو فطن الخنزير الى حقيقة الامر ، لاغفل هذه التفاحة من البداية وتجاهلها ، وكذلك لو علم المرء بحقيقة العوامل التى تسبب له ما يحل به من تعب وتبين له تفاهتها ، لتمكن من مقاومتها والتغلب عليها

والاحساس بالتعب ، وحقيقة التعب ليسا شيئا واحدا ، كما أن الشعور بالتعب ليس مقياسا صحيحا للتعب . فالتعب الحقيقى هو نفاذ الطاقة للعمل . وقد ينقضى يوم كامل فى عمل عقلى ، فيحس الانسان بالتعب ولكنه مع ذلك لا يكون متعبا ، طالما كان فى طاقته أن يبذل من المجهود العقلى بعد انقضاء اليوم ، مثل ما بذل خلاله . وقد أجمعت التقارير عن شتى التجارب والابحاث ، التى قام بها الكثيرون من الاطباء وعلماء النفس أن الجهد العقلى لا يسبب تعبا ، ويقول الدكتور « أوستن ريجز » : ان العمل الكثير ، مهما كان

قدره ، سواء كان عقليا أو جسميا، لم يسبب ولن يسبب حالة واحدة من تصدع الاعصاب وتحطمها . ويقول الدكتور « ايرا ويل » : فى وسعى أن أقطع ، انه ليس ثمة تصدع عصبى ناجم عن الافراط فى العمل ، وفى وسعنا أن نقتبس الكثير من مؤلفات علم النفس تحمل مثل هذا المعنى

ولو أنه أمكننا أن نحسب كمية الدماء التى تستنفد فى مخ « أنشتين » لحل معضلات النظرية النسبية ، وتلك التى تستهلك فى مخ أبله فى التفكير فى طريقة اخفاء ريشه عن أنظار الناس ، لما وجدنا فارقا كبيرا . ويقول ثورنديك فى هذا الصدد : ان التعب الذى نشكو منه ليس ناجما عن عدم القدرة على العمل ، وانما عن افتقار الرغبة فى العمل ، أى أنه ليس ناشئا عن الاجهاد الذهنى ، وانما مصدره عدة عوامل أخرى ، ككراهية العمل والرغبة فى استبداله أو فى العمل فى مكان آخر ، أو الملل والسأم من سير الامور سيرا آليا منتظما

وقد قام أحد الاخصائيين ببحث فى أحد مصانع النسيج به ثلاثة أقسام ، قسم لنسج القطن ، وآخر للحرير ، وثالث للصوف . ومن طبيعة الخيوط الحريرية انها لا تتمزق الا نادرا ، لذلك يقضى عمال الحرير يومهم فى هدوء ، يراقبون الآلات وهى تخرج اللفائف الحريرية اللامعة الواحدة بعد الاخرى ، وتتمزق الخيوط القطنية بدرجة متوسطة ، بينما تتمزق الخيوط الصوفية أثناء العمل كثيرا ، ولذلك فان عمال الصوف ، يظلون طول اليوم فى حذر وتحفز شديدين . أما عمال القطن فانهم أكثر تيقظا وخفة من عمال الحرير ، وانما بدرجة تقل كثيرا عن عمال الصوف . ترى من يخور قواه ويحس بالاعياء أكثر من غيره ! ان ما يتبادر للذهن لاول وهلة ، هو أن عمال الصوف يأتون فى المرتبة الاولى ثم عمال القطن ويلى هؤلاء عمال الحرير . ولكن الاختبار دل على أن عمال الحرير يشاركون عمال الصوف فى المرتبة الاولى ، رغم قلة المجهود الذى يبذلونه، وذلك راجع الى الملل الذى يسيطر على نفوس عمال الحرير من طبيعة عملهم الجامدة ، التى تسير على طريقة واحدة لا تتغير . بينما يتطلب العمل فى الانسجة القطنية قدرا متوسطا من الانتباه ، يبدد السأم ولكنه لا يفضى الى الاعياء

ان ما نسميه « تعبا » ليس شيئا واحدا ولكنه مجموعة أشياء ، قد تبدو فى شخص كأنها هبوط جسمانى عام ، وفى آخر كأنها عجز عن التفكير تفكيرا منطقيا واضحا ، وتسبب لآخرين صداعا أو آلاما فى العظام ، أو تفضى الى ضيق فى الخلق ، أو توتر فى الاعصاب وحدة فى الطبع ، أو الى الاغراق فى السبات والنوم ، أو الى السهاد والارق ، أو الى العبوس والوجوم ، أو الى التخاذل والتواكل . ويخيل الينا أحيانا أن الحالة النفسية للمرء لا يمكن أن تكون سببا لظهور مثل هذه الاعراض ، ولكن البحوث التى قام بها العلماء فى هذا الصدد ، أثبتت أن الحالات النفسية ، قد أعمت وأقعدت بل وأشلت كثيرين

وليس من شك ، فى أن هناك تعبا جسمانيا بحتا ، سببه اجهاد جسمى محض ، ولكن